
لوامع
الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية
شرح
الدرة المضية في عقيدة الفرقة المرضية
تأليف
العلامة الشيخ محمد السفاريني الحنبلي
١ - ٢
المكتب الإسلامي
دار الخاني

لوامع

الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية

شرح

الدرة المضية في عقيدة الفرقة المرضية

لوامع

الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية

شرح

الدرة المضية في عقيدة الفرقة المرضية

تأليف

العلامة الشيخ محمد بن أحمد السفاريني

تنبيه

عليها تعليقات مفيدة للعلماء الأجلاء الأعلام:

الشيخ عبد الرحمن أبا بطين

الشيخ سليمان بن سحمان

ونقول

من كتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه العلامة ابن القيم

المكتب الإسلامي
بيروت

دار الخاني
الرياض

الطبعة الثالثة
١٤١١هـ - ١٩٩١م

المكتب الإسلامي
بيروت : ص.ب : ١١/٣٧٧١ - برقياً : اسلاميا - تلكس : ٤٠٥٠١ - هاتف : ٤٥٠٦٣٨
دمشق : ص.ب : ١٣٠٧٩ - هاتف : ١١١٦٣٧
عمّان : ص.ب : ١٨٢٠٦٥ - هاتف : ٦٥٦٦٠٥ - فاكس : ٧٤٨٥٧٤

دار الخاني للنشر والتوزيع
هاتف : ٤٤٦٠١٢٩
الرياض - السعودية



لوامع

الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية

شرح

الدرة المضية في عقيدة الفرقة المرضية

تأليف

العلامة الشيخ محمد بن أحمد السفاريني

الجزء الأول

تنبيه

عليها تعليقات مفيدة للعلماء الأجلاء الأعلام:

الشيخ عبد الرحمن أبا بطين

الشيخ سليمان بن سحمان

ونقول

من كتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه العلامة ابن القيم

المكتب الإسلامي
بيروت

دار الخاني
الرياض

« ترجمة الشيخ محمد السفاريني الحنبلي مؤلف هذا الكتاب »

جاء في حرف الميم من كتاب سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر ما نصه : هو محمد بن احمد بن سالم بن سليمان السفاريني الشهرة والمولد النابلسي الحنبلي الشيخ الامام والحبر البحر النحرير الكامل الهمام الأوحد العلامة العالم العامل الفهامة صاحب التآليف الكثيرة والتصانيف الشهيرة أبو العون شمس الدين ولد بقرية سفارين من قرى نابلس سنة اربع عشرة ومائة وألف (١١١٤) ونشأ بها وتلا القرآن العظيم ثم رحل الى دمشق لطلب العلم فاخذ بها عن الاستاذ الشيخ عبد الغنى بن اسماعيل النابلسي وشيخ الاسلام الشمس محمد بن عبد الرحمن الغزى وأبي الفرج عبد الرحمن بن محيي الدين المجلد وأبي المجد مصطفى بن مصطفى السوارى والشهاب احمد بن على المنيني وأخذ الفقه عن أبى التقى عبد القادر بن عمر التغلبي وأبى الفضائل عواد بن عبيد الله الكورى ومصطفى بن عبد الحق اللبدى وغيرهم وحصل لصاحب الترجمة فى طلب العلم ملاحظات ربانية حتى حصل في الزمن اليسير مالم يحصله غيره فى الزمن الكثير ورجع الى بلده ثم توطن نابلس واشتهر بالفضل والذكاء ودرس وافتى وأفاد وألف تآليف عديدة (فمن) تآليفه شرح ثلاثيات مسند الامام احمد فى مجلد ضخم وقد طبع في دمشق عام ١٣٨٠ ، وشرح نونية الصرصرى سماها معارج الانوار فى سيرة النبى المختار فى مجلدين ، وتحبير الوفاء فى سيرة المصطفى ، وغذاء الالباب فى شرح منظومة الآداب (وقد طبع بمطبعة النجاح بمصر عام ١٣٢٤) والبحور الزاخرة فى علوم الآخرة ، وكشف اللثام فى شرح عمدة الأحكام) ونتائج الأفكار في شرح حديث سيد الاستغفار ،والجواب المحرر فى الكشف على حال الخضر والاسكندر ، وعرف الزرنب فى شرح السيدة زينب ، والقول العلي فى شرح أثر أمير المؤمنين على رضى الله عنه ، وشرح منظومة الكبائر الواقعة فى الاقناع ، ونظم الخصائص الواقعة فيه أيضا ، والدر المنظم فى فضل شهر الله المحرم ، وقرع السياط فى قمع أهل اللواط ، والمنح الغرامية في شرح منظومة ابن فرح اللامية ، والتحقيق فى بطلان التلفيق ، ولواقح الأفكار السنية فى شرح منظومة الامام الحافظ أبي بكر بن داؤد الحائية مجلد ، وتحفة النساك فى فضل السواك ، والدرة المضية فى عقد أهل الفرقة المرضية وشرحها المسمى بسواطع الآثار الاثرية شرح منظومتنا المسماة بالدرة المضية (وقد طبع فى عام ١٣٢٣ والآن طبع للمرة الثانية عام ١٣٨٠) وتفاضل العمال بشرح حديث فضائل الأعمال ، والدرر المصنوعات فى الأحاديث الموضوعات ، ورسالة فى بيان الثلاث والسبعين فرقة والكلام عليها ، واللمعة فى فضائل الجمعة ، والأجوبة النجدية على الأسئلة النجدية ، والأجوبة الوهبية عن الأسئلة الزعبية ، وشرح على دليل الطالب لم يكمل وتعزية اللبيب بأحب حبيب ، وغير ذلك وأما الفتاوى التى كتب عليها الكراس والاقل فكثيرة ولو جمعت لبلغت مجلدات (وله) رحمه الله تعالى من الاشعار فى المراسلات والغزليات والوعظيات والمرثيات شيء كثير وبالجملة فقد كان غرة عصره وشامة مصره لم يظهر فى بلده بعده مثله وكان يدعى للملمات ويقصد لتفريج المهمات ذا رأى صائب وفهم ثاقب جسور على ردع الظالمين وزجر المفترين اذا رأى منكرا أخذته رعدة وعلا صوته من شدة الحدة واذا سكن غيظه وبرد قيظه يقطر رقة ولطافة وحلاوة وظرافة وله

الباع الطويل فى علم التاريخ وحفظ وقائع الملوك والامراء والعلماء والادباء وما وقع فى الازمان السالفة وكان يحفظ من اشعار العرب العرباء والمولدين شيئا كثيرا وله شعر لطيف منه قوله :

من لى بان أنظر الى خشف بليل معتكر
واضمه من غير شف كالضمير المستتر

وقوله :

الصبر عيل من القلا والنفس أمست فى بلا
والجفن جف من البكاء والقلب فى الشجوى غلا
وشكا اللسان فقال فى شكواه لا حول ولا

وقوله :

احبة قلبى تزعموا أن حبكم صحيح فان كنتم كما تزعموا زوروا
واحيوا فتى فت الغرام فؤاده والا فدعوى حبكم كلها زور

وله غير ذلك من الاشعار والنظام والنثار مما هو مشهور فى أيدى الناس وكانت وفاته فى شوال سنة ثمان وثمانين ومائة وألف بنابلس ودفن بتربتها الشمالية رحمه الله تعالى آمين • انتهى بحروفه من تاريخ سلك الدرر فى أعيان القرن الثانى عشر فى حرف الميم جزاه الله خيرا آمين •

وفى كتاب السحب الوابلة على ضرائح الحنابلة تأليف الشيخ محمد بن حميد مفتى الحنابلة سابقا بمكة المشرفة قال : محمد بن احمد بن سالم ابن سليمان السفارينى أبو العون شمس الدين العلامة الفهامة المسند الحافظ المتقن نقلت من خط شيخ مشايخي الشيخ محمد بن سلوم مانصه (ولد) سنة ١١١٤ بقرية سفارين فقرأ القرآن صغيرا وحفظه وأتقنه ثم قدم دمشق فقرأ العلم فى الجامع الاموى على مشايخ فضلاء وأئمة نبلاء مابين مكيين ومدنيين وشاميين ومصريين ذكرهم فى اجازته الكبرى للسيد محمد مرتضى فمنهم فى الحديث والفقه والفرائض والاصلين العلامة خاتمة المحققين شيخ المذهب فى عصره ومصره الشيخ عبد القادر التغلبى والشيخ مصطفى بن الشيخ عبد الحق اللبدى والشيخ عواد بن عبيد الكورى والشيخ طه بن احمد اللبدى والشيخ مصطفى بن الشيخ يوسف الكرمي والشيخ عبد الرحيم البكرى والمعمر السيد هاشم الحنبليونى ، وفى أنواع الفنون للعلامة الفهامة الشيخ عبد الغنى النابلسى صاحب البديعيات المشهورة والتاليف الجليلة والعلامة الشيخ احمد المنينى وشيخ الطريقة السيد مصطفى البكرى والعلامة حامد افندى مفتى الشام والحافظ محمد حياة السندى ثم المدنى والمعمر الشيخ عبد الرحمن المجلد الحنفى والملا الياس الكردى والعلامة اسماعيل جراح العجلونى والعلامة الشيخ أحمد المغربي مفتي الشافعية وقريبه الشيخ محمد المغربى الذى تولى الافتاء بعده والشيخ عبد الله البصرى والشيخ سلطان المحاسنى خطيب الجامع الاموى وغيرهم واجازوه بأجازات مطولة ومختصرة وبرع فى فنون العلم وجمع بين الامامة والفقه والديانة والصيانة وفنون العلم والصدق وحسن السمت والخلق والتعبد وطول الصمت عما لا يعني وكان محمود السيرة نافذ الكلمة رفيع المنزلة عند الخاص والعام سخي النفس كريما بما يملك مهابا معظما عليه

أنوار العلم بادية وصنف تصانيف جليلة في كل فن فمنها العقيدة الفريدة وشرحها الحافل العظيم الفوائد الجم العوائد مجلد ضخم ، شرح فضائل الاعمال للضياء المقدسي ، نفثات الصدر المكمد بشرح ثلاثيات المسند وعددها ٣٦٣ مجلدان ، شرح عمدة الاحكام مجلدان ، شرح نونية الصرصري في السيرة مجلدان ، الملح الغرامية شرح منظومة ابن فرح اللامية ، شرح الدليل في الفقه وصل فيه الى الحدود ، والبحور الزاخرة في علوم الآخرة مجلدان، أودع فيه من غرائب الفوائد ما لا يوجد في كتاب ، درارى الذخائر شرح منظومة الكبائر ، تنجيز الوفاء في سيرة المصطفى ، غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب مجلدان أودع فيه من غرائب الفوائد ما لا يوجد في كتاب ، قرع السياط في قمع أهل اللواط ، الجواب المحرر في كشف حال الخضر والاسكندر ، تحفة النساك في فضل السواك ، التحقيق في بطلان التلفيق رد بها جواز التلفيق في العبادات وغيرها للشيخ مرعي ، الدر المنثور في فضائل يوم عاشوراء المأثور ، اللمعة في فضل يوم الجمعة ، القول العلي شرح أثر سيدنا علي ، نتائج الافكار شرح حديث سيد الاستغفار أودع فيه غرائب نحو سبع كراريس ، رسالة في بيان تارك الصلاة ، رسالة في ذم الوسواس ، رسالة في شرح حديث الايمان بضع وسبعون شعبة ، رسالة في فضل الفقير الصابر ، منتخب الزهد للامام احمد حذف منه المكـــرر والاسانيد ، تعزية اللبيب ، قصيدة في الخصائص النبوية ، وغير ذلك من التحريرات والفتاوى الحديثة والفقهية والاجوبة على المسائل العديدة ، والتراجم لبعض أصحاب المذهب وبالجملة فتآليفه نافعة مفيدة مقبولة سارت بها الركبان وانتشرت في البلدان كان اماما متقنا جليل القدر وظهرت له كرامات عظيمة وكان حسن التقرير والتحرير لطيف الاشارة بليغ العبارة حسن الجمع والتأليف لطيف الترتيب والترصيف زينة اهل عصره ونقاوة أهل مصره صواما قواما ورده كل ليلة ستون ركعة وكان متين الديانـــة لا تأخذه في الله لومة لائم محبا للسلف وآثارهم بحيث انه اذا ذكرهـــم أو ذكروا عنده لم يملك عينه من البكاء وتخرج به وانتفع خلق كثير من النجديين والشاميين وغيرهم وكانت وفاته عام ١١٨٨ أو عام ١١٨٩ انتهى .

قال في سلك الدرر توفي بنابلس ودفن بتربتها الشمالية ثم قال وبالجملة فقد كان غرة عصره وشامة مصره لم يظهر بعده مثله في بلاده الخ ما تقدم وذكره تلميذه الكمال محمد العامري العربي في كتابه الورد الأنسي بترجمة الشيخ عبد الغني النابلسي قال وقد ترجمته في معجمي المسمى بإتحاف ذوي الرسوخ وفي طبقات الحنابلة المسمى بالنعت الاكمل في تراجـــم أصحاب الامام أحمد بن حنبل ترجمة طويلة . قلت أخبرني بعض العلماء الصلحاء النابلسيين انه لما أراد الرحلة الى دمشق اتى به والده الى الشيخ زيد المشهور في بلاد نابلس المنتسب الى الشيخ عبد القادر الجيلاني ليدعو له وكان معتقدا في تلك الجهات فلما أخبراه بمطلوبهما ودعا له وأوصاه وقال له اذا وصلت دمشق تجد في الجامع الاموى على يمينك من البـــاب الفلاني شخصا صفته كيت وكيت فبلغه مني السلام وقل له يقول لك أخوك زيد ادع لي فحين وصل رأى الشخص وعرفه بالصفة وقال ما وصاه به الشيخ فقال الشخص زيد لاحقني بتوصياته في كل بلد احبها ـ ودعا له كثيرا وبشره بالفتوح العظيمة . ومما ذكره المترجم في اجازته للســـيد

محمد مرتضى ان شيخه الشيخ سلطان المحاسني وشى اليه بعض الوشاةبأنى سئلت من أفضل الشيخ المحاسني أو الشيخ المنينى فزعم الواشى انىفضلت المنينى عليه فكتب لى بهذه الابيات :

لا تزدرى العلماء بالأشعـــار ... وتحط قدرا من أولى المقـدار
أتظن سفارين تخرج عالمـــا ... ينشىء القريض بدقة الانظـــار
هلا أخذت على الشيــوخ تادبا ... كى ترتقي درج العلا بفخـــار
واللين منك لاح فى مـــرءاته ... لا زلت تكشف مشكل الاخبار

فأجبته بقولى :

قل للامام مهذب الاشعــــار ... منشى القريض ومسند الاخبار
تفديك نفسى يا أديب زماننــا ... ياذا الحجا يا عالى المقــدار
من قال عنى يا همـــام بأننى ... ازرى بأهـل الفضل والآثار
عجبا لمن اضحى فريدافى الورى ... يصغى لقـــولِ مفسد مكار
مقصوده وشي الحديث ووضعه ... فقبلته من غير ما انكـــار
وغدوت مفتخرا عـلى صب اذا ... جن الظلام بكى من الاكـــدار
ورشقته بسهام نظم مـــزدر ... للناس بالتحقير والاصغـــار
هب ان سفارين لم تخرج فتى ... ذا فطنة بنتائج الافكـــار
ايباح عجب المرء يا مـولاى فى ... شرع النبى المصطفى المختــار
لا زلت في أوج المكارم راقيـا ... تنشى القريض بهيبة ووقـــار
ما حرك الشوق التليد صبـابة ... صدح الحمام ونغمة الهـــزار

فجاء واعتذر وظن انى لم أقبل عذره وجاء يوما بابنه وقال له قم قبل يد عمك يسمح لأبيك عما بدر منه فقلت انا أرجو منك السماح فقــال سبحان الله قد استجزت علماء الشام واهملتنى مع مزيد الصحبة فطلبت منه اجازة فاحتفل فى اجازة مطولة فاخترمته المنية قبل وصولها الينا رحمة الله تعالى ورضى عنه آمين ٠

تقريظ صاحب المنــار

من مجلة المنار المجلد العاشر الجزء الثاني صفر سنة ١٣٢٥
١٣ ابريل سنة ١٩٠٧ صحيفة ١٤٥
شرح عقيدة السفاريني

للشيخ محمد بن احمد السفاريني الاثرى الحنبلي (رحمه الله تعالى) عقيدة منظومة اسمها « الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية » بلغنى أن الشيخ حسنا الطويل (عليه الرحمة) قال لما اطلع عليها ما معناه أن هذه أول عقيدة اسلامية اطلعت عليها . ولناظمها شرح مطول عليها سماه «لوائح الانوار البهية وسواطع الاسرار الأثرية » جمع فيه المؤلف أقوال السلف والخلف ومذاهب الفرق في مسائل الاعتقاد وبين رجحان مذهب السلف على غيره مؤيدا ذلك بالدلائل النقلية وكذا العقلية فيما يستدل على مثله بالعقل واقتبس جل تحقيقاته فيه من كلام الامامين الجليلين شيخ الاسلام ابن تيمية وتلميذه المحقق ابن القيم عليهما الرحمة والرضوان . فجـاء كتابا حافل الرأي ، جامعا لما لم يجمعه غيره من المأثور والمروى ، كثير الفوائد ، جم الأوابد والشوارد ، لايكاد يستغنى عنه طالب السعة والتحقيق فى العقائد الاسلامية ، أو يحيط بما فى كتب ابن تيمية وابن قيم الجوزية . نعم انه ينكر عليه كثرة الروايات والاقوال المأثورة في اشراط الساعة ونحوها من المسائل التى ليست من العقائد الدينية ومنها ما لا يصح له سند ولكن من يعلم أنه لا يجب عليه أن يعتقد ما لا يقوم عليه البرهان لا يضره ايراد ذلك وقد ينفعه الاطلاع على تلك الاقوال فيستخرج من مجموعها مايحق الحق ويبطل الباطل .

وجملة القول ان هذا الكتاب لا يستغنى عنه بشىء من كتب العقـائد التى يتداولها طلاب العلم وكلها من وضع المتكلمين الذين جروا على طريقة فلاسفة اليونان ، ليس فيها بيان لمذهب السلف يجلى حقيقته . ويوضح طريقته ، بل فيها ما يشعر بأن مذهب السلف هو التمسك بالظواهر من غير فهم ثاقب ،ولا علم راسخ، وان الخلف أعلم منهم وهيهات هيهات لذلك بل السلف أفهم وأعلم وأحكم وما خالف المتكلمون فيه السلف فهو جهل مبين أو نزغات شياطين وبمثل هذا الكتاب تعرف ذلك .

رغب في نشر هذا الكتاب بعض محبى العلم والدين من العرب الكـرام المخلصين الشيخ مقبل بن عبد الرحمن الذكير من تجار نجد رحمه الله آمين فأرسل الينا نسخة خطية منه فطبعنا له عنها عددا معينا جعله وقفا لله تعالى يوزع على طلاب العلم السلفيين فى بلاد مختلفة وطبعنا منه على نفقتنا طائفة من النسخ زيادة عن النسخ الموقوفة باذن الطابع الواقف وهى تباع بمكتبة المنار بشارع درب الجماميز بثمن قليل بالنسبة لحجم الكتاب وحسن ورقه وطبعه .

جعل الكتاب جزءين صفحات الاول ٣٨٨ والثاني ٤٤٨ ووضعنا له فهرسا مرتبا على حروف المعجم لتسهيل مراجعة فوائده الكثيرة المطوية فى مباحثه المختلفة وجدولا للخطأ والصواب فدخل ذلك مع ترجمة المؤلف في ٢٨ صفحة فمجموع صفحات الكتاب ٨٦٤ ورقة كورق المنار وثمن النسخة منه غير مجلدة عشرون قرشا صحيحا ماعدا أجرة البريد

صاحب مجلة المنار الاسلامية بمصر
السيد محمد رشيد رضا

تقريظ الكتاب

قال الشيخ محمد بن قاسم المشهور بالقصبى مادحا لهذا الشرح المسمى بلوامع الانوار البهية للامام المحقق الشيخ محمد بن احمد السفارينى الاثرى الحنبلي ما نصه قال :

يا من يريد سلوك نهج المصطفى ... ومن اقتفــاه من الطراز الاول
ان كنت تطلب للسلامة منهجـا ... وتكون لست من الغـواة الضلل
كن في أمورك كلها مستمسكـا ... بالوحي لا بزخارف المتقـول
وصن اعتقادك واعتمد ما قد حوى ... هذا الكتاب وعنـه لا تتحـول
فيه يزول الشك عن سبل الهدى ... وهو الشفاء لكل داء معضـل
من يعتقده مسلما لنصوصـه ... من غير تحريف وغـير تأول
فقد اهتدى سبل السلام حقيقة ... ويفوز في عقباه بالفخر الجلى
قد فاق كل مصنف في فنـه ... فنظيره أبدا اذا لم يحصـل
أضحت مناهله لنا لما صـفت ... أحلى وأعذب من رحيق السلسل
فلك يدور وقطبه ما جـاء من ... رب السماء الى النبى المرسـل
من لا يدين بما عليه قد انطـوى ... أضحى عن الحق المبين بمعـزل

أقول أنا محمد بن حسين نصيف من أهالي جدة الحجاز لما اشتريت كتاب غذاء الألباب منظومة الآداب للسفاريني من الاستاذ الشيخ عبد الفتـاح الحجاوى النابلسى من علمائها لما جاء حاجا فى عام ١٣٢٥ هـ جرى ذكر المؤلف السفاريني وانه كان صادعا بالحق قال ومما يذكر من شجاعته انه قال لأمير نابلس في عصره لما تولى بعد أبيه وجاء أهل العلم لتهنئته بالامارة وطلبوا منه الغاء الضرائب الزائدة عن الزكاة الشرعية فان المزارعين جائعين لا يشبعون من غلة أراضيهم من الضرائب الفاحشة فقال الامير لا أغير شيئا مما كان في عهد والدى المرحوم فقال له الشيخ السفاريني ومن ادراك انه مرحوم ؟ زل الضرائب والناس يدعون لك وله ، فالامير شكا للشيخ حاجة الدولة للمال الكثير وأزال كثيرا من الضرائب وأخذ منه كتابة بازالة الضرائب الفاحشة ودعوا له بالتوفيق .

جدة الحجاز ـ محمد نصيف

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى تقدست عن الاشباه ذاته ، وتنزهت عن سمات الحدوث صفاته ، ودلت على وجوده وقدمه مخلوقاته ، وشـــهدت بربوبيته وألوهيته مصنوعاته ، وأقرت بالافتقار (١) اليه برياته ، وأذعنت لعظمته وحكمته مبتدعاته ، سبحانه من اله (٢) تحيرت العقول فى بديع حكمته ، وخضعت الالباب لرفيع عظمته ، وذلت الجبـــابرة لعظيم (٣) عزته ، ودلت على وحدانيته محدثاته ، يعطى ويمنع ، ويخفض ويرفع ، ويوصـــل ويقطع ، فلا يسأل عما يصنع ، كما نطقت به آياته ، وأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له ولا ند ولا ضد ولا ظهير ولا وزير فالكل خلقه واليه غاياته ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، وحبيبه وخليله ، وأمينـــه على وحيه ، وشهيده على أمره ونهيه ، من بهرت (٤) العقول معجـــزاته ، وأعجزت النقول دلائل نبوته وارهاصاته (٥) ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ، واصهاره (٦) وأحبابه ، وأنصاره وأحزابه ، ما دامت آلاء الله وأرضه وسمواته ، وما انقشعت (٧) بنور رسالاته غيـاهب الشرك وظلمـــاته ، وابتسمت الايام بعد عبوسها ، وظهرت (٨) الاحكام بعـــد طموسها ، وأينعت الاوقات بعد يبوسها ، وولى ظلام الظلم وانمحت آفاته ، أما بعـــد فيقول العبد الفقير الى مولاه العلى ، محمد ابن الحاج أحمد السفارينى (٩) الاثرى الحنبلى ، قد كان فى ســنة ثلاث وسبعين بعـــد المائة وألف طلب

الاشارة « مط » فى التعليقات تعنى النســـخة المطبوعة و « مخ » تعنى النسخة المخطوطه

(١) مط « بالانقياد » (٢) مط « سبحان من اليه (٣) مخ « لمنيع » (٤) مط «أبهرت» (٥) بهامش مخ : الارهاصات ما يتقدم على البعثـة من الخوارق يكون توطئة لها كقصة الفيل قاله المصنف فى باب معجزات الانبياء أ هـ (٦) مط « واظهاره » (٧) مط « انشـــقت » (٨) مط « وأظهرت » (٩) بهامش مخ : نسبة الى سفارين قرية من أعمال نابلس اهـ

منى بعض أصحابنا النجديين ان أنظم أمهات مسائل اعتقادات أهل الاثر ، فى سلك سهل لطيف معتبر ، ليسهل على المبتدئين (١) حفظه ، وتنفهم معانيه ولفظه ، وذلك بعد قراءتهم علينا من مختصرات العقائد (٢) جملة كلمعة (٣) الامام الموفق ، ومختصر نهـاية المبتدئين لشـيخ مشايخنا البدر البلبانى ، والعين والاثر للشيخ عبد الباقى والدأبى المواهب ، فابتهج قلبه بما أوقفناه عليه من الفوائد ، فتعللت باشتغال (البال ، وتشويش ـ ٤) الخاطر بالبلبال (٥) وتشتت الافـكار (وتغـير الاطوار ٦) فألح بالسؤال (٧) والالتماس ، وقال ما فى فراغك عن هذه الخواطر واشتغالك بهذا المطلوب الحاضر مدة من باس ، فلما لم ينـدفع بالاندفاع ، ولم يفـد التعليل (٨) لهذا الطالب الملتاع ، نظمت أمهات مسائل عقائد السلف فى سمط (٩) عقد أبهى من اللآلىء البهية ، وسميتها (الدرة المضية فى عقد أهل الفرقة المرضية) وعدتها مائتا بيت وبضعة عشر ، وتكفى وتشفى من معظم الخلاف الذى ذاع وانتشر • ثم بعد تمام نظمها ، والفراغ مما أودع فى ضمنها من (١٠) علمها ، ألح المذكور واخوانه ، وذووه وخلانه (١١) على تصنيف شرح (١٢) لهذا العقد الذى شفا وأبرى ، وقالوا صاحب البيت بالذى فيه أدرى ، فتجشمت تلك المسالك الوعرة ، والمدارك التى تقاعس عن ادراك حقائقها غير الالمعية المهرة ، فانى وان كنت غير ألمعى ولا ماهر ، ولكنى تطفلت على ما أودع حذاق هـذا الشأن فى الطروس والدفاتر ، فأجبتهم انجاحا لمطلوبهم ، وطلبا لشفاء صدورهم وصلاح قلوبهم ، وعولت فيما قصدت على المولى الجواد الجليل ، فهو عونى وحسبى ونعم الوكيل • رسميته (بلوامع (١٣) الانوار البهية ، وسواطع الاسرار الاثرية ، لشرح

---

(١) مط «المبتدىء» (٢) مط «وعقائد» (٣) بهامش مخ : اللمعـة فى اللغة القطعة من النبات اذا أخذت فى اليبس كما فى القاموس ثم استعير للقطعة من الكتب •

(٤) زيادة من مخ (٥) بهامش مخ : البلبال شدة الهم والوساوس كما فى القاموس أ هـ (٦) من مخ وبهامشها : أى الحاجات أ هـ (٧) مخ « فى السؤال »

(٨) مط «التعلل» (٩) بهامش مخ : السمط الخيط الذى ينظم به اللؤلؤ • أهـ (١٠) مخ: فى ضمن (١١) مخ «واخدانه» (١٢) مط «يشرح» (١٣) مط «بلوائح» •

الدرة المضية فى عقد الفرقة المرضية). ولأقدم أمام المطلوب مقدمة ، تشتمل على عشر تعريفات محسمة ، فأقول بعد البراءة من القوة والحول ، والاعتماد على ذى الكرم والطول ..

~~~~~~~~~~~~
~~~~~~~~~~~~

المقدمةوتقسيم الشريعة الى علوم

المقدمة المشتملة على عدة تعريفات

(التعـــريف الاول)

اعلم أن الملة المحمدية تنقسم الى اعتقاديات وعمليات ، فالاعتقاديات هى التى لم تتعلق بكيفية عمل مثل اعتقادوجوب وجود القادر المختار ووحدانيته ، وتسمى أصلية أيضا . والعمليات هى ما يتعلق بكيفية العمـــل ، وتسمى فرعية ، فالمتعلق بالعملية علم الشرائع والاحكام لانها لاتستفاد الامن (جهة-١) الشرع فلا يســبق الفهم عند اطلاق الاحــكام الا اليهـــا ، والمتعلق بالاعتقاديات هو علم التوحيد والصفات ، وعلم الكلام ، وعلم أصول الدين . ولما كان هذا العلم أهم لابتناء العمليات عليه أوردوا البراهين والحجج عليه واكتفوا فى العمليات بالظن المستفاد من الادلة الســـمعية ، ولما كان عصر الصحابة والتابعين لهم باحسان خاليا من البدع الكلامية ، والشبه الخيالية ، والخصوم المعتزلية ، لم تكن أدلة علم أصول الدين مدونة هذا التدوين ، فلما كثرت الشبه والبدع ، وانتشر الاختلاف بين أهل العلم وفشا وسطع ، وصار كل امام بدعة له نحلة يعول عليها ، وعقيدة يدعو الناس اليهـــا ، وأوضاع يرجع فى مهماته اليها ، دون علماء الـــكلام قواعده المعلومة ، وأوضاعه المفهومة ، لدفع الشبه والخصوم ، وردهم عن تهافتهم الى الصواب المعلوم ، عن النبى المعصوم .

تعريف علـــم الكلام ومبادئه

وعلم الكلام هو علم يقتدر معه على اثبات العقائد الدينية أى المنسوبة الى دين النبى صلى الله عليه وسلم وان لم تكن مطابقة للواقع لعدم اخراج الخصم من المعتزلة والجهمية والقدرية والجبرية والكرامية وغيرهم عن أن

---

(١) زيادة من مخ

بكون من علماء الكلام وان خطأناه أو كفرناه • (وقيل) تعريف علم الكلام الذى هو التوحيد وأصول الدين : العلم بالعقائد الدينية عن الادلة اليقينية ، أى العلم بالقواعد الشرعية الاعتقادية المكتسبة من أدلتها اليقينية ، سواء توقفت على الشرع كالسمعيات أم لا ، وســـواء كانت من الدين فى الواقع ككلام أهل الحق أولا ككلام المخالف ، واعتبر فى أدلتها اليقين لانه لاعبرة بالظن فى الاعتقاديات بل فى العمليات « وموضوعه » هو المعلوم من حيث يتعلق به اثبات العقائد الدينية اذ موضوع كل علم مايبحث فى ذلك العلم عن عوارضه الذاتية ، ولاشك انه يبحث فى هذا العلم عن أحوال الصانع ، من القدم والوحدة والقدرة والارادة وغيرها ليعتقد ثبوتها له تعالى ، وأحـوال الجسم والعرض من الحدوث والافتقار والتركيب من الاجزاء وقبول الفناء ونحو ذلك ليثبت للصانع ما ذكر (١) مما هو عقيدة اسلامية أو وســـيلة اليها ، وكل هذا بحث عن أحوال المعلوم كاثبات العقائد الدينية ، وهـــذا أولى من زعم ان موضوعه ذات الله تعالى وتقدس للبحث عن صفاته وأفعاله واعلم انا لا نأخذ الاعتقادات الاسلامية من القـــواعد الكلامية ، بل انما نأخذها من النصوص القرآنية والاخبار النبوية ، وليس القصد بالأوضـاع الكلامية الا دفع شبه الخصوم والفرق الضالة عن الطرق الحقيـــة ، فانهم طعنوا فى بعض منها بأنه غير معقول فبين لهم بالقواعد الكلامية معقولية ذلك البعض • (واستمداد) هذا الفن من الكتاب المنزل والتفسير والحديث الثابت والفقهوالاجماع والنظر • (ومسائله) القضايا النظرية الشرعية الاعتقادية • (وغايته) أنيصير الايمان والتصديقبالاحكام الشرعية متقنا محكما لاتزلزله شبهة من شبه المبطلين • (ومنفعته) فى الدنيا انتظام أمر المعاش بالمحافظة على العدل والمعاملة التى يحتاج اليها فى ابقاء النوع الانســانى على وجه لا يؤدى الى الفساد ، وفى الآخرة النجاة من العذاب المرتب على الكفر وسوء الاعتقاد • وسيأتى حد كل بحث من هذا عند ذكره فى النظم ان شاء الله تعالى والله تعالى الموفق

---

(١) يعنى من القدم وما تقدم معه وانظر ما يأتى من التعليق على أوائل الباب الاول •

التنــازع فى الدين ومايجب فيه

(الثـــانى)

اعلم ان الصحابة الكرام قد تنازعوا فى كثير من مسائل الأحكام وهم سادات المؤمنين وأكمل الامة ايمانا بلا انفصام ، ولكن بحمد الله تعالى لم يتنازعوا فى مسـئلة واحدة من مسائل الاسماء والصفات والافعال ، بل كلهم على اثبات ما نطق به الكتاب والسنة على كل حال ، فكلمتهم واحـــدة من أولهم الى آخرهم لم يسوموها تأويلا ، ولم يحرفوها عن مواضعها تبديلا ، ولم يبدوا لشيء منها ابطالا ، ولا ضربوا لها مثالا ، ولم يدفعوا فى صدورها وأعجازها ، ولم يقل أحد منهم يجب صرفها عن حقائقها وحملهـــا على مجازها • بل تلقوها بالقبول والتسليم ، وقابلوها بالايمـــان والتعظيم ، ولم يفعلوا كما فعل أهل الاهواء والبدع حيث جعلوا القرآن عضـــين ، فأقروا ببعض آيات الصفات وأنكروا بعضها من غير فرقان مبين ، مع ان اللازم لهم فيما أنكروه ، كاللازم لهم فيما أقروا به وأثبتوه ، فأهل الايمان اذا تنازعوا فى شيء من القرآن ، ردوه الى الله ورسوله كما رتب عليه الايمان ، فكل ما تنازع فيه المؤمنون من مسائل الدين دقه وجله جليه وخفيه ردوه اليهما ، فلو لم يكن فى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم بيان ما تنازعوا فه لم يأمر الله بالرد اليه ، اذ من الممتنع أن يأمر تعالى بالرد عند النزاع الى من لا يوجد عنده فصل النزاع ، وقد أجمع الناس على أن الرد الى الله هو الرد الى كتابه ، والرد الى الرسول صلى الله عليه وسلم هو الرد اليه نفسه فى حياته والى سنته صلى الله عليه وسلم بعد وفاته ، وقد جعل الله هذا الرد من موجبات الايمان ولوازمه ، فاذا انتفى انتفى الايمان ضرورة انتفاء الملزوم لانتفاء لازمه ولا سيما التلازم بين هـــذين الامرين فانه من الطرفين ، فكل منهما ينتفى بانتفاء الآخر ، وقد نهى الصديق ثم الفاروق ومن بعدهما من الصحابة عن القول بالرأى حتى قال عمر رضى الله عنه : ان أصحاب الرأى أعداء السنن أعيتهم الاحاديث أن يعوها ، ونفلتت منهم أن يحفظوها فقالوا فى الدين برأيهم فضلوا وأضلوا • وقال رضى الله عنه : **أيها الناس اتهموا الرأى فى الدين فلقد رأيتنى وانى لأرد أمر رسول**

الله صلى الله عليه وسلم برأيي فأجتهد ولا آلو وذلك يوم أبي جندل - (يعني يوم قضية الحديبية) . وأضل كل رأى وأبطله وأفسده وأعطله الرأى المتضمن لتعطيل أسماء الرب وصفاته وأفعاله بالمقاييس الباطلة التى وضعها أهل البدع والضلال من الجهمية والمعتزلة والقدرية ومن ضاهاهم حيث استعملوا قياساتهم الفاسدة وأراءهم الباطلة وشبههم الداحضة (١) فى رد النصوص الصحيحة والآيات الصريحة ، فردوا لأجلها ألفاظ النصوص التى وجدوا السبيل الى تكذيب رواتها وتخطئتهم ، وحرفوا المعانى التى لم يجدوا الى رد ألفاظها سبيلا ، فقابلوا النوع الاول بالتكذيب ، والنوع الثانى بالتحريف والتأويل ، فأنكروا رؤية المؤمنين ربهم فى الآخرة ، وأنكروا كلامه وتكليمه لعباده ، وأنكروا مباينته للعالم واستواءه على عرشه ، وعموم قدرته ، وحرفوا النصوص عن مواضعها وأخرجوها عن معانيها وحقائقها بالرأى المجرد الذى حقيقته انه زبالة الاذهان ونخالة الافكار وعصارة الآراء ووساوس الصدور ، فملأوا به الاوراق سوادا ، والقلوب شكوكا والعالم فسادا ، فكل من له مسكة من علم ودربة من فهم يعلم ان فساد العالم وخرابه انما نشأ من تقديم الرأى على الوحى والهوى على النقل ، وما استحكم هذان الاصلان الفاسدان فى قلب الا استحكم هلاكه ولا فى أمة الا وفسد أمرها أتم فساد ، وقد قال الامام أحمد رضى الله عنه : رأى فلان ورأى فلان عندى سواء وانما الحجة فى الآثار ، وروى ابن عبد البر بسنده عن عبد الله بن الامام أحمد بن حنبل عن أبيه رضى الله عنه :

دين النبى محمد آثار ... نعم المطية للفتى الاخبار
لا تعد عن علم الحديث وأهله ... فالرأى ليل والحديث نهار
ولربما جهل الفتى طرق الهدى ... والشمس طالعة لها أنوار

وقال بعض أهل العلم وأحسن :

العلم قال الله قال رسوله ... قال الصحابة ليس خلف فيه
ماالعلم نصبك للخلاف سفاهة ... بين النصوص وبين رأى فقيه

(١) مط « الرافضة »

كلا ولا رد النصوص تعمدا　　حذرا من التجسيم والتشبيه
حاشا النصوص من الذى رميت به　　من فرقة التعطيل والتمويه

ثم ان الرأى المذموم هو الرأى المجرد الذى لا دليل عليه من كتاب ولا سنة ولا قياس جلى بل هو خرص وتخمين ، فهذا الرأى الذى ورد التحذير منه والتنفير عنه ، وأما الرأى المستند الى الاستدلال والاستنباط من النص وحده أو من نص آخر معه فى الأحكام فهذا من ألطف فهم النصوص وأدقه وما ورد عن السلف مما يشعر بمدح الرأى وقبوله فالمراد به هذا والله أعلم .

الراى والتأويل وسبب انتشار البدع

(الثالث)

الرأى مصدر رأى رأيا مهموز والجمع آراء (١) وهو التفكر فى مبادىء الأمور ونظر عواقبها وعلم ما تؤول اليه من الخطأ والصواب ، وأصحاب الرأى عند الفقهاء هم أهل القياس والتأويل كأصحاب الامام أبى حنيفة وأبى الحسن الاشعرى . وأصحاب الرأى ضد أصحاب الظاهر من داود (٢) وابن حزم (٣) ومن نحا نحوهم . وأصحاب التأويل ضد أصحابنا من اتباع المأثور والمرور كما جاء مع التفويض واعتقاد التنزيه بأن الله ليس كمثله شىء وهو السميع البصير . وكان سبب انتشار البدع وظهورها وزيادتها ونشورها المأمون بن هارون الرشيد واسمه عبد الله وكنيته أبو العباس سابع خلفاء بنى العباس وأمه (أمة — ٤) اسمها مراجل ، ولى الخلافة سنة مائة وسبعين (٥) وكان من رجال بنى العباس حزما وعزما وحلما وعلما ورأيا ودهاء وشجاعة وبراعة وفصاحة وسماحة الا أنه كان رافضيا معتزليا قدريا فهو خبيث الاعتقاد ، كبير الفساد والعناد . وفى سنة مائتين واحدى عشر أمر أن ينادى : برئت الذمة ممن ذكر معاوية

(١) مط «ارى» (٢) بهامش مخ : ابن على الظاهرى نسبة الى الظاهر لانه يأخذ بظاهر الحديث اهـ (٣) بهامش مخ : أبو محمد بن حزم الظاهرى كان يقال سيف الحجاج ولسان ابن حزم شقيقان أ هـ (٤) من مخ
(٥) بهامش مط : قوله ولى الخلافة سنة الخ هو سبق قلم وانما هذا عام ولادته وانما ولايته على ما ذكر المؤرخون سنة مائة وثمان وتسعين

(رضى الله عنه) بخير فان أفضل الخلفاء بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم على بن أبى طالب رضى الله عنه • وفى سنة مائتين واثنتى عشرة أظهر المأمون القول بخلق القرآن مضافا الى تفضيل على بن أبى طالب رضى الله عنه على الشيخين أبى بكر وعمر رضى الله عنهما فاشمأزت منه النفوس ودعا الناس لرأيه المعكوس وكادت الفتن أن تقوم على ساقها • فكف عن ذلك الى سنة ثمان عشرة فامتحن الناس بالقول بخلق القرآن فأجاب من أجاب طوعا وكرها وامتنع سيدنا الامام أحمد بن حنبل رضى الله عنه ومن امتنع معه من أئمة الحديث ، وطلب الامام أحمد فهلك المأمون ولم يره الامام أحمد ولله الحمد ، وكان هلاك المأمون فى شهر رجب سنة ثمان عشرة بعد المائتين •

كتب اليونان وفتنة المامون

قال العلماء ان المأمون لما هادن بعض ملوك النصارى ـ أظنه صاحب جزيرة قبرس ـ طلب منه خزانة كتب اليونان وكانت عندهم مجموعة فى بيت لا يظهر عليه أحد فجمع الملك خواصه من ذوى الرأى واستشارهم فى ذلك فكلهم أشاروا بعدم تجهيزها اليه الا مطران واحد فانه قال : جهزها اليهم فما دخلت هذه العلوم على دولة شرعية الا أفسدتها وأوقعت بين علمائها • قال الصلاح الصفدى : حدثنى من أثق به ان شيخ الاسلام ابن تيمية روح الله روحه كان يقول : ما أظن ان الله يغفل عن المأمون ولابد أن يقابله على ما اعتمده مع هذه الامة من ادخال هذه العلوم الفلسفية بين أهلها • قال الصلاح الصفدى : لم يبتكر (١) المأمون النقل والتعريب بل فعل ذلك قبله كثير فان يحيى بن خالد البرمكى عرب من كتب الفرس كليلة ودمنة وعرب لأجله كتاب المجسطى من كتب اليونان • والمشهور أن أول من عرب كتب اليونان خالد بن يزيد بن معاوية لما ولع بكتب الكيمياء •

ثم قال الصفدى : والخلاف ما زال فى هذه الامة منذ توفى صلى الله عليه وسلم حتى فى موته ودفنه وأمر الخلافة بعده وأمر ميراثه وأمر قتال مانعى الزكاة الى غير ذلك ، بل فى نفس مرضه صلى الله عليه وسلم لما

(١) مط « يستبكر »

قال « ائتونى بدواة وقرطاس أكتب لكم كتابا لا تضلوا بعدى » على ما هو مذكور فى مواطنه ، وقد روى أنس بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ان بنى اسرائيل افترقوا على احدى وسبعين فرقة ، وان أمتى ستفترق على اثنتين وسبعين فرقة كلها فى النار الا واحدة وهى الجماعة » وهو صلى الله عليه وسلم الصادق المصدوق الذى لا ينطق عن الهوى قد أخبر أن هذه الامة ستفترق ، ومتى افترقت خالف بعضها بعضا ، ومتى خالفت تمسكت بشبه وحجج وناظر كل فرقة من تخالفها فانفتح باب الجدل واحتاج كل أحد الى ترجيح مذهبه ، وقوله بحجة عقلية أو نقلية أو مركبة منهما ، فهذا الامر كان مأمونا قبل المأمون ، نعم زاد الشر والضرر وقويت به حجج المعتزلة وغيرهم وأخذ أصحاب الاهواء ومخالفو السنة مقدمات عقلية من الفلاسفة فأدخلوها فى مباحثهم وفرجوا بها مضايق جدالهم وبنوا عليها قواعد بدعهم فاتسع الخرق على الراقع وكاد(١) منار الحق الواحد يشتبه بالثلاث الاثافى والرسوم البلاقع ، على أن السنة الشريفة مرفوعة المنار مأمونة السرار خافقة الاعلام راسخة الاحلام باهرة السنا ساطعة الجنى

ويزيدها مر الليالى جدة وتقادم الايام حسن شباب

وأهل السنة قد فتح لهم السلف الصالح مغلق أبوابها ، وذللوا بالشواهد الصادقة الصادعة ما جمح من صعابها ، وأطلعوا نيرها الاعظم فطمس من البدع تألق شهابها ، وأجنوا من اتبع هديهم ثمر اليقين متحد النوع وان كان متشابها ، وجاسوا خلال الحق فميزوه وأهل مكة أخبر بشعابها

ومن قال ان الشهب أكبرها السها بغير دليل كذبته الدلائل

وما ذكره الصلاح الصفدى مما يشم منه رائحة العذر للمأمون عما أدخله على الامة فيه حق وباطل ، فأصل الخلاف كان موجودا الا أنه فى أمور يسهل بعضها بخلاف ما فشا بفتنة المأمون • قال الامام الحافظ الذهبى فى كتابه العرش : لما ولى المأمون وكان متكلما عربت له كتب الاوائل فدعا

---

(١) مط « وكان »

الناس الى القول بخلق القرآن وتهددهم وخوفهم فأجابه خلق كثير رغبة ورهبة وامتنع من اجابته الامام أحمد بن حنبل وأبو مسهر عالم دمشق ونعيم بن حماد عالم مصر والبويطى فقيه مصر وعفان محدث العراق وطائفة سواهم فسجنهم ثم لم ينشب ان مات بطرسوس ودفن ثم استخلف بعده أخوه المعتصم فامتحن الناس ونهض باعباء المحنة قاضيه أحمد بن أبى دؤاد وضربوا الامام أحمد رضى الله عنه ضربا مبرحا فلم يجبهم وناظروه وجرت أمور صعبة . انتهى .

ترجمة علوم الاوائل

وأما خالد بن يزيد فعربت له كتب الطب والنجوم ، وقيل الذى عربت له كتب الطب والنجوم المنصور ، وأما خالد فانما ولعه فى صنعة الكيمياء وله فى ذلك رسائل وكان قد أخذ تلك الصناعة عن رجل من الرهبان يقال له مرياس الرومى (١) .وأما المنصور فأول خليفة ترجمت له الكتب السريانية والاعجمية بالعربية مثل كليلة ودمنة وأقليدس كما فى تاريخ الخلفاء للحافظ جلال الدين السيوطى.وقال : وهو أول خليفة قرب المنجمين وعمل بأحكام النجوم . وأما المأمون فهو أول من أدخل علم المنطق وسائر العلوم اليونانية فى الملة الاسلامية وأحضرها من جزيرة قبرص وترجمت له كتب كثيرة كما فى أوائل السيوطى . انتهى . وبسبب ذلك حدثت الفتن بين المسلمين ، والبغى على أئمة الدين ، وظهر اختلاف الآراء ، والميل الى البدع والاهواء ، وكثرت الوقائع والاختلافات ، والرجوع الى العلماء فى المهمات ، فاشتغلوا بالنظر والاستدلال ، والاجتهاد والاستنباط وتمهيد القواعد والاصول ، وترتيب الابواب والفصول ، وتكثير المسائل بادلتها ، وايراد الشبه بأجوبتها ، وتعيين الاوضاع والاصطلاحات ، وتبيين المذاهب والاختلافات ، فسموا ما يفيد معرفة الاحكام العملية عن أدلتها التفصيلية بالفقه ، ومعرفة أحوال الادلة اجمالا فى افادتها الاحكام بأصول الفقه ، ومعرفة العقائد عن أدلتها بالكلام المشتق من الكلم وهو الجرح ومعظم خلافياته مع الفرق الاسلامية خصوصا المعتزلة لانهم أول فرقة أسسوا قواعد الخلاف لما ورد به ظاهر السنة وجرى عليه جماعة الصحابة

---

(١) مط « الروصى »

رضى الله عنهم فى باب العقائد .

أول مصنف فى الكلام وأمر المعتزلة وواصل ابن عطاء

فأول من صنف فى علم الكلام والجدال والخصام مع أهل السنة والجماعة أبو حذيفة واصل بن عطاء وهو رئيس المعتزلة وأول من سمى معتزليا اعتزل مجلس الحسن البصرى رحمه الله فسمى بذلك . كان واصل بن عطاء هذا أحد البلغاء المتكلمين فى علم الكلام وغيره وكان يلثغ بالراء فيجعلها غينا وكان أحد الاعاجيب لان لثغته كانت قبيحة جدا فكان يخلص كلامه من الراء ولا يفطن لذلك لاقتداره على الكلام وسهولة ألفاظه . وذكر ابن خلكان كغيره من أهل التاريخ وأخبار الناس ان واصل ابن عطاء كان يجلس الى الحسن البصرى رحمه الله فلما ظهر الاختلاف فقالت الخوارج بتكفير مرتكبى الكبيرة وقالت الجماعة بأنهم مؤمنون وان فسقوا بالكبائر فخرج واصل بن عطاء عن الفريقين ، وقال ان الفاسق من هذه الامة لا مؤمن ولا كافر منزلة بين منزلتين ، فطرده الحسن عن مجلسه فاعتزل عنه وجلس اليه عمرو بن عبيد فقيل لهما ولاتباعهما معتزلون . فهذا سبب تسميتهم بالمعتزلة . ولواصل من التصانيف كتاب المرجئة ، وكتاب التوبة ، وكتاب المنزلة بين المنزلتين ، وكتاب خطبته التى أخرج منها الراء ، وكتاب معانى القرآن ، وكتاب الخطب فى العدل والتوحيد ، وكتاب ما جرى بينه وبين عمرو بن عبيد ، وكتاب السبيل الى معرفة الحق ، وغير ذلك . وكانت ولادته سنة ثمانين من الهجرة بمدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتوفى سنة احدى وثلاثين ومائة وهو من موالى بنى منبه (؟) وقيل من موالى بنى مخزوم

عمرو بن عبيد

وأما عمرو بن عبيد بن باب فمن موالى بنى عقيل آل غزادة (١) بن يربوع بن مالك ، كان جده باب من سبى كابل (٢) من جبال السند ، وكان عمرو شيخ المعتزلة فى وقته ، وله كتاب تفسير عن الحسن البصرى ، وله كتاب الرد على القدرية ، وله كلام كثير فى العدل والتوحيد على اعتقاد المعتزلة . وولد سنة ثمانين من الهجرة ومات سنة أربع وأربعين ومائة وهو

---

(١) كذا وفي تاريخ بغداد « عرادة » (٢) مط « كالملل »

راجع الى (؟) مكة بموضع يقال له مران على ليلتين من مكة (١) من جهة البصرة والله أعلم

(الرابع)

الخبر وتعريف الصدق والكذب

الخبر ان طابق ما فى الخارج فهو صدق ، وان لم يطابق الواقع فى الخارج فهو كذب ، ولا فرق فى ذلك بين اعتقاد المطابقة مع الصدق أو عدمها مع الكذب وبين ان لا يعتقد شيئا أو يعتقد عدم المطابقة مع وجودها أو يعتقد وجودها مع عدمها . فاذا علم هذا علم انه لا واسطة بين الصدق والكذب ، وهذا مذهب أهل الحق خلافا للجاحظ فى زعمه ان المطابقة مع اعتقاد المطابقة صدق ، وغير المطابقة مع اعتقاد عدم المطابقة كذب ، وغيرهما واسطة لا صدق ولا كذب ، فيدخل فى الواسطة أربعة أقسام فتصير الاقسام عنده ستة . ويكون الصدق والكذب فى مستقبل كما يكونان فى زمن ماض . وموردهما النسبة التى تضمنها الخبر بايقاع المخبر .

تقسيم الخبر الى معلوم صدقه وغيره

ومن الخبر ماهو معلوم صدقه وهو أنواع **(أحدها) مايكون علم صدقه ضروريا بنفس الخبر من غير نظر كالخبر الذى بلغت رواته حد التواتر لفظيا كان أو معنويا على الاصح (الثانى) مايكون ضروريا بغير نفس الخبر بل لكونه موافقا** للضرورى وهو ما يكون متعلقه معلوما لكل أحد من غير كسب وتكرر **نحو** : الواحد نصف الاثنين (الثالث) **ما يكون ضروريا (٢)** كخبر الله تعالى وخبر رسوله صلى الله عليه وسلم وخبر كل الأمة ، لان الاجماع حجة ، فكل واحد من هذه الثلاثة **علم** بالنظر والاستدلال (النوع الرابع) ما يكون غير ضرورى وغير نظرى ولكنه موافق للنظر وهو الخبر الذى علم متعلقة بالنظر كقولنا : العالم حادث .

ومن الخبر ما هو معلوم كذبه وهو أيضا أنواع (أحدها) ما علم خلافه بالضرورة كقول القائل النار باردة (الثانى) ما علم خلافه بالاستدلال كقول الفيلسوف العالم قديم (الثالث) أن يوهم أمرا باطلا من غير أن

---

(١) بهامش مخ : بل ثلاث للمجد وخمس للرواحل المثقلة .
(٢) كذا فى الاصلين والظاهر «نظريا»

يقبل التأويل لمعارضته للدليل العقلى كما لو اختلق بعض الزنادقة حديثا كذبا على الله تعالى وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم يتحقق انه كذب (الرابع) أن يدعى شخص الرسالة عن الله عز وجل بغير معجزة •

ومن الخبر أيضا ما هو محتمل للصدق والكذب (فالاول) ما تقدمت أنواعه الضرورية من المتواتر وموافق الضرورى ونظـرى كخبر الله تعالى ورسوله والاجماع وخبر من وافق أحدها أو ثبت به صدقه (الثانى) من الخبر المعلوم كذبه ما تقدمت أنواعه مما خالف ما علم صدقه (الثالث) من الخبر وهو المحتمل الصدق والكذب فثلاثة أنواع (أحدها) كخبر العدل يترجح صدقه على كذبه ويتفاوت فيه الظن (الثانى) ما ظن كذبه كخبر الكذاب يترجح كذبه على صدقه وهو متفاوت أيضا و (الثالث) ما شك فيه كخبر مجهول الحال فيستوى فيه الاحتمالان لعدم المرجح • ولا يلزم من عدم علم صدق الخبر كذبه •

مدلول الخبر

ومدلول الخبر من حيث هو الحكم بالنسبة لا بثبـوتها ، فاذا قيل زيد قائم ـ فمدلوله الحكم بثبوت قيامه لا نفس ثبوت قيامه ، اذ لو كان الحـكم بالنسبة ثبوت قيام زيد للزم منه أن لا يكون شىء من الخبر كذبا بل يكون كله صدقا • وخالف القرافى فقال : العرب لم تضع الخبر الا للصدق لاتفاق اللغويين والنحويين على ان معنى قام زيد حصول القيام منه فى الزمن الماضى ، واحتماله الكذب ليس من الوضع بل من جهة المتكلم • انتهى قال الكورانى : التحقيق فى هذا المقام هو أن الخبر مثل زيد قائم اذا صدر عن المتكلم بالقصد يدل على الايقاع وهو الحكم الذى صدر عن المتكلم ، ويدل أيضا على الوقوع ، فكل منهما يسمى حكما ، فاحتمال الصدق والكذب وصدق الخبر وكذبه فى نفس الامر انما هو باعتبار الايقاع لانه المتصف بذلك لا الوقوع ، وأما باعتبار افادة المخاطب فالحكم هو الوقوع لأنك اذا قلت زيد قائم فانما تفيد المخاطب وقوع القيام لا أنك أوقعت القيام على زيد فانه لا يعد فائدة والله أعلم •

المتواتر والآحاد

(الخامس تعريف المتواتر والآحاد ومتعلقات ذلك)

التواتر لغة تتابع شيئين فصاعدا بمهلة ، واصطلاحا خبر عدد يمتنع معه لكثرته تواطؤ على كذب – عن محسوس أو عن عدد كذلك الى أن ينتهى الى محسوس من مشاهدة أو سماع • فقوله خبر جنس يشمل المتواتر وغيره ، وباضافته الى عدد يخرج خبر الواحد ، وبقوله يمتنع معه الخ يخرج به خبر عدد لم يتصف بالوصف المذكور ، وخرج بقيد المحسوس ما كان عن معلوم بدليل عقلى كاخبار أهل السنة دهريا بحدوث العالم لتجويز غلطهم فى الاعتقاد • **وهذا الخبر المتواتر مفيد للعلم بنفسه فقيد** بنفسه لاخراج الخبر الذى صدق المخبرين به بسبب القرائن المحتفة به • والحاصل بخبر التواتر ضرورى عند أصحابنا والاكثر اذ لو كان نظريا لافتقر الى توسط المقدمتين ولما حصل لمن ليس من أهل النظر كالنساء والصبيان ولساغ الاختلاف فيه عقلا كسائر النظريات ، فالعلم الضرورى ما اضطر العقل الى التصديق به وهذا كذلك (وقال أبو الخطاب الكلوذانى وجمع) انه نظرى اذ لو كان ضروريا لما افتقر الى النظر فى المقدمتين وهما اتفاقهم على الاخبار وامتناع تواطئهم على الكذب فصورة الترتيب (١) ممكنة • ورد ذلك بأن ما ذكره مطرد فى كل ضرورى (وقال الطوفى فى مختصره) الخلاف لفظى اذ مراد الاول بالضرورى ما اضطر العقل الى تصديقه ، والثانى البديهى الكافى فى حصول الجزم به تصور طرفيه ، والضرورى ينقسم اليهما ، فدعوى كل فريق غير دعوى الآخر ، والجزم حاصل على كلا القولين •

ثم اعلم ان خبر التواتر لا يولد العلم بل يقع العلم عنده بفعل الله تعالى عند الفقهاء وغيرهم من أهل الحق ، وخالف قوم ، وهو على المعتمد بمنزلة اجراء العادة بخلق الولد من المنى والله قادر على خلقه بدون ذلك خلافا لمن قال بالتولد •

والتواتر من حيث هو قسمان لفظى كحديث « من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار » فقد رواه عن النبى صلى الله عليه وسلم نيف

---

(١) مخ «التركيب»

وستون صحابيا منهم العشرة المبشرون بالجنة رضى الله عنهم أجمعين • والتواتر يكون فى القرآن كالقراءات السبع ، واختلف فى الثلاث الباقية هل هى متواترة أولا ، والحق انها متواترة • وأما الاجماع فالمتواتر فيه كثير • وأما السنة فالمتواتر فيها قليل حتى ان بعضهم نفى المتواتر اللفظى من السنة الا حديث « من كذب على متعمدا » وزاد بعضهم حديث الحوض كما سنذكره فى محله ، وكذا حديث الشفاعة قال القاضى عياض : بلغ التواتر ، وحديث المسح على الخفين قال ابن عبد البر : رواه نحو أربعين صحابيا واستفاض وتواتر •

(وأما التواتر المعنوى) من السنة بأن يتواتر معنى فى ضمن أحاديث مختلفة الالفاظ متحدة المعنى فكثير ، فالمتواتر المعنوى هو تغاير الالفاظ مع الاشتراك فى معنى كلى ولو بطريق اللزوم كحديث الحوض وسخاء حاتم وشجاعة على رضى الله عنه وغيرها ، وذلك اذا كثرت الاخبار فى الواقع واختلف فيها لكن كل واحد منها يشتمل على معنى مشترك بينها بجهة التضمن أو الالتزام فيحصل العلم بالقدر المشترك وهو مثلا الشجاعة لعلى رضى الله عنه والسخاء لحاتم ونحو ذلك •

والمعتمد عدم انحصار التواتر فى عدد وانما يعلم حصول العدد اذا حصل العلم عنده ، ولا يلزم الدور اذ حصول العلم معلول الاخبار ودليله كالشبع والرى معلول المشبع والمروى ودليلهما وان لم يعلم القدر الكافى منهما • ويختلف العلم الحاصل بالتواتر باختلاف القرائن كالهيئات المقارنة للخبر الموجبة لتعريف متعلقه ، واختلاف أحوال المخبرين فى اطلاعهم على قرائن التعريف ، واختلاف ادراك المستمعين لتفاوت الاذهان والقرائح ، واختلاف الوقائع على عظمها وحقارتها • والمعتمد حصول العلم بالتواتر لكل من بلغه فيتفق الناس كلهم فى العلم به الا أنه يتفاوت المعلوم عند الامام أحمد رضى الله عنه والمحققين منهم شيخ الاسلام ابن تيمية روح الله روحه وغيره ، وعنه لا ، قال (المحقق ابن قاضى الجبل) : الاصح التفاوت فانا نجد بالضرورة الفرق بين كون الواحد نصف الاثنين وبين ما علمناه من جهة التواتر مع كون اليقين حاصلا فيهما ، وكما نفرق بين علم اليقين وعين

اليقين وحق اليقين • ولا يشترط اسلام العـــدد المشروط فى التواتر ولا عدالتهم خلافا لقوم اعتبروهما ، قالوا لان الكفر والفســـوق عرضـــة للكذب والتحريف ، ولأن النصارى نقلوا أن اليهود قتلوا المسيح وهو باطل بالنص (وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم) وبالاجماع • والجواب أنا نمنع حصول شرط التواتر للاختلال(١) فى الطبقة الاولى لكونهم لم يبلغوا عدد التواتر ، وكذا الجواب عن أخبار الامامية بالنص على امامة على رضى الله عنه • ولا يشترط أيضا أن لا يحويهم بلد ولا يحصيهم عدد خلافا لطوائف من الفقهاء ، لان أهل الجامع لو أخبروا عن سقوط المؤذن عن المنارة والخطيب عن المنبر لكان اخبارهم مفيدا للعلم فضلا عن أهـــل بلد

الآحاد والخلاف فى افادته العلم وتكفير منكره

وأما الآحاد فهو ما عدا المتواتر – فدخل مستفيض مشهور وهو ما زاد نقلته على ثلاثة عدول • وعزيز ، وهو ما (لا – ٢) تنقص نقلته عن عدلين • وخبر الآحاد ان كان مستفيضا مشهورا أفاد علما نظريا كما نقله العلامة ابن مفلح وغيره عن أبى اسحاق الاسفرايني وابن فورك ، وقيل يفيـــد القطع ، وغير المستفيض من سائر أخبار الآحاد يفيد الظن فقط ولو مع قرينة عند الاكثر لاحتمال السهو والغلط ونحوهما على ما دون عـــدد رواة المستفيض لقرب احتمال السهو والخطأ على عددهم القليل ، وقال الامام الموفق وابن حمدان والطوفى وجمع انه يفيـــد العلم بالقرائن ، قال العلامة علاء الدين على بن سليمان المرداوى فى شرح التحرير : وهذا أظهر وأصح ، والقرائن وان قال الماوردى لا يمكن أن تضبط بعادة فقد قال غيره بل يمكن أن تضبط بما تسكن اليه النفس كسكونها الى المتواتر أو قريب منه بحيث لا يبقى فيها احتمال عنده البتة • الا اذا نقله أى نقل خبر الآحاد غير المستفيض آحاد الائمة المتفق عليهم ، وعلى امامتهم وجلالتهم وضبطهم من طرق متساوية وتلقته الامة بالقبول فيفيد العلم حينئذ ، قال القاضى أبو يعلى : هذا المذهب • وقال أبو الخطاب هذا ظاهر كلام أصحابنا •

---

(١) مخ «للاختلاف» (٢) من مخ

واختاره ابن الزاغونى والامام تقى الدين ابن تيمية قدس الله روحه ، وقال : الذى عليه الاصوليون من أصحاب أبى حنيفة والشافعى وأحمد رضى الله عنهم أجمعين ان خبر الواحد اذا تلقته الامة بالقبول تصديقا وعملا به يوجب العلم الا فرقة قليلة تبعوا طائفة من أهل الكلام أنكروا ذلك ، والاول ذكره أبو اسحاق وأبو الطيب وذكره عبد الوهاب وأمثاله من المالكية والسرخسى وأمثاله من الحنفية وهو الذى عليه أكثر الفقهاء وأهل الحديث والسلف وأكثر الاشعرية وغيرهم • انتهى

احاديث الصحيحين والنظر فى افادتها العلم

قال ابن الصلاح ما أسنده البخارى ومسلم - العلم اليقينى النظرى واقع به خلافا لقول من نفى ذلك محتجا بأنه لا يفيد فى أصله الا الظن وانما تلقته الامة بالقبول لانه يجب عليهم العمل بالظن ، قال والظن قد يخطىء ، قال ابن الصلاح وقد كنت أميل الى هذا وأحسبه قويا ثم بان لى ان المذهب الذى اخترناه أولا هوالصحيح لان ظن من هو معصوم من الخطأ لا يخطىء والامة فى اجماعها معصومة من الخطأ • وقال الامام النووى من الشافعية خالف ابن الصلاح المحققون والاكثرون وقالوا يفيد الظن ما لم يتواتر • انتهى • قال الامام ابن عقيل والحافظ ابن الجوزى والقاضى أبو بكر الباقلانى وأبو حامدوابن برهان والفخر الرازى والسيف الآمدى وغيرهم : لا يفيد العلم ما نقله آحاد الامة المتفق عليهم ولو تلقى بالقبول • وقال الاستاذ أبو اسحاق الاسفرائنى : يفيده عملا لا قولا • انتهى • ونص الامام أحمد رضى الله عنه فى رواية الاثرم انه يعمل به ولا نشهد بأن النبى صلى الله عليه وسلم قاله • وأطلق ابن عبد البر وجماعة انه قول جمهور أهل الأثر والنظر حتى قال بعضهم ولو مع قرينة • ونقل حنبل عى الامام أحمد رضىالله عنه : أخبار الرؤية حقنقطع على العلم بها • وقال له المروذى هنا انسان يقول : الخبر يوجب عملا لا علما • فعابه وقال لا أدرى ما هذا • وفى كتاب الرسالة لاحمد بن جعفر الفارسى عن الامام أحمد رضى الله عنه • لانشهد على أحد من أهل القبلة انه فى النار لذنب عمله ولا لكبيرة اتاها الا أن يكون ذلك فى حديث كما جاء نصدقه ونعلم انه كما جاء • قال القاضى ذهب الى هذا جماعة من أصحابنا انه يفيد •

وذكره القاضى فى مقدمة المجرد عن علمائنا ، وجزم به ابن أبى موسى ، وقاله كثير من أهل الاثر وبعض أهل النظر والظاهرية وابن خويزمنداد المالكى وانه مخرج على مذهب مالك . ولما وقف ابن كثير على اختيار ابن الصلاح من أن ما أسند فى الصحيحين مقطوع بصحته قال : وانا مع ابن الصلاح فيما عول عليه وأرشد اليه . قال ثم وقفت على كلام لشيخنا العلامة ابن تيمية مضمونه انه نقل القطع بالحديث الذى تلقته الامة بالقبول عن جماعات ونقل ما قدمنا عنه وزاد : وابن حامد والقاضى أبو يعلى وأبو الخطاب وابن الزاغونى وأمثالهم من الحنابلة ، وشمس الائمة من الحنفية . قال : وهو مذهب أهل الحديث قاطبة ومذهب السلف عامة .

(تنبيه) قد قدمنا أن المستفيض مازاد نقلته على ثلاثة عدول فلابد أن يكونوا أربعة فصاعدا . وقال قوم هو ما عده الناس شائعا . وقال محيي الدين يوسف الجوزى : المستفيض ما ارتفع عن ضعف الآحاد ولم يلتحق بقوة المتواتر . والله أعلم .

(السادس)

الأخذ بالآحاد فى العقائد

يعمل بخبر الآحاد فى أصول الدين ، وحكى الامام ابن عبد البر الاجماع على ذلك . قال الامام أحمد رضى الله عنه : لا نتعدى القرآن والحديث . وقال القاضى أبو يعلى يعمل به فى الديانات اذا تلقته الامة بالقبول ، ولهذا قال الامام أحمد رضى الله عنه قد تلقتها العلماء (١) بالقبول. قال العلامة ابن قاضى الجبل : مذهب الحنابلة ان أخبار الآحاد المتلقاة بالقبول تصلح لاثبات أصول الديانات ، ذكره القاضى أبو يعلى فى مقدمة المجرد والشيخ تقى الدين فى عقيدته . انتهى . وقال أبو الخطاب وابن عقيل وغيرهما : لا يعمل به فيها . ولا يكفر منكر خبر الآحاد فى الاصح ، حكى ابن حامد الوجهين عن الاصحاب ، ونقل تكفيره عن الامام اسحاق بن راهويه . قال فى المسودة قد اختلف العلماء فى تكفير من يجحد ما ثبت بخبر الواحد العدل ، وقد ذكر ابن حامد فى أصوله عن أصحابنا فى ذلك

(١) مخ « الامة »

وجهين ، والتكفير منقول عن الامام اسحاق بن راهويه . انتهى . قال ابن حامد لكن غالب أصحابنا على كفره فيما يتعلق بالصفات . وذكر في مكان آخر أن جحد أخبار الآحاد كفر كالمتواتر عندنا فانه يوجب العلم والعمل . فأما من جحد العلم بها فالاشبه انه لا يكفر ويكفر في نحو ما ورد في الاسراء والنزول ونحوهما من الصفات كما في حاشية الجراعي على أصول العلامة ابن اللحام رحمهما الله تعالى . وقال شيخ الاسلام ابن تيمية قدس الله روحه في شرح العقيدة الاصفهانية : يجب تصديق كل مسلم بما أخبر به الله ورسوله من صفاته تعالى فليس ذلك موقوفا على أن يقوم دليل عقلي على تلك الصفة بعينها فانه مما يعلم بالاضطرار من دين الاسلام ان الرسول صلى الله عليه وسلم اذا أخبرنا بشيء من صفات الله تعالى وجب علينا التصديق به وان لم ندرك ثبوته بعقولنا ومن لم يقر بما جاء به الرسول حتى يعلمه بعقله فقد أشبه الذين قال الله تعالى عنهم (وقالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله الله أعلم حيث يجعل رسالاته) (١) ومن سلك هذا السبيل فهو في الحقيقة ليس مؤمنا بالرسول ولا متلقيا عنه الاخبار بشأن الربوبية كما سنذكر هذه المقالة في محالها ان شاء الله تعالى

(السابع)

مذهب السلف

المراد بمذهب السلف ما كان عليه الصحابة الكرام رضوان الله عليهم وأعيان التابعين لهم باحسان واتباعهم وأئمة الدين ممن شهد له بالامامة وعرف عظم شأنه في الدين وتلقى الناس كلامهم خلف عن سلف دون من رمى ببدعة أو شهر يلقب غير مرضى مثل الخوارج والروافض والقدرية والمرجئة والجبرية (٢) والجهمية والمعتزلة والكرامية ونحو هؤلاء مما يأتي ذكرهم عند تعداد الفرق ، لكن لما كان

---

(١) مخ « رسالته » وكلاهما مقروء به في السبع

(٢) بهامش مخ - الجبرية بالتحريك خلاف القدرية والتسكين لحن أو هو الصواب والتحريك للازدواج . قاموس . ا هـ

فشو البدع وظهورها بعد المائتين لما عربت الكتب العجمية كما تقدم وزاد البلاء وأظهر المأمون القول بخلق القرآن وظهر مذهب الاعتزال ظهورا لا مزيد عليه بسبب انحراف الخلفاء عن مذهب الحق وكان الذى قام فى نحورهم ورد مقالتهم وابطال مذهبهم وتزييفه وذم من ذهب اليه أو عول عليه أو انتمى الى ذويه أو ناضل عنه أو مال اليه سيدنا وقدوتنا الامام المبجل والحبر البحر المفضل أبا عبد الله الامام أحمد بن محمد بن حنبل نسب مذهب السلف اليه وعول أهل عصره من أهل الحق فمن بعدهم عليه ، والا فهو المذهب المأثور والحق الثابت المشهور لسائر أئمة الدين وأعيان الامة المتقدمين (١) **قال حرب بن اسماعيل الكرمانى فى** كتابه المصنف فى مسائل الامام أحمد بن حنبل رضى الله عنه واسحاق بن ابراهيم بن راهويه مع ما ذكر فيها من الآثار عن النبى المختار والصحابة الابرار والتابعين الاطهار ومن بعدهم ، قال : هذا مذهب أئمة العلم وأصحاب الاثر المعروفين بالسنة المقتدى بهم فيها ، وأدركت من أدركت من علماء العراق والحجاز والشام عليها ، فمن خالف شيئا من هذه المذاهب أو طعن فيها أو عاب قائلها فهو مبتدع خارج عن الجماعة زائل عن سبيل السنة ومنهج الحق • قال وهو مذهب الامام أحمد واسحاق وبقى بن مخلد وعبد الله بن الزبير الحميدى وسعيد بن منصور وغيرهم ممن جالسنا وأخذنا عنهم العلم ـ فذكر الكلام فى الايمان والقدر والوعيد والامامة الخ كلامه كما سننبه عليه فى محاله • وممن ألف فى عقائد السلف وذكر معتقدهم فى كتب التفسير المنقولة عن السلف مثل تفسير عبد الرزاق وتفسير الامام أحمد واسحاق وبقى بن مخلد وعبد الرحمن ابن ابراهيم دحيم وعبد بن حميد وعبد الرحمن بن أبى حاتم ومحمد ابن جرير الطبرى وأبى بكر بن المنذر وأبى بكر عبد العزيز وأبى الشيخ الاصفهانى وأبى بكر بن مردويه وغيرهم • وكذلك الكتب المصنفة فى السنة والرد على الجهمية وأصول الدين المنقولة عن السلف مثل كتاب الرد على الجهمية لمحمد بن عبد الله الجعفى شيخ البخارى ، وكتاب خلق

---

(١) مط « المقدمين »

الافعال للبخارى ، وكتاب السنة لابى داود ولابى بكر الاثرم ولعبد الله ابن الامام أحمد ولحنبل بن اسحاق ولابى بكر الخلال ولابى الشيخ الاصفهانى ولابى القاسم الطبرانى ولابى عبد الله بن منده وأمثالهم ، وكتاب الشريعة لابى بكر الآجرى ، والابانة لابى عبدالله ابن بطة ، وكتاب الاصول **لابى عبدالله الطلمنكى ، وكتاب رد عثمان بن سعيد الدرامى ، وكتاب الرد** على الجهمية له وغير ذلك . فالائمة الاربعة والسفيانان والحمادان وابنا أبى شيبة والليث بن سعد وابن أبى ذئب وربيعة بن أبى عبد الرحمن والبخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن خزيمة وابن ماجه **وابن حبان وأبو ثور وابن جريج والاوزاعى وابن الماجشون وابن أبى ليلى** وأبو عبيد بن سلام ومسعر بن كدام الامام ومحمد بن يحيى الذهلى امام اهل خراسان بعد اسحاق بلا مدافعة وأبو حاتم الرازى ومحمد بن نصر المروزى وغير هؤلاء كلهم على عقيدة واحدة سلفية أثرية ، وان كان الاشتهار للامام أحمد بن حنبل رضى الله عنه للعلة التى ذكرناها حتى ان الشيخ أبا حسن الاشعرى قال فى كتابه — الابانة فى أصول الديانة — ما نصه بحروفه « فان قال قائل قد أنكرتم قول المعتزلة والقدرية والجهمية والحرورية والرافضة والمرجئة فعرفونا قولكم الذى به تقولون وديانتكم التى بها تدينون ، قيل له قولنا الذى به نقول وديانتنا التى بها ندين ، التمسك بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وما روى عن الصحابة والتابعين وأئمة الحديث ، فنحن بذلك معتصمون ، وبما كان عليه الامام أحمد بن حنبل نضر الله وجهه قائلون ، ولمن خالف قوله مجانبون ، لانه الامام الفاضل ، والرئيس الكامل ، الذى أبان الله به الحق عند ظهور الضلال ، وأوضح به المنهاج ، وقمع به المبتدعين ، فرحمة الله عليه من أمام مقدم ، وكبير مفهم (١) وعلى جميع أئمة المسلمين » انتهى . فنسب المذهب اليه لاشتهاره بذلك مع ان سائر أئمة الدين سلكوا تلك المسالك وبالله التوفيق .

---

(١) مخ «مفخم »

(الثـــامن)

اول ظهور البدع

قال الجلال السيوطى فى الاوائل : أول من تفوه بكلمة خبيثة فى الاعتقاد الجعد بن درهم مؤدب مروان الحمار آخر ملوك بنى أمية فقـــال بأن الله تعالى لا يتكلم • قال شيخ الاسلام فى الرسالة الحموية الكبرى : أصل فشو البدع بعد القرون الثلاثة وان كان قد نبغ أصلها فى أواخر عصر التابعين • قال ثم أصل مقالة التعطيل للصفات انما هو مأخـــوذ من تلامذة اليهود والمشركين وضلال الصابئين فان أول من حفظ عنه انه قال هذه المقالة فى الاسلام هو الجعد بن درهم وأخذها عنه الجهم بن صفوان وأظهرها فنسبت اليه ، وقد قيل ان الجعد أخذ مقالته عن ابان بن سمعان وأخـــذها ابان عن طالوت ابن أخت لبيـــد بن الاعصـــم (وأخـــذها طالوت عن لبيـــد بن الاعصـم) اليهودى الســـاحر الذى ســـحر النبى صلى الله عليه وسلم ، وكان الجعد هـــذا فيما قيل من أهل حران وكان فيهم خلق كثير من الصائبة والفلاسفة بقايا أهل دين النمرود والكنعانيين الذين صنف بعض الساحرين فى سحرهم ، والنمرود هو ملك الصابئة كما ان كسرى ملك الفرس والمجوس فهو اسم جنس لا اســـم علم • قال : وكانت الصابئة اذ ذاك الا قليلا منهم على الشرك وعلماؤهم الفلاسفة وان كان الصابىء قد لا يكون مشركا بل مؤمنـــا بالله واليـــوم الآخـــر كمـــا قال تعـــالى (ان الذين آمنـــوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) لكن كثيرا منهم أو أكثرهم كانوا كفارا ومشركين وكانوا يعبدون الكواكب ويبنون لها الهياكل ،ومذهب النفاة الذين يقولون ليس له صفات الاسلبية أو اضافية أو مركبة منهما وهم الذين بعث سيدنا ابراهيم خليل الرحمن اليهم ، فيكون الجعد أخذ عقيدته عن الصابئة الفلاسفة وأخذها الجهم أيضا ـ فيما ذكره الامام أحمد رضى الله عنه ـ عنه وعن غيره وكذلك أبو نصر الفارابى دخل حران وأخذ عن فلاسفة الصابئة تمام فلسفته لما ناظر السمنية بعض فلاسفة الهنـد وهم

الذين يجحدون من العلوم ما سوى الحسيات ، فرجعت أسانيد الجهم الى اليهود والصابئين والمشركين والفلاسفة الضالين اما من الصابئين واما من المشركين ، فلما عربت الكتب الرومية زاد البلاء مع ما ألقى الشيطان فى قلوب أهل الضلال ابتداء من جنس ما ألقاه فى قلوب أشباههم •

ولما كان بعد المائة الثانية انتشرت هذه المقالة التى كان السلف يسمونها مقالة الجهمية بسبب بشر بن غياث المريسى (١) وذويه • وكلام الائمة مثل مالك وسفيان بن عيينة وابن المبارك وأبى يوسف والشافعى واحمد واسحاق والفضيل بن عياض وبشر الحافى وغيرهم فى هؤلاء فى ذمهم وتضليلهم معروف ، وهذه التأويلات الموجودة اليوم بأيدى الناس مثل أكثر التأويلات التى ذكرها أبو بكر بن فورك فى كتاب (التأويلات) وأبو عبد الله محمد ابن عمر الرازى فى كتابه الذى سماه (تأسيس التقديس) ويوجد كثير منها فى كلام خلق غير هؤلاء مثل أبى على الجبائى وعبد الجبار بن احمد الهمذانى وأبى الحسين البصرى وغيرهم هى بعينها التأويلات التى ذكرها بشر المريسى فى كتابه كما يعلم ذلك من كتاب الرد الذى صنفه عثمان بن سعيد الدارمى أحد الأئمة المشاهير فى زمن البخارى وسمى كتابه (رد عثمان ابن سعيد ، على الكاذب العنيد ، فيما افترى من التوحيد) فانه حكى هذه التأويلات بأعيانها عن بشر المريسى ثم ردها بكلام اذا طالعه العاقل الذكى يسلم حقيقة ما كان عليه السلف ويتبين له ظهور الحجة لطريقهم وضعف حجة من خالفهم • وقد أجمع أئمة الهدى على ذم المريسية بل أكثرهم كفرهم وضللهم ، ويعلم بمطالعة كتاب ابن سعيد الدارمى ان هذا القول السارى فى هؤلاء المتأخرين الذين تسموا بالخلف هو مذهب المريسية فلا حول ولا قوة الا بالله ، فمذهب السلف حق بين باطلين وهدى بين ضلالين ، قال سيدنا الامام احمد رضى الله عنه : لا يوصف الله تعالى الا بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم لا نتجاوز القرآن والحديث • قال شيخ الاسلام ابن تيمية روح الله روحه : مذهب السلف انهم يصفون الله تعالى بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم من

(١) بهامش مخ : مريسة كسكينة قرية منها بشر بن غياث المريسى • قاموس أ هـ

غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل ، فالمعطل يعبد عدما ، والممثل يعبد صنما ، والمسلم يعبد اله الارض والسماء . والله أعلم .

(التاسع)

مذهب السلف هو الحق

مذهب السلف هو المذهب المنصور ، والحق الثابت المأثور ، وأهله هم الفرقة الناجية ، والطائفة المرحومة التى هى بكل خير فائزة ولكل مكرمة راجية ، من الشفاعة والورود على الحوض ورؤية الحق وغير ذلك من سلامة الصدر والايمان بالقدر والتسليم لما جاءت به النصوص ، فمن المحال أن يكون الخالفون أعلم من السالفين كما يقوله بعض من لا تحقيق لديه — ممن لا يقدر قدر السلف ولا عرف الله تعالى ولا رسوله ولا المؤمنين به حق المعرفة المأمور بها — من أن طريقة السلف أسلم وطريقة الخلف أعلم وأحكم ، وهؤلاء انما أتوا من حيث ظنوا أن طريقة السلف هى مجرد الايمان بألفاظ القرآن والحديث من غير فقه ذلك بمنزلة الاميين ، وان طريقة الخلف هى استخراج معانى النصوص المصروفة عن حقائقها بأنواع المجازات وغرائب اللغات ، فهذا الظن الفاسد أوجب تلك المقالة التى مضمونها نبذ الاسلام وراء الظهور ، وقد كذبوا وأفكوا على طريقة السلف وضلوا فى تصويب طريقة الخلف ، فجمعوا بين باطلين الجهل بطريقة السلف فى الكذب عليهم والجهل والضلال بتصويب طريقة غيرهم .قال الحافظ ابن رجب فى كتابه (بيان فضل علم السلف ، على علم الخلف) ما نصه « ومن محدثات الامور ما أحدثه المعتزلة ومن حذا حذوهم من الكلام فى ذات الله تعالى وصفاته بأدلة العقول وهى أشد خطرا من الكلام فى القدر لأن الكلام فى القدر كلام فى أفعاله وهذا كلام فى ذاته وصفاته ، وينقسم هؤلاء الى قسمين أحدهما من نفى كثيراً مما ورد به الكتاب والسنة لاستلزامه عنده التشبيه كنفى الرؤية والاستواء ، وهذا طريق المعتزلة والجهمية وقد اتفق السلف على تبديعهم وتضليلهم ، وقد سلك سبيلهم فى بعض الامور كثير ممن ينتسب الى السنة والحديث من المتأخرين .والثانى من رام اثبات ذلك بأدلة العقول التى لم يرد بها الاثر ورد على أولئك

مقالتهم كالكرامية ومن وافقهم حتى ان منهم من أثبت الجسم اما لفظا واما معنى ومنهم من أثبت له تعالى صفات لم يأت بها الكتاب والسنة كالحركة ، وقد أنكر السلف على مقاتل رده على جهم بأدلة العقل وبالغوا فى الطعن عليه، والصواب ما عليه السلف الصالح من امرار آيات الصفات وأحاديثها كما جاءت من غير تكييف ولا تمثيل ولا يصح عن أحد من السلف خلاف ذلك البتة خصوصا الامام احمد رضى الله عنه • ولا خوض فى معانيها ولا ضرب مثل لها وان كان بعض من كان قريبا من زمنه فيهم من فعل ذلك من ذلك(؟) **اتباعا لطريقة مقاتل بن سليمان فلا يقتدى به فى ذلك وانما الاقتداء بأئمة** الاسلام كابن المبارك ومالك والثورى والاوزاعى والشافعى واحمد واسحاق وأبى عبيد ونحوهم رضى الله عنهم ، فكل هؤلاء لا يوجد فى كلامهم شىء من جنس كلام المتكلمين فضلا عن كلام الفلاسفة ولم يدخل ذلك فى كلامه من سلم من قدح وجرح ، وقد قال أبو زرعة الرازى : كل من كان عنده علم فلم يصن علمه واحتاج فى نشره الى شىء من الكلام فلستم منه • وقال الحافظ ابن رجب أيضا : وفى زماننا تتعين كتابة كلام أئمة السلف المقتدى بهم الى زمن الشافعى واحمد واسحاق وأبى عبيد ، وليكن الانسان على حذر مما حدث بعدهم فانه حدث بعدهم حوادث كثيرة وحدث من انتسب الى متابعة السنة والحديث من الظاهرية ونحوهم وهو أشد مخالفة لها لشذوذه عن الامة وانفراده عنهم بفهم يفهمه أو بأخذ مالم تأخذ به الامة من قبله ، وأما الدخول مع ذلك فى كلام المتكلمين والفلاسفة فشر محض وقل من دخل فى شىء من ذلك الا وتلطخ ببعض أوضارهم كما قال الامام احمد رضى الله عنه : لا يخلو من نظر فى الكلام الا تجهم • وكان هو وغيره يحذرون من أهل الكلام وان ذبوا عن السنة

وأما ما يوجد فى كلام من أحب الكلام المحدث واتبع أهله من ذم من لا يتوسع فى الخصومات والجدال ونسبته الى الجهل أو الحشو أو الى أنه غير عارف بالله أو بدينه فمن خطوات الشيطان نعوذ بالله منه • انتهى ملخصا •

وفى الآداب للعلامة ابن مفلح رحمه الله تعالى عن الطبرانى قال حدثنا عبد الله ابن الامام احمد قال حدثنى أبى قال : قبور أهل السنة من أهل

الكبائر روضة ، وقبور أهل البدعة من الزنادقة حفرة . فساق أهل السنة أولياء الله ، وزهاد أهل البدعة أعداء الله . وفى صحيح مسلم عن زيد بن أرقم رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يقول « اللهم انى أعوذ بك من علم لا ينفع ومن قلب لا يخشع ومن نفس لا تسمع ومن دعوة لا يستجاب لها » وخرجه أهل السنن من وجوه متعددة عن النبى صلى الله عليه وسلم وفى بعضها « ومن دعاء لا يسمع » وفى بعضها « أعوذ بك من هؤلاء الاربع » وأخرج الترمذى من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يقول « اللهم انفعنى بما علمتنى وعلمنى ما ينفعنى » ورواه النسائى من حديث انس رضى الله عنه وزاد « وارزقنى علما تنفعنى به » ويأتى الكلام على هذا بأبسط من هذا فى المقدمة والله أعلم

(العـــاشر)

من اصـــلاح الشارح

اعلم رحمك الله تعالى ان اصطلاحي فى هذا الشرح الاستدلال بالكتاب القديم (١) وبقول النبى الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم ، واقتفاء بالصحابة الكرام رضوان الله تعالى عليهم وما درج عليه الرعيل الاول من القرون المفضلة مما تلقاه أئمة الدين بالقبول ، وأثبتوه بالنقـول ، وأصلوه فى الاصول ، وان زعم متحذلق انه يباين العقول ، فهو كلام باطل ومذهب معلول . فان الانبياء عليهم الصلاة والسلام تأتى بمحـــارات العقول لا بمحالاتها ، فمن زعم ان العقل يحيل شيئا مما جاءت به الانبياء عليهـــم الصلاة والسلام فلا يخلو من أحد أمرين اما عدم ثبوته عنهم واما عجز العقل عن ادراكه ، ولا يلزم من عجز العقول عن ادراك شىء من الاصول أو غيرها أن يكون مستحيلا كحديث النزول مع عدم الانتقال وكون القرآن كلام الله وصفته مع عدم الانفصال (٢) ونظائر ذلك كثيرة جدا ، فمن لم

(١) يأتى فى التعليق على مسئلة القرآن ما فى هذا . وفى تنبيه ابن سحمان ص ٢٠ « الذى عليه أهل السنة والجماعة ان كلام الله ســبحانه وتعالى حادث الآحاد قديم النوع »

(٢) يأتى ما فى هذا فى التعليق على مسألتى النزول والقرآن فى المتن والشرح .

يسلم للمنقول وقابله بالرد بالمعقول فهو ضال مخبول ،فمذهبنا هو ماوافق صحيح المنقول وصريح المعقول الذى يجمع ما فى الاقوال المختلفـــة من الصواب ويجتنب ما فيها من الخطأ والارتياب وهدا هو مذهب سلف الأمة وسائر الأئمة ، وهو الذى يدل عليه الكتاب والسنة واجماع السلف ، فان الله تعالى بين فى كتابه الحق ، بما ضربه فيه من الامثال للخلق ،ويذكر لك من البراهين ، مايفيد لسليم الصدر عين اليقين ، فاذا تأمل العاقل الفهيم نهاية ما يذكره أهل النظر من جميع طوائف المتكلمة والمتفلسفة ونحوهم يجد الذى فى القرآن أكمل منه وأوضح بيانا معسلامته من المراءوالجدال ، وزبالات افهام الرجال ، ومن لم يكن علمه متلقى من الكتاب والسنة فهو غير نافع ولا منتفع به بل ضره أكثر من نفعه ، وعلامة هذا العلم كما قال الحافظ ابن رجب أن يكتسب صاحبه الزهو والفخر والعجب والخيـــلاء وطلب العلو والرفعة فى الدنيا والمنافسة فيها وطلب مباهاة العلماء ومماراة السفهاء وصرف وجوه الناس اليه •

ومرادى بالشيخ وشيخ الاسلام حيث أطلق شيخ الاســلام ابن تيمية ، ومرادى بالمحقق تلميذه ابن القيم ، وبالعلامة ابن مفلح • واعلم أن غالب ما فى هذه التعريفات ستمر بك فى محالها وانما قصدت جمعها لك لتكون على بصيرة منها وهذا أوان الشروع فى المقصود من شرح المنظومة والله أعلم •

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير بسملة المتن

((بسم الله)) أى باسم مسمى هذا اللفظ الاعظم الموصوف بأوصاف الكمال، فالباء متعلقة بمحذوف وتقديره فعلا خاصا مؤخرا أولى من تقديره اسما عاما مقدما ، أما أولوية كونه فعلا فلانه الاصل في العمل وحينئذ فمحل الجار والمجرور النصب على المفعولية بالفعل المقدر ، وأما أولوية كونه خاصا فلانه أدل على المطلوب فتقدير أؤلف عند التأليف أولى من أبتدىء وكذا عنـد القراءة ونحو ذلك فيقدر عند كل أمر ماينا سبه ، وأما أولوية تقديره مؤخرا فلأمرين ، أحدهما الاهتمام بالابتداء باسم الله تعالى لفظا وتقديرا لانه تعالى

مقدم ذاتا فقـــدم ذكرا ليوافق الاســـم المسمى ، والثـــانى لافادة التخصيص كما فى قوله تعالى (اياك نعبد واياك نستعين) لا يقال الاولى ملاحظة قوله تعالى (اقرأ باسم ربك) لأنا نقول المطـــلوب الأهـــم ثم القراءة لأنها أول مانزل عليه صلى الله عليه وسلم وأول ما طرق المسامع الشريفة من الوحى فكان الانسب تقديم القراءة لمزيد الاعتناء بها والاهتمام لها • وحذفت همزة الوصل من الاسم خطا كما حذفت لفظا ، وكتبت الباء متصلة بالسين لكثرة الاستعمال ، وطولت الباء للتعظيم ولتكون كالعوض عن الهمزة ، ويروى عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه ضرب من لم يطول الباء • وهى للاستعانة أو المصاحبة أو التعدية أى أقدم اسم الله وأجعله ابتداء نظمى وتأليفى • والاسم لغة ما دل على مسمى وعرفا ما دل مفردا على معنى فى نفسه ولم يقترن بزمان • والتسمية جعل اللفظ دالا على المعنى ، وهو مشتق عند البصريين من السمو وهو العلو لأنه يدل على مسماه فيعليه ويظهره وعند الكوفيين من السمة وهى العلامة لأنه علامة عـــلى مســـماه (١) وأوصل بعضهم لغات الاسم الى ثمانية عشر ونظمها فى قوله :

ثمان وعشر من لغات أتت لنا ‏ ‏ فى الاسم بنص العارفين بنقلها
سم سمة اسم سماء كذا سما ‏ ‏ سماة بتثليث الاوائل كلهـــا

الاسم عـــين المسمى أو غيره

(فائدة) الاسم فى حق المخلوق غير المسمى وفى الخالق تعالى لا غير ولا عين قال الامام المحقق شمس الدين أبو عبد الله محمد بن القيم فى كتابه (بدائع الفوائد) أسماء الله الحسنى التى فى القرآن من كلامه تعالى وكلامه غير مخلوق ولا يقال هى غيره ولا هى هو ، وهذا المذهب مخالف لمذهب المعتزلة الذين يقولون أسماؤه غيره وهى مخلوقة ، (ولمذهب من رد عليهم ممن يقول اسمه نفس ذاته لا غيره ـ ٢) انتهى • و«الله» علم على الذات الواجب الوجود المستحق لجميع المحامد وهو عربى عند الأكثر وزعم البلخى من المعتزلة انه معرب عبرى أو سريانى ، وأكثر محققى النظار على عدم اشتقاقه بل هو اسم مفرد مرتجل للحق جل شأنه ، قال فى شرح المواقف

---

(١) بهامش مخ قال الشيخ شعبان فى معنى ذلك شعرا
مـــن الوسم للكوفى اشتقاق مضعف ، وعند سواه من سما الاسم أى أعلاه
(٢) زيادة فى هامش مخ

لفظ الجلالة

وعلى تقدير كونه فى الاصل صفة فقد انقلب علما مشعرا بصفات الكمال للاشتهار • قال الامام المحقق ابن القيم فى كتابه (بدائع الفوائد) زعم السهيلى وشيخه ابن العربى ان اسم الله غير مشتق لأن الاشتقاق يستلزم مادة يشتق منها واسمه سبحانه قديم لا مادة له فيستحيل الاشتقاق ولا ريب انه ان أريد بالاشتقاق هذا المعنى فهو باطل ولكن من قال بالاشتقاق لم يرد هذا المعنى ولا ألم بقلبه وانما أراد أنه دال على صفة له تعالى وهى الالهية كسائر أسمائه الحسنى من العليم والقدير فانها مشتقة من مصادرها بلا ريب وهى قديمة والقديم لا مادة له فما كان جوابكم عن هذه الأسماء فهو جواب من قال بالاشتقاق فى الله ، ثم الجواب عن الجميع انالانعنى بالاشتقاق الا أنها ملاقية لمصادرها فى اللفظ والمعنى لا أنها متولدة منها تولد الفرع من أصله ، وتسمية النحاة المصدر والمشتق منه أصلا وفرعا ليس معناه ان أحدهما متولد من الآخر وانما هو باعتبار أن أحدهما متضمن للآخر وزيادة ، فالاشتقاق هنا ليس هو اشتقاق مبادىء وانما هو اشتقاق تلازم يسمى المتضمن (بالكسر) مشتقا والمتضمن (بالفتح) مشتقا منه ولا محذور فى اشتقاق أسماء الله بهذا المعنى • انتهى • ثم اختلف من قال بأنه مشتق فى مأخذ الاشتقاق ، فقيل انه من تأله اذا تذلل فمعناه المتذلل له والثلاثى منه أله يأله بفتح الحشو فى الماضى والمضارع والمصدر بمعنى اعتمد ولجأ الى غيره كما قال :

ألهت اليه فى بلايا تنوبنا فألفيته فيها كريما ممجدا

أى التجأت اليه واعتمدت عليه ، والتفعل فى تأله للدلالة على حصول شىء فشىء كما فى تفهم وتعلم ونظائره ، ووجهه ان معنى أله الى الشىء استند اليه وهو يقتضى الذل والافتقار لأنه لا يعتمد على غيره الا بعدذله لديه وافتقاره اليه فكان معنى تأله تذلل وافتقر واحتاج • وقيل من وله يوله من باب علم ولها ومعناه تحير لكن قلبت الواو همزة فصار الها كما أبدلوا وسادة فقالوا اسادة ونحوه فلما دخلت عليه اداة التعريف صار الأله ثم حذفت الهمزة لكثرة دورانه على الألسنة فصار الله فزيدت الالف بين اللام والهاء لتكون كالعوض عن الهمزة فصار اللاه لكن لا تكتب الألف كما لا تكتب

فى الرحمن لكثرة الاستعمال فى الدوران • واطلاق المصدر وارادة اسم الفاعل أو اسم المفعول شائع فى لغة العرب بمعنى المالوه اليه أى المعتمد عليه المتذلل له المحتاج اليه أو المألوه فيه أى المتحير فيه لدقة طريق معرفته • وقيل انه مشتق من اللهو يعنى الطرب وشدة الفرح واللعب من لهى يلهى بفتح وسطه لكن حذفت الواو من لهو فصار له فأدخلت أداة التعريف وزيدت الالف بين اللام والهاء لتكون كالعوض عن الواوالمحذوفة كما مر ومعناه الملهو به أى المطروب والمفروح به يعنى عند معرفته • وقيل انه مشتق من اللوه أى الاستتار من لاه يلوه اذا استتر لكن قلبت الواو من لوه ألفا فصار لاه فأدخلت أل عليه فصار اللاه فحذفت الألف خطا كما مر • ومن قال بعدم الاشتقاق فقد سلم من هذه التكلفات (١) والله أعلم

الكلام فى الرحمن الرحيم

((الرحمن الرحيم)) اسمان مشتقان من رحم بجعله لازما بنقله الى باب فعل بضم العين أو بتنزيله منزلة اللازم اذ هما صفتان مشبهتان وهى لاتشتق من متعد ، والرحمن أبلغ من الرحيم لأن زيادة البناء تدل على زيادة المعنى غالبا كما فى قطع وقطع ومن غير الغالب قد يفيد ناقص البناء ما لا يفيده زائده من المبالغة كحذر وحاذر فان حذر أبلغ من حاذر ، فالرحمن صفة فى الاصل بمعنى كثير الرحمة جدا ثم غلب على البالغ فى الرحمة غايتها وهو الله ، والرحيم ذوالرحمة الكثيرةوأتى به بعدالرحمن الدال على جلائل النعم اشارة الى ان ما دل عليه من دقائق الرحمة وان ذكر بعد مادل على جلائلها الذى هو المقصود الاعظم هو مقصود أيضا ، ولئلا يتوهم أنه غير ملتفت اليه • وقال بعض الصوفية الرحمن هو المحسن باعطاءالامورالملكوتية مثل الروح والعقل والايمان والشهوة والقدرة ونحوها ، وقيل هو المحسن فى الدنيا لعموم احسانه لأنه يعم باحسانه المسلم والكافر وغيرهما ،والرحيم بالضد ، فباعتبار كون‌الرحمن للدنيايكون‌الرحيم للآخرة ، وبكونه‌للملكوتية يكون الرحيم لعالم الشهادة من اعطاء المأكول والمشروب والملبوس الى غير

---

(١) بهامش مخ (قال ابن القيم القول الصحيح أن الله أصله الاله كما قال سيبويه وجمهور أصحابه الا من شذ منهم وأن اسم الله تعالى هو الجامع لمعانى الاسماء الحسنى والصفات العلى انتهى • وقال ابن جرير فى الكلام على هذا الاسم قال فانه على ما روى لنا عن ابن عباس قال : الله ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين ا هـ

ذلك . فان قيل اذا كان الرحمن الرحيم اسمين فكيف أعربا نعتا لله تعالى والاعلام لا ينعت بها قيل قد قال هذا قوم وأعربوهما على أنهما بدل ، وقال السهيلي البدل ممتنع أيضا كعطف البيان لان الاسم الاول لا يفتقر الى تبيين لانه أعرف المعارف كلها وأبينها ولهذا قالوا : وما الرحمن ؟ ولم يقولوا : وما الله . قال السهيلي لكنه وان أجرى مجرى الاعلام فهو وصف يراد به الثناء وكذلك الرحيم ، وقال المحقق ابن القيم فى (بدائع الفوائد) أسماء الرب تعالى أسماء ونعوت فانها دالة على صفات كماله فلا تنافى فيها بين العلمية والوصفية فالرحمن اسمه تعالى ووصفه لا ينافى اسميته وصفيته فمن حيث هو صفة جرى تابعا على اسم الله ومن حيث هو اسم ورد فى القرآن غير تابع . يعنى كقوله تعالى (الرحمن علم القرآن * الرحمن على العرش استوى * أم من هذا الذى هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن) وهذا شان الاسم العلم ولما كان هذا الاسم مختصا به تعالى حسن مجيئه مفردا غير تابع كمجىء اسمه « الله » كذلك وهذا لا ينافى دلالته على صفة الرحمة كاسمه « الله » فانه دال على صفة الالوهية. ولم يجىء قط تابعا لغيره بل متبوعا بخلاف العليم والقدير والسميع والبصير ولهذا لا تجىء هذه ونحوها مفردة بل تابعة . قال ابن القيم روح الله روحه: وأما الجمع بين الرحمن الرحيم ففيه معنى بديع وهو أن الرحمن دال على الصفة القائمة به سبحانه والرحيم دال على تعلقها بالمرحوم وكأن الاول الوصف والثانى الفعل فالاول دال على أن الرحمة صفته أى صفة ذات له سبحانه ، والثانى دال على انه يرحم خلقه برحمته أى صفة فعل له سبحانه ، فاذا أردت فهم هذا فتأمل قوله تعالى (وكان بالمؤمنين رحيما * انه بهم رؤوف رحيم) ولم يجىء قط رحمن بهم فعلمت بهذا ان رحمن هو الموصوف بالرحمة ورحيم هو الراحم برحمته . قال رحمه الله تعالى : وهذه النكتة لا تكاد تجدها فى كتاب وان تنفست عندها مرآة قلبك لم تتجل لك صورتها . انتهى . ورحمة الله جل شأنه وتعالى سلطانه صفة قديمة قائمة بذاته تعالى تقتضى التفضيل (١) والانعام ، وأما تفسيرها برقة فى القلب تقتضى التفضيل فالتفضيل غايتها فيراد منها غايتها

(١) كذا «والمشهور التفضل»

كما يقوله من يقوله من المتكلمة كالزمخشرى فى كشافه وغيره من النظار فهذا انما يليق برحمة المخلوق لا برحمة الخالق تعالى وتقدس وبينهمابون . ونظير ذلك العلم فان حقيقة علمه تعالى القائمة به ليست مثل الحقيقة القائمة بالمخلوق بل نفس الارادة التى يرد بعضهم الرحمة اليها هى فى حقه تعالى مخالفة لارادة المخلوق اذ هى فى المخلوق ميل قلبه الى الفعل أو الترك والله منزه عن ذلك وكذلك رد الزمخشرى لها فى حقه تعالى الى الفعل بمعنى الانعام والتفضيل ، فان فعل العبد الاختيارى انمايكون لجلب نفع للفاعل أو دفع ضرر عنه ولا كذلك فعله تعالى ، فمافرضه أهل التأويل موجود فيما فروا اليه من المحذور ، وبهذا ظهر أنه لا حاجة الى دعوى المجاز فى رحمتــه تعالى فانه خلاف الاصل وهو انما يصار اليه عند تعذر حمل الكلام على حقيقته ولا تعذر هنا كما لا يخفى . وأيضا معيار المجاز صحة نفيه كما اذا قيل زيد أسد أو بحر أو قمر لشجاعته أو كرمه أو حسنه فانه يصح أن تقول زيد ليس بأسد أو ليس بحر أو ليس بقمر وهذا مما لا خلاف فيه بينهم ولا يصح أن يقال : الله ليس برحيم ، فلو كانت الرحمة مجازا فى حقه تعالى لصح ذلك . ولا ريب ان الرحمة صفة كمال وسائر الكتب السماوية مملوءة بذكرها واطلاقها عليه تعالى ، ومن العجب أن تكون هذه الصفة العظيمة حقيقة فى حق المخلوق مجـازا فى حق الخــالق . والحاصــل ان الصفــة تارة تعتبــر من حيث هى هى ، وتارة تعتبــر من حيث قيامهــا به تعالى . وتارة من حيث قيامها بغيره تعــالى . وليست الاعتبارات متماثلة اذ ليس كمثله شيء لا فى ذاته ولا فى صــفاته ولا فى أفعاله ، والكلام على الصفات فرع عن الكلام فى الذات فكما انا نثبت ذاتا ليست كالذوات فلنثبت رحمة ليست كرحمة المخلوق كما أشار الى ذلك وقرره ونبه عليه وحرره ابن القيم رحمه الله فى البدائع

فــــوائد

فوائد تتعلق بالبسملة

(الاولى) انما بدأ المصنفون كتبهم بالبسملة تأسيا بالكتاب المنزل على النبى المرسل صلى الله عليه وسلم واقتداء به فى مكاتباته للملوك وغيرهم وامتثالا لقوله صلى الله عليه وسلم « كل أمر ذى بال لا يبدأ فيه بسم الله

الرحمن الرحيم (فهو-١) أقطع » رواه عبد القادر الرهاوى فى الاربعين البلدانية وكذا الخطيب من حديث أبى هريرة رضى الله عنه • ومعنى ذى بال أى حال شريف يحتفل له ويهتم به من مصنف ودارس ومدرس وخطيب وخاطب وبين يدى كل الامور المهمة ، ويعنى بالاقطع ناقص البركة وقد يكون غير معتد به • وروى ابن ماجه والبيهقى من حديث أبى هريرة أيضا رضى الله عنه مرفوعا « كل أمر ذى بال لا يبدأ فيه بحمد الله والصلاة على فهو أقطع أبتر ممحوق من كل بركة » تفرد بذكر الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم اسماعيل بن زياد وهو ضعيف وفى رواية « كل أمر ذى بال لا يفتتح (فيه-١) بذكر الله » وقد روى أبو داود من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كل كلام لا يبدأ فيه بحمد الله فهو أجذم » اسناده صحيح (الثانية) اختلف القدماء فيما اذا كان الكتاب كله شعرا فجاء عن الشعبى رحمه الله منع ذلك ، وعن الزهرى رحمه الله قال مضت السنة أن لا يكتب فى الشعر بسم الله الرحمن الرحيم ، وعن سعيد بن جبير رحمه الله جواز ذلك وتابعه على ذلك الجمهور ، وقال الخطيب : وهو المختار • انتهى • ولاسيما ان كان المنظوم من نفائس العلوم • قال بعض العلماء الراجح عند الجمهور طلب البسملة فى ابتداء الشعر ما لم يكن محرما أو مكروها • قال وأما ما تعلق بالعلوم فمحل اتفاق (الثالثة) البسملة آية منفردة بنفسها فاصلة بين السور القرآنية ليست من أول كل سورة لا الفاتحة ولا غيرها على الصحيح من المذهب وفاقا للامام أبى حنيفة ، وأما مالك رضى الله عنه فقال ليست هى من القرآن رأسا ، وعند الشافعى رضى الله عنه انها آية من كل سورة من القرآن سوى براءة • ومراد من قال انها ليست من القرآن غير التى فى سورة النمل فانها بعض آية اجماعا فيكفر منكرها بخلاف البسملة غيرها فتبصر (الرابعة) فى بعض فضائل البسملة ، فى ذلك أحاديث وآثار كثيرة جدا قال الزهرى فى قوله تعالى (وألزمهم كلمة التقوى) هى بسمم الله الرحمن الرحيم • وروى الامام

(١) من مخ

أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم في تفسيره بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما ان عثمان بن عفان رضي الله عنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بسم الله الرحمن الرحيم فقال « هو اسم من أسماء الله تعالى وما بينه وبين اسم الله الاكبر الا كما بين سواد العين وبياضها من القرب » (١) وكذلك رواه أبو بكر ابن مردويه ، وروى الامام أحمد وأبو داود والنسائي والحاكم في المستدرك واللفظ للنسائي عن أبي المليح ـ واسمه عامر وقيل زيد ـ بن أسامة بن عمير عن أبيه رضي الله عنه قال كنت رديف رسول الله صلى الله عليه وسلم فعثر بعيرنا فقلت تعس الشيطان فقال النبي صلى الله عليه وسلم « لا تقل تعس الشيطان فانه يعظم حتى يصير مثل البيت ويقول بقوتي صرعته ولكن قل بسم الله فانه يصغر حتى يصير مثل الذباب » . وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه من أراد أن ينجيه الله من الزبانية التسعة عشر فليقل بسم الله الرحمن الرحيم فانها تسعة عشر حرفا فيجعل الله كل حرف منها جنة من واحد منهم . ذكره ابن عطية والقرطبي وابن كثير في تفاسيرهم عن وكيع عن الاعمش عن أبي وائل عنه (٢) . قال أبو القاسم الجنيد بن محمد قدس سره : في بسم الله هيبته وفي الرحمن عزته وفي الرحيم مودته . وفضائل البسملة غير محصورة وأدلة شرفها مشهورة (الخامسة) قال بعض الصوفية وغيرهم اسم الله الاعظم هو بسم الله الرحمن الرحيم كلها ، وعند أكثر أهل العلم انه لفظ الجلالة ، وعدم الاجابة لاكثر الناس مع الدعاء به لتخلف بعض الشروط التي من أهمها الاخلاص وأكل الحلال ، وقد أخرج أبو داود والترمذي وحسنه وابن ماجه وابن حبان في صحيحه من حديث عبد الله بن بريدة عن أبيه رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع رجلا يقول اللهم اني أسألك بأني أشهد انك أنت الله لا اله الا أنت الاحد الصمد لم يلد ولم

الاسم الاعظم

---

١ في سنده سلام بن وهب الجندي ، وفي ترجمته من ميزان الذهبي . ذكر هذا الخبر وقال : منكر بل كذب

٢ ينظر سنده الى وكيع

يولد ولم يكن له كفوًا أحد ، فقال له « لقد سألت الله بالاسم الذى اذا سئل به أعطى واذا دعى به أجاب » ورواه الحاكم الا أنه قال فيه « لقد سألت الله باسمه الاعظم » وقال : صحيح على شرطهما • قال الحافظ المنذرى قال شيخنا الحافظ أبو الحسن المقدسى : واسناده لا مطعن فيه ، قال ولم يرد فى هذا الباب حديث أجود اسنادا منه • انتهى • وقال المحقق ابن القيم ومجموع اسم الله الاعظم هو الحى القيوم وذكر ذلك فى نونيته بقوله :

ولأجل ذا جاء الحديث بأنه   فى آية الكرسى وذى عمران
اسم الاله الاعظم اشتملا على   اسم الحى والقيوم مقترنان
فالكل مرجعها الى الاسمين يد   رى ذاك ذو بصر بهذا الشأن

أشار الى ما رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه وقال الترمذى حديث حسن صحيح من حديث أسماء بنت يزيد رضى الله عنها ان النبى صلى الله عليه وسلم قال « اسم الله الاعظم فى هاتين الآيتين (والهكم اله واحد الا هو الرحمن الرحيم) وفاتحة سورة آل عمران (الله لا اله الا هو الحى القيوم) • وأخرج الامام أحمد وابن ماجه من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال مر النبى صلى الله عليه وسلم بأبى عياش زيد بن الصامت الزرقى وهو يصلى وهو يقول اللهم انى أسألك بأن لك الحمد لا اله الا أنت يا حنان يا منان يا بديع السموات والارض يا ذا الجلال والاكرام فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لقد دعا الله باسمه الاعظم الذى اذا دعى به أجاب واذا سئل به أعطى » ورواه أبو داود والنسائى وابن حبان فى صحيحه والحاكم وزاد هؤلاء الاربعة « يا حى يا قيوم » وقال الحاكم : صحيح على شرط مسلم • وزاد الحاكم فى رواية له « أسألك الجنة وأعوذ بك من النار » وقد روى يعلى (؟) ورواته ثقات عن السرى بن يحيى عن رجل من طيىء وأثنى عليه خيرا قال كنت أسأل الله عز وجل أن يرينى الاسم الاعظم الذى اذا دعى به أجاب فرأيت مكتوبا فى الكواكب فى السماء : يا بديع السموات والارض يا ذا الجلال والاكرام • والذى فى جلاء الافهام للمحقق ابن القيم : وفى مسند أبى يعلى الموصلى عن بعض

الصحابة انه طلب أن يعرف اسم الله الاعظم فرأى فى منامه مكتوبا فى السماء بالنجوم : يا بديع السموات والارض يا ذا الجلال والاكرام • انتهى

ابتـــداء شرح خطبة المتن

((الحمد لله القديم البـاقى   مسبب الاسباب والارزاق))
((حى عليم قادر موجـود   قامت به الاشياء والوجود))

((الحمد)) لغة الثناء باللسان على الجميل الاختيارى على جهـــة التعظيم والتبجيل (١) ، وعرفا فعل ينبىء عن تعظيم المنعم على الحامد وغـــيره ، والشكر لغة هو الحمد اصطلاحا ، وعرفا صرف العبد جميع ما أنعم الله به عليه فى ما خلق لأجله ، فبين الحمد والشكر عموم وخصوص من وجه يجتمعان فيما اذا كان باللسان فى مقابلة نعمة ، وينفرد الحمد فيما اذا كان (باللسان لا فى مقابلة نعمة ، وينفرد الشكر فيما اذا كان - ٢) بغير اللسان فى مقابلة نعمة • واختار الجملة الاسمية الدالة على الدوام والثبات على الجملة الفعلية الدالة على التجدد والحدوث لانه مع كونه على نسق الكتاب العظيم أليق بالمقام ، وتفاؤلا بذلك ، وهى وان كانت خبرية لفظا فهى انشـــائية معنى • واختار مادة الحمد لاشتماله على الحاء الحلقية والميم الشفوية والدال اللسانية فى استعمالها بالثناء عـــلى رب البرية حتى لا يخـــلو مخرج من نصيبه من ذلك بالكلية • و « ال » فى الحمد للاســـتغراق أو الجنس أو العهد أى كل الحمد مستحق أو جنسه مختص ومملوك ((لله)) وعلامة ال الاستغراقية أن يخلفها كل ونحـوها ، وال الجنســـية اذا تعقبتهـــا لام الاختصاص كان المعنى جنس الحمد مختص ومملوك له تعالى فتفيد ما أفادته ال الاستغراقية ضمنا • وان كانت ال للعهد فالمعهود ثناء الله على نفســـه وثناء ملائكته ورسله وأنبيائه وخواص خلقه ولا نظر لغير ثنائهم • واللام فى لله للملك أو الاستحقاق أو الاختصاص • ولما ابتدأ بالبسملة ابتـــداء حقيقيا وهو الاتيان بها قبل كل شىء أعقبها بالحمدلة ابتـــداء اضـــافيا أى بالنسبة لما بعدها وهو ما يقدم على الشروع فى المقصود بالذات جمعا بـين حديثى البسملة والحمدلة ، ولم يعكس لموافقة الكتاب العزيز فان الصحابة

---

١ بهامش مخ : التبجيل التعظيم وزنا ومعنى وفعلا ومصدرا أهـ
٢ من مخ

القدم والبقاء في صفاته تعالى وان اسماءه توقيفية

افتتحوا كتابته في الامام الكبير بالتسمية والحمدلة تلوها وتبعهم جميع من كتب المصحف بعدهم في جميع الامصار سواء في ذلك من يقول بأن البسملة آية ومن لا يقول ذلك فكان أولى ((القديم)) نعت لله وهو اسم من أسمائه (١) وتقدم في الرحمن انه ونحوه من أسماء الله تعالى وان جرى مجرى الاعلام فهو وصف يراد به الثناء ، فأسماؤه تعالى أسماء ونعوت • والقديم هو الذي لم يسبق وجوده عدم فانه سبحانه وتعالى متصف بالقدم وهي صفة سلبية في اصطلاحهم ، والصفات السلبية ما مدلولها عدم أمر لا يليق به تعالى ، فقدمه تعالى ذاتي واجب له تعالى غير مسبوق بعدم ، اذ هو تعالى لا ابتداء لوجوده • واعلم ان القدم اما ذاتي كقدم الواجب ، واما زماني كقدم زمان الهجرة بالنسبة لليوم ، ومنه (حتى عاد كالعرجون القديم) ومنه القدم الاضافي كقدم الاب بالنسبة للابن (فائدة) القديم أخص من الازلي لان القديم موجود لا ابتداء لوجوده والأزلي ما لا ابتداء له وجوديا كان أو عدميا فكل قديم أزلي ولا عكس •

---

١ لمفتي الديار النجدية في عصره العلامة الشيخ عبد الله بابطين المتوفى سنة ١٢٨٢ تعليق على هذا الموضع هذا نصه : قوله ان القديم اسم من أسمائه تعالى فيه نظر من وجهين الاول ان اسماء الله تعالى عند أهل السنة توقيفية والتوقيفي هو الذي لا يثبت الا بنص وهذا كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وكلام السلف من الصحابة والتابعين لهم باحسان ليس في شيء منها تسمية الله بالقديم وانما سمى الله نفسه بالاول والآخر وهذا يغني عن القديم وهو أبلغ منه في المعنى لدلالته على القدم وانه لم يسبقه شيء بل ولم يماثله فان الاول يدل على سبق الله تعالى لكل شيء كما فسره النبي صلى الله عليه وسلم بقوله انت الاول فليس قبلك شيء • وأما الوجه الثاني فلأن أسماء الله كلها حسنى أى بالغة في الحسن منتهاه فهي مشتملة من كل معنى كمال على أحسنه وأتمه وأعمه فلا نقص فيها بوجه من الوجوه فلم يكن من أسمائه المريد ولا المتكلم ولا الصانع لانقسام مثل هذه الاسماء الى صفتي مدح وذم باعتبارين واما الاخبار عنه بأنه متكلم ومريد وصانع فهذا جائز لان باب الاخبار عنه أوسع من باب الانشاء وحيث تقرر ذلك فان القديم ليس من الاسماء الحسنى فان القدم معنى اعتباري لا يدل على الاولية فان معناه المتقدم على غيره وان كان حادثا ومتأخرا بالنسبة الى شيء آخر ومما يدل على ذلك قوله تعالى (حتى عاد كالعرجون القديم) وبذلك لا يصح اطلاق القديم على الله باعتبار أنه من أسمائه وان كان يصح الاخبار به عنه كما قلنا ان باب الاخبار أوسع من باب الانشاء والله أعلم

وفرق آخر أيضا وهو أن القديم يستحيل أن يلحقه تغير أو زوال بخلاف الأزلى الذى ليس بقديم كعدم (١) الحوادث المنقطع بوجـودها ((الباقى)) مشتق من البقاء وهو امتناع لحوق العدم ، والبقاء صفة واجبة له تعالى (٢) كما وجب له القدم ، لان ما ثبت قدمه استحال عدمه لانه سبحانه لو قدر لحوق العدم له لكانت نسبة الوجود والعدم الى ذاته تعالى سـواء ، فيلزم افتقار وجوده الى موجد يخترعه بدلا عن العدم الجائز عليه تقدس وتعالى عن ذلك فيكون حادثا واللازم باطل فكذا الملزوم لان وجوده تعالى واجب لذاته • (تنبيه) نقل بعض المحققين ان البقاء صفة نفسية ، وعن الأشعرى انها صفة معنى ، والمشهور عند المتكلمين المحققين انها صفة سلبية كالقدم ومنهم من ذهب الى أن القدم سلبى والبقاء وجـودى ومعنى ما ذكرنا انه تعالى لا يشاب بالعدم وهذا من نعوت الجلال ، والجلال عبارة عن الصفات السلبية ، ففى القدم سلب الحدوث ، وفى البقاء سلب الفناء ولحوق العدم فنعوت الجلال كالقوام للكمال ((مسبب الاسباب)) المتوصـل بها الى مسبباتها أى خالق الاسباب المتوصل بها الى المطلوب • قال أهل اللغـة السبب الحبل وكل شىء يتوصل به الى أمر من الامور • وفى عرف الشرع ما يلزم من وجوده الوجود ويلزم من عدمه العدم لذاته ، فالاول احتراز من الشرط فانه لا يلزم من وجوده الوجود ، والثانى احتـراز من المانع لانه لا يلزم من عدمه وجود ولا عـدم لذاته ، والثـالث احتـراز

---

(١) مخ (كقدم) ويأتى فى التعليق على ما قيل من قدم القرآن ما يقتضى النظر فى كلامه هنا

(٢) للشيخ عبد الله بابطين تعليق على هذا الموضع وهو : ليس فى كلام المؤلف ما يدل صراحة على أن الباقى من أسماء الله الحسنى ولم أجد حتى ساعتى هذه ما يدل على أنه من أسماء الله وان كان فى القرآن قـد أضيف البقاء الى الله فى قوله (ويبقى وجه ربك) لكن التعبير عن الصفة بالفعل لا يعنى أن يشتق له اسم منها ولذلك لم يشتق لله اسم من نحو قوله (الله يستهزىء بهم - ويمكر الله - واكيد كيدا - والسماء بنيناها - والارض فرشناها) وأمثال ذلك لكن الباقى ان ثبت انه من أسمائه وجب اثباته والا فلا نطلقه على الله وان كان الاخبار به عنه سائغا فباب الاخبار أوسـع وفى القرآن ما دل على هذا المعنى وزيادة وهو قوله تعالى (والآخر) فان معناه هو الذى ليس بعده شىء والله أعلم

مما لو قارن السبب فقدان الشرط ووجود المانع كالنصاب قبل تمام الحول أو مع وجود الدين فانه لا يلزم من وجوده الوجود لكن لا لذاته بل لأمر خارج عنه وهو انتفاء الشرط فى الاول ووجود المانع فى الثانى ، فالتقييد بكون ذلك لذاته للاستظهار على ما لو تخلف وجود المسبب مع وجدان السبب لفقد شرط أو وجود مانع كمن فيه سبب الارث ولكنه قاتل أو رقيق ، وعلى ما لو وجد المسبب مع فقدان السبب لكن لوجود سبب آخر كالردة المقتضية للقتل اذا فقدت ووجد قتل يوجب القصاص أوزنا محصن فتخلف هذا الترتيب عن السبب لا لذاته بل لمعنى خارج ، ولهذا قال بعض الاصوليين السبب عبارة عن وصف ظاهر منضبط دل الدليل الشرعى على كونه معرفا لثبوت حكم شرعى طرديا كان كجعل زوال الشمس سببا للصلاة أو غير طردى كالشدة المطربة سواء أطرد الحكم معه أو لم يطرد ، لان السبب الشرعى يجوز تخصيصه وهو المسمى تخصيص العلة . فان قلت هل من أسمائه تعالى المسبب حتى أطلقته عليه مع أن أسماءه توقيفية أم كيف الحكم ؟ قلت ذكر غير واحد من المحققين منهم الامام المحقق فى (بدائع الفوائد) ان ما يطلق عليه سبحانه فى باب الاسماء والصفات توقيفى وما يطلق عليه فى باب الاخبار لا يجب أن يكون توقيفيا كالقديم والشىء والموجود أو القائم بنفسه . قال فى البدائع فهذا فصل الخطاب فى مسئلة أسمائه هل هى توقيفية أو يجوز أن يطلق عليه منها بعض ما لا يرد به السمع . (تنبيه) فى نسخة من منظومتى بدل مسبب الاسباب مقدر الآجال : وهو أولى لامرين ، الاول ان المقدر من صفات أفعاله المعبر عنها بالفواضل لان تقدير الآجال ـ وفى نسخة بدل الآجال : الاقدار ، وهو أعم ـ وتدبير الامور والاحكام ـ فعل هو احسان منه تعالى وهو السبب لوجود الحمد والشكر ، لان الاحسان يدعو الى ذكر المحسن بفضائله التى يتأتى بها الاحسان ، والاقدار جمع قدر بسكون الدال وهو عبارة عن مبلغ الشىء ومنتهاه من حيث المكان والزمان وكل ما له قدر فمصنوع مفتقر الى مخصص (١) يقدر المتصف به من الاقدار من طول وعرض

(١) ينظر ما يأتى فى التعليق على أوائل الباب الاول .

وعمق فالله تعالى جعل لكل شيء قدرا لا يتجاوزه وحدا لا يتعداه (الثانى) الدلالة على تقدير الآحال جمع أجل محركة غاية الوقت فى الموت وحلول الدين ومدة الشيء قال تعالى (اذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون * ولن يؤخر اللهنفسا اذا جاء أجلها * وما كان لنفس أن تموت الا باذن الله كتابا مؤجلا) والاخبار والآثار فى ذلك كثيرة جدا ((و)) مقدر ((الارزاق)) بالفتح جمع رزق بالكسر ما ينتفع به من حلال وحرام ويأتى الكلام عليه فى محله هو سبحانه ((حى)) أى لم يزل موجودا وبالحياة موصوفا وسائر الاحياء يعترضهم الموت والعدم فى أحد الطرفين أو فيهما معا (كل شيء هالك الا وجهه) والحياة صفة ذاتية حقيقية قائمة بذاته تعالى ((عليم)) بالسرائر والخفيات التى لا يدركها علم خلقه كقوله تعالى (عليم بذات الصدور) وجاء على بناء فعيل للمبالغة فى وصفه بكمال العلم أحاط بكل شيء علما وأحصى كل شيء عددا وهو مشتق من العلم ويأتى الكلام عليه ((قادر)) أى ذو القدرة التامة ، والقدرة عبارة عن صفة يوجد بها المقدور على طبق العلم والارادة • قال شيخنا الشهاب المنينى فى كتابه شرح تاريخ العتبى : للقادر معنيان أحدهما أن يكون بمعنى القدير من القدرة على كل شيء وذلك صفة الله تعالى وحده دون غيره وانما يوصف القادر منا على بعض المقدورات دون بعض • وثانيهما أن يكون القادر بمعنى المقدر يقال منه قدر بالتخفيف والتشديد معنى واحد قال تعالى (فقدرنا فنعم القادرون) أى نعم المقدرون ، والمراد بقوله من القدرة على كل شيء يعنى على كل ممكن لانه الذى تتعلق به القدرة كما يأتى فى محله ((موجود)) سبحانه وتعالى بالوجود القديم لان العالم وكل جزء من أجزائه حادث ومفتقر من حيث وجوده وعدمه اليه تعالى من حيث صانعيته وايجاده اياه ، وصانع العالم المحتاج اليه فى وجوده لا يكون الا واجبا بخلاف وجود غيره فانه جائز ، وحاصل ذلك أن يقال قد ثبت حدوث العالم ، أو يقال لا شك فى وجود حادث وكل حادث فبالضرورة له محدث فاما أن يدور أو يتسلسل وكلاهما محال ، واما أن ينتهى الى قديم

تفسير حى عليم قادر موجود

---

(١) يأتى ما فيه فىالتعليق على المتن

لا يفتقر الى سبب أصلا وهو المراد ، ومن ثم قلنا ((قامت)) أى وجدت واستمرت ((به)) سبحانه وتعالى ((الاشياء)) كلها من الجواهر والاعراض العلوية والسفلية ((و)) قام به ((الوجود)) لكل موجود سواه فهو الذى خلقه وسواه وأحدثه وأنشاه ، فوجود البارى صفة له واجب قديم ووجود غيره جائز محدث باحداث الخالق الحكيم • وعطفه على الاشياء من عطف الخاص على العام للتنصيص عليه ردا على القائلين بكلية الوجود ووحدته ، وانه قديم وانه موجود فى الخارج ، وهذا ضرب من الهذيان وان جل ناقلوه فان القائلين به هم القائلون بالوحدة ، ولا يخفى ان القول بها ضرب من الزندقة ، فان من المعلوم بصريح العقل وصحيح النقل ان الخالق المبدع ليس هو بمخلوق ولا جزءا من أجزائه ولا صفة من صفاته ، تعالى وتقدس عما يقولون علوا كبيرا • ومن يقول ان الكليات الطبيعية ثابتة فى الخارج فانه يقول انها جزء من المعينات أو صفة لها ، ولهذا يقولون المطلق جزء من المعين والعام بعض الخاص فيلزم من زعم ان وجود الرب تعالى هو الكلى أن يكون الخالق جزءا من المخلوق أو صفة له ، وهذا مما يعلم بطلانه بصريح العقل وصحيح النقل • وأما المثل الافلاطونية فاذا قيل ان ثم وجودا كليا مطلقا مقارنا لجميع الموجودات فهو بمنزلة الانسانية المطلقة والحيوانية المطلقة ، والعقل الصريح يقطع أن الانسانية المقارنة لا تكون خالقة لكل انسان ، ولا الحيوانية خالقة لكل حيوان فكيف يكون الوجود المجرد خالقا لكل موجود أو قديما غير مخلوق ؟ فان هذه الكليات لو قدر وجودها وانها جواهر عقلية ـ مع ان هذا باطل ولا وجود لها الا فى الاذهان وهؤلاء تخيلوها فى أذهانهم فظنوا وجودها فى الخارج ـ فعلى فرض تسليم ذلك فهى جواهر بسيطة لا توصف بأنها حية ولا عالمة ولا قادرة ولا متكلمة ، فتعالى الله عن مقالات أهل الوحدة والحلول والفلسفة والزندقة علوا كبيرا • والحاصل انه لا ذرة ولا شذرة من جوهر ولا عرض ولا ملك ولا فلك ولا روح ولا نفس ولا جن ولا انس من جميع العالم السفلى والعلوى الا وهو مخلوق ومصنوع لله تعالى كان بعد أن لم يكن فلا يستحق الوجود الواجب شىء سواه ، ولا التفات

الكلام فى الوجود

لمن لم يهده الله فأثبت القدم لبعض مخلوقات الله تعالى كما يأتى الكلام على ذلك فى محله عند قولنا ★ وضل من أثنى عليها بالقدم ★

وجود الخلق دليل وجود الخالق

★ ((دلت على وجوده الحوادث سبحانه فهو الحكيم الوارث)) ★(١)

((دلت)) دلالة عقلية قطعية ((على وجوده)) سبحانه وتعالى ((الحوادث)) جمع حادث وهو خلاف القديم ، والدلالة هى كون الشىء بحيث يلزم من العلم به العلم أو الظن بشىء آخر أو من الظن به الظن بشىء آخر ، فالاول يسمى دليلا برهانيا وبرهانا ان لم يتخلله الظن ، والا فدليلا اقناعيا وامارة ، والشىء الثانى يسمى مدلولا • ثم الدال ان كان لفظا فالدلالة لفظية والا فغير لفظية ، فان توسط الوضع فيها كالخطوط والعقود والاشارة والنصب فوضعية والا فعقلية كدلالة العالم على الصانع ، وقد استدل به جمع محققون من علماء الكلام وغيرهم وهو مبنى على مقدمتين ، احداهما ان الحوادث موجودة والثانى ان الحادث لا يوجد الا بقديم ، وبعضهم يعبر ان الممكنات موجودة وان الممكن لا يوجد الا بواجب • فأما المقدمة الاولى فدليلها ما يشاهد من حدوث الحوادث فانا نشاهد حدوث الحيوان والنبات والمعادن وحوادث الجو كالسحاب والمطر وغير ذلك ، وهذه

---

١ علق الشيخ عبد الله بابطين على هذا الموضع ما نصه :
قوله . دلت على وجوده الحوادث : أشار المؤلف رحمه الله الى دليل معروف بين المتكلمين على وجود البارى جل وعلا وهو أن هذه الحوادث اما أن تكون محدثة أو غير محدثة والثانى محال لان غير المحدث يستحيل عدمه وحدوثها دليل على عدمها من قبل والاول اما أن يكون حدوثها بنفسها أولا فالاول محال لان كل حادث لابد له من محدث ولا يمكن أن تحدث نفسها بنفسها للدور واذا كان لابد لها من محدث تعين أن يكون هو الله تعالى لانه هو الواجب الوجود • والمؤلف رحمه الله لم يقصد حصر الدليل على وجود الله بالحوادث فقط فان جميع أنواع الادلة على وجود الله متفقة لا الادلة العقلية ولا السمعية ولا الفطرية حتى ان البهائم بل الجمادات تعرف ان لها ربا موجودا يستحق التعظيم والتنزيه وهى تسبح بحمده كما قال تعالى (وان من شىء الا يسبح بحمده) وكما سمع تسبيح الحصا بيد النبى صلى الله عليه وسلم وينبغى أن يعرف ان كل حادث من الحوادث فانه يدل على ثبوت الصفة التى هو من أثرها لله تعالى فنفع الخلق كلهم وايصال الرزق اليهم واعطاء كل مخلوق ما خلق له كل هذا يدل على كمال رحمته وعلمه، وانتظام الخلق والشرع على أتم وجه دليل على كمال حكمته ، ونصره لأوليائه ومدافعته عنهم دليل على كمال علمه وعزته وقهره • وعلى هذا فليقس الباقى والله أعلم •

الحوادث ليست ممتنعة فان الممتنع لا يوجد ، ولا واجبة الوجود بنفسها فان واجب الوجود بنفسه لا يقبل العدم ، وهذه كانت معدومة ثم وجــدت ، فعدمها ينفي وجوبها ووجودها ينفي امتناعها . وهذا دليل قاطع واضح بين على ثبوت الممكنات . وأصرح من ذلك وأوضح ان نفس حدوث الحوادث دليل على اثبات المحدث لها فان العلم بأن الحادث لا بد له من محدث أبين من العلم بأن الممكن لابد له من واجب ، فتكون هذه الطريق أبين وأقصر كما في النظم . وأما المقدمة الثانية وهي ان الحادث لابد له من محــدث فلاستحالة حدوثه بنفسه كما قال تعالى (أم خلقــوا من غــير شيء أم هم الخالقون) يقول الله تعالى أحدثوا من غير محدث أم هم أحدثوا أنفسهم ، ومعلوم ان المحدث لا يوجد بنفسه ، وطريق العلم بذلك أن يقال : الموجود أما حادث واما قديم ، والحادث لابد له من قديم ، فيلزم ثبوت القديم عـلى كل حال ، وذلك ان الفقر والحاجة لكل حادث وممكن وصف لازم لها فهي مفتقرة اليه دائما حال الحدوث وحال البقاء ، ومن زعم من أهل الكلام ان افتقارها اليه في حال الحدوث فقط كما يقوله من يقوله من المعتــزلة وغيرهم ، أو في حال البقاء فقط كما يقوله من يقوله من المتفلسفة القائلين بمساواة العالم له ، وكلا القولين خطأ كما قاله شيخ الاســلام تقي الدين أبو العباس ابن تيمية روح الله روحه في شرح عقيدة شــــمس الدين الاصبهاني رحمه الله تعالى ، فالامكان والحدوث متلازمان فكل محــدث ممكن وكل ممكن محدث ، والفقر ملازم لهمـــا فلا تزال مفتقرة اليــه لا تستغني عنه لحظة عين ، وهو الصمد الذي يصمد اليه جميع المخلوقات ولا يصمد هو الى شيء بل هو سبحانه المغني لما سواه . وللامام ابن تيمية :

الفقر لي وصف ذات لازم أبدا كما الغنى أبدا وصف له ذاتي

((سبحانه)) وتعالى وهو اسم بمعنى التسبيح الذي هو التنزيه وانتصابه بفعل متروك اظهاره ولا يخفى حسن موقعه هنا أي هو سبحانه وتعالى منزه عن أن يخلق الخلق سدى أو يشاركه في احداث شيء من الحـــوادث شريك ، بل هو الخالق المختار بلا حاجة ولا اضطرار بقدرة قاهرة لحكمة باهرة ولهذا قلنا ((فهو)) تعالى ((الحكيم)) أي المتقن لخلق الاشياء بحسن

الحكيم والحكمة الآلهية

التدبير وبديع التقدير ، بحيث يخضع العقل لرفعته ، ويشهد باتقان صنعته، كما قال تعالى (أحسن كل شيء خلقه) وقال (وخلق كل شيء فقدره تقديرا) والحكيم من أسمائه الحسنى وهو ذو الحكمة وهي اصابة الحق بالعلم ، فالحكمة منه تعالى علم الأشياء وايجادها على غاية الاحكام ، ومن الانسان معرفة الموجودات وفعل الخيرات ، وهذا الذى وصف به لقمان فى قوله تعالى (ولقد آتينا لقمان الحكمة) قال الامام الحافظ ابن الجوزى فى كتابه (صيد الخاطر) : العقل لا ينتهى الى حكمة الخالق سبحـــانه وقد ثبت عنده وجوده وملكه وحكمته فتعرضه بالتفاصيل على ما تجرى به عادات الخلق جهل • ثم قال : ألا ترى الى أول المعترضين وهوابليس اللعين كيف ناظر فقال أنا خير منه وقول أبى العلاء المعرى * رأى منك مالا يشتهى فتزندقا (١) * ثم قال ويحك أحضر عقلك وقلبك واسمع ما أقول ، أليس قد ثبت أن الحق مالك وللمالك أن يتصرف كيف يشاء ؟ أليس قد ثبت انه حكيم والحكيم لا يعبث ؟• قال وأنا أعلم ان فى نفسك من هذه الكلمة شيئا فانك قد سمعت عن جالينوس انه قال : ما أدرى أحكيم هو أم لا ؟ والسبب فى قوله هذا انه رأى نقضا بعد احكام فقاس الحال على أحوال الخلق وهو أن من بنى ثم نقض لا لمعنى فليس بحكيم ، قال وجوابه لو كان حاضرا أن يقال : بماذا بان لك أن النقض ليس بحكمة ؟ أليس بعقلك الذى وهبه الصانع لك ؟ فكيف يهب لك الذهن الكامل ويفوته هو الكمال ؟؟ وهذه المحنة التى جرت لابليس فانه أخذ يعيب الحكمة بعقله ، فلو فكـــر علم ان واهب العقل أعلى من العقل ، وان حكمته أوفى من كل حكيم ،لأنه بحكمته التامة أنشأ العقول ، فهذا اذا تأمله المنصف زال عنه الشك•انتهى• ومراد الحافظ ابن الجوزى من كان ممن لا يرى طريقا الى ادراك حكمته الا بالعقل ، كيف وقد جاء فى صحيح المنقول ما يوافق صريح المعقول من الكتاب والسنة ما لا يبقى فى لب اللبيب أقل اختلاج وأدنى ريب والله أعلم بكل غيب • وهو ((الوارث)) أى الباقى بعد فناء الخلق والمسترد لأملاكهم ومواريثهم بعد موتهم قال تعالى (انا نحن نرث الارض ومن عليها والينا

---

(١) بهامش مخ : هذا كقول ابن الراوندى قبحه الله
هذا الذى صــير الاوهام حائرة وصير العالم النحرير زنديقا اهـ

يرجعون) وقال تعالى (وانا لنحن نحيي ونميت ونحن الوارثون) فلا يبقى عليها ولا عليهم لأحد غيره سبحانه ملك ولا ملك ، ويقول الله تعالى فى ذلك اليوم بعد فناء الخلق (لمن الملك اليوم) ولا أحد يجيبه فيجيب نفسه فيقول (لله الواحد القهار) وسيأتى الكلام على دقائق تتعلق بالأسماء عند مباحثها ان شاء الله تعالى

ثم انى بعد ابتدائى بالبسملة والحمدلة والثناء عليه تعالى بما هو أهله عقبته بالصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم اظهارا لعظمة قدره ، وأداء لبعض حقوقه الواجبة اذ هو الواسطة بين الله وبين عباده ، وجميع النعم الواصلة اليهم التى من أعظمها الهداية للدين القويم انما هى به وعلى يديه صلى الله عليه وسلم ، وامتثالا لقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما) واغتناما للثواب الوارد فى قوله صلى الله عليه وسلم « من صلى على فى كتاب لم تزل الملائكة تستغفر له » وفى رواية « تصلى عليه مادام اسمى فى ذلك الكتاب » وللجمع بين الثناء على الله تعالى وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم بالصلاة عليه فقلت :

★ ((ثم الصلاة والسلام سرمدا على النبى المصطفى كنز الهدى))
★ ((وآله وصحبه الابرار معادن التقوى مع الاسرار)) ★

معنى الصلاة على النبى ص من الله والعباد

((ثم الصلاة)) وهى من الله الرحمة (١) ومن الملائكة الاستغفار ومن غيرهم التضرع والدعاء بخير ، هذا هو المشهور والجارى على ألسنة الجمهور ولم يرتض هذا الامام المحقق ابن القيم فى كتابيه (جلاء الافهام) و (بدائع الفوائد) وغيرهما ورده من وجوه (أحدها) ان الله تعالى غاير بينهما فى قوله (عليهم صلوات من ربهم ورحمة) (٢) (الثانى) ان سؤال الرحمة يشرع لكل مسلم والصلاة تختص بالنبى صلى الله عليه وسلم وآله فهى حق له ولآله ولهذا منع كثير من العلماء الصلاة على معين غيره يعنى وغير سائر الانبياء والملائكة ولم يمنع أحد من الترحم على معين من المسلمين

(١) بهامش مخ واختار ابن القيم انها بمعنى الثناء من الله ا هـ وفى تنبيه ابن سحمان ص ٤ « الصواب ما ذكره البخارى فى صحيحه عن أبى العالية قال : صلاة الله ثناؤه على عبده فى الملأ الاعلى »

(٢) بهامش مخ ولعطف الرحمة على الصلاة ، والعطف يقتضى المغايرة اهـ

(الثالث) ان رحمة الله عامة وسعت كل شيء وصلاته خاصة لخواص عباده (١) • وقولهم الصلاة من العباد بمعنى الدعاء مشكل أيضا من وجوه

---

(١) بهامش مخ ما نصه : وتمام كلام المحقق منقول من كتابه المذكور قال : الرابع أنه لا خلاف فى جواز الرحمة على المؤمنين واختلف السلف والخلف فى جواز الصلاة على غير الانبياء • الخامس انه لو كانت الصلاة بمعنى الرحمة لقامت مقامها فى امتثال الامر وأسقطت الوجوب عند من أوجبها وليس الامر كذلك • السادس أنه لا يقال لمن رحم غيره ورق طبعه عليه فأطعمه وسقاه أو كساه أنه صلى عليه ويقال رحمه • السابع ان الانسان قد يرحم من يبغضه ويعاديه فيجد فى قلبه له رحمة ولا يصلى عليه • الثامن أن الصلاة لابد فيها من كلام فهى ثناء من المصلى على من يصلى عليه ، الى أن قال : التاسع ان الله سبحانه فرق بين قرن صلاته وصلاة ملائكته وجمعهما فى فعل واحد فقال ان الله وملائكته يصلون على النبى، وهذه الصلاة لا يجوز أن تكون بمعنى الرحمة وانما هى ثناؤه سبحانه وثناء ملائكته عليه • الى أن قال : الوجه العاشر ان الله أمر بالصلاة عقب أخباره بأنه وملائكته يصلون على رسوله فصلوا أنتم أيضا عليه فأنتم أحق بأن تصلوا عليه وتسلموا تسليما لما نالكم ببركة رسالته ويمن سفارته من خير شرف الدنيا والآخرة • ومن المعلوم أنه لو عبر عن هذا المعنى بالرحمة لم يحسن موقعه ولم يحسن النظم فينقص اللفظ والمعنى — الى أن قال :

« الحادى عشر • أنه قد صح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال من صلى على مرة واحدة صلى الله عليه بها عشرا • وهذا موافق للقاعدة المستقرة فى الشريعة أن الجزاء من جنس العمل ومعلوم أن صلاة العبد على رسول الله صلى الله عليه وسلم ليست رحمة من العبد فتكون صلاة الله عليه من جنسها وانما هى ثناء على الرسول صلى الله عليه وسلم من العبد فجزاه الله من جنس عمله • الى أن قال : الوجه الثانى عشر • أن أحدا لو قال : عن رسول الله رحمه الله ، أو قال رسول الله رحمه الله — لبادره الامة بالانكار عليه وعدوه مبتدعا غير موقر لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولا مصل عليه ولا مثن عليه بما يستحقه • ولو كانت الصلاة من الله الرحمة لم يمتنع شيء من ذلك — الى أن قال :

الثالث عشر أن هذه اللفظة لا تعرف فى اللغة الاصليه بمعنى الرحمة أصلا • والمعروف عند العرب من معناها انما هو الدعاء والتبريك والثناء فالواجب حملها على معناها المتعارف • الرابع عشر أنه يسوغ بل يستحب لكل مسلم أن يسأل الله أن يرحمه فيقول اللهم ارحمنى ومعلوم أنه لا يسوغ لاحد أن يقول اللهم صل على بل الداعى بهذا معتد فى دعائه • والله لا يحب المعتدين بخلاف سؤاله الرحمة فعلم أنه ليس معناهما واحدا

الخامس عشر • ان أكثر المواضع التى تستعمل فيها الرحمة لا يحسن أن تقع فيها الصلاة • كقوله تعالى : ورحمتى وسعت كل شيء • وقوله • أن رحمتى سبقت غضبى ، وقوله ان رحمة الله قريب من المحسنين • فلا يصح تفسير الصلاة بالرحمة • والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب • انتهى نقلا من كتاب جلاء الافهام وتمامه فيه ا هـ

(أحدها) ان الدعاء يكون بالخير والشر والصلاة لا تكون الا فى الخير (الثانى) ان دعوت يتعدى باللام وصليت لا يتعدى الا بعلى ، ودعا المعدى بعلى ليس بمعنى صلى وهذا يدل على أن الصلاة ليست بمعنى الدعاء (الثالث) ان فعل الدعاء يقتضى مدعوا ومدعوا له تقول : دعوت الله لك بخير : وفعل الصلاة لا يقتضى ذلك لا تقول : صليت الله عليك ولا لك ، فدل على أنه ليس بمعناه فأى تباين أظهر من هذا ؟ • قال ولكن التقليد يعمى عن ادراك الحقائق فاياك والاخلاد الى أرضه • قال فى البدائع : ورأيت لأبى القاسم السهيلى كلاما حسنا فى اشتقاق الصلاة ـ فذكر ما ملخصه : ان معنى اللفظة حيث تصرفت ترجع الى الحنو والعطف الا أن ذلك يكون محسوسا ومعقولا فالمحسوس منه صفات الأجسام والمعقول منه صفة ذى الجلال والاكرام ، وهذا المعنى كثير موجود فى الصفات(١) والكبير (٢) • يكون صفة للمحسوسات وصفة للمعقولات ، وهو من أسماء الرب تعالى وتقدس عن مشابهة الاجسام ومضاهاة الانام ، فما يضاف اليه تعالى من هذه المعانى معقولة غير محسوسة ، فاذا ثبت هذا فالصلاة كما قلنا حنو وعطف من قولك : صليت : أى حنيت صلاك وعطفته فأخلق بأن تكون الرحمة كما سمى عطفا وحنوا تقول اللهم اعطف علينا أى ارحمنا قال الشاعر

وما زلت فى لينى له وتعطفى عليه كما تحنو على الولد الأم

وأما رحمة العباد فرقة فى القلب اذا وجدها الراحم من نفسه انعطف على المرحوم وأثنى عليه ، ورحمة الله للعباد جود وفضل فاذا صلى عليه فقد أفضل وأنعم ، وهذه الافعال اذا كانت من الله أو من العبد فهى متعدية بعلى مخصوصة بالخير لا تخرج عنه الى غيره فرجعت كلها الى معنى واحد الا أنها (٣) فى معنى الدعاء والرحمة والصلاة معقولة أى انحناء معقول غير محسوس ثمرته من العبد الدعاء لأنه لا يقدر على أكثر منه وثمرته من الله الاحسان والانعام ، فلم تختلف الصلاة فى معناها وانما اختلفت ثمرتها الصادرة عنها • والصلاة التى هى الركوع والسجود انحناء محسوس فلم يختلف المعنى فيها الا من جهة المعقول وليس ذلك باختلاف فى الحقيقة ،

---

(١) مح فى «الاسماء والصفات» (٢) فى الاصلين « والكثير » كذا (٣) مخ «لأنها»

ولذلك تعدت كلها بعلى واتفقت فى اللفظ المشتق من الصلاة ، ولم يجز صليت على العدو أى دعوت عليه ، فقد صار معنى الصلاة أرق وأبلغ من معنى الرحمة وان كان راجعا اليه اذ ليس كل راحم ينحنى على المرحوم وينعطف عليه من شدة الرحمة • انتهى • ((والسلام)) بمعنى التحية والسلامة من النقائص والرذائل • وفى المطلع : قال الازهرى فى قولك : السلام عليك قولان ، أحدهما اسم السلام ومعناه اسم الله عليك ومنه قول لبيد :

معنى السلام وقرنه بالصلاة

الى الحول ثم اسم السلام عليكما ، ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر

والثانى سلم الله عليك تسليما وسلاما ومن سلم الله عليه سلم من الآفات كلها • قال الحافظ ابن الجوزى فى (مفتاح الحصن) وأما الجمع بين الصلاة والسلام فهو الاولى والاكمل والافضل لقوله تعالى (صلوا عليه وسلموا تسليما) ولو اقتصر على أحدهما جاز من غير كراهة فقد جرى عليه جمع منهم مسلم فى صحيحه خلافا للشافعية • وفى كلام بعضهم لا أعلم أحدا نص على الكراهة حتى أن الامام الشافعى نفسه اقتصر على الصلاة دون تسليم فى خطبة الرسالة والله أعلم ((سرمدا)) أى دائما متصلا على ممر الليالى والايام قال فى القاموس : السرمد الدائم والطويل من الليالى • أى صلاة وسلاما ممتدين دائمين امتدادا دائما سرمدا وبالله التوفيق ((على النبى)) قال فى المطلع يهمز ولا يهمز فمن جعله من النبأ همزه لانه ينبىء الناس عن الله ولأنه ينبأ هو بالوحى ومن لم يهمز فاما سهله واما أخذه من النبوة وهى الرفعة لارتفاع منازل الانبياء على الخلق ، وقيل مأخوذ من النبى الذى هو الطريق لانهم الطرق الموصلة الى الله تعالى • وهو انسان أوحى اليه بشرع (١) وان لم يؤمر بتبليغه فان أمر بتبليغه فهو رسول أيضا على المشهور فبين النبى والرسول عموم وخصوص مطلق ، فكل رسول نبى وليس كل نبىّ رسولا • والرسول أفضل من

لفظ النبى

(١) بهامش مط ما لفظه : قوله وهو انسان أوحى اليه بشرع الخ اعلم رحمك الله أنه يجب على كل مسلم أن يعتقد أن الرسول محمدا صلى الله عليه وسلم رجل حر بالغ من بنى آدم ويجب أن يعتقد أنه من العرب من قريش من بنى هاشم قال الفاسى فى شرح دلائل الخيرات من قال انه ليس بعربى أو ليس بقرشى فكافر • وكذا يجب أن يعتقد أنه ولد بمكة ونشأ بمكة ونشأ بها وهاجر الى المدينة ومات بها وقبره موجود فيها قال الفاسى فى

النبي اجماعا لتميزه بالرسالة التي هي أفضل من النبوة على الاصح خلافا لابن عبد السلام ووجه تفضيل الرسالة لأنها تثمر هداية الامة والنبوة قاصرة على النبي فنسبتها الى النبوة كنسبة العالم الى العابد ، ثم ان محل الخلاف فيهما مع اتحاد محلهما وقيامهما معا بشخص واحد أما مع تعدد المحل فلا خلاف في أفضلية الرسالة على النبوة ضرورة جمع الرسالة لها مع زيادة ((المصطفى)) أي المختار والمستخلص مأخوذ من الصفوة مثلثة يقال استصفى الشيء أخذ منه صفوه واختاره كاصطفاه ، وفي مسلم والنسائي عن واثلة بن الاسقع رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ان الله تعالى اصطفى كنانة من ولد اسماعيل واصطفى قريشا من كنانة واصطفى من قريش بني هاشم » ورواه الترمذي ولفظه « ان الله اصطفى من ولد ابراهيم اسماعيل واصطفى من ولد اسماعيل بني كنانة واصطفى من بني كنانة قريشا واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم » ((كنز)) أي معدن ومقر ((الهدى)) وموضعه الذي نشأ عنه واستقر لديه والكنز في الاصل المال المدفون تحت الارض وفي الحديث « لاحول ولا قوة الا بالله كنز من كنوز الجنة » أي أجرها مدخر لقائلها والمتصف بها كما يدخر الكنز المدفون لصاحبه • والهدى في الاصل مصدر كالسرى والتقى ومعناه الرشاد والدلالة ولو غير موصلة ومن أسمائه تعالى الهادي وهو الذي بصر عباده وعرفهم طرق معرفته حتى أقروا بربوبيته وهدى كل مخلوق الى مالا بد له منه في بقائه ودوام وجوده ، وفي الحديث « الهدى الصالح والسمت الصالح جزء من خمسة وعشرين جزءا من النبوة » المراد بالهدى هنا السيرة والهيئة والطريقة ، ومعنى الحديث ان هذه الخلال من شمائل الأنبياء وخصالهم الحميدة وانها جزء معلوم من أجزاء أفعالهم لأن المعنى أن النبوة تتجزأ ، ولا أن من جمع هذه الخلال كان فيه جزء من النبوة ، فان النبوة غير مكتسبة ولامجتلبة بالأسباب ، وانما هي كرامة

تفسير الهدى

الكتاب المذكور كما اذا قال : ليس الذي كان بمكة ، أو لم يكن بالمدينة ، ولا توفي بها • أي من قال ذلك فهو كافر لان هذا جحد له صلى الله عليه وسلم • وكذلك انه لم يخلق من نطفة وانما هو كعيسى وآدم عليهما السلام أو قال انه لم يكن بشرا آدميا فكل ذلك نص العلماء على كفر قائله ومدعيه

من الله تعالى كما يأتى تقرير ذلك فى محله ان شاء الله تعالى ، وتخصيص هذا العدد مما كان يستأثر النبى صلى الله عليه وسلم بمعرفته ((و)) الصلاة والسلام الدائمان السرمديان على ((آله)) صلى الله عليه وسلم ، وهم أتباعه على دينه ، قال الامام المحقق ابن القيم فى كتابه ـ جلاء الافهام : يقال آل الرجل له نفسه وآله لمن تبعه وآله لأهله وأقاربه ، فمن الأول قوله صلى الله عليه وسلم « اللهم صل على آل أبى أوفى » وقوله تعالى (سلام على آل ياسين) ونازع فى هذا قوم فقالوا لا يكون الآل الا الاتباع والاقارب وأجابوا عما ذكر بأن المراد من الآية والحديث الاقارب ٠ واختلف فى آله صلى الله عليه وسلم فقيل هم الذين حرمت عليهم الزكاة وهم عندنا كالحنفية بنو هاشم خاصة ، وعند الشافعية بنو هاشم وبنو المطلب ، وقيل بنو هاشم ومن فوقهم الى غالب وهذا قول أشهب من أصحاب مالك ، وقيل هم ذريته وأزواجه خاصة حكاه ابن عبد البر فى التمهيد ، وقيل آله أتباعه على دينه الى يوم القيامة حكاه ابن عبد البر عن بعض أهل العلم وأقدم من روى عنه هذا القول جابر بن عبد الله رضى الله عنهما ذكره البيهقى واختاره بعض الشافعية (١) قلت وكثير من علمائنا فى مقام الدعاء خاصة ، وقيل هم الاتقياء من أمته حكاه القاضى حسين والراغب وجماعة لما روى أنه صلى الله عليه وسلم سئل من آلك قال « كل مؤمن تقى » (٢) وفى القاموس آل الرجل أهله وأتباعه وأولياؤه ولا يستعمل الا فيما فيه شرف غالبا فلا يقال آل الاسكاف كما يقال أهله ٠ وهو اسم جمع لا واحد له من لفظه بل من معناه وهو صاحب ، وهل ألفه منقلبة عن هاء وأصله أهل كما هو مذهب سيبويه أو عن واو كما هو مذهب الكسائى ؟ ظاهر كلام ابن القيم فى جلاء الافهام ترجيح الثانى وكلاهما مسموع ويصغر على أهيل وأويل والصواب جواز اضافة آل الى الضمير قال الشاعر :

تفسير الآل

---

(١) بهامش مخ ما لفظه وهذا هو مذهب جمهور أهل الحديث قال بعضهم :

آل النبى هم اتباع ملته	من الاعاجم والسودان والعرب
لو لم يكن آله الا اقاربه	صلى المصلى على الطاغى أبى لهب

(٢) أنظر ترجمة نافع بن هرمز من ميزان الذهبى ٠ المعلمى

أنا الفارس الحامى حقيقة والدى وآلى فما تحمى حقيقـــة آلكا (١)

وفى شعر عبد المطلب جد النبى صلى الله عليه وسلم

وانصرَ عـــلى آل الصـــليـ ـب وعابـــديه اليـــوم آلك

نعم هو بالنسبة الى اضافته الى الظاهر قليل • وانما اتبعنا آله عليه الصلاة والسلام له لما تضافرت به الاخبار وصحت به الآثار من قوله صلى الله عليه وسلم « قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل ابراهيم » الى مالا يحصى الا بكلفة ((و)) الصلاة والسلام الدائمان المتصلان على ((صحبه)) اسم جمع لصاحب وقال الاخفش جمع له وبه جزم الجوهرى فقال وجمع صاحب صحب كراكب وركب •والضمير عائد على النبى صلى الله عليه وسلم والمراد بالصاحب هنا الصحابى ((الابرار)) جمع البرأى البار وهو الصادق والكثير البر والصدق فى اليمين ، وفى أسمائه الحســـنى « البر » دون البار ، قال العلامة أبو بكر بن أبى داود فى كتابه (تحفـة العباد) البر هو العطوف على عباده المحسن اليهم عم ببره جميع خلقه ، فلم يبخل عليهم برزقه ، وهو البر بأوليائه اذ خصهم بولايته ، واصطفاهم لعبادته ، وهو البر بالمحسن فى مضاعفة الثواب له ، وبالمسىء فى الصفح والتجاوز عنه • والابرار كثيرا ما يخص بالأولياء والزهاد والعبـــاد ، والصحابة الكرام ، أفضل أولياء الانام ، وفى الآية الكريمة (وتوفنا مع الابرار) والصحابى من اجتمع بالنبى صلى الله عليه وسلم مؤمنا ولو لحظة ومات على ذلك ولو تخلله ردة • وقسم الامام الحافظ ابن الجوزى الصحبة الى ثلاث مراتب (الاولى) من كثرت معاشرته ومخالطته للنبى صلى الله عليه وسلم بحيث لا يعرف صاحبها الا بها فيقال هذا صاحب فلان وخادمه لمن تكررت خدمته لا لمن خدمه مرة واحدة أو ساعة أو يوما (الثانية) من اجتمع به صلى الله عليه وسلم مؤمنا ولو مرة واحدة لأنه يصدق عليه انه صحبه وان لم ينته الى الاشتهار به (الثالثة) من رآه صلى الله عليه وسلم رؤية ولم يجالسه ولم يماشه فهذا ألحق بالصحبة الحاقا وان كانت حقيقة الصحبة لم توجد فى حقه ولكنها صحبة الحاقية حكمية لشرف قدر

مـــراتب الصحـــابة

(١) بهامش مخ ما لفظه : الحقيقة ضد المجاز وما يحق أن تحميـــه والراية ٠ ١ هـ

النبى صلى الله عليه وسلم لاستواء الكل فى انطباع طلعة المصطفى صلى الله عليه وسلم فيهم برؤيته اياهم أو رؤيتهم اياه مؤمنين بما جاء به وان تفاوتت رتبهم رضوان الله عليهم • وفى وصفنا اياهم بالابرار اشارة الى المذهب الراجح من أنهم عدول كلهم ولا يبحث عن عدالة أحد منهم لا فى رواية ولا فى شهادة والمراد مالم يظهر معارض كزنا ماعز وفى قوله صلى الله عليه وسلم « أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم » دليل على عدالتهم اذ لو لم يكونوا عدولا لما حصل الاهتداء بالاقتداء بهم • وعلى الناس ذكر محاسنهم والكف عما جرى بينهم من الفتن ويجب حمل ذلك على اجتهادهم وظن كل فريق منهم أن ما صار اليه هو الواجب وأنه أرفق للدين وأوفق للمسلمين وكل مجتهد مأجور والله ولى الامور ولهذا وصفهم بقوله ((معادن)) جمع معدن وهى المواضع التى يستخرج منها جواهر الارض كالـــذهب والفضة وغيرهما ، والعدن الاقامة ، والمعدن مركز كل شىء ، ومنه حديث « فعن معادن العرب تسألونى ؟ قالوا نعم » أى عن أصولها التى ينسبون اليها ويتفاخرون بها أى هم مستقر ((التقوى)) ومواضعها والتقوى لغة الحجز بين الشيئين وشرعا التحرز بطاعة الله عن مخالفته وامتثال أمره واجتناب نهيه ، وأصل اتقى اوتقى لأنه من وقى وقاية فقلبت الواو تاء وأدغمت التاء فى التاء ((مع الاسرار)) البديعة والاحوال الرفيعة • والسر ما استودعته لأخيك وكرهت أن يطلع عليه أحدا وقد قال صلى الله عليه وسلم « المجالس بالأمانة الا ثلاثة مجالس سفك دم حرام وفرج حرام واقتطاع مال بغير حق » رواه أبو داود من حديث جابر مرفوعا ، وأخرج الامام احمد من حديث أبى الدرداء « من سمع من رجل حديثا لا يشتهى أن يذكر عنه فهو أمانة وان لم يستكتمه » وقال العباس بن عبد المطلب لابنه عبد الله رضى الله عنهما يا بنى ان أمير المؤمنين يدنيك ـ يعنى عمر رضى الله عنه ـ فاحفظ عنى ثلاثا ، لا تفشين له سرا ، ولا تغتابن عنده أحدا ، ولا يطلعن منك على كذبة • ولا شك ان الصحابة رضى الله عنهم كانوا أعمق الناس أسرارا وأبرهم قلوبا وأعلاهم أنوارا •

تنبيهات

الجمع بين الآل والصحب

(الاول) كثيرا ما يجمع المصنفون فى الصلاة بين الآل والصـــحب ويعطفونهم عليهم مع شمول الآل لهم فى مقام الدعاء على المعتمد كما اختار القاضى أبو يعلى أحد أركان المذهب وقدمه المجد فى شرحه والامام الموفق فى المغنى لرغم أنوف المبتدعة من الرافضة وأشباههم أذلهم الله تعالى(الثانى) ذكر الحافظ أبو زرعة الرازى واسمه عبيد الله (١) ابن عبد الكريم شيخ الامام (٢) أبى الحسين (٣) مسلم بن الحجاج ان أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم يزيدون على مائة ألف•قال البرماوى فى شرح « الزهرالبسام» هذا على الاصح فى النقل عنه كما رواه ابن المدينى فى ذيله على كتاب الصحابة ، وروى أنهم مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا ممن روى عنه وسمع منه صلى الله عليه وسلم ، واستبعده البرماوى ، قلت قد جزم بهذا العدد الحافظ جلال الدين السيوطى فى الخصائص الصغرى وذكره شيخنـــا الشهاب المنينى فى نظمها بقوله :

عدد الصحابة

وصحبه أفضـــــل خلق الله	بعد النبيـــين بلا اشـــــتباه
هم كالنجوم كلهم مجتهـــــد	يا ويل أقوام بهم لم يهتـــدوا
والفضل فى ما بينهـــم مراتب	وعدهـــم للأنبيا يقـــارب

حكم الصلاة على غير الانبياء

(الثالث) اختلف العلماء فى الصلاة على غير الانبياء عليهم الصـــلاة والسلام هل تجوز استقلالا أم لا ؟ قال الامام المحقق ابن القيم فى (جلاء الافهام) هذه المسألة على نوعين ، أحدهما أن يقال اللهم صل على آل محمد فهذا يجوز ويكون عليه الصلاة والسلام داخـلا فى آله فالافراد عنه وقع لفظا لا معنى • الثانى أن يفرد واحد بالذكر كقوله اللهم صل على على أو حسن أو أبى بكر أو غيرهم من الصحابة ومن بعدهم ، فكره ذلك الامام مالك ، قال لم يكن ذلك من عمل من مضى • وهو مذهب أبى حنيفة وسفيان بن عيينة والثورى وبه قال طاوس ، وقال ابن عباس رضى الله

---

(١) فى الأصلين : « عبد الله » خطأ

(٢) فى مط «شيخ الاسلام» وكذا كتبت أولا فى المخطوط ثم حـــوول اصلاحها

(٣) فى مط « أبى الحسن » خطأ

عنهما لا تنبغي الصلاة الا على النبى ولكن يدعى للمسلمين والمسلمات بالاستغفار • وهذا مذهب عمر بن عبد العزيز روى ابن أبى شيبة عن جعفر ابن برقان قال كتب عمر بن عبد العزيز رحم الله روحه : أما بعد فان ناسا من الناس قد التمسوا الدنيا بعمل الآخرة وان من القصاص قد أحدثوا فى الصلاة على خلفائهم وأمرائهم عدل صلاتهم على النبى صلى الله عليه وسلم فاذا جاء كتابى فمرهم أن تكون صلاتهم على النبيين ودعاؤهم للمسلمين عامة ، وهذا مذهب الشافعية ولهم ثلاثة أوجه منع تحريم أو كراهة تنزيه أو من باب ترك الاولى حكاها النووى فى الاذكار • وقالت طائفة من العلماء تجوز الصلاة على غير النبى استقلالا ، قال القاضى أبو يعلى من أئمة مذهبنا فى كتابه رءوس المسائل وبذلك قال الحسن البصرى وخصيف ومجاهد ومقاتل بن سليمان ومقاتل بن حيان وكثير من أهل التفسير وهو قول الامام احمد رضى الله عنه نص عليه فى رواية أبى داود وقد سئل أينبغى أن لا يصلى على أحد الا على النبى صلى الله عليه وسلم ؟ قال : أليس قال على لعمر صلى الله عليك ؟ قال القاضى وبه قال اسحاق بن راهويه وأبو ثور وابن جرير الطبرى واحتجوا بصلاة النبى صلى الله عليه وسلم على (١) جماعة من أصحابه ممن كان يأتيه بالصدقة • واختار الامام المحقق ابن القيم الجواز مالم يتخذه شعارا أو يخص به واحدا اذا ذكر دون غيره ولو كان أفضل منه كفعل الرافضة مع أمير المؤمنين على وأهل بيته دون غيرهم من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين فيكره حينئذ ولو قيل بالتحريم لكان له وجه • هذا ملخص كلامه والله أعلم

((وبعد فاعلم أن كل العلم كالفرع للتوحيد فاسمع نظمى))

((لأنه العلم الذى لا ينبغى لعاقل لفهمه لم يبتغ))

الكلام على بعد وأما بعد

((وبعد)) الواو بدل عن أما النائبة عن مهما ولتضمنها معنى الشرط لزمت الفاء فى جوابها ، وبعد من الظروف المبنية مالم تضف لفظا ومعنى أو ينوى ثبوت لفظ المضاف اليها أو تقطع عن الاضافة رأسا فتعرب حينئذ فى الثلاثة، وان حذف المضاف اليها او نوى ثبوت معناه بنيت على الضم، ويؤتى

(١) فى مط «عن»

بها للانتقال من أسلوب الى غيره أى بعد البسملة والحمدلة والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه •ويستحب الاتيان بها فى الخطب والمكاتبات لان النبى صلى الله عليه وسلم كان يأتى بها فى خطبه ومكاتباته للملوك وغيرهم • ونقل الامام القاضى علاء الدين المرداوى الحنبلى فى كتابه شرح التحرير انه نقل اتيانه صلى الله عليه وسلم بأما بعد فى خطبه ونحوها خمسة وثلاثون صحابيا • واختلف فيأول من نطق بها فقيل داود عليه السلام وعن الشعبى انها فصل الخطاب الذى أوتيه لأنها تفصل بين المقدمات والمقاصد ، وقيل أول من نطق بها يعقوب ، وقيل أيوب ، وقيل سليمان عليهم السلام ، وقيل قس بن ساعدة الايادى ، وقيل كعب بن لؤى ، وقيل يعرب بن قحطان ، وقيل سحبان وائل • وعلى هذه الاقوال ففصل الخطاب الذى أوتيه داود عليه السلام « البينة على المدعى واليمين على من أنكر » ـ والاول ـ وهو أول من تكلم بها داود عليه السلام ـ أشبه كما قاله الحافظ ابن حجر العسقلانى وغيره ، ويمكن الجمع لكن نسبة أولية ذلك لسحبان وائل ساقط جدا ، نعم زعم بعض الناس ان سحبان أول من نطق بها فى الشعر حيث قال :

لقد علم القوم اليمانون اننى ... اذا قلت أما بعد انى خطيبها

وقد نظم ذلك الشمس الميدانى مع زيادة آدم عليه السلام فقال :

جرى الخلف أما بعدمن كان بادئا ... بها عد أقوالا وداود أقرب
ويعقوب أيوب الصبور وآدم ... وقس وسحبان وكعب ويعرب

((فاعلم)) الفاء فى جواب الواو النائبة عن اما لتضمنها معنى الشرط ، والعلم صفة يميز المتصف بها بين الجواهر والاجسام والاعراض والواجب والممكن والممتنع تمييزاً جازماً مطابقا ((ان كل العلم)) أى سائر العلوم الشرعية وكذا العقلية بأنواعها وتفاريعها من أصولها وفروعها ((كالفرع)) علم ((التوحيد)) المتفرع عليه والناشىء عنه المنظور اليه والمقتبس منه ((فاسمع)) سماع فهم وعرفان وقبول واذعان ((نظمى)) لأمهات مسائله ومهمات دلائله • والتوحيد تفعيل للنسبة كالتصديق والتكذيب لا للجعل

معنى لفظ التوحيد

فمعنى وحدت الله نسبت اليه الوحدانية (١) لا جعلته واحدا فان وحدانية الله تعالى ذاتية له ليست بجعل جاعل • قال فى القاموس التوحيد ايمان بالله وحده • انتهى • أى التصديق بما جاء به النبى صلى الله عليه وسلم من الخبر الدال على أن الله تعالى واحد فى ألوهيته لا شريك له ، والتصديق بذلك الخبر أن ينسبه الى الصدق ومطابقة الواقع بالقلب واللسان معا ، لأنا نعنى بالتوحيد هنا الشرعى وهو افراد المعبود بالعبادة مع اعتقاد وحدته ذاتا وصفات وأفعالا ، فلا تقبل ذاته الانقسام بوجه ولا تشبه صفاته الصفات ولا تنفك عن الذات ولا يدخل أفعاله الاشتراك (٢) ، فهو الخالق دون من سواه • وانما كانت العلوم كالفرع لعلم التوحيد لانه أشرف العبادات وأفضل الطاعات ، وشرط فى صحة كل عبادة وطاعة ، وشرط لقبول الاعمال ، اذ هو معرفة ذى العظمة والجلال ، فمن لم يوحد المعبود ، فكل عمله مردود • وانما سمى هذا العلم بالتوحيد لانه أشهر مسائله وأشرفها ، ويسمى أيضا بعلم الكلام لأن مباحثه كانت معنونة فى كتب القدماء بقولهم : الكلام فى كذا ، أو لأن أشهر مواضع الخلاف فيه مسئلة كلام الله تعالى حتى جرى ما جرى لأئمة الدين بنزغة الشيطان للمخالفين ولكون علم التوحيد أصل العلوم وأس (٣) النجاة وسلم المعرفة للحى القيوم قلنا ((لانه)) أى علم التوحيد ((العلم)) العظيم القدر الفخيم الامر ((الذى لا ينبغى)) أى لا يطلب ولا يحسن ولا يجمل ((ل)) شخص بالغ ((عاقل)) من ذكر وأنثى من بنى آدم ((لفهمه)) أى لادراك صور معرفته فى ذهنه واقتداره على الاتصاف بالعلم به ((لم يبتغ)) أى لم يطلبه ويدأب فى تحصيله ليكون فى ايمانه على بصيرة ، وفى عبادته على يقين ومعرفه منيرة ، ويباين أهل الشك والريب والحيرة ، بل عليه أن يشمر عن ساق الجد والاجتهاد ، ويدأب فى سائر أحواله لينال المراد ، ويباين أهل الفرقة والتفنيد (١) ويخلع من عنقه ربقة التقليد

((فيعلم الواجب والمحالا كجائز فى حقه تعالى))

---

(١) فى مخ « نسبته للوحدانية » (٢) أنظر التعليق على شرح الناظم لقوله فى أول الباب الاول « بأنه واحد » (٣) مخ « وراس »
(١) مط « والتقييد »

الـــواجب والمحال والجائز

((فيعلم الواجب)) أي يجب على كل مكلف شرعا أن يعرف مايجب لله تعالى وهو مالا يتصور فى العقل عدمه كوجوده تعالى ووجوب قدمه، وقدم الواجب لشرفه اذ به يتصف البارى جل وعلا ولأن بمعرفته يعرف قسيماه ((و)) يعلم ((المحالا)) وهو ما لايتصور فى العقل وجوده كالشريك له تعالى ، وألفه للاطلاق ، وقدمه على الجائز لانه كالبسيط بالنسبة اليه، ولانه المقابل للواجب،ولاجل القافية ،((ك)) ما يجب على كل مكلف أن يعلم لكل حكم ((جائز)) وهو مايصح فى نظر العقل وجوده وعدمه عـــلى السواء كارسال الرسل وانزال الكتب وشرع الشرائع ونسخ بعضـــها ببعض الى سائر ما يجوز ((فى حقه تعالى)) وتقدس ، ومثل ذلك لرسل الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين فيعرف الواجب فى حقهم من الصدق والامانة وتبليغ ما أمروا بتبليغه ، والمستحيل فى حقهم من الكذب والخيانة وكتم شيء مما أمروا بابلاغه ، والجائز فى حقهم من الاكل والشرب والنوم والنكاح والامراض الغير المزرية بمناصبهم العالية كما يأتى تفصيل ذلك فى محاله ان شاء الله تعالى :

((وصار من عادة أهـــل العلم	أن يعتنوا فى سـبر ذا بالنظم))
((لأنه يسهل للحفظ كمـــا	يروق للسمع(١)ويشفى من ظما))
((فمن هنا نظمت لى عقيـــدة	أرجوزة وجيـــزة مفيـــدة))
((نظمتها فى سلكها مقـــدمة	وست أبواب كذاك خاتمـــة))

التعــــريف بارجوزة المتن

((وصار)) فى هذه الازمنة ومن قبلها فى سائر الامصار ، بعد كثرة الخلاف وتباين الفرق وظهور البدع من قديم الاعصار ((من عادة أهـــل العلم)) بالسنة الدائبين فى تحرير أدلتها والقائمين بنشرها وتعليمها والوقوف على أصولها وتبين دقائق محال الخلاف لخوف الزيغ والانحراف ((أن يعتنوا)) أن يقصدوا ويشتغلوا ويهتموا ((فى سبر)) أى تتبع مهمات مسائل ((ذا)) أى هذا العلم الذى هو علم التوحيد وضبط أمهات تفاصيله ((بالنظم)) لسهولة حفظه لانه كلام متسق مقفى موزون فيرسخ فى الحافظة من غير مزيد مشقة بخلاف المنثور فانه أصعب رسوخا فى الحافظة كما لا يخفى

---

(١) مط « من سمع »

فمن ثم قلنا معللين للنظم ((لأنه)) أى المنظوم المفهوم من النظم((يسهل))
يقال سهل ككرم سهالة وسهلة وتسهيلا (١) لان ويسر ومن الارض ضد
الحزن ، أى ييسر ((للحفظ)) والعلوق فىالحافظة((كما))انه((يروق))
أى يحسن ويحمل ويلذ ((للسمع)) لكونه ينبسط له ويلتذ بسماعهلتقفيته
ووزنه ((ويشفى)) أى يبرىء ((من ظما)) أى من شدة عطش واشتياقالى
معرفة أصول علم التوحيد ومهمات مسائله ، والظمأ مهموز العطش أو أشده
وظمىء اليه اشتاق وترك الهمز للوزن ((فمن هنا)) أى من أجل ماذكرنا
من تمييز النظم على النثر ((نظمت)) النظم التأليف وضم شىء الى آخر
يقال نظم اللؤلؤ ينظمه نظما ونظاما ألفه وجمعه ((لى)) ولمن كان مثـــلى
واعتقاده اعتقادى على النحو الاثرى ((عقيدة)) سلفية أثرية ((أرجوزة))
وزنها أفعولة كأفحوصة أى مرجزة النظم من الرجز أحد بحور الشعر على
الارجح وجمعها أراجيز قال الشاعر « أبالاراجيز يا ابن اللؤم توعدنى »
((وجيزة)) أى قليلة من أوجز فى كلامه اذا اختصره وقلله ((مفيدة))أى
مربحة لمن قرأها وتأمل معانيها حق التأمل ((نظمتها)) أى نظمتمسائلها
ومهماتها ((فى سلكها)) أى خيطها قال فى القاموس السلكة بالكسر الخيط
يخاط بها والجمع سلك وجمع الجمع أسلاك ((مقدمة)) بكسرالدال المهملة
على الافصح اسم فاعل من قدم بمعنى تقدم ومنه (لا تقدموا بين يدى الله
ورسوله) أى لا تتقدموا عليه ، ومقدمة العلم ما يتوقف الشروع فيه عليها
كمعرفة حده ورسمه وموضوعه وغاية المقصود منه ، ومقدمة الكتاب تقال
طائفة من كلامه قدمت امام المقصود منه لارتباط له بها وانتفاع بها فيـــه
((وست (٢) أبواب)) جمع باب وهو فرجة فى ساتر يتوصل بها من خارج
الى داخل ومن داخل الى خارج ، وفى العرف اسم لطائفة من العلم يشتمل
على فصول وفروع ومسائل غالبا ((كذاك)) ، أى كما أنه يشتمل على
مقدمة وستة أبواب يشتمل على ((خاتمة))وهىفىاللغةعاقبة الشىء وآخرته
وهنا من هذا القبيل ما يأتى بها المصنف أو الناظم فى آخـــر كتابه أو فى

(١) كذا فى الاصلين والذى فى القاموس «سهل ككرم سهالة وسهله تسهيلا يسره » وهو الصواب ، المعلمى
(٢) مط « وستة »

آخر بحث أو مسئلة لتعلقها بما تقدمها فى الجملة وهذه (١) فهرست ما ذكرنا (المقدمة) فى ترجيح مذهب السلف على غيره (الباب الاول) فى معرفة الله تعالى وما يتعلق بذلك (الثانى) فى الافعال (الثالث) فى الاحكام والكلام على الايمان ومتعلقات ذلك (الرابع) فى بعض السمعيات من الحشر والنشر واشراط الساعة ونحو ذلك (الخامس) فى النبوات ومتعلقاتها وفى ذكر فضل الصحابة وأفضلهم (السادس) فى ذكر الامامة ومتعلقاتها (والخاتمة) فى فوائد جليلة وفرائد جزيلة لا يسع الجهل بها وستمر بك بابا بابا ان شاء الله تعالى • ولما نظمت هذه العقيدة الاثرية :

((وسمتها بالدرة المضية — فى عقد أهل الفرقة المرضية))

((على اعتقاد ذى السداد الحنبلى — امام أهل الحق ذى القدر العلى))

((حبر الملا فرد العلا الربانى — رب الحجى ماحى الدجى الشيبانى))

((وسمتها)) من السمة وهى العلامة أى سميتها يعنى عقيدتى التى نظمتها فى التوحيد ((بالدرة)) بضم الدال المهملة المشددة وفتح الراء المشددة أيضا اللؤلؤة العظيمة والجمع در ودرر ودرات ((المضية)) أى المنورة من الاضاءة يقال ضاءت وأضاءت بمعنى يعنى استنارت فصارت مضيئة ((فى عقد)) أى اعتقاد ((أهل الفرقة)) أى الطائفة ((المرضية)) فى اعتقادها المأثور عن منبع الهدى وينبوع النور ويأتى الكلام عليها قريبا ((على اعتقاد)) متعلق بنظمت

الامام احمد

والاعتقاد هو حكم الذهن الجازم فان كان موافقا للواقع فهو صحيح والا فهو فاسد ، والحاصل ان كل معنى عبر عنه الانسان بكلام خبرى من اثبات أو نفى تخيله أو لفظ به اما أن يحتمل متعلقه النقيض بوجه من الوجوه أولا ، الثانى العلم ، والاول اما أن يحتمل النقيض عند الذاكر لو قدره أولا، الثانى الاعتقاد ، فان طابق هذا الاعتقاد لما فى نفس الامر فهو اعتقاد صحيح وان لم يطابق ما فى نفس الامر فهو اعتقاد فاسد ، والاول وهو الذى يحتمل النقيض عند الذاكر لو قدره الراجح منه ظن ، والمرجوح وهم ، والمساوى شك • وسيأتى الكلام على ذلك ان شاء الله تعالى ((ذى)) أى صاحب ((السداد)) بفتح السين المهملة المشددة فدالين مهملتين بينهما ألف القصد فى الدين

(١) مط « هذه »

والسبيل قال فى القاموس والسدد الاستقامة كالسداد - يعنى بالفتح -وأما سداد القارورة والثغر فبالكسر فقط ، وسداد من عوز وعيش لما يسد به الخلة وقد يفتح أو لحن ا هـ و وقد جزم النضر بن شميل وجمع بلحن من فتح سداد فى قوله صلى الله عليه وسلم من حديث ابن عباس وامير المؤمنين على رضى الله عنهما : « اذا تزوج الرجل المرأة لدينها وجمالها كان فيه سداد من عوز » وفيه حكاية مشهورة (١) • والمراد بذى السداد هو الامام الامجد امامنا أبو عبد الله احمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد بن ادريس بن عبد الله بن حيان بفتح المهملة وتشديد التحتية وبعد الالف نون ابن عبد الله بن أنس بن عوف بن قاسط بن مازن بن شيبان بن(ذهل بن-٢) ثعلبة بن عكابة بن صعب بن على بن بكر بن وائل بن قاسط بن هنب-بكسر الهاء واسكان النون وبعدها موحدة- بن أفصى-بالفاء والصاد المهملة- بن دعمى بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان الامام المروزى ثـم البغدادى ((الحنبلى)) نسبة الى جده أبى أبيه حنبل((امام أهل الحق))الذين هم الفرقة الناجية لاقتفائهم المأثور عن منبع الهدى ومعدن الخيرات وينبوع النور ((ذى)) صاحب ((القدر)) أى المقدار ((العلى)) أى المرتفع السامى لكثرة فضائله وتوفر محامده ومناقبه وآثاره فى الاسلام المشهورة ومقاماته فى الدين المذكورة فقد انتشر ذكره فى البلاد وعم نفعه العباد • قال الامام اسحاق بن راهويه : الامام أحمد بن حنبل حجة بين الله تبارك وتعالى وبين عبيده فى أرضه • وقال الامام الشافعى : خرجت من بغداد وما خلفت فيها أحدا أتقى ولا أورع ولا أفقه ولا أعلم من أحمد بن حنبل • وقال أحمد بن سعيد الدارمى : ما رأيت أسود رأس أحفظ لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا اعلم بفقه معانيه من أبى عبد الله احمد بن حنبل • ومن ثم قلت ((حبر الملا)) بفتح الحاء المهملة وكسرها وسكون الموحـدة

---

(١) بهامش مخ ما نصه : « أى مع المأمون والنضر بن شميل وذلك أن المأمون رواه بالفتح فقال النضر انما هو بالكسر يا أمير المؤمنين ، فقال : تلحنني يا نضر ؟ فقال : انما لحن هشيم فيه ، أما سمعت قول العرجى ؟

أضاعونى وأى فتى أضاعوا ... ليوم كريهة وسداد ثغـر

وجرى بينهما محاورات ..

(٢) زيادة من مخ

العالم والصالح ، والملأ بفتح الميم واللام مهموز أشراف الناس وجماعتهم وذوو الشارة منهم ((فرد)) أي واحد صاحب الخصال ((العلى)) أى المرتفعة السامية بأوصافها الجميلة ونعوتها الفضيلة ((الربانى)) أى العالم العامل المعلم للعلم غيره ، وهو منسوب الى الرب بزيادة الالف والنون للدلالة على كمال الصفة ، وهو الشديد التمسك بدين الله تعالى وطاعته ، وعن المبرد انه منسوب الى ربان الذى يربى الناس بالتعليم ، وقال الصوفية هو الكامل من كل الوجوه فى جميع المعانى • وفى البخارى : الربانى الذى يربى بصغار العلم قبل كباره • وقال بعضهم الربانى من أفيضت عليه المعارف الالهية فعرف بها ربه وعرف الناس بعلمه ، ورأيتنى كاتبا فى كتابى « القول العلى فى شرح حديث سيدنا أمير المؤمنين على » عند قوله رضى الله عنه : « الناس ثلاثة فعالم ربانى ، ومتعلم على سبيل نجاة ، وهمج رعاع اتباع كل ناعق » ما لفظه : العالم الربانى وهو الذى لا زيادة على فضله لفاضل ، ولا منزلة فوق منزلته لكامل • قال ابن عباس رضى الله عنهما : الربانى هو المعلم أخذه من التربية أى يربى الناس بالعلم كما يربى الطفل أبوه • وقال سعيد بن جبير : هو الفقيه العليم الخبير • وقال سيبويه : زادوا ألفا ونونا فى الربانى اذا أرادوا تخصيصا بعلم الرب كما قالوا شعرانى ولحيانى لعظيم الشعر واللحية • وقال أبو نعيم (١) الزاهد : سألت ثعلبا عن هذا الحرف وهو الربانى فقال : سألت ابن الاعرابى فقال : اذا كان الرجل عالما عاملا معلما قيل له هذا ربانى ، فان حرم خصلة منها لم يقل له ربانى • وفى « مفتاح دار السعادة » للامام المحقق ابن القيم : معنى الربانى الرفيع الدرجة فى العلم العالى المنزلة فيه وعلى ذلك حملوا قوله تعالى : « لولا ينهاهم الربانيون والاحبار » انتهى • والله أعلم ((رب)) أى صاحب ((الحجا)) كالى العقل والفطنة والمقدار العالى • كان سيدنا الامام أحمد رضى الله عنه ربعة من الرجال حسن الوجه حسن الهيئة لا يخوض فى شىء من أمور الناس ذا وقار وسكينة من أحيا الناس وأكرمهم نفسا وأحسنهم عشرة وأدبا كثير الاطراق وغض البصر معرضا عن اللغو لا يسمع منه الا المذاكرة

---

(١) كذا فى الاصلين والصواب « أبو عمر »

بالحديث وذكر الصالحين • قال الامام الحافظ أبو داود : كانت مجالس الامام أحمد مجالس آخرة لا يذكر فيها شيء من أمر الدنيا • قال : وما سمعته ذكر الدنيا قط • وقال ثعلب في صفته : رأيت رجلا كأن النار توقد بين عينيه • وقال عبد الملك الميموني : ما أعلم انى رأيت أحدا انظف ثوبا ولا أشد تعاهدا لنفسه في ثيابه وشعر رأسه وبدنه من الامام أحمد بن حنبل • وكان يحب الفقراء ويعرض عن أهل الدنيا وكان حسن الخلق دائم البشر لين الجانب ليس بفظ ولا غليظ ، يحب في الله ويبغض في الله ، ويحب لمن أحبه ما يحب لنفسه ويكره له ما يكره لها ، لا تأخذه في الله لومة لائم ، حسن الجوار يؤذى فيتحمل • وكان أصبر الناس على الوحدة فكان لا يرى الا في مسجد أو جنازة أو عيادة مريض ، ويكره المشي في الاسواق • وكان يقول الخلوة أروح لقلبي • وكان يقال كان ابن مسعود رضي الله عنه أشبه الناس برسول الله صلى الله عليه وسلم هديا وسمتا ، وكان أشبه الناس بهدى عبد الله وسمته علقمة بن قيس ، وكان أشبه الناس بعلقمة ابراهيم النخعي ، وكان أشبه الناس بابراهيم منصور بن المعتمر ، وكان أشبه الناس بمنصور سفيان الثوري ، وكان أشبه الناس بسفيان وكيع بن الجراح • قال محمد بن يونس : وكان أشبه الناس بوكيع الامام أحمد بن حنبل رضوان الله عليهم أجمعين • وكان الامام أحمد رضي الله عنه يخضب بالحناء خضبا ليس بالقاني • واعلم انه لا شبهة عند أئمة الدين بأن سيدنا الامام أحمد رضي الله عنه امام السنة والصابر في المحنة ((ماحى)) بنور السنة واضاءة المتابعة وسنا الوراثة المحمديةأي مذهب أثر ((الدجى)) أي ظلمة البدعة يقال دجا الليل دجواودجوا أظلم كأدجى وتدجى وليلة داجية أي مظلمة ودياجي الليل حنادسه ، فان امامنا وسيدنا الامام أحمد رضي الله عنه كسر سورة أهل البدع وشل جموعهم ورد كيدهم في صدورهم وأبقى شجاهم في نحورهم ((الشيباني)) نسبة الى أحد أجداده شيبان المذكور في نسبه فالامام أحمد رضي الله عنه من صريح ولد اسماعيل ومن صميم العرب ، وكان أبو الامام أحمد والى سرخس من أبناء الدعوة العباسية ، وتوفي وله ثلاثون سنة سنة تسع وسبعين ومائة وللامام

أحمد نحو خمس عشرة سنة فان أمه حملت به بمرو وقدمت بغداد وهي حامل به فوضعته بها ووليته أمه واسمها صفية وهي شيبانية أيضا فانها صفية بنت ميمون بن عبد الله الشيباني (من بني عامر - ١) نزل أبوه بهم فتزوجها وجدها عبد الملك بن سوادة بن هند الشيباني من وجوه بني شيبان تنزل به قبائل العرب للضيافة ، فحاز امامنا رضي الله عنه شرف النسبين وكمل له بأصيله تمام الشرفين •

((فانه امام أهل الاثر فمن نحا منحاه فهو الأثري))

((فانه)) أي الامام احمد رضي الله عنه ((إمام)) وقدوة ((أهل))أي أصحاب ((الاثر)) يعني الذين انما يأخذون عقيدتهم من المأثور عن الله جل شأنه في كتابه أو في سنة النبي صلى الله عليه وسلم أو ما ثبت وصح عن السلف الصالح من الصحابة الكرام ، والتابعين الفخام ،دون زبالات أهل الاهواء والبدع ، ونخالات أصحاب الآراء والبشع ((فمن)) أيانسان من هذه الامة ((نحا)) أي قصد ويمم ((منحاه)) أي مقصدهومذهبهوسار بسيرته من اتباع الاخبار واقتفاء الآثار ((فهو)) أي ذلك الذاهب مذهب الامام احمد ((الاثري)) أي المنسوب الى العقيدة الاثرية والفرقة السلفية المرضية • ويعرف أيضا بمذهب السلف وهو مذهب سلف الامة وجميع الأئمة المعتبرين المقلدين في أحكام الدين ، وقد قال الامام علي بن المديني وهو شيخ الامام احمد وشيخ الشافعي وشيخ البخاري وغيرهم : اتخذت احمد اماما فيما بيني وبين الله تعالى ، وقال اذا أفتاني احمد بن حنبل لم أبال اذا لقيت ربي كيف كان ، وقال : أحمد سيدنا حفظ الله أحمد هو اليوم حجة الله على خلقه ، وقال : ان الله تعالى أعز هذا الدين برجلين لا ثالث لهما أبو بكر الصديق يوم الردة وأحمد بن حنبل يوم المحنة • وقد قال قتيبة وأبو حاتم : اذا رأيت الرجل يحب الامام أحمد بن حنبل فاعلم انه صاحب سنة • وقال ابن ماكولا : الامام احمد هو امام النقل وعلم الزهد والورع • وقال غير واحد من أئمة الدين : الامام احمد امام أهل السنة • وفي قصيدة اسمعيل بن فلان الترمذي :

---

(١) ليس في مخ

لعمرك ما يهوى لاحمد نكبـة   من الناس الا ناقص العقل معور
هو المحنة اليـوم الذى يبتلى به   فيعتبر السنى فينـا ويسـبر
فقا أعين المراق فعل ابن حنبل   وأخرس من يبغى العيوب ويحفر

وقال أبو مزاحم الخاقانى :

لقد صار فى الآفاق أحمد محنة   وأمر الورى فيها فليس بمشكل(١)

وقال ابن أعين رحمه الله تعالى :

أضحى ابن حنبل حجة مبرورة   وبحب أحمـد يعرف المتنسك
واذا رأيت لأحمـد متنقصـا   فاعلم بأن سـتوره ستهتك (٢)

وعلى كل حال ، الامام أحمد هو امام أهل السنة بلا محال ، فهو المبيض وجه السنة ، النافض عن وجهها غبار البدعة ، فكل سنى أثرى فهو امامه •

مذهب احمد هو مذهب السلف

فان قلت اذا كان مذهب السلف هو ما عليه الائمـة جميعا تبعـا للتابعين والصحابة الكرام رضوان الله عليهم أجمعين • وهو الذى كان عليه سيد المرسلين وخاتم النبيين ، فكيف ينسب هذا المذهب للامام أحمد دون من تقدمه من أئمة الدين ؟ قلت : الامر كما ذكرت والحق كما استخبرت ، وهذه المقالة هى الشريعة الغراء ومقالة أهل الفرقة الناجية بلا محالة ، ولا يرتاب ذو لب لبيب ، ورأى صحيح مصيب ، انها هى التى كان عليها النبى الحبيب ، صلى الله عليه وسلم وأصحابه أهل الاصابة والتصويب ، والتابعين لهم باحسان من أهل التفصيل والتبويب • ولكن لما كان فى المائة الثالثـة اشرابت الفتن ، واستعلنت البدع والمحن ، وقامت دولة أهل الابتداع على

---

(١) زاد بهامش مخ هذا البيت :

ترى ذا الهوى جهلا لأحمد مبغضا   وتعرف ذا التقوى بحب ابن حنبل

(٢) بهامش مخ ما لفظه : وقال الامام أبو يوسف يحيى الصرصرى رحمه الله تعالى :

اذا ما رأيت المرء تجهـل أمـره   فزنه بمعيار الرجال ابن حنبـل
فان كان بدعيا سيعبس وجهـه   كذائق شهد فيه حبات حنظـل

الخ وهى طويلة فى الامام احمد وأصحابه الى أن قال فيها :

وأخبرنى من كان أصل طـريقتى   على بن ادريس بأصل مؤصـل
وقد كان كنزا مودعا جوهر التقى   بصيرا بفقه القلب غير مجهـل
عن الشيخ عبد القادر الحجة الذى   تحلى بأنوار الرضا والتوكـل
بأن اعتقاد الاوليـاء اعتقـاده   به يقتدى منهم أخـير بأول
ومن يعتقد فى الناس غير اعتقاده   وان كان ذا نسك فعنه بمعـزل

ساق ، وأعلن بقواعد أهل الاعتزال ذوو الضغائن والنفاق ، وساعدهم على ذلك أئمة الجور والخلفاء الفساق ، قام الامام أحمد كالنمر الهصور ، لا بل كالبحر الطامى والرئبال الجسور ، فرد كيدهم فى نحورهم ، وألقى بلابلهم فى صدورهم ، فقمع مقالتهم وزيفها عليهم وبين فسادهم بكل حال ، فردهم على أعقابهم خائبين لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال ، فلا جــرم نسب المذهب اليه ، لانه المقصود اذ ذاك بالذات والمعول علية ، فانه هو الذى انتصر للحق ونصره ، وشدخ رأس أهل البدع وهصره ، وبين الصــحيح من الفاسد والغث من السمين ، والحق من الباطل والصدق من المين . فلما كان الامام أحمد رضى الله تعالى عنه هو الذى فل مضاربهم ، وبين معايبهم ، وكشف عن زيغهم ، ودحض تلوينهم وتحريفهم ، وانتصر لما كان عليــه السلف من الاثبات بلا تمثيل ، ومن التنزيه بلا تعطيل ، ومرور الآيات المتشابهات بلا تأويل (١) ، ودعا الى هذه المقالة ، وأقام عليهــا كل برهان ودلالة ، نسبت له المقالة ، وصار امام أهلها فى كل حالة ، وألف كتابه فى الرد على الجهمية والزنادقة ، وهذا الكتاب رواه عنه الخلال من طريق ابنه عبد الله وذكره كله فى كتاب السنة الذى جمع فيه نصوص الامام أحمد وكلامه ، وعلى منوال كتاب الخلال «السنة» جمع البيهقى كتابه الذى سماه « جامع النصوص » من كلام الشافعى .

وخطبة كتاب الامام احمد «الرد على الجهمية» : الحمد لله الذى جعل فى كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم يدعون من ضــل الى الهدى ، ويصبرون منهم على الاذى ، يحيون بكتاب الله الموتى ، ويبصرون بنور الله أهل العمى ، فكم من قتيل لابليس قد أحيوه ، وكم من ضال تائه هدوه ، فما أحسن أثرهم على الناس وما أقبح أثر الناس عليهم ، ينفون عن كتاب الله تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين الذين عقدوا **ألوية البدعة ، وأطلقوا عنان الفتنة ، فهم مختلفون** فى الكتاب مخالفــون للكتاب مجمعون على مخالفة الكتاب ، يقولون على الله وفى الله وفى كتاب

---

(١) ينظر ما يتعلق بهذا فى التعليق على شرح قول الناظم « فكل ماجاء من الآيات الخ »

الله بغير علم ، يتكلمون بالمتشابه من الكلام ، ويخدعون الجهال بما يشبهون عليهم ، فنعوذ بالله من فتن المضلين » • ثم ساق الكتاب قد قرأناه ورويناه عن علماء معتبرين وفضلاء راسخين والله ولى المتقين • وقد ذكـــر كتاب الامام أحمد هذا أئمة المذهب قال الخلال : كتبت هذا الكتاب من خط عبد الله وكتبه عبد الله من خط أبيه الامام احمد رضى الله عنه • واحتج القاضى أبو يعلى فى كتابه « ابطال التأويل » بما نقله منه عن الامام احمد • وذكر ابن عقيل فى كتابه بعض ما فيه عن الامام أحمد ، ونقل منه أصحابه قديما وحديثا ، ونقل منه الامام الحافظ البيهقى وعزاه الى الامام أحمد ، وصحح هذا الكتاب شيخ الاسلام ابن تيمية عن الامام احمد ، واعتمده الامام المحقق ابن القيم فى جل تآليفه وصححه فى كتابه «الجيوش الاسلامية» وقال لم يسمع من أحد من متقدمى اصحاب الامام أحمد ولا متأخريهم طعن فيه والله أعلم • فلما انتصر الامام أحمد رضى الله عنه للسنة السنية ، والفرقة الناجية المرضية ، وقمع أهل البدع وزيف مقالتهم ، وأدحض بدعتهم ، وأظهر ضلالتهم ، صار هو علم السنة وامامها ، وصاحبها وخليلها ومقدامها ، حتى ان الامام أبا الحسن على بن اسمعيل الاشعرى امام الطائفة الاشعرية انتسب الى الامام أحمد ، ورأى اتباعه على عقيدته هو المنهج الاحمد ، قال فى كتابه « الابانة فى أصول الديانة » لما أنكر قول المعتزلة والقـــدرية والجهمية والحرورية والرافضة والمرجئة : فان قال قائل : « فعرفونا قولكم الذى به تقولون وديانتكم التى بها تدينون ، قيل له قولنا الذى به نقـــول وديانتنا التى بها ندين التمسك بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وما روى عن الصحابة والتابعين وأئمة الحديث ونحن بذلك معتصمون ، وبما كان عليه الامام أحمد بن حنبل نضر الله وجهه ورفع درجته وأجزل مثوبته قائلون ، ولمن خالف قوله مجانبون ، لانه الامام الفاضل ، والرئيس الكامل ، الذى أبان الله به الحق عند ظهور الضلال ، وأوضح به المنهـــاج وقمع به بدع المبتدعين ، وزيغ الزائغين ،وشك الشاكين ، فرحمة الله عليه

من امام مقدم ، وكبير مفهم ، وعلى جميع أئمة المسلمين » انتهى (١) •

ولد سيدنا وقدوتنا وامامنا الامام أحمد رضى الله عنه فى شهر ربيع الاول سنة أربع وستين ومائة ببغداد وتوفى نهار الجمعة من شهر ربيع الاول لاثنتى عشرة ليلة خلت منه سنة احدى وأربعين ومائتين وغسله المروذى وأدرج فى ثلاث لفائف وحزر من صلى عليه بمائة ألف ألف وعلى السور ستون (٢) ألفا سوى من كان فى السفن ، وكان الامام احمد رضى الله عنه يقول : قولوا لاهل البدع بيننا وبينكم يوم الجنائز • وأسلم من اليهود والنصارى والمجوس يوم موته عشرون ألفا (٣) وناحت الجن عليه وهتفت بموته الهواتف • قال أبو زرعة : كان يقال عندنا بخراسان الجن نعت أحمد بن حنبل قبل موته ، وسمعوا قائلا : مات رجل بالعراق فذهبت الجن كلها تصلى عليه الا المردة • وقد رثى بقصائد جمة ودفن ببغداد بباب حرب •

((سقى ضريحا حله صوب الرضا والعفو والغفران ما نجم أضا))

((وحله وسائر الأئمة منازل الرضوان أعلى الجنة))

((سقى ضريحا)) أى قبرا وفى حديث دفن النبى صلى الله عليه وسلم « يرسل الى اللاحد والضارح فأيهما سبق تركناه » قال فى النهاية الضارح هو الذى يعمل الضريح وهو القبر فعيل بمعنى مفعول من الضرح وهو الشق فى الارض ومنه فى خبر سطيح أو فى على الضريح ((حله)) أى سكنه الامام أحمد ونزل به يقال حل المكان وبه يحل ويحل نزل به كاحتله وبه فهو حال ((صوب)) فاعل سقى وهو بفتح الصاد المهملة وسكون

---

(١) بهامش مخ ما لفظه :

وروى أن الشيخ قطب الاولين الكرام الشيخ عبد القادر الجيلانى قدس سره النورانى أنشد وهو على المنبر :

أنا حنبلى ما حييت وان أمت فوصيتى للناس أن يتحنبلوا اهـ

وللشيخ يحيى بن يوسف الصرصرى :

ويا لنعمة العظمى اعتقاد ابن حنبل عليها اعتقادى يوم تبلى السرائر

وللشيخ مرعى بن يوسف :

لئن قلد الناس الأئمة اننى لفى مذهب الحبر ابن حنبل راغب

أقلد فتواه وأعشق قوله وللناس فيما يعشقون مذاهب

(٢) مخ نحو ستين (٣) أنكر الذهبى فى تاريخ الاسلام هذه الحكاية راجع مقدمة الجزء الاول من مسند الامام احمد بتحقيق احمد شاكر ص ١٣٠

الواو ، فموحدة كالصيب انصباب الغيث واراقته ومجيء السماء بالمطر أى غيث ((الرضا)) واراقته على قبره وانصبابه على ضريحه أى رضوان الله ورحمته وجوده وبركته ((و)) سقى ضريحا حله الامام احمد صـــوب ((العفو)) من الله والصفح((والغفران)) بضم الغين المعجمة وسكون الفاء فراء فنون قبله الف اسم من الغفر وهو الستر والتغطية ، يقال غفر الله له ذنبه مغفرة وغفرانا غطى عليه وعفا عنه ، ومن أسمائه تعالى الغفار والغفور وهما من أبنية المبالغة ومعناهما الساتر لذنوب عباده وعيوبهم المتجاوز عن خطاياهم وذنوبهم ، والمغفرة الباس الله تعالى العفو للمذنبـــين ، ولا يزال رضوان الله ورحمته وعفوه ومغفرته نازلة على ضريح الامام أحمد رضى الله عنه ومتواصلة ومستمرة ((ما نجم)) أى كوكب من نجوم السمـــاء ((أضا)) أى استنار يقال ضاء واضاء بمعنى استنار وصار مضيئا ، أى مدة دوام استنارة الكواكب فى كبد السماء ، وفيه من المناسبة أنه تشبه بالنجوم العلماء بجامع الانارة والهداية فى الظلماء ((وحله)) الله سبحانه أى أحل الامام احمد بن حنبل رضوان الله عليه ((و)) أحل ((سائر)) أى بقية ((الأئمة)) من علماء الامة وأعلام الأئمة من الأربعة المتبوعةمذاهبهموغيرهم من أئمة الدين وأعلام المسلمين الذين بذلوا جهدهم فى نشر السنة وتدوين الشريعة على الطريقة المرضية الحسنة ((منازل الرضوان))منالرحيمالرحمن الكريم المنان فى ((أعلى الجنة)) أى الدرجات العالية من الجنان على حسب مقاماتهم الشامخة ، ومناصبهم الباذخة فلهم الفضيلة بالســـبق والاجتهاد ، وبذل النصح وارشاد العباد وعلى الذين جاؤا من بعدهم على ممر الزمان ، أن يقولوا « ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان »، فرضوان الله ورحمته وعفوه وصفحه وغفرانه وبركته عليهم ولهم ما تعاقب الملوان وكر الجديدان ، والله ولى الاحسان .

فـــوائد

فوائد

نقدمها امام المقصود لا يستغنى عن معرفتها فى هذا الفن ليكون الطالب لنيل هذه المطالب على بصيرة (الاولى) لابد لكل طالب علم أن يتصوره اما بحده أو رسمه ليكون على بصيرة فى طلبه وأن يعرف موضوعه ليمتاز عنده

الاولى مبادىء هذا العـــلم

عما سواه مزيد امتياز فان العلوم انما يتميز بعضها عن بعض بامتياز الموضوعات وأن يصدق بغاية مآله والا كان طلبه واجتهاده عبثا ولابد أن يكون معتدا بها بالنظر لمشقة التحصيل ، والا فربما فتر جده ، وأن تكون مترتبة على ذلك الشيء المطلوب والا فربما زال اعتقادها بعد الشروع فيه فيصير سعيه فى تحصيله عبثا فى نظره ، فاذا علمت هذا (فحد) هذا العلم المسمى بأصول الدين وبعلم العقائد وبعلم التوحيد وبعلم الكلام العلم بالعقائد الدينية عن الادلة اليقينية أى العلم بالقواعد الشرعية الاعتقادية المكتسبة من أدلتها اليقينية . والمراد بالعقائد الدينية المنسوبة الى دين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم سواء توقفت على الشرع كالسمعيات أم لا وسواء كانت من الدين فى الواقع ككلام أهل الحق أو لا ككلام المخالف واعتبر فى أدلتها اليقين لانه لا عبرة بالظن فى هذا العلم (١) بل فى العمليات ، وخرج عن التعريف العلم بغير الشرعيات ، وبالشرعيات الفرعية وعلم الله تعالى والملك وعلم الرسول عليه الصلاة والسلام بالاعتقاديات ، ودخل علم علماء الصحابة بذلك فانه كلام وأصول وعقائد وان لم يكن يسمى فى ذلك الزمان بهذا الاسم حيث كان متعلقا بجميع العقائد بقدر الطاقة البشرية مكتسبا من النظر فى الادلة اليقينية أو كان ملكة تتعلق بها بأن يكون عندهم من المآخذ والشرائط ما يكفيهم فى استحضار العقائد على ما هو المراد بقولنا العلم بالعقائد من الادلة ، وموضوع كل علم شرعيا كان أو عقليا ما يبحث فيه عن عوارضه الذاتية (فموضوع) هذا العلم البحث عن أحوال الصانع سبحانه من القدم والوحدة والقدرة والارادة وغيرها من صفاته وأفعاله الاختيارية ، وكذلك ما يبحث عن الجواهر والاعراض والاجسام والحدوث والافتقار والتركيب من الاجزاء وقبول الفناء ونحو ذلك مما لا يجوز عليه تعالى (٢) (وغايته) أن يصير الايمان والتصديق بالاحكام الشرعية متقنا محكما لا تزلزله شبه المبطلين فيرتقى من حضيض التقليد الى ذروة الايقان بسبب التمكن من الاستدلال ، ومن فوائده أيضا ارشاد الطالبين ، والزام المعاندين ، باقامة الحجج والبراهين ، ونفض غبار شبه

---

(١) راجع ما تقدم أوئل الشرح فى التعريف السادس
(٢) أنظر ما يأتى فى التعليق على شرح أوائل الباب الاول

الخصوم عن قواعد الدين ، وصحة النية ، والاعتقادات الاسلامية التى يقع بها العمل فى حيز القبول (وثمرة) جميع ذلك الفوز بسعادة الدارين والظفر بما هو كمال فى الكونين • ففى الدنيا انتظام أمر المعاش بالمحافظة على العدل والمعاملة التى يحتاج اليها فى ابقاء النوع الانسانى على وجه لا يؤدى الى الفساد ، وفى الآخرة النجاة من العذاب المرتب على الكفر وسوء الاعتقاد (ومسائله) القضايا النظرية الشرعية الاعتقادية (واستمداده) من الكتاب والسنة والاجماع والنظر الصحيح •

الثانية المقصود من ترتيب القواعد

(الفائدة الثانية) مما ينبغى أن يعلم أن القواعد الكلامية ما رتبت هذا الترتيب وبوبت هذا التبويب لتؤخذ منها الاعتقادات الاسلامية والقواعد الدينية ، بل المقصود منها ليس الا دفع شبه الخصوم ودحض نهج أهل البدع والضلال فانهم طعنوا فى بعض منها بأنه غير معقول ، فبين علماء السنة بأن زعمهم على غاية من الغلط والذهول ، فان الانبياء تأتى بمحارات العقول لا بمحالاتها ، ثم بين لهم علماء السنة بالقواعد الكلامية معقولية ما انكروا ، وزيفوا عليهم من بدعهم الفظيعة ونزعاتهم الشنيعة ما ابتكروا ، وانما أخذ أهل (السنة — ١) الاعتقادات ، واعتمدوا من المعتقدات ، على ما جاءت به النصوص الصريحة ، والاخبار الصحيحة ، ودرج عليه سلف الامة ، ونهج اليه أعلام الائمة ، من الرعيل الاول ومن عليهم دون سواهم المعول •

الثالثة لمعة عن أول البدع ظهورا

(الثالثة) أول بدعة ظهرت بدعة القدر وبدعة الارجاء وبدعة التشيع والخوارج ، وهذه البدع ظهرت فى القرن الثانى والصحابة موجودون وقد أنكروا على أهلها كما سيأتى بيان ذلك ، ثم ظهرت بدعة الاعتزال ولم يزل المسلمون على النهج الاول ولزوم ظاهر السنة وما كان عليه الصحابة رضى الله عنهم الى أن حدثت الفتن بين المسلمين ، والبغى على أئمة الدين ، وظهر اختلاف الآراء ، والميل الى البدع والاهواء ، وكثرت المسائل والواقعيات ، والرجوع الى العلماء فى المهمات ، فاشتغلوا بالنظر والاستدلال واستنباط النتائج وتمهيد القواعد وانتاج القضايا والفوائد ، وأخذوا فى

---

(١) من مخ

التبويب والتفصيل ، والترتيب والتأصيل ، فأسست فرقة المعتزلة قواعد الخلاف ، ونهجت منهج الفرقة والانحراف ، وكان أول من اعتزل عن مجلس سيد التابعين الحسن البصرى واصل بن عطاء رئيس الطائفة المعتزلة ، قال شيخ الاسلام ابن تيمية : كان الناس فى قديم الزمان قد اختلفوا فى الفاسق الملى وهو أول خلاف حدث فى الملة هل هو كافر أو مؤمن ؟ فقالت الخوارج انه كافر ، وقالت الجماعة انه مؤمن ، وقالت طائفة نقول انه فاسق لا مؤمن ولا كافر منزلة بين منزلتين ، وخلدوه فى النار ، فقال الحسن البصرى رضى الله عنه : اعتزلوا عنا فاعتزلوا حلقة الحسن وأصحابه فسموا معتزلة وسموا هم أنفسهم أصحاب العدل والتوحيد لقولهم بوجوب ثواب المطيع وعقاب العاصى على الله تعالى ونفى الصفات القديمة عنه • وقال بعض العلماء : وقف على مجلس الحسن البصرى رجل فقال يا امام ظهر فى هذا الزمان جماعة يكفرون صاحب الكبيرة — يعنى بهم الخوارج — وجماعة يقولون لا يضر مع الايمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة — يعنى بهم المرجئة — فما تعتقده من ذلك ؟ فأطرق الحسن مفكرا فى الصواب فبادره واصل بن عطاء بالجواب فقال : أنا لا أقول أن صاحب الكبيرة مؤمن مطلقا ولا كافر مطلقا ، وقام الى اسطوانة فى المسجد يقرر مذهبه ويثبت المنزلة بين المنزلتين ويقول : الناس ثلاثة مؤمن وكافر ولا مؤمن ولا كافر وهو صاحب الكبيرة اذا مات بلا توبة ، فقال له الحسن : اعتزل عنا واصل ، فسموا المعتزلة لذاك • ورفيق واصل فى الاعتزال وقرينه عمرو بن عبيد المتكلم الزاهد وكان من العلم والعمل والزهد والورع والديانة على جانب عظيم حتى ان الحسن البصرى لما سئل عنه أجاب السائل : لقد سألت عن رجل كأن الملائكة أدبته وكأن الانبياء ربته ان قام بأمر قعد به وان قعد بأمر قام به وان أمر بشىء كان ألزم الناس له وان نهى عن شىء كان أترك الناس له • ما رأيت ظاهرا أشبه بباطن ولا باطنا أشبه بظاهر منه • انتهى (١) ويروى ان واصل

الخلاف فى الفاسق وبدء أمر المعتزلة

---

(١) بهامش مخ ما نصه :
وروى أن الحسن البصرى قال فى عمرو بن عبيد : هذا سيد الفتيان ان لم يحدث ، فأحدث هذا الحدث العظيم فكأن الحسن رضى الله عنه تفرس فيه ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : اتقوا فراسة المؤمن فانه ينظر بنور الله عز وجل ا هـ سمعته من شيخنا عبد الله (بابطين)

بن عطاء تكلم مرة بكلام ، فقال عمرو بن عبيد : لو بعث نبيا كان (١) يتكلم بأحسن من هذا ؟ وفصاحة واصل مشهورة وكان يلثغ بالراء فكان يجتنبها حتى كأنها ليست من الحروف (٢) ثم خلفه الجبائى (٣) وكان الاشعرى امام الطائفة الاشعرية من أصحابه ثم فارقه لما ظهر له فساد مذهبه كما هـــو مشهور والله أعلم •

الرابعة التعريف بأهل السنة

(الرابعة) أهل السنة والجماعة ثلاث فرق : الاثرية وامامهم أحمد بن حنبل رضى الله عنه ، والاشعرية وامامهم أبو الحسن الاشعرى رحمه الله ، والماتريدية وامامهم أبو منصور الماتريدى (٤) وأما فرق الضـــلال فكثيرة جدا وهذا أوان الشروع فى المقصود وبالله التوفيق •

---

(١) مخ « نبى ماكان »

(٢) بهامش مخ «روى انه اجتمع مع بعض العلماء ممن كان يبكته بلثغته فقال له قل أمر الامير أن تحفر بئر فى قارعة الطريق • فقال فى الحال أوعز القائد بقلب قليب فى وسط الجادة

(٣) وهو بعده بزمان

(٤) بهامش مخ ما نصه •
« هذا مصانعة من المصنف رحمه الله تعالى فى ادخاله الاشعرية والماتريدية فى أهل السنة والجماعة ، كيف يكون من أهل السنة والجماعة من لا يثبت علو الرب سبحانه فوق سمواته واستواءه على عرشه ويقول حروف القرآن مخلوقة وان الله لا يتكلم بحرف ولا صوت ولا يثبت رؤية المؤمنين ربهم فى الجنة بأبصارهم ، فهم يقرون بالرؤية ويفسرونها بزيادة علم يخلقه الله فى قلب الرائى • ويقول الايمان مجرد التصديق وغير ذلك من أقوالهـــم المعروفة المخالفة لما عليه أهل السنة والجماعة » وفى تعليق للشيخ عبد الله بابطين ما لفظه : « تقسيم أهل السنة الى ثلاث فرق فيه نظر فالحق الذى لاريب فيه ان أهل السنة فرقة واحدة وهى الفرقة الناجية التى بينها النبى صلى الله عليه وسلم حين سئل عنها بقوله هى الجماعة وفى رواية من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابى ، أو من كان على ما أنا عليه وأصحابى • وبهذا عرف أنهم هم المجتمعون على ما كان عليه النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه ولا يكونون سوى فرقة واحدة والمؤلف نفسه يرحمه الله لما ذكر فى المقدمة هذا الحديث قال فى النظم (وليس هذا النص جزما يعتبر فى فرقة الا على أهل الاثر) يعنى بذلك الاثرية وبهذا عرف أن أهل السنة والجماعة هم فرقة واحدة الاثرية والله أعلم

المقــدمة في ترجيح مذهب السلف

المقــدمة

في ترجيح مذهب السلف على غيره من سائر المذاهب

وقد قدمنا ما يفيد أن مذهب السلف هو ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضوان الله عليهم ومن بعدهم من أئمــة الدين والديانة والمعرفة والصيانة والسنة والأمانة ، وانما نسب لامامنا الامام أحمــد رضي الله عنه لانه انتهى اليه من السنة ونصوص رسول الله صلى الله عليــه وسلم أكثر مما انتهى الى غيره ، وابتلي بالمحنة والرد على أهل البدع أكثر من غيره ، فصار اماما في السنة أظهر من غيره ، ولهذا قال بعض شــيوخ المغاربة : المذهب لمالك والشافعي وغيرهما من الأئمــة ، والظهــور للامام احمد بن حنبل • فالذي عليه احمد عليه جميع الأئمة وان زاد بعضهم على بعض في العلم والبيان واظهار الحق ودفع الباطل •

((اعلم هــديت انه جاء الخبر   عن النبي المقتفي خير البشر))
((بأن ذي الأمة سوف تفترق   بضعا وسبعين اعتقــادا والمحق))
((ما كان في نهج النبي المصطفى   وصحبه مــن غير زيغ وجفا))

((اعلم)) فعل أمر من العلم وهو حكم الذهن الجازم المطابق للواقع أي كن متهيئا ومتفهما لادراك ما يلقى اليك من العلوم وما في ضمن المنثــور من كلامي والمنظوم ((هديت)) جملة معترضة دعائية من الهداية وهي الدلالة والمراد بها هنا الدلالة الموصلة الى المطلوب بقرينة المقام ((انه)) أي الشأن والامر ((جاء الخبر)) يعني الحديث المعول عليه في القديم والحديث ((عن النبي)) المصطفى والحبيب ((المقتفي)) أي المختص المتبع ، ومن أسمائه صلى الله عليه وسلم المقفي ، قال في النهاية هو المولى الذاهب وقد قفى يقفي فهو مقف يعني انه آخر الانبياء المتبع لهم فاذا قفى فلا نبي بعده • انتهى • وقال الامام المحقق ابن القيم في كتابه « زاد المعاد في هدى خير العباد » المقفي الذي قفى على آثار من تقدمه من الرسل فقفى الله به على آثار من سبقه منهم وهذه اللفظة مشتقة من القفو قفاه يقفوه اذا تأخــر عنه ((خــير البشر)) بل خير جميع الخلق من الأنس والجن والملائكة فهو سيد العالم وصفوة بني آدم وأفضل خلق الله وخير مخلوقات الله صلى الله عليــه

وسلم وعلى آله وصحبه أجمعين ((بأن ذى)) أى هذه ((الأمة)) المحمدية والملة الأحمدية ((سوف)) أى س((تفترق))فيما بعد ((بضعا))أى الى بضع ((وسبعين)) فرقة ، والبضع فى العدد بالكسر وقد تفتح ما بين الثلاث الى التسع ، واذا جاوزت لفظ العشر ذهب البضع فلا يقال بضع وعشرون ، أو يقال ذلك كما فى القاموس ، وعلى هذا القول جرينا فى النظم فيقال بضعة وعشرون رجلا وبضع وعشرون امرأة ولا يعكس ((اعتقادا)) أى افتراقهم لأجل الاعتقاد فهو مفعول لأجله وهى ضالة منحرفة عن الصراط المستقيم والنهج القويم ((و)) انما ((المحق)) من جميعها طائفة واحدة وهى((ماكان)) سيرها واعتقادها ونهجها واعتمادها ((فى نهج)) أى منهج ((النبى المصطفى)) أى صفوة خلق الله نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، ويقال ان من أسمائه صلى الله عليه وسلم المصطفى وهو مشهور ملهوج به وهو صادق عليـــه ولائق به ، قال القاضى عياض فى الشفاء بعد أن ذكر المأثور من أسمائه ما لفظه : وجرى منها أى القابه وسماته فى كتب الله المتقدمة وكتب أنبيائه وأحاديث رسوله واطلاق الامة جملة شافية كتسميته بالمصطفى وبالمجتبى وبالحبيب والله أعلم • ((و)) من كان منهم فى نهج ((صحبه)) رضوان‌الله عليهم أى من كان على منهاجهم وسار بسيرهم من اقتفاء الرسول فى اتباع المنقول ((من غير زيغ)) أى من غير ميل ولا انحراف ولا شك‌ولاانصراف ((و)) من غير ((جفا)) بالجيم أى من غير تجاف عن‌هديهم‌وازالة‌عن‌نهجهم، والجفاء نقيض الصلة ويقصر ويصح أن يقرأ بالخاء المعجمة ويكون المعنى من غير ميل ولا كتم وستر ، والخافية ضد العلانية ، والمشار اليه فى البيتين هو ما رواه سيدنا الامام أحمد من حديث معاوية رضى الله عنه قال : قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « الا ان من قبلكم من أهـل الكتاب افترقوا على اثنتين وسبعين ملة وان هذه الامة ستفترق عـــلى ثلاث وسبعين ثنتان وسبعون فى النار وواحدة فى الجنة وهى الجمـــاعة » ورواه أبو داود وزاد فيه : « وانه سيخرج فى أمتى أقوام تتجارى بهم الاهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه لا يبقى منه عرق ولا مفصل الا دخله » قوله الكلب بفتح اللام قال الخطابى هو داء يعرض للانسان من عضـــة الكلب

(الكلب - ١) وقال وعلامة ذلك في الكلب أن تحمر عيناه ولا يزال يدخل ذنبه بين رجليه فاذا رأى انسانا ساوره • وفي رواية انه صلى الله عليه وسلم قال : « ستفترق أمتى ثلاثا وسبعين فرقة كلهم فى النار الا فرقة واحدة » فقيل له : من هم يا رسول الله ؟ يعنى الفرقة الناجية ، فقال : « هو من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابى » ، وفى رواية : «ستفترق أمتى على بضع وسبعين فرقة كلهم فى النار الا فرقة واحدة وهى ما كان على ما أنا عليه وأصحابى » • قال بعض العلماء : هم يعنى الفرقة الناجية أهل الحديث يعنى الاثرية والاشعرية والماتريدية (٢) قلت ولفظ الحديث يعنى قوله الا فرقة واحدة ينافى التعدد ولذا قلت

((وليس هذا النص جزما يعتبر   فى فرقة الا على أهل الاثر))

((وليس هذا النص)) المذكور عن منبع النور ومصباح الديجور((جزما)) يحتمل المصدرية أى أجزم به جزما أو انه مفعول لاجله أى من جهة الجزم واليقين ((يعتبر)) أى يستدل به ويوافق ((فى فرقة)) أى لا ينطق ويصدق على فرقة من الثلاث وسبعين فرقة ((الا على)) فرقة ((أهل الاثر))وماعداهم من سائر الفرق قد حكموا العقول ، وخالفوا المنقول ، عن الرسول صلى الله عليه وسلم والواجب أن يتلقى بالقبول فانى يصدق عليهم الخبر أويطبق عليهم الاثر •

تنبيهات

تنبيهات

الاول تعداد الفرق

الاول قال بعض أهل العلم أهل البدع خمسة : يعنى من جهة أصولها ثم كل (فرقة-٣)تتشعب وتتفرق فرقاشتى،أحدهاالمعتزلة القائلون بأن العبادخالقو أعمالهم وينفون رؤية الله تعالى فى الآخرة ويقولون بوجوب الثواب والعقاب والصلاح والاصلح على الله ، ومن أصول المعتزلة القول بالعدل وثبوت المنزلة بين المنزلتين والتوحيد يعنى نفى الصفات كما تقدم ، وهم عشرون فرقة يضلل بعضهم بعضا •

فرق المعتزلة

---

(١) من مخ

(٢) بهامش مخ « تأمل قوله أهل الحديث الخ وادخاله الاشعرية والماتريدية » راجع التعليق الطويل ص ٧٣

(٣) من مخ

(أحدها) الواصلية اتباع واصل بن عطاء قالوا بجميع ما ذكر وخطأوا أحد الفريقين من عثمان رضى الله عنه ومقاتليه وجوزوا أن يكون سيدنا عثمان رضى الله عنه بين الكفر والايمان وخلدوه فى النار ، وكذا علـى ومقاتلوه ، وحكموا بأن طلحة والزبير وعليا رضى الله عنهم بعد وقعـة الجمل لو شهدوا على حبة لم تقبل شهادتهم كالمتلاعنين .

(الثانية) العمرية مثلهم الا أنهم فسقوا كلا الفريقين .

(الثالثة) الهذلية أصحاب أبى الهذيل العلاف قالوا بفناءمقدورات الله من الجنة والنار وان العباد مجبورون فى الآخرة ، ولهذا تسمى المعتزلة أبا الهذيل جهمى الآخرة ، وان الله عالم بعلم وقادر بقدرة كلاهما عين ذاته مريد بارادة لا فى ذات متكلم بكلمة «كن » لا فى ذات ، وهو يوافق قول جهـم فى بعض الوجوه وان كان المعتزلة كلهم جهمية .قال شيخ الاسلام ابن تيمية : أول من حفظ عنه أنه قال مقالة التعطيل للصفات فى الاسلام الجعد ابن درهم الذى ضحى به خالد القسرى ، وأخذها عنه الجهم بن صفـوان وأظهرها فنسبت اليه ، وقد قيل أن الجعد أخذ مقالته عن ابان بن سمعان ، وأخذها ابان من طالوت ابن أخت لبيد بن الاعصم ، وأخذها طالوت من لبيد ابن الاعصم اليهودى الساحر الذى سحر النبى صلى الله عليه وسلم ،وكان الجعد هذا فيما قيل من أهل حران وكان فيهم خلق كثير من الصابئـة والفلاسفة بقايا أهل دين النمرود الكنعانيين ، والنمرود هو ملك الصابئة المشركين اسم جنس ككسرى لملك الفرس وقيصر ملك الروم ، وكـان الصائبون هؤلاء يعبدون الكواكب ويبنون لها الهياكل ، فمذهب النفاة من هؤلاء يقولون فى الرب تعالى ليس له الا صفات سلبية أو اضافية أو مركبة منهما ، وأخذها الجهم أيضا فيما ذكره الامام احمد رضى الله عنه عن السمنية وبعض فلاسفة الهند وهم الذين يجحدون من العلوم ما سوى الحسيات ، قال شيخ الاسلام فهذه أسانيد الجهم ترجع الى اليهود والنصارى والصابئين والمشركين والفلاسفة الضالين اما من الصابئين واما من المشركين .

(الرابعة) النظامية أصحاب ابراهيم بن سيار (١) النظام قالوا ان الله

---

(١) فى الاصلين «يسار» خطأ

لا يقدر أن يفعل بعباده فى الدنيا مالا صلاح لهم فيه ، ولا أن يزيد وينقص من عقاب وثواب ، وكونه مريدا لفعله كونه خالقه ،ولفعل العبد كونه أمر(١) به ، والانسان هو الروح والبدن ، والأعراض والاجسام لا تبقى ، والجسم مؤلف من الاعراض ، والعلم والجهل المركب مثلان ، والايمان والكفر كذلك ، وان الله خلق الخلق دفعة والتقدم والتأخر فى الكون والظهور ، ونظم القرآن ليس بمعجز ، والتواتر يحتمل الكذب ، والاجماع والقياس ليس حجة ، وأوجبوا النص على الامام وثبوته لعلى لكن كتمه عمر

(الخامسة) الاسوارية وهم أصحاب الاسوارى زادوا على من قبلهم ان الله لا يقدر على ما أخبر بعدمه أو علم عدمه (والانسان قادر على ما أخبر بعدمه أو علمه - ٢)

(السادسة) الاسكافية أصحاب أبى جابر الاسكاف قالوا ان الله لا يقدر على الظلم على العقلاء لكن على الصبيان والمجانين .

(السابعة) الجعفرية أصحاب جعفر بن مبشر وابن حرب زادوا ان فى فساق الامة من هو شر من الزنادقة والمجوس ، والاجماع على حد الشرب خطأ ، وسارق الحبة منخلع عن الايمان

(الثامنة) البشرية أصحاب بشر بن المعتمر قالوا الاعراض من الطعوم والروائح وغيرها تقع متولدة ، والقدرة بسلامة البنية ، والله قادر على تعذيب الطفل ظالما

(التاسعة) المردارية وهم أصحاب أبى موسى عيسى بن صبيح المردار تلميذ بشر قالوا ان الله قادر على الكذب والظلم ،ووقوع فعل بين فاعلين تولدا(٣) والناس قادرون على مثل القرآن وأحسن منه ، ويكفرون القائل بخلق الاعمال والرؤية

(العاشرة) الهشامية أصحاب هشام بن عمر قالوا لا يطلق اسم الوكيل على الله تعالى لاستدعائه موكلا ، ولا دلالة فى القرآن على الحلال والحرام، والامامة لا تنعقد مع الاختلاف ، والجنة والنار لم تخلقا بعد ، ولم يقتل

---

(١) مخ «آمرا»
(٢) من مخ (٣) مخ «تولد»

عثمان ، ومن أفسد صلاة عقدها بشروطها فأول صلاته معصية

(الحادية عشرة) الصالحية وهم أصحاب الصالح جوزوا قيام السمع والبصر والعلم والقدرة بالميت ، وخلو الجواهر عن الاعراض

(الثانية عشرة) الحائطية أصحاب احمد بن حائط من أصحاب البطال قالوا للعالم الهان قديم ومحدث والمسيح هو الذى يحاسب الناس فى الآخرة

(الثالثة عشرة) الحدبية أصحاب فضل الحدبى زادوا التناسخ وان كل حيوان مكلف ، بل قيل فى كل نوع من الحيوان نبى من جنسه

(الرابعة عشرة) المعمرية أصحاب معمر بن عباد السلمى قالوا ان الله لا يخلق شيئا غير الاجسام ، ولا يوصف بالقدم ، ولا يعلم نفسه ، والانسان لا فعل له غير الارادة

(الخامسة عشرة) الثمامية أصحاب ثمامة بن أشرس النميرى قالوا ، الافعال المتولدة لا فاعل لها ، والمعرفة متولدة من النظر ، وانها واجبة قبل الشرع ، واليهود والنصارى والمجوس والزنادقة يصيرون ترابا لا يدخلون جنة ولا نارا وكذا البهائم والاطفال ، والاستطاعة سلامة الآلة ، ومن لا يعلم خالقه من الكفار معذور ، ولا فعل للانسان غير الارادة وما عداها حادث بلا محدث ، والعالم فعل الله بطبعه

(السادسة عشرة) الخياطية أصحاب أبى الحسن بن أبى عمر الخياط قالوا بالقدرة ، وتسمية المعدوم شيئا وجوهرا وعرضا ، وقالوا عن ارادة الله كونه غير مكره ولا كاره وهى فى فعله الخلق ، وفى فعل العباد الامر ، والسمع والبصر العلم بمتعلقهما

(السابعة عشرة) الجاحظية أتباع عمرو الجاحظ أبى عثمان بن بحر البصرى المتكلم صاحب التآليف فى كل فن وكان تلميذ أبى اسحاق ابراهيم ابن سيار (١) البلخى المتكلم الذى تقدم ذكره ، قالوا المعارف كلها ضرورية ، ولا ارادة فى الشاهد ، والاجسام ذوات طبائع ، ويمتنع انعدام الجواهر ، والنار تجتذب اليها أهلها لا أن الله يدخلهم فيها ، والخير والشر

---

(١) فى الاصلين «يسار» خطأ

من فعل العبد ، والقرآن جسد ينقلب تارة رجلا وتارة امرأة

(الثامنة عشرة) الكعبية أصحاب أبى القاسم عبد الله الكعبى قالوا فعل الرب واقع بغير ارادته ولا يرى نفسه ولا غيره الا بمعنى العلم

(التاسعة عشرة) الجبائية وهم شيعة أبى على الجبائى قالوا ارادة الله حادثة لا فى محل والعالم يفنى فناء لا فى محل ، والله متكلم بكلام يخلقه فى جسم ، ولا يرى فى الآخرة ، والعبد خالق فعله ، ومرتكب الكبيرة لا مؤمن ولا كافر واذا مات بلا توبة يخلد فى النار ، ولا كرامة للأولياء ، ويجب على الله اكمال عقل المكلف واعداد أسباب التكليف له من بعث الرسل والمعجزة على يده • وشاركه ابن له - يعنى أبا على - وهوأبوهاشم، وانفرد أبو على بأن الله عالم بلا صفة وسمعه وبصره كونه حيا بلا آفة •

(العشرون) الهاشمية فرقة أبى هاشم قالوا لا توبة عن كبيرة مع الاصرار على غيرها اذا كان عالما بقبحها ، ولا معءدم القدرة عليها ، ولا يتعلق عالم بمعلومين على التفصيل ، وأثبت لله خمس حالات الحيية والعالمية والقادرية والموجودية ، والالهية موجبة للأربعة ، فهذه العشرون فرقة المشهورة من فرق أهل الاعتزال ، وكلها متصفة بالبدع والضلال •

فرق الشيعة

الفرقة الثانية الشيعة الشنيعة

وافترقت الى اثنتين وعشرين فرقة وأصول ذلك كله ثلاث فرق غلاة وامامية وزيدية ، أما الغلاة فافترقت ثمانية عشر فرقة يكفر بعضها بعضا (أحدها) السبأية وهم أتباع عبد الله بن سبأ الذى قال لأمير المؤمنين على ابن أبى طالب رضى الله عنه : أنت الاله حقا : فأحرق من أصحاب هذه المقالة من قدر عليه منهم فخد لهم أخاديد وأحرقهم بالنار وقال :

انى اذا سمعت قولا منكرا   أججت نارا ودعوت قنبرا

قال شيخ الاسلام ابن تيمية قدس الله روحه ، وابن سبأ هذا أول من ابتدع الرفض ، قال وكان منافقا زنديقا أراد فساد دين الاسلام كما فعل بولص صاحب الرسائل التى بأيدى النصارى حيث ابتدع لهم بدعا أفسد بها دينهم وكان يهوديا فأظهر النصرانية نفاقا لقصد افساد ملتهم ، وكذلك كان ابن سبأ يهوديا فقصد ذلك وسعى فى الفتنة فلم يتمكن لكن حصل

بين المؤمنين تحريش وفتنة فقتل فيها عثمان بن عفان رضى الله عنه ، وتبع ابن سبأ جماعات على بدعته وضلالته ، وقال هؤلاء ان عليا رضى الله عنه لم يمت وانما الذى قتله عبد الرحمن بن ملجم شيطان وأما على ففى السحاب ، والرعد صوته والبرق سوطه ، وانه ينزل الى الارض ويملأها عدلا ، ويقولون عند الرعد عليك السلام يا أمير المؤمنين

(الثانية) الكاملية وهم أتباع أبى كامل قالوا بكفر الصحابة رضى اللهعنهم بترك بيعة على ، وبكفر على رضى الله عنه بترك طلب حقه ، ويعتقـــدون التناسخ وان الامامة نور يتناسخ وقد يصير فى شخص نبوة

(الثالثة) البيانية أتباع بيان (١) بن سمعان التميمى قالوا الله تعالى على صورة الانسان ويهلك كله الا وجهه ، وروح الله حل فى على ثم فى ابنه محمد ابن الحنفية ثم فى ابنه أبى هاشم ثم فى بيان

(الرابعة) المغيرية وهم أتباع المغيرة بن سعيد العجلى قالوا الله تعالى جسم على صورة انسان من نور وقلبه منبع الحكمة ، ولما أراد الخلق تكلم بالاسم الاعظم فطار فوقع تاج على رأسه ثم كتب على كفه أعمال العباد فغضب من المعاصى فعرق فحصل منه بحران أحدهما ملح مظلم والآخر حلو نير ثم اطلع فى البحر النير فأبصر ظله فانتزعه فجعل منه الشمس والقمر وأفنى الباقى ثم خلق الخلق من البحرين فالكفر من المظلم والايمان من النير ، ثم أرسل محمدا صلى الله عليه وسلم والناس فى ضلال وعرض الامانةوهى منع الامامة (٢) على السموات والارض والجبال فأبين أنيحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان — قالوا وهو أبو بكر حملها بأمر عمر بشرطأنيجعل الخلافة بعده له ، قالوا والامام المنتظر زكريا بن محمد بن على بن الحسين ابن على رضى الله عنهم وهو حى فى جبل حاجر

(الخامسة) الجناحية وهم المنسوبون الى عبد الله بن معاوية بن عبد الله ابن جعفر ذى الجناحين قالوا الأرواح تتناسخ فكان روح الله فى آدم ثم فى شيث ثم فى الأنبياء والأئمة حتى انتهت الى على وأولاده الثلاثة ثم الى

---

(١) فى الاصل بنان بنون بعد الباء والصواب بيان كما فى المواقف وشرح القاموس

(٢) فى الاصلين منبع الامامة وفى المواقف « وهى منع على عن الامامة »

عبد الله قالوا وهو حي بجبل أصبهان ،وأنكروا القيامة واستحلوا المحرمات

(السادسة) المنصورية وهم أتباع أبي منصور العجلي قالوا الامامة صارت لمحمد بن علي بن الحسين وعرج الى السماء ومسح الله رأسه بيده وقال يا بني اذهب وبلغ عني (١) . قالوا والرسل لا تنقطع والجنة رجل أمرنا بموالاته وهو الامام، والناررجل أمرنا بمعاداته ، وكذا الفرائض والمحرمات

(السابعة) الخطابية وهم أتباع أبي الخطاب الاسدي قال الأئمة أنبياء وأدعى النبوة لنفسه وقال : الحسنان رضي الله عنهما ابنان لله وجعفر اله لكن أبو الخطاب أفضل منه ومن علي ويستحلون شهادة الزور لموافقيهم على مخالفيهم ، قالوا والجنة نعيم الدنيا والنار آلامها ، واستباحوا المحرمات وتركوا الفرائض ، قالوا ويمكن أن يوحى الى كل مؤمن ومنهم من هو خير من جبرئيل وميكائيل وهم لا يموتون بل يرفعون الى الملكوت

(الثامنة) الذمية الذين ذموا النبي صلى الله عليه وسلم قالوا لأن عليا اله بعثه ليدعو له فدعا الى نفسه ، وقد قيل عند هؤلاء بالهيتهما ولهم في التقديم خلاف ، وقيل عندهم هما وفاطمة والحسنان آلهة وهم يقولون فاطم ولا يقولون فاطمة تحاشيا عن التأنيث

(التاسعة) الغرابية وهم الذين قالوا محمد أشبه بعلي من الغراب بالغراب فغلط جبرئيل من علي الى محمد بالرسالة

(العاشرة) الهشامية وهم أتباع هشام بن الحكم قالوا ان الله جل شأنه طويل عريض عميق متساو كالسبيكة البيضاء يتلألأ من كل جانب وله لون وطعم ورائحة ويقوم ويقعد ويعلم ما تحت الثرى بشعاع ينفصل عنه اليه وهو سبعة أشبار بأشبار نفسه مماس للعرش بلا تفاوت وارادته هي حركة لا عينه ولا غيره ، وانما يعلم الأشياء بعد كونها بعلم لا قديم ولا حادث ، وكلامه صفة لا مخلوق ولا قديم ، والاعراض لا تدل على الباري ، والأئمة دون الانبياء

(الحاديةعشرة) الزرارية وهم أتباع زرارة بن أعين قالوا صفات الله حادثة ولا حياة قبل الصفات ، ولهم أقوال خبيثة جدا

---

(١) زاد في المواقف « وهو الكسف »

(الثانية عشرة) اليونسية وهم أتباع يونس بن عبد الرحمن القمى ، قال الصلاح الصفدى فى الوافى بالوفيات كان يونس على مذهب القطعية فى الامامة ثم انه أفرط فى التشبيه فقال ان الله تعالى يحمله حملة عرشه وهو أقوى منهم كما أن الطائر المعروف بالكركى تحمله رجلاه وهو أقوى من رجليه . واستدل بقوله تعالى (ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية) وهذا الاستدلال خطأ منه فان الآية مصرحة بأن العرش هو المحمول

(الثالثةعشرة) النعمانية وهم أتباع محمد بن النعمان قال ان الله تعالى نور غير جسمانى على صورة انسان وانما يعلم الاشياء بعد حدوثها

(الرابعة عشرة) الرزامية قالوا الامامة لمحمد بن الحنفية ثم لابنه عبد الله ثم لمحمد بن على بن عبد الله بن عباس ثم لأولاده الى المنصور ثم حل الاله فى أبى مسلم وانه لم يقتل واستحلوا المحارم

(الخامسة عشرة) المفوضة قالوا الله تعالى فوض خلق العالم الى محمد صلى الله عليه وسلم

(السادسة عشرة) البدائية جوزوا البداء على الله

(السابعة عشرة) النصيرية قالوا ان الله تعالى حل فى على رضى الله عنه

(الثامنة عشرة) الاسماعيلية ويلقبون بالباطنية لقولهم بباطن الكتاب، وأصل دعوتهم مبنية على ابطال الشرائع وانتقاص الدين ، فان قوما من المجوس راموا عند ظهور الفتن واختلاف الكلمة وتباين الدول كسر شوكة الاسلام وانتقاض عرى الدين ولم يمكنهم التصريح بذلك ولا اعلان ما قصدوه من الافك والمهالك ، فأخذوا فى تأويل الشريعة على وجه يعود الى قواعد أسلافهم ، ورأسهم فى ذلك (حمدان قرمط) ومنهم بل صاحب اظهار دعوتهم (أبو سعيد الجنابى) فظهر على البحرين واجتمع عليه جماعة من الاعراب والقرامطة فقوى أمره وقتل من حوله من أهل تلك القرى ، ثم قتل أبو سعيد سنة احدى وثلاثمائة قتله خادم له فى الحمام وقام مقامه ولده أبو طاهر سليمان بن أبى سعيد الحسن بن بهرام القرمطى ، وكان قد استولى على هجر والقطيف والاحساء وسائر بلاد البحرين ، فلما كان عام سبع عشرة وثلاثمائة وافى حجاج المسلمين أبو طاهر القرمطى بمكة

يوم التروية فنهب أموال الحاج وقتلوهم حتى فى المسجد الحرام وفى البيت الحرام وقلع الحجر الاسود وأنفذه الى هجر وطرح القتلى فى زمزم وقلع باب الكعبة • والقرمط بكسر القاف وسكون الراء وكسر الميم وبعدها طاء مهملة ، وكان أبو سعيد المذكور قصيرا مجتمع الخلق أسمر كريه المنظر فلذلك قيل له قرمطى ، والجنابى بفتح الجيم وتشديد النون وبعد الالف موحدة نسبة الى جنابة وهى بلدة من أعمال فارس متصلة بالبحرين عند سيراف والقرامطة منها فنسبوا اليها

ولهم فى دعوتهم مراتب (الزرق) وهو التفرس فى حال المدعو هل هو قابل أم لا ولذلك منعوا القاء البذر فى السبخة (١) والتكلم فى بيت فيه سراج أى فقيه ثم (التأنيس) باستمالة كل واحد بما يميل اليه من زهد وخلاعة ، ثم (التشكيك) فى أركان الشريعة بمقطعات السور وقضاء صوم الحائض دون صلاتها والغسل من المنى دون البول لتتعلق القلوب بمراجعتهم فيها ، ثم (الربط) وهو أخذ الميثاق منه بحسب اعتقاده أن لا يفشى عنهم شيئا وحوالته على الامام فى كل ما أشكل عليه ، ثم (التدليس) وهو دعوى موافقة أكابر الدين لهم حتى يزداد ميلهم ، ثم (التأسيس) وهو تمهيد مقدمات يقبلها المدعو ، ثم (الخلع) وهو الطمأنينة الى اسقاط وجـــوب الافعال البدنية ، ثم (السلخ) عن الاعتقادات وحينئذ يأخذون فى الاباحة واستعجال اللذات وتأويل الشريعة • قال شيخ الاسلام أبو العباس تقى الدين ابن تيمية روح الله روحه : ذكر الكاشفون لأسرار القرامطة والهاتكون لأستارهم كالقاضى أبى بكر بن الطيب والقاضى أبى يعلى وطوائف كثيرة ما وجدنا مصداقه فى كتب القرامطة انهم وضعوا لأنفسهم اصطــلاحات روجوها على المسلمين ومقصودهم بها مقصود الفلاسفة الصابئين والمجوس الثنوية ، كقولهم السابق والتالى يعنون به العقل والنفس ، ويقولون هو اللوح والقلم ، قال وأصل دينهم مأخوذ من دين المجوس والصابئين ، ومن مذهبهم أن الله تعالى لا موجود ولا معدوم ، وربما خلطوا كلامهم بكلام الفلاسفة ، وقد دخل كثير من هذه القرمطة فى كلام كثير من المتصوفة

---

(١) فسره فى شرح المواقف بدعوة من ليس قابلا لها وهو ظاهر

كما دخل فى كثير من المتكلمة • قال شيخ الاسلام ابن تيمية : وكتاب رسائل اخوان الصفا أصل مذهب القرامطة الفلاسفة فربما نسبوا هــذا الكتاب بالافتراء الى جعفر الصادق ليجعلوه ميراثا عن أهل البيت • قال وهذا من أقبح الكذب وأوضحه فانه لا نزاع بين العقلاء ان رسائل اخوان الصفا انما صنفت بعد المائة الثالثة فى دولة بنى بويه قريبا من بناء القاهرة المعزية • ودولة العبيدية الحاكمية المنتسبين لأهل البيت الملقبين بالفاطمية من هذا النمط فان ظاهر مذهبهم الرفض وباطنه الكفر المحض ، ومن فرقهم الدروز والتيامنة والحمزاوية وأضرابهم ، وهؤلاء من أكفر الناس وبالله التوفيق

(وأما الزيدية) فهم ينتسبون للسيد الشريف زيد بن على زين العابدين ابن الحسين شهيد كربلا ابن أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضوان الله عليهم وكان زيد اماما عالما شجاعا مقداما وكان قد بايعه جموع من الشيعة ثم قالوا له تبرأ من الشيخين ـ يعنون أبا بكر وعمر رضى الله عنهما ـ فقال معاذ الله وزيرا جدى فتركوه ورفضوه وارفضوا عنه فسموا الرافضــة والنسبة رافضى ، ثم انقسموا ثلاث فرق « الاولى » الجارودية أصحاب أبى الجارود قالوا بالنص على على رضى الله عنه ، والصحابة كفروا بمخالفتــه والخلافة بعد الحسن والحسين شورى فى أولادهما فمن خرج منهــم بالسيف وهو عالم شجاع فهو امام ، واختلفوا فى المنتظر أهــو محمد بن عبد الله ولم يقتل أو محمد بن القاسم أو يحيى بن عمر صاحب الكوفة (الثانية) السليمانية شيعة سليمان بن جرير قالوا الامامة شورى وانما تنعقد برجلين من خيار المسلمين وأبو بكر وعمر امامان وان أخطأت الامة فى البيعة لهما وكفروا عثمان وطلحة والزبير وعائشة (الثالثة) البترية أصحاب بتر التوصى قالوا بنحو قول من قبلهم الا أنهم توقفوا فى كفر عثمان رضى الله عنه (١)

(واما الامامية) فقالوا باتباع الاثنى عشر اماما وهم على والحسن والحسين وزين العابدين على بن الحسين والباقر محمد بن على زين العابدين وجعفر

---

(١) هذه الاقوال لا تنطبق على أقوال زيدية اليمن فلتراجع كتبهم.

الصادق بن محمد الباقر وموسى الكاظم بن جعفر الصادق وعلى الرضا ابن موسى الكاظم ومحمد الجواد بن على الرضا وعلى الهادى بن محمد الجواد وحسن العسكرى بن على الهادى ومحمد بن حسن الحجة فالامامية هم القائلون بزعمهم بقول هؤلاء الأئمة الابرار رضوان الله عليهم وسلامه ما تعاقب الليل والنهار ، فقالت الاماميه بالنص الجلى على امامة أمير المؤمنين على رضى الله عنه وكفروا الصحابة بمخالفته وساقوا الامامة الى جعفر الصادق ، ثم اختلفوا فى المنصوص عليه بعده وتشعب متأخرو الامامية الى معتزلة ومشبهة ومفضلة والله تعالى أعلم

الخوارج

الفرقة الثالثة الخوارج

وهم الذين خرجوا على أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه وفارقوه بسبب التحكيم وكانوا اثنى عشر ألفا فأرسل اليهم ابن عباس رضى الله عنهما فجادلهم ووعظهم فرجع بعضهم وأصر على المخالفة آخرون وقالت فرقة ننظر ما يصدر من على من أمر التحكيم فان أنفذه أقمنا على مخالفته ، ثم انهم أعلنوا الفرقة وأخذوا فى نهب من لم ير رأيهم وقد ثبت عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال « تمرق مارقة على حين فرقة من المسلمين يقتلها أولى الطائفتين بالحق » فقتلهم على وطائفته وقال صلى الله عليه وسلم فى حق الخوارج المارقين « يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم وقراءته مع قراءتهم يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم يمرقون من الاسلام (١) كما يمرق السهم من الرمية أينما لقيتموهم فاقتلوهم فان فى قتلهم أجرا عند الله تعالى لمن قتلهم يوم القيامة » وقد روى مسلم أحاديثهم فى صحيحه من عشرة أوجه • واتفق الصحابة على قتالهم وفرح على رضى الله عنه بقتلهم وأخبر أن النبى صلى الله عليه وسلم أمر به ولما قيل لعلى الحمد لله الذى أراح منهم العباد قال كلا والذى نفسى بيده ان منهم لفى اصلاب الرجال وان منهم لمن يكون مع الدجال • ثم انهم تشعبوا الى سبع فرق

---

(١) مخ «الدين»

(الاولى) المحكمة الذين خرجوا على أمير المؤمنين على رضى الله عنه عند التحكيم وكفروه وهم اثنا عشر ألفا قالوا من نصب من قريش وغيرهم وعدل فهو امام ، ولم يوجبوا نصب الامام وكفروا عثمان وأكثر الصحابة وكل مرتكب للكبيرة

(الثانية) البيهسية أتباع بيهس واسمه الهيصم بن جابر كما فى القاموس قالوا الايمان هو العلم بالله تعالى وما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم فمن وقع فيما لا يعرف أحلال هو أم حرام فهو كافر لوجوب الفحص عنه ، وقيل لا حتى يرجع الى الامام فيحده وما لا حد فيه فمغفور ، وقيل اذا كفر الامام كفرت الرعية حاضرا كان أو غائبا ، والاطفال كآبائهم ايمانا و كفرا

(الثالثة) الازارقة أتباع نافع بن عبد الله الازرق الخارجى اللعين وقد خرج معه قوم من البصرة والاهواز وغيرهما من بلدان فارس وغيرها وعظمت شوكتهم وتملكوا الأمصار وكانت له آراء ومذاهب دانوا بها معه منها أنه كفر عليا رضى الله عنه بسبب التحكيم وزعم أن قوله تعالى (ومن الناس من يعجبك قوله) الآية نزل فى حقه وزعم أنه نزل فى حق عبد الرحمن بن ملجم لعنه الله (ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله) ومنها انه كفر من لم يقل برأيه واستحل دمه وكفر القعدة عن القتال وتبرأ ممن قعد عنه وان من ارتكب كبيرة خرج من الاسلام وكان مخلدا فى النار مع سائر الكفار وحرم التقية وجوز قتل أولاد المخالفين لهونساءهم وقال لا حد للقذف ولا للزنا

(الرابعة) النجدية أتباع نجدة بن عامر الحنفى (١) قالوا لا حاجة الى الامام ويجوز نصبه ووافقوا الازارقة فى التكفير

(الخامسة) الاصفرية وهم أتباع زياد بن الاصفر خالفوا الازارقة فى تكفير القعدة وفى منع الحد على الزنا وفى أطفال الكفار وقالوا المعصية الموجبة للحد لا يدعى صاحبها الا بها وما لاحد فيه لعظمه كترك الصوم كفر ، ويزوجون المؤمنة من الكافر فى دار التقية دون العلانية

---

(١) مط «النخعى» خطأ

(السادسة) الاباضية اتباع عبد الله بن أباض قالوا مخالفونا كفار غير مشركين تجوز منا كحتهم وتقبل شهادة مخالفيهم عليهم ومرتكب الكبيرة موحد غير مؤمن ، والاستطاعة قبل الفعل ، ومخلوق العبد مخلوق لله ، ومرتكب الكبيرة كافر كفر نعمة لا كفر ملة ، وتوقفوا فى أولاد الكفار وفى النفاق أهو شرك أم لا وجواز بعثة الرسل بلا دليل وتكليف اتباعه ، وكفروا عليا وأكثر الصحابة رضى الله عنهم•وافترقواأربع فرق (الاولى) الحفصية أتباع أبى حفص بن أبى المقدام زادوا ان بين الايمان والشرك معرفة الله فمن كفر بأمر سوى الشرك أو بارتكاب كبيرة فكافر لا مشرك (الثانية) اليزيدية قالوا سيبعث نبى من العجم بكتاب يكتب من السماء ويترك شريعة محمد صلى الله عليه وسلم الى ملة الصابئة وكل ذنب شرك (الثالثة) الحارثية أتباع أبى الحارث الاباضى خالفوا فى العذر والاستطاعة قبل الفعل (الرابعة) القائلون بطاعة لا يراد بها الله

(السابعة) العجاردة أتباع عبد الرحمن بن عجرد زادوا على النجدية وجوب دعوة الطفل الى الاسلام اذا بلغ وأطفال المشركين فى النار ، ويتشعب من مذهبهم احدى عشرة فرقة (الأولى) الميمونية أصحاب ميمون ابن عمران قالوا بالقدر والاستطاعة قبل الفعل ، والله يريد الخير دون الشر ولا يريد المعاصى ، وأطفال الكفار فى الجنة ، ولهم اعتقادات سيئة (الثانية) الحمزية أتباع حمزة بن أدرك وافقوهم الا أنهم قالوا أطفال الكفار فى النار (الثالثة) الشعيبية أشياع شعيب بن محمد هم كالميمونية الا فى القدر (الرابعة) الحازمية وهم أصحاب حازم بن عاصم (والخلفية) أصحاب خلف (والاطرافية) عذروا أهل الاطراف فيما لم يعرفوه ووافقوا أهل السنة فى أصولهم ونفوا القدر (الخامسة) المعلومية كالحازمية الا أن المؤمن عندهم من عرف الله بجميع أسمائه ، وفعل العبد مخلوق لله (السادسة) المجهولية قالوا تكفى معرفة الله ببعض أسمائه وفعل العبد له (السابعة) الصلتية وهم أصحاب عثمان بن أبى الصلت هم كالعجاردة لكن قالوا من أسلم واستجار بنا توليناه وبرئنا من أطفاله (الثامنة) التغالبة أصحاب تغلب(١) بن عامر قالوا بولاية الاطفال ،ونقل عنهم أن الاطفال لاحكم

(١) فى بعض الكتب « الثعالبة أصحاب ثعلب »

لهم ، ويرون أخذ الزكاة من العبيد اذا استغنوا واعطاءها الى العبيد اذا افتقروا ، ثم افترقوا أربع فرق (أحدها) الاخنسية أصحاب الاخنس ابن فليس وهم كالتغالبة الا أنهم توقفوا فى أهل دار التقية الا من علم حاله وحرموا الاغتيال بالقتل والسرقة ، ونقل عنهم تزويج المسلمات من مشركى قومهم (والمعبدية) أصحاب معبد بن عبد الرحمن خالفوهم فى التزويج من المشركين وخالفوا التغالبة فى زكاة العبد (والشيبانية) أصحاب شيبان بن سلمة قالوا بالجبر ونفى القدرة (والمكرمية) أصحاب مكرم العجلى قالوا ترك الصلاة كافر لجهله بالله وكذا كل كبيرة كفر • فاذن فرق الخوارج عشرون والله أعلم •

المرجئة

الفرقة الرابعة المرجئة

لقبوا بذلك لأنهم يرجئون العمل عن النية والاعتقاد أى يؤخرونه أو لأنهم يقولون لا يضر مع الايمان معصية كما لا تنفع مع الكفر طاعة ، وهم خمس فرق

(الاولى) اليونسية قالوا الايمان المعرفة بالله والخضوع له والمحبة ولا يضر معها ترك الطاعات ، وابليس كان عارفا بالله وانما كفر باستكباره

(الثانية) العبيدية أصحاب عبيد المكتب رأوا أن علم الله لم يزل شيئا غيره وانه على صورة الانسان

(الثالثة) الغسانية أصحاب غسان الكوفى قالوا الايمان هو المعرفة بالله ورسوله وبما جاء من عندهما اجمالا وهو لايزيد ولا ينقص • وعنوا بالاجمال جواز أن يقال انه تعالى قد فرض الحج ولا أدرى أين الكعبة لعلها فى غير مكة أو يقال بعث محمدا ولا أدرى هو الذى بالمدينة أم لا

(الرابعة) الثوبانية هم أصحاب ثوبان المرجىء قالوا الايمان هو المعرفة والاقرار بالله وبرسله وما لا يجوز فى العقل أن يفعله ولو عفا عن عاص لعفا عن كل من هو مثله وكذا لو أخرج واحدا من النار ، ولم يجزموا بخروج المؤمن من النار

(الخامسة) التومنية وهم أصحاب أبى معاذ التومنى قالوا الايمان المعرفة والتصديق والمحبة والاخلاص والاقرار ، وترك بعضه كفر وليس بعضه

ايمانا وكل معصية يجمع على أنها كفر يقال لمرتكبها فسق وعصى لا فاسق ولا عاص ، ومن قتل نبيا أو لطمه فقد كفر لأنه دليل تكذيبه • هذه هى المرجئة الخالصة ومنهم من جمع بين الارجاء والقدر كمحمـــد بن شبيب وغيلان الدمشقى خال الاوزاعى • أول من تكلم فى القدر معبد الجهنى ثم غيلان

(السادسة) النجارية وهم أصحاب محمد بن الحسين النجار وافقوا أهل السنة فى خلق الأفعال وان الاستطاعة مع الفعل والعبد مكتسب ووافقوا المعتزلة فى نفى الصفات وحدوث الكلام وفرقهم ثلاث (البرغوثية) قالوا كلام الله اذا قرىء عرض واذا كتب جسم (والزعفرانية) قالوا كلام الله غيره وكل ما هو غيره مخلوق ومن قال كلام الله مخلوق فقد كفـــر (والمستدركة) استدركوا عليهم وقالوا انه مخلوق مطلقا لكنا وافقنا السنة والاجماع فى نفيه وقالوا أقوال مخالفينا كذب حتى قولهم لا اله الا الله

الجبريه

الفرقة الخامسة الجبـــرية

الذين يقولون انا مجبرون على أفعالنا ويسندون الافعال الى الله تعالى ، فمنهم (متوسطة) يسندون الفعل الى الله ويثبتون للعبد كسبا (وخالصة) لا تثبت للعبد شيئا كالجهمية أصحاب الجهم بن صفوان قالوا لا قدرة للعبد أصلا والله سبحانه وتعالى لا يعلم الشىء قبل وقوعه ، وعلمه تعالى حادث لا فى محل ، ولا يوصف بما يوصف به غيره كالعلم والقدرة والارادة • والجنة والنار يفنيان • ووافقوا المعتزلة فى نفى الرؤية وخلق الكلام وايجاب المعرفة بالعقل • وقول الجهمية من أعظم مقالات أهل الافك والضلال باتفاق سلف الامة وأئمتها حتى ان الامام عبد الله بن المبارك لما سئل عن الاثنتين وسبعين فرقة أجاب بأن أصولها أربعة الشيعة والخوارج والمرجئة والقدرية • فقيل له فالجهمية ؟ فقال ليست الجهمية من أمة محمد صلى الله عليه وسلم • وكان يقول انا لنحكى (١) قول اليهود والنصارى ولا نستطيع أن نحكى كلام (٢) الجهمية فان الجهمية تارة تقول بالحلول وتارة قولها الى

---

(١) مخ «لنستطيع أن نحكى » (٢) مخ «قول»

التعطيل • انتهى • وقال شيخ الاسلام ابن تيمية فى رسالته الحموية : أصل مقالة التعطيل للصفات انما أخذ من تلامذة اليهود والمشركين وضلال الصابئين • قال فانه أول من حفظ عنه انه قال هذه المقالة فى الاسلام الجعد ابن درهم وأخذها عنه الجهم بن صفوان وأظهرها فنسبت مقالة الجهمية اليه ، وقد قيل أن الجعد أخذ مقالته عن ابان بن سمعان ، وأخذها ابان من طالوت ابن أخت لبيد بن الاعصم ، وأخذها طالوت من لبيد بن الاعصم اليهودى الساحر الذى سحر النبى صلى الله عليه وسلم ، وكان الجعد هذا فيما قيل من أهل حران وكان فيهم خلق كثير من الصابئة والفلاسفة بقايا أهل دين النمرود الكنعانيين ، وأخذها أيضا الجهم عن السمنية بعض فلاسفة الهند وهم الذين يجحدون من العلوم ما سوى الحسيات ، فهذه أسانيد الجهم ترجع الى اليهود والنصارى والصابئين والمشركين والفلاسفة الضالين والله أعلم

السادسة المشبهة

المشبهة

الذين شبهوا الله بمخلوقاته وقد اختلفوا فى طرق التشبيه (فمنهم) مشبهة غلاة الشيعة كما تقدم ، ومنهم مشبهة الحشوية قالوا هو تعالى من لحم ودم وله أعضاء حتى قال بعضهم لأصحابه (لما سألوه ـ ١) أعفونى من اللحية والفرج وسلونى عما وراءهما (ومنهم) مشبهة الكرامية أصحاب أبى عبد الله محمد بن كرام قالوا أن الله على العرش من جهة العلو وتجوز عليه الحركة والنزول فقيل يملأ العرش واختلفوا أبعد متناه أو غيره ؟ (ومنهم) من أطلق عليه لفظ الجسم • وفى القاموس ومحمد بن كرام كشداد امام الكرامية القائل بأن معبوده مستقر على العرش وانه جوهر تعالى عن ذلك • انتهى • فسماه محمداوالمعروف انه عبدالله بن كرام(٢) • نعم الاستاذ أبو بكر محمد بن اسحاق بن حمشاد كان زعيم أصحاب عبد الله ابن كرام وكان فى دولة يمين الدولة وأمين الملة محمود بن سبكتكين كبير القدر عالى الذكر • قالوا وتحل الحوادث فى ذاته تعالى وانما يقدر عليها دون الخارجة عن ذاته • ويجب عندهم أن يكون أول خلقه حيا يصح منه

(١) من مخ (٢) بل هو أبو عبد الله محمد بن كرام

الاستدلال ، والنبوة والرسالة صفتان سوى الوحى والمعجزة والعصمة وصاحبها رسول ويجب على الله ارساله لا غير فهو حينئذ مرسل وكل مرسل رسول بلا عكس ويجوز عزله دون الرسول ،وجوزوا امامين كعلى ومعاوية الا أن امامة على وفق السنة بخلاف معاوية لكن تجب طاعته رعيته له ، والايمان قول الذر فى الازل « بلى » وهو باق فى الكل الا المرتدين •

ولا يخفى ما فى عد هذه الفرق من التداخل والمشهور أن أصول الفرق الضالة سبعة أولها المعتزلة ٢٢ ثم الشيعة ٢٢ فالخوارج ١٢ فالمرجئة ٥ فالنجارية ٣ الجبرية ١ المشبهة ٣ (١)

التنبيه الثانى

التنبيه الثانى رواية كلها فى الجنة الافرقة

ذكر أبو حامد الغزالى فى كتابه التفرقة بين الايمان والزندقة ان النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ستفترق أمتى نيفا وسبعين فرقة كلهم فى الجنة الا الزنادقة وهى فرقة » • هذا لفظ الحديث فى بعض الروايات • قال : وظاهر الحديث يدل على انه أراد الزنادقة من أمته اذ قال : ستفترق أمتى ومن لم يعترف بنبوته فليس من أمته والذين ينكرون أصل المعاد والصانع فليسوا معترفين بنبوته اذ يزعمون ان الموت عدم محض وان العالم لم يزل كذلك موجودا بنفسه من غير صانع ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر وينسبون الانبياء الى التلبيس فلا يمكن نسبتهم الى الامة • انتهى•قال شيخ الاسلام ابن تيمية فى الاسكندرية : أما هذا الحديث فلا أصل له بل هو موضوع كذب باتفاق أهل العلم بالحديث ولم يروه أحد من أهل الحديث المعروفين بهذا اللفظ بل الحديث الذى فى كتب السنن والمساند عن النبى صلى الله عليه وسلم من وجوه انه قال : « ستفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة ، واحدة فى الجنة وثنتان وسبعون فى النار » • وروى عنه انه قال : « هى الجماعة » وفى حديث آخر : « هى من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابى » وضعفه ابن حزم لكن رواه الحاكم فى صحيحه وقد رواه أبو داود والترمذى وغيرهم قال : وأيضا لفظ الزندقة لا يوجد فى كلام النبى صلى الله عليه وسلم كما لا يوجد فى القرآن وأما الزنديق الذى

(١) مخ «المعتزلة ثم الشيعة فالخوارج فالمرجئة فالجبرية فالمشبهة فالنجارية»

تكلم الفقهاء فى توبته قبولا وردا فالمراد به عندهم المنافق الذى يظهر الاسلام ويبطن الكفر . انتهى . قلت وقد ذكر الحديث الذى ذكره الغزالى الحافظ ابن الجوزى فى الموضوعات وذكر أنه روى من حديث أنس ولفظه : « تفترق أمتى على سبعين أو احدى وسبعين فرقة كلهم فى الجنة (١) الا فرقة واحدة » . قالوا يا رسول الله من هم ؟ قال : « الزنادقة وهم القدرية » أخرجه العقيلى وابن عدى ورواه الطبرانى أيضا - قال أنس : كنا نراهم القدرية . قال ابن الجوزى وضعه الابرد بن أشرس وكان وضاعا كذابا وأخذه منه ياسين الزيات فقلب اسناده وخلطه ، وسرقه عثمان بن عفان القرشى وهؤلاء كذابون متروكون وأما الحديث الذى أخبر النبى صلى الله عليه وسلم ان أمته ستفترق الى ثلاث وسبعين فرقة واحدة فى الجنة واثنتان وسبعون فى النار فروى من حديث أمير المؤمنين على بن أبى طالب وسعد بن أبى وقاص وابن عمر وأبى الدرداء ومعاوية وابن عباس وجابر وأبى امامة وواثلة وعوف بن مالك وعمرو بن عوف المزنى فكل هؤلاء قالوا واحدة فى الجنة وهى الجماعة ولفظ حديث معاوية ما تقدم فهو الذى ينبغى أن يعول عليه دون الحديث المكذوب على النبى صلى الله عليه وسلم والله أعلم . ثم أخذ يذكر بعض ما عليه أهل الفرقة الناجية فقال :

قول أهل السنة فى النصوص

((فأثبتوا النصوص بالتنزيه   من غير تعطيل ولا تشبيه))
((فكل ما جاء من الآيات   أوصح فى الاخبار عن ثقات))
((من الاحاديث نمره كما   قدجاء(٢)فاسمع من نظامى واعلما))

---

(١) مط « فى النار »

(٢) علق الشيخ عبد الله بابطين على هذا الموضع ما نصه :

هذا لفظ مجمل يحتاج الى تفصيل وبيان وبيانه انه ان أريد بهذا الكلام الاقتصار على مجرد اللفظ من غير تعرض لمعناه الذى دل عليه بل يعتقد بأنه لفظ لا يسعنا أن نبحث فى معناه وانما الواجب علينا أن نقرأه كما نقرأ ا ب ت الخ ان أريد به هذا فهو مراد فاسد ليس هو مذهب السلف والأئمة كما قد بينه شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله فى رسالته المحمدية الكبرى وذكر أن من ظن أن طريقة السلف هى مجرد الايمان بألفاظ القرآن والحديث من غير فقه لذلك فقد كذب على طريقتهم .. وأما ان أريد بهذا الكلام ما أراده السلف وهو أن يثبت معناها ويعتقد كما جاءت من غير كيف فهذا مراد صحيح وقد جاء معنى هذه العبارة عن السلف ، قال الشيخ تقى الدين ابن تيمية فقولهم : أمروها كما جاءت ، يقتضى ابقاء دلالتها على ما هى عليه فانها

((ولا نــرد ذاك بالعقـــول   لقول مفتر به جهـــول))
((فعقــدنا الاثبـــات يا خليلى   من غير تعطيـــل ولا تمثيل))

((ف)) انهم أى الاثرية من الفرقة الناجية ((أثبتوا النصوص))القرآنية والاحاديث النبوية متمسكين ((بالتنزيه)) لله سبحانه وتعالى ((من غـير تعطيل)) للصفات الواردة فى الكتاب العزيز والسنة الصحيحة وهو نفيهـا عنه تعالى ، فان المعطلين لم يفهموامن أسماءالله تعالىوصفاته الا ماهو اللائق بالمخلوق ، ثم شرعوا فى نفى تلك المفهومات فجمعوا بين التمثيل والتعطيل، فمثلوا أولا وعطلوا آخرا فهذا تشبيه وتمثيل منهم للمفهوم من أســمائه وصفاته تعالى بالمفهوم من أسماء خلقه وصفاتهم ، فعطلوا ما يستحقه سبحانه وتعالىمن الاسماء والصفات اللائقة به عز وجل ، بخلاف ســلف الامه وأجلاء الأئمة فانهم يصفون الله سبحانه وتعالى بما وصف به نفسه وبما وصفه بهنبيه صلى الله عليه وسلم من غير تحريف ((ولا تشبيه)) تعالى الله عن ذلك فانه تعالى قال فى محكم كتابه : (ليس كمثله شيء وهو السميــع البصير) فرد على المشبهة بنفى المثلية ورد على المعطلة بقوله : « وهو السميع البصير » واعلم أن قدماء المعتزلة كأبى على الجبائى وابنه أبى هاشم ذهبوا الى أن المماثلة هى المشاركة فى أخص صفات النفس فمماثلة زيد لعمـــرو عندهم مشاركته اياه فى الناطقية فقط ، وذهب الماتريدية الى أن المماثلة هى الاشتراك فى الصفات النفسة كالحيوانية والناطقية لزيد وعمرو . قالوا ومن لازم الاشتراك فى الصفة النفسية أمران ، أحدهما الاشتراك فيمـــا يجب ويجوز ويمتنع ، وثانيهما أن يسد كل منهما مسدالآخر وينوب الآخرمنابه فمن ثم يقال المثلان موجودان مشتركان فيما يجب ويجوز ويمتنـع ، أو

جاءت بلا كيف ألفاظ دالة على معانى فلو كانت دلالتها منفية لكان الواجب أن يقال أمروا لفظها مع اعتقاد أن المفهوم منها غير مراد ، أو أمروا لفظها مع اعتقاد أن الله لا يوصف بما دلت عليه حقيقة ... وحينئذ تكون قد أمرت كما جاءت ولا يقال بلا كيف فان نفى الكيف عما ليس بثابت لغو من القول اهـ كلامه وبهذا علم أن أهل السنة يثبتون معانى أسماء الله ، وصفاتهوان كانوا لا يتعرضون لفهم كيفيتها ولا يبحثون عنها لأن ذلك أمر غيبى لم يخبر عنه فحسبنا أن نقف على ما بلغ علمنا اليه وعلى هذا فيتعين الايمان باللفظ وما دل عليه من المعنى سواء كانت دلالة مطابقة أو تضمن أو التزام ولكن بلا كيف والله أعلم

موجودان يسد كل واحد منهما مسد الآخر • والمتماثلان وان اشتركا فى الصفات النفسية لكن لابد من اختلافهما بجهة أخرى ليتحقق التعدد والتمايز فيصح التماثل ، ونسب الى الاشعرى انه يشترط فى التماثل التساوى من كل وجه ، واعترض بانه لا تعدد حينئذ فلا تماثل ، وبأن أهل اللغة مطبقون على صحة قولنا زيد مثل عمرو فى الفقه اذا كان يساويه فيه ويسد مسده وان اختلفا فى كثير من الاوصاف ، وفى الحديث « الحنطة بالحنطة مثلا بمثل » أراد به الاستواء فى الكيل دون الوزن وعدد الحبات وأوصافها ، ولا يخفى أن من الممكن أن يقال المراد التساوى فى الوجه الذى به التماثل فزيد وعمرو اذا اشتركا فى الفقه وكان بينهما مساواة فيه بحيث ينوب أحدهما عن الآخر يصح القول بأنهما مثلان فيه والا فلا •وكل هذا مغالطة وتمويه ليس شيء منه مما نحن فيه ((فكل ماجاء)) عن الله تعالى فى القرآن العظيم ((من الآيات)) القرآنية ((أو صح)) مجيئه ((فى الاخبار)) بالاسانيد الثابتة المرضية ((عن)) رواة ((ثقات)) فى النقل وهم العدول الضابطون المرضيون عند أهل الفن العارفين بالجرح والتعديل ((من الاحاديث)) الصحيحة والآثار الصريحة مما يوهم تشبيها أو تمثيلا فهو من المتشابه الذى لا يعلمه الا الله نؤمن به وبأنه من عند الله تعالى و ((نمره كما قد جاء)) عن الله أو عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (١)فيوصف

هل نصوص الصفات من المتشابه ؟

---

(١) فى تنبيه ابن سحمان ص ٣٢ بعد حكاية عبارة ملخصة مما هنا ما لفظه :

« اعلم وفقك الله ان هذا الكلام •• لا ينبغى ان يؤخذ على اطلاقه ونسبته الى مذهب أهل السنة والجماعة من السلف رضوان الله تعالى عليهم بل فيه ما هو حق من كلام السلف ، وفيه ما هو من بعض أقوال المتكلمين الذين ينتسبون الى أهل السنة ممن كثر فى باب أسماء الله وصفاته اضطرابهم وكثف عن معرفته حجابهم ، فا نالسلف رضوان اللهعليهم لا يدخلون أسماء الله وصفاته الواردة فى الكتاب والسنة فى المتشابه الذى لا يعلم تأويله الا الله ، نعم فيه ما ذكر على السلف انهم يمرون آيات الصفات وأحاديثها كما جاءت وسيأتي بيان معنى ذلك فيما بعد ان شاء الله تعالى • قال شيخ الاسلام ابن تيمية قدس الله روحه فى الرسالة المسماة بالاكليل فى المتشابه والتأويل : فصل • واما ادخال أسماء الله وصفاته أو بعض ذلك فى المتشابه الذى لا يعلم تأويله الا الله واعتقاد ان ذلك هو المتشابه الذى استأثر الله بعلم تأويله كما يقول كل واحد من القولين طوائف من أصحابنا وغيرهم ، فانهم وان أصابوا فى كثير مما يقولونه ونجوا من بدع

الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم وبما وصفه به السابقون الاولون لا يتجاوز القرآن والحديث • قال الامام أحمد رضى الله عنه لا يوصف الله الا بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم ، لا نتجاوز القرآن والحديث • فمذهب السلف انهم يصفون الله تعالى بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسول الله صلى الله عليه وسلم من غير تحريف ولا تكييف ، وهو سبحانه ليس كمثله شيء

وقع فيها غيرهم فالكلام على هذا من وجهين ، الاول من قال أن هذا من المتشابه وانه لا يفهم معناه • فنقول أما الدليل على ذلك فانى ما أعلم عن أحد من سلف الامة ولا من الائمة لا أحمد بن حنبل ولا غيره انه جعل ذلك من المتشابه الداخل فى هذه الآية ونفى أن يعلم أحد معناه ، وجعلوا أسماء الله وصفاته بمنزلة الكلام الاعجمى الذى لا يفهم ، ولا قالوا أن الله ينزل كلاما لا يفهم أحد معناه • وانماقالوا : كلمات لها معان صحيحة • قالوا فى أحاديث الصفات : تمر كما جاءت • ونهوا عن تأويلات الجهمية وردوها وأبطلوها التى مضمونها تعطيل النصوص عما دلت عليه • ونصوص أحمد والائمة قبله بينة فى انهم كانوا يبطلون تأويلات الجهمية ويقرون النصوص على ما دلت عليه من معناها ، ويفهمون منه للبعض ما دلت عليه كما يفهمون دلك فى سائر نصوص الوعد والوعيد والفضائل وغير ذلك • وأحمد قد قال فى غير أحاديث الصفات : تمر كما جاءت — فى أحاديث الوعيد مثل قوله : « من غشنا فليس منا » وأحاديث الفضائل • ومقصوده ان الحديث لا يحرف كلمه عن مواضعه كما يفعله من يحرفه ويسمى تحريفه تأويلا بالعرف المتأخر ، فتأويل هؤلاء المتأخرين عند الأئمة تحريف باطل • وكذلك نص أحمد فى كتاب الرد على الزنادقة والجهمية انهم تمسكوا بمتشابه القرآن ، وتكلم أحمد على ذلك المتشابه وبين معناه وتفسيره بما يخالف تأويل الجهمية ، وجرى فى ذلك على سنن الأئمة قبله ، فهذا اتفاق من الأئمة على انهم يعلمون معنى هذا المتشابه وان لا يسكت عن بيانه وتفسيره بل يبين ويفسر ، باتفاق الائمة من غير تحريف له عن مواضعه أو الحاد فى أسماء الله وآياته • انتهى • فتأمل ما ذكره شيخ الاسلام •• ثم تأمل ما ذكر الشارح بقوله : فمذهب السلف عدم الخوض فى هذا والسكوت عنه فانه يخالف ما ذكره شيخ الاشلام •• فتبين ان هذا ليس هو مذهب السلف وانه من القول عليهم بلا علم ولا برهان يدل على ذلك • ثم قال شيخ الاسلام: ومما يوضح لك ما وقع هنا من الاضطراب أن أهل السنة متفقون على ابطال تأويلات الجهمية ونحوهم من المحرفين الملحدين والتأويل المردود وهو صرف الكلام عن ظاهره الى ما يخالف ظاهره ، فلو قيل ان هذا هو التأويل المذكور فى الآية وانه لا يعلمه الا الله وليس هذا مذهب السلف والأئمة وانما مذهبهم نفى هذه التأويلات وردها لا التوقف عنها • وعندهم قراءة الآية والحديث تفسيرها وتمر كما جاءت دالة على المعانى لا تحرف ولا يلحد فيها • وذكر كلاما طويلا •• » •

لا فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أفعاله ، وكل ما أوجب نقصا أو حدوثافالله تعالى منزه عنه حقيقة فانه تعالى مستحق الكمال الذى لا غاية فوقه ، ومذهب السلف عدم الخوض فى مثل هذا والسكوت عنه وتفويض علمه الى الله تعالى (١) قال حبر القرآن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما : هذا من

---

(١) فى تنبيه ابن سحمان ص ٣٤ : « وأما قول الشارح : فمـذهب السلف عدم الخوض فى هذا والسكوت عنه وتفويض علمه الى الله فاعلم يا أخى أن شيخ الاسلام ابن تيمية ذكر فى العقل والنقل أقوال أهل التفويض فنذكر من ذلك ما يدل على بطلانه وانه من شر أقوال أهل البدع والالحاد . قال شيخ الاسلام قدس الله روحه فى ص ١١٥ فى الوجـه ١٦ : واما التفويض فمن المعلوم ان الله تعالى أمرنا ان نتدبر القرآن وحضنا على عقله وفهمه فكيف يجوز مع ذلك أن يراد منا الاعراض عن فهمه ومعرفته وعقله؟ . فذكر أقوال الفلاسفة ثم قال : والجهمية والمعتزلة وأمثالهم يقولون انه أراد أن يعتقدوا الحق على ما هو عليه مع علمهم بانه لم يبين ذلـك فى الكتاب والسنة بل النصوص تدل على نقيض ذلك فاولئك يقولون أراد منهم اعتقاد الباطل وأمرهم به ، وهؤلاء يقولون أراد اعتقاد ما لم يدلهم الا على نقيضه ، والمؤمن يعلم بالاضطرار ان كلا القولين باطل . ولا بد للنفاة أهل التأويل من هذا أو هذا ، واذا كان كلاهما باطلا كان تأويل النفاة للنصوص باطلا فيكون نقيضه حقا وهو اقرار الادلة الشرعية على مدلولاتها ومن خرج عن ذلك لزمه من الفساد ما لا يقوله الا أهل الالحاد . وما ذكرناه من لوازم قول أهل التفويض هو لازم لقولهم الظاهر المعروف بينهم اذ قالوا أن الرسول كان يعلم معانى هذه النصوص المشكلة المتشابهة ولكن لم يبين للناس مراده بها ولا أوضحه ايضاحا يقطع به النزاع . واما على قول اكابرهم ان معانى هذه النصوص المشكلة المتشابهة لا يعلمه الا الله وان معنـاها الذى أراده الله بها هو ما يوجب صرفها عن ظواهرها ــ فعلى قول هـؤلاء يكون الانبيـاء والمرسلون لا يعلمون معانى ما أنزل الله عليهـم من هـذه النصـوص ولا الملائكة ولا السابقون الاولون وحينئذ فيكون ما وصف الله به نفسه فى القرآن أو كثير مما وصف الله به نفسه لا يعلم الانبياء معناه بل يقـولون كلاما لا يعقلون معناه ، وكذلك نصوص المثبتين للقدر عند طائفة والنصوص المثبتة للامر والنهى والوعد والوعيد عند طائفة والنصوص المثبتة للمعاد عند طائفة ، ومعلوم أن هذا قدح فى القرآن والانبياء اذ كان الله أنزل القرآن وأخبر انه جعله هدى وبيانا للناس ، وأمر الرسول أن يبلغ البلاغ المبين وأن يبين للناس ما نزل اليهم وأمر بتدبر القرآن وعقله ومع هذا فاشرف ما فيه وهو ما أخبر به الرب عن صفاته أو عن كونه خالقا لكل شىء وهو بكل شىء عليم أو عن كونه أمر أو نهى ووعد وتوعد أو عما أخبر به عن اليـوم الآخر لا يعلم أحد معناه فلا يعقل ولا يتدبر ولا يكون الرسول بين للناس ما نزل اليهم ولا بلغ البلاغ المبين ، وعلى هذا التقدير فيقول كل ملحـد ومبتدع : الحق فى نفس الامر ما علمته برأيى وعقلى وليس فى النصوص

المكتوم الذى لا يفسر (١) فالواجب على الانسان أن يؤمن بظاهره ويكل علمه الى الله تعالى • وعلى ذلك مضت أئمة السلف كالزهرى ومالك

ما ينافي ذلك لان تلك النصوص مشكلة متشابهة ولا يعلم أحد معناها وما لا يعلم أحد معناه لا يجوز أن يستدل به فيبقى هذا الكلام سدا لباب الهدى والبيان من جهة الانبياء وفتحا لباب من يعارضهم ويقول ان الهدى والبيان فى طريقنا لا فى طريق الانبياء لانا نحن نعلم ما نقول ونبينه بالادلة العقلية والانبياء لم يعلموا ما يقولون فضلا عن أن يبينوا مرادهم • فتبين أن قول أهل التفويض الذين يزعمون انهم متبعون للسنة والسلف من شر أقوال أهل البدع والالحاد • الى آخر كلامه رحمه الله •

(١) قال ابن سحمان ص ٣٧ :

وأما قول الشارح قال ابن عباس هذا كلام من المكتوم الذى لا يفسر وكذا قال غيره من الصحابة والتابعين ، وأما أهل التأويل فأبوا الا أن يفسروا ويؤولوا حتى خالفوا سلف الامة وأئمتها وابتدعوا فى ذلك وكل بدعة ضلالة انتهى •

فاعلم يا أخي أن هذا القول الذى نسبه الشارح الى ابن عباس رضى الله عنه وغيره من الصحابة ان كان صحيحا ثابتا فليس معناه ما توهمه الشارح من أن نصوص الكتاب والسنة الواردة فى أسماء الله وصفاته مما يوهم تشبيها فيكون من المتشابه الذى لا يعلمه الا الله وانه مما لا يعقل معناه وانها لا تفسر وقد تقدم بيان ذلك فى معنى التفويض ونزيد ذلك ايضاحا بما قاله شيخ الاسلام ابن تيمية قدس الله روحه فى هذا الكتاب حيث قال : واما تاويل ما أخبر الله به عن نفسه وعن اليوم الآخر فهو نفس الحقيقة التى أخبر عنها وذلك فى حق الله هو كنه ذاته وصفاته التى لا يعلمها غيره • ولهذا قال مالك وربيعة وغيرهما : الاستواء معلوم والكيف مجهول • وكذلك قال ابن الماجشون وأحمد بن حنبل وغيرهما من السلف يقولون انا لا نعلم كيفية ما أخبر الله عن نفسه وان علمنا تفسيره ومعناه • ولهذا رد أحمد بن حنبل على الجهمية والزنادقة فيما طعنوا فيه من متشابه القرآن وتأولوه على غير تأويله فرد على من حمله على غير ما أريد به وفسر هو جميع الآيات المتشابهات وبين المراد به وكذلك الصحابة والتابعون فسروا جميع القرآن وكانوا يقولون ان العلماء يعلمون تفسيره وما أريد به وان لم يعلموا كيفية ما أخبر الله به عن نفسه وكذلك لا يعلمون كيفيات الغيب فان ما أعده الله لاوليائه من النعيم ما لا عين رأته ولا أذن سمعته ولا خطر على قلب بشر فذلك الذى أخبر به لا يعلمه الا الله بهذا المعنى فهذا حق • واما من قال ان التأويل الذى هو تفسيره وبيان المراد به لا يعلمه الا الله فهذا ينازعه فيه عامة الصحابة والتابعين الذين فسروا القرآن كله وقالوا انهم يعلمون معناه كما قال مجاهد عرضت المصحف على ابن عباس من فاتحته الى خاتمته أقف عند كل آية وأسأله عنها • وقال ابن مسعود ما فى كتاب الله آية الا وأنا أعلم فيم أنزلت • وقال الحسن البصرى ما أنزل الله آية الا وهو يحب أن يعلم ما أراد بها • ولهذا كانوا يجعلون القرآن يحيط بكل مايطلب من علم الدين كما قال مسروق ما نسأل أصحاب محمد عن شيء الا وعلمه

والأوزاعى وسفيان الثورى والليث بن سعد وعبد الله بن المبارك والامام احمد واسحاق فكل هؤلاء رضى الله عنهم يقولون فى الآيات المتشـــابهة أمروها كما جاءت • قال سيفيان بن عيينة ــ وناهيك به : كل ماوصف الله به نفسه فى كتابه فتفسيره قراءته والسكوت عنه ليس لأحد أن يفسره الا الله ورسوله • فهذا مذهب سلف الامة وفضلاء الأئمة رضى اللهعنهمفلهذا قلت ((فاسمع)) سماع اذعان وتفهم وامتثال وتعليم ((من))منطوق((نظامى)) ومفهومه ومحترزه ومعلومه ((واعلما)) فعل أمر مؤكد بنون التأكيدالخفيفة المنقلبة ألفا أى اعلم ذلك علم تحقيق وتحرير وتدقيق واعتمده واعتقـــده فانه نهج سلف الامة وسبيل أحبار الأئمـــة ((ولا نرد ذاك)) الوارد فى الكتاب المنزل وما جاء عن النبى المرسل ولا شيئا منه ((بالعقول))بضرب من التأويل أو التمويه والتضليل((ل))أجل((قول))انسان((مفتر))من الفريةوهى الكذب ومنه «فقدأعظم على اللهالفرية» أى الكذب ومنه قوله تعالى (ولا يأتين ببهتان يفترينه) يقال فرى يفرى فريا وافترى يفترى افتراء اذا كذب ومفتر اسم فاعل منه ((به)) أى بذلك القول الذى تقوله والتأويل الذى تأوله ((جهول)) صفة لمفتر من صفات المبالغة فان الله جل ثناؤه سمى نفسه فى كتابه العزيز بالرحمن الرحيم ووصف نفسه بالرحمة والمحبة فقال : (ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلما) وقال : (ورحمتى وسعت كل شىء) وقال : (فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه) وقال : « ان الله يحب المتقين ــ ويحب المحسنين ــ ويحب الصابرين ــ ويحب الذين يقاتلون فى

فى القرآن ولكن علمنا قصر عنه • وقال الشعبى ما ابتدع قوم بدعة الا فى كتاب الله بيانها ، وأمثال ذلك من الآثار الكثيرة المذكورة بالاسانيد الثابتة مما ليس هذا موضع بسطه • انتهى •

فهذا ما ذكره شيخ الاسلام ابن تيمية قدس الله روحه من علم الكيفية عما أخبر الله به عن نفسه وكذلك لا يعلمون كيفيات الغيب فان ما أعــده الله لاوليائه من النعيم مما لا عين رأته ولا أذن سمعته ولا خطر عـــلى قلب بشر فذاك الذى أخبر الله به لا يعلمه الا الله بهذا المعنى • فهذا الذى ذكره شيخ الاسلام هو الذى يحمل عليه قول ابن عباس وغيره من الصحابة ان كان النقل بذلك ثابتا عنهم وقد تقدم ان السلف رضوان الله عليهم كانوا يقولون انا لا نعلم كيفية ما أخبر الله عن نفسه وان علمنا تفسيره ومعنــاه فكان من المعلوم أن ابن عباس وغيره من الصحابة وأئمة السلف كانـــوا يفسرون ماتشابه من القرآن يعلمون معنى ذلك ولم يسكتوا عن بيان ذلك»

سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص » وكذلك الرضا والغضب الى غير ذلك من سائر ما جاء به الكتاب العظيم والنبى الكريم ، فسلف الامة وعلماء الأئمة يؤمنون به ويثبتونه لله تعالى بالمعنى الذى أراده تعالى مع اعتقادهم التنزيه والتقديس ، عن التشبيه والتنقيص ، ومن الناس من يجعل رحمة الله وحبه تعالى عبارة عما يخلقه من النعمة وهذا ظاهر البطلان .

فان قيل ان اثبات هذا تشبيه لان الرحمة رقة تلحق المخلوق والرب منزه عن مثل صفات المخلوقين (فالجواب) ان الذى يلزم من هذه الصفات يلزم من غيرها فان الارادة فى حق المخلوق ميله الى ما ينفعه ودفع ما يضره والله تعالى منزه عن الاحتياج الى عباده وهم لا يبلغون ضره ولا نفعه بل هو الغنى عن كل ما سواه .

فان قيل الارادة التى نثبتها لله ليست مثل ارادة المخلوقين كما انا قد اتفقنا وسائر المسلمين على أنه تعالى حى عليم قدير وليس هو مثل سائر الاحياء العلماء القادرين (فالجواب) انا نقول وكذلك الرحمة والمحبة التى نثبتها لله تعالى ليست مثل رحمة المخلوق ومحبة المخلوق .

فان قيل لا نعقل من المحبة والرحمة الا هذا . قال لك نفاة الصفات ونحن لا نعقل من الارادة الا هذا . وقلنا نحن معشر أهل الاثر لا يخفى على عاقل فهيم ولا مؤمن سليم ان ارادتنا ومحبتنا ورحمتنا بالنسبة الينا ، وارادته تعالى ومحبته ورحمته بالنسبة اليه ، فكما أن ذاته لا تشبه ذواتنا وحياته لا تشبه حياتنا ، فرحمته ومحبته ورضاه وغضبه كذلك ، فلا يجوز التفريق بين المتماثلين فكيف تثبت له احدى الصفتين وتنفى عنه الاخرى مع ورود الجميع فى الكتاب العزيز والسنة الصحيحة ، وليس فى العقل ولا فى السمع ما يوجب التفريق ، اذ غاية ما يقال انا نثبت الارادة بالعقل لان وجود التخصيص فى المخلوقات دل على الارادة ، فيقال أولا انتفاء الدليل المعين لا يقتضى انتفاء المدلول فهب ان مثل هذا الدليل لا يثبت فى الرحمة والمحبة فمن أين نفيتم ذلك ؟ مع أن السمع أثبت ذلك . ويقال ثانيا فى اثبات ذلك بالطريق العقلى نظير الذى أثبتم به الارادة : ما فى المخلوقات من وجود المنافع للمحتاجين ، وكشف الضر عن المضرورين ،

والاحسان الى المخلوقات ، وأنواع الرزق والهدى والمسرات ، دليل على رحمة الخالق سبحانه . والقرآن يثبت دلائل الربوبية بهذه الطريق ، تارة بدلهم بالآيات المخلوقة على وجود الخالق ويثبت علمه وقدرته وحياته ، وتارة يدلهم بالنعم والآلاء على وجود بره واحسانه المستلزم رحمته ، وهذا كثير فى القرآن كقوله تعالى : (يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ، الذى جعل لكم الارض فراشا والسماء بناء) الآية وقوله : (أو لم يروا انا نسوق الماء الى الارض الجرز) الآية وقوله فى سورة الرحمن بعد ذكر تعداد أنواع النعم : (فبأى آلاء ربكما تكذبان) وكذلك اثبات حكمته تعالى ومحبته التى تنبنى عليها حكمة خلقه وأمره مما يعلم بالسمع وبالعقل أيضا كما تعلم ارادته تعالى (بهما - ١) وسلف الامة وأئمتها على ان الله تعالى يحب ويحب وهو قول شيوخ (اهل - ١) المعرفة . وفى الحديث : « وأسألك الشوق الى لقائك فى غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة» . اذا علمت ذلك((فعقدنا)معشرالاثرية الذى نعقد عليه ، ونهجنا الذى نسلكه ونذهب اليه ((الاثبات)) للأسماء والصفات كما وردت به الآيات ودلت عليه الروايات ((ياخليلى)) من الخلة وهى نهاية المحبة وخلاصتها بحيث انها تخللت الاعضاء والمفاصل ، والمراد بالخليل هنا الموافق على مذهب السلف السائل عن منهاجه ودقائقه وأمهات مسائله وحقائقه ، فانا ندين الله تعالى باثبات ما جاءت به الآيات وصحيح الروايات وسلكته الأئمة السادات ((من غير تعطيل)) لها عن حقائقهاونفيها مع صحة مخارجها بل نثبتها ونؤمن بها ولا تشبيه فى مجرد اثباتها ((ولا)) أى ومن غير ((تمثيل)) لها بصفات المخلوق بل اثبات بلا تمثيل وتنزيه بلا تعطيل ، فالممثل يعبد صنما ، والمعطل يعبد عدما ، والمثبت المسلم يعبد رب الارض والسماء ، المنعوت بنعوت الصفات والاسماء . وعندنا معشر السلف ومن نحا منحانا من علماء الخلف

((فكل من أول فى الصفات   كذاته من غير ما اثبات))
((فقد تعدى واستطال واجترى   وخاض فى بحرالهلاك وافترى))

---

(١) من مخ

((ألم تر اختلاف أصحاب النظر فيه وحسن ما نحاه ذو الاثر))
((فانهم قد اقتـــدوا بالمصطفى وصحبه فاقنع بهـــذا وكفى))

حال المؤولين

((فكل من أول فى الصفات)) الثابتة للذات المقدسة عن سمـــات المحدثات والمراد بالتأويل هنا أن يراد باللفظ ما يخالف ظاهره أو صرف اللفظ عن ظاهره لمعنى آخر أو من حقيقته لمجازه وهو فى آيات الصفات المقدسة من المنكرات عند أئمة الدين من علماء السلف المعتبرين (١) فانا حيث أثبتنا ذاتا لا كالذوات ، فما المانع من اثبات صفات لا كصفات المحدثات ؟ فالكلام فى الصفات فرع على الكلام فى الذات ، فصفاته تعالى قديمة ثابتة ((كذاته)) تعالى ، فليس لنا أن نتأول فى صفات الله تعالى ولا فى ذاته ((من غير ما)) ما زائدة تأكيد للنفى ولاقامة الوزن ((اثبات)) عن صاحب الشرع وأصحابه وأئمة التابعين المعتبرين من علماء السلف وأتباعهم فهم العمدة دون غيرهم . وعلم من النظم أن الله سبحانه يطلق عليه الذات كما يقال انه شىء لا كالأشياء وانه ذات لا كالذوات ، بخلاف الماهية فأكثر المتكلمين

---

(١) فى تنبيه ابن سحمان ص ٣٩ ما لفظه :
وأما قول الشارح : وأما أهل التأويل فأبوا الا أن يفسروا ويؤولوا حتى خالفوا سلف الامة وأئمتها وابتدعوا فى ذلك وكل بدعة ضلالة . انتهى .
فاعلم يا أخى أن التأويل المردود الذى سلكه الجهمية ومن تبعهم مـــن المتكلمين هو صرف الكلام عن ظاهره الى ما يخالف ظاهره فلو قيل ان هذا هو التأويل المذكور فى الآية وانه لا يعلمه الا الله لكان فى هـــذا تسليم للجهمية ان للآية تأويلا يخالف دلالتها لكن ذلك لا يعلمـــه الا الله وليس هذا مذهب السلف والائمة وانما مذهبهم نفى هـــذه التأويلات وردها لا التوقف عنها ، وعندهم قراءة الآية والحديث تفسيرها وتمر كما جاءت دالة على المعانى لا تحرف ولا يلحد فيها ، فكان من المعلوم ان السلف الذين قالوا لا يعلم تأويله الا الله كانوا يتكلمون بلغتهم المعروفة بينهم ولم يكن لفظ التأويل عندهم يراد به معنى التأويل الاصطلاحى الخاص وهو صرف اللفظ عن المعنى المدلول عليه المفهوم منه الى معنى يخالف ذلك فان تسمية هـــذا المعنى وحده تأويلا انما هو اصطلاح طائفة من المتأخرين من الفقهاء والمتكلمين وغيرهم ليس هو عرف السلف من الصحابة والتابعين والأئمة الاربعة وغيرهم كما ذكر ذلك شيخ الاسلام ابن تيمية قدس الله روحه والله أعلم . اذا تبين لك هذا فاعلم ان مراد من قال من السلف رضى الله عنهم انه لا يفسر يعنون انه لا يؤول ويحرف فيصرف عن ظاهره الى ما لا يدل عليه ظاهره كما أولوا الاستواء وفسروه بأنه الاستيلاء وكما فسروا اليد بالنعمة وهذا هو الذى نهى السلف عن تفسيره وتأويله بهذا المعنى والله أعلم .

منع اطلاقها على الله تعالى لأن معنى الماهية المجانسة وهى المشاركة فى الجنس والفصل ، قالوا وما روى عن الامام أبى حنيفة رحمه الله تعالى من أنه كان يقول ان لله ماهية لا يعلمها الا هو ، لم يصـــح عنه ، فان هذا اللفظ لم يوجد فى كتبه ولم ينقله عنه أحد من أصحابه العارفـــين بأقواله ، فلو ثبت عنه لحمل على أن مراده انه تعالى يعلم ذاته لا بدليل ، أو أن له أسماء لا يعلمها غيره كما فى حديث « وأسألك بكل اسم هولك أنزلته فى كتابك أو علمته أحدا من خلقك أو استأثرت به فى علم الغيب عندك » فلله أسماء لا يعلمها الا هو • وأما قوله عليه السلام « ان لله تسعة وتسعين اسما من أحصاها دخل الجنة » يعنى الاسماء الحسنى متصفة بأن من أحصاها دخل الجنة والله أعلم ((فقد تعدى)) فهذا خبر للمبتدأ الذى هو كل من أول وتعديه تجريه على مالم يأذن به الله ورسوله فانه فعل ماليس له ، وقال على الله بما لم يأذن الله ورسوله له به ((واستطال)) على السلف الصالح فكأنه استدرك عليهم ما يزعم انهم أغفلوه ، وحرر فيما يدعى أنهم أهملوه ((واجترى)) افتعال من الجرأة أى تشجع وافتات حده وتعدى طوره ولم يقتد بالصادق المصدوق ولا بأصحابه والتابعين لهم باحسان ((وخاض)) يقال خاض الماء يخوضه خوضا وخياضا دخـــله كخوضه واختاضه وبالفرس أورده كاخاضه وخاض الغمرات اقتحمها أى اقتحم ((فى بحر الهلاك)) أى الموت والانمحاق يعنى رمى نفسه فى بحر يذهب بدينه ويؤول به الى الهلاك الأبدى والعذاب السرمدى ((وافترى)) على مولاه الذى خلقه وسواه ومن أظلم ممن افترى على الله فان من لم يسلم لم يسلم ، ومن لم يقتف طريقة السلف الصالح لم يربح ويغنم ، فعلى العاقل أن يتبع طريقة أهل الاثر فانها أسلم ، ودع عنك ماقيل من أن مذهب الخلف أعلم ، فانها من النزعات الفلسفية ، والزخارف البدعية ،والاحداس النفسية ، والوساوس الجهمية والتحذلقات الزندقية • فأين علم زيدوعمرو ممن شاهد الرسول وعاين الامر ؟ ومن ثم قلنا ((ألم تر اختلاف أصحاب النظر)) يعنى نظار المتكلمة من سائر الفرق والطوائف ورد بعضهم على بعص وتضليل بعضهم بعضا ((فيه)) أى فى نظرهم الذى يزعم كل فريق

منهم أنه هو العلم الحق والقول الصدق فيأتي غير ذلك الفريق فينقضه ويرمي صاحبه بالزندقة والتحميق ، فكل فرقة من المتأولين تخطىء الأخرى ، وتزعم أن ما اهتدت اليه بعقلها أحق وأحرى ، فترد ما زعمت تلك انه برهان ، فتجيء الأخرى فتبرهن على بطلانه وتزعم انه هذيان ، وتعتقد أن الذى زخرفته هو حق اليقين ، فتأتى فرقة أخرى فتزعم انه من وحى الشياطين ، فكل من طالع كتب أهل الكلام والمتصوفة ، علم ما فى قولهم من الهذرمة والزخرفة

والناس شتى وأراء مفرقة كل يرى الحق فيماقال واعتقدا

((و)) ألم تر ((حسن ما)) أى المذهب الذى ذهب اليه والمنحى الذى ((نحاه)) وقصده ونهجه ((ذو)) أى صاحب مذهب ((الاثر)) من النبى الأمين والصحابة والتابعين والأئمة المعتبرين الذين هم عمدة هذا الدين ((فانهم)) أى الاثرية المفهومين من قوله وحسن ما نحاه ذو الاثر ((قد اقتدوا))فيمااعتقدوه وعولوافيما اعتمدوه ((ب))النبى ((المصطفى))افتعال من الصفوة وهو نبينا رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم ((و)) اقتدوا من بعده صلى الله عليه وسلم ((بصحبه)) الذين صحبوه ونقلوا عنه الشريعة وعاينوا الوحى والتنزيل وعلموا من الرسول بما جاء به جبريل فان كنت تبغي السلامة وتسلم من البدع والندامة ((فاقنع))أى ارض((بهذا)) البيان ، المسند الى آيات القرآن ، والى حديث سيد ولد عدنان ، والى الصحابة والتابعين والأئمة المهتدين ((وكفى)) بهؤلاء مستنداومعتقدا فالسلامة فيما نحوه وأصلوه لا فيما زخرفه أهل التأويل وتقولوه (١)

تنبيهات

تنبيهات الاول

الاختلاف فى فهم الكمال

(الاول) لا خلاف بين العقلاء ان الله سبحانه وتعالى متصف بجميع صفات الكمال منزه عن جميع صفات النقص لكنهم مع اتفاقهم على ذلك اختلفوا فى الكمال والنقص فتراهم يثبت أحدهم لله ما يظنه كمالا وينفى

---

(١) بهامش مخ « بلغ قراءة امرار فى هذا الكتاب على شيخنا المحترم الشيخ عبد الله نفعنا الله به آمين وذلك فى ١٤ ج ا سنة ١٢٥٩

قصور الفكر على الاستقلال

الآخر عين ما أثبته هذا لظنه نقصا ، وسبب ذلك أنهم سلطوا الافكار على مالا سبيل اليه من طريق الفكر ، فان الله تعالى خلق العقول وأعطاهاقوة الفكر وجعل لها حدا تقف عنده من حيث ما هي مفكرة لا من حيث ما هي قابلة للوهب الالهى ، فاذا استعملت العقول أفكارها فيما هو فى طورها وحدها ووفت النظر حقه أصابت باذن الله تعالى ، واذا سلطت الافكار على ماهو خارج عن طورها ووراء حدها الذى حده الله لها ركبت متن عمياء،وخبطت خبط عشواء ، فلم يثبت لها قدم ولم تركن على (١) أمر تطمئن اليه ، فان معرفة الله التى وراء طورها مما لا تستقل العقول بادراكها من طريق الفكر وترتيب المقدمات ، وانما تدرك ذلك بنور النبوة وولاية المتابعة فهو اختصاص الهى يختص به الانبياء وأهل وراثتهم مع حسن المتابعة وتصفية القلب من وضر البدع ، والفكر من نزغات الفلسفة والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم

ومما يوضح ذلك أن العقول لو كانت مستقلةبمعرفة الحق وأحكامهلكانت الحجة قائمة على الناس قبل بعث الرسل وانزال الكتب واللازم باطل بالنص قال تعالى (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) وقال تعالى (ولو انا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت الينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى) فكذا الملزوم ، فلما بعث الله الرسل وأنزل الكتب وجبت لله على الخلق الحجة البالغة وانقطعت علقة الاعتذار (فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه * لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) ولما عجزت العقول من طريق الفكر عن معرفة الحق التى هي وراء طورها ومنحها القبول وقد أنزل الكتاب وأنزل فيه ما حارت فى ادراكه العقول من الآيات المتشابهات التى لا يعلم تأويلها الا الله ، أمرنا الشارع بالايمان بها ونهانا عن التفكر فى ذات الله رحمة منه بنا ولطفا لعجزنا عن ادراكه فان تسليط الفكر على ما هو خارج عن حده تعب بلا فائدة ، ونصب من غير عائدة ، وطمع فى غير مطمع ، وكد من غير منجع ، وقد أمرنا بالايمان بالمتشابه •

---

(١) مخ « ولم تركن الى »

وفى الحديث « تعلموا القرآن والتمسوا غرائبه -يعنى فرائضه أى حدوده- وهى حلال وحرام ومحكم ومتشابه وأمثال فأحلوا حلاله وحرموا حرامه واعملوا بمحكمه وآمنوا بمتشابهه واعتبروا بأمثاله » رواه الديلمى من حديث أبى هريرة رضى الله عنه وأخرجه الحاكم وصححه من حديث ابن مسعود رضى الله عنه ولفظه عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال « كان الكتاب الاول ينزل من باب واحد على حرف واحد ونزل القرآن من سبعة أبواب على سبعة أحرف زجر وأمر وحلال وحرام ومحكم ومتشابه وأمثال فأحلوا حلاله وحرموا حرامه وافعلوا ما أمرتم به وانتهوا عما نهيتم عنه واعتبروا بأمثاله واعملوا بمحكمه وآمنوا بمتشابهه وقولوا آمنا به كل من عند ربنا » وروى نحوه البيهقى فى شعب الايمان من حديث أبى هريرة • وروى ابن جرير عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « أنزل القرآن على أربعة أحرف حلال وحرام لا يعذر أحد بجهالته وتفسير تفسره العرب وتفسير تفسره العلماء ومتشابه لا يعلمه الا الله ومن ادعى علمه سوى الله فهو كاذب » ثم رواه من وجه آخر عن ابن عباس موقوفا بنحوه • وروى ابن أبى حاتم من طريق العوفى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال نؤمن بالمحكم وندين به ونؤمن بالمتشابه ولا ندين (١) به وهو من عند الله كله • وقالت عائشة رضى الله عنها كان رسوخهم فى العلم ان آمنوا بمتشابهه ولا يعلمونه • ولما قدم صبيغ (٢) المدينة المنورة وجعل يسأل عن متشابه القرآن أرسل اليه أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب رضى الله عنه وقد أعد له عراجين النخل فقال من أنت قال عبد الله صبيغ (٢) فأخذ عمر عرجونا من تلك العراجين فضربه حتى أدمى رأسه وفى رواية فضربه بالجريد حتى ترك ظهره دبرة ثم تركه حتى برىء ثم أعاد عليه الضرب ثم تركه حتى برىء فدعا به ليعيده عليه فقال ان كنت تريد قتلى فاقتلنى قتلا جميلا أوردنى الى أرضى • فأذن له الى أرضه وكتب الى أبى موسى الأشعرى أن لا يجالسه أحد من المسلمين • وفى فروع ابن مفلح

(١) بهامش مخ «أى لانعمل به» • (وقع) فى الاصلين « ابن صبيغ » وبهامش مخ : « لفظة ابن زائدة ، انما هو صبيغ بن عسل التميمى العراقى » •

من علمائنا ان عمر رضى الله عنه أمر بهجر صبيغ لسؤاله عن الذاريات والمرسلات والنازعات انتهى . وهذا من سيدنا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه لسد باب الذريعة . والآية الشريفة دلت على ذم متبعي المتشابه ووصفهم بالزيغ وابتغاء الفتنة، وعلى مدح الذين فوضوا العلم الى الله وسلموا اليه كما مدح الله تعالى المؤمنين بالغيب، فعلى العاقل الناصح لدينه ونفسه أن يسلك مسلك السلف الصالح وأن يرقى على سلم التسليم فانه من أنجح المصالح وأن يؤمن بالمتشابهات من آيات الأسماء والصفات كما فعل الصحابة والتابعون (١) ويمتثل أمر نبيه خاتم النبيين وامام المرسلين فى قوله «وآمنوا بمتشابهه وقولوا آمنا به كل من عند ربنا » فلقد بالغ فى النصيحة بأدلة صحيحة وكلمات فصيحة فجزاه الله عنا خير ماجزى نبيا عن قومه ورسولا عن أمته ورضى الله تعالى عن آله وصحبه والتابعين لهم باحسان وذوى الحق وحزبه

الثانى
بيان مذهب الحنابلة

- الثـــانى -

اعلم أن مذهب الحنابلة هو مذهب السلف فيصفون الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل ، فالله تعالى ذات لا تشبه الذوات ،متصفة بصفات الكمال التى لا تشبه الصفات من المحدثات ، فاذا ورد القرآن العظيم ، وصحيح سنة النبى الكريم، عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم بوصف للبارى جل شأنه تلقيناه بالقبول والتسليم ، ووجب اثباته له على الوجه الذى ورد ونكل معناه للعـــزيز الحكيم (١) ولا نعدل به عن حقيقة وصفه ولا نلحد فى كلامه ولا فى أسمائه ولا فى صفاته ولا نزيد على ما ورد ، ولا نلتفت لمن طعن فى ذلك ورد . فهذا اعتقاد سائر الحنابلة كجميع السلف ، فمن عدل عن هـــذا المنهج القويم زاغ عن الصراط المستقيم وانحرف . فدع عنك فلانا عن فلان، وعليك بسنة سيد ولد عدنان ، فهى العروة الوثقى التى لا انفصام لها ، والجنة الواقية التى لا انحلال لها . والله تعالى الموفق

---

(١) راجع ما تقدم فى التعليق على قول المتن « فكل ما جاء من الآيات .. الخ » .

- الثالث -

الثالث ذم الخوض فى الكلام

قد ذم السلف الصالح الخوض فى علم الكلام والتقصى والتدقيق فيما زعموا انه قضايا برهانية وحجج قطعية يقينية وقد شحنوا ذلك بالقضايا المنطقية والمدارك الفلسفية والتخيلات الكشفية والمباحث القرمطية • وكان أئمة الدين مثل مالك وسفيان وابن المبارك وأبى يوسف والشافعى واحمد واسحاق والفضيل بن عياض وبشر الحافى يبالغون فى ذم الكلام وفى ذم بشر المريسى وتضليله ، حتى أن هارون الرشيد خامس خلفاء بنى العباس قال يوما بلغنى أن بشر المريسى يقول ان القرآن مخلوق ولله على أن أظفرنى به الله لأقتلنه قتلة ما قتلتها أحدا • فأقام بشر متواريا أيام الرشيد نحوا من عشرين سنة • قال شيخ الاسلام ابن تيمية وهذه التأويلات التى ذكرها ابن فورك ويذكرهاالرازى فى (تأسيس التقديس) ويوجد منها فى كلام غالب المتكلمة من الجبائى وعبد الجبار وأبى الحسين البصرى وغيرهم هى بعينها التأويلات التى ذكرها بشر المريسى ورد عليه الامام الدارمى عثمان بن سعيد أحد مشاهير أئمة السنة من علماء السلف فى زمن البخارى فى المائة الثالثة فى كتابه الذى سماه (رد عثمان بن سعيد* على الكاذب العنيد * فيما افترى على الله من التوحيد) فحكى هذه التأويلات بأعيانها عن بشر المريسى بكلام يقتضى أن المريسى أقعد بها وأعلم بالمعقول والمنقول من هؤلاء المتأخرين الذين اتصلت اليهم من جهته ، وقد أجمع أئمة الهدى على ذم المريسية وأكثرهم كفروهم وضللوهم ، وذموا الكلام وأهله بعبارات رادعة وكلمات جامعة • قال أبو الفتح نصر المقدسى فى كتابه (الحجة على تارك المحجة) باسناده عن الربيع بن سليمان قال سمعت الامام الشافعى يقول : مارأيت أحدا ارتدى بالكلام فأفلح • ولما كلمه حفص الفرد من أهل الكلام قال : لأن يبتلى العبد بكل ما نهى الله عنه خلا الشرك بالله عز وجل خير له من أن يبتلى بالكلام • وقال : حكمى فى أصحاب الكلام أن يصفعوا وينادى بهم فى العشائر والقبائل : هذا جزاء من ترك السنة وأخذ فى الكلام • وقال سيدنا الامام احمد : عليكم بالسنة والحديث وما ينفعكم واياكم والخوض والمراء فانه لا يفلح من أحب الكلام • وقال

فى علماء أهل البدع من المتكلمة : لا أحب لأحد أن يجالسهم ولا يخالطهم ولا يأنس بهم ، فكل من أحب الكلام لم يكن آخر أمره الا الى البـــدعة فان الكلام لا يدعوهم الى خير ، فلا أحب الكلام ولا الخوض ولا الجدال، عليكم بالسنن والفقه الذى تنتفعون به ، ودعوا الجدال وكلام أهل الزيغ والمراء ، أدركنا الناس وما يعرفون هذا ويجانبون أهل الكلام . وقال رضى الله عنه : من أحب الكلام لم يفلح ، عاقبة الكلام لا تؤول الى خير ، أعاذنا الله واياكم من الفتن ، وسلمنا واياكم من كل هلكة . وقد نقل عن هذين الامامين من ذم الكلام وأهله كلام كثير مذكور فى كتب علماء السلف . وعن عبد الرحمن بن مهدى قال دخلت على الامام مالك بن أنس وعنده رجل يسأله عن القرآن والقدر فقال الامام مالك رضى الله عنه للرجل لعلك من أصحاب عمرو بن عبيد لعن الله عمرا فانه ابتدع هذه البدعة من الكلام ،ولو كان الكلام علما لتكلم به الصحابة والتابعون رضى الله عنهم كما تكلموا فى الاحكام والشرائع ولكنه باطل يدل على باطل . فهل يكون أشد من هذا الانكار من هؤلاء الأئمة الكبار ؟. وقال محمد بن الحسن صاحب أبى حنيفة سمعت أبا حنيفة يقول لعن الله عمرو بن عبيد فانه مبتدع . والنصوص عن أئمة الهدى فى ذلك كثيرة جدا . وروى الامام الحافظ شمس الدين الذهبى فى كتابه (العرش) بسنده الى أبى الحسن القيروانى قال سمعت الاستاذ أبا المعالى الجوينى يقول : يا أصحابنـــا لا تشتغلوا بالكلام فلو عرفت أن الكلام يبلغ بى الى ما بلغ ما اشتغلت به. وقال الفقيه أبو عبد الله الدسيمى (١) قال حكى لنا الامام أبو الفتح محمد ابن على الفقيه قال دخلنا على الامام أبى المعالى الجوينى نعوده فى مرض موته فأقعد فقال لنا : اشهدوا على انى قد رجعت عن كل مقالة قلتها أخالف فيها السلف الصالح وانى أموت على ما يموت عليه عجائز نيسابور . قال الامام الحافظ الذهبى قلت هذا معنى قول بعض الائمة عليكم بدين العجائز- يعنى انهن مؤمنات بالله على فطرة الاسلام لم يدرين ما علم الكلام . قال الحافظ الذهبى وقد كان شيخنا أبو الفتح القشيرى رحمه الله تعالى يقول :

---

(١) بهامش مخ : خ : الرستمى .

تجاوزت حد الاكثرين الى العلى وسافرت واستبقتهم فى المفاوز (١)
وخضت بحارا ليس يدرك قعرها وسيرت نفسى فى فسيح المفـــاوز
ولججت فى الافكار ثم تراجع اخـ تيارى الى استحسان دين العجائز

وقال شيخ الاسلام ابن تيمية فى رسالته الحموية : وقد أخبر الواقف على نهايات اقدام المتكلمة بما انتهى اليه من مرامهم :

لعمرى لقد طفت المعاهد كلهـــا وسيرت طرفى بين تلك المعـــالم
فلم أر الا واضـــعا كف حائر عـــلى ذقن أو قارعا ســـن نادم

وقول بعض رؤسائهم :

نهاية اقدام العقـــول عقـــال وأكثر سعى العالمين ضـــلال
وأرواحنا فى وحشة من جسومنا وغاية دنيـــانا أذى ووبـــال
ولم نستفد من بحثنا طـول عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيـــل وقالوا

قال شيخ الاسلام ويقول الآخر منهم : لقد خضت البحر الخضـــم وتركت أهل الاسلام وعلومهم وخضت فى الذى نهونى عنه والآن ان لم يتداركنى الله برحمته فالويل لفلان وها أنا ذا أموت على عقيدة أمى . ويقول الآخر منهم : أكثر الناس شكا عند الموت أصحاب الكلام . قال شيخ الاسلام : ثم اذا حقق عليهم الامر لم يوجد عندهم من حقيقة العلم بالله وخالص المعرفة به خبر ، ولم يقعوا من ذلك على عين ولا أثر . وما ذكرناه من الأنباء قطرة من بحر لجى وبالله التوفيق

فان قلت اذا كان علم الكلام بالمثابة التى ذكرت ، والمكانة التى عنها برهنت ، فكيف ساغ للأئمة الخوض فيه ، والتنقيب عما يحتويه ؟ ثم انك أتيت ما عنه نهيت وحررت ما عنه نفرت ، وهل هذا فى بادى الرأى الا مدافعة ، وجمع للشيئين اللذين بينهما تمام الممانعة . قلت ان ما ذهب اليه وهلك من التمانع لمتنع ، وماسنح فى خلدك من التدافع لمندفع . بل العلم الذى نهينا عنه ، غير الذى ألفنا فيه . والكلام الذى حذرنا منه ، غير الذى صنف فيه كل امام وحافظ وفقيه . فعلم الكلام الذى نهى عنه أئمة الاسلام هو العلم المشحون بالفلسفة والتأويل ، والالحاد والاباطـــل ، وصرف

---

(١) بهامش مخ : خ : المراكز .

الآيات القرآنية عن معانيها الظاهرة ، والاخبار النبوية عن حقائقها الباهرة، دون علم السلف ومذهب الأثر ، وما جاء في الذكر الحكيم وصحيح الخبر ، فهذا لعمرى ترياق القلوب الملسوعة بأراقم الشبهات وشفاء الصدور المصدوعة بتراجم المحدثات ، ودواء الداء العضال ، وبازهر (١) السم القتال ، فهو فرض عين أو عين فرض على كل نبيه ، وهو العلم الذى تعقد عليه الخناصر لدحض حجة كل متحذلق وسفيه . فزال هذا الاشكال، والله ولى الافضال .

(١) ويقال « باك زهر » و « بادزهر » ووقع فى مخ « بان زهر » وبهامشها « هو حجر ينفع من السم » .

الباب الاول معـرفة الله تعالى وتعداد الصفات

الباب الأول

في معرفة الله تعالى ومايتعلق بذلك من تعداد الصفات التي يثبتها المتكلمة كالسلف وأسمائه تعالى وكلامه وغير ذلك

((أول واجب على العبيـــد   معـرفة الاله بالتســـديد))

((بأنه واحــد لا نظـــير   له ولا شبـــه ولا وزير))

((صفاته كــذاته قديمة (١)   أسماؤه ثابتــة عظيمـــة))

((أول واجب على العبيد)) جمع عبد وله أحد عشر جمعا جمعها ابن مالك في قوله :

---

(١) علق الشيخ عبد الله بابطين على هذا الموضع ما نصه :

قوله صفاته كذاته قديمة ظاهره ان الصفات كلها قديمة كما صرح به في الشرح وهذا فيه تفصيل فان المعروف بين أهل السنة ان صفات الله تعالى قسمان صفات ذاتية كالحياة والعلم والقدرة والوجه واليدين ونحوها فهذه قديمة بلا ريب اذ انها صفات لازمة لله تعالى . وصفات فعلية وهي التي تتعلق بمشيئته وحكمته فان اقتضت حكمته فعلها فعلها وان اقتضت حكمته أن لا يفعلها لم تكن وهذا مثل الخلق والرزق والاحياء والاماتة والكلام .. والنزول والاستواء وغير ذلك من صفات فعله فهذا يكون قديم النوع أو الجنس وان كانت آحاده توجد شيئا فشيئا وحينا وآخر ومن المعلـوم انه يوجد الفرق بين صفة الحياة والقدرة مثلا وبين صـــفة الاستواء فان الاول لا شك أن الله موصوف به اذلا وأبدا جل وعلا وأما الاستواء فلم يكن الا بعد خلق العرش وكذلك صفة نزوله الى السماء الدنيا وان كانت الصفات الفعلية قديمة الجنس فلم يزل الله تبارك وتعالى فعالا لما يريد فتنبه للفرق بينهما والله أعلم .

وفي موضع آخر : ان أراد المؤلف رحمه الله بكونها قديمة انها غير مخلوقة فصحيح لكن ينبغي ان يعبر بقوله غير مخلوقة . ولا يأتي بكـلام مجمل . وان أراد انها قديمة في الازل فهذا مما يحتاج فيه الى التفصيل الذي يتبين به الحق فان الصفات قسمان ذاتية كالحياة والعلم والقدرة ونحوها مما لا ينفك الله عنها فهي صفات قديمة ، والثاني صفات فعلية فهذه نقول فيها ان جنسها او نوعها قديم واما بالنسبة الى كل فعل فان الله لم يزل ولا يزال يوجد افعاله شيئا فشيئا فهذا استواؤه على عرشه بعد أن خلق العرش وهذا نزوله الى سماء الدنيا بعد أن خلق السماء الدنيا ، ولا يمكن أن يتصور عاقل أن نزوله الى سماء الدنيا كان في الازل قبل أن يخلـــق السماء الدنيا أو أن استواءه كذلك قبل أن يخلق العرش وهذا أيضـــا كلامه لا يرتاب عاقل في ترتيب الحروف وسبق بعضها على بعض وكل هذا مما يدل على ما ذكرنا وان صفات الفعل يقال فيها ان نوعها او جنسها قديم أما بالنسبة الى كل فعل بذاته فلا والله أعلم .

عباد عبيد جمع عبـــد وأعبـــد أعابد معبـــوداء معبـدة عبـــد
كذلك عبدان وعبـــدان أثبتـــا كذاك العبدى وامددانشئت أن تمد

قال أبو على الدقاق ليس شيء أشرف ولا اسم أتم للمؤمن من الوصف بالعبودية قال الشاعر :

لاتدعنى الابيـــا عبـدها فانه أشرف أسمـــائى

وقال الآخر :

أصم اذا نوديت باســـمى واننى اذا قيل لى يا عبدها لسميـــع

((معرفة الاله)) سبحانه وتعالى وهى عبارة عن معرفة وجود ذاته تعالى بصفات الكمال ، فيما لم يزل ولا يزال ، دون معرفة حقيقة ذاته وصفاته لاستحالة ذلك عقلا عند الأكثرين يعنى أن العقل يحيل معرفة كنه ذاته • وقوله أول واجب يعنى لنفسه على كل مكلف بالنظر فى الوجود والموجود، ووجوب ذلك بالشرع دون العقل لأن العقل لا يوجب ولا يحرم ، وهذا مذهب أهل السنة • وقالت المعتزلة وجبت معرفة الله عقلا لا شرعا لأنها دافعة للضرر المظنون وهو خوف العقاب فى الآخرة حيث أخبر جمع كثير بذلك وخوف ما يترتب فى الدنيـــا على اختلاف الفرق فى معـــرفة الصانع من المحاربات وهلاك النفوس وتلف الاموال وكل مايدافع الضرر المظنون بل والمشكوك واجب عقلا كما اذا أردت سلوك طريق فأخبرت بأن فيها عدوا أو سبعا فانه يجب عليك اجتنابها خوف الوقوع فى الهلكة • ورد قولهم بمنع ظن الخوف فى الأعم الأغلب اذ لا يلزم الشعور بالاختلاف ولا بما يترتب عليه من الضرر ولا بالصانع وبما رتب فى الآخرة من الثواب والعقاب والاخبار بذلك انما يصل الى البعض ، وعلى فرض الوصـــول لا رجحان لجانب الصدق لأن التقدير عدم معرفة الصانع وبعثـــة الأنبيـــاء عليهم الصلاة والسلام ودلالة المعجزات ، ولو سلم ظن خوف فلا نسلم أن تحصيل المعرفة يدفعه لأن احتمال الخطأ قائم فخوف العقاب أو الاختلاف بحاله والعناء زيادة • وفى كتاب الشيرازى (جامع الانوار * لتوحيد الملك الجبار) من الاشعرية ان وجوب معرفة الله بالعقل والشرع معا • والتحقيق وجوب معرفة البارى جل شأنه شرعا وقوله ((بالتسديد)) أى التقـــويم

والتوفيق للسداد أى الصواب يعنى بالنظر الصائب فى الوجود والموجود كما مر آنفا • ويجب النظر قبلها لتوقفها عليه فهو أول واجب لغيره •وقال القاضى أول واجب وطاعة اكتساب ارادة النظر المؤدى الى المعرفة فمن تركه مع القدرة عليه لغير عذر اثم ولا اثم على الناظر فى مدة نظره • والنظر والمعرفة اكتساب وقد يوهبان لمن أراد الله هداه ولا يقعان ضرورة ،وقيل بلى وحمل ذلك شيخ الاسلام ابن تيمية على المعرفة النظرية (١) كمعرفة ابليس لا المعرفة الايمانية • وقال : مثبتو النبوات تحصل لهم المعرفة بالله بثبوت النبوة من غير نظر ولا استدلال فى دلائل العقول ، ذكره القاضى أبو يعلى فى (عيون المسائل) وغيره من كتبه • وذكر ابن حمدان فى(نهاية المبتدئين) ان معرفة الله تحصل باكتساب موجب أى أن البداية سبقت بالتوفيق لاصابة الدليل الموصل الى المعرفة واختصاص المريد بمعرفته سبق بفضله ومقارنة عونه بالوصول الى تمام أدلته فتكون المعرفة الحقيقية معرفة الدليل الموصل الى حقيقة معرفة الله تعالى وهو اكتساب موهوب كقصة ابراهيم الخليل عليه السلام فى النظر • والمعرفة تزيد وتنقص كالايمان نص عليه الامام احمد رضى الله عنه فمعرفة التفصيل أزيد من معرفة الجملة

وأول نعم الله تعالى الدينية على المؤمن وأعظمها أن أقدره على ارادة النظر والاستدلال لمعرفته تعالى • وقال خاتمة المحققين العلامة الشيخ عثمان النجدى فى تعليقته فى أصول الدين : أول نعم الله الدينية على عبده ان أقدره على معرفته (٢) •وقال ابن حمدان بعد أن ذكر الاول : وقيل ان هداه للايمان • وأول نعمه الدنيوية الحياة العرية عن ضرر • وقال القاضى : ادراك اللذات ونيل المشتهيات التى لا يتعقبها ضرر لأجلها ، وهو يعم كل حيوان ولكن يقيد المكلف بالشكر وهو اعترافه بنعمة المنعم على جهة الخضوع والاذعان وصرف كل نعمة فى طاعة ، فشكر المنعم واجب شرعا خلافا للمعتزلة فى قولهم بوجوب شكر المنعم عقلا • فيجب على كل مكلف

(١) مخ « الفطرية » •

(٢) بهامش مخ « ما نقله المصنف عن الشيخ عثمان هنا ذكره العلامة عبد الباقى فى عقيدته (العين والاثر) بحروفه » •

شرعا أن يعرف الله تعالى بصفات الكمال ويجزم ((بأنه)) سبحانه وتعالى ((واحد)) لا يتجزأ ولا ينقسم فرد صمد (١) ((لا نظير ، له)) أى لا مثل له ((ولا شبه)) له فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أفعاله ولا شريك له فى ملكه ((ولا وزير)) له تعالى ، والوزير حبا الملك الذى يحمل ثقله ويعينه برأيه ، فلا وزير للبارى جل شأنه يحمل ثقله ويعينه فى تدبير خلقه ولا

---

(١) فى تنبيه ابن سحمان ص ٢٨ ما لفظه :

« اعلم ان قول القائل ويجزم بأنه سبحانه وتعالى واحد لا يتجزأ ولا ينقسم قول مبتدع مخترع لم يقله أحد من السلف رضوان الله عليهم وليس مذكورا فى عقائد أهل السنة والجماعة بل هو من جنس ما يذكره أهل البدع من قولهم ليس بجوهر ولا عرض ولا جسم وليس له أعراض ولا أغراض ولا أبعاض الى غير ذلك مما خالفوا به سلف الامة وأئمتها . قال شيخ الاسلام ابن تيمية قدس الله روحه فى كتابه المسمى بالعقل والنقل الذى قال ابن القيم رحمه الله تعالى فيه : « واذكر كتاب العقل والنقل الذى * ما فى الوجود له نظير ثان) .

قال بعد كلام له: وكثير من أهل الكلام يقول : التوحيد له ثلاث معان وهو : واحد فى ذاته لا قسيم له ولا جزء له ، وواحد فى صفاته لا شبيه له ، وواحد فى أفعاله لا شريك له ، وهذا المعنى الذى تتناوله هذه العبارة فيها ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم وفيها ما يخالف ما جاء به الرسول ـ فذكر كلاما حسنا الى أن قال : فانهم اذا قالوا لا قسيم له ولا جزء له ولا شبيه له فهذا اللفظ وان كان يراد به معنى صحيح فان الله ليس كمثله شيء وهو سبحانه لا يجوز عليه ان يتفرق ولا يفسد ولا يستحيل بل هو أحد صمد والصمد الذى لا جوف له وهو السيد الذى كمل سؤدده فانهم يدرجون فى هذه نفى علوه على خلقه ومباينته لمصنوعاته ونفى ما ينفونه من صفاته ويقولون ان اثبات ذلك يقتضى أن يكون مركبا منقسما وان يكون له شبيه . وأهل العلم يعلمون ان مثل هذا لا يسمى فى لغة العرب التى نزل بها القرآن تركيبا وانقساما ولا تمثيلا ، وهكذا الكلام فى مسمى الجسم والعرض والجوهر والتحيز وحلول الحوادث وأمثال ذلك فان هذه الالفاظ يدخلون فى مسماها الذى ينفونه أمورا مما وصف به نفسه ووصفه به رسوله فيدخلون فيها نفى علمه وقدرته وكلامه ويقولون ان القرآن مخلوق لم يتكلم الله به ، وينفون بها رؤيته لان رؤيته على اصطلاحهم لا تكون الا لمتحيز فى جهة وهو جسم ، ثم يقولون والله منزه عن ذلك فلا تجوز رؤيته، ولذلك يقولون المتكلم لا يكون الا جسما متحيزا والله ليس بجسم متحيز ، فلا يكون متكلما ، ويقولون لو كان فوق العرش لكان جسما متحيزا والله سبحانه وتعالى ليس بجسم متحيز فلا يكون فوق العرش ، وأمثال ذلك الى آخر كلامه وهو فى صفحة ثلاث وثلاثين ومائة . والمقصود ان قول أهل البدع فى الواحد انه الذى لا ينقسم ولا يتجزأ قول مبتدع مخترع لم يقل به أحد من سلف الامة وأئمتها بل هو من كلام من ينتسب الى أهل السنة والجماعة من المتكلمين وغيرهم .

ظهير له في صنعه ولا معين له في ملكه ((صفاته)) سبحانه وتعالى الذاتية والفعلية والخبرية ((كذاته)) عز شأنه ((قديمة)) لا ابتداء لوجـــودها ولا انتهاء اذ لو كانت حادثة لاحتاجت الى محدث تعالت ذاته المقدسة وصفاته المعظمة عن ذلك ، فان حقيقة ذاته مخالفة لسائر الحقائق ، وكذلك صفاته تعالى • قال المحققون ليست حقيقته معلومة الآن في الدنيا للناس وانما يعلم تعالى بصفاته ، وهل يمكن علم حقيقته في الآخرة ؟ قال بعضهم نعم لحصول الرؤية فيها كما سيأتي وبعضهم «لا» والرؤية لا تفيد الحقيقة كما يأتي فمذهب السلف من الفرقة الناجية بين التعطيل وبين التمثيل فلا يمثلون صفات الله تعالى بصفات خلقه كما لا يمثلون ذاته بذوات خلقه ولا ينفون ما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله فيعطلون أسماءه الحسنى ، وصفاته العلى ويحرفون الكلم عن مواضعه ، ويلحدون في أسماء الله تعالى وآياته، وليس في العقل الصريح ولا في النقل الصحيح ما يوجب مخالفة الطريقة السلفية أصلا ، فالنبي المعصوم صلوات الله عليه وسلامه مع كمال علمه وقدرته وارادته وشدة حرصه على هداية أمته وبلاغ نصحه وشفقته عليهم أرشدهم الى هذا السبيل وكذا الصحابة والتابعون لهم باحسان فالسلف في اثبات الصفات كالذات على الاستقامة

طوائف المنحرفين

وأما المنحرفون عن طريقهم فثلاث طوائف أهل التخييل وأهل التأويل وأهل التجهيل فأما (أهل التخييل) وهم المتفلسفة ومن سلك سبيلهم من متكلم ومتصوف فانهم يقولون ان ما ذكره الرسول صلى الله عليه وسلم من أمر الايمان واليوم الآخر انما هو تخييل للحقائق لينتفع به الجمهور لا انه بين به الحق ولا هدى به الخلق ولا أوضح الحقائق • وليس فوق هذا الكفر كفر

(وأهل التأويل) هم الذين يقولون ان النصوص الواردة في الصفات لم يقصد بها الرسول أن يعتقد الناس الباطل ولكن قصد بها معاني ولم يبين لهم ذلك ولا دلهم عليها ولكن أراد أن ينظروا فيعرفوا الحق بعقولهم ثم يجتهدوا في صرف تلك النصوص عن مدلولها ومقصوده امتحانهـــم وتكليفهم واتعاب أذهانهم وعقولهم في أن يصرفوه عن مدلوله ومقتضاه

ويعرفوا الحق فى غيره وسواه • وهذا قول المتكلمة والجهمية والمعتزلة ومن نحا منحاهم • ولا يخفى ما فى ضمن كلام هؤلاء من قصد الاضلال وعدم النصح ومناقضة ما جاء به النبى صلى الله عليه وسلم وما وصفه الله به من الرأفة والرحمة وقد تظاهر هؤلاء بنصر السنة وهم فى الحقيقة لا للاسلام نصروا ولا للفلاسفة كسروا بل فتحوا لأهل الالحاد الباب وسلطوا القرامطة الباطنية من ذوى الفساد على الالحاد فى السنة والكتاب

(وأهل التجهيل) هم الذين يقولون أن الرسول لم يعرف معانى ما أنزل عليه من آيات الصفات ولا جبريل يعرف معانى الآيات ولا السابقون الأولون عرفوا ذلك ، وكذلك قولهم فى أحاديث الصفات وأن الرسول تكلم بكلام لا يعرف معناه ، وهذا قول كثير من المنتسبين الى السنة واتباع السلف فيقولون فى آيات الصفات وأحاديثها لا يعلم معرفتها الا الله ويستدلون بقوله تعالى (وما يعلم تأويله الا الله) ويقولون تجرى على ظاهرها وظاهرها مراد مع قولهم ان لها تأويلا بهذا المعنى لا يعلمه الا الله • قال شيخ الاسلام ابن تيمية فى « الحموية » التأويل الذى لا يعلمه الا الله هو الحقيقة التى يؤول الكلام اليها فتأويل الصفات هو الحقيقة التى انفرد الله تعالى بعلمها وهو الكيف المجهول الذى قال فيه السلف كمالك وغيره : الاستواء معلوم والكيف مجهول : فكيفية الاستواء مثلا هو التأويل الذى لا يعلمه الا الله جل وعلا (تنبيه) اختلف الناس فى اثبات صفات البارى جل شأنه فأثبتها أهل الحق من غير نفى لها ولا لبعضها وهذا مذهب سلف الامة وسائر الأئمة • وأثبت المتكلمون بعضها من الحياة والقدرة والارادة والعلم والكلام والسمع والبصر ويسمونها الصفات الثبوتية والمعنوية وما عداها من صفات الافعال والسلوب ونحوها فحادثة عندهم • وذهبت المعتزلة والفلاسفة وأكثر فرق أهل الضلال الى نفيها كما يأتى تحرير بعض قول أهل الاعتزال ، نعم المعتزلة تثبت له تعالى الأسماء دون الصفات والله أعلم

فصـــل في اسماء الله تعالى

فصل في بحث أسمائه جل وعلا

أعلم أن المعتزلة ومن وافقهم واتبعهم يثبتون لله تعالى الأسماء دون ما تضمنته من الصفات ، فمنهم من جعل العليم والقدير والسميع والبصير كالأعلام المحضة المترادفة ، ومنهم من قال عليم بلا علم قدير بلا قدرة سميع بلا سمع بصير بلا بصر فأثبتوا الاسم دون ما تضمنه من الصفات .قال شيخ الاسلام في رسالته (التدمرية) والكلام على فساد مقالة هؤلاء وبيان تناقضها بصريح المعقول المطابق لصحيح المنقول ، فان هؤلاء يسفسطون في العقليات ، ويقرمطون في السمعيات ، وذلك انه قد علم بضرورة العقل انه لا بد من موجود قديم غني عما سواه ، اذ نحن نشاهد حدوث المحدثات كالحيوان والمعدن والنبات ، والحادث ممكن ليس بواجب ولا ممتنع ، وقد علم بالاضطرار أن المحدث لا بد له من محدث والممكن لا بد له من واجب كما قال تعالى (أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون) فاذا لم يكونوا خلقوا من غير خالق ولا هم الخالقون لأنفسهم تعين أن (لهم-١) خالقا خلقهم ، واذا كان من المعلوم بالضرورة أن في الوجود ما هو قديم واجب بنفسه وما هو محدث ممكن يقبل الوجود والعدم ، فمعلوم أن هذا موجود وهذا موجود ، ولا يلزم من اتفاقهما في مسمى الوجود أن يكون وجود هذا مثل وجود هذا ، بل وجود هذا يخصه ووجود هذا يخصه ، واتفاقهما في اسم عام لا يقتضي تماثلهما في مسمى ذلك الاسم عند الاضافة والتقييد والتخصيص ولا في غيره ، فلا يقول عاقل اذا قيل أن العرش شيء موجود وان البعوض شيء موجود ان هذا مثل هذا لاتفاقهما في مسمى الشيء والوجود ، بل الذهن يأخذ معنى مشتركا كليا هو مسمى الاسم المطلق ، واذا قيل هذا موجود وهذا موجود فوجود كل منهما يخصه لا يشركه فيه غيره مع أن الاسم حقيقة في كل منهما ، ولهذا سمى الله تعالى نفسه بأسماء وسمى صفاته بأسماء وكانت تلك الاسماء مختصة به اذا أضيفت اليه ، لا يشركه فيها غيره ، لأنه سبحانه القديم وأسماؤه قديمة وصفاته قديمة ، فاذا كان المخاطب ممن ينكر الصفات ويقر بالأسماء كالمعتزلي الذي يقول

---

(١) من مخ

الله حى عليم قدير وينكر أن يتصف بالحياة والعلم والقدرة قيل له لا فرق بين اثبات الأسماء وبين اثبات الصفات ، فمن زعم أن اثبات الصفات يقتضى تشبيها أو تجسيما لما يرى فى الشاهد قيل له ولا يرى فى الشاهد ما هو مسمى بحى وعليم وقدير الا ما هو كذلك ، فكل ما احتج به من نفى الصفات يحتج عليه من الأسماء الحسنى ، فما كان جوابا له كان جوابا لمثبتى الصفات . ولما كانت أسماؤه سبحانه ثابتة باتفاق أهل السنة والمعتزلة قال مشيرا لذلك فى النظم بقوله ((أسماؤه)) سبحانه وتعالى ((ثابتة)) بالنص والعقل ((عظيمة)) وصفها بذلك لأنها معظمة موصوفة بأنها حسنى وانها قديمة عند أهل الحق كصفاته الذاتية وكذا الفعلية ، والمراد بأسمائه تعالى ما دل على مجرد ذاته كالله ، أو باعتبار الصفة كالعالم والقادر ، قال الامام المحقق ابن القيم فى كتابه (بدائع الفوائد) أسماء الرب تعالى هى أسماء ونعوت فانها دالة على صفات كماله فلا تنافى فيها بين العلمية والوصفية فالرحمن اسمه تعالى ووصفه لا ينافى اسميته ، فمن حيث هو صفة جرى تابعا على اسم الله ومن حيث هو اسم ورد فى القرآن غير تابع بل ورود الاسم العلم . وأما زعم المعتزلة أن الله كان أزليا بلا اسم ولا صفة فلماأوجد الخلق وضعوا له الأسماء والصفات كما نقله عنهم القرطبى والفاكهانى وغيرهما فهو خطأ فاحش قال السمين هذا القول منهم أشد خطأ من قولهم بخلق القرآن لاشعاره بالاحتياج للغير . وقال ابن حمدان فى (نهاية المبتدئين * فى أصول الدين) أسماء الله تعالى قديمة انتهى .

وقد نص الامام الشافعى أن أسماء الله تعالى غير مخلوقة . وقال سيدنا الامام احمد : من قال أن أسماء الله تعالى مخلوقة فقد كفر . قال ابن حمدان ولا يقال أسماء الله هى المسمى ولا غيره اذ الغير مافارق أو يفارق بزمان أو مكان أو الوجود والعدم ، بل يقال الاسم للمسمى به أو صفة للمسمى وعلم عليه أو دال على المسمى ، وقيل أسماء الفعل غيره ، وأسماء الذات هى المسمى نفسه . قال وقد عظم على الامام احمد الكلام على الاسم والمسمى وأمسك عنه بعضهم وقال لا نعلم ، وقال القاضى الاسم والتسمية والوصف والصفة واحد فتسمية الخلق لله هو المسمى كما نقول فى التلاوة هو المتلو ، وأما

الاسم عين المسمى أو غيره

تسمية الله للخلق فهو غير الاسم لأنهم مخلوقون وكذلك أسماؤهم • وقال القاضي أيضا الاسم غير المسمى • وقال أخيرا الصحيح عندى أن الوصف ليس هو الصفة لأن الوصف حروف والصفة معنى يرجع الى ذات الموصوف وهى هيئة فيه ليست حروفا • قال وأما الاسم والتسمية فهما بمعنى واحد وان التسمية هى الاسم لأن الجميع بحروف فهى كالتلاوة والمتلو لأن الجميع حروف والمسمى هو الذات • انتهى ، وقال ابن بطة لا يقال فى اسم الله انه غيره ولا هو • انتهى كلام ابن حمدان

وقال الامام المحقق ابن القيم فى بدائع الفوائد اللفظ المؤلف من الزاى والياء والدال مثلا له حقيقة متميزة متحصلة فاستحق أن يوضع له لفظ يدل عليه لأنه شىء موجود فى اللسان مسموع بالآذان فاللفظ المؤلف من همزة الوصل والسين والميم عبارة عن اللفظ المؤلف من الزاى والياء والدال مثلا ، واللفظ المؤلف من الزاى والياء والدال عبارة عن الشخص الموجود فى الأعيان والأذهان وهو المسمى والمعنى ، واللفظ الدال عليه هو الاسم ، وهذا اللفظ أيضا قد صار مسمى من حيث كان لفظ الهمزة والسين والميم عبارة عنه ، فقد بان لك أن الاسم فى أصل الوضع ليس هو المسمى ، ولهذا تقول سميت هذا الشخص بهذا الاسم كما تقول حليته بهذه الحلية ، فالحلية غير المحلى فكذلك الاسم غير المسمى ، وقد صرح بذلك سيبويه ، وأخطأ من نسب اليه غير هذا وادعى أن مذهبه اتحادهما • قال فى البدائع وماقال نحوى قط ولا عربى ان الاسم هو المسمى ، ويقولون أجل مسمى ولا يقولون أجل اسم ، ويقولون مسمى هذا الاسم كذا ولا يقول أحد اسم هذا الاسم كذا ، ويقولون بسم الله ولا يقولون بمسمى الله ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لله تسعة وتسعون اسما » ولا يصح أن يقال تسعة وتسعون مسمى ، ونظائره كثيرة جدا

قال ابن القيم فى البدائع واذا ظهر الفرق بين الاسم والمسمى فبقى هنا التسمية وهى (١) اغتر بها من قال باتحاد الاسم والمسمى ، والتسمية عبارة عن جعل المسمى ووضعه الاسم للمسمى • كما أن التحلية عبارة عن فعل

---

(١) مخ « التى »

المحلى ووضعه الحلية على المحلى ، فهنا ثلاث حقائق اسم ومسمى وتسمية كحلية ومحلى وتحلية وعلامة ومعلم وتعليم ، ولا سبيل الى جعل لفظين منها مترادفين على معنى واحد لتباين حقائقها • فاذا جعل الاسم هو المسمى بطل واحد من هذه الحقائق الثلاثة ولا بد • فان قيل ما شبهة من قال باتحادهما؟ فالجواب شبهته أشياء منها ان الله تعالى هو وحده الخالق وما سواه مخلوق فلو كانت أسماؤه غيره لكانت مخلوقة ويلزم أن لا يكون له اسم فى الازل ولا صفة لأن أسماءه صفات ، وهذا أعظم ما قاد متكلمى الاثبات الى القول باتحادهما ، والجواب عن كشف هذه الشبهة ان منشأ الغلط فى هذا الباب من اطلاق ألفاظ مجملة محتملة لمعنيين حق وباطل فلا ينفصل النزاع الا بتفصيل تلك المعانى وتنزيل ألفاظها عليها ، ولا ريب ان الله تعالى لم يزل ولا يزال موصوفا بصفات الكمال المشتقة أسماؤه منها ، فلم يزل بصفاته وأسمائه وهو اله واحد له الأسماء الحسنى والصفات العلى ، وصفاته وأسماؤه داخلة فى مسمى اسمه (١) وان كان لا يطلق على الصفة انها اله يخلق ويرزق فليست صفاته وأسماؤه غيره وليست هى نفس الاله ، وبلاء القوم من لفظة الغير فانها يراد بها معنيين ، أحدهما المغاير لتلك الذات المسماة بالله وكل ماغاير الله مغايرة محضة بهذا الاعتبار فلا يكون الا مخلوقا ، ويراد به مغايرة الصفة للذات اذا جردت عنها فاذا قيل علم الله وكلام الله غيره بمعنى أنه غير الذات المجردة عن العلم والكلام كان المعنى صحيحا ولكن الاطلاق باطل ، فاذا أريد أن العلم والكلام مغاير لحقيقته المختصة التى امتاز بها عن غيره كان باطلا لفظا ومعنى • وبهذا أجاب أهل السنة المعتزلة القائلين بخلق القرآن وقالوا كلامه تعالى داخل فى مسمى اسمه ، فالله تعالى اسم للذات الموصوفة بصفات الكمال ومن تلك الصفات صفة الكلام ، كما أن علمه وقدرته وحياته وسمعه وبصره غير مخلوقة ، واذا كان القرآن كلامه وهو صفة من صفاته فهو متضمن لأسمائه الحسنى فاذا كان القرآن غير مخلوق ولا يقال أنه غير الله فكيف يقال ان بعض ما تضمنه وهو أسماؤه مخلوقة وهى غيره ، فقد حصحص الحق بحمد الله

---

(١) مخ « فى مسمى ذاته » •

وانحسم الاشكال وان أسماءه الحسنى التى فى القرآن من كلامه وكلامه غير مخلوق ولا يقال هو غيره ولا هو هو ، وهذا المذهب مخالف لمذهب المعتزلة الذين يقولون أسماؤه غيره وهى مخلوقة ، ولمذهب من رد عليهم ممن يقول اسمه نفس ذاته لا غيره وبالتفصيل تزول الشبه ويتبين الصواب

احتج من قال بأن الاسم عين الذات بقوله : « تبارك اسم ربك ــ واذكر اسم ربك ــ سبح اسم ربك » ونحو ذلك • والجواب أنها حجة عليهم فى الحقيقة لأن النبى صلى الله عليه وسلم امتثل هذا الامر وقال « سبحان ربى الأعلى » و « سبحان ربى العظيم » ولو كان الأمر كما زعموا لقال سبحان اسم ربى العظيم • ثم ان الامة كلهم لا يجوز أحد منهم أن يقول عبدت اسم ربى ولا سجدت لاسم ربى ولا ركعت لاسم ربى ولا يا اسم ربى ارحمنى ، وهذا يدل أن هذه الأشياء متعلقة بالمسمى لا بالاسم • وأما الجواب عن تعلق الذكر والتسبيح المأمور به بالاسم فقد قيل فيه ان التعظيم والتنزيه اذا وجب للمعظم فقد يعظم ما هو من سببه ومتعلق به ، كما يقال سلام على الحضرة العالية والباب السامى والمجلس الكريم ونحوه ، ولا يخفى أن هذا الجواب غير مرضى لأن الرسول انما قال « سبحان ربى » فلم يعرج على ما ذكرتموه ، ولأنه يلزم مما ذكرتم أن يطلَق على الاسم التكبير والتحميد والتهليل وسائر ما يطلق على المسمى فيقال الحمد لاسم الله ونحوه وهذا مما لم يقله أحد • والجواب الصحيح أن الذكر الحقيقى محله القلب لأنه ضد النسيان ، والتسبيح نوع من الذكر فلو أطلق الذكر والتسبيح لما فهم منه الا ذلك دون اللفظ باللسان ، والله تعالى أراد من عباده الامرين جميعا ولم يقبل الايمان وعقد الاسلام الا باقترانهما واجتماعهما ، فصار معنى الآيتين سبح ربك بقلبك ولسانك واذكر ربك بقلبك ولسانك فأقحم الاسم تنبيها على هذا المعنى حتى لا يخلو الذكر والتسبيح من اللفظ باللسان لأن ذكر القلب متعلقه المسمى المدلول عليه بالاسم دون ما سواه والذكر باللسان متعلقه اللفظ مع مدلوله لأن اللفظ لا يراد لنفسه فلا يتوهم أحد أن اللفظ هو المسبح دون ما يدل عليه من المعنى • قال ابن القيم فى البدائع وعبر لى

شيخنا أبو العباس ابن تيمية قدس الله روحه عن هذا المعنى بعبارة لطيفة وجيزة فقال المعنى سبح ناطقا باسم ربك متكلما به ، وكذا سبح اسم ربك المعنى سبح ربك ذاكرا اسمه • قال وهذه الفائدة تساوى رحلة لكن لمن يعرف قدرها •

واحتجوا أيضا بقوله تعالى (ما تعبدون من دونه الا أسماء) وانما عبدوا مسمياتها • والجواب انهم وان كان عبدوا المسميات ولكن من أجل أنهم نحلوها أسماء باطلة كاللات والعزى وهى مجرد أسماء كاذبة باطلة لا مسمى لها فى الحقيقة فانهم سموها آلهة وعبدوها لاعتقادهم حقيقة الالهية لها وليس لها من الالهية الا مجرد الأسماء لا حقيقة المسمى فما عبدوا الا أسماء لا حقائق لمسمياتها وهذا كمن سمى قشور البصل لحما وأكلها فيقال ما أكلت من اللحم الا اسمه لا مسماه

تنبيهات

تنبيهات الاول مايوصف به الرب أو يخبر به عنه اقسام

الأول ما يجرى صفة أو خبرا على الرب تبارك وتعالى أقسام (أحدها) ما يرجع الى نفس الذات كقولك ذات وموجود وشىء (الثانى) ما يرجع الى صفات معنوية كالعليم والقدير والسميع والبصير (الثالث) ما يرجع الى أفعاله كالخالق والرازق (الرابع) ما يرجع الى التنزيه المحض ولا بد من تضمنه ثبوتا اذ لا كمال فى العدم المحض كالقدوس السلام (الخامس) ما دل على جملة أوصاف عديدة لا تختص بصفة معينة بل هو دال على معان نحو المجيد العظيم الصمد ، فان المجيد من اتصف بصفات متعددة من صفات الكمال ، ولفظه يدل على هذا فانه موضوع للسعة والكثرة والزيادة ومنه قولهم : فى كل شجر نار ، واستمجد المرخ والعفار • وأمجد الناقة علفا ، ومنه (ذو العرش المجيد) لسعة العرش وعظمته • والعظيم من اتصف بصفات كثيرة من صفات الكمال ، وكذلك الصمد (السادس) صفة تحصل من اقتران أحد الاسمين والوصفين بالآخر وذلك قدر زائد على مفرديهما نحو الغنى الحميد ، العفو القدير ، الحميد المجيد ، ونحو ذلك ، فان الغنى من صفات الكمال والحمد كذلك واجتماع الغنى مع الحمد كمال آخر فله ثناء من غناه وثناء من حمده وثناء من اجتماعهما وكذلك نظائرهما

وأما صفات السلب المحض فلا تدخل فى أوصافه تعالى الا أن تكون متضمنة لثبوت كالأحد المتضمن لانفراده بالربوبية والالهية ، والسلام المتضمن لسلامته من كل نقص وبراءته من كل ما يضاد كماله ، وكذلك الاخبار عنه بالسلوب انما هو لتضمنها ثبوتا كقوله تعالى (لا تأخذه سنة ولا نوم) فانه متضمن لكمال حياته وقيوميته ، وكذلك قوله (وما مسنا من لغوب) متضمن لكمال قدرته ، وكذلك قوله (ولا يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الارض ولا فى السماء) متضمن لكمال علمه ، ونظائر ذلك

الثاني مايدخل فى الاخبار أوسع من الاسماء والصفات

الثانى

يجب أن يعلم أن ما يدخل فى باب الاخبار عنه تعالى أوسع مما يدخل فى باب أسمائه وصفاته كالشىء والموجود والقائم بنفسه ، فان هذا يخبر به عنه ولا يدخل فى أسمائه الحسنى وصفاته العلى

الثالث الاسماء الحسنى أعلام وأوصاف

الثالث

أسماؤه الحسنى أعلام وأوصاف فالوصف فيها لا ينافى العلمية وهذا بخلاف أوصاف العباد ، ثم أن الاسم من أسمائه له دلالات ، دلالة على الذات والصفة بالمطابقة ، ودلالة على أحدهما بالتضمن ، ودلالة على الصفة الاخرى باللزوم ولأسمائه الحسنى اعتباران (أحدهما) من حيث الذات (والثانى) من حيث الصفات ، فهى بالاعتبار الاول مترادفة ، وبالاعتبار الثانى متباينة • ولما ذكر أسماءه سبحانه وتعالى وانها ثابتة للذات المقدسة وانها عظيمة قديمة أردف ذلك بقوله :

أسماؤه تعالى توقيفية

((لكنها فى الحق توقيفيه لنا بذا أدلة وفيه))

((لكنها)) أى الأسماء الحسنى **((فى))** القول **((الحق))** المعتمد عند أهل الحق **((توقيفية))** بنص الشرع وورود السمع بها • ومما يجب أن يعلم أن علماء السنة اتفقوا على جواز اطلاق الأسماء الحسنى والصفات العلى على البارى جل وعلا اذا ورد بها الاذن من الشارع ، وعلى امتناعه على ماورد المنع عنه ، واختلفوا حيث لا اذن ولا منع فى جواز اطلاق ما كان تعالى متصفا بمعناه ولم يكن من الأسماء الاعلام الموضوعة من سائر اللغات اذ ليس

جواز اطلاقها عليه تعالى محل نزاع لأحد بشرط أن لا يكون اطلاقها يوهم نقصا بل كان مشعرا بالمدح ، فالجمهور منعوا اطلاق ما لم يأذن به الشارع مطلقا ، وجوزه المعتزلة مطلقا ، ومال اليه بعض الاشاعرة كالقاضي أبى بكر الباقلانى ، وتوقف امام الحرمين الجوينى ، وفصل الغزالى فجوز اطلاق الصفة وهى ما دل على معنى زائد على الذات ومنع اطلاق الاسم وهو ما يدل على نفس الذات ، واحتج للقول المعتمد انها توقيفية بأنه لا يجوز أن يسمى النبى صلى الله عليه وسلم بما ليس من أسمائه ، فالبارى أولى ، وتعلق المعتزلة بأن أهل كل لغة يسمونه سبحانه باسم مختص بلغتهم كقولهم (خداى) وشاع من غير نكير • رد هذا بأنه لو ثبت لكان كافيا فى الاذن الشرعى • والتوقيفى ما ورد به كتاب أو سنة صحيحة أو حسنة أو اجماع لأنه لا يخرج عنهما ، وأما السنة الضعيفة والقياس فلا يثبت بهما لأن المسألة من العلميات فلهذا قال ((لنا)) معشر أهل السنة واتباع السلف ((بذا)) أى باعتبار ثبوت التوقيف فى أسماء البارى جل وعلا من الشارع ((أدلة)) جمع دليل ((وفية)) عالية توفى بالمقصود لأن مالم يثبت عن الشارع لم يكن مأذونا فى اطلاقه عليه والأصل المنع حتى يقوم دليل الاذن فاذا ثبت كان توقيفا • قال الامام المحقق ابن القيم فى كتابه (بدائع الفوائد) مايطلق عليه سبحانه وتعالى فى باب الأسماء والصفات توقيفى ، وما يطلق عليه فى باب الاخبار لا يجب أن يكون توقيفا كالقديم والشىء والموجود والقائم بنفسه ، فهذا فصل الخطاب فى مسألة أسمائه هل هى توقيفية أو يجوز أن يطلق عليه منها بعض ما لم يرد به السمع

تنبيهات

تنبيهات اذا كانت الصفة منقسمة الى كمال ونقص

(أحدها) اذا كانت الصفة منقسمة الى كمال ونقص لم تدخل بمطلقها فى أسمائه تعالى بل يطلق عليه منها كمالها وهذا كالمريد والفاعل والصانع فان هذه الالفاظ لا تدخل فى أسمائه ، ولهذا غلط من سماه بالصانع عند الاطلاق بل هو الفعال لما يريد فان الارادة والفعل والصنع منقسمة ، ولهذا انما أطلق على نفسه من ذلك أكمله فعلا وخبرا ، ثم انه لا يلزم من الاخبار عنه بالفعل مقيدا أن يشتق له منه اسم مطلق كما غلط فيه بعض المتأخرين فجعل من

أسمائه الحسنى - المضل الفاتن الماكر - تعالى عن قوله فان هذه الاسماء لم يطلق عليه سبحانه منها الا أفعال مخصوصة معينة فلا يجـوز أن يسمى بأسمائها المطلقة . وقال السعد فان قيل قد وجدنا من الاوصاف ما يمتنع اطلاقه مع ورود الشرع به كالماكر والمستهزىء والمنزل والمنشىء والحارث والزارع والرامى أى والبانى والآمر والناهى قلنا لا يكفى فى صحة الاجتراء على الاطلاق مجرد وقوعها فى الكتاب والسنة بحسب ما اقتضـاه المقام واتساق الكلام بل يجب أن لا يخلو عن نوع تعظيم ورعاية أدب ، وماقبل هذا أوضح منه وأتم فائدة

الثاني اطلاق الاسم يجيز اطلاق المصدر والفعل

الثـانى

ان الاسم اذا أطلق على الله تعالى جاز أن يشتق منه المصدر والفعل فيخبر به عنه فعلا ومصدرا نحو السميع البصير القدير يطلق عليه منع السمـع والبصر والقدرة ، ويخبر عنه بالافعال من ذلك نحو (قد سمع الله)(فقدرنا فنعم القادرون) هذا ان كان الفعل متعديا فان كان لازما لم يخبر عنه به نحو الحى يطلق الاسم والمصدر دون الفعل فلا يقال حى

الثالث احصاء الاسـماء الحسنى

الثـالث

احصاء أسماء الله الحسنى والعلم بها أصل العلم بكل معلوم فان المعلومات سواه اما أن تكون خلقا له تعالى أو أمرا ، والعلم اما علم بما كونه أو علم بما شرعه ، ومصدر الخلق والامر عن أسمائه الحسنى وهما مرتبطان بها ارتباط المقتضى بمقتضيه ، فالامر كله مصـدره عن أسمائه الحسنى ولهـذا كله حسن لا يخرج عن مصالح العباد والرأفة والرحمة بهم والاحسان اليهم بتكميلهم بما أمرهم به ونهاهم عنه ، فأمره كله مصلحة وحكمة ورحمة ولطف واحسان اذ مصدره أسماؤه الحسنى ، وفعله كله لا يخرج عن العدل والحكمة والمصلحة والرحمة اذ مصدره أسماؤه الحسنى أيضا ، فلا تفاوت فى خلقه ولا عبث ولم يخلق خلقه باطلا ولا سدى ولا عبثا ، فالعلم بأسمائه واحصاؤها أصل لسائر العلوم فمن أحصاها كما ينبغى للمخلوق دخل الجنة

الرابع أسماؤه تعالى كلهـا حسن

الرابـع

أسماؤه كلها حسن ليس فيها اسم الا وهو حسن ، وقد تقدم أن من أسمائه ما يطلق عليه باعتبار الفعل نحو الخالق والرازق والمحيي والمميت ، وهذا يدل على أن أفعاله كلها خيرات محضة لا شر فيها لأنه لو فعل الشر لاشتق له منه اسم ولم تكن أسماؤه كلها حسنى وهذا باطل ، فالشر ليس اليه فكما لا يدخل فى صفاته ولا يلحق ذاته فلا يدخل فى أفعاله ، فالشر لا يضاف اليه فعلا ولا وصفا وانما يدخل فى مفعولاته وفرق بين الفعـل والمفعول فالشر قائم بمفعوله المباين له لا بفعله الذى هو فعله . فتأمل هذا فانه خفى على كثير من المتكلمين وزلت فيه أقدام وضلت فيه أفهام وهدى الله أهل الحق لما اختلفوا فيه باذنه والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم كما حرر ذلك كله فى البدائع

الخامس ترتيب الاسمـاء والدعاء بها

الخامس

اختلف فى مراتب احصاء أسماء الله تعالى التى من أحصاها دخل الجنة وهذا قطب السعادة ومدار النجاة والفلاح ، فقيل أحصى ألفاظها وعددها ، وقيل فهم معانيها ومدلولها ، وقيل دعاؤه بها كما قال تعالى (ولله الاسماء الحسنى فادعوه بها) وهذا على مرتبتين ، احداهما دعاء ثناء وعبادة ، والثانى دعاء طلب ومسألة ، فلا يثنى عليه الا بأسمائه الحسنى وصفاته العلى ولذلك لا يسأل الا بها فلا يقال يا موجود أو ياشيء أو يا ذات اغفر لى وارحمنى بل يسأل فى كل مطلوب باسم يكون مقتضيا لذلك المطلوب فيكون السائل متوسلا اليه بذلك الاسم ، قال فى البدائع وهذه العبارة أولى من عبارة من قال نتخلق بأسماء الله ، فانها ليست بعبارة سديدة وهى منتزعة من قول الفلاسفة : الفلسفة التشبه به على قدر الطاقة . والحاصل ان لهم أربع مراتب أشدها انكارا عبارة الفلاسفة وهى التشبه به تعالى ، ثم يليها عبارة من قال التخلق بأسمائه تعالى ، وأحسن منها عبارة أبى الحـكم بن برجان وهى التعبد ، وأحسن من الجميع الدعاء وهى المطابقة للأمر القـرآنى وبالله التوفيق

السادس
الالحـــاد في
أسمائه تعالى

السادس

الالحاد في أسمائه تعالى المشار اليه في قوله تعالى (ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون) هو العدول بها وبحقائقها ومعانيها عن الحق الثابت لها ، وهو مأخوذ من الميل كما تدل عليه مادة ـ ل ح د ـ تقول العرب التحد فلان الى فلان اذا عدل اليه فالالحاد في أسمائه تعالى أنواع (أحدها) أن تسمى الاصنام بها كتسميتهم اللات من الالهية والعزى من العزيز وتسميتهم الصنم الها وهذا الحاد حقيقة فانهم عدلوا بأسمائه الى أوثانهم وآلهتهم الباطلة (الثانى) تسميته بما لا يليق بجلاله كتسمية النصارى له أبا وتسمية الفلاسفة له موجبا بذاته أو علة فاعلة بالطبع ونحو ذلك (والثالث) وصفه بما يتعالى عنه ويتقدس من النقائص كقول أخبث اليهود أنه فقير ، وقولهم انه استراح بعد أن خلق خلقه ، وقولهم يد الله مغلولة ، وأمثال ذلك مما هو الحاد في أسمائه وصفاته (ورابعها) تعطيل الأسماء عن معانيها وجحد حقائقها كقول الجهمية ومن تبعهم ان أسماءه تعالى ألفاظ مجردة لا تتضمن صفات ولا معانى فيطلقون عليه اسم السميع والبصير والحى والرحيم والمتكلم والمريد ، ويقولون لا حياة له ولا سمع ولا بصر ولا كلام ولا ارادة تقوم به ، وهذا من أعظم الالحاد فيها عقلا ولغة وشرعا وفطرة وهو مقابل لالحاد المشركين (وخامسها) تشبيه صفاته تعالى بصفات خلقه فهو الحاد في مقابلة الحاد المعطلة تعالى الله عن الحادهم علوا كبيرا وبرأ الله أتباع رسوله وورثة نبيه القائمين بسنته عن ذلك كله فلم يصفوه الا بما وصف به نفسه ووصفه به نبيه فأثبتوا له الأسماء والصفات ، ونفوا عنه مشابهة المخلوقات ، فكان اثباتهم بريئا من التمثيل ، وتنزيههم خليا عن التعطيل ، والله يهدى من يشاء الى سواء السبيل • انتهى ملخصا من البدائع والله الموفق

فصـــــل في
صفاته تعـالى
واقســـــام
التوحيد

فصل في بحث صفات مولانا عز وجل

أعلم أن التوحيد ثلاثة أقسام توحيد الربوبية وتوحيد الالهية وتوحيد الصفات فتوحيد الربوبية أن لا خالق ولا رازق ولا محيى

ولا مميت ولا موجد ولا معدم الا الله تعالى ، وتوحيد الالهية افراده تعالى بالعبادة والتأله له والخضوع والذل والحب والافتقار والتوجه اليه تعالى ، وتوحيد الصفات أن يوصف الله تعالى بما وصف به نفسه وبما وصفه به نبيه صلى الله عليه وسلم نفيا وإثباتا فيثبت له ما أثبته لنفسه وينفى عنه ما نفاه عن نفسه . وقد علم أن طريقة سلف الامة وأئمتها اثبات ما أثبته من الصفات من غير تكييف ولا تمثيل ومن غير تحريف ولا تعطيل ، وكذلك ينفون عنه ما نفاه عن نفسه مع ما أثبته من الصفات من غير الحاد فى الاسماء ولا فى الآيات فانه تعالى ذم الملحدين فى أسمائه وآياته فقال (وذروا الذين يلحدون فى أسمائه سيجزون ماكانوا يعملون) وقال تعالى (ان الذين يلحدون فى آياتنا لا يخفون علينا أفمن يلقى فى النار خير أم من يأتى آمنا يوم القيامة اعملوا ما شئتم انه بما تعلمون بصير *) فطريقة سلف الامة وأئمتها اثبات الاسماء والصفات مع نفى مماثلة المخلوقات ، اثبات بلا تمثيل وتنزيه بلا تعطيل كما قال تعالى (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) والله سبحانه وتعالى بعث رسله باثبات مفصل ونفى مجمل ، فاثبتوا له الصفات على وجه التفصيل ونفوا عنه ما لا يصلح له من التشبيه والتعطيل . فالاثبات المفصل من أسمائه وصفاته ما أنزله فى محكم آياته كقوله تعالى (الله لا اله الا هو الحى القيوم) الآية وقوله (قل هو الله أحد) السورة « وهو العليم الحكيم ــ وهو العليم القدير ــ وهو السميع البصير ــ وهو العزيز الحكيم ــ وهو الغفور الرحيم ــ وهو بكل شيء عليم » (الذى خلق السموات والارض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج فى الارض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أين ما كنتم والله بما تعملون بصير) وقوله : « رضى الله عنهم ورضوا عنه ــ اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم * ــ وغضب الله عليه ولعنه ــ وكلم الله موسى تكليما * ــ وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيا * ــ ويوم يناديهم ــ انما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون * ــ ورحمتى وسعت كل شيء » الى أمثال هذه الآيات والأحاديث الثابتة عن النبى صلى الله عليه وسلم فى أسماء الرب سبحانه وتعالى وصفاته فان فى ذلك

من اثبات ذاته وصفاته على وجه التفصيل واثبات وحدانيته بنفى التمثيل ما هدى الله به عباده الى سواء السبيل • فهذه طريقة الرسل صلوات الله عليهم أجمعين ، بخلاف من حاد وزاغ عن سبيلهم من الكفار والمشركين ، ومن ضاهى هؤلاء من الصابئة والمتفلسفة والقرامطة والجهمية والباطنية والملحدين ، فهم على الضد من ذلك ، فيصفون الله سبحانه بالصفات السلبية على وجه التفصيل ، ولا يثبتون له الا وجودا مطلقا لا حقيقة له عند التأمل ، وانما يرجع الى وجود فى الاذهان لا فى الاعيان ، فقولهم يستلزم التعطيل والتمثيل ، فانهم يمثلونه بالممتنعات والمعدومات والجمادات ، ويعطلون الأسماء والصفات تعطيلا يستلزم نفى الذات المقدسة تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا • ولما كانت أسماؤه الحسنى (١) تعالى يقول باثباتها أهل السنة وكذا المعتزلة على ما مر قدم البحث عليها ، ولما كانت صفاته تعالى منها ما اتفق عليه كالصفات السبع ومنها ما اختلف فيه كصفات فعله تعالى ورحمته وغضبه ونحوها بدأ بما اتفق عليه منها وهى السبع صفات الثبوتية

الصفات الثبوتية

((له الحياة والكلام والبصر   سمع ارادة وعلم واقتدر))
((بقدرة تعلقت بممكن   كذا ارادة فع واستبن))
((والعلم والكلام قد تعلقا   بكل شيء يا خليلى مطلقا))
((وسمعه سبحانه كالبصر   بكل مسموع وكل مبصر))
((وان ما جاء مع جبريل   من محكم القرآن والتنزيل))
((كلامه سبحانه قديم (١)   أعيا الورى بالنص يا عليم))

---

(١) مخ « ولما كانت صفاته » •

(١) علق الشيخ عبد الله بابطين على هذا الموضع ما نصه :
قوله ان مذهب السلف ان كلام الله قديم وكذلك القرآن فيه نظر فان مذهب السلف كما هو معروف ان كلام الله مما يتعلق بمشيئته فاذا شاء تكلم ويتكلم متى شاء كيف يشاء بلا كيف وقد ذكر شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله فى كتابه التسعينية ص ١٤٣ ما نصه بالحرف الواحد : الوجه الثاني ان أحدا من السلف والأئمة لم يقل ان القرآن قديم وانه لا يتعلق بمشيئته وقدرته ا هـ وقد ذكر فى غالب ظنى ان أول من قال بالقدم عبد الله بن سعيد بن كلاب ولا ريب ان الادلة تدل على أن الله تعالى يتكلم متى شاء كيف شاء وان القرآن غير قديم ومن ذلك قوله تعالى : (مايأتيهم من ذكر من ربهم محدث) وقوله : (قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى الى الله) فان الاخبار عن سماع المرأة التى تجادل بلفظ الماضى

((وليس في طوق الورى من أصله　　أن يستطيعوا سورة من مثله))

الاولى ما أشار اليها بقوله مما يجب ((له)) سبحانه وتعالى ((الحياة)) وهي صفة ذاتية ثبوتية قديمة أزلية تقتضى صحة العلم والقدرة لاستحالة قيامهما　　**الحياة**

دليل على سبق ذلك للخبر ولا يصح أن يكون قد قال في الازل قد سمع الله قول التى تجادلك مع انها أى المجادلة لم تكن خلقت ويشبه ذلـك قوله تعالى : (واذ غدوت من أهلك تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال) فان الاخبار عن ذلك بلفظ الماضى دليل على سبقه للخبر والادلة على ذلك كثيرة . ومـن المعلوم ان الصفات الكاملة من أعظمها ان الله تعالى لا يزال متكلما متى شاء كيف شاء كما هو المعروف من مذهب السلف ولله الحمد والمنة ولا يلزم من هذا القول أن يكون كلامه مخلوقا فان كلامه صفة من صفاته قد استعاذ به النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله : أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق . والاستعاذة لا تكون بمخلوق والله أعلم .

وفى تنبيه ابن سحمان ص ٢٠ ما لفظه :

فقوله : كلامه سبحانه قديم ، هـو من جنس ما قبله مـن الالفاظ المبتدعة المخترعة التى لم ينطق بها سلف الامة وأئمتها ، والذى عليه أهل السنة والجماعة المخالفون لاهل البدع ان كلام الله سبحانه وتعالى حادث الآحاد قديم النوع ، وأنه يتكلم بمشيئته وقدرته اذا شاء لا يمتنع عليـه شىء أراده وان الله تعالى متصف بالافعال الاختيارية القائمة به فهو سبحانه قد تكلم فى الازل بما شاء ويتكلم فيما لم يزل بقدرته ومشيئته بما أراد وهو الفعال لما يريد « انما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون » وأهل البدع المخالفون للسلف ينفون ذلك ويسمون هذه الافعال الاختيارية القائمة به سبحانه وتعالى حلول الحوادث والله لا يكون محلا للحوادث ويريدون بهذا ان لا يتكلم بقدرته ومشيئته ولا ينزل كل ليلة الى سماء الدنيا ولا يأتى يوم القيامة ولا يجىء ولا يغضب بعد أن كان راضيا ولا يرضى بعد أن كان غضبان ولا يقوم به فعل البتة ولا أمر مجدد بعد أن لم يكن ولا يريد شيئا بعد أن لم يكن مريدا له فلا يقول له « كن » حقيقة ولا استوى على عرشه بعد أن لم يكن مستويا ولا يغضب غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعـده مثله ولا ينادى عباده يوم القيمة بعد أن لم يكن مناديا ولا يقول للمصلى اذا قال « الحمد لله رب العالمين » حمدنى عبدى فاذا قال « الرحمن الرحيم » قال أثنى على عبدى فاذا قال « مالك يوم الدين » قال مجدنى عبدى » فان هذه كلها حوادث وهو منزه عن حلول الحوادث كما تقدم بيان هذا وايضاحه فى كلام ابن القيم رحمه الله وقال فى الكافية الشافية لما ذكر أقوال أهل البدع المخالفين لاهل السنة .

والآخرون أولو الحديث كأحمـد　　ذاك ابن حنبل الرضا الشيبانى
قـد قال ان الله حقـا لم يزل　　متكلما ان شاء ذو احسـان .
جعل الكلام صفات فعـل قائم　　بالذات لم يفقـد مـن الرحمن
وكذاك نص على دوام الفعـل بالا　　حسـان أيضـا فى مكـان ثان
وكذا ابن عباس فراجع قـوله　　لما أجاب مسـائل الـقرآن

بغير الحي ، قال العلماء رحمهم الله تعالى حياة البارى عز وجل مما اتفق عليه العقلاء،نعم الحياة فى حقه لا يجوزأن تكون بمعنى الحياة فى حقنا لأنها فى حقنا قوة تتبع اعتدال النوع وهذا فى حقه تعالى محال فمن ثم اختلف فى معناها فى حقه تعالى فقال أبو الحسين البصرى من المعتزلة حياته صحة العلم والقدرة فمعنى كونه حيا انه يصح أن يعلم ويقدر ، وعند الفلاسفة الحى هو الدراك الفعال ، وقال أهل السنة حياته صفة زائدة على العلم ، والارادة قديمة قائمة بذاته لأجلها يصح أن يعلم ويقدر لا نفس صحة العلم والقدرة، وكذا فسرها جمهور الأئمة من أهل السنة والجماعة ، فهى صفة كمال فى نفسها فاتصف بها جل وعلا فصفة الحياة هى الجامعة لسائر الصفات متقدمة الرتبة عليها فلا يتقدمها الا الوجود ، وهى لا تتعلق بشىء لا موجود ولا معدوم ومثلها الوجود والقدم والبقاء عند من يعدها من الصفات الذاتية ، وضابطها انها كل صفة لا تقتضى أمرا زائدا على قيامها بمحلها ، كما أن ضابط ما يتعلق من الصفات انها كل صفة تقتضى أمرا زائدا على القيام بمحلها فان العلم يقتضى مسلوما والقدرة تقتضى مقدورا الخ (تنبيه) ذكر الامام المحقق ابن القيم فى البدائع أن الصفة متى قامت بموصوف لزمها أمور أربعة أمران لفظيان ، وأمران معنويان ، فاللفظيان ثبوتى وسلبى فالثبوتى أن يشتق للموصوف منها اسم ، والسلبى أن يمتنع الاشتقاق لغيره ، والمعنويان ثبوتى وسلبى فالثبوتى انه يعود حكمها الى الموصوف ويخبر بها عنه ، والسلبى انه لا يعود حكمها الى غيره ولا يكون خبرا عنه • وهذه قاعدة عظيمة فى معرفة الأسماء والصفات كالكلام والعلم ونحوهما

الكلام (الثانية) ما أشار اليها بقوله ((و)) يجب له سبحانه وتعالى ((الكلام)) أى

وكذاك جعفر الامام الصادق ال مقبول عند الخلق ذو العرفان
قد قال لم يزل المهيمن محسنا برا جوادا عند كل أوان

الى آخر كلامه فانه قد أجاد فيه وأفاد فراجعه فيها • وأما ما ذكره فى القول السديد فى الأبيات التى نسبها لشيخ الاسلام قدس الله روحه أن صح النقل بذلك عنه حيث قال :

وأقول فى القرآن ما جاءت به آياته فهو القديم المنزل

فهذا القول ان صح لا ينافى كونه سبحانه يتكلم فيما لم يزل بقدرته ومشيئته كما هو مذهب أهل السنة والجماعة خلافا لاهل الكلام من المبتدعة وغيرهم والله أعلم •

يجب الجزم بأنه تعالى متكلم بكلام قديم ذاتى وجودى غير مخـــلوق ولا محدث ولا حادث (١)لا يشبه كلام الخلق، قال شيخ الاسلام أبو العباس تقى الدين ابن تيمية فى شرح « رسالة الاصفهانى » الامام المتكلم الاشعرى : قد اتفق سلف الامة وأئمتها على أن الله تعالى متكلم بكلام قائم بذاته ، وان كلامه تعالى غير مخلوق ، وأنكروا على الجهمية ومن وافقهم من المعتزلة وغيرهم فى قولهم أن كلامه تعالى مخلوق خلقه فى غيره وانه كلم موسى بكلام خلقه فى الشجرة وكلم جبريل بكلام خلقه فى الهواء ، واتفق أئمة السلف على أن كلام الله منزل غير مخلوق منه بدأ واليه يعود • قال ومعنى قولهم منه بدأ أى هو المتكلم به لم يخلقه فى غيره كما قالت الجهمية ومن وافقهم من المعتزلة وغيرهم بأنه بدأ من بعض المخلوقات وانه سبحانه لم يقم به كلام • قال ولم يرد السلف انه كلام فارق ذاته فان الكلام وغيره من الصفات لا يفارق الموصوف بل صفة المخلوق لا تفارقه وتنتقل الى غيـــره فكيف صفة الخالق تفارقه وتنتقل الى غيره ، ولهذا قال سيدنا الامام احمد كلام الله ليس ببائن من خلقه فى بعض الاجسام • قال شيخ الاسلام ومعنى قول السلف « واليه يعود » ماجاء فى الآثار « ان القرآن يسرى به حتى لا يبقى فى المصاحف منه حرف ولا فى القلوب منه آية » وما جاءت به الآثار عن النبى المختار صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين لهم باحسان وغيرهم من أئمة المسلمين كالحديث الذى رواه الامام احمد فى المسند وكتبه الى المتوكل فى رسالته التى أرسل بها اليه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « ما تقرب العباد الى الله بمثل ما خرج (٢) منه » يعنى القرآن وفى لفظ « بأحب اليه مما خرج منه » وقول أبى بكر الصديق رضى الله عنه لما سمع كلام مسيلمة ــ ان هذا كلام لم يخرج من ال ــ أى من رب ــ وقول ابن عباس رضى الله عنهما لما سمع قائلا يقول لميت لما وضع فى لحده اللهم رب القرآن اغفر له فالتفت اليه ابن عباس رضى الله عنهما فقال ــ مه القرآن كلام الله ليس بمربوب منه بدأ واليه يعود ــ وهذا الكلام معروف عن ابن عباس رضى الله عنهما • وقول السلف : القرآن كلام الله غير

---

(١) راجع التعليقة السابقة •

(٢) مخ « بافضل مما خرج » •

مخلوق منه بدأ واليه يعود كما استفاضت الآثار عنهم بذلك كما هو منقول عنهم فى الكتب المسطورة بالأسانيد المشهورة (قال) شيخ الاسلام فى شرح « الأصفهانية » وهذه الروايات لا يدل شيء منها على أن الكلام يفارق المتكلم وينتقل الى غيره ، وانما تدل على أن الله هو المتكلم بالقرآن ومنه سمع ، لا انه خلقه فى غيره ، كما فسره بذلك الامام احمد رضى الله عنه وغيره من الأئمة ، قال أبو بكر الخلال سئل الامام احمد عن قوله القرآن كلام الله منه خرج واليه يعود فقال الامام احمد : منه خرج هو المتكلم به ، واليه يعود يعنى ما قدمنا • فان قيل هل كلام البارى جل وعلا صفة ذات أو صفة فعل؟ فالجواب مذهب سلف الامة ومحققى الأئمة انه صفة ذات وفعل معا ، فان صفة الكلام لله عز شأنه ثابتة باجماع الانبياء على ذلك فيتكلم اذا شاء ومتى شاء بلا كيف ، فان الكلام صفة كمال لا نقص فيه فالرب أحق أن يتصف بالكلام من كل موصوف بالكلام اذ كل كمال لا نقص فيه يثبت للمخلوق فالخالق أولى به لأن القديم الواجب الخالق أحق بالكمال المطلق من المحدث الممكن المخلوق ، ولأن كل كمال يثبت للمخلوق فانما هو من الخالق وما جاز اتصافه به من الكمال وجب له فانه لو لم يجب له لكان اما ممتنعا وهو محال بخلاف الفرض ، واما ممكنا فيتوقف ثبوته له على غيره ، والرب تعالى لا يحتاج فى ثبوت كماله الى غيره ، فان معطى الكمال أحق بالكمال ، فيلزم أن يكون غيره أكمل منه لو كان غيره معطيا له الكمال ، وهذا محال ، بل هو جل شأنه بنفسه المقدسة مستحق لصفات الكمال ، فلا يتوقف ثبوت كونه متكلما على غيره ، فيجب ثبوت كونه متكلما وان ذلك لم يزل ولا يزاله ، والمتكلم بمشيئته وقدرته أكمل ممن يكون الكلام لازما له بدون قدرته ومشيئته ، والذى لم يزل يتكلم اذا شاء أكمل ممن صار الكلام يمكنه بعد أن لم يكن الكلام ممكنا له ، وحينئذ فكلامه (قديم - ١) مع انه يتكلم بمشيئته وقدرته (وقال ابن كلاب) ومن وافقه كلامه تعالى صفة ذات لازم لذاته كلزوم الحياة ليس هو متعلقا بمشيئته وقدرته بل هو قديم ، كقدم الحياة اذ لو قلنا انه بقدرته ومشيئته لزم أن يكون حادثا فيلزم أن يكون

الاختلاف فى كلام الله تعالى

---

(١) ليس فى مخ •

مخلوقا ، أو قائما بذات الرب فيلزم قيام الحوادث به وذلك يستلزم تسلسل الحوادث لأن القابل للشيء لايخلو عنه وعن ضده ، قالوا وتسلسل الحوادث ممتنع اذ التفريع على هذا الاصل • ثم ان هؤلاء لما قالوا بقدم عين الكلام تنازعوا فقالت طائفة القديم لا يكون حروفا ولا أصواتا لأن الصوت يستحيل بقاؤه كما يستحيل بقاء الحركة وما امتنع بقاؤه امتنع قدم عينه بطريق الاولى والأحرى ، فيمتنع قدم شيء من الاصوات المعينة كما يمتنع قدم شيء من الحركات المعينة ، لأن تلك لا تكون كلاما الا اذا كانت متعاقبة ، والقديم لا يكون مسبوقا بغيره ، فلو كانت الميم من بسم الله قديمة مع كونها مسبوقة بغيرها لكان القديم مسبوقا بغيره ، وهذا ممتنع ، فيلزم أن يكون القديم هو المعنى فقط ، ولا يجوز تعدده لأنه لو تعدد لكان اختصاصه بقدر دون قدر ترجيحا بلا مرجح ، وان كان لا يتناهى لزم وجود أعداد لا نهاية لها فى آن واحد ، قالوا وهذا ممتنع ، فيلزم أن يكون معنى واحدا هو الامر والنهى والخبر وهو معنى التوراة والانجيل والزبور والفرقان • قال شيخ الاسلام ابن تيمية روح الله روحه : وهذا أصل قول الكلابية والاشعرية ومن وافقهم •

وقالت طائفة من أهل الكلام والحديث والفقهاء وغيرهم انه حروف قديمة الاعيان لم تزل ولا تزال وهى مترتبة فى ذاتها لا فى وجودها كالحروف الموجودة (١) فى المصحف وليس بأصوات قديمة • ومنهم من قال بل هو أصوات أيضا قديمة • ولم يفرق هؤلاء بين الحروف المنطوقة التى لاتوجد الا متعاقبة وبين الحروف المكتوبة التى توجد فى آن واحد ، كما يفرق بين الاصوات والمداد ، ويمنع أن يكون الصوت المعين قديما لأن ما وجب قدمه لزم بقاؤه وامتنع عدمه ، والصوت لا يبقى • وأما الحروف المكتوبة فقد يراد بها نفس الشكل القائم بالمداد أو ما يقدر بقدر المداد كالشكل المصنوع فى حجر أو ورق بازالة بعض أجزائه وقد يراد بالحروف نفس المداد • وأما الحروف المنطوقة فقد يراد بها أيضا الاصوات المقطعة المؤلفة ، وقد يراد بها حدود الاصوات وأطرافها كما يراد بالحرف فى الجسم حده

---

(١) مخ « المرتبة » •

ومنتهاه فيقال حرف الرغيف وحرف الجبل ومنه قوله تعالى (ومن الناس من يعبد الله على حرف) وقد يراد بالحروف الحروف الحالية وهو ما يتشكل فى باطن الانسان من الكلام المؤلف المنظوم قبل أن يتكلم به . وقد تنازع الناس هل يمكن وجود حروف بدون أصوات فى الحى الناطق على قولين لهم ، وعلى هذا تنازعت هذه الطائفة القائلة بقدم أعيان الحروف هل تكون قديمة بدون أصوات أم لا بد من أصوات قديمة لم تزل ولا تزال ، ثم القائلون بقدم الأصوات المعينة تنازعوا فى المسموع من القارىء هل يسمع منه الصوت القديم ؟ فقيل المسموع منه هو الصوت القديم ،وقيل بل صوتان (١) أحدهما القديم والآخر المحدث فما لا بد منه فى وجود القرآن فهو القديم ، وما زاد على ذلك فهو المحدث . وقيل بل الصوت القديم غير المسموع من العبد . وهذا كله كلام من لا يعول على كلامه من الفرق المائلة . والذين قالوا ان كلامه تعالى صفة فعل هم الذين يقولون أن القرآن مخلوق وبين الفريقين بون ، الأولون يقولون أن التكليم والنداءليس الا مجرد خلق ادراك المخلوق بحيث يسمع مالم يزل ولا يزال لا أنه يكون هناك كلام يتكلم الله به بمشيئته وقدرته ولا تكليم بل تكليمه عندهم جعل العبد سامعا لما كان موجودا قبل سمعه بمنزلة (٢) جعل الأعمى بصيرا لما كان موجودا قبل رؤيته من غير احداث شىء منفصل عن الأعمى ، فعندهم لما جاء موسى لميقات ربه سمع النداء القديم لا أنه حينئذ نودى ،ولهذا يقولون انه يسمع كلامه لخلقه بدل قول الناس انه يكلم خلقه . وأما الآخرون وهم الخلقية الذين يقولون أن القرآن مخلوق خلقه الله تعالى فى جسم من الأجسام المخلوقة كما هو قول الجهميين الذين قالوا بخلق القرآن من المعتزلة والنجارية والضرارية ولا يخفى أن قوله تعالى « منزل من ربك » مبطل لهذا ولقول من يقول أن القرآن العربى ليس منزلا من الله بل مخلوق اما فى جبريل أو محمد أو الهواء أو ألهمه جبريل فعبر عنه بالقرآن العربى أو ألهمه محمد فعبر عنه بالقرآن العربى أو يكون أخذه جبريل من اللوح المحفوظ أو غيره ، فهذا قول من يقول

---

(١) زاد فى مط « الا ان » وليست فى مغ .
(٢) زاد فى الاصلين « ما » وضرب عليها فى مغ .

أن القرآن العربى ليس هو كلام الله وانما كلامه المعنى القائم بذاته والقرآن العربى خلق ليدل على ذلك المعنى ، وهذا قول الكلابية والأشعرية فى نفس القرآن العربى الذى جاء به جبريل من رب العالمين فبلغه للنبىالامينوأخبرنا الله ورسوله أنه كلام رب العالمين نزل به الروح الأمين . وقالت طائفة بل الكلام لا بد أن يقوم بالمتكلم ويمتنع أن يكون كلامه مخلوقا فى غيره ، والحق جل شأنه متكلم بمشيئته وقدرته فيكون كلامه حادثا كان بعد أن لم يكن ، وهذا قول الكرامية ومن نحا نحوهم ، ثم من هؤلاء من يقول كلامه كله حادث لا محدث ومنهم من يقول هو حادث ومحدث

مذهب السلف فى الكلام

مـــذهب السلف في الكلام

وتحرير مذهب السلف أن الله تعالى متكلم كما مر ، وان كلامه قديم وأن القرآن كلام الله وانه قديم حروفه ومعانيه (١) وقد توعد الله جل شأنه من جعله قول البشر بقوله : (انه فكر وقدر فقتــل كيف قدر ثم قتل كيف قدر ثم نظر ثم عبس وبسر ثم أدبر واســتكبر فقال ان هــذا الا سحر يؤثر ان هذا الا قول البشر سأصليه سقر) ومحمد صلى الله عليه عليه وسلم بشر فمن قال انه قول محمد فقد كفر ، ولا فرق بين أن يقول بشر أو جنى أو ملك فمن جعله قولا لأحد من هؤلاء فقد كفر . وأما قوله تعالى (انه لقول رسول كريم وما هو بقول شاعر) فالمراد أن الرسول بلغه عن مرسله لا أنه قوله من تلقاء نفسه وهو كلام الله الذى أرسله كما قال : (وان أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله) فالذى بلغه الرسول هو كلام الله لا كلامه ولهذا كان النبى صلى الله عليه وسلم يعرض نفسه على الناس فى المواسم ويقول « ألا رجل يحملنى الى قومه لأبلغ كلام ربى فان قريشا قد منعونى أن أبلغ كلام ربى » رواه أبو داود وغيره ، والكلام كلام من قاله مبتدئا به لا كلام من قاله مبلغا مؤديا وموسى عليه السلام سمع كلام الله من الله بلا واسطة والمؤمنون يسمعه بعضهم

---

(١) بهامش مخ « انكر شيخ الاسلام رحمه الله وصف القرآن بالقدم وقال ان هذا لم يقله السلف » وراجع التعليق على قول المتن «كلامه سبحانه قديم » ص ١٣٠ .

من بعض ، فسماع موسى مطلق بلا واسطة وسماع الناس مقيد بواسطة كما قال تعالى (وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي باذنه ما يشاء) ففرق بين التكليم من وراء حجاب كما كلم موسى وكلم نبينا صلى الله عليه وسلم ليلة الاسراء وبين التكليم بواسطة الرسول كما كلم سائر الانبياء بارسال رسول اليهم ، والناس يعلمون أن النبى صلى الله عليه وسلم اذا تكلم بكلام تكلم بحروفه ومعانيه بصوته صلى الله عليه وسلم ، ثم المبلغون عنه يبلغون كلامه بحركاتهم وأصواتهم كماقال صلى الله عليه وسلم « نضر الله امرءا سمع منا حديثا فبلغه كما سمعه » فالمستمع منه يبلغ حديثه كما سمعه لكن بصوت نفسه لا بصوت الرسول ، فالكلام كلام الرسول تكلم به بصوته ، والمبلغ بلغ كلام الرسول بصوت نفسه ، واذا كان هذا معلوما فيمن يبلغ كلام المخلوق فكلام الخالق أولى بذلك ولهذا قال تعالى (فأجره حتى يسمع كلام الله) وقال النبى صلى الله عليه وسلم « زينوا القرآن بأصواتكم » فجعل الكلام كلام البارى وجعل الصوت الذى يقرؤه به العبد صوت القارىء ، وأصوات العباد ليست هى الصوت الذى ينادى الله به ويتكلم به كما نطقت النصوص بذلك ، بل ولا مثله فان الله ليس كمثله شىء لا فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أفعاله فليس علمه كمثل علم المخلوقين ولا قدرته مثل قدرتهم ولا كلامه مثل كلامهم ولا نداؤه مثل ندائهم ولا صوته مثل أصواتهم ، فمن قال عن القرآن الذى يقرؤه المسلمون : ليس هو كلام الله ، أو هو كلام غيره ـ فهو ملحد مبتدع ضال ، ومن قال ان أصوات العباد أو المداد الذى يكتب به القرآن قديم أزلى فهو ملحد مبتدع ضال ، بل هذا القرآن هو كلام الله وهو مثبت فى المصاحف وهو كلام الله مبلغا عنه مسموعا من القراء ليس هو مسموعا منه تعالى فكلام الله قديم (١) وصوت العبد مخلوق

والحاصل ان مذهب الحنابلة كسائر السلف ان الله تعالى يتكلم بحرف وصوت • قال الامام الموفق فى رسالته ـ البرهان فى حقيقة القرآن ـ قال تعالى (انا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا *) وقال (لكن الله يشهد بما

---

(١) تقدم ما فيه ·

أنزل اليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيدا *) وهو هذا الكتاب العربى الذى هو مائة وأربع عشرة سورة أولها الفاتحة وآخرها قل أعوذ برب الناس ، مكتوب فى المصاحف متلو فى المحاريب مسموع بالآذان متلو بالألسن محفوظ فى الصدور ، له أول وآخر وأجزاء وأبعاض ، وهو كلام الله تعالى • وقولهم ان القديم لا يتجزأ ولا يتعدد غير صحيح فان أسماء الله تعالى متعددة قال تعالى (ولله الأسماء الحسنى) وقال النبى صلى الله عليه وسلم « ان لله تسعة وتسعين اسما من أحصاها دخل الجنة » وهى قديمة وقد نص الامام الشافعى ان أسماء الله غير مخلوقة ، وقال الامام احمد من قال أن أسماء الله تعالى مخلوقة فقد كفر • وكذا كتب الله التوراة والانجيل والزبور والفرقان متعددة وهى كلام الله تعالى ، وقد ورد السمع بأن القرآن ذو عدد ، وأقر المسلمون بأنه كلام الله تعالى • وقد عد الاشعرى صفات الله سبع عشرة صفة بين ان منها ما لا يعلم الا بالسمع ، فاذا جاز أن يوصف بصفات متعددة لم يلزم بدخول العدد فى الحروف شىء • قال سيدنا الامام احمد رضى الله عنه : القرآن كيف تصرف فهو غير مخلوق • ولا نرى القول بالحكاية والعبارة • وغلط من قال بهما وجهله فقال : من قال ان القرآن عبارة عن كلام الله فقد غلط وجهل • قال وقوله تعالى (تكليما) يبطل الحكاية ، منه بدأ واليه يعود • قال الامام موفق الدين ابن قدامة واما قولهم ان كلام الله يجب أن لايكون حروفا يشبه كلام الآدميين فالجواب أن الاتفاق فى أصل الحقيقة ليس بتشبيه كما أن اتفاق البصر فى أنه ادراك المبصرات والسمع فى انه ادراك المسموعات والعلم فى أنه ادراك المعلومات ليس بتشبيه كذلك هذا • وأيضا يلزمهم ان نفوا هذه الصفة لكون هذا تشبيها أن ينفوا سائر الصفات من الوجود والحياة والسمع والبصر وغيرها ، وأما قولهم ان الحروف تحتاج الى مخارج وأدوات فالجواب ان احتياجها الى ذلك فى حقنا لا يوجب ذلك فى كلام ربنا تعالى عن ذلك • على أن بعض المخلوقات لم تحتج الى مخارج فى كلامها كالايدى والارجل والجلود التى تتكلم يوم القيامة والحجر الذى سلم على النبى صلى الله عليه وسلم والحصى الذى سبح فى كفه والذراع

المسمومة التى كلمته وقال ابن مسعود ـ كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل واذا قالوا أن الله تعالى يحتاج كحاجتنا قياسا علينا فهـــو عين التشبيه الذى يفرون منه • وقولهم ان التعاقب يدخل فى الحروف قلنا انما كان ذلك فى حق من ينطق بالمخارج والادوات والله سبحانه لا يوصف بذلك • قال الحافظ أبو نصر انما يتعين التعاقب فى من يتكلم بأداة بعجز عن أداء شىء الا بعد الفراغ من غيره وأما المتكلم بلا جارحة فلا يلزم فى كلامه التعاقب ، وقد اتفقت العلماء على ان الله سبحانه وتعالى يتولى الحساب بين خلقه يوم القيامة فى حالة واحدة ، وعند كل واحد منهم أن المخاطب فى الحال هو وحده وهذا خلاف التعاقب • قال الامام الموفق فى قوله تعالى « وكلم الله موسى تكليما * وكلمه ربه » وقال تعالى (وناديناه من جانب الطور الايمن):وقال تعالى (اذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى):أجمعنا على أن موسى عليه الصلاة والسلام سمع كلام الله تعالى من الله لا من شجرة ولا من حجر ولا من غيره لأنه لو سمع من غير الله تعالى لكان بنو اسرائيل أفضل فى ذلك منه لأنهم سمعوا من أفضل ممن سمع منه موسى لكونهم سمعوا من موسى عليه السلام وهو على زعمهم انما سمع من الشجرة • ثم يقال لهم لم سمى موسى كليم الله ؟ واذا ثبت أن موسى، عليه السلام ، انما سمع من الله عز وجل لم يجز أن يكون الكلام الذى سمعه الا صوتا وحرفا فانه لو كان معنى فى النفس وفكرة وروية لم يكن ذلك تكليما لموسى ولا هو شىء يسمع ،والفكر لا يسمى مناداة فان قالوا نحن لا نسميه صوتا مع كونه مسموعا • قلنا هذا مخالفة فى اللفظ مع الموافقة فى المعنى ، فانه لا يعنى بالصوت الا ما كان مسموعا • ثم ان لفظ الصوت قد صحت به الاخبار ، قال الحافظ ابن حجر فى شرح البخارى ومن نفى الصوت يلزمه أن الله تعالى لم يسمع أحدا من ملائكته ولا رسله كلامه بل ألهمهم اياه الهاما • قال وحاصل الاحتجاج للنفى الرجوع الى القياس على أصوات المخلوقين لأنها التى عهدت ذات مخارج ولا يخفى ما فيه اذ الصوت قد يكون من غير مخارج كما أن الرؤية قد تكون من غير اتصال أشعة ولئن سلم فليمنع القياس المذكور لأن صفة الخالق لا تقاس على صفة المخلوقين ، وحيث ثبت ذكر الصوت بهذه الاحاديث

تكلم الله تعالى بصوت

الصحيحة وجب الايمان به ، ثم اما التفويض واما التأويل • وقال ابن حجر أيضا فى موضع آخر من شرح البخارى : قوله صلى الله عليه وسلم « ثم يناديهم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب » حمله بعض الأئمة على مجاز الحذف أى يأمر من ينادى فاستبعده بعض من أثبت الصوت بأن فى قوله يسمعه من بعد اشارة الى أنه ليس من المخلوقات لأنه لم يعهد مثل هذا فيهم ، وبأن الملائكة اذا سمعوه صعقوا واذا سمع بعضهم بعضا لم يصعقوا • قال فعلى هذا فصوته صفة من صفات ذاته لا يشبه صوت غيره ، اذ ليس يوجد شيء من صفاته فى صفات المخلوقين • قال وهكذا قرره المصنف يعنى الامام البخارى فى كتاب خلق أفعال العباد • انتهى

ومن الاحاديث فى اثبات الصوت ما روى جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال خرجت الى الشام الى عبد الله بن أنيس الانصارى رضى الله عنه فقال عبد الله بن أنيس سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : يحشر الله العباد ـ أو قال ـ الناس ـ وأومأ بيده الى الشام ـ حفاة عراة غرلا بهما » قال قلت ما بهما ؟ قال ليس معهم شيء « فيناديهم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب : أنا الملك أنا الديان لا ينبغى لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة وأحد من أهل النار يطلبه بمظلمة حتى اللطمة ، ولا ينبغى لأحد من أهل النار أن يدخل النار وأحد من أهل الجنة يطلبه بمظلمة حتى اللطمة » قلنا كيف وانما نأتى الله حفاة عراة غرلا ؟ قال « بالحسنات والسيئات » أخرج أصله البخارى فى صحيحه تعليقا مستشهدا به الى قوله: أنا الملك أنا الديان • وأخرجه الامام احمد وأبو يعلى الموصلى والطبرانى ، وأخرجه الحافظ ضياء الدين المقدسى بسنده الى جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال بلغنى أن للنبى صلى الله عليه وسلم حديثا فى القصاص وكان صاحب الحديث بمصر فاشتريت بعيرا فشددت عليه رحلا وسرت حتى وردت مصر فمضيت الى باب الرجل الذى بلغنى عنه الحديث فقرعت بابه فخرج الى مملوكه فنظر فى وجهى ولم يكلمنى ، فدخل الى سيده فقال اعرابى ، فقال سله من أنت ؟ فقال : جابر بن عبد الله الانصارى •فخرج الى مولاه فلما تراءينا اعتنق أحدنا صاحبه فقال يا جابر ما جئت تعرف ؟ فقلت

حديث بلغنى عن النبى صلى الله عليه وسلم فى القصاص ولا أظن أن أحدا ممن مضى وممن بقى أحفظ له منك . قال نعم ياجابر سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ان الله تبارك وتعالى يبعثكم يوم القيامة من قبوركم حفاة عراة غرلا بهما ثم ينادى بصوت رفيع غير قطيع يسمعه من بعد كمن قرب : أنا الديان لا تظالم اليوم أما وعزتى لا يجاورنى اليوم ظالم ولو لطمة بكف أو يد على يد . ألا وان أشد ما أتخوف على أمتى من بعدى عمل قوم لوط فلترتقب أمتى العذاب اذا تكافأ النساء بالنساء والرجال بالرجال ». وقد رواه عبد الحق الاشبيلى من طريق الحارث بن أبى أسامة ومن مسنده نقله،وخرجه على بن معبدالبغوى المالكى وغيره وفيه ـ فابتعت بعيرافشددت عليه رحلى ثم سرت اليه فسرت شهرا حتى قدمت الشام فاذا عبد الله بن أنيس الانصارى فأتيت منزله فأرسلت اليه أن جابرا على الباب فرجع الرســـول الى فقال جابر بن عبد الله ؟ قلت نعم ، فرجع اليه فخرج فاعتنقته فقلت : حديث بلغنى انك سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المظالم لم أسمعه . قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « يحشر الله العباد ـ أو قال الناس ـ الحديث . وفى حديث ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ان الله اذا تكلم بالوحى سمع أهل السماء صلصلة كجر السلسلة على الصفا فيصعقون فلا يزالون كذلك حتى يأتيهم جبريل عليه السلام فاذا جاءهم جبريل فزع عن قلوبهم فيقولون يا جبريل ماذا قال ربك ؟ قال يقول الحق : فينادون : الحق الحق » أخرجه أبو داود ورجاله ثقات ونحوه من حديث أبى هريرة رواه البخـــارى وأبو داود والترمذى وابن ماجه وكذا رواه الامام احمـــد وابنه عبد الله وقال سألت أبى فقلت يا أبى الجهمية يزعمون أن الله لا يتكلم بصوت ، فقال كذبوا انما يدورون على التعطيل . ثم روى الامام احمد رضى الله عنه بسنده الى عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال « اذا تكلم الله بالوحى سمع صوته أهل السماء » قال السجزى وما فى رواة هذا الخـــبر الا امام مقبول . انتهى . وتتمة الخبر : « فيخرون سجدا حتى اذا فزع عن قلوبهم ـ أو قال سكن عن قلوبهم ـ قال أهل السماء ماذا قال ربكم قالوا الحق قال كذا

وكذا • قال القاضى أبو الحسين وغيره : ومثل هذا لا يقوله ابن مسعود رضى الله عنه الا توقيفا لانه اثبات صفة للذات • انتهى • وقد روى فى اثبات الحرف والصوت أحاديث تزيد على أربعين حديثا بعضها صحاح وبعضها حسان ويحتج بها أخرجها الامام الحافظ ضياء الدين المقـــدسى وغيره • وأخرج سيدنا الامام احمد غالبها واحتج به ، وأخرج الحافظ ابن حجر غالبها أيضا فى شرح البخارى ، واحتج بها البخارى وغيره من أئمةالحديث على أن الحق جل شأنه يتكلم بحرف وصوت ، وقد صححوا هذا الاصل واعتقدوه واعتمدوا على ذلك منزهين الله تعالى عما لا يليق بجلاله من شبهات الحدوث وسمات النقص كما قالوا فى سائر الصفات ، فاذا رأينا أحدا من الناس مما لا يقدر عشر معشار هؤلاء يقول لم يصح عن النبى صلى اللهعليه وسلم حديث واحد أنه تكلم بحرف وصوت ورأيت هؤلاء الأئمة قد دونوا هذه الاخبار وعملوا بها ودانوا الله سبحانه وتعالى بها وصرحوا بأن الله تعالى تكلم بحرف وصوت لا يشبهان صوت مخلوق ولا حرفه بوجه البتة معتمدين على ما صح عندهم عن صاحب الشريعة المعصوم فى أقواله وأفعاله الذى لا ينطق عن الهوى ان هو الا وحى يوحى مع اعتقادهم الجازم الذى لا يعتريه شك ولا وهم ولا خيال نفى التشبيه والتمثيل والتحريف والتعطيل بل يقولون فى صفة الكلام كما يقولون فى سائر الصفات اثبات بلا تمثيل وتنزيه بلا تعطيل كما عليه سلف الامة وفحول الأئمة فهو حق اليقين بلا محال وهل بعد الحق الا الضلال

(تنبيه) ممن ذهب الى مذهب السلف والحنابلة من قدم كلامه تعالى وانه بحرف وصوت من متأخرى محققى الاشاعرة صاحب المواقف وان رد عليه جمع منهم من متحذلق ومجازف وسيأتى لذلك تتمة عند ذكر القـــرآن الكريم والفرقان القديم وبالله التوفيق •(الصفة الثالثةوالرابعة)ماأشاراليهما بقوله ((و)) يجب له سبحانه وتعالى ((البصر)) وهو صفة قديمة قائمة بذاته تعالى تتعلق بالمبصرات فيدرك بها ادراكا تماما لا على سبيل التخييل والتوهم ولا على طريق تأثر حاسة كما يأتى الكلام على ذلك مع السمع قريبا((سمع)) باسقاط حرف العطف أى ويجب له سبحانه وتعالى سمع قال العلامة ابن

هشام فى حذف حرف العطف : بابه الشعر كقول الحطيئة

ان امرءا رهطه فى الشام منزله   برمل يبرين جارشـد ما اغتربا

أى ومنزله • والسمع صفة قديمة تتعلق بالمسموعات • واثبات هاتين الصفتين أعنى السمع والبصر للدلائل السمعية وهما صفتان زائدتان على الذات عند أهل السنة كسائر الصفات لظواهر الآيات والاحاديث ،وليسا راجعين الى العلم بالمسموعات والمبصرات خلافا للفلاسفة ومن وافقهم وللامام أبى الحسن الاشعرى فى قوله انهما راجعان الى العلم بالمسموع والمبصر لكن المشهور من مذهب الاشاعرة كسائر أهل السنة ان كلا من السمع والبصر صفة مغايرة للعلم ، ونقل صاحب المواقف أن الجمهور خالفوا أبا الحسن الاشعرى فى قوله انهما راجعان الى العلم ، قال فانا اذا علمنا شيئا كاللون مثلا علما تاما ثم رأيناه فانا نجد بين الحالتين فرقا ضروريا ونعلم أن الحالة الثانية مخالفة للحالة الاولى بلا شبهة ولو كان الابصار علمابالمبصر لم يكن هناك فرق ، وهكذا نجد الفرق بين العلم بهذا الصوت وسماعه ، وبين العلم بهذا الطعم وذوقه ، وبين العلم بهذه الرائحة وشمها وظواهر الكتاب والسنة تدل على المغايرة بين العلم والسمع والبصر ففى البخارى فى (باب وكان الله سميعا بصيرا) عن عائشة رضى الله عنها قالت : الحمد لله الذى وسع سمعه الاصوات • وعن أبى موسى الاشعرى رضى الله عنه قال كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سفر فكنا اذا علونا كبرنا فقال « اربعوا على أنفسكم فانكم لا تدعون أصم ولا غائبا انما تدعون سميعا بصيرا قريبا » الحديث • وقال الامام الحافظ البيهقى فى كتابه الاسماء والصفات: السميع من له سمع يدرك به المسموعات ، والبصير من له بصر يدرك به المرئيات ، والكل منهما فى حق البارى صفة قائمة بذاته تعالى ، وقد أفادت الآية والاحاديث الرد على من زعم انه سميع بصير بمعنى عليم • وأخرج أبو داود بسند قوى على شرط مسلم من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ قوله تعالى : (ان الله يأمركم أن تؤدوا الامانات الى أهلها ـ الى قوله ـ ان الله كان سميعابصيرا): ويضع أصبعيه ـ قال أبو يونس وضع أبو هريرة ابهامه علىأذنه والتى تليها

على عينه • قال البيهقى وأراد بهذه الاشارة تحقيق اثبات السمع والبصر لله لبيان محلهما من الانسان يريد أن له سمعا وبصرا لا أن المراد به العلم فانه لو كان كذلك لاشار الى القلب لانه محل العلم • ولم يرد بذلك الجارحة فان الله تعالى منزه عن مشابهة المخلوقين • ولا يلزم من قدم السمع والبصر قدم المسموعات والمبصرات كما لا يلزم من قدم العلم والقدرة قدم المعلومات والمقدورات لأنها صفات قديمة تحدث لها تعلقات بالحوادث

الصفة الخامسة الارادة

(الصفة الخامسة) ما أشار اليها بقوله ((ارادة)) باسقاط حرف العطف على ما مر أى ويجب له تعالى صفة الارادة ويرادفها المشيئة (١) وهما عبارتان عن صفة فى الحى توجب تخصيص أحد المقدورين فى أحد الاوقات بالوقوع مع استواء نسبة القدرة الى الكل ، قال علماء الكلام نسبة الضدين الى القدرة سواء اذ كما يمكن أن يقع بقدرته تعالى أحد الضدين يمكن أن يقع به الضد الآخر ، ونسبة كل منهما الى الاوقات سواء اذ كما يمكن أن يقع فى وقته الذى وقع فيه يمكن أن يقع قبله أو بعده ، فلا بد من مخصص يرجح أحدهما على الآخر ويعين له وقتا دون سائر الاوقات ، وهذا المخصص هو الارادة وهى واحدة قديمة أزلية باقية اذ لو كانت حادثة لزم كونه محلا للحوادث ، وأيضا لا حاجة الى ارادة أخرى وهى شاملة لجميع الكائنات لأنه تعالى موجد لكل ما يوجد من الممكنات ولأنه تعالى فاعل بالاختيار فيكون مريدا لها لان الايجاد بالاختيار يستلزم ارادة الفاعل • ويأتى تتمة لكلام عند ذكر متعلق القدرة والارادة ان شاء الله تعالى :

الصفة السادسة العلم

(الصفة السادسة) ما أشار اليها بقوله ((و)) يجب له عز وجل ((علم)) أى يجب الجزم بأنه تعالى عالم بعلم واحد وجودى قديم باق ذاتى ينكشف به المعلومات عند تعلقه بها ، وانما قلنا بأن علمه ذاتى كسائر صفاته تعالى للرد على الحكماء القائلين بنفى الصفات واثبات غاياتها ، وللرد على المعتزلة

---

(١) فى تعليق عن الشيخ عبد الله بابطين ما نصه « هذا ليس على عمومه فان الارادة عند أهل السنة تنقسم الى قسمين ارادة كونية وهى التى ترادفها المشيئة وهى كالتى فى قوله تعالى : (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام) الآية • والقسم الثانى ارادة شرعية وهذه يرادفها المحبة وهى كالتى فى قوله تعالى (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) والله أعلم

القائلين بأنه يعلم بالذات لا بصفة زائدة عليها ، والدليل على أن صفاته زائدة على ذاته ورود النصوص بأنه تعالى عالم وحى وقادر ونحوها ، وكونه عالما يعلل بقيام العلم به فى الشاهد فكذلك فى الغائب وقس عليه سائر الصفات ، وأيضا فالعالم من قام به العلم والقادر من قامت به القدرة • فان قيل قياس الغائب على الشاهد فقهى ، فالجواب انه ليس كذلك بل هو قياس فى الجملة قال شيخ الاسلام ابن تيمية فى شرح العقيدة الاصفهانية عن الامام الرازى فى كتابه نهاية العقول قال نفاة الصفات ان ذات الله لو كانت موصوفة بصفات قائمة بها لكانت الحقيقة الالهية مركبة من تلك الذات ومن تلك الصفات ولو كانت كذلك لكانت ممكنة لأن كل حقيقة مركبة فهى محتاجة الى أجزائها وكل واحد من أجزائها غيرها فان كل حقيقة مركبة فهى محتاجة الى غيرها وذلك فى حق الله تعالى محال فاذن يستحيل اتصاف ذاته بالصفات • وقال الرازى فى الجواب عن هذا قوله يلزم من اثبات الصفات وقوع الكثرة فى الحقيقة الالهية فتكون تلك الحقيقة ممكنة ، قلنا ان عنيتم به احتياج تلك الحقيقة الى خارجى فلا يلزم لاحتمال استناد تلك الصفات الى الذات الواجبة لذاتها ، وان عنيتم توقف الصفات فى ثبوتها على الذات المخصوصة فذلك مما نلتزمه فأين المحال ؟ وأيضا فعندكم الاضافات صفات وجودية فى الخارج فيلزمكم ما ألزمتمونا • ثم قال الرازى ومما يبين فساد قول الفلاسفة فى قولهم الشىء الواحد لا يكون مؤثرا وقابلا انهم اتفقوا على أن الله عالم بالكليات • واتفقوا على أن العلم بالشيىء عبارة عن حصول صورة مساوية للمعلوم فى العالم ، واتفقوا على أن صور المعلومات مودعة فى ذات البارى تعالى حتى ان ابن سينا قال ان تلك الصورة اذا كانت داخلة فى الذات بل كانت من لوازم الذات لم يلزم منها محال ، واذا كان كذلك فذاته مؤثرة فى تلك الصور وقابلة لها ومن كان ذلك مذهبا له كيف يمكنه انكار الصفات • قال وبالجملة فلا فرق بين الصفاتية وبين الفلاسفة الا أن الصفاتية يقولون الصفات قائمة بالذات والفلاسفة يقولون هذه الصور العقلية عوارض مقومة بالذات • فالذى يسميه الصفاتية صفة يسميه الفلسفى عارضا والذى يسميه الصفاتى قياما يسميه الفلسفى

قواما أو مقوما ، فلا فرق الا فى العبارة • وقد عارضه شيخ الاسلام فى بعض مقالته وغض من بعض أدلته فمما اعترض عليه ما ذكره من اتفاق الفلاسفة على أن الله تعالى عالم بالكليات قال هو اتفاق ابن سينا وأمثاله بخلاف ارسطو وأتباعه • وكذلك ما ذكره من قولهم باثبات صور المعلومات لذاته وانها عارضة لذاته وهو قول ابن سينا وموافقيه صرح بذلك فى الاشارات وهو مما اعترف الفلاسفة بتناقض ابن سينا وأمثاله بذلك فى مسئلة توحيدهم ونفى الصفات حيث قالوا بنفى الصفات الثبوتية مطلقا ثم قالوا باثبات صور وجودية علمية قائمة بذاته وهو تصريح باثبات الامور الوجودية القائمة بذاته • ثم ان شيخ الاسلام بعد ما أفسد كلام الفلاسفة وبرهن على افساده قال : ثم ان نظار المسلمين ردوا عليهم أما الصفاتية فانهم يلتزمون اثبات الصفات وأما المعتزلة وان نفوا الصفات فانهم يعترفون بما يستلزم اثباتها فانهم يثبتون كونه حيا عالما قادرا وهذا بعينه يستلزم اثبات الصفات • قال شيخ الاسلام ابن تيمية : منشأ الضلال فى هذا الموضع ان مسمى واجب الوجود عبروا به عن عدة معان أحدها الذى يكون موجودا بنفسه لا يفتقر الى مبدع وهذا هو الذى يدل عليه وجود الممكنات ، والثانى الذى لا يكون له تعلق بغيره ولا ملازمة بينه وبين غيره ونفى الصفات انما يكون على هذا التفسير لا على المعنى الاول • ثم بعد كلام كثير لابن تيمية روح الله روحه يرد به على الفلاسفة والمعتزلة وأضرابهم قال : ومن المعلوم لكل من عرف ما جاءت به الرسل فان التوحيد الذى أرسل الله به رسله وأنزل به كتبه لم يتضمن نفى صفات الله بل الكتب الالهية مملوءة باثبات صفات الله تعالى : قال وكذلك العقل الصريح هو موافق لما جاءت به الكتب الالهية من اثبات صفات الكمال لله تعالى ، وقول هؤلاء بامتناع اثبات واجبين أو الهين قديمين لفظ فيه اجمال وابهام فان أريد بذلك نفى الهين واجبين أو الهين قديمين فهذا حق لا ينازع فيه مسلم ، وكذلك أن عنوا نفى موجودين قائمين بأنفسهما واجبين أو قديمين فهذا حق ، فهم وان كان هذا بعض مرادهم فلم يقتصروا عليه بل أرادوا نفى صفات الله الواجبة القديمة كعلمه وقدرته وحينئذ فنفى واجبين قديمين بهذا الاعتبار باطل ، وهم قد يقولون

لو كانت الصفة ثابتة لكانت مشاركة فى أخص صفاته فتكون الصفة الها ويدعون أن من أثبت الصفات فقد قال قول النصارى كما حكاه سيدنا الامام احمد وغيره من أئمة السنة عنهم وهو موجود فى كلامهم وهذا باطل، ومن المعلوم أن صفة الموصوف المحدث الممكن اذا وافقته فى كونها محدثة ممكنة لم يلزم أن تكون مماثلة له فليست صفة النبى نبيا ولا صفة الانسان انسانا فكيف يجب أن تكون صفة الاله الهابل هو سبحانه اله واحد مختص بما لا يماثله فيه غيره من صفات الكمال منزه عن صفات النقص مطلقا وعن أن يكون له كفء فى شيء من صفات الكمال • قال شيخ الاسلام ومعرفة هذا من أهم الامور فان نفاة الصفات أدخلوا ذلك فى مسمى التوحيد وجعلوا هذا من مسمى التوحيد فلبسوا بذلك على كثير من الناس اذ كان مسمى التوحيد فى غاية العظمة عند أهل الملل فاذا ظن من لم يعرف حقائق الامور ان ما ذكروه من النفى المستلزم للتعطيل هو من التوحيد الذى بعث الله به الرسول انقلب دين الاسلام فى نفسه فجعل ما هو داخل فى التعطيل الذى ذم الله به فرعون وغيره من الكافرين هو من التوحيد الذى بعث الله به المرسلين • ولهذا كان علماء الحديث يصنفون الكتب فى التوحيد يذكرون اثبات ما أثبته الله ورسوله من الاسماء والصفات مناقضة لهؤلاء النفاة فان منفى الصفات لم يكن الا معدوما فان اثبات ذات بلا صفات أو وجود مطلق لا يتعين انما يتحقق فى الاذهان لا فى الاعيان فمن لم يثبت لله الصفات لم يحقق عبادته له فلهذا وغيره كان الشرك بعبادة غير الله واقعا فى نفاة الصفات

أدلة عقلية على ثبوت العلم لله سبحانه

(تنبيه) ذكر شيخ الاسلام ابن تيمية وغيره من علماء الكلام أدلة عقلية على اثبات صفة العلم لله تعالى منها ايجاده سبحانه وتعالى الاشياء لاستحالة ايجاده الاشياء مع الجهل ، قال شيخ الاسلام هذا الدليل مشهور عند نظار المسلمين أولهم وآخرهم والقرآن قد دل عليه كما فى قوله تعالى (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) قال والفلاسفة أيضا سلكوه ، وبيانه من وجوه (أحدها) ان ايجاده الأشياء هو بارادته والارادة تستلزم تصور المراد وهو العلم فكان الايجاد مستلزما للارادة والارادة مستلزمة للعلم فالايجاد

مستلزم للعلم (الثانى) ان المخلوقات فيها من الاحكام والاتقان مايستلزم علم الفاعل بها لأن الفعل المحكم المتقن يمتنع صدوره عن غير عالم • قال وبهذين الطريقين يتقرر ما ذكره ـ أى الاصفهانى فى عقيدته • قال شيخ الاسلام ولهم طرق أخرى منها أن من المخلوقات ما هو عالم والعلم صفة كمال ويمتنع أن يكون المخلوق أكمل من الخالق اذ كل كمال فيه فهو منه فيجب أن يكون الخالق عالما • قال وهذا له طريقان احداهما أن يقال يعلم بالضرورة أن الخالق أكمل من المخلوق وان الواجب أكمل من الممكن، ويعلم بالضرورة انا اذا فرضنا شيئين أحدهما عالم والآخر غير عالم كان العالم أكمل فلو لم يكن الواجب عالما لزم أن يكون الممكن أكمل منه وهو ممتنع • الثانى أن يقال كل علم فى الممكنات التى هى المخلوقات فهو منه ، ومن الممتنع أن يكون فاعل الكمال ومبدعه عاريا منه بل هو أحق به والله سبحانه له المثل الأعلى لا يستوى هو والمخلوق فى قياس شمول ولا فى قياس تمثيل بل كلما ثبت لمخلوق من كمال فالخالق تعالى أحق به ، وكل نقص تنزه عنه مخلوق ما فتنزيه الخالق عنه أولى • وقال شيخ الاسلام فى موضع آخر : ولهذا كان المستعمل فى الكتاب والسنة وكلام السلف فى حقه تعالى هو القياس الاولى مثل أن يعلم أن ماثبت لغيره من كمال مطلق لا نقص فيه فهو أحق بأن يثبت له من ذلك الكمال ما هو أحق به مما سواه فاذا كان الحياة والعلم والقدرة كمالا لا نقص فيه وقد اتصف به المخلوق فالخالق تعالى أحق أن يتصف بالحياة والعلم والقدرة • وما ينزه عنه غيره من العيوب فهو سبحانه أحق بتنزيهه عنه كما فى قوله تعالى (ولله المثل الاعلى) انتهى ملخصا • ودليل ثبوت صفة العلم لله تعالى سمعا من الكتاب والسنة كثير جدا كقوله تعالى « عالم الغيب والشهادة ـ لكن الله يشهد بما أنزل اليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون ـ اليه يرد علم الساعة ـ ولا يحيطو نبشىء من علمه ـ يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور» ومالايحصى من الآيات الا بكلفة ، وفى حديث أبى هريرة أنه صلى الله عليه وسلم قال: سبق علم الله فى خلقه فهم صائرون اليه • وفى حديث ابن عمر رضى الله عنهما : مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن الا الله • الى غير ذلك من الآيات

والاخبار والله ولى الاسرار

الصفة السابعة القدرة

(السابعة) ما أشار اليها بقوله ((واقتدر)) جل شأنه على ايجاد الموجودات وخلق الممكنات ((بقدرة)) وهى صفة أزلية تؤثر فى المقدورات عند تعلقها بها فانه جل شأنه قادر على جميع الممكنات باتفاق المتكلمين وكذا الحكماء لكن القدرة عند المتكلمين عبارة عن صحة الفعل والترك ، وعند الحكماء عبارة عن كونه ان شاء فعل وان لم يشأ لم يفعل . ومقدمة الشرطية الاولى بالنسبة الى وجود العالم دائم الوقوع ومقدمة الشرطية الثانية بالنسبة الى وجود العالم دائم ان لا وقوع ، وصدق الشرطية لا يستلزم صدق طرفيها ، ولا ينافى كذبهما ، ودوام الفعل وامتناع الترك بسبب الغير لا ينافى الاختيار ، كما أن العاقل ما دام عاقلا يغمض عينه كلما قرب ابرة من عينه بقصد الغمز فيها من غير تخلف مع أنه يغمضها بالاختيار ، وامتناع ترك الاغماض بسبب كونه عالما بضرر الترك لا ينافى الاختيار ، فما ظنك بمن يكون علمه عين ذاته ، كل هذا على رأى الحكماء القائلين أن المقتضى لقدرته هو الذات والمصحح للمقدورية هو الامكان فاذا ثبتت قدرته على البعض ثبتت على الكل لأن العجز عن البعض نقص وهو على الله تعالى محال مع أن النصوص قاطعة بعموم القدرة كقوله تعالى (وهو على كل شىء قدير) قال الاصفهانى فى عقيدته : الدليل على قدرته ايجاده الاشياء وهو اما بالذات وهو محال والا لكان العالم وكل مخلوقاته قديما وهو باطل ، فتعين أن يكون فاعلا بالاختيار وهو المطلوب . قال شيخ الاسلام ابن تيمية روح الله روحه : قد يقال هذا انما أثبت به كونه فاعلا بالاختيار يثبت الارادة لا يثبت القدرة . ثم قال فى اثبات القدرة : وتقرير ذلك أن يقال : اما أن يكون المبدع للأشياء مجرد ذات عرية عن الصفات مستلزمة وجود المفعول كما يقوله المتفلسفة القائلون بقدم الافلاك وصدورها عن ذات مجردة، واما أن تكون ذاتا موصوفة بصفات لا يجب معها وجود المخلوقات كما عليه أهل الملل ، والاول باطل لأنه يستلزم أن لا يحدث فى العالم شىء لأن العلة التامة القديمة يجب أن تستلزم معلولها فلا يتأخر شىء من معلولها لأنها عن الازل وهو خلاف الحس والمشاهدة وهذا الوجه يبطل قولهم بالموجب

بالذات وتقدم شيء بعينه من أجزاء العالم ، وسواء فسروا الموجب بذات مجردة مستلزمة للموجب ، أو بذات موصوفة مستلزمة للموجب ، فان القول بكون المبدع ملزوما لموجبه ومقتضاه مع تأخر بعض ذلك عن الازل جمع بين النقيضين • الى أن قال : فالصفة التى يصلح بها الفعل هى القدرة، أو يقال : فاذا لم يكن موجبا بذاته بل بصفة تعين أن يكون مختارا فانه اما موجب بالذات واما فاعل مختار بالاختيار ، والمختار انما يفعل بالقدرة اذ القادر هو الذى ان شاء فعل وان شاء لم يفعل فأما من يستلزمه المفعول بدون ارادته فهذا ليس بقادر بل ملزوم بمنزلة الذى تستلزمه الحركات الطبيعية الذى لا قدرة له على فعلها ولا تركها • وحقيقة الامر أن العلم بكون الفاعل قادرا علم ضرورى • الى أن قال : صفة الحى تسمى قدرة واذا كانت أكمل من غيرها سميت قوة قال تعالى (وقالوا من أشد منا قوة * أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة) وقد ذكر قوله (أشد منهم قوة) فى غير موضع وقال تعالى (ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين) ثم قال : والذى دل عليه الكتاب والسنة وكان عليه سلف الامة وأئمتها ان الله يخلق الأشياء بالأسباب ، فالقوى التى جعلها الله فى الحيوان والجماد هى من الاسباب التى بها يحدث الحوادث • قال : ومذهب السلف والائمة ان الله خالق كل شيء بمشيئته وقدرته ، وانه ماشاء كان ومالم يشأ لم يكن، فقدرته ومشيئته تستلزم وجود المقدور ، ولفظ الاختيار فى القرآن والسنة وكلام السلف يتضمن تفضيل المختار على غيره قال تعالى (وربك يخلق ما يشاء ويختار) — ثم قال — (ماكان لهم الخيرة) فذكر الاختيار بعد المشيئة وقد صار لفظ الاختيار يعبر به عن الارادة بناء على أن العالم لا يريد الا ما هو خير من غيره أو بناء على أن الحى لا يريد الا ما يراه خيرا من غيره وان كان قد يغلط فى اعتقاده أنه خير من غيره ، والمقصود أن السلف والائمة وجمهور الامة يثبتون فى المخلوقات قوى وقدرة تصدر الحوادث عنها فاثبات القدرة لله تعالى وقدرته على الفعل من أبين الأشياء عندهم ، والعلم بذلك من أظهر المعارف وأجلاها ، فانه قد استقر فى فطرهم أن الفاعل لا يكون الا قادرا ، وأن القدرة صفة كمال ، فاذ اكان المخلوق قويا قادرا

على ما يفعله فالخالق تعالى أولى أن يكون قادرا قويا على ما يفعله • ومن المستقر فى الفطر أيضا أنه اذا فرض الفاعل غير قادر على الفعل امتنع كونه فاعلا ولهذا كان من نفى أن يكون للعبد قدرة مؤثرة كجهم بن صفوان وأبى الحسن الأشعرى ومن اتبعهما لا يسمون العبد فاعلا بل يقولون هو كاسب ، وجهم نفسه كان يقول : ليس بقادر كما أنه ليس بفاعل • وعند الأشعرية انه ليس بفاعل حقيقة بل هو كاسب وانه ليس له قدرة مؤثرة فى المقدور ، ومذهب أئمة السلف وعلماء السنة أن الله تعالى خالق لأفعال العباد مع قولهم أن العبد فاعل قادر يفعل بمشيئته وأن الله تعالى خالق ذلك كله وانه تعالى اذا خلق للعبد قدرة تامة ومشيئة جازمة كان هذا مستلزما لخلق المراد المقدور • قال شيخ الاسلام ابن تيمية : مذهب السلف وجمهور المسلمين الذى يثبتون القدر يقولون ماشاء الله كان ومالم يشأ لم يكن وأن العبد فاعل قادر مختار والله تعالى خالق فعله وقدرته ومشيئته كما قال تعالى (والله خلقكم وما تعملون) فاذا حقق العبد هذا المقام زالت الاشكالات كلها ويظهر حينئذ انه لا منافاة بين (ذلك وبين -١) أن يكون الرب قادرا مختارا ما شاء كان ومالم يشأ لم يكن فهو موجب بمشيئته وقدرته ماشاءه من المقدورات فما شاءه وجب وجوده ومالم يشأ امتنع وجوده فهو موجب بذاته الموصوفة بالمشيئة والقدرة وكل ماشاءه فهو محدث كائن بعد أن لم يكن ليس معه شيء قديم يقدمه فاذا علم هذا وانضم الى ماقاله السلف وجمهور أئمة السنة أنه تعالى يخلق الأشياء بالأسباب وأنه يخلق بحكمة علم بأنه تعالى قادر مختار • ولكثرة فروع هذه المسئلة وما يتفرع عليها وكثرة لوازمها قال جلال الدين الدوانى فى شرح العقائد العضدية: الاولى فى اثبات هذا المطلب بل سائر المطالب التى يتوقف ارسال الرسول عليها أن يتمسك فيها بالدلائل السمعية فيستدل على شمول القدرة بقوله تعالى (ان الله على كل شيء قدير) وعلى شمول العلم بقوله تعالى (والله بكل شيء عليم) وأمثال ذلك

ولما فرغ من تعداد السبع صفات التى يثبتها المتكلمة الصفاتية وغيرهم شرع فى ذكر مالها من المتعلقات وتقدم أن الحياة لا تتعلق بشيء فقال

---

(١) من مخ

متعلق القدرة

((تعلقت)) قدرة الله تعالى الأزلية القديمة الذاتية ((ب)) كل ((ممكن)) وقد علمت أن الممكن ما ليس بواجب الوجود ولا مستحيل الوقوع ، ولم يوجد شيء ولن يوجد شيء الا بها وقد نص سيدنا الامام احمد رضى الله عنه أنه تعالى قادر بقدرة قديمة وقوة شديدة ، قال شيخ الاسلام ابن تيمية فى شرح العقيدة الاصفهانية : الممتنع لذاته ليس بشيء فى الخارج باتفاق العقلاء لامتناع أن يكون له فى الخارج وجود أو ثبوت عند من يفرق بين الوجود والثبوت فهو سبحانه قادر على كل شيء وأحد الضدين على سبيل البدل وأما وجودهما معا فليس بشيء بل هو ممتنع لذاته ، وكذلك وجودالملزوم بدون لوازمه التى يمتنع وجوده بدونها هو من هذا الباب كوجود الولد قبل والده مع كونه قد ولده ووجود الصفات بدون ذات تقوم بهاونحوذلك• قال ومن فهم هذا الامر انحلت عنه الاشكالات التى تورد على قدرة الله تعالى وحكمته ومشيئته فى مسائل القدر وغيرها وتبين له أن خير الكلام كلام الله وانه سبحانه بين فيه الامور الالهية والمطالب العلية أحسن بيان وأكمله حيث يبين قدرته على أشياء لم يفعلها كقوله (ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها) (ولو شاء الله ما اقتتلوا) ونحو ذلك مع أنه تعالى لم يفعل مقدوره وتبين أن خلاف المعلوم مقدور ممكن باعتبار نفسه لكنه لا يكون ، لعدم مشيئته له وهو لا يشاؤه لما فى ذلك من فوات حكمته التى يمتنع اجتماعها مع وجود هذا المفروض والله أعلم • وفهم من النظم أن القدرة لا تتعلق بواجب ولا مستحيل فليسا من متعلقاتها ، ولا عجب فى ذلك لانها لو تعلقت بهما لزم انقلابهما جائزين ولزم صحة تعلقها باعدام محلها ، قال بعض الاشاعرة والاولى الاستدلال بالنصوص الدالة على شمول قدرته تعالى اجمالا مثل (والله على كل شيء قدير) (وخلق كل شيء فقدره تقديرا) وتفصيلا مثل (خلق الله السموات والارض وجعل الظلمات والنور) (خلق الموت والحياة)

تنبيهـــــان

قـــول بعضهم للقدرة تعلقان

« الاول » صحح بعض متأخرى الاشعرية ان للقدرة الازليـــة تعلقين صلوحيا وهو التعلق الازلى بمعنى انها فى الازل صالحة للايجاد والاعدام

على وفق تعلق الارادة الازلية بهما فيما لا يزال ، وتعلقا تنجيزيا وهـو التعلق الحادث المقارن لتعلق الارادة بالحدوث الحالى • وظاهر كلام علمائنا بل وكلام الامام أحمد أن تعلق القدرة بالممكن تعلق واحد مغيا بغـاية محدودة من الزمان يوجد فى ذلك الزمان المخصص بالارادة القديمـة الازلية والله أعلم •

الطوائف المنكرة شمول القدرة

« الثانى » من طوائف الضلال القائلين بعدم شمول القدرة الازليـة لجميع الممكنات المجوس قالوا انه تعالى لا يقدر على الشرور ولا خلـق الاجسام المؤذية وانما القادر على ذلك فاعل آخر يسمى « أهرمن » ومنهم النظام وأتباعه من المعتزلة قالوا انه تعالى لا يقدر على خلق الجهل والكذب والظلم وسائر القبائح • ومنهم عباد الضمرى وأتباعه قالوا أنه تعالى لا يقدر على ما علم انه لا يقع ولا ما علم انه يقع لاستحالة الاول ووجوب الثانى • ومنهم الكعبى واتباعه قالوا انه لا يقدر على مثل مقدور العبد • ومنهـم الجبائى وأتباعه قالوا انه تعالى لا يقدر على نفس مقدور العبد • قال العلامة الشيخ مرعى روح الله روحه فى كتابه (رفع الشبهة والغرر عمن يحتج على فعل المعاصى بالقدر) • مذهب أهل الحق ان الرب سبحانه متفرد بخلق المخلوقات فلا خالق سواه ولا مبدع غيره وكل حادث فانه محدثه ، وقالت المعتزلة ان جميع أفعال العباد من حركاتهم وسكناتهم وأقوالهم وأعمالهم لم يخلقها الله تعالى ، ثم اختلفوا فقالت طائفة خلقها الذين فعلوها دون الله تعالى ، وقال آخرون ليست مخلوقة ولكنها أفعال موجودة لا خالق لها ، وقال آخرون هى فعل الطبيعة ، فالذين زعموا ان العباد خلقوها قالوا ان وقوع الافعال من العبد على وفق قصده وداعيته اقداما واحجاما دليل عـلى انه موجدها ومخترعها ، قالوا ولولا ذلك لكانت التكاليف كلها واقعة على خلاف الاستطاعة وتكليفا بالمحال وكان لا يحسن مدح ولا ذم ولا ثواب ولا عقاب وهو خلاف مقتضى العقل والشرع والعرف • ونقل عن الامامية هل أفعال العباد خلق لهم أو خلق لله ؟ على قولين ، ونقل أبو الحسن الاشعرى عن الزيدية انهم فرقتان فرقة تزعم أن أفعال العباد مخلوقة لله خلقهـا وأبدعها ، وفرقة تزعم انها مخلوقة لله تعالى وانها كسب للعبـاد أحدثوها

متعلق الارادة

واخترعوها وفعلوها • وتأتي لهذا تتمة في بحث القدر ان شاء الله تعالى •
ولما كانت الارادة تتعلق بما تعلقت به القدرة من جميـــع الممكنات قال ((كذا)) أي مثل القدرة في التعلق بالممكنات ((ارادة)) وانها أيضا ارادة واحدة كما مر وان القدرة والارادة غير متناهيتي المتعلقات كما قاله المتكلمون الا أن تعلق القدرة بالممكنات تعلق ايجاد او اعدام ، وتعلق الارادة بهـا تعلق تخصيص كما تقدم • والاولى التعويل في ثبوت عموم تعلق الارادة على الادلة السمعية مثل قوله تعالى : (انما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون) فان قيل يلزم من عموم تعلق الارادة نفيها للزوم المحال وهو أن نسبة الارادة الى الفعل والترك والى جميع الاوقات على السواء اذ لو لم يجز تعلقها بالطرف الآخر وفي الوقت الآخر لزوم نفي القدرة والاختيـار واذا كانت على السواء فتعلقها بالفعل مثلا دون الترك وفي هذا الوقت دون غيره مفتقر الى مرجح ومخصص لامتناع وقوع الممكن بلا مرجح على رأي المتكلمين • فالجواب أن الارادة تتعلق بالمراد لذاتها من غير افتقار الى مرجح آخر لانها صفة شأنها التخصيص والترجيح للمساوي والمرجوح • فان قيل فمع تعلق الارادة لا يبقى التمكن من الترك وينتفي الاختيار • فالجواب انه قد تقرر أن الوجوب بالاختيار محقق الاختيار ، ثم انا نقول قد تقدم ما يرد مثل هذه الشبه في كلام شيخ الاسلام ، ومن المعلوم أن تعلق القـــدرة والارادة بالممكنات بالنسبة الى الذات ، وأما بعد التعلق والتخصيص فقد وقع ما وقع وامتنع ما امتنع • وقال بعض محققي الاشـــاعرة الارادة تخصص ما تعلقت به وترجحه وعند وقوع المراد يزول تعلقها الحادث مع بقائها يعني القدرة بحالها وبقاء تعلقها الصلوحي بحاله أيضا ، قال وللارادة أيضـا تعلقان أزلي صلوحي وحادث تنجيزي كما للقدرة سواء • وتقدم ما فيه والله أعلم •

((تنبيهـــان))

التعلقات الثانية للقدرة والارادة

« الاول » التعلقات الثانية للقدرة والارادة يعني التنجيزية مترتبة، فتعلق القدرة تابع لتعلق الارادة وتعلق الارادة تابع لتعلق العلم، فلا يوجد أويعدم سبحانه من الممكنات عندنا الا ما أراد ايجاده واعدامه منها ولا يريد الا ما

علم فما علم منها انه يكون اراده ، وما علم انه لا يكون لم يرده • وقالت المعتزلة الارادة تابعة للامر لا للعلم فلا يريد عندهم الا ما أمر به من الايمان والطاعة سواء وقع ذلك أم لا • فعندنا ايمان أبى جهل مأمور به غير مراد له تعالى لعلمه سبحانه عدم وقوعه ، وكفر أبى لهب منهى عنه وهو واقع بارادة الله تعالى وقدرته ، وعند المعتزلة ايمانه مراد له مأمور به وكفره غير مراد له لنهيه عنه •

قدرة العبد على ما علم الله انه لا يكون

« الثانى » قال شيخ الاسلام ابن تيمية فى كتابه الذى كتبه على حسن ارادة الله تعالى : وكذلك تنازعهم فى العبد هل هو قادر على خلاف المعلوم؟ قال فان أريد بالقدرة القدرة الشرعية التى هى مناط الامر والنهى كالاستطاعة المذكورة فى قوله تعالى : (فاتقوا الله ما استطعتم) فكل من أمره الله ونهاه فهو مستطيع بهذا الاعتبار وان علم انه لا يطيعه ، وان أريد بالقدرة القدرة التى لا تكون الامقارنة للمفعول فمن علم الله أنه لا يفعل الفعل لم تكن هذه القدرة ثابتة له • قال ومن هذا الباب تنازع الناس فى الامر والارادة هل الله تعالى يأمر بما لا يريد أولا يأمر الا بما يريد ؟ قال فان الارادة لفظ فيه اجمال يراد بالارادة الارادة الكونية الشاملة لجميع الحوادث كقول المسلمين ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، وكقوله تعالى: (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء) وقول نوح عليه السلام : (ولا ينفعكم نصحى ان أردت أن أنصح لكم ان كان الله يريد أن يغويكم) • فلا ريب أن الله تعالى يأمر العباد بما لا يريده بهذا التفسير والمعنى كما قال تعالى : (ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها) فدل على أنه لم يؤت كل نفس هداها مع أنه تعالى أمر كل نفس بهداها • قال شيخ الاسلام : وأما الارادة الدينية فهى بمعنى المحبة والرضى فهى ملازمة للامر كقوله تعالى : (يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم) • وكقول (بعض - ١) المسلمين هذا يفعل شيئا لا يريده الله اذا كان يفعل بعض الفواحش أى الله لا يحبه ولا يرضاه بل ينهى عنه ويكرهه • ثم

---

(١) من مخ

فال اعلم أن التأثير اذا فسر بوجود شرط (الحادث أو بسبب - ١) يتوقف حدوث الحادث به (٢) على سبب آخر وانتفاء موانع وكل ذلك بخلق الله تعالى فهذا حق ، وتأثير قدرة العبد فى مقدورها ثابت بهذا الاعتبار ، وان فسر التأثير بأن المؤثر مستقل بالاثر من غير مشارك معاون ولا معاوق مانع فليس شىء من المخلوقات مؤثرا بل الله وحده خالق كل شىء فلا شريك له ولا ندله فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن (ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده) (قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الارض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير) (ولا تنفع الشفاعة عنده الا لمن أذن له) الآية • ولماكان هذا المقام مشتملا على هذا الغموض والنزاع مما ذكرناه واضعاف اضعافه مما لم نذكره حسن قوله فى تتمة البيت ((فعى)) من وعاه يعيه حفظه وجمعه كاوعاه أى اجمع حواشى هذا الكلام واحفظ مضمون هذا النظام ((واستبن)) أى اطلب البيان من مظانه والايضاح من مكامنه فان قدرته تعالى القديمة وارادته الازلية الذاتية العظيمة كل منهما انما يتعلق بالممكن الجائز كما فى التفصيل دون الواجب والمستحيل والله الموفق لسواء السبيل •

متعلق العلم والكلام

((والعلم)) أى علم الله تعالى ((والكلام)) أى كلامه سبحانه وتعالى أى كل واحد منهما قديم فعلمه تعالى واحد وجودى قديم باق ذاتى وكلامه تعالى قديم وجودى ذاتى ((قد تعلقا)) أى علم الله وكلامه أى كل واحد منهما قد تعلق ((بكل شىء)) من الاشياء من الجائزات والواجبات والمستحيلات فيجب شرعا أن يعلم أن علم الله غير متناه من حيث تعلقه اما بمعنى انه لا يقطع وهو واضح واما بمعنى انه لا يصير بحيث لا يتعلق بالمعلوم فانه يحيط بما هو غير متناه كالاعداد والاشكال ونعيم الجنة ، فهو شامل لجميع المتصورات سواء كانت واجبة كذاته وصفاته أو مستحيلة كشريك له تعالى أو ممكنة كالعالم بأسره الجزئيات من ذلك والكليات على ما هى عليه من جميع ذلك ، وانه واحد لا تعدد فيه ولا تكثر وان تعددت معلوماته

---

(١) ليس فى مخ (٢) زاد فى مخ « أو بسبب »

وتكثرت ، أما وجوب عموم تعلقه سمعا فمثل قوله تعالى : « والله بكل شيء عليم - عالم الغيب والشهادة لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الارض - يعلم خائنة الاعين وما تخفى الصدور - يعلم ما يسرون وما يعلنون » الى غير ذلك من الآيات القرآنية • وأما وجوب ذلك عقلا فلأن المقتضى للعالمية هو الذات اما بواسطة المعنى الذى هو العلم على ما هو مذهب الصفاتية والسلف وهو الحق أو بدونها على ما هو رأى النفاة ، والمقتضى للمعلومية امكانها ، ونسبة الذات الى الكل على السواء ، فلو اختصت عالميته بالبعض دون البعض لكان ذلك بمخصص وهو محال لامتناع احتيـــاج الواجب فى صفاته وسائر كمالاته الى التخصيص لمنافاته لوجوب الوجـود والغنى المطلق • وأما وجوب وحدته فلأن الناس جملة وتفصيلا انحصروا فى فريقين أحدهما أثبت العلم القديم مع وحدته ، والآخر نفاه ، ولـم يذهب الى تعدد علوم قديمة أحد يعتمد عليه الا أبو سهل الصعلوكى من الاشاعرة حيث قال ان لله علوما لا نهاية لها كما ان متعلقاتها كذلك • وهو محجوج بالاجماع السابق لمقالته • فان قيل كيف يستقيم القول بوحدة العلم مع كونه تعالى عالما بما كان وبما سيكون وبالكائن والعلم بذلك كذلك متغاير • فالجواب ان البارى جل شأنه فى أزله يتعلق علمه بوجود الشيء مضافا الى محله المعين فالمضى والحال والاستقبال من عوارض الاخبار عن تعلق علمه تعالى لا ظروف للعلم لانــه ليس بزمانى حتى يوصف بالماضى والحاضر والمستقبل • ومنشأ الشبهة من حيث الاخبار عن ذلك التعلــق المخصوص بالقول اللفظى فان تقدم زمن الاخبار عنه على زمن وجود ذلك الفعل سمى الاخبار مستقبلا وان تأخر سمى ماضيا وان قارن سمى حالا وهى مسميات تعرض باعتبار الاخبار عنه • أما تعلق العلم بوجوده فى الزمان المعين فشيء واحد • وبعض الاشاعرة جعل للعلـم تعلقين أزلى وتنجيزى كالقدرة والارادة ، قال وتكون تلك الاخبارات راجعة للتعلق التنجيزى • قلت ومذهب السلف بمعزل عما يراد من هذا فان الله تعالى قديم وصفاته قديمة وأفعاله قديمة (١) ومايتخيل للعقل من أنواع التغيرات والتخالفات نسب واضافات بالنسبة لادراكاتنا والله تعالى الموفق •

---

(١) تقدم ما فيه فى التعليق على ص ١١٢

« تنبيهـــــــات »

انكار الفلاسفة علم الله تعـالى بالجزئيات

« الاول » زعمت الفلاسفة انه تعالى لا يعلم الجزئيات من حيث كونهـا جزئيات زمانية يلحقها التغير قالوا لان تغير المعلوم يستلزم تغير العلم وذلك يستلزم تغير الذات وهو محال على الله تعالى ، بيان لزوم ذلك انه لو كان عالما بأن زيدا جالس في المكان الفلاني فعند خروج زيد منه فاما أن يبقى ذلك العلم أو لا ، فان بقي لزم الجهل وان كان الثاني لزم التغير في علمه وهو قائم به فيلزم قيام الحوادث به وهو محال • والجواب اختيار الثـــاني ومنع التغير في نفس العلم فان المتغير تعلقه لا نفسه (١) وتغاير الاضافات والنسب جائز • وأجاب الفلاسفة عن هذا مشايخ السنة ومشايخ لمعتزلة بان علم الباري بأن الشيء سيوجد نفس العلم بأنه وجد فان من علم أن زيدا سيدخل البلد غدا فعند حصول الغد يعلم بهذا العلم أنه دخـل البلد الآن وانما يحتاج أحدنا لعلم آخر لطريان الغفلة عن الاول والباري منزه عن ذلك فلا يلزم من علمه بالجزئيات تغير أصلا في علمه تعالى • وهذه احدى ما كفر أهل الاسلام الفلاسفة بها • ولهم من أمثالها الطامات المعضلات فلا يهولنك ما ينسب اليهم من المعارف ودقائق الافكار فما منهم الا المخالف أو على شفا جرف هار •

فرق المخالفين في شمول العلم

« الثاني » خالف في احاطة علمه تعالى بســائر الاشياء فرق ســوى الفلاسفة فقالت فرقة بأنه تعالى لا يعلم نفسه واحتجوا بأن العلم نســـبة عارضة للعالم بالنسبة الى المعلوم ، قالت والنسبة انما تتحقق بين المتغايرين فلا تتحقق عند عدم المغايرة • والجواب عنه بأنه صفة لا نسبة بل صفة ذات، وأيضا ينتقض ما زعموه بعلمنا فان كل واحد منا يعلم نفسه ضرورة مـع عدم المغايرة « الثانية » زعمت بأنه تعالى وتقدس لا يعلم شيئا قالوا لانه لو علم شيئا علم علمه به وهو انما يكون بعد علمه بذاته ضرورة ، قالوا وقـد علم امتناع علمه بذاته كما زعمت الفرقة الاولى ، وأيضا لو كان يعلم شيئا أمكن أن يعلم علمه به والا يلزم أن يكون واحدا عالما بالعلوم الهندسيات ولم يمكنه العلم بأنه عالم بها • وهذا يعلم فساده بنفس تصوره فلا يشتغل

---

(١) في الاصلين « نفيه » كذا

برده لانه هذيان من قائليه « الثالثة » زعمت بانه لا يعلم غيره لان العلم بشيء غير العلم بآخر فلو كان عالما بالغير وغيره غير متناه يلزم قيام العلوم الغير المتناهية بذاته وهو يوجب الكثرة فى الذات وهو محال • والجواب أن الكثرة فى المعلومات والتعلقات دون العلم وهذا بين « الرابعة » زعمت انه تعالى لا يعلم الشيء الغير المتناهى لان كل معلوم متميز عند العالم عن غيره وتميز غير المتناهى عن الغير انما يكون بأن يحيط به حد وغاية يكون الغير خارجا عنه ومتميزا وغير المتناهى لا يكون له حد وغاية والا يكون متناهيا • والجواب أن المعقول (؟) كل واحد واحد من غير تناه وهو متميز وما هو غير متميز انما هو الكل من حيث هو غير متناه وهو لا يقدح فى المطلوب لان المطلوب علمه بغير المتناهى وهو حاصل عند العلم بكل واحد واحد «الخامسة» زعمت انه تعالى لا يعلم الاشياء كلها وقالت والالزم من علمه بشيء علمه بالعلم بذلك الشيء وهلم جرا فيلزم التسلسل • والجواب ان هذا التسلسل فى الاضافات والنسب وهو غير محال وبالله التوفيق •

معنى تعلق علمه تعالى بالمستحيل

« التنبيه الثالث » معنى تعلق علمه تعالى بالمستحيل علمه تعالى باستحالته وانه لو تصور متصور وقوعه لزمه من الفساد كذا على ما أشار اليه بعض السلف بقوله : علم ما كان وعلم ما يكون وعلم ما لم يكن ان لو كان كيف كان يكون • وبهذا تميز عن علمنا بالمستحيل •

لا محو فى علمه تعالى ولا تغيير وانما المحو فى صحف الملائكة

« الرابع » قال شيخ الاسلام ابن تيمية قدس الله روحه ان علم الله السابق محيط بالاشياء على ما هى عليه ولا محو فيه ولا تغيير ولا زيادة ولا نقص فانه سبحانه يعلم ما كان وما يكون وما لا يكون لو كان كيف كان يكون • قال وأما ماجرى به القلم فى اللوح المحفوظ فهل يكون فيه محو واثبات ؟ على قولين للعلماء • قال وأما الصحف التى بيد الملائكة فيحصل فيها المحو والاثبات • انتهى • ومثل العلم فى تعلقه بالواجب والجائز والمستحيل صفة الكلام فانه يتعلق بكل شيء من الثلاثة يعنى الواجب والممكن والمستحيل

معنى الخلة

((يا خليلى)) أى يا صديقى ومحبى مشتق من الخلة وهى توحيد المحبة فالخليل هو الذى يوحد حبه لمحبوبه وهى رتبة لا تقبل المشاركة ولهذا اختص بها الخليلان ابراهيم ومحمد صلى الله عليهما وسلم • قال الامام

المحقق ابن القيم فى كتابه (روضة المحبين ونزهة المشتاقين) : انما سميت خلة لتخلل المحبة جميع أجزاء الروح كما قال الشاعر :

قد تخللت مسلك الروح منى وبذا سمى الخليل خليلا

متعلق السمع والبصر

قال والخليل الصديق والانثى خليلة والخلالة مثلثة الصداقة والمودة ((مطلقا)) عن التقييد بواحد من الثلاثة بل يعمها جميعها ((وسمعهسبحانه)) وتعالى ((كالبصر)) منه جل شأنه فسمعه تعالى يتعلق ((بكل)) شىء ((مسموع و)) بصره سبحانه وتعالى يتعلق بـ ((كل)) شىء((مبصر))فهو تعالى سميع بصير كما تقدم يسمع ويبصر بسمع وبصر قديمين ذاتين وجوديين متعلقين بكل مسموع ومبصر كما ذكره علماؤنا وأسندوه الى نص الامام احمد رضى الله عنه يعنى أن هاتين الصفتين متحديا المتعلق (١) فتتعلقان بالموجود واجبا كان أو ممكنا عينا كان أو معنى كليا كان أو جزئيا مجردا كان أو ذا مادة مركبا أو بسيطاولايلزم من اتحاد الصفة اتحاد المتعلق (١) فالبصر يتعلق بجميع المبصرات والسمع يتعلق بسائر الاصوات وتقدم الكلام عليهما والله أعلم .

« فصل فى مبحث القرآن العظيم والكلام المنزل القديم (٢) »

فصل فى مبحث القرآن

اعلم رحمك الله أن الناس اختلفوا فى هذا الكتاب المنزل على النبى المرسل صلى الله عليه وسلم ما نزل قطر وهطل ، فمذهب السلف الصالح وأئمة أهل الاثر هو ما أشير اليه بقوله ((وان)) أى نجزم ونتحقق فهو معطوف على قوله بأنه واحد البيت وما بعده فالواجب اعتقاده والملزوم اعتماده بأن ((ما)) أى الوحى والكلام الذى ((جاء)) من الله ((مع جبريل)) الملك المكرم أمين الله على وحيه لأنبيائه ورسله وفيه لغات عديدة منها جبرائيل (وجبرئيل) كجبرعيل وكحزقيل كما فى النظم وجبرين بنون وغيرها((من محكم القرآن)) العظيم ((و)) محكم ((التنزيل)) الذى أنزله الله تعالى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم بواسطة أمينه الفضيل الملك المعظم جبريل فهو عطف مرادف ((كلامه سبحانه)) وتعالى ((قديم)) (١) قال الشيخ الامام

---

(١) تأمل (٢) تقدم ما فى هذا فى التعليق على المتن

أبو الحسن محمد بن عبد الملك الكرخى الشافعى فى كتابه الذى سماه (الفصول في الاصول) سمعت الامام أبا منصور محمد بن احمد يقول سمعت الامام أبا بكر عبد الله بن أحمد يقول سمعت الشيخ أبا حامد الاسفراينى يقول مذهبى ومذهب الشافعى وفقهاء الامصار ان القرآن كلام الله غير مخلوق ومن قال مخلوق فهو كافر (١) والقرآن حمله جبريل عليه السلام مسموعا من الله تعالى ، والنبى صلى الله عليه وسلم سمعه من جبريل ، والصحابة رضى الله عنهم سمعوه من النبى صلى الله عليه وسلم . قال وهو الذى نتلوه نحن بألسنتنا وفيما بين الدفتين وما فى صدورنا مسموعا ومكتوبا ومحفوظا ومقروءا وكل حرف منه كالباء والتاء كلام الله غير مخلوق ومن قال مخلوق فهو كافر عليه لعائن الله والملائكة والناس اجمعين . انتهى كلامه بحروفه . وقد أخبر الله تعالى بتنزيله وشهد بانزاله على رسوله فقال تعالى : (انا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا) وقال : (وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا) وقال جل شأنه: (لكن الله يشهد بما أنزل اليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيدا) والمنزل على الرسول صلى الله عليه وسلم هو هذا الكتاب وقد أمر سبحانه بترتيله فقال : (ورتل القرآن ترتيلا) (ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى اليه وحيه) وقال : (لا تحرك به لسانك لتعجل به) وامر سبحانه بقراءته والاستماع له والانصات اليه وأخبر انه يسمع ويتلى فقال (حتى يسمع كلام الله) وقال (فاقرأوا ما تيسر من القرآن) (واذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا) وكل هذا من صفات هذا الموجود عندنا لا من صفات ما فى النفس الذى لا يظهر لحس ولا يدرى ما هو . وأخبر سبحانه ان منه سورا وآيات وكلمات ، قال الامام الموفق فى كتابه « البرهان فى حقيقة القرآن » القرآن كتاب الله العربى الذى أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم فهو كتاب الله الذى هو هذا الذى هو سور وآيات وحروف وكلمات بغير خلاف قال تعالى : (تلك آيات الكتاب المبين ، انا جعلناه قرآنا عربيا) (حم والكتاب المبين ، انا جعلناه قرآنا عربيا)

---

(٢١) مخ « فقد كفر »

والآيات فى هذا كثيرة جدا وكذا الاحاديث النبوية والاخبار الاثرية كقوله صلى الله عليه وسلم « ان هذا القرآن حبل الله وهو النور المبين والشفاء النافع عصمة لمن تمسك به ونجاة لمن اتبعه ـ الحديث وفيه ـ فاتلوه فان الله يؤجركم على تلاوته بكل حرف عشر حسنات ، الا انى لا أقول : الم حرف ولكن ألف عشر ولام عشر وميم عشر » وقال صلى الله عليه وسلم : « من قرأ القرآن فأعربه فله بكل حرف عشر حسنات ومن قرأه فلحن فيه فله بكل حرف حسنة » حديث صحيح (؟) وأجمع المسلمون على أن القرآن أنزل على محمد وانه معجزة النبى صلى الله عليه وسلم المستمرة الـــذى تحدى الله الخلق بالاتيان بمثله فعجزوا ، وأجمعوا على أنه يقرأ ويسمع ويحفظ ويكتب وكل هذه الصفات لا تعلق لها بالكلام النفسى . قال شيخ الاسلام ابن تيمية فى قاعدته التى فى بيان ان القرآن كلام الله تعالى ليس شىء منه كلاما لغيره لا جبريل ولا محمد ولا غيرهما قال فى قوله تعالى : (فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم) الى قوله (قل نزله روح القدس من ربك بالحق) بيان لنزول جبريل به من الله فان روح القدس هذا جبريل بدليل قوله (من كان عدوا لجبريل فانه نزله على قلبك باذن الله) وهو الروح الامين فى قوله تعالى : (وانه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الامين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عـــربى مبين) وفى قوله « الامين » دلالة على أنه مؤتمن على ما أرسل به لا يزيدفيه ولا ينقص منه فان الرسول الخائن قد يغير الرسالة . وقال فى صـــفته فى الآية الاخرى : (انه لقول رسول كريم ذى قوة عند ذى العرش مكـــين مطاع ثم أمين) وفى قوله : « قل نزله روح القدس ـ منزل من ربك » دلالة على أمور ، منها بطلان قول من يقول انه كلام مخلوق خلقـــه فى جسم من الاجسام المخلوقة كما هو قول الجهميين الذين قالوا بخلق القرآن من المعتزلة والنجارية والضرارية وغيرهم فان السلف كانوا يسمون كل من نفى الصفات وقال ان القرآن مخلوق وان الله لا يرى فى الآخرة جهميا لأن بدعة نفى الاسماء والصفات أول ما ظهرت من جهم فانه بالغ فى نفى ذلك فله فى هذه البدعة مزية المبالغة وكثرة اظهار ذلك والدعوة اليه وان

كان الجعد بن درهم قد سبقه الى بعض ذلك فانه أول من أحدث ذلك فى الاسلام فضحى به خالد بن عبد الله القسرى بواسط يوم النحر فقال ايها الناس ضحوا تقبل الله ضحاياكم فانى مضح بالجعد بن درهم فانه زعم ان الله لم يتخذ ابراهيم خليلا ولم يكلم موسى تكليما تعالى الله عما يقول الجعد علوا كبيرا - ثم نزل فذبحه • فالمعتزلة وان وافقوا جهما على بعض ذلك فهم يخالفونه فى مسائل غير ذلك كمسائل الايمان بالقدر وبعض مسائل الصفات ولا يبالغون فى النفى مبالغته فان جهما يقول ان الله لا يتكلم أو يتكلم بطريق المجاز ، وأما المعتزلة فيقولون يتكلم حقيقة لكن قولهم فى المعنى هو قول جهم ، وجهم ينفى الاسماء كما نفتها الباطنية ومن وافقهم من الفلاسفة بخلاف المعتزلة فلا ينفون الاسماء ، وفى قوله تعالى : « منزل من ربك » دلالة على بطلان قول من يجعله فاض على نفس النبى صلى الله عليه وسلم من العقل الفعال أو غيره كما يقوله طوائف من الفلاسفة والصابئة ، وهذا القول أعظم كفرا من الذى قبله • وفيها دلالة أيضا على بطلان قول من يقول ان القرآن العربى ليس منزلا من الله بل مخلوق اما فى جبريل او محمد او فى جسم آخر كالهواء كما يقول ذلك الكلابية والاشعرية القائلين بأن القرآن العربى ليس هو كلام الله وانما كلامه المعنى القائم بذاته والقرآن العربى خلق ليدل على ذلك المعنى وهذا يوافق قول المعتزلة ونحوهم فى اثبات خلق القرآن العربى • قلت ذكر جماعة من محققى الاشعرية كالسعد التفتازانى والجلال الدوانى وشرح جواهر العضد لتلميذه الكرمانى انه لا نزاع بين الاشاعرة وبين المعتزلة فى تسمية الله تعالى متكلما بمعنى انه يوجد الاصوات والحروف فى الغير وهو اللوح المحفوظ أو جبريل أو النبى صلى الله عليه وسلم وانما النزاع أن المعتزلة لم يثبتوا غير هذه الاصوات والحروف الموجدة فى الغير معنى قائما بذات البارى ، قالوا ونحن - يعنى معاشر الاشاعرة - نثبته فانهم يقولون كلام الله تعالى معنى قائم بذات البارى تعالى معبر عنه بالعبارات والالفاظ وهو الطلب الذى يجد كل واحد منا عند الامر بالشىء قبل التلفظ بصيغة افعل ، قالوا فهو يغاير العبارات والعلم والارادة ، أما العبارات فلانها تختلف بحسب الازمنة

والاقوام دون المعنى القائم بذاته تعالى ، وأما العلم فلانه تعالى أمر أبا لهب بالايمان وكان عالما بأنه لا يؤمن لان معلومه تعالى واجب الوقوع فلو كان ايمان ابى لهب واقعا فى علمه تعالى لوقع ، ولم يقع ، وأما الارادة فلانه تعالى أمره به ولم يرده ولذلك لم يقع ، قالوا فما قالت المعتزلة على حدوث الكلام لا ينفى قولنا بقدمه ، لان ما قالوا فى حدوثه وجهان معقول ومنقول فالمعقول انه لو كان قديما يلزم تحقق الامر بلا مأمور وهو سفه وعبث وهذا انما يدل على حدوث لفظه لا على حدوث المعنى القائم بذاته لان معنى أمره فى الازل انه تعالى يطلب فى الازل المأمور به من المأمورين عند وجودهم فى اللايزال كطلب الوالد التعلم من ولد سيوجد ولا سفه فى ذلك ولا عبث ، قالوا والمنقول ان القرآن ذكر والذكر محدث . ونقلوا من جنس هذا الكلام ضروبا . والحاصل ان المعتزلة موافقة الاشعرية والاشعرية موافقة المعتزلة فى ان هذا القرآن الذى بين دفتى المصحف مخلوق محدث وانما الخلاف بين الطائفتين ان المعتزلة لم تثبت لله كلاما سوى هذا والاشعرية أثبت الكلام النفسى القائم بذاته تعالى ، وان المعتزلة يقولون ان المخلوق كلام الله والاشعرية لا يقولون انه كلام الله نعم يسمونه كلام الله مجازا هذا قول جمهور متقدميهم . وقالت طائفة من متأخريهم لفظ الكلام يقال على هذا المنزل الذى نقرؤه ونكتبه فى مصاحفنا وعلى الكلام النفسى بالاشتراك اللفظى . قال شيخ الاسلام ابن تيمية لكن هذا ينقض أصلهم فى ابطال قيام الكلام بغير المتكلم به وهم مع هذا لا يقولون ان المخلوق كلام الله حقيقة كما يقوله المعتزلة مع قولهم انه كلامه حقيقة بل يجعلون القرآن العربى كلاما لغير الله وهو كلامه حقيقة . قال شيخ الاسلام وهذا شر من قول المعتزلة وهذا حقيقة قول الجهمية ، ومن هذا الوجه فقول المعتزلة أقرب . قال وقول الآخرين هو قول الجهمية المحضة لكن المعتزلة فى المعنى موافقون لهؤلاء وانما ينازعونهم فى اللفظ الثانى اذ هؤلاء يقولون لله كلام هو معنى قديم قائم بذاته والخلقية يقولون لا يقوم بذاته كلام ، ومن هذا الوجه فالكلابية خير من الخلقية فى الظاهر ، لكن جمهور المحققين من علماء السلف يقولون ان أصحاب هذا القول عند التحقيق

موافقة الاشعرية للمعتزلة

لم يثبتوا كلاما له حقيقة غير المخلوق لانهم يقولون عن الكلام النفسى انه معنى واحد هو الامر والنهى والخبر ان عبر عنه بالعربية كان قرآنا وان عبر عنه بالعبرية كان توراة وان عبر عنه بالسريانية كان انجيلا، وجمهور العقلاء يقولون ان فساد هذا معلوم بالضرورة بعد التصور التام فانا اذا عربنا التوراة والانجيل لم يكن معناهمـــا معنى القرآن بل معانى هـــذا ليست معانى هذا وكذلك « قل هو الله أحد » ليس هو معنى « تبت يدا أبى لهب » ولا معنى آية الكرسى آية الدين ، وقالوا اذا جوزتم أن تكون الحقائق المتنوعة شيئا واحدا فجوزوا أن يكون العلم والقدرة والكلام والسمع والبصر صفة واحدة ، فاعترف أئمة هذا القول بأن هذا الالزام ليس لهم عنـــه جواب عقلى ، ثم منهم من قال الناس فى الصفات اما مثبت لها واما ناف لها واما اثباتها واتحادها فخلاف الاجماع ، وممن اعترف بأن ليس له عنه جواب أبو حسن الآمدى وغيره من المحققين والمقصود ان النص القـــرآنى يبين فساد هذا القول فان قوله : « نزله روح القدس من ربك » يقتضى نـزول القرآن من رب العالمين والقرآن اسم لهذا الكتاب العربى لفظه ومعناه بدليل قوله : « فاذا قرأت القرآن » فانه انما يقرأ القرآن العربى لا معـــانيه المجردة وأيضا فضمير المفعول فى قوله «نزله» عائد الى ما فى قوله تعالى : « والله أعلم بما ينزل » فالذى أنزله الله هو الذى أنزله روح القدس فاذا كان روح القدس نزل بالقرآن العربى لزم أن يكون نزله من الله فـــلا يكون شيء منه نزله من عين من الاعيان المخلوقة ولا نزله من نفسه وأيضا فانه قال تعالى عقب هذه الآية : (ولقد نعلم انهم يقولون انما يعلمه بشر لسان الذى يلحدون اليه وأعجمى وهذا لسان عربى مبين) وهذا ظاهر الدلالة على بطلان زعمهم فقد اشتهر فى التفسير ان بعض الكفـــار كانوا يزعمون أن محمدا صلى الله عليه وسلم تعلم القرآن من شخص كان بمكة أعجمى قيل انه كان مولى لابن الحضرمى فاذا كان الكفار جعلوا الـــذى يعلمه ما نزل به روح القدس بشرا والله جل وعز أبطل ذلك بان لسان ذلك أعجمى وهذا لسان عربى مبين علم ان روح القدس نزل باللســـان العربى المبين وأن محمدا لم يؤلف نظم القرآن بل سمعه من روح القدس

واذا كان روح القدس نزل به من الله علم انه سمعه منه تبارك وتعالى لم يؤلفه روح القدس وهذا بيان من الله تعالى ان القرآن الذى هو باللسان العربى المبين سمعه روخ القدس من الله سبحانه وتعالى ونزل به منه وقد قال تعالى : (وهو الذى أنزل اليكم الكتاب مفصلا والذين آتيناهم الكتاب يعلمون انه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين) والكتاب اسم للقرآن العربى بالضرورة والاتفاق فان الكلابية أو بعضهم ومن وافقهم يفرقون بين كلام الله وكتاب الله ، فيقولون كلامه هو القائم بالذات وهو غير مخلوق وكتابه المنظوم المؤلف من الحروف العربى وهو مخلوق ، والقرآن يراد به هذا تارة وهذ تارة . وقد سمى الله تعالى نفس مجموع اللفظ والمعنى قرآنا وكتابا وكلاما فقال تعالى : (الر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين) وقال (طس تلك آيات القرآن وكتاب مبين) وقال (واذ صرفنا اليك نفرا من الجن يستمعون القرآن) الى قوله تعالى (يا قومنا انا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى) فبين ان الذى سمعوه هو القرآن وهو الكتاب وقال (بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ) (انه لقرآن كريم فى كتاب مكنون) والمقصود ان قوله تعالى (وهو الذى أنزل اليكم الكتاب مفصلا) يتناول نزول القرآن العربى على كل قول وقد أخبر تعالى (ان الذين آتيناهم الكتاب يعلمون انه منزل من ربك بالحق) اخبار مستشهد بهم لا مكذب لهم وقال انهم يعلمون ذلك ولم يقل انهم يظنونه أو يقولونه والعلم لا يكون الا حقا مطابقا للمعلوم بخلاف القول والظن الذى ينقسم الى حق وباطل فعلم ان القرآن العربى منزل من الله تعالى لا من الهواء ولا من اللوح ولا من جسم آخر ولا من جبريل ولا من محمد عليهما السلام ولا من غيرهما فمن لم يقر بذلك من هذه الامة كان أهل الكتاب خيرا منه من هذا الوجه . فان قلت قد جاء عن ابن عباس رضى الله عنهما وغيره من السلف فى تفسير قوله تعالى : (انا انزلناه فى ليلة القدر) أنزل الى بيت العزة فى السماء الدنيا ثم أنزله بعد ذلك منجما مفرقا بحسب الحوادث وقد أخبر الله تعالى ان القرآن الكريم مكتوب فى اللوح المحفوظ قبل نزوله كما قال تعالى : (بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ) وقال تعالى : (انه

لقرآن كريم فى كتاب مكنون لا يمسه الا المطهرون) وقال تعالى : (كلا انها تذكرة فمن شاء ذكره فى صحف مكرمة مرفوعة مطهرة بأيدى سفرة كرام بررة) وقوله تعالى : (وانه فى أم الكتاب لدينا لعلى حكيم) فالجواب أن كون القرآن العظيم مكتوبا فى اللوح المحفوظ وفى الصحف المطهرة بأيدى الملائكة الكرام لا ينافى أن يكون جبريل نزل به من الله تعالى سواء كتبه الله قبل أن يرسل به جبريل أو بعد ذلك واذا كان قد أنزله مكتوبا الى بيت العزة جملة واحدة ليلةالقدر فقد كتبه كله قبل أن ينزله • قاله شيخ الاسلام ابن تيمية ، وقال والله تعالى يعلم ما كان وما يكون وما لا يكون لو كان كيف كان يكون وهوتعالىقدر مقادير الخلائق وكتب أعمال العباد قبل أن يعملوها كما ثبت ذلك فى الكتاب والسنة وآثار السلف ، ثم انه يأمر الملائكة بكتابتها بعدما يعملونها فيقابل بينالكتابة المتقدمة على الوجود والكتابة المتأخرة عنه فلا يكون بينها تفاوت ، هكذا قال ابن عباس رضى الله عنهما وغيره من السلف ، وهو حق فاذا كان ما يخلقه بائنا عنه قد كتبه قبل أن يخلقه فكيف يستبعد أن يكون كلامه الذى يرسل به ملائكته مكتوبا قبل أن يرسلهم به • ومن زعم ان جبريل أخذ القرآن من الكتاب ولم يسمعه من الله تعالى كان هذا باطلا من وجوه منها ان الله تعالى قد كتب التوراة لموسى عليه السلام بيده فبنو اسرائيل أخذوا كلام الله من الكتاب الذى كتبه الله سبحانه فيه فان كانمحمد أخذه عن جبريل وجبريل عن الكتاب كان بنو اسرائيل أعلى من محمد صلى الله عليه وسلم بدرجة ، وهكذا من قال انه ألقى الى جبريل معانى القرآن وان جبريل عبر عنها بالكلام العربى فقوله يستلزم أن يكون جبريل الهمه الهاما وهذا الالهام لآحاد المؤمنين كما قال تعالى : (واذ أوحيت الى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى) (وأوحينا الى أم موسى أن أرضعيه) وقد أوحى الى سائر النبيين فيكون هذا الوحى الذى يكون لآحاد الانبياء والمؤمنين أعلى من أخذ محمد صلى الله عليه وسلم القرآن العظيم عن جبريل عليه السلام لان جبريل هو الذى علمه لمحمد بمنزلة الواحد من هؤلاء ، ولهذا زعم بعض الصوفية أن خاتم الاولياء أفضل من خاتم الانبياء ، وزعم انه يأخذ من

المعدن الذى يأخذ منه الملك الذى يوحى به الى الرسول ، فجعل أخذه وأخذ الملك الذى جاء الى الرسول من معدن واحد ، وادعى ان أخذه عن الله أعلى من أخذ الرسول للقرآن • قال شيخ الاسلام ابن تيمية ومعلوم ان هذا من أعظم الكفر قال وهذا القول من جنسه •

والآيات القرآنية تدل دلالة صريحة على أن القرآن منزل من الله لا من غيره كقوله تعالى : (تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم) (حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم) (حم تنزيل من الرحمن الرحيم) وكذا قوله : (بلغ ما أنزل اليك من ربك) وأيضا الكلابية يقولون انه معنى واحد فان كان موسى سمع جميع المعنى فقد سمع جميع كلام الله وان سمع بعضه فقد تبعض وكلاهما ينقض عليهم قولهم فانهم يقولون انه معنى واحد لا يتعدد ولا يتبعض فان كان ما يسمعه موسى والملائكة هو ذلك المعنى كله كان كل من موسى والملائكة سمع جميع كلام الله وكلامه متضمن لجميع خبره وجميع أمره فيلزم أن يكون كل واحد ممن كلمه الله تعالى أو أنزل عليه شيئا من كلامه عالما بجميع أخبار الله وأوامره وهذا معلوم الفساد بالضرورة ، وان كان الواحد من هؤلاء انما يسمع بعضه فقد تبعض كلامه وذلك مناقض لقولهم • وأيضا فقول الله تعالى : (وكلم الله موسى تكليما) (ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه) (وناديناه من جانب الطور الايمن وقربناه نجيا) (فلما أتاها نودى يا موسى انى أنا ربك فاخلع نعليك انك بالوادى المقدس طوى وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى) الآيات دليل على تكليم يسمعه موسى والمعنى المجرد لا يسمع بالضرورة ومن قال انه يسمع فهو مكابر ، ودل الدليل على انه ناداه والنداء لا يكون الا صوتا مسموعا فلا يعقل فى لغة العرب لفظ النداء لغير صوت مسموع لا حقيقة ولا مجازا كما تقدم • وذكر الامام الموفق فى البرهان ن الله تعالى لما كلم موسى عليه السلام فناداه ربه يا موسى فأجاب سريعا استئناسا بالصوت لبيك لبيك، أسمع صوتك ولا أرى مكانك فأين أنت ؟ قال : « ياموسى أنا فوقك وعن يمينك وعن شمالك وأمامك وعن ورائك » فعلم ان هذه الصفة لا تكون الا لله تعالى قال فكذلك أنت يا الهى أفكلامك أسمع أم كلام رسولك ؟

قال : بل كلامى يا موسى . كمافى الخبر . قال وجاء فى خبر آخر أن بنى اسرائيل قالوا يا موسى بم‌شبهت صوت ربك . قال انه لا شـــبه له . قال وروى أن موسى عليه السلام لما كلمه ربه ثم سمع كلام الآدميين مقتهم لما وقر فى مسامعه من كلام الله تعالى . قال الامام الموفق وهـــذه الاخبار ونحوها لم تزل متداولة بين أهل العلم من الصحابة والتابعين يرويها بعضهم عن بعض لم ينكرها منكر فيكون اجماعا . كذا قال .

اعجاز القرآن

ولما بين الناظم أن القرآن العظيم الذى أنزله الله تعالى مع جبريل عليه السلام الى النبى الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم وأثبت أنه كلام الله وأنه قديم أعقب ذلك ببعض نعوت هذا الكتاب المنزل على النبى المرسل فقال ((أعيا)) أى أعجز ((الورى)) أى جميع الخلق من الانس والجن قال فى القاموس الورى كفتى الخلق ((بالنص)) القرآنى والتنزيل الرحمانى ((ياعليم)) أى ياعالم (يعنى-١) المبالغ فى العلم فان العليم‌صفة مبالغة‌كماهو معروف‌قال تعالى (قل لئن اجتمعت‌الانس والجن‌على أن يأتوا بمثل‌هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) فتحدى الخلق بالاتيان‌بمثله وقال تعالى (أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون * فليأتوا بحديث مثله ان كانوا صادقين) فلما عجزوا عن الاتيان بمثله تحداهم بعشر سور فقال جل شأنه (قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات) فلما عجزوا تحداهم بالاتيان بسورة واحدة فقال تعالى (قل فأتوا بسورة من مثله) أى من مثل القرآن العظيم فعجزوا وفى قوله تعالى (أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون فليأتوا بحديث مثله ان كانوا صادقين) غاية التحدى والتبكيت والرد عليهم والتنكيت أى ان كانوا صادقين فى زعمهم أن النبى صلى الله عليه وسلم تقول القرآن العظيم فليأتوا بحديث مثله فانه اذا كان محمد صلى الله عليه وسلم قادرا على أن يتقوله كما يقدر الانسان أن يتكلم بما يتكلم به من نظم ونثر كان هذا ممكنا للناس الذين هم من جنسه فيمكن الناس أن يأتوا بمثله ولمـــا تحداهم الله تعالى بسورة واحدة فى قوله (قل فأتوا بسورة من مثله وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين) بعد أن تحداهم بالاتيان بعشر

---

(١) من مخ

سورهم ومن استطاعوا قال جل شأنه (فان لم يستجيبوا لكم فاعلموا انما أنزل بعلم الله وان لا اله الا هو فهل أنتم مسلمون) كما قال (لكن الله يشهد بما أنزل اليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيدا) أى هو سبحانه يعلم أنه منزل لا يعلم أنه مفترى كما قال (وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله) أى ما كان لأن يفترى ، يقول ما كان ليفعل هذا فلم ينف مجرد فعله بل نفى احتمال فعله ، وأخبر بأن مثل هذا لا يقع بل يمتنع وقوعه فيكون المعنى لا يمكن ولا يحتمل ولا يجوز أن يفترى هذا القرآن من دون الله فان الذى يفتريه من دون الله مخلوق ((وليس فى طوق)) أى ليس فى وسع ((الورى)) من جميع الخلق وطاقتهم فالطوق الوسع والطاقة كما فى القاموس ، وفى حديث أبى قتادة رضى الله عنه ومراجعته النبى صلى الله عليه وسلم فى الصوم فقال النبى عليه الصلاة والسلام « وددت انى طوقت ذلك » أى ليته جعل داخلا فى طاقتى وقدرتى ، ولم يكن عاجزا عن ذلك غير قادر عليه لضعف فيه ولكن يحتمل أنه خاف العجز عنه للحقوق التى تلزمه لنسائه فان ادامة الصوم تخل بحظوظهن منه كما فى النهاية • ومنه حديث عامر بن فهيرة رضى الله عنه : كل امرىء مجاهد بطوقه • أى أقصى غايته وهو اسم لمقدار مايمكن أن يفعله بمشقة منه ، فالمعنى ليس فى قدرة الخلق ولا طاقتهم ولو بذلوا جهدهم بغاية ما يمكنهم ولو مع تمام المشقة الحاصلة لهم ((من أصله)) أى الورى يعنى الخلق أى من أولهم الى آخرهم • ويحتمل وهوالمراد انه ليس فى طوق الخلق من الاصل ((أن يستطيعوا)) الاتيان بأقصر((سورة)) من القرآن فليس فى طوق جميع الخلق من أصل خلقتهم وجبلتهموقدرتهم واستطاعتهم من غير أن يسلبهم الله تعالى ذلك الاتيان بأقصر سورة ((من مثله)) أى القرآن كما تحدى الديان أهل الفصاحة والبلاغة واللسنوذوى الرزانة والدراية والفطن فاعترفوا بالعجز عن الاتيان بمثل أقصر سورة فى القرآن • قال الامام الحافظ ابن الجوزى رحمه الله تعالى لما تحيروا عند سماع القرآن وأدهشهم أسلوبه نودى عليهم بالعجز عن مماثلتهبقوله (فاتوا بسورة من مثله) انتهى • هذا وهم مصاقيعالكلام وبلغاء النثر والنظام

فعدلوا عن مصاقعة اللسان الى مقارعة السنان • قال شيخ الاسلام ابن تيمية فى كتاب ـ الجواب الصحيح ـ وهذا التحدى كان بمكة فان سورة يونس وهود والطور من المكى ثم أعاد التحدى فى المدينة بعد الهجرة فقال فى سورة البقرة وهى مدنية (وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنافأتوابسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين) ثم قال (فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجـــارة أعدت للكافرين) فذكر أمرين (أحدهما) قوله فان لم تفعلوا فاتقوا النار يقول اذا لم تفعلوا فقد علمتم أنه حق فخافوا الله أن تكذبوه فيحيق بكم العذاب الذى وعدته المكذبين ، وهذا دعاء الى سبيل ربه بالموعظة الحســنة بعد أن دعاهم بالحكمة وهو جدالهم بالتى هى أحسن (والثانى) قوله ولن تفعلوا ولن لنفى المستقبل فثبت أنهم فيما يستقبل من الزمان لا يأتون بسورة من مثله كما أخبر قبل دلك وأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقول فى سورة « سبحان » وهى مكية افتتحها بذكر الاسراء وهو كان بمكة بنص القرآن والخبر المتواتر (قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) فعم بأمره له أن يخبر بالخبر جميع الخلق معجزا لهم قاطعا بأنهم اذا اجتمعوا كلهم لا يأتون بمثل هذا القرآن ولو تظاهروا وتعاونوا على ذلك وهذا التحدى لجميع الخلق وقد سمعه كل من سمع القرآن وعرفه الخاص والعام ، وعلم مع ذلك انهم لم يعارضوه ولا أتوا بسورة من مثله ومن حين بعث صلى الله عليه وسلم والى اليوم الامر على ذلك مع ماعلم من أن الخلق كانوا كلهم كفارا قبل أن يبعث ولما بعث انما تبعه قليل وكان الكفار من أحرص الناس على ابطال قوله مجتهدين بكل طريق يمكن ، تارة يذهبون الى أهل الكتاب فيسألونهم عن أمور من الغيب حتى يسألوه عنها كما سألوه عن قصة يوسف وأهل الكهف وذى القرنين ، ويجتمعون فى مجمع بعد مجمع علىمايقولونه فيه ، وصاروا يضربون له الامثال فيشبهونه بمن ليس بمثله لمجرد شبه ما مع ظهور الفرق فتارة يقولون مجنون وتارة ساحر وكاهن وشاعر الى أمثال ذلك من الاقوال التى يعلمون هم وغيرهم من كل عاقل يسمعها انها

افتراء عليه ، فاذا كان قد تحداهم بالمعارضة مرة بعد مرة وهى تبطل دعواهم فمعلوم انهم لو كانوا قادرين عليها لفعلوها فانه مع وجود هذا الداعى التام المؤكد اذا كانت القدرة حاصلة وجب وجود المقدور . ثم هكذا القول فى سائر الارض فهذا يوجب علما بينا لكل أحد بعجز جميع أهل الارض عن أن يأتوا بمثل هذا القرآن بحيلة وبغير حيلة ، وهذا أبلغ من الآيات التى تكرر جنسها كاحياء الموتى فان هذا لم يأت أحد بنظيره فاقدامه صلى الله عليه وسلم فى أول الامر على هذا التحدى وهو بمكة واتباعه قليل على أن يقول خبرا يقطع به انه لو اجتمع الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله فى ذلك العصر وفى سائر الاعصار المتأخرة لا يكون الا مع جزمه بذلك وتيقنه له ، والا فمع الشك والظن لا يقول ذلك من يخاف أن يظهر كذبه فيفتضح فيرجع الناس عن تصديقه ، واذا كان جازما بذلك متيقنا له لم يكن ذلك الا عن اعلام الله تعالى له بذلك وليس فى العلوم المعتادة أن يعلم الانسان ان جميع الخلق لا يقدرون أن يأتوابمثل كلامه الا اذا علم العالم انه خارج عن قدرة البشر والعلم بهذا يستلزم كونه معجزا . قال شيخ الاسلام رحمه الملك العلام : ونفس نظم القرآن وأسلوبه عجيب بديع ليس من جنس أساليب الكلام المعروفة ولم يأت أحد بنظير هذا الاسلوب فانه ليس من جنس الشعر والرجز ولا الرسائل والخطابه ولا نظمه نظم شىء من كلام الناس عربهم وعجمهم ،ونفس فصاحة القرآن وبلاغته عجيب خارق للعادة وليس له نظير فى كلام جميع الخلق - يعنى من لدن آدم والى الآن وهذا نهاية الاعجاز وبالله التوفيق

فوائد

معنى التحدى

(الاولى) التحدى المعارضة والمتحدى هو الذى يتحدى الناس أى يدعوهم ويبعثهم الى أن يعارضوه فيقال فيه حدانى على هذا الامر أى بعثنى عليه ومنه سمى حادى العيس لانه بحدائه يبعثها على السير . قال شيخ الاسلام فى الجواب الصحيح وقد يريد بعض الناس بالتحدى دعوى النبوة ولكن أصله الاول انتهى . . وفى القاموس : احدى تعمد شيئا كتحداه والحديا بالضم وفتح الدال المهملة المنازعة والمباراة

القول بالصرفة

(الثانية) ما قد أشرت اليه فى قولى وليس فى طوق الورى من أصله الخ أى ليس فى وسع البشر ولا سائر الخلق ولا فى أصل خلقتهم وجبلتهم القدرة على أن يأتوا بمثل أقصر سورة من القرآن العظيم والذكر الحكيم فانه معجز فى نفسه فليس فى وسع الخلق ولا قدرتهم على مضاهاته • قال الحافظ أبو الفرج ابن الجوزى فى كتابه الوفاء : وكان المرتضى العلوى يقول بالصرفة - يعنى أن الله تعالى صرف العرب عن الاتيان بمثله لا أنهم عجزوا • قال الامام أبو الوفاء ابن عقيل : الصرف عن الاتيان بمثله دال على أن لهم قدرة حاصلة ، قال وان كان فى الصرف نوع اعجاز الا أن كون القرآن فى نفسه ممتنعا عن الاتيان بمثله لمعنى يعود عليه آكد فى الدلالة وأعظم لفضيلة القرآن ، قال وما قول من قال بالصرفة الا بمثابة من قال بأن عيون الناظرين الى عصا موسى عليه السلام خيل لهم انها حية وثعبان لا انها فى نفسها انقلبت ، قال فالتحدى للمصروف عن الشىء لا يحسن كما لا يتحدى العجم بالعربية • قال الحافظ ابن الجوزى وأنا أقول انما يصرفون عن الشىء بتغير طباعهم عند نزوله أن يقدروا على مثله فهل وجد لأحد منهم قبل الصرفة منذ وجدت العرب كلام يقاربه مع اعتمادهم على الفصاحة ؟ فالقول بالصرفة ليس بشىء • وقال شيخ الاسلال فى (الجواب الصحيح) : كل ما ذكره الناس من الوجوه فى اعجاز القرآن حجة على اعجازه و لاتناقض فى ذلك بل كل قوم تنبهوا لما تنبهوا له ، ثم قال ومن أضعف الاقوال قول من يقول من أهل الكلام انه معجز بصرف الدواعى مع قيام الموجب لها أو بسلب القدرة الجازمة وهو أن الله تعالى صرف قلوب الامم عن معارضته مع قيام المقتضى التام أو سلبهم القدرة المعتادة فى مثله سلبا عاما مثل قوله لزكريا (آيتك أن لا تكلم الناس ثلاث ليال سويا) فان هذا يقال على سبيل التقدير والتنزيل وهو انه اذا قدر أن هذا الكلام يقدر الناس على الاتيان بمثله فامتناعهم جميعهم عن هذه المعارضة مع قيام الدواعى العظيمة الى المعارضة من أبلغ الآيات الخارقة للعادة بمنزلة من يقول انى آخذ جميع أموال أهل هذا البلد العظيم وأضربهم جميعهم وأجوعهم وهم قادرون على أن يشتكوا الى الله والى ولى الامر وليس فيهم مع ذلك من

يشتكى فهذا من أبلغ العجائب الخارقة للمادة ،ولو قدر أن أحدا صنف كتابا
يقدر أمثاله على تصنيف مثله أو قال شعرا يقدر أمثاله على أن يقولوا مثله
وتحداهم كلهم فقال عارضونى وان لم تعارضونى فأنتم كفار مأواكم
النار ودماؤكم حلال امتنع فى العادة أن لا يعارضه أحد فاذا لم يعارضوه
كان هذا من العجائب الخارقة للعادة ، والذى جاء بالقرآن صلى الله عليه
وسلم قال للخلق كلهم أنا رسول الله اليكم جميعا ومن آمن بى دخل الجنة
ومن لم يؤمن بى دخل النار وقد أبيح لى قتل رجالهم وسبى ذراريهم وغنيمة
أموالهم ووجب عليهم كلهم طاعتى ومن لم يطعنى كان من أشقى الخلق
ومن آياتى هذا القرآن فانه لا يقدر أحد على أن يأتى بمثله وأنا أخبركم
أن أحدا لا يأتى بمثله • فانه لا يخلو اما أن يكون الناس قادرين على
المعارضة أو عاجزين فان كانوا قادرين ولم يعارضوه بل صرف الله دواعى
قلوبهم ومنعها أن تريد معارضته مع هذا التحدى العظيم أو سلبهم القدرة
التى كانت فيهم قبل تحديه فان سلب القدرة المعتادة أن يقول رجل معجزتى
انكم كلكم لا يقدر أحد منكم على الكلام ولا على الاكل والشرب فان المنع
من المعتاد كاحداث غير المعتاد فهذا من أبلغ الخوارق ، وان كانوا عاجزين
ثبت أنه خارق للعادة فثبت كونه خارقا للعادة على تقدير النقيضين النفى
والاثبات فثبت أنه من العجائب الناقضة للعادة فى نفس الأمر • قال شيخ
الاسلام قدس الله سره فهذا غاية التنزل ، قال والا فالصواب المقطوع بهأن
الخلق كلهم عاجزون عن معارضته لا يقدرون على ذلك • قال بل ولا
يقدر محمد نفسه صلى الله عليه وسلم من تلقاء نفسه على أن يبدل سورة
من القرآن بل يظهر الفرق بين القرآن وبين سائر كلامه لكل من له أدنى
تدبر كما أخبر به تعالى فى قوله (قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن
يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) •
قلت وفى شفاء أبى الفضل القاضى عياض بعض ميل للقول بالصرفة فانه
قال : وذهب الشيخ أبو الحسن — يعنى الاشعرى — الى أنه مما يمكن أن يدخل
مثله تحت مقدور البشر ويقدرهم الله عليه ولكنه لم يكن هذا ولا يكون
فمنعهم الله هذا وعجزهم عنه • قال وقال به جماعة من أصحابه • قال وعلى

الطريقين فعجز العرب عنه واقامة الحجة عليهم بما يصح أن يكون فى مقدور البشر وتحداهم بأن يأتوا بمثله قاطع • قال وهو أبلغ فى التعجب وأحرى بالتقريع والاحتجاج بمجيء بشر مثلهم بشيء ليس من قدرةالبشر لازم وهو ابهر آية وأقمع دلالة وعلى كل حال فما أتوا فى ذلك بمقال بل صبروا على الجلاء والقتل وتجرعوا كاسات الصغار والذل وكانوا من شموخ الانف واباء الضيم بحيث لا يؤثرون ذلك اختيارا ولا يرضـونه الا اضطرارا والا فالمعارضة لو كانت من قدرهم لاسرعوا بالحجج وقطـع العذر وافحام الخصم لديهم هذا وهم ممن لهم قدرة على الكلام وقدوة بالمعرفة به لجميع الانام وما منهم الا من جهد جهده واستنفد ما عنده فى اخفاء ظهوره واطفاء نوره فما حلوا فى ذلك بحبة من بنات شفاههم ولا أتوا بنقطة من معين مياههم مع طول الامد وكثرة العدد وتظاهر الوالد وما ولد بل أبلسوا فما نبسوا ، ومنعوا فانقطعوا • انتهى كلامه • وذكر الامام الحافظ ابن الجوزى فى كتابه « الوفاء » عن الامام ابن عقيل انه قال حكى لى أبو محمد بن مسلم النحوى قال كنا نتذاكر اعجاز القرآن وكان ثم شيخ كثير الفضل فقال ما فيه ما يعجز الفضلاء عنه ، ثم ارتقى الى غرفةومعه صحيفة ومحبرةووعد أنه يبادئهم بعدثلاثة أيام بما يعمله مما يضاهى القرآن فلما انقضت الايام الثلاثة صعد واحد فوجده مستندا يابسا وقد جفت يده على القلم • قلت وبمثل هذه يحتج القائلون بالصرفة وليس بحجة لعدم حصر الهلاك فيها بل لما عجز أهلكه الله كمدا ولتجرئه على ما ليس فى وسعه وقدرته والله الموفق

القرآن معجزمن عدة أوجه

(الثالثة) كون القرآن معجزة ليس هو من جهة فصاحته وبلاغته فقط أو نظمه وأسلوبه أو اخباره بالغيب والمغيبـات ولا من صرف الدواعى والمعارضات بل هو آية ومعجزة ظاهرة ودلالة باهرة وحجة قاهرة من وجوه متعددة من جهة اللفظ ومن جهة النظم ومن جهة البلاغة فى دلالة اللفظ على المعنى ومن جهة معانيه التى أمر بها ومعانيه التى أخبر بها عنالله تعالى وأسمائه وصفاته وملائكته وغير ذلك ومن جهة معانيه التى أخبر بها عن الغيب الماضى والغيب المستقبل ومن جهة ما أخبر به عن المعاد ومن جهة

ما بين فيه من الدلائل اليقينية والاقيسة العقلية التى هى الامثال المضروبة كما فى قوله تعالى (ولقد صرفنا فى هذا القرآن للناس من كل مثل وكان الانسان أكثر شيء جدلا) • و (فأبى أكثر الناس الا كفورا) (ولعلهم يتذكرون) (قرآنا عربيا غير ذى عوج لعلهم يتقون) فكل ما ذكره الناس من وجوه الاعجاز فى القرآن فهو حجة على اعجازه ولا تناقض فى ذلك بل كل قوم تنبهوا لما تنبهوا له كما مر فى كلام شيخ الاسلام

القرآن المعجزة العظمى

(الرابعة) القرآن العظيم كلام الله القديم (١) ونوره المبين وحبله المتين وفيه الحجة والدعوة فله بذلك اختصاص على غيره كما ثبت عنه فى الصحيح انه صلى الله عليه وسلم قال « ما من نبى من الانبياء الا وقد أوتى من الآيات ما آمن على مثله البشر وانما كان الذى أوتيته وحيا أوحاه الله الى فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيمة » قال الحافظ ابن حجر فى الفتح يعنى ان معجزتى التي تحديت بها الوحى الذى أنزل على وهو القرآن لما اشتمل عليه من الاعجاز الواضح ، قال وليس المراد حصر معجزاته فيه ولا انه لم يؤت من المعجزات ما أوتى من تقدمه بل المراد انه المعجزة العظمى والآية الكبرى التى اختص بها دون غيره صلى الله عليه وسلم من الانبياء عليهم السلام • انتهى • ولا يخفى أن كون دعوة النبى صلى الله عليه وسلم التى هي شريعته المنعوت بها فيها معجزته التى تحدى الخلق بها من أعظم الآيات وأبهر المعجزات وأظهر الدلالات ، ولهذا استمرت معجـــزته العظمى باستمرار شريعته الغراء وفيه اشارة وتنبيه وايماء وتنويه الى أن هذا النبى الامين خاتم الانبياء والمرسلين فشريعته دائمة ما دام الملوان ومعجزته باقية ما كر الجديدان وبالله التوفيق •

مناسبة المعجزة للعصر الذى وقعت فيه

(الخامسة) كان الانبياء عليهم الصلاة والسلام يأتون بالمعجزات الباهرة والآيات الظاهرة لأقوامهم الكافرة وأممهم الفاجرة فكان كل نبى تقع معجزته مناسبة لحال قومه كما كان السحر فاشيا عند فرعون فجاء موسى بالعصا على صورة ما يصنع السحرة لكنها تلقفت ما صنعوا فبسوا وانصدعوا واحتاروا وانقمعوا وعلموا أن ما جاء به موسى هو الحق اليقين (فألقى

(١) مر ما فيه فى التعليق على المتن

السحرة ساجدين * قالوا آمنا برب العالمين * رب موسى وهارون) ولم يقع ذلك بعنه لغير موسى من الانبياء عليهم السلام . ولما كان الزمن الذى بعث فيه عيسى عليه السلام قد فشا فيه الاطباء والحكماء بين الأنام وكان أمرهم فى غاية الظهور والاعتناء بصناعتهم ظاهر مشهور جاء سيدنا المسيح باحياء الموتى وابراء الاكمه والأبرص من الداء العضال القبيح وخلق من الطين كهيئة الطير باذن الله فطاشت قلوب الحكماء وأذعنوا أنه من عند الله .ولما كانت العرب أرباب البلاغة وجراثيم الفصاحة ورأس البيان وأرومة الوضاحة وفرسان الكلام وأرباب النظام قد خصوا من البلاغة والحكم مالم يختص به غيرهم من سائر الامم وقد أوتوا من ذرابة اللسان مالم يؤت مثله انسان، ومن فصل الخطاب ما يقيد الالباب ، جعل الله تعالى لهم ذلك طبعا وسليقة وفيهم غريزة وحقيقة ، يأتون منه على البديهة بالعجب العجاب ويدلون به الى كل سبب من الأسباب ، فيخطبون بديهة فى المقامات الشديدة الخطب ويرتجزون به فى قساطل الحرب بين الطعن والضرب ، ويمدحون ويقدحون ويتوسلون ويتوصلون ويبتدون(١) ويتنصلون ويرفعون ويضعون، فيأتون من ذلك بالسحر الحلال ويطوقون من أوصافهم ما هو أجمل من سمط اللآل فيخدعون الالباب ويذللون الصعاب ويذهبون الاحن ويهيجون الدمن ، ويجرئون الجنان ويبسطون من يد الجعد البنان ، ويصيرون الناقص كاملا ويتركون النبيه خاملا ، منهم البدوى ذو اللفظ الجزل والقول الفصل ، والكلام الفخم والطبع الجوهرى والمنزع القوى ، ومنهم الحضرى ذو البلاغة البارعة والالفاظ الناصعة والكلمات الجامعة ، والطبع السهل والتصرف فى القول ، القليل الكلفة الكثير الرونق الرقيق الحاشية ، وعلى كل حال لهم فى البلاغة الحجة البالغة والقوة الدامغة ، لا يشك أن الكلام طوع مرادهم والبلاغة ملك قيادهم ، فما راعهم الا والرسول الكريم قد أتى بهذا الكتاب العزيز العظيم ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد * قد أحكمت آياته وفصلت كلماته ، وبهرت بلاغته العقول وظهرت فصاحته على كل مقول ، وتضافر ايجازه واعجازه وتظاهرت

---

(١) لعله : ويعتذرون

حقيقته ومجازه ، وهم أفسح ما كانوا فى هذا الباب مجالا وأوسع فىاللغة والغريب مقالا ، بلغتهم التى بها يتحاورون ومنازعهم التى عنها يتناضلون ، صارخا بهم فى كل حين ومقرعا لهم بضعا وعشرين من السنين وموبخا لهم على رؤوس ملائهم أجمعين (أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله (١) وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين) فلم يزل النبى صلى الله عليه وسلم يقرعهم أشد التقريع ويوبخهم غاية التوبيخ ، ويسفه أحلامهم ويشتت نظامهم ويذم آلهتهم وآباءهم ويستبيح أرضهم وأموالهم ونساءهم وأبناءهم ، وهم فى كل ذلك ناكصون عن معارضته محجمون عن مماثلته ، يخادعون أنفسهم بالتشغيب بالتكذيب والاغتراء بالافتراء ، فيقولون تارة هذا سحر مفترى وأخرى أساطير الاولين وطورا يقولون اذا سمعوا آيات الكتاب : قلوبنا فى أكنة مما تدعونا اليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب ، ومنهم من استحمق وهذى فقال بضرب من الدعوى : لو نشاءلقلنا مثل هذا ، ومن تعاطى شيئا من سخفائهم بدعوى المعارضة افتضح وانكشف عواره وما نجح وظهر بواره ، ولما سمع الوليد بن المغيرة منالنبى صلى الله عليه وسلم قوله تعالى (ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى) قال والله ان له لحلاوة وان عليه لطلاوة ، وان أسفله لمغدق وان أعلاه لمثمر ما يقول هذا بشر • وذكر أبو عبيدأن اعرابيا سمع رجلا يقرأ (فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين) فسجد فقيل له فى ذلك فقال سجدت لفصاحته • وسمع آخر رجلا يتلو (فلما استيأسوا منه خلصوا نجيا) فقال أشهد أن مخلوقا لا يقدر على مثل هذا الكلام • وذكر القاضى عياض فى الشفاء أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يوما نائما فى المسجد اذا هو بقائم على رأسه يتشهد شهادة الحق فاستخبره فأعلمه أنه من بطارقة الروم ممن يحسن كلام العرب وغيرها وانه سمع قوما منأسرى المسلمين يقرءون آية من كتابكم فتأملتها فاذا هى قد جمع فيها ماأنزل على عيسى ابن مريم عليه السلام من أحوال الدنيا والآخرة وهى قوله تعالى : (ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون) • وحكى

(١) مخ« بعشر سور مثله مفتريات » وهى آية أخرى أنظر سورة يونس ٣٨ وسورة هود ١٣

الاصمعى انه سمع كلام جارية (١) فقال لها قاتلك الله ما أفصحك فقالت أو يعد هذا فصاحة بعد قول الله تعالى (وأوحينا الى أم موسى أنأرضعيه) الآية فجمع فى آية واحدة بين أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين • فهذا من أنواع اعجاز القرآن العظيم والذكر الحكيم وفوق كل ذى علم عليم : وبالله التوفيق

هل فى بعض آية اعجاز ؟

(السادسة) قال علماؤنا وفى بعض آية من القرآن العظيم اعجاز وعلى التحقيق يتفاضل ثوابه ويتفاوت اعجازه كما فى مختصر التحرير وغيره من كتب لاصول•قال الامامالقاضى أبو يعلى ابن الفراء قدسالله روحه : فىبعض آية من القرآن اعجاز لقوله تعالى (فليأتوا بحديث مثله) قال القاضى علاء الدين المرداوى فى شرح التحرير : والظاهر أن القاضى أبا يعلى أراد مافيه الاعجاز والا فلا يقول مثل قوله تعالى (ثم نظر) ونحوها ان فى بعضها اعجازا أو فيها أيضا وهو واضح • وقال الامام أبو الخطاب الكلوذانى أحد أعلام المذهب والحنفية لا اعجاز فى بعض آية بل فى آية • وهذا ليس على اطلاقه فان بعض الآيات الطوال فيها اعجاز كما ان الآية القصيرة كقوله تعالى (ثم نظر) لا يلزم أن يكون فيها اعجاز • وقال بعض المحققين القرآن كله معجز لكن منه مالو انفرد لكان معجزا بذاته ومنه ما اعجـــازه مع الانضمام فان القرآن يتفاوت اعجازه ويتفاضل ثوابه فان الفرق يظهر بين آية الكرسى وآية الدين وبين سورة الاخلاص وسورة تبت فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى أنزل عليه القرآن وهو أعلم بجملهوتفاصيله وبفضله وتفضيله : « ياسين قلب القرآن ، وفاتحة الكتاب أفضل سورة فى القرآن ، وآية الكرسى أعظم آية فى القرآن ، وقل هو الله أحد تعدلثلث القرآن » والاحاديث الواردة فى فضائل القرآن وتخصيص بعض السور والآيات بالتفضيل وكثرة الثواب فى تلاوتها كثيرة جدا • وذهب الامام

(١) بهامش مخ « روى أن الاصمعى قال رأيت فى البادية جارية صغيرة لم تبلغ الحلم وهى تقول أستغفر الله • فقلت لها مم تستغفرين فانه لم يجر عليك قلم تكليف فقالت : أستغفر الله لذنبى كله ، قتلت انسانا بغير حل، مثل غزال ناعم فى دله ، وانتصف الليل ولم اصله • فقلت لها ما أفصحك الخ •»

أبو الحسن الاشعرى والقاضى الباقلانى وغيرهما الى المنع ويروى هذا القول عن الامام مالك رضى الله عنه ولذلك كره أن تردد سورة دون غيرها • قال بعض العلماء والعجب ممن يذكر الخلاف فى ذلك بعد ورود النصوص عن صاحب الشريعة بالتفضيل • وقال العز بن عبد السلام كلام الله فى‌الله أى المتعلق بذاته وصفاته والثناء على نفسه ونحو ذلك أفضل من كلامه فى غيره فقل هو الله أحد أفضل من تبت يدا أبى لهب • وقال الحافظ جلال الدين السيوطى فى كتابه ـ الاتقان فى‌علوم القرآن ـ اختلف‌القائلون بالتفضيل فقال بعضهم التفضيل راجع الى عظم الاجر ومضاعفة الثواب بحسب انفعالات النفس وخشيتها وتدبرها وتفكرها عند ورود أوصاف العلى الاعلى وقيل بل يرجع لذات اللفظ وان ما تضمنه قوله تعالى (والهكم اله واحد) الآية وآية الكرسى وآخر سورة الحشر وسورة الاخلاص من الدلالات على وحدانية الله تعالى وصفاته ليس موجودا مثلا فى (تبت يدا أبى لهب) وما كان مثلها فالتفضيل انما هو بالمعانى العجيبة وكرامتها وبالله التوفيق (١)

« فصـــل »

فصل فى الصفات التى ينفرد باثباتها السلفيون

فى ذكر الصفات التى يثبتها لله تعالى أئمة السلف وعلماء الأثر دون غيرهم من علماء الخلف وأهل الكلام فضلا عن فرق أهل الزيغ والفساد وأساطين الفلاسفة وأهل الالحاد ولما كان فى اثبات هذه الصفات ما يبدر للعقول الفلسفية والأقيسة الكلامية والاخيلة الخلفية ما يوهم التجسيم قدم امام المقصود ما ينفى ذلك بقوله :

قوله وليس ربنا بجوهر الخ وما أورد عليه

((وليس ربنا بجـــوهر ولا عرض ولا جسم تعالى ذو العلى))
((سبحانه قد استوى كمـا ورد من غير كيف قد تعالى أن يحد))

((وليس ربنا)) تبارك وتعالى ((بجوهر)) يراد به ما قابل العرض ويراد به ما فى اصطلاح أهل الكلام يعنى العين الذى لا يقبل الانقسام لا فعلا ولا وهما ولا فرضا وهو الجزء الذى لا يتجزأ ، وعند الفلاسفة وبعض

---

(١) بهامش مخ « بلغ قراءة على شيخنا الشيخ الاحل المبجل الاواه الشيخ عبد الله حفظه الله ونفعنا بعلومه والمسلمين وذلك فى ب ٩ ـ ١٢٥٩

محققى النظار لا وجود للجوهر الفرد أعنى الجزء الذى لا يتجزأ واليه ميل شيخ الاسلام ابن تيمية • قال المثبتون للجوهر الفرد بأنه لا شكل له لان الشكل هيئة أحاطة الحد الواحد أو الحدود فلو كان له شكل لكان محاطا لحد أو حدود وحينئذ يلزم انقسامه لأن ما يلاقى منه بجزء من المحيط يغاير الملاقى بآخر وهو الانقسام لانا لا نعنى بالتقسيم الا مايفرض فيه شيء غير شيء فلا يكون ما فرضناه جوهرا فردا واذا لم يكن له شكل امتنع أن يكون مشاكلا لشيء لأن المشاكلة هى الاتحاد فى الشكل وليس للجوهر الفرد شكل كما علمت • ولسنا بصدد تقريره ولا ابطاله وانما نحن بصدد نفى كون البارى جل شأنه جوهرا ((ولا)) ربنا جل شأنه وتعالى سلطانه بـ ((عرض)) وهو ما لا يقوم بذاته بل بغيره بأن يكون تابعا لذلك الغير فى التحيز أو مختصا به اختصاص النعت بالمنعوت لا بمعنى أنه لايمكن تعقله بدون المحل كما قد يتوهم فان ذلك انما هو فى بعض الاعراض ((ولا)) هو سبحانه : ((جسم)) (١) وهو ما تركب من جزئين فصاعدا وعند بعض

وجوب التحرز عن اطلاقه مالم يطلقه الشرع

---

(١) بهامش مخ مالفظه :

« من له اطلاع على كلام الصحابة والتابعين وأئمة السلف علم انهم لم يتكلموا بلفظ الجسم والجوهر والعرض فى حق الرب سبحانه لا نفيا ولا اثباتا فيكون من الكلام المبتدع •

قال شيخ الاسلام تقى الدين ابن تيمية رحمه الله فى رسالته التدمرية فى أثناء كلام له : ولما كان الرد على من وصف الله بالنقائص بهذه الطريق طريقا فاسدا لم يسلكه أحد من السلف والأئمة فلم ينطق أحد منهم فى حق الله بالجسم لا نفيا ولا اثباتا ولا بالجوهر والتحيز ونحو ذلك لانها عبارات مجملة لا تحق حقا ولا تبطل باطلا فهذا من الكلام المبتدع الذى أنكره السلف والأيمة • وقال رحمه الله فى موضع آخر فى بعض كتبه : ولهذا كره السلف والأئمة كالامام احمد وغيره أن ترد البدعة بالبدعة فكان أحمد فى مناظرته للجهمية لما ناظروه على أن القرآن مخلوق وألزمه برغوث وكان من أحذقهم فى المناظرة انه اذا كان الكلام غير مخلوق يكون الله جسما ، وهذا منتف فلم يوافق أحمد لا على نفى ذلك ولا على اثباته بل قال أقول هو أحد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد • فبين أنى لاأقول جسم ولا ليس بجسم لأن كلا الامرين بدعة • انتهى •

وقال القرطبى فى المفهم فى شرح حديث أبغض الرجال الى الله الألد الخصم قال قد قطع بعض الأئمة بأن الصحابة لم يخوضوا فى الجوهر والعرض وما يتعلق بذلك من مباحث المتكلمين فمن رغب عن طريقتهم فكفاه ضلالا » =

النظار لا بد من تركبه من ثلاثة أجزاء لتتحقق الابعاد الثلاثة أعنى الطول والعرض والعمق وعند البعض من ثمانية ليتحقق تقاطع الابعاد على زوايا قائمة ، قال السعد : وليس هذا نزاعا راجعا الى الاصطلاح حتى يدفع بأن

= وفى تنبيه ابن سحمان ص ٧ فما بعدها

« أعلم وفقنى الله واياك للعلم النافع والعمل الصالح ان لفظ الجوهر والعرض والجسم ألفاظ مبتدعة مخترعة لم يرد بنفيها ولا اثباتها كتاب ولا سنة ولا قول صاحب ولا أحد من أئمة التابعين ولا من بعدهم من الأئمة المهتدين الذين يعتد بقولهم فى هذا الباب فاذا تحققت ذلك فهذه الالفاظ التى لم يرد نفيها ولا اثباتها لا تطلق حتى ينظر في مقصود قائلها فان كان معنى صحيحا قبل لكن ينبغى التعبير عنه بألفاظ النصوص دون الالفاظ المجملة الا عند الحاجة مع قرائن تبين المراد مثل أن يكون الخطاب مع من لايتم المقصود معه ان لم يخاطب بها ونحو ذلك ، فاذا تبين هذا فالواجب على من منحه الله العلم والمعرفة أن ينظر فى هذا الباب أعنى باب الصفات فما أثبته الله ورسوله أثبته وما نفاه الله ورسوله نفاه ، والالفاظ التى ورد بها النص يعتصم بها فى الاثبات والنفى ، فنثبت ما أثبته الله ورسوله من الالفاظ والمعانى وننفى ما نفته نصوصها من الالفاظ والمعانى وأما كون شيخ الاسلام ابن تيمية قدس الله روحه وتلميذه ابن القيم مالا الى انه لا وجود للجوهر الفرد فحق ولكن المقصود بذلك الرد على من أثبت الجوهر الفرد وانه لا حقيقة لوجوده ولا يلزم من ذلك اذا رده ونفاه انه يرى ان اطلاق هذه الالفاظ على الله نفيا واثباتا جائز فقد ذكر رحمه الله فى بعض أجوبته ما نصه : فان ذكر لفظ الجسم فى أسماء الله تعالى وصفاته بدعة لم ينطق بها كتاب ولا سنة ولا قالها أحد من سلف الامة وأئمتها ولم يقل أحد منهم أن الله تعالى جسم ولا ان الله تعالى ليس بجسم ولا ان الله تعالى جوهر ولا ان الله تعالى ليس بجوهر . انتهى . وكما صرح بذلك فيما ذكرناه عنهما وفى بعض مواضع أخر خلافا لما ذكره الناظم وأقره الشارح

اذا تقرر هذا فلا بد من ذكر كلام أئمة أهل الاسلام على هذه الالفاظ المبتدعة المخترعة التى أدخلها بعض المنتسبين الى السنة من أهل الكلام وغيرهم فى العقائد ونسبها بعضهم الى مذهب السلف رضوان الله عليهم وذلك مثل لفظ الجوهر والجسم والأعراض والأغراض والابعاض والحدود والجهات وحلول الحوادث وغيرها قال شيخ الاسلام ابن تيمية قدس الله روحه : وكانت المعتزلة تقول ان اللهمنزه عن الاغـــراض والابعـــــاض والحوادث والحدود . ومقصودهم نفى الصفات ونفى الافعال ونفى مباينته للخلق وعلوه على العرش وكانوا يعبرون عن منهب أهل الاثبات أهل السنة بالعبارات المجملة التى تشعر الناس بفساد المذهب فانهم اذا قالوا ان الله منزه عن الأعراض لم يكن فى ظاهر العبارة ما ينكر لأن الناس يفهمون من ذلك انه منزه عن الاستحالة والفساد كالاعراض التى تعـــرض لبنى آدم من الأمراض والاسقام ولا ريب أن الله منزه عن ذلك ولكن مقصودهم انه ليس له علم ولا قدرة ولا حياة ولا كلام قائم به ولا غير ذلك من الصفات

لكل واحد أن يصطلح على ماشاء بل هو نزاع فى أن المعنى الذى وضع لفظ الجسم بازائه هل يكفى فيه التركيب من جزئين أم لا ؟ احتج الاولون بأنه يقال لأحد الجسمين اذا زيد عليه جزء واحد انه أجسم من الآخر

التى يسمونها هم أعراضا • وكذلك اذا قالوا : ان الله منزه عن الحدود والاحياز والجهات ، أوهموا الناس بأن مقصودهم بذلك أنه لا تحصره المخلوقات ، ولا تحوزه المصنوعات ، وهذا المعنى صحيح ومقصودهم به انه ليس مباينا للخلق ولا منفصلا عنه ، وأنه ليس فوق السموات رب ولا على العرش اله ، وأن محمدا لم يعرج به اليه ولم ينزل منه شىء ، ولا يصعد اليه شىء ، ولا يتقرب اليه بشىء ، ولا ترفع الايدى اليه فى الدعاء ، ولا غيره ، ونحو ذلك من معانى الجهمية • واذا قالوا انه ليس بجسم أوهموا الناس انه ليس من جنس المخلوقات ولا مثل أبدان الخلق وهذا المعنى صحيح ولكن مقصودهم بذلك أنه لا يرى ولا يتكلم بنفسه ولا تقوم به صفة ولا هو مباين للخلق وأمثال ذلك • واذا قالوالاتحله الحوادث• أوهموا الناس أن مرادهم انه لا يكون محلا للتغيرات والاستحالات ونحو ذلك من الاحداث التى تحدث للمخلوقين فتحيلهم وتفسدهم ، وهذا المعنى صحيح ولكن مقصودهم بذلك انه ليس له فعل اختيارى يقوم بنفسه ولا له كلام ولا فعل يقوم به يتعلق بمشيئته وقدرته وانه لا يقدر على استواء أو نزول أو اتيان أو مجىء ، وأن المخلوقات التى خلقها الله لم يكن منه عند خلقها فعل أصلا بل عين المخلوقات هى الفعل ليس هناك فعل ومفعولوخلق ومخلوق بل المخلوق عين الخلق والمفعول عين الفعل ونحو ذلك • انتهى •

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى فى (الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة) : ويقولون نحن ننزه الله تعالى عن الاعراض والاغراض والابعاض والحدود والجهات وحلول الحوادث ، فيسمع الغر المخدوع هذه الالفاظ فيتوهم منها أنهم ينزهون الله عما يفهم من معانيها عند الاطلاق من العيوب، والنقائص والحاجة فلا يشك أنهم يمجدونه ويعظمونه ، ويكشف الناقـد البصير ما تحت هذه الالفاظ فيرى تحتها الالحاد وتكذيب الرسل وتعطيل الرب تعالى عما يستحقه من كماله — فتنزيههم عن الاعراض هو جحد صفاته كسمعه وبصره وحياته وعلمه وكلامه وارادته فان هذه أعراض له عندهم لا تقوم الا بجسم فلو كان متصفا بها لكان جسما وكانت أعراضا له وهو منزه عن الاعراض

وأما الاغراض فهى الغاية والحكمة التى لأجلها يخلق ويفعل ويأمـــر وينهى ويثيب ويعاقب وهى الغايات المحمودة المطلوبة من أمره ونهيه وفعله فيسمونها أغراضا منه وعللا ينزهونه عنها

وأما الأبعاض فمرادهم بتنزيهه عنها أنه ليس له وجه ولا يدان ولا يمسك السموات على أصبع والارض على أصبع والشجر على أصبع والماء على أصبع فان ذلك كله أبعاض والله منزه عن الابعاض •

وأما الحدود والجهات فمرادهم بتنزيهه عنها أنه ليس فوق السموات رب ولا على العرش اله ولا يشار اليه بالاصابع الى فوق كما أشار اليه أعلم الخلق به ولا ينزل منه شىء ولا يصعد اليه شىء ولا تعرج الملائكة والروح

فلولا ان مجرد التركيب كاف فى الجسمية لما صار بمجرد زيادة الجزء أزيد فى الجسمية • وفيه انه أفعل من الجسامة بمعنى الضخامة وعظم المقدار يقال جسم الشىء اذا عظم فهو جسيم والكلام فى الجسم الذى هو

اليه ولا رفع المسيح اليه ولا عرج برسوله محمد صلى الله عليه وسلم اليه اذ لو كان لذلك لزم اثبات الحدود والجهات هو منزه عن ذلك •

وأما حلول الحوادث فيريدون به أنه لا يتكلم بقدرته ومشيئته ولا ينزل كل ليلة الى سماء الدنيا ولا يأتى يوم القيمة ولا يجىء ولا يغضب بعد أن كان راضيا ولا يرضى بعد أن كان غضبان ولا يقوم به فعل البتة ولا أمر مجدد بعد أن لم يكن ولا يريد شيئا بعد أن لم يكن مريدا له فلا يقول له كن حقيقة ولا استوى على عرشه بعد أن لم يكن مستويا ولا يغضب يوم القيامة غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله ، ولا ينادى عباده يوم القيامة بعد أن لم يكن مناديا لهم ، ولا يقول للمصلى اذا قال (الحمد لله رب العالمين) حمدنى عبدى فاذا قال (الرحمن الرحيم) قال أثنى على عبدى فاذا قال (مالك يوم الدين) قال مجدنى عبدى ، فان هذه كلها حوادث وهو منزه عن حلول الحوادث •

الى أن قال : واعلم أن لفظ الجسم لم ينطق به الوحى اثباتا فيكون له الاثبات ولا نفيا فيكون له النفى فمن أطلقه نفيا أو اثباتا سئل عما أراد فان قال أردت بالجسم معناه فى لغة العرب وهو البدن الكثيف الذىلايسمى فى اللغة جسما سواه فلا يقال للهواء جسم لغة ولا للنار ولا للماء فهذه اللغة وكتبها بين أظهرنا فهذا المعنى منفى عن الله عقلا وسمعا وان أردتم به المركب من المادة والصورة والمركب من الجواهر الفردة فهذا منفى عن الله قطعا والصواب نفيه عن الممكنات أيضا فليس جسم المخلوق مركبا من هذا • ولا من هذا ، وان أردتم بالجسم ما يوصف بالصفات ويرى بالابصار ويتكلم ويكلم ويسمع ويبصر ويرضى ويغضب فهـــذه المعانى ثابتة لله تعالى وهو موصوف بها فلا ننفيها عنه بتسميتكم للموصوف بها جسما • ــ الى أن قال : وان أردتم بالجسم ما يشار اليه اشارة حسية فقد أشار أعرف الخلق به باصبعه رافعا بها الى السماء بمشهد الجمع الأعظم مستشهدا له لا للقبلة•وانأردتم بالجسم ما يقال له أين ؟ فقدسأل أعلم الخلق به عنه بأين منبها على علوه على عرشه وسمع السؤال بأين وأجاب عنه ولم يقل هذا السؤال انما يكون عن الجسم وانه ليس بجسم ، وان أردتم بالجسم ما يلحقه (من) و (الى) فقد نزل جبرائيل من عنده وعرج برسوله اليه ، واليه يصعد الكلم الطيب ،وعبده المسيح رفع اليه •وان أردتم بالجسم ما يتميز منه أمر غير أمر فهو سبحانه موصوف بصفات الكمال جميعها من السمع والبصر والعلم والقدرةوالحياة وهذه صفات متميزةمتغايرة ومنقال انها صفة واحدة فهو بالمجانين أشبه منه بالعقلاء ، وقد قال أعلم الخلق به (أعوذ برضاك من سخطك) الحديث • قال وأما استعاذته صلى الله عليه وسلم به منه باعتبارين مختلفين فان الصفة المستعاذ بها والصفة المستعاذ منها صفتان لموصوف واحد ورب واحد فالمستعيذ باحدى الصفتين من الاخرى مستعيذ بالموصوف بهما منه • وان أردتم بالجسم ماله وجه

اسم لا صفه • انتهى • وقال الكرمانى فى شرح الجواهر : الجسم يطلق بالاشتراك على معنيين الاول الجسم الطبيعى المنسوب الى الطبيعة التى هى مبدأ الآثار وعرفه الحكماء بأنه جوهر يمكن أن يفرض فيه ابعاد ثلاثة

ويدان وسمع وبصر فنحن نؤمن بوجه ربنا الاعلى وبيديه وبسمعه وبصره وغير ذلك من صفاته التى أطلقها على نفسه ، وان أردتم بالجسم ما يكون فوق غيره ومستويا على غيره فهو سبحانه فوق عباده مستو على عرشه •

وكذلك ان أردتم بالتشبيه والتركيب هذه المعانى التى دل عليها الوحي والعقل فنفيكم لها بهذه الالقاب المنكرة خطأ فى اللفظ والمعنى وجناية على ألفاظ الوحى ، أما الخطأ اللفظى فتسميتكم الموصوف بذلك جسما مركبا مؤلفا مشبها بغيره وتسميتكم هذه الصفات تركيباوتجسيما وتشبيها فكذبتم على القرآن وعلى الرسول وعلى اللغة ووضعتم لصفاته ألفاظا منكم بدأت واليكم تعود ، وأما خطأكم فى المعنى فنفيكم وتعطيلكم لصفات كماله بواسطة هذه التسمية والالقاب فنفيتم المعني الحق وسميتموه بالاسم المنكر • الى أن قال : وكذلك اذا قال الفرعونى لو كان على السموات رب أو على العرش اله لكان مركبا ، قيل له : لفظ المركب فى اللغة هو الذى ركبه غيره فى محله كقوله تعالى (فى أى صورة ماشاء ركبك) وقولهم ركبت الخشبة والباب وما يركب من أخلاط أجزاء بحيث كانت أجزاؤه مفرقة فاجتمعت وركبت حتى صار شيئا واحدا كقولهم ركبت الدواء من كذا وكذا • وان أردتم بقولكم لو كان فوق العرش كان مركبا هذا التركيب المعهود وأنه كان متفرقا فاجتمع فهو كذب وفرية وبهت على الله وعلى الشرع وعلى العقل ، وان أردتم انه لو كان فوق العرش لكان عاليا على خلقه بائنا منهم مستويا على عرشه ليس فوقه شيء فهذا المعنى حق فكأنك قلت لو كان فوق العرش لكان فوق العرش فنفيت الشيء بتغيير العبارة وقلبها الى عبارة أخرى وهذا شأنكم فى أكثر مطالبكم •

وان أردتم بقولكم كان مركبا أنه يتميز منه شيء عن شيء فقد وصفته أنت بصفات يتميز بعضها من بعض فهل كان عندك هذا تركيبا ؟ فان قلت هذا لا يقال لى وانما يقال لمن أثبت شيئا من الصفات فأما أنا فلا أثبت له صفة واحدة فرارا من التركيب ، قيل لك : العقل لم يدل على نفى المعنى الذى سميته أنت مركبا وقد دل الوحى والعقل والفطرة على ثبوته أتنفيه بمجرد تسميتك الباطلة ؟ فان التركيب يطلق ويراد به خمسة معان

١ - تركيب الذات من الوجود والماهية عند من يجعل وجودها زائدا على ماهيتها فاذا نفيت هذا جعلته وجودا مطلقا انما هو فى الاذهان لا وجود له فى الاعيان •

٢ - تركيب الماهية من الذات والصفات فاذا نفيت هذا التركيب جعلته ذاتا مجردة عن كل وصف لا يسمع ولا يبصر ولا يعلم ولا يقدر ولا يريد ولا حياة له ولا مشيئة ولا صفة أصلا فكل ذات فى المخلوقات (••••) من هذه الذات فاستفدت بهذا التركيب كفرك بالله وجحدك لذاته ولصفاته وأفعاله •

٣ - تركيب الماهية الجسمية من الهيولى والصورة كما يقوله الفلاسفة •

متقاطعة على زوايا قائمة ، فقوله يمكن مشعر بأن مناط الجسمية ليس فرض الابعاد بالفعل حتى يخرج الجسم عن الجسمية بأن لا يفرض فيه الابعـــاد بالفعل بل مجرد امكان الفرض وان لم تفرض أصلا كاف ، وتصوير فرض

---

٤ ــ التركيب من الجواهر الفردة كما يقوله كثير من أهل الكلام
٥ ــ تركيب الماهية من أجزاء كانت متفرقة فاجتمعت وتركبت فان أردت بقولك لو كان فوق العرش لكان مركبا كما يدعيه الفلاسفة والمتكلمون قيل لك : جمهور العقلاء عندهم ان الاجسام المحدثة المخلوقة ليست مركبـــه لا من هذا ولا من هذا فلو كان فوق العرش جسم مخلوق ومحدث لم يلزم أن يكون مركبا بهذا الاعتبار فكيف ذلك فى حق خالق الفرد والمركب الذى يجمع المتفرق ويفرق المجتمع ويؤلف بين الاشياء فيركبها كما يشاء ؟.
والعقل انما يدل على اثبات اله واحد ورب واحد لا شريك له ولا شبيه له لم يلد ولم يولد ، ولم يدل على أن ذلك الرب الواحد لا اسم له ولا صفة ولا وجه ولا يدين ولا هو خلقه ولا يصعد اليه شيء ولا ينزل منه شيء ، فدعوى ذلك على العقل كذب صريح عليه كما هى كذب صريح على الوحى.
وكذلك قولهم ننزهه عن الجهة ان أردتم انه منزه عن جهة وجودية تحيط به وتحويه احاطة الظرف بالمظروف فنعم هو أعظم من ذلك وأكبر وأعلى ، ولكن لا يلزم من كونه فوق عرشه هذا المعنى :
وان أردتم بالجهة أمرا يوجب مباينة الخالق للمخلوق وعلوه على خلقه واستواءه على عرشه فنفيكم بهذا المعنى باطل وتسميته جهة وقلتم منزه عن الجهات وسميتم العرش حيزا وقلتم ليس بمتحيز وسميتم الصفات أعراضا وقلتم الرب منزه عن الأعراض ، وسميتم كلامه بمشيئته ونزوله الى سماء الدنيا ومجيئه يوم القيامة لفصل القضاء بمشيئته وارادته ونزوله لمرادها وادراكه المقارن لوجود المدرك وغضبه اذا عصى ورضاه اذا أطيع وفرحه اذا تاب اليه العباد ونداءه لموسى حين أتى الشجرة ونداءه للأبوين حين أكلا من الشجرة ونداءه لعباده يوم القيامة ومحبته لمن كان يبغضه حال كفره ثم صار يحبه بعد ايمانه وربوبيته التى هو كل يوم هو فى شأن « حوادث » وقلتم هو منزه عن حلول الحوادث وحقيقة هذا التنزيه أنه متنزه عن الوجود وعن الربوبية وعن الملك وعن كونه فعالا لما يريد بل عن الحياة والقيومية
فانظر ماذا تحت تنزيه المعطلة النفاة بقولهم ليس بجسم ولا جوهر ولا مركب ولا تقوم به الاعراض ولا يوصف بالأبعاض ولا يفعل بالاغراض ولا تحله الحوادث ولا تحيط به الجهات ولا يقال فى حقه أين وليس بمتحيز كيف كسوا حقائق أسمائه وصفاته وعلوه على خلقه واستوائه على عرشه وتكليمه لخلقه ورؤيتهم له بالأبصار فى دار كرامته هذه الألفاظ ثم توسلوا الى نفيها بواسطتها وكفروا وضللوا من أثبتها واستحلوا منه مالم يستحلوه من أعداء الله من اليهود والنصارى ، فالله الموعد واليه التحاكم ، وبين يديه التخاصم .

★ نحن واياهم نموت ولا ★ أفلح يوم الحساب من ندما ★

انتهى =

الابعاد فى الجسم بعد تأليف ما كان وهو الطول ، وبعد آخر مقاطع له على زوايا قائمة وهو العرض ، وبعد آخر مقاطع لهما كذلك وهو العمق ، فقوله على زوايا قائمة ليس للاحتراز بل بيان الواقع فان حقيقة الجسم لا يكون

— وقال شيخ الاسلام الشيخ محمد بن عبدالوهاب رحمه الله تعالى فى رسالته الى عبد الله بن سحيم وقد طلب منه أن يذكر له شيئا من معنى كتاب المويليس فقال رحمه الله فى الجواب بعد كلام له وذلك أن كتابه مشتمل على الكلام فى ثلاثة أنواع من العلوم (الأول) علم الاسماء والصفات الذى يسمى علم أصول الدين ويسمى أيضا العقائد (والثانى) الكلام على التوحيد والشرك (والثالث) الاقتداء بأهل العلم واتباع الأدلة وترك ذلك ٠

أما الأول فانه أنكر على أهل الوشم انكارهم على من قال ليس بجوهر ولا جسم ولا عرض وهذا الانكار جمع بين اثنتين احداهما انه لم يفهم كلام ابن عبدان وصاحبه «الثانية» انه لم يفهم صورة المسئلة وذلك أن مذهب الامام احمد وغيره من السلف انهم لا يتكلمون فى هذا النوع ٠ الا بما تكلم به الله ورسوله فما أثبته الله لنفسه وأثبته له رسوله أثبتوه مثل الفوقية والاستواء والكلام والمجيء وغير ذلك وما نفاه الله عن نفسه ونفاه عنه رسوله صلى الله عليه وسلم نفوه مثل المثل والند والسمى وغير ذلك، وأما ما لا يوجد عن الله ورسوله اثباته ولا نفيه مثل الجوهر والعرض والجهة وغير ذلك لا يثبتونه فمن نفاه مثل صاحب الخطبة التى أنكرها ابن عبدان وصاحبه فهو عند احمد والسلف مبتدع ، ومن أثبته مثل هشام ابن الحكم وغيره فهو عندهم مبتدع ، والواجب عندهم السكوت عن هذا النوع اقتداء بالنبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه ٠ الى أن قال : وأنا أذكر لك كلام الحنابلة فى هذه المسئلة ٠

قال الشيخ تقى الدين بعد كلام له على من قال انه ليس بجسم ولا جوهر ولا عرض ككلام صاحب الخطبة قال رحمه الله تعالى : فهذه الالفاظ لا يطلق اثباتها ولا نفيها كلفظ الجوهر والجسم والتحيز والجهة ونحو ذلك من الالفاظ ولهذا لما سئل ابن سريج عن التوحيد فذكر توحيد المسلمين وقال وأما توحيد أهل الباطل فهو الخوض فى الجواهر والاعراض وانما بعث النبى صلى الله عليه وسلم بانكار ذلك ٠ وكلام السلف والأئمة فى ذم الكلام وأهله مبسوط فى غير هذا الموضع ٠ والمقصود أن الائمة كأحمد وغيره اذا ذكر لهم أهل البدع الألفاظ المجملة كلفظ الجسم والجوهر والحيز لم يوافقوهم لا على اطلاق الاثبات ولا على اطلاق النفى ٠ انتهى كلام الشيخ تقى الدين

اذا تدبرت هذا عرفت أن انكار ابن عبدان وصاحبه على الخطيب الكلام فى هذا هو عين الصواب وقد اتبعا فى ذلك امامهما احمد بن حنبل وغيره فى انكارهم ذلك على المبتدعة ففهم صاحبكم انهما يريدان اثبات ضد ذلك وان الله جسم وكذا وكذا تعالى الله عن ذلك ، وظن أيضا أن عقيدة أهل السنة هى نفى أنه لا جسم ولا جوهر ولا كذا ولا كذا وقد تبين لكم الصواب أن عقيدة أهل السنة هى السكوت من أثبت بدعوه ، ومن نفى بدعوه ، فالذى يقول ليس بجسم ولا ولاهم الجهمية والمعتزلة والذين يثبتون ذلك

الا كذلك • ولما نفى كون البارى جل وعز جوهرا أو عرضا أو جسما لاتصاف الاول بالامكان والحقارة والثانى لاحتياجه الى محل يقوم بهوالثالث لأنه مركب فيحتاج الى الجزء فلا يكون واجبا لذاته ولا مستغنيا عن غيره وفى ضمن ما نفاه رد على بعض فرق الضلال من المجسمة كما تقدمت الاشارة الى ذلك فى صدر هذا الكتاب أعقب ذلك بقوله ((تعالى)) وتقدس ((ذو العلى)) فى ذاته العلية وصفاته القدسية عما يقول الظالمون علوا كبيرا•

ثم ذكر بعد هذا التمهيد المذهب السلفى والاعتقاد الاثرى فقال ((سبحانه)) وانما صدر بالتسبيح اشارة الى تنزيهه تعالى عن قول المعطلة

هو هشام وأصحابه والسلف بريئون من الجميع من أثبت بدعوه ، ومن نفى بدعوه ، فالموليس لم يفهم كلام الأحياء ولا كلام الاموات ، وجعل النفى الذى هو مذهب الجهمية والمعتزلة مذهب السلف وظهر أن من أنكر النفى انه يريد الاثبات كهشام واتباعه ولكن العجب من ذلك استدلاله على فهمه بكلام احمد المتقدم •

ومن كلام أبى الوفاء بن عقيل قال أنا أقطع ان أبا بكر وعمر ماتا وماعرفا الجوهر والعرض • فان رأيت أن طريقة أبى على الجبائى وأبى هاشم خير لك من طريقة أبى بكر وعمر فبئس ما رأيت • انتهى •

وصاحبكم يدعى أن الرجل لا يكون من أهل السنة حتى يتبع أبا على وأبا هاشم بنفى الجوهر والعرض فمن أنكر الكلام فيهما مثل أبى بكر وعمر فهو عنده على مذهب هشام الرافضى • فظهر بما قررناه أن الخطيب الذى يتكلم بنفى العرض والجوهر أخذه من مذهب الجهمية والمعتزلة وأن ابن عبدان وصاحبه أنكرا ذلك مثل ما أنكره احمد والعلماء كلهم على أهل البدع انتهى •

فتأمل رحمك الله ما تحت اطلاق هذه الألفاظ المبتدعة المخترعة التى خالف من وضعها سلف الامة وأيمتها واغتر بها من حسن ظنه بهؤلاء الذين قلدوا من ابتدعها من المتكلمين ، الذين ليس لهم قدم صدق فى العالمين حيث أرادوا بها التنزيه ، ووقعوا فى التعطيل والتشبيه ، فساروا على مناهجهم من غير دليل ولا برهان من الكتاب والسنة ، ولا كلام أحد من الأيمة فالله المستعان •

وتأمل ما ذكر شيخ الاسلام محمد بن عبد الوهاب حيث قال فمن نفاه - مثل صاحب الخطبة التى أنكرها ابن عبدان وصاحبه - فهو عند احمد والسلف مبتدع والواجب عندهم السكوت عن هذا النوع اقتداء بالنبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه • الى أن قال : وقد تبين لكم الصواب أن عقيدة أهل السنة هى السكوت من أثبت بدعوه ، ومن نفى بدعوه ، فالذى يقول ليس بجسم ولا ولاهم الجهمية والمعتزلة والذين يثبتون ذلك هو هشام وأصحابه والسلف بريئون من الجميع ،من أثبت بدعوه ومن نفى بدعوه الى آخر كلامه رحمه الله تعالى

الاستواء علـــى العرش والعلو

واعتقاد الممثلة ((قد استوى)) على عرشه من فوق سبع سمواته استواء يليق بذاته ((كما ورد)) فى الآيات القرآنية والاحاديث النبويةوالنصوص السلفية مما لا يحصى ويتعذر أن يستقصى فهذا كتاب الله من أوله الى آخره وسنة رسول الله من أولها الى آخرها ثم عامة كلام الصحابة رضى الله عنهم والتابعين لهم باحسان رحمهم الله تعالى ثم كلام سائر أئمة الدين ممن تلوى على كلامهم الخناصر ولا ينازع فيه الا كل معاند ومكابر بأن الله تعالى مستو على عرشه بائن من خلقه • قال شيخ الاسلام ابن تيمية وتلميذه الامام المحقق ابن القيم فى كتابه الجيوش الاسلامية : هـــذا كتاب الله • وذكر مثل ما ذكرنا وقال ابن القيم فى قوله تعالى (الله الذى خلق السموات والارض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش مالكم من دونه من ولى ولا شفيع أفلا تتذكرون * يدبر الامر من السماء الى الارض ثم يعرج اليه فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون * ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم) تأمل ما فى هذه الآيات من الرد على طوائف المعطلـــين والمشركين ، فقوله خلق السموات والارض فى ستة أيام يتضمن ابطال قول الملاحدة القائلين بقدم العالم وأنه لم يزل وان الله تعالى لم يخلقه بقدرته ومشيئته ، بل من أثبت منهم وجود الرب جعله لازما لذاته أزلا وأبدا كما يقول ابن سينا والنصير الطوسى وأتباعهما من الملاحدة الجاحدين لما اتفقت عليه الرسل والكتب وشهدت به العقول والفطر ،وقوله : ثم استوى على العرش : يتضمن ابطال قول المعطلة الجهمية الذين يقولون ليس على العرش سوى العدم وان الله ليس مستويا على عرشه ولا ترفع اليه الايدى ولا يصعد اليه الكلم الطيب ولا رفع المسيح اليه ولا عرج برسوله محمد صلى الله عليه وسلم اليه ولا تعرج الملائكة والروح اليه ولا ينزل من عنده جبريل بوحيه لمن يوحى اليه ـ الخ كلامه رحمه الله تعالى • وقال تعالى(هو الذى خلق لكم مافى الارض جميعا ثم استوى الى السماء فسواهن سبع سموات) وقوله (ان ربكم الله الذى خلق السموات والارض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا) وقوله (ان ربكم الله الذى خلق السموات والارض فى ستة أيام ثم استوى على العرش

يدبر الامر ما من شفيع الا من بعد اذنه) الآية • وقوله (تنزيلا ممن خلق الارض والسموات العلى * الرحمن على العرش استوى) وقوله (الذى خلق السموات والارض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش الرحمن فاسأل به خبيرا) وقوله (هو الذى خلق السموات والارض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم مايلج فى الارض ومايخرج منها وما يتنزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير) فذكر عموم علمه وعموم قدرته وعموم احاطته وعموم رؤيته • وقال تعالى حاكيا عن فرعون (ياهامان ابن لى صرحا لعلى أبلغ الاسباب * أسباب السموات فأطلع الى اله موسى وانى لأظنه كاذبا) قال فى الجيوش قال أبو الحسن الاشعرى وقد احتج بهذه الآية على الجهمية فأكذب فرعون موسى عليه السلام فى قوله ان الله فوق السموات • وأما الاحاديث فمنها قصة المعراج فهى متواترة وتجاوز النبى صلى الله عليه وسلم السموات سماء سماء حتى انتهى الى ربه تعالى فقربه وأدناه وفرض عليه خمسين صلاة فلم يزل يتردد بين موسى عليه السلام وبين الله تعالى ينزل من عند ربه الى موسى فيسأله كم فرض ربك عليك فيخبره فيقول ارجع الى ربك فاسأله التخفيف (عن أمتك فيرجع الى ربه فيسأله التخفيف -١) وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لما خلق الله الخلق كتب فى كتاب فهو عنده فوق العرش ان رحمتى تغلب غضبى » وفى لفظ « كتب فى كتابه على نفسه فهو موضوع عنده ان رحمتى تغلب غضبى » وفى لفظ «فهو مكتوب عنده فوق العرش » وكل هذه الالفاظ فى صحيح البخارى • وفى صحيح مسلم من حديث أبى موسى الاشعرى رضى الله عنه قال قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بخمس كلمات فقال « ان الله لا ينام ولا ينبغى له أن ينام يخفض القسط ويرفعه يرفع اليه عمل الليل قبل عمل النهار وعمل النهار قبل عمل الليل حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى اليه بصره من خلقه » • وذكر الامام البخارى فى كتاب التوحيد من صحيحه

---

(١) من مخ

حديث أنس بن مالك رضى الله عنه حديث الاسراء وفيه « ثم علا به - يعنى جبريل - فوق ذلك بما لا يعلمه الا الله حتى جاوز سدرة المنتهى ودنا من الجبار رب العزة فتدلى حتى كان قاب قوسين أو أدنى فأوحى اليه فيما أوحى خمسين صلاة كل يوم وليلة ثم هبط حتى بلغ موسى فاحتبسه موسى فقال يا محمد ماذا عهد اليك ربك قال عهد الى خمسين صلاة كل يوم وليلة قال ان أمتك لا تستطيع فارجع فليخفف عنك ربك وعنهم فالتفت النبى صلى الله عليه وسلم الى جبريل كأنه يستشيره فى ذلك فأشار اليه جبريل أن نعم ان شئت فعلا به الى الجبار تبارك وتعالى » الحديث وقال صلى الله عليه وسلم فى حكومة سعد بن معاذ فى بنى قريظة « لقد حكمت فيهم بحكم الملك من فوق سبعة ارقعة - وفى لفظ - من فوق سبع سموات » وأصل القصة فى الصحيحين • وفى صحيح مسلم من حديث معاوية بن الحكم السلمى رضى الله عنه قال لطمت جارية لى فأخبرت رسول الله صلى الله عليه وسلم فعظم ذلك على فقلت يا رسول الله أفلا أعتقها قال : « بلى ائتنى بها • قال فجئت بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لها أين الله ؟ فقالت : فى السماء • قال فمن أنا • قالت أنت رسول الله قال انها مؤمنة • وفى لفظ قال « أعتقها فانها مؤمنة » قال الامام الحافظ شمس الدين الذهبى فى كتابه (العرش) : رواه مسلم وأبو داود والنسائى وغير واحد من الأئمة فى تصانيفهم يدونونه كما جاء • وقال فى أول الحديث : من الاحاديث المتواترة الواردة فى العلو • وفى صحيح البخارى عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال كانت زينب تفتخر على أزواج النبى صلى الله عليه وسلم وتقول: زوجكن أهاليكن وزوجنى الله من فوق سبع سموات • وقال صلى الله عليه وسلم فى حديث الاوعال « والعرش فوق ذلك والله فوق عرشه وهو يعلم ما أنتم عليه » • رواه الامام احمد فى المسند وابن خزيمة فى كتاب التوحيد • وقول عبد لله بن رواحة الذى أنشده النبى صلى الله عليه وسلم

شهدت بأن وعـــد الله حق   وان النار مثوى الكافرينـــــا
وان العرش فوق المـــاء طاف   وفوق العرش رب العـــالمينا

وقول أمية بن أبى لصلت الثقفى الذى أنشد للنبى صلى الله عليه وسلم

فاستحسنه وقال آمن شعره وكفر قلبه :

مجدوا الله فهو للمجد أهـل	ربنا فى السماء أمسى كبيرا
بالبناء الأعلى الذى سبق الخلـ	ـق وسوى فوق السماء سريرا
شرجعا ما يناله نظـر العيـ	ـن يرى دونه الملائك صـورا

وقد جاء في الكتاب والسنة من ذلك ما يتعذر أو يتعسر احصاؤه ، فتارة يخبر أنه خلق السموات والارض فى ستة أيام ثم استوى على العرش كما مر وقد ذكر الله استواءه على العرش فى سبعة مواضع من كتابه ، وتارة يخبر بعروج الاشياء وصعودها وارتفاعها اليه ، وتارة يخبر بنزولها من عنده ، وتارة يخبر بأنه العلى الاعلى كقوله (سبح اسم ربك الاعلى) وقوله (وهو العلى العظيم) ، وتارة يخبر بأنه فى السماء ، وتارة يجعل بعض الخلق عنده دون بعض كقوله تعالى (وله من فى السموات ومن فى الارض ومن عنده) (ان الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون) قال شيخ الاسلام ابن تيمية : فلو كان موجب العندية معنى عاما لدخولهم تحت قدرته ومشيئته وأمثال ذلك لكان كل مخلوق عنده ولم يكن أحد مستكبرا عن عبادته بل مسبحا له ساجدا مع أنه تعالى قال : (ان الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين) وهو سبحانه وصف الملائكة بذلك ردا على الكفار المستكبرين عن عبادته . قال شيخ الاسلام : وأما الاحاديث والآثار عن الصحابة والتابعين فلا يحصيها الا الله . قال : فلا يخلو اما أن يكون ما اشتركت فيه هذه النصوص من اثبات علو الله تعالى على خلقه واستوائه على عرشه هو الحق أو الحق نقيضه اذ الحق لا يخرج عن النقيضين ، واما أن يكون هو جل شأنه نفسه فوق الخلق أو لا يكون فوق الخلق كما يقول الجهمية الذين يقولون هو سبحانه لا فوقهم ولا فيهم ولا داخل العالم ولا خارجه ولا مباين ولا محايث ، وتارة يقولون هو بذاته فى كل مكان ، وفى كلا المقالتين يدفعون أن يكون هو نفسه فوق ، فاما أن يكون الحق اثبات ذلك أو نفيه فان كان نفى ذلك هو الحق فمعلوم ان القرآن لم يبين هذا قط لا نصا ولا ظاهرا ولا الرسول ولا أحد من الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين لا أئمة المذاهب الاربعة ولا غيرهم

ولا يمكن أحدا أن ينقل عن واحد من هؤلاء انه نفى ذلك أو أخبر به ، وأما نقل الإثبات عن هؤلاء فأكثر من أن يحصى ، فان كان الحق هو النفى دون الاثبات والكتاب والسنة والاجماع انما دل على الاثبات ولم يذكر النفى أصلا لزم أن يكون الرسول والمؤمنون لم ينطقوا بالحق فى هذا الباب بل نطقوا بما يدل اما نصا واما ظاهرا على الضلال والخطأ المناقض للهدى والصواب ، ومعلوم ان من اعتقد هذا فى الرسول والمؤمنين فله أوفر حظ من قوله تعالى : (ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا) فان القائل اذا قال : هذه النصوص أريد بها خلاف ما يفهم منها أو خلاف ما دلت عليه أو انه لم يرد اثبات علو الله نفسه على خلقه وانما اريد به علو المكانة ونحو ذلك ، فيقال له فكان يجب أن يبين للناس الحق الذى يجب التصديق به باطنا وظاهرا ، بل ويبين لهم ما يدلهم على أن هذا الكلام لم يرد به مفهومه ومقتضاه فانه غاية ما يقدر انه تكلم بالمجاز المخالف للحقيقة والباطن المخالف للظاهر ومعلوم باتفاق العقلاء ان المخاطب المبين اذا تكلم بمجاز فلابد أن يقرن بخطابه ما يدل على ارادة المعنى المجازى ، فاذا كان الرسول المبلغ المبين الذى بين للناس ما أنزل اليهم علم ان المراد بالكلام خلاف مفهومه ومقتضاه كان عليه أن يقرن بخطابه ما يصرف القلوب عن فهم المعنى الذى لم يرد لا سيما اذا كان باطلا لا يجوز اعتقاده فى الله فانه عليه أن ينهاهم عن أن يعتقدوا فى الله ما لا يجوز اعتقاده اذا كان ذلك مخوفا عليهم ولو لم يخاطبهم بما يدل على ذلك فكيف اذا كان خطابه هو الذى يدلهم على ذلك الاعتقاد الذى يقول النفاة انه اعتقاد باطل ، فاذا لم يكن فى الكتاب ولا السنة ولا كلام أحد من السلف والائمة ما يوافق قول النفاة أصلا بل هم دائما لا يتكلمون الا بالاثبات امتنع حينئذ أن لا يكون مرادهم الاثبات وأن يكون النفى هو الذى يعتقدونه ويعتمدونه وهم لم يتكلموا به قط ولم يظهروه وانما أظهروا ما يخالفه وينافيه . وهذا كلام متين لا مخلص لأحد عنه . قال شيخ الاسلام روح الله روحه : لكن للجهمية المتكلمة هنا كلام وللجهمية المتفلسفة كلام أما المتفلسفة والقرامطة

فيقولون ان الرسل كلموا الخلق بخلاف ما هو الحق وأظهروا لهم خلاف ما يبطنون وربما يقولون انهم كذبوا لأجل مصلحة العامة فان مصلحة العامة لا تقوم الا باظهار الاثبات وان كان فى نفس الامر باطلا .. هذا مع ما فيه من الزندقة البينة والكفر الواضح قول متناقض فى نفسه فانه يقال لو كان الامر كما تقولون والرسل من جنس رؤسائكم لكان خواص الرسل يطلعون على ذلك ولكانوا يطلعون خواصهم على هدا الامر فكان يكون النفى مذهب خاصة الامة وأكملها عقلا وعلما ومعرفة ، والامر بالعكس فان من تأمل كلام السلف والائمة وجد أعلم الامة عند الامة كأبى بكر وعمر وعثمان وعلى وابن مسعود ومعاذ بن جبل وعبد الله بن سلام وسلمان الفارسى وأبى بن كعب وأبى الدرداء وعبد الله بن عباس وعبدالله ابن عمر وعبد الله بن عمرو وأمثالهم من الصحابة رضى الله عنهم أجمعين هم أعظم الخلق اثباتا ، وكذلك أفاضل التابعين مثل سعيد بن المسيب والحسن البصرى وعلى بن الحسين وأصحاب ابن مسعود وأصحاب ابن عباس وهم من أجل التابعين وأمثالهم ، بل المنقول عن هؤلاء فى الاثبات يجبن عن اظهاره كثير من الناس ، وعلى ذلك تأول يحيى بن عمار وصاحبه شيخ الاسلام أبو اسماعيل الانصارى ما يروى ان من العلم كهيئة المكنون لا يعرفه الا أهل العلم بالله فاذا ذكروه لم ينكره الا أهل الغرة بالله .تأولوا ذلك على ما جاء من الاثبات لان ذلك ثابت عن الرسول والسابقين والتابعين لهم باحسان بخلاف النفى فانه لا يوجد عنهم ولا يمكن حمله عليه . وقد جمع علماء الحديث من المنقول عن السلف فى الاثبات ما لا يحصى عدده الا رب السموات ولم يقدر أحد أن يأتى عنهم فى النفى بحرف واحد الا أن يكون من الاكاذيب المختلقة التى ينقلها من هو أبعد الناس عن معرفة كلامهم . (قلت) وقد أكثر العلماء من التصنيف ، واجلبوا بخيلهم ورجلهم من التأليف ، فى ثبوت العلو والاستواء ونبهوا على ذلك بالآيات والحديث وما حوى ، فمنهم الراوى الاخبار بالاسانيد ، ومنهم الحاذف لها وأتى بكل لفظ مفيد ، ومنهم المطول المسهب ، ومنهم المختصر والمتوسط والمهذب ، فمن ذلك مسألة العلو لشيخ الاسلام ابن تيمية والعلو للامام

الموفق صاحب التصانيف السنية ، والجيوش الاسلامية للامام المحقق ابن قيم الجوزية (١) وكتاب العرش للحافظ شمس الدين الذهبى صاحب الانفاس العلية ، وما لا أحصى عدهم الا بكلفة والله تعالى الموفق .

قال العلامة الشيخ مرعى الكرمى الحنبلى فى كتابه (أقاويل الثقات . فى تأويل الاسماء والصفات) ومما احتج به أهل الاثبات بانه الذى طبع الله عليه أهل الفطرة العقلية السليمة من الاولين والآخرين الذين يقولون انه فوق العالم اذ العلم بذلك فطرى عقلى ضرورى لا يتوقف على سمع قالوا ولم يقل قائل يا الله الا وجد من قلبه ضرورة يطلب العلو بحيث لا يمكن رفع هذه الضرورة عن القلوب ولا يلتفت الداعى يمنة ولا يسرة . واما العلم بانه تعالى استوى على العرش بعد خلقه السموات والارض فى سته أيام فهذا سمعى علم بالوحى على الانبياء فاخبروا عليهم الصلاة والسلام أممهم بذلك . قال سيدنا الشيخ الكبير (الشيخ عبد القادر الجيلى) الحنبلى قدس الله سره فى كتاب (الغنية فى الفقه) قال : وهو تعالى بجهة العلو مستو على العرش محتو على الملك محيط علمه بالاشياء « اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ـ يدبر الامر من السماء الى الارض ثم يعرج اليه » الآية ولا يجوز وصفه بأنه فى كل مكان بل يقال انه فى السماء على العرش استوى على العرش كماقال الله تعالى :(الرحمن على العرش استوى). ثم قال : وينبغى اطلاق صفة الاستواء من غير تأويل وانه استواء الذات على العرش. ثم قال : وكونه (مستويا ـ ٢) على العرش مذكور فى كل كتاب أنزل على كل نبى أرسل بلا كيف . وهذا نص كلامه قدس الله سره فى الغنية . وقال الامام القرطبى فى تفسيره فى سورة الاعراف : وقد كان السلف الاول رضى الله عنهم لا يقولون بنفى الجهة ولا ينطقون بذلك بل نطقوا هم والكافة باثباتها لله تعالى كما نطق كتابه وأخبرت رسله قال : ولم ينكر أحد من السلف الصالح الصالح انه تعالى استوى على عرشه حقيقة . انتهى . وقال أبو نعيم الحافظ فى كتابه (محجة الواثقين) وأجمعوا أن الله فوق سمواته

---

(١) بهامش مخ « هى مدرسة أقامها والده بالقرب من باب العنبرانية باب القبلة فى دمشق الشام »

(٢) من مخ وعليها «صح»

وانه عال على عرشه مستو عليه لا مستول كما تقول الجهمية • وقال ابن رشد المالكي في كتابه المسمى بالكشف : وأما هذه الصفة -يعنى القول بالجهة فلم تزل أهل الشريعة يثبتونها حتى نفتها المعتزلة ومتأخرو الاشاعرة كأبي المعالي ومن اقتدى بقولهم • ثم قال : وقد ظهر ان اثبات الجهة واجب شرعا وعقلا - الخ كلامه •

الاشعري يثبت العلو الذاتي

وقيل للامام عبد الله بن المبارك : كيف نعرف ربنا ؟ قال : بانه فوق السماء السابعة على العرش بائن من خلقه • على أن نفس الامام أبي الحسن الاشعري في كتابه (الابانة) قال : ان الله مستو على عرشه كما قال (الرحمن على العرش استوى) وقال : (اليه يصعد الكلم الطيب) وقال : (لعلي أطلع الى اله موسى وانه لاظنه من الكاذبين) كذاب موسى في قوله ان الله فوق السموات • وقال : (أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الارض) فالسموات فوقها العرش فلما كان العرش فوق السموات وكان كل ما علا فهو سماء قال (أأمنتم من في السماء) وانما أراد العرش الذي هو أعلى السموات • قال ورأينا المسلمين جميعا يرفعون أيديهم اذا دعوا الى نحو السماء لان الله مستو على العرش الذي فوق السموات فلولا ان الله على العرش لم يرفعوا أيديهم نحو العرش • قال وقد قال قائلون من المعتزلة والجهمية والحرورية : ان معنى استوى استولى وملك وقهر وان الله في كل مكان ، وجحدوا ان يكون على عرشه كما قال أهل الحق ، وذهبوا في الاستواء الى القدرة ، فلو كان كما قالوا كان لا فرق بين العرش والارض السابعة ، لان الله تعالى قادر على كل شيء والارض فالله قادر عليها وعلى الحشوش ، فلو كان مستويا على العرش بمعنى الاستيلاء لجاز أن يقال انه مستو على الاشياء كلها مع انه لم يجز عند أحد المسلمين أن يقال ان الله تعالى مستو على الحشوش والاخلية فبطل أن يكون الاستواء على العرش الاستيلاء • ثم بسط الادلة على هذه المسئلة من الكتاب والسنة والعقل بما يطول نقله •

وقال الاشعري أيضا في كتابه (جمل المقالات) : قال أهل السنة وأصحاب الحديث : الله لس بجسم (١) ولا يشبه الاشياء وانه على العرش كما

(١) راجع التعليق على ص ١٨٢

قال عز وجل (الرحمن على العرش استوى) ولا تتقدم بين يدى الله فى القول بل نقول استوى بلا كيف وانه نور كما قال (ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام) . الى أن قال : ولم يقولوا شيئا الا ما وجدوه من الكتاب أو جاءت به الرواية عن رسول‌الله صلى الله عليه وسلم . قال : وقالت المعتزلة ان الله استوى على عرشه بمعنى استولى . هذا نص كلامه . فالاشعرى انما حكى تأويل الاستواء بالاستيلاء عن المعتزلة والجهمية وصرح بخلافه وانه خلاف قول أهل السنة . وكذلك قال محيى السنة الحسين بن مسعود فى تفسيره تابعا لابى الحسن الاشعرى . وقال القاضى أبو بكر بن الباقلانى وهو من أفضل متكلمى الاشعرية : فان قال قائل فهل تقولون انه تعالى فى كل مكان ؟ قيل له معاذ الله بل هو مستو على عرشه كما أخبر وقال : (اليه يصعد الكلم الطيب) . وساق الآيات المتقدمة . ثم قال : ولو كان فى كل مكان لكان فى بطن الانسان والحشوش ولصح أن يرغب اليه نحو الارض والى خلفنا ويميننا وشمالنا . قال وهذا قد أجمع المسلمون على خلافه وتخطئة قائله . وأطال فى الاستدلال فى كتابه (التمهيد فى أصول الدين) وهو من أشهر كتبه .

والباقلانى أيضا

قال شيخ الاسلام ابن تيمية روح الله روحه : وكثير من الناس صار منتسبا الى بعض طوائف المتكلمين متوهما انهم حققوا فى هذا الباب ما لم يحققه غيرهم فلو أتى بكل آية ما تبعها حتى يؤتى بشىء من كلامهم ، ثم‌هم مع هذا مخالفون لاسلافهم غير متبعين لهم ، قال : ومن كان لا يقبل الحق الا من طائفة معينة ولا يتبع ما جاءه من الحق ففيه شبه من اليهود الذين قال الله فيهم : (واذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقا لما معهم) فكذلك من يتعصب لطائفة بلا برهان من الله . انتهى .

نفى استلزام القول بالاستواء والعلو للتجسيم

اذا علمت هذا فاعلم ان كثيرا من الناس يظنون ان القائل بالجهة او الاستواء هو من المجسمة لانهم يتوهمون ان من لازم ذلك التجسيم وهذا وهم فاسد وظن كاذب وحدس حائد لانا نقول أولا لمن ارتكب هذا المركب لازم المذهب ليس بمذهب عند أئمة أهل التحقيق وذوى النباهة والمعرفة

والتصديق فكيف يحسن ان ينسب الى المرء شيء من لوازم كلامه ، وهو من أبعد الناس عنه بقصده ومرامه . فان أهل الاثبات المتبعين للمنصوص من الاخبار والآيات ، ينزهون الله تعالى عن التكييف والحد(١) ويعتقدون ان من وصفه تعالى بالجسم أو كيف فقد زاغ وألحد . ولهذا قال لما أثبت له صفة الاستواء كما ورد فى القرآن العظيم والذكر الحكيم نؤمن بانه عز وجل استوى على عرشه ((من غير كيف)) كما روى اللالكائى الحافظ فى كتابه (السنة) من طريق قرة بن خالد عن الحسن البصرى عن أمه خيرة مولاة أم المؤمنين أم سلمة رضى الله عنها عن أم سلمة رضى الله عنها انها قالت فى قوله تعالى (الرحمن على العرش استوى) الاستواء معلوم والكيف مجهول والايمان به واجب والسؤال عنه بدعة والبحث عنه كفر . وهذا له حكم المرفوع لان مثله لا يقال من قبل الرأى . وفى لفظ آخر قالت الكيف غير معقول والاستواء غير مجهول والاقرار به من الايمان والجحود به كفر . وروى يحيى بن آدم عن أبيه وابن عيينة قال سئل ربيعة بن أبى عبد الرحمن ــ المشهور بربيعة الرأى وهو شيخ الامام مالك بن أنس رضى الله عنه ــ عن قوله تعالى (الرحمن على العرش استوى) كيف استوى؟قال: الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول ومن الله الرسالة وعلى الرسول البلاغ وعلينا التصديق . وروى نحو ذلك أيضا عن الامام مالك رضى الله عنه فقد ذكر الامام يوسف بن عبد البر فى كتابه (التمهيد) قال أخبرنا عبد الله بن محمد بن عبد المؤمن قال حدثنا احمد بن جعفر بن حمدان قال حدثنا عبد الله بن احمد بن حنبل قال حدثنا أبى قال حدثنا سريج (١) بن النعمان قال حدثنا عبد الله بن نافع قال : قال الامام مالك بن أنس : الله فى السماء وعلمه فى كل مكان لا يخلو منه مكان . قال وقيل لمالك : الرحمن على العرش استوى كيف استوى ؟ فقال مالك رحمه الله : استواؤه معلوم وكيفيته مجهولة وسؤالك عن هذا بدعة وأراك رجل سوء . ويروى عن الشعبى انه سئل عن الاستواء فقال : هذا من متشابه القرآن نؤمن به ولا

ما نقل عن بعض السلف فى الاستواء

---

(١) يأتى ما فيه فى التعليق على ص ٢٠١

(١) فى الاصلين « شريح » خطأ

تتعرض لمعناه • وروى عن الامام الشافعى رضى الله عنه انه سئل عن الاستواء فقال : آمنت بلا تشبيه وصدقت بلا تمثيل واتهمت نفسى فى الادراك وامسكت عن الخوض غاية الامساك • وعن سيدنا الامام أحمد رضى الله عنه انه لما سئل عن الاستواء أجاب بقوله استوى كما ذكر لا كما يخطر للبشر •

فمعنى قول أم سلمة رضى الله عنها فى الحديث ومن نحا نحوها من الائمة:الاستواءمعلوم أى وصفه تعالى بأنه تعالى على العرش (استوى)استواءمعلوم بطريق النقل الثابت بالتواتر (١) وأما الوقوف على حقيقة أمر يعود الى الكيفية فمجهول والجهالة فيه من جهة انه لا سبيل لنا الى معرفة الكيفية لانها تبع للماهية ، وقولهم « والسؤال عنه بدعة» لان الصحابة رضى الله عنهم لم يسألوا عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والتابعين لم يسألوا الصحابة ، ولان جوابه يتضمن الكيفية ، ولهذا قيل فى الجواب لمن دخلت عليهم الشبهة طالبين بسؤالهم التكييف : والكيف مجهول (٢) فالذى ثبت نفيه بالشرع والعقل واتباع السلف انما هو علم العباد بالكيفية فعندها تنقطع الاطماع وعن دركها تقصر العقول • والوقوف على درج سلم التسليم منتهى همم الائمة الفحول ، ولهذا قال فى تتمة نظمه ملوحا بالرد على الممثل والمعطل بقوله ((قد تعالى)) الله علا وجل،ولسنا فى اتباع المأثور مع التسليم للمولى الحكيم على وجل ، فانا نقتفى أثر المأثور ، ونشهر سيوف السنة لاعناق أهل البدع والنفى باتباع المشهور ، ونرد على كل من ألحد

---

(١) بهامش مخ ما نصه :

« يشير الشارح رحمه الله الى أن معنى قول مالك رحمه الله الاستواء معلوم أى ورود هذا اللفظ معلوم وقد قال شيخ الاسلام رحمه الله تعالى فى أثناء كلام له على الاستواء : ومنه قول مالك الاستواء معلوم ، وليس المراد أن هذا اللفظ فى القرآن معلوم كما قال بعض الناس استولى أم لا وانه يسأل عن الكيفية ومالك جعله معلوما والسؤال عن نزول لفظ الاستواء ليس بدعة والكلام فيه فقد تكلم فيه الصحابة والتابعون وانما البدعة السؤال عن الكيفية • ثم قال : فقد أخبر مالك رضى الله عنه أن نفس الاستواءمعلوم وأن كيفية الاستواء مجهولة قال ولم يرد مالك رحمه الله أن الاستواء معلوم فى اللغة دون الآية لانه سئل عن الاستواء فى الآية •

(٢) مخ « والكيف غير معقول »

القول بالحد

بأن الله تعالى وتقدس وتنزه من ((أن يحد)) أو يقاس بما يحد (١) ، وفيه اشارة الى رد زعم من زعم بأنه يلزم من كونه تعالى مستويا على عرشه أن

---

(٣) بهامش «مخ» مانصه :
قال شيخ الاسلام رحمه الله في قاعدة له قال على بن الحسن بن شقيق قلت لعبد الله بن المبارك بماذا نعرف ربنا ؟ قال بأنه فوق سمواته على عرشه بائن من خلقه · قلت بحد ؟ قال : بحد لا يعلمه غيره · وهذا مشهور عن ابن المبارك ثابت عنه من غير وجه وهو نظر صحيح ثابت عن احمد بن حنبل واسحق بن راهويه وغير واحد من الأيمة · انتهى · وقال القاضي أبو يعلى فى كتاب ابطال التأويل : اذا ثبت استواؤه سبحانه وانه فى جهة وان ذلك من صفات الذات فهل يجوز اطلاق الحد عليه ؟ قد أطلق احمد القول بذلك فى رواية المروذى وذكر له قول ابن المبارك نعرف الله على العرش بحد ، فقال احمد : بلغنى ذلك وأعجبه · وقال الاثرم قلت لأحمد يحكى عن ابن المبارك : نعرف ربنا فى السماء السابعة على عرشه بحد · فقال أحمد : هكذا هو عندنا · ثم ذكر عن أبى داود قال جاء رجل الى أحمد بن حنبل فقال له : لله تبارك وتعالى حد ؟ قال نعم لا يعلمه الا هو قال الله تبارك وتعالى (وترى الملائكة حافين من حول العرش) يقول محدقين · فقد أطلق احمد القول باثبات الحد لله تعالى · وقد نفاه فى رواية حنبل فقال نحن نؤمن بأن الله على العرش كيف شاء وكما شاء بلا حد ولا صفة يبلغها واصف أو يحده أحد فقد نفى الحد عنه على الصفة المذكورة وهو الحد الذى يعلمه خلقه
وفى تنبيه ابن سحمان ص ٤١ مالفظه :
« اعلم وفقك الله أن هذا الكلام الذى أورده الشارح فى هذا المقام من الالفاظ المجملة الموهمة المطلقة المحتملة لمعنيين حق وباطل فلا ينفصل النزاع الا بتفصيل تلك المعانى وتنزيل ألفاظها عليها كما قال ابن القيم رحمه الله تعالى على هذه الالفاظ المبتدعة المخترعة التى لم ينطق بها سلف الامة وأئمتها: ويقولون نحن ننزه الله تعالى عن الاعراض والاغراض والابعاض والحدود والجهات وحلول الحوادث ، فيسمع الغر المخدوع هذه الالفاظ فيتوهم منها انهم ينزهون الله عما يفهم من معانيها عند الاطلاق من العيوب والنقائص والحاجة فلا يشك انهم يمجدونه ويعظمونه ويكشف الناقد البصير ما تحت هذه الالفاظ فيرى تحتها الالحاد وتكذيب الرسل وتعطيل الرب تعالى عما يستحقه من كماله — الى آخر كلامه · وقد تقدم · وقال شيخ الاسلام قدس الله روحه : وكذلك اذا قالوا ان الله منزه عن الحدود والاحياز والجهات أوهموا الناس بأن مقصودهم بذلك انه لا تحصره المخلوقات ولا تحوزه المصنوعات وهذا المعنى صحيح ومقصودهم انه ليس مباينا للخلق ولا منفصلا عنه ، وأنه ليس فوق السموات رب ولا على العرش اله وأن محمدا لم يعرج به اليه ولم ينزل منه شىء ولا يصعد اليه شىء ولا يتقرب اليه بشىء ولا ترفع الايدى اليه فى الدعاء ولا غيره ونحو ذلك من معانى الجهمية · انتهى · =

يحد • قال الامام القرطبى وابن أبى زيد والقاضى عبد الوهاب من المالكية وجماعة من شيوخ الحديث والفقه وابن عبدالبر والقاضى أبو بكر بن العربى وابن فورك وغيرهم ممن لا يحصى عددهم انه سبحانه مستو على العرش

= فاذا تبين لك هذا فاعلم أن قول الشارح على هذه اللفظة المحتملة الموهمة المطلقة حيث قال : تعالى الله أن يحد ، وفيه الرد على من زعم أنه يلزم من كونه مستويا على عرشه أن يحد ، تعالى الله عن ذلك اذ المحدود محدث والمحدث مفتقر للخالق - الى آخر كلامه هو من كلام أهل البدع من الجهمية وغيرهم ممن نحا نحوهم من المتكلمين فاذا كان هذا هو المفهوم من كلام الناظم والشارح قطعا ولا محيد عنه لاطلاقه ألفاظا لم ينطق بها الكتاب والسنة ولا نطق بها أئمة السلف رضوان الله عليهم بل المتكلم بها من هؤلاء المبتدعة يوهمون الناس أن مقصودهم بذلك أنه لا تحصره المخلوقات ، ولا تحوزه المصنوعات ، وهذا المعنى صحيح ، ولكن مقصودهم هو ماتقدم بيانه عنهم من كلام شيخ الاسلام آنفا واذا كان ذلك فنحن نسوق كلام أيمة السلف رضوان الله تعالى عليهم فى هذا المقام ليتبين لك خطأ الناظم والشارح

قال شيخ الاسلام ابن تيمية قدس الله روحه فى العقل والنقل بعد أن ذكر كلاما طويلا قال : وقال حنبل فى موضع آخر عن احمد قال (ليس كمثله شيء) فى ذاته كما وصف به نفسه قد أجمل تبارك وتعالى بالصفة لنفسه فحد لنفسه صفة ليس يشبهه شيء فنعبد الله بصفاته غير محدودة ولا معلومة الا بما وصف به نفسه • قال فهو سميع بصير بلا حد ولا تقدير ولا يبلغ الواصفون صفته وصفاته منه وله ولا نتعدى القرآن والحديث ، فنقول كما قال ونصفه كما وصف نفسه ولا نتعدى ذلك ولا تبلغه صفة الواصفين ، نؤمن بالقرآن كله محكمه ومتشابهه ولا نزيل عنه صفة من صفاته لشناعة شنعت وما وصف به نفسه من كلام ونزول وخلوة بعبده يوم القيامة ووضعه كنفه عليه هذا يدل على أن الله تبارك وتعالى يرى فى الآخرة ، والتحديد فى هذا كله بدعة والتسليم لله بأمره بغير صفة ولا حد الا ما وصف به نفسه ، سميع بصير لم يزل متكلما عالما غفورا ، عالم الغيب والشهادة علام الغيوب ، فهذه صفات وصف بها نفسه لا تدفع ولا ترد ، وهو على العرش بلا حد كما قال تعالى (ثم استوى على العرش) كيف شاء ، المشيئة اليه عز وجل والاستطاعة ليس كمثله شيء وهو خالق كل شيء وكما وصف نفسه سميع بصير بلا حد ولا تقدير قال ابراهيم لأبيه (يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر) فنثبت أن الله سميع بصير صفاته منه لا نتعدى القرآن والحديث ، والخبر « يضحك الله » ولا نعلم كيف ذلك الا بتصديق الرسول وبتثبيت القرآن ، لا يصفه الواصفون ولا يحده أحد تعالى الله عما تقول الجهمية والمشبهة • (قلت) والمشبهة مايقولون ؟ قال من قال بصر كبصرى ويد كيدى ، وقدم كقدمى فقد شبه الله بخلقه وهذا يحده - وهذا كلام سوء وهذا محدود والكلام فى هذا لا أحبه

وقال محمد بن مخلد قال احمد : نصف الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله • =

بذاته وأطلقوا فى بعض الاماكن فوق عرشه . قال القاضى أبو بكر وهو الصحيح الذى أقول به من غير تحديد ولا تمكن فى مكان ولا مماسة . قال شيخ الاسلام ابن تيميه استوى على عرشه على الوجه الذى يستحقه

= وقال يوسف بن موسى ان أبا عبد الله قيل له ولا يشبه ربنا شيئا من خلقه ؟ قال نعم (ليس كمثله شيء) فقول احمد انه ينظر اليهم ويكلمهم كيف شاء واذا شاء وقوله وهو على العرش بلا حد كما قال (ثم استوى على العرش) كيف شاء المشيئة اليه والاستطاعة له ليس كمثله شيء . يبين ان نظره وتكليمه وعلوه على العرش واستواءه على العرش مما يتعلـــق بمشيئته واستطاعته ، وقوله بلا حد ولا صفة يبلغها واصف أو يحده أحد . نفى به احاطة علم الخلق به وأن يحدوه أو يصفوه على ما هو عليه الا بما أخبر به عن نفسه ليتبين أن عقول الخلق لا تحيط بصفاته كما قال الشافعى فى خطبة الرسالة : الحمد لله الذى هو كما وصف به نفسه وفوق ما يصفه به خلقه . ولهذا قال أحمد لا تدركه الابصار بحد ولا غاية فنفى أن يدرك له حد أو غاية . فهذا أصح القولين فى تفسير الادراك وقد بسط الكلام على شرح هذا الكلام فى غير هذا الموضع .

وما فى هذا الكلام من نفى تحديد الخلق وتقديرهم لربهم وبلوغهم صفته لا ينافى ما نص عليه أحمد وغيره من الأيمة كما ذكره الخلال أيضا قال حدثنا أبو بكر المروذى قال سمعت أبا عبد الله لما قيل له : روى على بن الحسن بن شقيق عن ابن المبارك انه قيل له كيف نعرف الله عز وجل ؟ قال على العرش بحد . قال قد بلغنى ذلك عنه — وأعجبه . ثم قال أبو عبدالله ، (هل ينظرون الا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام) ثم قال (وجاء ربك والملك صفا صفا) قال الخلال وأنبأنا محمد بن على الوراق حدثنا أبو بكر الاثرم حدثنى محمد بن ابراهيم القيسى قال قلت لاحمد بن حنبل يحكى عن ابن المبارك وقيل له (كيف) نعرف ربنا؟ قال: فى السماء السابعة على عرشه بحد . فقال احمد هكذا هو عندنا . وأخبرنى حرب بن اسماعيل قال قلت لاسحاق يعنى ابن راهويه هو على العرش بحد ؟ قال نعم بحد ، وذكر عن ابن المبارك قال هو على عرشه بائن من خلقه بحد ، قال : وأخبرنى المروذى قال : قال اسحاق بن ابراهيم بن راهويه قال الله تبارك وتعالى (الرحمن على العرش استوى) اجماع أهل العلم أنه فوق العرش استوى ويعلم كل شيء فى أسفل الارض السابعة وفى قعور البحار ورؤوس الاكام وبطون الأودية وفى كل موضع كما يعلم علم مافى السموات السبع ومافوق العرش ، أحاط بكل شيء علما فلا تسقط من ورقة الا يعلمها ولا حبة فى ظلمات البر والبحر الا وقد عرف ذلك كله وأحصاه ، فلا تعجزه معرفة شيء عن معرفة غيره . فهذا بينوا أن ماثبتوه له من الحد لا يعلمه غيره ، كما قال مالك وربيعة وغيرهما : الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، فتبين أن كيفية استوائه مجهولة للعباد فلم ينفوا ثبوت ذلك فى نفس الامر ولكن نفوا علم الخلق به ، وكذلك مثل هذا فى كلام عبد العزيز بن عبد الله ابن الماجشون وغير واحد من السلف والأيمة ينفون علم الخلق بقـــدره وكيفيته ، وبنحو ذلك قال عبد العزيز بن عبد الله بن أبى سلمة الماجشون

سبحانه من الصفات اللائقة به • قال فان قال قائل لو كان الله تعالى فوق العرش للزم اما ان يكون أكبر من العرش او أصغر أو مساويا وذلك كله

في كلامه المعروف وقد ذكره ابن بطة في الابانة وأبو عمر الطلمنكي في كتابه الاصول ورواه أبو بكر الاثرم قال حدثنا عبد الله بن صالح عن عبد العزيز بن عبد الله بن أبي سلمة أنه قال : أما بعد فقد فهمت ما سألت عنه فيما تتابعت فيه الجهمية ومن خالفها في صفة الرب العظيم الذي فاتت عظمته الوصف والتقدير وكلت الألسن عن تفسير صفته ، وانحسرت العقول عن معرفة قدره • الى أن قال فانه لا يعلم كيف هو الا هو ، وكيف يعرف قدر من لا يموت ولا يبلى ؟ وكيف يكون لصفة شيء منه حد أومنتهى يعرفه عارف ، أو يحد قدره واصف ، الدليل على عجز العقول عن تحقيق صفته ، عجزها عن تحقيق صفة أصغر خلقه — ، الى أن قال : اعرف رحمك الله غناك عن تكلف صفة مالم يصف الرب من نفسه بعجزك عن معرفة قدر ما وصف منها ، اذا لم تعرف قدر ما وصف فما تكلفك علم مالم يصف؟ هل تستدل بذلك على شيء من طاعته ، أو تنزجر عن شيء من معصيته ؟ وذكر كلاما طويلا الى أن قال : فأما الذي جحد ما وصف الرب من نفسه تعمقا وتكلفا قد استهوته الشياطين في الارض حيران فصار يستدل بزعمه على جحد ما وصف الرب وسمى من نفسه بأن قال لا بد ان كان له كذا من أن يكون له كذا ، فعمي عن البين بالخفي يجحد ما سمى الرب من نفسه ويصف الرب بما لم يسم فلم يزل يملي له الشيطان حتى جحد قول الله تعالى (وجوه يومئذ ناضرة   الى ربها ناظرة) فقال لا يراه أحد يوم القيامة، فجحد والله أفضل كرامة الله التي أكرم بها أولياءه يومَ القيامة من النظر في وجهه (في مقعد صدق عند مليك مقتدر) قد قضى انهم لا يموتون فهم بالنظر اليه ينظرون • وذكر كلاما طويلا كتب في غير هذا الموضع • ثم ذكر بعد هذا كلام الامام عثمان بن سعيد الدارمي في كتابه الذي سماه (رد عثمان بن سعيد على الكافر العنيد ، فيما افتراه على الله فيالتوحيد) فقال : — « باب الحد والعرش » قال أبو سعيد وادعى المعارض أيضا أنه ليس لله حد ولا غاية ولا نهاية ، قال وهذا هو الاصل الذي بنى عليه جهم جميع ضلالاته ، واشتق منها جميع أغلوطاته وهي كلمة لم يبلغنا انه سبق جهما اليها أحد من العالمين فقال له قائل ممن يحاوره قد علمت مرادك أيها الاعجمي تعني أن الله لا شيء لان الخلق كلهم قد علموا أنه ليس شيء يقع عليه اسم شيء الا وله حد وغاية وصفة ، وأن لا شيء ليس له حد ولا غاية ولا صفة ، فالشيء أبدا موصوف لا محالة ، ولا شيء يوصف بلا حد ولا غاية ،وقولك لا حد له تعني أنه لا شيء ، قالأ بو سعيد والله تعالى له حد لا يعلمه أحد غيره ولا يجوز لأحد أن يتوهم لحده غاية في نفسه ، لكن نؤمن بالحد ونكل علمه • انتهى •

اذا فهمت هذا وتحققته تبين لك منافاة ماقاله الناظم والشارح لكلام أئمة السلف رضوان الله عليهم لأن مرادهم في قولهم بلا حد كما قال احمد وهو على العرش بلا حد ، وقوله : وكما وصف نفسه سميع بصير بلا حد ، وقوله لا يصفه الواصفون ولا يحده أحد • فمرادهم بقول بلا حد معناه ما ذكره شيخ الاسلام قدس الله روحه بقوله بلا حد ولا صفة يبلغها

محال ونحو ذلك من الكلام ، والجواب أن يقال أن هذا لم يفهم من كون الله على العرش الا ما يثبت للاجسام فهذا اللازم تابع لهذا المفهوم واما

واصف أو يحده أحد نفي به احاطة علم الخلق به وأن يحدوه أو يصفوه على ما هو عليه الا بما أخبر به عن نفسه ليتبين أن عقول الخلق لا تحيط بصفاته كما قال الشافعي فى خطبة الرسالة : الحمد لله الذى هو كما وصف به نفسه وفوق ما يصفه به خلقه ٠ ولهذا قال احمد لا تدركه الابصار بحد ولا غاية فنفي أن يدرك له حد أو غاية وكذلك ما ذكره الامام عبدالعزيز ابن عبد الله بن أبى سلمة الماجشون حيث قال وكيف يكون لصفة شىء منه حد أو منتهى يعرفه عارف أو يحد قدره واصف - الى آخر كلامه ٠

فهذا ما ذكره أيمة السلف رضوان الله عليهم فى معنى قولهم بلا حد وهو خلاف ما فهمه الشارح فى معنى قولهم بلا حد فانه قال وفيه الرد على من زعم انه يلزم من كونه مستويا على عرشه أن يحد تعالى الله عن ذلك اذ المحدود محدث والمحدث مفتقر للخالق ٠ وهذا يوافق ماقاله أهل البدع من أهل الكلام وغيرهم ممن أخذ بأقوال الجهمية المنكرين لعلوه على عرشه ومباينته لمخلوقاته كما ذكر ذلك عنهم الامام عثمان بن سعيد الدارمى فى رده على بشر المريسى حيث قال : وادعى المعارض أيضا أنه ليس لله حد ولا غاية ولا نهاية ٠ قال وهذا هو الاصل الذى بنى عليه جهم جميع ضلالاته واشتق منها جميع أغلوطاته وهى كلمة لم يبلغنا انه سبق جهما اليها أحد من العالمين ، فقال له قائل ممن يحاوره قد علمت مرادك أيها الاعجمى تعنى أن الله لا شىء لان الخلق كلهم قد علموا أنه ليس شىء يقع عليه اسم الشىء الا وله حد وغاية أو صفه وأن لا شىء ليس له حد ولا غاية ولا صفة فالشىء أبدا موصوف لا محالة ولا شىء يوصف بلا حد ولا غاية وقولك لا حد له تعنى أنه لا شىء ٠ قال أبو سعيد والله تعالى له حد لا يعلمه أحد غيره ولا يجوز لأحد أن يتوهم لحده غاية فى نفسه ولكن يؤمن بالحد ويكل علمه ٠ انتهى ٠

فاذا كان ذلك كذلك تعين ما ذكره أيمة السلف حيث قالوا : كيف نعرف الله عز وجل ؟ قال : على العرش بحد ، كما رواه على بن الحسن ابن شقيق عن عبد الله بن المبارك رضى الله عنه ، وكما رواه الخلال باسناده الى الامام احمد أنه قيل له يحكى عن ابن المبارك وقيل له : كيف نعرف ربنا ؟ قال : على عرشه بحد ٠ قال أحمد : هكذا هو عندنا ، وذكر أيضا عن حرب بن اسماعيل قال : قلت لاسحاق يعنى ابن راهويه هو على العرش بحد ؟ قال : نعم بحد ٠ وذكر عن ابن المبارك قال : هو على عرشه بائن من خلقه بحد ٠ ثم قال شيخ الاسلام بعد أن ذكر أقوال أئمة السلف: أنه بحد قال رحمه الله بينوا أن ما أثبتوه له من الحد لا يعلمه غيره كما قال مالك وربيعة وغيرهما : الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، فبين أن كيفية استوائه مجهولة للعباد فلم ينفوا ثبوت ذلك فى نفس الامر ، ولكن نفوا علم الخلق به ٠واعلم انى انما أعدت هذا الكلام وكررته ليتبين لك ما بين اللفظتين من قوله : بلا حد ، ومن قوله : بحد ، لتعلم الفرق بين هاتين اللفظتين كما بينه شيخ الاسلام فيما تقدم والله أعلم ٠

استواء يليق بجلال الله ويختص بعظمته فلا يلزم شيء من اللوازم الباطلة التي يجب نفيها كما يلزم سائر الاجسام وحال هذا القائل مثل قول من يقول اذا كان للعالم صانع فاما ان يكون جوهرا أو عرضا وكلاهما محال اذ لا يعقل موجود الا كذلك • قال والقول الفصل هو ما عليه الامة الوسط من ان الله مستو على عرشه استواء يليق بجلاله ، فكما انه تعالى موصوف بالعلم والبصر والقدرة ولا يثبت لذلك خصائص الاعراض التي للمخلوقين فكذلك سبحانه هو فوق عرشه ولا يثبت لفوقيته خصائص فوقية المخلوقين على المخلوق تعالى الله عن ذاك • فلدفع هذا الوهم أشار في النظم لنفي التحديد ، المتحذلق به كل ملحد وعنيد • وقال الامام القرطبي أظهر الاقوال وان كنت لا أقول به ولا أختاره ما تظاهرت عليه الآي والاخبار والفضلاء الاخيار ان الله سبحانه على عرشه كما أخبر في كتابه بلا كيف بائن من جميع خلقه • هذا جملة مذهب السلف الصالح • انتهى • والعجب من القرطبي حيث يقول وان كنت لا أقول به ولا أختاره ولعله خشي من تحريف الحسدة فدفع وهمهم بذلك قاله العلامة الشيخ مرعي • وبهذا قال جماهير الحنابلة لكن قالوا استوى على الوجه الذي يستحقه لذاته مما لا يشاركه فيه المحدث ولا يشابهه ولا يماثله ولا يدل على اثبات كمية ولا صفة كيفية بل على الوجه الذي يستحقه الله لنفسه • قالوا والى هذا الاشارة في حديث أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها في الحديث المار : الاستواء معلوم والكيف مجهول ـ الحديث ، ورضي الله تعالى عن الامام مالك حيث قال : أو كلما جاءنا رجل أجدل من رجل تركنا ما جاء به جبريل الى محمد صلى الله عليه وسلم لجدل هؤلاء ؟ وكل من هؤلاء مخصوم بمثل ما خصم به الآخر فلم يبق الا الرجوع لما قاله الله ورسوله والتسليم لهما •

((تنبيهات))

خطأ الناس من جهة التأويل والقياس

« الاول » قال سيدنا الامام أحمد رضي الله عنه أكثر ما يخطىء الناس من جهة التأويل والقياس • فالتأويل في الادلة السمعية والقياس في الادلة العقلية • قال شيخ الاسلام ابن تيمية قدس الله روحه وهو كما قال والتأويل الخطأ انما يكون في الالفاظ المتشابهة والقياس الخطأ انما يكون في

المعانى المتشابهة • قال شيخ الاسلام وقد وقع بنو آدم فى عامة ما يتناوله هذا الكلام من أنواع الضـــلالات حتى آل الامر بمـــن يدعى التحقيق والتوحيد والعرفان منهم الى أن اشتبه عليهم وجود الرب بوجود كـــل موجود وهذا غاية الضلال والهذيان • ثم قال شيخ الاسلام روح الله روحه ما أخبر به الرسول عن ربه فانه يجب الايمان به سواء عرفنا معناه أو لم نعرف لانه الصادق المصدوق ، فما جاء فى الكتاب والسنة وجب على كل مؤمن الايمان به وان لم يفهم معناه ، وكذلك ما ثبت باتفاق سلف الامـــة وأئمتها مع ان هذا الباب يوجد عامته منصوصا فى الكتاب والسنة متفقـــا عليه بين سلف الامة ، وما تنازع فيه المتأخرون نفيا واثباتا فليس على أحد بل ولا له أن يوافق أحدا على اثبات لفظ أو نفيه حتى يعرف مراده فان أراد حقا قبل وان أراد باطلا رد وان اشتمل كلامه على حق وباطل لم يقبل مطلقا ولم يرد جميع معناه بل يوقف اللفظ ويفسر المعنى ، قال كما تنازع الناس فى الجهة فلفظ الجهة قد يراد به شىء موجود غير الله فيكون مخلوقا كما اذا أريد بالجهة نفس العرش او نفس السموات وقد يراد به ما ليس بموجود غير الله تعالى كما اذا أريد بالجهة ما فوق العالم ومعلوم انه ليس فى النص اثبات لفظ الجهة ولا نفيه كما فيه اثبات العلو والاستواء والفوقية والعروج اليه ونحو ذلك وقد علم انه مائم موجـــود الا الخالق والمخلوق ، والخالق مباين للمخلوق سبحانه وتعالى ليس فى مخلوقاته شىء من ذاته ولا فى ذاته شىء من مخلوقاته ، فيقال لمن نفى أتريد بالجهة انها شىء موجود مخلوق فالله ليس داخلا فى المخلوقات أم تريد بالجهة ما وراء العالم فلا ريب أن الله فوق العالم بائن من المخلوقات،وكذلك يقال لمن قال الله فى جهة أتريد بذلك ان الله فوق العالم أو تريد به ان الله داخل فى شىء من المخلوقات فان أردت الاول فهو حق وان اردت الثانى فهـــو باطل ، وكذلك لفظ المتحيز ان أراد به ان الله تحوزه المخلوقات فالله أعظم وأكبر قد وسع كرسيه السموات والارض وقد قال تعالى : (وما قدروا الله حق قدره والارض جميعا قبضته يوم القيمة والسموات مطويات بيمينه) وقد ثبت فى الصحاح عن النبى صلى الله عليه وسـلم انه قال :

« يقبض الله الارض ويطوى السموات بيمينه ثم يقول أنا الملك أين ملوك الارض » وفى حديث ابن عباس رضى الله عنهما : « ما السموات السبع والارضون السبع وما فيهن فى يد الرحمن الا كخردلة فى يد أحدكم ». وفى حديث آخر : « وانه ليدحوها كما يدحو الصبيان بالكرة » . قال وان أراد به انه منحاز عن المخلوقات أى مباين لها ومنفصل عنها ليس حالا فيها فهو سبحانه كما قال أئمة السنة فوق سمواته على عرشه بائن من خلقه . كما ذكره فى التدمرية . وقال شيخ الاسلام فى التدمرية أيضا : أما علوه تعالى ومباينته للمخلوقات فيعلم بالعقل . وأما الاستواء على العرش فطريق العلم به هو السمع ، وليس فى الكتاب والسنة وصف له بأنه لا داخل العالم ولا خارجه ولا مباينه ولا مداخله ، فيظن المتوهم انه اذا وصف بالاستواء على العرش كان استواؤه كاستواء الانسان على ظهور الفلك والانعام كقوله : (وسخر لكم من الفلك والانعام ما يركبون لتستووا على ظهوره) فيتخيل انه اذا كان مستويا على العرش كان محتاجا اليه كحاجة المستوى على الفلك والانعام فتعالى الله وتقدس فهذا خطأ فى مفهوم استوائه تعالى على العرش حيث ظن انه مثل استواء الانسان فانه ليس فى اللفظ ما يدل على ذلك لانه تعالى أضاف الاستواء الى نفسه الكريمة كما أضاف اليه سائر أفعاله وصفاته فذكر أنه خلق ثم استوى ، كما ذكر أنه قدر فهدى ، فلم يذكر استواء مطلقا يصلح للمخلوق ولا عاما يتناول المخلوق كما لم يذكر مثل ذلك فى سائر صفاته ، وقد علم انه تعالى الغنى عن الخلق وانه الخالق للعرش ولغيره وان كل ما سواه مفتقر اليه وهو الغنى عن كل ما سواه ، فكيف يجوز أن يتوهم انه تعالى اذا كان مستويا على العرش كان محتاجا اليه ، تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا ، هل هذا الا جهل محض وضلال ممن فهم ذلك وتوهمه أو ظنه ظاهر اللفظ أو جوزه على رب العالمين الغنى عن الخلق المجيد المتعال .

عبارة للدوانى فى شأن الجهة

(الثانى) قال الجلال الدوانى فى شرح العقائد العضدية ما لفظه : ولابن تيمية أبى العباس أحمد وأصحابه ميل عظيم الى اثبات الجهة ومبالغة فى القدح فى نفيها ، قال ورأيت فى بعض تصانيفه انه لا فرق عند بديهة العقل

بين أن يقال هو معدوم وبين أن يقال طلبته فى جميع الامكنة فلم أجده ونسب النافين الى التعطيل ، قال هذا مع علو كعبه فى العلوم النقلية والعقلية كما يشهد به من تتبع تصانيفه . قال ومحصل كلام بعضهم فى بعض المواضع ان الشرع ورد بتخصيصه تعالى بجهة الفوق كما خص الكعبة بكونها بيت الله ولذلك يتوجه اليها فى الدعاء . قال ولا يخفى انه ليس فى هذا القدر غائلة أصلا لكن بعض أصحاب الحديث من المتأخرين لم يرض بهذا القول وأنكر كون الفوق قبلة الدعاء بل قال قبلة الدعاء هو بعينه نفسه كما ان نفس الكعبة قبلة الصلاة وصرح بكونه جهة الله حقيقة من غير تجوز اه كلامه بحروفه . قلت ليس شيخ الاسلام بأول من نسب النافين للتعطيل فهذا أبو محمد عبد الله بن سعيد بن كلاب وهو الذى تبع طريقته ابو الحسن الاشعرى وان خالفه فى بعض الاشياء الا انه على نهجه فى اثبات الصفات والفوقية وعلو الله على عرشه ، قال ابن كلاب فى كتبه أخرج من الاثر والنظر من قال انه سبحانه لا داخل العالم ولا خارجه . وحكى عنه أبو الحسن الاشعرى انه كان يقول ان الله مستو على عرشه كما قال وانه فوق كل شيء . هذا لفظ حكاية الاشعرى وحكى عنه أبوبكر ابن فورك فيما جمعه من مقالاته فى كتاب المجرد : أخرج من النظر والخبر قول من قال لا هو فى العالم ولا خارجا عنه فنفاه نفيا مستويا لأنه لو قيل له صفه بالعدم ما قدر أن يقول أكثر من هذا . وقال ابن كلاب ان قالوا لا فوق ولا تحت أعدموه لان ما كان لا فوق ولا تحت عدم . قال شيخ الاسلام ابن تيمية قدس الله روحه : ولما رجع الاشعرى عن مذهب المعتزلة سلك طريق ابن كلاب ومال الى أهل السنة والحديث وانتسب الى الامام أحمد كما قد ذكر ذلك فى كتبه كلها كالابانة والموجز والمقالات وغيرها . وقال شيخ الاسلام فى رسالته التدمرية بعد أن ذكر ان الذين لا يصفونه الا بالسلوب لم يثبتوا فى الحقيقة الها محمودا بل ولا موجودا . قال وكذلك من شاركهم فى بعض ذلك كالذين قالوا انه لا يتكلم ولا يرى أو ليس فوق العالم أو لم يستو على العرش ويقولون ليس بداخل العالم ولا خارجه ولا مباين للعالم ولا محايث له ، اذ هذه الصفات يمكن أن يوصف بها

المعدوم وليست هى مستلزمة صفة ثبوت ، ولهذا قال محمود بن سبكتكين لمن ادعى ذلك فى الخالق ميز لنا بين هذا الرب الذى تثبته وبين المعدوم • انتهى •

عبارة لعماد الدين الواسطى فى تقريب اثبات الجملة

(الثالث) ذكر الامام أبو العباس عماد الدين أحمد بن ابراهيم الواسطى الصوفى المحقق العارف تلميذ شيخ الاسلام بن تيمية قدس الله سرهما الذى قال فيه شيخ الاسلام انه جنيد زمانه فى رسالته نصيحة الاخوان ما حاصله فى مسئلة العلو والفوقية والاستواء هو أن الله عز وجل كان ولا مكان ولا عرش ولا ماء ولا فضاء ولا هواء ولا خلاء ولا ملأ وانه كان منفردا فى قدمه وأزليته متوحدا فى فردانيته لا يوصف بأنه فوق كذا اذ لا شىء غيره هو تعالى سابق التحت والفوق اللذين هما جهتا العالم وهو لا زمان له تعالى وهو تعالى فى تلك الفردانية منزه عن لوازم الحدث وصفاته فلما اقتضت الارادة المقدسة خلق الاكوان المحدثة المخلوقة المحدودة ذات الجهات اقتضت الارادة أن يكون الكون له جهات من العلو والسفل وهو سبحانه منزه عن صفات الحدث فكون الاكوان وجعل جهتى العلو والسفل واقتضت الحكمة الالهية ان يكون الكون فى جهة التحت لكونه مربوبا مخلوقا واقتضت العظمة الربانية أن يكون هو تعالى فوق الكون باعتبار الكون لا باعتبار فردانيته اذ لا فوق فيها ولا تحت والرب سبحانه وتعالى كما كان فى قدمه وأزليته وفردانيته لم يحدث له فى ذاته ولا فى صفاته ما لم يكن له فى قدمه وأزليته فهو الآن كما كان ، لما أحدث المربوب المخلوق ذا الجهات والحدود والخلا والملا ذا الفوقية والتحتية كان مقتضى حكم العظمة الربوبية أن يكون فوق ملكه وأن تكون المملكة تحته باعتبار الحدوث من الكون لا باعتبار القدم من المكون فاذا أشير اليه بشىء يستحيل أن يشار اليه من جهة التحتية أو من جهة اليمنة أو من جهة اليسرة بل لا يليق أن يشار اليه الا من جهة العلو والفوقية • ثم الاشارة هى بحسب الكون وحدوثه واسفله فالاشارة تقع على أعلى جزء من الكون حقيقة وتقع على عظمة الله تعالى كما يليق به لا كما يقع على الحقيقة المحسوسة عندنا فى أعلى جزء من الكون فانها اشارة الى جسم وتلك

اشارة الى اثبات . اذا علم ذلك فالاستواء صفة كانت له سبحانه وتعالى فى قدمه لكن لم يظهر حكمها الا بعد خلق العرش ، كما أن الحساب صفة قديمة لا يظهر حكمها الا فى الآخرة ، وكذلك التجلى فى الآخرة لا يظهر حكمه الا فى محله ، قال فاذا علم ذلك فالامر الذى تهرب المتأولة منه حيث أولوا الفوقية بفوقية المرتبة والاستواء بالاستيلاء فنحن أشد الناس هربا من ذلك وتنزيها للبارى تعالى عن الحد الذى يحصره فلا يحد بحد يحصره بل بحد تتميز به عظمة ذاته عن مخلوقاته ، والاشارة الى الجهة انما هو بحسب الكون واسفله اذ لا تمكن الاشارة اليه الا هكذا وهو فى قدسه سبحانه منزه عن صفات الحدث وليس فى القدم فوقية ولا تحتية وانما من هو محصور فى التحت لا يمكنه معرفة بارئه الا من فوقه فتقع الاشارة الى العرش حقيقة اشارة معقولة وتنتهى الجهات عند العرش ويبقى ما وراءه لا يدركه العقل ولا يكيفه الوهم فتقع الاشارة عليه كما يليق به مجملا مثبتا لا مكيفا ممثلا . (قال) فاذا علمنا ذلك واعتقدناه تخلصنا من شبهه التأويل وعماوة التعطيل وحماقة التشبيه والتمثيل وأثبتنا علو ربنا وفوقيته واستواءه على عرشه كما يليق بجلاله وعظمته ، والحق واضح فى ذلك والصدر ينشرح له فان التحريف تأباه العقول الصحيحة مثل تحريف الاستواء بالاستيلاء وغيره ، والوقوف فى ذلك جهل وغى مع كون الرب وصف نفسه بهذه الصفات لنعرفه بها فوقوفنا عن اثباتها ونفيها عدول عن المقصود منه فى تعريفنا اياها ، فما وصف لنا نفسه بها الا لنثبت ما وصف به نفسه لنا ولا نقف فى ذلك . قال وكذلك التشبيه والتمثيل حماقة وجهالة فمن وفقه الله للاثبات بلا تحريف ولا تكييف ولا وقوف فقد وقع على الامر المطلوب منه ان شاء الله تعالى والله أعلم .

العرش كرى أم لا وما يترتب على ذلك

وذكر شيخ الاسلام فى كتابه فى العرش ما حاصله : اختلف فى العرش هل هو كرى كالافلاك فيكون محيطا بها واما ان يكون فوقها وليس هو كريا فان كان الاول فمن المعلوم باتفاق من يعلم ان الافلاك مستديرة كرية الشكل ان الجهة العليا هى جهة المحيط وهو المحدد وان الجهة السفلى هى المركز وليس للافلاك الا جهتان العلو والسفل فقط . واما الجهات الست

فهى للحيوان وليس لها فى نفسها صفة لازمة بل هى بحسب الاضـــافة فيكون يمين هذا ما يكون يسار هذا ويكون امام هذا ما يكون خلف هــذا ويكون فوق هذا ما يكون تحت هذا لكن جهة العلو والسفل للافلاك لا تتغير فالمحيط هو العلو والمركز هو السفل مع ان وجه الارض التى وضعها الله للانام وارساها بالجبال هو الذى عليه الناس والبهائم والشجر والنبات والجبال والانهار الجارية فاما الناحية الاخرى من الارض فالبحـــر محيط بها وليس هناك شىء من الآدميين وما يتبعهم ولو قدر أن هناك أحدا لكان على ظهر الارض ولم يكن من فى هذه الجهة تحت من فى هذه ولا من فى هذه تحت من فى هذه كما ان الافلاك محيطة بالمركز وليس احد جانبى الفلك تحت الآخر ولا القطب الشمالى تحت القطب الجنوبى ولا بالعكس وان كان الشمالى هو الظاهر لنا فوق الارض وارتفاعه بحسب بعد الناس عن خط الاستواء فما كان بعده عن خط الاستواء ثلاثين درجة مثلا كان ارتفاع القطب عنده ثلاثون درجة وهو الذى يسمى عرض البلد ، فاذا قدر ان العرش مستدير محيط بالمخلوقات كان هو أعلاها وسقفها وهو فوقهـا مطلقا فلا يتوجه اليه والى ما فوقه الانسان الا من العلو لا من جهاته الباقية أصلا ومن توجه الى الفلك التاسع او الثامن او غيره من غير جهة العلو كان جاهلا باتفاق العقلاء فكيف بالتوجه الى العرش او الى ما فوقه ؟ وغاية ما يقدر أن يكون كرى الشكل والله تعالى محيط بالمخلوقات كلها احاطة تليق بجلاله فان السموات السبع والارض فى يده أصغر من الحمصة فى يد أحدنا ، قال ابن عباس رضى الله عنهما : ما السموات السبع والارضون السبع وما فيهن وما بينهن فى يد الرحمن الا كخردلة فى يد أحدكم • وهذا الاثر وأمثاله معروفة فى كتب الحديث • قال شيخ الاسلام : ومن المعلوم ان الواحد منا ولله المثل الاعلى اذا كان عنده خردلة ان شاء قبضها فاحاطت بها قبضته وان شاء لم يقبضها بل جعلها تحته فهو فى الحالين مباين لها والعرش سواء كان هذا الفلك التاسع الذى هو الفلك الاطلس عنـــد الفلاسفة ويسمونه الفلك الاعظم وفلك الافلاك او كان جسما محيطـــا بالفلك التاسع او كان فوقه من جهة وجه الارض غير محيط به فحجب

على كل حال ان يعلم ان العالم العلوى والسفلى بالنسبة الى الخالق فى غاية الصغر كما قال تعالى (وما قدروا الله حق قدره والارض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه) وفى ذلك من الاحاديث ما سيأتى ذكر بعضها عند ذكر يديه تعالى • وسواء قدر أن العرش محيط بالمخلوقات كاحاطة الكرة بما فيها أو قيل انه فوقها وليس محيطا بها كوجه الارض الذى نحن عليه بالنسبة الى جوفها وكالقبة بالنسبة الى ما تحتها او غير ذلك فعلى التقديرين يكون العرش فوق المخلوقات والخالق سبحانه وتعالى فوقه والعبد فى توجهه الى الله يقصد العلو دون التحت • ثم قال شيخ الاسلام فى آخر كتاب العرش : قد تبين انه سبحانه وتعالى أعظم وأكبر من ان تكون المخلوقات عنده بمنزلة داخل الفلك وانها أصغر عنده من الحمصة او الفلفلة ونحو ذلك فى يد أحدنا ، فاذا كانت الحمصة أو الفلفلة بل الدرهم والدينار أو الكرة التى يلعب بهاالصبيان ونحو ذلك فى يد انسان أو تحته أو نحو ذلك هل يتصور عاقل اذا استشعر علو الانسان على ذلك واحاطته به أن يكون الانسان كالفلك فالله تعالى وله المثل الأعلى أعظم من أن يظن ذلك به وانما يظنه الذين لم يقدروا الله حق قدره والارض جميعا قبضته يوم القيمة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون وبالله التوفيق •

((فلا يحيط علمنا بذاته   كذاك لا ينفك عن صفاته))

((فكل ما قد جاء فى الدليل   فثابت من غير ما تمثيل))

علم الخلق قاصر عن الاحاطة بالله تعالى

ولما كان الله سبحانه وتعالى بهذه المثابة من العظمة والكبرياء والجلالة وكان الناظم مستشعرا بهذا قال ((فلا يحيط علمنا)) معشر الخلق من الملائكة والانس والجن ولو بذلنا جهدنا فى تحصيل معرفته وأنفذنا أعمارنا فى الدأب فى التدقيق والامعان فى النظر فيما يوصل الى ادراك حقيقته فلا يمكن أن يحيط علمنا ولا أن تدرك عقولنا العلم ((بذاته)) المقدسة وحقيقته المعظمة • قال شيخ الاسلام فى التدمرية : ومثل هذا ـ يعنى عدم العلم بحقائق الصفات والذات ـ يوجد كثيرا فى كلام السلف والائمة ينفون علم العباد بكيفية صفات الله تعالى وانه لا يعلم كيف الله الا الله •

قال فلا يعلم ما هو الا هو ، وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم «لاأحصى ثناءعليك أنت كما أثنيت على نفسك » وهذا فى صحيح مسلم وغيره ،وقال فى الحديث الآخر « اللهم انى أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته فى كتابه أو علمته أحدا من خلقك أو استأثرت به فى علم الغيب عندك » والحديث فى المسند وصحيح أبى حاتم وقد أخبر فيه أن لله من الاسماء ما استأثر به فى علم الغيب عنده فمعانى هذه الاسماء التى استأثر بها فى علم الغيب عنده لا يعلمها غيره ، ونحن نعلم أن أسماء الله تعالى كلها اتفقت فى دلالتها على ذات الله مع تنوع معانيها ، فهى متفقة متواطئة من حيث الذات متباينة من جهة الصفات ، فهى مترادفة بحسب الذات متباينة بحسب الصفات • قال شيخ الاسلام ما أخبر الله به من الغيب أعظم مما يعلم فى الشاهد ، وفى الغائب مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، فنحن اذا أخبرنا الله بالغيب الذى اختص به من الجنة والنار علمنا معنى ذلك وفهمنا ما أريد منا فهمه بذلك الخطاب وفسرنا ذلك ، وأما نفس الحقيقة المخبر عنها مثل التى لم تكن بعد وانما تكون يوم القيامة فذلك من التأويل الذى لايعلمه الا الله • انتهى •

ولهذا قال بعض الناس ليس فى الدنيا شىء مما فى الجنة الا الاسم كما قاله ابن عباس رضى الله عنهما • قال ابن وهب قال عبد الرحمن بن زيد يعرفون أسماءه كما كانوا فى الدنيا بالتفاح والرمان وليس هو مثله فى الطعم • وقد أخرج عبد الله ابن الامام احمد رحمهما الله تعالى من حديث أبى موسى الاشعرى رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أهبط الله آدم من الجنة وعلمه صنعة كل شىء وزوده من ثمار الجنة فثماركم هذه من ثمار الجنة غير أنها تغير وتلك لا تغير » فالله جل شأنه لا يعلم عباده الحقائق التى أخبر عنها من صفاته وصفات اليوم الآخر ولا يعلمون حقائق ما أراد بخلقه وأمره من الحكمة ولا حقائق ما صدرت عنه من المشيئة والقدرة فحقيقة ما دل‌عليه سبحانه وتعالى من حقائق الاسماء والصفات وماله من الجنود الذين يستعملهم فى أفعاله فلا يعلمه الا هو (وما يعلم جنود ربك الا هو) وهذ من تأويل المتشابه الذى لا يعلمه الا الله،

وبهذا يتبين أن التشابه يكون في الالفاظ المتواطئة كما يكـــون في الالفاظ المشتركة التي ليست بمتواطئة ، وان زال الاشتباه بما يميز أحـــد المعنيين من اضافة أو تعريف كما اذا قيل فيها أنهار من ماء فهنا قد خص هذا الماء بالجنة فظهر الفرق بينه وبين ماء الدنيا لكن حقيقة ما امتاز به ذلك الماء غير معلومة لنا ، وهو مع ما أعده الله تعالى لعباده الصالحين مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر من التأويل الذي لا يعلمه الا الله ، وكذلك مدلول أسمائه وصفاته التي يختص بها التي هي حقيقتـــه لا يعلمها الا هو ، ولهذا كان الائمة الكبار كالامام احمد وغيره ينكرون على الجهمية وأمثالهم من الذين يحرفون الكلم عن مواضعه • فالحقيقة التي استأثر الله بعلمها لا يعلمها الا هو كما بسط عليه الكلام شيخ الاسلام في التدمرية وغيرها • ثم قال : وقد افترق الناس في هذا المقام ثلاث فرق، فالسلف والائمة وأتباعهم آمنوا بما أخبر الله به عن نفسه وعن اليـــوم الآخر مع علمهم بالمباينة التي بين ما في الدنيا وبين مافي الآخرة وان مباينة الله تعالى لخلقه أعظم (والفريق الثاني) الذين أثبتوا ما أخبـــر به في الآخرة من الثواب والعقاب ونفوا كثيرا مما أخبر به من الصفات مثل طوائف من أهل الكلام • (والفريق الثالث) نفوا هذا وهذا كالقرامطة الباطنية والفلاسفة اتباع المشائين ونحوهم من الملاحدة الذين ينكرون حقائق ماأخبر الله به عن نفسه وعن اليوم الآخر ، وهؤلاء الباطنية هم الملاحدة الذين أجمع المسلمون على أنهم أكفر من اليهود والنصارى • والله أعلم •

((كذاك)) أي كما أن علمنا لا يحيط بالذات المقدسة ((لاينفك)) أي لا يخلص ولا يزول ((عن صفاته)) الذاتية وأفعاله الاختيارية فذاته المقدسة ليست مثل ذوات المخلوقين ، وصفاته كذاته ليست كصفات المخلوقين ، فنسبة صفة المخلوق اليه كنسبة صفة الخالق اليه • وليس المنسوب كالمنسوب ولا المنسوب اليه كالمنسوب اليه ، وأراد الناظم بما ذكر الرد على المعتزلة ونحوهم من نفاة الصفات فانهم يزعمون ان كل من أثبت لله صفة قديمة فهو مشبه ممثل فمن قال لله تعالى علم قديم أو قدرة قديمة كان عنـــدهم مشبها ممثلا لان القدم عند جمهورهم هو أخص وصف الاله فمن أثبت له

اثبات الصفات والرد على النفاة

صفة قديمة فقد أثبت له مثلا قديما فيسمونه ممثلا بهذا الاعتبار • ومثبتو الصفات لا يوافقونهم على هذا بل يقولون أخص وصفه ما لا يتصف به غيره مثل كونه رب العالمين وانه بكل شيء عليم وانه على كل شيء قدير وانه اله واحد ونحو ذلك والصفة لا توصف بشيء من ذلك ثم من هؤلاء الصفاتية من لا يقول في الصفات انها قديمة بل يقول الرب بصفاته قديم ومنهم من يقول هو قديم وصفته قديمة ولا يقول هو وصفته قديمان • ومنهم من يقول هو وصفاته قديمان ولكن يقول :ذلك لا يقتضي مشاركة الصفة له في شيء من خصائصه فان القدم ليس من خصائص الذات المجردة بل هو من خصائص الذات الموصوفة بالصفات ، والا فالذات المجردة لا وجود لها عندهم فضلا عن أن تختص بالقدم • وقد يقولون الذات متصفة بالقدم والصفات متصفة بالقدم وليست الصفات الها ولا ربا كما أن النبي محدث وصفاته محدثة وليست الصفات نبيا • فهؤلاء المعتزلة اذا أطلقوا على الصفاتية اسم التشبيه والتمثيل كان هذا بحسب اعتقادهم الفاسد الباطل • وهب ان هذا المعنى قد يسمى في اصطلاح بعض الناس تشبيها فهذا المعنى لم ينفه عقل ولا سمع وانما الواجب نفي ما نفته الادلة الشرعية والعقلية • والقرآن قد نفى مسمى المثل والكفء والند ونحو ذلك والصفة في لغة العرب ليست مثل الموصوف ولا كفأه ولا نده فلا تدخل في النص ، وأما العقل فلم ينف مسمى التشبيه في اصطلاح المعتزلة • وكذلك زعمهم ان الصفات لا تقوم الا بجسم فلو قامت به الصفات للزم أن يكون مماثلا لسائر الاجسام وهذا هو التشبيه ، وهذا باطل فان الله تعالى لا مثل له بل له المثل الاعلى فلا يجوز أن يشترك هو والمخلوق في قياس تمثيل ولا في قياس شمول تستوي أفراده ولكن يستعمل في حقه تعالى المثل الاعلى وهو أن كل ما اتصف به المخلوق من كمال فالخالق به أولى ، وكل ما ينزه عنه المخلوق فالخالق أنزه عنه وأعلى ، فالذي يعتمد عليه نفي النقص والعيب مما هو سبحانه مقدس عنه فهذه الطريق الصحيحة ، والمحجة الرجيحة ، فيثبت له من صفات الكمال ، ما يليق بعزة ذي الجلال ، وينفي مماثلة غيره له فيها فلا يشركه شيء من الاشياء فيما هو من خصائصه ، وكل صفة من صفات الكمال فهو

متصف بها على وجه لا يماثله فيه أحد • فمذهب السلف وأئمـــة الدين اثبات ما وصف الله به نفسه من الصفات ونفى مماثلته لشيء من لمخلوقات كما تقدم الكلام على الصفات بما لعل فيه كفاية لمن تبصر والله الموفق •

تنبيـــــه

الصـــفات عين الذات أم غيرها؟

اختلف النظار فى صفات البارى عز وجل هل هى عين ذاته تعالى أو غير ذاته المقدسة ، وبهذه الشبهة نفت المعتزلة الصفات عن الذات لانهم قالوا اما أن تكون الصفات حادثة فيلزم قيام الحوادث بذاته وخلوه تعالى فى الازل عن العلم والقدرة والارادة والحياة وغيرها من الكمالات وصدورها عنه تعالى بالقصد والاختيار أو بشرائط حادثة والجميع باطل بالاتفاق ، واما أن تكون قديمة فيلزم تعدد القدماء ، وهو كفر باجماع المسلمين وقد كفـــر النصارى بثلاثة قدماء فكيف بالاكثر • والجواب انما المحظور فى تعدد القدماء المغايرة ونحن نمنع تغاير الذات مع الصفات والصفات بعضها مع بعض فينتفى التعدد والتكثر ولئن سلم ما زعموا من تعدد القدماء فالممتنع تعـــدد القـــدماء اذا كـــانت ذوات مســـتقلة لا تعدد ذات وصفـــات لها ، فهذا مباين لقول النصارى كما لا يخفى على ذى بصيرة • قال شيخ الاسلام ابن تيمية روح الله روحه فى شرح العقيدة الاصفهانية :واسم الغير فيه اصطلاحان أحدهما أن الغيرين ماجاز العلم بأحدهما مع عدم العـــلم بالآخر ، والثانى ان الغيرين ماجاز مفارقة أحدهما للآخر ، وعرفا أيضا بأنهما الموجودان اللذان يمكن انفكاك أحدهما عن الآخر بوجود أو مكان أو زمان ، فالغيرية كون الموجودين يتصور انفكاك أحدهما عن الآخر ، والعينية هى الاتحاد فى المفهوم بلا تفاوت أصلا • فلا يكونان نقيضين بل يتصور بينهما واسطة بأن يكون الشيء بحيث لا يكون مفهومه مفهوم الآخر ولا يوجد بدونه كالجزء مع الكل والصفة مع الذات العلية وبعض صفاتها مع بعض • قال شيخ الاسلام والاول ـ يعنى ان حد الغيرين ماجاز العلم بأحدهما مع عدم العلم بالآخر ـ اصطلاح المعتزلة والكرامية ، والثانى وهوان حد الغيرين ماجاز مفارقة أحدهما للآخر كما تقدم اصطلاح طوائف من الكلابية والاشعرية ومن وافقهم من الفقهاء من أصحاب الأئمة الاربعة •

قال واما الأئمة كالامام احمد بن حنبل رضى الله عنه وغيره فان لفظ الغير عندهم يحتمل هذا وهذا ، ولهذا كان السلف لا يطلقون القول بأن صفات الله تعالى غيره ولا انها (١) ليست غيره ، فلا يقولون كلام الله غير الله ولا يقولون ليس غير الله ، بل يستفسرون القائل عن مراده فقد يريد الاول وقد يريد الثانى ، وهذه طريقة حذاق النظار فان أراد الاصطلاح الثانى فجزء الشيء اللازم وصفته اللازمة ليس بغير له فلا يكون ثبوته موجبا لافتقاره الى غيره ، وان تكلم بالاول فثبوت الغير بهذا التفسير لا بد منه فانه يمكن العلم بوجوده والعلم بأنه خالق والعلم بعلمه والعلم بارادته وهم يفسرون (٢) عن ذلك بالعقل والعناية وهذه المعانى أغيار على هذا الاصطلاح وثبوتها لازم لواجب الوجود ، واذا كان ثبوت هذه الاغيار لازما له لم يجز القول بنفيها لأن نفيها يستلزم نفى واجب الوجود • واعلم ان مثل هذا وان سمى تركيبا فليس منافيا لوجوب الوجود فاذا قيل واجب الوجود لا يفتقر الى غيره قيل لا يفتقر الى غير يجوز مفارقته له أم الى غير لازم لوجوده ؟ فالاول حق وأما الثانى اذا أريد بالافتقار انه مستلزم له فممنوع • وقال شيخ الاسلام أيضا قدس الله سره فى كتابه (الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح) ما ملخصه : من الناس من يقول كل صفة للرب عز وجل غير الاخرى ، ويقول الغيران ماجاز العلم بأحدهما مع الجهل بالآخر • ومنهم من يقول ليست هى غير الاخرى ولا هى هى لأن الغيرين ماجاز وجود أحدهما مع عدم الآخر أو ماجاز مفارقة أحدهما الآخر بزمان أو مكان أو وجود • قال والذى عليه سلف الأمة وأئمتها اذا قيل لهم علم الله وكلام الله هل هو غير الله أم لا لم يطلقوا النفى ولا الاثبات فانه اذا قيل هو غيره اوهم انه مباين له واذا قيل ليس غيره أو هم انه هو بل يستفصل السائل فان أراد بقوله غيره انه مباين له منفصل عنه فصفات الموصوف لا تكون مباينة له منفصلة عنه وان كان مخلوقا فكيف بصفات الخالق ؟ وان أراد بالغير انها ليست هى هو فليست الصفة هى الموصوف فهى غيره بهذا الاعتبار ، واسم

---

(١) فى الاصلين « لانها » كذا
(٢) الظاهر « يعبرون »

الرب اذا أطلق يتناول الذات المقدسة بما تستحقه من صفات الكمال فيمتنع وجود الذات عرية عن صفات الكمال فاسم (الله) جل وعز يتناول الذات الموصوفة بصفات الكمال ، وهذه الصفات ليست زائدة على هذا المسمى بل هي داخلة في المسمى ولكنها زائدة على الذات المجردة التى تثبتها نفاة الصفات . فأولئك لما زعموا أنه ذات مجردة قال هؤلاء الصفات زائدة على ما أثبتموه من الذات ، وأما في نفس الامر فليس هناك ذات مجردة تكون الصفات زائدة عليها بل الرب تعالى هو الذات المقدسة الموصوفة بصفات الكمال وصفاته داخلة في مسمى أسمائه سبحانه وتعالى . انتهى . وهذا تحقيق لا مزيد عليه فاحفظه فانه مهم وبالله التوفيق .

ثم أخذ في ذكر الصفات التي يثبتها السلف فقال ((فكل ما)) أي وصف ((قد جاء)) مضمونه ((في الدليل)) الشرعي من الكتاب العظيم وسنة النبى الكريم ووصفه بعد السلف الصالح ((ف)) انه ((ثابت)) له سبحانه وتعالى وموصوف به ((من غير ما)) زائدة لمزيد النفي وتأكيده ((تمثيل)) بل نثبت له ما ورد ولا نتعرض له بتأويل ولا رد فمذهب السلف في آيات الصفات انها لا تؤول ولا تفسر بل يجب الايمان بها وتفويض معناها المراد منها الى الله تعالى فقد روى اللالكائي الحافظ عن محمد بن الحسن قال اتفق الفقهاء كلهم من المشرق الى المغرب على الايمان بالصفات من غير تفسير ولا تشبيه. قال العلامة الشيخ مرعي وغيره من علمائنا وغيرهم مضت أئمة السلف على الايمان بظاهر ما جاء في الكتاب من آيات الصفات ، وكان الزهري ومالك والاوزاعي وسفيان الثوري والليث بن سعد وعبد الله بن المبارك والامام احمد بن حنبل واسحاق ابن راهويه وغيرهم رحمهم الله ورضى عنهم يقولون في آيات الصفات مروها كما جاءت وقال سفيان بن عيينة - وناهيك به علما وفهما وورعا وزهدا وامامة : وكل ما وصف الله نفسه في كتابه فتفسيره قراءته والسكوت عنه ليس لأحد أن يفسره الا الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم . الى غير ذلك مما ذكرناه أولا ومما لم نذكره مما هو أضعاف اضعاف اضعافه

((من رحمة ونحوها كوجهه   ويده وكل ما من نهجه))

تعداد الصفات

((وعينه وصفـــة النـــزول وخلقه فاحذر من النـــزول))
((فسائر الصفات والافعـــال قديمة لله ذى الجـــلال))
((لكن بلا كيف ولا تمثيل رغما لأهل الزيغ والتعطيل))
((فمرها كما أتت فى الذكر من غير تأويل وغير فكر)) (١)

---

(١) فى التعليقات المنقوله عن الشيخ عبد الله بابطين ما لفظه تقدم الكلام على قول المؤلف رحمه الله فى آيات الصفات أنها تمر كما جاءت عند قوله فكل ماجاء من الآيات . وأما قوله من غير تأويل وغير فكر فينبغى أن يعرف أن التأويل يقع على ثلاثة معان الاول ما اشتهر عند كثـــير من المتأخرين وهو أنه صرف اللفظ عن ظاهره وهو صحيح ان كان بدليـــل وباطل ان كان بغير دليل والمعنى الثانى انه ما يؤول اليه الامرومنه قوله تعالى هل ينظرون الا تأويله وقوله عن يوسف قال يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل والمعنى الثالث التفسير ومنه ما يقوله ابن جرير رحمه الله فى مثل القول فى تأويل قوله تعالى أى فى تفسير قوله تعالى والمؤلف رحمه الله تعالى ان أراد بنفى التأويل المعنى الاول فصحيح فان أهل السنـــة لا يصرفون نصوص الصفات عن معناها الظاهر منها بلا دليل وأما أن أراد المعنى الثالث فغير صحيح فان أهل السنة ما زالوا يفسرون أسماء الله تعالى ويبينوا أقسامها من غير تكييف ولا تمثيل وكم لهم من مصنف فى شرح أسماء الله الحسنى وبيان معانيها دون كيفيتها واما أن أرادالمعنىالثانى من التأويل وهو ما يئول اليه الشىء فهذا فيه تفصيل فان أراد نفى معرفة ما يئول اليه من الكيفية فصحيح فان أحدا لا يعلم كيفية صفات البارى وان أراد نفى (معرفة) ما تئول اليه من المعنى فغير صحيح فاننا نعرف معانى أسماء الله وصفاته وان كنا لا نحيط بذلك وأما قوله وغير فكر فانه قد صرح فى الشرح كما ترى بأن المراد وغير فكر فى معناها فان أراد بالمعنى الكيفية وهو بعيد ــ فصحيح فاننا لن نفكر فى الكيفية لان ذلك تفكير فيما لا سبيل الى الوصول اليه فان الشىء يستحيل معرفته الا بمشاهدته أو مشاهدة نظيره أو خبر الصادق عنه وأما ان أراد بمعناها الوصف اللائق بالله فغير صحيح فاننا نفكر فى ذلك ونتأمله ونتعبد لله به انظر الى قوله تعالى (الحى) فانناا فكر فى كل معنى جليل ووصف كامل يمكن أن يدل عليه اسم الحى مطابقة أو تضمنا أو التزاما فنثبته لله تعالى ثم اذا نظرنا مرة أخرى الى مثل قوله تعالى العليم الخبير أوجب لنا أن نفهم ونفهم معنى العلم فينتج من ذلك مراقبة الله سرا وعلنا والخوف منه وان نخشاه سرا وعلنا كما أشار الى ذلك قوله تعالى (قل ان الموت الذى تفرون منه فانه ملاقيكم ثم تردون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون) فتأمل هذا التفريع وهو الاخبار المستلزم للمجازاة أو العفو اذا شاء الله وكان الذنب غير شرك حق تأمله تجده مفرعا على قوله عالم الغيب والشهادة يوجب لك أكبر المراقبة لله والحاصل أن التفكير فى معانى أسماء الله وصفاته من غير كيف هو ما يعتنقه أهل السنة كما هو معلوم طفحت به كتبهم صغارها وكبارها متونها وشروحها والله أعلم

الرحمة

اذا علمت ذلك فمما يثبته له تعالى السلف دون غيرهم صفة الرحمة وقد أشار اليها بقوله ((من رحمة)) وهى صفة قديمة قائمة بذاته تعالى تقتضى التفضل والانعام كما تقدم فى أول الكتاب • قال شيخ الاسلام ابن تيمية قدس الله روحه فى شرح العقيدة الاصفهانية : الذى اتفق عليه سلف الامة وأئمتها أن يوصف الله تعالى بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل ، فانه قد علم بالسمع مع العقل ان الله ليس كمثله شيء لا فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أفعاله كما قال (هل تعلم له سميا) (فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون) (ولم يكن له كفوا أحد) وقد علم بالعقل أن المثلين يجوز على أحدهما ما يجوز على الآخر ، ويجب له ما يجب له ويمتنع عليه ما يمتنع عليه ، فلو كان المخلوق مثلا للخالق للزم اشتراكهما فيما يجب ويجوز ويمتنع والخالق يجب وجوده وقدمه والمخلوق يستحيل وجوب وجوده وقدمه بل يجب حدوثه وامكانه ، فلو كانا متماثلين للزم اشتراكهما فى ذلك وهذا جمع بين النقيضين • قال اذا عرف هذا فنقول ان الله تعالى سمى نفسه فى القرآن العظيم بالرحمن الرحيم ووصف نفسه بالرحمة كما قال (ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما) (ورحمتى وسعت كل شيء) • قال ومن الناس من جعل رحمة الله تعالى عبارة عما يخلقه من النعمة ، ومنهم من جعل رحمته ارادته لانهم زعموا ان الرحمة لغة رقة القلب وانعطافه وذلك من الكيفيات التابعة للمزاج والله تعالى منزه عنها ، فالمراد بها فى حقه ارادة الخير والاحسان الى من يرحمه ، فان أسماء الله تعالى تؤخذ باعتبار الغايات التى هى أفعال ، دون المبادى التى هى انفعالات ، وقد مر فى أول الكتاب الكلام على الرحمة بما لعله يشفى ويكفى • قوله ((ونحوها)) أى نحو الرحمة من محبته تعالى ورضاه وغضبه ونحو ذلك قال تعالى «يحبهم ويحبونه ـ وألقيت عليك محبة منى ـ ان الله يحب المحسنين ـ و : يحب المتقين ـ و : يحب الصابرين ـ و : يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا » قال شيخ الاسلام : ومن الناس من نفى أن تكون له صفة محبة أو رضا أو غضب غير الارادة ، قال علماء الخلف المحبة ميل القلب الى مايلائم الطبع والله

المحبة والرضا والغضب

منزه عن ذلك وحينئذ فمحبة الله تعالى للعبد ارادة اللطف به والاحسان اليه ، ومحبة العبد لله هى محبة طاعته فى أوامره ونواهيه والاعتناء بتحصيل مراضيه ، فمعنى يحب الله أى يحب طاعته وخدمته أو يحب ثوابه واحسانه وهذا مذهب جمهور المتكلمين • قال الامام العلامة المحقق الاصولى الطوفى الحنبلى رحمه الله تعالى ذهب طوائف من المتكلمين والفقهاء الى أن الله تعالى لا يحب وانما محبته محبة طاعته وعبادته • وقالوا أيضا هو لا يحب عباده المؤمنين وانما محبته ارادته الاحسان اليهم • قال والذى دل عليـــه الكتاب وللسنة واتفق عليه سلف الامة وأئمتها وجميع مشايخ الطريق ان الله تعالى يحب ويحب لذاته ، وأما حب ثوابه فدرجة نازلة • وهذا من كلام شيخ الاسلام فانه قال : للناس فى هذا الاصل العظيم ثلاثة أقوال (أحدها) أن الله تعالى يحب ويحب كما قال تعالى (فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه) فهو المستحق أن يكون له كمال المحبة دون ما سواه وهو سبحانه يحب ما أمر به ويحب عباده المؤمنين • قال شيخ الاسلام : وهذا قول سلف الامة وأئمتها وقول أئمة شيوخ المعرفة • (والقول الثانى) انه يستحق أن يحب لكنه لا يحب الا بمعنى أن يريد وهذا قول كثير من المتكلمين ومن وافقهم من الصوفية • (والثالث) انه لا يحب ولا يحب وانما محبـــة العباد له ارادتهم طاعته ، وهذا قول الجهمية ومن وافقهم من متأخرى أهل الكلام كالرازى — فيقال لمن نفى رحمة الله ومحبته وغضبه ورضاه ونحوها وأثبت له الارادة : لم نفيت تلك وأثبت له الارادة ؟ فان قيل لأن اثبات هذه الصفات تشبيه لأن الرحمة رقة تلحق المخلوق ، والغضب غليان الدم لارادة الانتقام، ونحو ذلك، والرب منزه عن مثل صفات المخلوقين،قيل له : وكذلك يقول لك منازعك في الارادة ان الارادة المعروفة ميل الانسان الى ما ينفعه ودفع ما يضره، والله تعالى منزه عن الاحتياج الى عباده وهم لا يبلغون ضره ولا نفعه بل هو الغنى عن خلقه كلهم • فان قيل الارادة التى نثبتها لله تعالى ليست مثل ارادة المخلوقين كما انا قـد اتفقنا وسائر المسلمين على أنه حى عليم قـدير وليس هو مثل سائر الاحياء العلماء القادرين ، قال لك أهل الاثبات : وكذلك المحبة والرحمة ونحوهما التى نثبتها لله تعالى ليست مثل رحمـة المخلوق

ومحبته • فان قلت لا أعقل من الرحمة والمحبة الا هذا ، قال لك النفاة ونحن لا نعقل من الارادة الا هذا ، ومعلوم عند كل عاقل ان ارادتنا ومحبتنا ورحمتنا بالنسبة الينا ، وارادته ومحبته ورحمته تعالى بالنسبة اليه ، فلا يجوز التفريق بين المتماثلين فيثبت له احدى الصفتين وينفى الاخرى وليس في العقل ولا في السمع ما يوجب التفريق • قال شيخ الاسلام فى التدمرية : القول في بعض الصفات كالقول في بعض فان كان المخاطب ممن يقر بأن الله تعالى حي بحياة عليم بعلم قدير بقدرة سميع بسمع بصير ببصر متكلم بكلام مريد بارادة ويجعل ذلك كله حقيقة وينازع فى محبته تعالى ورضاه وغضبه وكراهته فيجعل ذلك مجازا ويفسره اما بالارادة واما ببعض المخلوقات من النعم والعقوبات ، قيل له لا فرق بين ما نفيته وبين ما أثبته بل القول في أحدهما كالقول في الآخر ، فان قلت ان ارادته مثل ارادة المخلوقين فكذلك محبته ورضاه وغضبه وهذا هو التمثيل ، وان قلت له ارادة تليق به كما ان للمخلوق ارادة تليق به ، قيل لك وكذلك له محبة تليق به وللمخلوق محبة تليق به ، وله تعالى رضا وغضب يليق به وللمخلوق رضا وغضب يليق به ، فان قال الغضب غليان دم القلب لطلب الانتقام، قيل له والارادة ميل النفس الى جلب منفعة أو دفع مضرة ، فان قلت هذه ارادة المخلوق ، قيل لك وهذا غضب المخلوق ، وكذلك يلزم بالقول في علمه وسمعه وبصره وقدرته ونحو ذلك ، فهذا المفرق بين بعض الصفات وبعض يقال له فيما نفاه كما يقوله هو لمنازعه فيما أثبته ، فان قال تلك الصفات أثبتها بالعقل لأن الفعل دل على القدرة، والتخصيص دل على الارادة، والاحكام دل على العلم وهذه الصفات مستلزمة للحياة والحى لا يخلو عن السمع والبصر والكلام أو ضد ذلك ، قال له سائر أهل الاثبات لك جوابان (أحدهما) أن يقال عدم الدليل المعين لا يستلزم عدم المدلول المعين فهب ان ما سلكته من الدليل العقلى لا يثبت ذلك فانه لا ينفيه وليس لك أن تنفيه من غير دليل لأن النافي عليه الدليل كما على المثبت ، والسمع قد دل عليه ولم يعارض ذلك معارض عقلى ولا سمعى فيجب اثبات ما أثبته الدليل

السالم عن المعارض المقاوم (الثانى) أن يقال يمكن اثبات هذه الصفات بنظير ما أثبت به تلك من العقليات فيقال نفع العباد بالاحسان اليهم وما يوجد في المخلوقات من المنافع للمحتاجين وكشف الضر عن المضرورين وأنواع الرزق والهدى والمسرات دليل على رحمة الخالق كدلالة التخصيص على الارادة والمشيئة ، والقرآن يثبت دلائل الربوبية بهذه الطريق تارة يدلهم بالآيات المخلوقة على وجود الخالق ويثبت علمه وقدرته وحياته ، وتارة يدلهم بالنعم والآلاء على وجود بره واحسانه المستلزم رحمته ، وهذا كثير في القرآن وان لم يكن مثل الاول أو أكثر منه لم يكن أقل منه بكثير ، واكرام الطائعين يدل على محبتهم وعقاب الكفار يدل على بغضهم كما قد ثبت بالشاهد والخبر من اكرام أوليائه وعقاب أعدائه ، والغايات الموجودة في مفعولاته ومأموراته وهى ما تنتهى اليه مفعولاته ومأموراته من العواقب الحميدة تدل على حكمته البالغة كما يدل التخصيص على الارادة وأولى لقوة العلة الغائية ، ولهذا كان ما في القرآن من بيان مخلوقاته من النعم والحكم أعظم مما في القرآن من بيان ما فيها من الدلالة على محض المشيئة •
قال شيخ الاسلام طيب الله مضجعه : ومما يوضح ذلك أن وجوب تصديق كل مسلم بما أخبر به الله ورسوله من صفاته تعالى ليس موقوفا على أن يقوم دليل عقلى على تلك الصفة بعينها فان مما يعلم بالاضطرار من دين الاسلام ان الرسول اذا أخبرنا بشىء من صفات الله تعالى وجب علينا التصديق به وان لم نعلم ثبوته بعقولنا ومن لم يقر بما جاء به الرسول حتى يعلمه بعقله فقد أشبه الذين قال الله عنهم (وقالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله الله أعلم حيث يجعل رسالاته)[1] ومن سلك هذا السبيل فهو في الحقيقة ليس مؤمنا بالرسول ولا متلقيا عنه الأخبار بشأن الربوبية ولا فرق عنده بين ان يخبر الرسول بشىء من ذلك أو لم يخبر به فان ما أخبر به اذا لم يعلمه بعقله لا يصدق به بل يتأوله أو يفوضه ومالم يخبر به ان علمه بعقله آمن به ، فلا فرق عند من سلك هذه السبيل

---

(١) مخ « رسالته » ومر نظيره ص ٢٠

بين وجود الرسول واخباره وبين عدم الرسول وعدم اخباره وكان ما يذكر من القرآن والحديث والاجماع عديم الاثر عنده . قال شيخ الاسلام فى شرح الاصفهانية : وقد صرح بهذا أئمة هذا الطريق. قال : ثم أهل الطريق الثبوتية فيهم من يحيل على القياس وفيهم من يحيل على الكشف وكل من الطريقين فيها من الاضطراب والاختلاف ما لا ينضبط وليست واحدة منهما تحصل المقصود بدون الطريق النبوية ، والطريق النبوية بها يحصل الايمان النافع في الآخرة ، ثم ان حصل قياس أو كشف يوافق ما أخبر به الرسول صلى الله عليه وسلم كان حسنا مع أن القرآن قد نبه على الطريق الاعتبارية التى بها يستدل على مثل ما في القرآن كما قال تعالى (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم انه الحق) فاخبر أنه يرى عباده من الآيات المشهودة التى هى أدلة عقلية ما يبين ان القرآن حق ، وليس لقائل أن يقول انما خصت هذه الصفات بالذكر لأن السمع موقوف عليها دون غيرها ، فان الأمر ليس كذلك لأن التصديق بالسمعيات ليس موقوفا على اثبات السمع والبصر ونحو ذلك ، ثم قال شيخ الاسلام قدس الله روحه : والمقصود هنا التنبيه على أن ما يجب اثباته لله تعالى من الصفات ليس مقصورا على ما ذكره هؤلاء مع اثباتهم بعض صفاته بالعقل وبعضها بالسمع . فان من عرف حقائق أقوال الناس بطرقهم التى دعتهم الى تلك الاقوال حصل له العلم والرحمة فعلم الحق ورحم الخلق وكان من الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وهذه خاصة أهل السنة المتبعين للرسول صلى الله عليه وسلم فانهم يتبعون الحق ويرحمون من خالفهم باجتهاده حيث عذره الله ورسوله ، وأما أهل البدع فيبتدعون بدعة باطلة ويكفرون من خالفهم فيها . انتهى وبالله التوفيق .

ذكر وجه الله تبارك وتعالى

ثم ذكر من صفات الله التى يثبتها السلف دون غيرهم عدة وبدأ بصفة الوجه له تعالى فقال ((كوجهه)) أى من الصفات الثابتة له تعالى صفة الوجه اثبات وجود لا اثبات تكييف وتحديد وهذا الذى نقل الخطابى وغيره انه مذهب السلف والأئمة الأربعة وبه قال الحنفية والحنابلة وكثير من الشافعية وغيرهم وهو اجراء آيات الصفات وأحاديثها على ظاهرها مع نفى

الكيفية والتشبيه عنهـــا محتجين بأن الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات فاذا كان اثبات الذات اثبات وجود لا اثبـات تكييف فكذلك اثبـات الصفات ، وقالوا انا لا نلتفت في ذلك الى تأويل لسنا منه على ثقة ويقين ، لاحتمال أن يكون المراد غيره لانه مأخوذ بالظن والتخمين ، لا بالقطـــع واليقين ، فلا نبنى اعتقادنا عليه ، ولا نرجع عن النص الثابت اليه[١] • فان هذا عند السلف مذموم وناهج هذا المنهج معيب ملوم • قال بعض المحققين : صفات الرب تعالى معلومة من حيث الجملة والثبوت ، غير معقولة من حيث التكييف والتحديد ، فالمؤمن مبصر بها من وجه أعمى من وجه ، مبصر من حيث الاثبات والوجود أعمى من حيث التكييف والتحديد ، قال الله تعالى في محكم كتـــابه « ويبقى وجه ربك ــ فأينما تولوا فثم وجه الله ــ انما نطعمكم لوجه الله ــ كل شيء هالك الا وجهه » وفي الحديث : من بنى مسجدا يبتغى به وجه الله ، وفي آخر : أعوذ بوجهك ، والاحاديث كثيرة شهيرة • قال أهل التأويل المراد بالوجه الذات المقدسة فأما كونه صفة الله فلا ، وهو قول المعتزلة وجمهور المتكلمين وزعموا انه يروى عن ابن عباس رضى الله عنهما انه قال : الوجه عبارة عنه عز وجل كما قال (ويبقى وجه ربك) • وقال ابن فورك : قد تذكر صـفة الشيء ويراد بها الموصـوف توسعا كما يقول القائل رأيت علم فلان ونظرت الى علمه والمراد نظرت الى العالم • وقال القرطبى قال الحذاق : الوجه راجع الى الوجود والعبارة عنه بالوجه من مجاز الكلام اذ كان الوجه أظهر الاعضاء في المشاهدة • ومذهب السلف الاول والرعيل الذى عليه المعول ان الوجه صفة ثابتة لله تعالى ورد بها السمع فتتلقى بالقبول • ويبطل مذهب أهل التأويل ما قاله الامام الحافظ البيهقى والخطابى في قوله تعالى (ويبقى وجه ربك) فأضـــاف الوجه الى الذات وأضاف النعت الى الوجه فقال (ذو الجلال) ولو كان ذكر الوجه صلة ولم يكن صفة للذات لقال ذى الجلال فلما قال ذو الجلال علمنا أنه نعت للوجه وان الوجه صفة للذات • وقال علماؤنا قد ثبت في الخطـاب العربى الذى أجمع عليه أهل اللغة ان تسمية الوجه في أى محل وقع من

---

(١) تأمل ما هنا وراجع التعليق على ص ٩٣ ــ ٩٩

الحقيقة والمجاز يزيد على قولنا ذات فأما الحيوان فذلك مشهور حقيقة لا يمكن دفعه ، وأما في مقامات المجاز فكذلك أيضا لانه يقال فلان وجه القوم لا يراد به ذات القوم اذ ذوات القوم غيره قطعا ، ويقال هذا وجه الثوب لما هو أجوده ، ويقال هذا وجه الرأى أى أصحه وأقومه ، ويقال أتيت بالخبر على وجهه أى على حقيقته - الى غير ذلك مما يقال فيه الوجه ، فاذا كان هذا هو المستقر في اللغة وجب أن يحمل الوجه في حق البارى على وجه يليق به وهو أن يكون صفة زائدة على تسمية قولنا ذات . فان قيل يلزم أن يكون عضوا وجارحة ذات كمية وكيفية وهو باطل ، فالجواب هذا لا يلزم لان ما توهمه المعترض انما هو بالاضافة الى ذات الحيوان المحدث لا من خصيصية صفة الوجه ولكن من جهة نسبة الوجه الى جملة الذات فيما ثبت لها من الماهية المركبة وذلك أمر مدرك بالحس فى جملة الذات فكانت الصفات الحادثة مساوية للذات المحدثة بطريق كونها منها ومنتسبة اليها نسبة الجزء من الكل ، فأما الوجه (المضاف-١) للبارى تعالى ينسب اليه نسبة الذات اليه وقد ثبت ان الذات فى حق البارى لا توصف بأنها جسم مركب تدخله الكمية وتتسلط عليها الكيفية ولا نعلم لها ماهية ، فصفته تعالى التى هى الوجه كذلك لا يوصل لها الى ماهية ولا يوقف لها على كيفية ولا تدخلها التجزئة المأخوذة من الكمية لان هذه انما هى صفات الجواهر المركبة أجساما والله تعالى منزه عن ذلك. ولو جاز هذا الاعتراض في الوجه لقيل بمثله في السمع والبصر والقدرة والعلم ونحوها فان العلم في حق المخلوق في الشاهد عرض قائم بقلب يثبت بطريق ضرورة أو اكتساب ولا كذلك في حق البارى جل وعلا لانه مخالف للشاهد في الدابية وغير مشارك في اثبات ماهية أو كمية أو كيفية ، قال أبو الحسن الاشعرى : لله تعالى وجه بلا كيف كما قال (ويبقى وجه ربك) قال ونصدق بجميع الروايات التى يثبتها أهل النقل . وقال القاضى أبو بكر (١) بن الباقلانى :فان قال قائل فما الدليل على أن لله تعالى وجها قيل له قوله تعالى (ويبقى وجه ربك) . وقال الامام أبو حنيفة وله تعالى يد ووجه ونفس . فما ذكر

(١) من مح

الله تعالى في القرآن من ذكر الوجه واليد والنفس فهو له صفات بلا كيف.
وقد روى مسلم في صحيحه وابن ماجه في سننه حديث : ان الله لا ينام ولا
ينبغى له ان ينام حجابه النور لو كشفه لاحرقت سبحات وجهه ما انتهى
اليه بصره من خلقه . قال الامام لنووى : معناه انه تعالى لا ينام وانه
مستحيل في حقه النوم فان النوم انغمار وغلبة على العقل يسقط به الاحساس
والله تعالى منزه عن ذلك ، وسبحات وجهه نوره وبهاؤه وجلاله بضم السين
المهملة والباء الموحدة ، وقيل سبحات الوجه محاسنه لانه يقال سبحان الله
عند رؤيتها ، وأصل الحجاب في اللغة المنع والستر والمراد به هنا المانع من
رؤيته وسمى ذلك المانع نورا لانه يمنع في العادة من الادراك كشعاع
الشمس . قال : والمراد بالوجه الذات والمراد بما انتهى اليه بصره جميع
المخلوقات لان بصره تعالى محيط بجميع الكائنات الخ كلامه . وقوله المراد
بالوجه الذات يعنى على طريقة الخلف . وقالوا في قوله تعالى (فاينما
تولوا فثم وجه الله) أى فثم رضاه وثوابه . وقالوا في قوله (انما
نطعمكم لوجه الله) أى لرضاه وطلب ثوابه وقيل فثم الله والوجه صلة .
وقيل المراد بالوجه في قوله تعالى فثم وجه الله الجهة التى وجهنا الله اليها
أى القبلة . والحق الحقيق مذهب سلف الامة وما عليه الأئمة من اثبات
الوجه ونحوه ولهذا قال ((و)) ك ((يده)) تعالى الثابت بها النص

ذكر اليدين والأصابع

القرآنى والحديث النبوى العرفانى كقوله تعالى « يد الله فوق أيديهم -
لما خلقت بيدى - بل يداه مبسوطتان - قل ان الفضل بيد الله » ، فقد
أعلمنا في محكم تنزيله انه خلق أبانا آدم عليه السلام بيديه ، وكذب جل
شأنه اليهود في قولهم يد الله مغلولة فقال (بل يداه مبسوطتان) وأعلمنا في
محكم الذكر أن الأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه
وقال (فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء واليه ترجعون) وقال « تعز
من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شىء قدير - أو لم يروا
انا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما » وفي الصحيحين من حديث عمر بن
الخطاب رضى الله عنه ان النبى صلى الله عليه وسلم قال : التقى آدم وموسى
فقال موسى أنت الذى خلقك الله بيده وأسجد لك ملائكته ونفخ فيك من

روحه : الحديث ــ وفي حديث أبى هريرة رضى الله عنه مرفوعا نحوه ــ فقال آدم : يا موسى أنت الذى اصطفاك الله بكلامه وخط لك التوراة بيده• الحديث • وفي حديث أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لما خلق الله الخلق ــ وفى رواية لما خلق الله آدم ــ كتب بيده على نفسه ان رحمتى تغلب غضبى ، وفي حـــديث النزول من حديث ابن مسعود رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم وفيــه : فيبسط يديه فيقول ألا عبد يسألنى فأعطيه ــ الحديث ، وفي حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ان أحدكم ليتصدق بالتمرة من طيب ــ ولا يقبل الله الا طيبا ــ فيجعلها الله في يده اليمين ثم يربيها كما يربى أحدكم فلوه أو فصيله حتى تصير مثل أحـــد • وفي رواية فيجعلها الله فى كفه فيربيها كما يربى أحدكم مهره أو فصيله حتى تعود في يده مثل الجبل • ومعنى تعود هنا تصير • وفي رواية من حديث أبى هريرة مرفوعا من تصدق بصدقة من كسب طيب ــ ولا يقبل الله الا طيبا ولا يصعد الى السماء الا طيب ــ فتقع في كف الرحمن • وفي لفظ ــ الا هو يضعها في يد الرحمن أو في كف الرحمن ــ وفي رواية وان كانت مثل تمرة فتربو له في كف الرحمن حتى تكون أعظم من الجبل كما يربى أحدكم فلوه أو فصيله • وفي لفظ وان الرجل ليتصدق باللقمة فتربو في يد الله أو قال في كف الله حتى تكون مثل الجبل • وفي حدبث أبى هريرة أيضا رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لما خلق الله تعالى آدم ونفخ فيه الروح عطس فقــال الحمد لله ، فحمد الله باذن الله فقــال له ربه رحمك ربك يا آدم ــ الحديث ، وفيه فقال الله له ويداه مقبوضتان : اختر أيهما شئت ، قال اخترت يمين ربى وكلتا يدى ربى يمين مباركة ــ الحديث ، وفي حديث أبى هريرة رضى الله عنه أيضا عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : يمين الله ملأى لا يغيضها نفقة سحاء بالليل والنهار ، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والارض ، فانه لم يغض ما فى يمينه ، وعرشه عـلى الماء وبيمينه الاخرى القبض يرفع ويخفض • وفي حـــديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم : قال « ان الله يبسط

يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده - يعني بالنهار - ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها » وفي القرآن العظيم (وما قــدروا الله حق قدره والارض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه) الآية. وفي الصحيحين (من حديث أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال : يقبض الله تبارك وتعالى الارض يوم القيامة ويطــوى السماء بيمينه ثم يقول أنا الملك ، أين ملوك الأرض . وفي الصحيحين - ١) آيضا واللفظ لمسلم عن أبى عبد الرحمن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يطوى الله السموات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى ثم يقول أنا الملك أين الجبارون أين المتكبرون ، ثم يطوى الارضين بيده الاخــرى ثم يقول أنا الملك أين الجبـــارون أين المتكبرون . وفي لفظ في الصحيح عن عبيد الله[1] بن مقسم انه نظر الى عبد الله بن عمر كيف يحكى النبى صلى الله عليه وسلم قال : يأخــذ الله سمواته وأرضه بيده ويقول أنا الملك - ويقبض أصابعه ويبسطها - أنا الملك حتى نظرت الى المنبر يتحرك من أسفل شيء منه حتى انى أقول أســاقط هو برسول الله صلى الله عليه وسلم . وفي لفظ قال رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر وهو يقول : يأخذ الجبار سمواته وأرضه - وقبض بيده وجعـــل يقبضها ويبسطها - ويقول أنا الرحمن أنا الملك أنا السلام أنا المؤمن أنا المهيمن أنا العزيز أنا الجبار أنا المتكبر أنا الذى بدأت الدنيا ولم تك شيئا أنا الذى أعيدها أين الملوك أين الجبابرة - وفي لفظ أين الجبارون أين المتكبرون - ويتميل رسول الله صلى الله عليه وسلم على يمينه وعلى شماله حتى نظرت الى المنبر يتحرك من أسفل شيء منه حتى انى لأقول أساقط هو برسول الله صلى الله عليه وسلم . والحديث مروى في الصحيح والمسانيد وغيرها بألفاظ يصدق بعضها بعضا . وفي بعض ألفاظه قال : قرأ على المنبر (وما قدروا الله حق قدره والارض جميعا قبضته يوم القيامة) الآية قال : مطوية في كفه يرمى بها كما يرمى الغلام بالكرة . وفي لفظ يأخذ الجبار سمواته وأرضه بيده فيجعلهما في كفه ثم يقول بهما هكذا

(١) من مخ .

(١) فى الاصلين « عبد الله » خطأ

كما يقول الصبيان بالكرة : أنا الله الواحد • وقال ابن عباس رضى الله عنهما يقبض عليهما فما يرى طرفاهما بيده ، وفي لفظ عنه : ما السموات السبع والارضون السبع وما فيهن وما بينهن في يد الرحمن الا كخردلة في يد أحدكم • قال شيخ الاسلام في كتاب العرش : وهذه الآثار معروفة • وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال أتى النبى صلى الله عليه وسلم رجل من اليهود فقال يا محمد ان الله يجعل السموات على أصبع والارضين على أصبع والجبال والشجر على أصبع والماء والثرى على أصبع وسائر الخلق على أصبع فيهزهن فيقول أنا الملك أنا الملك • قال فضحك النبى صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه تصديقا لقول الحبر ثم قال (وما قدروا الله حق قدره والارض جميعا قبضته يوم القيامة) الآية• قال شيخ الاسلام ابن تيمية روح الله روحه : ففى هذه الآية والأحاديث الصحيحة المفسرة لها المستفيضة التى اتفق أهل العلم على صحتها وتلقيها بالقبول ما يبين ان السموات والارض وما بينهما بالنسبة الى عظمة الله عز وجل أصغر من أن تكون مع قبضته لها الا كالشىء الصغير في يد أحدنا حتى يدحوها كما يدحى بالكرة •

اذا استحضرت ما ذكرناه وفهمت معنى ما تلوناه فاعلم ان مذهب السلف الصالح وعلماء الحنابلة ومن وافقهم من أهل الاثر ان المراد باليدين اثبات صفتين ذاتيتين تسميان يدين تزيدان على النعمة والقدرة محتجين بما مر من الآيات القرآنية والاخبار النبوية فان الله تعالى أثبت لآدم عليه السلام من المزية والاختصاص مالم يثبت مثله لابليس بقوله (لما خلقت بيدى) والا فكان ابليس يقول وأنا خلقتنى بيديك فلا مزية لآدم ولا تشريف • فان قيل انما أضيف ذلك الى آدم ليوجب له تشريفا وتعظيما على ابليس ومجرد النسبة فى ذلك كاف في التشريف كناقة الله وبيت الله فهذا كاف في التشريف وان كانت النوق والبيوت كلها لله • فالجواب : التشريف بالنسبة اذا تجردت عن اضافة الى صفة اقتضى مجرد التشريف فأما النسبة اذا اقترنت بذكر صفة أوجب ذلك اثبات الصفة التى لولاها ما تمت النسبة فان قولنا خلق الله الخلق بقدرته لما نسب الفعل الى تعلقه بصفة الله اقتضى

ذلك اثبات الصفة ، وكذا أحاط بالخلق بعلمه يقتضى احاطته بصفةهى العلم، فكذلك هنا لما كان ذكر التخصيص مضافا الى صفة وجب اثبات تلك الصفة على وجه يليق بجلال الله وعظمته لا بمعنى العضو والجارحة والجسمية والبعضية والكمية والكيفية تعالى الله عن ذلك • قال الامام الحافظ البغوى في قوله تعالى (بيدى) في تحقيق الله تعالى التثنية فى اليد دليل على انهـــا ليست بمعنى القدرة والقوة والنعمة وانهما صفتان من صفات ذاته • وقال البيهقى في كتاب « الأسماء والصفات » باب ما جاء في اثبات اليدين صفتين لا من حيث الجارحة ـ فذكر الآيات ثم قال الحافظ البيهقى : قال بعض أهل النظر قد تكون اليد بمعنى القــوة كقوله (داود ذا الايد) أى ذا القــوة وبمعنى الملك والقدرة والنعمة وتكون صلة أى زائدة • ثم أبطل البيهقى ذلك كله وأثبت أن اليدين صفتان تعلقتا بخلق آدم تشريفا له دون خلق ابليس تعلق القدرة بالمقدور لا من طريق المباشرة ولا من حيث المماسـة وليس لذلك التخصيص وجه غير ما بينه الله تعالى في قوله (لما خلقت بيدى) انتهى • وقال أبو الحسن الأشعرى : اليد صفة ورد بها الشرع والذى يلوح من معنى هذه الصفة انها قريبة من معنى القدرة الا أنها أخص منهـــا والقدرة أعم كالمحبة مع الارادة والمشيئة فان في اليد تشريفا لازما • وذهبت المعتزلة وطائفة من الاشعرية الى أن المراد باليدين معنى النعمتين، وطائفة من الاشعرية أيضا ان المراد باليدين القدرة لان اليد يعبر بها فى اللغـــة عن القدرة كقول الشاعر :

★ فقمت ومالى في الامور يدان ★

وقالوا في قوله تعالى (بل يداه مبسوطتان) انما ثنى اليد مبالغة في الرد على اليهود ونفى البخل عنه واثباتا لغاية الجود ، قالوا! فان غاية ما يبذل السخى من ماله أن يعطيه بيديه وتنبيها على منح الدنيا والآخرة • قالوا أو المراد بالتثنية باعتبار نعمة الدنيا ونعمة الآخرة أو باعتبار قوة الثواب وقوة العقاب، ولا يخفى ما في هذا من الاعراض والانصراف ، والعـــدول عن الحق والانصاف ، بل الصواب اثبات ما أثبته الله لنفسه ووصفه به نبيه حسبما ورد ، من غير الحاد ولا رد ، فهو اثبات وجود بلا تكييف كما مر • قال

الحافظ البيهقى : المتقـــدمون من هذه الامة لم يفسروا ما ورد من الآى والاخبار في هذا الباب مع اعتقادهم بأجمعهم بأن الله واحد لا يجوز عليه التبعيض[1] قال وذهب بعض أهل النظر الى أن اليمين يراد به اليد واليد لله صفة بلا جارحة فكل موضع ذكرت فيه من الكتاب أو السنة فالمراد بذكرها تعلقها بالمكان المذكور معها من الطى والاخذ والقبض والبسط والقبـــول والانفاق وغير ذلك تعلق الصفة الذاتية بمقتضاها من غير مباشرة ولا مماسة وليس في ذلك تشبيه بحال ، وهذا مذهب السلف والحنابلة ومن وافقهم • قال الخطابى وليس معنى اليد عندى الجارحة وانما هى صفة جاء بهـــا التوقيف فنحن نطلقها على ما جاءت ولا نكيفها وننتهى الى حيث انتهى بهـا الكتاب والاخبار الصحيحة وهو مذهب أهل السنة والجماعة • انتهى •

وقال أهل التأويل كما في تفسير البيضاوى وغيره في الآية هو تنبيه على عظمته وكمال قدرته على الافعال العظام التى تتحير فيها الافهام ودلت على أن تخريب العالم أهون شىء عليه على طريقة التمثيل والتخييل من غير اعتبار القبضة واليمين لا حقيقة ولا مجازا • وقال بعضهم هو لبيان تصوير عظمة الله وجلاله وقدرته وان الملكوتات كلها منقادة لارادته ومسخرات بأمره• وذهب بعضهم الى أن القبض قد يكون بمعنى الملك والقدرة كقولهم ما فلان الا في قبضتى أى قدرتى ويقولون الأشياء في قبضة الله أى في ملكه وقدرته قالوا وعلى هذا التأويل تخرج الآية والآحاديث كحديث مسلم وغيره «ان المقسطين عند الله يوم القيامة على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتـــا يديه يمين الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا » ورواه النســـائى من حديث عبد الله بن عمرو بن العاصى رضى الله عنهما ، قال النووى : هو من أحاديث الصفات اما نؤمن بها ولا نتكلم بتأويل ونعتقد أن ظاهرها غير مراد وأ نلها معنى يليق بالله أو تؤول على أن المراد بكونهم على اليمين على الحالة الحسنة والمنزلة الرفيعة ،وقوله وكلتا يديه يمين فيه تنبيه على أنه ليس المراد باليمين الجارحة وأن يديه تعالى بصفة الكمال لا نقص في واحدة منهما لأن الشمال تنقص عن اليمين • وقال بعضهم وقد تكون اليـــمين

(١) راجع التعليق على ص ١١٥ و١٨٢ ـ ١٨٩ وما يأتى فى التعليق على ص٢٥٨ ـ ٢٦١

بمعنى التبجيل والتعظيم يقال فلان عندنا باليمين أى بالمحل الجليل ومنه قول الشاعر :

أقول لناقتى اذ بلغتنى لقد أصبحت عندى باليمين

أى بالمحل الرفيع وأحسن منه قول بعضهم :

ألم أك في يمنى يديك جعلتنى فلا تجعلنى بعدها في شمالكا

قال العلامة الشيخ مرعى في كتابه ـ القول البديع في علم البديع ـ أراد ان يقول ألم أكن قريبا منك فلا تجعلنى بعيدا عنك فعدل عنه الى لفظ التمثيل لما فيه من زيادة المعنى لما تعطيه لفظتا اليمين والشمال من الاوصاف لأن اليمين أشد قوة فهى معدة للطعام والشراب والأخذ والاعطاء وكل ما شرف والشمال بالعكس واليمين مشتق من اليمن وهو البركة والشمال من الشؤم فكأنه قال ألم أكن مكرما عندك فلا تجعلنى مهانا وقد كنت منك بالمكان الشريف فلا تجعلنى في الوضيع .

وفي بعض ألفاظ الحديث ذكر الشمال لله تعالى ، قال الحافظ البيهقى وقد ورد ذكر الشمال لله تعالى من طريقين في أحدهما جعفر بن الزبير وفي الآخر يزيد الرقاشى وهما متروكان ، قال وكيف يصح ذلك عن النبى صلى الله عليه وسلم وقد صح عنه عليه الصلاة والسلام أنه سمى كلتا يديه يمين(؟) وكأن من قال ذلك أرسله من لفظه على ما وقع له أو على عادة العرب من ذكر الشمال في مقابلة اليمين . وقال الخطابى ليس فيما يضاف الى الله سبحانه من صفة اليدين شمال لان الشمال محل النقص والضعف . وقال الامام الحافظ أبو بكر محمد بن خزيمة فى كتابه « السنة » مذهبنا مذهب أهل الآثار ومتبعى السنن ولا نلتفت الى جهل من يسميهم مشبهة اذ الجهمية المعطلة جاهلون بالتشبيه فنحن نقول : لله جل وعلا يدان كما أعلمنا الخالق البارى في محكم تنزيله وعلى لسان نبيه المصطفى صلى الله عليه وسلم ، ونقول كلتا يدى ربنا عز وجل يمين على ما أخبر النبى صلى الله عليه وسلم ، ونقول ان الله عز وجل يقبض الارض جميعا باحدى يديه ويطوى السماء بيده الاخرى وكلتا يديه يمينان لا شمال فيهما . ثم قال كيف يكون مشبها من يثبت لله تعالى أصابع على ما بينه النبى المصطفى صلى الله عليه وسلم

للخالق الباري ؟ ونقول ان الله جل وعلا يضع السماء على اصبع والارضين على اصبع - الى تمام الحديث • ثم قال فكيف يكون مشبها من يثبت لربه عز رجل يدين على ما أثبته الله لنفسه وأثبته له نبيه صلى الله عليه فكيف يكون مشبها يدى ربه بيدى بنى آدم ؟ نقـــول لله يدان مبسوطتان ينفق كيف يشاء بهما خلق آدم عليــه السلام وكتب التوراة بيده ويداه قـديمتان لم تزالا باقيتين وأيدى المخلوقين مخلوقة محدثة غير قديمة فانية غير باقيـــة بالية تصير ميتة ثم رميما ثم ينشئ الله خلقا آخر تبارك الله أحسن الخالقين• ثم قال أى تشبيه يلزم أصحابنا أيها العقلاء اذا أثبتوا للخالق ما يثبته لنفسه وما يثبته له نبيه المصطفى صلى الله عليه وسلم ؟ ثم قال وقول هؤلاء المعطلة يوجب أن كل من يقرأ كتاب الله ويؤمن به اقرارا باللسان وتصديقا بالقلب فهو مشبه لان ما وصف الله تعالى به نفسه فى محكم تنزيله تزعم هـــذه الفرقة ان من وصفه به فهو مشبه • ثم سبهم ولعنهم ووصفهم بالكفر والتعطيل وأطال من التبكيت والتنكيت على من أول النصوص وصرفهـــا عن حقيقتها وبالله التوفيق • وفي صحيح مسلم وغيره من حديث عبد الله بن عمر وبن العاص رضى الله عنهما ان النبى صلى الله عليه وسلم قال « ان قلوب بنى آدم كلها بين اصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه كيف يشاء » ثم قال عليه الصلاة والسلام « اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنـــا الى طاعتك » روى هذا الحديث من عدة طرق عن عدد من الصحابة رضى الله عنهم منهم النواس بن سمعان الكلابى قال رضى الله عنه سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقـــول « ما من قلب الا وهو بين اصبعين من أصابع الله تعالى ان شاء أقامه وان شاء أزاغه » وكان يقول « يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك » رواه الامام أحمد والحـــاكم في صحيحه • ومنهم أم المؤمنين أم سلمة رضى الله عنها قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر في دعائه « اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك » قالت فقلت يا رسول الله وان القلوب لتتقلب ؟ قال « نعم ، ما من خلق من بنى آدم الا وقلبه بين اصبعين من أصابع الله فان شاء أقامه وان شاء أزاغه » فنســـأل الله تعالى ان لا يزيغ قلوبنا بعد اذ هدانا ونسأله ان يهب لنا من لدنه رحمة

انه هو الوهاب • ومنهم أبو ذر رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ان قلوب بنى آدم بين اصبعين من أصابع الله فاذا شاء صرفه واذا شاء بصره واذا شاء نكسه ولم يعط الله أحدا من الناس شيئا هو خير من أن يسلك في قلبه اليقين وعند الله مفاتح القلوب فاذا أراد الله بعبد خيرا فتح له قفل قلبه واليقين والصدق وجعل قلبه وعاء واعيا لما سلك فيه وجعل قلبه سليما ولسانه صادقا وخليقته مستقيمة وجعل اذنه سميعة وعينه بصيرة، ولم يؤت أحد من الناس شيئا -يعنى هو شر- من أن يسلك الله فى قلبه الريبة وجعل نفسه شرة شرهة متعطلة لا ينفعه المال وان أكثر له وغلق الله القفل على قلبه فجعله ضيقا حرجا كانما يصعد فى السماء » كما روى ذكره الامام الحافظ أبو بكر بن خزيمة فى كتابه السنة •

وأما قول الخطابى ذكر الاصابع لم يوجد في شيء من الكتاب والسنة المقطوع بصحتها فهو عجيب منه بل هو ثابت في صحيح السنة المقطوع بصحتها ، وقال النووى في شرح صحيح مسلم هذا من الاحاديث المتشابهات وفيها القولان الايمان بها من غير تعرض لتأويل ولا لمعرفة بل نؤمن بها وان ظاهرها غير مراد لقوله تعالى (ليس كمثله شيء) ثانيهما يتأول بحسب ما يليق قال فعلى هذا فالمراد المجاز كما يقال فلان في قبضتي وفي كفى ، لا يراد انه حال في كفه بل المراد تحت قدرتى ، ويقال فلان في خنصرى وبين اصبعى أقلبه كيف شئت يعنى انه هين على قهره والتصرف فيه كيف شئت فمعنى الحديث انه سبحانه يتصرف في قلوب عباده وغيرها كيف شاء لا يمتنع عليه منها شيء ولا يفوته ما أراده كما لا يمتنع على الانسان ما كان بين اصبعيه ، (قال) خاطب العرب بما يفهمونه ومثله بالمعانى الحسية تأكيدا له في نفوسهم ، وأجابوا عن تثنية الاصابع مع كون القدرة واحدة بان ذلك مجاز واستعارة واقعة موقع التمثيل بحسب ما اعتادوه غير مقصود به التثنية والجمع • وفى - نهاية ابن الاثير - اطلاق الاصابع عليه تعالى مجاز كاطلاق اليد واليمين والعين وهو جار مجرى التمثيل والكناية عن سرعة تقلب القلوب وان ذلك أمر معقود بمشيئة الله تعالى • قال وتخصيص ذكر الاصابع كناية عن اجراء القدرة والبطش لان ذلك باليد والاصابع • وقال القرطبى

وغيره الاصبع قد تكون بمعنى القدرة على الشيء وسهولة تقلبه كما يقول من استسهل شيئا واستخفه مخاطبا لمن استثقله أنا أحمله على اصبعي وأرفعه بأصبعي وأمسكه بخنصري فهذا مما يراد به الاستظهار في القدرة على الشيء فلما كانت السموات والارض أعظم الموجودات وكان امساكها بالنسبة الى الله كالشيء الحقير الذى نجعله بين أصابعنا ونهزه بأيدينا ونتصرف فيه كيف شئنا دل ذلك على قوته القاهرة وعظمته الباهرة لا اله الا هو سبحانه •

وقال بعض المحققين هذا الحديث من جملة ما تنزه السلف عن تأويله كأحاديث السمع والبصر واليد فان ذلك يحمل على ظاهره ويجرى بلفظه الذى جاء به من غير أن يشبه بمشبهات الحس أو يحمل على معنى المجاز في الاتساع ، بل يعتقد انها صفات لله تعالى لا كيفية لها قال وانما تنزهوا عن تأويل هذا القسم لانه لا يلتئم معه ولا يحمل ذلك على وجه يرتضيه العقل الا ويمنع منه الكتاب والسنة من وجه آخر •

وقال شيخ الاسلام ابن تيمية روح الله روحه فى رسالته التدمرية اذا قال قائل ظاهر النصوص مراد أو ليس بمراد ؟ فانه يقال له لفظ الظاهر فيه اجمال واشتراك فان كان القائل يعتقد ان ظاهرها التمثيل بصفات المخلوقين أو ما هو من خصائصهم فلا ريب ان هذا غير مراد ولكن السلف والأئمة لم يكونوا يسمون هذا ظاهرها ولا يرتضون أن يكون ظاهر القرآن والحديث كفرا وباطلا والله أعلم وأحكم من أن يكون كلامه الذى وصف به نفسه لا يظهر منه الا ما هو كفر واضلال ـ الى أن قال قوله صلى الله عليه وسلم « قلوب العباد بين اصبعين من أصابع الرحمن » فقالوا قد علم ان ليس فى قلوبنا أصابع الحق فيقال لهم لو أعطيتم النصوص حقها من الدلالة لعلمتم انها لم تدل الا على حق أما الواحد فقوله صلى الله عليه وسلم « الحجر الأسود يمين الله في الارض فمن صافحه وقبله فكأنما صافح الله وقبل يمينه » صريح فى أن الحجر ليس هو صفة الله ولا هو نفس يمينه فانه قال فكانما صافح الله وقبل يمينه فالمشبه ليس هو المشبه به الى أن قال قوله صلى الله عليه وسلم « قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن » فانه ليس في ظاهره أن القلب متصل بالاصبع ولا مماس لها ولا انها فى

جوفه ولا في قول القائل هذا بين يدى ما يقتضى مباشرته ليديه ، واذا قيل السحاب المسخر بين السماء والارض لم يقتض أن يكون مماسا للسماء والارض ، ونظائر هـذا كثيرة ، فمذهب السلف فى هذا ونظائره من الأخبار المتشابهةالواردة فيصفاتالله عز وجل ما بلغنا ومالم يبلغنا مما صحعنه صلى الله عليه وسلم اعتقادنا فيه وفى الآى المتشابهة في القرآن ان نقبلها ولا نردها ولا نتأولها بتأويل المخالفين ولا نحملها على تشبيه المشبهين ولا نزيد عليها ولا تنقص منها (ولا نفسرها)[1] ولا نكيفها فنطلق ما أطلقه الله ونفسر ما فسره رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه والتابعون والأئمة المرضيون من السلف المعروفين بالدين والامانة رضوان الله عليهم أجمعين فهذا مذهب سلف الامة وسائر الائمة ، والعـدول عنه وصمة والالتفات الى سواه نقمة وبالله التوفيق • وقوله ((وكل ما)) أى كل شىء وارد من صفات الله تعالى ((من نهجه)) أى نهج اليد والوجه ونحوهما والنهج الطريق الواضح أى كل ما ورد من الاوصاف من الرجل والقدم والصورة[2] ((و)) من ((عينه)) عز وجل فنهجه الواضح وسبيله المبين

الصورة والعين

---

(١) ليس فى مخ

(٢) فى تنبيه ابن سحمان ص ٥١ بعد حكاية نحو هذه العبارة : « اعلم ان ما ذكره الشارح من قوله والصورة ان أراد به ما أخبر به صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح كما فى البخارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ان الله خلق آدم على صورته » ورواه الثـورى عن حبيب بن أبى ثابت عن عطاء عن النبى صلى الله عليه وسلم مرسلا ولفظة « خلق آدم على صورة الرحمن » قال شيخ الاسلام : ورواه الاعمش مسندا ، وكما ورد فى الحديث : « فيأتيهم على الصورة التى يعرفونها فيقول أنا ربكم » فما أخبر به النبى صلى الله عليه وسلم فى ذلك فهو الحق الذى لا ريب فيه • ولكن لا نقول الا ما ورد به النص عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يجوز لاحد أن يطلق على الله أنه صورة لان ذلك لم يرد فى الكتاب ولا فى السنة لا نفيا ولا اثباتا ، ولا سمى الله به نفسه • فاطلاق هذه الالفاظ على الله من أقوال أهل البدع التى تلقاها من خلف منهم عمن سلف •

قال ابن القيم رحمه الله فى المدارج بعد أن ذكر كلا ما سبق : ان الفعل أوسع من الاسم ، ولهذا أطلق علىنفسه أفعالا لم يتسم منها بأسماء الفاعل كأراد وشاء وأحدث ، ولم يسم بالمريد والمشىء (؟) والمحدث كما لم يسم نفسه بالصانع والفاعل والمتقن وغير ذلك من الاسماء التى أطلق أفعالها على نفسه فباب الافعال أوسع من باب الاسماء وقد أخطأ أقبح خطأ من اشتق له من كل فعل اسما وبلغ باسمائه زيادة على الالف فسماه الماكر والخادع

الاقرار بما ورد والايمان بما صح من غير تشبيه ولا تمثيل ولا الحاد ولا تعطيل ، بل نقر وندعن ونسلم ونؤمن بكل ذلك ونثبته اثبات وجود بلا تكييف ولا تحديد • فمن ذلك العين في قوله تعالى (ولتصنع على عينى) وقوله (فانك بأعيننا) وقوله (تجرى بأعيننا) فمذهب السلف اثبات ذلك صفة لله تعالى وفى الصحيحين وغيرهما لما ذكر الدجال عند النبى صلى الله عليه وسلم فقال صلى الله عليه وسلم « ان الله ليس بأعور » ففى حديث ابن عمر رضى الله عنهما ان رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر الدجال بين ظهرانى الناس فقال « ان الله تبارك وتعالى ليس بأعور الا أن المسيح الدجال أعور العين اليمنى كأن عينه عنبة طافية » هذا لفظ مسلم • ولفظ صحيح البخارى من حديث ابن عمر رضى الله عنهما قال ذكر الدجال عند النبى صلى الله عليه وسلم فقال « ان الله لا يخفى عليكم ان الله ليس بأعور - وأشار بيده الى عينه - وان المسيح الدجال أعور العين اليمنى كأن عينه عنبة طافية » أخرجه البخارى فى كتاب التوحيد من صحيحه في باب قوله تعالى (ولتصنع على عينى) وذكر البخارى في حجة الوداع من كتاب المغازى من صحيحه عن ابن عمر رضى الله عنهما قال كنا نتحدث بحجة الوداع والنبى صلى الله عليه وسلم بين أظهرنا فلا ندرى ما حجة الوداع فحمد الله وأثنى عليه ثم ذكر المسيح الدجال فأطنب في ذكره وقال « ما بعث الله من نبى الا أنذر أمته الدجال أنذره نوح والنبيون من بعده وانه يخرج فيكم

والفتن والكائد ونحو ذلك ، وكذلك باب الاخبار عنه بالاسم أوسع من تسميته به فانه يخبر عنه بأنه شيء موجود ومذكور ومعلوم ومراد ولا يسمى بذلك • انتهى

فاذا تبين لك هذا فاعلم ان من أدخل اسم الصورة فى أسماء الله قد أخطأ أقبح خطأ لان باب الافعال والاخبار عن الله أوسع من باب الاسماء ولفظ الصورة لم يذكره أحد من علماء أهل السنة والجماعة فى عقائدهم وانما ذكر ذلك بعض من ينسب الى أهل السنة فمن اشتق من أفعال الله سبحانه وتعالى أسماء وأوصافا لم يذكرها الله ولا رسوله الا على سبيل الاخبار فنقول فى ذلك ما قاله الله ورسوله وأخبر به فى كتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم لا تتجاوز القرآن والحديث والله أعلم •

وقد تقدم التنبيه على أن السلف رضوان الله عليهم قد فسروا آيات الصفات وأحاديثها وبينوا معانيها ونهوا عن تأويلات الجهمية وذكرنا ما ذكره شيخ الاسلام من أن مذهب أهل التفويض أشر المذاهب وأخبثها ونسبة ذلك الى السلف من الكذب عليهم والله أعلم •

فما خفى عليكم من شأنه فليس يخفى عليكم ان ربكم ليس بأعور وانه أعور العين اليمنى كأن عينه عنبة طافية » والاحاديث كثيرة ، قال البيهقى والقرطبى وغيرهما : في هذا نفى نقص العور عن الله تعالى واثبات العين له صفة وعرفنا بقوله «ليس كمثله شيء» انها ليست بحدقة • وقال علماؤنا قد ورد السمع باثبات صفة له تعالى وهى العين فتجرى مجرى السمع والبصر وليس المراد اثبات عين هى حدقة ماهيتها شحمة لان هذه العين من جسم محدث والله يتعالى عن ذلك وأما العين التى وصف بها البارى جل وعلا فهى مناسبة لذاته فى كونها غير جسم ولا جوهر ولا عرض فلا يعرف لها ماهية ولا كيفية ، قالوا وقد امتنعت المعتزلة والاشعرية من أن يقال لله تعالى عين فأما المعتزلة فنفوا العين والبصر فهم على جادتهم وأما الاشعرية فنفوا صفة العين وأثبتوا صفة البصر فيضعف ذلك على قولهم لانهم يوافقون على انه يبصر ببصر وانما امتنعوا من تسمية عين لما استوحشوا من العين في الشاهد فقالوا بالتأويلات ، ومن المفاسد قياس الغائب على الشاهد • وقال أهل التأويل المراد من قوله تعالى (تجرى بأعيننا) أى بمرأى منا ونحن نراها ، قالوا أو المراد بأعيننا يحفظنا وكلاءتنا ، قالوا أو المراد به أعين الماء أى تجرى بأعين خلقناها وفجرناها فهى اضافة ملك وخلق لا اضافة صفة ذاتية ، أو المراد تجرى بأوليائنا وخيار خلقنا ، وقالوا في قوله تعالى « ولتصنع على عينى » أى تربى وتغذى على مرأى منى ، وكذا « فانك بأعيننا » أى بمرأى منا وفي حفظنا ، وقال بعضهم العين مؤولة بالبصر أو الادراك بل قيل انها حقيقة في ذلك خلافا لتوهم بعض الناس انها مجاز ، قال وانما المجاز في تسمية العضو بها • وذكر الشيخ ابراهيم الكورانى في شرح منظومة شيخه الشيخ (أحمد بن) محمد المقدسى القشاشى ما لفظه : ثم وقفت من كلام الشيخ الاشعرى في - الابانة - الذى هو آخر مصنفاته والمعتمد في المعتقد على ما يشد أركان ما قررناه من مذهبه وذلك انه قال : وان له تعالى عينين بلا كيف وان لله علما ونثبت لله السمع والبصر ولا ننفى ذلك كما نفته المعتزلة والجهمية والخوارج • انتهى • قال الكورانى فصرح باثبات العينين بلا كيف والحمد لله رب العالمين • انتهى • وقال سيدنا الامام أحمد

رضى الله عنه أحاديث الصفات تمر كما جاءت من غير بحث عن معانيها ونخالف ما خطر في الخاطر عند سماعها وننفى التشبيه عن الله تعالى عند ذكرها مع تصديق النبى صلى الله عليه وسلم والايمان بها وكل ما يعقل ويتصور فهو تكييف وتشبيه وهو محال - كما نقله عنه الامام ابن حمدان فى نهاية المبتدئين • انتهى • وهذا مذهب السلف الاثرية فهو الحق وبالله التوفيق •

(فـائدة)

لمعة عن الدجال

ذكر الامام شيخ الاسلام تقى الدين ابن تيمية في كتابه الجواب الصحيح ما نصه لما كان حلول اللاهوت فى البشر واتحاده به مذهبا ضل به طوائف كثيرون من بنى آدم النصارى وغيرهم وكان المسيح الدجال يأتى بخوارق عظيمة والنصارى احتجوا على الاهية المسيح بمثل ذلك ذكر النبى صلى الله عليه وسلم من علامات كذبه أمورا ظاهرة لا يحتاج فيها الى بيان موارد النزاع التى ضل فيها خلق كثير من الآدميين فان كثيرا من الناس بل أكثرهم تدهشهم الخوارق حتى يصدقوا صاحبها قبل النظر في امكان دعواه واذا صدقوه صدقوا النصارى في دعوى الهية المسيح وصدقوا أيضا من ادعى الحلول والاتحاد في بعض المشايخ أو بعض أهل البيت أو غيرهم من أهل الافك والفجور • قال شيخ الاسلام روح الله روحه وبهذا يظهر الجواب عما أورده بعض أهل الكلام كالرازى على هذا الحديث حيث قالوا دلائل كون الدجال ليس هو الله ظاهرة فكيف يحتج النبى صلى الله عليه وسلم على ذلك بقوله : انه أعور وان ربكم ليس بأعور ؟ قال شيخ الاسلام وهذا السؤال يدل على جهل قائله بما يقع فيه بنو آدم من اضلال الادلة البينة التى تبين فساد الاقوال الباطلة والا فاذا كان بنو اسرائيل في عهد موسى عليه السلام ظنوا ان العجل هو اله موسى فقالوا هذا الهكم واله موسى وظنوا ان موسى نسيه والنصارى مع كثرتهم يقولون ان المسيح هو الله وفى المنتسبين الى القبلة خلق كثير يقولون ذلك في كثير من المشايخ أو أهل البيت حتى ان كثيرا من أكابر شيوخ المعرفة أو التصوف يجعلون هذا نهاية التحقيق والتوحيد وهو أن يكون الموحد هو الموحد فكيف يستبعد مع

اظهار الدجال هذه الخوارق العظيمة ان يعتقد فيه انه الله ؟ وهو يقول : أنا الله • وقد اعتقد ذلك في من لم يظهر فيه مثل خوارقه من الكذابين وفي من لم يقل انا الله كالمسيح وسائر الانبياء والصالحين والله أعلم •

ذكر نزول الله تعالى الى السماء الدنيا

((و)) من ((صفة النزول)) أى ما يثبته السلف ولا يتأولونه صفة نزول البارى جل وعلا الى سماء الدنيا كما أخرجه الامام أحمد والترمذى وابن ماجه عن عائشة رضى الله عنها عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « ان الله ينزل ليلة النصف من شعبان الى سماء الدنيا فيغفر لأكثر من عدد شعر غنم بنى كلب » ولحديث الامام أحمد ومسلم عن أبى سعيد وأبى هريرة رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم « ان الله يمهل حتى اذا كان ثلث الليل الاخير نزل الى السماء الدنيا فنادى هل من مستغفر هل من تائب هل من سائل هل من داع ـ حتى ينفجر الفجر » ورواه البخارى ولفظه ـ ينزل ربنا عز وجل الى السماء الدنيا ـ وروى أيضا من حديث جابر بن عبد الله وحديث رفاعة بن عرابة الجهنى ومن حديث جبير بن مطعم ومن حديث عثمان بن أبى العاص ومن حديث أبى الدرداء ومن حديث القاسم بن محمد عن أبيه أو عمه عن جده وغيرهم رضى الله عنهم أجمعين وذكر أحاديث هؤلاء الحافظ أبو بكر بن خزيمة في كتاب ـ السنة ـ له بأسانيده من أوجه متعددة • قال الحافظ ابن حجر في كتابه (فتح البارى في شرح صحيح البخارى) قد اختلف في معنى النزول على أقوال فمنهم من حمله على ظاهره وحقيقته وهم المشبهة تعالى الله عن قولهم ، ومنهم من أنكر صحة الاحاديث وهم الخوارج ، ومنهم من أجراه على ما ورد مؤمنا به على طريق الاجمال منزها لله تعالى عن الكيفية والتشبيه وهم جمهور السلف ونقله البيهقى وغيره عن الائمة الاربعة والسفيانين والحمادين والاوزاعى والليث وغيرهم ، ومنهم من أول على وجه يليق مستعمل فى كلام العرب ، ومنهم من أفرط في التأويل حتى كاد يخرج الى نوع التحريف • قال الامام الحافظ البيهقى وأسلمها الايمان بلا كيف والسكوت عن المراد الا أن يرد ذلك عن الصادق فيصار اليه • قال ومن الدليل على ذلك اتفاقهم على أن التأويل المعين غير واجب فحينئذ التفويض

أسلم . انتهى . وقال العلامة الطوفى فى (قواعد الاستقامة والاعتدال) المشهور عند أصحاب الامام أحمد رضى الله عنه انهم لا يتأولون الصفات التى من جنس الحركة كالمجيء والاتيان والنزول والهبوط والدنو والتدلى كما لا يتأولون غيرها متابعة للسلف الصالح ، قال وكلام السلف في هـذا الباب يدل على اثبات المعنى المتنازع فيه ، قال الاوزاعى لما سئل عن حديث النزول : يفعل الله ما يشاء . وقال حماد بن زيد : يدنو من خلقه كيف يشاء . وهو الذى حكاه الاشعرى عن أهل السنة والحديث ، وقال الفضيل بن عياض اذا قال لك الجهمى أنا أكفر برب يزول عن مكانه فقل أنا أومن برب يفعل ما يشاء . وقال أبو الطيب حضرت عند أبى جعفر الترمذى وهو من كبار فقهاء الشافعية وأثنى عليه الدار قطنى وغيره فسأله سائل عن حديث «ان الله ينزل الى سماء الدنيا» وقال له فالنزول كيف يكون يبقى فوقه علو ؟ فقال أبو جعفر الترمذى النزول معقول والكيف مجهـول والايمان به واجب والسؤال عنه بدعة ؟ فقد قال في النزول كما قال مالك في الاستواء ، وهكذا القول في سائر الصفات . وقال أبو عبد الله أحمد بن سعيد الرباطى حضرت مجلس الامير عبد الله بن طاهر وحضر اسحاق بن راهويه فسئل عن حديث النزول أصحيح هو ؟ قال : نعم . فقال له بعض قواد الامير يا أبا يعقوب أتزعم ان الله ينزل كل ليلة ؟ قال : نعم . قال وكيف ينزل ؟ قال له اسحاق اثبت الحديث حتى أصف لك النزول . فقال له الرجل أثبته . فقال اسحاق (وجاء ربك والملك صفا صفا) فقال الامير عبد الله بن طاهر يا أبا يعقوب هذا يوم القيـامة . فقال اسحاق أعز الله الامير ومن يجيء يوم القيامة من يمنعه اليوم ؟ ذكره أبو عبد الله الحاكم[1] . وروى باسـناده

---

(١) بهامش مخ ما نصه : « قال الشيخ ابو عثمان الصابونى شـيخ الاسلام فى رسالته بحر السنة سمعت ابا عبد الله الحاكم . يقول سمعت أبا زكريا يحيى بن محمد العنبرى يقول سمعت ابراهيـم بن أبى طالب يقول سمعت أحمد بن سعيد أبا عبد الله الرباطى يقـول حضرت مجلس الامير عبد الله بن طاهر ذات يوم وحضر اسحاق بن ابراهيـم يعنى ابن راهويه فسئل عن حديث النزول أصحيح هو ؟ قال : نعم . فقال له بعض قواد عبد الله يا أبا يعقوب أتزعم أن الله ينزل كل ليـلة ؟ قال : نعم . قال : كيف ينزل ؟ فقال له اسحاق أثبته فوق . فقال الرجل أثبته فوق . فقال اسحاق قال الله عز وجل : (وجاء ربك والملك صفا صفا) فقال الامير

أيضا عن اسحاق بن راهويه قال قال لى الامير عبـــد الله بن طاهر يا أبا يعقوب هذا الحديث الذى تروونه عن النبى صلى الله عليه وسلم « ينزل ربنا كل ليلة الى سماء الدنيـــا » كيف ينزل ؟ قال قلت أعز الله الامير لا يقال لأمر الرب كيف ينزل ، انما ينزل بلا كيف • وقال اسحاق لا يجوز الخوض فى أمر الله كما يجوز الخوض فى أمر المخلوقين لقوله تعالى (لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون) ولا يجوز أن يتوهم على الله بصــفاته وأفعاله يفهم ما يجوز التفكر والنظر فى أمر المخلوقين وذلك انه يمكن أن يكون الله موصوفا بالنزول كل ليلة اذا مضى ثلثها الى السماء الدنيا كمـا شاء ولا يسئل كيف نزوله لأن الخالق يصنع ما يشاء كما شاء • وذكـــر شيخ الاسلام فى (شرح الاصفهانية) عن الامام عبد الله بن المبارك رضى الله عنه انه سأله سائل عن النزول ليلة النصف من شعبان فقال يا ضعيف ليلة النصف من شعبان وحدها ؟ ينزل فى كل ليلة • فقال الرجل كيف ينزل ؟ أليس يخلو ذلك المكان ؟ فقال عبد الله بن المبارك ينزل كيف شاء • وقال أبو عثمان النيسابورى : لما صح خبر النزول عن النبى صلى الله عليه وسلم أقربه أهل السنة وقبلوا الحديث وأثبتوا النزول على ما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم ولم يعتقدوا تشبيها بنزول خلقه وعلموا وعرفوا واعتقــدوا وتحققوا ان صفات الرب لا تشبه صفات الخلق كما ان ذاته لا تشبه ذوات الخلق سبحانه وتعالى عما يقول المشبهة والمعطلة علوا كبيرا • وروى البيهقى باسناده عن اسحاق بن راهويه قال جمعني وهذا المبتدع ـ يعنى ابراهيم بن صالح ـ مجلس الأمير عبد الله بن طاهر فسألنى الأمير عن أخبـار النزول فثبتها فقال ابراهيم بن صالح كفرت برب ينزل من سماء الى سماء • فقلت آمنت برب يفعل ما يشاء • فرضى عبد الله كلامى وأنكر على ابراهيم • وقال شيخ الاسلام وقال أبو عثمان النيسابورى الملقب بشيخ الاســـلام في رسالته المشهورة في السنة : ويثبت أهل الحديث نزول الرب سبحانه في

عبد الله يا أبا يعقوب هذا يوم القيامة • فقال اسحاق : أعز الله الامير ومن يجيء يوم القيامة من يمنعه اليوم • انتهى

وذكره الشيخ تقى الدين ابن تيمية رحمه الله بهذا اللفظ فى كلامه على حديث النزول وانما يحصل الزام الخصم اذا أثبت فوقية الرب مع الايمان بمجيئه يوم القيامة •

كل ليلة الى السماء الدنيا من غير تشبيه له بنزول المخلوقين ولا تمثيل ولا تكييف بل يثبتون ما أثبته له رسول الله صلى الله عليه وسلم وينتهون فيه اليه ويمرون الخبر الصحيح الوارد بذكره على ظاهره ويكلون علمه الى الله ، وكذلك يثبتون ما أنزل الله في كتابه من ذكر المجيء والاتيان في ظلل من الغمام والملائكة وقوله عز وجل (وجاء ربك والملك صفا صفا) . وقال الامام عثمان بن سعيد الدارمي في كتابه المعروف (بنقض عثمان بن سعيد* على المريسي الجهمي العنيد* فيما افترى على الله فى التوحيد) ما لفظه : وادعى المعارض ان قول النبي صلى الله عليه وسلم ان الله ينزل الى السماء الدنيا حين يمضي من الليل الثلث (؟) فيقول هل من مستغفر هل من تائب هل من داع ، قال فادعى ان الله لا ينزل بنفسه انما ينزل أمره ورحمته وهو على العرش وكل مكان من غير زوال لانه الحي القيوم والقيوم بزعمه من لا يزول ، قال فيقال لهذا المعارض : وهذا أيضا من حجج النساء والصبيان ومن ليس عنده بيان ولا لمذهبه برهان لان أمر الله ورحمته تنزل فى كل ساعة ووقت وأوان فما بال النبي صلى الله عليه وسلم يحد لنزوله الليل دون النهار ويوقت من الليل شطره أو الاسحار أفأمره ورحمته يدعوان العباد الى الاستغفار أو يقدر الامر والرحمة أن يتكلما دونه فيقولا : هل من داع فأجيب له هل من مستغفر فأغفر له هل من سائل فأعطيه ؟ فان قررت مذهبك لزمك أن تدعى ان الرحمة والامر هما اللذان يدعوان الى الاجابة والاستغفار بكلامهما دون الله ، وهذا محال عند السفهاء فكيف عند الفقهاء، قد علمتم ذلك ولكن تكابرون ، وما بال أمره ورحمته ينزلان من عنده الليل ثم يمكثان الى طلوع الفجر ثم يرفعان لأن رفاعة يرويه يقول في حديثه حتى ينفجر الفجر وقد علمتم ان شاء الله أن هذا التأويل أبطل باطل ولا يقبله الا كل جاهل ـ الى أن قال : ثم أجمل المعارض جميع ما أنكره الجهمية من صفات الله تعالى المسماة فى كتابه وآثار رسوله صلى الله عليه وسلم ـ فعد منها بضعة وعشرين صفة نفسا واحدا يتكلم عليها ويفسرها بما حكى بشر بن غياث المريسي وفسرها وتأولها حرفا حرفا خلاف ما عنى الله ورسوله (وخلاف ما تأولها الفقهاء والصالحون لا بعتمد في أكثرها

الا على المريسى - ١) فبدأ منها بالوجه ثم بالسمع والبصر والغضب والرضا والحب والبغض والفــرح والكره والضحك والعجب والسخط والارادة والمشيئة والاصابع والكف والقدم واليد واليمين والعين والاتيان والمجيء والنفس والتكليم - قال عمد المخالف الى هذه الصفات فنسقها ونظم بعضها الى بعض ثم قررها أبوابا في كتابه وتلطف بردها بالتأويل كتلطف الجهمية معتمدا فيها على المريسى ويدلس عند الجهال بالتشنيع بها على قوم يؤمنون بالله ويصدقون الله ورسوله فيها بغير تكييف ولا تمثيل فزعم ان هؤلاء المؤمنين بها يكيفونها ويشبهونها بذوات أنفسهم وان العلماء قالوا بزعمه ليس شيء منها اجتهاد رأى ليدرك كيفية ذلك أو يشبه شيء منها بشيء مما هو في الخلق، قال وهذا خطأ كما أن الله ليس كمثله شيء فكذلك ليس كصفاته شيء • قال أبو سعيد عثمان بن سعيد فقلنا للمعارض المدلس بالتشنيع ان قوله كيفية هذه الصفات وتشبيهها بما هو في الخلق خطأ فانا لا نقول كما قلت فنحن لا نكيفها ولا نشبهها ولا نكفر بها ولا نكذبها ولا نبطلها بتأويل الضلال كما أبطلها المريسى ، وأما ما ذكرت من اجتهاد الرأى في تكييف صفات الله فانا لا نجيز اجتهاد الرأى فى كثير من الفرائض والاحكام التى نراها بأعيننا ونسمعها بآذاننا فكيف في صفات الله تعالى التى لم ترها العيون وقصرت عنها الظنون غير أنا لا نقول فيها كما قال المريسى ان هذه الصفات كلها شيء واحد وليس السمع منه غير البصر وان الرحمن بزعمكم ليس يعلم لنفسه سمعا من بصر ولا بصرا من سمع ولا وجها من يدين ولا يدين من وجه وهو كله بزعمكم سمع وبصر ووجه ويد ونفس وعلم ،وقد قال تعالى (انني معكما أسمع وأرى) وقال (ولا يكلمهم الله ولا ينظر اليهم) وقال تعالى (قد سمع الله قول التى تجادلك في زوجها) ولم يقل رأى وقال (اعملوا فسيرى الله عملكم) ولم يقل يسمع الله فلم يذكــر الرؤية فيما يسمع ولا السمع فيما يرى - الى آخر كلامه الذى رد به عـلى المريسية • وقال الامام الحافظ أبو بكر بن خزيمة : باب ذكر أخبار ثابتة السند صحيحة القوام رواها علماء الحجاز والعراق عن النبى صلى الله

---

(١) من مخ

عليه وسلم في نزول الرب جل وعلا الى سماء الدنيا كل ليلة فنشهد شهادة مقر بلسانه مصدق بقلبه مستيقن بما في هذه الاخبار من ذكر نزول الرب من غير أن نصف الكيفية لأن نبينا المصطفى لم يصف لنا كيفية نزول خالقنا الى سماء الدنيا وأعلمنا انه ينزل والله جل وعلا ولى نبيه عليه السلام بيـان ما بالمسلمين اليه الحاجة من أمر دينهم فنحن قائلون ومصدقون بما فى هذه الأخبـار من ذكر النزول غير متكلفين للعقول بصفة الكيفية اذ النبى صلى الله عليه وسلم لم يصف لنا كيفية النزول • ثم ذكر الاخبار بأسانيده•

(تنبيهـــات)

الاول الذى يلزم من قال باثبات صفة النزول يلزم مثله من قال بصفة الحياة والسمع والبصر والعلم والكلام والقدرة والارادة له تعالى لانه لا يعقل من هذه الصفات الا الاعراض التى لا تقوم الا بجوارحنا فكما نقول نحـن واياهم حياته وسمعه وبصره ليست بأعراض بل هى صفات كما تليق به لا كما تليق بنا فنقول نحن أيضا بمثل ذلك بعينه نزوله وفوقيته واستواؤه ونحو ذلك فكل ذلك ثابت معلوم غير مكيف بكيفية ولا انتقال يليق بالمخلوق بل هو كما أخبر هو ورسوله ســيد البشر مما يليق بجلال عظمته وباهر كبريائه لان ذاته وصفاته معلومة من حيث الجملة ثبوت وعلم وجود بلا كيفية ولا تحديد فكل ما ورد في الكتاب وصح عن رسول الملك الوهاب فسبيله واحد من النزول واليد والقـــدم والوجه والغضب والرضا وغيرها فاحفظه وبالله التوفيق • ولهذا قال شيخ الاسلام ابن تيمية روح الله روحه في رسالته الحموية : واعلم انه ليس في العقل الصريح ولا في النقل الصحيح ما يوجب مخالفة الطريقة السلفية أصلا وقد علم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء بهذه الامور بالاضطرار كمـــا انه جاء بالصلوات الخمس وصوم شهر رمضان فالتأويل الذى يحيلها عن هذا بمنزلة تأويلات القرامطة والباطنية في الحج والصوم والصلاة وسائر ما جاءت به النبوة ، ثم ان العقل الصريح يوافق ما جاءت به النصوص وان كان في النصوص من التفصيل ما يعجز العقل عن درك تفصيله على أن الاساطين من هؤلاء والفحول معترفون بأن العقل لا سبيل له الى اليقين في عامة المطالب الالهيـــة واذا كان هكذا

فالواجب تلقى علم ذلك من النبوات على ما هو عليه ، ومن المعلوم للمؤمنين ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلم من غيره بذلك وأنصح للامة وأفصح من غيره عبارة وبيانا بل هو أعلم الخلق بذلك وأنصح الخلق للامة وأفصحهم فقد اجتمع في حقه صلى الله عليه وسلم كمال العلم والقدرة والارادة ، ومن المعلوم ان المتكلم اذا كمل علمه وقدرته وارادته كمل كلامه وفعله وانما يدخل النقص اما من نقص علمه وأما من عجزه عن بيان علمه واما لعدم ارادة البيان والرسول صلى الله عليه وسلم هو الغاية في كمال العلم والغاية في ارادة كمال البلاغ المبين والغاية في قدرته على البلاغ ومع وجود القدرة التامة والارادة الجازمة يجب وجود المراد ،فعلم قطعا أن مابينه من الايمان بالله واليوم الآخر حصل به مراده من البيان وان ما أراده من البيان هو المطابق لعلمه وعلمه بذلك هو أكمل العلوم فكل من ظن أن غير الرسول صلى الله عليه وسلم أعلم بهذا منه فهو من الملحدين لا من المؤمنين، والصحابة رضى الله عنهم والتابعون لهم باحسان رحمة الله عليهم ومن سلك سبيل السلف هم في هذا الباب على الاستقامة دون سواهم • وتقدم في صدر الكتاب ما لعله يشفى ويكفى •

(الثانى) قال أهل التأويل ان العرب تنسب الفعل الى من أمر به كما تنسبه الى من فعله وباشره بنفسه ، قالوا والمعنى هنا ان الله تعالى يأمر ملكا بالنزول الى السماء الدنيا فينادى بأمره ، وقال بعضهم أن قوله وينزل راجع الى أفعاله لا الى ذاته المقدسة فان النزول كما يكون في الاجساد يكون في المعانى ، أو راجع الى الملك الذى ينزل بأمره ونهيه تعالى ، فان حمل النزول في الاحاديث على الجسم فتلك صفة الملك المبعوث بذلك ، وان حمل على المعنوى بمعنى انه لم يفعل ثم فعل سمى ذلك نزولا عن مرتبة الى مرتبة فهى عربية صحيحة ، والحاصل ان تأويله على وجهين أما بان المراد ينزل أمره أو الملك بأمره واما انه استعارة بمعنى التلطف بالداعين والاجابة لهم ونحو ذلك كما يقال نزل البائع في سلعته اذا قارب المشترى بعد ما باعده وأمكنه منها بعد منعه ، والمعنى هنا ان العبد فى هذا الوقت أقرب الى رحمة الله منه في غيره من الاوقات وانه تعالى يقبل عليهم بالتحنن والعطف في هذا

الوقت بما يلقيه في قلوبهم من التنبيه والتذكير الباعثين لهم على الطاعة • وقد حكى ابن فورك ان بعض المشايخ ضبط رواية البخاري بضم أوله على حذف المفعول أي ينزل ملكا قالوا ويقويه ما روى النسائي وغيره عن أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما قالا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ان الله عز وجل يمهل حتى يمضي شطر الليل الاول ثم يأمر مناديا يقول هل من داع يستجاب له هل من مستغفر يغفر له هل من سائل يعطى » قال القرطبي صححه عبدالحق • قالوا وهذا يرفع الاشكال ويزيل كل احتمال والسنة يفسر بعضها بعضا وكذا الآيات • قالوا ولا سبيل الى حمله على صفات الذات المقدسة فان الحديث فيه التصريح بتجدد النزول واختصاصه ببعض الاوقات والساعات وصفات الرب جل شأنه يجب اتصافها بالقدم وتنزيهها عن التجدد والحدوث • قالوا وكل ما لم يكن فكان أو لم يثبت فثبت من أوصافه تعالى فهو من قبيل صفة الافعال قالوا فالنزول والاستواء من صفات الافعال[1] والله أعلم •

---

(1) بهامش مخ ما لفظه :

« عجبا للمصنف رحمه لله كيف أورد شبه المعطلة ولم يجب عنها فأما الحديث الذى احتجوا به : ثم يأمر مناديا الخ فقال أبو القاسم عبد الرحمن بن أبي عبد الله ابن منده : هو حديث موضوع • وقال الشيخ تقي الدين ابن تيمية رحمه الله : نزول الرب تبارك وتعالى الى سماء الدنيا في كل ليلة استفاضت به السنة عن النبي صلى الله عليه وسلم واتفق سلف الامة وأئمتها وأهل العلم بالسنة والحديث على تصديق ذلك وتلقيه بالقبول والنبي صلى الله عليه وسلم قال ذلك علانية وبلغه الامة تبليغا عاما لم يخص به أحدا دون أحد وكانت الصحابة والتابعون تذكره وتأثره وتبلغه وترويه في المجالس الخاصة والعامة وهو في جميع كتب أهل الاسلام كصحيحي البخاري ومسلم وموطا مالك ومسند الامام أحمد وسنن أبي داود والنسائي وأمثال ذلك من كتب المسلمين - الى أن قال فان قلت الذى ينزل ملك ، قيل هذا باطل من وجوه منها ان الملائكة لا تزال تنزل بالليل والنهار الى الارض - وذكر أحاديث متضمنة ذلك ، ثم قال الوجه الثاني انه قال من يسألني فأعطيه من يستغفرني فأغفر له وهذه العبارة لا يجوز أن يقولها ملك غير الله فالملك اذا نادى عن الله لا يتكلم بصيغة المخاطب بل يقول ان الله أمر بكذا أو قال كذا •• الى أن قال ولا يمكن ملكا من الملائكة أن يقول من يدعوني فأستجيب له من يسألني فأعطيه من يستغفرني فاغفر له، ولا يقول لا يسأل عن عبادي غيري كما رواه النسائي وابن ماجه وغيرهما وسنده صحيح انه يقول لا يسأل عن عبادي غيري - وهذا أيضا مما يبطل حجة بعض الناس فانه احتج بما رواه النسائي في بعض طرق الحديث انه

(الثالث) قال ابن حمدان فى نهاية المبتدئين نقول بحديث النزول مما سنده صحيح ولفظه صريح قال التميمى فى اعتقاد سيدنا الامام احمد النزول حق نقول به من غير انتقال ولا حلول فى الامكنة • وقال ابن البنا فى اعتقاد الامام أحمد لا يقال بحركة ولا انتقال • وقال القاضى قد وصفه النبى صلى الله عليه وسلم بالنزول الى السماء الدنيا لا على جهة الانتقال والحركة كما جازت رؤيته تعالى وتجلى للجبل لا على وجه الحركة والانتقال • وقال لا نثبت نزولا عن علو وزوال بل نزولا لا يعقل معناه ولا يعقل ذلك في الشاهد • وقال ابن عقيل ليس بنزول ولا انتقال ولا كنزولنا • وقال القاضى أيضا اجماع الامة أنه بائن من خلقه وهو على مايثبته لنفسه في ذاته وصفاته ومن شبهه بخلقه كفر • وخطأ ابن عقيل وغيره من الأئمة من قال نزوله بحركة وانتقال[1] وقال القاضى النزول صفة ذات والحق انه صفة فعل • قال الشيخ عماد الدين الواسطى نزوله ثابت معلوم غير مكيف بحركة وانتقال يليق بالمخلوق بل نزول كما يليق بعظمته وجلاله فصفاته تعالى معلومة من حيث الجملة والثبوت غير معقولة من حيث التكييف والتحديد فيكون المؤمن مبصرا بها من وجه أعمى من وجه مبصرا من حيث الاثبات والوجود أعمى من حيث التكييف والتحديد وبالله التوفيق

يأمر مناديا فينادى فان هذا ان كان ثابتا عن النبى صلى الله عليه وسلم فان الرب يقول ذلك ويأمر مناديا بذلك لا أن المنادى يقول من يدعونى فاستجيب له ومن روى عن النبى صلى الله عليه وسلم ان المنادى يقول ذلك فقد علمنا انه يكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم فانه مع انه خلاف اللفظ المستفيض المتواتر الذى نقلته الامة خلفا عن سلف فاسد فى المعقول يعلم انه من كذب بعض المبتدعين كما روى بعضهم ينزل بالضم ، وكما قرأ بعضهم وكلم الله موسى تكليما ونحو ذلك من تحريفهم اللفظ والمعنى » • وفوق هذه الحاشية بخط آخر ما لفظه : « هذا خط شيخنا الشيخ عبد الله حفظه الله فلله دره ما أصوب فهمه وأوفر حفظه جزاه الله عن المسلمين خيرا »

(١) بهامش مخ بخط الشيخ عبد الله بابطين فيما يظهر ما لفظه : « سمع الامام أحمد شخصا يروى حديث النزول ويقول ينزل بغير حركة ولا انتقال ولا تغير • قال فانكر عليه أحمد ذلك وقال قل كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو كان نمير على ربه منك » وسيأتى زيادة فى هذا المعنى •

صـفة الخلق أى التكوين

((و)) مما اختلف فيه فأثبته السلف والماتريدية دون غيرهم من المعتزلة والكلابية والأشعرية صفة ((خلقه)) لكن الاشعرية ونحوهم يثبتون له تعالى الصفات السبع المتقدمة ، وأما المعتزلة فتنفى قيام الصـفات والافعال به وتسمى الصفات اعراضا والافعال حوادث ويقولون لا تقوم به تعالى الاعراض ولا الحوادث فيتوهم من لم يعرف حقيقة قولهم انهم ينزهون الله تعالى عن النقائص والعيوب والآفات ولا ريب أن الله تعالى يجب تنزيهه عن كل عيب ونقص وآفة فانه القدوس السلام الصمد الكامل فى كل نعت من نعوت الكمال كمالا لا يدرك الخلق حقيقته منزها عن كل نقص تنزيها لا يدرك الخلق كمـاله وكل كمال يثبت لموجـود من غـير استلزام نقص فالخالق تعالى أحق (به وأكمل فيه منه ، وكل نقص تنزه عنه مخلوق فالخالق أحق—١) بتنزيهه عنه وأولى ببراءته منه • قال شيخ الاسلام ابن تيمية قدس الله سره فى مسألة حسن ارادة الله تعالى لخلق الخلق وانشاء الانام : روينا من طريق غير واحد كعثمان بن سعيد الدارمى وأبى جعفر الطبرى والبيهقى وغيرهم فى تفسير على بن أبى طلحة عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى (الصمد) قال : السيد الذى كمل فى كل سؤدده والشريف الذى قد كمل فى شرفه والعظيم الذى قد كمل فى عظمته والحكيم الذى قد كمل فى حكمته والغنى الذى قد كمل فى غناه والجبار الذى قد كمل فى جبروته والعالم الذى قد كمل فى علمه والحليم الذى قد كمل فى حلمه وهو الذى كمل فى أنواع الشرف والسؤدد وهو الله عز وجل هذه صفته لا تنبغى الا له ليس له كفؤ وليس كمثله شيء سبحان الله الواحد القهار • قال وهذا التفسير ثابت عن عبد الله ابن صالح (عن معاوية بن صالح—١) عن على بن أبى طلحة الوالبى لكن يقال انه لم يسمع التفسير من ابن عباس لكن مثل هذا الكلام ثابت عن السلف ، وقد روى عن سعيد بن جبير أيضا أنه قال : الصمد الكامل فى صفاته وأفعاله ، وثبت عن أبى وائل شقيق بن سلمة انه قال الصمد السيد الذى انتهى سؤدده • وهذه الاقوال وما أشبهها لا تنافى ما قاله كثير من السلف كسـعيد بن

---

(١) من مخ

المسيب وابن جبير ومجاهد والحسن والسدى والضحاك وغيرهم من أن الصمد هو الذى لا جوف له ، وهذا منقول عن ابن مسعود رضى الله عنه وعن عبد الله بن بريدة عن أبيهموقوفا أو مرفوعا فان كلا القولين حق . قال ولفظ الاعراض فى اللغة قد يفهم منه ما يعرض للانسان من الامراض ونحوها ، وكذلك لفظ الحوادث والمحدثات قد يفهم منه ما يحدثه الناس من الافعال المذمومة والبدع التى ليست مشروعة أو ما يحدث بالانسان من نحو الامراض والله تعالى يجب تنزيهه عما هو فوق ذلك مما فيه نوع نقص ، ولكن لم يكن مقصود المعتزلة بقولهم : منزه عن الاعراض والحوادث الا نفى صفاته الذاتية وأفعاله الاختيارية فعندهم لا يقوم به علم ولا قدرة ولا مشيئة ولا رحمة ولا حب ولا رضا ولا فرح ولا خلق ولا احسان ولا عدل ولا اتيان ولا مجىء ولا نزول ولا استواء ولا غير ذلك من صفاته وأفعاله ، وجماهير المسلمين يخالفونهم في ذلك، ومن الطوائف من ينازعهم في الصفات دون الافعال ومنهم من ينازعهم فى بعض الصفات دون بعض ، ومن الناس من ينازعهم فى الفعل القديم فيقول ان فعله تعالى قديم وان كان المفعول محدثا . انتهى

وقال الوزننى من الحنفية في كتابه الذى سماه (مرقاة المبتدئين * في أصول الدين) وهو شرح المنظومة المعروفة بالجواهر ما ملخصه : التخليق صفة الله تعالى وهو فعل الله لاقتضاء المفعول فعلا لاستحالة مفعول بلا فعل ففعله تعالى صفة له فاستحال دخوله تحت قدرته وارادته . ثم قال واعلم أن الائمة الاربعة ونظائرهم من أئمة أهل السنة وأكثر رجال الصوفية الذين كانت كراماتهم ظاهرة مثل مالك بن دينار وابراهيم بن أدهم والفضيل بن عياض وذى النون المصرى والسرى السقطى ومعروف الكرخى وسهل بن عبد الله التسترى ومن نشر علم الاشارة الجنيد البغدادى وأبو بكر الشبلى وغيرهم كانوا يصفون الله بالفعل والكلام والرؤية والسمع كما يصفونه بالحياة والعلم والقدرة . ثم حط على الاشعرى وانه أتى بخلاف مذهب أهل السنة . انتهى

وقال النسفى فى عقائده المشهورة : والتكوين صفة لله أزلية وهو

تكوينه للعالم ولكل جزء من أجزائه وهو غير المكون عندنا • قال شارحها المحقق التفتازانى التكوين هو المعنى المعبر عنه بالفعل والخلق والتخليق والايجاد والاحداث والاختراع ونحو ذلك ، ويفسر باخراج المعدوم من العدم الى الوجود صفة لله تعالى لاطباق العقل والنقل على أنه خالق للعالم مكون له وامتناع اطلاق الاسم المشتق على الشيء من غير أن يكون مأخذ الاشتقاق وصفا قائما به أزلية لوجوه (الاول) انه يمتنع قيام الحوادث بذاته تعالى (الثانى) انه وصف ذاته فى كلامه الازلى بأنه الخالق فلو لم يكن في الازل خالقا للزم الكذب أو العدول الى المجاز - أى الخالق في ما يستقبل أو القادر على الخلق - من غير تعذر الحقيقة ، على أنه لو جاز اطلاق الخالق عليه بمعنى القادر لجاز اطلاق كل ما يقدر عليه من الاعراض (الثالث) انه لو كان حادثا فاما بتكوين آخر فيلزم التسلسل وهو محال ويلزم منه استحالة تكون (العالم) مع أنه مشاهد ، واما بدونه فيستغنى الحادث عن المحدث والاحداث وفيه تعطيل الصانع (الرابع) انه لو حدث لحدث اما فى ذاته تعالى فيصير محلا للحوادث أو فى غيره كما ذهب اليه أبو الهذيل من أن تكوين كل جسم قائم به فيكون كل جسم خالقا ومكونا لنفسه ولا خفاء فى استحالته • ومبنى هذه الادلة على أن التكوين صفة حقيقية كالعلم والقدرة • قال والمحققون من المتكلمين على أنه من الاضافات والاعتبارات العقلية مثل كون الصانع تعالى وتقدس قبل كل شيء ومعه وبعده ومذكورا بألسنتنا ومعبودا لنا ومميتا ومحييا ونحو ذلك • قال والحاصل في الازل هو مبدأ التخليق والترزيق والاماتة والاحياء وغير ذلك ولا دليل على كونه صفة أخرى سوى القدرة والارادة (فان القدرة -١) وان كانت نسبتها الى وجود المكون وعدمه على السواء لكن مع انضمام الارادة بتخصيص أحد الجانبين، قال ولما استدل القائلون بحدوث التكوين بأنه لا يتصور بدون المكون كالضرب بدون المضروب فلو كان قديما لزم قدم المكونات وهو محال أشار النسفى الى الجواب بقوله وهو أى التكوين تكوينه للعالم ولكل جزء من أجزائه لا فى الازل بل لوقت وجوده على حسب علمه وارادته فالتكوين باق ازلا

(١) من شرح العقائد وكذا ما يأتى بين قوسين من المنقول عنه •

وأبدا والمكون حادث بحدوث التعلق كما فى العلم والقدرة وغيرهما من الصفات القديمة التى لا يلزم من قدمها قدم متعلقاتها لكون تعلقاتها حادثة ، وهذا تحقيق ما يقال أن وجود العالم ان لم يتعلق بذات الله تعالى أو صفة من صفاته لزم تعطيل الصانع واستغناء الحوادث عن الموجد وهو محال ، وأن تعلق فاما أن يستلزم ذلك قدم ما يتعلق وجوده به فيلزم قدم العالم وهو باطل ، أولا فليكن التكوين أيضا قديما مع حدوث المكون المتعلق به ، وما يقال من ان القول بتعلق وجود المكون بالتكوين قول بحدوثه اذ القديم مالا يتعلق وجوده بالغير والحادث ما يتعلق به فمنظور فيه لان هذا معنى القديم والحادث بالذات على ما يقول به الفلاسفة وأما عند المتكلمين فالحادث ما لوجوده بداية أى يكون مسبوقا بالعدم والقديم بخلافه ومجرد تعلق وجوده بالغير لا يستلزم حدوثه بهذا المعنى لجواز أن يكون محتاجا الى الغير صادرا عنه دائما بدوامه كما ذهب اليه الفلاسفة فيما ادعوا قدمه من الممكنات كالهيولى مثلا ، نعم اذا أثبتنا صدور العالم من الصانع بالاختيار دون الايجاب بدليل لا يتوقف على حدوث العالم كان القول بتعلق وجوده بتكوين الله تعالى قولا بحدوثه ، ومن هنا يقال ان التنصيص على كل جزء من أجزاء العالم اشارة الى الرد على زعم قدم بعض الاجزاء كالهيولى والا فهم انما يقولون بقدمها بمعنى عدم المسبوقية بالعدم لا بمعنى عدم تكونه بالغير، والحاصل انا لا نسلم انه لا يتصور التكوين بدون (وجود) المكون وان وزانه معه وزان الضرب مع المضروب فان الضرب صفة اضافية لا يتصور بدون المتضايفين أعنى الضارب والمضروب وقد بينا أن التكوين صفة حقيقية هى مبدأ الاضافة التى هى اخراج المعدوم من العدم الى الوجود لا عينها حتى لو كانت عينها على ما وقع فى عبارة بعض المشايخ لكان القول بتحققها بدون المكون مكابرة وانكارا للضرورة فلا يندفع بما يقال من أن الضرب مستحيل البقاء فلا بد لتعلقه بالمفعول ووصول الالم اليه من وجود المفعول معه اذ لو تأخر لانعدم كذا قيل وهذا بالنسبة لفعل المخلوق وهو بخلاف فعل البارى فانه أزلى (واجب) الدوام يبقى الى وقت وجود المفعول فالتكوين غير المكون عندنا لان الفعل يغاير المفعول بالضرورة كالضرب مع المضروب

والأكل مع المأكول ، ولأنه لو كان نفس المكون لزم ان يكون المكون مكونا مخلوقا بنفسه ضرورة انه مكون بالتكوين الذى هو عينه فيكون قديما مستغنيا عن الصانع وهو محال ، وأن لا يكون للخالق تعلق بالعالم سوى أنه أقدم منه وقادر عليه من غير صنع وتأثير فيه ضرورة تكونه بنفسه وهذا لا يوجب كونه خالقا والعالم مخلوقا فلا يصح القول بأنه خالق العالم وصانعه ، هذا خلف ، وأن لا يكون الله مكونا للأشياء ضرورة انه لا معنى للمكون الا من قام به التكوين والتكوين اذا كان عين المكون لا يكون قائما بذات الله تعالى ، وأن يصح القول بأن خالق سواد هذا الحجر أسود وهذا الحجر خالق السواد اذ لا معنى للخالق والاسود الا من قام به الخلق والسواد وهما واحد فمحلهما واحد ، هذا كله تنبيه على كون الحكم بتغاير الفعل والمفعول ضروريا

ثم قال السعد التفتازانى وهذا - يعنى ابطال القول بأن الفعل هو المفعول - لا يتم الا باثبات أن تكون الاشياء وصدورها عن البارى تعالى يتوقف على صفة حقيقية قائمة بالذات مغايرة للقدرة والارادة ، قال والتحقيق أن تعلق القدرة على وفق الارادة بوجود المقدور لوقت وجوده اذا نسب الى القدرة يسمى ايجابها له واذا نسب الى القادر يسمى الخلق والتكوين ونحو ذلك ، فحقيقته كون الذات بحيث تعلقت قدرته بوجود المقدور لوقته ثم يتحقق بحسب خصوصيات المقدورات خصوصيات الافعال كالترزيق والتصوير والاحياء والاماتة وغير ذلك الى ما لا يكاد يتناهى[1] . قال وأما كون كل من ذلك صفة حقيقية أزلية فمما تفرد به بعض علماء ما وراء النهر وفيه تكثير للقدماء جدا وان لم تكن متغايرة . قال والاقرب ما ذهب اليه المحققون منهم وهو أن مرجع الكل الى التكوين فانه ان تعلق بالحياة سمى احياء وبالموت اماتة وبالصورة تصويرا وبالرزق ترزيقا الى غير ذلك فالكل تكوين وانما الخصوص بخصوصية التعلقات . انتهى . ومراده بقوله مما تفرد به بعض علماء ما وراء النهر يعنى علماء الكلام والا فهو مذهب السلف الذى لا يعدل عنه الا الى آراء متهافتة وتخيلات متفاوتة ونحاتة

---

(١) مخ « الى ما لا نهاية له »

أذهان قد انحرفت عن جادة المأثور وزبالات أنظار قد انفتلت عن المنهج المشهور الى التهافتات الفلسفية والتخيلات الكلامية ولهذا قال شيخ الاسلام ابن تيمية قدس الله روحه فى شرح (العقائد الاصفهانية) الصواب أن الخلق غير المخلوق • قال والذين يقولون الخلق هو المخلوق قولهم فاسد وبين وجه فساده وذكر من الآيات القرآنية والاخبار النبوية الدالة على هذا الاصل شيئا كثيرا مثل (كل يوم هو فى شأن) (واتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم) وقوله (ان تكفروا فان الله غنى عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وان تشكروا يرضه لكم) فأخبر أن طاعته سبب لمحبته ورضاه ومعصيته سبب لسخطه وغضبه ، وقال تعالى (فاذكرونى أذكركم) وجواب الشرط مع الشرط كالمسبب مع سببه • وفى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه سلم فيما يروى عن ربه تبارك وتعالى أنه قال : من ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ومن ذكرنى فى ملأ ذكـرته فى ملأ خير منه ومن تقرب الى شبرا تقربت اليه ذراعا ومن تقرب الى ذراعا تقربت اليه باعا ومن أتانى يمشى أتيته هرولة » وفى الصحيحين وغيرهما « لله أشد فرحا بتوبة عبده المؤمن ممن أضل راحلته بأرض دوية مهلكة عليها طعامه وشرابه فنام تحت شجرة ينتظر الموت فلما استيقظ اذا هو بدابته عليها طعامه وشرابه فالله أشد فرحا بتوبة عبده من هذا براحلته » وفى الصحيح « يضحك الله الى رجلين يقتل أحدهما الآخر كلاهما يدخل الجنة » وفى الصحاح والسنن والمسانيد من هذا شيء كثير يتعذر أو يتعسر احصاؤه وقد ذكر من ذلك شيئا كثيرا • ثم قال وبهذا الاصل العظيم الذى دلت عليه الكتب المنزلة من الله تعالى القرآن والتوراة والانجيل وكان عليه سلف الامة وأئمتها بل وعليه جماهير العقلاء وأكابرهم من جميع الطوائف حتى من الفلاسفة يظهر بطلان مذهب القائلين بالقدماء الخمسة •

قال شيخ الاسلام وهذا المذهب منسوب الى ديمقراطيس وهى العلة والنفس والهيولى ــ وهى فى لغتهم بمعنى المحل ــ والخلاء والدهر فزعم هؤلاء ومن وافقهم بأن هذه الخمسة قديمة أزلية وأن سبب حدوث العالم أن النفس التفتت الى الهيولى وامتنع على الرب تخليصها أو رأى أنه لا يخلصها (حتى تذوق)

مرارة تعلقها بالهيولى ثم يخلصها أو لتستفيد بذلك كمالات ثم يخلصها بعد ذلك،قال ولهذا يقول محمد بن زكريا الرازى من فلاسفة الاسلام لا لذة الا عدم الألم وغاية سعادة النفس خلاصها من الالم الحاصل بتعلقها بالهيولى • وأبو عبد الله بن الخطيب الرازى - يعنى الفخر - وبعض من يأتم به يرجحون هذا القول وبه يجيب هؤلاء عن الحجة المشهورة للفلاسفة ويسمـــونه - الجواب الباهر - قال في محصله - وذكر ما هو شبيه بالخرافة وهو بمعزل عن كلام أهل الشرائع والدين والنبوات ومناهج المرسلين • قال شيخ الاسلام روح الله روحه وهذا المذهب من أفسد مذاهب العالم ، قال وهو يشبه من بعض الوجوه مذهب المجوس القائلين بالاصلين القديمين النور والظلمة ، قال والرسل عليهم السلام وأتباعهم أهل الملل متفقون على أن الله تعالى خالق لكل ما سواه فليس معه شيء قديم بقدمه لا نفس ولا عقل ولا غير ذلك من الاعيان سواء سمى خلاء أو دهرا أو غير ذلك وبالله التوفيق •

ولما كان أهل الملة مختلفة فمنهم من نفى الصفات من أصـــلها وأثبت الاسماء وهم المعتزلة ، ومنهم من نفى الصفات الخبرية والافعال الاختيارية أن تقوم بذاته تعالى وأثبت السبع الصفات كالاشعرية ومن وافقهم ، وكان مذهب السلف وسائر الائمة وجمهور الامة اثبات الصفات الذاتية والاسماء الحسنى والصفات الخبرية وصفات الافعال الاختيارية لله تعالى حثك على الاتباع لسلف الامة وحذرك من الابتداع ومخالفة السنة وأعيان الائمة فقال ((فاحذر من النزول)) من ذروة الايمان وسام الدين والايقان وأوج الرفعة والعرفان الى حضيض الابتداع وقاذورات الاخـــتراع فان السلامة كل السلامة فى اتباع الرعيل الاول والسرب الذى عليه المعول لاما ابتدعته فروخ الجهمية وانتحلته أساطين الفلاسفة من فرق المشائية والاشراقية (١) ((فسائر الصفات)) الذاتية من الحياة والقدرة والارادة والسمع والبصر والعلم والكلام وغيرها وسائر الصفات الخبرية من الوجه واليدين والقدم والعينين ونحوها ((و)) سائر صفات ((الافعال))من الاستواء

(١) بهامش مخ بالفظه « بلغ قراءة امرار على شيخنا المحقق الفقيـــه والمدقق النبيه ذى الدين المتين والورع واليقين الشيخ عبد الله أبا بطين الحنبلى السلفى أمتعنا الله بحياته وذلك فى ٢٩ ش سنة ١٢٥٩

قوله ان صفات الله تعالى قديمة وما أورد عليه

والنزول والاتيان والمجيء والتكوين ونحوها ((قديمة لله)) أى هى صفات قديمة عند سلف الامة وأئمة الاسلام لله ((ذى الجلال))والاكرام ليس منها شيء محدث والا لكان محلا للحوادث وما حل به الحادث فهو حادث تعالى الله عن ذلك[1] • ولما كان ربما توهم متوهم أن ذلك

---

(١) فى تنبيه أى سحمان ص ٥٣ بعد حكاية نحو هذه العبارة ما لفظه :

« أعلم أنا قد قدمنا فيما قبل من كلام شيخ الاسلام ابن تيمية وكلام تلميذه ابن القيم الذين هم سادات الحنابلة وأئمتهم ما فيه الكفاية ولكن لا بد من التنبيه على بعض ذلك ليتبين لك أن نسبة ذلك الى سلف الامة وأئمتها من الكذب عليهم وانما هو كلام سلف أئمة أهل البدع والضلال الذين ينتسبون الى مذهب أهل السنة والجماعة • فمن ذلك أن شيخ الاسلام ابن تيمية وابن القيم ذكرا أن مذهب السلف وأئمتها أن أفعال الله سبحانه وتعالى قديمة النوع حادثة الآحاد وأن الله سبحانه لم يزل متكلما اذا شاء ولم يزل فاعلا اذا شاء أو لم تزل الارادات والكلمات تقوم بذاته شيئا بعد شيء ونحو ذلك •

فاذا عرفت هذا تبين لك أن قول الشارح فى أفعال الله الاختيارية : ليس منها شيء محدث والا كان محلا للحوادث وما حلت به الحوادث فهو حادث تعالى الله عن ذلك ـ ليس هو من كلام السلف وأئمتها بل هو من كلام أهل البدع المخالفين للسلف كما قال ابن القيم رحمه الله تعالى : وأما حلول الحوادث فيريدون به أن لا يتكلم بقدرته ومشيئته ولا ينزل كل ليلة الى سماء الدنيا ولا يأتى يوم القيمة ولا يجيء ولا يغضب بعد أن كان راضيا ولا يرضى بعد أن كان غضبانا ولا يقوم به فعل ألبته ولا أمر مجدد بعد ان لم يكن ولا يريد شيئا بعد أن يكن مريدا له فلا يقول له كن حقيقة ولا استوى على عرشه بعد أن لم يكن مستويا ولا يغضب يوم القيامة غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله ولا ينادى عباده يوم القيامة بعد أن لم يكن مناديا ولا يقول للمصلى اذا قال (الحمد لله رب العالمين) حمدنى عبدى فاذا قال (الرحمن الرحيم) قال (أثنى على عبدى) فاذا قال (مالك يوم الدين) قال « مجدنى عبدى » فان هذه كلها حوادث وهو منزه عن حلول الحوادث • انتهى •

وقد تقدم كلام شيخ الاسلام وفيه الكفاية ، ثم ان من المعلوم عند من له المام بالمعارف والعلوم أن نزول الله سبحانه وتعالى الى سماء الدنيا كل ليلة حين يبقى ثلث الليل الآخر وكذلك مجيئه لفصل القضاء بين العباد يوم القيامة لم يكن قديما قبل أن يخلق السموات والارض فى الازل بل ذلك فيما لم يزل الى يوم القيمة بمشيئته وقدرته وارادته كما يشاء أن ينزل وكما يشاء أن يجيء ويأتى على ما يليق بعظمته وجلاله ، ومن تأمل كلام شمس الدين ابن القيم حق التأمل تبين له ما قاله أئمة السلف وتبين له أيضا ما يقوله أئمة أهل البدع وما تحت ألفاظهم المجملة التى لم ينطق بها كتاب ولا سنة ولم يتكلم بها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا التابعون ولا من بعدهم من الأئمة المهتدين والله أعلم • وكذلك ما قاله الشارح بعد هذا : قال سفيان بن عيينة كل ما وصف الله به نفسه فى

سلم للتشبيه والتمثيل المنفى فى محكم النص استدرك ذلك فقال ((لكن)) باسكان النون ((بلا كيف ولا تمثيل)) واثبات ذلك والاعتراف به والاقرار والاذعان بموجبه لما دلت عليه النصوص القرآنية والاحاديث الثابتة

كتابه فتفسيره قراءته والسكوت عنه ليس لأحد أن يفسره الا الله ورسوله صلى الله عليه وسلم • فأقول قد تقدم الكلام على ذلك وانما مقصود السلف بذلك تأويله وصرفه عن ظاهره • وأما قوله : وسمع الامام أحمد رحمه الله شخصا يروى حديث النزول ويقول ينزل بغير حركة ولا انتقال ، ولا تغير حال ، فأنكر الامام أحمد عليه ذلك وقال قل كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو كان أغير على ربه منك • فأقول نعم قد كان أحمد ينكر هذه الالفاظ التى لم يأت بها كتاب ولا سنة ولا نطق بها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا من بعدهم من التابعين وكان يحب السكوت عن ذلك كما قدمنا ذلك عنه فى الحد •

ولأئمة السلف ومنهم أحمد كلام فى الحركة والانتقال فنذكر من ذلك ما يتبين به صحة مذهب السلف وبطلان ما خالفهم من كلام أهل البدع ، قال شيخ الاسلام ابن تيمية قدس الله روحه فى العقل والنقل بعد كلام طويل قال فيه : والفعل صفة كمال لا صفة نقص كالكلام والقدرة وعدم الفعل صفة نقص كعدم الكلام وعدم القدرة فدل العقل على صحة ما دل عليه الشرع وهو المطلوب ، وكان الناس قبل أبى محمد بن كلاب صنفين فأهل السنة والجماعة يثبتون ما يقوم بالله تعالى من الصفات والافعال التى يشاؤها ويقدر عليها والجهمية من المعتزلة وغيرهم تنكر هذا وهذا فأثبت ابن كلاب قيام الصفات اللازمة به ونفى أن يقوم به ما يتعلق بمشيئته وقدرته من الافعال وغيرها ووافقه على ذلك أبو العباس القلانسى وأبو الحسن الاشعرى وغيرهما وأما الحارث المحاسبى فكان ينتسب الى قول ابن كلاب ولهذا أمر أحمد بهجره وكان أحمد يحذر عن ابن كلاب وأتباعه ثم قيل عن الحارث انه رجع عن قوله وقد ذكر الحارث فى كتاب فهم القرآن عن أهل السنة فى هذه المسألة قولين ورجح قول ابن كلاب وذكر ذلك فى قوله تعالى (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون) وأمثال ذلك •

وأئمة السنة والحديث على اثبات النوعين وهو الذى ذكره عنهم من نقل مذهبهم كحرب الكرمانى وعثمان بن سعيد الدارمى وغيرهما بل صرح هؤلاء بلفظ الحركة وان ذلك هو مذهب أئمة السنة والحديث من المتقدمين والمتأخرين ، وذكر حرب الكرمانى قول من لقيه من أئمة السنة كأحمد بن حنبل واسحاق بن راهوية وعبد الله بن الزبير الحميدى وسعيد بن منصور ، وقال عثمان بن سعيد وغيره : ان الحركة من لوازم الحياة فكل حى متحرك وجعلوا نفى هذا من أقوال الجهمية نفاة الصفات الذين اتفق السلف والائمة على تضليلهم وتبديعهم ، وطائفة أخرى من السلفيين كنعيم بن حماد الخزاعى والبخارى صاحب الصحيح وأبى بكر بن خزيمة وغيرهم كأبى عمر بن عبد البر وأمثاله يثبتون المعنى الذى يثبته هؤلاء ويسمون ذلك فعلا ونحوه لكن يمنعون عن اطلاق لفظ الحركة لكونه غير

النبوية فاعتقدنا ذلك واعتمدناه متابعة للسلف وارتضيناه ((رغمال)) أى لأجل رغم أنوف ((أهل الزيغ)) أى الميل والانحراف عن نهج أهل الحق ، والشك والجور عن سبيل أهل الصدق يقال زاغ اذا مال وأزاغ غيره

مأثور ، وأصحاب أحمد منهم من يوافق هؤلاء كأبى بكر عبد العزيز وأبى عبد الله بن بطة وأمثالهما ومنهم من يوافق الاولين كأبى عبد الله ابن حامد وأمثاله — ثم ذكر كلاما طويلا — الى أن قال : وقال أبو محمد حرب بن اسماعيل الكرمانى فى مسائله المعروفة التى نقلها عن أحمد واسحاق وغيرهما وذكر معهما من الآثار عن النبى صلى عليه وسلم والصحابة وغيرهم ما ذكر الى أن قال : وأدركت من أدركت من علماء أهل العراق والحجاز والشام وغيرهم عليها فمن خالف شيئا من هذه المذاهب أو طعن فيها أو عاب قائلها فهو مبتدع خارج من الجماعة زائل عن منهج السنة وسبيل الحق وهو مذهب أحمد واسحاق بن ابراهيم بن مخلد وعبدالله بن الزبير الحميدى وسعيد بن منصور وغيرهم ممن جالسنا وأخذنا عنهم العلم . وذكر الكلام فى الايمان والقدر والوعيد والامامة وما أخبر به الرسول من أشراط الساعة وأمر البرزخ والقيامة وغير ذلك الى أن قال : وهو سبحانه بائن من خلفه لا يخلو من علمه مكان ولله عرش وللعرش حملة يحملونه ، وله حد الله أعلم بحده والله على عرشه عز ذكره وتعالى جده ولا اله غيره والله تعالى سميع لا يشك ، بصير لا يرتاب ، عليم لا يجهل ، جواد لا يبخل ، حليم لا يعجل ، حفيظ لا ينسى ، يقظان لا يسهو ، رقيب لا يغفل ، يتكلم ويتحرك ويسمع ويبصر وينظر ويقبض ويبسط ويحب ويكره ويبغض ويرضى ويسخط ويغضب ويرحم ويعفو ويغفر ويعطى ويمنع وينزل كل ليلة الى سماء الدنيا كيف شاء وكما شاء (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) . الى أن قال : ولم يزل متكلما عالما (فتبارك الله أحسن الخالقين) اهـ .

والمقصود أنه ذكر عن أئمة السلف فى أفعال الله الاختيارية التى تتعلق بمشيئته وقدرته وارادته الحركة فليس لنا أن نعدل عن قولهم ونأخذ بمذاهب أهل البدع وآرائهم .

وقال شيخ الاسلام أيضا فى العقل والنقل : وقال عثمان بن سعيد الدارمى فى كتابه المعروف (بنقض عثمان بن سعيد ، على المريسى الجهمى العنيد ، فيما افترى على الله فى التوحيد) قال : وادعى المعارض أيضا ان قول النبى صلى الله عليه وسلم « ان الله ينزل الى سماء الدنيا حين يمضى ثلث الليل فيقول هل من مستغفر هل من تائب هل من داع » قال : وادعى ان الله لا ينزل بنفسه انما ينزل أمره ورحمته وهو على العرش وبكل مكان من غير زوال لانه الحى القيوم والقيوم بزعمه من لا يزول (قال) فيقال لهذا المعارض وهذا أيضا من حجج النساء والصبيان ، ومن ليس عنده بيان ، ولا لمذهبه برهان ، لأن أمر الله ورحمته ينزل فى كل ساعة ووقت وأوان ، فما بال النبى صلى الله عليه وسلم يحد لنزوله الليل دون النهار ويوقت من الليل شطره والاسحار ، أفأمره ورحمته يدعوان العباد الى الاستغفار ، أو يقدر الامر والرحمة أن يتكلما دونه فيقولا « هل من

اذا أماله ((و)) رغما لأنوف أهل ((التعطيل)) من الطوائف الضالة والفرق المائلة فمذهب السلف حق بين باطلين وسنة بين بدعتين فان من الناس من حمل النصوص على التشبيه والتمثيل فضل وأضل ومنهم من حملها على التحريف والتعطيل فألحد وانفصل عن الحق وختل وأهل الحق أثبتوا النصوص واعتقدوها بلا تكييف فهم يقولون اثبات وجود لا اثبات تكييف وتحديد ولهذا قال ((فمرها)) أى آيات الصفات وأخبارها ولا تتعرض لمعانيها وأسرارها بل تفسيرها أن نمرها ((كما أتت فى الذكر)) القرآنى والحديث الصحيح عن المعصوم العدنانى ((من غير تأويل)) لها ((وغير فكر)) فى معانيها فان ذلك ليس فى طوق البشر أن يكلفوه ولا فى وسعهم أن يعرفوه وعلى ذلك مضت أئمة السلف والحق من سلف فكان الزهرى والامام مالك والاوزاعى وسفيان الثورى والليث بن سعد وابن المبارك والامام احمد واسحاق بن راهويه وغيرهم رضى الله عنهم يقولون فى مثل هذه الآيات يعنى التى فيها مجيء الله ووجهه واتيانه والاخبار كخبر النزول « مروها كما جاءت » وقال سفيان بن عيينة كل ماوصف الله نفسه فى كتابه فتفسيره قراءته والسكوت عنه ليس لأحد أن يفسره الا الله ورسوله ٠ وسمع الامام احمد رضى الله عنه شخصا يروى حديث النزول ويقول ينزل بغير حركة ولا انتقال ولا تغير حال

داع فأجيبه ؟ هل من مستغفر فاغفر له ؟ هل من سائل فأعطيه ؟ » فان أقررت مذهبك لزمك أن تدعى أن الرحمة والامر هما اللذان يدعوان العباد الى الاجابة والاستغفار بكلامهما دون الله وهذا محال عند السفهاء فكيف عند الفقهاء ؟ قد علمتم ذلك ولكن تكابرون ، وما بال رحمته وأمره ينزلان من عنده شطر الليل ثم يمكثان الى طلوع الفجر ثم يرفعان لأن رفاعة راوية يقول فى حديثه « حتى ينفجر الفجر » قد علمتم ان شاء الله تعالى أن هذا التأويل باطل ، ولا يقبله الا جاهل ، وأما دعواك أن تفسير القيوم الذى لا يزول عن مكانه ولا يتحرك فلا يقبل منكم هذا التفسير الا بأثر صحيح مأثور عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أو عن بعض أصحابه أو التابعين لان الحى القيوم يفعل ما شاء ويتحرك اذا شاء ويهبط ويرتفع اذا شاء ، ويقبض ويبسط ويقوم ويجلس اذا شاء ، لان امارة ما بين الحى والميت التحرك ٠ كل حى متحرك لا محالة وكل ميت غير متحرك لا محالة ومن يلتفت الى تفسيرك وتفسير صاحبك مع تفسير نبى الرحمة ،ورسول رب العزة ؟ اذ فسر نزوله مشروحا منصوصا ،ووقت لنزوله وقتا مخصوصا، لم يدع لك ولا صحابك فيه لعبا ولا عويصا ٠ انتهى ٠ والله أعلم ٠

فأنكر الامام احمد عليه ذلك وقال قل كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو كان أغير على ربه منك • وقال أبو حنيفة رضى الله عنه فى كتاب الفقه الاكبر : ما ذكر الله تعالى فى القرآن من ذكر الوجه واليد والنفس فهو له صفات بلا كيف ولا يقال ان يده قدرته ونعمته لان فيه أبطال الصفة وهو قول أهل القدر والاعتزال ولكن يده صفته بلا كيف وغضبه ورضاه صفتان من صفاته بلا كيف • وقال العلامة ابن الهمام ان الاصبع واليد صفة له تعالى لا بمعنى الجارحة بل على وجه يليق به هو سبحانه أعلم • وقال أبو حامد الغزالى فى كتابه « الجام العوام » فى الباب الاول منه : اعلم ان الحق الصحيح الذى لا مراء فيه عند أهل البصائر هو مذهب السلف أعنى الصحابة والتابعين رضى الله عنهم أجمعين • ثم قال : حقيقة مذهب السلف وهو الحق عندنا أن كل من بلغه حديث من هذه الاخبار من عوام الخلق يجب عليه سبعة أمور التقديس ثم التصديق ثم الاعتراف بالعجز ثم السكوت ثم الكف ثم الامساك ثم التسليم لاهل المعرفة (فالتقديس) تنزيه الرب عن الجسمية وتوابعها (١) (والتصديق)الايمان بقوله صلى الله عليه وسلم وان كل ما ذكر حق وهو فيما قاله صادق وانه حق على الوجه الذى قاله وأراده (والاعتراف بالعجز) أن يقر أن معرفة مراده ليس على قدر طاقته وان ذلك ليس من شأنه وحرفته (والسكوت) بأن لا يسأل عن معناه ولا يخوض فيه مخاطرا بدينه وانه يوشك أن يكفر لو خاض فيه من حيث لا يشعر • وأما (الامساك) فان لا يتصرف فى تلك الالفاظ بالتصريف والتبديل بلغة أخرى والزيادة فيها والنقصان منها والجمع والتفريق بل لا ينطق لا بذلك اللفظ وعلى ذلك الوجه من الايراد والاعراب والتصريف والصيغة (واما الكف) فبان يكف باطنه عن البحث عنه والتفكر فيه (واما التسليم) لاهل المعرفة فان لا يعتقد ان ذلك ان خفى عليه لعجزه فقد خفى على الرسول صلى الله عليه وسلم وعلى الانبياء أو على الصديقين والاولياء • انتهى • وقد مر أنه لا يعلم حقيقة ما هو تعالى غيره فعليه المعول والله تعالى أعلم ***

---

(١) راجع التعليق على ص ١١٥ و١٨٢ - ١٨٩ و٢٥٨ - ٢٦١

ولما فرغ من ذكر مايجب له تعالى من الاسماء والصفات الذاتية والاخبارية والفعلية أخذ فى ذكر مايستحيل فى حقه تعالى فقال :

الأوصاف المستحيلة فى حق الله تعالى

((ويستحيل الجهل والعجز كما   قد استحال الموت حقا والعمى))
((فكل نقص قد تعالى الله   عنه فيابشرى لمن والاه))

((ويستحيل)) فى حق الله تعالى اضداد الصفات التى اتصف بها البارى جل شأنه ، والمستحيل هو كما مر ما لا يتصور فى العقل ثبوته فمما يستحيل فى حق مولانا عز وجل ((الجهل)) الذى هو ضدالعلم((والعجز)) الذى هو ضد القدرة ((كما)) أنه قد ((استحال)) فى حقه تعالى ((الموت)) الذى هو ضد الحياة حق ذاك ((حقا)) فهو مصدر ((و)) يستحيل فى حقه تعالى ((العمى)) الذى هو ضد البصر وكذا الصمم الذى هو ضد السمع والبكم الذى هو ضد الكلام والفناء الذى هو ضد البقاء والعدم الذى هو ضد الوجود والفقر الذى هو ضد الغنى والمماثلة للحوادث المنفى فى قوله تعالى ليس كمثله شيء وتقدم انه ليس بجسم ولا جوهر ولا عرض (١) فهى من المستحيلة فى حقه تعالى وما نفاه سبحانه وتعالى عن نفسه فى محكم الذكر كقوله « ليس كمثله شيء ـ هل تعلم له سميا ـ فلا تضربوا لله الامثال ـ فلا تجعلوا لله أندادا ـ لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ـ ولم يتخذ ولدا ـ ولم يكن له شريك فى الملك » ونحو ذلك ، والنفى انما يدل على عدم المنفى والعدم المحض ليس بشيء أصلا فضلا عن أن يكون كمالا وانما يكون كمالا اذا استلزم أمرا وجوديا فلهذا لم يصف الرب تعالى نفسه بشيء من النفى الا اذا تضمن ثبوتا كقوله تعالى (الله لا اله الا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم) فقوله لا تأخذه سنة ولا نوم يتضمن كمال حياته وقيوميته فان النوم أخو الموت ومن تأخذه السنة والنوم لايكون قيوما قائما بنفسه مقيما لغيره فان السنة والنوم يناقض ذلك ثم قال تعالى (له مافى السموات ومافى الارض من ذا الذى يشفع عنده الا باذنه) فنفى شفاعة أحد عنده الا باذنه يتضمن كمال كونه له مافى السموات ومافى الارض ليس له فى ذلك شريك ولا ظهير فان الشافع اذا شفع عند

---

(١) راجع التعليق على ص ١٨٢ ـ ١٨٩

غيره بغير اذنه كان شريكا له فيما يشفع فيه وكان متصرفا فيه اذ جعله مماثلا بعد ان لم يكن فكان فى نفى هذه الشفاعة قد بين انه لا شريك له بوجه من الوجوه ، والصمد الذى يحتاج اليه كل شيء ولا يحتاج الى شيء ولا يؤثر فيه غيره ، والحاصل ان كل ما كان ضدا لما ذكر من أوصافه أو نقيضا أو خلافا فهو تعالى منزه عنه مطلقا ولهذا قال ((فكل نقص)) من هذه الاوصاف المذكورة ونحوها ((قد تعالى)) وتنزه ((الله عنه)) لأن له الكمال المطلق فكل كمال لا يؤدى الى نقص ما فالله أولى به وكل نقص فالله منزه عنه ((فيابشرى)) نادى البشرى بشارة ((ا)) لكل ((من)) اى شخص من أهل السنة والجماعة قد ((والاه)) الله أو قد والى هو الله أى اتخذه وليا معتمدا عليه ومفوضا جميع أموره اليه مع اقتفائه المأثور واتباعه للرسول فكأنه يقول لنفسه ولسائر أهل السنة هذا أوان حصول البشرى لكم أو يا بشرى أقبلى وتعالى فهذا أوانك • وانما نوه بالبشرى لمن والاه الله تعالى لعظم ذلك وخطره ودخوله فى حصن ولايته ومحل نظره، وفى صحيح البخارى من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ان الله تعالى قال من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب » الحديث ، وروى ابن أبى الدنيا من حديث أم المؤمنين عائشة الصديقة رضى الله عنها عن النبى صلى الله عليه وسلم عن الله عز وجل انه قال « من آذى لى وليا فقد استحل محاربتى » ورواه الامام احمدبمعناه• وفى رواية يقول الله عز وجل « من أهان لى وليا فقد بارزنى بالمحاربة » وأخرج ابن ماجه من حديث معاذ بنجبل رضى الله عنه سمع النبى صلى الله عليه وسلم يقول « ان يسير الرئاء شرك وان من عادى لى وليا فقد بارز الله بالمحاربة وان الله يحب الابرار الاتقياء الاخفياء الذين اذا غابوا لم يفقدوا وان حضروا لم يدعوا ولم يعرفوا ، مصابيح الهدى يخرجون من كل غبراء مظلمة » وقد قال الله تعالى فى محكم الذكر (ألا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون * الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوزالعظيم) فالناظم اقتبس من الآية البشارة لاهل الولاية ، وقد روى الامام احمد

فى كتاب الزهد باسناده عن وهب بن منبه قال : ان الله عز وجل قال لموسى عليه السلام حين كلمه اعلم أن من أهان لى وليا وأخافه فقد بارزنى بالمحاربة وبادانى وعرض نفسه ودعانى اليها وأنا أسرع شىء الى نصرة أوليائى أفيظن الذى يحاربنى أن يقوم لى أو يظن الذى يعاجزنى أن يعجزنى أم يظن الذى يبارزنى أن يسبقنى أو يفوتنى وكيف وأنا الثائر لهم فى الدنيا والآخرة فلا أكل نصرتهم الى غيرى • واعلم أن كل من عصى الله فقد حاربه لكن كلما كان الذنب أقبح كان أشد محاربة لله تعالى ولهذا سمى الله تعالى أكلة الربا وقطاع الطريق محاربين لله ولرسوله لعظم ظلمهم لعباده وسعيهم بالفساد فى بلاده ، وكذلك معاداة أوليائه فانه سبحانه يتولى نصرة أوليائه ويحبهم ويؤيدهم فمن عاداهم فقد عادى الله وحاربه فاذا كان من والى الله تعالى بهذه المثابة من الحفظ والاعزاز والنصرة له من قبل العزيز القهار وتوعد من عاداه وآذاه بمعاداة القوى الجبار فله البشارة العظمى والمسرة والمنزلة العليا والمبرة • وقد قدمنا غير مرة أن الحق عز وجل موصوف بكل كمال منزه عن كل نقص وهو العزيز المتعال

« تنبيه »

المذاهب فى الصفات

قال شيخ الاسلام ابن تيمية قدس الله روحه جماع الامر ان الاقسام الممكنة فى آيات الصفات وأحاديثها ستة أقسام كل قسم عليه طائفة من أهل القبلة قسمان يقولان تجرى على ظاهرها ، وقسمان يقولان هى على خلاف ظواهرها ، وقسمان يسكتان ، فأما الاولان فأحدهما من يجريها على ظاهرها من جنس صفات المخلوقين فهؤلاء المشبهة ومذهبهم باطل أنكره السلف وعليهم توجه الرد بالحق ، الثانى من يجريها على ظاهرها اللائق بجلال الله تعالى وعظمته كما يجرى اسم العليم والقدير والرب والاله والموجود والذات ونحو ذلك على ظاهرها اللائق بجلال الله تعالى فان ظواهر هذه الصفات فى حق المخلوقين اما جوهر محدث واما عرض قائم فالعلم والقدرة والكلام والمشيئة والرحمة والرضا والغضب ونحو ذلك فى حق العبد اعراض والوجه واليدان والعين فى حقه أجسام فاذا كان الله

عز وجل موصوفا عند عامة أهل الاثبات بأن له علما وقدرة وكلاما ومشيئة ولم تكن فى حقه تعالى اعراضا يجوز عليها ما يجوز على صفات المخلوقين فكذلك الوجه واليد والعين ونحوها صفات له تعالى لا كصفات المخلوقين ، وهذا هو المذهب الذى حكاه الخطابى وغيره عن السلف وعليه يدل كلام جمهورهم ، وكلام الباقين لا يخالفه وهو أمر واضح فان الصفات كالذات فكما ان ذات الله ثابتة حقيقة من غير أن تكون من جنس ذوات المخلوقين فكذلك صفاته ثابتة من غير أن تكون من جنس صفات المخلوقين ، وتقدم نظير هذا ، فمن لم يفهم من صفات الرب الذى ليس كمثله شيء الا ما يناسب المخلوق فقد ضل فى عقله ودينه وقد مر أنه لا يعلم ماهو الا هو وان صفاته لا يعلم كنهها وحقيقتها الا هو تعالى وانما تعلم الذات المقدسة والصفات من حيث الجملة على الوجه الذى يليق بعظمته وجلاله ، وقد تنازع الناس فى حقيقة الروح واختلفوا فيها اختلافا كثيرا مع القطع باتصالها بالبدن وانها تخرج منه وتعرج الى السماء وقد تخبط فيها الفلاسفة ومن وافقهم تخبط الذى به مس من الشيطان لكونهم رأوها من غير جنس البدن وعالمه وصفاته فعدم مماثلتها للبدن لا ينفى أن تكون الصفات الثابتة لها من الصعود والنزول والاتصال والانفصال حقا • قال شيخ الاسلام : وأما القسمان اللذان يقولان هى على خلاف ظواهرها فقسم يتأولونها ويعينون المراد منها مثل قولهم استوى بمعنى استولى أو بمعنى علو المكانة والقدر ، وقسم يقولون الله أعلم بمراده منها لكنا نعلم انه لم يرد اثبات صفة خارجة عما علمناه • قال : وأما القسمان الواقفان فقسم يقول بجواز أن يكون المراد ظاهرها اللائق بالله تعالى ويجوز أن لا تكون صفة لله وهذه طريقة كثير من الفقهاء وغيرهم ، وقسم يمسكون عن هذا كله ولا يزيدون على تلاوة القرآن وقراءة الحديث معرضين بقلوبهم وألسنتهم عن هذه التقديرات ، قال فهذه الاقسام الستة لا يمكن الرجل أن يخرج عن قسم منها ، قال والصواب فى كثير من الصفات وأحاديثها القطع بالطريقة الثانية • انتهى كلامه • والله تعالى الموفق

فصل فى ايمان المقلد

((فصـــــل))

فى ذكر الخلاف فى صحة ايمان المقلد فى العقائد وعدمها وفى جوازه وعدمه وقد أشار الناظم الى هذا المقام الذى هو مزلة أقدام فقال :

((وكل ما يطلب فيه الجـــزم   فمنـــع تقليـــد بذاك حتـــم))
((لأنه لا يـــكتفى بالظـــــن   لذى الحجى فى قول أهل الفن))
((وقيل يكفى الجزم اجمـاعا بما   يطلب فيه عند بعض العلمـــا))
((فالجازمون من عـــوام البشر   فمسلمون عند أهـــل الأثر))

((وكل ما)) أى حكم ومطلوب مما عنه الذكر الحكمى وهو المعنى الذى يعبر عنه بالكلام الخبرى وهو ما أنبأ عن أمر فى نفسك من اثبات او نفى والمراد هنا كل اعتقاد ((يطلب فيه)) أى ذلك الاعتقاد من معرفة الله تعالى وما يجب له ويستحيل عليه ويجوز ((الجزم)) بأن يجزم به جزما لا يحتمل متعلقه النقيض عنده لو قدره فى نفسه فان طابق الواقع فهو اعتقاد صحيح والا ففاسد فما كان من هذا الباب ((فمنع تقليد)) وهو لغة وضع الشىء فى العنق حال كونه محيطا به وذلك الشىء يسمى قلادة وجمعها قلائد وعرفا أخذ مذهب الغير يعنى اعتقاد صحته واتباعه عليه بلا دليل فان أخذه بالدليل فليس بمقلد له فيه ولو وافقه فالرجوع الى قوله صلى الله عليه وسلم ليس بتقليد . قال شيخ الاسلام ابن تيمية روح الله روحه فى المسودة : التقليد قبول القول بغير دليل فليس المصير الى الاجماع بتقليد لأن الاجماع دليل ولذلك يقبل قول النبى صلى الله عليه وسلم ولا يقال تقليد وقد قال الامام احمد رضى الله عنه فى رواية أبى الحارث من قلد الخبر رجوت أن يسلم ان شاء الله تعالى فأطلق اسم التقليد على من صار الى الخبر وان كان حجة بنفسه . انتهى ملخصا ((بذاك)) أى بما يطلب فيه الجزم ولا يكتفى فيه بالظن ((حتم)) بفتح الحاء المهملة وسكون التاء المثناة فوق أى لازم واجب ، قال علماؤنا وغيرهم يحرم التقليد فى معرفة الله تعالى وفى التوحيد والرسالة وكذا فى أركان الاسلام الخمس ونحوها مما تواتر واشتهر ، عند الامام احمد رضى الله عنه والاكثر وذكره أبو الخطاب عن عامة العلماء وذكر غيره انه قول الجمهور قاله

فى شرح التحرير ، قال وأطلق الحلوانى من أصحابنا وغيره منع التقليد فى أصول الدين ، واستدلوا لتحريم التقليد بأمره سبحانه وتعالى بالتدبر والتفكر والنظر ، وفى صحيح ابن حبان لما نزل فى آل عمران (ان فى خلق السموات والارض) الآيات قال صلى الله عليه وسلم « ويل لمن قرأهن ولم يتدبرهن ويل له ويل له » والاجماع على وجوب معرفة الله تعالى ولا تحصل بتقليد لجواز كذب المخبر واستحالة حصولها كمن قلد فى حدوث العالم وكمن قلد فى قدمه ، ولأن التقليد لو أفاد علمـــا فاما بالضرورة وهو باطل واما بالنظر فيستلزم الدليل والاصل عدمه والعلم يحصل بالنظر واحتمال الخطأ لعدم مراعاة القانون الصحيح ، ولأن الله تعالى ذم التقليد بقوله تعالى (انا وجدنا آباءنا على أمة) ولقوله تعالى (فاعـلم انه لا اله الا الله) فألزم الشارع بالعلم ويلزمنا نحن أيضا لقوله (فاتبعوه لعلكم تهتدون) فتعين طلب اليقين فى الوحدانية ويقاس عليهـــا غيرها والتقليد لا يفيد الا الظن ولهذا قال معللا للمنع عنه بقوله ((لانه)) أى الشأن والامر والقصة ((لا يكتفى)) فى أصول الدين ومعرفة الله رب العالمين ((بالظن)) الذى هو ترجيح أحد الطرفين على الآخر فالراجح هو الظن والمرجوح الوهم فلا يكتفى به فى أصول الدين ((لذى)) أى لصاحب ((الحجى)) كالى أى العقل والفطنة ((فى قول أهل الفن)) من الأئمة وعلماء المنقول والمعقول من الاصوليين والمتكلمة وغيرهم قال العلامة ابن حمدان فى نهاية المبتدئين : كل ما يطلب فيه الجزم يمتنع التقليـــد فيه والاخذ فيه بالظن لانه لا يفيده وانما يفيده دليل قطعى . قال فى شرح مختصر التحرير وأجازه يعنى فى التقليد فى أصول الدين جمع ، قال بعضهم ولو بطريق فاسد ، قال العلامة ابن مفلح : وأجازه بعض الشافعية لاجماع السلف على قبول الشهادتين من غير أن يقال لقائلهما هل نظرت ؟ وسمعه الامام ابن عقيل عن أبى القاسم ابن التبان المعتزلى قال وانه يكتفى بطريق فاسد ، وقال هذا المعتزلى اذا عرف الله وصدق رسوله وسكن قلبه الى ذلك واطمأن به فلا علينا من الطريق تقليـــدا كان أو نظرا أو استدلالا والى هذا الاشارة بقوله ((وقيل يكفى)) فى أصول الدين((الجزم))

ولو تقليدا ((اجماعيا)) ((بـ)) كل ((ما)) أى حكم ((يطلب)) بضم أوله مبنيا لما لم يسم فاعله ونائب الفاعل مضمر يعود على الجزم ((فيه)) أى فى ذلك المطلوب من أصول الدين ((عند بعض العلما)) من علماء مذهبنا والشافعية والمعتزلة وغيرهم ، قال العنبرى وغيره يجوز التقليد فى أصول الدين ولا يجب النظر اكتفاء بالعقد الجازم لانه صلى الله عليه وسلم كان يكتفى فى الايمان من الاعراب وليسوا أهلا للنظر بالتلفظ بكلمتى الشهادة المنبىء عن العقد الجازم ويقاس غير الايمان من أصول الدين عليه • وقال العلامة ابن حمدان فى نهاية المبتدئين : وقيل يكفى الجزم يعنى بالظن اجماعا بما يطلب فيه الجزم ((فالجازمون)) حينئذ بعقدهم ولو تقليدا ((من عوام البشر)) الذين ليسوا بأهل للنظر والاستدلال بما لا يتم الاسلام بدونه ((فـ)) على الصواب هم ((مسلمون عند أهل الاثر)) وأكثر النظار والمحققين وان عجزوا عن بيان ما لا يتم الاسلام الا به •وقال ابن حامد من علمائنا : لا يشترط أن يجـــزم عن دليل - يعنى بل يكفى الجزم ولو عن تقليد وقيل الناس كلهم مؤمنون حكما فى النكاح والارث وغيرهما ولا يدرى ما هم عند الله • انتهى • وقال العلامة المحقق ابن قاضى الجبل من علمائنا فى أصوله قال ابن عقيل : القياس النقلى حجة يجب العمل به ويجب النظر والاستدلال به بعد ورود الشرع ، قال ولا يجوز التقليد • والحق الذى لا محيد عنه ولا انفكاك لأحد منه صحة ايمان المقلد تقليدا جازما صحيحا وان النظر والاستدلال ليسا بواجبين وان التقليد الصحيح محصل للعلم والمعرفة ، نعم يجب النظر على من لا يحصل له التصديق الجازم أول ما تبلغه الدعوة • قال بعض علماء الشافعية اعلم ان وجوب الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر لا يشترط فيه أن يكون عن نظر واستدلال بل يكفى اعتقاد جازم بذلك اذ المختار الذى عليه السلف وأئمة الفتوى من الخلف وعامة الفقهاء صحة ايمان المقلد • قال وأما ما نقل عن الامام الشيخ أبى الحسن الاشعرى من عدم صحة ايمان المقلد فكذب عليه كما قاله الاســتاذ ابو القاسم القشـــيرى • ثم قال ومما يرد على زاعمى بطلان ايمان المقلد أن الصحابة رضوان الله

عليهم أجمعين فتحوا أكثر العجم وقبلوا ايمان عوامهم كاجلاف العرب وان كان تحت السيف أو تبعا لكبير منهم أسلم ولم يأمروا أحدا منهم بترديد نظر ولا سألوه عن دليل تصديقه ولا أرجأوا أمره حتى ينظر، والعقل يجزم فى نحو هذا بعدم وقوع الاستدلال منهم لاستحالته حينئذ فكان ما أطلقوا عليه دليلا أى دليل على ايمان المقلد ، وقال ان التقليد أن يسمع من نشأ بقلة جبل الناس يقولون للخلق رب خلقهم وخلق كل شىء من غير شريك له ويستحق العبادة عليهم فيجزم بذلك اجلالا لهم عن الخطأ وتحسينا للظن بهم فاذا تم جزمه بأن لم يجوز نقيض ما أخبروا به فقد حصل واجب الايمان وان فاته الاستدلال لانه غير مقصود لذاته بل للتوصل به للجزم وقد حصل. وقال الامام النووى : الآتى بالشهادتين مؤمن حقا وان كان مقلدا على مذهب المحققين والجماهير من السلف والخلف لانه صلى الله عليه وسلم اكتفى بالتصديق بما جاء به ولم يشترط المعرفة بالدليل وقد تظاهرت بهذا الاحاديث الصحاح يحصل بمجموعها التواتر والعلم القطعى . انتهى . وبما تقرر تعلم أن النظر ليس بشرط فى حصول المعرفة مطلقا والا لما وجدت بدونه لوجوب انتفاء المشروط بانتفاء الشرط لكنها قد توجد فظهر أن النظر لا يتعين على كل أحد وانما يتعين على من لا طريق له سواه بأن بلغته دعوة النبى صلى الله عليه وسلم ولم يحصل له العقد الجازم ابتداء تقليدا فيجب عليه النظر حتى يظهر له حقيقة الاسلام اذ الاعراض غير جائز فمثل هذا الشخص النظر عليه واجب اجماعا وأما المقلد الذى يؤمن بما جاء به النبى صلى الله عليه وسلم اول ما بلغته دعوته وصدق به تصديقا جازما بلا تردد فمع صحة ايمانه بالاتفاق لا يأثم بترك النظر وان كان ظاهر ما تقدم الاثم مع حصول الايمان لان المقصود الذى لأجله طلب النظر من المكلف وهو التصديق الجازم قد حصل بدون النظر فلا حاجة اليه ، نعم فى رتبته انحطاط وربما كان متزلزل الايمان فالحق أنه يأثم بترك النظر وان حصل له الايمان ، ومن ثم نقل بعضهم الاجماع على تأثيمه لان جزمه حينئذ لا ثقة به اذ لو عرضت له شبهة عكرت عليه وصار مترددا بخلاف الجزم الناشىء عن الاستدلال فانه لا يفوت بذلك والله تعالى الموفق

(تنبيهـــــات)

الاول فى مسئلة التقليد ثلاثة أقوال (أولها) النظر واجب وقد نقلناه عمن مر النقل عنهم ورجحه الامام الرازى وأبو الحسن الآمدى (الثانى) ليس بواجب والتقليـــد جائز وقد قدمنا كلام العنـــبرى وغيره فى ذلك (الثالث) التقليد حرام ويأثم بترك النظر والاستدلال ومع اثمه بتـــرك النظر فايمانه صحيح وقد فهم كل هذا مما قررناه سابقا • وثم قول (رابع) وهو أن النظر حرام لأنه مظنة الوقوع فى الشبه والضلال لاختلاف الاذهان بخلاف التقليد فيجب بأن يجزم المكلف عقده بما يأتى به الشرع من العقائد الدينية ولكن قد علم مما مر أن الرجوع الى الكتاب والسنة ليس بتقليد وإن سمى تقليدا فمجاز ، ومنه قول الامام أحمد رضى الله عنه : ومن قلد الخبر رجوت أن يسلم ان شاء الله تعالى • وقد قال أبو حامد الغزالى فى كتابه (فيصل التفرقة • بين الاسلام والزندقة) من ظن أن مدرك الايمان الكلام والادلة المحررة والتقسيمات المرتبة فقد أبعد ، لا بل الايمان نور يقذفه الله فى قلوب عباده عطية وهدية من عنده تارة بتنبيه فى الباطن لا يمكن التعبير عنه وتارة بسبب رؤيا فى المنام وتارة بمشاهدة حال رجل متدين وسراية نوره اليه عند صحبته ومجالسته وتارة بقرينة حال فقد جاء اعرابى الى النبى صلى الله عليه وسلم جاحدا له منكرا فلما وقع بصره على طلعته البهية وغرته الفريدة فرآها يتلألأ منها نور النبوة قال والله ماهذا وجه كذاب ، وسأل أن يعرض عليه الاسلام فأسلم • وجاء آخر اليه فقال أنشدك الله ، آلله بعثك نبيا ؟ فقال « بلى والله الله بعثنى نبيا » فصدقه بيمينه وأسلم • وأمثالهما أكثر من أن تحصى ولم يشـــتغل واحد منهم قط بالكلام وتعلم الادلة بل كان يبدو نور الايمان أولا بمثل هذه القرائن فى قلوبهم لمعة بيضاء ثم لا يزال يزداد وضوحاواشراقابمشاهدة تلك الاحوال العظيمة وبتلاوة القرآن وتصفية القلوب_ الى أن قال : والحق الصريح ان كل من اعتقد أن كل ما جاء به الرسول واشتمل عليه القرآن حق اعتقادا جازما فهو مؤمن وان لم يعرف أدلته • قال فالايمان المستفاد من الادلة الكلامية ضعيف جدا مشرف على التزلزل بكل شبهة • انتهى

فان قيل ان النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضى الله عنهم كانوا يعلمون أن العوام واجلاف العرب يعلمون الادلة اجمالا كما أجاب به الاعرابى الاصمعى عن دليل سؤاله : بم عرفت ربك ؟ فقال : البعرة تدل على البعير ، وأثر الاقدام يدل على المسير ، فسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج ألا تدل على اللطيف الخبير . فلذلك لم يلزموهم بالنظر ولا سألوهم عنه ولا أرجأوا أمرهم فلما كان كذلك لم يكن اكتفاؤهم بمجرد الاقرار دليلا على عدم وجوب النظر على الاعيان ولا على أن تاركه غير آثم . فالجواب : ما ذكروه دعوى بلا دليل وحكاية الاعرابى لا تدل على أن جميع الاجلاف والعوام كانوا عالمين بالادلة اجمالا فان المثال الجزئى لا يصحح القواعد الكلية ، والعقول مختلفة لأمزجة متفاوتة أشد تفاوت فوجود فرد من الاعراب قوى العقل نافذ البصيرة لا يدل على ان كل الاعراب والاجلاف كذلك بلا خفاء ، ويوضحه ان من الذين أسلموا فى عهدهم كانوا يكونون عجما ونساء وقبلوا منهم الاسلام ولم يأمروهم بالنظر ولم يرجئوهم ، وأيضا كان أهل الشرك من قريش يجادلون ويناضلون عن آلهتهم و (اذا قيل لهم لا اله الا الله يستكبرون ويقولون أئنا لتاركو آلهتنا لشاعر مجنون) وقالوا (اجعل الآلهة الها واحدا ان هذا لشىء عجاب) ويقول أبو سفيان وهو من رؤسائهم وصناديدهم يوم أحد : اعل هبل اعل هبل . فمثل هذا المصمم على الشرك المتعجب معه من التوحيد وقد أسلم تحت ظل السيف كيف كان صلى الله عليه وسلم (يرى) ان مثل هذا كان يعلم دليلا اجماليا على التوحيد ، والنبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه لم يسمعوا ولم يعلموا منه قبل ذلك الا الشرك المصمم والكفر الصراح والاعتقاد الفاسد . هذا مما لا يدل عليه عقل ولا نقل .

(الثانى) قد قدمنا أن التقليد الصحيح محصل للعلم بمعنى أن المقلد تقليدا صحيحا لا يصدق بما ألقى اليه من العقائد الخفية الا بعد انكشاف صدقها عنده من غير أن يكون له دليل عليها ، وقد جاء فى محكم الذكر (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام) وأخرج ابن المبارك فى الزهد وعبد الرزاق والفريابى وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن

المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه والبيهقى فى الاسماء والصفات عن أبى جعفر المدائنى رجل من بنى هاشم وليس هو محمد بن على قال سئل النبى صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية قال كيف يشرح صدره للاسلام يا رسول الله ؟ قال « نور يقذف فيه فينشرح له وينفسح » قالوا فهل لذلك من امارات يعرف بها ؟ قال «الانابة الى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل لقاء الموت » قال الحافظ السيوطى فى هذاالحديث: مرسل له شواهد كثيرة متصلة ومرسلة يرتقى بها الى درجة الصحة أو الحسن . وكما كان قذف النـــور فى القلب موجبا لانشراح الصـــدر وانفساح القلب كان قذفه مستلزما لجعل النفس قابلة للحق مهيأة لحلوله فيهـــا مصفاة عمـــا يمنعه وينافيه سواء كان ثم استدلال أولا وكلمـــا تصفت من كدوراتها واتصفت بالصفات المذكورة كان قبولها للعقائد الخفية اشد واذعانها لها أحرى لكون ذلك النور المقذوف فى القلب كاشفا لعين البصيرة عن صدق ما أخبر به من العقائد كشفا يحمله على الاذعان والانقياد والتصديق به وحسن الاعتقاد[1] بحيث يصير ضروريا حتى لو رام الانفكاك عنه لم يجد له اليه سبيلا وان لم يكن ثم نظر ولا استدلال

(الثالث) قد نقل عن أبى الحسن الاشعرى انه لا بد من انبناء الاعتقاد فى كل مسئلة من الاصول على دليل عقلى لكن لا يشترط الاقتدار على التعبير عنه وعلى مجادلة الخصوم ودفع الشبه،قال السعد التفتازانى في (شرح المقاصد) هذا هو المشهور عن الاشعرى حتى حكى عنه ان[2] من لم يكن كذلك لم يكن مؤمنا . انتهى . قال في جمع الجوامع : وعن الاشـعرى لا يصح ايمان المقلد . قال شارحه : وشنع عليه أقـوام بأنه يلزمه تكفير العوام وهم غالب المؤمنين ، وقال القشيرى : مكذوب عليه . قال التاج السبكى : والتحقيق انه ان كان التقليد أخذا لقول الغير بغير حجة مع احتمال شك أو وهم بأن لا يجزم به فلا يكفى ايمان المقلد قطعا لانه لا ايمان مع أدنى تردد فيه ، وان كان التقليد أخذا لقول الغير بغير حجة لكن جزما فيكفى ايمان المقلد عند الاشعرى وغيره خلافا لأبى هاشـــم

---

(١) فى مخ « الانقياد » . (٢) مخ «حكى عنه انه قال »

المعتزلى فى قوله : لا يكفى بل لا بد لصحة الايمان من النظر • وقد وافق النقل عن الاشعرى جماعة منهم القاضى وأمام الحرمين وغيرهما ، قالوا قال الجمهور بعدم صحة الاكتفاء بالتقليد في العقائد الدينية حتى زعم بعضهم انه مجمع عليه ، وعزاه ابن القصار للامام مالك رضى الله عنه •والمشهور نقل بعضهم عن الجمهور عدم جواز التقليد فى العقائد الدينية وانهم اختلفوا فى المقلد ، منهم من قال انه مؤمن الا أنه عاص بترك المعرفة التى ينتجها النظر الصحيح ، ومنهم من فصل فقال هو مؤمن عاص ان كان فيه أهلية لفهم النظر الصحيح وغير عاص ان لم يكن فيه أهلية ذلك ، ومنهم من نقل عن طائفة ان من قلد القرآن والسنة القطعية صح ايمانه لاتباعه القطعى ، ومن قلد غير ذلك لم يصح ايمانه لعدم أمن الخطأ على غير المعصوم ، ومنهم من جعل النظر والاستدلال شرطا للكمال ، ومنهم من حرم النظر كما مر ذلك • قال الجلال المحلى فى شرح (جمع الجوامع) وقد اتفقت الطرق الثلاث ــ يعنى الموجبة للنظر والمجوزة له والمحرمة ــ على صحة ايمان المقلد • انتهى • وعبارة الآمدى فى (الابكار) اتفق الاصحاب على انتفاء كفر المقلد وانه ليس للجمهور الا القول بعصيانه بترك النظر ان قدر عليه مع اتفاقهم على صحة ايمانه وانه لا يعرف القول بعدم صحة ايمان المقلد الا لأبى هاشم بن أبى على الجبائى من المعتزلة محتجا بأن من لم يعرف الله سبحانه بالدليل فهو كافر • قال الامدى : وأصحابنا مجمعون على خلافه • وقال الامام أبو منصور الماتريدى رئيس الطائفة الماتريدية : أجمع أصحابنا على أن العوام مؤمنون عارفون بربهم وانهم حشو الجنة كما جاءت به الاخبار وانعقد عليه الاجماع لكن منهم من قال لا بد من نظر عقلى فى العقائد وقد حصل لهم منه القدر الكافى فان فطرهم جبلت على توحيد الصانع وقدمه وحدوث ما سواه من الموجودات وان عجزوا عن التعبير باصطلاح المتكلمين • هذا حاصل ماأجيب به عن الاشعرى حتى قال بعض الاشاعرة عن الاشعرى لا يكاد يكون فى العوام مقلد • وعبارة (شرح المقاصد) ذهب كثير من العلماء وجميع الفقهاء الى صحة ايمان المقلد وترتيب الاحكام عليه فى الدنيا والآخرة ، ومنعه الشيخ

ابو الحسن والمعتزلة وكثير من المتكلمين ، احتج القائلون بالصحة بأن حقيقة الايمان التصديق وقد وجدت من غير اقترانه بموجب من موجبات الكفر ، فان قيل : لا يتصور التصديق بدون العلم لانه اما ذاتى للتصديق او شرط له ولا علم للمقلد لانه اعتقاد جازم مطابق مستند الى سبب من ضرورة أو استدلال ، فأجاب بأن المعتبر فى التصديق هو اليقين أعنى الاعتقاد الجازم المطابق بل ربما يكتفى بالمطابقة ويجعل الظن الغالب الذى لا يخطر معه النقيض بالبال فى حكم اليقين • انتهى

(الرابع) قال السعد : اعلم بأن القائلين بعدم صحة ايمان المقلد أو ليس بنافع اختلفوا ، فمنهم من قال لا يشترط ابتناء الاعتقاد (على استدلال عقلى) في كل مسئلة بل يكفى ابتناؤه على قول من عرفت رسالته بالمعجزة مشاهدة أو تواترا، أو على الاجماع ، ومنهم من قال لا بد من ابتناء الاعتقاد في كل مسئلة من الاصول على دليل عقلى لكن لا يشترط الاقتدار على التعبير عنه ولا على مجادلة الخصوم ، وتقدم الصحيح المعتمد من هذا قريبا ، ومنهم من قال لا بد مع ابتناء الاعتقاد على الدليل العقلى من الاقتدار على مجادلة الخصوم وحل ما يورد عليه من الاشكالات - قال واليه ذهب المعتزلة فلم يحكموا بايمان من عجز عن شيء من ذلك بل يحكم أبو هاشم بكفره • وقد تقدم عن العنبرى وغيره من شيوخ المعتزلة جواز التقليد فى أصول الدين وانه لا يجب النظر اكتفاء بالعقد الجازم • فعليه المعول • واتضح أن المرجح صحة ايمان المقلد عند محققى كل طائفة بشرط الجزم وعدم التزلزل والشك على أنا نقول : المختار أن الراجع الى أخبار الرسول والكتاب المنزل والاجماع ليس بمقلد فمن شهد لله بالوحدانية ولمحمد صلى الله عليه وسلم بالرسالة ونهج سبيل المسلمين (١) من فعل المأمور وترك المحظور ولم يأت بمكفر فهو مؤمن وبالله التوفيق • ويؤيد هذا ما أخرجه الامام الحافظ أبو القاسم بن عساكر فى كتابه (تبيين كذب المفترى ، فيما نسب الى الامام أبى الحسن الاشعرى) بسنده المتصل الى أبى حازم عمر بن

---

(١) مخ « المؤمنين »

أحمد العبدوى[1] الحافظ أنه قال سمعت أبا على طاهر بن أحمد السرخسى يقول : لما قرب حضور أجل أبى الحسن الاشعرى رحمه الله تعالى فى دارى ببغداد دعانى فأتيته فقال : اشهد على انى لا أكفر أحدا من أهــل القبلة لان الكل يشيرون الى معبود واحد وانما هذا كله اختلاف عبارات • انتهى بلفظه • فنسأل الله التوفيق وحسن الخاتمة •

الباب الثــانى فى الأفعـــال المخلوقة

((الباب الثانى فى الافعال المخلوقة))

((وسائر الاشياء غير الــذات وغير ما الاســماء والصــفات))
((مخلوقة لربنا من العـــــدم وضل من أثنى عليها بالقـــدم))
((وربنـــــا يخلق باختيـــار من غير حاجة ولا اضطـــرار))
((لكنه لا يخلق الخلق ســدى كما أتى فى النص فاتبع الهدى))

كل شيء غـــير ذات الله تعـالى وصفاتهوأسمائه مخلوق

((وسائر)) أى بقية ((الاشياء)) جمع شىء ((غير الذات))المقدسة ((وغير ما)) زائدة لتأكيد النفى ((الاسماء)) أى غير أسمائه تعالى فانها قديمة كالذات ((و)) غير ((الصفات)) الذاتية والخبرية التى ثبتت فى الكتاب والسنة والفعلية فكل شىء غير الذات العلية وأسمائها وصفاتهـــا ((مخلوقة لربنا)) تبارك وتعالى ((من العدم)) مسبوقة به وتبين لك حكمة تعبير الناظم بسائر لانها بمعنى البقية قال فى القاموس والسائر الباقى لا الجميع كما توهم جماعات أو قد يستعمل له ومنه قول الاحــــــوص :

فجلتهـــا لنا لبـــابة لمـــا وقذ النوم ســائر الحراس

قال وضاف اعرابى قوما فأمروا الجارية بتطييبه فقال :

بطنى عطــــــرى وســــــائرى ذرى

فكل ما سواه سبحانه بأسمائه وصفاته محدث مسبوق بالعدم ، وهذا المتفق عليه عند سلف الأمة وأئمتها من أن الله تعالى خالق كل شىء وربه ومليكه وأنه خالق كل شىء بقدرته ومشيئته وانه ماشاء كان ومالم يشأ لم يكن فهوسبحانه وتعالى خالق الممكنات المحدثاتمن الاجسام والاعراضالقائمة بالحيوان والجماد والمعادن والنبات وغيرها • وهذا الذى دلت عليه الكتب المنزلة وأخبرت به الرسل المرسلة وعليه سلفالامة وأئمتها بل وعليه جماهير العقلاء وأكابرهم

(١) فى الاصلين « العبدى » خطأ •

من جميع الطوائف خلافا لبعض الفلاسفة كارسطو القائل بقدم العـــالم وخلافا لديمقراطيس القائل بقدم العلة والنفس والهيولى والخلاء والدهر • قال شيخ الاسلام بن تيمية في (جواب المسائل الاسكندرية) : قد نقلوا عن أساطين الفلاسفة المتقدمين أنهم كانوا يقرون بحدوث صورة الفلك ولكنهم مضطربون في المادة ومتنازعون فيها نعم أرسطو وأتباعه قائلون بقدم صورته • قال وليس لهم دليـــل صحيح على قدم شيء من العالم[1] ألبتة ولهـــذا قال ((وضل)) عن الصراط المســتقيم والنهج البين القويم ((من)) أى أى شخص وكل (انسان من كل ـ ٢) طائفة من طوائف العالم ((اثنى عليها)) أى على سائر الاشياء سوى الذات المقدسة وصفاتها القديمة فسائر ما عدا ذلك كل من أثنى على شيء منها ((بالقدم)) فقد ضل وأضل وقـد أخبر الله في محكم الذكر بأنه خلق السموات والارض وما بينهما في ستة أيام ، وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال « ان الله قدر مقادير الخلائق قبـــل أن يخلق السموات والارض بخمسين ألف ســنة وكان عرشه على الماء » أى مقادير الخلائق التى خلقها في ستة أيام الى أن يدخل أهل الجنة منازلهـم وأهل النار منازلهم كما في السنن عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « أول ما خلق الله القلم فقال اكتب قال وما أكتب ؟ قال ما هو كائن الى يوم القيامة » فقد بين أن القلم الذى هو أول المخلوقات من هذا العالم انما كتب ما هو كائن الى يوم القيامة ، وهذا هو التقدير المذكور في قوله قدر مقادير الخلائق • وفي الصحيح أن النبى صلى الله عليه وسلم خطب أصحابه فذكر بدء الخلق حتى دخل أهل الجنة منازلهم وأهل النار منازلهم • وقد جاء عن الصحابة والتابعين من الآثار والاخبار من هذا النهج شيء كثير • وفي التوراة ما يوافق الكتاب والسنة من ذكر الماء الذى كان مخلوقا قبل أن يخـلق السموات والارض وأن الله خلق السماء من بخـــار ذلك الماء • وذلك البخار هو الدخان المذكور في قوله تعالى (ثم استوى الى السماء وهى دخان فقال لها وللارض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين) والعرش أيضا خلق

---

(١) مخ « على قدم صورته » • (٢) ليس فى مخ •

قبل ذلك كما دل عليه الكتاب والسنة ، قال شيخ الاسلام في الاجـــوبة الاسكندرية : قد أخبرت الكتب الالهية أن الله خلق السموات والارض في ستة أيام فتلك الايام ليست مقدرة بحركة الشمس والقمر فانه فيها خـلق الشمس والقمر والافلاك وسواء كانت بقدر هذه الايام أو كان كل يوم بقدر ألف سنة فعلى القولين ليس مقدار هذه حركات ما خلق فيهـــا ٠ والحاصل أن الكتب الالهية والسنة النبوية واجماع المسلمين على أن الله خالق كل شيء فان كل ما سوى الله مخلوق ٠ قال شيخ الاسلام : وصفاته تعالى ليست خارجة عن مسمى اسمه ٠ وتقدم ٠ قال شيخ الاسلام : وليس بين أهل الملل خلاف في أن الملائكة جميعهم مخلوقون ، وفي صحيح مسلم وغيره من حديث عائشة رضى الله عنهـــا عن النبى صلى الله عليه انه قال « خلقت الملائكة من نور وخلق ابليس من مارج من نار وخلق آدم ممـا وصف لكم » وقال الامام المحقق شمس الدين ابن القيم في كتـابه (اغاثة اللهفان) وشيخه شيخ الاسلام في (شرح الاصبهانية) : أول من عـرف عنه القول بقدم العـــالم أرسطو وكان ضالا مشركا يعبد الاصنام – يعنى المصورات في هياكلهم على صور الكواكب السيارة ٠ قال : وله في الهيئات كلام كله خطأ قد تعقبــه في الرد عليه طوائف المسلمين حتى الجهميـــة والمعتزلة والقدرية والرافضة وفلاسفة الاسلام أنكروه عليه ٠ قال ابن القيم قد جاء فى كلامه بما يسخر منه العقلاء فانكر أن يكون الله تعالى يعلم شيئا من الموجودات وقرر ذلك بأنه لو علم شيئا لكمل بمعلوماته ولم يكن كاملا في نفسه وبأنه كان يلحقه التعب والكلال من تصور المعلومات ٠ قال المحقق ابن القيم – يسخر به ويهزأ منه : فهذا غاية عقد هذا المعلم والاستاذ وقد حكى عنه ذلك أبو البركات البغدادى فيلسوف الاسلام وبالغ في ابطال هذه الحجج وردها ٠ قال ابن القيم : فحقيقة ما كان عليه هذا المعلم لاتباعه الكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، ودرج على أثره اتباعه من الملاحدة ممن يتستر باتباع الرسل وهو منحل من كل ما جاءوا به ٠ قال واتباعه يعظمونه فوق ما يعظم به الانبيــــاء عليهم السلام ويرون عرض ما جاءت به الانبياء على كلامه فما وافقه منها قبلوه وما خالفه لم يعبـأوا به

شيئا ويسمونه المعلم الاول لأنه أول من وضع لهم التعاليم المنطقية ، والمعلم الثاني من الفلاسفة أبو نصر الفارابى الا أنه من فلاسفة الاسلام وهو الذى وضع لهم التعاليم الصوتية ووسع لهم في صناعة المنطق وبسطها وشرح فلسفة أرسطو وهذبها وبالغ في ذلك وكان على طريقة سلفه ، والمعلم الثالث أبو على ابن سينا فانه بالغ في تهذيب الفلسفة وقربها من شريعة الرسل ودين الاسلام بجهده وغاية ما أمكنه • قال الامام ابن القيم : وحسبك جهلا بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله من يقول أنه سبحانه لو علم الموجودات لحقه الكلال والتعب واستكمل بغيره ، وحسبك خذلانا وضلالا وعمى السير خلف هؤلاء واحسان الظن بهم ، وانهم ذوو العقول ، وحسبك عجبا من جهلهم وضلالهم ما قالوه في سلسلة الموجودات وصدور العالم عن العقول العشرة والنفوس التسعة الى أن أنهوا صدور ذلك الى واحد من كل جهة لا علم له بما صدر عنه ولا قدرة له عليه ولا ارادة وأنه لم يصدر عنه الا واحد • قال ابن القيم وصرح أفلاطون بحدوث العالم كما كان عليه الاساطين وحكى عنه ذلك تلميذه أرسطو وخالفه فيه فزعم أنه قديم وتبعه على ذلك ملاحدة الفلاسفة من المنتسبين الى الملل وغيرهم • قال شيخ الاسلام ابن تيمية روح الله روحه : ليس لأرسطو ولا لأتباعه ولا غيرهم حجة واحدة تدل على قدم شيء من العالم[1] أصلا وقد قدمنا قول شيخ الاسلام وغيره ان أول من قال بقدم العالم من الفلاسفة هو أرسطو ، قال شيخ الاسلام : وأما الاساطين قبله فلم يكونوا يقولولن بقدم صورة الفلك وان كان لهم في المادة أقوال أخر • والحاصل أن الحق الذى لا ريب فيه ولا شك يعتريه أن الله تعالى خالق لكل ما سواه فليس معه شيء قديم بقدمه لا نفس ولا عقل ولا غيرهما • قال فى (اغاثة اللهفان) والفلاسفة فرق شتى لا يحصيهم الا الله وأحصى المعتنون بمقالات الناس منهم اثنتى عشرة فرقة مختلفة اختلافا كثيرا منهم أصحاب الرواق وأصحاب الظلة والمشاؤون وهم شيعة أرسطو وفلسفتهم هى الدائرة اليوم بين الناس وهى التى يحكيها ابن سينا والفارابى وابن الخطيب وغيرهم ، ومنهم الفيثاغورية والافلاطونية ، قال ولا نجد منهم اثنين متفقين على رأى

---

(١) مخ « من المخلوقات » •

واحد باء قد تلاعب بهم الشيطان كتلاعب الصبيان بالكرة ، قال وبالجملة فملاحدتهم هم أهل التعطيل المحض فانهم عطلوا الشرائع وعطلوا المصنوع عن الصانع وعطلوا الصانع عن صفات كماله وعطلوا العالم عن الحق الذى خلق له وبه فعطلوه عن مبدئه ومعاده عن فاعله في غايته ثم سرى هذا الداء منهم في الامم وفي فرق المعطلة أولا وآخرا • ولهذا قال (وضل من أثنى عليها بالقدم) فهؤلاء هم الضلال ومن نحا نحوهم من الفرق الضالة والله على كل شيء قدير •

ربنا يخلق باختيار

((وربنا)) تبارك وتعالى ((يخلق)) ما شاء ان يخلقه من سائر مخلوقاته ((باختيار)) منه فمذهب سلف الامة وأئمتها أن الله تعالى لم يزل فاعلا لما يشاء وأنه تقوم بذاته الامور الاختيارية وأنه تعالى لم يزل متصفا بصفاته الذاتية والفعلية فلم يحدث له اسما من أسمائه ولا صفة من صفاته فيخلق سبحانه المخلوقات ويحدث الحوادث بعد أن لم تكن ، سواء كان ذلك على مثال سابق أولا ، والابداع احداث الشيء بعد أن لم يكن على غير مثال سابق ((من غير حاجة)) منه تعالى اليه أى يخلق الخلق لا لحاجة اليه

الكلام في الحكمة والتعليل

((ولا اضطرار)) عليه فالحاجة المصلحة والمنفعة والاضطرار الالجاء والاحواج والالزام والاكراه ، فلا حاجة باعثة له سبحانه على خلقه للخلق ولا مكره له عليه بل خلق المخلوقات وأمر بالمأمورات لمحض المشيئة وصرف الارادة ، وهذا قول جمهور من يثبت القدر وينتسب الى السنة من أهل الكلام والفقه وغيرهم ، وقال به طوائف من الحنبلية والمالكية والشافعية وغيرهم ، وهو قول أبى الحسن الاشعرى وأصحابه ، وهو قول كثير من نفاة القياس فى الفقه من الظاهرية كابن حزم وأمثاله ، وحجة هذا أنه لو خلق الخلق لعلة لكان ناقصا بدونها مستكملا بها فانه اما أن يكون وجود تلك العلة وعدمها بالنسبة اليه سواء أو يكون وجودها أولى به فان كان الاول امتنع أن يفعل لأجلها وان كان الثانى ثبت أن وجودها أولى به فيكون مستكملا بها فيكون قبلها ناقصا ، وأيضا فالعلة ان كانت قديمة وجب قدم المعلول لان العلة الغائية وان كانت متقدمة على المعلول في العلم والقصد فهى متأخرة في الوجود عن المعلول كما يقال ـ أول الفكرة آخر العمل •

وأول البغية آخر المدرك ـ ويقال ان العلة الغائية بها صار الفاعل فاعلا فمن فعل فعلا لمطلوب يطلبه بذلك الفعل كان حصول المطلوب بعد الفعل،فاذا قدر أن ذلك المطلوب الذى هو العلة قديما (؟) كان الفعل قديما بطريق الاولى ، فلو قيل انه يفعل لعلة قديمة لزم أن لا يحدث شيء من الحـــوادث وهو خلاف المشاهدة ، وان قيل انه فعل لعلة حادثة لزم محذوران (أحدهما) أن يكون محلا للحوادث فان العلة ان كانت منفصلة عنه فان لم يعد اليـه منها حكم امتنع أن يكون وجودها أولى به من عدمها وان قدر أنه عاد اليـه منها حكم كان ذلك حادث(؟) فتقوم به الحوادث ، والمحذور الثانى أن ذلك يستلزم التسلسل من وجهين ، أحدهما أن تلك العلة الحادثة المطلوبة بالفعل هى أيضا مما يحدثه الله تعالى بقدرته ومشيئته فان كانت لغير علة لزم العبث كما تقدم وان كان لعلة عاد التقسيم فيها فاذا كان كل ما يحدثه أحدثه لعلة والعلة ما أحدثه لزم تسلسل الحوادث (الثانى) ان تلك العلة اما أن تكون مرادة لنفسها أو لعلة أخرى فان كان الاول امتنع حدوثها لان ما أراده الله تعالى لذاته وهو قادر عليه لا يؤخر احداثه وان كان الثانى فالقول فى ذلك الغير كالقول فيها ويلزم التسلسل ، فهذه الحجج من حجج من ينفى تعليل أفعال الله تعالى وأحكامه ،

التقدير الثانى قول من يجعل العلة الغائية قديمة كما يجعل العلة الفاعلية قديمة كما يقوله الفلاسفة القائلون بقدم العالم وأصل قول هؤلاء أن المبدع للعالم علة تامة تستلزم معلولها فلا يجوز أن يتأخر عنها معلولها ، وأعظم حججهم قولهم ان جميع الامور المعتبرة في كونه فاعلا ان كانت موجودة في الازل لزم وجود المفعول في الازل لان العلة التامة لا يتأخر عنها معلولها فانه لو تأخر لم تكن جميع شروط الفعل وجدت في الازل فانا لا نعنى بالعلة التامة الا ما تستلزم المعلول فاذا قدر أنه تخلف عنها المعلول لم تكن تامة ،وان لم تكن العلة التامة التى هى جميع الامور المعتـبرة في الفعل وهى المقتضى التام لوجود الفعل وهى جميع شروط الفعل التى يلزم من وجودها وجود الفعل ـ وان لم تكن جميعها فى الازل فلا بد اذا وجد المفعول بعد ذلك من تجدد سبب حادث والا لزم ترجيح أحد طرفي الممكن بلا مرجح ، واذا

كان هناك سبب حادث فالقول في حدوثه كالقول في الحادث الاول ويلـزم التسلسل ، قالوا فالقول بانتفاء العلة التامة المستلزمة للمفعول يوجب اما التسلسل واما الترجيح بلا مرجح • ثم أكثر هؤلاء يثبتون علة غائية للفعل وهى بعينها الفاعلة لكنهم متناقضون فانهم يثبتون له العلة الغائية ويثبتـون لفعله العلة الغائية ويقولون مع هذا ليس له ارادة بل هو موجب بالذات لا فاعل بالاختيار • وقولهم باطل من وجوه كثيرة مذكورة في محالها منها ما ذكره شيخ الاسلام ابن تيمية روح الله روحه في كتابه (حسن الارادة) : هذا القول يستلزم أن لا يحدث شيء وان كل ما حدث حدث بغير احداث محدث ومعلوم أن بطلان هذا بين ـ وأطال في رد ذلك ، ومما ذكر أن يقال لهم حدوث حادث بعد حادث بلا نهاية اما أن يكون ممكنا في العقل أو ممتنعا فان كان ممتنعا لزم أن الحوادث جميعها لها أول كما يقوله أهل الحق وبطل قولهم بقدم حركات الافلاك ، وان كان ممكنا أمكن أن يكون حدوث ما احدثه الله تعالى كالسموات والارض موقوف (؟) على حوادث قبل ذلك كمـا تقولون أنتم فيما يحدث في هذا العالم من الحيوان والنبات والمعادن والمطـر والسحاب وغير ذلك فيلزم فساد حجتكم على التقديرين ، ثم يقال اما أن تثبتوا لمبدع العالم حكمة وغاية مطلوبة أولا ، فان لم تثبتوا بطل قولكم باثبات العلة الغائية وبطل ما تذكرونه من حكمة البارى تعالى في خلق الحيـوان وغير ذلك من المخلوقات ، وأيضا فالوجود يبطل هذا القول فان الحكمـة الموجودة في الوجود أمر يفوت العد والاحصاء كاحداثه سبحانه لما يحدث من نعمته ورحمته وقت حاجة الخلق اليه كاحداث المطر وقت الشتاء بقـدر الحاجة واحداثه للانسان الآلات التى يحتاج اليها بقدر حاجته وأمثال ذلك مما هو كثير جدا ، وان أثبتم له تعالى حكمة مطلوبة وهى باصطلاحكم العلة الغائية لزم أن تثبتوا له المشيئة والارادة بالضرورة فان القول بأن الفاعل فعل كذا لحكمـــة كذا بدون كونه مريدا لتلك الحكمـــة المطلوبة جمع بين النقيضين • وهؤلاء المتفلسفة من أكثر الناس تناقضا ولهذا يجعلون العـلم هو العالم والعلم هو الارادة والارادة هى القدرة وأمثال ذلك •

التقدير الثالث وهو انه سبحانه فعل المفعولات وأمر بالمأمورات لحكمة

محمودة قال شيخ الاسلام ابن تيمية : هذا قول أكثر الناس من المسلمين وغيرهم وقول طوائف من أصحاب أبى حنيفة والشافعى ومالك وأحمد رضى الله عنهم وقول طوائف من أهل الكلام من المعتزلة والكرامية والمرجئة وغيرهم وقول أكثر أهل الحديث والتصوف وأهل التفسير وأكثر قدماء الفلاسفة وكثير من متأخريهم كأبى البركات وأمثاله لكن هؤلاء على أقوال ، منهم من قال ان الحكمة المطلوبة مخلوقة ومنفصلة عنه تعالى وهم المعتزلة والشيعة ومن وافقهم ، قالوا الحكمة فى ذلك احسانه للخلق والحكمة في الامر تعريض المكلفين للثواب قالوا فعل الاحسان الى الغير حسن محمود فى العقل فخلق الخلق لهذه الحكمة من غير أن يعود اليه من ذلك حكم ولا قام به نعت ولا فعل . فقال لهم الناس أنتم تتناقضون في هذا القول لأن الاحسان الى الغير محمود لكونه يعود منه الى فاعله حكم يحمد لأجله اما لتكميل نفسه بذلك واما لقصده الحمد والثواب بذلك واما لرقة وألم يجده في نفسه يدفع بالاحسان ذلك الالم واما لالتذاذه وسروره وفرحه بالاحسان فان النفس الكريمة تفرح وتسر وتلتذ بالخير الذى يحصل منها الى غيرها فالاحسان الى الغير محمود لكون المحسن يعود اليه من فعله هذه الامور ، أما اذا قدر أن وجود الاحسان وعدمه بالنسبة الى الفاعل سواء لم يقل[1] أن مثل هذا الفعل يحسن منه بل مثل هذا يعد عبثا في عقول العقلاء ، وكل من فعل فعلا ليس فيه لنفسه لذة ولا مصلحة ولا منفعة بوجه من الوجوه لا عاجلة ولا آجلة كان عبثا ولم يكن محمودا على هذا ، وأنتم عللتم أفعاله تعالى فرارا من العبث فوقعتم فيه فان العبث هو الفعل الذى لا مصلحة ولا منفعة ولا فائدة تعود على الفاعل ولهذا لم يأمر الله تعالى ولا رسوله ولا أحد من العقلاء أحدا بالاحسان الى غيره ونفعه ونحو ذلك الا لما له في ذلك من المنفعة والمصلحة فأمر الفاعل بفعل لا يعود عليه منه لذة ولا سرور ولا منفعة ولا فرح بوجه من الوجوه لا في العاجل ولا في الآجل لا يستحسن من الآمر . ومن ثم قال ((لكنه)) تعالى وتقدس هذا استدراك من مفهوم قوله انه يخلق الخلق بالاختيار أى لا بالذات خلافا للمعتزلة ومن وافقهم

---

(١) مخ « لم يعلم » .

من غير حاجة اليه ولا اضطرار عليه غير أنه جل وعلا ((لا يخلق الخلق سدى)) أى هملا بلا أمر ولا نهى ولا حكمة ومعنى السدى المهمل وابل سدى اذا كانت ترعى حيث شاءت بلا راع ((كما أتى في النص)) القرآنى والسنة النبوية والآثار مما هو كثير جدا أن الله تبارك وتعالى لا يفعل الا لحكمة وعلم وهو العليم الحكيم فما خلق شيئا ولا قضاه ولا شرعه الا بحكمة بالغة وان تقاصرت عنها عقول البشر ((فاتبع الهدى)) باقتفاء المأثور واتباع السلف الصالح ولا تجحد حكمته كما لا تجحد قدرته فهو الحكيم القدير •
قال شيخ الاسلام ابن تيمية قدس الله روحه : ونشأ من هذا الاختلاف نزاع بين المعتزلة وغيرهم ومن وافقهم في مسألة التحسين والتقبيح العقلى فأثبت ذلك المعتزلة والكرامية وغيرهم ومن وافقهم من أصحاب أبى حنيفة ومالك والشافعي وأحمد وأهل الحديث وغيرهم رضى الله عنهم وحكوا ذلك عن الامام أبى حنيفة نفسه رضى الله عنه ونفى ذلك الاشعرية ومن وافقهم من أصحاب مالك والشافعي وأحمد وغيرهم ، واتفق الفريقان على أن الحسن والقبح اذا فسر بكون الفعل نافعا للفاعل ملائما له وكونه ضارا للفاعل منافرا له انه تمكن معرفته بالعقل كما يعرف بالشرع ، وظن من ظن من هؤلاء وهؤلاء أن الحسن والقبح المعلوم بالشرع خارج عن هذا ، وليس كذلك ، بل جميع الافعال التى أوجبها الله تعالى وندب اليها هى نافعة لفاعليها ومصلحة لهم ، وجميع الافعال التى نهى الله عنها هى ضارة لفاعليها ومفسدة في حقهم ، والحمد والثواب المترتب على طاعة الشارع نافع للفاعل ومصلحة له ، والذم والعقاب المترتب على معصيته ضار للفاعل مفسدة له • والمعتزلة أثبتت الحسن في أفعال الله تعالى لا بمعنى حكم يعود اليه من أفعاله تعالى •
قال الشيخ : ومنازعوهم لما اعتقدوا أن لا حسن ولا قبح في الفعل الا ما عاد الى الفاعل منه حكم نفوا ذلك وقالوا : القبيح في حق الله تعالى هو الممتنع لذاته وكل ما يقدر ممكنا من الافعال فهو حسن اذ لا فرق بالنسبة اليه عندهم بين مفعول ومفعول ، وأولئك يعنى المعتزلة أثبتوا حسنا وقبحا لا يعود الى الفاعل منه حكم يقوم بذاته وعندهم لا يقوم بذاته لا وصف ولا فعل ولا غير ذلك وان كانوا قد يتناقضون ، ثم أخذوا يقيسون ذلك على ما يحسن

من العبد ويقبح فجعلوا يوجبون على الله سبحانه من جنس مايوجبون على العبد ويحرمون عليه من جنس ما يحرمون على العبد ويسمون ذلك العدل والحكمة مع قصور عقلهم عن معرفة حكمته فلا يثبتون له مشيئة عامة ولا قدرة تامة فلا يجعلونه على كل شيء قدير ولا يقولون ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ولا يقرون بأنه خالق كل شيء ، ويثبتون له من الظلم ما نزه نفسه عنه فانه سبحانه قال (ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما) أي لا يخاف ان يظلم فيحمل عليه سيآت غيره ولا يهضم من حسناته وقال تعالى (ما يبدل القول لدى وما أنا بظلام للعبيد) وفي حديث البطاقة عند الترمذي وغيره « لا ظلم عليك اليوم » .



والحاصل ان فعل الله تعالى وتقدس وأمره لا يكون لعلة في قول مرجوح اختاره كثير من علمائنا وبعض المالكية والشافعية وقاله الظاهرية والاشعرية والجهمية . والقول الثاني انهما لعلة وحكمة اختاره الطوفى وهو مختار شيخ الاسلام ابن تيمية وابن القيم وابن قاضى الجبل وحكاه عن اجماع السلف وهو مذهب الشيعة والمعتزلة لكن المعتزلة تقول بوجوب الصلاح ولهم في الاصلح قولان كما يأتى في النظم والمخالفون لهم يقولون بالتعليل لا على منهج المعتزلة . قال شيخ الاسلام : لأهل السنة في تعليل أفعال الله تعالى وأحكامه قولان والاكثرون على التعليل والحكمة ، وهل هى منفصلة عن الرب لا تقوم به أو قائمة مع ثبوت الحكم المنفصل ؟ لهم فيه أيضا قولان ، وهل تتسلسل الحكم أو لا تتسلسل أو تتسلسل في المستقبل دون الماضى ؟ فيه أقوال ، قال : احتج المثبتون للحكمة والعلة بقوله تعالى (من أجل ذلك كتبنا على بنى اسرائيل) وقوله (كيلا يكون دولة) وقوله (وما جعلنا القبلة التى كنت عليها الا لنعلم) ونظائرها ولانه تعالى حكيم شرع الاحكام لحكمة ومصلحة لقوله تعالى (وما أرسلناك الا رحمة للعالمين) والاجماع واقع على اشتمال الافعال على الحكم والمصالح جوازا عند أهل السنة ووجوبا عند المعتزلة فيفعل ما يريد بحكمته . وتقدم ان النافين للحكمة والعلة احتجوا مما احتجوا به انه يلزم من قدم العلة قدم المعلول وهو محال ، ومن حدوثها

افتقارها الى علة أخرى وانه يلزم التسلسل ، قال الامام الرازى : وهو مراد المشايخ بقولهم كل شيء صنعه ولا علة لصنعه ، وما أجاب به من قال بالحكمة وانها قديمة لا يلزم من قدم العلة قدم معلولها كالارادة فانها قديمة ومتعلقها حادث وتقدمت الاشارة في أول البحث الى محصل هذا كله •

والحاصل ان شيخ الاسلام وجمعا من تلامذته أثبتوا الحكمة والعلة فى أفعال البارى جل وعلا وأقاموا على ذلك من البراهين ما لعله لا يبقى في مخيلة الفطين السالم من ربقة تقليد الاساطين أدنى اختلاج وأقل تخمين • وأما الامام المحقق شمس الدين ابن القيم فقد أجلب وأجنب وأتى بما يقضى منه العجب في كتابيه (شرح منازل السائرين) و (مفتاح دار السعادة) وغيرهما فمما احتج به في مفتاح دار السعادة قوله تعالى (أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون) فدل على ان هذا حكم بشيء قبيح يتنزه الله عنه فأنكره من جهة قبحه في نفسه لا من جهة كونه انه لا يكون • ومن هذا انكاره تعالى على من جوز أن يترك عباده سدى لا يأمرهم ولا ينهاهم ولا يثيبهم ولا يعاقبهم وان هذا الحسبان باطل والله متعال عنه لمنافاته لحكمته فقال تعالى (أيحسب الانسان ان يترك سدى) فأنكر سبحانه على من زعم انه يترك سدى انكار من جعل في العقل استقباح ذلك واستهجانه وانه لا يليق ان ينسب ذلك الى أحكم الحاكمين ومثله قوله تعالى (أفحسبتم انما خلقناكم عبثا وانكم الينا لا ترجعون* فتعالى الله الملك الحق لا اله الا هو رب العرش الكريم) فنزه نفسه سبحانه وباعدها عن هذا الحسبان وانه متعال عنه فلا يليق به لقبحه ومنافاته الحكمة وهذا يدل على اثبات المعاد بالعقل كما يدل على اثباته بالسمع • ثم ان ابن القيم بسط القول ووسع العبارة في أزيد من عشرة كراريس ثم قال : الكلام هنا في مقامين أحدهما في التلازم بين الحسن والقبح العقليين وبين الايجاب والتحريم شاهدا وغائبا ، والثانى في انتفاء اللازم وثبوته ، فأما المقام الاول فلمثبتى الحسن والقبح فيه طريقان ، أحدهما ثبوت التلازم والقول باللازم، وهذا القول هو المعروف عن المعتزلة وعليه يناظرون وهو القول الذى نصب خصومهم

الخلاف معهم فيه ، والقول الثاني اثبات الحسن والقبح وأربابه يقـــولون باثباته ويصرحون بنفي الايجاب قبل الشرع على العبد وينفي ايجاب شيء على الله البتة كما صرح به كثير من الحنفية والحنابلة كأبي الخطاب وغيره والشافعية كسعد بن علي الزنجاني الامام المشهور وغيره ، ولهؤلاء في نفي الايجاب العقلي في المعرفة بالله وثبوته خلاف • قال : فالاقوال أربعة لا مزيد عليها (أحدها) نفي الحسن والقبح ونفي الايجاب العقلي في العمليات دون العلميات كالمعرفة وهذا اختيار أبي الخطاب وغيره فعرف انه لا تلازم بين الحسن والقبح وبين الايجاب والتحريم العقليين فهذا أحد المقامين •

(وأما المقام الثاني) وهو انتفاء اللازم وثبوته فللناس فيـــه ههنا ثلاث طرق ، أحدها التزام ذلك والقول بالوجوب والتحريم العقليين شاهدا وغائبا وهذا قول المعتزلة ، وهؤلاء يقولون : يترتب الوجوب شاهدا ويترتب المدح والذم عليه • وأما الصفات فلهم فيها اختلاف وتفصيل فمن أثبتـــه منهم يقولون ان العذاب الثابت بعد الايجاب الشرعي نوع آخر غير العذاب الثابت على الايجاب العقلي وبذلك يجيبون عن النصوص النافية للعذاب قبل البعثة وأما الايجاب والتحريم العقليان غائبا فهم مصرحون بهما ويفسرون ذلك باللزوم الذي أوجبته حكمته وانه يستحيل عليه خلافه كما يستحيل عليه الحاجة والنوم والتعب واللغوب فهذا معنى الوجوب والامتناع في حق الله تعالى عندهم فهو وجوب اقتضته ذاته وحكمته وامتناع مستحيل عليه الاتصاف به لمنافاته كماله وغناه ، قالوا وهذا في الافعال نظير ما يقول أهل السنة في الصفات انه يجب له كذا ويمتنع عليه كذا فكما ان ذاك وجوب وامتناع ذاتي يستحيل عليـــه خلافه فهكذا ما تقتضيه حكمته وتأباه يستحيل عليه الاخلال به وان كان مقدورا له لكنه لا يخل به لكمال حكمته وعلمه وغناه •

(الفرقة الثانية) منعت ذلك جملة وأحالت القول به وجوزت على الرب تعالى كل شيء ممكن وردت الاحالة والامتناع في أفعاله تعالى الى غير الممكن من المحالات كالجمع بين النقيضين وبابه فقابلوا المعتزلة أشد مقابلة واقتسما طرفي الافراط والتفريط ورد هؤلاء الوجوب والتحـــريم الذي جاءت به النصوص الى مجرد صدق الخبر فما أخبر أنه يكون فهو واجب لتصديق

خبره وما أخبر أنه لا يكون فهو ممتنع لتصديق خبره ، والتحريم عندهم راجع الى مطابقة العلم لمعلومه والمخبر لخبره ، وقد يفسرون التحـــريم بالامتناع عقلا كتحريم الظلم على نفســه فانهم يفسرونه بالمستحيل لذاته كالجمع بين النقيضين ، وليس عندهم في المقدور شيء هو ظلم يتنزه الله عنه مع قدرته عليه وحكمته وعدله فهذا قول الاشعرية ومن وافقهم •

(الفرقة الثالثة) هم الوسط بين هاتين الفرقتين فان الفرقة الاولى أوجبت على الله شريعة بعقولها حرمت عليه وأوجبت مالم يحرمه على نفســه ولم يوجبه على نفسه ، والفرقة الثانية جوزت عليه ما يتعالى ويتنزه عنه لمنـافاته حكمته وكماله ، والفرقة الوسط أثبتت له ما أثبته لنفسه من الايجـــاب والتحريم الذى هو مقتضى أسمائه وصفاته الذى لا يليق به نسبته الى ضده لانه موجب كماله وحكمته وعدله ولم تدخله تحت شريعة وضعتها بعقولها كما فعلت الفرقة الاولى ولم تجوز عليه ما نزه نفسه عنه كما فعلت الفرقة الثانية ، قالت الفرقة الوسط قد أخبر الله تعالى انه حرم الظلم على نفسه كما قال على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم « يا عبادى انى حرمت الظلم عـلى نفسى » وقال (ولا يظلم ربك أحدا) وقال (وما ربك بظلام للعبيد) وقال (ولا تظلمون فتيلا) فاخبر بتحريمه على نفسه ونفيعن نفسه فعله وارادته، وللناس في تفسير هذا الظلم الذى حرمه على نفسه تعالى وتنزه عن فعـــله وارادته ثلاثة أقوال بحسب أصولهم وقواعدهم (أحدها) انه نظير الظـلم من الآدميين بعضهم لبعض فشبهوه في الافعال ما يحسن منها وما لا يحسن بعباده فضربوا له من قبل أنفسهم الامثال فصاروا بذلك مشبهة ممثلة فى الافعال وامتنعوا من اثبات المثل الا على الذى أثبته لنفســـه ثم ضربوا له الامثال ومثلوه في أفعاله بخلقه كما أن الجهمية المعطلة امتنعت من اثبات المثل الاعلى الذى أثبته لنفسه ثمضربوا له الامثال ومثلوه فيصفاته بالجمادات الناقصة بل بالمعدومات ، وأهل السنة نزهوه عن هذا وهذا وأثبتوا ما أثبته لنفسه من صفات الكمال ونعوت الجـلال ونزهوه فيها عن الشبيه والمثـال فأثبتوا له المثل الاعلى ولم يضربوا له الامثال فكانوا أسعد الناس بمعرفتـــه وأحقهم بولايته ومحبته وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء • ثم التزم أصحاب

هذا التفسير عنه من اللوازم الباطلة ما لا قبل لهم به فقالوا اذا أمر العبد ولم يعنه بجميع مقدوره تعالى من وجوه الاعانة فقد ظلمه ، والتزموا انه لا يقدر أن يهدى ضالا كما زعموا أنه لا يقدر أن يضل مهتديا ، وقالوا انه اذا أمر اثنين بأمر واحد وخص أحدهما باعانته على فعل المأمور كان ظالما ، وأنه اذا اشترك اثنان في ذنب يوجب العقاب فعاقب به أحدهما وعفا عن الآخر كان ظالما ، الى غير ذلك من اللوازم الباطلة التى جعلوا لأجلها ترك تسويته بين عباده في فضله واحسانه ظلما . فعارضهم أصحاب التفسير الثانى وقالوا : الظلم المنزه عنه من الامور الممتنعة لذاتها فلا يجوز أن يكون مقدورا له تعالى ولا انه تركه بمشيئته واختياره ، وانما هو من باب الجمع بين الضدين وجعل الجسم الواحد في مكانين وقلب القديم محدثا والمحدث قديما ونحو ذلك ، والا فكل ما يقدره الذهن وكان وجوده ممكنا والرب قادر عليه فليس بظلم سواء فعله أو لم يفعله ، وتلقى هذا القول عنهم طوائف من أهل العلم وفسروا الحديث به وأسندوا ذلك وقووه بآيات وآثار زعموا أنها تدل عليه كقوله تعالى (ان تعذبهم فانهم عبادك) يعنى لم تتصرف في غير ملكك بل انما عذبت من تملك وعلى هذا فجوزوا تعذيب كل عبد له ولو كان محسنا ولم يروا ذلك ظلما ، وبقوله تعالى (لا يسأل عما يفعل وهم يسئلون) وبقول النبى صلى الله عليه وسلم « ان الله لو عذب أهل سمواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم» وبما روى عن اياس بن معاوية قال : ما ناظرت بعقلى كله أحدا الا القدرية قلت لهم ما الظلم ؟ قالوا : ان تأخذ ما ليس لك وأن تتصرف فيما ليس لك . قلت : فلله كل شيء . والتزم هؤلاء عن هذا القول لوازم باطلة كقولهم ان الله تعالى يجوز عليه أن يعذب أنبياءه ورسله وملائكته وأولياءه وأهل طاعته ويخلدهم في العذاب الاليم ويكرم أعداءه من الكفار والمشركين والشياطين ويخصهم بجنته وكرامته وكلاهما عدل وجائز عليه وأنه يعلم أنه لا يفعل ذلك بمجرد خبره فصار ممتنعا لاخباره أنه لا يفعله لا لمنافاة حكمته ولا فرق بين الامرين بالنسبة اليه ولكن أراد هذا وأخبر به وأراد الآخر وأخبر به فوجب هذا لارادته وخبره وامتنع ضده لعدم ارادته واخباره بأنه لا يكون . والتزموا أيضا أنه يجوز

أن يعذب الاطفال الذين لا ذنب لهم أصلا ويخلدهم فى الجحيم وربما قالوا بوقوع ذلك • فأنكر على الطائفتين معا أصحاب التفسير الثالث وقالوا : الصواب الذى دلت عليه النصوص أن الظلم الذى حرمه الله على نفسه وتنزه عنه فعلا وارادة هو ما فسره به سلف الامة وأئمتها انه لا يحمل عليه سيئات غيره ولا يعذب بما لا تكتسب يداه ولم يكن سعى فيه ولا ينقص من حسناته فلا يجازى بها أو ببعضها اذا قارنها أو طرأ عليها ما يقتضى ابطالها أو اقتصاص المظلومين منها • وهذا الظلم الذى نفى الله تعالى خوفه عن العبد بقوله (ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما) قال السلف والمفسرون لا يخاف أن يحمل عليه سيئات غيره ولا ينقص من حسناته ، فهذا هو المعقول من الظلم ومن عدم خوفه ، وأما الجمع بين النقيضين وقلب القديم محدثا والمحدث قديما فمما يتنزه كلام آحاد العقلاء عن تسميته ظلما وعن نفى خوفه عن العبد فكيف بكلام رب العالمين • قالوا وأما استدلالكم بتلك النصوص الدالة على أنه سبحانه ان عذبهم فانهم عباده وانه غير ظالم وانه لا يسأل عما يفعل وان قضاءه فيهم عدل وبمناظرة اياس للقدرية فهذه النصوص وأمثالها كلها حق يجب القول بموجبها ولا تحرف معانيها والكل من عند الله ، ولكن أى دليل فيها يدل على انه يجوز عليه تعالى ان يعذب أهل طاعته وينعم أهل معصيته ويعذب بغير جرم ويحرم المحسن جزاء عمله ونحو ذلك بل كلها متفقة متطابقة دالة على كمال القدرة وكمال العدل والحكمة فالنصوص التى ذكرناها تقتضى كمال عدله وحكمته وغناه ووضعه العقوبة والثواب مواضعهما وانه لم يعدل بهما عن مسببهما والنصوص التى ذكرتموها تقتضى كمال قدرته وانفراده بالربوبية والحكم وانه ليس فوقه آمر ولا ناه يتعقب أفعاله بسؤال ، وانه لو عذب أهل سمواته وأرضه لكان ذلك تعذيبا لحقه عليهم وكانوا اذ ذاك مستحقين للعذاب لان أعمالهم لا تفى بنجاتهم كما قال صلى الله عليه وسلم « لن ينجى أحدا منكم عمله » قالوا ولا أنت يا رسول الله قال « ولا أنا الا أن يتغمدنى الله برحمة منه وفضل » فرحمته لهم ليست فى مقابلة أعمالهم ولا هى ثمنا لها فانها خير منها كما قال في الحديث نفسه « ولو رحمهم لكانت

رحمته لهم خيرا من أعمالهم » فجمع بين الامرين في الحديث انه لو عذبهم لعذبهم باستحقاقهم ولم يكن ظالما لهم وانه لو رحمهم لكان ذلك مجرد فضله وكرمه لا بأعمالهم اذ رحمته خير لهم من أعمالهم فطاعات العبد[١] كلها لا تكون في مقابلة نعم الله عليهم ولا مساوية لها بل ولا للقليل منها فكيف يستحقون بها على الله النجاة وطاعة المطيع لا نسبة لها الى نعمة من نعم الله عليه فتبقى سائر النعم تتقاضاه شكرا والعبد لا يقوم بمقدوره الذى يجب لله عليه فجميع عباده تحت عفوه ورحمته وفضله فما نجا منهم أحد الا بعفوه ومغفرته ولا فاز بالجنة الا بفضله ورحمته واذا كانت هذه حال العباد فلو عذبهم لعذبهم وهو غير ظالم لهم لا من حيث كونه قادرا عليهم وهم ملك له بل لاستحقاقهم ولو رحمهم لكان ذلك بفضله لا بأعمالهم. ويأتي لهذا مزيد تحرير والله أعلم :

أفعال العباد خلق لله وكسب لهم

((أفعالنا مخلوقة لله — لكنها كسب لنا يالاهى))
((وكل ما يفعله العباد — من طاعة أو ضدها مراد))
((لربنا من غير ما اضطرار — منه لنا فافهم ولا تمار))

((أفعالنا)) معشر الخلق جميعها خيرها وشرها كبيرها وصغيرها ((مخلوقة)) ومصنوعة ((لله)) تعالى خلقها وأوجدها كما قال تعالى « ذلكم الله ربكم خالق كل شيء – وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم * والله خلقكم وما تعملون » وكقوله تعالى « لا اله الا هو خالق كل شيء فاعبدوه – و – هل من خالق غير الله » قال العلماء اتفق أئمة السلف قبل ظهور البدع والاهواء على أن الخالق هو الله لا سواه وان الحوادث كلها حادثة بقدرة الله تعالى من غير فرق بين ما يتعلق بقدرة العبد وبين ما لا يتعلق بها فهى مقدورة بقدرة الله اختراعا وبقدرة العبد على وجه آخر واليه الاشارة بقوله ((لكنها)) أى أفعالنا التى تصدر عنا في بادى الرأى ((كسب لنا)) معشر الخلق والكسب في اصطلاح المتكلمين ما وقع من الفاعل مقارنا لقدرة محدثة واختيار ، وقيل هو ما وجد بقدرة محدثة في المكتسب ، وقال العلامة ابن حمدان من علمائنا الكسب هو ما خلقه الله في محل قدرة المكتسب على وفق ارادته في كسبه ،

---

(١) الظاهر « العباد » .

وقال شيخ الاسلام ابن تيمية في (شرح الاصفهانية) فسروا الكسب بما قارن القدرة المحدثة في محلها ، ومجرد المقارنة لا يميز القدرة عن غيرها فان الفعل يقارن العلم والارادة وغير ذلك • قالوا والقدرة هى التمكن من التصرف وقيل سلامة البنية • وقال القاضى الامام من علمائنا خلق الشيء بقوله « كن » وهو قائم بالله غير بائن منه ومراده • وقال شيخ الاسلام ابن تيمية روح الله روحه فيما كتبه على حسن ارادة الله تعالى : الكسب عند القائل به عبارة عن اقتران المقدور بالقدرة الحادثة ، والخلق هو المقدور بالقدرة القديمة ، وقالوا أيضا الكسب هو الفعل القائم بمحل القدرة عليه ، والخلق هو الفعل الخارج عن محل القدرة عليه • وقوله ((يالاهى)) تكملة للبيت بالاتيان بالقافية واشارة الى الحث على المبادرة الى الدأب في الطاعة وعدم الخلود الى الراحة وقلب القلب عن اللهو واللعب يقال لها لهوا لعب كالتهى وألهاه ذلك والملاهي آلاته ، قال النسفى في عقائده كغيره من علماء السنة : وللعباد أفعال اختيارية يثابون بها ان كانت طاعة ويعاقبون عليها ان كانت معصية لا كما زعمت الجبرية انه لا فعل للعبد أصلا وان حركاته بمنزلة حركات الجمادات لا قدرة عليها ولا قصد ولا اختيار ، وهذا باطل لأنا نفرق بالضرورة بين حركة البطش وحركة الارتعاش ونعلم ان الاول باختياره دون الثانى ، ولأنه لو لم يكن للعبد فعل أصلا لما صح تكليف ولا يترتب استحقاق الثواب والعقاب على أفعاله ولا اسناد الافعال التى تقتضى سابقة القصد والاختيار اليه على سبيل الحقيقة مثل صلى وصام وكتب بخلاف مثل طال واسود لونه ، والنصوص القطعية تنفى ذلك كقوله تعالى «جزاء بما كانوا يعملون * فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر» الى غير ذلك • قال المحقق السعد التفتازاني : فان قيل بعد تعميم علم الله تعالى وارادته : الجبر لازم قطعا لانهما اما أن يتعلقا بوجود الفعل فيجب أو بعدمه فيمتنع • قلنا يعلم ويريد أن العبد يفعله أو يتركه باختياره فلا اشكال • فان قيل : فيكون فعله الاختيارى واجبا أو ممتنعا وهذا ينافى الاختيار • قلنا ممنوع فان الوجوب بالاختيار محقق للاختيار لا مناف ، وأيضا منقوض بأفعال البارى تعالى • فان قيل : لا معنى لكون العبد فاعلا بالاختيار الا كونه موجدا

لأفعاله بالقصد والارادة وقد سبق ان الله تعالى مستقل بخلق الافعال وايجادها ، ومعلوم ان المقدور الواحد لا يدخل تحت قدرتين مستقلتين •
قال التفتازاني : قلنا لا كلام في قوة هذا الكلام ومتانته الا أنه لما ثبت بالبرهان ان الخالق هو الله تعالى وبالضرورة ان لقدرة العبد وارادته مدخلا في بعض الافعال كحركة البطش دون البعض كحركة الارتعاش احتجنا في التفصى عن هذا المضيق الى القول بأن الله تعالى خالق والعبد كاسب وايجاد الله تعالى الفعل عقيب ذلك خلق والمقدور الواحد داخل تحت قدرتين لكن بجهتين مختلفتين فان الفعل مقدور الله بجهة الايجاد ومقدور العبد بجهة الكسب وهذا القدر من المعنى الضرورى وان لم نقدر على أزيد من ذلك فى تلخيص العبارة المفصحة عن تحقيق كون العبد (كاسبا ـ ١) بخلق الله تعالى وايجاده مع ما للعبد من القدرة والاختيار[٢] •

ومن جملة ما لهم في الفرق بين الكسب والخلق ان الكسب وقع بآلة والخلق لا بآلة ، والكسب لا يصح انفراد القادر به والخلق يصح • فان قيل : قد أثبتم ما نسبتم الى المعتزلة من اثبات الشركة ، قلنا الشركة ان يجتمع اثنان على شيء وينفرد كل منهما بما هو له دون الآخر كشركاء القرية والمحلة كما اذا جعل العبد خالقا لأفعاله والصانع خالقا لسائر الاعراض والاجسام بخلاف ما اذا أضيف أمر الى شيئين بجهتين مختلفتين كالارض تكون ملكا لله تعالى بجهة التخليق وللعباد بجهة ثبوت التصرف وكفعل العبد ينسب الى الله تعالى بجهة الخلق والى العبد بجهة الكسب • فان قيل فكيف كان كسب القبيح قبيحا سفها موجبا لاستحقاق الذم بخلاف خلقه ؟ قلنا لأنه قد ثبت ان الخالق حكيم لا يخلق شيئا الا وله عاقبة حميدة وان لم نطلع عليها فجزمنا بأن ما نستقبحه من الافعال قد يكون له فيها حكم ومصالح كما في خلق الاجسام الخبيثة الضارة المؤلمة بخلاف الكاسب فانه قد يفعل الحسن وقد

---

(١) من مخ • (٢) نقل من خط العلامة الشيخ عبد الرحمن بن سعدى رحمه الله على هامش نسخة ما لفظه « لا يحتاج الى ما ذكره التفتازانى • فان المخلص من هذه الشبه يعرف ببداهة العقل والشرع فانه من المعلوم أن الله تعالى خالق للعباد ولجميع صفاتهم التى من جملتها القدرة والارادة اللذين بهما يوجد العبد جميع أفعاله وخالق السبب التام • خالق لمسببه فان الله الخالق للقوى التى فى العبد ، والعبد هو الفاعل حقيقة لأفعاله بالقوة التى أعطاه اياها خالقه • اهـ •

يفعل القبيح فجعلنا كسبه للقبيح مع ورود النهي عنه قبيحا سفها موجبا لاستحقاق الذم والعقاب ((وكل ما)) أى فعل أو الذى ((يفعله العباد من طاعة)) وهي ما تكون متعلق المدح في العاجل والثواب في الأجل ((أو)) أى وكل ما يفعلونه من ((ضدها)) أى ضد الطاعة وهى المعصية يعنى ما فيه ذم في العاجل والعقاب أو اللوم في الآجل ((مراد لربنا)) تعالى أى داخل تحت ارادته ومشيئته[1] فالله تعالى خالق كل شيء وربه ومليكه

(١) فى تنبيه ابن سحمان ص ٦٠ فى الكلام على هذا الموضع ما لفظه :
« اعلم وفقك الله ان الشارح والناظم أطلقا لفظ الارادة من غير تفصيل ولا بيان وهو كلام مجمل موهم من جنس ما تقدم من الالفاظ التى نبهنا عليها من كلام أهل البدع فان الظاهر من هذا اللفظ الذى أطلقه الشارح والناظم انما يراد به الارادة الكونية القدرية وفى المسألة تفصيل قد ذكره المحققون من أهل العلم لان الارادة ارادتان ارادة كونية قدرية وارادة دينية شرعية .

وبيان ذلك بما ذكره شيخ الاسلام ابن تيمية قدس الله روحه فى منهاج السنة حيث قال (الوجه الثالث) طريقة الائمة الفقهاء وأهل الحديث وكثير من أهل النظر وغيرهم ان الارادة فى كتاب الله نوعان : ارادة تتعلق بالامر وارادة تتعلق بالخلق ، فالارادة المتعلقة بالامر أن يريد من العبد فعل ما أمر به ، وأما ارادة الخلق فان يريد ما يفعله هو ، فارادة الامر هى المتضمنة للمحبة والرضا وهي الارادة الدينية ، والارادة المتعلقة بالخلق هى المشيئة وهى الارادة الكونية القدرية ، فالاولى كقوله تعالى (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) وقوله (يريد الله ليبين لكم) الى قوله (يريد أن يخفف عنكم) وقوله (مايريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم) الآية وقوله (انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت) الآية والثانية كقوله تعالى (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا) وقوله (ولا ينفعكم نصحى ان أردت أن أنصح لكم ان كان الله يريد أن يغويكم) ومن هذا النوع قول المسلمين : ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ومن الاول كقولهم لمن يفعل القبائح هذا يفعل ما لا يريده الله منه فاذا كان كذلك فالكفر والفسوق والعصيان ليس مرادا للرب عز وجل بالاعتبار الاول والطاعة موافقة لتلك الارادة وموافقة للامر المستلزم لتلك الارادة فأما موافقة مجرد النوع الثانى فلا يكون به مطيعا وحينئذ فالنبى يقول له ان الله يبغض الكفر ولا يحبه ولا يرضاه لك أن تفعله ولا يريده بهذا الاعتبار والنبى صلى الله عليه وسلم يأمره بالايمان الذى يحبه الله ويرضاه له ويريده بهذا الاعتبار . ثم ذكر كلاما طويلا فى منهاج السنة فى الجزء الثانى من المجلد الاول فى صفحة اثنين وعشرين فمن أراد الوقوف عليه فليراجعه فى محله .

وقال أيضا رحمه الله تعالى فى موضع آخر وقد قسم الارادة أربعة أقسام فقال رحمه الله : (الاول) ما تعلقت به الارادتان وهو ما وقع فى

ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن وهو على كل شيء قدير وهو تعالى يحب المحسنين والمتقين ويرضى عن السابقين الاولين من المهاجرين والانصار والذين اتبعوهم باحسان ولا يحب الفساد ولا يرضى لعباده الكفر ومع كونه تعالى خالق كل شيء وربه ومليكه فرق بين المخلوقات وميز بين أعيانها وأفعالها كما قال « أفنجعل المسلمين كالمجرمين * أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون * أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الارض أم نجعل المتقين كالفجار » وقال تعالى (وما يستوى الاعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور وما يستوى الاحياء ولا الاموات) الى غير ذلك من الآيات مما يبين الفرق بين المخلوقات وانقسام الخلق الى شقي وسعيد كما قال تعالى (هو الذى خلقكم فمنكم كافر

الوجود من الاعمال الصالحة فان الله تعالى أرادها ارادة دين وشرع فأمر به وأحبه ورضيه وأراده ارادة كون فوقع ولولا ذلك لما كان (الثاني) ما تعلقت به الارادة الدينية فقط وهو ما أمر الله به من الاعمال الصالحة فعصى ذلك الامر الكفار والفجار فتلك كلها ارادة دين وهو يحبها ويرضاها لو وقعت ولم تقع (الثالث) ما تعلقت به الارادة الكونية فقط وهو ما قدره وشاءه من الحوادث التى لم يأمر بها كالمباحات والمعاصى فانه لم يأمر بها ولم يرضها ولم يحبها اذ هو لا يأمر بالفحشاء ولا يرضى لعباده الكفر ولولا مشيئته وقدرته وخلقه لما كانت ولما وجدت فان ما شاء الله كان ومالم يشأ لم يكن (الرابع) من أقسام الارادة الذى لم تتعلق به هذه الارادة ولا هذه فهذا مالم يكن من أنواع المباحات والمعاصى . انتهى .

اذا تبين لك هذا فاعلم ان قول الناظم والشارح يوافق ما قالته القدرية الجبرية حين ردوا ما قالته القدرية النفاة لما أنكروا القدر وزعموا أن الامر أنف فقابلهم أولئك بالقول بالجبر وانهم لا يخرجون عن قدره وقضائه نظرا منهم الى أن الامر كائن بمشيئة الله وقدره وان ما شاء كان ومالم يشأ لم يكن وانه تعالى خالق كل شيء وربه ومليكه ولا يكون فى ملكه شيء الا بقدرته وخلقه ومشيئته كما قال تعالى « أنا كل شيء خلقنا بقدر ــ وما كانوا ليؤمنوا الا أن يشاء الله ــ ولو شاء ربك ما فعلوه ــ وما تشاءون الا أن يشاء الله » ونحو ذلك من الآيات ولا ريب أن هذا أصل عظيم من أصول الايمان لا بد منه فى حصول الايمان ، وبانكاره ضلت القدرية النفاة وخالفوا جميع الصحابة وأئمة الاسلام لكن لا بد معه من الايمان بالارادة الشرعية الدينية التى نزلت بها الكتب الايمانية ودلت عليها النصوص النبوية ، وأئمة المسلمين قد أثبتوا هذه وهذه وذكروا الجمع بينهما وآمنوا بكل من الاصلين فتفطن فهذا الموضع يزيل عنك اشكالات كثيرة والله سبحانه وتعالى أعلم .

ومنكم مؤمن) وقال تعالى (فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة) ونظائر هذا في القرآن كثير ((من غير ما)) زائدة لتأكيد النفى ((اضطرار)) افتعال من الضر وأصله مضترر[1] فأدغمت الراء وقلبت التاء طاء لاجل الضاد أى من غير الجاء وجبر واكراه فالحق سبحانه خلق الانسان من صلصال كالفخار وصرفه في ما شاء من توبة وأصرار وحوبة واستغفار وثنى عنانه الى مراداته بقوة واقتدار من غير اكراه ولا اجبار ولا اضطهاد ولا اضطرار بل خلق له قدرة ونوع اختيار فيفعل الفعل ويوقعه باذن القادر الجبار ، وقوله ((منه)) أى من غير اضطرار من الله تعالى ((لنا)) معشر العباد بل خلق فينا قدرة وأقدرنا على ايقاع أفعالنا بالاذن منه والتمكين لنا من التوصل الى امتثال الاوامر والانكفاف عن مواقع الزواجر فلقدرة العبد تأثير في ايجاد فعله لا بالاستقلال والاستبداد بل بالاعانة والاذن والتمكن[2] من الفاعل المختار الجواد ((فافهم)) فهم اذعان وتحقيق وتحرير وتدقيق يقال فهم الشيء اذا علمه وعرفه بقلبه ((ولا تمارى ـ ٣)) في علمك ولا تجارى[3] في فهمك بل كن مع الحق حيث كان ولا تغتر بنحاتة الافهام وزبالة الاذهان فما ثم الا النص الصريح والنقل الصحيح دون المحال وما بعد الحق الا الضلال فلا تكون امعة في هذا الباب وتخلد الى الدعة فيحيق بك العذاب ، والمراء الجدال والمماراة المجادلة على مذهب الشك والريبة ويقال للمناظرة مماراة لان كل واحد يستخرج ما عند صاحبه ويمتريه كما يمترى الحالب اللبن من الضرع وروى أبو داود وابن حبان في صحيحه من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « المراء في القرآن كفر» ورواه الطبرانى وغيره من حديث زيد بن ثابت رضى الله عنه . قال في النهاية قيل أراد المراء والجدال في الآيات التى فيها ذكر القدر ونحوه من المعانى على مذهب أهل الكلام وأصحاب الاهواء والآراء دون ما تضمنته من الاحكام وأبواب الحلال والحرام فان ذلك قد جرى بين الصحابة فمن بعدهم

---

(١) هذا أصل كلمة مضطر . فأما اضطرار فأصلها اضترار .

(٢) الظاهر « والتمكين » .

(٣) هكذا أثبت الياء فى الاصلين وهو صحيح على أن تكون الواو حالية ولا نافية .

من العلماء وذلك فيما يكون الغرض منه والباعث عليه ظهور الحق ليتبع دون الغلبة[1] وروى أبو داود والترمذى واللفظ له وابن ماجه والبيهقى وحسنه الترمذى من حديث أبى امامة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من ترك المراء وهو مبطل بنى له بيت فى ربض الجنة ومن تركه وهو محق بنى له في وسطها ومن حسن خلقه بنى له في أعلاها » ورواه الطبرانى في الاوسط من حديث ابن عمر رضى الله عنهما ولفظه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وهو محق وبيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وهو مازح وبيت في أعلى الجنة لمن حسنت سريرته » وربض الجنة بفتح الراء والباء الموحدة وبالضاد المعجمة ما حولها .

★ ★ ★

وهذا المقام زلت فيه أقدام وضلت فيه طوائف من أهل الكلام والتصوف وصاروا الى ما هو شر من قول المعتزلة ونحوهم . وحاصل ذلك ان الناس انقسموا الى طرفي تفريط وافراط ووسط ، أما المفرطون فالقدرية يعظمون الامر والنهى والوعد والوعيد وطاعة الله ورسوله ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر لكن ضلوا في القدر واعتقدوا أنهم اذا أثبتوا مشيئة عامة وقدرة تامة وخلقا متناولا لكل شيء لزم من ذلك القدح في عدل الرب تعالى وحكمته ، وغلطوا في ذلك ، والقدرية متفقون على أن العبد هو المحدث للمعصية كما هو المحدث للطاعة وعندهم ان الله تعالى ما أحدث هذا ولا هذا بل أمر بالطاعة ونهى عن المعصية وليس عندهم لله نعمة على عباده المؤمنين في الدين الا وقد أنعم بمثلها على الكفار فعندهم ان على بن أبى طالب رضى الله عنه وأبا لهب مستويان في نعمة الله الدينية اذ كل منهما أرسل اليه الرسول وأقدر على الفعل لكن هذا فعل الايمان بنفسه من غير أن يخصه بنعمة آمن بها وهذا فعل الكفر بنفسه من غير أن يفضل الله عليه ذلك المؤمن ولا خصه بنعمة آمن لأجلها ، وعندهم ان الله تعالى حبب الايمان الى الكفار كأبى لهب وأمثاله كما حببه للمؤمنين كعلى رضى الله عنه وأمثاله

(١) قال مصحح مط : ان مذكرات الصحابة ومراجعاتهم فى الفهم لم تكن مراء وكانوا يطلقون لفظ المراء على الجدل لتأييد الرأى واتباع الهوى :

وزينه في قلوب الطائفتين وكره الـكفر والفسوق والعصيان اليهما بالسواء لكن هؤلاء كرهوا ما كرهه الله اليهم بغير نعمة خصهم بها وهؤلاء لم يكرهوا ما كرهه الله اليهم • قال شيخ الاسلام ابن تيمية روح الله روحه : من توهم منهم أو من نقل عنهم أن الطاعة من الله والمعصية من العبد فهو جاهل بمذهبهم فان هذا لم يقله أحد من علماء القدرية ولا يمكن أن يقولوه فان أصل قولهم ان فعل العبد للطاعة كفعله للمعصية كلتاهما فعله بقدرة تحصل له من غير أن يخصه الله تعالى بارادة خلقها فيه تختص بأحدهما ولا قوة جعلها فيه تختص بأحدهما فمن احتج منهم بقوله تعالي «ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك » على مذهبهم كان جاهلا بمذهبه وكانت الآية الكريمة حجة عليهم لالهم لانه تعالى قال «قل كل من عند الله» وعندهم ليس الحسنات المفعولة ولا السيئات المفعولة من عند الله بل كلاهما من العبد ، والله سبحانه وتعالى ذكر هذه الآية الكريمة ردا على من يقول الحسنة من الله والسيئة من العبد قال ولم يقل أحد من الناس ان الحسنة المفعولة من الله والسيئة المفعولة من العبد • قال شيخ الاسـلام في شرح الاصفهانية : وأثبتت القدرية من المعتزلة ونحوهم ما في الحيوان من القدرة والاختيار والافعال دون سائر القوى والطبائع والافعال التى فيه أو في غيره من الاجسام وغلوا في أفعال الحيوان حتى جعلوها تحدث بلا سبب محدث لها كما زعمه الفلاسفة في الحركة الفلكية وجعل أكثرهم ما يحدث بسبب منه ومن غيره فعلا يسمونها الافعال المتولدة كالشبع عن الاكل والرى عن الشرب وخروج السهم عن النزع وحصول الموت عن الضرب ونحو ذلك ، وهؤلاء القدرية تارة يثبتون حادثا بلا محدث وممكنا يرجح وجوده على عدمه بلا مرجح كحدوث فعل الحيوان وتارة يضيفون الحادث الى بعض أسبابه دون سائر أسبابه كاضافة المتولدات الى فعل الانسان دون غيره وتارة ينكرون الاسباب كانكارهم ما في الاحسام من القوة الطبيعيـة غير الارادية والاسباب ثابتة وهى حادثة بأحداث الله تعالى وهى مفتقرة الى أسباب أخر ولها موانع ، وهؤلاء ينفون بعضها ويجعلون بعضها حادثا بغير أحداث الله تعالى ويجعلون ذلك المحدث مستقلا لا يفتقر الى مشارك ، قال شيخ الاسلام

قدس الله روحه : وقول هؤلاء القدرية شر من قول الجبرية من بعض الوجوه فان قول الجبرية كما يأتي يتضمن ترجيح أحد المتماثلين بلا مرجح وحدوث الحوادث بلا سبب أصلا وقول القدرية يتضمن ذلك ويزيد عليه بأنه يتضمن حدوث جميع الحوادث بلا محدث أصلا ويتضمن اضافتهم الحوادث الى ما لا يعلم ثبوته بل يعلم انتفاؤه من الاسباب ويتضمن انهم يجعلون السبب مستقلا بالاحداث مع افتقاره الى شريك يعاونه ومانع يعارضه وافتقاره الى محدث يحدثه فلا يثبتون لا محدثه ولا شريكه ولا مانعه بل يضيفون الى السبب المحدث الذى له شركاء وموانع وحصول الاثر به موقوف على فعل الله تعالى فيضيفون اليه مع هذا ما هو مخلوق للرب الذى لا شريك له ولا ضد له ولا رب سواه ولهذا كان الحاد هؤلاء ظاهرا عند أهل الملة بخلاف الاولين فانهم معدودون من أهل البدع • قال وهذا المقام من أعظم المقامات التى اضطرب فيها مبتدعة المتكلمين وملاحدة الفلاسفة حتى ان الرجل الواحد يصنف الكتب المتعددة فينصر قول هؤلاء في كتاب كما يقع في كتب الرازى والآمدى وأبى حامد وغيرهم •

(تنبيهات)

أول من تكلم فى القدر

(الأول) أول من تكلم في القدر معبد الجهنى وكان أولا يجلس الى الحسن البصرى ثم سلك أهل البصرة بعده مسلكه لما رأوا عمرو بن عبيد ينتحله ، وقيل بل أول من تكلم فيه معبد بن عبد الله بن عويمر قاله السمعانى وبعض علماء الاشاعرة وغيرهم ، وقال شيخ الاسلام ابن تيمية روح الله روحه في كتابه شرح الايمان : أول من ابتدعه بالعراق رجل من أهل البصرة يقال له سيسويه من أبناء المجوس وتلقاه عنه معبد الجهنى • وقال العلامة الطوفى في شرح تائية شيخ الاسلام ابن تيمية قدس الله روحه : كان أول من تكلم في القدر بالبصرة سوسن رجل من أبناء المجوس ثم معبد الجهنى وأخذ غيلان عن معبد ، ويقال أول ما حدث في الحجاز لما احترقت الكعبة فقال رجل احترقت بقدر الله تعالى فقال آخر لم يقدر الله هذا • ولم يكن على عهد الخلفاء الراشدين أحد ينكر القدر فلما ابتدع هؤلاء التكذيب بالقدر رد عليهم من بقى من الصحابة كعبد الله بن عمر وعبد الله

ابن عباس وواثلة بن الاسقع رضى الله عنهم وكان أكثره بالبصرة والشام وقليل منه بالحجاز فأكثر كلام السلف في ذم هؤلاء القدرية ، ولهذا قال وكيع بن الجراح : القدرية يقولون الامر مستقبل وان الله لم يقدر الكتابة والاعمال . والمرجئة يقولون : القول يجزى عن العمل . والجهمية يقولون المعرفة تجزى عن القول والعمل ، قال وكيع : هو كله كفر . قال شيخ الاسلام ولكن لما اشتهر الكلام في القدر ودخل فيه كثير من أهل النظر والعبادة صار جمهور القدرية يقرون بتقدم العلم وانما ينكرون عموم المشيئة والخلق وعن عمرو بن عبيد في انكار الكتاب المتقدم والسعادة روايتان .

القدرية فرقتان غلاة ودونهم

(الثانى) القدرية فرقتان (الاولى) تنكر ما ذكرنا من سبق العلم بالاشياء قبل وجودها وتزعم ان الله لم يقدر الامور ازلا ولم يتقدم علمه بها وانما يأتنفها علما حال وقوعها وكانوا يقولون ان الله أمر العباد ونهاهم وهو لا يعلم من يطيعه ممن يعصيه ولا من يدخل الجنة ممن يدخل النار حتى فعلوا ذلك فعلمه بعد ما فعلوه ، ولهذا قالوا الامر أنف أى مستأنف يقال روض أنف اذا كانت وافية لم ترع قبل ذلك يعنى انه يستأنف العمل السعيد والشقى ويبتدىء ذلك من غير أن يكون قد تقدم بذلك علم ولا كتاب فلا يكون العمل على ما قدر فيحتذى به حذو القدر بل هو أمر مستأنف مبتدأ والواحد من الناس اذا أراد أن يعمل عملا قدر في نفسه ما يريد عمله ثم يوقعه كما قدر فى نفسه وربما أظهر ما قدره في الخارج بصورته ويسمى هذا التقدير الذى في النفس خلقا ومنه قول الشاعر :

ولأنت تفرى ما خلقت وبعـ ـض الناس يخلق ثم لايفرى

يقول اذا قدرت أمرا أمضيته وأنفذته بخلاف غيرك فانه عاجز عن امضاء ما يقدره والرب تعالى أولى قال الله تعالى (انا كل شيء خلقناه بقدر) وهو سبحانه يعلم قبل ان يخلق الاشياء كل ما سيكون وهو يخلق بمشيئته فهو يعلمه ويريده وارادته تعالى قائمة بنفسه وقد يتكلم به ويخبر به كما في قوله تعالى (لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين) وقال (ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاما وأجل مسمى) وقال (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين * انهم لهم المنصورون * وان جندنا لهم لهم الغالبون) وقال (ولقد

آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ، ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم) الآية وهو سبحانه كتب ما يقدره فيما يقدره فيه كما قال تعالى (ألم تر ان الله يعلم ما في السماء والارض ان ذلك في كتاب ان ذلك على الله يسير) قال ابن عباس رضى الله عنهما ان الله تعـالى خلق الخلق وعلم ما هم عاملون ثم قال لعلمه كن كتابا فكان كتابا ثم أنزل تصديق ذلك في هذه الآية وفي الآية الاخرى (ما أصاب من مصيبة في الارض ولا فى أنفسكم الا في كتاب من قبل ان نبرأها ان ذلك على الله يسير) قال العلماء : والمنكرون لهذا انقرضوا وهم الذين كفرهم عليه الامام مالك والامام الشافعى والامام أحمد وغيرهم من الائمة رضى الله عنهم وهم الذين قال فيهم الشافعى ان سلم القدرية العلم خصموا • يعنى يقال لهم أيجوز ان يقع في الوجود خلاف ما تضمنه العلم ؟ فان منعوا وافقوا أهل السنة وان أجازوا لزمهم نسـبة الجهل الى الله تعالى تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا • وقد قال الامام أحمـد رضى الله عنه في قوله تعالى (واذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح) هذه حجة على القدرية • قال الامام المحقق ابن القيم في (البدائع) أراد القدرية المنكرة للعلم بالاشياء قبل كونها وهم غلاتها الذين كفرهم السلف والا فلا تعرض فيها لمسألة خلق الافعال • انتهى • قال القرطبى قد انقرض هذا المذهب فلا نعرف أحدا ينسب اليه من المتأخرين (الثانية) من فرقتى القدرية المقرون بالعلم ، قال الحافظ ابن حجر فى فتح البارى :القدريةاليوم مطبقون على أن الله عالم بأفعال العباد قبل وقوعها وانما خالفوا السلف في زعمهم بأن أفعال العباد مقدورة لهم وواقعة منهم على جهه الاستقلال وهو مع كونه مذهبا باطلا أخف من المذهب الاول ، قال : والمتأخرون منهـم أنكروا تعلق الارادة بأفعال العباد فرارا من تعلق القديم بالمحدث • قـال شيخ‌الاسلام ابن تيمية قدس‌الله روحه : وأما هؤلاء ـ يعنى الفرقةالثانية ـ فانهم مبتدعون ضالون لكنهم ليسوا بمنزلة أولئك ، قال وفي هؤلاء خلق كثير من العلماء والعباد كتب عنهم وأخرج البخارى ومسلم لجماعة منهم لكن من كان داعية لم يخرجوا له وهذا مذهب فقهاء الحديث كالامام أحمد وغيره ومن كان داعية الى بدعة فانه يستحق العقوبة لدفع ضرره عن الناس

وان كان في الباطن مجتهدا فأقل عقوبته أن يهجر فلا يكون له مرتبة في الدين فلا يؤخذ عنه العلم ولا يستقضى ولا تقبل شهادته ونحوذلك،ولهذا لم يخرج أصحاب الصحيح لمن كان داعية ولكن رووا هم وسائر أهل العلم عن كثير ممن كان يرى في الباطن رأى القدرية والمرجئة والخــوارج والشيعة ، وقال الامام احمد : لو تركنا الرواية عن القدرية لتركنا أكثر أهل البصرة • قال شيخ الاسلام ابن تيمية برد الله مضجعه : هــذا لأن مسألة خلق أفعال العباد وارادة الكائنات مسألة مشكلة ولهذا القدرية من المعــتزلة وغيرهم أخطأوا فيها وقد أخطأ أيضا كثير ممن رد عليهم لأنهم سلكوا في ردهم عليهم مسلك جهم بن صفوان وأتباعه فنفوا حكمة الله في خلقه وأمره ونفوا رحمته بعباده ونفوا ما جعله سبحانه من الاسباب خلقا وأمرا وغير ذلك • وهؤلاء القدرية فرطوا غاية التفريط بحيث انهم نفواأن يكون الله تعالى خالقا لأفعال عباده فأثبتوا خالقا غيره مستقلا بالخلق والامر دونه تعالى الله عن ذلك وبالله التوفيق •

(الثالث) في بعض ما ورد في ذم القدرية من الآثار والاخبار وما رده عليهم من الصحابة الاخيار والائمة الابرار ، روى مسلم والنسائى وأبوداود والترمذى عن يحيى بن يعمر قال كان أول من قال في القدر بالبصرة معبد الجهنى فانطلقت أنا وحميد بن عبد الرحمن الحميرى حاجين أو معتمرين فقلنا لو لقينا أحدا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألناه عما يقول هؤلاء في القدر فوفق لنا عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما داخلا المسجد فاكتنفته أنا وصاحبي أحدنا عن يمينه والآخر عن شماله فظننت أن صاحبي سيكل الكلام الى فقلت أبا عبد الرحمن انه قد ظهر قبلنا ناس يقرؤون القرآن ويتفقدون [1] العلم -وذكر من شأنهم- وانهم يزعمون أن لا قدر وان الامر أنف ، فقال اذا لقيت أولئك فأخبرهم انى برىء منهــم وانهم براء منى ، والذى يحلف به عبد الله بن عمر لو أن لأحدهم مثل أحد ذهبا فأنفقه ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر - ثم ساق حديث جبريل عليه السلام وفيه «وتؤمن بالقدر خيره وشره - زاد فى رواية - وحلوه

---

(١) كذا والمحفوظ « يتقفرون » •

ومره » الحديث ،وفي رواية أبي داود عن يحيى بن يعمر وحميد بن عبدالرحمن قالا لقينا ابن عمر فذكرنا له القدر وما يقولون فيه فذكرا نحوه ، وزاد قال وسأله رجل من مزينة أو جهينة فقال يا رسول الله فيم نعمل ؟ في شيء خلا ومضى أو شيء مستأنف ؟ قال « في شيء خلا ومضى ـ فقال الرجل أو بعض القوم : ففيم العمل ؟ قال « ان أهل الجنة ميسرون لعمل أهل الجنة وان أهل النار ميسرون لعمل أهل النار » وعند أبي داود أيضا من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وأصله في الصحيحين وفيه قال يا محمد أخبرني عن الايمان قال « أن تؤمن بالله والملائكة والكتاب والنبيين وتؤمن بالقدر » قال فاذا فعلت ذلك فقد آمنت ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «نعم» قال صدقت . وأخرج الترمذي من حديث على بن أبي طالب رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يؤمن عبد حتى يؤمن بأربع يشهد أن لا اله الا الله واني محمد رسول الله بعثني بالحق ويؤمن بالموت ويؤمن بالبعث بعد الموت ويؤمن بالقدر » وفي صحيح مسلم عن أبي الاسود الدؤلي قال قال لي عمران بن حصين أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه شيء قضى عليهم ومضى عليهم من قدر قد سبق أو فيما يستقبلون به مما أتاهم به نبيهم ويثبت الحجة عليهم ؟ فقلت بل شيء قضى عليهم ومضى عليهم . قال فقال فلا يكون ظلما ؟ قال ففزعت من ذلك فزعا شديدا وقلت : كل شيء خلق الله وملك الله فلا يسئل عما يفعل وهم يسئلون . فقال رحمك الله اني لم أرد بما سألتك الا لأحزر عقلك ، ان رجلين من مزينة أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالا يا رسول الله أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون أشيء قضى عليهم ومضى فيهم من قدر قد سبق أو فيما يستقبلون مما أتاهم به نبيهم وثبتت الحجة عليهم ؟ فقال « لا بل شيء قضى عليهم ومضى فيهم . وتصديق ذلك في كتاب الله تعالى (ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها) . وفي أوسط الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعا « القدر نظام التوحيد فمن وحد الله وآمن بالقدر فقد استمسك بالعروة الوثقى » وأخرج أبو نعيم في الحلية من حديث ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعا « القدر سر الله » وفي الجامع الكبير عن الحارث قال جاء

رجل الى أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه فقال يا أمير المؤمنين أخبرنى عن القدر ، قال : طريق مظلم لا تسلكه ، قال يا أمير المؤمنين أخبرنى عن القدر ، قال : بحر عميق لا تلجه ، قال يا أمير المؤمنين أخبرنى عن القدر ، قال : سر الله خفى عليك فلا تفشه ، قال يا أمير المؤمنين أخبرنى عن القدر - وساق الكلام في جواب السائل الى أن قال أيها السائل تقول لا حول ولا قوة الا بمن ؟ قال : الا بالله العلى العظيم ، قال أفتعلم مافى تفسيرها ؟ قال تعلمنى مما علمك الله يا أمير المؤمنين ، قال ان تفسيرها لا يقدر على طاعة الله ولا تكون له قوة في معصية الله في الامرين جميعا الا بالله ، أيها السائل ألك مع الله مشيئة أو فوق الله مشيئة أو دون الله مشيئة ؟ فان قلت ان لك دون الله مشيئة اكتفيت بها عن مشيئة الله ، وان زعمت ان لك فوق الله مشيئة فقد ادعيت ان قوتك ومشيئتك غالبتان على قوة الله ومشيئته ، وان زعمت أن لك مع الله مشيئة فقد ادعيت مع الله شركا في مشيئته - الاثر المروى بطوله • والاخبار والآثار في هذا الباب كثيرة جدا •

وأما ذم القدرية فقد أخرج أبو داود في سننه والحاكم في مستدركه عن أبى عبد الرحمن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « القدرية مجوس هذه الامة » ورواه الترمذى وحسنه وصححه الحاكم ، قال الحافظ ابن حجر ورجاله من رجال الصحيحين لكن ذكر الحافظ المنذرى ان فى سنده انقطاعا وقد أجاب عنه بأن أباالحسن ابن القطان الفاسى[1] الحافظ صحح سنده وقال ان أبا حازم عاصر ابن عمر وكان معه بالمدينة ومسلم يكتفى في الاتصال بالمعاصرة فهو صحيح على شرط مسلم • قلت وقد أخرج الحديث الامام الحافظ ابن الجوزى في كتابه الموضوعات من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ولفظه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ان لكل أمة مجوسا ومجوس هذه الامة القدرية فلا تعودوهم اذا مرضوا ولا تصلوا عليهم اذا ماتوا » رواه ابن عدى • وحكم عليه بالوضع وتعقبه الجلال السيوطى بأن جعفر بن الحارث الذى أعله به قد وثقه ابن عدى فقال لم أر فى أحاديثه حديثا منكرا أرجو أنه لا بأس

---

(١) فى الاصلين « القابسى » كذا •

به وقال البخاري حفظه سيىء يكتب حديثه • والحديث ورد بهذا اللفظ من حديث حذيفة أخرجه أبو داود ، وجابر بن عبد الله أخــرجه ابن ماجه ، وعبد الله بن عمر أخرجه الامام أحمد والبخاري في تاريخـــه والطبراني في الاوسط واللالكائي في السنة بأسانيد بعضها على شرط الصحيح، وسهل بن عبد الله أخرجه الطبراني في الأوسط واللالكائي أيضا وأنس أخرجه الطبراني ، وابن عباس أخرجه اللالكائي ، وورد عن عمر موقوفا أخرجه اللالكائي • وأقول قد روى الطـــبراني في الكبير وابن حبان في صحيحه والحاكم وقال صحيح الاسناد قال الحافظ المنذري ولا أعرف له علة عن أم المؤمنين عائشة الصديقة رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ستة لعنتهم ولعنهم كل نبي مجاب ، الزائد في كتاب الله عز وجل ، والمكذب بقدر الله ، والمتسلط على أمتي بالجبروت ليذل من أعز الله ويعز من أذل الله ، والمستحل حرمة الله ، والمستحل من عترتي ما حرم الله ، والتارك للسنة » وفي حديث أبي هريرة رضى الله عنه مرفوعا « تكون قـــدرية ثم تكون زنادقة ثم تكون[1] مجوس[2] وان لكل أمة مجوسا وان مجوس أمتي المكذبة بالقدر فان مرضوا فلا تعودوهم وان ماتوا فلا تشهدوهم ولا تتبعوا لهم جنازة » قال الخطابي انما جعلهم مجوسا لمضاهاة مذهبهم مذهب المجوس في قولهم بالاصلين وهما النور والظلمة يزعمون ان الخير من فعل النور والشر من فعل الظلمة فصاروا ثنوية وكذلك القـدرية يضيفون الخير الى الله والشر الى غيره والله تعالى خالق الامرين معا • وكذا قال ابن الاثير في جامع الاصول : القدرية في اجماع أهل السنة والجماعـة هم الذين يقولون ان الخير من الله والشر من الانسان وان الله لا يريد افعال العصاة وسموا بذلك لأنهم أثبتوا للعبد قدرة توجـد الفعل بانفرادها واستقلالها دون الله تعالى ونفوا ان تكون الاشياء بقدر الله وقضائه ، قال وهؤلاء مع ضلالتهم يضيفون الاسم الى مخالفهم من أهل الهـدى فيقولون أنتم القدرية حين تجعلون الاشياء جارية بقدر من الله وانكم أولى بهـذا

(١) في مط « تكونون » في المواضع الثلاثة وكذا كان في مخ فأصلح فيها « تكون » •

(٢) في الاصلين « مجوسا » •

الاسم منا لأنكم تثبتون القدر ونحن ننفيه ومثبته أحق بالنسبة اليه من نافيه فأنتم الداخلون تحت وعيد الحديث دوننا • فأجابهم المثبتون بأنكم أولى بذلك لانكم تثبتون القدر لأنفسكم ونحن ننفيه عن أنفسنا ومثبت الشيء لنفسه أولى بالنسبة اليه ممن نفاه عن نفسه ، وأيضا هذا الحديث يبطل ما قالوه فانه قال صلى الله عليه وسلم « القدرية مجوس هذه الامة » ومعنى ذلك انهم لمشابهتهم المجوس في مذهبهم وقولهم بالاسلين وهما النور والظلمة • وتقدم كلام شيخ الاسلام فلا يهمل وبالله التوفيق •

* * *

الجبرية

وأما المفرطون فالجبرية وهم الذين يزعمون انه لا فعل للعبد أصلا وان حركاته بمزلة حركات الجمادات لا قدرة له عليها ولا قصد ولا اختيار ، فاثبتوا ان الله تعالى خالق كل شيء وربه ومليكه وهذا جيد لكن نفوا تأثير الاسباب والحكم فى الجماد والحيوان وأنكروا أن يكون للحيوان من الانسان أو غيره فعل يفعله بقدرته ،وحقيقةقول هؤلاء ترجيح أحد المتماثلين بلا مرجح وحدوث الحوادث بلا سبب أصلا،قال شيخ الاسلام ابن تيمية قدس الله روحه : قابل القدرية قوم من العلماء والعباد وأهل الكلام والتصوف فأثبتوا القدر وآمنوا بأن الله خالق كل شيء وربه ومليكه وانه ما شاء كان ومالم يشأ لم يكن وهذا حسن ، لكنهم قصروا فى الامر والنهى والوعد والوعيد وأفرطوا حتى غلا بهم الامر الى الالحاد فصاروا من جنس المشركين الذين قالوا (لو شاء الله ما أشركنا ولا أباؤنا ولا حرمنا من شيء) قال فأولئك القدرية وان كانوا يشبهون المجوس من حيث انهم أثبتوا فاعلا لما اعتقدوه شرا غير الله سبحانه فهؤلاء شابهوا المشركين الذين قالوا (لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء) فالمشركون شر من المجوس لأن المجوس يقرون بالجزية باتفاق المسلمين حتى ذهب بعض العلماء الى حل نسائهم وطعامهم وأما المشركون فاتفقت الامة على تحريم نكاح نسائهم ، ومذهب الامام احمد فى المشهور عنه والشافعى وغيرهما أنهم لا يقرون بالجزية فجمهور العلماء على ان مشركى العرب لا يقرون بالجزية ، والمقصود أن من أثبت القدر واحتج به على ابطال الامر والنهى

فهو شر ممن أثبت الامر والنهى ولم يثبت القدر ، قال شيخ الاسلام : وهذا متفق عليه بين المسلمين وغيرهم من أهل الملل بل بين جميع الخلق فان من احتج بالقدر وشهد الربوبية العامة لجميع المخلوقات ولم يفرق بين المأمور والمحظور والمؤمن والكافر وأهل الطاعة وأهل المعصية لم يؤمن بأحد من الرسل ولا شيء من الكتب وكان عنده آدم وابليس سواء ونوح وقومه سواء وموسى وفرعون سواء والسابقون الاولون وكفار مكة سواء ، وهذا الضلال قد كثر في كثير من أهل التصوف والزهد والعبادة ولا سيما اذا قرنوا به توحيد أهل الكلام المثبتين للقدر والمشيئة من غير اثبات المحبة والبغض والرضا والسخط الذين يقولون : التوحيد هو توحيد الربوبية وأما الالهية فهى عندهم القدرة على الاختراع ، وعندهم مجرد الاقرار بأن الله رب كل شيء كاف لا (؟) يدعون التحقيق والفناء في التوحيد ويقولون ان هذا نهاية المعرفة وان صاحب هذا المقام لا يستحسن حسنه ولا يستقبح سيئة لشهوده الربوبية العامة والقيومية الشاملة ، وهذا الموضع وقع فيه من الشيوخ الكبار من شاء الله ولا حول ولا قوة الا بالله ، وغاية توحيد هؤلاء توحيد المشركين الذين كانوا يعبدون الاصنام الذين قال الله تعالى فيهم (قل لمن الارض ومن فيها ان كنتم تعلمون * سيقولون لله قل أفلا تذكرون) الآيات ونحوها فان هؤلاء المشركين كانوا مقرين بأن الله خالق السموات والارض وبيده ملكوت كل شيء وكانوا مقرين بالقدر وهو معروف عنهم في النظم والنثر ومع هذا فلما لم يكونوا يعبدون الله وحده لا شريك له بل عبدوا غيره كانوا مشركين شرا من اليهود والنصارى ، فمن كان غاية توحيده ومنتهى تحقيقه هذا التوحيد كان توحيده من توحيد المشركين • قال شيخ الاسلام ابن تيمية روح الله روحه وهذا المقام مقام وأي مقام زلت فيه أقدام وضلت فيه أفهام وبدل فيه دين الاسلام والتبس فيه أهل التوحيد بعباد الاصنام على من يدعي نهاية التوحيد والتحقيق والمعرفة والكلام ، ومعلوم عند كل من يؤمن بالله ورسوله ان المعتزلة والشيعة والقدرية المثبتين للامر والنهى والوعد والوعيد خير ممن يسوى بين المؤمن والكافر والبر والفاجر والنبى الصادق والمتنبى الكاذب وأولياء الله وأعدائه ، بل هم

أحق من المعتزلة بالذم كما قال الامام أبو محمد الخلال في كتاب السنة عن المروذى قال قلت لأبى عبد الله - يعنى الامام أحمد رضى الله عنه - رجل يقول ان الله أجبر العباد على المعاصى فقال هكذا لا نقول وأنكر ذلك وقال يضل الله من يشاء ويهدى من يشاء • وأنكر سفيان الثورى أيضا على من قال جبر وقال ان الله جبل العباد • وقال المروذى أراد قول النبى صلى الله عليه وسلم لأشج عبد القيس يعنى قوله « ان فيك لخلقين يحبهما الله تعالى الحلم والاناة » فقال أخلقين تخلقت بهما أم خلقين جبلت عليها ؟ فقال بل خلقين جبلت عليهما ، فقال «الحمد لله الذى جبلنى على خلقين يحبهما » وذكر عن أبى اسحاق الفزارى قال قال لى الاوزاعى أتانى رجلان فسألانى عن القدر فأحببت أن آتيك بهما تسمع كلامهما وتجيبهما قلت رحمك الله أنت أولى بالجواب قال فأتانى الاوزاعى ومعه الرجلان فقال تكلما فقالا قدم علينا أناس من أهل القدر فنازعونا في القدر ونازعناهم حتى بلغ بنا وبهم الجواب الى أن قلنا ان الله تعالى جبرنا على ما نهانا عنه وحال بيننا وبين ما أمرنا به ورزقنا ما حرم علينا • فقلت يا هؤلاء ان الذين أتوكم بما أتوكم به قد ابتدعوا بدعة وأحدثوا حدثا وانى أراكم قد خرجتم من البدعة الى مثل ما خرجوا اليه • فقال يعنى الاوزاعى أصبت وأحسنت يا أبا اسحاق • وذكر الخلال عن بقية بن الوليد قال سألت الزبيدى والاوزاعى عن الجبر فقال الزبيدى : أمر الله أعظم وقدرته أعظم من أن يجبر أو يعضل ولكن يقضى ويقدر ويخلق ويجبل عبده على ما أحب • وقال الاوزاعى ما أعرف للجبر أصلا من القرآن ولا السنة فأهاب أن أقول ذلك ولكن القضاء والقدر والخلق والجبل فهذا يعرف في القرآن والحديث • قال شيخ الاسلام أدخل الخلال وغيره من علماء الاسلام القائلين بالجبر في مسمى القدرية وان كانوا لا يحتجون بالقدر على المعاصى فكيف بمن يحتج به على المعاصى ويدخل فى ذم أهل العلم من يحتج بالقدر على اسقاط الأمر والنهى أعظم مما يدخل فيه المنكر له فان ضلال هذا أعظم • قال شيخ الاسلام : ولهذا قرنت القدرية بالمرجئة في كلام غير واحد من السلف وروى في ذلك حديث مرفوع • قلت وهو ما روى من حديث أبى سعيد

الخدرى رضى الله عنه مرفوعا « ان الله لعن أربعة على لسان سبعين نبيا - قلنا من هم يا رسول الله ؟ قال «القدرية والجهمية والمرجئة والروافض» • الحديث وفيه قلنا يارسول الله ما المرجئة قال الذين يقولون الايمان قول بلا عمل • ذكره ابن الجوزى في الموضوعات • ومن حديث أنس رضى الله عنه مرفوعا : « المرجئة والقدرية والروافض والخوارج يسلب منهم ربع التوحيد فسيلقون الله كفارا خالدين مخلدين في النار » أخرجه ابن حبان وقال فيه محمد بن يحيى بن رزين دجال يضع الحديث - وذكره ابن الجوزى في الموضوعات • لأن كلا من هاتين البدعتين تفسد الامر والنهى والوعد والوعيد فالارجاء يضعف الايمان بالوعيد ويهون أمر الفرائض والمحارم ، والقدرى يعنى الجبرى ان احتج بالقدر كان عونا للمرجىء وان كذب به أى بالقدر كان هو والمرجىء متقابلين هذا يبالغ في التشديد حتى يجعل العبد لا يستعين بالله على فعل ما أمره به وترك ما نهى عنه ، وهؤلاء القدرية حقيقة ، وهذا يعنى المرجىء يبالغ في الناحية الأخرى ، ومن المعلوم ان الله تعالى أرسل الرسل وأنزل الكتب لتصدق الرسل فيما أخبرت وتطاع فيما أمرت كما قال تعالى (وما أرسلنا من رسول الا ليطاع باذن الله) وقال (من يطع الرسول فقد أطاع الله) والايمان بالقدر من تمام ذلك ، فمن أثبت القدر وجعل ذلك معارضا للامر فقد أذهب الاصل • قال شيخ الاسلام : ومعلوم انه من أسقط الامر والنهى الذى بعث الله به رسله فهو كافر باتفاق المسلمون واليهود والنصارى ، بل هؤلاء قولهم متناقض ، لا يمكن أحدا منهم أن يعيش به ولا تقوم به مصلحة أحد من الخلق ولا يتعاشر عليه اثنان فان القدر ان كان حجة فهو حجة لكل أحد والا فليس هو حجة لأحد ، فاذا ظلم الانسان ظالم أو شتمه شاتم أو أخذ ماله وأفسد عياله فمتى لامه أو ذمه أو طلب عقوبته أبطل الاحتجاج بالقدر ، قال ومن أدعى ان العارف اذا شهد الارادة سقط عنه الامر كان هذا من الكفر الذى لا يرضاه أحد بل ذلك ممتنع في العقل محال في الشرع • وقال تلميذه المحقق ابن القيم في كتابه (شرح منازل السائرين) مشهد أصحاب الجبر وهم الذين يشهدون أنهم مجبرون على أفعالهم وانها واقعة بغير قدرتهم

واختيارهم بل لا يشهدون انها أفعالهم البتة ويقولون ان أحدهم غير فاعل في الحقيقة ولا قادر وان الفاعل فيه غيره والمحرك له سواه وانه آلة محضة وحركاته بمنزلة هبوب الرياح وحركات الاشجار ، وهؤلاء اذا أنكرت عليهم أفعالهم احتجوا بالقدر وحملوا ذنوبهم عليه وقد يغلون في ذلك حتى يروا أفعالهم كلها طاعات خيرها وشرها لموافقتها المشيئة والقدر ، ويقولون كما ان موافقة الامر طاعة فموافقة المشيئة طاعة كما حكى الله تعالى عن المشركين اخوانهم انهم جعلوا مشيئة الله لأفعالهم دليلا على أمره بها ورضاه بها ، قال : وهؤلاء شر من القدرية النفاة وأشد عداوة لله ومناقضة لكتبه ورسله ودينه حتى ان من هؤلاء من يعتذر عن ابليس لعنه الله ويتوجع له ويقيم عذره بجهده وينسب ربه الى ظلمه بلسان الحال والقال ويقول ما ذنبه وقد صان وجهه عن السجود لغير خالقه وقد وافق حكمه ومشيئته فيه وارادته منه ثم كيف يمكنه السجود وهو الذى منعه منه وحال بينه وبينه وهل كان فى ترك سجوده لغيرك الا محسنا ولكن

اذا كان المحب قليل حظ فما حسناته الا ذنوب

قال ابن القيم رحمه الله وهؤلاء أعداء الله حقا وأولياء ابليس وأحبابه واخوانه واذا ناح منهم نائح على ابليس رأيت من البكاء والحنين أمرا عجبا ورأيت من تظلم الاقدار واتهام الجبار ما يبدو على فلتات ألسنتهم وصفحات وجوههم وتسمع من أحدهم من التظلم والتوجع ما تسمعه من الخصم المغلوب العاجز عن خصمه قال فهؤلاء الذين قال فيهم شيخ الاسلام ابن تيمية في تائيته :

وتدعى خصوم الله يوم معادهم الى النار طرا فرقة القدرية

يعنى الجبرية وتقدم ان شيخ الاسلام ابن تيمية قدس الله روحه قال ان بدعة القدرية النفاة كانت فى أواخر عصر الصحابة رضى الله عنهم ،قال وأما بدعة هؤلاء المحتجين بالقدر فلم يعرف لها امام ولم تعرف به طائفة من طوائف المسلمين معروفة ، قال وانما كثر ذلك في المتأخرين وسموا هذا حقيقة وجعلوا الحقيقة تعارض الشريعة ولم يميزوا بين الحقيقة الشرعية التى تتضمن تحقيق أحوال القلوب كالاخلاص والصبر وبين الحقيقة

الكونية القدرية التى نؤمن بها ولا نحتج بها على المعاصى ، وفيهم من يقول ان العارف اذا فنى في شهود توحيد الربوبية لم يستحسن حسنة ولم يستقبح سيئة ، ويقول بعضهم من شهد الارادة سقط عنه الامر والنهى ، ويقول بعضهم ان الخضر عليه السلام انما سقط عنه التكليف لانه شهد الارادة ـ الى غير ذلك من كلامهم • والحاصل ان هذه المقالة من أشنع المقالات وأفظع البدع المحدثات ، والمحتج بقدر الله على معاصى الله تعالى زنديق وخارج عن سواء السبيل وعادم التحقيق ومارق من الدين ومباين التوفيق ، والبارى جل شأنه قد أرسل الرسل قاطبة بتحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها وفي الاحتجاج على المعاصى بالقدر انعكاس ما جاءت به الرسل من تعظيم النهى والامر • وبالله التوفيق •

* * *

قول أهل السنة فى القدر

وأما المتوسطون فهم أهل السنة والجماعة فلم يفرطوا تفريط القدرية النفاة ولم يفرطوا افراط الجبرية المحتجين بالقدر على معاصى الله ، وهؤلاء على مذهبين ، مذهب الاشعرى ومن وافقه من الخلف ، ومذهب سلف الامة وأئمة السنة ، فمذهب أهل السنة كافة أن جميع أنواع الطاعات والمعاصى والكفر والفساد واقعة بقضاء الله وقدره لا خالق سواه فأفعال العباد مخلوقة لله تعالى خيرها وشرها حسنها وقبيحها ، والعبد غير مجبور على أفعاله بل هو قادر عليها ، هذا القدر باتفاق أهل السنة ثم ان الاشعرى ومن وافقه منهم أثبت للعبد كسبا ومعناه انه قادر على فعله وان كانت قدرته لا تأثير لها فى ذلك كما مر ، قال شيخ الاسلام ابن تيمية قدس الله روحه : هذا قول الاشعرى ومن وافقه من المثبتة للقدر من الفقهاء وطوائف من أهل السنة من أصحاب مالك والشافعى وأحمد حيث لا يثبتون في المخلوقات قوى ولا طبائع ، ويقولون ان الله تعالى فعل عندها لا بها ، ويقولون ان قدرة العبد لا تأثير لها في الفعل ، ويقول الاشعرى : ان الله فاعل فعل العبد وان عمل العبد ليس فعلا للعبد بل كسبا له • قال شيخ الاسلام : وهذا قول من ينكر الاسباب والقوى التى في الاجسام وينكر تأثير القدرة التى للعبد التى يكون بها الفعل ويقول انه لا أثر لقدرة العبد أصلا في فعله لكن الاشعرى يثبت

للعبد قدرة محدثة واختيارا ويقول ان الفعل كسب للعبد لكن يقول لا تأثير لقدرة العبد في ايجاد المقدور ، وهو مقام دقيق حتى قال بعضهم ان هـذا الكسب الذى أثبته الاشعرى غير معقول ، قال : حتى قال جمهور العقـلاء ثلاثة أشياء لا حقيقة لها طفرة النظام وأحوال أبى هاشم وكسب الاشعرى ، وذلك أنه يلزم أن لا يكون فرق بين القادر والعـاجز اذ مجرد الاقتران لا اختصاص له بالقدرة فان فعل العبد يقارن حيـاته وعلمه وارادته وغير ذلك من صفاته فاذا لم يكن للقدرة تأثير الا مجرد الاقتران فلا فرق بين (هذه ـ ١) القدرة وغيرها • ومن هذه الطائفة من يقول ان قدرة العبد مؤثرة في صفة الفعل لا في أصله كما يقوله القاضى أبو بكر الباقلانى من أئمة متكلمة الاشعرية ومن وافقه فانه أثبت تأثيرا بدون خلق الرب فلزم أن يكون بعض الحوادث لم يخلقه الله وان جعل ذلك معلقا بخلق الرب فلا فرق بين الاصل والصفة • قيل ومذهب الاشعرى يقرب في هذه المسألة من مذهب الجبرية الجهمية فانه يحكى عن الجهم بن صفوان وغلاة أتباعه أنهم سلبوا العبد قدرته واختياره حتى قال بعضهم ان حركته حركة الاشجار بالرياح كما تقدم • قال شيخ الاسلام ابن تيمية ان الجهم كان يقول لا أثر لحركة العبد أصلا في فعله وكان يثبت مشيئة الله تعالى وينكر أن يكون له حكمة ورحمة وينكر أن يكون للعبد فعل أو قدرة مؤثرة • قال وقد حكى عنه انه كان يخرج الى الجذمى ويقول أرحم الراحمين يفعل هذا ؟انكارا لان يكون له تعالى رحمة يتصف بها سبحانه زعما منه أنه ليس الا مشـيئة محضة لا اختصاص لها بحكمة بل يرجح أحد المتماثلين بلا مرجح •

ومذهب سلف الامة وأئمتها وجمهور أهل السنة المثبتة للقدر من جميع الطوائف يقولون ان العبد فاعل لفعله حقيقة وان له قدرة حقيقة واستطاعة حقيقة ولا ينكرون تأثير الاسباب الطبيعية بل يقرون بما دل عليه الشرع والعقل من أن الله تعالى يخلق السحاب بالرياح وينزل الماء بالسحاب وينبت النبات بالماء ولا يقولون القوى والطبائع الموجودة في المخلوقات لا تأثير لها بل يقرون بأن لها أثرا لفظا ومعنى لكن يقولون هذا التأثير هو تأثير الاسباب في

---

(١) من مخ •

مسبباتها والله تعالى خالق السبب والمسبب ومع انه خالق السبب فلا بد للسبب من سبب آخر يشاركه ولا بد له من معارض يمانعه فلا يتم أثره الا مع خلق الله له بأن يخلق الله السبب الآخر ويزيل الموانع ، وقال شيخ الاسلام في موضع آخر : الاعمال والاقوال والطاعات والمعاصى هى من العبد بمعنى انها قائمة به وحاصلة بمشيئته وقدرته وهو المتصف بها والمتحرك بها الذى يعود حكمها عليه وهى من الله بمعنى انه خلقها قائمة بالعبد وجعلها عملا له وكسبا كما يخلق المسببات بأسبابها فهى من الله مخلوقة له ومن العبد صفة قائمة به واقعة بقدرته وكسبه كما اذا قلنا هذه الثمرة من الشجرة وهذا الزرع من الارض بمعنى انه حدث منها ـ ومن الله بمعنى انه خلقه منها لم يكن بينهما تناقض . قال : فالحوادث تضاف الى خالقها باعتبار والى أسبابها باعتبار كما قال تعالى (هذا من عمل الشيطان) وقال (وما انسانيه الا الشيطان) مع قوله (كل من عند الله) وأخبر أن العباد يفعلون ويصنعون ويعملون ويؤمنون ويكفرون ويفسقون ويتقون ويصدقون ويكذبون . وقال في موضع آخر : ان أئمة أهل السنة يقولون ان الله خالق أفعال العباد كما ان الله خالق كل شيء وانه تعالى خالق الاشياء بالاسباب وانه تعالى خلق للعبد قدرة بها يكون فعله وان العبد فاعل لفعله حقيقة فقولهم في خلق فعل العبد بارادته وقدرته كقولهم في خلق سائر الحوادث بأسبابها وقد دلت الدلائل اليقينية على أن كل حادث فالله خالقه وفعل العبد من جملة الحوادث، وكل ممكن يقبل الوجود والعدم فان شاء الله كان وان لم يشأ لم يكن ، وفعل العبد من جملة الممكنات . قال : وجمهور المسلمين وجمهور طوائفهم على هذا القول الوسط الذى ليس هو قول المعتزلة ولا قول جهم بن صفوان وأتباعه الجبرية فمن قال ان شيئا من الحوادث أفعال الملائكة والجن والانس لم يخلقها الله تعالى فقد خالف الكتاب والسنة واجماع السلف والادلة العقلية ، ولهذا قال بعض السلف : من قال ان كلام الآدميين وأفعال العباد غير مخلوقة فهو بمنزلة من يقول ان سماء الله وأرضه غير مخلوقة . والحاصل ان مذهب السلف ومحققى أهل السنة ان الله تعالى خلق قدرة العبد وارادته وفعله ، وان العبد فاعل لفعله حقيقة ومحدث لفعله والله

سبحانه جعله فاعلا له محدثا له قال تعالى (وما تشاءون الا أن يشاء الله) فأثبت مشيئة العبد وأخبر انها لا تكون الا بمشيئة الله تعالى ، وهذا صريح قول أهل السنة في اثبات مشيئة العبد وانها لا تكون الا بمشيئة الرب . قال شيخ الاسلام ابن تيمية روح الله روحه : وهذا قول جمهور أهل السنة من جميع الطوائف وهو قول كثير من أصحاب الاشعرى كأبى اسحاق الاسفراينى وامام الحرمين وغيرهما فيقولون العبد فاعل لفعله حقيقة وله قدرة واختيار وقدرته مؤثرة في مقدورها كما تؤثر القوى والطبائع والاسباب كما دل على ذلك الشرع والعقل قال تعالى (فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات) وقال (فأحيا به الارض بعد موتها) وقال (يهدى به كثيرا) وهذا كثير في الكتاب والسنة يخبر تعالى انه يحدث الحوادث بالاسباب ، وكذلك دل الكتاب والسنة على اثبات القوى والطبائع للحيوان وغيره كما قال تعالى (فاتقوا الله ما استطعتم) وقال (هو أشد منهم قوة) وقال فى الجمادات (وأخرجت الارض أثقالها) وقال (اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج) وقال (تدمر كل شيء بأمر ربها) وقال (وأرسلنا الرياح لواقح) (وان من الحجارة لما يتفجر منه الانهار وان منها لما يشقق فيخرج منه الماء وان منها لما يهبط من خشية الله) (وقيل يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء أقلعى وغيض الماء وقضى الامر واستوت على الجودى) وقال تعالى (كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه) وهذا في القرآن كثير جدا . وقال السعد التفتازانى في شرح المقاصد بعد ما نقل الخلاف ملخصا ما نصه : ثم المشهور فيما بين القوم المذكور في كتبهم ان مذهب امام الحرمين ان فعل العبد واقع بقدرته وارادته ايجابا كما هو رأى الحكماء مع قول الامام فى الارشاد : اتفق أئمة السلف قبل ظهور البدع والاهواء على ان الخالق هو الله ولا خالق سواه ، وان الحوادث كلها حدثت بقدرة الله من غير فرق بين ما تعلق قدرة العبد به وبين ما لا يتعلق . قال العلامة ابراهيم الكورانى في شرح منظومة شيخه الشيخ محمد المقدسى القشاشى ما نصه : مذهب الشيخ امام الحرمين الذي تفرد به فيما قيل عن الاصحاب يعنى الاشعرية من أن أصل فعل العبد واقع منه بتأثير قدرته باذن الله قال

وهو مذكور في غير الارشاد وهو آخر قوليه كما نقله عنه البقى فلا يقدح مخالفة ما في الارشاد وبقية كتبه التى وصلت الى التفتازانى وغيره لما هو المنقول عنه في غير الارشاد وبقية كتبه في هذا الفن المرجوع عنها في هذه المسئلة • قال الكورانى : وهذا الكتاب الذى ذكر فيه آخر قوليه هو كتابه المترجم بالنظامية فيما وقفت على كلامه منقولا عنه بلفظه في كتاب (شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل) للعلامة شمس الدين ابن القيم في الباب السابع عشر منه ولفظه : اضطربت آراء اتباع الاشعرى في الكسب اضطرابا عظيما واختلفت عباراتهم فيه اختلافا كثيرا وقد ذكر ذلك كله أبو القاسم سلمان بن ناصر الانصارى في شرح الارشاد ، ثم ساق عن تلميذ امام الحرمين شارح الارشاد هذا الانصارى كلاما فيه ان امام الحرمين ذكر لنفسه مذهبا ذكره في الكتاب المترجم بالنظامية وانفرد به عن الاصحاب ، ثم قال صاحب كتاب شفاء العليل فى آخر كلام شارح كتاب الارشاد المذكور : قلت الذى قاله الامام في النظامية أقرب الى الحق مما قاله الاشعرى وابن الباقلانى ومن تابعهما ونحن نذكر كلامه بلفظه ، قال - يعنى امام الحرمين : قد تقرر عند كل حاظ بعقله مترق عن مراتب التقليد فى قواعد التوحيد أن الرب سبحانه وتعالى مطالب عباده بأعمالهم وداعيهم اليها ومثيبهم ومعاقبهم عليها ، وتبين بالنصوص التى لا تتعرض بالتأويلات انه أقدرهم على الوفاء بما طالبهم ومكنهم من التوصل الى امتثال الامر والانكفاف عن مواقع الزجر ، ولو ذهبت أتلو الآى المتضمنة لهذه المعانى لطال المرام ، ولا حاجة الى ذلك مع قطع اللبيب المنصف به ، ومن نظر فى كليات الشرائع وما فيها من الاستحثاث والزواجر عن المعاصى الموبقات وما نيط ببعضها من الحدود والعقوبات ثم تلفت على الوعد والوعيد وما يجب عقده من تصديق المرسلين فى الانباء وقول الله لهم لم تعديتم وعصيتم وأبيتم وقد أرخيت لكم الطول وفسحت لكم المهل وأرسلت الرسل وأوضحت المحجة لئلا يكون للناس على الله حجة ، وأحاط بذلك كله ثم استراب في أن أفعال العباد واقعة على حسب ايثارهم واختيارهم واقتدارهم فهو مصاب فى عقله أو مستقر على تقليده

مذهب امام الحرمين

مصمم على جهله ففى المصير الى أنه لا أثر لقدرة العبد فى فعله قطع طلبات الشرائع والتكذيب بما جاء به المرسلون ، فان زعم من لم يوفق لمنهج الرشاد انه لا أثر لقدرة العبد فى مقدوره أصلا واذا طولب بمتعلق طلب الله بفعل العبد تحريما وفرضا ذهب فى الجواب طولا وعرضا وقال : لله أن يفعل مايشاء ، ولا يتعرض المتعرضون (لا يسأل عما يفعل وهم يسئلون) قيل له : ليس لما جئت به حاصل كلمة حق أريد بها باطل نعم يفعل الله مايشاء ويحكم ما يريد ولكن يتقدس عن الخلف ونقيض الصدق ، وقد فهمنا بضرورات المعقول من الشرع المنقول انه عزت قدرته طالب عباده بما أخبر انهم ممكنون من الوفاء به فلم يكلفهم الا مبلغ الطاقة والوسع فى موارد الشرع ، ومن زعم انه لا أثر للقدرة الحادثة فى مقدورها كما لا أثر للعلم فى معلومه فوجه مطالبة العبد بأفعاله عنده كوجه مطالبته بأن يثبت فى نفسه ألوانا وادراكات وهذا خروج عن حد الاعتدال الى التزام الباطل والمحال ، وفيه ابطال الشرائع ورد ماجاء به النبيون عليهم الصلاة والسلام ، فاذا لزم المصير الى القول بأن العبد خالق أعماله فانه فيه الخروج عما درج عليه السلف الائمة واقتحام ورطات الضلال ولا سبيل الى الوقوع فى أن فعل العبد بقدرته الحادثة والقدرة القديمة فان الفعل الواحد يستحيل حدوثه بقادرين اذ الواحد لا ينقسم فان وقع بقدرة الله استقل بها ويسقط أثر القدرة الحادثة ويستحيل أن يقع بعضه بقدرة الله فان الفعل الواحد لا بعض له وهذه مهواة لا يسلم من غوائلها الا مرشد موفق اذ المرء بين أن يدعى الاستبداد وبين أن يخرج نفسه عن كونه مطالبا بالشرائع وفيه ابطال دعوة المرسلين ، وبين أن يثبت نفسه شريكا لله فى ايجاد الفعل الواحد وهذه الاقسام بجملتها باطلة ولا ينجى من هذا الملتطم ذكر اسم محض ولقب مجرد من غير تحصيل معنى وذلك أن قائلا لو قال ان العبد يكتسب وأثر قدرته الاكتساب والرب تعالى مخترع خالق لما العبد مكتسب له • قيل له فما الكسب ؟ وما معناه ؟ وأديرت الاقسام المذكورة على هذا القائل فلا يجد عنه مهربا • ثم قال ـ يعنى امام الحرمين ـ فنقول : قدرة العبد مخلوقة لله تعالى باتفاق القائلين بالصانع والفعل المقدور

بالقدرة الحادثة واقع بها قطعا لكنه يضاف الى الله سبحانه تقديرا وخلقا فانه وقع بفعل الله وهو القدرة وليست القدرة فعلا للعبد وانما هى صفة له وهى ملك له تعالى وخلق له فاذا كان موقع الفعل خلقا لله فالواقع به مضاف خلقا الى الله تعالى وتقديرا وقد ملك الله العبد اختيارا يصرف به القدرة فاذا أوقع بالقدرة شيئا آل الواقع الى حكم الله من حيث أنه وقع بفعل الله • ولو اهتدت الى هذا الفرقة الضالة لم يكن بيننا وبينهم خلاف ولكنهم أدعوا استبدادا بالاختراع وانفرادا بالخلق والابتداع فضلوا وأضلوا (قال) ونبين تميزنا عنهم بتفريع المذهبين فانا لما أضفنا فعل العبد الى تقدير الاله قلنا أحدث الله القدرة فى العبد على أقدار أحاط بها علمه وهيأ أسباب الفعل وسلب العبد العلم بالتفاصيل وأراد من العبد أن يفعل فأحدث فيه دواعى مستحسنة وخيرة وارادة وعلم أن الافعال ستقع على قدر معلوم بالقدرة التى اخترعها للعبد على ما علم وأراد فاختيارهم واتصافهم بالاقدار والقدرة خلق الله ابتداء ومقدورها مضاف اليه مشيئة وعلما وقضاء وخلقا وفعلا من حيث انه نتيجة ما انفرد بخلقه وهو القدرة ولو لم يرد وقوع مقدورها لما أقدره عليه ولما هيأ أسباب وقوعه ومن هدى لهذا استمر له الحق المبين فالعبد فاعل مختار مطالب مأمور منهى وفعله تقدير لله مراد له خلق مقضى (قال) ونحن نضرب فى ذلك مثلا شرعيا يستروح اليه الناظر فى ذلك فنقول : العبد لا يملك أن يتصرف فى مال سيده ولو استبد بالتصرف فيه لم ينفذ تصرفه فان أذن له فى بيع ماله فباعه نفذ والبيع فى التحقيق معزو الى السيـــــد من حيث أن ســـببه اذنه ولولا اذنه لم ينفذ التصرف ولكن العبد يؤمر بالتصرف وينهى ويوبخ على المخالفة ويعاقب فهذا والله الحق الذى لا غطاء دونه ولا مراء فيه لمن رعاه حقّ رعايته (وأما الفرقة الضالة) فانهم اعتقدوا انفراد العبد بالخلق ثم صاروا اذ أنه (١) عصى فقد انفرد بخلقه فعله والرب كاره • فكان العبد على هذا الرأى الفاسد مزاحما لربه فى التدبير موقعا ما أراد ايقاعه شاء الرب أو كره ؟• الى هنا كلام امام الحرمين فى النظامية بلفظه فيما نقله عنه كذلك الامام المحقق

---

(١) كذا ، والظاهر « صاروا الى أنه اذا » •

ابن القيم فى شفاء العليل ونقله العلامه ابراهيم الكورانى الأشعرى فى شرح منظومة شيخه القشاشى • ولا يخفى على من نظر فى كلامه تصريحه فى غير موضع بأن العبد له تأثير فى فعله بالاختيار ومراده ان العبد ليس مستقلا فى ايقاع أفعاله بمجرد مشيئته وان لم توافق مشيئة الحق بل انما تؤثر قدرته اذا شاء الله ذلك ومكنه منه وهو المعبر عنه بالاذن • قال الكورانى : اختار هذا شيخنا وألف فيه سابقا رسالة سماها الانتصار لامام الحرمين فيما شنع فيه عليه بعض النظار • ثم اختصرها وزاد فيها نقولا وقف عليها فيما بعد وسماه اختصار الانتصار • ثم وقفنا على كتاب شفاء العليل لابن القيم المنقول فيه كلام امام الحرمين فى النظامية فأعجبه ذلك وأمر بالحاقه بآخر اختصار الانتصار ليعلم الواقف عليه أن النقل عنه بالتأثير بالاذن صحيح خلافا لمن أنكر ثبوته عنه من المتأخرين • قال الكورانى : وقال شيخنا فى شرح المواهب اللدنية على قوله تعالى (ومارميت اذ رميت ولكن الله رمى) من غزوة بدر واعتقاد جماعة أن المراد بالآية سلب فعل النبى صلى الله عليه وسلم عنه واضافته الى الله وجعلهم ذلك أصلا فى الجبر وابطال نسبة الافعال الى العباد - فبسط الكلام فى اثبات الكسب على طريقة امام الحرمين وتأييده بدلائل الكتاب والسنة الى أن نقل عنه كلامه المذكور فى النظامية ثم قال وفى شفاء العليل قال الأشعرى رحمه الله وابن الباقلانى بالقدرة الحادثة هو كون الفعل كسبا دون كونه موجودا أو محدثا فكونه كسبا وصف للوجود بمثابة كونه معلوما - انتهى - وفهموا من ذلك أن لا تأثير لقدرة العبد - يعنى عند الاشعرى - في مقدوره كما لا تأثير للعلم فى معلومه فقالوا فى قدرة العبد انها مصاحبة غير مؤثرة قصدا الى التوسط • قال وتفسير كلام الاشعرى بهذا ميل عن التوسط الذى هو الحق وانما التوسط المحصل للكسب النافى لطرفى الافراط والتفريط من الاستقلال والجبر هو القول بأن لقدرة العبد تأثيرا (فى مقدوره - ١) ولكن باذن الله لاعلى الاستقلال فاللائق أن يفسر كلام الاشعرى بما يتنزل على هذا التوسط ، وكلامه قابل للتأويل لانه ليس

---

(١) من مخ

نصا فى عدم التأثير فان أوله يدل على أن الكسب واقع بالقدرة الحادثة والوقوع فرع التأثير ، نعم آخر كلامه يعطى أن لا تأثير لها حيث شبهه بتعلق العلم بالمعلوم ، على أن الاشعرى نص فى عامة كتبه على مايدل على التأثير على ما نقله عنه صاحب شفاء العليل ، ثم حط القشاشى كلامه على أن الكسب عند الاشعرى تحصيل العبد بقدرته المؤثرة باذن الله ما تعلقت به مشيئته الموافقة لمشيئة الله وتقرير كلامه على هذا الوجه موافق لما قال امام الحرمين من التوسط الذى يتحصل به مؤدى الامر والنهى من المكلف بلا تكلف • قال الكورانى : ثم رأيت من نصوص الشيخ الاشعـــرى رحمه الله فى كتابه الابانة الذى هو آخر تصانيفه كما ذكره الامام شيخ الاسلام ابن تيمية وهو أى كتاب الابانة المعول عليه فى المعتقد من بين كتبه كما دل عليه كلام الحافظ ابن عساكر ما يدل على أنه أى الاشعرى انما نفى الاستقلال لا أصل التأثير باذن الله وتمكينه•وحينئذ يكون امامالحرمين موافقا للأشعرى فى التحقيق المعتمد عنده فى الابانة • ثم قال الكورانى : وهذا قول أبى اسحاق الاسفراينى قال وهو الموافق لظاهر الكتاب والسنة قال وقول أبى اسحاق الاسفراينى وامام الحرمين هو الدى اختاره حجه الاسلام الغزالى فانه قال فى كتاب الشكر من الاحياء : ولا قادر الا الملك الجبار • وقال فى جواهر القرآن فى باب المحبة : لا قدر ولا قدرة ولا علم الا للواحد الحق وانما لغيره القدرة التى أعطاه الخ • وقال فى الاحياء : وما هو قادر عليه - يعنى الانسان - من نفسه أو غيره فليست قدرته من نفسه وبنفسه بل الله خالقه وخالق قدرته وأسبابه والممكن له من ذلك ولو سلط بعوضة على أعظم ملك وأقوى شخص من الحيوانات لأهلكه فليس للعبد قدرة الا بتمكين مولاه • قال الكورانى فهو قائل ان للعبد قدرة مؤثرة بتمكين الله لا مستقلا ، وهذا التمكين هو المعبر عنه بالاذن فى قوله تعالى (وماهم بضارين به من أحد الا باذن الله) انتهى ملخصا • وانما ذكرت لك أقاويل هؤلاء مع أن عمدة المعتقد عندنا الغير المنتقد فى عقدنا مذهب السلف المقرر على الوجه المرضى المحرر لتعلم أن محققى الاشاعرة لهم موافقة على حقيقة مذهب السلف والاغضاء عما ينمقه الخلف وبالله التوفيق

ثم اشار فى النظم الى مسئلة عظيمة مبنية على أن أفعال البارى لا تعلل فقال :

لله تعالى تعذيب جميع خلقه - والكلام فى ذلك

((وجاز للمولى يعذب الورى   من غير ماذنب ولاجرم جرى(١)))

((فكل ما منه تعالى يجمل   لانه عن فعله لا يسئل))

---

(١) فى تعليق على مخ كأنه من كلام الشيخ عبد الله بابطين رحمه الله ما لفظه : « قول الناظم : وجاز للمولى تعذيب الورى من غير ما ذنب ولا جرم جرى • اذ كل ما منه يجمل • لو تركذلك لكان أولى لأن ذلك مخالف لما عليه محققو اهل السنه ولما دلت عنيه ظواهر الكتاب والسنة موافق لما عليه الاشعرية من أن لله سبحانه أن يعذب المطيع ويثيب العاصي وان ذلك بالنسبه اليه سواء قال شيخ الاسلام ابو العباس ابن تيمية رحمه الله لما انجر كلامه على حديث أبى ذر عن النبى صلى الله عليه وسلم فيما يروى عن ربه تبارك وتعالى انى حرمت الظلم على نفسى : أما قوله انى حرمت الظلم على نفسى ففيه مسئلتان كبيرتان كل منهما ذات شعب وفروع احداهما فى الظلم الذى حرمه الله على نفسه ونفاه عن نفسه بقوله : (وما ظلمناهم) وقوله : (ولا يظلم ربك أحدا) وقوله : (وما أنا بظلام للعبيد) وقوله : (ان الله لا يظلم مثقال ذرة) وقوله : (ولا يظلمون فتيلا) ونفى ارادته بقوله : (وما الله يريد ظلما للعباد) وقوله : (وما الله يريد ظلما للعالمين) ونفى خوف العباد له بقوله : (ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما) فان الناس تنازعوا فى معنى هذا الظلم تنازعا صاروا فيه بين طرفين متباعدين ووسط بينهما وخير الامور أوسطها فذهب المكذبون بالقدر القائلون ان الله لم يخلق أفعال العباد ولم يرد أن يكون الا ما أمر بأن يكون من المعتزلة وغيرهم الى ان الظلم منه تعالى هو نظير الظلم من الآدميين بعضهم لبعض وشبهوه ومثلوه فى الافعال بأفعال عباده حتى كانوا هم ممثلة الافعال وضربوا له الامثال فأوجبوا عليه وحرموا ما رأوا أنه يجب على العباد ويحرم بقياسه على العباد وقالوا عن هذا اذا أمر العبد ولم يعنه بجميع ما يقدر عليه من وجوه الاعانة كان ظالما له فالتزموا أنه لا يقدر أن يهدى ضالا كما قالوا انه لا يقدر ان يضل مهتديا - الى أن قال : وهذا الموضع زلت فيه أقدام وضلت فيه افهام فعارض هؤلاء آخرون من أهل الكلام المثبتين للقدر وقالوا ليس الظلم منه حقيقة يمكن وجودها بل هو من الامور الممتنعة لذاتها فلا يجوز أن يكون مقدورا ولا أن يقال انه تارك له باختياره ومشيئته وانما هو من باب الجمع بين الضدين وجعل الجسم الواحد فى مكانين وقلب القديم محدثا والمحدث قديما والا فمهما قدر فى الذهن وكان وجوده ممكنا والله قادر عليه فليس بظلم سواء فعله أو لم يفعله • فتلقى هذا القول عن هؤلاء من أهل الاثبات من الفقهاء وأهل الحديث من أصحاب مالك والشافعى وأحمد وغيرهم ومن شراح الحديث ، وفسروا الحديث بما ينبنى على هذا القول - الى أن قال : وبالجملة فقوله تعالى : (ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما) قال أهل التفسير من السلف لا يخاف أن يظلم فيحمل عليه سيئات غيره

((فان يثب فانه من فضـــــله   وان يعذب فبمحض عـــدله))
((فلم يجب عليه فعل الاصلـــح   ولا الصلاح ويح من لم يفلـــح))
((فكل من شاء هداه يهتــــدى   وأن يرد ضلال عبد يعتــــد))

ولا يهضم فينقص من حسناته ولا يجوز أن يكون هذا لا يظلم شيئا ممتنعا غير مقدور عليه فيكون التقدير لا يخاف ما هو ممتنـــع لذاته خارج عن الممكنات والمقدورات فان هذا اذا لم يكن وجوده ممكنا حتى يقولوا انه غير مقدور عليه ولو أراده كخلق المثل فكيف يعقل وجوده فضلا عن أن يتصور خوفه حتى ينفى خوفه ، ثم أي فائدة في نفي خوف هذا ؟ وقد علم من سياق الكلام ان المقصود بيان ان هذا العامل المحسن يجزى على حسـناته بلا ظلم ولا هضم فعلم أن الظلم المنفى يتعلق بالجزاء كما ذكره أهـــل التفسير - الى أن قال : فهذه النصوص النافية للظلم تثبت العدل فى الجزاء وانه لا يبخس عمله ، وكذلك قوله فيمن عاقبهم : (وما ظلمناهم ولـــكن ظلموا أنفسهم) وقوله : (وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين) بين أن عقاب المجرمين كان عدلا لذنوبهم لا لأنا ظلمناهم فعاقبناهم بغير ذنب ،وهذا يبين أن من الظلم عقوبة من لم يذنب ، والحديث الذى فى السنن : لـــو عذب الله أهل سمواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم ، ولو رحمهم لكانت رحمته لهم خيرا لهم من أعمالهم ، يبين ان التعذيب لو وقع لـكان لاستحقاقهم ذلك لا لكونه بغير ذنب وكذلك قوله تعالى : (وما الله يريد ظلما للعباد) يبين أن هذا العقاب لم يكن ظلما لاستحقاقهم ذلك وان الله لا يريد الظلم ، والامر الذى لا تمكن القدرة عليه لا يصلح أن يمدح الممدوح بعدم ارادته وانما يكون المدح بترك الافعال اذا كان الممدوح قادرا عليهـا فعلم ان الله قادر على ما نزه نفسه عنه من الظلم وانه لا يفعله وبذلك يصح قوله : « انى حرمت الظلم على نفسى » فان التحريم هو المنع ، وهـــذا لا يجوز أن يكون فيما هو ممتنع لذاته فلا يقال حرمت المحالات وأكثر ما يقال فى تأويل ذلك ما يكون معناه انى أخبرت عن نفسى بأن ما لا يكون مقدورا لا يكون منى وهذا المعنى مما يتيقن المؤمن انه ليس مراد الرب وانه يجب تنزيه الله ورسوله عن ارادة مثل هذا المعنى الذى لا يليق الخطاب بمثله اذ هو مع كونه شبه التكرير وايضاح الواضح ليس فيه مدح ولا ثناء ولا ما يستفيده المستمع فعلم ان الذى حرمه على نفسه أمر مقدور عليه لكنه لا يفعله لانه حرمه على نفسه وهو سبحانه منزه عن فعله مقدس عنـــه . انتهى ملخصا . وذكر ابن القيم رحمه الله نحو كلام شيخه الى أن قال : فعلم انه سبحانه منزه عن فعل السوء مقدس عنه كما انه مقدس عن وصف السوء والوصف المعيب المذموم وذلك كقوله سبحانه : (أفحسبتم انمـا خلقناكم عبثا وانكم الينا لا ترجعون) فانه سبحانه نزه نفسه عن خلـــق الخلق عبثا وأنكر على من حسب ذلك وهذا فعل ، وقـــوله : (أفنجعل المسلمين كالمجرمين ما لكم كيف تحكمون) وقوله : (أم نجعـــل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الارض أم نجعل المتقين كالفجار) وهذا انكار منه سبحانه على من جوز عليه ان يسوى بين هذا أو هذا ، وكذلك قوله : (أم حسب الذين اجترحوا السيئات ان نجعلهـــم كالذين

((وجاز للمولى)) جل وعلا قال فى النهاية المولى اسم يقع على جماعة كثيرة فهو الرب والمالك والسيد والمنعم والمعتق والناصر والمحب والتابع

آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساءما يحكمون) انكار منه سبحانه على من حسب أن يفعل هذا وأخبار بأن هذا الحكم سيىء قبيح وهو مما ينزه الرب عنه ، والحديث الذى روى فى السنن : لو أن الله عذب أهل سمواته وأهل رأضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم ٠ فهذا يدل على قدر نعم الله على عباده وعدم قيامهم بحقوق نعمه عليهم اما عجزا واما جهلا واما تفريطا واما تقصيرا فى المقدور من الشكر ولو من بعض الوجوه فلو وضع سبحانه عدله على أهل سمواته وأهل أرضه لعذبهم بعدله ولم يكن ظالما لهم فلا يسع الخلائق الا رحمته وعفوه ولا يبلغ عمل أحدهم ان ينجو به من النار أو يدخل به الجنة كما قال أطوع الناس لربه وأعظمهم عملا وأشدهم تعظيما لربه واجلالا له : « لن ينجي أحدا منكم عمله » قالوا ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : « ولا أنا ، الا أن يتغمدنى الله برحمة منهوفضل» فان لم يتسع ذهنك لهذا فانظر الى وطأة النعم وما عليها من الحقوق ووازن بين شكرها وكفرها فحينئذ تعلم ان الله سبحانه لو عذب أهل سمواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم » ٠

وفى تعليق آخر : « قوله وجاز للمولى الخ هذا القول مبنى على نفى الحكمة فى أفعال الله وشرعه ولسنا بصدد التعرض لرد هذا القول لظهور فساده عقلا وشرعا وفطرة وقد تكاثرت النصوص وتنوعت فى ابطاله ولله الحمد ولكننا نشير اشارة موجزة الى رد هذا الفرع الذى تفرع منه وهو القول بجواز تعذيب الخلق بلا ذنب فنقول وبالله الثقة استدل ارباب هذا القول بقوله تعالى : (لا يسأل عما يفعل وهم يسألون) وبقوله صلى الله عليه وسلم : ان الله لو عذب أهل سمواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم ٠ والجواب عن الآية انها سيقت فى بيان الرد على من اتخذ مع الله شريكا وانهم كيف يتخذون آلهة مربوبة مسئولة مع البارى الرب الفعال لما يريد الذى لا يسأل عن فعله لان له التصرف المطلق فوق كل تصرف ولا أحد يعترض عليه أو يناقشه فالآية فيها ذكر ما يفعله وانه لا يسأل عنه ونحن نقول ان الله لا يفعل تعذيب أحد بلا ذنب لا عجزا منه جل وعلا بل عدلا وحكمة ورحمة كما شهدت بذلك نصوص الكتاب والسنة الدالة على كرامة الطائعين وهو وعد صادق كريم قادر غنى ٠ وأما الحديث فلا دليل فيه لما قاله رحمه الله أيضا فان للحديث معنيين لا يحتمل سواهما ، الاول ان الله لو عذب أهل سمواته وأرضه لم يكن ذلك منه على وجه الظلم أبدا وانما يكون ذلك حيث استحقوا التعذيب فعملوا أسباب العذاب وحينئذ يكون تعذيبهم غير ظلم فيكون مطابقا للادلة الدالة على أن الله لا يعذب من يعذب الا بذنب وليس على الله بواجب أن يمنع أحدا من تعاطى اسباب العذاب فانما ذلك تفضل منه من اقتضت حكمته أن يهديه من عليه تفضلا بالهداية ومن لم يقدر له الهداية فليس الله بظالم له فان الهداية فضله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ٠ وأما المعنى الثانى فهو ان أعمالهم الصالحة لا تفى بانقاذهم من العذاب فان من نوقش

والجار وابن العم والحليف والعقيد والصهر والعبد والمعتق والمنعم عليه وأكثرها قد جاءت فى الحديث فيضاف كل واحد الى مايقتضيه الحديث الوارد فيه والمراد به ها رب العالمين وانما اختير هنا المولى دون غيره من

الحساب عذب وفى الحديث لن يدخل أحد الجنة بعمله قالوا ولا أنت يا رسول الله ٠ قال : ولا أنا الا أن يتغمدنى الله برحمته ، ولذلك كان فى آخر الحديث المشار اليه ولو رحمهم لكانت رحمته خيرا لهم من أعمالهم فان أعمالهم اذا قوبلت بالنعم تلاشت وذهبت بل هى فى الحقيقة نعم تحتاج الى شكر كما قيل :

اذا كان شكرى نعمة الله نعمة على له فى مثلها يجب الشكر

فكيف بلوغ الشكر الا بفضله ، وان طالت الايام واتصل العمر ٠

لا يحتمل الحديث على وجه يصح ويطابق النصوص الاخرى الا هذين المعنيين وأما ما يحتمله من سواهما فتبطله النصوص المتوافرة على أن الله لا يظلم من عمل صالحا بنقص شيء من حسناته كقوله تعالى : « من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها » ثم قال : « وما ربك بظلام للعبيد » ٠ « ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلايخاف ظلما ولا هضما » أى لا يخاف أن يظلم فيحمل عليه من سيئا غيره ولا يهضم فينقص مما عمله وأمثال ذلك من الآيات كثيرة ولو لم يكن من ذلك الا وعد الله الذى لا يخلف لمن عمل صالحا أن يوفيه أجره كاملا ومن أصدق من الله قيلا ، ومن المستحيل أيضا على حكمة أحكم الحاكمين ورحمة أرحم الراحمين أن يجعل من كان دائبا فى مرضاته مسارعا فى طاعته لا يجد سبيلا يوصل اليه الا سلكه ولا بابا يدخل اليه منه الا ولجه لا يليق بحكمة الله ورحمته أن يجعله كمن هجر طاعته ودأب فى معصيته يسارع فيها مسارعة الماء الى منحدره ويلازمها ملازمة الظل للجسم كل واحد منهما فى النار خالدا فيها مخلدا هذا لا يليق أبدا وأدلة القرآن الصريحة تبطله قال تعالى : « أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستوون أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى نزلا بما كانوا يعملون وأما الذين فسقوا فمأواهم النار » الآية ٠ وقال جل ذكره : « أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساءما كانوا يحكمون » ٠ « أفنجعل المسلمين كالمجرمين ما لكم كيف تحكمون » الى غير ذلك من النصوص الدالة على أن الله تعالى لم يسو ولن يسوى بين أوليائه وأعدائه أبدا ، ولا شك أن القول بجواز تعذيب من لم يذنب يلزم عليه من اللوازم الباطلة ما ينزه الله عنه كما هو ظاهر معلوم ، ولعل أصحاب هذا القول يرون أن تعذيب من لم يذنب جائز عقلا وان كان ممتنعا سمعا فان الله قد أخبر فى آيات كثيرة بعدم تعذيب الطائعين بل باثابتهم والله أعلم » ٠

وفى تنبيه ابن سحمان ص ٦٣ فى الكلام على هذا الموضع : « اعلم وفقك الله أن هذا الكلام الذى قاله الناظم ، والشارح يخالف ما قاله المحققون من أهل العلم ، بل هو من كلام أهل البدع الذين قابلوا باطلا بباطل المخالفين لائمة السلف رضوان الله تعالى عليهم ٠ قال شيخ الاسلام ابن تيمية قدس الله روحه بعد كلام له سبق : وهذه النصوص النافية للظلم تثبت العدل فى الجزاء وانه لا يبخس عاملا عمله ، وكذلك قوله فيمن

سائر الاسماء لمناسبة المقام ((يعذب الورى)) كفتى الخلق والمراد به هنا ذوو العقول(أو) الحيوان من كل جسم نامٍ متحرك بالارادة أو على عمومه وارادة الاول أولى بدليل قوله ((من غير ما)) زائدة لمزيد تأكيد النفى

عاقبهم : « وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم فما أغنت عنهم آلهتهم التى يدعون من دون الله من شىء » وقوله : « وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين » · بين ان عقاب المجرمين عدل لذنوبهم لا لأنا ظلمناهم فعاقبناهم بغير ذنب والحديث الذى فى السنن : « لو عذب الله أهل سمواته وأرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم ، ولو رحمهم لكانت رحمته لهم خيرا من أعمالهم » يبين أن العذاب لو وقع لكان لاستحقاقهم ذلك لا لكونه بغير ذنب وهذا يبين ان من الظلم المنفى عقوبة من لم يذنب وكذلك قوله : « وقال الذى آمن يا قوم انى أخاف عليكم مثل يوم الاحزاب مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم وما الله يريد ظلما للعباد » يبين أن هذا العقاب لم يكن ظلما بل لاستحقاقهم ذلك وان الله لا يريد الظلم · والامر الذى لا يمكن القدرة عليه لا يصلح أن يمدح الممدوح بعدم ارادته ، وانما يكون المدح بترك الافعال اذا كان الممدوح قادرا عليها فعلم أن الله قادر على ما نزه نفسه عنه من الظلم وأنه لا يفعله وبذلك يصح قوله : « انى حرمت الظلم على نفسى » وان التحريم هو المنع · وهذا لا يجوز أن يكون فيما هو ممتنع لذاته فلا يصلح أن يقال حرمت على نفسى أو منعت نفسى من خلق مثلى أو جعل المخلوقات خالقة ونحو ذلك من المحالات وأكثر ما يقال فى تأويل ذلك ما يكون معناه انى أخبرت عن نفسى بأن ما لا يكون مقدورا لا يكون منى ، وهذا المعنى مما يتيقن المؤمن انه ليس مراد الرب وانه يجب تنزيه الله ورسوله عن ارادة مثل هذا المعنى الذى لا يليق الخطاب بمثله اذ هو مع كونه شبه التكرير وايضاح الواضح ليس فيه مدح ولا ثناء ولا ما يستفيده المستمع فعلم ان الذى حرمه على نفسه هو أمر مقدور عليه لكنه لا يفعله لانه حرمه على نفسه وهو سبحانه منزه عن فعله مقدس عنه ويبين أن ما قاله الناس فى حدود الظلم يتناول هذا دون ذلك كقول بعضهم : الظلم وضع الشىء فى غير موضعه · كقولهم : من أشبه أباه فما ظلم ، أى فما وضع الشبه غير موضعه · ومعلوم أن الله سبحانه حكم عدل لا يضع الاشياء الا مواضعها ، ووضعها غير مواضعها ليس ممتنعا لذاته بل هو ممكن لكنه لا يفعله لانه لا يريده بل يكرهه ويبغضه اذ قد حرمه على نفسه ·

وكذلك من قال : الظلم اضرار غير مستحق ، فان الله لا يعاقب أحدا بغير حق · وكذلك من قال : هو نقص الحق ، وذكر أن أصله النقص كقوله : « كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئا » واما من قال : هو التصرف فى ملك الغير ، فهذا ليس بمطرد ولا منعكس فقد يتصرف الانسان فى ملك غيره بحق ولا يكون ظالما ، وقد يتصرف فى ملكه بغير حق فيكون ظالما · وظلم العبد نفسه كثير فى القرآن · وكذلك من قال : فعل المأمور خلاف ما أمر به ونحو ذلك· أتسلم صحة مثل هذا الكلام ؟ فالله سبحانه قد كتب على نفسه الرحمة وحرم على نفسه الظلم فهو لا يفعل

أى من غير ((ذنب)) أى اثم ((ولاجرم)) وهو بمعنى ماقبله قال فى النهاية الجرم الذنب وقد جرم واجترم وتجرم انتهى • وفى القاموس الجرم بالضم الذنب كالجريمة والجمع اجرام وجروم وانما حسن عطفه عليه

خلاف ما كتب ولا يفعل ما حرم • وليس هذا الجواب موضع بسط هذه الامور التى نبهنا عليها فيه ، وانما نشير الى النكت •

وبهذا يتبين القول المتوسط وهو : ان الظلم الذى حرمه الله على نفسه مثل أن يترك حسنات المحسن فلا يجزيه بها ويعاقب البرىء على مالم يفعل من السيئات ويعاقب هذا بذنب غيره ، أو يحكم بين الناس بغير القسط ونحو ذلك من الافعال التى ينزه الرب عنها لقسطه وعدله وهو قادر عليها ، وانما استحق الحمد والثناء لانه ترك هذا الظلم وهو قادر عليه • وكما أن الله منزه عن صفات النقص والعيب فهو أيضا منزه عن أفعال النقص والعيب ، وعلى قول الفريق الثانى ما ثم فعل يجب تنزيه الله عنه أصلا ، والكتاب والسنة واجماع سلف الامة وأئمتها يدل على خلاف ذلك – الى آخر كلامه رحمه الله تعالى فمن أراد لوقوف عليه فهو فى الجلد الاول من الفتاوى فى صفحة اثنتين وأربعين وثلاث مئة • اذا تحققت هذا وتبين لك من شيخ الاسلام ابن تيمية قدس الله روحه أن الله سبحانه وتعالى لا يعذب أحدا من عباده بغير ذنب لانه نزه نفسه عن ذلك فلا يريده بل يكرهه ويبغضه لانه حرمه على نفسه وان كان قادرا عليه فتبين بهذا خطأ الناظم والشارح حيث توهما أن ذلك جائز بغير ذنب ولا جرم استحق به العقاب والعذاب فان هذا هو حقيقة قول الفريق الثانى الذين قابلوا باطلا بباطل حيث قالوا ما ثم فعل يجب تنزيه الله عنه أصلا •

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى فى شفاء العليل فى مناظرة جرت بين سنى وجبرى ، قال السني فى جواب الجبرى ، وصرحت بأنه يجوز عليه أن يعذب أشد العذاب من لم يعصه طرفة عين فان حكمته ورحمته لا تمنع ذلك بل هو جائز عليه ولولا خبره عن نفسه بأنه لا يفعل ذلك لم تنزهه عنه ، وقلت ان تكليفه عباده بما كلفهم به بمنزلة تكليف الاعمى للكتابة والزمن للطيران ، فبغضب الرب الى من دعوته الى هذا الاعتقاد ونفرته عنه وزعمت أنك تقرر بذلك توحيده وقد قلعت شجرة التوحيد من أصلها • وأما منافاة الجبر للشرائع فأمر ظاهر لا خفاء به فان مبنى الشرائع على الامر والنهى أمر الآمر لغيره بفعل نفسه لا بفعل المأمور ونهيه عن فعله لا فعل المنهى عبث ظاهر فان متعلق الامر والنهى فعل العبد وطاعته ومعصيته فمن لا فعل له كيف يتصور أن يوقعه بطاعته أو معصيته واذا ارتفعت حقيقة الطاعة والمعصية ارتفعت حقيقة الثواب والعقاب وكان ما يفعله الله بعباده يوم القيمة من النعيم والعذاب أحكاما جارية عليهم لمحض المشيئة والقدرة لا انها باسباب طاعتهم ومعاصيهم • بل ها هنا أمر آخر وهو ان الجبر مناف للخلق كما هو مناف للامر فان الله سبحانه له الخلق والامر وما قامت السموات الا بعدله فالخلق قام بعدله وبعدله ظهر كما أن الامر بعدله وبعدله وجد ، فالعدل سبب وجود الخلق والامر وغايته فهو

فى هذا المحل لقصد البيان والايضاح والتعريف لشبهه بالخطابة ((جرى)) من العبد ولا صدر عنه ولا تمادى عليه فيجوز عليه تعالى عقلا أن يثيب العاصى وأن يعاقب الطائع لولا ما أخبر به من اثابة المطيع فلا يجب عليه واحد من الامرين ((فكل ما)) أى شىء ((منه تعالى)) من اثابة وعقوبة وخلق خير وشر ((يجمل)) أى يحسن قال فى القاموس : الجمال الحسن فى الخلق والخلق يقال جمل ككرم فهو جميل كامير وغراب

علية الفاعلية الغائبة والجبر لا يجامع العدل ولا يجامع الشرع والتوحيد انتهى .

والمقصود من هذا انه نفى تجويز عذاب الله عباده على ما لم يفعلوه من الذنوب والجرائم وقد نزه الله نفسه عن ذلك لانه لا يريده بل يكرهه ويبغضه والله سبحانه وتعالى أعلم .

وقال أيضا رحمه الله فى عدة الصابرين على قوله سبحانه : « ما يفعل الله بعذابكم أن شكرتم وآمنتم وكان الله شاكرا عليما » كيف تجد فى ضمن هذا الخطاب ان شكره تعالى يأبى تعذيب عباده سدى بغير جرم كما يأبى اضاعة سعيهم باطلا فالشكور لا يضيع أجر محسن ولا يعذب غير مسىء وفى هذا رد لقول من زعم انه يكلف عبده ما لا يطيقه ثم يعذبه على ما لا يدخل تحت قدرته ، تعالى الله عن هذا الظن الكاذب والحسبان الباطل علوا كبيرا فشكره سبحانه اقتضى أن لا يعذب المؤمن الشكور ولا يضيع عمله وذلك من لوازم هذه الصفة فهو منزه عن خلاف ذلك كما تنزه عن سائر العيوب والنقائص التى تنافى كماله وغناه وحمده . انتهى .

وأما قول الشارح واستدل بقوله تعالى حكاية عن عيسى عليه السلام : « ان تعذبهم فانهم عبادك » فأقول هذه الآية لا تدل على ما توهمه الشارح من أنه جائز لله أن يعذب عباده من غير ما ذنب ولا جرم استحقوا به بل الآية تدل على خلافه كما تقدم بيانه مبينا مفصلا .

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى فى مدارج السالكين على هذه الآية فى صفحة مائتين واحدى عشر : وهذا من أبلغ الادب مع الله فى مثل هذا المقام أى شأن السيد رحمة عبيده والاحسان اليهم وهؤلاء عبيدك ليسوا عبيدا لغيرك فاذا عذبتهم مع كونهم عبيدك فلولا انهم عبيد سوء من أنجس العبيد وأعتاهم على سيدهم وأعصاهم له لم يعذبهم لان قربة العبودية تستدعى احسان السيد الى عبده ورحمته له فلماذا يعذب أرحم الراحمين وأجود الاجودين وأعظم المحسنين احسانا عبيده لولا فرط عتوهم وابائهم عن طاعته وكمال استحقاقهم للعذاب . وقد تقدم قوله : « انك أنت علام الغيوب » أى هم عبادك وأنت أعلم بسرهم وعلانيتهم فاذا عذبتهم عذبتهم على علم منك بما تعذبهم عليه فهم عبادك وأنت أعلم بما جنوه واكتسبوه ، فليس فى هذا استعطاف لهم كما يظنه الجهال ولا تفويض الى محض المشيئة والملك المجرد عن الحكمة كما تظنه القدريةوانما هو اقرار واعتراف وثناء عليهبحكمته وعدلهوكمال علمهبحالهم واستحقاقهم للعذاب - الى آخر كلامه رحمه الله تعالى .

ورمان • وفى النهاية الجمال يقع على الصور والمعانى ومنه ان الله تعالى جميل يحب الجمال أي حسن الافعال كامل الاوصاف فكل مايصدر عن البارى جل شأنه من الامر والخلق بالنسبة اليه حسن جميل حتى اثابة العاصى وعقوبة المطيع ((لأنه)) تعالى ((عن فعله)) الذى يصدر عنـــه ((لايسئل)) كما قال تعالى (لايسئل عما يفعل وهم يسئلون) ((فان يثب)) عباده المطيعين وخلقه المتقين والثواب الجزاء ومنه حديث ابن التيهان«اثيبوا أخاكم » أى جازوه على صنيعه يقال اثابه يثيبه اثابة والاسم الثواب ويكون فى الخير والشر الا أنه فى الخير أخص وأكثر استعمالا وهو المراد هنا ((فانه)) أى اثابته بالخير والجزاء الحسن ((من فضله)) تعالى الزائد وكرمه الجزيل لان اتقى الناس واعبدهم لا تعادل عبادته وتقواه نعمة ايجاده من العدم الى الوجود فضلا عن سائر نعمه تعالى على عبـــده من البصر والسمع وغيرهما ، والفضل العطاء عن اختيار لا عن ايجاب كما تزعمـه الحكماء ولا عن وجوب كما تقوله المعتزلة ((وأن يعذب)) عباده ولـــو المطيعين منهم ((فبمحض)) أى خالص ((عدله)) تعالى والمحض بالحاء المهملة والضاد المعجمة فى اللغة اللبن الخالص غير مشوب بشىء ومنـــه الحديث «بارك لهم فى محضها ومخضها» أى الخالص والممخوض - يعنى انه لو عذبهم لعذبهم بعدله الخالص من شائبة الظلم لانه تعالى تصرف فى ملكه والعدل وضع الشىء فى محله من غير اعتراض على الفاعل عكس الظلم الذى هو وضع الشىء فى غير محله مع الاعتراض على الفاعـــل فطاعات العبد وان كثرت لا تفى بشكر بعض ما أنعم الله به عليه ولا بنعمة الاقدار على الطاعة والتوفيق لها فكيف يتصور استحقاقه عوضا عليهـــا واستدل لهذا بقوله (ان تعذبهم فانهم عبادك) يعنى لم تتصرف فى غير ملكك بل ان عذبت عذبت من تملك وبقوله تعالى (لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون) ويقول النبى صلى الله عليه وسلم : ان الله لو عذب أهل سمواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم ، ولو رحمهم لكانت رحمته خيرا لهم من أعمالهم • وبقوله صلى الله عليه وسلم فى دعاء الهم والحزن : اللهم انى عبدك ابن عبدك ناصيتى بيدك ماض فى حكمك عدل فى قضاؤك • وبما روى عن اياس بن معاوية قال : ما ناظرت بعقلى كله

احدا الا القدرية ، قلت لهم ما الظلم ؟ قالوا أن تأخذ ماليس لك وان تتصرف فيما ليس لك • قلت فلله كل شيء • وتقدم هـــذا في شرح قوله * لكنه لا يخلق الخلق سدى * فليراجع فان الامام المحقق ابن القيم كشيخ الاسلام وجمع لم يرتضوا بهذا ونقبوا عليه وبرهنوا وأثبتوا الحكمة والعلة في أفعاله تعالى على الوجه الذى شرحناه فيما تقـــدم • ومذهب الاشاعرة ان أفعال البارى تعالى ليست معللة بالاغراض والمصالح •والغرض ما لأجله يصدر الفعل عن الفاعل ويقولون أن الله تعالى يفعل هذهالحوادث عند الاسباب المقارنة لها وان ذلك عادة محضة ويجعلون اللام في أفعاله لام العاقبة لا لام التعليل كما هو مقرر محرر • ومذهب الماتريدية امتناع خلق فعله عن المصلحة • قال السعد : والحق أن تعليل بعض الافعال لاسيما الاحكام الشرعية بالحكم والمصالح ظاهر • ومذهب سلف الائمة على ما حكاه شيخ الاسلام ابن تيمية في شرح الاصفهانية وانه القولالوسط الجامع للحق الموافق لصحيح المنقول وصريح المعقول وعليه أشهـــر الطوائف انتسابا الى السنة هم مثبتة القدر الذين يقرون بمااتفق عليه سلف الامة وأئمتها من أن الله تعالى خالق كل شيء وربه ومليكه وانه ما شاء كان ومالم يشأ لم يكن وانه خالق كل شيء بقدرته ومشيئته ويثبتون لله تعالى حكمة يفعل لاجلها قائمة به تعالى لا منفصلة عنه ويثبتون له رحمة ومحبة ورضا وسخطا ويثبتون للحوادث أســـبابا تقتضى التخصـــيص ويثبتون ما خلقه الله من الاسباب والموانع ، قال وهذا هو الموافق لصحيح المنقول وصريح المعقول وهو الذى يجمع مافى الاقوال المختلفة من الصواب ويجتنب ما فيها من الخطأ ، قال فهذه طريقة سلف الامة وأئمة الدين وهي التى يدلعليها الكتابوالسنةواجماعالسلففاناللهتعالىبينفى كتابهالحق وأدلته بما ضربه فيه من الامثال وسنه من البراهين العقلية • انتهى • قال بعض متكلمى الاشاعرة ان الاشاعرة يقولون بالحكمة والمصلحة في نفس الامر لانهم يمنعون العبث في أفعاله تعالى كما يمنعون الغرض ولذلك كان التعبدى من الاحكام ما لا يطلع على حكمته لا ما لا حكمة له على أن بعضهم نقل عن الاشاعرة انهم انما يمنعون وجوب التعليل لا انهم يحيلونه كما صرح به الامام ابن عقيل الحنبلى واستغربه بعض الاشاعرة وباللهالتوفيق

الكلام فى الصلاح والاصلح

فاذا علمت ذلك وفهمته ((فلم يجب عليه)) سبحانه وتعالى ((فعل الاصلح)) أى الانفع ((ولا)) يجب عليه أيضا فعل ((الصلاح)) لعباده خلافا للمعتزلة فمعتزلة البصرة قالوا بوجوب الاصلح فى الدين وقالوا تركه بخل وسفه يجب تنزيه البارى عنه ومنهم الجبائى ، وذهب معتزلة بغداد الى وجوب الاصلح فى الدين والدنيا معا لكن بمعنى الاوفق فى الحكمة والتدبير • وهذه المسئلة مترجمة فى كتب القوم بمسئلة وجوب الصلاح والاصلح وحاصلها ان المعتزلة قالوا بوجوب ما هو الاصلح للعباد عليه تعالى • وتفصيل ذلك انهم اتفقوا بعد القول بوجوب الاصلح للعباد عليه تعالى وعلى وجوب الاقدار والتمكين وأقصى ما يمكن فى معلوم الله تعالى مما يؤمن عنده الكافر ويطيع العاصى وانه تعالى فعل بكل أحد غاية مقدوره من الاصلح ، قالوا وليس فى مقدوره ـ تعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا ـ لطف لو فعل بالكفار لآمنوا جميعا والا لكان تركه بخلا وسفها • ثم اختلفوا فيما يجب مراعاة الاصلح بالنسبة اليه كما نبهنا عليه من جهة الدين والدنيا أو الدين فقط على ما مر ، ثم اختلفوا فى تفسير الاصلح هل هو الاوفق فى الحكمة والتدبير أو الانفع كما تقدم آنفا ، ثم اختلفت معتزلة البصرة فمنهم من اعتبر الانفع فى علم الله تعالى فأوجب ما علم الله نفعيته ، ومن هؤلاء الجبائى ، ومنهم من لم يعتبر ذلك فزعم أن من علم الله منه الكفر على تقدير تكليفه اياه يجب تعريضه للثواب بأن يبقيه الى أن يبلغ عاقلا قادرا على اكتساب الخيرات ، والبغدادية وان لم يلزمهم فيها شىء لكن الالـــزام عليهم فى تخليد الفساق فى النار أشد قبحا وشناعة ، وتمسكوا على ذلك بقولهم نحن نقطع بأن الحكيم اذا أمر بطاعته أحدا وقدر على أن يعطى المأمور ما يصل به الى الطاعة من غير تضرر بذلك ثم لم يفعل كان مذموما عند العقلاء معدودا فى زمرة البخلاء ، وكذلك من دعا عدوه الى الموالاة والرجوع الى الطاعة والمصافاة لا يجوز أن يعامله من الغلظ واللين الا بما هو أنجع فى حصول المراد وادعى الى ترك العناد • قالوا : وأيضا من اتخذ ضيافة لرجل واستدعاه الى الحضور وعلم انه لو تلقاه ببشر وطلاقة وجه لدخل وأكل والا لم يدخل فالواجب عليه عند العقلاء البشر والطلاقة والملاطفة لا اضدادها • وأجلبوا وأجنبوا من هذا التمويه الذى لا يصدر

الا من ضال سفيه ولهذا قال ((ويح)) هذه كلمة ترحم وتوجـــع تقال لمن وقع فى هلكة لا يستحقها وهى منصوبة على المصدر وقد ترفع وتضاف كما هنا ، وضدها ويل فانها تقال للحزن والهلاك والمشقة من العذاب وكل من وقع فى هلكة دعا بالويل ، وقيل وى كلمة مفردة ولامة مفردة وهى كلمــة تفجع وتعجب • فان قلت كان المناسب هنا الاتيان بكلمـــة ويل لاقتضاء المقام • قلت بل الانسب كلمة ويح لانه يتوجع ويترحم لاخوانه من الملة الاسلامية كيف استزلهم الشيطان وتلاعب بهم تلاعب الصبيـــان بالكرة والصولجان مع ظهور أدلة القرآن والسنة لمذهب أهل السنة ، فعلى عقولهم الدمار وعلى فهو مهم البوار ((من)) أى شخص بالغ عاقل ((لم يفلح)) أى لم يفز بمتابعة الحق وموافقة الشرعــة ورفض الباطـــل ومجانبة البدعة ، والفلاح من الكلمات الجوامع وهو عبارةعنأربعة أشياء بقاء بلا فناء وغنى بلا فقر وعز بلا ذل وعلم بلا جهل قالوا فلا كلمة فى اللغة أجمع للخيرات منها • ولمذهب المعتزلة لوازم فاسدة تدل على فساده منها أن القربات من النوافل صلاح فلو كان الصلاح واجبا وجبت وجوب الفرائض • ومنها أن خلود أهل النار يجب أن يكون صلاحا لهم دون أن يردوا فيعتبوا ربهم ويتوبوا اليه ، ولا ينفعكم اعتذاركم عن هــذا بأنهم لو ردوا لعادوا فان هذا حق ولكن لو أماتهم وأعدمهم فقطع عتابهم كـــان أصلح لهم ولو غفــر لهم وأخرجهم من النار كان أصلح من اماتتهـــم واعدامهم ولم يتضرر سبحانه بذلك • ومنها أن عدم خلق ابليس وجنوده أصلح للخلق وأنفع وقد خلقه البارى جل شأنه • وأيضا انظاره وتمكينه وتمكين جنوده وجريانهم من الآدمى مجرى الدم فى ابشارهم ينـــافى مذهبهم فكان يلزمهم أن لا يكون شىء من ذلك والواقع خلافه • ومنها ما ألزمه الامام أبو الحسن الاشعرى للجبائى وقد سأله عن ثلاثة أخوة أمات الله أحدهم صغيرا وأحيا الآخرين فاختار أحدهما الايمان والآخر الكفر فرفع الله درجة المؤمن البالغ على أخيه الصغير فى الجنة بعمله فقال أخوه الصغير يا رب لم لا بلغتنى منزلة أخي ؟ فقال انه عاش وعمل عملا استحق به هذه المنزلة • فقال يارب فهلا أحييتنى حتى اعمل مثل عمله فأبلغ منزلته ؟ فقال كان الاصلح لك ان توفيتك صغيرا لانى علمتانك أن

بلغت اخترت الكفر فكان الاصلح فى حقك ان أمتك صغيرا • قال الاشعرى فان قال الثانى يا رب لم لم تمتنى صغيرا لئلا أعصى فلا أدخل النار ، ماذا يقول الرب ؟ فبهت الجبائى وكان الاشعرى على مذهب أبى على الجبائى فترك مذهبه • قال ابن خلكان كان أبو الحسن الاشعرى أولا معتزليا ثم تاب من القول بالعدل وخلق القرآن فقام فى المسجد الجامع بالبصرة يوم الجمعة فرقى كرسيا ونادى بأعلى صوته من عرفنى فقد عرفنى ومن لم يعرفنى فأنا أعرفه بنفسى أنا فلان بن فلان كنت أقول بخلق القرآن وان الله تعالى لا يرى بالابصار وان أفعال الشر أنا أفعلها ، وأنا تائب مقلع معتقد للرد على المعتزلة مخرج لفضائحهم ومعايبهم • قال ابن خلكان : مولد الاشعرى سنة سبعين وقيل ستين ومائتين بالبصرة وتوفى سنة نيف وثلاثين وثلاثمائة ودفن بين الكرخ وباب البصرة • انتهى • قال ابن القيم فى مفتاح دار السعادة فاذا علم الله سبحانه انه لو اخترم العبد قبل البلوغ وكمال العقل لكان ناجيا ولو أمهله وسهل عليه النظر لعند وكفر وجحد فكيف يقال ان الاصلح فى حقه ابقاؤه حتى يبلغ ، قال والمقصود عندكم - يعنى المعتزلة القائلين بالاصلح - بالتكليف الاستصلاح والتفويض بأسنى الدرجات التى لا تنال الا بالاعمال • وأيضا قال القائلون بوجوب الاصلح : الرب تعالى قادر على التفضل بمثل الثواب ابتداء بلا واسطة عمل فأى غرض له فى تعريض العباد للبلوى والمشاق ؟ وكونه تعالى قادرا على ذلك حق ثم كذبوا وافتروا فقالوا الغرض فى التكليف ان استيفاء المستحق حقه أهنأ وألذ من قبول التفضل واحتمال المنة • وهذا كلام أجهل الخلق بالرب تعالى وبحقه وعظمته ومساواة بينه وبين آحاد الناس وهو من أقبح التشبيه وأخبثه تعالى عن ضلالهم وأفكهم علوا كبيرا • وأيضا يلزم القائلين بوجوب الاصلح ن يوجبوا على الله عز وجل أن يميت كل من علم من الاطفال انه لو بلغ لكفر وعاند فان اخترامه هو الاصلح له بلا ريب أو أن يجحدوا علمه سبحانه بما سيكون قبل كونه التزمه سلفهم الخبيث الذين اتفق سلف الامة على تكفيرهم ولا خلاص لهم عن أحد هذين الالزامين الا بالتزام مذهب أهل السنة والجماعة من أن أفعال الله لا تدخل تحت شرائع عقولهم القاصرة ولا تقاس بأفعالهم الخاسرة بل

أفعاله تعالى لا تشبه أفعال خلقه ولا صفاته صفاتهم ولا ذاته ذواتهم اذ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير • وأيضا يلزمهم ان من علم الله تعالى اذا بلغ من الاطفال يختار الايمان والعمل الصالح أن لا يميته طفلا فان الاصلح في حقه أن يحييه حتى يبلغ ويؤمن ويعمل صالحا فينال بذلك الدرجات العالية ، وهذا مما لا جواب لهم عنه ، وأيضا يلزمهم أن يقولوا ليس في مقدور الله تعالى لطف لو فعله تعالى بالكفار لآمنوا وقد التزمه المعتزلة القدرية وبنوه على أصلهم الفاسد انه يجب على الله تعالى أن يفعل في حق كل عبد ما هو الاصلح له فلو كان في مقدوره ما يؤمن العبد عنده لوجب عليه أن يفعله به ، والقرآن من أوله الى آخره يرد هذا القول ويكذبه ويخبر سبحانه وتعالى انه لو شاء لهدى الناس جميعا ولو شاء لآمن من في الارض كلهم جميعا • وأيضا يلزمهم وقد التزموه أن لطفه تعالى ونعمته وتوفيقه بالمؤمن كلطفه بالكافر وان نعمته عليهما سواء لم يخص المؤمن بفضل عن الكافر ، وكفى بالوحي وصريح المعقول وفطرة الله والاعتبار الصحيح واجماع الامة ردا لهذا القول وتكذيبا له • وأيضا ما من أصلح الا وفوقه ما هو أصلح منه والاقتصار على رتبة واحدة كالاقتصار على الصلاح فلا معنى لقولكم يجب مراعاة الاصلح اذ لا نهاية له فلا يمكن في الفعل رعايته — الى غير ذلك مما يلزم القائلين بالصلاح والاصلح فانه تعالى خلق الكافر الفقير المعذب في الدنيا بالفقر وفي الآخرة بعذاب الكفر المخلد المستمر ولا سيما المبتلى في الدنيا بالاسقام والآلام والمحن والآفات مع الكفر والهفوات وكيف ينهض لهم دليل وخلود الكفار في النار ليس بأصلح لهم من غير تفصيل

(تنبيـــه)

الكلام في الحسن والقبح

مذهب القول بالصلاح والاصلح مبني فيما قاله متكلمو الاشاعرة وغيرهم على قاعدتين احداهما تحسين العقل وتقبيحه في الاحكام الشرعية ، الثانية استلزام الامر للارادة ، فان قلت قد أسلفت عن اسلافك مثل شيخ الاسلام ابن تيمية وتلميذه المحقق ابن القيم وغيرهما الميل والاستدلال لاثبات التعليل والحكمة في الخلق والامر وذلك من أصول القول بالصلاح

والاصلح ثم هنا ابطلت هذا القول وذكرت من لوازمه مالا جواب عنه فما تصنع في هذه اللوازم التى ألزمت بها المعتزلة وما الجواب عنها اذا وجهت اليكم ؟ قلت لا ريب اننا نثبت لله ما أثبته لنفسه وشهدت به الفطرة والعقول من الحكمة فى خلقه وأمره فكل ما خلقه وأمر به فله فيه حكمة بالغة وآية قاهرة لاجلها خلقه وأمر به ولكن نقول ان لله فى خلقه وأمره كله حكمة ليست مماثلة للمخلوق ولا مشابهة له بل الفرق بين الحكمتين كالفرق بين الفعلين وكالفرق بين الوصفين والذاتين فليس كمثله شيء فى وصفه ولا فى فعله ولا في حكمة مطلوبه له من فعله بل الفرق بين الخالق والمخلوق فى ذلك كله أعظم فرق وأبينه وأوضحه عند العقول والفطر وعلى هذا فجميع ما ألزمت به الفرقة القائلة بالصلاح والاصلح بل واضعاف ماذكر من الالزامات لله فيه حكمة يختص بها لا يشاركه فيها غيره ولأجلها حسن منه ذلك وقبح من المخلوقين لانتفاء تلك الحكمة فى حقهم وهذا كما يحسن منه تعالى مدح نفسه والثناء عليها وان قبح من أكثر خلقه ذلك ، ويليق بجلاله الكبرياء والعظمة ويقبح من خلقه تعاطيهما كما روى عنه صلى الله عليه وسلم انه حكى عن الله تعالى انه قال « الكبرياء ازارى والعظمة ردائى فمن نازعنى واحدا منهما عذبته » وكما يحسن منه اماتة خلقه وابتلاؤهم وامتحانهم بأنواع المحن ويقبح ذلك من خلقه ، وهذا أكثر من أن تذكر أمثلته فليس بين الله وبين خلقه جامع يوجب أن يحسن منه ماحسن منهم ويقبح منه ماقبح منهم وانما تتوجه تلك الالزامات على من قاس أفعال الله تعالى بأفعال عباده دون من أثبت له حكمة يختص بها لا تشبه ما للمخلوقين من الحكمة فهو عن تلك الالزامات بمعزل ومنزله منها أبعد منزل ، ونكتة الفرق ان بطلان الصلاح والاصلح لا يستلزم بطلان الحكمة والتعليل كما أن التعليل الذى نثبته غير الذى تثبته المعتزلة كما مر فان المعتزلة أثبتوا لله شريعة عقلية وأوجبوا عليه فيها وحرموا بمقتضى عقولهم فالمعتزلة يوجبون على الله ويحرمون بالقياس على عباده ولا ريب أن هذا من أفسد القياس وأبطله كما نبه عليه وبينه الامام المحقق ابن القيم في كتابه مفتاح دار السعادة . وأما زعم المعتزلة استلزام الامر للارادة الكونية فباطل لا يعول عليه وبالله التوفيق

((فكل‌من)) أى أى آدمى من خلقه ((شاء)) أى الله تعالى ((هداه)) المراد بالهدى هنا التوفيق والالهام وهذه الهداية هى المستلزمة للاهتداء فلا يتخلف عنها وهى المذكورة فى قوله تعالى (يضل من يشاء ويهدى من يشاء) وفى قوله تعالى (ان تحرص على هداهم فان الله لا يهدى من يضل) وفى قول النبى صلى الله عليه وسلم « من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له » وفى قوله تعالى (انك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء) فنفى عنه هذه الهدابة وأثبت له هداية الدعـــوة والبيان فى قوله (وانك لتهدى الى صراط مستقيم) والمشيئة ترادف الارادة فكل من شاء الله تعالى هدايته من جميع خلقه ((يهتدى)) الهداية‌المطلوبة فى قوله تعالى (اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم) من النبين والصديقين والشهداء والصالحين

أنواع الهداية

واعلم أن أنواع الهداية أربعة أحدها الهداية العامة المشتركة بين الخلق المذكورة فى قوله تعالى (الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) أى أعطى كل شيء صورته التى لا يشتبه فيها بغيره وأعطى كل عضو شكله وهيأته وأعطى كل موجود خلقه المختص به ثم هداه الى ما خلقه له من الاعمال ، وهذه الهداية تعم هداية الحيوان المتحرك بارادته الى جلب ما ينفعه ودفع ما يضره ، وهداية الجماد المسخر لما خلق له ، فله هداية تليق به كما ان لكل نوع من الحيوان هداية تليق به وان اختلفت أنواعها وضروبها وكذلك لكل عضو هداية تليق به فالرجلان للمشى واليدان للبطش والعمل واللسان للكلام والاذن للاستماع والعين لكشف المرئيات وكل عضـــو لما خلق له وهدى الزوجين من كل حيوان للازدواج والتناسل وتربية الولد وهدى الولد الى التقام الثـــدى عند وضعه وطلبه • ومراتب هدايتـــه سبحانه لا يحصيها الا هو فتبارك الله رب العالمين وقد هدى النحل ان تتخـــذ من الجبال بيوتا ومن الشجر ومن الابنية ثم تسلك‌سبل‌ربها مذللة لها لا تستعصى عليها ثم تأوى الى بيوتها وهداها الى طاعة يعسوبها ثم هداها الى بناء البيوت العجيبة الصفة المحكمة البناء ومن تأمل بعض هدايته المبثوثة فى العالم شهد له بأنه الله الذى لا اله الا هو عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم •

(النوع الثانى) هداية البيان والدلالة والتعريف لنجدى الخير والشر وطريقى الهلاك والنجاة وهذه لا تستلزم الهدى التام فانها سبب وشرط لا موجب ولهذا ينتفى الهدى معها كقوله تعالى (واما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى) أى بينا لهم وأرشدناهم ودللناهم فلم يهتدوا ومنها قوله تعالى (وانك لتهدى الى صراط مستقيم)

(الثالث) هداية التوفيق والالهام المستلزمة للاهتداء التى ذكرناها آنفا .

(الرابع) غاية هذه الهداية وهى الهداية الى الجنة والنار اذا سيق أهلهما اليهما قال تعالى (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بايمانهم تجرى من تحتهم الانهار في جنات النعيم) وقال أهل الجنة فيها (الحمد لله الذى هدانا لهذا) وقال تعالى عن أهل النار (احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم الى صراط الجحيم) وتفاصيل أنواع الهداية وأسبابها ومتعلقاتها كثيرة جدا ذكرها الامام المحقق ابن القيم في كتابه بدائع الفوائد وقد لخصت لك منه ما لعله يحصل به أصل المقصود والله أعلم (تنبيه) المشهور عند المعتزلة ومن مذهبهم ان الهداية هى الدلالة الموصلة الى المطلوب فان لم تكن موصلة الى المطلوب فليست بهداية عندهم وعند أهل الحق ان الهداية مجرد الدلالة على طريق يوصل الى المطلوب سواء حصل الوصول والاهتداء أولم يحصل كما ذكرنا ذلك في النوع الثانى من أنواع الهداية وقوله تعالى (واما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى) وبالله التوفيق .

((وان يرد)) الله سبحانه وتعالى ((ضلال عبد)) من خلقه بترك المأمور وارتكاب المحظور ((يعتد)) بارتكاب ذلك وانتهاك المحارم واقتحام المهالك ، والضلال ضدالهدى يقال عدا عدوا وعدوانامحركةوتعدى وأعدى أحضر وعدا عليه عدوانا بالظلم ظلمه كعدى واعتدى .قال الامام ابن القيم في شرح منازل السائرين ان العدوان أن يتعدى ما أبيح منه الى القدر المحرم كالاعتداء في أخذ الحق ممن هو عليه اما ان يعتدى على ماله أو بدنه أو عرضه فاذا أتلف انسان عليه شيئا أتلف عليه أضعافه واذا قال فيه كلمة قال فيه أضعافها فهذا كله عدوان وتعد للعدل . قال وهو نوعان عدوان في

حق الله تعالى وعدوان في حق العبد فالذى في حق الله كما اذا تعدى ما أباح له من الوطء الحلال في الازواج والمملوكات الى ما حرم عليه من سواهما كما قال تعالى (والذين هم لفروجهم حافظون * الا على أزواجهم أو ما ملكت ايمانهم فانهم غير ملومين * فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون *) وكذلك لو تعدى ما أبيح له من زوجته وأمته الى ما حرم عليه منها كوطئها في حيضها أو نفاسها أو في احرام أحدهما أو صيامه الواجب ، وكذا كل ما أبيح له منه قدر معين فتعداه الى أكثر منه فهو من العدوان ، وكذلك العدوان في حق العبد تجاوز القدر الذى أبيح له منه فمتى تجاوز القدر المحدود كان معتديا وباغيا وظالما فارتكاب الاثم والعدوان والفحشاء والمنكر والخطايا والذنوب من الضلال ومن أعظمها القول على الله بلا علم فهو أشد المحرمات تحريما وأعظمها اثما ولهذا ذكر في المرتبة الرابعة من مراتب المحرمات التى اتفقت عليها الشرائع والاديان ولا تباح بحال بل لا تكون الا محرمة وهى المذكورة في قوله تعالى (قل انما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم والبغى بغير الحق وان تشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا وان تقولوا على الله ما لا تعلمون) وفي قوله تعالى (قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ان لا تشركوا به شيئا) الآيات والحاصل ان الله تعالى اذا شاء هداية عبده يهتدى واذا أراد ضلاله وهلاكه يعتدى فهو سبحانه الموفق لمن أراد له السعادة والخاذل من شاء ابعاده فالتوفيق والخذلان من الحكيم المنان . قال الامام ابن القيم فى شرح منازل السائرين :قدأجمع العارفون بالله ان التوفيق ان لا يكلك الله الى نفسك والخذلان أن يخلى بينك وبينها ، فالعباد متقلبون بين توفيقه وخذلانه ، بل العبد في الساعة الواحدة ينال نصيبه من هذا وهذا فيطيعه ويرضيه ويذكره ويشكره بتوفيقه ثم يعصيه ويخالفه ويسخطه ويغفل عنه بخذلانه له فهو دائر بين توفيقه وخذلانه فان وفقه ففضله ورحمته وان خذله فبعدله وحكمته ، وهو تعالى المحمود فى هذا وهذا له أتم حمد وأكمله ولم يمنع العبد شيئا هو له وانما منعه ما هو مجرد فضله وعطائه وهو أعلم حيث يضعه وأين يجعله ، فاذا علم العبد هذا المقام وشهده وأعطاه حقه علم ضرورته وفاقته الى التوفيق والهداية في كل نفس ولحظة وطرفة عين ، وعلم ان توحيده وايمانه ممسك

بيد غيره لو تخلى عنه طرفة عين لثل عرشه ولخرت سماء ايمانه على الارض وان الممسك له من يمسك السماء ان تقع على الارض الا باذنه فدأب هذا المشاهد لهذا المقام أن يقول بقلبه ولسانه يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك يا مصرف القلوب صرف قلبى الى طاعتك ، ودعواه يا حى يا قيوم يا بديع السموات والارض يا ذا الجلال والاكرام لا اله الا أنت برحمتك أستغيث أصلح لى شأنى كله ولا تكلنى الى نفسى طرفة عين ولا الى أحد من خلقك . ثم قال : والتوفيق ارادة الله من نفسه أن يفعل بعبده ما يصلح به العبد بأن يجعله قادرا على فعل ما يرضيه مريدا له محبا له مؤثرا له على غيره ويبغض اليه ما يسخطه ويكرهه وهذا مجرد فعله والعبد محل له قال تعالى (ولكن الله حبب اليكم الايمان وزينه في قلوبكم وكره اليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون * فضلا من الله ونعمة والله عليم حكيم) فهو سبحانه عليم بمن يصلح لهذا الفضل ومن لا يصلح له حكيم يضعه في مواضعه وعند أهله فلا يمنعه أهله ولا يضعه عند غير أهله . ولم يرتض بتفسير التوفيق بأنه خلق الطاعة ، والخذلان خلق المعصية، لان ذلك مبنى على مذهب الجبر وانكار الاسباب والحكم ، وقابلهم القدرية ففسروا التوفيق بالبيان العام والهدى العام والتمكن من الطاعة والاقتدار عليها وتهيئة أسبابها وهذا حاصل لكل أحد كافر ومشرك بلغته الحجة وتمكن من الايمان فالتوفيق عندهم أمر مشترك بين الكفار والمؤمنين اذ الاقدار والتمكين والدلالة والبيان قد عم به الفريقين ولو أفرد المؤمنين عندهم بتوفيق وقع به الايمان منهم والكفار بخذلان امتنع به الايمان منهم لكان ذلك عندهم محاباة وظلما والتزموا لهذا الاصل لوازم قامت بها عليهم سوق الشناعة من العقلاء ولم يجدوا بدا من التزامها فظهر فساد مذهبهم وتناقضه لمن أحاط به علما وتصوره حق تصوره وعلم انه من أردأ مذهب في الدنيا وأبطله وهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق باذنه والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم فأثبتوا القضاء والقدر وعموم مشيئة الله للكائنات وأثبتوا الاسباب والحكم والغايات والمصالح كما مر ونزهوا الله عز وجل أن يكون في ملكه ما لا يشاء وان يقدر خلقه على ما لا يدخل تحت قدرته ومشيئته وان يكون شيء من أفعالهم واقعا بغير اختياره وبدون مشيئته ، ومن قال ذلك

فلم يعرف ربه ولم يثبت له كمال الربوبية • والتوفيق في اللغة التأليف وجعل الاشياء متوافقة ، ونقل السعد التفتازانى عن امام الحرمين أن العصمة هي التوفيق بعينه فان عمت كانت توفيقا عاما وان خصت كانت توفيقا خاصا وأن اللطف هو التوفيق أيضا وأن الموفق لا يعصى اذ لا قدرة له على المعصية كما أن المخذول لا يطيع • والحاصل أن مذهب السلف على ماقرره الامام المحقق ان الهداية والتوفيق ارادة الله من نفسه ان يفعل بعبده ما يصلح العبد كما تقدم ومن أسمائه تعالى الهادى وهو الذى بصر عباده وعرفهم طريق معرفته حتى أقروا بربوبيته وهدى كل مخلوق الى ما لا بد له منه في بقائه ودوام وجوده وبالله التوفيق •

(تنبيه)

تقسيم الارادة الى كونية ودينية

فهم من النظم ان البارى جل وعلا يريد من العبيد ما لا يرضاه ولا يحبه فان الارادة والمشيئة مترادفتان وهى لا تستلزم الامر والرضا والمحبة كما تقدم في بحثها ، وقالت المعتزلة يمتنع عليه تعالى ارادة الشرور والمعاصى والقبائح وقالوا يريد ما لا يقع ويقع ما لا يريد ، فزعموا انه تعالى أراد من الكافر الايمان وان لم يقع لا الكفر وان وقع ، وكذا أراد من الفاسق الطاعة لا الفسق ، حتى زعموا ان أكثر ما يقع من عباده على خلاف مراده تعالى الله عن ذلك وزعموا ان ارادة القبيح قبيحة والله تعالى منزه عن القبائح ورد بأنه تعالى لا يقبح منه شىء وان خفى علينا وجه حسنه وتقدم هذا في قوله :

وكل ما يفعله العباد   من طاعة أو ضدها مراد

الابيات المارة آنفا ، والحاصل أن الامر والرضا والمحبة لا تكون الا فى الخير والارادة قد تكون في الخير وقد تكون في غيره فهى تتعلق بكل ممكن كما تقدم قال الله تعالى « ولا يرضى لعباده الكفر — ان الله لايأمر بالفحشاء» فان قلت قد قال الله تعالى (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) وقال تعالى (واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها) فالجواب ان الارادة التى نعنيها هى الارادة الكونية ، وأما الارادة الدينية فهى ترادف الرضا والمحبة ، وكذلك الامر الذى نعنيه أو نتكلم عليه الامر الدينى وأما

الامر الكونى فهو يرادف الارادة كما في عدة آيات قرآنية على أن أظهر تفاسير قوله تعالى « أمرنا مترفيها » أى أمرناهم بطاعتنا والانقياد لأمرنا على ألسنة رسلنا ففسقوا بمخالفة رسلنا • ومما يحكى أن القاضى عبد الجبار الهمذانى المعتزلى دخل على الصاحب بن عباد وكان معتزليا أيضا وكان عنده الاستاذ أبو اسحاق الاسفراينى من أئمة أهل السنة ومحققى الاشاعرة فقال عبد الجبار على الفور سبحان من تنزه عن الفحشاء • فقال أبو اسحاق فورا سبحان من لا يقع فى ملكه الا ما يشاء • فقال له عبد الجبار ـ وفهم انه قد عرف مراده : أيريد ربنا أن يعصى ؟ فقال أبو اسحاق : أيعصى ربنا قهرا ؟ فقال له عبد الجبار : أرأيت أن منعنى الهدى وقضى على بالردى أحسن الى أم أساء ؟ فقال له الاستاذ أبو اسحاق : ان كان منعك ما هو لك فقد أساء وان كان منعك ما هو له فيختص برحمته من يشاء • فانصرف الحاضرون وهم يقولون والله ليس عن هذا جواب • وقد قدمنا ما لعله يشفي ويكفى والله الموفق •

فان قيل كيف يريد الله سبحانه أمرا لا يرضاه ولا يحبه وكيف يشاؤه ويكونه وكيف تجتمع ارادته له وبغضه وكراهته ؟ فالجواب اعلم أن هذا السؤال أصل الافتراق والاضلال الواقع بين طوائف المسلمين وفرق الموحدين، واعلم ان المراد نوعان مراد لنفسه ومراد لغيره فالمراد لنفسه مطلوب محبوب لذاته وما فيه من الخير فهو مراد ارادة الغايات والمقاصد ، والمراد لغيره قد لا يكون في نفسه مقصودا للمريد ولا فيه مصلحة له بالنظر الى ذاته وان كان وسيلة الى مقصوده ومراده ، فهو مكروه له من حيث نفسه وذاته مراد له من حيث افضاؤه وايصاله الى مراده فيجتمع فيه الامران بغضه وارادته من غير تناف لاختلاف متعلقهما كالدواء المتناهى في الكراهة اذا علم متناوله ان فيه شفاءه ، وقطع العضو المتأكل اذا علم أن في قطعه بقاء جسده ، وقطع المسافة الشاقة جدا اذا علم أنها توصل الى مراده ومحبوبه ، بل العاقل يكتفى في ايثار هذا المكروه وارادته بالظن الغالب وان خفيت عنه عاقبته وطويت عنه مغبته فكيف بمن لا تخفى عليه العواقب ؟ فهو سبحانه يكره الشيء ويبغضه في ذاته ولا ينافي ذلك ارادته لغيره وكونه سببا لأمر هو أحب اليه من فوته ،

من ذلك خلق ابليس الذى هو مادة لفساد الاديان والاعمال والاعتقادات والارادات وهو سبب شقاء العبيد وعملهم بما يغضب الرب المريد وهو الساعى في وقوع مساخط الله ومناهيه بكل طريق وحيلة فهو مسخوط للبارى مبغوض قد لعنه وأبعده وغضب عليه وطرده ، ومع هذا فهو وسيلة الى محاب كثيرة للبارى جل وعلا ترتب وجودها على خلقه وايجاده ،ووجودها أحب الى الله من عدمها لحكمة جرت منه في عباده على وفق مراده (منها) اظهار القدرة على خلق المتضادات المتقابلات كخلق هذه الذات التى هى أخبث الذوات وشرها وهى سبب كل شر فى مقابلة ذات جبريل التىهى من أشرف الذوات وأطهرها وازكاها وهى مادة كل خير فتبارك الله خالق الاضداد وكما ظهرت قدرته التامة في خلق الليل والنهار والضياء والظلام والداء والدواء والحياة والموت والحر والبرد والحسن والقبح والارض والسماء والماء والنار والخير والشر وكلذلك ونظائره مندلائل كمالقدرته وعزته فانه خلق هذه المتضادات وقابل بعضها ببعض وسلط بعضها على بعض وجعلها محال تصرفه وتدبيره وحكمته فخلو الوجود عن بعضها بالكلية تعطيل لحكمته وكمال تصرفه وتدبير مملكته ٠

(ومنها) ظهور آثار أسمائه القهرية كالقهار والمنتقم والعدل والضار ونحوها وظهور آثار أسمائه المتضمنة لحلمه وعفوه ومغفرته وستره وتجاوزه عن حقه وعتقه لمن شاء من عبيده فلولا خلق ما يكرهه من الاسباب المفضية الى ظهور هذه الاسماء لتعطلت هذه الحكم والفوائد وفى الحديث « لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم » (ومنها) ظهور آثار أسماء الحكمة والخبرة فانه الحكيم الخبير الذى يضع الاشياء مواضعها وينزلها منازلها اللائقة بها فلا يضع الشيء في غير موضعه ولا ينزله غير منزلته التى يقتضيها كمال علمه وحكمته وخبرته من المنع والعطاء والثواب والعقاب والخفض والرفع والعز والذل ونحوها (ومنها) حصول العبودية المتنوعة التى لولا خلق ابليس لما حصلت ولكان الحاصل بعضها لا كلها فعبودية الجهاد سببها الكفر والعناد الناشيء عن تلبيس ابليس، وعبودية التوبة المحبوبة الى الله تعالى وعبودية مخالفة أعدائه ومراغمتهم

ومنها عبودية الاستعاذة من الشيطان الرجيم ونفس اتخاذ ابليس عدوا من أكبر أنواع العبودية وأجلها ، الى غير ذلك من الحكم والفوائد التى أبداها الامام المحقق ابن القيم في شرح منازل السائرين فلخصت منها ما لعله يدل الفطن على ما لا يدخل تحت الاحصاء فان وجودها مترتب على وجود ابليس ترتيب وجود المسبب على سببه والملزوم على لازمه •

ثم قال : فان قلت فاذا كانت هذه الاسباب مرادة لما تفضى اليه من الحكم فهل تكون مرضية محبوبة من هذا الوجه أم هى مسخوطة من جميع الوجوه ؟ فأجاب بأن هذا السؤال يرد على وجهين أحدهما من جهة الرب سبحانه وهل يكون محبا لها من جهة افضائها الى محبوبه وان كان يبغضها لذواتها ؟ والثانى من جهة العبد وهو انه هل يشرع له الرضا بها من تلك الجهة أيضا ؟ فاعلم ان الشر كله يرجع الى العدم أعنى عدم الخير وأسبابه المفضية اليه وهو من هذه الجهة شر وأما من جهة وجوده المحض فلا شر فيه ، مثاله ان النفوس الشريرة وجودها خير من حيث هى موجودة وانما حصل لها الشر بقطع مادة الخير عنها ، فانها خلقت في الاصل متحركة لا تسكن فان أعينت بالعلم والهام الخير تحركت به وان تركت تحركت بطبعها الى خلافه وحركتها من حيث هى حركة خير وانما تكون شرا بالاضافة لا من حيث هى حركة والشر كله ظلم وهو وضع الشىء في غير موضعه فلو وضع فى موضعه لم يكن شرا ، فعلم أن جهة الشر فيه نسبة اضافية ولهذا كانت العقوبات الموضوعة في محالها خيرا في نفسها وان كانت شرا بالنسبة الى المحل الذى حلت به لما أحدثت فيه من الالم الذى كانت الطبيعة قابلة لضده من اللذة مستعدة له فصار ذلك الالم شرا بالنسبة اليها وهو خير بالنسبة الى الفاعل حيث وضعه موضعه فانه سبحانه لا يخلق شرا محضا من جميع الوجوه والاعتبارات فان حكمته تأبى ذلك بل قد يكون ذلك المخلوق شرا ومفسدة ببعض الاعتبارات وفي خلقه مصالح وحكم باعتبارات أخر أرجح من اعتبارات مفاسده بل الواقع منحصر في ذلك فلا يمكن فى جناب الحق جل جلاله أن يريد شيئا يكون فسادا من كل وجه وبكل اعتبار لا مصلحة في خلقه بوجه ما ، هذا من أبين المحال فانه سبحانه بيده

الخير،والشر ليس اليه بل كل ما اليه فخير، والشر انما حصل لعدم هذه الاضافة والنسبة اليه فلو كان اله لم يكن شرا فتأمله فانقطاع نسبته اليه هو الذى صيره شرا •

فان قلت لم تنقطع نسبته اليه خلقا ومشيئة،قلت هو من هذه الجهة ليس بشر والشر الذى فيه من عدم امداده بالخير وأسبابه والعدم ليس بشيء حتى ينسب الى من بيده الخير • فان أردت مزيد ايضاح في ذلك فاعلم ان أسباب الخير ثلاثة الايجاد والاعداد والامداد فهذه هى الخيرات وأسبابها فايجاد هذا السبب خير وهو الى الله ، واعداده خير وهو اليه أيضا وامداده خير وهو اليه أيضا فاذا لم يحدث فيه اعدادا ولا امدادا حصل فيه الشر بسبب هذا العدم الذى ليس الى الفاعل وانما اليه ضده • فان قلت فهلا أمده اذ أوجده ؟ قلت ما اقتضت الحكمة ايجاده وامداده فانه سبحانه يوجده ويمده ، وما اقتضت الحكمة ايجاده وترك امداده أوجده بحكمته ولم يمده بحكمته فايجاده خير والشر وقع من عدم امداده •

فان قلت فهلا أمد الموجودات كلها ؟ فالجواب هذا سؤال فاسد يظن مورده ان (•••) الموجودات أبلغ في الحكمة ،وهذا عين الجهل ،بل الحكمة كل الحكمة فى هذا التفاوت العظيم الواقع بينها وليس في خلق كل نوع منها تفاوت فكل نوع منها ليس في خلقه من تفاوت والتفاوت انما وقع بأمور عدمية لم يتعلق بها الخلق والا فليس فى الخلق من تفاوت • قال رحمه الله تعالى فان اعتاص ذلك عليك ولم تفهمه حق الفهم فراجع قول القائل

اذا لم تستطع شيئا فدعه وجاوزه الى ما تستطيع

وسر المسئلة ان الرضا بالله يستلزم الرضا بصفاته وأفعاله وأسمائه وأحكامه ولا يستلزم الرضا بمفعولاته كلها بل حقيقة العبودية ان يوافقه عبده في رضاه وسخطه فيرضى منها بما رضى ويسخط منها ما سخطه •

فان قيل هو سبحانه يرضى عقوبة من يستحق العقوبة فكيف يمكن العبد ان يرضى بعقوبته له فالجواب لو وافقه في رضاه بعقوبته لانقلبت لذة وسرورا ولكن لا يقع منه ذلك فان لم يوافقه في محبة طاعته التى هى سرور النفس وقرة العين وحياة القلب فكيف يوافقه فى محبة العقوبة التى هى أكره شيء

اليه وأشق شيء عليه بل من كان كارها لما يحبه من طاعته وتوحيده فلا يكون راضيا بما يختاره من عقوبته ولو فعل ذلك لارتفعت عنه العقوبة • ويأتى لهذا تتمة فى الرضا بالقضاء ان شاء الله تعالى •

((فصـــل))

فصل فى الكلام على الرزق

في الكلام على الرزق وهو اسم لما يسوقه الله تعالى الى الحيوان فيأكله قال فى القاموس الرزق بالكسر ما ينتفع به كل مرتزق والجمع ارزاق وبالفتح المصدر وقد أشار الناظم الى ذكره بقوله :

((والرزق ما ينفع من حلال	أو ضـده فحل عن المحال))
((لأنه رازق كل الخـــلق	وليس مخـــلوق بغير رزق))
((ومن يمت بقتله من البشر	أو غيره فبالقضاء والقـــدر))
((ولم يفت من رزقه ولا الاجل	شيء فدع أهل الضلال والخطل))

((والرزق ما ينفع)) المرتزق أى ينتفع[1] المرتزق بحصوله سواء كان

---

(١) بهامش مط قوله : ينتفع : وللشيخ تقي الدين تفصيل نفيس نصه « والرزق يراد به شيئان أحدهما بيان ما ينتفع به العبد والثـــانى ما يملكه العبد فالثانى هو المذكور فى قوله تعالى : « ومما رزقناهم ينفقون - وانفقوا مما رزقناكم » وهذا هو الحلال الذى ملكه الله اياه وأما الاول فهو المذكور فى قوله تعالى : « وما من دابة » الآية وقوله صلى الله عليه وسلم : « وان نفسا » الآتى فى كلام المصنف والعبد قد يأكل الحلال والحرام فهو رزق بالاعتبار الاول لا الثانى ا هـ عبد الوهاب (كذا فى هامش الاصل) وفى تعليق ينسب الى الشيخ عبد الله بابطين ما لفظه :

لا ريب أن ما ذكره المؤلف رحمه الله أولى بالصواب لكـــن ينبغى أن يعرف أن رزق الله تعالى على نوعين أحدهما خاص وهو الرزق الحـــلال للمؤمنين وهذا هو الرزق النافع الذى لا تبعة فيه كما قال تعالى : « ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا اذا ما اتقـــوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا » • وقال تعالى : « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة » • وأما النوع الثانى فهو رزق عام يكون فيه قوام البدن فقط وان كان قد يكون فيه تبعة وهذا هو رزق البهائم والرزق الحرام ومنه رزق الكفار فان الكفار لا يرفعـــون لقمة الى أفواههم ولا يتجرعون جرعة ماء الا حوسبوا عليها كما يفيده قوله تعالى : « قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة » وقوله : « ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح » فان مفهوم الآيتين يدل على أن الكفار عليهم تبعة فيما يطعمونه ويلبسونه وليس بخالص لهم ولان اللـــه تعالى انما أباح لنا الاكل والشرب واللباس لنستعين بها على طاعته لا على معصيته • وبهذا التفصيل يتضح المعنى ولله الحمد • والله أعلم •

ذلك المنتفع به ((من حلال)) وهو ما انحلت عنه التبعات وهو ضد الحرام ولهذا قال ((أو ضده)) أى ضد الحلال وهو الحرام وهو ما منع منه شرعا اما لصفة في ذاته ظاهرة كالسم والخمر أو خفية كالربا ومذكى المجوس ونحوه لأنه في حكم الميتة ، واما لخلل في تحصيله كالربا والغصب ونحو ذلك فكل ذلك رزق لأن الله يسوقه للحيوان فيتناوله ويتغذى به ، وخالفت المعتزلة في ذلك فقالوا الحرام ليس برزق وفسروه تارة بمملوك يأكله المالك وتارة بما لا يمنع عن الانتفاع به وذلك لا يكون الا حلالا فيلزمهم على التفسير الاول ان ما يأكله الدواب ليس برزق مع ظاهر قوله تعالى (وما من دابة فى الارض الا على الله رزقها) فيكون مصادما للقرآن لانه يقتضى أن تكون كل دابة مرزوقة ، ولا ينفعهم زعمهم ان تسمية ما يأكله الدواب رزقا مبنى على تشبيهه بما هو مملوك الانسان فيأكله فيكون لفظ الرزق مجازا عما تأكله الدواب فلا يلزم أن تكون كل دابة مرزوقة حقيقة . لأنا نقول هذا التأويل مخالف لظاهر القرآن وهو خلاف المتعارف في اللغة فلا يصح ارتكابه من غير ضرورة ثم ان تفسيرهم الرزق بذلك ليس بمطرد ولا منعكس لدخول ملك الله تعالى وخروج رزق الدواب والعبيد والاماء ويلزمهم أيضا على الوجهين ان من أكل الحرام طول عمره لم يرزقه الله تعالى أصلا وهو خلاف الاجماع الحاصل من الامة قبل ظهور المعتزلة أن لا رازق الا الله وان استحق العبد الذم واللوم على أكل الحرام . والاضافة الى الله تعالى معتبرة في مفهوم الرزق وكل أحد مستوف رزق نفسه حلالا كان أو حراما ولا يتصور أن لا يأكل انسان رزقه أو يأكل غير رزقه لان ما قدر الله تعالى غذاء لشخص يجب أن يأكله ويمتنع ان يأكله غيره ولهذا قال ((فحل)) أى زل وارجع ((عن المحال)) وجه كونه محالا أنه لا أحد يبقى بلا رزق ولا يمكن الا أن يأكل رزقه فاذا تغذى طول عمره بالحرام يكون ما رزقه الله تعالى وهو محال وعلى كل حال ما ذهب اليه المعتزلة ضرب من المحال ولهذا أوضح كون ذلك محالا بقوله ((لأنه)) سبحانه وتعالى ((رازق كل الخلق)) كما في الأدلة القرآنية والاحاديث النبوية مما

لا يحصى الا بكلفة كقوله تعالى « وما من دابة في الأرض الا على الله رزقها ـ وكلوا من رزقه ـ ان الله هو الرزاق » ((وليس)) يوجد ((مخلوق)) من سائر الحيوانات ويبقى ((بغير رزق)) فظهر فساد مذهب المعتزلة وحقيقة[1] مذهب أهل الحق فان الله تعالى قسم بين الخلق معايشهم في الحياة الدنيا ومعلوم أن الحرام معيشة لبعض الانام والله الفعال لما يريد ((ومن يمت)) من سائر الحيوانات ((بقتله)) من سائر أنواع القتل ((من البشر)) محركة الانسان ذكرا كان أو أنثى واحدا أو جمعا وقد يثنى ويجمع ابشارا وقدمه للاعتناء به والاهتمام بأحواله ولأنه المقصود بالذكر وانما قال ((أو غيره)) من سائر الحيوانات لدفع توهم ان ما قتل منها ليس كذلك ((ف)) موته ((بالقضاء)) أى بقضاء الله تعالى وهو لغة الحكم وعرفا ارادة الله الازلية المتعلقة بالاشياء على ما هى عليه فيما لا يزال ((والقدر)) بتحريك الدال وتسكن مصدر قدرت الشىء بفتح الدال مخففة اذا أحطت بمقداره وأل فيه وفى القضاء عوض عن مضاف اليه أى بتقدير الله تعالى لذلك ، وهو عند الماتريدية تحديده تعالى أزلا كل مخلوق بحده الذى يوجد به من حسن وقبح ونفع وضر وما يحويه من زمان ومكان وما يترتب عليه من طاعة وعصيان وثواب وعقاب وغفران ، وعند الاشاعرة ايجاد الله تعالى الأشياء على قدر مخصوص وتقدير معين في ذواتها وأحوالها طبق ما سبق به العلم وجرى به القلم ، قال الخطابى رحمه الله تعالى قد يحسب كثير من الناس ان معنى القدر من الله تعالى والقضاء معنى الاجبار والقهر للعبد على ما قضاه وقدره ويتوهم ان قوله صلى الله عليه وسلم « فحج آدم موسى » من هذا الوجه وليس كذلك وانما معناه الاخبار عن تقدم علم الله تعالى بما يكون من أفعال العباد واكتسابهم وصدورها عن تقدير منه تعالى وخلق لها خيرها وشرها ، قال والقدر اسم لما صدر مقدرا عن فعل القادر كالهدم والنشر والقبض أسماء لما صدر عن فعل الهادم والناشر والقابض ، يقال قدرت الشىء وقدرت خفيفة وثقيلة بمعنى واحد ، قال والقضاء معناه فى هذا الخلق كقوله تعالى (فقضاهن

موت القتيل بالقضاء والقدر

معنى القضاء والقدر

---

(١) الظاهر « وحقية » .

سبع سموات في يومين) أى خلقهن واذا كان الامر كذلك فقد بقى عليهم من وراء علم الله فيهم أفعالهم واكتسابهم ومباشرتهم تلك الامور وملابستهم اياها عن قصد وتعمد وتقديم ارادة واختيار والحجة انما تلزمهم بها واللائمة تلحقهم عليها ، قال وجماع القول في هذا انهما أمران لا ينفك أحدهما عن الآخر لأن أحدهما بمنزلة الاساس والآخر بمنزلة البناء فمن رام الفصل بينهما فقد رام هدم البناء ونقضه ، وانما كان موضع الحجة لآدم على موسى عليهما السلام ان الله سبحانه وتعالى كان قد علم من آدم انه يتناول الشجرة ويأكل منها فكيف يمكنه أن يرد علم الله فيه وان يبطله بعد ذلك ، وبيان هذا في قوله تعالى (واذ قال ربك للملائكة انى جاعل في الأرض خليفة) فاخبر قبل كون آدم انما خلقه للأرض وانه لا يتركه في الجنة حتى ينقله عنها اليها ، وانما كان تناوله سببا لوقوعه الى الارض التى خلق لها ليكون فيها خليفة واليا على من فيها ، فانما أدلى آدم بالحجة على موسى لهذا المعنى ودفع لائمة موسى عن نفسه ، ولذلك قال أتلوموني على أمر قد قدره الله على من قبل أن يخلقني قال فقول موسى وان كان في النفوس منه شبهة وفي ظاهره متعلق لاحتجاجه بالسبب الذى جعل امارة لخروجه من الجنة فقول آدم في تعلقه بالسبب الذى هو بمنزلة الأصل أرجح وأقوى والفلج قد يقع مع المعارضة بالترجيح كما يقع بالبرهان الذى لا معارض له انتهى •

حديث حج آدم موسى

والحديث الذى احتج فيه آدم على موسى رواه البخارى ومسلم وغيرهما من حديث أبي هريرة ، وروى أيضا باسناد جيد من حديث ابن عمر رضى الله عنهم عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « احتج آدم وموسى » وفي لفظ ان موسى قال يارب أرنا آدم الذى أخرجنا من الجنة بخطيئته فقال موسى يا آدم أنت أبو البشر خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأسجد لك ملائكته لماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة ؟ فقال له آدم أنت موسى الذى اصطفاك الله بكلامه وكتب لك التوراة بيده فبكم تجد فيها مكتوبا : وعصى آدم ربه فغوى ــ قبل أن أخلق ؟ قال بأربعين سنة ، وفي لفظ قال أفتلومني على أمر قد قدر على قبل أن أخلق بأربعين سنة ؟ قال

فحج آدم موسى » قال شيخ الاسـلام ابن تيمية روح الله روحه ظن طوائف في هذا الحديث ان آدم احتج بالقدر على الذنب وانه حج موسى بذلك ، فطائفة من هؤلاء يدعون التحقيق والعرفان يحتجون بالقـدر على الذنوب مستدلين بهذا الحديث ، وطائفة يقولون الاحتجاج به سـائغ في الآخرة لا في الدنيا ، وطائفة يقولون هو حجة للخاصة المشاهدين للقدر دون العامة ، وطائفة كذبت به كالجبائي وغيره ، وطائفة تأولتـه تأويلات فاسدة مثل قول بعضهم انما حجه لأنه كان قـد تاب ، وقول آخـر كان أباه والابن لا يلوم أباه ، وقول آخر كان الذنب في شريعـة واللوم في أخرى ، قال وهذا كله تعريج عن مقصود الحديث • وظاهر ما يؤخذ من كلام شيخ الاسلام ومن مفهوم الحديث ان آدم انما حج موسى عليهما السلام لكونه قد كان تاب من الذنب الصورى واستسلم للمصيبة التى لحقت الذرية بسبب أكله المقدر عليه فالحديث تضمن التسليم للقدر عند المصائب لا عند الذنوب والمعايب فيصبر على المصائب ويستغفر من الذنوب كما قال تعالى (فاصبر ان وعد الله حق واستغفر لذنبك) وقال تعالى (ما أصاب من مصيبة الا باذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه) قالت طائفة من السلف كان ابن مسعود رضى الله عنـه يقول هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم انها من عنـد الله فيرضى ويسلم • فالايمان بالقدر والرضا بما قدره الله من المصائب ، والتسليم لذلك هو من حقيقة الايمان ، وأما الذنوب فليس لأحد أن يحتج على فعلها بقدر الله تعالى ، بل عليه أن لا يفعلها واذا فعلها فعليه أن يتوب منها كما فعل آدم عليه السلام • وقال العلامة ابن مفلح في الآداب قال شيخ الاسلام تقى الدين ابن تيمية قدس الله روحه : موسى قال لماذا أخرجتنا ونفسك من الجنـة فلامه على المصيبة التى حصلت بسبب فعله لا لأجل كونها ذنبا ، ولهذا احتج عليه آدم عليه السلام بالقدر ، وأما كونه لأجل الذنب كما يظنه طوائف من الناس فليس مرادا بالحديث فان آدم عليه السـلام كان قد تاب من الذنب والتائب من الذنب كمن لا ذنب له ولا يجوز لوم التائب باتفاق الناس ، قال ولأن آدم عليه السلام احتج بالقدر وليس لأحد أن يحتج بالقدر على الذنب باتفاق المسلمين وسائر أهل الملل وسائر العقلاء • وقال شيخ الاسلام أيضـا

في كتابه الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان : وهذا الحديث قد ضلت به طائفتان طائفة كذبت به لما ظنوا انه يقتضى رفع الذم والعقاب عمن عصى الله عز وجل لأجل القدر ، وطائفة شر من هؤلاء جعلوه حجة لأهل الحقيقة الذين شهدوه أو الذين لا يرون أن لهم فعلا - وذكر نحو ماقدمنا من الطوائف ، ثم قال : وكل هذا باطل ولكن وجه الحديث ان موسى عليه السلام لم يلم أباه الا لأجل المصيبة التى لحقته من أجل أكله من الشجرة فقال لماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة ؟ لم يلمه لمجرد كونه أذنب وتاب منه فان موسى عليه السلام يعلم ان التائب من الذنب لا يلام ولو كان آدم عليه السلام يعتقد رفع الملام عنه لأجل القدر لم يقل (ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) والمسلم مأمور عند المصائب ان يصبر ويسلم وعند الذنوب يستغفر ويتوب والله أعلم •

اذا علمت هذا مع ما قدمناه تحت قوله* وكل ما يفعله العباد* البيتين والتنبيهات التى ذكرناها في أثناء ذلك علمت أن القدر عند السلف ما سبق به العلم وجرى به القلم مما هو كائن الى الأبد • وانه عز وجل قدير مقادير الخلائق وما يكون من الأشياء قبل أن تكون في الازل وعلم سبحانه وتعالى انها ستقع في أوقات معلومة عنده تعالى وعلى صفات مخصوصة فهى تقع على حسب ما قدرها • قال شيخ الاسلام ابن تيمية أغدق اللهالرحمةعلىضريحه: « ان علم الله السابق محيط بالأشياء على ما هى عليه ولا محو فيه ولا تغيير ولا زيادة ولا نقص فانه سبحانه يعلم ما كان وما يكون وما لا يكون لو كان كيف كان يكون كما تقدم ، قال وأما ما جرى به القلم في اللوح المحفوظ فهل يقع فيه محو واثبات ؟ على قولين للعلماء ، قال وأما الصحف التى بيد الملائكة فيحصل فيها المحو والاثبات • انتهى • وتقدم • اذا علمتهذا فقوله ومن يمت بقتله الخ ان المراد ان المقتول ميت بأجله أى الوقت المقدر لموته لا كما يزعم بعض المعتزلة من ان الله تعالى قد قطع عليه الأجل ، والحق عند أهل الحق ان المقتول ميت فى الوقت الذى قدره الله تعالى له وعلم انه يموت فيه لا كما زعمت المعتزلة انه قد قطع عليه الاجل ، يعنى لم يوصلهاليه وانه لو لم يقتل لعاش الى أمد هو أجله الذى علم الله تعالى موته فيه لولا

القتل ، فهم يقطعون بامتداد العمر لولا القتل • وحاصل النزاع ان المراد بالاجل المضاف زمان تبطل فيه الحياة قطعا من غير تقدم ولا تأخر فهل يتحقق ذلك في المقتول أم المعلوم في حقه انه ان قتل مات وان لم يقتل فيعيش الى وقت هو أجل له ، فعندهم القاتل قد قطع عليه الاجل وانه لو لم يقتل لعاش الى أمد هو أجله الذى علم الله تعالى موته فيه لولا القتل ، وزعم أبو الهذيل منهم انه لو لم يقتل لمات في ذلك الوقت البتة ، وقول غيره لو لم يقتل لجاز أن يموت في ذلك الوقت وان لا يموت ، وهو مذهب أهل السنة يعنى الى أجله الذى اذا جاء لا يتأخر عنه ولا يتقدم كما قال تعالى (اذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) وادعى أبو الحسين ومن تابعه من المعتزلة بأن المسألة بديهية يعنى موت المقتول من فعل القاتل وبقاؤه لولا القتل ضرورية يدرك من غير استدلال بل بمجرد البديهة ، والجمهور منهم كانوا يقولون ان المسألة استدلالية ، وقال الكعبى منهم ان المقتول تبطل حياته بأجل القتل وليس المقتول بميت فيخص الموت بما لا يكون على وجه القتل على ما يشعر به قوله تعالى (أفان مات) الآية لكن المعنى مات حتف أنفه فمجرد بطلان الحياة موت ، والحاصل ان المقتول مات بأجله الذى أجله الله تعالى الذى لا يتقدم موته عليه لحظة ولا يتأخر عنه لحظة فانه عز وجل حكم بآجال العباد على علم من غير تردد فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون • وأما الاحاديث التى فيها ان بعض الطاعات تزيد في العمر مثل صلة الرحم ونحو ذلك مما جاء انه يقصر العمر فهذا في الصحف التى يقع فيها المحو والاثبات وعلم الله تعالى لا يقع فيه تغيير ولا زيادة ولا نقصان كما مر آنفا • والحق ان الاجل واحد لا كما زعم الكعبى ان للمقتول أجلين القتل والموت وانه لو لم يقتل[1] لعاش الى أجله الذى هو الموت ولا كما

---

(١) بهامش مط ما لفظه : قوله ولو لم يقتل الخ وللشيخ هنا كلام نفيس نصه : المقتول يموت بأجله عندعامة المسلمين الا فرقة من القدرية قالوا ان القاتل قطع أجل المقتول ثم تكلم الجمهور لو لم يقتل فقال بعضهم كان يموت لأن اجله فرغ وقال بعضهم لايموت لانتفاء السبب ، وكلا القولين قال من ينتسب الى السنة وكلاهما خطأ فان القدر سبق بأنه يموت بهذا السبب لا بغيره فاذا قدر انتفاء هذا السبب كان فرض خلاف ما فى المقدور ولو كان المقدور انه لا يموت بهذا أمكن أن يكون المقدر انه يموت بغيره وأمكن أن

زعمت الفلاسفة ان للحيوان أجلا طبيعيا قيل هو في الانسان ان يبلغ مائة وعشرين سنة وموته عندهم بتحلل رطوبته وانطفاء حرارته الغريزيتين وأجل آخر غير الطبيعى اخترامه بحسب الآفات والامراض • ولرد هذه المذاهب الباطلة والعقائد الفاسدة العاطلة أشير بقوله ((ولم يفت)) على المقتول ولا غيره ((من رزقه)) المقسوم له في علم الملك الحى القيوم شيء قل ولاجل ((ولا)) فاته أيضا من ((الاجل)) المحتوم ((شيء)) ولا لحظة واحدة ((فدع)) أى اترك وجانب ((أهل الضلال)) من طوائف الاعتزال فانهم ضلوا الطريق القويم وأضلوا عن الصراط المستقيم ((و)) دع أهل ((الخطل)) وهو بفتح الخاء المعجمة والطاء المهملة الخفة والسرعة والكلام الفاسد الكثير وهذا مناسب لحال الفلاسفة لسرعة كلامهم وتنميقه وخفته وتزويقه مع ما فيه من الاضطراب وكثرة الخطأ وقلة الصواب والتناقض والتحكم بالعقول والخوض فيما لا يعلم حقيقته الا بالتلقى عن الرسول فكم لهم من هفوة باردة ومقالة فاسدة فدع نحاتة أفكارهم ونخالة آرائهم وابتكارهم واكرع من المنهل العذب الزلال الصافى وتضلع من الغذاء الهنيء المريء الشافي الذى جاء به الرسول عن جبريل عن رب العالمين لا ما قذفته الأفكار من الوساوس ووحى الشياطين •

أحاديث في القضاء والقدر

(تتمة) في ذكر بعض ما ورد في هذا الفصل من الاخبار عن النبى المختار صلى الله عليه وسلم ما تعاقب الليل والنهار روى ابن حبان في صحيحه والحاكم وصححه من حديث جابر بن عبد الله رضى الله عنهما ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لا تستبطؤا الرزق فانه لم يكن عبد ليموت حتى يبلغ آخر رزق هو له فأجملوا في الطلب أخذ الحلال وترك الحرام » وعنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يا أيها الناس اتقوا الله وأجملوا في الطلب فان نفسا لن تموت حتى تستوفي رزقها وان أبطأ عنها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب خذوا ما حل ودعوا ما حرم » رواه ابن ماجه

يكون المقدر انه لا يموت فالجزم بأحدهما جهل فما تعددت أسبابه لم يجزم بعدمه عند عدم بعضها ولم يجزم بثبوته ان لم يعرف له سبب آخر بخلاف ماليس له الا سبب واحد مثل دخول النار فانه لايدخلها الا من عصى الله اهـ ع ب (كذا فى هامش الاصل) •

واللفظ له والحاكم وقال على شرط مسلم • وأخرج الحاكم من حـديث ابن مسعود رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ليس من عمل يقرب من الجنة الا وقد أمرتكم به ولا عمل يقرب من النار الا وقـد نهيتكم عنه فلا يستبطئن أحد منكم رزقه فان جبريل ألقى في روعى ان أحدا منكم لن يخرج من الدنيا حتى يستكمل رزقه فاتقوا الله أيها الناس وأجملوا في الطلب فان استبطأ أحد منكم رزقه فلا يطلبه بمعصية الله تعـالى فان الله لا ينال فضله بمعصيته » وفي حديث حذيفة رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال هذا رسول رب العالمين جبريل عليه السلام نفث في روعى انه لا تموت نفس حتى تستكمل رزقها • رواه البزار • وفي حـديث ابن مسعود رضى الله عنه قال حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق « ان أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما نطفة ، ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات بكتب رزقه وأجله وعمله وشقى أو سعيد » الحديث رواه البخارى ومسلم وغيرهما • وقد روى عن محمد بن يزيد الاسفاطى قال رأيت النبى صلى الله عليـه وسلم فيما يرى النائم فقلت يا رسـول الله حديث ابن مسعود الذى حدث عنك فقال حدثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق ؟ فقال صلى الله عليه وسلم « والذى لا اله الا هو حدثته به أنا » يقولها ثلاثا ثم قال غفر الله للأعمش كما حدث به وغفر الله لمن حدث به قبـل الأعمش ولمن حدث به بعده • وفي الصحيحين من حدث أنس بن مالك رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « وكل الله بالرحم ملكا يقول أى رب نطفة أى رب علقة أى رب مضغة فاذا أراد الله أن يقضى خلقا قال يارب أذكر أم أنثى ؟ أشقى أم سعيد ؟ فما الرزق ؟ فما الأجل ؟ فيكتب كذلك في بطن أمه » وفي مسلم من حديث حذيفة بن أسيد رضى الله عنه يبلغ به النبى صلى الله عليه وسلم : ويكتب عمله وأثره وأجله ورزقه ثم تطوى الصحف فلا يزاد فيها ولا ينقص • وقد روى انه يكتب على جبهته أو بطن كفه أو ورقة تعلق في عنقه • وفي رواية بين عينيه • قال الحافظ ابن رجب في شرح الاربعين النووية : وبكل حال فهذه الكتابة التى

تكتب للجنين في بطن أمه غير كتابة المقادير السابقة لخلق الخلائق المذكورة في قوله تعالى (ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم الا فى كتاب من قبل ان نبرأها) كما في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « ان الله تعالى قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والارض بخمسين ألف سنة » كما تقدم • قال علماء الحديث فيكتب رزقه قليلا كان أو كثيرا ، وصفته حلالا كان أو حراما أو مكروها ، ويكتب أجله طويلا كان أو قصيرا • وبالله التوفيق •

* * * *

الباب الثالث في الاحكام والايمان

((البـــاب الثالث
في الأحكام والكلام على الايمان ومتعلقات ذلك))

علة التكليف

اعلم وفقنى الله واياك وسائر المسلمين لمرضاته ان طرق النـــاس قد اختلفت في علة التكليف وحكمته مع كون الله سبحانه وتعالى لا ينتفع بطاعة ولا تضره معصية فسلكت الجبرية ومن وافقهم مسلكهم المعروف وان ذلك صادر عن محض المشيئة وصرف الارادة وأنه لا علة ولا حكمة له ولا ما يحث عليه سوى محض الارادة ، وسلكت القدرية مسلكها المعروف وهو أن ذلك استئجار منه لعبيده لينالوا أجرهم بالعمل فيكون الذنب اقتضاؤهم الثواب بلا عمل لما فيه من تكدير المنة،والمسلكان فاسدان كما ترى،وتقدم ذلك، وحسبك ما يدل عليه العقل الصريح والنقـل الصحيح من بطلان هذين المذهبـين وفسادهما ، وليس عند الناس غير هذين المسلكين الا مسلك من هو خارج عن الديانات واتباع الرسل ممن يرى ان الشرائع وضعت نواميس تقوم عليهـا مصلحة الناس ومعايشهم وان فائدتها تكميل قوة النفس العمليـة وارتياضها لتخرج عن شبه الانعام فتصير مستعدة لأن تكون محلا لقبول الفلسفة العليـا والحكمة • وهـــذا مسلك خارج عن مناهج الانبيـــاء وأممهـــم • وأما أتباع الرسل الذين هم أهل البصائر فحكمة الله عز وجل في تكليفهم ما كلفهم به أعظم وأجل عندهم مما يخطر بالبال أو أعرب به المقال فيشهدون

له سبحانه في ذلك من الحكم الباهرة والاسرار العظيمة أكثر مما يشهدونه في مخلوقاته وما تضمنته من الاسرار والحكم، ويعلمون مع ذلك انه لا نسبة لما أطلعهم سبحانه عليه من ذلك الى ما طوى علمه عنهم واستأثر به دونهم وان حكمته في أمره ونهيه لأنه جل وعلا أهل ان يعبد ، والى هذا المقام أشار بقوله :

وجوب عبادة الله تعالى

((وواجب على العبـــاد طرا   ان يعبـــدوه طاعـــة وبرا))

((ويفعلوا الفعل الذى به أمر   حتما ويتركوا الذى عنه زجر))

((وواجب على العباد طرا)) أى جميعا وفى حديث قس بن ســـاعدة الايادى : ومرادا لمحشر الخلق طرا - قال فى النهاية أى جميعاوهو منصوب على المصدر أو الحال ((ان يعبدوه)) سبحانه وتعالى ((طاعة)) أى لأجل الطاعة وامتثال الامر لما ندب الخلق من التكليف على ألسنة الرسل عليهم الصلاة والسلام ((وبرا)) أى لأجل البر والاحسان الناشيء عنهما المحبة قال في النهاية البر بالكسر الاحسان والتقرب الى الله تعالى. فهو سبحانه أهل ان يعبد وأهل أن يكون الحب كله له والعبادة له حتى لو لم يخلق جنة ولا نارا ولا وضع ثوابا ولا عقابا لكان جل شأنه أهلا ان يعبد أقصى ما تناله قدرة خلقه من العبادة ، وفي بعض الآثار الالهية « لو لم أخلق جنة ولا نارا ألم أكن أهلا ان أعبد » وفي الفطرة والعقل ما يقتضى شكره وافراده بالعبادة كما فيهما ما يقتضى تناول المنافع واجتناب المضار فان الله تعالى فطر خلقه عـلى محبته والاقبال عليه وابتغاء الوسيلة اليه وانه لا شيء على الاطلاق أحب الى العباد منه وان فسدت فطر أكثر الخلق بما طرأ عليها بما اقتطعها واجتالها عما خلق فيها قال تعالى (فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها) فبين سبحانه ان اقامة الوجه وهو اخلاص القصد وبذل الوسع لدينه المتضمن محبته وعبادته حنيفا مقبلا عليه معرضا عما سواه هو فطرته التى فطر عليها عباده فلو خلوا ودواعى فطرهم لمـا مالوا عن ذلك ولا اختاروا سواه ولكن غيرت الفطر وأفسدت كما قال النبى صلى الله عليه وسلم « ما من مولود الا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه كما تنتج

البهيمة بهيمـــة جمعاء[1] هل تحسون فيها من جـــدعاء حتى تكونوا أنتم تجدعونها » ثم يقول أبو هريرة رضى الله عنه اقرؤا « فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولـــكن أكثر النـــاس لا يعلمون*منيبين اليه » ومنيبين نصب على الحال من المفعول أى فطـــرهم منيبين اليه ، والانابة اليه تتضمن الاقبال عليه بمحبته وحده والاعراض عما سواه • وفى صحيح مسلم من حديث عياض بن حمار ـ بكسر الحاء المهملة ـ عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « ان الله أمرنى أن أعلمكم ما جهلتم مما علمنى فى مقامى هذا انه قال كل ما نحلته عبدا فهو له حلال وانى خلقت عبادى حنفاء فأتتهم الشياطين فاستجالتهم عن دينهم وأمرتهم ان يشركوا بى مالم أنزل به سلطانا وحرمت عليهم ما أحللت لهم » فأخبر سبحانه انه انما خلق عباده على الحنيفية المتضمنة لكمال حبه والخضوع له والذل له وكمال طاعته وحده دون غيره ، وهذا من الحق الذى خلقت له وبه قامت السموات والارض وما بينهما وعليه قام العالم ولأجله خلقت الجنة والنار ولأجـله أرسل رسله وأنزل كتبه ولأجله أهلك القرون التى خرجت عنه وآثرت غيره ، فكونه سبحانه أهلا أن يعبد ويحب ويثنى عليه أمر ثابت له لذاته فهو سبحانه الاله الحق المبين ، والاله هو الذى يستحق أن يؤله محبة وتعظيما وخشية وخضوعا وتذللا وعبادة فهو الاله الحق ولو لم يخلق خلقه ، وهو الاله الحق ولو لم يعبدوه ، فهو المعبود حقا الاله حقا المحمود حقا ولو فدر أن خلقه لم يعبدوه ولم يحمدوه ولم يألهوه ، لم يستحدث تعالى بخلقه لهم ولا بأمره اياهم استحقاق الالهية والحمد بل الهيته وحمده ومجده وغناه أوصاف ذاتية له سبحانه يستحيل مفارقتها له كحياته ووجوده وقدرته وعلمه وسائر صفات كماله • وقد جاءت الرسل وأنزلت الكتب بتقرير ما استودع سبحانه فى الفطر والعقـول من ذلك وتكميله وتفصـيله وزيادته حسنا الى حســنه فاتفقت شريعته وفطرته وتطابقا وتوافقا، فعبده عباده وأحبوه ومجدوه بداعى الشرع وداعى الفطرة والعقل ، فاجتمعت لهم الدواعى ودعتهم الى وليهـم والههم وفاطرهم فأقبلوا اليه بقلوب سليمة لم يعارض خبره عندها شـــبهة

(١) فى الاصلين « عجماء »

توجب ريبا وشكا ولا أمره شهوة توجب رغبتها عنه وايثارها سواه ، وقد قام النبى صلى الله عليه وسلم حتى تفطرت قدماه فقيل له تفعل هذا وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال « أفلا أكون عبدا شكورا » واقتصر صلى الله عليه وسلم من جوابهم على ما تدركه عقولهم وتناله افهامهم والا فمن المعلوم أن باعثه على ذلك الشكر أمر يجل عن الوصف ولا تحيط به العبارة والاذهان فأين هذا الشهود من شهود طائفتى القدرية والجبرية •

واعلم انه لا يمكن أحدا من خلقه قط أن يعبده تعالى حق عبادته ولا يوفيه حقه من المحبة والحمد ، ولهذا قال أكمل خلقه وأفضلهم وأعرفهم به وأحبهم اليه وأطوعهم له : «لا أحصى ثناء عليك» وأخبر صلى الله عليه وسلم أن عمله لا يستقل بالنجاة فقال « لن ينجى أحدا منكم عمله » قالوا ولا أنت يا رسول الله ؟ قال « ولا أنا الا أن يتغمدنى الله برحمة منه وفضل » وفى الحديث المرفوع المشهور أن من الملائكة من هو ساجد لا يرفع رأسه منذ خلق ومنهم راكع لا يرفع رأسه من الركوع منذ خلق الى يوم القيامة وانهم يقولون يوم القيامة سبحانك ما عبدناك حق عبادتك •

ولما كانت عبادته سبحانه وتعالى تابعة لمحبته واجلاله وكانت المحبة نوعين محبة تنشأ عن الانعام والاحسان فتوجب شكرا وعبودية بحسب كمالها ونقصانها ومحبة تنشأ عن جمال المحبوب وكماله فتوجب عبودية وطاعة أمر واجتناب نهى أكمل من الاولى وكان الباعث على الطاعة والعبودية ان لا يخرج عن هذين النوعين قال الناظم عاطفا امتثال الامر والانتهاء عما عنه الزجر ((ويفعلوا)) يعنى العباد ((الفعل الذى به أمر)) سبحانه وتعالى أى الفعل الذى أمر به فان كان على سبيل الحتم والتأكيد فعلوه على الوجوب وان كان على سبيل الندب والارشاد فعلى الندب ولهذا قال ((حتما)) أى لازما مصدر حتم يعنى انهم يفعلون ما أمر الله به أمرا على سبيل الحتم واللزوم وأما اذا كان الامر لا على سبيل الحتم ففعله غير لازم بل هومندوب ومرغوب فيه ومستحب ، قال فى النهاية الحتم اللازم الواجب الذى لا بد من فعله ((و)) ان ((يتركوا)) الشىء ((الذى عنه زجر)) ولا يخفى ان الزجر يفيد التحريم لأن معنى الزجر المنع قال في القاموس زجره منعه

ونهاه كأزجره فانزجر وازدجر • فان لم يكن على سبيل الزجر والتحتيم فيكون للكراهة وخلاف الاولى وتركه على سبيل الندب والاستحباب •فتكون الطاعة تارة تقع عن محبة وشوق وأخرى عن خوف مقرون بحب ، وأما من أتى بصورة الطاعة خوفا مجردا عن الحب فليس بمطيع ولا عابد وانما هو كالمكره أو كأجير السوء الذى ان أعطى عمل وان لم يعط كفــــر وأبق فالعبادة والطاعة الناشئة عن محبة الكمال والجلال أعظم من الطاعة الناشــئة عن رؤية الانعام والافضال والاحسان فان الذوق السليم يدرك الفرق بين ما تعلق بالحى القيوم الذى لا يموت وبين ما تعلق بالمخلوق من رغبة فى جنة أو خوف من نار وان شمل النوعين اسم المحبة لان من يحبك لذاتك وأوصافك وجمالك أتم وأكمل وأعظم ممن يحبك لخيرك وديناركءوأسماء الله الحسنى والصفات العلى مقتضية لآثارها من العبودية والأمر اقتضــاءها لآثارها من الخلق والتكوين ، فأمره سبحانه وتعالى ونهيه هو موجب أسمائه وصفاته فى العالم وآثارها ومقتضاها من غير أن يتزين تعالى بطاعة ولا يشان بمعصية وتأمل قوله تعالى في الحديث القدسى « عبادى انكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى » الحديث، فبين سبحانه ان ما أمرهم به من الطــاعات وما نهاهم عنه من السيآت لا يتضمن اســتجلاب نفعهم ولا اندفاع ضرهم كأمر السيد عبده والوالد ولده والامام رعيته بما ينفع الآمر والمأمور به ونهيهم عما يضر الناهى والمنهى ، بل هو سبحانه المنزه عــــن لحوق نفعهم وضرهم به في احسانه اليهم بما يفعله بهم وبما يأمرهم به من اجابة الدعوات وغفران الزلات وتفـــريج الكربات فليس ذلك لاستجلاب منفعة ولا لدفع مضرة فانه الغنى الحميد، ولكن له سبحانه في تكليف عباده وأمرهم ونهيهم من الحكم البالغة ما يقتضيه ملكه التام وحمده وحكمته ولو لم يكن من ذلك الا أنه يستوجب من عباده شكر نعمه التى لا تحصى ومننه التى لا تستقصى بحسب قواهم وطاقتهم لا بحسب ما ينبغى له فانه أعظموأجل من أن يقدر خلقه عليه لكان كافيا ، فلا شىء أحسن في العقول والفطر من شكر المنعم ولا أنفع للعبد منه ، فهذان مسلكان آخران في التكليف والامر والنهى أحدهما يتعلق بذاته تعالى وصفاته وانه أهل لذلك ، والثانى يتعلق

باحسانه وانعامه ولا سيما مع غناه عن عباده وانه انما يحسن اليهم رحمة منه وجودا وكرما لا لمعاوضة ولا لاستجلاب منفعة ولا لدفع مضرة، فأي المسلكين سلكه العبد أوقعه على محبته وبذل الجهد في مرضاته • ذكر ذلك في مفتاح دار السعادة وأطال جدا فلخص منه هذا وبالله التوفيق • قال ابن حمدان فى نهاية المبتدئين : يجب امتثال أمره تعالى واجتناب نهيه الجازمين ويستحب في غيرهما ويلزم به الطاعة والخضوع والاخلاص في الكل • قال والامر بالشيء نهي عن ضده معنى والنهي عنه أمر بضده معنى ان كان ضده واحدا أو أحدها ان كانت أكثر من واحد والامر والنهي المطلقان للفور والتكرار الممكن شرعا كما هو مذكور في محاله من أصول الفقه •

فصل

((فصل))

في الكلام على القضاء والقدر غير ما تقدم قال

بحث الرضا بالقضاء

((وكل ما قدر أو قضاه فواقع حتما كما قضاه))
((وليس واجب(؟) على العبد الرضا بكل مقضى ولكن بالقضا))
((لأنه من فعله تعالى وذاك من فعل الذى تقالى))

((وكل ما)) أى كل شيء ((قدر)) الله سبحانه وتعالى ((أو قضاه)) من سائر الأشياء وتقدم تعريف القضاء والقدر قريبا ((ف)) هو ((واقع حتما)) لازما ((كما قضاه)) أى كما حكم به وقدره حسبما سبق به علمه وجرى به القلم في الكتاب الذى كتبه قبل أن يخلق السموات والارض والخلائق بخمسين ألف عام المذكور في قوله تعالى (ما أصاب من مصيبة في الارض ولا في أنفسكم الا في كتاب من قبل ان نبرأها) قال في النهاية قد تكرر فى الحديث ذكر القدر وهو عبارة عما قضاه الله وحكم به من الامور • وقال فى القضاء انه الفصل والحكم • وقال وقد تكرر فى الحديث ذكر القضاء وأصله القطع والفصل يقال قضى يقضى قضاء فهو قاض اذا حكم وفصل وقضاء الشيء احكامه وامضاؤه والفراغ منه فيكون بمعنى الخلق • وقال الازهرى القضاء في اللغة على وجوه مرجعها انقطاع الشيء واتمامه وكلما أحكم عمله أو أتم أو ختم أو أدى أو أوجب أو أعلم أو انفذ أو

معاني القضاء

امضى » قال وقد جاءت هذه الوجوه كلها في الاحاديث ومنه القضاء المقـرون بالقدر فالقضاء والقدر أمران متلازمان لا ينفك أحدهمـا عن الآخر لأن أحدهما بمنزلة الاساس وهو القدر والآخر بمنزلة البناء وهو القضاء فمن رام الفصل بينهما فقد رام هدم البناء ونقضه ـ وتقدم . وذكر الحافظ ابن حجر العسقلاني في فتح البارى في أول تفسير سورة الاسراء ان اسماعيـل ابن أحمد النيسابورى قد استوعب الاوجه في القضاء في كتابه (الوجـوه والنظائر) فقال : لفظة «قضى» فى الكتاب العزيز جاءت على خمسةعشروجها الفراغ (فاذا قضيتم مناسككم) والامر (اذا قضى أمرا) والاجل (فمنهممن قضى نحبه) والفصل (لقضى الامر بيني وبينكم) والمضى (ليقضى الله أمرا كان مفعولا) والهلاك (لقضى اليهـم أجلهم) والوجوب (لما قضى الامر) والابرام (في نفس يعقوب قضـاها) والاعلام (وقضينا الى بنى اسرائيل) والوصية (وقضى ربك أن لا تعبدوا الا اياه) والموت (فوكزه موسى فقضى عليه) والنزول (فلما قضينا عليه الموت) والخلق (فقضاهن سبع سموات) والفعل (كلا لما يقض ما أمره) يعنى حقا لم يفعل ما أمره ، والعهد (اذ قضينا الى موسى الامر) . وذكر غيره القدر المكتوب في اللوح المحفوظ كقولهتعالى (وكان أمرا مقضيا) والفعل (فاقض ما أنت قاض) أى وجب لهم العذاب . والوفاء بغاية العبادة والكفاية « ولن يقضى عن أحـد بعدك » وبعض هـذه الوجوه متداخل ، ويرد القضاء بمعنى الانتهاء (فلما قضى زيد منها وطرا) وبمعنى الاتمام (ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده) وبمعنى كتب (اذا قضى أمرا) وبمعنى الاداء وهو ما ذكره بمعنى الفراغ ومنه قضى دينه ، وتفسيره (وقضى ربك ان لاتعبدوا) بمعنى وصى منقول من مصحف أبى بن كعب أخرجه الطبرى وأخرجه أيضا من طريق قتـادة قال هى في مصحف ابن مسعود «ووصى» ومن طريق مجاهد في قوله تعالى وقضى قال وأوصى ، ومن طريق الضحاك انه قرأ ووصى وقال لصقت الواو بالصاد فصارت قافا فقرئت وقضى . كذا قال واستنكروه منه . انتهى ملخصا . فقوله في النظم « فواقـع حتما كما قضاه » اشارة الى ما قدمنا ذكره من ان الله تعالى قدر الاشياء فى

الازل وعلم سبحانه انها ستقع في أوقات معلومة عنده على صفات مخصوصة فهى تقع على حسب ما قدرها وقضاها من غير زيادة ولا نقص •وقصد بذلك الرد على المعتزلة القدرية المنكرة لسبق العلم بالاشياء قبل وجودها وزعمهم ان الله تعالى لم يقدر الامور أزلا ولم يكتبها ولم يتقدم له علم بها وانما يأتنفها علما حال وقوعها ، وهؤلاء انقرضوا كما مر ، وأما القدرية المثبتة لسبق العلم بالاشياء انما خالفوا السلف في زعمهم ان أفعال العباد مقدورة لهم واقعة منهم على جهة الاستقلال لا اذن ولا صنع للبارى في ذلك كما مر الكلام على ذلك بما فيه غنية فراجعه ان شئت ((وليس واجب(؟) على العبد)) المكلف ((الرضا)) وهو سكون القلب وطمأنينته الى قدم اختيار الله للعبد انه اختار له الافضل فيرضى به ، وقال الجنيد قدس الله روحه : الرضاصحة العلم الواصل الى القلب فاذا باشر القلب حقيقة العلم أداه الى الرضا •وليس الرضا والمحبة كالرجاء والخوف فان الرضا والمحبة حالان من أحوال أهل الجنة لا يفارقان في الدنيا ولا في الآخرة ولا في البرزخ بخلاف الخوف والرجاء فانهما يفارقان أهل الجنة بحصول ما كانوا يرجونه وأمنهم مما كانوا يخافونه وان كان رجاؤهم لما ينالون من كرامته دائما لكنه ليس رجاء مشوبا بشك بل رجاء واثق بوعد صادق من حبيب قادر، فهذا لون ورجاؤهم في الدنيا لون، وقد قيل ليحيى بن معاذ رحمه الله متى يبلغ العبد الى مقام الرضا ؟ فقال اذا أقام نفسه على أربعة أصول فى مايعامل به ربه فيقول ان أعطيتنى قبلت وان منعتنى رضيت وان تركتنى عبدت وان دعوتنى أجبت • قال الامام المحقق ابن القيم فى كتابه شرح منازل السائرين :الرضابالله أعلى من الرضا بما من الله ، قال وليس من شرط الرضا أن لا يحس بالالم والمكاره بل ان لا يعترض على الحكم ولا يتسخطه ولهذا أشكل على بعض الناس الرضا بالمكروه وطعنوا فيه وقالوا هذا ممتنع على الطبيعة وانما هو الصبر والا فكيف يجمع الرضا والكراهة وهما ضدان • والصواب انه لا تناقض بينهما وان وجود التألم وكراهة النفس له لا ينافى الرضا كرضا المريض بشرب الدواء الكريه ورضا الصائم فى اليوم الشديد الحر بماينالهمن ألم الظمأ والجوع ورضى المجاهد بما يحصل له في سبيل الله من ألم الجراح وغيرها

وقال : أجمع العلماء على أن الرضا مستحب مؤكد استحبابه واختلفوا فى وجوبه على قولين • قال وسمعت شيخ الاسلام ابن تيمية قدس الله روحه يحكيهما قولين لأصحاب الامام أحمد رضى الله عنه وكان - يعنى شيخ الاسلام - يذهب الى القول باستحبابه ، قال ولم يجىء الامر به كما جاء بالصبر وانما جاء الثناء على أصحابه ومدحهم • قال وأما ما يروى من الاثر: من لم يصبر على بلائى ولم يرض بقضائى فليتخذ ربا سوائى • فهذا اثر اسرائيلى ليس يصح عن النبى صلى الله عليه وسلم • قال ابن القيم ولا سيما عند من يرى أن الرضا من جملة الاحوال التى ليست مكتسبة وانه موهبة محضة فكيف يؤمر به وليس مقدورا ، وهذه مسألة اختلف فيها أرباب السلوك على ثلاث طرق فالخراسانيون قالوا : الرضا من جملة المقامات وهو نهاية التوكل ، فعلى هذا يمكن أن يتوصل اليه العبد بالاكتساب • والعراقيون قالوا هو من جملة الاحوال وليس كسبا للعبديل هو نازلة تحل بالقلب كسائر الاحوال•وحكمت طائفة ثالثة بين الطائفتين منهم القشيرى فقالوا : بداية الرضا مكتسبة للعبد فهى من جملة المقامات • ونهايتهمن جملةالاحوال فأوله مقام ونهاية حال ، والفرق بين المقامات والاحوال ان المقامات عندهم من المكاسب ، والاحوال من مجرد المواهب • قال المحقق ابن القيم : هنا ثلاثة أمور الرضا بالله والرضا عن الله والرضا بقضاء الله ، فالرضا باللهفرض، والرضا عنه وان كان من أجل الامور وأشرف أنواع العبودية فلم يطالب به العموم لعجزهم عنه ومشقته عليهم وأوجبته طائفة كما أوجبوا الرضا به • وأما الرضا بقضاء الله فهو المشار اليه بقوله لا يجب الرضا ((بكل مقضى)) بل حكم المقضى لا بد فيه من التفصيل لأنه اما أن يكون مقضيا دينيا شرعيا فالواجب على العبد ان لا يختار في هذا النوع غير ما اختاره له ربه وسيده كما قال تعالى (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم) فاختيار العبد خلاف ذلك مناف لايمانهوتسليمه ورضاه بالله ربا وبالاسلام دينا وبمحمد رسولا ، واما أن يكون كونيا قدريا وهذا منه ما لا يسخطه الله كالمصائب التى يبتلى عبده بها فهذا لا يـ ره فراره منها الى القدر الذى يرفعها عنه ويكشفها وليس فى ذلك منازعة

للربوبية وان كان فيه منازعة للقدر بالقدر فهذا تارة يكون واجبا ، وتارة يكون مستحبا ، وتارة يكون مباحا مستوى الطرفين ، وتارة يكون حراما ، وتارة يكون مكروها ، فالمقضى الذى لا يحبه الرب ولا يرضاه مثل المعايب والذنوب فالعبد مأمور بسخطه ومنهى عن الرضا به وهذا هو التفصيل الواجب بالرضا بالقضاء المشار اليه بقوله ((ولكن)) يجب الرضا ((بالقضاء)) فان لفظ الرضا بالقضاء لفظ محمود مأمور به وهو من مقامات الصديقين فصار له حرمة أوجبت لطائفة قبوله من غير تفصيل وظنوا ان كل ما كان مقضيا للرب تعالى مخلوقا له ينبغى الرضا به ثم انقسموا فرقتين فقالت فرقة اذا كان القضاء والرضا متلازمين فمعلوم انا مأمورون بتغيير المعاصى والكفر والظلم فلا تكون مقضية مقدرة ـ وهم القدرية ، وقالت فرقة قد دل العقل والشرع على انها واقعة بقضاء الله وقدره فنحن نرضى بها ـ كالمرجئة والجبرية، وكل من الفريقين على سبيل ضلال وانحراف عن نهج الحق وطريق الصواب، والحق فى ذلك التفصيل فنرضى بقضاء الله الذى هو خلقه الذى أمرنا أن نرضى به ولا نرضى من ذلك بالمقضى مما نهانا عن الرضا به فنرضى بالقضاء ونسخط من المقضى ما لا يحبه الله تعالى ويرضاه ولهذا قال ((لأنه)) أى القضاء ((من فعله)) أى من فعل الله سبحانه و ((تعالى)) وهذا أحد الاجوبة عن الرضا بالقضاء فنرضى بفعله تعالى دون المعصية الصادرة من العبد ، وهذا ونحوه لا يتمشى على أصول من يجعل محبة الرب ورضاه ومشيئته واحدة فان من قال كل ما شاءه الله تعالى وقضاه فقد أحبه ورضيه لا يحسن منه ولا عنده هذا التفصيل كما لا يخفى ، وأيضا هذا انما يصح عند من جعل القضاء غير المقضى والفعل غير المفعول وهو مذهب السلف، وأما من لم يفرق بينهما فكيف يصح هذا عنده ؟ قال الامام المحقق ابن القيم في شرح منازل السائرين : انما نشأ الاشكال من جعلهم المشيئة نفس المحبة ثم زاد بجعلهم الفعل نفس المفعول والقضاء عين المقضى فنشأ من ذلك الزامهم بكونه تعالى راضيا محبا لذلك والتزام رضاهم به ، والذى يكشف هذه الغمة وينجى من هذه الورطة التفريق بين ما فرق الله بينه وهو المشيئة والمحبة فليسا واحدا ولا هما متلازمان بل قد يشاء ما لا يحبه ويحب ما لا يشاء كونه،

فالأول كمشيئته وجود ابليس وجنوده ، ومشيته العامة لجميع مافى الكون مع بغضه لبعضه ، والثانى كمحبة ايمان الكفار وطاعات الفجار وعدل الظالمين وتوبة الفاسقين ولو شاء ذلك لوجد كله فانه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فاذا تقرر هذا فالاصل ان الفعل غير المفعول والقضاء غير المقضى وان الله جل شأنه لم يأمر عباده بالرضا بكل ما خلقه وشاءه وقد زالت الشبهات وانحلت الاشكالات • اذا عرف هذا فالرضا بالقضاء الدينى الشرعى واجب وهو أساس الاسلام وقاعدة الايمان فيجب على العبد أن يكون راضيا به بلا حرج ولا منازعة ولا معارضة ولا اعتراض قال تعالى (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما) فأقسم تعالى انهم لا يؤمنون حتى يحكموا رسوله ويرتفع الحرج من نفوسهم من حكمه ويسلموا لحكمه وهذا حقيقة الرضا بحكمه ،فالتحكيم فى مقام الاسلام وانتفاء الحرج في مقام الايمان والتسليم في مقام الاحسان،ومتى خالطت القلب بشاشة الايمان واكتحلت بصيرته بحقيقة اليقين وحيى بروح الوحى وتمهدت طبيعته وانقلبت النفس الامارة مطمئنة راضية وادعة وتلقى الاسلام بصدر منشرح فقد رضى كل الرضا بهذا القضاء المحبوب للهورسوله ((وذاك)) أى المقضى المبغوض لله ورسوله من المعاصى والظلم والعدوان ونحوها لا يرضى به العبد لأنه ((من فعل)) الشخص ((الذى تقالى)) تفاعل من قلاه كرماه رفضه وأبغضه أى من فعل الذى أتى بما يبغضه الله باتيانه به وملابسته له وفعله الذى فعله من المظالم والمعاصى والاشياء المبغوضة للبارى سبحانه وتعالى فأتى بما يوجب بغضه ويكرهه اليه غاية الكراهة فهذا لا يسوغ الرضا به ، وسر المسألة ان الذى الى الرب منها غير مكروه وانما المكروه المسخوط ما للعبد منها • قال الحافظ ابن عبد الهادى رحمه الله تعالى : القضاء يراد به ثلاثة أشياء أحدها الامر والنهى فهذا الرضا بهواجب، والثانى الكفر والمعاصى فهذا الرضا به ليس بواجب ، والثالث المصائب التى تصيب العبد فهل الرضا بها واجب أو مستحب ؟ قال ثم يقال : القضاء الذى هو صفة الله الرضا به واجب ، وأما المقضى وهو الكفر والمعاصى التى هى أفعال العباد فالرضا بها ليس بواجب • انتهى • ومقصوده ولا جائز •وفى تائية

شيخ الاسلام ابن تيمية :

وقال فريق نرتضي بقضائه	ولا نرتضي المقضي لاقبح خلقة
وقال فريق نرتضي باضافة	اليه وما فينا فنلقى بسخطة
فنرضى من الوجه الذي هو خلقه	ونسخط من وجه اكتساب بحيلة

قال الطوفي في شرح التائية المذكورة : (الثالث) قول من قال نرضى بالقضاء الذى هو تقديره ولا نرضى بالمقضى الذى هو أفعالنا القبيحة ، قال وبهذا أجاب بعض أهل السنة للمعتزلة عن قولهم لو كان الكفر بقضاء الله لوجب الرضا به لان الرضا بالقضاء واجب ولكن الرضا بالكفر كفر فلا يكون بقضاء الله تعالى فأجابهم بالفرق بين القضاء والمقضى • قال : الرابع قول من قال نرضى بالمقضى من حيث انه خلق الله ومراده ونسخطه من حيث هو مكتسب لنا ، وهذا من باب اختلاف الجهتين كما قال الفقهاء في الوضوء من آنية الذهب والفضة ونحو ذلك والله أعلم • فان قلت ليس الى العبد شيء منها قلنا هذا هو الجبر الباطل الذى لا يمكن صاحبه التخلص من هذا المقام الضيق ، والقدري أقرب الى التخلص منه من الجبري ، وأهل السنة المتوسطون بين القدرية والجبرية هم أسعد بالتخلص منه من الفريقين • والرضا بالقضاء من السعادة كما في مسند الامام أحمد وسنن الترمذى من حديث سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من سعادة ابن آدم استخارة الله عز وجل ، ومن سعادة ابن آدم رضاه بما قضى الله ، ومن شقوة ابن آدم سخطه بما قضى الله ، ومن شقاوة ابن آدم ترك استخارة الله » فالرضا بالقضاء من أسباب السعادة ، والسخط على القضاء من أسباب الشقاوة • وروى ابن أبى الدنيا بسنده عن عمر بن ذر قال بلغنا ان أم الدرداء رضى الله عنها كانت تقول ان الراضين بقضاء الله الذى ما قضا الله لهم رضوا به لهم في الجنة منازل يغبطهم بها الشهداء يوم القيامة • وقال سيدنا الامام على بن أبى طالب رضى الله عنه لعدى بن حاتم وقد رآه كئيبا حزينا لقتل ابنيه وفقء عينه « يا عدى من رضى بقضاء الله كان له أجر ومن لم يرض بقضاء الله حبط عمله » رواه ابن أبى الدنيا والله أعلم •

فصل في الذنوب ومتعلقاتها

((فصل في الكلام على الذنوب ومتعلقاتها))

اعلم وفقك الله تعالى ان فرقة المعتزلةمن أول فرقة أسسوا قواعد الخلاف لما ورد به ظاهر السنة وجرى عليه السلف الصالح من الصحابة والتابعين لهم باحسان رضى الله عنهم في باب العقائد ، وذلك ان رئيسهم واصل بن عطاء اعتزل مجلس الحسن البصرى يقرر أن مرتكب الكبيرة ليس بمؤمن ولا كافر ويثبت المنزلة بين المنزلتين فقال له الحسن اعتزل عنا فسموا المعتزلة وهم سموا أنفسهم أصحاب العدل والتوحيد لقولهم بوجوب ثواب الصلاح والاصلح وثواب المطيع وعقاب العاصى على الله تعالى ونفى الصفات القديمة عنه كما تقدم ذلك • قال الحافظ العلامة شمس الدين محمد بن عبد الهادى الحنبلى من بنى قدامة في مناقب شيخه شيخ الاسلام ابن تيمية قدس الله روحه : أول خلاف حدث فى الملة فى الفاسق الملى هل هو كافر أو مؤمن ؟ فقالت الخوارج انه كافر وقالت الجماعة انه مؤمن وقالت طائفة المعتزلة هو لا مؤمن ولا كافر منزلة بين منزلتين وخلدوه في النار واعتزلوا حلقةالحسن البصرى وأصحابه فسموا معتزلة ، وأما أهل السنة فلم يخرجوه من الاسلام ولم يحكموا عليه بخلود في النار وانما هو فاسق بكبيرته مؤمن بايمانه وهو تحت مشيئة الله تعالى ولهذا قال :

الخلاف في مرتكب الكبيرة

((ويفسق المذنب بالكبيره ... كذا اذا أصر بالصغيره))
((لا يخرج المرء من الايمان ... بموبقات الذنب والعصيان))
((وواجب عليه أن يتوبا ... من كل ما جر عليه حوبا))
((ويقبل المولى بمحض الفضل ... من غير عبد كافر منفصل))
((مالم يتب من كفره بضده ... فيرتجع عن شركه وصده))
((ومن يمت ولم يتب من الخطا ... فأمره مفوض لذى العطا))
((فان يشأ يعف وان شاء انتقم ... وان يشأ أعطى وأجزل النعم))

((ويفسق)) المسلم المكلف ((المذنب بـ)) ـاتيانه للمعصية ((الكبيرة)) أصل الفسوق الخروج عن الاستقامة والجور وبه سمى العاصى فاسقا وفي الحديث « خمس فواسق يقتلن في الحل والحرم الحية والغراب الأبقع

والفارة والكلب العقور والحداة » وسميت فواسق لخروجها بالايذاء والافساد عن طريق معظم الدواب ، وسمى الرجل الفاسق لخروجه عن أمر الله ، والمذنب هو المقترف للذنب وهو الاثم كما في القاموس والجمع ذنوب وجمع الجمع ذنوبات قال تعالى (وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان) قال في شرح منازل السائرين : الاثم والعدوان كل منهما اذا افرد تضمن الآخر فكل اثم عدوان اذ هو فعل ما نهى الله عنه أو ترك ما أمر الله به فهو عدوان على أمره ونهيه وكل عدوان اثم فانه يأثم به صاحبه ،لكن عند اقترانهما فهما شيئان بحسب متعلقهما ووصفهما فالاثم ما كان محرم الجنس كالكذب والزنا وشرب الخمر ونحو ذلك والعدوان ما كان محرم القدر والزيادة بأن يتعدى ما أبيح منه الى القدر المحرم كالاعتداء في أخذ الحق ممن هو عليه بأن يعتدى على ماله أو بدنه أو عرضه • والكبيرة كل معصية فيها حد فى الدنيا أو وعيد في الآخرة ، وزاد شيخ الاسلام : أو ورد فيها وعيد بنفى ايمان أو لعن ونحوهما • وقيل ما لحق صاحبها وعيد شديد بنص كتاب أو سنة • قال ابن عبد السلام الشافعى : لم أقف للكبيرة على ضابط سالم من الاعتراض، وعدل أمام الحرمين عن تعريفها الى حد السالب للعدالة فقال : كل جريمة تؤذن بقلة اكتراث مرتكبها بالدين ورقة الديانة فهى مبطلة للعدالة ، وكل جريمة لا تؤذن بذلك بل يبقى حسن الظن بصاحبها لا تحبط العدالة • وقد دهب بعض العلماء الى أن كل محرم كبيرة منهم الاستاذ أبو اسحاق الاسفرايني والقاضى أبو بكر الباقلانى وامام الحرمين الجوينى بل حكاه ابن فورك عن الاشاعرة ، والصواب تقسيم الذنوب الى كبيرة وصغيرة ، ويقال انه لا خلاف بين الفريقين في المعنى بل في التسمية والاطلاق لاتفاق الجميع على أن من المعاصى ما يقدح في العدالة ومنها ما لا يقدح ، والحامل لمن أطلق على الجميع اسم الكبيرة تعظيم الحضرة الالهية من أن يكون العاصى له تعالى مرتكبا الا معصية كبيرة ، فبالنظر للمعصية فمنها الكبائر ومنها الصغائر وبالنظر الى المعصى فالجميع كبائر • وفي شرح البخارى للبدر العينى عن سعيد بن جبير رحمه الله قال رجل لابن عباس رضى الله عنهما الكبائر سبع ؟ فقال ابن عباس رضى الله عنهما : هى الى السبعمائة

تعريف الكبيرة

أقرب منها الى السبع ، غير أنه لا كبيرة مع استغفار ولا صغيرة مع اصرار • وقد أوصلها علماؤنا الى نيف وسبعين كبيرة كما في الاقناع وغيره • وقوله ((كذا)) أى مثل اتيانه الكبيرة ((اذا أصر)) على الجريمة الصغيرة يقال أصر يصر على الشيء اصرارا اذا لزمه وداومه وثبت عليه، وأكثر ما يستعمل في الشر والذنوب ، وأما من أتبع الذنب الصغير بالاستغفار فليس بمصر عليه وأن تكرر منه وفى الحديث « ما أصر من استغفر » وفيه أيضا « ويل للمصرين الذين يصرون على ما فعلوا وهم يعلمون » فمن أصر فانه يفسق حتى ((بـ)) الجريمة ((الصغيرة)) لأن الاصرار يصير الصغيرة فى حكم الكبيرة • قال بعض العلماء : تصير الصغيرة كبيرة بخمسة أشياء الاصرار عليها والتهاون بها والفرح بها والافتخار بها وصدورها عن عالم فيقتدى به فيها • ثم ذكر ما عليه أهل السنة من أن اتيان الجريمة وان كانت كبيرة لا يخرج بها الشخص المؤمن عن الايمان بقوله ((لا يخرج المرء)) هو بتثليث الميم الانسان أو الرجل ولا يجمع من لفظه أو سمع مرون قاله فى القاموس وهى بهاء ويقال مرة وامرأة ، وفي امرىء مع ألف الوصل ثلاث لغات فتح الراء دائما واعرابها دائما وتقول هذا امرؤ ومرء ورأيت امرأ ومرأ ومررت بامرىء وبمرء معربا من مكانين • كله من القاموس ((من الايمان)) الآتى تعريفه فيما بعد ((بموبقات الذنب)) متعلقة بقوله لا يخرج، والموبقات بموحدة وقاف المهلكات جمع موبقة سميت الجريمة الكبيرة بذلك لانها سبب لاهلاك مرتكبها في الدنيا بما يترتب عليها من العقاب وفي الآخرة من العذاب • قال الحافظ ابن حجر : والمراد بالموبقة الكبيرة وفي الصحيحين وسنن أبى داود والنسائى وغيرها من حديث أبى هريرة رضى الله عنه « اجتنبوا السبع الموبقات الشرك بالله والسحر وقتل النفس التى حرم الله الا بالحق وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولى يوم الزحف وقذف المحصنات المؤمنات » وثبت فى حديث أبى هريرة أيضا من وجه آخر : الكبائر الشرك بالله ـ الحديث • وأخرج الطبرانى عن ابن عباس رضى الله عنهما انه قيل له الكبائر سبع ؟ قال هن أكثر من سبع وسبع • وفي رواية عنه هى الى السبعين أقرب • وفي رواية الى السبعمائة ـ كما تقدم يعنى باعتبار

أصناف أنواعها . والحكمة في الاقتصار على السبع المذكورة في الحديث مع ورود ما يزيد على السبعين في أحاديث متفرقة ان هذه موصوفة بصفة زائدة على مجرد الكبيرة وهى الموبقة أى المهلكة . فان قيل قد ورد فى عدة أحاديث «الكبائر سبع» ففى حديث عمرو بن العاصى رضى الله عنه عندالامام أحمد فى المسند وصحيح البخارى والترمذى والنسائى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال « الكبائر الاشراك بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس التى حرم الله الا بالحق وقذف المحصنة والفرار من الزحف وأكل (الربا وأكل - ١) مال اليتيم والرجوع الى الاعرابية بعد الهجرة » فعد فى هذا الحديث ثمانية في بادى الرأى وكأنه عد الاكل للربا ولمال اليتيم واحدة . وفي حديث ابن عباس رضى الله عنهما مرفوعا عند البزار باسناد حسن « الكبائر الشرك بالله والاياس من روح الله والقنوط من رحمة الله » وفي حديث ابن عمر رضى الله عنهما عند البيهقى باسناد صحيح مرفوعا «الكبائر الاشراك بالله وقذف المحصنة وقتل النفس المؤمنة والفرار يوم الزحف وأكل مال اليتيم وعقوق الوالدين المسلمين والحاد بالبيت قبلتكم أحياء وأمواتا » الى غير ذلك من الاحاديث التى وصف فيها الذنوب بالكبر مما يزيد عن السبعين . الجواب ان هذا مما يؤيد ان العدد لا مفهوم له أو انه صلى الله عليه وسلم علم أولا بالسبع المذكورات ثم علم بما زاد فيجب الاخذ بالزائد، أو ان الاقتصار على السبع وقع بحسب المقام بالنسبة للسائل أو من وقعت له واقعة ، والاقوى ان التنصيص على السبع فى كل حديث لزيادة عظمها . ومن الكبائر الزنا وبحليلة الجار أشد وبالمحارم أشد وأشد فان الجريمة الصغيرة قد تنقلب كبيرة بقرينة تضم اليها وتنقلب الكبيرة فاحشة فان قتل النفس بغير حق كبيرة فان قتل أصلا له أو فرعا أو ذا رحم أو بالحرم أو في الاشهر الحرم أو في رمضان فهو فاحشة، وكذا الزنا ، وتفاصيل ذلك كثيرة جدا . والمراد ان الانسان لا يخرج من الايمان بملابسته واتيانه بموبقات الذنوب التى هى أكبر الكبائر ، وأل في الذنب للجنس أو الاستغراق فيشمل كل الذنوب ((والعصيان)) دون الشرك بالله تعالى والكفر به بأى

---

(١) من مخ .

أنواع المكفرات فان ذلك يخرجه من الدين بيقين • والعصيان ضد الطاعة وهو يرادف الذنب • والاثم والجرم وكذا البغى والعدوان والظلم ولكن قد يفهم من هذه تجاوز الحد المباح الى ما وراءه ، وكذا الفحشاء والمنكر فالفحشاء صفة لموصوف قد حذف تجريدا لقصد الصفة وهى الفعلة الفحشاء والخصلة الفحشاء وهى ما ظهر قبحها لكل أحد واستخبثها كل ذى عقل سليم ولهذا فسر بالزنا واللواط وقد سماه الله فاحشة لتناهى قبحه وكذلك القبيح من القول يسمى فحشا وهو ما ظهر قبحه جدا من السب القبيح والقذف ونحوه ، وكذا المنكر صفة لموصوف محذوف أى الفعل المنكر وهو ما أنكرته العقول السليمة والفطر المستقيمة •

والحاصل ان الشخص المؤمن لا يخرج من الايمان بملابسة كبائر الذنوب والعصيان • وقد اختلف الناس في هذه المسألة على طرق فطريق الخوارج ان من ارتكب كبيرة من الذنوب - بل والصغيرة لان عندهم كل ذنب كبيرة نظرا لعظمة من عصى - وكل كبيرة كفر يخرج من الايمان ويدخل الكفر ويخلد في النار قالوا لأنه لا يخلد في النار الا الكفار •وطريق المعتزلة انه يخرج من الايمان ولا يدخل في الكفر فهو في منزلة بين الكفر والايمان ، ومن أصول المعتزلة اثبات المنزلة بين المنزلتين كما مر ومع ذلك هو خالد مخلد في النار مع قولهم ان مرتكبى الكبائر ليسوا بكفار بل هم فساق مخلدون في النار ، هذا كله عند الطائفتين اذا لم يتوبوا قبل معاينة الموت • والحق مذهب أهل الحق من أهل السنة ان مرتكبى الكبيرة في مشيئة الله تعالى وعموه لأن أصل الايمان من التصديق بالله والمعرفة والاذعان موجود ، ونصوص الكتاب والسة لا تدل الا على هذا كقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى) الآيتين وفي ذلك يقول (فمن عفى له من أخيه شيء) فسماه أخا وقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا توبوا الى الله توبة نصوحا) وقوله (وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا) الى قوله تعالى : (انما المؤمنون أخوة) الآية وفي الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم من حديث عبادة بن الصامت رضى الله عنه انه قال وحوله عصابة من أصحابه « بايعونى على أن لا تشركوا بالله شيئا ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا

أولادكم ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ولا تعصونى في معروف ، فمن وفي منكم فأجره على الله ، ومن أصاب من ذلك فعوقب به في الدنيا فهو كفارة له ، ومن أصاب من ذلك شيئا ثم ستره الله فهو الى الله ان شاء عفا عنه وان شاء عاقبه » قال فبايعناه على ذلك • وقال صلى الله عليه وسلم فيما يروى عن ربه تعالى « ابن آدم لو لقيتنى بقراب الارض خطايا ثم أتيتنى لا تشرك بى شيئا أتيتك بقرابها مغفرة » أقرجه الترمذى وقال حديث حسن صحيح • وأخرجه الطبرانى من حديث ابن عاس وأبو عوانة في مسنده من حديث أبى ذر وأيضا الامام أحمد في مسنده من حديث أبى ذر أيضا • وأخرج مسلم في صحيحه عن أبى ذر رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال يقول الله تعالى « من تقرب منى شبرا تقربت منه ذراعا ومن تقرب منى ذراعا تقربت منه باعا ومن أتانى يمشى أتيته هرولة ومن لقينى بقراب الارض خطيئة لا يشرك بى شيئا لقيته بقرابها مغفرة » وأخرج الامام أحمد من رواية اخشن السدوسى قال دخلت على أنس رضى الله عنه فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « والذى نفسى بيده لو أخطأتم حتى تملأ خطاياكم ما بين السماء والارض ثم استغفرتم الله لغفر لكم » وقال صلى الله عليه وسلم « من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة » وقال « من كان آخر كلامه لا اله الا الله دخل الجنة » وقال « ان الله حرم على النار من قال لا اله الا الله يبتغى بذلك وجه الله » وفي حديث الشفاعة « أخرجوا من النار من في قلبه مثقال حبة من خردل من ايمان » وفيه يقول الله عز وجل « وعزتى وجلالى لأخرجن من النار من قال لا اله الا الله » فالتوحيد من أعظم بل أعظم أسباب المغفرة فهو السبب الاعظم فمن فقده فقد المغفرة ومن جاء به فقد أتى بأعظم أسباب المغفرة قال الله تعالى : (ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) فدلت الآية مع حديث أنس ان من جاء مع التوحيد بملء الارض خطايا لقيه الله بملئها مغفرة مع مشيئة الله تعالى فان شاء غفر له وان شاء واخذه بذنوبه ثم كان عاقبته ان لا يخلد في النار بل يخرج منها ثم يدخل الجنة • قال بعض المحققين الموحد لا يلقى في النار كمايلقى الكفار ولا يبقى فيها كما يبقى

الكفار • والنصوص على قول أهل الحق والادلة كثيرة جدا فدل الكتاب والسنة واتفاق الفرقة الناجية على انه لا يخلد في النار أحد من أهل التوحيد• وأما آية النساء (ومن يقتل مؤمنا متعمدا) فلها نظائر أمثالها من نصوص الوعيد كقوله تعالى (ومن يعص الله ورسوله فان له نار جهنم خالدين فيها أبدا) وقوله (ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما انما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا) وكذلك ما ورد من السنة كقوله صلى الله عليه وسلم « من قتل نفسه بحديدة فحديدته فى يده يتوجأ بها خالدا مخلدا فى نار جهنم » ونظائره كثيرة فقالت فرقة : الوعيد في حق المستحل لها لأنه كافر وأما من فعلها غير مستحلها لم يلحقه وعيد الخلود وان لحقه وعيد الدخول• وقد أنكر الامام أحمد رضى الله عنه هذا القول وقال لو استحل ذلك ولم يفعله كان كافرا والنبى صلى الله عليه وسلم انما قال من فعل كذا وكذا (وقالت فرقة أخرى) : الاستدلال بنصوص الوعيد هذه مبنى على ثبوت العموم ، قالوا وليس في اللغة ألفاظ عامة ، وقصدهم تعطيل هذه الادلة عن استدلال المعتزلة والخوارج بها لكن ذلك يستلزم تعطيل جملة الشرع فهم ردوا باطلا بأبطل منه وبدعة بأقبح منها فكانوا كمن رام أن يبنى قصرا فهدم مصرا • (وقالت فرقة أخرى) : في الكلام اضمار ـ فمنهم من قال باضمار الشرط والتقدير فجزاؤه كذا ان جازاه أو ان شاء ـ ومنهم من قال باضمار الاستثناء والتقدير فجزاؤه كذلك الا أن يعفو • (وقالت فرقة أخرى) هذا وعيد واخلاف الوعيد لا يذم بل يمدح فيجوز على الله تعالى اخلاف الوعيد لا اخلاف الوعد ، والفرق بينهما ان الوعيد حقه فاخلافه عفو وهبة واسقاط ذلك موجب كرمه وجوده واحسانه ، والوعد أوجبه على نفسه بوعده والله لا يخلف الميعاد ولهذا مدح به كعب بن زهير رضى الله عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال :

من يقتل مؤمنا متعمدا

نبئت أن رسول الله أوعدنى ... والعفو عند رسول الله مأمول

وتناظر في هذه المسألة أبو عمرو بن العلاء وعمرو بن عبيد المعتزلى صاحب واصل بن عطاء فقال عمرو بن عبيد يا أبا عمرو لا يخلف الله وعده وقد قال تعالى (ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله

عليه) فقال أبو عمرو ويحك يا عمرو من العجمة أتيت ان العرب لا تعد اخلاف الوعيد ذما بل جودا وكرما أما سمعت قول الشاعر :

ولا يرهب ابن العمم ما عشت صولتى ولا يختشى من صولة المتهدد
وانى وان أوعدته أو وعدته لمخلف ايعادى ومنجز موعدى

وعلى كل حال قد قام الدليل على ذكر الموانع من انفاذ الوعيد بعضها بالاجماع وبعضها بالنص فالتوبة مانع بالاجماع والتوحيد مانع بالنصوص المتواترة التى لا مدفع لها ، والحسنات العظيمة الماحية مانعة، والمصائب المكفرة مانعة، واقامة الحدود في الدنيا مانع بالنص فلا تعطل هذه النصوص وأصعاف أضعافها فلا بد من أعمال النصوص من الجانبين ، ومن ثم قامت الموازنة بين الحسنات والسيئات اعتبارا لمقتضى العقاب ومانعه أعمالا لأرجحهما ، وعلى هذا بناء مصالح الدارين ومفاسدهما وبناء الاحكام الشرعية والاحكام القدرية وهو مقتضى الحكمة السارية في الوجود وبه ارتباط الاسباب ومسبباتها خلقا وأمرا، وقد جعل تعالى لكل ضد ضدا يدافعه ومانعا يمانعه ويكون الحكم للاغلب منهما • والحاصل والله أعلم كون المذنب الملى وان كثرت ذنوبه وعظمت خطاياه فى مشيئة مولاه ان شاء عذبه وان شاء عافاه وعلى كل حال خلود أهل التوحيد في النار من المحال فالصواب اجتنابه وعدم الالتفات اليه والتعويل على مذهب أهل الحق والركون اليه وبالله التوفيق •

* * *

وجوب التوبة

ولما كان من متعلقات الذنوب التوبة وكانت واجبة على كل من تلبس بذنب ذكر ذلك بقوله ((وواجب)) وجوب لزوم لا بد منه ((عليه)) أى المذنب ((ان يتوبا)) بألف الاطلاق للوزن أى ان يرجع فالتوبة أصل كل مقام ومفتاح كل حال فمن لا توبة له لا مقام له ولا حال ، وهى لغة الرجوع من شيء الى آخر ، وقال الامام النووى : أصل التوبة لغة الرجوع يقال تاب وثاب بالمثلثة وآب وأناب رجع والمراد بالتوبة هنا الرجوع عن الذنب • انتهى • فهى الرجوع عن الذنب بأن يقلع عنه ويندم عليه ويعزم على ان لا يعود اليه ويرضى الآدمى عن ظلامته ان تعلقت به • وقال بعضهم التوبة

الواجبة الرجوع عما كان مذموما في الشرع من ترك واجب أو فعل محرم الى ما هو محمود في الشرع • قال النووى : أركانها ثلاثة[١] الاقلاع والندم على فعل تلك المعصية والعزم على أن لا يعود اليهـا أبدا وان لا يغرغر • انتهى • فان كانت المعصية لآدمى فلها ركن رابع وهو التحلل من صاحب ذلك الحق • وأصلها الندم وهو ركنها الاعظم وقد فسرت الصحابة رضى الله عنهم كأميري المؤمنين عمر وعلى وابن مسعود التوبة بالنـدم ، ومنهم من فسرها بالعزم على ان لا يعود وقد روى ذلك مرفوعا من وجه فيه ضعف لكن لا يعلم مخـالف من الصحابة في هذا وكذلك التابعـون ومن بعدهم كعمر بن عبدالعزيز والحسن وغيرهما • وفي قوله ((من كل ما)) أى شيء أو الذى ((جر)) أى قاد وجذب ((عليه)) أى المـذنب ((حوبا)) أى اثمـا وفي القاموس الحوب الاثم يقـال حاب بكذا اثم حوبا ويضم والحوب الحزن والوحشة ويضم فيهما • وفي القاموس أيضا : الحوب بالضم الهلاك والبلاء والتحوب التوجع وترك الحوب كالتـأثم • ومراد الناظم من ذلك من كل ما جر عليـه الهلاك والبـلاء اشعارا بوجـوب التـوبة من كل ذنب كبير أو صغير ، وهذا مما اتفق عليه العلماء فانهم اتفقوا على أن التوبة من كل معصية واجبة على الفور لا يجوز تأخـيرها سواء كانت صغيرة أو كبيرة وانها من مهمات الاسلام وقواعد الدين المتأكدة ، ووجوبها عند أهل السنة بالشرع وعند المعتزلة بالعقل ، وظاهر النصوص القرآنية والاحاديث النبوية والآثار السلفية على ان من تاب لله توبة نصوحا واجتمعت شروط التوبة في حقه انه يقطع بقبول توبته كرما منه وفضلا • وعرفنا قبولهـا بالشرع والاجماع خلافا للمعتزلة أما فى حق قبول توبة الكافر بالاسـلام فهذا بالاجماع كما نقله غير واحد ، قال النووى فى شرح مسلم وغيره : توبة الكافر من كفره قبولها مقطوع به ، وفي كلام ابن عقيل من أئمة علمائنا

أركان التوبة

---

(١) هامش مط : نظم أركان التوبة الشيخ عثمان بن قائد الحنبلى رحمه الله تعالى فى ثلاثة أبيات وسماها شروطا وهى :

شروط توبتهم ان شئت عدتها	ثلاثة عرفت فاحفظ على مهـل
اقـلاعه ندم وعـزمه أبدا	ان لا يعـود لما منه جرى وقل
ان كان توبته من ظلم صاحبـه	لا بد من رده الحق على عجل

ما يخالف ذلك فانه قال انه لا يجب ويجوز ردها . انتهى . وأما قبــول توبة المذنب النصوح بشروطها فقول الجمهور وكلام الامام ابن عبد البر يدل على انه اجماع ، ومن الناس من قال لا يقطع بقبول التوبة بل يرجى ، وصاحبها تحت المشيئة منهم امام الحرمين . قال القرطبى من استقرأ الشريعة علم ان الله يقبل توبة الصادقين قطعا . نقله في الفتح وأقره . والى قبول التوبة فضلا وكرما أشار بقوله ((ويقبل المولى)) الذى هو رب العــالمين وخالق الخلق وباسط الرزق ذو الكرم الواسع والفضل العظيم ((بمحض)) أى خالص ((الفضل)) والكرم من غير وجوب عليه تعالى ولا الزام ((من)) كل عبد مذنب تاب الى الله توبة نصوحا بشروطها المذكورة من الندم والاقلاع والعزم ان لا يعود وان يرد ما أمكن من المظالم من حقـــوق الآدميين أو يستحلهم مما أمكن ، فاذا اجتمعت الشروط قبلت التوبة فضلا من الله تعالى، ولا بد أن تكون من شخص مســلم ((غير عبد كافر)) بالله ورســوله ((منفصل)) عن الدين اما بردة أو كان كافرا أصليا فلا تقبل توبتـــه من الذنوب ((مالم يتب)) أى يرجع ((من كفره)) فيسلم ويقر لله بالوحدانية ولنبيه محمد صلى الله عليه وسلم بالرسالة ويقر ويذعن بجميع ما جاء بــه محمد صلى الله عليه وسلم ويؤمن بالكتاب وبما جاء به الكتاب فيتصف من بعد رجوعه عن الكفر ((بضده)) من الاسلام فان كان مرتدا بانكار ما علم من الدين بالضرورة ايجابا وتحريما فــيرجع عن انكاره ذلك ويقر ويذعن حسبما جاء به النبى الكريم وكلام الله القديم وان كان مشركا أو معتقدا ان لله شريكا يستقل بالنفع والضرر وعلم الغيب مما استأثر الله بعلمه ((ف))لا يقبل منه مالم ((يرتجع عن شركه)) الذى كان متصفا به ((وصده)) أى اعراضه عن الدين واتباع سيد العالمين بأن يذعن وينقاد لشريعة خــير العباد مسلما خاضعا مقبلا بقلبه وقالبه خالعا ما كان عليه من ترهاته ومطالبــه فهذا يقبل اسلامه اجماعا ، وأما المذنب فزعم بعض الناس انه لا يقطع بقبول توبته مع استيفاء الشروط متعللا بقوله تعالى (ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) فجعل كل الذنوب تحت المشيئة وربما تعلقوا بمثل قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا توبوا الى الله توبة نصوحا عسى ربكم

ان يكفر عنكم سيئاتكم) وبقوله (وتوبوا الى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون) وبقوله (فأما من تاب وآمن وعمل صالحا فعسى أن يكون من المفلحين) وبقوله (وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم) والظاهر أن هذا في حق التائب لأن الاعتراف يقتضي الندم • وفي حديث عائشة رضى الله عنها ان النبى صلى الله عليه وسلم قال « ان العبد اذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه» والصحيح قول الجمهور وهذه الآيات لا تدل على عدم القطع فان الكريم اذا أطمع لم يقطع من رجائه المطمع، ومن هنا قال ابن عباس رضى الله عنهما ان عسى من الله واجبة• نقله عنه على بن أبى طلحة ، وقد ورد جزاء الايمان والعمل الصالح بلفظ عسى أيضا فلم يدل ذلك على انه غير مقطوع به كما في قوله (انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر) الآية وأما قوله تعالى (ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) فان التائب ممن يشاء ان يغفر له كما أخبر بذلك في مواضع كثيرة من كتابه •

تنبيهات

((تنبيهات))

الاولى تكفير الحسنات للسيئات

(الأول) اختلف الناس هل تكفر الاعمال الصالحة الكبائر والصغائر أم لا تكفر سوى الصغائر فروى عن عطاء وغيره من السلف في الوضوء انه يكفر الصغائر ، وقال سلمان الفارسى رضى الله عنه الوضوء يكفر الجراحات الصغائر ، والمشى الى المساجد يكفر أكبر من ذلك ، والصلاة تكفر أكبر من ذلك • خرجه محمد بن نصر المروزى• وأما الكبائر فلا بلا لها من التوبة لأن الله أمر العباد بها وجعل من لم يتب ظالما فقال (ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون) واتفقت الأمة[1] على أن التوبة فرض والفرائض لا تؤدى الا بنية وقصد ولو وقعت الكبائر مكفرة بالوضوء والصلاة أو اداء بقية أركان الاسلام لم يحتج الى التوبة — وهذا باطل بالاجماع ،وأيضا فلو كفرت الكبائر بفعل الفرائض لم يبق لأحد ذنب يدخل به النار اذا أتى بالفرائض • قال الحافظ

---

(١) مخ : الادلة

ابن رجب وهذا يشبه قول المرجئة وهو باطل . وكما ذكره ابن عبد البرفى التمهيد وحكى اجماع المسلمين على ذلك واستدل عليه بأحاديث منها قوله صلى الله عليه وسلم « الصلوات الخمس والجمعة الى الجمعة ورمضان الى رمضان مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر » متفق عليـــه من حديث أبى هريرة رضى الله عنه . وقد حكى ابن عطية في تفسيره قولين في معنى هذا الحديث أحدهما عن جمهور أهل السنة ان اجتناب الكبائر شرط لتكفير هذه الفرائض للصغائر فان لم يجتنب لم تكفر هذه الفرائض شيئا بالكلية ،والثانى انها تكفر الصغائر مطلقا ولا تكفر الكبائر وان وجدت لـكن بشرط عـــدم الاصرار عليها ، مراده انه اذا أصر عليها صارت كبيرة فلم تكفرها الاعمال. وفى صحيح مسلم من حديث عثمان بن عفان رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « ما من امرىء مسلم يحضر صلاة مكتوبة فيحســـن وضوءها وخشوعها الا كانت كفارة لما قبلها من الذنوب مالم تؤت كبيرة وذلك الدهر كله » وفي هذا المعنى أحاديث كثيرة . قال الحافظ ابن رجب وقـــد ذهب قوم من أهل الحديث الى أن هذه الاعمال تكفر الكبائر منهم الامام أبو محمد على بن حزم الظاهرى،واياه عنى الامام ابن عبد البر في كتاب التمهيد بالرد عليه وقال قد كنت أرغب بنفسى عن الكلام في هذا الباب لولا قـــول ذلك القائل وخشيت ان يغتر به جاهل فينهمك في الموبقات اتكالا على انهـــا تكفرها الفرائض من الصلوات ونحوها دون الندم والاستغفار والتوبة والله نسأله العصمة والتوفيق . قال الحافظ ابن رجب وقد وقع مثل هذا في كلام طائفة من أهل الحديث في الوضوء ونحوه ووقع مثله في كلام ابن المنذر في قيام ليلة القدر قال يرجى لمن قامها ان يغفر له جميع ذنوبه كبيرها وصغيرها قال فان كان مرادهم ان من أتى بفرائض الاسلام وهو مصر على الكبائر انها تغفر له قطعا فهذا باطل قطعا يعلم بالضرورة من الدين بطلانه وقد قال صلى الله عليه وسلم « من أساء في الاسلام أخذ بالأول والآخر » يعنى بعمله في الجاهلية والاسلام . قال وهذا أظهر من أن يحتاج الى بيان . قال وان أراد هذا القائل أن من ترك الاصرار على الكبائر وحافظ على الفرائض من غـــير توبة ولا ندم على ما سلف منه كفرت ذنوبه كلها بذلك واستدل بظاهر قوله

تعالى (ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنـــه نكفر عنكم سيآتكم) تشمل الكبائر والصغائر[1] فكما ان الصغائر تكفر باجتناب الكبائر من غير قصد ولا نيـــة فكذلك الكبائر ، وقد يستدل لذلك بأن الله وعد المؤمنين والمتقين بالمغفـــرة وتكفير السيئات ، وهذا مذكور في غير موضع من القرآن وقد صار مثل هذا من المتقين فانه فعل الفرائض واجتنب الكبائر واجتناب الكبائر لا يحتاج الى نية وقصد فهذا القول[2] يمكن أن يقال في الجملة والصحيح قول الجمهور ان الكبائر لا تكفر بدون التوبة لانها فرض لازم على العباد ، وأما النصوص المتضمنة مغفرة الذنوب وتكفير السيئات للمتقين فانه ســـبحانه لم يبين في الآيات خصال التقوى ولا العمل الصالح فان من جملة ذلك التوبة النصوح وأما من لم يتب فهو ظالم غير متق ، ومما يبـــين أن الكبائر لا تكفر بدون التوبة منها أو العقوبة عليها حديث عبادة بن الصامت المار وهو في الصحيحين « فمن وفي فأجره على الله ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب به فهو كفارة له ومن أصاب من ذلك شيئا فستره الله عليه فهو الى الله ان شاء عذبه وان شاء غفر له » وفي لفظ لمسلم « من أتى منكم حدا فأقيم عليه فهـــو كفارته » قال الحافظ ابن رجب قوله فعوقب به يعم العقوبات الشرعية وهي الحدود المقدرة أو غير المقدرة كالتعزيرات ويشمل العقوبات القدرية كالمصائب والاســـقام والآلام فانه صح عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال « لا يصيب المسلم نصب ولا هم ولا حزن حتى الشوكة يشاكها الا كفر الله بها من خطاياه » وقال أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه الحد كفارة لمن أقيم عليه. وذكر ابن جرير الطبرى في هذه المسألة اختلافا بين الناس ورجح ان اقامة الحد بمجرده كفارة ، ووهن القول بخلاف ذلك جدا . قال الحافظ ابن رجب : وقد روى عن سعيد بن المسيب وصفوان بن سليم ان اقامة الحد ليس بكفارة ولا بد معه من التوبة ، ورجحه طائفة من المتأخرين منهم البغـــوى وأبو عبد الله ابن تيمية في تفسيريهما وهو قول أبى محمد بن حزم والاول قول مجاهد وزيد بن أسلم والثورى والامام أحمد . وأما حديث أبى هريرة

الحـدود كفـــارات

---

(١) بهامش مط : يقول مصحح الطبع ربما كان فى الكلام حذف هنا .
(٢) هذا جواب الشرط فى قوله « فان أراد هذا القائل » .

المرفوع « لا أدرى الحدود طهارة لأهلها أم لا ؟ » فقد خرجه الحاكم وغيره وعلله البخارى وقال لا يثبت وانما هو من مراسيل الزهرى وهى ضعيفة وغلط عبد الرزاق فوصله • وقد صح عن النبى صلى عليه وسلم ان الحد كفارة • وأما قول النبى صلى الله عليه وسلم لمن قال أصبت حدا فأقمه على فتركه حتى صلى ثم قال « ان الله قد غفر لك حدك » فليس صريحا فى أن المراد به شيء من الكبائر لأن حدود الله محارمه كما قال تعالى (وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه) فكل من أصاب شيئا من محارم الله فقد أصاب حدوده وارتكبها وتعداها وعلى فرض كونه كبيرة فهذا الرجل جاء نادما تائبا وأسلم نفسه الى اقامة الحد عليه والندم توبة والتوبة تكفر الكبائر بغير تردد • ثم قال الحافظ ابن رجب : والاظهر والله أعلم في هذه المسألة - يعنى مسألة تكفير الكبائر بالاعمال - انه ان أريد أن الكبائر تمحى بمجرد الاتيان بالفرائض وتقع مكفرة بذلك كالصغائر باجتناب الكبائر فهذا باطل ، وان أريد أنه قد يوازن يوم القيمة بين الكبائر وبين بعض الاعمال فتمحى الكبيرة بما يقابلها من العمل ويسقط العمل فلا يبقى له ثواب فهذا قد يقع ، وفي صحيح مسلم عن ابن عمر رضى الله عنهما انه ضرب عبدا له فأعتقه وقال ليس لى فيه من الاجر مثل هذا - وأخذ عودا من الارض - انى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « من لطم مملوكه أو ضربه فان كفارته ان يعتقه » فجعل ابن عمر رضى الله عنهما ان عتقه كفارة لذنبه ولم يكن ذنبه من الكبائر فكيف بما كان من الاعمال المنافية لها كما يبطل المن الصدقة وتبطل المعاملة بالربا ثواب الجهاد كما قالت عائشة رضى الله عنها لام ولد زيد بن أرقم انه قد أبطل جهاده مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الا أن يتوب • وقال حذيفة رضى الله عنه : قذف المحصنة يهدم عمل مائة سنة • وروى عنه مرفوعا أخرجه البزار • وكما يبطل ترك صلاة العصر العمل فلا يستنكر أن يبطل ثواب العمل الذى يكفر الكبائر ، وقد أخرج البزار فى مسنده والحاكم فى مستدركه من حديث ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « يؤتى بحسنات العبد وسيئاته يوم القيامة فيقص - أو يقضى - بعضها من بعض فان بقيت له

هل نحبط بعض الحسنات ببعض السيئات ؟

حسنة وسع له بها في الجنة ، وقال سعيد بن جبير في قوله تعالى (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره * ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره*) كان المسلمون يرون انهم لا يؤجرون على الشيء القليل اذا أعطوه فيستقلون ان يعطوا المسكين تمرة أو كسرة أو جوزة ونحو ذلك فيردونه ويقولون ما هذا بشيء انما نؤجر على ما نعطي ونحن نحبه ، وكان آخرون يرون انهم لا يلامون على الذنب اليسير كالكذبة والنظرة والغيبة وأشباه ذلك يقولون انما أوعد الله النار على الكبائر فرغبهم الله فى القليل من الخير أن يعطوه فانه يوشك ان يكثر ، وحذرهم اليسير من الشر فانه يوشك ان يكبر فنزلت ، والذر اصغر النمل (خيرا يره) يعنى في كتابه ويسره ذلك قال يكتب لكل بر وفاجر بكل سيئة سيئة واحدة وبكل حسنة عشر حسنات فاذا كان يوم القيامة ضاعف الله حسنات المؤمن أيضا بكل واحدة عشرا فيمحو عنه بكل حسنة عشر سيئات فمن زادت حسناته على سيئاته مثقال ذرة دخل الجنة . فظاهر هذا انه يقع المقاصة بين الحسنات والسيئات ثم تسقط الحسنات المقابلة للسيئات وينظر الى ما يفضل منها بعد المقاصة ، وهذا يوافق من قال بأن من رجحت حسناته على سيئاته بحسنة واحدة أثيب بتلك الحسنة خاصة وتسقط باقى حسناته في مقابلة سيئاته ، خلافا لمن قال يثاب بالجميع وتسقط سيئاته كأنها لم تكن ، وهذا في الكبائر ، وأما الصغائر فانها قد تمحى بالاعمال الصالحة مع بقاء ثوابها كما قال صلى الله عليه وسلم « ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات ؟ اسباغ الوضوء على المكاره وكثرة الخطى الى المساجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة » فأثبت صلى الله عليه وسلم لهذه الاعمال تكفير الخطايا ورفع الدرجات ، وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم « من قال لا اله الا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير مائة مرة كتب الله له مائة حسنة ومحا عنه مائة سيئة وكانت له عدل عشر رقاب » فهذا يدل على ان الذكر يمحو السيئات ويبقى ثوابه لعامله مضاعفا ، وكذلك سيئات التائب توبة نصوحا تكفر عنه وتبقى له حسناته كما قال تعالى « حتى اذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة - الى قوله - وانى من المسلمين » قال تعالى (أولئك الذين يتقبل عنهم أحسن

ما عملوا ويتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة وعد الصدق الذى كانوا يوعدون) وفي هذا المعنى أخبار كثيرة • والحاصل انه يوجد في بعض الاعمال كفارة للذنوب ورفع درجات وفي كلام بعض السلف انه يمحى بازاء السيئة الواحدة ضعف واحد من أضعاف ثواب الحسنة ويبقى له تسع حسنات ، قال الحافظ ابن رجب : والظاهر ان هذا مختص بالصغائر وأما في الآخرة فيوازن بين الحسنات والسيئات ويقص بعضها من بعض فمن رجحت حسناته على سيئاته فقد نجا ودخل الجنة قال سواء في هذا الصغائر والكبائر وهكذا من كان له حسنات وعليه مظالم فاستوفى المظلومون حقوقهم من حسناته وبقى له حسنة دخل بها الجنة ، قال ابن مسعود رضى الله عنه ان كان وليا لله ففضل له مثقال ذرة ضاعفها الله حتى يدخل الجنة وان كان شقيا قال الملك : رب فنيت حسناته وبقى له طالبون كثير قال « خذوا من سيئاتهم فأضيفوها الى سيئاته ثم صكوا له صكا الى النار» أخرجه ابن أبي حاتم وغيره • قال الحافظ ابن رجب والمراد التفضيل من مثقال الذرة من الحسنات انما هو بفضل الله عز وجل لمضاعفته لحسنات المؤمن وبركته فيها وهكذا حال من كانت له حسنات وسيئات وأراد الله رحمته فضل له من حسناته ما يدخله الجنة وكله من فضل الله ورحمته فانه لا يدخل أحد الجنة الا بفضل الله ورحمته • وأخرج أبو نعيم باسناده عن على رضى الله عنه مرفوعا:أوحى الله الى نبى من أنبياء بنى اسرائيل « قل لأهل طاعتى من أمتك لا يتكلوا على أعمالهم فانى لا أقاص عبدا الحسنات يوم القيامة أشاء أن أعذبه الا عذبته،وقل لأهل معصيتى من أمتك لا يلقوا بأيديهم فانى أغفر الذنب العظيم ولا أبالى » ومصداقه قول نبينا صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح « من نوقش الحساب عذب ـ وفي رواية ـ هلك »

(تتمة) روى الامام أحمد رضى الله عنه في المسند عن النبى صلى الله عليه وسلم « ما من يوم الا والبحر يستأذن ربه ان يغرق بنى آدم ، والملائكة تستأذنه ان تعاجله وتهلكه والرب تعالى يقول : دعوا عبدى فأنا أعلم به اذ أنشأته من الارض ان كان عبدكم فشأنكم به وان كان عبدى فمنى الى عبدى وعزتى وجلالى ان أتانى ليلا قبلته وان تقرب منى شبرا تقربت منه ذراعا

وان تقرب مني ذراعا تقربت منه باعا وان مشى الى هرولت اليه وان استغفرني غفرت له وان استقالني أقلته وان تاب الى تبت عليه ، من أعظم مني جـودا وكرما وأنا الجواد الكريم ، عبيدى يبيتون يبارزونني بالعظائم وأنا أكلؤهم في مضاجعهم وأحرسهم على فرشهم، من أقبل الى تلقيته من بعيد ومن ترك لأجلي أعطيته فوق المزيد ومن تصرف بحولى وقوتى ألنت له الحديد ومن أراد مرادى أردت ما يريد ، أهل ذكرى أهل مجالستي وأهل شكري أهل زيادتي وأهل طاعتي أهل كرامتي وأهل معصيتي لا أقنطهم ـ وفي لفظ ـ لا اوئسهم من رحمتي، ان تابوا فأنا حبيبهم فاني أحب التوابين وأحب المتطهرين وان لم يتوبوا فأنا طبيبهم أبتليهم بالمصائب لاطرهم من المعايب» والله الموفق .

التنبيه الثانى هل تجب التوبة من الصغائر ؟

((التنبيه الثانى))

تقدم ان الصحيح المعتمد وجوب التوبة حتى من الصغائر كالكبائر ، وقيل لا تجب من الصغائر توبة لانها تقع مكفرة باجتناب الكبائر لقوله تعالى (ان تجتنبوا كبائر ما تنهـون عنه نكفر عنكم سيآتكم وندخلـكم مدخلا كريما) قال الحافظ ابن رجب أوجب أصحابنا وغيرهم من الفقهاء والمتكلمين وغيرهم التوبة من الصغائر كالكبائر، وقد أمر الله سبحانه عقيب ذكر الصغائر والكبائر بالتوبة في قوله تعالى (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهـم وقل للمؤمنات يغضضن من أبصـارهن ويحفظن فروجهن) الى قولـه (وتوبوا الى الله جميعا أيهـا المؤمنون) الآية وأمر بالتوبة من الصـغائر بخصوصها بقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قـوم.) الى قوله (ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون) قال الحافظ ومن الناس من لا يوجب التوبة من الصغائر وحكى عن طائفة من المعتزلة . ومن المتأخرين من أوجب أحد أمرين اما التوبة منها أو الاتيان ببعض المكفرات للذنوب من الحسنات. وحكى ابن عطية في تفسيره في تكفير الصـغائر بامتثال الفرائض واجتناب الكبائر قولين أحدهما وحكاه عن جماعة من الفقهاء وأهل الحديث انه يقطع بتكفيرها بذلك قطعا لظاهر الآية والحديث، وحكى عن الاصوليين انه لا يقطع

بتكفيرها بل يحمل على غلبة الظن وقوة الرجاء وهو في مشيئة الله تعالى اذ لو قطع بتكفيرها لكانت الصغائر في حكم المباح الذى لا تبعة فيه وذلك نقض لعرى الشريعة • قال الحافظ لا يقطع بتكفيرها لان أحاديث التكفير المطلقة بالاعمال جاءت مقيدة بتحسين العمل كما ورد ذلك في الوضوء والصلاة وحينئذ فلا يتحقق وجود حسن العمل الذى يوجب التكفير ، وعلى هذا الاختلاف ينبني وجوب التوبة من الصغائر وقد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما انه قال : لا صغيرة مع اصرار ولا كبيرة مع استغفار • وروى مرفوعا من وجوه ضعيفة • واذا صارت الصغائر كبائر بالمداومة عليها فلا بد للمحسنين من اجتناب المداومة على الصغائر حتى يكونوا مجتنبين لكبائر الاثم والفواحش وقد قال تعالى (وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون * والذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش واذا ما غضبوا هم يغفرون * والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون * والذين اذا أصابهم البغيهم ينتصرون * وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله) فهذه الآيات تضمنت وصف المؤمنين بقيامهم بما أوجب الله عليهم من الايمان والتوكل واقام الصلاة والانفاق مما رزقهم الله والاستجابة لله فى جميع طاعاته ومع هذا هم مجتنبون كبائر الاثم والفواحش فهذا تحقق التقوى ، ووصفهم فى معاملتهم للخلق بالمغفرة عند الغضب وندبهم الى العفو والاصلاح • وأما قوله تعالى (والذين اذا اصابهم البغي هم ينتصرون) فليس منافيا للعفو فان الانتصار يكون باظهار القدرة على الانتقام ثم يقع العفو بعد ذلك فيكون اتم وأكمل قال النخعى في هذه الآية كانوا يكرهون أن يستذلوا فاذا قدروا عفوا ، وقال مجاهد كانوا يكرهون للمؤمن أن يذل نفسه فيجترىء عليه الفساق فالمؤمن اذا بغى عليه يظهر القدرة على الانتقام ثم يعفو بعد ذلك وبالله التوفيق •

((الثالث))

التنبيه الثالث هل يبلغ العبد حالا لا تقبل توبته فيها

تنازع الناس في العبد هل يصير الى حال يمتنع عليه فيه قبول التوبة اذا أرادها فصوب شيخ الاسلام ابن تيمية قدس الله روحه ان التوبة ممكنة من

كل ذنب لمن أرادها ويمكن أن الله يغفر له ، قال وهذا الذى عليه أهـــل السنة والجمهور وقد فرض بعض الناس ان من توسط أرضا مغصوبة ومن توسط جرحى فكيف ما تحرك قتل بعضهم فقيل هذا لا طريق له الى التوبة، قال والصحيح ان هذا وغيره اذا تاب قبل الله توبته فان خروج من توسط أرضا مغصوبة بنية تخلية المكان وتسليمه الى مستحقه ليس بمنهى عنه ولا محرم بل الفقهاء متفقون على ان من غصب دارا وترك فيها قماشه وماله اذا أمر بتسليمها الى مستحقها فانه يؤمر بالخروج منها وباخراج أهله وماله منها وان كان ذلك نوع تصرف فيها لكنه لأجل اخلائهـــا وقد قال تعالى (قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا انه هو الغفور الرحيم * وأنيبوا الى ربكم واسلموا له من قبل ان يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون * واتبعوا أحسن ما أنزل اليكم من ربكم) الآيات فهذه في حق التائبين واما آية النساء وهى قوله (ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) فلا يجوز أن تكون في حق التائبين كما يقوله من يقوله من المعتزلة فان التائب من الشرك يغفر له الشرك أيضـا بنصوص القرآن واتفاق المسلمين وقد خص الله تعالى فى هده الآيةالشرك بأنه لا يغفره وما عداه لم يجزم بمغفرته بل علقه بالمشيئة فقال (ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) وفي هذه الآية رد على الخوارج والمعتزلة كما ان فيها ردا على المرجئة والجبرية لانه سبحانه علق المغفرة بالمشيئة فلو كان يغفـــر لكل أحد بطل قوله : لمن يشاء ، ولو كان لا يغفر لأحد بطل قوله : ويغفـــر ما دون ذلك لمن يشاء ، فدلت الآية على وقوع المغفرة العامة مما دون الشرك لكنها لبعض الناس وحينئذ فمن غفر له لم يعذب ومن لم يغفر له عذب وهذا مذهب الصحابة وسلف الامة وسائر الائمة وهو القطع بأن من عصاة الامة من يدخل النار ومنهم من يغفر له . والمقصود أن الآية الاولى فيها النهى عن القنوط من رحمة الله وان عظمت الذنوب وكثرت فليس لأحـــد أن يقنط من رحمة الله وان كثرت ذنوبه وعظمت ولا أن يقنط الناس من رحمة الله ، قال بعض السلف ويروى عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه : الفقيه كل الفقيه الذى لا يؤيس الناس من رحمة الله ولا يجرئهم على

معاصى الله • والقنوط بأن يعتقد ان الله لا يغفر له اما لكونه اذا تاب لا يقبل الله توبته ولا يغفر له ذنوبه واما ان نفسه لا تطاوعه على التوبة بل هو مغلوب والشيطان ونفسه قد استحوذا عليه فييأس من توبة نفسه وان علم بأنه اذا تاب غفر له ، وهذا يعترى كثيرا من الناس والقنوط يحصل بهذا تارة وبهذا تارة ، فالاول كالراهب الذى أفتى قاتل تسع وتسعين نفسا ان الله لا يغفر له فقتله وكمل به المائة ثم دل على عالم فسأله فأفتاه بأن الله يقبل توبته والحديث فى الصحيحين ، والثانى كالذى يرى للتوبة شروطا كثيرة أو يقال له ان للتوبة شروطا كثيرة يتعذر عليك فعلها والاتيان بها فييأس من أن يتوب وقد نهى الله عن ذلك وأخبر انه يغفر الذنوب جميعا والمراد ان الله يغفر الذنوب ولم يخبر سبحانه انه يغفر لكل مذنب بل أخبر تعالى انه لا يغفر لمن مات كافرا فقال (ان الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم كفار فلن يغفر الله لهم) وقال في حق المنافقين (سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم) وليس في الوجود ذنب لا يغفره الرب بحال بل ما من ذنب الا والله يغفره في الجملة ؛ وهذه الآية عظيمة جامعة من أعظم الآيات نفعا وفيها رد على طوائف كما سنوضحه فيما يأتى ان شاء الله تعالى •

((الرابع))

التنبيه الرابع تصح التوبة من ذنب مع الاصرار على آخر

تصح التوبة في المعتمد من ذنب مع الاصرار على اخر عند السلف والخلف ، وقالت طائفة من متكلمى المعتزلة كأبى هاشم بن أبى على الجبائى لا تصح التوبة الا من الجميع ، وحكى القاضى وابن عقيل رواية عن الامام أحمد رضى الله عنه تدل على مثل هذا ، والمعروف من مذهبه هو الاول وما روى عنه محمول على أنها ليست توبة تجعله تائبا مطلقا فان الذى ذكره المروذى عنه انه سئل عمن تاب عن الفاحشة ولم يتب عن النظر فقال أى توبة ذه ؟ وهذا لا يعطى ما قالوه عنه وانما أراد انها ليست توبة عامة ، فان نصوصه المتواترة عنه خلاف ذلك فحمل كلامه على ما توافقه أولى لا سيما اذا كان القول الآخر مبتدعا لا يعرف له سلف كما قاله شيخ الاسلام فى

فتاويه ، قال والامام أحمد رضى الله عنه من أشد الناس توصية بالسنة والاتباع وتوصية باتباع السلف وترك الابتداع ، قال شيخ الاسلام ومن تاب من بعض ذنوبه فالتوبة تقتضى مغفرة ما تاب منه فقط ،قال وماعلمت فيه نزاعا الا في الكافر اذا أسلم فان اسلامه يغفر له الكفر وهل يغفر له الذنوب التى فعلها في حال كفره ولم يتب منها في الاسلام ؟ على قولين معروفين ،الصحيح انه اذا لم يتب من الذنب بقى على حكمه ولا يغفر الا بمشيئة الله تعالى كغيره من المسلمين الذين عملوا في الاسلام • انتهى • واذا تاب الانسان توبة عامة فهى تتناول كل ما رآه ذنبا لان التوبة العامة تتضمن عزما عاما لفعل المأمور وترك المحظور ، وكذلك تتضمن ندما عاما على كل محظور • والندم سواء قيل انه من باب الاعتقادات أو من باب الارادات أو من باب الآلام التى تلحق النفس بسبب فعل ما يضرها ، فاذا استشعر القلب انه فعل ما يضره حصل له معرفة بأن الذى فعله كان من السيئات وهذا من باب الاعتقادات ،وكراهة ما كان فعله وهو من جنس الارادات ،وحصل له أذى وغم لما كان فعله وهذا من باب الآلام كالغموم والاحزان ، وعلى كل فمن تاب توبة عامة كانت مقتضية لغفران الذنوب كلها وان لم يستحضر أعيان الذنوب الا أن يكون بعض الذنوب لو استحضره لم يتب منه لقوة ارادته أو لاعتقاده انه حسن فلا يدخل في التوبة • وقال الامام النووى انها تصح من ذلك الذنب عند أهل الحق وهو الذى ذكره القرطبى انه خلاف قول المعتزلة يعنى صحة التوبة من بعض الذنوب دون بعض • قال العلامة ابن مفلح في الآداب : أما صحة التوبة عن بعض الذنوب فهى أصل السنة وانما يمنع صحتها المعتزلة القائلون بالاحباط وانه لا تنفع طاعة مع معصية فأما من صحح الطاعة مع المعاصى صحح التوبة من بعض المعاصى • وقال ابن عقيل في الفنون قال بعض الأصوليين لا تصح التوبة من ذنب مع الاصرار على غيره فان الانسان لو قتل لانسان ولدا وأحرق له بيدرا ثم اعتذر عن احراق البيدر دون قتل الولد لم يعد اعتذارا وهذا أحد الروايتين عن الامام أحمد رضى الله عنه والمعتمد الصحة وبالله التوفيق •

((الخامس))

التنبيه الثالث التوبة من مظالم العباد

من اغتاب انسانا أو قذفه ونحوه هل يشترط لصحة توبته اعلامه بذلك واستحلاله من ذلك ؟ أما المال وما يجوز أن يعتاض عنه بمثله أو قيمته فلا بد من الرد ان قدر، قال في الهداية : مظالم العباد تصح التوبة منها على الصحيح في المذهب وهو قول ابن عباس ومن مات نادما عليها كان الله عز وجل المجازى للمظلوم عنه ــ يعنى حيث لم يقدر على رد المظلمة ــ وفي الخبر « لا يدخل النار تائب من ذنوبه » وفي الرعاية يرد ما أثم به وتاب بسببه بذله الى مستحقه وينوى ذلك اذا أمكنه أو تعذر رده في الحال ، فالمشهور عند الجمهور لا يجب الاعلام ولا الاستحلال ، قال شيخ الاسلام ابن تيمية انه قول الاكثرين وانه ان تاب من قذف انسان أو غيبته قبل علمه به لا يشترط لتوبته اعلامه والتحلل منه ، واختاره القاضى لما روى أبو محمد الخلال باسناده عن أنس بن مالك رضى الله عنه مرفوعا « من اغتاب رجلا ثم استغفر له بعد غفر له غيبته » وباسناده أيضا عن أنس مرفوعا « كفارة من اغتيب أن يستغفر له » ولان فى اعلامه ادخال غم عليه ، قال الشيخ عبدالقادر قدس الله سره في الغنية ان كفارة الاغتياب ما روى أنس رضى الله عنه ــ وذكره • وخبر أنس المذكور ذكره الحافظ ابن الجوزى في الموضوعات وفيه عنبسة بن عبد الرحمن متروك، وذكر مثله من حديث سهل بن سعد وفيه سليمان بن عمرو كذاب • ومن حديث جابر وفيه حفص بن عمر الابلى متروك • وذكر ابن الجوزى أيضا حديث أنس في كتابه الحدائق وقال انه لا يذكر فيها الا الحديث الصحيح • قلت وقد ذكر في مختصر الموضوعات ان حديث أنس ذكره البيهقى فى الدعوات وقال : فى هذا الاسناد ضعف • وله شاهد عن الامام عبد الله بن المبارك من قوله أخرجه البيهقى في الشعب وأورد له شاهدا حديث حذيفة : كان في لسانى ذرب على أهلى فسألت النبى صلى الله عليه وسلم فقال « أين أنت من الاستغفار » ثم أوله على أن الامر بالاستغفار رجاء أن يرضى عنه خصمه يوم القيامة ببركة استغفاره • وذكر الامام ابن القيم في كتابه الكلم الطيب والعمل الصالح ما لفظه : يذكر عن النبى صلى الله عليه وسلم ان كفارة الغيبة ان تستغفر لمن اغتبته تقول

اللهم اغفر لنا وله وذكره البيهقى في الدعوات الكبير وقال ابن عبد البر في كتاب بهجة المجالس قال حذيفة رضى الله عنه كفارة من اغتبته ان تستغفر له ، وقال عبد الله بن المبارك لسفيان بن عيينة التوبة من الغيبة ان تستغفر لمن اغتبته ، قال سفيان بل تستغفره مما قلت فيه، فقال ابن المبارك لا تؤذه مرتين. ومثل قول ابن المبارك اختار شيخ الاسلام ابن تيمية وابن الصلاح الشافعى .

قال شيخ الاسلام ابن تيمية قدس الله روحه بعــــد أن ذكر الروايتين فى المسألة : فكل مظلمة فى العرض من اغتياب صادق وبهت كاذب فهو فى معنى القذف اذ القذف قد يكون صادقا فيكون غيبة وقد يكون كاذبا فيكون بهتا ، قال واختار أصحابنا انه لا يعلمه بل يدعو له دعاء يكون احسانا اليه في مقابلة مظلمته فان تضرر الانسان بما علمه من شتمه أبلغ من تضرره بما لا يعلم، ثم قد يكون الاعلام سبب العدوان على الظالم أولا اذ النفوس لا تقف غالبا عند العدل والانصاف ، وأيضا فيه زوال ما كان بينهما من كمال الالفة والمحبــة أو تجدد القطيعة والبغضة والله تعالى أمر بالجماعة ونهى عن الفرقة . فعلى هذا لو سأل المقذوف والمسبوب قاذفه هل فعل ذلك أم لا لم يجب عليــه الاعتراف على الصحيح من الروايتين اذ توبته صحت فى حق الله تعـــــالى بالندم وفي حق العبد بالاحسان اليه بالاستغفار ونحوه . وهل يجوز الاعتراف أو يستحب أو يكره أو يحرم ؟ الاشبه ان ذلك يختلف باختلاف الاحوال. وعلى هذا لو استحلف على ذلك جاز له أن يحلف ويعرض لانه مظـــلوم بالاستحلاف فاذا كان تاب وصحت توبته لم يبق لذلك عليه حق فلا تجب اليمين عليه . قال شيخ الاسلام ابن تيمية طيب الله ثراه قد سئلت عن نظـير هذه المسألة وهو رجل تعرض لامرأة غيره فزنى بها ثم تاب من ذلك وسأله زوجها عن ذلك فأنكر فطلب استحلافه فان حلف على نفى الفعل كانت يمينه غموسا وان لم يحلف قويت التهمة وان أقر جرى عليه وعليها من الشر أمر عظيم قال فأفتيته أن يضم الى التوبة فيما بينه وبين الله تعالى الاحســـان الى الزوج بالدعاء والاستغفار أو الصدقة عنه ونحو ذلك مما يكون بازاء ايذائه له في أهله فان الزنا بها تعلق به حق الله تعالى وحق زوجها من جنس حقه في عرضه وليس هو مما يجبر بالمثـــل كالدماء والاموال بل هو من جنس

القذف الذى جزاؤه من غير جنسه فتكون توبة هذا كتوبة القاذف وتعريضه كتعريضه وحلفه على التعريض كحلفه • وأما لو ظلمه في دم أو مال فلا بد من ايفاء الحق فان له بدلا وقد نص الامام أحمد رضى الله عنه على الفرق بين توبة القاتل وتوبة القاذف • قال العلامة ابن مفلح : وفي هذا خلاص عظيم وتفريج كربات النفوس من آثار المعاصى والمظالم فان الفقيه كل الفقيه الذى لا يؤيس الناس من رحمة الله عز وجل ولا يجرئهم على معاصيه وجميع النفوس لا بد أن تذنب فتعريف النفوس ما يخلصها من الذنوب من التوبة والحسنات الماحيات كالكفارات والعقوبات من أعظم فوائد الشريعة وبالله التوفيق •

حال من مات ولم يتب

((ومن)) أى أى امرىء مذنب ((يمت)) أي يدركه الموت وهو مصر على ذنوبه ومنهمك في شهواته ((ولم يتب من الخطأ)) الذى ارتكبه والاثم الذى اكتسبه لم نحكم عليه بالكفر كما زعمت الخوارج، ولم نقل انه خرج من الاسلام بارتكابه كبائر الآثام ولم يدخل في الكفر بل هو في منزلة بين منزلتى الكفر والاسلام كما زعمت المعتزلة، ولا نحكم عليه بالخلود في النار بل ولا بدخولها بل نقول في من مات مصرا على كبائر الذنوب والخطايا ((فأمره)) الذى يؤل اليه ((مفوض)) أى موكول ومردود ((لذى)) أى صاحب ((العطا)) الواسع والكرم والجود والنعم والعطا ويمد النوال وفى الاسماء الحسنى المعطى أي يعطى من يريد ما يريد ومن ثم قال ((فان يشا)) سبحانه وتعالى ((يعف)) أى يتجاوز عمن مات مرتكبا لذنوبه ولم يتب منها والعفو هو التجاوز عن الذنب وترك العقاب عليه وأصله المحو وذهاب الاثر وفى الأسماء الحسنى العفو هو فعول من العفو الذى هو التجاوز ((وان شاء انتقم)) منه فان عامله بالفضل عفا وأنعم وان عامله بالعدل انتقم وآلم، والانتقام ان يبلغ في العقوبة حدها وفي الاسماء الحسنى المنتقم وهو المبالغ في العقوبة لمن يشاء وهو مفتعل من نقم ينقم اذا بلغت به الكراهة حد السخط ((وان يشأ أعطى)) النوال السهل ((وأجزل)) أى أكثر وأعظم لهم ((النعم)) بكسر النون المشددة وفتح العين المهملة جمع نعمة بكسر النون وسكون العين المهملة والاسم بالفتح قال في القاموس النعمة بالكسر

المسرة واليد البيضاء الصالحة كالنعمى بالضم والنعماء بالفتح ممدودة واجمع أنعم ونعم ونعمات بكسرتين وبفتح العين ونعيم الله عطيته • قال الامام المحقق ابن القيم فى كتابه الجيوش الاسلامية : النعمة نعمتان نعمة مطلقةونعمةمقيدة فالنعمة المطلقة هى المتصلة بسعادة الابد وهى نعمة الاسلام وهى التى أمرنا الله سبحانه وتعالى ان نسأله في صلاتنا ان يهدينا صراط أهلها ومن خصهم بها وجعلهم أهل الرفيق الاعلى حيث يقول (ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا) فهؤلاء الاصناف الاربعة هم أهل هذه النعمة المطلقة وهم المعنيون بقوله تعالى (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا) واذا قيل ليس لله على الكافر نعمة بهذا الاعتبار فهو صحيح ، والنعمة الثانية هى النعمة المقيدة كنعمة الصحة والغنى وعافية الجسد وبسط الجاه وكثرة الولد والزوجة الحسنة وأمثال ذلك فهذه مشتركة بين البر والفاجر والمؤمن والكافر واذا قيل لله على الكافر نعمة بهذا الاعتبار فهو حق ، فلا يصح اطلاق السلب ولا الايجاب الا على وجه واحد وهو ان النعم المقيدة لما كانت استدراجا للكافر ومآلها الى العذاب والشقاء فكأنها لم تكن نعمة وانما كانت بلية كما سماها الله تعالى في كتابه كذلك فقال (فأما الانسان اذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه) الآيتين ولهذا قال (كلا) أى ليس كل من أكرمته في الدنيا ونعمته فيها فقد أنعمت عليه وانما دلك ابتلاء منى واختبار ، ولا كل من قدرت عليه رزقه فجعلته بقدر حاجته من غير فضلة أكون قد أهنته بل أبتلى عبدى بالنعم كما أبتليه بالمصائب •

والحاصل ان مذهب أهل الحق من أهل السنة والجماعة ان من مات مذنبا ولو مصرا على كبائر الذنوب ولم يتب منها لعلام الغيوب لم نقطع له بخروج من الدين بل نثبت انه من المؤمنين ولم نقطع له بدخول النار بل نفوض أمره الى الحليم[1] الغفار فان شاء عذبه غير أنه لا يخلده في النار وان شاء عفا عنه ابتداء اما بشفاعة مقبولة أو بدعوة صالح أو بمصيبة من تشديد عند الموت أو غيره من مصائب البرزخ والصدقة عند الموت والاعمال الصالحة

---

(١) مخ « العزيز » •

التى يهدبها غيره له أو يرحمه أرحم الراحمين ونحو ذلك ، وان شاء رفع عنه العذاب وأجزل له الثواب ورفع له الدرجات وبدل الله سيئاته حسنات.

تنبيهان
الاول يقال لهذه المسألة مسألة وعيد الفساق

تنبيهـــــان

هذه المسألة يترجمها بعض القوم بمسألة وعيد الفساق وبعضهم بمسألـــة عقوبة العصاة وبعضهم بمسألة انقطاع عذاب أهل الكبائر، وضابطها ان يرتكب المؤمن كبيرة غير مكفرة بلا استحلال ويموت بلا توبة، وقد اختلف الناس في حكمه كما تقدم فأهل الســـنة لا يقطعون له بالعقوبة ولا بالعفو بل هو في مشيئة الله تعالى وانما يقطعون بعدم الخلود فى النار بمقتضى ما سبق من وعده وثبت بالدليل خلافا للمعتزلة في قولهم نقطع له بالعذاب الدائم والبقاء المخلد في النار لكنه عندهم يعذب عذاب الفســـاق لا عذاب الكفار ، وأما الخوارج فعندهم انه يعذب عذاب الكفار لكفره عندهم ، والدليـــل لمذهب أهل الحق الآيات والاحاديث الدالة على أن المؤمنين يدخلون الجنة فان كان بعد العذاب ودخول النار فهى مسألة انقطاع العذاب وان كان قبل ذلك فهى مسألة العفو التام قال تعالى « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره * ـ ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة » وقال صلى الله عليه وسلم « من قال لا اله الا الله دخل الجنـة » وقال « من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة وان زنى وان سرق » وكقوله صلى الله عليـه وسلم « يخرج من النار قوم بعد ما امتحشوا وصاروا حمما وفحما فيفرقون عـلى أنهار الجنة ويرش عليهم من مائها فينبتون كما تنبت الحبة في حميل السيل فيحيون ويعودون لحالهم الاولى وأحسن » وقوله صلى الله عليـه وسلم « يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من ايمان » وسيأتى تمام هذا بعد ان شاء الله تعالى .

التنبيه الثانى لا بد من نفوذ الوعـــيد فى الجملة

((الثـــانى))

ذكر بعض المحققين انعقاد الاجماع على أنه لا بد سمعا من نفوذ الوعيد في طائفة من العصاة أو طائفة من كل صنف منهم كالزناة وشربة الخمـــر

وقتلة الانفس وأكلة الربا وأهل السرقة والغصوب اذا ماتوا على غير توبة فلا بد من نفوذ الوعيد في كل طائفة من كل صنف لا لفرد معين لجواز العفو وأقل ما يصدق عليه نفوذ الوعيد واحد من كل صنف والادلة قاضية بقصر العصاة على عصاة الموحدين وقد رتب بعض النـاس على ذلك امتناع سؤال العفو لجميع المسلمين لمنافاته لذلك وهذا ساقط الا اذا قصد العفـو ابتداء لكل فرد من أفراد الامة على أن العفو يصدق بما بعد العذاب والتعذيب فمن قال بمنع المنع فهو المصيب وبالله التوفيق •

* * *

فصل فيما قيل من عدم قبول اسلام الزنديق ونحوه

((فصل في ذكر من قيل بعدم قبول اسلامه

من طوائف أهل العناد والزندقة والالحاد))

أعلم وفقنى الله واياك ان علماءنا ذكروا تحتم قتل جماعة من الزنادقة وأهل الالحاد لعدم قبول اسلامهم بحسب الظـاهر كالزنديق ومن تكررت ردته أو كفر بسحره أو سب الله أو رسوله أو تنقصه ، واما حكمهم في الآخرة فان صدقوا قبل بلا خلاف وعن الامام أحمد رضى الله عنه رواية ثانية ان توبتهم تقبل كغيرهم وهذا الذى نختاره ولهذا قال .

((وقيـل في الدروز والزنادقة ... وسـائر الطوائف المنافقه))
((وكل داع لابتـداع يقتل ... كمن تكرر نكثه لا يقبل))
((لأنه لم يبـد من ايمـانه ... الا الذى أذاع من لسـانه))
((كملحد وسـاحر وساحره ... وهم على نياتهم في الآخـره))
((قلت وان دلت دلائل الهدى ... كما جرى للعيلبونى اهتدى))
((فانـه أذاع من أسرارهم ... ما كان فيه الهتك عن استارهم))
((وكان للـدين القويم ناصرا ... فصار منا باطنـا وظاهرا))
((فكل زنديق وكـل مارق ... وجاحـد وملحد منافـق))
((اذا استبان نصحه للـدين ... فانه يقبـل عن يقـين))

لمحة عن الاسماعيلية

((وقيل)) وهو المذهب فقها[1] ((في)) طوائف ((الدروز)) من الحمزاوية اتباع حمزة المدعو عندهم بهادى المستجيبين والبرذعي والدرزى وغيرهم من الحاكمين القائلين بالهية الحاكم العبيدى وكان أخصهم بالحاكم وأعجبهم اليه حمزة المدعو بهادى المستجيبين وهو حمزة اللباد وكان أعجميا من الزورى فأظهر الدعاء الى عبادة الحاكم وزعم ان الاله حل فيه واجتمع اليه جماعة من غلاة الاسماعيلية وكثر جمعه ومن دخل في دعوته وشاع ذلك فظهر وكان الحاكم اذا ركب الى تلك الجهة التى هو بها فانه كان مقيما في المسجد الذى عند سقاية زيدان بظاهر باب النصر من مصر خرج اليه من المسجد وانفرد به ويقف الحاكم له راكبا فيحادثه ويفاوضه وارتفع شأن هذا الملعون واتخذ لنفسه خواصا لقبهم بألقاب منهم رجل لقبه بسفير القدرة وجعله رسولا فكان يرسله لأخذ البيعة على مايعتقده الحاكم ، ثم نبغ شاب من موالى الاتراك اسمه أنوشتكين البخارى ويعرف بالدرزى فسلك طريق الزورى فكثر تبعه والمنتابون اليه واليه تنسب طائفة الدروز وكان أيضا يقف للحاكم ويخلو به ويقرر معه ما يفعله وسمى نفسه سيد الهادين وحياة المستجيرين ، وهؤلاء وأتباعهم ومن نحا نحوهم هم الطائفة الموسومة بالاسماعيلية . قال الامام شيخ الاسلام ابن تيمية روح الله روحه : الاسماعيلية كانوا ملوك مصر القاهرة وكانوا يزعمون انهم خلفاء علويون فاطميون وهم عند أهل العلم من ذرية عبيد الله القداح وقال فيهم الامام أبو حامد الغزالى في كتابه الذى صنفه عليهم : ظاهر مذهبهم الرفض وباطنه الكفر المحض . وقد جزم شيخ الاسلام بكفر الاسماعيلية في محلات متعددة من مصنفاته وانهم من القرامطة النصيرية وانهم أشد كفرا من الغالية الذين يقولون بالهية أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه ونبوته . وعبيد الله هو الملقب بالمهدى أول العبيديين والمحققون ينكرون دعواه فى نسبته لآل البيت ويقولون ان اسمه سعيد ولقبه عبيد الله وزوج أمه الحسين بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن ميمون القداح وسمى قداحا لانه كان كحالا يقدح العين التى ينزل فيها الماء وسموا بالاسماعيلية نسبة الى عبيد الله بن محمد بن اسماعيل

---

(١) مخ « وهو مذهب فقهائنا ».

ابن جعفر • وهو (؟) أبو طاهر المنصور بن القائم بن المهدى صاحب افريقية وهم أهل هذه البدعة ، ويقال ان جدهم كان يهوديا ولا مزيد على ما هم عليه من الكفر والالحاد والزندقة والعناد وقد فشت نحلتهم وانتشرت بدعتهم وكثرت وعظم ضررها واستفحل كفرها وشررها ولا سيما في شوف[1] ابن معن ونواحي كسروان وفي الكرمل ونواحي عكا وتلك البلدان والله المستعان •

((والزنادقة)) جمع زنديق قال في المطلع الزنديق فارسي معرب وجمعه زنادقة قال سيبويه الهاء في زنادقة بدل من (ياء) زناديق • قال الجوهري وقد تزندق والاسم الزندقة • قال ثعلب ليس زنديق ولا فرزين من كلام العرب انما يقولون زندق وزندقي اذا كان شديد البخل • وفي القاموس الزنديق بالكسر من الثنوية أو القائل بالنور والظلمة أو من لا يؤمن بالآخرة وبالربوبية أو من يبطن الكفر ويظهر الايمان أو معرب زن دين أي دين المرأة قال والجمع زنادقة أو زناديق • انتهى • قال الامام الموفق في المغني : الزنديق هو الذي يظهر الاسلام ويخفي الكفر كان يسمى منافقا ويسمى اليوم زنديقا • ومن ثم قال ((وسائر)) أي بقية ((الطوائف)) جمع طائفة وهي القطعة أو الواحد فصاعدا أو الى الالف أو أقلها رجلان أو رجل فيكون بمعنى النفس ـ كله من القاموس • وقال في النهاية الطائفة الجماعة من الناس ويقع على الواحد كأنه أراد نفسا طائفة ، قال وسئل اسحاق بن راهويه عنه فقال : الطائفة دون الالف ((المنافقة)) من النفاق وهو ابطان الكفر واظهار الايمان قال في النهاية قد تكرر في الاحاديث ذكر النفاق وما تصرف منه اسما وفعلا ، قال وهو اسم اسلامي لم تعرفه العرب بالمعنى المخصوص به ـ وهو الذي يستر كفره ويظهر ايمانه ـ وان كان أصله في اللغة معروفا يقال نافق ينافق منافقة ونفاقا وهو مأخوذ من النافقاء احدى جحرة اليربوع اذا طلب من واحد هرب الى الآخر وخرج منه ، وقيل هو من النفق وهو السرب الذي يستتر فيه لستره كفره • قال الامام أبو حامد الغزالي في كتابه التفرقة بين الايمان والزندقة: فأما ما يتعلق بهذا الجنس ـ يعني التأويلات البعيدة بأصول العقائد المهمة ـ قال : وأصول الايمان ثلاثة الايمان بالله وبرسوله وباليوم

---

(١) مخ « سوق »

الآخر ، وما عداه فروع فيجب تكفير من يغير الظاهر بغير برهان قاطع كالذى ينكر العقـــوبات الحسية في الآخرة بظنون وأوهام واستبعادات من غـــير برهان قاطع فيجب تكفيره قطعا•ويجب تكفير من قال منهم ان الله عز وجل لا يعلم الا نفسه أو لا يعلم الا الكليات فأما الامور الجزئية المتعلقة بالاشخاص فلا يعلمها ، لأن ذلك تكذيب للرسول صلى الله عليه وسلم قطعا وليس من قبيل الدرجات التى يسوغ فيها التأويل اذ أدلة القرآن والاخبار على تفهيم حشر الاجساد وتفهيم علم الله تعالى لكل ما يجرى على الانسان مجاوزة حدا لا يقبل التأويل وهم معترفون بأن هذا ليس من التأويل ، قالوا ولكن لما كان صلاح الخلق فى أن يعتقدوا حشر الاجساد لقصور عقولهم عن[1] فهم المعاد العقلى وكان صلاحهم في أن يعتقدوا أن الله عالم بما يجرى عليهم ورقيب عليهم ليورث ذلك رغبة ورهبة في قلوبهم جاز للرسول صلى الله عليه وسلم أن يفهمهم ذلك قالوا وليس بكاذب من أصلح غيره فقال ما فيه صلاحه وان لم يكن كما قاله ، قال الغزالى وهذا القول باطل قطعا لانه تصريح بالتكذيب ويجب اجلال منصب النبوة عن هذه الرذيلة ففى الصدق واصلاح الخلق به مندوحة عن الكذب ، قال وهذه أول درجات الزندقة وهى رتبـــة بين الاعتزال وبين الزندقة المطلقة فان المعتزلة تقرب مناهجهم من مناهج الفلاسفة الا فى هذا الامر الواحد وهو أن المعتزلى لا يجوز الكذب على الرسول صلى الله عليه وسلم بمثل هـذا بل يؤول الظاهر مهما ظهر له بالبرهان خـلافه والفلسفى لا يقتصر مجاوزته للظواهر على ما يقبل التـــأويل على قرب أو بعد ، قال وأما الزندقة المطلقة فهو أن ينكر أصل المعاد عقليا أو حسيا وينكر الصانع للعالم أصلا ورأسا ، قال وأما اثبات المعـــاد بنوع عقلى مع نفى الآلام واللذات الحسية واثبات الصانع مع نفى علمه بتفاصيل الامور فهى زندقـة مقيدة بنوع اعتراف بصدق الانبياء ، وظاهر ظنى ـقال والعلم عند الله تعالى ـ ان هؤلاء المرادون بقوله صلى الله عليه وسلم « ستفترق أمتى نيفا وسبعين فرقة كلهم في الجنة الا الزنادقة وهى فرقة » قال وهذا لفظ الحديث في بعض الروايات قال وظاهر الحديث يدل على أنه أراد الزنادقة من أمته اذ قال

---

(١) فى الاصلين : عر .

ستفترق أمتى ومن لم يعترف بنبوته فليس من أمته والذين ينكرون أصل المعاد وأصل الصانع فليسوا معترفين بنبوته اذ يزعمون ان الموت عدم محض وان العالم لم يزل كذلك موجودا لنفسه من غير صانع ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر وينسبون الانبياء الى التلبيس فلا يمكن نسبتهم الى الامة فاذا لا معنى لزندقة هذه الامة الا ما ذكرناه . انتهى . أقول أما هذا الحديث الذى ذكره فلا أصل له وتقدم الكلام عليه في صدر الكتاب وقول شيخ الاسلام ابن تيمية طيب الله مثواه بأنه موضوع باتفاق أهل العلم بالحديث ولم يروه أحد من أهل الحديث المعروفين بهذا اللفظ بل الحديث الذى في كتب السنن والمسانيد عن النبى صلى الله عليه وسلم من وجوه انه قال « ستفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة ، واحدة في الجنة واثنتان وسبعون في النار » وروى عنه انه قال « هى الجماعة » وفي حديث آخر « هى من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابى » وتقدم الحديث والكلام عليه مستوفى عند قوله :

بان ذى الأمة سوف تفترق بضعا وسبعين اعتقادا والمحق

الأبيات . قال شيخ الاسلام ابن تيمية وأيضا لفظ الزندقة لا يوجد فى كلام النبى صلى الله عليه وسلم كما لا يوجد في القرآن وهو لفظ أعجمى معرب من كلام الفرس بعد ظهور الاسلام وقد تكلم به السلف والأئمة في توبة الزنديق ونحو ذلك ، قال والزنديق الذى تكلم الفقهاء في قبول توبته في الظاهر المراد به عندهم المنافق الذى يظهر الاسلام ويبطن الكفر وان كان مع ذلك يصلى ويصوم ويحج ويقرأ القرآن ، وسواء كان في باطنه يهوديا أو نصرانيا أو مشركا أو وثنيا ، وسواء كان معطلا للصانع وللنبوة أو للنبوة فقط أو لنبوة نبينا صلى الله عليه وسلم فقط فهذا زنديق وهو منافق ، وما في القرآن والسنة من ذكر المنافقين يتناول مثل هذا باجماع المسلمين وقد قال تعالى (ان المنافقين في الدرك الاسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا * الا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤتى الله المؤمنين أجرا عظيما) قال ومثل هؤلاء المنافقين كفار في الباطن باتفاق المسلمين وان كانوا مظهرين للشهادتين

والاقرار بما جاء به الرسول ومؤدين للواجبات الظاهرة فان ذلك لا ينفعهم في الآخرة اذا لم يكونوا مؤمنين بقلوبهم باتفاق المسلمين • قال شيخ الاسلام وبهذا يظهر ضعف ما ذكره الغزالى من أنه لا معنى لزندقة هذه الأمة الا ما ذكره من الزندقة المقيدة التى هى مذهب الفلاسفة المشائين فان الزندقة في هذه الامة وغيرها باتفاق أئمة المسلمين أعم من هذا كما ذكره الفقهاء كلهم في باب توبة الزنديق وسائر أحكامه وان لم يكن لفظ الزنديق واردا فى الكتاب والسنة بل معناه عندهم المنافق ، وجميع من بلغته دعوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ثلاثة أصناف مؤمن وكافر ومنافق والمنافق كافر في الباطن مسلم في الظاهر وقد أنزل الله تعالى وصف الاصناف الثلاثة في أول سورة البقرة فأنزل أربع آيات في المؤمنين وآيتين فى الكافرين وبضع عشرة آية في المنافقين • قال شيخ الاسلام قدس الله روحه وعامة ما يوجد النفاق في أهل البدع فان الذى ابتدع الرفض كان منافقا زنديقا وكذلك يقال عن الذى ابتدع التجهم وكذلك رؤوس القرامطة وأمثالهم لا ريب انهم من أعظم المنافقين وهؤلاء لا يتنازع المسلمون في كفرهم • ولهذا قال :

توبة المبتدع الداعية

((وكل داع ل)) انتحال ((ابتداع)) مكفر من بدع الضلال ، ذكر القاضى وأصحابه من علماء المذهب رواية عن الامام أحمد رضى الله عنه : لا تقبل توبة داعية الى بدعة مضلة، واختارها أبو اسحاق ابن شاقلا، وفي الرعاية من كفر ببدعة قبلت توبته على الاصح ، وقيل ان اعترف بها ، وقيل لا تقبل من داعية ، والمذهب تقبل توبة من كفر ببدعة ولو داعية خلافا لابن حمدان والبليانى في عقيدتهما • قال شيخ الاسلام ابن تيمية قدس الله روحه قد بين الله تعالى انه يتوب على أئمة الكفر الذين هم أعظم من أئمة البدع • قال شيخ مشايخنا بدر الدين البليانى فى مختصر عقيدة ابن حمدان : ولا تقبل يعنى التوبة ظاهرا من داعية الى بدعته المضلة ولا من ساحر وزنديق وهو المنافق ولا ممن تكررت ردته ولذا قال ((يقتل)) الداعية لبدعته المضلة لعدم قبول توبته ظاهرا كالدرزى والزنديق وسائر طوائف المنافقين ((كمن)) أى كمكلف ((تكرر نكثه)) أى نقضه للاسلام بأن تكررت ردته واتجه العلامة الشيخ مرعى فى غايته ان أقل التكرار ثلاث • قال فى النهاية : النكث

نقض العهد والاسم النكث بالكسر ((لا يقبل)) منه بعد تكرر ردته منـــه الاسلام على ظاهر المذهب لظاهر قوله تعالى (ان الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا) وقوله (ان الذين كفروا بعدا يمانهم ثم ازدادوا كفرا لن تقبل توبتهم) والازدياد يقتضي كفرا متجددا أو لا بد من تقديم ايمان عليه• ولما روى الاثرم باسناده عن ظبيان بن عمارة ان ابن مسعود رضى الله عنه أتى برجل فقال له انه قد أتي بك مرة فزعمت انك تبت وأراك قد عدت فقتله ولان تكرار الردة منه يدل على فساد عقيدته وقلة مبالاته بالدين• والسبب في عدم قبول توبة نحو المنافق ((لانه لم يبد)) للعيان ظاهرا ((من ايمانه)) الذى زعم انه أتى به ودخل به الى الاسلام والدين القويم ((الا الذى أذاع)) أى أظهر ونشر قبل توبته ((من لسانه)) مع عدم اعتقاده للاسلام فلم يزد على ما كان يقوله ويأتى به ويذيعه فى حال كفره وكتمانه للعقيدة الفاسدة والنحلة البـــاطلة والكفر المستور شيئا وقد قال تعـــالى (الا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا) وهؤلاء لا يظهر منهم على ما يتبين به رجوعهم فلا يظهر منهم بالتوبة خلاف ما كانوا عليه فانهم كانوا ينفون عنهم الكفر قبل ذلك وقلوبهم لا يطلع عليها فلا يكون لما قاله حكم لأن الظاهر من حال هؤلاء انهم انما يستدفعون عنهـم القتل باظهار التوبة اذا بدا منهم ما يؤاخذون به ((ک)) ما لا يقبل ايمـان ((ملحد)) مأخوذ من الالحاد وهو الميل والعدول عن الشيء ومنه حديث طهفة « لا يلطط في الزكاة ولا يلحد في الحياة » أى لا يجرى منكم ميـل عن الحق ما دمتم أحياء، قال في النهاية ورواه القتيبي لا تلطط ولا تلحد على النهى للواحد قال ولاوجه له لانه خطاب للجماعة ، وذكره الزمخشري لا نلطط ولا نلحد بالنون قال والوجه بالياء التحتية مبنيا لما لم يسم فاعله ، واللط المنع وفى حديث أنشأت تلطها أى تمنعها حقها ، وفى كلام الاعشى الحرمازى فى شأن امرأته (اخلفت الوعد ولطت بالذنب) أراد منعته بضعها من لطت الناقة بذنبها اذا سدت فرجها به اذا أرادها الفحل • قال في كنز الاسرار: الملاحدة والزنادقة هم الذين يسبون الله عز وجل أو واحدا من أنبيائه وكذلك من سب النبى صلى الله عليه وسلم أو عابه أو ألحق به نقصا في نفسه أو نسبه

حكم من سب الله أو أحد أنبيائه

أو دينه أو خصلة من خصاله أو شبهه بشيء على طريق التشويه أو الازراء عليه أو التصغير لشأنه ، قال في الفروع ويقتل من سب الله أو رسوله ، نقل حنبل عن الامام احمد رضى الله عنه : أو تنقصه ولو تعريضا •وقال من عرض بشيء من ذكر الرب فعليه القتل مسلما كان أو كافرا • قال وهو مذهب أهل المدينة • وسأله ابن منصور ما الشتيمة التى يقتل بها ؟ قال نحن نرى في التعريض الحد • وفي فصول ابن عقيل عن الاصحاب لا تقبل توبته ان سب النبى صلى الله عليه وسلم لانه حق آدمى لم يعلم اسقاطه وأما ان سب الله فتقبل توبته لانه يقبل التوبة فى خالص حقه •

((و)) ك ((ساحر وساحرة)) ممن يكفر بسحره من ذكر أو أنثى لما روى جندب بن عبد الله رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « حد الساحر ضربه بالسيف » رواه الترمذى والدارقطنى •وعن بجالة ابن عبدة قال كنت كاتبا لجزء بن معاوية عم الاحنف بن قيس فأتانا كتاب عمر قبل موته بسنة ان اقتلوا كل ساحر وساحرة وفرقوا بين كل ذى رحم محرم من المجوس وأنهوهم عن الزمزمة ـ فقتلنا ثلاث سواحر وجعلنا نفرق بين الرجل وحريمه • رواه الامام أحمد وأبو داود وللبخارى منه التفريق بين ذى المحارم • وروى الامام مالك في الموطا عن محمد بن عبدالرحمن بن سعد بن زرارة انه بلغه أن حفصة زوج النبى صلى الله عليه وسلم رضى الله عنها قتلت جارية لها سحرتها وكانت قد دبرتها فأمرت بها فقتلت • وكل من قلنا ان اسلامه لا يقبل بل حكمه ان يقتل يعنى بحسب الظاهر في الدنيا ((وهم)) يعنى الزنادقة والدروز والمنافقة ونحوهم يبعثون ((على نياتهم في)) الدار ((الآخرة)) فمن صدق منهم في توبته قبلت باطنا ونفعه ذلك بلا خلاف كما ذكره الامام ابن عقيل وموفق الدين ابن قدامة وغيرهما ، وقيل يقبل الاسلام والتوبة من كل من ذكر حتى فى الدنيا • قال الامام ابن عقيل التوبة من سائر الذنوب مقبولة خلافا لاحدى الروايتين عن الامام أحمد رضى الله عنه: لا تقبل توبة الزنديق • قال ابن عقيل اذا أظهر لنا الزنديق التوبة والرجوع عن زندقته يجب أن نحكم بايمانه ظاهرا وان جاز أن يكون عند الله عز وجل كافرا ، قال ولان الزندقة نوع كفر فجاز أن تحبط بالتوبة كسائر

الكفر من التوثن والتمجس والتهود والتنصر اذ ليس علينا معـــرفة الباطن جملة وانما المأخوذ علينا حكم الظاهر فاذا بان لنا فى الظاهر حسن طريقته وتوبته وجب قبولها ولم يجز ردها لما بينا وان جميع الاحكام تتعلق بها . قال ولم أجد لهم - يعنى القائلين بعدم القبول - شبهة أو ردها الا أنهم حكوا عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه انه قتل زنديقا ولا أمنع من ذلك وان الامام اذا رأى قتله لانه ساع في الارض بالفساد ساغ له ذلك وأما ان تكون توبته لا تقبل بدلالة ان قطاع الطريق لا يسقط الحد عنهم بعـــد القدرة ويحكم بصحتها عند الله عز وجل في غير اسقاط الحد عنهم فليس من حيث لم يسقط القتل لا تصح التوبة ، ولعل الامام أحمد رضى الله عنه عنى بقوله لا تقبل في اسقاط القتل فيكون ما قبله هو مذهبه رواية واحدة ، قال وكمن قال لا تقبل توبة المبتـــدع فانا لا نمنع أن يكون مطالبا بمظـــالم الآدميين ولكن لا يمنع هذا صحة التوبة كالتـــوبة من السرقة وقتل النفس وغصب الاموال صحيحة مقبولة والاموال والحقوق للآدمى لا تسقط ويكون الوعيد راجعا الى ذلك ويكون نفى القبول عائدا الى القبول الكامل . وقال شيخ الاسلام ابن تيمية رضى الله عنه رادا قول من قال الداعية الى البدعـــة لا يغفر له ولا تقبل توبته قال : ويحتجون بحديث الاسرائيلى وفيه انه قيل له : فكيف بمن أضللت ؟ وهذا تقوله طائفة ممن ينسب الى السنة والحديث وليسوا من العلماء بذلك كأبى على الاهوازى وأمثاله ممن لا يميزون بين الاحاديث الصحيحة والموضوعة وما يحتج به بل يروون كل ما في البـــاب محتجين به وقد حكى هذا طائفة قولا في مذهب الامام أحمد ورواية عنه ، وظاهر مذهبه مع سائر مذاهب أئمة المسلمين انه تقبل توبة الداعية الى الكفر وتوبة من فتن الناس عن دينهم وقد تاب قادة الاحزاب مثل أبى سفيان بن حرب والحارث بن هشام وسهيل بن عمرو وصفوان بن أمية وعكرمة بن أبى جهل وغيرهم بعد أن قتل على الكفر بدعائهم وحضهم عليه من قتـــل وكانوا من أحسن الناس اسلاما وغفر الله لهم كما قال تعالى (قل للذين كفروا ان ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف) وكذلك عمرو بن العاص كان من أعظم الدعاة الى الكفر والايذاء للمسلمين وقد قال له النبى صلى الله عليه

وسلم لما أسلم « يا عمرو أما علمت ان الاسلام يجب ما قبله » فالداعى الى الكفر والبدعة وان كان أضل غيره فذلك الغير يعاقب على ذنبه لكونه قبل من هذا وتبعه وهذا عليه وزره ووزر من تبعه الى يوم القيامة مع بقاء أوزار أولئك عليهم فاذا تاب هذا من ذنبه غفر له ذنبه فلم يبق عليه وزره ولا وزر من تبعه ولا ما حمله هو لأجل اضلالهم وأما هم فسواء تاب من أضلهم أو لم يتب حالهم واحد ولكن توبة مثل هذا تحتاج الى ضد ما كان هو عليه من الضلال الى الهدى كما تاب كثير من الكفار وأهل البدع وصاروا دعاة الى الاسلام والسنة ، وسحرة فرعون كانوا أئمة في الكفر وتعليم السحر وتعلموا ثم أسلموا وختم لهم بخير ، وكذا قاتل النفس، والجمهور على أن توبته مقبولة وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما : لا تقبل ، وعن الامام أحمد في ذلك روايتان وحديث قاتل المائة في الصحيحين يرد ذلك فهو دليل على قبول توبته وآية (ان الله يغفر الذنوب جميعا) تدل على ذلك وآية النساء انما فيها وعيد قاتل النفس اذا لم يتب كسائر وعيد القرآن ، وقال وكل وعيد فى القرآن فهو مشروط بعدم التوبة باتفاق الناس فبأى وجه يكون وعيد القاتل لاحقا به وان تاب ، هذا في غاية الضعف ولكن قد يقال لا تقبل توبته بمعنى لا تسقط حق المظلوم بالقتل وانما التوبة تسقط حق الله ، والمقتول له مطالبته بحقه فهذا صحيح فيجميع حقوق الآدميين حتى الدين، وفي الصحيحين « الشهيد يغفر له كل شيء الا الدين » وحق الآدمى يعطاه من حسنات من ظلمه فمن تمام التوبة ان يستكثر العبد من الحسنات ليوفي غرماءه وتبقى له بقية يدخل بها الجنة . قال ولعل ابن عباس رضى الله عنهما رأى ان القتل أعظم الذنوب بعد الكفر فلا يكون لصاحبه حسنات تقابل حق المقتول فلا بد أن يبقى له سيئات يعذب بها ، وهذا الذى رآه يقع في بعض الناس فيبقى الكلام فيمن تاب وأصلح وعجز عن حسنات تعادل حق المظلوم هل يجعل عليه من سيآت المظلوم ما يعذب به ؟ هذا موضع دقيق على مثله يحمل حديث ابن عباس لكن هذا كله لا ينافى موجب قوله تعالى (قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا) الآيات

فهى تدل على أن الله تعالى يغفر كل ذنب من الشرك وغيره من حيث الجملة فهى عامة في الافعال مطلقة في الاشخاص مختصة بالتائبين بدليل قوله تعالى (وأنيبوا الى ربكم وأسلموا له من ان يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون) فاخبر انه تعالى يغفر جميع الذنوب ولم يخبر انه يغفر لكل مذنب بل قد أخبر في غير موضع انه لا يغفر لمن مات كافرا فمن تاب من الكفر قبلت توبته حيث كانت التوبة قبل مجيء العذاب وقبل الغرغرة وبالله التوفيق •

والحاصل ان شيخ الاسلام ومن نحا منحاه لم يمنع توبة تائب من زنديق ومنافق وساحر وداعية بدعة ضلالة وقاتل نفس ولا من تكررت ردته فانه قال في قوله تعالى (ثم ازدادوا كفرا) أى ثبتوا عليه حتى ماتوا وذلك لان التائب راجع عن الكفر وغيره ومن لم يتب فانه مستمر يزداد كفرا بعد كفر فقوله ثم ازدادوا كفرا بمنزلة قول القائل ثم أصروا على الكفر واستمروا عليه فهم كفروا بعد اسلامهم ثم ازدادوا كفرا أى ازداد كفرهم فهؤلاء لا تقبل توبتهم يعنى عند الموت وأما من تاب قبل حضور الموت فقد تاب من قريب ورجع عن كفره فلم يزدد كفرا بل نقص بخلاف المصر على الكفر والمعاصى الى حين المعاينة فانه في ازدياد من ذلك وما بقى له زمان مخفف لبعض كفره فضلا عن هدمه والله أعلم •

وقد سئل سيدنا الامام أحمد رضى الله عنه عما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم ان الله عز وجل احتجز التوبة عن صاحب بدعة وحجز التوبة أى شيء معناه ؟• فقال لا يوفق ولا ييسر صاحب بدعة لتوبة • وقال النبى صلى الله عليه وسلم لما قرأ هذه الآية (ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء) فقال صلى الله عليه وسلم هم أهل البدع والاهواء ليست لهم توبة • قال شيخ الاسلام ابن تيمية روح الله روحه لأن اعتقاد المبتدع الفاسد يدعوه الى أن لا ينظر نظرا تاما الى دليل خلافه فلا يعرف الحق ولهذا قال السلف ان البدعة أحب الى ابليس من المعصية، وقال أيوب السختيانى وغيره ان المبتدع لا يرجع • وقال شيخ الاسلام أيضا : التوبة من الاعتقاد الذى كثر ملازمة صاحبه له ومعرفته بحججه تحتاج الى ما يقابل ذلك من المعرفة والعلم والادلة ومن هذا قول النبى صلى الله عليه وسلم

« اقتلوا شيوخ المشركين واستبقوا شبابهم » قال الامام أحمـــد وغيره لأن الشيخ قد عسا في الكفر فاسلامه بعيد بخلاف الشاب فان قلبه لين فهو قريب الى الاسلام والله أعلم • والحاصل ان الشيخ وغيره من المحققين بل وجمهور الامة وأكثر الائمة جزموا بقبول توبة كل زنديق ومنافق وملحد ومارق ظاهرا ووكلوا سريرته الى الله تعالى والمشهور فقها عدم توبتهم كما مر وقد توسطت فى المسألة فى ما أشير اليه بقوله :

((قلت وان دلت)) من الشخص التائب والمسلم الآيب ((دلائل الهدى)) وقرائن الاحـــوال ((كما جرى لـ)) لرجل الصالح الفاضـــــل حسن ا ((لعيلبونى)) نسبة الى بلدة عيلبون وهى بليدة ما بين قـــرية حطـــين وديرحنا كانت لطائفة من الدروز ومسكنا لهم من أعمال صفد، وكان هو درزيا من جملتهم فتاب ورجع عن كفره والحــــاده وزندقته وعناده وحسن حاله وصلحت أعماله وأقبل بقلبه وقالبه على دين الاسلام ورفض ما كان عليه من الكفر والضلال والاوهام ، فمن ظهرت منه قرائن الاحوال واتباع الهدى ورفض الضلال والاضلال كما جرى لهذا الرجل الصالح فقد ((اهتدى)) وأنقذه الله من الضلال والردى ((فانه)) أى العيلبونى ((أذاع)) أى نشر وأظهر ((من أسرارهم)) أى من أسرار طائفة الدروز وما هم عليــه من الكفر الذى لا مزيد عليه وانتحالهم ما لا يجوز عند أحد من ســـائر أهل الملل من الوقوع على المحارم من البنات والاخـــوات وأكلهم الخنزير ورفضهم العادات وانكارهم الشرائع وارتكابهم الضلالات ((ما)) أى شيئا كثيرا ((كان فيه)) أى ذلك المذاع ((الهتك)) أى الكشف والظهـــور والابانة ((عن استارهم)) التى كانوا يكتمونها ويستترون باظهارهم الاسلام تقية مع عكوفهم على الكفر الصراح واعتقادهم ان كل ما حرمتـــه الشريعة فهو مباح ، ولهم من الاصطلاحات التى يريدون لها معان فيما بينهم غـــير ظواهرها ما هو معروف عند كل من أطلع على عقائدهم وأظهره العيلبونى من مقاصدهم فيجعلون الصلاة معـــرفة أسرارهم ويريدون بالصوم كتمـــان أسرارهم وبالحج قصدهم عقالهم ومن نحو هذا الهذيان ما يخالفون به جميع الاديان ، فمن ظهرت قرائن اسلامه ودلائل صدقه والتزامه فانه يقبل منـــه

الاسلام عند الخاص والعام ((وكان)) العيلبونى ومن نحا منحاه ((للدين القويم)) والهدى المستقيم ((ناصرا)) باتباعه والعكوف عليه وذم من خالفه وكشف فضائحهم واظهار قبائحهم ((فصار منا)) معشر المسلمين أهل السنة والجماعة والفرقة الناجية من أهل الايمان والطاعة ((باطنا)) أى في الباطن ((وظاهرا)) فهو مسلم مقبول الاسلام في الظاهر والباطن • وكان حسن العيلبونى شاعرا لبيبا فائقا وكان حسن المطارحة طيب العشرة ارتحل الى مصر وأخذ بها عن الشمس البابلى والشيخ سلطان والنور الشبراملسى وغيرهم ودخل دمشق الشام وجاور بها فى الخانقاه السميساطيةوله شعر كثير منه القصيدة النونية التى هجا بها الدروز وهى طويلة تبلغ ثلاثمائة بيت يذكر فيها مذاهبهم الفاسدة وضلالاتهم الباردة وله غير ذلك قاله أمين حلبى في تاريخه خلاصة الاثر في أعيان المائة الحادية عشرة قال وأجود ما ظفرت له من شعره قوله :

حكى دخان علا ما فوق وجنته ... من مص غليونه اذ هزه الطرب
غيما على بدر تم قد تقطع من ... أيدى النسيم فولى وهو ينسحب
فقلت والنار في قلبى لها لهب ... لقد حكيت ولكن فاتك الشنب

قال المحبى فى التاريخ المذكور : ثم ارتحل العيلبونى من دمشق الى عكا فأقام بها مدة وبها توفي سنة خمس وثمانين وألف رحمه الله وعفا عنه •

فالذى نختاره وندين الله به ما أشرنا اليه بقولنا ((فكل زنديق)) لا يتدين بدين ((وكل مارق)) من أهل البدع والضلالات وانتحال الاهواء وارتكاب المحالات ((و)) كل ((جاحد)) من درزى ودهرى وفيلسوفي وبرهمى ومعطل وعابد وثن وشمس ونار وغيرها ((و)) كل ((ملحد)) في آيات الله ومنكر لشرائع الله وكافر برسول الله وهو مع ذلك ((منافق)) أى ذى نفاق يبطن الكفر الذى منطو عليه ويظهر الاسلام الذى لا ركون له اليه ((اذا)) تاب مما هو عليه من الكفر والالحاد والضلال والعناد و ((استبان)) أى امتحن حاله وطلب بيانه فظهر صحة ايمانه و ((نصحه للدين)) القويم وصدق ايقانه ((فانه)) أى هذا التائب الناصح والراجع الصالح ((يقبل)) منه ذلك الرجوع والتوبة عن تلك الترهات وهو مقبول

لدى من يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ((عن يقين)) وهو حكم الذهن الجازم المطابق للواقع وانما كان كذلك لقوله تعالى (الا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فأولئك أتوب عليهم) الآية •

تنبيه في طوائف تدخل في الحكم السابق

((تنبيـــــه))

دخل في عموم ما ذكرنا الحلولية والاباحية ومن يفضل متبوعه على الانبياء ومن يزعم انه اذا حصلت له المعرفة والتحقيق سقطعنه الامر والنهى ومن يزعم ان العارف المحقق يجوز له التدين بدين اليهود والنصارى وبأى دين شاء وانه لا يجب عليه الاعتصام بالكتاب والسنة ـ وأمثالهؤلاء الطوائف المارقين فمن صدقت توبته وصلحت سريرته ومدحت سيرته ودلت قرائن الاحوال على رجوعه عما كان مرتكبه من الافك والضلال فمقبول عند ذى المنة والافضال وبالله التوفيق •

فصل في الايمان والخلاف فيه وحول السلف انه قول وعمل

((فصـــــل))

((في الكلام على الايمان واختلاف الناس فيه
وتحقيق مذهب السلف في ذلك))

اعلم وفقك الله تعالى ان الناس اختلفوا في حقيقة الايمان لغة واصطلاحا والمشهور أن الايمان لغة التصديق واصطلاحا تصديق الرسول صلى الله عليه وسلم فيما جاء به عن ربه وهذا القدر متفق عليه، ثم وقع الاختلافهل يشترط مع ذلك مزيد أمر من جهة ابداء هذا التصديقباللسان المعبر عما في القلب اذ التصديق من أفعال القلوب ـ أو من جهة العمل بما صدق به من ذلك كفعل المأمورات وترك المحظورات ، وهذا هو الذى اشتهر من مذهب السلف ولذا قال :

((ايماننا قول وقصـــد وعمل تزيده التقوى وينقص بالزلل))

((ايماننا)) معشر الاثرية من أهل السلف ما يأتى ذكره وهو فيما قيل مشتق من الامن وفيه نظر لتباين مدلولى الامن والتصديق الا أن لوحظ معنى مجازى فيقال آمنه اذا صدقه أى آمنه التكذيب وفي الآية الكريمة (وما أنت بمؤمن لنا) أى بمصدق لنا وقد اعترض على ذلك جماعة فقالوا بل الايمان في اللغة الاقرار وعند محققى السلف ان الايمان وان قلنا هو التصديق الا أنه تصديق خاص مقيد بقيود اتصل اللفظ بها وهذا ليس نقلا للفظ عن أصل اللغة ولا تغيرا له فان الله لم يأمرنا بايمان مطلق بل بايمان خاص وصفه وبينه وهو تصديق تام قائم بالقلب مستلزم لما وجب من الاعمال القلبية وأعمال الجوارح فان هذه لوازم الايمان التام وانتفاء اللازم دليل على انتفاء الملزوم ولهذا قال ((قول)) باللسان فمن لم يقر ويصدق بلسانه مع القدرة لا يسمى مصدقا فليس بمؤمن كما اتفق على ذلك سلف الامة من الصحابه والتابعين لهم باحسان ((وقصد)) أى عقد بالجنان فمن تكلم بكلمة التوحيد غير معتقد لها بقلبه فهو منافق وليس بمؤمن خلافا للكرامية الزاعمين بأن الايمان هو القول الظاهر، واذا كان مصدقا بقلبه غير ناطق بلسانه مع القدرة فليس بمؤمن عند سلف الامة خلافا للجهمية ومن وافقهم من المتكلمة قال الله تعالى (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين) فنفى الله الايمان عن المنافقين وهذا يرد مذهب الكرامية فان المنافق ليس بمؤمن وقد ضل من سماه مؤمنا وكذلك من قام بقلبه علم وتصديق وهو يجحد الرسول وما جاء به ويعاديه كاليهود وغيرهم ممن سماه الله كافرا ولم يسمهم مؤمنين قط ولا دخلوا في شيء من أحكام الايمان فهم كفار خلافا للجهمية في زعمهم انهم اذا كان العلم في قلوبهم فهم مؤمنون كاملو الايمان حتى قالوا ان ايمانهم كايمان النبيين والصديقين ، وفي الآيات القرآنية مما يرد هذا ما لا يحصى الا بكلفة كقوله (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا) الآية « الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ـ ولما جاءهم ما عرفوا كفروا به » ((وعمل)) بالاركان وهذا هو اللفظ الوارد عن السلف قال البخارى في صحيحه الايمان قول وعمل • قال الحافظ ابن حجر في شرح البخارى وهو اللفظ الوارد عن السلف

الذين أطلقوا ذلك وقد روى مرفوعا باسناد ضعيف ، قال والمراد بالقول النطق بالشهادتين ، وأما العمل فالمراد به ما هو أعم من عمل القلب والجوارح ليدخل الاعتقاد والعبادات ، ومراد من أدخل ذلك في تعريف الايمان ومن نفاه انما هو بالنظر الى ما عند الله فالسلف قالوا هو اعتقاد بالقلب ونطق باللسان وعمل بالاركان ، وأرادوا بذلك ان الاعمال شرط في كماله ، ومن هنا نشأ لهم القول بزيادة الايمان ونقصه كما سيأتي ، والمرجئة قالوا هو اعتقاد ونطق فقط ، والكرامية قالوا هو نطق فقط ، والمعتزلة قالوا هو العمل والنطق والاعتقاد ، والفرق بينهم وبين السلف انهم جعلوا الاعمال شرطا في صحته والسلف جعلوها شرطا في كماله ، وهذا بالنظر الى ما عند الله تعالى ، أما بالنظر الى ما عندنا فالايمان هو الاقرار فقط فمن أقر أجريت عليه الاحكام في الدنيا ولم يحكم عليه بكفر الا أن اقترن باقراره فعل يدل على كفره كالسجود للصنم فان كان الفعل لا يدل على الكفر كالفسق فمن اطلق عليه الايمان فبالنظر الى اقراره ومن نفى عنه الايمان فبالنظر الى كماله ومن أطلق عليه الكفر فبالنظر الى أنه فعل فعل الكافر ومن نفاه عنه فبالنظر الى حقيقته ، وأثبتت المعتزلة الواسطة كما مر فقالوا : الفاسق لا مؤمن ولا كافر . انتهى . وقال الحافظ ابن رجب في شرح الاربعين وغيره : المشهور عن السلف وأهل الحديث ان الايمان قول وعمل ونية وان الاعمال كلها داخلة في مسمى الايمان ، وحكى الشافعى رضى الله عنه اجماع الصحابة والتابعين ومن بعدهم ممن أدركهم على ذلك . قال الحافظ ابن رجب : أنكر السلف على من أخرج الاعمال عن الايمان انكارا شديدا وممن أنكر ذلك على قائله وجعله قولا محدثا سعيد بن جبير وميمون بن مهران وقتادة وأيوب السختيانى والنخعى والزهرى ويحيى بن أبى كثير وغيرهم ، وقال الثورى هو رأى محدث أدركنا الناس على غيره . وقال الاوزاعى كان من مضى من السلف لا يفرقون بين الايمان والعمل فمن استكملها استكمل الايمان ومن لم يستكملهما لم يستكمل الايمان . ذكره الامام البخارى في صحيحه . وقد دل على دخول الاعمال في الايمان قوله تعالى (انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا وعلى ربهم

يتوكلون * الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون * أولئك هم المؤمنون حقا) وفي الصحيحين من حديث ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال لوفد عبد القيس « آمركم بأربع الايمان بالله وهل تدرون ما الايمان بالله ؟ شهادة ان لا اله إلا الله وأقام الصلاة وايساء الزكاة وصوم رمضان وان تعطوا من المغانم الخمس » وفي الصحيحين أيضا من حديث أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « الايمان بضع وسبعون ـ أو بضع وستون ـ شعبة فأفضلها قول لا اله الا الله وأدناها اماطة الاذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الايمان » ولفظه لمسلم وقال شيخ الاسلام ابن تيمية قدس الله روحه في كتابه الايمان والاسلام قال أبو القاسم الانصارى شيخ الشهرستانى في شرح الارشاد لابى المعالى بعد أن ذكر قول أصحابه الا شاعرة من انه مجرد التصديق : وذهب اهل الاثر الى أن الايمان جميع الطاعات فرضها ونفلها وعبروا عنه بأنه اتيان ما أمر الله فرضا ونفلا والانتهاء عما نهى عنه تحريما وأدبا . قال وبهذا كان يقول أبو على الثقفى من متقدمى أصحابنا وأبو العباس القلانسى ، وقد مال الى هذا المذهب أبو عبد الله ابن مجاهد ، وهذا قول مالك بن أنس أمام دار الهجرة ومعظم أئمة السلف رضوان الله عليهم أجمعين فكانوا يقولون الايمان معرفة بالقلب واقرار باللسان وعمل بالاركان . وبعض السلف من أهل السنة زاد واتباع السنة لان ذلك لا يكون محبوبا لله تعالى الا باتباع السنة . ومنهم من اقتصر على أنه قول وعمل وأراد قول القلب واللسان وعمل القلب والجوارح ، ومن زاد الاعتقاد أى المعرفة والتصديق رأى ان لفظ القول لا يفهم منه الا القول الظاهر أو خاف ذلك فزاد الاعتقاد بالقلب، ومن قال منهم انه قول وعمل ونية قال القول يتناول الاعتقاد وقول اللسان وأما العمل فقد لا تفهم منه النية فزاد ذلك ، ومن قال منهم انه قول وعمل لم يرد كل قول وعمل انما أراد ما كان مشروعا من الاقوال والاعمال . قال شيخ الاسلام ابن تيمية كان مقصودهم الرد على المرجئة الذين جعلوه قولا فقط فقالوا بل هو قول وعمل والذين جعلوه أربعة فسروا مرادهم كما سئل سهل بن عبد الله التسترى عن الايمان ما هو ؟ فقال قول وعمل ونية وسنة

لان الايمان ان كان قولا بلا عمل فهو كفر واذا كان قولا وعملا بلا نية فهو نفاق واذا كان قولا وعملا ونية بلا سنة فهو بدعة • ثم قال شيخ الاسلام ابن تيمية روح الله روحه : الايمان الذى أصله في القلب لا بد فيه من شيئين تصديق القلب واقراره ومعرفته ويقال لهذا قول القلب ، قال الجنيد بن محمد رحمه الله تعالى : التوحيد قول القلب والتوكل عمل القلب • فلا بد فيه من عمل القلب وقوله ثم قول البدن وعمله لا بد فيه من عمل القلب مثل حب الله ورسوله وخشية الله ويحب ما يحبه الله ورسوله واخلاص العمل لله وحده وغير ذلك من أعمال القلوب التى أوجبها الله ورسوله وجعلها من الايمان • ثم القلب هو الاصل فاذا كان فيه معرفة وارادة سرى ذلك الى البدن بالضرورة لا يمكن أن يتخلف البدن عما يريده القلب ،ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم فى الحديث « الا وان في الجسد مضغة اذا صلحت صلح لها سائر الجسد (واذا فسدت فسد الجسد كله ـ ١) الا وهى القلب » وقال أبو هريرة رضى الله عنه : القلب ملك والاعضاء جنوده فاذا طاب الملك طابت جنوده واذا خبث الملك خبثت جنوده ـ قال شيخ الاسلام قدس الله روحه قول أبى هريرة تقريب وقول النبى صلى الله عليه وسلم أحسن بيانا فان الملك وان كان صالحا فان الجند لهم اختيار قد يعصون به ملكهم وبالعكس فقد يكون فيهم صلاح مع فساده أوفساد مع صلاحه بخلاف القلب فان الجسد تابع له لا يخرج عن ارادته قط ، قال فلا بد فى ايمان القلب من حب الله ورسوله وان يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما قال تعالى (ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله) أى من المشركين وفي الآية قولان قيل يحبونهم كحب المؤمنين لله والذين آمنوا أشد حبا (منهم لاوثانهم ، وقيل يحبونهم كما يحبون الله والذين آمنوا أشد حبا ـ [1]) لله منهم وهذا هو الصواب فان المشركين لا يحبون الانداد مثل محبة المؤمنين لله ، والمحبة تستلزم ارادة والارادة التامة مع القدرة تستلزم الفعل فيمتنع أن يكون الانسان محبا لله ورسوله مريدا لما يحبه الله ورسوله ارادة جازمة مع قدرته على ذلك وهو

---

(١) من مخ •

لا يفعله فاذا لم يتكلم بالايمان مع قدرته دل على أنه ليس فى قلبه الايمـان الواجب الذى فرضه الله عليه ، ومن هنا يظهر خطأ قول جهم بن صفوان ومن اتبعه حيث ظنوا أن الايمان مجرد تصديق القلب وعمله ثم جعلوا ايمان القلب من الايمان وظنوا انه قد يكون الانسان مؤمنا كامل الايمان بقلبه وهو مع هذا يسب الله ورسوله ويعادى أولياء الله ويوالى أعداء الله ويقتل الانبياء ويهدم المساجد ويهين المصاحف يكرم الكفار ويهين المؤمنين ، قالوا وهـذه كلها معاصى لا تنافى الايمان الذى فى قلبه بل يفعل هذا وهو فى الباطـن عند الله مؤمن ، قالوا وانما ثبت له في الدنيا أحكام الكافر لان هذه الاقوال والافعال امارة على الكفر فيحكم بالظاهر كما يحكم بالاقرار والشهود وان كان الباطن قد يكون بخلاف ما أقر به وبخلاف ما شهد به ، فاذاأورد عليهم الكتاب والسنة والاجماع على أن الواحد من هؤلاء كافر في نفس الامر معذب في الآخرة قالوا فهذا دليل على انتفاء التصديق والعلم من قلبـه • والكفر عندهم شيء واحد وهو الجهل ، والايمان شيء واحد وهو العلم أو تكذيب القلب وتصديقه فانهم متنازعون هل تصديق القلب شيء غير العلم أو هو هو • قال شيخ الاسلام وهذا القول مع انه أفسد قول قيل في الايمان فقد ذهب اليه كثير من أهل الكلام وقد كفر السلف كوكيع بن الجراح والامام أحمد وأبى عبيد وغيرهم من يقول بهذا القول وقالوا فابليس كافر بنص القرآن وانما كفره باستكباره وامتناعه من السجود لآدم لا لكونه كذب خبرا ، وكذلك فرعون وقومه قال الله تعالى فيهم (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا) وقال موسى عليه السلام لفرعون (لقد علمت ما أنزل هـؤلاء الارب السموات والارض بصائر وانى لأظنك يا فرعون مثبورا) فموسى هو الصادق المصدوق يقول لقـد علمت ما أنزل هؤلاء يعنى الآيات البينات الا رب السموات والارض بصائر فدل على أن فرعون كان عالما بأن الله تعالى أنزل هذه الآيات وهو من أكثر خلق الله عنادا وبغيا لفساد ارادته وقصده لا لعدم علمه ، وقال تعالى في أهل الكتاب (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم) وكذلك كثير من المشركين الذين قال الله تعالى فيهم (فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون)

قال شيخ الاسلام فهؤلاء غلطـــوا فى أصلين (أحدهما) انهم ظنوا ان الايمان مجرد تصديق وعلم فقط ليس معـــــه عمل وحال وحركة وارادة ومحبة وخشية فى القلب ، وهذا من أعظم غلط المرجئة مطلقا فان أعمـــال القلوب التى يسميها بعض الصوفية أحوالا ومقامات ومنازل السائرين الى الله أو مقامات العارفين أو غير ذلك كل ما فيها مما فرضه الله ورسوله فهو من الايمان الواجب وكل ما فيها مما أحبه الله ولم يفرضه فهو من الايمان المستحب فالاول لا بد لكل مؤمن منه ومن اقتصر عليه فهو من الابرار أصحاب اليمين والثاني للمقربين (السابقين ـ ١) (والأصل الثانى) الذى غلطوا فيـــه ظنهم أن كل من حكم الشارع بأنه كافر مخلد في النار فانما ذاك لانه لم يكن في قلبه شيء من العلم والتصديق وهذا أمر خالفوا فيه الحس والعقل والشرع وما أجمع عليه طوائف بنى آدم السليمى الفطرة وجماهير النظار فان الانسان قد يعرف الحق مع غيره ومع هذا يجحد ذلك لحسده اياه أو لطلب علوه عليه أو لهوى النفس ويحمله ذلك الهوى على أن يعتدى عليه ويرد ما يقول بكل طريق وهو في قلبه يعلم ان الحق معه . وعامة من كذب الرسل علموا ان الحق معهم وانهم صادقون لكن الحسد وارادة العلو والرياسة وحبهم لما هم عليه والفهم لما ارتكبوا أوجب لهم التكذيب والمعاداة لهم ، وجميع من كذب الرسل لم يأت بحجة صحيحة تقدح فى صدقهم وانما يعتمدون على مخالفة أهوائهم كقولهم لنوح عليه السلام (أنؤمن لك واتبعك الارذلون) وقول فرعون (أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون) وقوله لموسى (ألم نربك فينا وليدا) الآيتين وقول مشركى العرب لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم (ان نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا) قال الله تعالى رادا عليهم (أولم نمكن لهم حرما آمنا يجبى أليه ثمرات كل شيء) بل أبو طالب وغيره كانوا مع محبتهم للنبى صلى الله عليه وسلم ومحبتهم لعلو كلمته من عدم حسدهم له وعلمهم بصدقه وحملهم الفهم لدين قومهم وكراهتهم لفراقه وذم قريش لهم على عدم اتباعه على دينه القويم وهديه المستقيم فلم يتركوا الايمان لعدم العلم بل لهوى الانفس ، فكيف يقال مع هذا ان كل كافر انما كفر لعـدم علمه بالله ؟

---

(١) من مخ .

فان قيل اذا كان الايمان المطلق يتناول جميع ما أمر الله به ورسوله فمتى ذهب بعض ذلك بطل الايمان فيلزم تكفير أهل الذنوب كما تقوله الخوارج أو تخليدهم في النار وسلبهم اسم الايمان بالكلية كما تقوله المعتزلة وكل هذين القولين شر من قول المرجئة فان من المرجئة جماعة من العباد والعلماء المذكورين عند الامة بخير ، وأما الخوارج والمعتزلة فأهل السنة والجماعة من جميع الطوائف مطبقون على ذمهم (فالجواب) أولا مما ينبغي ان يعرف ان القول الذى لم يوافق الخوارج والمعتزلة عليه أحد من أهل السنة هو القول بتخليد أهل الكبائر في النار فان هذا القول من البدع المشهورة ، وقد اتفق الصحابة والتابعون لهم باحسان وسائر أئمة المسلمين على أنه لا يخلد في النار أحد ممن في قلبه مثقال ذرة من ايمان • واتفقوا أيضا على أن نبينا صلى الله عليه وسلم يشفع في من يأذن الله له بالشفاعة فيه من أهل الكبائر من أمته كما يأتى في ذكر الشفاعة ان شاء الله تعالى • ومن بدع الخوارج الخارجة تكفيرهم للمسلم بالذنب ، وسلب المعتزلة له اسم الايمان فهو عندهم ليس بمؤمن ولا كافر كما تقدم ، وكل هذه بدع قبيحة مخالفة للصحابة والتابعين ولأئمة السلف من أهل السنة والجماعة ، والحق ما عند أهل الحق انه مؤمن ناقص الايمان فهو مؤمن بايمانه فاسق بكبيرته فلا يعطى الاسم المطلق من الايمان ولا يسلب مطلق الاسم ، وما نقل عن ابن عباس رضى الله عنهما ان القاتل لا توبةلهوانه يخلد في النار فغلط فانه لم يقل أحد من الصحابة ان النبى صلى الله عليه وسلم لا يشفع لاهل الكبائر ولا قال انهم يخلدون فى النار ولكن ابن عباس في احدى الروايتين عنه قال ان القاتل لا توبة له • والنزاع في التوبة غير النزاع في التخليد لما يتعلق بالقتل من حق الآدمى ، وتقدم الجواب عنه في الفصل الذى قبل هذا • وأما قول القائل ان الايمان اذا ذهب بعضه ذهب كله فممنوع وهذا هو الاصل الذى تفرعت منه البدع في الايمان فانهم ظنوا انه متى ذهب بعضه ذهب كله ثم قالت الخوارج والمعتزلة الايمان هو مجموع ما أمر الله به ورسوله وهو الايمان المطلق كما قاله أهل الحديث قالوا فاذا ذهب شىء منه لم يبق مع صاحبه من الايمان شىء فيخلد في النار ، وقالت المرجئة على اختلاف فرقهم

كما يأتى لا يذهب من الايمان بالكبائر وبترك الواجبات الظاهرة شيء منه اذ لو ذهب منه شيء لم يبق منه شيء فيكون شيئا واحدا يستوى فيه البر والفاجر .

الايمان يزيد وينقص

ومذهب أهل الحق من السلف ومن وافقهم أن الايمان يتفاضل فيزيد وينقص ولهذا قال ((تزيده)) أى الايمان المطلق عند الاثرية من السلف ((التقوى)) هى لغة الحاجز بين الشيئين والتاء فيه مبدلة من الواو لأن أصلها من الوقاية ، واصطلاحا التحرز بطاعة الله عن مخالفته وامتثال أمره واجتناب نهيه وقوله تعالى (هو أهل التقوى) أى أهل ان يتقى عقابه ((وينقص)) الايمان ((بـ)) ارتكاب ((الزلل)) وتعاطيه بفتح الزاى المشددة واللام من زللت تزل زلا وزليلا ومزلة بكسر الزاى وزلولا وأزله غيره واستزله والمزلة موضعه والاسم الزلة وهى الخطيئة والسقطة . والحاصل ان الايمان عند السلف ومن وافقهم من أئمة أهل السنة والعرفان يزيد بالطاعة وينقص بالعصيان . قال شيخ الاسلام ابن تيمية قدس الله روحه في كتابه الايمان والاسلام : مذهب أهل السنة والحديث على ان الايمان يتفاضل وجمهورهم يقولون يزيد وينقص ، ومنهم من يقول يزيد ولا يقول ينقص كما يروى عن الامام مالك في احدى الروايتين ، ومنهم من يقول يتفاضل كالامام عبدالله ابن المبارك . قال شيخ الاسلام وقد ثبت لفظ الزيادة والنقصان فيه عن الصحابة ولم يعرف فيه مخالف منهم فروى الناس من وجوه كثيرة مشهورة عن حماد بن سلمة عن أبى جعفر عن جده عمير بن حبيب الخطمى وهو من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : الايمان يزيد وينقص قيل له وما زيادته ونقصانه قال اذا ذكرنا الله ووحدناه وسبحناه فتلك زيادته واذا غفلنا ونسيناها فذاك نقصانه . وروى اسماعيل بن عياش عن حريز بن عثمان عن الحارث بن محمد عن أبى الدداء رضى الله عنه قال الايمان يزيد وينقص . وقال الامام أحمد حدثنا يزيد حدثنا حريز بن عثمان قال سمعت أشياخنا أو بعض أشياخنا ان أبا الدرداء قال ان من فقه العبد أن يتعاهد ايمانه وما نقص منه ، ومن فقه العبد أن يعلم أيزداد ايمانه أم ينقص ، وان من فقه الرجل ان يعلم نزغات الشيطان أنى يأتيه . وروى اسماعيل بن عياش

عن أبي هريرة رضي الله عنه انه قال : الايمان يزيد وينقص • وروى الامام أحمد عن أبي ذر رضي الله عنه قال كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول لأصحابه هلموا نزدد ايمانا - فيذكرون الله عز وجل • وقال أبو عبيد في الغريب في حديث علي رضي الله عنه ان الايمان يبدو لمظة في القلب كلما ازداد ايمانا ازدادت اللمظة • قال الاصمعي اللمظة مثل النكتة أو نحوها •

وفي نهاية ابن الاثير في حديث علي الايمان يبدو في القلوب لمظة - اللمظة بالضم مثل النكتة من البياض ومنه فرس ألمظ اذا كان بجحفلته بياض يسير • والجحفلة بتقديم الجيم على الحاء بمنزلة الشفة للخيل والبغال والحمير • وروى الامام أحمد عن عبد الله بن عكيم قال سمعت ابن مسعود رضي الله عنه يقول في دعائه اللهم زدنا ايمانا ويقينا وفقها • وصح عن عمار بن ياسر رضي الله عنه انه قال ثلاث من كن فيه فقد استكمل الايمان انصاف من نفسه والانفاق من الاقتار وبذل السلام للعالم • ذكره البخاري في صحيحه • وقال جندب بن عبد الله وابن عمر وغيرهما تعلمنا الايمان ثم تعلمنا القرآن فازددنا ايمانا • وقال شيخ الاسلام : والآثار في هذا كثيرة جدا رواها المصنفون في هذا الباب لآثار الصحابة والتابعين في كتب كثيرة •

والزيادة قد نطق بها القرآن في عدة آيات كقوله (انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا وعلى ربهم يتوكلون) قال شيخ الاسلام : وهذا أمر يجده المؤمن اذا تليت عليه الآيات ازداد قلبه بفهم القرآن ومعرفة معانيه من علم الايمان مالم يكن حتى كأنه لم يسمع الآية الا حينئذ ويحصل في قلبه من الرغبة في الخير والرهبة من الشر مالم يكن فيزداد علمه بالله ومحبته لطاعته وهذا زيادة الايمان وقال تعالى (الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل) فهذه الزيادة عند تخويفهم بالعدو لم تكن عند آية نزلت فازدادوا يقينا وتوكلا على الله وثباتا على الجهاد وتوحيدا بأن لا يخافوا المخلوق بل يخافون الله الخالق وحده وقال تعالى (واذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول ايكم زادته هذه ايمانا) وهذه الزيادة ليست مجرد التصديق بأن الله أنزلها بل زادتهم بحسب مقتضاها فان كانت أمرا بالجهاد

أو غيره ازدادوا رغبة فيه وان كانت نهيا عن شيء انتهوا عنه فكرهوه ولهذا قال (وهم يستبشرون)والاستبشار غير مجرد التصديق • وقال تعالى (وما جعلنا أصحاب النار الا ملائكة وما جعلنا عدتهم الا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا ايمانا) الآية وهذه نزلت لما رجع النبى صلى الله عليه وسلم من الحديبية وأصحابه فجعل السكينة موجبة لزيادة الايمان ، والسكينةهيطمأنينة فى القلب ، وقوله تعالى(يهدقلبه) هداه لقلبه زيادة في ايمانه كما قال تعالى (والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم) وقال (انهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى)

أوجه زيادة الايمان أولها

قال شيخ الاسلام قدس الله روحه زيادة الايمان الذى أمر الله به والذى يكون من عباده المؤمنين من وجوه (أحدها) الاجمال والتفصيل فيما أمروا به فانه وان وجب على جميع الخلق الايمان بالله ورسوله ووجب على كل أمة التزام ما يأمر به رسولهم مجملا فمعلوم أنه لا يجب في أول الامر ما وجب بعد نزول القرآن كله ولا يجب على كل عبد من الايمان المفصل ما أخبر به الرسول ما يجب على من بلغه خبره فمن عرف القرآن والسنن ومعانيهما لزمه من الايمان المفصل بذلك مالم يلزم غيره ، ولو آمن الرجل بالله وبالرسول باطنا وظاهرا ثم مات قبل أن يعرف شرائع الدين مات مؤمنا بما وجب عليه من الايمان ، وليس ما وجب عليه ولا ما وقع منه مثل ايمان من عرف الشرائع فآمن بها وعمل بها بل ايمان هذا أكمل وجوبا ووقوعا فان ما وجب عليه من الايمان أكمل وما وقع منه أكمل وقوله تعالى (اليوم أكملت لكم دينكم) أى فى التشريع بالامر والنهى لا أن كل واحد من الامة وجب عليه ما يجب على سائر الامة وانه فعل ذلك بل الناس متفاضلون فى الايمان أعظم تفاضل •

الثانى

(الثانى)

الاجمال والتفصيل فى ما وقع منهم فمن طلب علم التفصيل وعمل به فايمانه أكمل ممن عرف ما يجب عليه والتزمه وأقر به ولم يعمل بذلك كله ، وهذا المقر المقصر فى العمل ان اعترف بذنبه وكان خائفا من عقوبة ربه على ترك العمل أكمل ايمانا ممن لم يطلب معرفة ما أمر به الرسول

ولا عمل بذلك ولا هو خائف ان يعاقب بل هو في غفلة عن تفصيل ما جاء به الرسول مع انه مقر بنبوته باطناوظاهرا،فكل ماعمل القلب بماأخبر به الرسول فصدقه وما أمر به فالتزمه كان ذلك زيادة في ايمانه على من لم يحصل له ذلك وان كان معه اقرار عام والتزام ، وكذلك من عرف أسماء الله تعالى ومعانيها فآمن بها كان ايمانه أكمل ممن لم يعرف تلك الاسماء بل آمن بها ايمانا مجملا أو عرف بعضها ، وكلما ازداد الانسان معرفة بأسماء الله تعالى وصفاته وآياته كان ايمانه أكمل .

الثالث

(الثـــالث)

ان العلم والتصديق يكون بعضه أقوى من بعض وأثبت وأبعد عن الشك والريب وهذا أمر يشهده كل واحد من نفسه كما ان الحس الظاهـــر بالشيء الواحد مثل رؤية الناس الهلال وان اشتركوا فيها فبعضهم تكـون رؤيته أتم من بعض ، وكذلك سماع الصوت وشم الرائحة الواحدة وذوق النوع الواحد من الطعام ، فكذلك معرفة القلب وتصديقه يتفاضل أعظم من ذلك من وجوه متعددة للمعانى التى يؤمن بها من معانى أسماء الله تعالى وكلامه يتفاضل الناس في معرفتها أعظم من تفاضلهم في معرفة غيرها .

الرابع

(الرابـــع)

ان التصديق المستلزم لعمل القلب أكمل من التصديق الذى لا يستلزم عمله فالعلم الذى يعمل به صاحبه أكمل من العلم الذى لا يعمل به ، واذا كان شخصان يعلمان أن الله حق والرسول حق والجنة حق والنار حـــق وهذا علمه أوجب له محبة الله وخشيته والرغبة في الجنة والهرب مـــن النار ، والآخر علمه لم يوجب له ذلك ، فعلم الاول أكمل ، فان قوة المسبب تدل على قوة السبب وقد نشأت هذه الامور عن العلم فالعلم بالمحبـــوب يستلزم طلبه والعلم بالمخوف يستلزم الهرب منه فاذا لم يحصل اللازم دل على ضعف الملزوم ، ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم « ليس الخبـــر كالمعاينة » فان موسى عليه السلام لما أخبره ربه أن قومه عبدوا العجل لم يلق الالواح فلما رآهم قد عبدوه ألقاها ، وليس ذلك لشك موسى فى خبر

الله لكن المخبر وان جزم بصدق المخبر فقد لا يتصور المخبر به في نفسه كما يتصوره اذا عاينه بل قد يكون قلبه مشغولا عن تصور المخبر به وان كان مصدقا به ، ومعلوم انه عند المعاينة يحصل له من تصور المخبر (به) مالم يكن عند الخبر فهذا التصديق أكمل من ذلك التصديق .

الخامس

(الخامس)

ان أعمال القلوب مثل محبة الله ورسوله وخشية الله تعالى ورجائه ونحو ذلك هى كلها من الايمان كما دل على ذلك الكتاب والسنة واتفاق السلف وهذه يتفاضل الناس فيها تفاضلا ظاهرا .

السادس

(السادس)

الأعمال الظاهرة مع الباطنة هى أيضا من الايمان والناس يتفاضلون فيها

السابع

(السابع)

ذكر الانسان بقلبه ما أمر به واستحضاره بحيث لا يكون غافلا عنه أكمل ممن صدق به وغفل عنه فان الغفلة تنقصه وكمال العلم والتصديق والذكر والاستحضار يكمل العلم واليقين ولهذا قال عمير بن حبيب رضى الله عنه اذا ذكرنا الله وحمدناه وسبحناه فتلك زيادته واذا غفلنا ونسينا وضيعنا فتلك نقصانه .

الثامن

(الثامن)

قد يكون الانسان مكذبا ومنكرا لامور لا يعلم ان الرسول أخبر بها وأمر بها ولو علم ذلك لم يكذب ولم ينكر بل قلبه جازم بأنه لا يخبر الا بصدق ولا يأمر الا بحق ثم يسمع الآية والحديث أو يتدبر ذلك أو يفسر له معناه أو يظهر له ذلك بوجه من الوجوه فيصدق بما كان مكذبا به ويعرف ما كان منكرا له ، وهذا تصديق جديد وايمان جديد ازداد به ايمانه ولم يكن قبل ذلك كافرا بل جاهلا ، وهذا وان أشبه المجمل والمفصل لكن صاحب المجمل قد يكون قلبه سليما عن تكذيب وتصديق شيء من

التفاصيل وعن معرفة وانكار شيء من ذلك فيأتيه التفصيل بعد الاجمال على قلب ساذج ، وأما كثير من الناس بل من أهل العلم والعبادة فيقوم بقلوبهم من التفصيل أمور كثيرة تخالف ما جاء به الرسول وهم لا يعرفون انها تخالف فاذا عرفوا رجعوا ، وكل من ابتدع في الدين قولا أخطأ فيه وهو مؤمن بالرسول أو عمل عملا أخطأ فيه وهو مؤمن بالرسول لو(١) عرف ما قاله وآمن به لم يعدل عنه هو من هذا الباب ، وكل مبتدع قصده متابعة الرسول فهو من هذا الباب ، فمن علم ما جاء به الرسول وعمل به أكمل ممن أخطأ ذلك ، ومن علم الصواب بعد الخطأ وعمل به فهو أكمل ممن لم يكن كذلك .

تقرير ابن عبد البر

اذا علمت هذا فاعلم أن مذهب سلف الامة وجل الائمة ان الايمان قول وعمل ونية يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية ، قال الامام ابن عبد البر في التمهيد : أجمع أهل الفقه والحديث على أن الايمان قول وعمل ولا عمل الا بنية ، قال والايمان عندهم يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية والطاعات كلها عندهم ايمان الا ما ذكر عن أبي حنيفة وأصحابه فانهم ذهبوا الى أن الطاعات لا تسمى ايمانا قالوا انما الايمان التصديق والاقرار ، ومنهم من زاد المعرفة ــ وذكر ما احتجوا به الى أن قال : وأما سائر الفقهاء من أهل الرأي والآثار بالحجاز والعراق والشام ومصر منهم مالك بن أنس والليث ابن سعد وسفيان الثوري والاوزاعي والشافعي وأحمد بن حنبل واسحاق ابن راهويه وأبو عبيد القاسم بن سلام وداود بن علي والطبري ومن سلك سبيلهم قالوا الايمان قول وعمل ، قول باللسان وهو الاقرار واعتقاد بالقلب وعمل بالجوارح مع الاخلاص بالنية الصادقة ، وقالوا كل ما يطاع الله به من فريضة ونافلة فهو من الايمان ، قالوا والايمان يزيد بالطاعات وينقص بالمعاصي ، قال وأهل الذنوب عندهم مؤمنون غير مستكملي الايمان من أجل ذنوبهم وانما صاروا ناقصي الايمان بارتكابهم الكبائر ألا ترى الى قوله صلى الله عليه وسلم « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن » الحديث يريد مستكمل الايمان ولم يرد به نفي جميع الايمان عن فاعل ذلك بدليل الاجماع على توريث الزاني والسارق وشارب الخمر اذا صلوا الى القبلة

(١) في الاصلين « او »

وانتحلوا دعوة المسلمين من قراباتهم المؤمنين الذين ليسوا بتلك الاحوال ثم قال : وعلى ان الايمان يزيد وينقص يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية جماعة أهل الآثار والفقهاء أهل الفتيا في الامصار وهذا مذهب الجماعة من أهل الحديث والحمد لله •

ثم رد على المرجئة وعلى الخوارج والمعتزلة بالموارثة وبحديث عبادة بن الصامت « من أصاب من ذلك شيئا فعوقب به في الدنيا فهو كفارة » وقال الايمان مراتب بعضها فوق بعض فليس ناقص الايمان ككامله قال الله تعالى (انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا وعلى ربهم يتوكلون) الى قوله (حقا) أى هم المؤمنون حقا، ومنه قول النبى صلى الله عليه وسلم في عدة أحاديث « أكمل المؤمنين ايمانا » ومعلوم أن هذا لا يكون أكمل حتى يكون غيره أنقص وقوله «أوثق عرى الايمان الحب في الله » وقوله « لا ايمان لمن لا أمانة له » يدل على أن بعض الايمان أوثق وأكمل من بعض ، وكذلك ذكر أبو عمر الطلمنكى اجماع أهل السنة على أن الايمان قول وعمل ونية • قال الامام شيخ الاسلام ابن تيمية قدس الله روحه لما صنف الفخر الرازى مناقب الامام الشافعى رضى الله عنه ذكر قوله في الايمان انه قول باللسان وعقد بالجنان وعمل بالاركان — كقول الصحابة والتابعين وقد ذكر الامام الشافعى أنه اجماع من الصحابة والتابعين ومن لقيه ، استشكل الرازى قول الامام الشافعى جدا لانه كان انعقد في نفسه شبهة أهل البدع في الايمان من الخوارج والمعتزلة والجهمية والكرامية وسائر المرجئة وهو أن الشيء المركب اذا زال بعض أجزائه لزم زواله كله لكن هو لم يذكر الا ظاهر شبهتهم • قال شيخ الاسلام والجواب عما ذكره سهل فانه يسلم له ان الهيئة الاجتماعية لم تبق مجتمعة كما كانت لكن لا يلزم من زوال بعضها زوال سائر الاجزاء — يعنى كبدن الانسان اذا ذهب منه أصبع أو يد أو رجل ونحوه لم يخرج عن كونه انسانا بالاتفاق وانما يقال له انسان ناقص • والشافعى مع الصحابة والتابعين وسائر السلف يقولون ان الذنب يقدح في كمال الايمان ولهذا نفى الشارع الايمان عن هؤلاء — يعنى عن الزانى والسارق وشارب الخمر

حل شبهة المخالفين

ونحوهم فذلك المجموع الذى هو الايمان لم يبق مجموعا مع الذنوب لكن يقولون بقى بعضه اما أصله واما أكثره واما غير ذلك فيعود الكلام الى أنه يذهب بعضه ويبقى بعضه ، ولهذا كانت المرجئة تنفر من لفظ النقص أعظم من نفورها من لفظ الزيادة لانه اذا نقص لزم ذهابه كله عدهم ان كـان متبعضا متعددا عند من يقول بذلك وهو الخوارج والمعتزلة ، وأما الجهمية فهو واحد عندهم لا يقبل التعدد فيثبتون واحدا لا حقيقة له كما قالوا مثل ذلك في وحدانية الرب عز وجل ووحدانية صفاته عند من أثبتها منهم •

قال شيخ الاسلام روح الله روحه ومن العجب ان الاصل الذى أوقعهم في هذا اعتقادهم أنه لا يجتمع في الانسان بعض الايمان وبعض الكفر أو ما هو ايمان وما هو كفر واعتقدوا أن هذا متفق عليه بين المسلمين كما ذكر ذلك أبو الحسن الاشعرى وغيره ولأجل اعتقادهم هذا الاجماع وقعوا في ما هو مخالف للاجماع الحقيقى اجماع السلف الذى ذكره غير واحد من الائمة بل وصرح غير واحد بكفر من قال بقول جهم فى الايمان ، ولهذا نظائر متعددة يقول الانسان قولا مخالفا للنص والاجماع القديم حقيقـة ويكون معتقدا انه متمسك بالنص والاجماع ، وهذا اذا كان مبلغ علمـه واجتهاده فالله يثيبه على ما أطاع الله فيه من اجتهاده ويغفر له ما عجز عن معرفته من الصواب الباطن • (قال شيخ الاسلام) وقد قال لى بعضـهم مرة : الايمان من حيث هو ايمان لا يقبل الزيادة والنقصان • فقلت له قولك من حيث هو كقولك من حيث هو انسان ومن حيث هو حيوان ومن حيث هو وجود فتثبت لهذه المسميات وجودا مطلقا مجردا عن جميع القيود والصفات وهذا لا حقيقة له في الخارج وانما هو شيء يقدره الانسـان في ذهنه كما يقدر موجودا لا قديما ولا حادثا ولاقائما بنفسه ولابغيره،والماهيات من حيث هى هى شيء يقدر فى الاذهان لا فى الاعيان ، وهكذاتقدير ايمان لا يتصف به مؤمن بل هو مجرد عن كل قيد بل ما ثم ايمان في الخـارج الا مع المؤمنين كما ما ثم انسانية في الخارج الا ما اتصف بها الانسان فكل انسان له انسانية تخصه وكل مؤمن له ايمان يخصه فانسانية زيد تشبـه انسانية عمرو وليست هي هي والاشتراك انما هو في أمر كلى مطلق يكون

في الذهن ولا وجود له في الخارج الا فى ضمن أفراده فاذا قيل ايمان زيد مثل ايمان عمرو فايمان كل واحد يخصه معين وذلك الايمان يقبل الزيادة والنقصان ، ومن نفى التفاضل انما يتصور في نفسه ايمانا مطلقا كما يتصور انسانا مطلقا (ووجودا مطلقا - ١) عن جميع الصفات المعينة له ثم يظن ان هذا هو الايمان الموجود في الناس وذلك لا يقبل التفاضل بل لا يقبل في نفسه التعدد اذ هو تصور معين قائم في نفس متصوره ، ولهذا يظن كثير من هؤلاء ان الامور المشتركة في شيء واحد هى واحدة في الشخص والعين حتى انتهى الامر بطائفة من علمائهم علما وعبادة الى أن جعلوا الوجود كذلك فتصوروا ان الموجودات مشتركة في مسمى الوجود وتصوروا هذا في أنفسهم فظنوه في الخارج كما هو في أنفسهم ثم ظنوا انه الله تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا فجعلوا رب العالمين هو هذا الوجود الذى لا يوجد قط الا في نفس متصوره لا يكون في الخارج أبدا • وهكذا كثير من الفلاسفة تصوروا أعدادا مجردة وحقائق مجردة ويسمونها المثل الافلاطونية ، وزمانا مجردا عن الحركة والمتحرك وبعدا مجردا عن الاجسام وصفاتها ثم ظنوا وجود ذلك فى الخارج ، وهؤلاء كلهم اشتبه عليهم مافى الاذهان بما في الاعيان وتولد من هذا بدع ومفاسد كثيرة والله المستعان•

كلام النووى

وقال الحافظ ابن حجر في شرح البخارى : ذهب السلف الى أن الايمان يزيد وينقص وأنكر ذلك أكثر المتكلمين ، قال الامام النووى والاظهر المختار ان التصديق يزيد وينقص بكثرة النظر ووضوح الادلة ولهذا كان ايمان الصديق أقوى من ايمان غيره بحيث لا تعتريه الشبهة • وقال ويؤيده ان كل واحد يعلم ان ما في قلبه يتفاضل حتى انه يكون في بعض الاحيان أعظم يقينا واخلاصا وتوكلا منه في بعضها وكذلك في التصديق والمعرفة بحسب ظهور البراهين وكثرتها • وما نقل عن السلف - يعنى ان الايمان يزيد وينقص - صرح به عبد الرازق في مصنفه عن سفيان الثورى ومالك بن أنس والاوزاعى وابن جريج ومعمر وغيرهم وهؤلاء فقهاء الامصار في عصرهم ، وكذا نقله أبو القاسم اللالكائى في كتاب السنة عن

---

(١) من مخ •

الشافعي وأحمد بن حنبل واسحاق بن راهويه وأبي عبيد وغيرهم من الأئمه ، ويروى بسند صحيح عن البخاري قال لقيت أكثر من ألف رجل من العلماء بالامصار فما رأيت أحدا منهم يختلف ان الايمان قول وعمل ويزيد وينقص . وأطنب ابن أبي حاتم واللالكائي في نقل ذلك بالاسانيد عن جمع كثير من الصحابة والتابعين وكل من يدور عليه الاجماع من الائمة . وحكاه فضيل بن عياض ووكيع عن أهل السنة . وقال الحاكم في مناقب الامام الشافعي ثنا أبو العباس الاصم أنا الربيع قال سمعت الشافعي رضي الله عنه يقول الايمان قول وعمل ويزيد وينقص . وأخرجه أبو نعيم في ترجمة الشافعي من الحلية من وجه آخر عن الربيع ، وزاد : يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية وتلا (ويزداد الذين آمنوا ايمانا) الآية . انتهى . وقد روى الامام أحمد في المسند من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه مرفوعا « الايمان يزيد وينقص » وأخرجه الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا أيضا ، والآثار عن الصحابة والتابعين لهم باحسان وأئمة الدين من أهل السنة والجماعة المعتبرين وأئمة أهل الحديث وأعلام علماء الصوفية أكثر من أن تذكر بأن الايمان قول باللسان وعقد بالجنان وعمل بالاركان يزيد بالطاعة ويضعف بالعصيان ، وقد ذكرنا من ذلك ما لعله يحصل به المقصود والله ولي الاحسان .

(تنبيهات)

تنبيهات الاول قال جمهور الاشاعرة الخ

(الاول) قال جمهور الاشاعرة والماتريدية : الايمان هو التصديق بالنبي صلى الله عليه وسلم وبكل ما علم مجيئه به من الدين بالضرورة أي الاذعان والقبول مع الرضا والتسليم وطمأنينة النفس لذلك تفصيلا فيما علم تفصيلا واجمالا فيما علم اجمالا ، قالوا ولا ينحط الايمان الاجمالي عن التفصيلي من حيث الخروج عن عهدة التكليف به وان كان التفصيلي أكمل من الاجمالي ، وهذا قاله بعض متأخري الاشاعرة والا فقد قال القاضي أبو بكر الباقلاني في التمهيد : الايمان هو التصديق بالله وهو العلم ،والتصديق يوجد بالقلب ، قال فان قيل فما الدليل على ما قلتم ؟ قلنا اجماع أهل اللغة

قاطبة على أن الايمان قبل نزول القرآن وبعثة النبى صلى الله عليه وسلم هو التصديق لا يعرفون فى اللغة ايمانا غير ذلك ، ويدل على ذلك قوله تعالى (وما أنت بمؤمن لنا) أى بمصدق لنا فوجب ان الايمان في الشريعة هو الايمان فى اللغة لان الله ما غير اللسان ولا قلبه . وتقدم انه نوقش فيما قاله ، قال شيخ الاسلام ابن تيمية : وهذا حقيقة قول جهم في مسألة الايمان وقد نصر أبو الحسن الاشعرى هذا القول مع انه نصر المشهور عن السلف من انه يستثنى في الايمان ، وكذلك مشى على هذا أكثر أصحابه ، وأما أبو العباس القلانسى وأبو على الثقفى وأبو عبد الله بن مجاهد شيخ القاضى أبى بكر الباقلانى صاحب أبى الحسن فانهم نصروا مذهب السلف . وقال عبد الله بن سعيد بن كلاب نفسه وهو متأخر في زمن محنة الامام أحمد رضى الله عنه والحسين بن الفضل البجلى ونحوهما كانوا يقولون هو التصديق والقول جميعا موافقة لمن قاله من فقهاء الكوفيين كحماد بن أبى سليمان ومن أتبعه وقد أنكر على ابن كلاب ومن وافقه علماء السنة وعلماء البدعة جميعا وبدعوه فكيف بمن قال بالتصديق بقلبه ولم يتكلم بلسانه فانه لا يعلق به شيء من أحكام الايمان لا في الدنيا ولا في الآخرة ولا يدخل في خطاب الله لعباده بقوله (يا أيها الذين آمنوا) . والحاصل أن الايمان عند المرجئة التصديق والقول ، وعند الجهمية مجرد التصديق ، وعند الكرامية انه مجرد قول اللسان فقط ، وهم يقولون المنافق مؤمن وهو مخلد في النار لأنه آمن ظاهرا لا باطنا وانما يدخل الجنة من آمن باطنا وظاهرا ، قالوا والدليل على شمول الايمان له انه يدخل فى الاحكام الدنيوية المعلقة باسم الايمان . وهذا القول وان كان من أقبح البدع وأفظعها ولم يسبقهم اليه أحد فقول الجهمية أبطل منه وأبعد من الاستدلال باللغة والقرآن والعقل . والكرامية توافق المرجئة والجهمية فى (أن) ايمان الناس كلهم سواء ولا يستثنون في الايمان بل يقولون هو مؤمن حقا لمن أظهر الايمان واذا كان منافقا فهو مخلد في النار عندهم فانه لا يدخل الجنة الا من آمن باطنا وظاهرا ، ومن حكى عنهم أنهم يقولون المنافق يدخل الجنة فقد كذب عليهم بل يقولون المنافق مؤمن لأن الايمان هو القول الظاهر عندهم كما يسميه

قول الكرامية

غيرهم مسلما اذ الاسلام هو الاستسلام الظاهر كما حكاه شيخ الاسلام ، ثم قال ولا ريب ان قول الجهمية أفسد من قولهم من وجوه متعـــددة شرعا ولغة وعقلا ، واذا قيل قول الكرامية قول خارج عن اجماع المسلمين قيل له بل السلف كفروا من يقول بقول جهم في الايمان ، وقد احتـــج الناس على فساد قول الكرامية بحجج صحيحة والحجج من جنسها عـلى فساد قول الجهمية أكثر ففى القرآن والسنة من نفى الايمان عمن لم يأت بالعمل مواضع كثيرة كما فيهما من نفى الايمان عن المنافقين . وأما الايمان بقلبه مع المعاداة المخالفة الظاهرة فهذا لم يسم قط مؤمنا ،وعند الجهمية اذا كان العلم في قلبه فهو مؤمن كامل الايمان ايمانه كايمان الصديقين ولا يتصور عندهم أن ينتفى عنه الايمان الا اذا زال ذلك العلم من قلبه ، وأما المرجئة المتكلمون منهم والفقهاء يقولون ان الاعمال قد تسمى ايمـــانا مجازا لان العمل ثمرة الايمان ومقتضاه ولانها دليل عليه ، ويقولون قوله صلى الله عليه وسلم « الايمان بضع وستون أو بضع وسبعون شعبة أفضلها قول لا اله الا الله وأدناها اماطة الاذى عن الطريق » مجاز ، قال شيخ الاسلام ابن تيمية في كتابه (الايمان والاسلام) : المرجئة ثلاثة أصناف الذين يقولون الايمان مجرد ما في القلب ، ثم من هؤلاء من يدخل فيه أعمال القلوب وهم أكثر فرق المرجئة كما ذكر أبو الحسن الاشـــعرى أقوالهم في كتابه وذكر فرقا كثيرة يطول ذكرهم لكن ذكرنا جمل أقوالهم، ومنهم من لا يدخلها كالجهم بن صفوان ومن أتبعه كالصنايجى (؟) وهذا الذي نصره هو وأكثر أصحابه (الثانى) من يقول هو مجرد قول اللسان وهذا لا يعرف لأحد قبل الكرامية (الثالث) تصديق القلب وقول اللسان وهذا هو المشهور عن أهل الفقه والعبادة منهم ، قال شيخ الاسلام : وهؤلاء غلطوا من وجوه (أحدها) ظنهم أن الايمان الذى فرضه الله على العباد متماثل فى حق العباد وان ماوجب على شخص يجب مثله على كل شخص، وليس الأمر كذلك بل ذلك يتفاوت ويتفاضل أشد تفاوت وتفاضل كما نبهنا على ذلك فيما مر فالايمان الواجب متنوع ليس شيئا واحدا في حق جميع الناس (الثانى) من غلط المرجئة ظنهم أن ما في القلب من الايمان

قول الجهمية

اصناف المرجئة

بيان خطأ المخالفين

ليس الا التصديق فقط دون أعمال القلوب كما تقدم عن جهمية المرجئة (الثالث) ظنهم ان الايمان الذى في القلب يكون تاما بدون شىء من الاعمال ولهذا يجعلون الاعمال ثمرة الايمان ومقتضاه بمنزلة السبب مع المسبب ولا يجعلونها لازمة له ، والتحقيق ان الايمان التام يستلزم العمل الظاهر بحسبه لا محالة ، ويمتنع ان يقوم بالقلب ايمان تام بدون عمل ظاهر ، قال شيخ الاسلام ابن تيمية : ولهذا صاروا يقدرون مسائل يمتنع وقوعها لعدم تحقق الارتباط الذى بين البدن والقلب مثل قولهم رجل في قلبه من الايمان مثل ما في قلب أبى بكر وعمر رضى الله عنهما وهو لايسجد لله سجدة ولا يصوم رمضان ويزنى بأمه وأخته ويشرب الخمر نهار رمضان ، يقولون هذا مؤمن تام الايمان فيبقى سائر المؤمنين ينكرون ذلك غاية الانكار ، قال سيدنا الامام أحمد بن حنبل رضى الله عنه ثنا خلف بن حيان ثنا معقل بن عبيد الله العبسى قال قدم سالم الافطس بالارجاء فنفر منه أصحابنا نفورا شديدا منهم ميمون بن مهران وعبدالكريم ابن مالك فانه عاهد الله أن لا يأويه واياه سقف بيت الا المسجد ،قال معقل فحججت فدخلت على عطاء بن أبى رباح في نفر من أصحابى وهو يقرأ (حتى اذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا) قلت ان لنا حاجة فاخل لنا . ففعل فأخبره بالارجاء وان ناسا أتوا به وان الصلاة والزكاة ليستا من الدين ، فقال أو ليس الله تعالى يقول (وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة) فالصلاة والزكاة من الدين ، وذكر من أقوالهم وزعموا أنهم انتحلوك ؟ فتبرأ منهم ، وكذلك نافع تبرأ منهم ، وكذلك الزهرى فقال : سبحان الله قد أخذ الناس في هذه الخصومات قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن » والجميع تبرءوا منهم وقالوا ليس ايمان من أطاع الله كايمان من عصاه . قال شيخ الاسلام المرجئة كلهم يقولون الصلاة والزكاة ليستا من الايمان واما من الدين فحكى عن بعضهم انه يقول ليستا من الدين ولا نفرق بين الايمان والدين ، قال شيخ الاسلام هذا المعروف من أقوالهم ولم أر فى كتاب أحد منهم انه قال

ان الاعمال ليست من الدين بل يقولون ليست من الايمان وكذلك حكى أبو عبيد عمن ناظره منهم فان أبا عبيد وغيره يحتجون بأن الاعمال من الدين فذكر قوله تعالى (اليوم أكملت لكم دينكم) انها نزلت في حجة الوداع قال أبو عبيد فاخبر تعالى انه أكمل الدين في آخر الاسلام في حجة النبي صلى الله عليه وسلم ، قال وزعم هؤلاء انه كان كاملا قبل ذلك بعشرين سنة من أول ما أنزل عليه الوحي بمكة حين دعا الناس الى الاقرار . قال حتى لقد اضطر بعضهم حين أدخلت عليه الحجة الى أن قال ان الايمان ليس بجميع الدين ولكن الدين ثلاثة أجزاء فالايمان جزء والفرائض جزء والنوافل جزء . قال شيخ الاسلام قدس الله روحه : هذا الذي قاله هو مذهب القوم . قال أبو عبيد وهذا غير ما نطق به الكتاب ألا تسمع الى قوله تعالى (ان الدين عند الله الاسلام - ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه - ورضيت لكم الاسلام دينا) فأخبر أن الاسلام هو الدين برمته وهؤلاء يزعمون انه ثلث الدين . وسيأتي تحرير ذلك ان شاء الله تعالى .

ولما كان الامام أحمد وكذا أبو ثور وغيرهما من الائمة قد عرفوا قول المرجئة وهو أن الايمان لا يذهب بعضه ويبقى بعضه فلا يكون ذا عدد اثنين أو ثلاثة فانه اذا كان له عدد أمكن ذهاب بعضه وبقاء بعضه بل لا يكون الا شيئا واحدا قال لهم الامام أحمد من زعم أن الايمان الاقرار فما يقول في المعرفة ؟ هل يحتاج الى المعرفة مع الاقرار ؟ وهل يحتاج أن يكون مصدقا بما عرف ؟ فان زعم انه يحتاج الى المعرفة مع الاقرار فقد زعم انه من شيئين ، وان زعم انه يحتاج أن يكون مقرا ومصدقا بما عرف فهو من ثلاثة أشياء ، وان جحد وقال لا يحتاج الى المعرفة والتصديق فقد قال قولا عظيما . قال ولا أحسب أحدا يدفع المعرفة والتصديق وكذلك العمل مع هذه الاشياء . انتهى . قال شيخ الاسلام قالت الجهمية الايمان شيء واحد في القلب ، وقالت الكرامية هو شيء واحد على اللسان، كل ذلك فرارا من تبعيض الايمان وتعدده فاحتج أبو ثور عليهم بما اجتمع عليه فقهاء المرجئة من أنه تصديق وعمل ، ولم يكن بلغه قول

ارجاء بعض الفقهاء

متكلميهم وجهميتهم أو لم يعد خلافهم خلافا ، ولهـذا دخل في أرجاء الفقهاء جماعة هم عند الائمة أهل علم ودين ولم يكفر أحد من السلف أحدا من مرجئة الفقهاء بل جعلوا هذا من بدع الاقوال والافعال لا من بدع العقائد فان كثيرا من النزاع فيها لفظى ، نعم اللفظ المطابق للكتاب والسنة هو الصواب فليس لأحد أن يقول بخلافه ولا سيما وقد صار ذلك ذريعة الى بدع أهل الكلام من أهل الارجاء وغيرهم الى ظهور الفسوق فصار ذلك الخطأ اليسير في اللفظ سببا لخطأ عظيم في العقائد والاعمال فلهذا أعظم القول في ذم الارجاء حتى قال ابراهيم النخعى لفتنتهم يعنى المرجئة أخوف على هذه الامة من فتنة الازارقة • يعنى الخوارج • وقال الزهرى : ما ابتدع في الاسلام بدعة أضر على أهله من الارجاء • وقال الاوزاعى كان يحيى بن أبى كثير وقتادة يقولان : ليس شيء من الاهواء أخوف عندهم على الامة من الارجاء • وقال شريك القاضى المرجئة أخبث قوم ، حسبك بالرافضة خبثا ، ولكن المرجئة يكذبون على الله • وقال سفيان الثورى تركت المرجئة الاسلام أرق من ثوب سابرى • وقال وكيع المرجئة الذين يقولون الاقرار يجزى عن العمل ومن قال هـذا فقد هلك ومن قال النية تجزى من العمل فهو كفر وهو قول جهم • وكذا قال الامام أحمد رضى الله عنه انه كفر • وقال قتادة انما حدث الارجاء بعد فرقة ابن الاشعث • وقال أيوب السختيانى : أول من تكلم فى الارجاء رجل من أهل المدينة من بنى هاشم يقال له الحسن • وقال زاذان مر بنا الحسن بن محمد(١) فقلنا ما هذا الكتاب الذى وضعت ؟ وكان هو الذى أخرج كتاب المرجئة فقال لى يا أبا عمر لوددت انى كنت مت قبل أن أخرج هذا الكتاب أو أضع هذا الكتاب • فان الخطأ فى اسم الايمان ليس كالخطأ فى اسم محدث ولا كالخطأ فى غيره من الاسماء اذ كانت أحكام الدنيا والآخرة متعلقة باسم الايمان والاسلام والكفر والنفاق • وحاصل قول غلاة المرجئة انه كما لا ينفع مع الكفر طاعة لا يضر مع الايمان معصية •

انكار السلف قول المرجئة

قول غلاة المرجئة

---

(١) يعنى الحسن بن محمد بن على بن أبى طالب وراجع ترجمته في تهذيب التهذيب •

وهذا شر قول قيل في الاسلام والله تعالى الموفق •

الاقوال في الايمان خمسة

وحاصل ذلك قوله ان للناس في الايمان أقوالا خمسة منها ثلاثة بسيطة واثنان مركب فاما البسيطة فالتصديق وحده أو القول وحده أو العمل وحده ، الاول مذهب جهم ومن وافقه من الاشاعرة وغيرهم ، والثاني قول الكرامية والثالث عزاه الكرماني في شرح البخاري للمعتزلة ولعله لبعضهم • وأما المركب فقسمان ثنائي وهو قول الحنفية ومن وافقهم فانهم قالوا انه مركب من التصديق والقول ، وثلاثي التصديق بالجنان والاقرار باللسان والعمل بالاركان وهذا مذهب سلف الامة •

(التنبيه الثاني)

التنبيه الثاني الايمان والاسلام شيء ام شيئان

الكلام على الايمان والاسلام هل هما شيء واحد أو شيئان ؟ • قد ثبت في القرآن اسلام بلا ايمان في قوله تعالى (قالت الاعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان في قلوبكم) وثبت في الصحيحين من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال أعطى النبي صلى الله عليه وسلم رهطا–وفي رواية قسم قسما –وترك فيهم من لم يعطه وهو أعجبهم الي فقلت يا رسول الله مالك عن فلان فوالله اني لأراه مؤمنا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أو مسلما » أقولها ثلاثا ويرددها علي رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثا ثم قال اني لأعطي الرجل وغيره أحب الي منه مخافة ان يكبه الله في النار • فهذا الاسلام الذي نفى الله عن أهله دخول الايمان في قلوبهم هل هو اسلام يثابون عليه أم من جنس اسلام المنافقين ؟ فيه قولان مشهوران للسلف والخلف **(أحدهما)**

البحث في حال الاعراب الذين قالوا آمنا

انه اسلام يثابون عليه ويخرجهم من الكفر والنفاق ، وهذا يروى عن الحسن البصري وابن سيرين وابراهيم النخعي وأبي جعفر الباقر وهو قول حماد بن زيد والامام احمد بن حنبل وسهل بن عبد الله التستري وأبي طالب المكي وكثير من أهل الحديث والسنن والحقائق **(الثاني)** ان هذا الاسلام هو الاستسلام خوف السبي والقتل مثل اسلام المنافقين ، قالوا وهؤلاء كفار فان الايمان لم يدخل في قلوبهم ومن لم يدخل الايمان

في قلبه فهو كافر ، وهذا اختيار الامام البخارى ومحمد بن نصر المروزى • قال شيخ الاسلام والسلف مختلفون في ذلك ، وحقيقة الامر أن من لم يكن من المؤمنين يقال فيه انه مسلم ومعه ايمان يمنعه من الخلود في النار، وهذا متفق عليه بين أهل السنة لكن هل يطلق عليه اسم الايمان ؟ هذا هو الذى تنازعوا فيه فقيل يقال انه مسلم ولا يقال مؤمن ، وقيل بل يقال مؤمن • قال والتحقيق انه يقال مؤمن ناقص الايمان مؤمن بايمانه فاسق بكبيرته فلا يعطى الاسم المطلق ولا يسلب مطلق الاسم • قال وعلى هذا فالخطاب بالايمان يدخل فيه ثلاث طوائف ، المؤمن حقا ، والمنافق في أحكامه الظاهرة وان كان المنافق في الآخرة في الدرك الاسفل من النار وهو في الباطن ينفى عنه الاسلام والايمان وفي الظاهر يثبتان له ظاهرا • ويدخل فيه الذين أسلموا ولم تدخل حقيقة الايمان في قلوبهم لكن معهم جزء منه واسلام يثابون عليه ثم قد يكونون مفرطين فيما فرض عليهم وليس معهم من الكبائر ما يعاقبون (عليه كأهل الكبائر لكن يعاقبون - ١) على ترك المفروضات وهؤلاء كالاعراب المذكورين في الآية وغيرهم فانهم قالوا آمنا من غير قيام منهم بما أمروا به باطنا وظاهرا فلا دخلت حقيقة الايمان الى قلوبهم ولا جاهدوا وقد كان دعاهم النبى صلى الله عليه وسلم الى الجهاد وقد يكونون من أهل الكبائر وهؤلاء لا يخرجون من الاسلام بل هم مسلمون ولكن بين السلف فيهم نزاع لفظى هل يقال انهم مؤمنون ؟ قال الشالنجي سألت الامام أحمد عن الايمان والاسلام فقال : الايمان قول وعمل والاسلام اقرار • وبه قال أبو خيثمة • وقال ابن أبى شيبة لا يكون اسلام الا بايمان ولا ايمان الا باسلام • قال شيخ الاسلام قدس الله روحه : الامام أحمد رضى الله عنه لم يرد عنه قط انه سلب من يقال انه مسلم - يعنى من زنى وسرق وشرب الخمر ونحوهم - جميع الايمان فلم يبق معه شىء كما تقوله الخوارج والمعتزلة فان الامام أحمد قد صرح في غير موضع بأن أهل الكبائر معهم ايمان يخرجون به من النار واحتج بقول النبى صلى الله عليه وسلم « أخرجوا من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من ايمان » وليس هذا -

---

(١) من كتاب الايمان لشيخ الاسلام ابن تيمية

يعني سلبهم اسم الايمان جميعه - قوله ولا قول أحد من أئمة السنه بل كلهم متفقون على أن الفساق الذين ليسوا منافقين معهم شيء من الايمان يخرجون به من النار هو الفارق بينهم وبين الكفار المنافقين ، لكن اذا كان معه بعض الايمان لم يلزم أن يدخل في الاسلام(١) المطلق الممدوح وصاحب الشرع قد نفى الاسم عن هؤلاء فقال « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن » والمعتزلة ينفون عنه اسم الايمان والاسلام بالكلية ويقولون يخلد في النار لا يخرج منها لا بشفاعة ولا غيرها ، وهذا هو الذي أنكر عليهم وكل أهل السنة متفقة انه قد سلب كمال الايمان الواجب فزال بعض ايمانه الواجب ، وانما ينازع في ذلك من يقول الايمان لا يتبعض كالجهمية والمرجئة فيقولون عن مثل هذا انه كامل الايمان لكنه من أهل الوعيد .

الفرق بين الاسلام والايمان والدين

قال شيخ الاسلام وحقيقة الفرق بين الاسلام والايمان والدين ان الاسلام دين والدين مصدر دان يدين دينا اذا خضع وذل ودين الاسلام الذي ارتضاه الله وبعث به رسوله هو الاستسلام لله وحده ، فأصله في القلب وهو الخضوع لله وحده بعبادته وحده دون ما سواه فمن عبده وعبد معه الها آخر لم يكن مسلما ، ومن لم يعبده بل استكبر عن عبادته لم يكن مسلما ، والاسلام هو الاستسلام لله وهو الخضوع له والعبودية له . هكذا قال رحمه الله وعزاه لاهل اللغة ، فالاسلام في الاصل من باب العمل عمل القلب والجوارح ، وأما الايمان فأصله تصديق واقرار ومعرفة فهو من باب قول القلب المتضمن عمل القلب والاصل فيه التصديق والعمل تابع له فلهذا فسر النبي صلى الله عليه وسلم الايمان بايمان مخصوص وهو الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ، وفسر الاسلام باسلام مخصوص وهو المباني الخمس ، وهكذا في سائر كلامه صلى الله عليه وسلم . قال

سر حصر بناء الاسلام على الخمس

شيخ الاسلام قدس الله روحه : ومما يسئل عنه انه اذا كان مما أوجبه الله من الاعمال الظاهرة أكثر من هذه الخمس فلماذا قال الاسلام هذه الخمس ؟ وقد أجاب بعض الناس بأن هذه أظهر شرائع الاسلام وأعظمها وبقيامه بها يتم استسلامه وتركه لها يشعر بانحلال قيد انقياده ، قال والتحقيق أن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر الدين الذي هو استسلام

---

(١) الصواب « في الاسم » كما في كتاب الايمان

العبد لربه مطلقا الذى يجب لله عبادة محضة على الاعيان فيجب على كل من كان قادرا عليه ليعبد الله بها مخلصا له الدين ، وهذه هى الخمس وما سوى ذلك فانما يجب بأسباب المصالح فلا يعم وجوبها جميع الناس بل اما ان تكون فرضا على الكفاية كالجهاد والامر بالمعروف والنهى عن المنكر وما يتبع ذلك من امارة وحكم وفتيا واقراء وتحديث وغير ذلك ، وأما أن تجب بسبب حق للآدميين يختص به من وجب له وعليه وقد يسقط باسقاطه ، وكذلك ما يجب من صلة الارحام وحقوق الزوجية والاولاد والجيران والشركاء والفقراء ، وكذا قضاء الديون ورد الغصوب والعوارى والودائع والانصاف من المظالم من الدماء والاموال والاعراض انما هى حقوق الآدميين واذا أبرؤا منها سقطت وتجب على شخص دون شخص في حال دون حال لم تجب عبادة محضة لله تعالى على كل عبد قادر ، ولهذا يشترك فى أكثرها المسلمون واليهود والنصارى بخلاف الخمسة ، والزكاة وان كانت حقا ماليا فهى واجبة لله والاصناف الثمانية مصارفها ولهذا وجب فيها النية ولم يجز أن يفعلها الغير عنه بلا اذنه ولم تطلب من الكفار ، وحقوق العباد لا يشترط لها نية ولو أداها عنه غيره ولو بغير اذنه برئت ذمته ويطالب بها الكفار • وفي كتاب الايمان والاسلام للامام شيخ الاسلام ابن تيمية قال ابو طالب المكى : مثل الاسلام من الايمان كمثل الشهادتين احداهما من الاخرى في المعنى والحكم فشهادة الرسول غير شهادة الوحدانية فهما شيئان في الاعيان واحداهما مرتبطة بالاخرى في المعنى والحكم كشىء واحد ، كذلك الايمان والاسلام أحدهما مرتبط بالآخر فهما كشىء واحد لا ايمان لمن لا اسلام له ولا اسلام لمن لا ايمان له اذ لا يخلو المسلم من ايمان به يصحح اسلامه ولا يخلو المؤمن من اسلام به يحقق ايمانه • ثم قال وقد أجمع أهل القبلة على أن كل مؤمن مسلم وكل مسلم مؤمن بالله وكتبه • وقال الحافظ ابن رجب اذا أفرد كل من الاسلام والايمان بالذكر فلا فرق بينهما حينئذ وان قرن بين الاسمين كان بينهما فرق ، والتحقيق في الفرق بينهما أن الايمان هو تصديق القلب واقراره ومعرفته والاسلام هو الاستسلام لله والخضوع والانقياد له وذلك يكون بالعمل وهو الدين كما سمى الله تعالى في كتابه الاسلام دينا وفي

حديث جبريل سمى النبى صلى اللهعليهوسلمالايمانوالاسلاموالاحسان دينا فالايمان والاسلام كاسم الفقير والمسكين اذا اجتمعا افترقا واذا افترقا اجتمعا فاذا أفرد أحدهما دخل فيه الآخر واذا قرن بينهما احتاج كل واحد منهما الى تعريف يخصه فاذا قرن بين الايمان والاسلام فالمراد بالايمان جنس تصديق القلب والاسلام جنس العمل .

واعلم ان مسائل الاسلام والايمان والكفر والنفاق مسائل عظيمة جدا فان الله تعالى علق بهذه الاسماء السعادة والشقاوة واستحقاق الجنة والنار ، والاختلاف في مسمياتها أول اختلافوقع في هذه الامة وهو خلاف الخوارج للصحابة حيث أخرجوا عصاة الموحدين من الاسلام بالكلية وأدخلوهم في دائرة الكفر وعاملوهم معاملة الكفار واستحلوا بذلك دماء المسلمين وأموالهم ، ثم حدث بعدهم خلاف المعتزلة وقولهم بالمنزلة بين المنزلتين ، ثم حدث خلاف المرجئة وقولهم ان الفاسق مؤمن كاملالايمان ، وقد أكثر الائمة من التصنيف في هذا الباب ، وحاصل ذلك ان الدين وأهله كما أخبر خاتم النبيين وامام المرسلين ثلاث طبقات أولها الاسلام وأوسطها الايمان وأعلاها الاحسان فمن وصل الى العليا فقد وصل الى التي تليها فالمحسن مؤمن والمؤمن مسلم وأما المسلم فلا يجب أن يكون مؤمنا وهكذا جاء القرآن فجعل الامة على هذه الاصناف الثلاثة قال الله تعالى (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات باذن الله ذلك هو الفضل الكبير) فالمسلم الذى لم يقم بواجب الايمان هو الظالم لنفسه والمقتصد الذى أدى الواجبوترك المحرم هو المؤمن المطلق والسابق بالخيرات هو المحسن الذى عبد الله كأنه يراه ، وقد ذكر الله تقسيم الناس فى المعاد الى هذه الثلاثة فى سورة الواقعة والمطففين(١) وبالله التوفيق .

(الثـــالث)

الثـــالث التصديق يحتمل الزيادة والنقص

هل قبول الايمان للزيادة والنقص مختص بقول السلف ومن تبعهم من أن الايمان تدخل فيه الاعمال وذهب اليه جماعة من محققي الاشاعرة كالقلانسى وغيره وهو مذهب الفقهاء والمحدثين ونقل الشافعى على ذلك

---

(١) تراجع الآيات ويتدبر سياقها

الاجماع وقال البخارى لقيت أكثر من ألف رجل من العلماء بالامصار فما رأيت أحدا منهم يختلف في ان الايمان قول وعمل ويزيد وينقص كما تقدم وقد قدمنا من الاحتجاج لذلك من العقل والنقل ما لعله يشفي ويكفي لمن لم تتحكم به علة التقييد ونزع من عنقه ربقة التقليد اذ لو لم تتفاوت حقيقة الايمان وتتفاضل لكان ايمان آحاد الامة المنهمكين في الفسق والمعاصى مساويا لايمان الانبياء والصديقين والملائكة المقربين وتصور هذا المذهب ولوازمه يغنى عن اقامة البرهان على رده مع ما في الآيات الصريحة والأحاديث الصحيحة من التفاضل والتفاوت فدع عنك هذا التمادى والتهافت - أو يعم القول بأن الايمان التصديق أيضا ؟ الحق كما قاله الامام النووى وجماعة محققون من علماء الكلام ان الزيادة والنقصان تدخل الايمان ولو قلنا انه التصديق والاذعان لان التصديق القلبى يزيد وينقص أيضا بكثرة النظر ووضوح الادلة وعدم ذلك كما تقدم في كلام شيخ الاسلام وما اعترض عليه به من أنه متى قبل ذلك كان شكا فمدفوع بأن مراتب اليقين متفاوتة الى علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين مع انها لا شك معها ، وفي القرآن العظيم ما حكى عن ابراهيم خليله بقوله (ولكن ليطمئن قلبى) وتقدمت قصة موسى لما رأى قومه عاكفين على عبادة العجل مع ما كان أخبر الله تعالى بذلك أولا ، وقال الامام أبو حنيفة وأصحابه ومن تبعهم من المتكلمين الايمان لا يزيد ولا ينقص محتجين بأنه اسم المتصديق البالغ بحد الجزم والاذعان ، والمعلوم من النقل والعقل خلافه وبالله التوفيق •

قول انا مؤمن ان شاء الله

((ونحن فى ايماننا نستثنى من غير شك فاستمع واستبن))

((ونحن)) معشر الاثرية ومن وافقنا من الاشعرية وغيرهم ((في ايماننا)) الذى تقدم تعريفه ((نستثنى)) فيقول أحدنا أنا مؤمن ان شاء الله ((من غير شك)) منا في ذلك والشك التردد بين طرفين لا مزية لأحدهما على الآخر والمراد هنا ما يعم الظن وكل ما ليس بجزم موافقة للسلف الصالح في ذلك ((فاستمع)) أى اطلب سماع ذلك واستقباله ((واستبن)) أى اطلب بيانه واظهاره بأدلته النقلية والعقلية تظهر لك فيه

الحقيقة ، واعلم ان الناس في ذلك على ثلاثة أقوال منهم من يوجبه ومنهم من يحرمه ومنهم من يجوز الامرين باعتبارين وهذا الاخير أصح الاقوال ، فالذين يحرمونه هم المرجئة والجهمية ومن وافقهم ممن يجعل الايمان شيئا واحدا يعلمه الانسان من نفسه كالتصديق بالرب ونحو ذلك مما في قلبه فيقول أحدهم أنا أعلم انى مؤمن كما أعلم انى تكلمت بالشهادتين وكما أعلم انى قرأت الفاتحة وكما أعلم انى أحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وانى أبغض اليهود والنصارى فقولى أنا مؤمن كقولى أنا مسلم ونحو ذلك من الامور الحاضرة التى أنا أعلمها وأقطع بها وكما انه لا يجوز أن يقال أنا قرأت الفاتحة ان شاء الله كذلك لا يقول أنا مؤمن ان شاء الله لكن اذا كان يشك في ذلك فيقول فعلته ان شاء الله ، قالوا فمن استثنى في ايمانه فهو شاك فيه وسموهم الشاكة . والذين أوجبوا الاستثناء لهم مأخذان أحدهما ان الايمان هو ما مات عليه الانسان والانسان انما يكون عند الله مؤمنا وكافرا باعتبار الموافاة وما سبق في علم الله انه يكون عليه وما قبل ذلك لا عبرة به ، قالوا والايمان الذى يتعقبه الكفر فيموت صاحبه كافرا ليس بايمان كالصلاة التى يفسدها صاحبها قبل الكمال وكالصيام الذى يفطر صاحبه قبل الغروب فصاحب هذا هو عند الله كافر بعلمه بما يموت عليه ، وكذلك قالوا في الكفر ، وهذا المأخذ لكثير من المتأخرين من الكلابية وغيرهم ممن يريد أن ينصر أهل الحديث فى قولهم أنا مؤمن ان شاء الله ويريد مع ذلك أن يجعل الايمان لا يتفاضل والانسان لا يشك في الموجود منه وانما يشك في المستقبل ، وبهذا قال كثير من المتكلمين ومن أتباع المذاهب من الحنابلة والشافعية والمالكية وغيرهم قالوا يحب في ازله من كان كافرا اذا علم انه يموت مؤمنا ما زالوا محبوبين لله وان كانوا قد عبدوا الاصنام مدة من الدهر ، وابليس ما زال يبغضه وان كان لم يكفر بعد ، يعنى ما زال الله يريد أن يثيب هؤلاء بعد ايمانهم ويعاقب ابليس بعد كفره ، وهذا معنى صحيح فان الله يريد أن يخلق كل ما علم ان سيخلقه ، وعند هؤلاء لا يرضى عن أحد بعد أن كان ساخطا عليه فمن علم انه يموت كافرا لم يزل مريدا

لعقوبته والايمان الذى كان معه باطل لا فائدة فيه بل وجوده كعدمه ، واذا علم أنه يموت مؤمنا مسلما لم يزل مريدا لاثابته ، والكفر الذى فعله وجوده كعدمه فلم يكن هذا كافرا عندهم أصلا . فهؤلاء يستثنون فى الايمان بناء على المأخذ وكذلك بعض محققيهم يستثنون في الكفر مثل أبى منصور الماتريدي كما نقله عنه شيخ الاسلام ، نعم جماهير الائمة لا يستثنى في الكفر والاستثناء فيه بدعة لم يعرف عن أحد من السلف ولكن هؤلاء لازم لهم ،والذين فرقوا من هؤلاء قالوا نستثنى فى الايمان رغبة الى الله في أن يثبتنا عليه الى الموت والكفر لا يرغب فيه أحد، قال شيخ الاسلام وعند هؤلاء لا يعلم أحد أحدا مؤمنا الا اذا علم أنه يموت عليه ، وهذا القول قاله كثير من أهل الكلام ووافقهم على ذلك كثير من أتباع الائمة . قال لكن ليس هذا قول أحد من السلف لا الائمة الاربعة ولا غيرهم ولا كان احد من السلف الذين يستثنون في الايمان يعللون بهذا لا الامام أحمد ولا من كان قبله ، قال ومأخذ هذا القول طرد طائفة ممن كانوا في الاصل يستثنون في الايمان اتباعا للسلف وكانوا قد أخذوا الاستثناء عن السلف وكان أهل الشام شديدين على المرجئة وكان محمد بن يوسف الفريابى صاحب الثورى مرابطا بعسقلان لما كانت عامرة وكانت من خيار ثغور المسلمين وكانوا يستثنون اتباعا للسلف واستثنوا أيضا فى الاعمال الصالحة كقول الرجل صليت ان شاء الله ونحو ذلك يعنى القبول لما فى ذلك من الآثار عن السلف ، ثم صار كثير من هؤلاء يستثنون فى كل شيء فيقول : هذا ثوبى ان شاء الله ، وهذا جبل ان شاء الله فاذا قيل لأحدهم هذا لا شك فيه ، قال نعم لا شك فيه لكن اذا شاء الله أن يغيره غيره فيريدون بقولهم ان شاء الله جواز تغييره فى المستقبل وان كان فى الحال لا شك فيه كأن الحقيقة عندهم التى لا يستثنى فيها ما لم (؟) تتبدل كما يقوله أولئك فى الايمان أن الايمان ما علم الله أنه لا يتبدل حتى يموت صاحبه عليه ، قال وهذا القول قاله قوم من أهل العلم والدين باجتهاد ونظر ، وهؤلاء الذين يستثنون فى كل شيء تلقوا ذلك عن بعض أتباع شيخهم وشيخهم الذى ينتسبون اليه يقال له أبو عمرو

عثمـــان بن مرزوق لم يكـــن ممن يرى هـــذا الاستثناء بل كان في الاستثنا على طريقة من قبله ولكن أحدث ذلك بعض أصـــحابه وكان شيخهم منتسبا الى الامام أحمد رضى الله عنه وهو من أتباع عبد الوهاب ابن الشيخ أبى الفرج المقدسى وأبو الفرج من تلامذة القاضى أبى يعلى . (قلت) وهو الذى نشر مذهب أحمد في نواحي جبل نابلس وهو الامام أبو الفرج الشيرازى قدس الله روحه اسمه عبد الوهاب الفقيه الزاهـــد الانصارى السعدى العبادى الخزرجى شيخ الشام في وقته ، وهذا البيت يعرف ببيت الحنبلى ، وكان أبو الفرج اماما عالما بالفقه والاصول شديدا في السنة زاهدا عارفا عابدا متألها ذا أحوال وكرامات ظاهرة وكان قـــد صحب القاضى أبا يعلى سنة نيف وأربعين وأربعمائة وتردد الى مجلسه سنين عدة وعلق عنه أشياء فى الاصول والفروع ثم قدم الشام وحصل له الاتباع والتلاميذ والغلمان وكان ناصرا لمذهبنا متجردا لنشره وله تصانيف في الفقه والوعظ والاصول توفي يوم الاحد ثامن عشر ذى الحجة سـنة ست وثمانين وأربعمائة بدمشق ودفن بمقبرة باب الصغير والى جنبـــه الحافظ ابن رجب وقد زرتهما كثيرا رحمهما الله ورضى عنهما . وهؤلاء الذين يستثنون في كل شيء كلهم وان كانوا منتسبين الى الامام أحمـــد رضى الله عنه فهم يوافقون ابن كلاب على أصله الذى كان الامام أحمد ينكره عليه وعلى سائر أتباعه الكلابية وأمر بهجر الامام الحارث المحاسبى صاحب الرعاية من أجله كما يوافقه على أصله طائفة من أصحاب الامامين مالك والشافعى رضى الله عنهما بل وأصحاب الامام أبى حنيفة رضى الله عنه كأبى المعالى الجوينى الشافعى وأبى الوليد الباجى المالكى وأبى منصور الماتريدى الحنفى وغيرهم ، وهذه الطائفة المتأخرة تنكر أن يقال «قطعا» فى شيء من الاشياء مع غلوهم فى الاستثناء حتى صار هذا اللفظ -يعني قطعا- منكرا عندهم وان جزموا بالمعنى فيجزمون بأن محمدا صلى الله عليـــه وسلم نبيهم وان الله ربهم ولا يقولون : قطعا . قال شيخ الاسلام ابن تيمية قدس الله روحه في كتابه شرح الايمان والاسلام : وقد اجتمع بى طائفة منهم فأنكرت عليهم ذلك وامتنعت من فعل مطلوبهم حتى يقولوا : قطعا :

وأحضروا لى كتابا فيه أحاديث عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه نهى أن يقول الرجل : قطعا ، وهى أحاديث موضوعة مختلفة قد افتـــراها بعض المتأخرين •

وهؤلاء واضرابهم ظنوا أن ما هم عليه هو قول السلف وليس كذلك مع ان هذا لم يقله أحد من السلف وانما حكاه هؤلاء عنهم بحســب ظنهم • والذين قالوا بالموافاة جعلوا الثبات على الايمان الى العاقبة والوفاء به في المآل شرطا في الايمان شرعا لا لغة ولا عقلا حتى ان الامام محمد بن اسحاق بن خزيمة كان يغلو في هذا ويقول من قال أنا مؤمن حقا فهـــو مبتدع • قال شيخ الاسلام ومذهب أصحاب الحـــديث كابن مسعود وأصحابه والثورى وابن عيينة وأكثر علماء الكوفة ويحيى بن سعيد القطان فيما يرويه عن علماء البصرة والامام أحمد بن حنبل وغيره من أئمة السنة كانوا يستثنون في الايمان وهذا متواتر عنهم لكن ليس في هؤلاء من قال انما استثنى لاجل الموافاة وان الايمان انما هو اسم لما يوافى به بـــل صرح أئمة هؤلاء بأن الاستثناء انما هو لان الايمان يتضمن فعل جميــع الواجبات فلا يشـــهدون لانفسهم بذلك كما لا يشهدون لها بالبـــر والتقوى فان ذلك مما لا يعلمونه وهو تزكية لأنفسهم بلا علم • قال شيخ الاسلام وأما الموافاة فما علمت أحـــدا من السلف علل بها الاستثناء نعــم كثير من المتأخرين يعلل بها من أصحاب الحديث من أصحاب الامام أحمد والشـــافعى ومالك وغيـــرهم رضى الله عنهم • قال شـــيخ الاســـلام وأكثر الناس يقولون بل هو اذا كـــان كافـــرا فهـــو عـــدو الله ثم اذا آمن واتقى صار وليا لله • فمأخذ سلف الامة فى الاستثنـــــاء ان الايمان المطلق فعل جميع المأمورات وترك جميع المحظورات فاذا قال الرجل أنا مؤمن بهذا الاعتبار فقد شهد لنفسه بأنه من الابرار المتقين القائمين بفعل جميع ماأمروا به وترك كل ما نهوا عنه فيكون من أولياء الله تعالى وهذا تزكية الانسان لنفسه وشهادته لها بما لا يعلم ولو كانت هذه الشهادة صحيحة لساغ أن يشهد لنفسه بالجنة ان مات على هذه الحال ولا أحد يسوغ له

بذلك فهذا مأخذ عامة السلف الذين كانوا يستثنون وان جوروا ترك الاستثناء ، قال الخلال فى كتاب السنة ثنا سليمان بن الاشعث - يعنى الامام الحافظ أبا داود صاحب السنن - قال سمعت أبا عبد الله - يعنى الامام احمد رضى الله عنه - قال له رجل قيل لى أمؤمن أنت ؟ قلت : نعم ، هل على فى ذلك شىء ؟ هل الناس الا مؤمن أو كافر ؟ فغضب الامام احمد وقال هذا كلام الارجاء قال الله تعالى (وآخرون مرجون لأمر الله) من هؤلاء ؟ ثم قال الامام احمد أليس الايمان قولا وعملا ؟ قال له الرجل : بلى ، قال فجئنا بالقول ؟ قال نعم ، قال فجئنا بالعمل ؟ قال : لا ، فكيف تعيب أن يقول ان شاء الله ويستثنى ؟ قال أبو داود أخبرنى احمد بن أبى شريح ان الامام احمد رضى الله عنه كتب اليه فى هذه المسئلة أن الايمان قول وعمل فجئنا بالقول ولم نجىء بالعمل ونحن نستثنى فى العمل . وكان سليمان بن حرب يحمل هذا على التقبل يقول نحن نعمل ولا ندرى يقبل منا أم لا ؟ قال شيخ الاسلام : والقبول متعلق بفعله كما أمر فمن فعل كما أمر فقد تقبل منه لكن هو لا يجزم بالقبول لعدم جزمه بكمال الفعل كما قال الله تعالى(والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة) قالت عائشة رضى الله عنها يارسول الله هو الرجل يزنى ويسرق ويشرب الخمر ويخاف ؟ قال : « لا يابنت الصديق بل هو الرجل يصلى ويصوم ويتصدق ويخاف أن لا يتقبل منه » وقال الامام احمد : أذهب الى حديث ابن مسعود فى الاستثناء فى الايمان لان الايمان قول وعمل والعمل الفعل فقد جئنا بالقول ونخشى أن نكون فرطنا فى العمل فيعجبنى أن يستثنى فى الايمان يقول أنا مؤمن ان شاء الله . وقال فى رواية الميمونى أقول مؤمن ان شاء الله ومؤمن ارجو ، لأنه لا يدرى كيف البراءة للأعمال على ما افترض عليه أم لا . ومثل هذا كثير فى كلام الامام احمد رضى الله عنه وفى كلام أمثاله من أئمة السلف ، وهذا مطابق لما تقدم من أن المؤمن المطلق هو القائم بالواجبات المستحق للجنة اذا مات على ذلك وان المفرط بترك المأمور أو فعل المحظور لا يطلق عليه انه مؤمن مطلق وان المؤمن المطلق هو البر التقى ولى الله فاذا قال انا مؤمن قطعا كان كقوله أنا بر تقى ولى الله قطعا ، وقد كان الامام احمد وغيره من السلف مع هذا

يكرهون سؤال الرجل لغيره أمؤمن ان شاءالله(١)ويكرهون الجواب لان هذه بدعة أحدثتها المرجئة ، ولهذا كان الصحيح انه يجوز أن يقول أنا مؤمن بلا استثناء اذا أراد ذلك لكن ينبغي أن يقرن كلامه بما يبين انه لم يرد الايمان المطلق الكامل ، ولهذا كان الامام احمد رضى الله عنه يكره أن يجيب عن المطلق بلا استثناء تقدمه . وقال المروذى قيل لأبى عبد الله نقول نحن المؤمنون ؟ فقال نحن المسلمون . ومع هذا فلم يكن ينكر على من ترك الاستثناء اذا لم يكن قصده فعل المرجئة ان الايمان مجرد القول بل يتركه لما يعلم ان فى قلبه ايمانا وان كان لايجزم بكل ايمـــانه . وقال الخلال أخبرنى احمد بن اصرم المزنى ان أبا عبد الله قيل له اذا سألنى الرجل فقال أمؤمن أنت ؟ قال قل له سؤالك اياى بدعة ولا شك فى ايمانى أو قال لا نشك فى ايماننا . قال المزنى وحفظى ان أبا عبد الله قال أقول كما قال طاووس آمنت بالله وملائكته ورسله . فقد أخبر الامام احمد انه قال لانشك فى ايماننا وان السائل لا يشك فى ايمان المسئول وهذا أبلغ وهو انما يجزم بأنه مقر مصدق بما جاء به الرسول لا انه قائم بالواجب ، فعلم ان الامام احمد وغيره من السلف كانوا يجزمون ولا يشكون فى وجود ما فى القلوب من الايمان فى هذه الحال ويجعلون الاستثناء عائدا الى الايمان المطلق المتضمن فعل المأمور ويحتجون أيضا بجواز الاستثناء فى ما لا شك فيه وهذا مأخذ ثان وان كنا لا نشك في ما في قلوبنا من الايمان فالاستثناء فى ما يعلم وجوده مما قد جاءت به السنة لما فيه من الحكمة قال تعـــالى (لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله) وقال صلى الله عليه وسلـــم لأصحابه « انى لأرجو أن أكون اتقاكم الله » وقال فى الميت « وعليه يبعث ان شاء الله » وقال صلى الله عليه وسلم لما وقف على المقابر « وانا ان شاء الله بكم لاحقون » وقوله « انى اختبأت دعوتى وهى نائلة ان شاء الله من لا يشرك بالله شيئا » وهذا كثير ، وفى الصحيحين ان سليمان بن داود عليهما السلام قال لأطوفن الليلة على مائة امرأة كل منهن تأتى بفارس يقاتل فى سبيل الله . فقال له صاحبه قل ان شاء الله ، فلم يقل فلم يحمل منهن الا امرأة جاءت بشق رجل قال النبى صلى الله عليه وسلم « والذى نفسى

(١) الذى فى كتاب الايمان « أمؤمن انت »

بيده لو قال ان شاء الله لجاهدوا فى سبيل الله فرسانا اجمعون » فاذا قال ان شاء الله لم يشك فى طلبه وارادته بل لتحقيق الله ذلك له اذ الامور لا تحصل الا بمشيئة الله فاذا تألى العبد على الله من غير تعليق بمشيئته لم يحصل مراده فانه من يتألى على الله يكذبه ، ولهذا يروى « لا أتممت لمقدر أمرا » وقيل لبعضهم بما عرفت ربك ؟ قال بفسح العزائم ونقض الهمم • وقد قال تعالى (ولا تقولن لشيء انى فاعل ذلك غدا الا أن يشاء الله) • وفى شرح مختصر التحرير يجوز الاستثناء فى الايمان بأن يقول أنا مؤمن ان شاء الله نص على ذلك الامام احمد والامم الشافعى وحكى عن ابن مسعود رضى الله عنهم ، وقال ابن عقيل يستحب ولا يقطع لنفسه ومنع ذلك الامام أبو حنيفة وأصحابه والاكثرون والله أعلم

تتمـــة

تتمة فى الاسلام ايزيد وينقص ويدخـــله الاستثناء

هل الاسلام مثل الايمان يدخله الزيادة والنقصان ويدخله الاستثناء أم لا ؟ خلاف مشهور قال فى شرح مختصر التحرير : وأما الاسلام فلا يجوز الاستثناء فيه بأن يقول أنا مسلم ان شاء الله بل يجزم به ـ قال ابن حمدان فى نهاية المبتدئين ، وقيل يجوز ان شرطنا فيه العمل • انتهى • واعلم ان الناس فى الاسلام والايمان على ثلاثة أقوال فالمرجئة يقولون الاسلام أفضل من الايمان قالوا فانه يدخل فيه الايمان ، وآخرون يقولون الايمان والاسلام سواء وهم المعتزلة والخوارج وطائفة من أهل الحديث والسنة بل حكاه محمد بن نصر عن جمهورهم ، والقول الثالث ان الايمان أكمل وأفضل وهذا هو الذى دل عليه الكتاب والسنة فى غير موضع وهم المانور عن الصحابة والتابعين لهم باحسان كما فى شرح الايمان والاسلام لشيخ الاسلام ، وقال : الصحيح ان الاسلام هو الاعمال الظاهرة كلها ، قال: والامام احمد رضى الله عنه انما منع الاستثناء فيه على قول الزهرى مو الكلمـــة هكذا نقل الأثرم والميمونى وغيرهما عنه ، وأما على جوابه الآحر الذى لم يختر فيه قول من قال الاسلام الكلمة فيستثنى فى الاسلام كما يستثنى فى الايمان فان الاسلام لا يجزم بأنه قد فعل كل ما أمر به من الاسلام ولذا

المفاضلة بين الايمـــان والاسلام

قال النبى صلى الله عليه وسلم « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » و « بنى الاسلام على خمس » فجزمه بأنه فعل الخمس بلا نقص كما أمر كجزمه بايمانه فقد قال تعالى (ادخلوا فى السلم كافة) أى فى الاسلام كافة أى فى جميع شرائع الاسلام • قال شيخ الاسلام قدس الله روحه :وتعليل الامام احمد وغيره من السلف فى اسم الايمان يجيء فى اسم الاسلام فاذا أريد بالاسلام الكلمة فلا استثناء فيه كما نص عليه الامام احمد وغيره واذا أريد به فعل الواجبات الظاهرة فالاستثناء فيه كالاستثناء فى الايمان • قال شيخ الاسلام ولما كان كل من أتى بالشهادتين صار مسلما متميزا عن اليهود والنصارى تجرى عليه أحكام الاسلام التى تجرى على المسلمين كان هذا مما يجزم به بلا استثناء فيه • قلت والزيادة والنقصان يترتبان على ذلك وبالله التوفيق • وقد علمت ما عليه السلف وأئمة الدين وهو اعتقاد الطائفة الاثرية من أهل الفرقة الناجية بلامين (١) ولهذا قال :

لا يقال الايمان مخلوق ولا غير مخلوق

((نتابع الاخيار من أهل الاثر ونقتفى الآثار لا أهل الاشر))
((ولا نقل ايماننا مخلوق ولا قديم هكذا مطلوق))
((فانه يشمل للصلاة ونحوها من سائر الطاعات))
((ففعلنا نحو الرجوع محدث وكل قرآن قديم فابحثوا))

---

(١) فى تنبيه ابن سحمان ص ٦٩ ما نصه :
« اعلم وفقك الله انه لا يكفي فى الايمان بالله مجرد الاعتقاد بالقلب فقط فان هذا هو مذهب الجهمية ومن تبعهم من أهل الكلام بل لا بد مع ذلك من نطق اللسان واعتقاد الجنان والعمل بالاركان فان اعتقاد القلب وحده لا يكفى فى النجاة بل هو مخالف لما عليه أهل السنة والجماعة وأئمة الحديث وغيرهم •

قال شيخ الاسلام ابن تيمية قدس الله روحه في كتاب الايمان : ومن هذا الباب أقوال السلف وأئمة السنة في تفسير الايمان فتارة يقولون هو قول وعمل وتارة يقولون هو قول وعمل ونية وتارة يقولون قول وعمل ونية واتباع السنة وتارة يقولون قول باللسان واعتقاد بالقلب وعمل بالجوارح وكل هذا صحيح فاذا قالوا قول وعمل فانه يدخل في القول قول القلب واللسان جميعا وهذا هو المفهوم من لفظ القول والكلام ونحو ذلك ـ الى أن قال : والمقصود هنا أن من قال من السلف الايمان قول وعمل أراد قول القلب واللسان وعمل القلب والجوارح ومن أراد أن لفظ القول لا يفهم

=

((نتابع)) في اعتقادنا الجازم وسيرنا الحازم ((الاخيار من)) الصحابة والتابعين لهم باحسان وأئمة ((أهل الاثر)) على نهج سيد ولد عدنان على مقتضى محكم القرآن ((ونقتفي)) أي نتبع يقال قفوته قفوا اتبعته كتقفيته كما في القاموس • وفي النهاية يقال قفوته وقفيته واقتفيته اذ اتبعته واقتديت به

منه الا القول الظاهر أو خاف ذلك فزاد الاعتقاد بالقلب ، ومن قال قول وعمل ونية قال القول يتناول ذلك ، ومن زاد اتباع السنة فلان ذلك كله لا يكون محبوبا لله الا باتباع السنة وأولئك لم يريدوا كل قول وعمل وانما أرادوا ما كان مشروعا من الاقوال والاعمال ولكن كان مقصودهم الرد على المرجئة الذين جعلوه قولا فقط ، فقالوا بل هو قول وعمل ، والذين جعلوه أربعة فسروا مرادهم كما سئل سهل بن عبد الله التستري عن الايمان ما هو فقال قول وعمل ونية وسنة لأن الايمان اذا كان قولا بلا عمل فهو كفر واذا كان قولا وعملا بلا نية فهو نفاق واذا كان قولا وعملا ونية بلا اتباع سنة فهو بدعة •

قال ابن القيم رحمه الله تعالى في كتاب الصلاة وههنا أصل آخر وهو أن حقيقة الايمان مركبة من قول وعمل والقول قسمان قول القلب وهو الاعتقاد وقول اللسان وهو التكلم بكلمة الاسلام والعمل قسمان عمل القلب وهو نية واخلاص وعمل الجوارح فاذا زالت هذه الاربعة زال الايمان بكماله واذا زال تصديق القلب لم تنفع بقية الاجزاء فان تصديق القلب شرط في اعتقادها وكونها نافعة .. الى آخر كلامه رحمه الله اذ المقصود بهذا التنبيه فمن أراد الكلام بتمامه فليراجعه هناك •

وقال شيخ الاسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في كشف الشبهات ما ذكره بقوله : ولنختم الكلام ان شاء الله بمسألة عظيمة مهمة جدا _ فذكر كلاما ثم قال : فنقول لا خلاف أن التوحيد لا بد أن يكون بالقلب واللسان والعمل فان اختل شيء من هذا لم يكن الرجل مسلما فان عرف التوحيد ولم يعمل به فهو كافر معاند كفرعون وابليس وأمثالهما قال : فان عمل بالتوحيد عملا ظاهرا وهو لا يفهمه ولا يعتقده بقلبه فهو منافق وهو شر من الكافر الخالص. الى آخر كلامه • وكذلك الكفر بالطاغوت لا يكفي في ذلك مجرد اعتقاد القلب فقط كما قال شيخ الاسلام محمد بن عبد الوهاب في كتاب التوحيد :

باب ماجاء أن بعض هذه الامة يعبد الاوثان وقول الله تعالى (ألم تر الى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت) قال في المسائل في معنى الطاغوت (الرابعة) وهي من أهمها ما معنى الايمان بالجبت والطاغوت ؟ هل هو اعتقاد القلب أو هو موافقة أصحابها مع بغضها ومعرفة بطلانها ؟ انتهى •

فاذا تبين لك هذا فاعلم أن اعتقاد بطلان عبادة غير الله لا يكفي في النجاة وحده بل لا بد مع ذلك من تكفيرهم والبراءة منهم ومن دينهم

==

((الآثار)) المأثورة عن الكتاب المنزل والنبى المرسل والصحابة والتابعين لهم باحسان وأئمة الدين من أهل التحقيق والعرفان بالنقل الصحيح والمعنى الصريح فهم أهل الدراية والرواية وأحق الناس بالاصابة والهداية

والتصريح لهم بذلك واظهار العداوة والبغضاء لهم كما قال شيخنا الشيخ عبد الرحمن بن حسن بن علي ما ذكر شيخ الاسلام محمد بن عبد الوهاب بقوله : أصل الاسلام وقاعدته أمران : (الاول) الامر بعبادة الله وحده لا شريك له والتحريض على ذلك والموالاة فيه وتكفير من تركه (الثانى) الانذار عن الشرك في عبادة الله والتغليظ في ذلك والمعاداة فيه وتكفير من فعله ، فذكر كلاما طويلا ثم قال رحمه الله تعالى :

وقد وسم أهل الشرك بالكفر فيما لا يحصى من الآيات فلا بد من تكفيرهم وأيضا هذا هو مقتضى لا اله الا الله كلمة الاخلاص فلا يتم معناها الا بتكفير من جعل لله شريكا في عبادته كما في الحديث الصحيح « من قال : لا اله الا الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه وحسابه على الله» فقوله وكفر بما يعبد من دون الله ـ تأكيد للنفي فلا يكون معصوم الدم والمال الا بذلك فلو شك أو تردد لم يعصم دمه وماله فهذه الامور هى تمام التوحيد لان لا اله الا الله قيدت في الاحاديث بقيود ثقال بالعلم والاخلاص والصدق واليقين وعدم الشك فلا يكون المرء موحدا الا باجتماع هذا كله واعتقاده وقبوله ومحبته والمعاداة فيه والموالاة انتهى » .

ونسوق هنا بقية ما فى تنبيه ابن سحمان وهى تتعلق بموضع سابق من الكتاب وفاتنا أن نعلقها هناك فنستدركها هنا .

قال في ص ٧٣ :

« (قوله) في البصر ولا على سبيل تأثر حاسة :

فأقول اعلم أن هذه اللفظة من جملة الالفاظ المخترعة المبتدعة التى لم ينطق بها السلف رضوان الله عليهم لا نفيا ولا اثباتا فاعلم ذلك

وكذلك ما ذكره الشارح بقوله في السمع والبصر انهما صفتان زائدتان على الذات وهذا القول الذى ذكره الشارح من أقوال أهل البدع كالاشاعرة وغيرهم وكما ذكره شيخ الاسلام عن ابن رشد وغيره واذا كان من المعلوم بالاضطرار أن السمع والبصر من الصفات اللازمة القائمة بذات الرب سبحانه وتعالى فكيف يجوز أن يقال انهما صفتان زائدتان على الذات وهذا من أمحل المحال وأبطل الباطل فان ما كان من الصفات زائدا على الذات لا يكون منها بل يكون مفارقا لها ومن المعلوم ان ما كان مفارقا للذات لا يكون من الصفات القائمة بذاته بل يكون مخلوقا من مخلوقاته تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

وقد قال الشيخ الامام عبد الله بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في رده على الزيدية لما أثبت الصفات اللازمة القائمة بذات الله .

قال الزيدى فان ترد انها تدل على صفات زائدة على الذات لزمك ما لزم الاشاعرة وهو أن يكون مع الله قدماء وهى المعانى التى لحقت ذاته تعالى

=

فمهما بذلنا مجهودنا فى النظر والتحرير لا يكون الا دون ما سلكوه من التحقيق والتنقير ((لا)) نتابع ونقتدى وننحو فى سيرنا ((أهل الاشر)) بفتح الهمزة وسكون الشين (؟) المعجمة فراء الفرح والمرح من كل متحذلق

بالوصف ونحن نبرأ من هذا نحن وأنت ، قال الشيخ عبد الله في جوابه فيقال أهل السنة والجماعة يقولون ان الله تبارك وتعالى موجود كامل بجميع صفاته فاذا قال القائل دعوت الله أو عبدت الله كان اسم الله متناولا للذات المتضمنة لصفاتها ليس اسم الله اسما لذات مجردة عن صفاتها اللازمة لها وحقيقة ذلك انه لا يكون نفسه الا بنفسه ولا تكون ذاته الا بصفاته ولا يكون نفسه الا بما هو داخل في مسمى اسمها ولكن قول القائل انه يلزم أن يكون مع الله قدماء ، تلبيس - فان ذلك يشعر أن مع الله قدماء منفصلة عنه وهذا لا يقوله الا من هو من أكفر الناس وأجهلهم بالله كالفلاسفة لان لفظ الغير يراد به ما كان مفارقا له بوجود أو زمان أو مكان ويراد به ما أمكن العلم به دونه فالصفة لا تسمى غيرا له فعلى المعنى يمتنع أن يكون معه غيره وأما المعنى الثانى فلا يمتنع أن يكون وجوده مشروطا بصفات وأن يكون مستلزما لصفات لازمة له واثبات المعانى القائمة التى يوصف بها الذات لا بد منها لكل عاقل ولا خروج من ذلك الا بجحد وجود الموجودات مطلقا وأما من جعل وجود العلم هو وجود القدرة ووجود القدرة هو وجود الارادة فطرد هذه المقالة يستلزم أن يكون وجود كل شىء هو عين وجود الخالق تعالى وهذا منتهى الاتحاد وهو مما يعلم بالحس والعقل والشرع أنه فى غاية الفساد ، ولا مخلص من هذا الا باثبات الصفات ، مع نفي مماثلة المخلوقات وهو دين الذين آمنوا وعملوا الصالحات - ثم ذكر كلاما طويلا تركناه خشية الاطالة .

وقال الامام أحمد في الرد على الزنادقة : فقالت الجهمية لنا - لما وصفنا الله : هذه الصفات ان زعمتم أن الله ونوره والله وعظمته والله وقدرته فقد قلتم بقول النصارى حين زعمتم أن الله لم يزل ونوره ولم يزل وقدرته فقلنا لا نقول ان الله لم يزل وقدرته ونوره ولكن نقول لم يزل بقدرته وبنور لا متى قدر ولا كيف قدر ؟ وقالوا لا تكونوا موحدين أبدا حتى تقولوا كان الله ولا شىء فقلنا نحن نقول كان الله ولا شىء ، ولكن اذا قلنا ان الله لم يزل بصفاته كلها أليس انما نصف الها واحدا بجميع صفاته وضربنا لهم في ذلك مثلا فقلنا : أخبرونا عن هذه النخلة أليس لها جذوع وكرب وليف وسعف وخوص وجمار واسمها اسم شيء واحد نخلة سميت نخلة بجميع صفاتها فكذلك الله سبحانه وتعالى وله المثل الاعلى بجميع صفاته اله واحد ، ولا نقول انه كان فى وقت من الاوقات ولا قدرة حتى خلق القدرة والذى ليس له قدرة هو عاجز ، ولا نقول قد كان في وقت من الاوقات ولا علم له حتى خلق العلم والذى لا يعلم هو جاهل ولكن نقول لم يزل الله عالما قادرا مالكا لا متى ولا كيف ، وقد سمى الله رجلا كافرا اسمه الوليد بن المغيرة المخزومى فقال : (ذرنى ومن خلقت وحيدا) وقد

ومتشدق ومتعمق ومتودق من فروخ الجهمية وشيوخ المرجئة واتبـــاع الكرامية فهم فى طرف ونحن فى طرف فبيننا وبينهم من البون كما بين الحركة والسكون .

كان هذا الذى سماه الله وحيدا وله عينان واذنان ولسان وشـــفتان ويدان ورجلان وجوارح كثيرة فقد سماه الله وحيدا بجميع صفاته فكذلك الله تعالى وله المثل الاعلى هو بجميع صفاته اله واحد انتهى .

فتبين بما ذكره الامام أحمد أن الله سـبحانه وتعالى اله واحـد بجميع صفاته اللازمة القائمة بذاته ولم يقل ان من هذه الصفات صفة زائدة على ذاته كالسمع والبصر كما ان النخلة بجذوعها وكربها وليفها وسعفهـــا وخوصها نخلة واحدة بجميع هذه الصـــفات لها ولا يمكن في العقل أن السعف والليف زائد ان على مسمى النخلة اذ جعل هذه المسميات من مسمى واحد وليس منها شىء زائد على ذاته والله أعلم .

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى في بدائع الفوائد بعد كلام ســـبق : حلوا لنا شبه من قال باتحادهما ليتم الدليل فانكم أقمتم دليلا وعليكـم الجواب عن المعارض فمنها ان الله وحده هو الخالق وما سواه مخـــلوق فلو كانت أسماؤه غيره لكانت مخلوقة وللزم ألا يكون له اسم في الازل ولا صفة لأن أسماءه صفات وهذا هو السؤال الاعظم الذى قاد متكلمى الاثبات الى أن يقولوا الاسم هو المسمى فما عندكم في دفعه ؟

. والجواب ان منشأ الغلط في هذا الباب من اطلاق ألفاظ مجملة محتملة لمعنيين حق وباطل فلا ينفصل النزاع الا بتفصيل تلك المعـــانى وتنزيل ألفاظها عليها ولا ريب أن الله تبارك وتعالى لم يزل ولا يزال موصـــوفا بصفات الكمال المشتقة أسماؤه منها فلم يزل بصفاته وأسمائه وهو اله واحد له الاسماء الحسنى والصفات العلى وصفاته وأسماؤه داخلـــة في مسمى اسمه وان كان لا يطلق على الصفة وحدها انها اله يخلق ويرزق فليست صفاته وأسماؤه غيره وليست هى نفس الاله . وبلاء القوم من لفظة الغير فانها يراد بها معنيين أحدهما المغاير لتلك الذات المسماة بالله وكل ما غاير الله مغايرة محضة بهذا الاعتبار فلا يكون الا مخلوقا ، ويراد به مغايرة الصفة للذات اذا جردت عنها . فاذا قيل علم الله وكلام الله غيره بمعنى أنه غير الذات المجردة عن العم والكلام كان المعنى صحيحا ولكن الاطلاق باطل فاذا أريد أن العلم هو الكلام (؟) المغاير لحقيقتـــه المختصة التى امتاز بهما عن غيره كان باطلا لفظا ومعنى وبهذا أجاب أهل السنة المعتزلة القائلين بخلق القرآن قالوا كلامه تعالى داخل في مسمى اسمه فالله تعالى اسم للذات الموصوفة بصفات الكمال ومن تلك الصفات صفة الكلام كما ان علمه وقدرته وحياته وسمعه وبصره غير مخلوق ولا يقال انه غير الله فكيف يقال ان بعض ما تضمنه وهو أسماؤه مخـلوقة وهى غيره فقد حصحص الحق بحمد الله وانحسم الاشكال وان أســـماء

=

ولما انتهى الكلام على الايمان وما يتعلق به وذكر خلاف الناس في حقيقته وما يترتب عليه من الزيادة والنقصان والاستثناء ختم الكلام عليه بذكـــر مسئلة عظيمة فقال ((ولا تقل)) أيها الاثرى من الحنابله ومن وافقهم

الحسنى التى في القرآن من كلامه وكلامه غير مخلوق ولا يقال هو غـيره ولا هو هو وهذا المذهب مخالف لمذهب المعتزلة الذين يقولون أسماؤه تعالى غيره وهى مخلوقة ولمذهب من رد عليهم ممن يقول أسماؤه نفس ذاتـه لا غيره وبالتفصيل تزول الشبهة ويتبين الصواب والحمد لله ٠ انتهى ٠

اذا تبين هذا فقد كان معلوما بالاضطرار أن أسماء الله وصفاته مـن الله وانها داخلة في مسمى اسمه لا مغـــابرة له ولا منفصلة عنه ٠ وقال الشيخ عبد الله بن شيخ الاسلام محمد أيضا فى رده على الزيدية بعـد كلام ذكره عن أهل البدع في لفظ الغير : ولهذا أطلق كثير من مثبتـة الصفات عليها انها اغيار للذات وقالوا يقولون (؟) انها غير الذات ولا يقول انها غير الله فان لفظ الذات لا يتضمن الصفات بخلاف اسم الله فانه يتناول الصفات ولهذا كان الصواب على قول أهل السنة أن لا يقال في الصفات انها زائدة على اسم الله بل من قال ذلك فقد غلط عليهم ، واذا قيل هل هى زائدة على الذات أم لا ؟ كان الجواب أن الذات الموجودة فى نفس الامر مستلزمة للصفات فلا يمكن وجود الذات مجردة عن الصفات بل ولا يوجد شيء من الذوات مجردا عن جميع الصـــفات بل لفظ الذات تأنيث (ذو) ولفظ (ذو) مستلزم للاضافة وهذا اللفظ مولد واصـــله أن يقال ذات علم وذات قدرة وذات سمع كما قال الله تعالى (فاتقوا الله واصلحوا ذات بينكم) ويقال فلانة ذات مال وجمال ثم لما علموا أن نفس الرب ذات علم وقـدرة وسمع وبصر ردا على من نفى صفاتها عرفوا لفظ الذات وصار التعريف يقوم مقام الاضافة بحيث اذا قيل لفظ الذات فهـو ذات كذا فالذات لا يكون الا ذات علم قدرة ونحوه من الصفات لفظا ومعنى وانما يريد محققو أهل السنة بقولهم الصفات زائدة على الذات انها زائدة على ما أثبته نفاة الصفات من الذات فانهم أثبتوا ذاتا مجردة لا صفات لها فأثبت أهل السنة الصفات زائدة على ما أثبته هؤلاء فهى زائدة في العلم والاعتقاد والخبر لا زيادة على نفس الله جل جلاله بل نفسه المقدســـة متصفة بهذه الصفات لا يمكن ان تفارقها ولا توجد الصفات بدون الذات ولا الذات بدون الصفات والمقصود هنا بيان بطلان كلام هذا المعترض ٠

اذ تأملت هذا فاعلم ان ما قاله محققو أهل السنة حيث قالوا ان الصفات زائدة على الذات انما مرادهم بذلك انها زائـدة على ما أثبته نفاة الصفات من الذات فانهم أثبتوا ذاتا مجردة لا صفات لها ومقصود أهل السنة انهـــا زائدة على ما اثبته هؤلاء النفـاة فهى زيادة فى العلم والاعتقاد والخـبر لا زيادة على نفس الله جل جلاله بل نفس مقدسة متصفة بهذه الصفـات لا يمكن أن تفارقها ولا توجد الصفات بدون الذات ولا الذات بدون الصفات كما تقدم بيانه ٠ اذا تحققت هذا فتخصيص الشارح السمع والبصر بأنهما

==

((ايماننا)) الذى هو قول باللسان وعقد بالجنان وعمل بالاركان ((مخلوق)) لدخول الاعمال فيه التى من جملتها الصلاة المشتملة على فاتحة الكتاب القديم ولدخول الاقوال التى من جملتها لا آله الا الله كلمة الاخلاص التى هى من كلام الله تعالى (فاعلم انه لا آله الا الله) ((ولا)) تقل أيها الاثرى ايماننا ((قديم هكذا مطلوق)) عن القيود لدخول أفعالنا من الركوع والسجود والقيام والقعود وأعمال القلوب ونحو ذلك ((فانه)) أي الايمان ((يشمل للصلاة)) المشروعة فرضا كانت أو نفلا ((و)) يشمل ((نحوها)) أى نحو الصلاة ((من سائر)) أى بقية ((الطاعات)) التى يتقرب العبد بها الى ربه وسائر العبادات التى يأتى بها لغفران ذنبه وانارة قلبه • والطاعات جمع طاعة مأخوذة من طاع يطوع اذا انقاد وهى فى اصطلاح الفقهاء عبادة غير واجبة والمراد هنا كل عبادة والعبادة ما أمر به شرعا من غير اطراد عرفى ولا اقتضاء عقلى وحينئذ يجب التفصيل وهو ما أشير اليه بقوله ((ففعلنا)) معشر الخلق ((نحو الركوع)) والسجود فى الصلاة من القيام والقعود وسائر أفعال الخلق ((محدث)) لانه مسند اليه ومنسوب ومضاف الى فعله والله خالق لافعال العباد ، وللعبد فعل ينسب اليه ومنسوب تقدم ((وكل)) ماكان من ((قرآن)) فهو ((قديم)) (١) غير مخلوق لان

صفتان زائدتان على الذات تخصيص لا أدرى ما مقصوده بذلك وأهل السنة أطلقوا لفظ الصفات ولم يخصوا السمع والبصر فتأمل ذلك مع أن الاجمال والاطلاق فيهذاالموضع وغيره من غير تفصيل ولا تبيين لما أرادوه من اثبات الصفات الزائدة على ما أثبته النفاة من الذات يوهم من لا معرفة له بكلام أهل السنة رضوان الله عليهم أن المقصود بذلك انها زائدة على نفس الله جل جلاله وهذا من أبطل الباطل وأمحل المحال وقد قال ابن القيم رحمه الله في الكافية الشافية :

فعليك بالتبيين والتفصيل فال
اطلاق والاجمال دون بيان

كمأفسدا هذا الوجود وخبطا ال
آراء والاذهان كل زمان

ثم لا يخفى عن المحب أن أهل السنة لم يقولوا أن الصفات زائدة على الذات فقط كما توهمه الشارح وانما قالوا انها زائدة على ما أثبته النفاة من الذات لانهم انما أثبتوا ذاتا مجردة عن الصفات فتأمل ذلك والله أعلم.

(١) راجع التعليق على بحث القرآن

كلام الله قديم كما مر البحث فيه فى محله مستوفيا ، وقوله ((فابحثوا)) أتى به لتتمة البيت والبحث التفتيش والطلب والتنقيب والتقصى عـــن دقائق المعانى ، فكل من ادخل الاعمال فى الايمان فلا يسوغ له اطلاق اسم الحدوث ولا القدم على الايمان بل لا بد من هذا التفصيل ، وأما من لم يدخل الاعمال فيه كالاشاعرة فيقولون الايمان عندهم مخلوق وهذا لا يتمشى على أصولنا • قال سيدنا الامام احمد رضى الله عنه : من قال الايمان مخلوق كفر ومن قال غير مخلوق ابتدع • فقيل بالوقف مطلقا وقيل أقواله قديمة وأفعاله مخلوقة • قال ابن حمدان فى نهاية المبتدئين وهو أصبح ، ونقله عن ابن أبى موسى وغيره • ونقل الامام الحافظ ابن رجب فى طبقات الاصحاب فى ترجمة الحافظ عبد الغنى المقدسى قدس الله روحه ما لفظه قال روى عن امامنا احمد رضى الله عنه انه قال من قال الايمان مخلوق فهو كافر ومن قال قديم فهو مبتدع • قال الحافظ عبد الغنى وانما كفر من قال بخلقه لان الصلاة من الايمان وهى تشتمل على قراءة وتسبيح وذكر الله عز وجل ومن قال بخلق ذلك كفر ، وتشتمل على قيام وقعود وحركة وسكون ومن قال بقدم ذلك ابتدع • انتهى • بحروفه والله تعالى الموفق

***

تتمة فى الكرام الكاتبين

((تتمة)) ألحق علماؤنا فى آخر هذا الباب ذكر الملكين الموكلين بالعبد يكتبان أفعاله وكأنهم نظروا لمناسبة ذلك للأحكام وكونه مما يجب الايمان به والا فكان الانسب ذكر ذلك فى الباب الآتى فى السمعيات لانه منها فلهذا قال :

((ووكل الله من الكـــــرام	اثنين حافظـــــين لـــلآنام))
((فيكتبان كل أفعـــال الورى	كما أتى فى النص من غير امترا))

((ووكل الله)) سبحانه وتعالى ((من)) الملائكة ((الكرام)) وصفهم بالكرم لما جاء فى الكتاب والسنة كما سيأتى ، والحق ان الملائكة عليهـــم السلام ذوات قائمة بأنفسها قادرة على التشكل بالقدرة الالهية كما ثبت فى الاحاديث الصحيحة عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال العلامة ابن حمدان فى نهاية المبتدئين وتغير صور الملائكة والجن والشياطين الى الله

تعالى لا اليهم • وقد حكى غير واحد من محققى العلماء الاتفاق على أن الملائكة لا يأكلون ولا يشربون ولا ينكحون يسبحون الليل والنهار لا يفترون ((اثنين)) مفعول وكل ((حافظين للأنام)) كسحاب وبالمد والانيم كأمير الخلق من الجن والانس وجميع ما على وجه الارض والمراد هنا من الانس ((فيكتبان)) يعنى الملكين الحافظين ((كل أفعال الورى)) كفتى الخلق ((كما أتى فى النص)) القرآنى كما فى قوله تعالى (وان عليكم لحافظين كراما كاتبين يعلمون ما تفعلون) وقال تعالى (عن اليمين وعن الشمال قعيد * ما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد) ((من غير امترا)) أى من غير شك وهو مشتق من المماراة والمرية بالضم والكسر الشك والجدل يقال ماراه مماراة ومراء ، وامترى فيه وتمارى شك كمافى القاموس وامتراه حقه جحده • وفى نهاية ابن الاثير فى الحديث « لاتماروا فى القرآن فان مراء فيه كفر » قال المراء الجدال والتمارى والمماراة المجادلة على مذهب الشك والريبة ويقال للمناظرة مماراة لان كل واحد منهما يستخرج ما عند صاحبه ويمتريه كما يمترى الحالب اللبن من الضرع • قال أبو عبيد فى توجيه الحديث المذكور ليس وجه الحديث عندنا على الاختلاف فى التأويل ولكنه على الاختلاف فى اللفظ وهو أن يقرأ الرجل على حرف فيقول الرجل ليس هو كذا ولكنه على خلافه ، وكلا هما منزل مقروءة فيهما فاذا جحد كل منهما قراءة صاحبه لم يؤمن أن يكون ذلك يخرجه الى الكفر لانه نفى حرفا أنزله الله على نبيه • والتنكير فى المراء فى الحديث ايذانا بأن شيئا منه كفر فضلا عما زاد عليه • وقيل انما أراد الجدال والمراء فى الآيات التى فيها ذكر القدر ونحوه من المعانى على مذاهب أهل الكلام وأصحاب الاهواء والآراء دون ماتضمنته من الاحكام وأبواب الحلال والحرام فان ذلك قد جرى بين الصحابة فمن بعدهم من العلماء وذلك فيما يكون الغرض منه والباعث عليه ظهور الحق ليتبع دون الغلبة والتعجيز والله أعلم •

قال علماؤنا ـ منهم ابن حمدان فى نهاية المبتدئين : الرقيب والعتيد ملكان موكلان بالعبد يجب أن نؤمن بهما ونصدق بأنهما يكتبان أفعاله كما قال

تعالى (عن اليمين وعن الشمال قعيد * ما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد) وقوله (وان عليكم لحافظين كراما كاتبين يعلمون ماتفعلون) ولا يفارقان العبد بحال وقيل بل عند الخلاء ، وقال الحسن ان الملائكة يجتنبون الانسان على حالين عند غائطه وعند جماعه ، ومفارقتهمـا للمكلف؟ حينئذ لا تمنع من كتبهما ما يصدر منه فى تلك الحال كالاعتقاد القلبى يجعل الله لهما امارة على ذلك ، قال سيدنا الامام احمد رضى الله عنه : للعبد ملائكة يحفظونه بأمر الله تعالى -يشير الى قوله تعالى(له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله) قال العلامة الشيخ عبد الرحمن العليمى العمرى الحنبلى فى تفسيره للقرآن العظيم المسمى بفتح الرحمن فى تفسير القرآن ، العظيم المسمى بفتح الرحمن فى تفسير القـرآن : التعقيب العـود بعـد البدء وانما ذكر بلفظ التأنيث لان المـراد الجمـاعات التى بعقب بعضها بعضا • وقوله « يحفظونه من أمر الله » من المضار ويرافبون أحواله من أجل أمر الله فاذا جاء القدر خلوا عنه • وقال البيضاوى يحفظونه من أمر الله من بأسه متى اذنب بالامهال والاستغفار أو يحفظونه من المضار أو يراقبون أحواله من أجل أمر الله وقد قرىء به وقيل « من » بمعنى الباء • وقال فى قوله معقبات : التاء للمبالغة أو لأن المراد بالمعقبات جماعات وقرىء معاقيب جمع معقب أو معقبة على تعويض الياء من أحد القافين • انتهى • وفى صحيح البخارى : معقبات ملائكة حفظة تعقب الاولى منهما الاخرى ومنه قيل المعقب أى عقيب فى أثره • قال ابوعبيدة أى ملائكة تعقب بعد ملائكة حفظة بالليل تعقب بعد حفظة النهار وحفظة النهار تعقب بعد حفظة الليل • وروى الطبرى باسناد حسن عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى (له معقبات من بين يديه ومن خلفه) قال ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه فاذا جاء قدره خلوا عنه • وأخرج من طريق ابن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله (من أمر الله) أى باذن الله • فالمعقبات هى من أمر الله وهى الملائكة • ومن طريق سعيد بن جبير عنه قال : حفظهم اياه بأمر الله • ومن طريق ابراهيم النخعى قال : يحفظونه من الجن • ومن طريق كعب الاحبار قال لولا ان الله وكل بكل ملائكة

يذبون عنكم فى مطعمكم ومشربكم وعوراتكم لتخطفتم • وأخرج الطبرانى من طريق كنانة العدوى أن عثمان سأل النبى صلى الله عليه وسلم عن عدد الملائكة الموكلة بالآدمى فقال : لكل آدمى عشرة بالليل وعشرة بالنهار واحد عن يمينه وآخر عن شماله واثنان من بين يديه ومن خلفه واثنان على جنبه وآخر قابض على ناصيته فان تواضع رفعه وان تكبر وضعه واثنان على شفتيه ليس يحفظان عليه الا الصلاة على محمد والعاشر يحرسه من الحية أن تدخل فاه - يعنى اذا نام • قال الحافظ ابن حجر فى فتح البارى وجاء فى تأويل ذلك قول آخر رجحه ابن جرير فاخرج باسناد صحيح عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى (له معقبات) قال ذكر ملكا من ملوك الدنيا له حرس ومن دونه حرس • ومن طريق عكرمة فى قوله لهمعقبات: قال : المواكب•وفى الصحيح عن النبى صلىالله عليه وسلم أنه قال«يتعاقبون فيكم : ملائكة بالليل وملائكة بالنهار » • وفى بعض التفاسير فى قوله تعالى (ان كل نفس لما عليها حافظ) وكل بالمؤمن مائة وستون ملكا يذبون عنه مالم يقدر عليه ، للبصر من ذلك سبعة أملاك يذبون عنه كما يذب عن قصعة العسل الذباب ، ولو وكل العبد الى نفسه طرفة عين لاختطفته الشياطين ، وذكره فى كنز الاسرار من حديث أبى امامة رضى الله عنه مرفوعا • قال العلامة الشيخ مرعى فى بهجته : واما الملائكة الكاتبون فقيل أربعة اثنان بالليل واثنان بالنهار ، وقيل خمسة واحد لا يفارق فى ليل ولا نهار • انتهى • والمشهور انهما اثنان لكل واحد ، قال الضحاك مجلس الملكين تحت الشعر على الحنك • ومثله عن الحسن • وكان الحسن يعجبه ان ينظف عنفقته • وعنه عليه السلام « مقعد ملكيك على شفتيك ولسانك قلمهما وريقك مدادهما وأنت تجرى فيما لا يعنيك ولا تستحى من الله ولا منهما » • وعنه عليه الصلاة والسلام « كاتب الحسنات عن يمين الرجل - يعنى الشخص - وكاتب السيئات عن يساره وكاتب الحسنات أمير على كاتب السيئات فاذا عمل الشخص حسنة كتبها صاحب اليمين عشرا ، واذا عمل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال دعه سبع ساعات لعله يسبح أو يستغفر » • ونقل الحافظ ابن رجب فى شرح الاربعين النووية عن شويس

العدوى وكان من قدماء التابعين أن صاحب اليمين أمير - أو دال أمين - على صاحب الشمال فاذا عمل ابن آدم سيئة فأراد صاحب الشمال أن يكتبها قال له صاحب اليمين لا تعجل لعله يعمل حسنة ، فان عمل حسنة ألقى واحدة بواحدة وكتب له تسع حسنات فيقول الشيطان يا ويله من يدرك تضعيف ابن آدم . وقال واحد وهو المشهور أن أحد الملكين على عاتق الانسان الايمن وهو كاتب الحسنات والآخر على عاتقه الايسر ، وان كاتب الحسنات له امارة على كاتب السيئات فلا يمكنه من كتبها الا بعد مضى ست ساعات من غير توبة من المكلف أو استغفار أو فعل مكفر لها مع مبادرته بكتب الحسنات فورا ، والذى رواه البغوى من حديث أبى أمامه رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « كاتب الحسنات على يمين الرجل وكاتب السيئات على يسار الرجل وكاتب الحسنات أمير على كاتب السيئات : دعه سبع ساعات لعله يسبح لله او يستغفر .

فوائد (الاولى)

فوائد الاولى فيما يكتبه الملكان

اختلف فيما يكتب الملكان فقال عكرمة لا يكتبان الا ما يؤجر عليه أو يوزر عليه . انتهى . وظاهر النص أنهما يكتبان أفعال العباد من خير أو شر أو غيرهما قولا كان أو عملا أو اعتقادا هما كانت أو عزما أو تقريرا فلا يهملان من أفعال العباد شيئا فى كل حال وعلى كل حال ، ولهذا قال مجاهد يكتبان عليه حتى أنينه فى مرضه . فقوله تعالى (مايلفظ من قول الا لديه) أى عنده (رقيب) أى حافظ يرقب أعماله ويحفظها (عتيد) أى حاضر معه أين ماكان . قال الامام مالك يكتبان على العبد كل شىء حتى أنينه فى مرضه - كقول مجاهد - محتجا بقوله تعالى (مايلفظ من قول) فافادة العموم بطريق وقوع النكرة فى سياق النفى ، وحينئذ يدخل فى العبد الكافر لانه تضبط عليه أعماله وأنفاسه . قال الامام النووى الصواب الذى عليه المحققون بل نقل فيه بعضهم الاجماع أن الكافر اذا فعل أفعالا جميلة كالصدقة وصلة الرحم ثم أسلم ومات على الاسلام أن ثواب ذلك يكتب له ، ودعوى كونه مخالفا للقواعد غير مسلم . انتهى . قال بعضهم وضابط

ذلك الطاعات التى لا تتوقف صحتها على نية وقد سلم ذلك له ابن حجر وابن المنير وابن بطال وغيرهم • وممن نص على أن للكافر حفظه بعض المالكية ، قال بعضهم : وهو الذى لا يصح غيره • وهو الجارى على القول بتكليفهم بفروع الشريعة وهو معتمد الثلاثة خلافا لابى حيفة • والصحيح من مذهبنا كالمالكية كتب حسنات الصبى ، قال علماؤنا يكتب له ولا يكتب عليه فيكون عليه حفظة بخلاف المجنون لانه لا يكتب له ولا عليه •والصحيح كتبهم الصغائر المغفورة وان غفرت باجتناب الكبائر ، قال الحافظ ابن رجب رحمه الله : لا تمحى الذنوب من صحائف الاعمال بتوبة ولا غيرها بل لا بد أن يوقف عليها صاحبها ويقرأها يوم القيامة • واستدل بقوله تعالى (ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه) الآية وبقوله تعالى (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره * ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره) (وقالو يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيره الا أحصاها) • وقد ذكر بعض المفسرين أن هذا القول هو الصحيح عند المحققين وقد روى هذا القول عن الحسن البصرى وبلال بن سعد الدمشقى ، قال الحسن فى العبد يذنب ثم يتوب ويستغفر : يغفر له ولكن لا يمحاه من كتابه دون أن يقفه عليه ثم يسأله عنه ، ثم بكى الحسن بكاء شديدا وقال لو لم نبك الا للحياء من ذلك المقام لكان ينبغى لنا أن نبكى • وقال بلال بن سعد ان الله يغفر الذنوب ولكن لا يمحاها من الصحيفة حتى يوقفه عليها يوم القيامة وان تاب

الفائدة الثانية اذا رفع الملكان صحيفة بدئت وختمت بخير

(الثانية) جاء فى حديث أبى هريرة وأنس رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال « ما من حافظين يرفعان الى الله تعالى ما حفظا فيرى الله تعالى فى أول الصحيفة خيرا وفى آخرها خيرا الا قال للملائكة اشهدوا انى قد غفرت لعبدى ما بين طرفى الصحيفة » أخرجه الطبرانى وغيره قال الحافظ ابن رجب : وهو موجود فى بعض نسخ كتاب الترمذى• وفى حديث آخر مرفوع « ابن آدم اذكرنى من اول النهار ساعة ومن آخر النهار ساعة أغفر لك مابين ذلك الا الكبائر أو تتوب منها » وقال ابن المبارك: من ختم نهاره بذكر الله كتب نهاره كله ذكرا يشير الى أن الاعمـــــال

بالخواتيم . قال الحافظ ابن رجب : فاذا كان البداية والختام ذكرا فهو أولى أن يكون حكم الذكر شاملا للجميع . انتهى .

الثالثة هل يكتب انين المريض

(الثالثة) قوله فى الخبر حتى أنينه فى مرضه ربما أشعر بأنه مما يكتبه كاتب السيئات لانه يكتب كل ما أهمله كاتب الحسنات ، ويدل له قول علمائنا يكره الانين قال فى الفروع : على الاصح لانه يترجم عن الشكوى مالم يغلبه مع انه جاء فى حديث « المريض أنينه تسبيح وصياحه تكبير ونفسه صدقة ونومه عبادة وتقلبه من جنب الى جنب جهاد فى سبيل الله » لكن قال الحافظ ابن حجر انه ليس بثابت . وقد روى الامام احمد فى الزهد عن طاوس انه قال أنين المريض شكوى . قال ابن حجر فى شرح البخارى وقد جزم أبو الطيب ابن الصباغ وجماعة من الشافعية ان انين المريض وتأوهه مكروه ، وتعقبه الامام النووى فقال : هذا ضعف أو باطل فان المكروه ما ثبت فيه نهى مقصود وهذا لم يثبت فيه ذلك . ثم قال فلعلهم أرادوا بالكراهة خلاف الاولى فانه لا شك أن اشتغاله بالذكر أولى .انتهى. قال الحافظ ابن حجر ولعلهم أخذوه بالمعنى من كون كثرة الشكوى تدل على ضعف اليقين وتشعر بالتسخط للقضاء وتورث شماتة الاعداء . انتهى .

الرابعة اذا مات الانسان بقى حافظاه على قبره

(الرابعة) جاء فى الاحاديث ان الحافظين يقيمان على قبر المؤمن يسبحان الله تعالى ويهللانه ويكبرانه ويكتب ثوابه للميت الى يوم القيامة وانهما يلعنان الكافر ، ففى حديث أبى بكر الصديق رضى الله عنه مرفوعا « اذا قبض العبد المؤمن صعد ملكاه الى السماء فقال الله لهما وهو أعلم ماجاء بكما؟ فيقولان رب قبضت عبدك ، فيقول لهما ارجعا الى قبره فسبحانى واحمدانى وهللانى الى يوم القيامة فانى قد جعلت مثل أجر تسبيحكما وتحميدكما وتهليلكما له ثوابا منى ، فاذا كان العبد كافرا فمات صعد ملكاه الى السماء فيقول الله لهما ماجاء بكما ؟ فيقولان رب قبضت عبدك وجئناك ، فيقول لهما ارجعا الى قبره فالعناه الى يوم القيامة فانه كذبنى وجحدنى وانى جعلت لعنتكما عذابا أعذبه به يوم القيامة » وروى أيضا من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه مرفوعا وفيه « فاذن لنا أن نسكن السماء فيقول سمائى مملوءة من ملائكتى يسبحونى فيقولان أئذن لنا نسكن الارض

فيقول ارضى مملوءة من خلقى يسبحونى ولكن قوما على قبره فسبحانى واحمدانى وهللانى واكتباه لعبدى الى يوم القيامة » وروى أيضا من حديث أنس رضى الله عنه كلفظ حديث أبى سعيد ، وقد أورده الحافظ ابن الجوزى فى كتابه الموضوعات بطرقه الثلاثة وحكم عليه بالوضع وتعقبه جلال الدين السيوطى بما حاصله ان الحديث قد أخرجه البيهقى فى كتابه شعب الايمان وقال : فيه ابن مطر ليس بالقوى . ثم انه لم ينفرد به فقد تابعه عن ثابت البنانى حماد وأخرجه أيضا البيهقى والهيثم بن حماد وأخرجه ابن أبى الدنيا فى ذكر الموت ،قال الحافظ البيهقى: وله شاهد آخر عن أنس ، ثم روى باسنادين عنه نحوه مرفوعا .وقال الشيخ ولى الدين العراقى فى فتاويه المكية فى حديث أبى سعيد : فيه عطية العوفى ضعيف لكن ليس بكذاب ، وقد رواه عنه مسعر وهو امام جليل فان وجد له شاهد قوى عنده . انتهى . (فها أنت ترى له شواهد عدة . انتهى - ١) وقد ذكرت مافيه فى مختصر الموضوعات وبالله التوفيق

---

(١) من مغ .

خاتمة الطبـــع

قد تم طبع الجزء الاول من كتاب لوامع الانوار البهية وسواطع الاسرار الاثرية لشرح الدرة المضية فى عقد الفرقة المرضية ، كلاهما للشيخ العلامة محمد بن احمد السفارينى ويليه الجزء الثانى أوله الباب الرابع فى ذكر بقية السمعيات الخ •

والحمد لله رب العالمين

فهرس الجزء الاول

من لوائح الانوار البهية ، وسواطع الاسرار الاثرية لشرح الدرة المضية ، فى عقد الفرقة المرضية ، للعالم الطويل الباع الواسع الاطلاع صاحب البرهان الجلى ، الشيخ محمد بن احمد السفارينى الاثرى الحنبلى أكرمه الله بلطفه الخفى والجلى آمين

صفحة

صفحة

صفحة

(١) فى أواخر كلامه ما يقتضى انها سبع كما ياتى ٠

---

(١) فى صنيع المؤلف ما يقتضى أن الفرق الكبرى سبع فالخامسة النجارية والسادســة الجبرية والسابعة المشبهة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

استدراك ما وقع فى طبع الجزء الاول من شرح العقيدة السفارينية من الخطأ :

صفحة	سطر	فى المطبوع	الصواب
٢٣	١٣	الصائبة	الصابئة
٢٧	بالهامش	اصلاح	اصطلاح
٣٧	١٠	ياللسان	باللسان
٤٩	١٣	ان	ان
٥٠	١٦	لقائها	لقائلها
٥٧	٢٣	(١)	(٤)
٦٤	٣	عبد الله	عبد الله (١)
٦٤	٣	ـ ١)	ـ ٢)
٦٤	٦	باصيله	بأصليه
٦٤	١٢	اى انسان	اى اى انسان
٦٤	تعليق	(١) ليس	(كذا وقال غيره صـــنيه بنت ميمونة بنت عبد الملك (٢) ليس
٧٠	٢٣	بجوز	يجوز
٧٣	١	بن عطاء	ابن عطاء
٩٩	٣	سيفيان	سفيان
١٠٥	هامش	على	عن
١١٢	١٩	اذلا	ازلا
١١٦	(٤)	ذلك	ذلك (١)
١١٦	تعليق		راجع التعليق على ص١١٢
١١٨	٢	اعلم	اعلم
١٢٠	٦	الجاميع	الجميع
١٤٥	١٥	حادئة	حادثة
١٤٥	١٨	لكلام	الكلام
١٤٧	١٩	فان	ان
١٥٥	١٠	لزوم	لزم
١٥٥	١٨	والنتخصيص	والتخصيص
١٥٩	٩	لمعتزلة	المعتزلة
١٦١	١٠	منحديا	متحدتا
١٦٢	١٢	نزلوا	دزلنا
١٦٢	١٧	اليه	اليك
١٦٥	١٤	اثبت	اثبتت
١٦٦	٢١	واعجمى	اعجمى
١٦٧	٩	وهذ	وهذا
١٧٤	١٦	الاسلال	الاسلام
١٧٥	١	للمادة	للعادة
١٧٧	١٧	المنعوت	المنعوت (٢)

صفحة	سطر		الصواب
١٧٧	تعليق	المتن	المتن (٢) لعلة المبعوث
١٨١	هامش	فولد	قوله
١٩٧	١٠	وانه	واني
٢٠٠	١٠	عند	عنه
٢٠٨	١٢	يركبون	تركبون
٢١٩	١٢	بعد	به
٢٢٧	٢٤	(١)	١
٢٥٦	١٤	الصحيحيين	الصحيحين
٢٩٢	٧	الحاثة	الحادثة
٣٠٣	١٦	سىء	شيء
٣٣٢	١٤	رفطرة	وفطرة
٣٦٨	٢	الذنب • والاثم	الذنب والاثم
٣٧١	١٦	ا توحيد	التوحيد
٤١٢	١٦	با لله	بالله
٤١٥	١٤	وا لذكر	والذكر
٤٣٨	٢٠	وهم	وهو
٤٤٣	٢٣	الآسماء	الاسماء
٤٤٨	الاخير	بكل	بكم

لوامع

الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية

شرح

الدرة المضية في عقيدة الفرقة المرضية

تأليف

العلامة الشيخ محمد بن أحمد السفاريني

الجزء الثاني

تنبيه

عليها تعليقات مفيدة للعلماء الأجلاء الأعلام:

الشيخ عبد الرحمن أبا بطين

الشيخ سليمان بن سحمان

ونقول

من كتب شيخ الاسلام ابن تيمية وتلميذه العلامة ابن القيم

المكتب الإسلامي
بيروت

دار الخاني
الرياض

بسم الله الرحمن الرحيم

البـــاب الرابع

الباب الرابع فى بعض السمعيات

((فى ذكر بعض السمعيات من ذكر البرزخ والقبور وأشرطة الساعة والحشر والنشور))

المـــراد بهـا ما طريق العلم بـه النصوص الشرعية

اعلم ان المراد بالسمعيات ما كان طريق العلم به السـمع الوارد فى الكتاب أو السنة والآثار مما ليس للعقل فيه مجال ، ويقابله ما يثبت بالعقل وان وافق (١) النقل،فما كان طريق العلم به العقل يسمى العقليات والنظريات ولهذا يقال لعلماء هذا الشأن النظار ، وقد اشار الى ذكر المقصود من ذلك بقوله :

((وكل ما صح من الأخبار أو جاء فى التنزيل والآثار

((من فتنة البرزخ والقبور وما أتى فى ذا من الأمور))

((وكل ما)) أى حكم من الاحكام أو خبر عن خير الأنام صـلى الله عليه وسلم ولهذا قال ((صح من الاخبار)) أى ثبت من الاخبـار النبوية وقدمه لمزيد الاهتمام به ولئلا يظن ظان ان مالم يثبت فى التنزيل ليس عليه مزيد تعويل ((أو جاء فى التنزيل)) أى القرآن المنزل على النبى المرسل صلى الله عليه وسلم ((و)) كل ما صح فى ((الآثار)) السلفية عن الصحابة الكرام مما ليس للعقل فيه مرام فانه يشعر بأنهم انما تلقوه عن النبى صلى الله عليه وسلم ((من فتنة)) الفتنة الامتحان والاختبار قال فى القـاموس الفتنة بالكسر الخبرة والفتانان الدرهم والدينار ومنكر ونكير والفتـان الشيطان لانه يفتن الناس عن الدين وفتان من أبنية المبـالغة من الفتنة وفى حديث الكسوف : وانكم تفتنون في القبور : يريد مسألة منكر ونكير وقد كثرت الاحاديث عن النبى صلى الله عليه وسلم باستعاذته من فتنة القبـر

تفسير الفتنـة

وفتنة الدجال وفتنة المحيا والممات وغير ذلك ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم « فبى تفتنون وعنى تسألون » اى تمتحنون بى في قبوركم ويعرف (١) ايمانكم بنبوتى «البرزخ» قال فى القاموس البرزخ الحاجز بين الشيئين ومن وقت الموت الى القيامة من مات دخله • وفى النهاية البرزخ ما بين كل شيئين من حاجز ومنه حديث عبدالله وسئل عن الرجل يجد الوسوسة فقال تلك برازخ الايمان - يريد ما بين أوله وآخره فأولها الايمان بالله ورسوله وأدناها اماطة الاذى عن الطريق ، وقيل اراد ما بين اليقين والشك• والبرازخ جمع برزخ وفى الآية الكريمة (بينهما برزخ لا يبغيان) أى حاجز يمنعهما من ان يختلط احدهما بالآخر ووجه تسمية ما هنا برزخا لكونه يحجز بين الدنيا والآخرة « و » فتنة « القبور » جمع قبر وهو من عطف الخاص على العام لأن احوال البرزخ تشتمل على ذلك فالقبور جمع قبر جمع كثرة وجمعه أقبر فى القلة ويقال لمدفن الموتى مقبر قال الشاعر :

معنى البرزخ

القبر واول من سنه

لكل أناس مقبر فى فنائهم فهم ينقصون والقبور تزيد

والمقبرة موضع دفن الموتى وتضم باؤها وتفتح • قال القرطبى اختلف فى أول من سن القبر فقيل الغراب لما قتل قابيل هابيل وقيل ان قابيل كان يعلم الدفن ولكن ترك أخاه استخفافا به فبعث الله الغراب ليبحث فى الارض يعنى التراب على هابيل ليدفنه - كذا في التذكرة فقال عند ذلك (يا ويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوأة أخى فاصبح من النادمين) حيث رأى كرامة الله لهابيل بأن قيض الله الغراب حتى واراه ولم يكن ذلك ندم توبة • وقيل كان ندمه على عدم معرفة الدفن ولذا قال ابن عباس رضى الله عنهما لو كان ندمه على قتله لكان ندمه توبة • وقيل انه لما قتله قعد يبكى على رأسه فأقبل غرابان فاقتتلا فقتل أحدهما الآخر ثم حفر له حفرة فدفنه ففعل قابيل بأخيه كذلك فكان ندمه لعدم هدايته ان يفعل كما فعل الغراب فصار الدفن سنة فى بنى آدم • وفى التنزيل (ثم أماته فأقبره) أى جعل له قبرا يوارى فيه اكراما له ولم يجعل مما يلقى على وجه الارض

---

(١) مخ « ويعرف »

تأكله الطير والعوافي . وقوله « وما » اى وفي الذى او الاشياء أى والهول الذى « أتى » عن الصادق المصدوق « في ذا » اسم اشارة يرجع الى ما تقدم من فتنة البرزخ والقبور « من الامور » المهولة العجيبة والاشياء الصعبة الغريبة فانه حق لا يرد .

أمور ما بعد الموت الأمر الأول سؤال منكر ونكير وبيان ذلك

(منها) سؤال الملكين منكر ونكير فالايمان بذلك واجب شرعا لثبوته عن النبى صلى الله عليه وسلم في عدة اخبار يبلغ مجموعها مبلغ التواتر وقد استنبط ذلك واستدل عليه بقوله تعالى (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء) وأخرج الشيخان من حديث البراء بن عازب رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم قال في قوله تعالى (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت) نزلت في عذاب القبر - زاد مسلم « يقال له من ربك فيقول ربى الله ونبيى محمد » فذلك قوله (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت) وفي رواية للبخارى « اذا اقعد المؤمن في قبره أتى ثم شهد ان لا اله الا الله وان محمدا رسول الله فذلك قوله يثبت الله » الآية . وفى الطبرانى عن البراء ايضا مرفوعا « يقال للكافر من ربك فيقول لا أدرى فهو تلك الساعة أصم أعمى أبكم فيضرب بمرزبة (١) لو ضرب بها جبل لصار ترابا » الحديث . وعند أبى داود » يأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له من ربك ؟ فيقول ربى الله ، فيقولان له ما دينك فيقول دينى الاسلام ، فيقولان له ما هذا الرجل الذى بعث فيكم ؟ فيقول قرأت كتاب الله تعالى فآمنت به وصدقت ، فينادى مناد من السماء ان صدق عبدى فأفرشوه من الجنة وافتحوا له بابا الى الجنة وألبسوه من الجنة ، ويفسح له فيه مد بصره » وقال في الكافر فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له من ربك ؟ فيقول هاه هاه لا أدرى - الى ان

---

(١) - جاء فى هامش الاصل ما نصه : فى النهاية ما نصه فى حديث أبى جهل فاذا رجل أسود يضربه بمرزبة فيغيب فى الارض . المرزبة بالتخفيف المطرقة الكبيرة التى للحداد ومنه حديث الملك وبيده مرزبة ويقال لها أيضا الارزبة بالهمز والتشديد . انتهى . وفى القاموس والارزبة والمرزبة مشددتان أو الاولى فقط عصية من حديد . انتهى .

قال فينادى مناد من السماء ان كذب عبدى فأفرشوه من النار وافتحوا له بابا الى النار قال فيأتيه من حرها وسمومها ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه اضلاعه . وفي الصحيحين من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ان العبد اذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه انه ليسمع قرع نعالهم أتاه ملكان فيقعدانه فيقولان ما كنت تقول في هذا الرجل - لمحمد صلى الله عليه وسلم - فاما المؤمن فيقول اشهد انه عبدالله ورسوله فيقال له انظر الى مقعدك من النار وقد أبدلك الله مقعدا من الجنة ، قال فيراهما جميعا - يعنى المقعدين - قال قتادة ذكر لنا انه يفسح له في قبره - واما المنافق والكافر فيقال له ما كنت تقول في هذا الرجل ؟ فيقول لا أدرى ، كنت أقول ما يقول الناس ، فيقال لا دريت ولا تليت ويضرب بمطراق من حديد ضربة فيصيح صيحة يسمعه من يليه من غير الثقلين . زاد أبو داود ان المؤمن يقال له ما كنت تعبد ؟ فان هداه الله تعالى قال كنت أعبد الله ، فيقال ما كنت تقول في هذا الرجل ؟ فيقول هو عبدالله ورسوله ، قال فما يسئل عن شيء غير هذا . وزاد ايضا فيقول دعونى حتى أبشر اهلى فيقال له اسكن ، وذكر الكافر انه يسئل عما كان يعبد ثم عن هذا الرجل . وفى الصحيحين أيضا عن أسماء بنت الصديق رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في خطبته يوم كسفت الشمس « ولقد أوحى الى انكم تفتنون في قبوركم مثل أو قريبا [1] من فتنة الدجال يؤتى أحدكم فيقال له ما عليك بهذا الرجل ؟ فاما المؤمن أو الموقن فيقول محمد رسول الله جاءنا بالبينات والهدى فأجبنا وآمنا واتبعنا ، فيقال له نم صالحا فقد علمنا ان كنت لموقنا ، واما المنافق والمرتاب فيقول لا أدرى سمعت الناس يقولون شيئا فقلته » وأخرجه الامام أحمد بلفظ « ولقد رأيتكم تفتنون في قبوركم يسئل الرجل ما كنت تقول وما كنت تعبد ، نحو ما سبق . وقد روى أيضا من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أخرجه الترمذى وابن حبان في صحيحه وأخرجه ايضا الامام احمد وابن ماجه وأخرجه الطبرانى أيضا وفيه « أتاه » منكر ونكير أعينهما مثل قدور النحاس وأنيابهما مثل صياصى

---

(١) فى الاصلين « قريب » .

البقر ـ أى قرونها ـ وأصواتهما مثل الرعد القاصف » وروى أيضا من حديث جابر بن عبد الله رضى اللهعنهماأخرجه الامام أحمد ومن حديث أبى سعيد رضى الله عنه أخرجه الامام احمد أيضا ومن حديث أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه أخرجه أبو بكر الخلال في كتاب السنة وفيه انه صلى الله عليه وسلم قال له « كيف أنت يا عمر اذا كنت من الارض في أربعة أذرع في ذراعين وأريت منكرا ونكيرا » قلت يا رسول الله وما منكر ونكير ؟ قال « فتانا القبر يبحثان الارض بأنيابهما ويطآن في أشعارهما أصواتهما كالرعد القاصف وأبصارهما كالبرق الخاطف ومعهما مرزبة لو اجتمع عليها أهل منى لم يطيقوا رفعها هى أيسر عليهما من عصاي هذه » قلت يا رسول الله وأنا على حالى هذه ؟ قال نعم ، فقلت اذا أكفيكهما • وفي رواية « فامتحناك فان التويت ضرباك بها ضربة صرت رمادا » وأخرجه الاسماعيلى من وجه آخر ، وروىأيضا من حديث عبدالله ابن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أخرجه الامام أحمد وابن حبان في صحيحه وفيه قال عمر أترد علينا عقولنا يا رسول الله ؟ فقال صلى الله عليه وسلم « نعم كهيأتكم اليوم » فقال عمر رضى الله عنه بفيه الحجر • ومن حديث ابى موسى رضى الله عنه رواه الامام أحمد وغير هؤلاء وروى عن مجاهد ان الموتى يفتنون في قبورهم سبعا فكانوا يستحبون ان يطعم عنهم تلك الايام • وقد ذكرنا في كتابنا البحور الزاخرة في علوم الآخرة ما لعله يشفى ويكفى •

(تنبيهات)

تنبيهات الأول الجمع بين روايتى ملك وملكين

(الأول) جاء في رواية سؤال ملكين وفي أخرى سؤال ملك واحد قال القرطبى لا تعارض في ذلك بالنسبة الى الاشخاص فرب شخص يأتيه اثنان معا فيسألانه معا عند انصراف الناس ليكون أهول في حقه وأشد بحسب ما اقترف من الآثام وآخر يأتيه قبل انصراف الناس عنه تخفيفا عليه لحصول أنسه بهم وآخر يأتيه ملك واحد فيكون أخف عليه وأقل في المراجعة لما قدمه من العمل الصالح • قال ويحتمل أن يأتى اثنان ويكون السائل أحدهما وان اشتركا في الاتيان فتحمل رواية الواحد على هذا •

وصوبه الحافظ السيوطى في شرح الصدور فان ذكر الملكين هو الموجود في غالب الاحاديث • وقد ذكر بعض العلماء ان الملائكة الذين ينزلون على الميت في قبره أربعة منكر ونكير وناكور ورومان وقد أشار الجلال السيوطى الى هذا في ارجوزته التثبيت في التبييت بقوله :

وقد أتى في مرسل مضعف   ان السؤال من ثلاثة لفى
أو أربع أولئك الاثنان   وألحقوا ناكور مع رومان

وقد أشار الى أن الخبر به علتان الضعف والارسال •

الثانى تسمية الملكين بمنكر ونكير

(الثانى)

الملكان اسمهما منكر ونكير نص على ذلك الامام أحمد رضى الله عنه قال الحكيم الترمذى وانما سميا فتانى القبر لأن في سؤالهما انتهارا وفي خلقهما صعوبة قال وسميا منكرا ونكيرا لأن خلقهما لا يشبه خلق الآدميين ولا خلق الملائكة ولا خلق البهائم ولا خلق الهوام بل هما خلق بديع وليس في خلقهما أنس للناظرين اليهما جعلهما الله تعالى تكرمة للمؤمن لتثبته وتبصره وهتكا لستر المنافق في البرزخ من قبل أن يبعث• قال الجلال السيوطى وهذا يدل على أن الاسم منكر بفتح الكاف وهو المجزوم به في القاموس • قلت وكذا في نهاية ابن الاثير قال ومنكر ونكير اسما الملكين مفعل وفعيل • وذكر ابن يونس من الشافعية ان اسم ملكى المؤمن مبشر وبشير قلت وهذا يحتاج الى دليل مأثور وانى به فان الاحاديث ليس فيها سوى منكر ونكير وقد أشار الى ذلك السيوطى في أرجوزته بقوله :

وضبط منكر بفتح الكاف   فلست أدرى فيه من خلاف
وذكر ابن يونس من صحبنا   ان اللذين يأتيان المؤمنا
اسمهما البشير والمبشر   ولم أقف في ذا على ما يؤثر

وقال الامام المحقق ابن القيم في كتاب الروح قال كثير من المعتزلة لا يجوز تسمية ملائكة الله بمنكر ونكير وانما المنكر ما يبدو من تلجلجه اذا سئل والنكير تقريع الملكين له ، قال الامام أحمد رضى الله عنه نؤمن بعذاب القبر وبمنكر ونكير • وروجع في منكر ونكير فقال هكذا هو • يعنى انهما منكر ونكير •

الثالث اختلفت الروايات في كيفية السؤال

(الثـــالث)

قال القرطبي اختلفت الاحاديث في كيفية السؤال ، والجواب عن ذلك انه يختلف باختلاف الاشخاص فمنهم من يسئل عن بعض اعتقاداته ومنهم من يسئل عن كلها ، ويحتمل أن يكون الاقتصار على بعضها من بعض الرواة وأتى به غيره تاما • وصوبه السيوطي لاتفاق أكثر الاحاديث عليه، نعم يؤخذ منها ــ خصوصا من رواية ابى داود عن أنس المارة : فما يسئل عن شيء بعدها وعند ابن مردويه : فما يسئل عن شيء غيرها ــ انه لا يسئل عن شيء من التكليفات غير الاعتقاد خاصة وصرح به في رواية البيهقي من طريق عكرمة عن ابن عباس في قوله تعالى (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة) قال الشهادة يسئلون عنها في قبورهم بعد موتهم ، قيل لعكرمة ما هو ؟ قال يسئلون عن الايمان بمحمد وأمر التوحيد • وقد ذكر الجلال السيوطي انه ورد في رواية عن أنس رضى الله عنه ان الميت يسئل في المجلس الواحد ثلاث مرات ، وباقي الروايات ساكتة عن ذلك فتحمل على ذلك أو يختلف الحال بالنسبة الى الاشخاص • وعن طاوس ان الموتى يسئلون سبعة أيام • قلت وتقدم عن مجاهد أن الموتى يفتنون في قبورهم سبعا وانهم كانوا يستحبون ان يطعم عنهم تلك الايام ــ رواه الامام أحمد في الزهد وكذا أبو نعيم في الحلية باسناد صحيح الا انه مرسل ، وروى من وجه متصل أيضا وحكمه الرفع لأنه ليس للرأى فيه مجال •• وقد روى كل ذلك الامام الحافظ ابن رجب في كتابه أهوال القبور وذكر عن مجاهد أيضا أن الارواح تمكث في قبورها سبعة أيام • وقد روى عن عبيد بن عمير فيما أخرجه عنه ابن جريج ان المؤمن يفتن سبعة أيام والمنافق يفتن أربعين يوما •

الرابع من لم يدفن يناله السؤال ونحوه

(الرابـــع)

من لم يدفن من مصلوب ونحوه يناله نصيبه من فتنة السؤال وضغطة القبر قال الامام المحقق في كتاب الروح : مما ينبغى أن يعلم أن عذاب القبر هو عذاب البرزخ فكل من مات وهو مستحق للعذاب ناله نصيبه منه قبر أم لم يقبر ، فلو أكلته السباع أو حرق حتى صار رمادا أو نسف في الهواء أو غرق في البحر وصل الى روحه وبدنه من العذاب ما يصل من المقبور •

الخامس قيل يختص السؤال بغير الكافر الصريح وبهذه الامة

(الخامس)

قال ابن عبد البر لا يكون السؤال الا لمؤمن أو منافق كان منسوبا الى دين الاسلام بظاهر الشهادة بخلاف الكافر • كذا قال وخالفه في ذلك الجمهور، وقال الامام المحقق ابن القيم رحمه الله تعالى في الروح : القرآن والسنةتدل على خلاف هذا القول بل السؤال للكافر والمسلم قال الله تعالى (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت) وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما انها نزلت في عذاب القبر كما تقدم فان في الاحاديث الكافر والفاجر واسم الفاجر فيعرف القرآن والسنة يتناول الكافر قطعا ومنه قوله تعالى (كلا ان كتاب الفجار لفى سجين) • ونحو هذا في كتاب العاقبة للحافظ عبد الحق الاشبيلي وصوبه القرطبي في التذكرة ، وانتصر الجلال السيوطى لابن عبد البر وفيما قاله نظر • ومثل هذا ما اختاره المحقق ابن القيم والحافظ عبد الحق الاشبيلي وغيرهما من ان سؤال القبر ليس بخاص بهذه الامة بل غيرها تساويها في ذلك وجزم به أيضا القرطبي في التذكرة ، وقال الحكيم الترمذى انه خاص بهذه الامة ، وتوقف ابن عبد البر وانتصر السيوطى في هذا للحكيم الترمذى ، قال الامام المحقق ابن القيم في الروح بعد ذكره الاقوال الثلاثة : والظاهر والله أعلم ان كل نبى مع أمته كذلك - يعنى يسئل عنه كنبينا صلى الله عليه وسلم مع أمته - وانهم يعذبون في قبورهم بعد السؤال لهم واقامة الحجة عليهم كما يعذبون في الآخرة بعد السؤال واقامة الحجة • واستدل الحكيم الترمذى على عدم السؤال أن الامم قبل هذه الامة كانت الرسل تأتيهم بالرسالة فاذا أبوا كفت الرسل واعتزلوهم وعوجلوا بالعذاب ، قال فلما بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم بالرحمة أمسك عنهم العذاب وأعطى السيف حتى يدخل فى دين الاسلام من دخل لمهابة السيف ثم يرسخ الايمان في قلبه ، فمن هنا ظهر النفاق فكانوا يسرون الكفر ويعلنون الايمان وكانوا بين المؤمنين في ستر فلما ماتوا قيض الله لهم فتانى القبر ليستخرج أمرهم بالسؤال وليميز الله الخبيث من الطيب • وفيما قاله مقال من عدة أوجه نبهت على بعضها في البحور الزاخرة منها ما ذكره شيخ الاسلام ابن تيمية روح الله روحه في كتابه الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ان

المعروف عند أهل العلم انه بعد نزول التوراة لم يهلك تعالى مكذبى الامم بعذاب سماوى يعمهم كما أهلك قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وغيرهم بل أمر المؤمنين بجهاد الكفار كما أمر بنى اسرائيل على لسان موسى بقتال الجبابرة ، وقال يوشع للكفار مشهور وكذا داود وسليمان وغيرهم من الانبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

السادس قيل انالسؤال يكون بالسريانية ولا دليل عليه

(السادس)

ذكر الحافظ جلال الدين السيوطى انه وقع فى فتاوى شيخه علم الدين البلقينى ان الميت يجيب السؤال باللغة السريانية ، قال ولم أقف لذلك على مستند انتهى . قال في التذكرة ان قيل كيف يخاطب الملكان جميع الموتى في الاماكن المتباعدة في الوقت الواحد ؟ فالجواب ان عظم خلقهما يقتضى ذلك فيخاطبان الخلق الكثير في الجهة الواحدة في المرة الواحدة مخاطبة واحدة بحيث يخيل لكل من المخاطبين انه المخاطب دون من سواه ويمنعه الله من سماع جواب بقية الموتى . وقال السيوطى ويحتمل تعدد الملائكة لذلك كما في الحفظة ونحوهم . وقاله الحليمى من الشافعية ولا يخفى ما في هذا (١) وبالله التوفيق .

تتمة بعض الناس لا تنالهم فتنة القبر

(تتمة) ورد في صحيح الاخبار أن بعض الناس من الموتى لا تنالهم فتنة القبر ولا يأتيهم الفتانان وذلك على ثلاثةأنحاء ـ مضافالى عمل ومضاف الى حال ابتلاء نزل بالميت ومضاف الى زمان كالشهداء ومن لقى العدو فصبر حتى يقتل أو يغلب والمرابطين في سبيل الله ، والمراد ان من مات مرابطا لم يفتن في قبره . وروى أنسورةتبارك من قرأها كل ليلة عصممنفتنة القبر ، ومن مات يوم الجمعة أو ليلة الجمعة كفى فتنة القبر . وأخرج أبو نعيم في

---

(١) بهامش مط ما لفظه :
قوله ولا يخفى ما فيه أى فى كلام الحليمى وبعده الجلال من النظر لأن هذه أمور لا تثبت الا بصحيح السنة والتنزيل وليس فى ذلك للاحتمال مجال وكنت سئلت عن ذلك فنقلت ما نقله الجلال عن الحليمى فى ذلك فى الجواب وتعقيبه من غير وقوف على ما هنا فالحمد لله ا هـ ع ب ا هـ من هامش الاصل .

الحلية ان النبى صلى الله عليه وسلم قال « من قرأ قل هو الله أحـــد في مرضه الذى مات فيه لم يفتن في قبره وأمن من ضغطة القبر وحملته الملائكة يوم القيامة بأكفها حتى تجيزه الصراط الى الجنة » وممن لا يسـئل الملائكة والانبياء عليهم الصلاة والسلام ٠ وأما الجن فالادلة تعممهم ويسئلون لانهـم مكلفون في الجملة كما نص عليه علماؤنا وغيرهم وبالله التوفيق ٠

الأمـر الثـاني عـذاب القبر وذكره فيالقرآن

(ومنها) اى الامور التى يجب الايمان بها وانهـا حق لا ترد عـــذاب القبر قال الحافظ جلال الدين السيوطى في كتابه « شرح الصدور في أحوال الموتى والقبور » قد ذكر الله عذاب القبر في القرآن في عدة أماكن كمـــا بينه في الاكليل في اسرار التنزيل ٠ انتهى ٠ قال الحــــافظ ابن رجب في كتابه أهوال القبور في قوله تعالى (فلولا اذا بلغت الحلقوم ــ الى قوله ــ ان هذا لهو الحق اليقين) عن عبد الرحمن بن ابى ليلى قال تلا رســول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآيات قال « اذا كان عند الموت قيـل لــــه هـذا فان كان من أصحاب اليمين أحب لقاء الله وأحب الله لقاءه وان كـان من أصحاب الشمال كره لقاء الله وكره الله لقاءه » وأخرج الامـــام أحمد أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: « من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه » فأكب القوم يبكون قال « ما يبكيكم » قالوا انـــا نكره الموت قال « ليس ذلك ولكنه اذا حضر فاما ان كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم ، فاذا بشر بذلك أحب لقاء الله والله للقائه أحب ، وأما ان كان من المكذبين فنزل من حميم وتصليه جحيم ، فاذا بشر بذلك كره لقاء الله والله للقائه اكره » ٠ وقال الامام المحقق ابن القيم فى كتاب الروح فول السائل ما الحكمة في أن عذاب القبرلم يذكر في القرآن صريحا مع شـدة الحاجة الىمعرفته والايمان به ليحذره الناس ويتقى ؟ فاجاب عن ذلـــك بوجهين مجمل ومفصل أما المجمل فان الله تعالى أنزل على رسوله وحيين فأوجب على عباده الايمان بهما والعمل بما فيهما وهما الكتاب والحكمة قال تعالى (وأنزل عليك الكتاب والحكمة) وقال تعالى (هو الذى بعث فيالاميين رسولا منهم ــ الى قوله ــ ويعلمهم الكتاب والحكمة) وقال تعالى (واذكرن ما يتلى في بيوتكن) الآية والحكمة هى السنة باتفاق السلف ، وما أخبر بـه

الرسول عن الله فهو فى وجوب تصديقه والايمان به كما أخبر به الرب على لسان رسوله ، فهذا أصل متفق عليه بين أهل الاسلام لا ينكره الا من ليس منهم ، وقال النبى صلى الله عليه وسلم « انى أوتيت الكتاب ومثله معه » قال المحقق وأما الجواب المفصل فهو ان نعيم البرزخ وعذابه مذكور فى القرآن في مواضع (منها) قوله تعالى (ولو ترى اذ الظالمون في غمرات الموت) الآية وهذا خطاب لهم عند الموت قطعا وقد اخبرت الملائكة وهم الصادقون انهم حينئذاك يجزون عذاب الهون ، بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون ، ولو تأخر عنهم ذلك الى انقضاء الدنيا لما صح ان يقال لهم اليوم تجزون عذاب الهون ، وقوله تعالى (فوقاه الله سيئات ما مكروا - الى قوله - يعرضون عليها غدوا وعشيا) الآية فذكر عذاب الدارين صريحا لا يحتمل غيره • ومنها قوله تعالى (فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذى فيه يصعقون * يوم لايغنى عنهم كيدهم شيئا ولا هم ينصرون) انتهى كلامه • وأخرج البخارى من حديث ابى هريرة رضى الله عنه قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو « اللهم انى اعوذ بك من عذاب القبر » وأخرج الترمذى عن على رضى الله عنه انه قال ما زلنا فى شك من عذاب القبر حتى نزلت (الهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر) •وقال ابن مسعود اذا مات الكافر أجلس فى قبره فيقال له من ربك وما دينك فيقول لا أدرى فيضيق عليه قبره - ثم قرأ ابن مسعود (فان له معيشة ضنكا) قال المعيشة الضنك هى عذاب القبر • وقال البراء بن عازب رضى الله عنهما فى قوله تعالى (عذابا دون ذلك) قال عذاب القبر • وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما في قوله تعالى (ولنذيقنهم من العذاب الادنى دون العذاب الاكبر) (قال عذاب القبر) • وكذلك قال قتادة والربيع ابن أنس في قوله تعالى (سنعذبهم مرتين) أحدهما في الدنيا والاخرى عذاب القبر • قال الحافظ ابن رجب وقد تواترت الاحاديث عن النبى صلى الله عليه وسلم فى عذاب القبر ففى الصحيحين عن ام المؤمنين عائشة الصديقة بنت الصديق رضى الله عنهما انها قالت سألت النبى صلى الله عليه وسلم عن عذاب القبر قال « نعم عذاب القبر حق » • وفى صحيح مسلم عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم انه كان يعلمهم

هذا الدعاء كما يعلمهم السورة من القرآن « اللهم انى اعوذ بك من عذاب جهنم وأعوذ بك من عذاب القبر وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال » • وأخرج مسلم ايضا وابن ابى شيبة عن زيد بن ثابت رضى الله عنه قال بينما النبى صلى الله عليه وسلم فى حائط لبنى النجار على بغلة له ونحن معه اذ حادت به فكادت أن تلقيه واذا أقبر ستة أو خمسة أو أربعة فقال « من يعرف اصحاب هذه الأقبر ؟ » فقال رجل انا فقال «متى مات هؤلاء » فقال ماتوا فى الاشراك فقال النبى صلى الله عليه وسلم «ان هذه الامة تبتلى فى قبورها فلولا ان لاتدافنوا لدعوت الله ان يسمعكم من عذاب القبر الذى أسمع منه » ثم اقبل علينا بوجهه فقال « تعوذوا بالله من عذاب القبر » الحديث • وفي الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها ان النبى صلى الله عليه وسلم قال ان اهل القبور يعذبون فى قبورهم عذابا تسمعه البهائم • وفى البا ب عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه رواه الامام احمد وأبو يعلى والآجرى ، وعن ابى هريرة رضى الله عنه رواه أبو يعلى والآجرى (وابن منده - ١) وعن أنس رضى الله عنه رواه مسلم ، وعن أبى أيوب الانصارى رضى الله عنه رواه الشيخان ، وعن ابن عباس رضى الله عنهما أخرجاه ، وعن أبى بكر الصديق رضى الله عنه رواه ابن ماجه • وفيه أيضا عن ابن عمر وعبد الرحمن بن حسنة وأبى امامة وميمونة مولاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ويعلى ابن سيابة ويعلى ابن مدة وأم بشير وابن مسعود وغيرهم رضى الله عنهم اجمعين •

الأمر الثالث ضغطه القبر

(الامر الثالث - ٢) ما ورد فى ضغطة القبر وظلمته لكل واحد - أخرج الامام احمد فى المسند والحكيم الترمذى فى نوادر الاصول والبيهقى فى كتاب عذاب القبر عن حذيفة رضى الله عنه قال كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جنازة فلما انتهينا الى القبر قعد على شفيره فجعل يردد بصره فيه ثم قال « يضغط فيه المؤمن ضغطة تزول منها حمائله » قال فى النهاية القبر •

---

(٢) من مخ ، والامر الاول هو سؤال الملكين ، والامر الثانى هو عذاب

(١) من مخ •

الحمائل هنا عروق الانثيين قال ويحتمل أن يكون يراد هنا موضع حمائل السيف أى عواتقه وأضلاعه وصدره • وأخرج الامام أحمد والبيهقى عن عائشة رضى الله عنها عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « ان المقبر ضغطة لو كان أحد منها ناجيا نجا منها سعد بن معاذ » رضى الله عنه • وأخرج الامام أحمد والترمذى (والطبرانى – ١) والبيهقى عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال لما دفن سعد بن معاذ رضى الله عنه سبح رسول الله صلى الله عليه وسلم وسبح الناس معه طويلا ثم كبر وكبر الناس ثم قالوا يا رسول الله لم سبحت ؟ قال « لقد تضايق عن هذا الرجل الصالح قبره حتى فرج الله عنه » • وعن ابن عباس رضى الله عنهما ان رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم دفن سعد بن معاذ وهو قاعد على قبره قال « لو نجا من ضمة القبر أحد لنجا سعد بن معاذ ولقد ضم ضمة ثم أرخى عنه » رواه سعيد بن منصور والحكيم الترمذى والطبرانى والبيهقى • وأخرج النسائى والبيهقى عن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « هذا الذى تحرك له العرش وفتحت له أبواب السماء وشهده سبعون ألفا من الملائكة لقد ضم ضمة ثم فرج عنه » يعنى سعد بن معاذ • قال الحسن البصرى تحرك له العرش فرحا بروحه • أخرجه البيهقى فى الدلائل • وأخرج الحكيم الترمذى والبيهقى من طريق ابن اسحاق حدثنى ابن أمية أو ابن عبد الله انه سأل بعض أهل سعد ما بلغكم من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذا ؟ فقالوا ذكر لنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن ذلك قال « كان يقصر فى بعض الطهور من البول » • والاحاديث فى هذا كثيرة مشهورة ، قال ابن ابى مليكة ما أجير من ضغطة القبر أحد ولا سعد بن معاذ الذى منديل من مناديله فى الجنة خير من الدنيا وما فيها • وقال مجاهد أشد حديث سمعناه عن النبى صلى الله عليه وسلم « ما عفى أحد من ضغطة القبر الا فاطمة بنت أسد » فقيل يا رسول الله ولا القاسم ابنك ؟ قال « ولا ابراهيم » وكان أصغرهما • قال أبو القاسم السعدى فى كتاب الروح له لا ينجو من ضغطة

---

(١) من مخ •

القبر صالح ولا طالح •والمراد غير من استثناه النبي صلىالله عليه وسلم وهو فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف أم على بن أبى طالب رضى الله عنه وذلك لانها ضمت المصطفى ولما ماتتسكب عليها الماءالذى بهالكافور وألبسها قميصه واضطجع في قبرها وقال « الحمد لله الذى يحيى ويميت وهو حي لا يموت اللهم اغفر لأمي فاطمة بنت أسـد ولقنها حجتها ووسع عليهـا مدخلها » وكانت وفاتها في المدينة ودفنت شمال قبة عثمان في موضع يقال له الحمام وعليها قبة صغيرة كما في زبدة الاعمال مختصر تاريخ الازرقى • قال أبو القاسم السعدى والفرق بين المسلم والكافر في ضمة القبر دوامها للكافر وحصول هذه الحالة للمؤمنفي أو لنزوله الى قبره ثميعود الانفساح له فيه ، قال والمراد بضغطة القبر التقاء جانبيه على جسد الميت • قال الحكيم الترمذى سبب هذه الضغطة انه ما من أحد الا وقد ألم بخطيئة ما وان كان صالحا فجعلت هذه الضغطة جزاء لها ثم تدركه الرحمة ولذلك ضغط سعد ابن معاذ رضى الله عنه • قال وأما الانبياء فلا نعلم ان لهم في القبور ضمة ولا سؤالا لعصمتهم ــ أى لأن السؤال عن الانبياء وماجاءوا به فكيفيسألون عن أنفسهم ؟ وقد ذكر الامام الحافظ ابن الجوزى في مناقب سيدنا الامام أحمد رضى الله عنه انه رآه المروزى رحمه الله بعد موته في منامه فقال له ما فعل الله بك ؟ فذكر ان الملكين سألاه وقالا له من ربك ؟ فقال سبحان الله أو مثلى يسئل عن ربه ؟ فقالا لا تؤاخذنا بذا أمرنا ثم انصرفا • فكيفبأنبياء الله وهم المخبرون عنه الدالون عليه المجتهدون في انقاذ عباده من عقابه وغضبه الى مرضاته باذنه • قال محمد التيمي . ضمة القبر انما أصلها أن الارض أمهم ومنها خلقوا فغابوا عنها الغيبة الطويلة فلما ردوا اليها وهم أولادهـا ضمتهم ضمة الوالدة اذا غاب عنها ولدها ثم قدم فمن كان مطيعا ضمته برأفة ورفق ومن كان عاصيا ضمته بعنف سخطا لربها عليه • وقد أخرج البيهقى وابن منده والديلمى وابن النجار عن عائشةرضى الله عنها انها قالت يارسول الله انك منذ حدثتنى بصوت منكر ونكير وضغطة القبر ليس ينفعنى شيء ، قال « يا عائشة ان أصوات منكر ونكير في سماع المؤمنين كالاثمد في العين ، وان ضغطة القبر على المؤمن كالام الشفيقة يشكو اليها ابنها الصـداع فتغمز

سبب الضغطة وهـل تنـال الانبياء ؟

رأسه غمزا رفيقا ولكن يا عائشة ويل للشاكين في الله كيف يضغطون في قبورهم كضغطة الصخرة على البيضة »

فوائد الاولى أول عدل الآخرة تساوى القبور

(فــــوائد)

(الأولى) ذكر الديلمى في الفردوس عن على رضى الله عنه رفعه « أول عدل الآخرة القبور فلا يعرف شريف من وضيع » وقد قال ابن عباس رضى الله عنهما ان الله أرحم ما يكون لعبده اذا دخل قبره وتفرق عنه الناس وأهله . وأخرج الديلمى عن أنس رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أرحم ما يكون الله بالعبد اذا وضع في حفرته ». وأخرج ابن أبى الدنيا عن أبى عاصم الحبطى يرفعه « ان أول ما يتحف به المؤمن في قبره يقال له أبشر فقد غفر لمن تبع جنازتك» . وأخرجه البزار وعبد(١) في مسنديهما والبيهقى في الشعب عن ابن عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ان أول ما يجازى به المؤمن بعد موته أن يغفر لجميع من تبعه » . وفي الباب عن جابر بن عبد الله أخرجه ابن أبى الدنيا ، وسلمان الفارسى أخرجه أبو الشيخ في الثواب، وأبى هريرة أخرجه الحاكم في التاريخ والبيهقى في الشعب والديلمى ، وأنس أخرجه الحكيم الترمذى .

الثانية تدفع عقوبة السيئة باحد عشرة أسباب

(الثانية) قال بعضهم من فعل سيئة فان عقوبتها تدفع عنه باحد عشرة أسباب ان يتوب فيتاب عليه ، أو يستغفر فيغفر له ، أو يعمل حسنات فتمحوها فان الحسنات يذهبن السيئات ، أو يبتلى فى الدنيا بمصائب فيكفر عنه ، أو في البرزخ بالضغطة والفتنة فيكفر عنه ، أو يبتلى في عرصات القيامة بأهوال تكفر عنه ، أو تدركه شفاعة نبيه صلى الله عليه وسلم ،أو رحمة ربه تبارك وتعالى . وتقدم في التوبة طرف صالح من هذا وبالله التوفيق .

الثالثة بيان سبب عذاب القبر مجملا ومفصلا

(الثالثة) الأسباب التى يعذب بها أصحاب القبور على قسمين مجمل ومفصل ، أما المجمل فانهم يعذبون على جهلهم بالله واضاعتهم لأمره وارتكابهم معاصيه فلا يعذب الله روحا عرفته وأحبته وامتثلت أمره واجتنبت نهيه ولا بدنا كانت فيه أبدا فان عذاب القبر بل وعذاب الآخرة اثر غضب

(١) هو عبد بن حميد ، ووقع فى الاصلين « عبيد » .

الله وسخطه على عبده فمن أغضب الله وأسخطه في هــذه الدار بارتكاب مناهيه ولم يتب ومات على ذلك كان له من عذاب البرزخ بقدر غضب الله وسخطه عليه فمستقل ومستكثر ومصدق ومكذب • وأما المفصل فقد اخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرجلين الذين رآهما يعــذبان فى قبورهما أن أحدهما كان يمشى بالنميمة بين الناس والآخر كان لا يستتر من البول ، والحديث فى الصحيحين وغيرهما ولفظه مر النبى صلى الله عليه وسلم بقبرين فقال « انهما ليعذبان وما يعذبان في كبير أما أحدهمــا فكان لا يستتر من البول وأما الآخر فكان يمشى بالنمية » ثم أخذ جريدة رطبة فشقها باثنتين ثم غرز على كل قبر منهما واحدة ، قالوا لم فعلت هذا يا رسول الله ؟ قال لعله يخفف عنهما مالم تيبسا • قال الحافظ ابن رجب في كتابه أهوال القبور وقد روي هذا عن النبى صلى الله عليه وسلم بهذا المعنى من وجوه متعددة من حديث أبى بكر وعائشة وأبى هريرة وأنس وابن عمر وأبى أمامة وغيرهم من الصحابة رضى الله عنهم أجمعين • قال المحقق ابن القيم في الروح فهذا ترك الطهارة الواجبة وذلك ارتكب السبب الموقع للعداوة بين الناس بلسانه وان كان صادقا وفيه تنبيه على أن الموقع بينهم العــداوة بالكذب والزور والبهتان أعظم عذابا كما ان في ترك الاستبراء من البــول تنبيها على ان من ترك الصلاة التى الاستبراء من البول بعض شروطها أشد عذابا • وفي حديث شعبة «أما أحدهما فكان يأكل لحوم الناس» فهذا مغتاب وذاك نمام • وفي صحيح البخارى في تعذيب من يكذب الكذبة فتبــلغ الآفاق ، وفي حديث ابن مسعود في الذى ضرب في قبره سوطا امتلأ القبر عليه نارا لكونه صلى صلاة واحدة بغير طهور ومر على مظلوم فلم ينصره ، وتعذيب من يقرأ القرآن ثم ينام عنه بالليل ولا يعمل به في النهار ، وتعذيب الزناة والزوانى ، وتعذيب آكل الربا كما شاهدهم النبى صلى الله عليه وسلم في البرزخ ، وحديث أبى هريرة وفيه رضخ رؤوس أقوام بالصخر لتثاقل رؤوسهم عن الصلاة ، والذين يأكلون الزقوم والضريع لتركهم الزكاة ، والذين يأكلون اللحم المنتن الخبيث لزناهم ، والذين تقرض شفاههــم بمقاريض من حديد لقيامهم في الفتن بالكلام والخطب •

ومن الذين يعذبون في قبورهم وأخبر عنهم النبى صلى الله عليه وسلم الجبارون والمتكبرون والمراءون والهمازون واللمازون والطعانون على السلف والذين يأتون الكهنة والمنجمين والعرافين فيسألونهم ويصدقونهم وأعوان الظلمة الذين باعوا آخرتهم بدنيا غيرهم ونحو هؤلاء ممن يشتغل بذنوب الناس عن ذنبه وبعيوبهم عن عيبه فكل هؤلاء وأمثالهم يعذبون في قبورهم بهذه الجرائم بحسب كثرتها وقلتها وصغرها وكبرها ، ولما كان أكثر الناس كذلك كان أصحاب القبور معذبين والفائز منهم قليل، فظواهر القبور تراب وبواطنها حسرات وعذاب فنسأل الله تعالى العافية والرحمة والعفو والغفران وبالله الاعانة والعون •

الرابعة اسباب النجاة منه مجملة ومفصلة

(الرابعة) الاسباب المنجية من عذاب القبر على قسمين أيضا مجمل ومفصل ، أما المجمل فهو بحسب تلك الاسباب التى تقتضى العذاب ومن أنفعها ان يجلس عند ما يريد النوم لله ساعة يحاسب نفسه فيها على ما خسره وربحه في يومه ثم يجدد له توبة نصوحا بينه وبين الله فينام على تلك التوبة ويعزم على أن لا يعود الى الذنب اذا استيقظ ويفعل هذا كل ليلة فان مات من ليلته مات على توبة وان استيقظ مستقبلا للعمل مسرورا بتأخير الاجل ، وليس للعبد أنفع من هذه التوبة ولا سيما اذا عقب ذلك بذكر الله واستعمال السنن التى وردت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عند النوم حتى يغلبه النوم فمن أراد الله به خيرا وفقه لذلك ولا قوة الا بالله • وأما المفصل فمنها ما رواه مسلم في صحيحه من حديث سلمان الفارسى رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « رباط يوم في سبيل الله خير من صيام شهر وقيامه وان مات أجرى عليه عمله الذى كان يعمله وأجرى عليه رزقه وأمن الفتان» • وفي سنن الترمذى من حديث فضالة بن عبيد رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « كل ميت يختم على عمله الا الذى مات مرابطا في سبيل الله فانه يجرى عليه عمله الى يوم القيامة ويأمن من فتنة القبر » قال الترمذى حديث حسن صحيح • وتقدم ذكر الشهداء ، والذى يقرأ تبارك الملك فعن ابن عباس رضى الله عنهما قال ضرب رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم خباءه على قبر

وهو لا يحسب انه قبر فاذا قبر انسان يقرأ سورة الملك حتى ختمهـا فأتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله ضربت خبائى على قبر أنا لا أحسب انه قبر فاذا قبر انسان يقرأ سورة الملك حتى ختمها • فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « هى المانعة هى المنجية تنجيه من عذاب القبر » قال الترمذى حديث حسن غريب • قال الامام المحقق ابن القيم في كتاب الروح روينا في مسند عبد بن حميد عن ابراهيم بن الحكم عن أبيه عن عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما انه قال لرجل ألا أتحفك بحديث تفرح به ؟ قال الرجل بلى قال اقرأ (تبارك الذى بيده الملك) احفظها وعلمهـا أهلك وولدك وصبيان بيتك وجيرانك فانها المنجية والمجادلة تجادل أو تخاصم يوم القيامة عند ربها لقارئها وتطلب له الى ربها أن ينجيه من عذاب القبر ـ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لوددت انها في قلب كل انسان من أمتى ». قال أبو عمر بن عبد البر وصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال « ان سورة ثلاثين آية شفعت في صاحبها حتى غفر له ـ تبارك الذى بيده الملك »

تنبيهات، الأول انكار الملاحدة عذاب القبر وأحواله

(تنبيهـات)

الأول أنكرت الملاحدة والزنادقة عذاب القبر وسعته وضيقه وكونه حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة وانكروا جلوس الميت فى قبره ، قالوا وقد وضعوا على صدر الميت زيبقا فكشفوا عنه فوجدوه بحاله ولم يجدوا فيه ملائكة يضربون الموتى بمطارق الحديد ولا وجدوا حيات ولا عقارب ولا نيرانا وأجنبوا وأجلبوا من مثل هذه الوساوس والترهات ، وقال اخوانهم من أهل البدع والضلال كل حديث يخالف مقتضى العقول نقطع بتخطئة ناقله ، قالوا ونحن نرى المصلوب على الخشبة المدة الطويلة لا يسئل ولا يجيب ولا يتحرك ولا يتوقد جسمه نارا ، قالوا ومن افترسته السباع ونهشته الطير وتفرقت أجزاؤه في حواصل الطيور وأجواف السباع وبطون الحيتان ومدارج الرياح كيف يسئل ؟ وكيف يصير القبر على مثل هـذا روضة أو حفرة ؟ وكيف يتسع قبره أو يضيق ؟ وأكثروا من هذا الهذيان•

الرد عليهم بوجوه٠هو ممكن أخبرت به الرسل فوجب الايمان به

وأجاب عن ذلك أئمة الحق من علماء السنة وأمناء الامة بما يقمع المفترين ويقلع عن الشاكين ، منهم الامام المحقق ابن القيم في كتاب الروح فانه أجاب عن ذلك بعدة أجوبة (منها) ان الرسل عليهم الصلاة والسلام لم تخبر بما تحيله العقول بل أخبارهم قسمان أحدهما ما يشهد العقل والفطرة السليمة به والثانى ما لا تدركه العقول بمجردها كالغيوب التى أخبروا بها عن تفاصيل البرزخ واليوم الآخر والثواب والعقاب فلا يكون خبرهم محالا فى العقول أصلا ، والحاصل ان الانبياء لا تأتى بمحالات العقول بل بمحاراتها فكل خبر يظن ان العقل يحيله فلا يخلو من أحد أمرين اما خطأ فى النقل أو فساد في العقل فتكون شبهة خيالية ظن صاحبها انها أمر عقلى صريح والحال انه خيال وهمى غير صحيح قال تعالى (ويرى الذين أوتوا العلم الذىأنزل اليك من ربك هو الحق) وأما الذين في قلوبهم زيغ فلا يزدادون الا رجسا على رجسهم (ومنها) ان يضم الى خبر الرسول مراده من غير غلو ولا تقصير ولا يحمل كلامه على ما لا يحتمله ولا يقصر به عن مراده وعما قصده من الهدى والبيان وباهمال ذلك حصل ما حصل من الضلال والعدول عن نهج الصواب (ومنها) ان الله سبحانه جعل الدور ثلاثة ، دار الدنيا ودار البرزخ ودار القرار، وجعل لكل دار أحكاما تختص بها ، وركب هذا الانسان من بدن ونفس وجعل أحكام الدنيا على الابدان، والارواح تبع لها ، ولهذا جعل أحكام الشريعة مرتبة على ما يظهر من حركات الانسان والجوارح وان اضمرت النفوس خلافه ، فالعقوبات الدنيوية تقع على البدن الظاهر وتتألم الروح بالتبعية ، وجعل أحكام البرزخ على الارواح ، والابدان تبع لها ، فكما تبعت الارواح الابدان في أحكام الدنيا فتألمت بألمها والتذت براحتها ولذتها وكانت هى المباشرة لاسباب النعيم والعذاب فكذلك تبعت الابدان الارواح في نعيمها وعذابها وكان العذاب والنعيم على الروح ولها بالاصالة والبدن تابع للروح في ذلك عكس دار الدنيا ، فاذا كان يوم حشر الاجساد وقيام الناس من قبورهم لدار القرار والمعاد صار الحكم من النعيم والعذاب وغيرهما على الارواح والاجساد باديا ظاهرا أصلا وما اخبر به الرسول صلى الله عليه وسلم من عذاب القبر

يجب أن لا تحمل النصوص ما لا تحتمله

أحوال البرزخ والآخرة لا تقاس بأحوال الدنيا

جعل الله أمر الآخرة غيبا ، والحكمة في ذلك

ونعيمه من هذا القبيل فاذا ظهر للذوق السليم طابق العقل المستقيم (ومنها) ان الله تعالى جعل أمر الآخرة وما كان متصلا بها غيبا وحجبها عن ادراك العقول في هذه الدار وذلك من كمال حكمته وليتميز الذين آمنوا بالغيب من غيرهم، فأول ذلك الملائكة تنزل على المحتضر وتجلس قريبا منه ويشاهدهم عيانا ويتحدثون عنده ومعه وربما كلمهم ورد أجوبة لهم وتكون معهم الاكفان والحنوط اما من الجنة واما من النار • ويؤمنون على دعاء الحاضرين بالخير والشر وقد يسلمون على المحتضر ويرد عليهم السلام تارة بلفظه وتارة باشارة وتارة بقلبه اذا لم يتمكن من النطق والاشارة وقد سمع بعض المحتضرين يقول أهلا وسهلا ومرحبا بهذه الوجوه•ومن ذلك حكايات كثيرة وقد شاهدنا من ذلك مالم يخطر بالبال ولا يتصوره الخيال (ومنها)

نار القبر مخالفة لنار الدنيا

ان النار التي في القبر ليست من نار الدنيا فيشاهدها من شاهد نار الدنيا وانما هي من نار الآخرة فهي وان كانت أشد من نار الدنيا الا أن شدتها على من هي له وعليه دون من مسها من أهل الدنيا بل ربما دفن الرجلان في قبر واحد فيكون أحدهما في روضة ونعيم والآخر في حفرة وعذاب اليم وقدرة الرب أعظم وأعجب من ذلك ولكن الكافرون لا يشعرون (ومنها) أن الله

يحدث الله في الدنيا ما هو أعجب

سبحانه وتعالى يحدث في هذه الدار ما هو أعجب من ذلك فهذا جبريل عليه السلام كان ينزل على النبي صلى الله عليه وسلم ويتمثل له رجلا فيكلمه بكلام يسمعه ومن الى جانب النبي صلى الله عليه وسلم لا يراه وكذلك غيره من الانبياء ، وكانت الملائكة تضرب الكفار بالسياط وتضرب رقابهم وتصيح بهم والمسلمون معهم لا يرونهم ولا يسمعون كلامهم، والله سبحانه وتعالى حجب ابن آدم عن كثير مما يحدث في الارض وهو بينهم فهذا جبريل كان يدارس النبي صلى الله عليه وسلم القرآن والحاضرون لا يسمعونه • وكيف يستنكر من عرف الله وأقر بقدرته أن يحدث حوادث يصرف عنها أبصار خلقه وأسماعهم حكمة منه ورحمة بهم لانهم لا يطيقون رؤيتها وسماعها والعبد أضعف بصرا وسمعا من أن يثبت لمشاهدة عذاب القبر وكثير ممن أشهده الله ذلك ضعف وغشي عليه ولم ينتفع بالعيش زمنا ، وبعضهم كشف قناع قلبه فمات • وسر المسئلة أن

توسعة القبر وضيقه واضاءته وخضرته وناره ليس من جنس المعهـــود في هذا العالم والله سبحانه انما أشهد عباده هذه الدار وما كان فيها ومنها واما ما كان من أمر الآخرة فقد أسبل عليه الغطاء ليكون الاقـــرار به والايمان سببا لسعادتهم ولو كشف عنه الغطاء لكان مشاهدا عيانا وفاتته نتيجة الايمان بالغيب وما يترتب على ذلك من الثواب • قلت وحاصل ذلك ان ما أخـبر به الصادق المصدوق وجب الايمان به وقد تواتر عنه ذلك كما قدمنا ولم تحله العقول وحيث كان ممكنا فمعارضة صحيح الاخبار الحاد ، وهو كما انـه مقتضى السنة الصحيحة متفق عليه بين أهل الســـنة قال المروذى قال أبو عبد الله الامام أحمد رضى الله عنه عذاب القبر حق لا ينكره الاضـــال مضل • وقال حنبل قلت لأبى عبد الله في عذاب القبر فقال هذه أحاديث صحاح نؤمن بها ونقر بها ، كلما جاء عن النبى صلى الله عليه وسلم اسناد جيد أقررنا به ، اذا لم نقر بما جاء به الرسول ودفعناه ورددناه رددنا على الله أمره ، قال الله تعالى (وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا). قلت وعذاب القبر حق ؟ قال : حق يعذبون في القبور • قال وسمعت أبا عبد الله يقول : نؤمن بعذاب القبر وبمنكر ونكير (وان العبد يسأل في قبره فيثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة في القبر •وقال أحمد بن القاسم قلت يا أبا عبدالله نقر بمنكر ونكير - ١) وما يروى في عذاب القبر ؟ فقال سبحان الله نعم نقر بذلك ، قلت هذه اللفظة نقول : منكر ونكير هكذا أو نقول ملكين ؟ قال : منكر ونكير • قلت يقولون ليس في حـديث منكر ونكير ؟ قال هو هكذا - يعنى انهما منكر ونكير • قال الامام ابن القيم في كتابه الروح واما أئمة أهل البدع والضلال فقال أبو الهـــذيل وبشر المريسى : من خرج عن سنة الايمان فانه يعذب بين النفختين ، قالا والمسئلة في القبر انما تقع في ذلك الوقت • قال ابن القيم واثبت الجبائى وابنـــه والبلخى عذاب القبر لكنهم نفوه عن المؤمنين وأثبتوه لأصحاب التخليد من الكفار والفساق على أصولهم وبالله التوفيق •

عذاب القبر حق

---

(١) من كتاب الروح - مخطوط -

التنبيه الثانى عذاب القبر على النفس والبدن وقيل غير ذلك

(التنبيه الثانى)

الحق عند أهل السنة ان عذاب القبر على النفس والبدن قال شيخ الاسلام ابن تيمية قدس الله روحه العذاب والنعيم على النفس والبدن جميعا باتفاق أهل السنة والجماعة تنعم النفس وتعذب منفردة عن البدن ، وتنعم وتعذب متصلة بالبدن والبدن متصل بها فيكون النعيم والعذاب عليهما في هذه الحال مجتمعين كما يكون على الروح منفردة عن البدن ، وهل يكون العذاب والنعيم للبدن بدون الروح ؟ فيه قولان مشهوران لأهل الحديث والسنة وأهل الكلام . قال شيخ الاسلام وفي المسئلة أقوال شاذة ليست من أقوال أهل السنة والحديث ، أحدها قول من يقول ان النعيم والعذاب لا يكون الا على الروح وان البدن لا ينعم ولا يعذب . قال وهذا تقوله الفلاسفة المنكرون لمعاد الابدان ، وهؤلاء كفار باجماع المسلمين ، ويقوله كثير من أهل الكلام من المعتزلة وغيرهم الذين يقرون بمعاد الابدان لكن يقولون لا يكون ذلك في البرزخ وانما يكون عند القيام من القبور ، وهؤلاء ينكرون عذاب البدن في البرزخ فقط ، ويقولون ان الارواح هى المنعمة والمعذبة في البرزخ فاذا كان يوم القيامة عذبت الروح والبدن معا ، قال وهذا قاله طوائف من المسلمين من أهل الكلام والحديث وغيرهم وهو اختيار ابن حزم وابن ميسرة(١) ، قال وهذا ليس من الاقوال الشاذة بل هو مضاف الى قول من يقر بعذاب القبر ويقر بالقيامة ويثبت معاد الابدان والارواح ، ولكن هؤلاء لهم في عذاب القبر ثلاثة أقوال ، على الروح فقط، عليها وعلى البدن بواسطتها ، على البدن فقط ، وقد(٢) يضم الى ذلك القول الثانى وهو قول من يثبت عذاب القبر ويجعل الروح هى الحياة ـ ويجعل الشاذ(٣) قول منكر عذاب الابدان مطلقا وقول من ينكر عذاب البرزخ(٤) مطلقا ؟ فاذا جعلت الاقوال الشاذة ثلاثة (فالقول الثانى) الشاذ قول من يقول ان الروح بمفردها لا تنعم ولا تعذب وانما الروحهى الحياة ، وهذا

---

(١) فى الأصلين « مرة » والتصويب من كتاب الروح ـ مخطوط ـ وكذا ما يأتى .

(٢) فى الأصلين « وهل » .

(٣) فى الاصلين « الفساد » .

(٤) فى الاصلين « الروح » .

بقوله طوائف من أهل الكلام من المعتزلة والاشعرية كالقاضى أبى بكر الباقلانى وغيره وينكرون أن الروح تبقى بعد فراق البدن ، وهو قول باطل، وقد خالفه أصحابه أبو المعالى الجوينى وغيره ، بل قد ثبت بالكتاب والسنة واتفاق الامة أن الروح تبقى بعد فراق البدن وانها منعمة أو معذبة • قال والفلاسفة الالهيون يقرون بذلك لكن ينكرون معاد الابدان وهؤلاء يقرون بمعاد الابدان لكن ينكرون معاد الارواح ونعيمها وعذابها بدون الابدان ، وكلا القولين خطأ وضلال نعم قول الفلاسفة أبعد عن أقوال أهل الاسلام وان وافقهم عليه من يعتقد أنه يتمسك بدين الاسلام بل يظن انه من أهل المعرفة والتصوف و (التحقيق في – ١) الكلام • (القول الثالث) من الشواذ قول من يقول أن البرزخ ليس فيه نعيم ولا عذاب بل (لا – ١) يكون ذلك حتى تقوم الساعة الكبرى كما يقول ذلك بعض المعتزلة وغيرهم ممن ينكر عذاب القبر ونعيمه بناء على ان الروح لا تبقى بعد فراق البدن وان البدن لا ينعم ولا يعذب ، فجميع هؤلاء الطوائف ضلال في أمر البرزخ الا أنهم خير من الفلاسفة لانهم مقرون بالقيامة الكبرى • انتهى • فاذا علمت هذه الاقوال وعرفت بطلانها فاعلم أن مذهب سلف الامة وأئمتها أن الانسان اذا مات يكون في نعيم أو عذاب وأن ذلك يحصل لروحه وبدنه وان الروح تبقى بعد مفارقة البدن منعمة أو معذبة وانها تتصل بالبدن أحيانا فيحصل له معها النعيم والعذاب ثم اذا كان يوم القيامة الكبرى أعيدت الارواح الى الاجساد وقاموا من قبورهم الى رب المعاد ، قال ابن القيم : والذين قالوا ان عذاب القبر يجرى على الميت من غير رد الارواح الى الاجساد وان الميت يجوز أن يألم ويحس بالالم ويعلم بلا روح هم جماعة من الكرامية ومن وافقهم ، وقال جماعة من المعتزلة ان الله سبحانه يعذب الموتى في قبورهم ويحدث فيهم الآلام وهم لا يشعرون فاذا حشروا وجدوا تلك الآلام وأحسوا بها ، قالوا وسبيل المعذبين من الموتى سبيل السكران والمغمى عليه لو ضربوهم لم يجدوا الآلام فاذا عاد اليهم العقل أحسوا بألم الضرب ، وأنكر جماعة منهم عذاب القبر رأسا مثل (ضرار – ١) بن عمرو ويحيى

---

(١) من كتاب الروح •

ابن كامل وهو قول المريسى فهذه أقوال أهل الحيرة والضلال وقد علمت مذهب سلف الامة وأعيان الائمة والله أعلم .

التنبيه الثالث عذاب القبر لا يختص بمن يقبر

(الثالث)

تقدم ان عذاب القبر هو عذاب البرزخ فكل من مات وهو مستحق للعذاب ناله نصيبه منه قبر أو لم يقبر ، وفي صحيح البخارى من حديث سمرة بن جندب رضى الله عنه في ذكر منام النبى صلى الله عليه وسلم الطويل ورؤيته المعذبين كيف يعذبون فانه نص في عذاب البرزخ ،ورؤيا الانبياء وحي مطابق لما في نفس الامر وبالله التوفيق .

التنبيه الرابع قول ابن حزم لا يحيا الميت فى قبره

(الرابع)

زعم أبو محمد بن حزم في كتاب الملل والنحل له أن من ظن الميت يحيا في قبره قبل يوم القيامة فقد أخطأ قال لأن الآيات تمنع من ذلك يعنى قوله تعالى (ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين) وقوله تعالى (كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحيينكم) قال ولو كان الميت يحيا في قبره لكان الله تعالى قد أماتنا ثلاثا وأحيانا ثلاثا ، قال وهذا باطل وخلاف القرآن الا من أحياه الله تعالى آية لنبى من الانبياء والذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم والذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها من خصه نص ، وكذلك قوله تعالى (الله يتوفي الانفس حين موتها والتى لم تمت في منامها فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الاخرى الى أجل مسمى) قال فصح بنص القرآن ان أرواح سائر من ذكرنا لا ترجع الى أجسادهم الا الى أجل مسمى وهو يوم القيامة ،وذكر من مثل هذا تخيلات وهى !يات محكمات حملها على غير محاملها ، ثم قال : ولم يأت قط عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في خبر صحيح ان أرواح الموتى ترد الى أجسادهم عند المسألة ولو صح ذلك لقلنا به ، قال وانما تفرد بهذه الزيادة من رد الارواح الى الاجساد في القبور المنهال ابن عمرو وليس بالقوى تركه شعبة[1] وغيره وقال فيه المغيرة بن مقسم الضبى –وهو أحد الأئمة–:

---

(١) فى الاصلين « سعيد » .

ما جازت للمنهال بن عمرو قط شهادة في الاسلام - على ما قد نقل وسائر الاخبار الثابتة على خلاف ذلك ، قال وهذا الذى قلناه هو الذى صح أيضا عن الصحابة ، وذكر آثارا يزعم انها تدل على ما قال • قال الامام المحقق ابن القيم : ان أراد ابن حزم بقوله من ظن أن الميت يحيا في قبره الحياة المعهودة في الدنيا التى تقوم فيها الروح بالبدن وتصرفه وتدبره ويحتاج معها الى الطعام والشراب واللباس فهذا خطأ كما قال والحس والعقل يكذبه كما يكذبه النص وان أراد به حياة أخرى غير هذه الحياة بل تعاد الروح اليه اعادة غير الاعادة المألوفة في الدنيا ليسئل ويمتحن في قبره فهذا حق ونفيه خطأ وقد دل عليه النص الصحيح الصريح وهو قوله « فتعاد روحه في جسده » في حديث البراء بن عازب رضى الله عنهما قال كنا في جنازة في بقيع الغرقد فأتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقعد وقعدنا حوله كأن على رؤوسنا الطير وهو يلحد فقال « أعوذ بالله من عذاب القبر » ثلاث مرات ثم قال « ان العبد المؤمن اذا كان في اقبال من الآخرة وانقطاع من الدنيا نزلت اليه ملائكة كأن وجوههم الشمس فجلسوا منه مد البصر ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول أيتها النفس المطمئنة اخرجي الى مغفرة من الله ورضوان قال فتسيل كما تسيل القطرة من في السقاء فيأخذها فاذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن وفي ذلك الحنوط ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الارض قال فيصعدون بها - الحديث - وفيه : فيقول الله تعالى اكتبوا كتاب عبدى في عليين وأعيدوه الى الارض فانى منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى ، فتعاد روحه في جسده فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له من ربك ؟ فيقول ربى الله ، فيقولان له ما دينك ؟ فيقول دينى الاسلام ، فيقولان له ما هذا الرجل الذى بعث فيكم ؟ فيقول هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيقولان له وما علمك ؟ فيقول قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت - الحديث - وكذلك في حق الكافر وفيه : فتعاد روحه في جسده ويأتيه ملكان فيجلسانه - الحديث - رواه الامام أحمد وأبو داود وروى النسائى وابن ماجه أوله ورواه أبو عوانة الاسفرائنى •

تعقد ابن القيم

للروح خمس تعلقات بالبدن

قال ابن القيم ان قوله « ثم تعاد روحه في جسده » لا يدل على حياة مستقرة وانما يدل على اعادة لها الى البدن وتعلق به والروح لم تزل متعلقة بدنها وان بلى وتمزق ، وسر ذلك ان الروح لها بالبدن خمسة أنواع من التعلق متغايرة الاحكام (أحدها) تعلقها به في بطن الأم جنينا (الثانى) تعلقها به بعد خروجه الى وجه الارض (الثالث) تعلقها به في حال النوم فلها به تعلق من وجه ومفارقة من وجه (الرابع) تعلقها به في البرزخ فانها وان فارقته وتجردت عنه فانها لم تفارقه فراقا كليا بحيث لا يبقى لها اليه التفات البتة ، وقد ذكرنا من الاحاديث ما يدل على ردها اليه ، وكذلك ثبت انها ترد اليه عند سلام المسلم وهذا الرد اعادة خاصة لا توجب حياة البدن قبل يوم القيامة (الخامس) تعلقها به يوم بعث الاجساد وهو أكمل تعلقاتها بالبدن ولا نسبة لما قبله من أنواع التعلق اليه اذ هو تعلق لا يقبل البدن معه موتا ولا نوما ولا فسادا • وقول ابن حزم في المنهال ما قال تحامل منه بارد فالمنهال ابن عمرو أحد الثقات العدول ، قال الامام يحيى بن معين : المنهال ثقة • وقال العجلي : كوفي ثقة • وأعظم ما قيل فيه انه سمع من بيته صوت غناء ، وهذا لا يوجب القدح في روايته • وتضعيف ابن حزم له غير معتبر فانه لم يذكر موجبا لتضعيفه غير تفرده بقوله «فتعاد روحه في جسده» وقد استدرك عليه زعمه تفرده بها الامام المحقق ابن القيم وبين انه لم ينفرد بها بل رواها غيره ، وقد روى ما هو أبلغ منها ونظيرها كقوله « فترد اليه روحه » وقوله «فيستوى جالسا» وقوله «فيجلسانه» وقوله «فيجلس في قبره» وكلها أحاديث صحاح لا مغمز فيها والاحاديث الصحيحة صريحة بخلاف ما زعم ابن حزم وأطال ابن القيم في ذلك بما يشفى ويكفى وبالله التوفيق •

((فصل))

فصل فى الكلام فى الروح والخلاف فى حقيقتها

في ذكر الروح والكلام عليها وقد أشار الى قطرة من بحر لجي من متعلقاتها فقال :

((وإن أرواح الورى لم تعدم مع كونها مخلوقة فاستفهم))

((و)) مما ينبغى العلم به ((ان أرواح)) بنى آدم جمع روح ، قد اختلف في حقيقتها وهل هى النفس أو غيرها ؟ وهل هى جزء من البدن

أو عرض من أعراضه أو جسم مساكن له مودع فيه أو جوهر مجرد ؟ قد تكلم الناس في هذه المسائل من سائر الطوائف واضطربت فيها أقوالهم وكثر فيها خطاؤهم ، ومن الناس من أمسك عن الكلام والخوض فيها لقوله تعالى (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى) الآية وهدى الله أتباع الرسول وسلف الامة وأهل السنة لما اختلفوا فيه من الحق باذنه والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم . قال الامام ابن القيم بعد ما ساق أقوال الناس في حقيقة الروح على اختلاف مذاهبهم وتباين آرائهم وذكر عدة مذاهب وزيفها ثم قال : والصحيح ان الروح جسم مخالف بالماهية لهذا الجسم المحسوس، وهو جسم نورانى علوى خفيف حي متحرك ينفذ في جوهر الاعضاء ويسرى فيها سريان الماء في الورد وسريان الدهن في الزيتون والنار في الفحم فما دامت هذه الاعضاء صالحة لقبول الآثار الفائضة عليها من هذا الجسم اللطيف بقى هذا الجسم اللطيف متشابكا بهذه الاعضاء وأفادها هذه الآثار من الحس والحركة والارادة، واذا فسدت هذه الأعضاء بسبب استيلاء الاخلاط الغليظة عليها وخرجت عن قبول تلك الآثار فارق الروح البدن وانفصل الى عالم الارواح . قال وهذا القول هو الصواب في المسئلة وهو الذى لا يصح غيره وكل الاقوال سواه باطلة وعليه دل الكتاب والسنة واجماع الصحابة وأدلة العقل والفطرة . وذكر له مائة دليل وخمسة عشر دليلا وأجاد وأفاد وزيف كلام ابن سينا وابن حزم وأمثالهما ونحوهما .

(فائدة)

ذكر بعض المتكلمين ان محل الروح القلب واستدل له بحديث ابن عساكر ان النبى صلى الله عليه وسلم قال « أما النفس ففى القلب والقلب بالنياط والنياط يسقى العروق فاذا هلك القلب انقطع العرق » وهذا حديث مرسل وقال الحافظ ابن حجر في الاصابة : فيه غريب كثير وأسانيده ضعيفة جدا والله أعلم . وأما اختلاف الناس في الروح وهل هى النفس أو غيرها ؟ فمن الناس من قال هما اسمان لمسمى واحد، وهذا قول الجمهور ، وقيل بل هما متغايران ، قال الامام المحقق ابن القيم في كتابه الروح : النفس

معانى النفس

تطلق على أمور (أحدها) الروح قال الجوهرى النفس الروح يقال خرجت نفسه قال أبو خراش :

نجا سالما والنفس منه بشدقه ولم ينج الاجفن سيف ومئزر

أى بجفن سيف ومئزر والنفس الدم يقول سالت نفسه ، وفى الحديث « مالانفس له سائلة لا ينجس الماء اذا مات فيه » ، والنفس الجسد قال الشاعر :

نبئت ان بنى تميم ادخلوا أبياتهم تامور نفس المنذر

والنامور الدم ، والنفس العين يقال أصابت فلانا نفس أى عين • قال ابن القيم : ليس كما قال فالنفس ها هنا الروح ونسبة الاصابة الى العين توسع لانها تكون بواسطة النظر والذى أصابه انما هو نفس العائن • وتطلق النفس على الذات كقوله تعالى (فسلموا على أنفسكم ـ ولا تقتلوا أنفسكم ـ يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها ـ كل نفس بما كسبت رهينة) وتطلق النفس على الروح وحدها كقوله تعالى (يا أيتها النفس المطمئنة ـ وأخرجوا أنفسكم ـ ونهى النفس عن الهوى) وقوله (ان النفس لامارة بالسوء ـ ولا اقسم بالنفس اللوامة) ، وأما الروح فلا تطلق على البدن لا بانفراده ولا مع النفس ، وتطلق الروح على القرآن كقوله تعالى (وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا) ، وعلى الوحي كقوله تعالى (يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق) وقال (وينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده ان أنذروا انه لا اله الا أنا فاتقون) وانما سمى ذلك روحا لما يحصل به من الحياة النافعة فان الحياة بدونه لا تنفع صاحبها البتة بل حياة الحيوان البهيم خير منها وأسلم عاقبة • وسميت الروح روحا لأن بها حياة البدن وكذلك سميت الريح ريحا لما يحصل بها من الحياة وهى من ذوات الواو ولهذا تجمع على أرواح قال الشاعر :

معانى الروح

اذا هبت الارواح من نحو أرضكم وجدت لمسراها على كبدى بردا

ومنها الروح والريحان والاستراحة ، فسميت النفس روحا لحصول الحياة بها وسميت نفسا اما من الشيء النفيس لنفاستها وشرفها واما من تنفس الشيء اذا خرج فلكثرة خروجها ودخولها في البدن سميت نفسا، ومنه النفس

بالتحريك ، فان العبد كلما نام خرجت منه فاذا استيقظ رجعت اليه فاذا مات خرجت خروجا كليا فاذا دفن عادت اليه فاذا سئل خرجت فاذا بعث عادت اليه أي رجعت له • قال الامام ابن القيم فالفرق بين النفس والروح فرق بالصفات لا فرق بالذات وانما سمى الدم نفسا لان خروجه الذى يكون مع الموت يلازم خروج النفس وأن الحيـاة لا تتم الا به كما لا تتم الا بالنفس فلهذا المعنى قال السموأل :

الفـرق بين النفس والروح بالصـفات لا بالذات

تسيل على حد الظبات نفوسنا وليست على غير الظبات تسـيل

ويقال فاضت نفسه وخرجت نفسه وفارقت كما يقال خرجت روحـه وفارقت ولكن الفيض الاندفاع بكثرة وسرعة يقال أفاض اذا دفع باختياره وارادته وفاض اذا دفع قهرا وقسرا فالله سبحانه هو الذى يفيضها عنـد الموت فتفيض هى • وقالت فرقة من أهل الحديث والفقه والتصوف:الروح غير النفس ، قال مقاتل بن سليمان للانسان حيـاة وروح ونفس فاذا نام خرجت نفسه التى يعقل بها الاشياء ولم تفارق الجسد بل تخرج كحبـل ممتد له شعاع فيرى الرؤيا بالنفس التى خرجت منه وتبقى الحياة والروح في الجسد فبه ينقلب ويتنفس فاذا حرك رجعت اليه الروح (؟) أسرع من طرفة عين فاذا أراد الله تعالى أن يميته فى المنام أمسك تلك النفس التى خرجت • وقال أيضا : اذا نام خرجت نفسه وصعدت الى فوق فاذا رأت الرؤيا رجعت فاخبرت الروح وتخبر الروح القلب فيصبح ويعلم انه قد رأى كيت وكيت• وقال أبو عبد الله ابن منده من علمائنا : ثم اختلفوا في معرفة الروح والنفس فالنفس طينية نارية والروح نورية روحانيـة • وزعم بعضهم أن الروح لاهوتية والنفس ناسوتية وأن الخلق بها ابتلى •• وقال طائفة من أهـل الاثر أن الروح غـير النفس والنفس غير الروح وقـوام النفس بالروح ، والنفس صورة العبد والهوى والشهوة والبلاء معجون فيها ولا عدو أعدى لابن آدم منها ، فالنفس لا تريد الا الدنيا ولا تحب الا اياها ، والروح تدعو الى الآخرة وتؤثرها ، وجعل الهوى تبعا للنفس والشـيطان مع النفس والهوى ، وجعل الملك مع العقل والروح والله سبحانه وتعالى يمدهما بالهامه وتوفيقه • وقال بعضهم الارواح من أمر الله أخفى حقيقتها وعلمهـا عن

الخلق • وقال بعضهم الارواح نور من نور الله وحياة من حياة الله • وقالت طائفة للمؤمن ثلاث أرواح وللكافر والمنافق روح واحدة • وقال بعضهم للانبياء والصديقين خمس أرواح • وقال بعضهم الارواح روحانية خلقت من الملكون فان صفت رجعت الى الملكوت • ذكر هذا كله الامام ابن القيم في كتابه الروح ثم قال قلت الروح التى تتوفي وتفيض روح واحدة وهى النفس وأما ما يؤيد الله به أولياءه من الروح فهى روح أخرى غير هذه الروح كما قال تعالى (أولئك كتب في قلوبهم الايمان وأيدهم بروح منه) وكذا التى أيد بها عيسى بن مريم عليه السلام في قوله تعالى (اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك اذ أيدتك بروح القدس) وكذلك الروح التى يلقيها على من يشاء من عباده هى غير الروح التى في البدن ، وأما القوى التى في البدن وان أطلق عليها أرواحا[1] كما يقال الروح الباصرة والروح السامعة والروح الشامة فهى قوى مودعة في الابدان تموت بموت الابدان وهى غير الروح التى لا تموت بموت البدن ولا تبلى كما يبلى ، قال وتطلق الروح على أخص من هذا كله وهو قوة المعرفة بالله تعالى والانابة اليه ومحبته وانبعاث الهمة الى طلبه وارادته ونسبة هذا الى الروح كنسبة الروح الى البدن فاذا فقدتها الروح كانت بمنزلة البدن اذا فقد روحه وهى الروح التى يؤيد بها أهل ولايته ، ولهذا يقال فلان فيه روح وفلان ما فيه روح ، وللمحبة روح ، وللانابة روح ، وللتوكل والصدق روح ، والناس متفاوتون في هذه الارواح أعظم تفاوت فمنهم من تغلب عليه هذه الارواح فيصير روحانيا ومنهم من يفقدها أو أكثرها فيصير أرضيا بهيميا والله المستعان ((الورى)) محله جر بالاضافة الى الارواح أىأرواح الورى،قال في القاموس : والورى كفتى الخلق•والمراد بنو آدم ومثلهم الجن فيما يظن لان التكليف والمعاد والحساب يشملهم ((لم تعدم)) بموت الابدان التى كانت فيها ولا تموت هى ولا تفنى ، وزعمت طائفة انها تموت وتذوق الموت لأنها نفس وكل نفس ذائقة الموت ، قالوا : ودلت الادلة على انه لا يبقى الا الله

---

(١) قوله وان أطلق عليها أرواحا الخ الذى فى كتاب الروح « فانها تسمى أيضا أرواحا » الخ ولا يخلو كثير نقله من مثل هذا التصرف ولا نتعرض له ا هـ مصححه

تعالى وحده كما قال تعـــالى (كل من عليها فان ويبقى وجـــه ربك ذو الجلال والاكرام) وقال تعالى (كل شيء هالك الا وجهه له الحكم واليه ترجعون) قالوا واذا كانت الملائكة تموت فالنفوس البشرية أولى والدليل على عدمها عدم قدمها ولهذا قال الصواب عـدم عدمها ((مع كونها)) أى الارواح ((مخلوقة)) لله تعالى ومحدثة ومربوبة أوجدها بعد أن لم تكن ((فاستفهم)) أى اطلب علم ذلك من مظانه واستكشفه من مكامنه، يقال فهم كفرح فهما ويحرك وهى أفصح وفهامة وفهامية علم الشيء وعرفه بالقلب وهو فهم ككتف سريع الفهم واستفهمنى طلب منى فهم المطلوب فأفهمته وفهمته ، فالفهم قوة من شأنها ان تعد النفس لاكتساب الآراء،والذكاءجودة تلك القوة، والذهن قيل يرادف الفهم وقدمه في القاموس فقال: الذهن بالكسر الفهم والعقل وحفظ القلب والفطنة • وقال غيره الذهن هو نفس القـوة والفهم استعمالها • وانما حث على طلب الفهم في ذلك وامعـــان التدقيق لادراك تلك المدارك لاختلاف مقالات الناس في هذا المقام ولانه مزلة أقدام ومظنة أوهام • وحاصل ذلك انه ذكر مسألتين عظيمتين الاولى أن الروح مخلوقة ومحدثة والثانية ان العدم لا يدركها والفناء لا يلحقها، ولنذكر أدلة كل مسئلة وحكمها وما فيها من الخطأ والصواب على حدتها، ولنقدم أولا ما أخره في النظم نظرا للواقع فنقول :

الفهم والذكـاء والذهن

مسألتان الأولى الروح مخلوقة باجماع الرسل

اعلم رحمك الله ان هذه المسئلة زل فيها عالم وضل فيها طوائف من بنى آدم وهدى الله اتباع رسله فيها للحق المبين والصواب المستبين فأجمعـت الرسل صلوات الله وسلامه عليهم على ان روح الانسان محدثة مخلوقة مصنوعة مربوبة مدبرة وهذا معلوم بالاضطرار من دين الرسل صـلوات الله وسلامه عليهم كما يعلم بالاضطرار من دينهم ان العالم حادث وان معاد الابدان واقع وان الله تعالى وحده الخالق وكل ما سواه مخلوق له ، وقد انطوى عصر الصحابة والتابعين وتابعيهم وهم القرون المفضلة على ذلك من غير اختلاف بينهم في حدوثها وانها مخلوقة حتى نبغت نابغة ممن تصرفهمه في الكتاب والسنة فزعم انها قديمة غير مخلوقة واحتج لذلك انها من أمر الله وأمر الله غير مخلوق وبأن الله أضافها اليه كما أضاف اليه علمه وكتابه

وقدرته وسمعه وبصره ويده • وتوقف آخرون فقالوا لا نقول مخلوقةولا غير مخلوقة •

كلام ابن منده في خلق الروح

وقد سئل عن ذلك حافظ اصبهان أبو عبد الله ابن‌منده من أعيان‌علمائنا فقال : أما بعد فأن سائلا يسأل عن الروح التي‌جعلها الله سبحانه‌قوام‌أنفس الخلق وأبدانهم وذكر أقواما تكلموا في الروح وزعموا أنها غير مخلوقة وخص بعضهم منها أرواح القدس وانهامن ذات الله، قال وأنا أذكر أقاويل متقدميهم وأبين ما يخالف أقاويلهم من الكتاب والاثر وأقاويل الصحابة والتابعين وأهل العلم وأوضح به خطأ المتكلم‌في الروح بغير علم وان كلامهم يوافق قول جهم بن صفوان وأصحابه • فذكر أن الناس اختلفوا في معرفة الارواح ومحلها من النفس فقال بعضهم الارواح كلها مخلوقة ، قال وهذا مذهب أهل الجماعة والاثر واحتجت بقول النبي صلى الله عليه وسلم «الارواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف» رواه الامام أحمد ومسلم وأبو داودمن حديث ابى هريرةرضى الله عنه، ورواه البخارى من حديث عائشة رضى الله عنها ، ورواه الطبرانى من حديث‌ابن مسعود رضى الله عنه ، وروى أيضا من حديث سلمان الفارسى وعبدالله بن عباس وأمير المؤمنين على بن أبي طالب وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عنبسة رضى الله عنهم أجمعين ، والجنود المجندة لا تكون الا مخلوقة • وقال بعضهم الارواح من أمر الله أخفى الله حقيقتها وعلمها عن الخلق واحتجت بقوله تعالى (قل الروح من أمر ربى) وقال بعضهم الارواح‌نور من الله تعالى وحياة من حياته واحتجوا بقول النبي صلى الله‌عليه وسلم«ان الله خلق خلقه في ظلمة ثم ألقى عليهم من نوره ـ وتمام الحديث ـ فمن أصابه من ذلك النور يومئذ اهتدى ومن أخطأه ضل » رواه الامام أحمد والترمذى والحاكم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما • وقال محمد بن نصر المروزى فى كتابه تأول صنف من الزنادقة

أقوال المخالفين

وصنف من الروافض في روح ابن آدم ماتأولته النصارى في روح‌عيسى وما تأوله قوم من أن الروح انفصل من ذات الله تعالى وتقدست اسماؤه فصار في المؤمن فعبد صنف من النصارى عيسى ومريم جميعا لان عيسى عندهم

روح الله فصار في مريم فهو غير مخلوق عندهم • وقال صنف من الزنادقة وصنف من الروافض ان روح آدم عليه السلام مثل ذلك انه غير مخلوق وتأولوا قوله (ونفخت فيه من روحي) وقوله (ثم سواه ونفخ فيه من روحه) فزعموا ان روح آدم ليس بمخلوق كما تأول من قال ان النور من الرب غير مخلوق ، قالوا ثم صار بعد آدم في الوصي بعده ثم هو في كل نبي ووصي الى ان صار في علي بن أبي طالب رضي الله عنه ثم في ابنيه الحسن والحسين رضي الله عنهما ثم في كل وصي وامام فبه يعلم الامام كل شيء لا يحتاج ان يتعلم من أحد • قال ولا خلاف بين المسلمين ان الارواح في آدم وبنيه عيسى ومن سواه من بني آدم كلها مخلوقة لله خلقها وأنشأها وكونها وأخبر عنها ثم أضافها الى نفسه كما أضاف اليه سائر خلقه قال تعالى (وسخر لكم ما في السموات وما في الارض جميعا منه)

كلام شيخ الاسلام

وقال شيخ الاسلام ابن تيمية روح الله روحه : روح الآدمي مخلوقة مبتدعة باتفاق الامة وأئمتها وسائر أهل السنة ، وقد حكى اجماع العلماء على انها مخلوقة غير واحد من أئمة المسلمين مثل محمد بن نصر المروزي الامام المشهور الذي هو من أعلم أهل زمانه بالاجماع والاختلاف وكذلك أبو محمد ابن قتيبة • وقال الامام أبو اسحق ابن شاقلا من أئمة علمائنا وهذا - يعني كون الروح مخلوقة - مما لا يشك فيه من وفق للصواب ان الروح من الاشياء المخلوقة •

كلام ابن القيم

قال الامام المحقق ابن القيم في كتابه الروح ، قد تكلم في هذه المسئلة طوائف من أكابر العلماء والمشايخ وردوا على من يزعم انها غير مخلوقة وصنف الحافظ أبو عبد الله ابن منده في ذلك كتابا كبيرا وقبله الامام محمد ابن نصر المروزي وغيره والشيخ أبو سعيد الخراز وأبو يعقوب النهرجوري والقاضي أبو يعلى وقد نص على ذلك الائمة الكبار واشتد نكيرهم على من يقول ذلك في روح عيسى بن مريم عليه السلام فكيف بروح غيره كما ذكره

رد الأمام احمد على الزنادقة والجهمية

الامام أحمد رضي الله عنه في ما كتبه في محبسه في الرد على الزنادقة والجهمية - قال : ثم ان الجهمي ادعى أمرا فقال انا أجد آية في كتاب الله مما يدل على ان القرآن مخلوق قول الله تعالى (انما المسيح عيسى بن مريم

رسول الله وكلمته ألقاها الى مريم وروح منه) وعيسى مخلوق . قلنا له ان الله منعك الفهم للقرآن ان عيسى تجرى عليه ألفاظ لا تجرى على القرآن لانا نسميه مولودا وطفلا وصبيا وغلاما يأكل ويشرب وهو مخاطب بالامر والنهى ويجرى عليه الخطاب والوعدوالوعيد ثم هومن ذرية نوح ومن ذرية ابراهيم فلا يحل لنا ان نقول في القرآن ما نقول في عيسى - الى ان قال - والكلمة التى ألقاها الى مريم حين قال له كن فكان عيسى بكن وليس عيسى هو كن ولكن كان بكن فكن من الله قولا وليس كن مخلوقا ، وكذبت النصارى والجهمية على الله في أمر عيسى ، وذلك ان الجهمية قالوا روح الله وكلمته الا أن كلمته مخلوقة ، وقالت النصارى عيسى روح الله وكلمته فالكلمة من ذاته كما يقال هذه الخرقة من هذا الثوب ، قلنا نحن ان عيسى بالكلمة كان وليس هو الكلمة وانما الكلمة قول الله وقوله تعالى (وروح منه) يقول من أمره كان الروح فيه كقوله (وسخر لكم ما في السموات وما في الارض جميعا منه) يقول من أمره ، وتفسير روح الله انما معناها بكلمة الله كما يقال عبد الله وسماء الله وأرض الله . فقد صرح بأن روح المسيح مخلوقة فكيف بسائر الارواح وقد أضاف الله اليه روح الذى أرسله الى مريم وهو عبده ورسوله ولم يدل ذلك على انه قديم غير مخلوق فقال تعالى (فأرسلنا اليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا * قالت أنى أعوذ بالرحمن منك ان كنت تقيا * قال أنما أنا رسول ربك) فهذا الروح هو روح الله وهو عبده ورسوله .

الاضافة الى الله نوعان

ومما ينبغى ان يعلم ان المضاف الى الله سبحانه نوعان صفات لا تقوم بأنفسها كالعلم والقدرة والكلام والسمع والبصر وهذه اضافة صفة الى الموصوف بها فالعلم والقدرة الخ صفات له تعالى غير مخلوقة وكذا وجهه ويده ونحو ذلك من الصفات الخبرية والذاتية وكذا الفعلية من التكوين والمحبة والرضا ونحوها ، في مذهب السلف كما مر (والثانى) اضافة أعيان منفصلة كبيت الله وناقة الله وعبد الله ورسول الله وكذلك روح الله فهذه اضافة مخلوق الى خالقه ومصنوع الى صانعه لكنها تقتضى تخصيصا أو تشريفا يتميز به المضاف اليه عن غيره كبيت الله وان كانت كل البيوت لله

ملكا له وكذلك ناقةالله والنوق كلها ملكه وخلقه ولكن هذه اضـــافة الى الهيته تقتضى محبته لها وتكريمه وتشريفه بخلاف الاضافة العامةالى ربوبيته حيث تقتضى خلقه وايجاده فالاضافة العامة تقتضى الخلق والايجاد والخاصة تقتضى الاختيار (والله يخلق ما يشاء ويختار) فاضافة الروح اليه تعـالى من هذه الاضافة الخاصة لا من العامة ولا من باب اضافة الصفات فتأمل هذا الموضع فانه نفيس ويخلصك من ضلالات كثيرة وقع فيها من شاء الله من الناس كما أوضحه وبرهن عليه وبينه الامام المحقق ابن القيم في كتابه الروح وقال ان الروح توصف بالوفاة والقبض والامساك والارسال وهذا من شأن المحدث المربوب وأطال في الاحتجاج ودفع مقالات أهل البدع واللجـــاج وثمرة ذلك كون الروح مخلوقة بالاجماع والله تعالى الموفق •

المسألة الثانية

المسألة الثانيـة فى عدم فنـــاء الروح

مما ذكر في أصل العقيدة بقاء الارواح وانه لا يلحقها عدم ولا فناء ولا اضمحلال لانها خلقت للبقاء وانما تموت الابدان وقد دلت على هذا الاحاديث الدالة على نعيم الإرواح وعذابها بعد مفارقتها لابدانها الى أن يرجعها الله تعالى اليها ولو ماتت الارواح لانقطع عنها النعيم والعذاب وقد قال الله تعالى (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون * فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهـــم من خلفهم) مع القطع بأن أرواحهم قد فارقت أجسادهم وقد ذاقت الموت، قال المحقق ابن القيم : الصواب ان موت النفوس هو مفارقتها الاجسادها وخروجها منها فأن اريد بموتها هذا القدر فهى ذائقة الموت وان أريد انها تعدم وتضمحل وتصير عدما محضا فانها لا تموت بهذا الاعتبار بل هى باقية بعد خلقها في نعيم أو عذاب ، وقد نظم أحمد بن الحسين الكندى هذا الاختلاف في قوله :

تنازع النـــاس حتى لا اتفاق لهم الا على شجب والخلف في الشجب
فقيل تخلص نفس المرء سـالمة وقيـل تشرك جسم المرء في العطب

هل تموت عند النـــفخ فـى الصور ؟

الشجب بالشين المعجمة والجيم فموحدة محركا الحزن والعنت يصيب من مرض أو قتال كما في القاموس • فان قيل فبعد النفخ في الصور هل تبقى الارواح حية كما هى أو تموت ثم تحيا ؟ فالجواب قد قال الله تعالى (ونفخ

من المستثنى من الصعق

في الصور فصعق من السموات ومن في الارض الا من شاءالله) فقد استثنى الله تعالى بعض من في السموات ومن في الارض من هذا الصعق فقيل هم الشهداء ، وهذا قول أبى هريرة وابن عباس رضى الله عنهم وسعيد بن جبير رحمه الله وقيل هم جبريل وميكائيل واسرافيل وملك الموت ، وهو قول مقاتل وغيره ، وقيل هم الذين في الجنة من الحورالعين وغيرهم ومن في النار من أهل العذاب وخزنتها ، قال الامام أبو اسحاق ابن شاقلا من أصحابنا ، وقد نص امامنا الامام أحمد رضى الله عنه على ان الحور العين والولدان لا يموتون عند النفخ في الصور ، وقد أخبرنا سبحانه ان أهل الجنة (لا يذوقون فيها الموت الا الموتة الاولى) وهذا نص على انهم لا يموتون غير تلك الموتة الاولى فلو ماتوا مرة ثانية لكانت موتتان ، وأما قول أهل النار (ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين) فتفسر هذه الآية الآية التى في سورة البقرة وهى قوله تعالى (كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم فكانوا أمواتا وهم نطف في أصلاب آبائهم وفي أرحام أمهاتهم ثم أحياهم بعد ذلك ثم أماتهم ثم يحييهم يوم النشور وليس في ذلك اماتة ارواحهم قبل يوم القيامة والا كانت ثلاث موتات •

وصعق الأرواح عند النفخ في الصور لا يلزم منه موتها ففى الحديث الصحيح « ان الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق فاذا موسى آخذ بقائمة العرش فلا ادرى أفاق قبلى أم جوزى بصعقة يوم الطور» فهذا صعق في موقف القيامة اذا جاء الله لفصل القضاء وأشرقت الارض بنوره فحينئذ يصعق الخلائق كلهم قال تعالى (فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذى فيه يصعقون) ولو كان هذا الصعق موتا لكانت موتة أخرى • قال الامام المحقق ابن القيم في كتاب الروح : وقد تنبه لهذا جماعة من الفضلاء فقال ابو عبد الله القرطبى : ظاهر هذا الحديث ان هذه صعقة غشى تكون يوم القيامة لا صعقة الموت الحادثة عند نفخ الصور ، قال وقد قال شيخنا أحمد بن عمرو : ظاهر حديث النبى صلى الله عليه وسلم يدل على ان هذه الصعقة انما هى بعد النفخة الثانية نفخة البعث ونص القرآن يقتضى ان ذلك الاستثناء انما هو بعد نفخة الصعق ، ولما كان هذا قال بعض العلماء يحتمل

ان يكون موسى عليه السلام ممن لم يمت من الانبياء • وهذا باطل • وقال القاضى عياض يحتمل أن يكون المراد بهذه صعقة فزع بعد النشور حين تنشق السموات والارض قال فتنسق الاحاديث والآثار • ورد عليه أبو العباس القرطبى فقال يرد هذا قوله في الحديث الصحيح انه حين يخرج من قبره يلقى موسى آخذا بقائمة العرش ، قال وهذا انما هو عند نفخة الفزع • قال أبو عبد الله القرطبى قال شيخنا أحمد بن عمرو الذى يزيح هذا الاشكال ان شاء الله تعالى ان الموت ليس بعدم محض وانما هو انتقال من حال الى حال ويدل على ذلك ان الشهداء بعد موتهم وقتلهم أحياء عند ربهم يرزقون فرحين وهذه صفة الاحياء في الدنيا ، واذا كان هذا في الشهداء كان الانبياء بذلك أحق وأولى ، مع انه قد صح عن النبى صلى الله عليه وسلم ان الارض لا تأكل أجساد الانبياء وانه صلى الله عليه وسلم اجتمع بالانبياء ليلة الاسراء في بيت المقدس وفي السماء وخصوصا بموسى عليه وعليهم السلام ، وقد أخبر نبينا صلى الله عليه وسلم انه ما من مسلم يسلم عليه الا رد الله عليه روحه حتى يرد عليه السلام الى غير ذلك مما يحصل من جملته القطع بأن موت الانبياء انما هو راجع الى أنهم غيبوا عنا بحيث لا ندركهم وان كانوا موجودين أحياء وذلك كالحال في الملائكة فأنهم أحياء موجودون ولا نراهم ، واذا تقرر أنهم أحياء فاذا نفخ في الصور نفخة الصعق صعق كل من في السموات والارض الا من شاء الله فاذا صعق غير الانبياء موت ، وأما صعق الانبياء فالاظهر انه غشية فاذا نفخ في الصور نفخة البعث فمن مات حيي ومن غشى عليه أفاق ، ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم في الحديث المتفق على صحته « فأكون أول من يفيق » فنبينا صلى الله عليه وسلم أول من يخرج من قبره قبل جميع الناس الا موسى فانه حصل فيه تردد هل بعث قبله من غشيته أو بقى على الحالة التى كان عليها قبل نفخة الصعق مفيقا لانه حوسب بصعقة يوم الطور ، وهذه فضيلة عظيمة لموسى عليه السلام ، ولا يلزم من فضيلة واحدة فضيلة موسى عليه السلام على نبينا مطلقا لأن الشيء الجزئى لا يوجب أمرا كليا • انتهى • قال أبو عبد الله القرطبى ان حمل الحديث على صعقة الخلق يوم القيامة فلا

اشكال وان حمل على صعقة الموت عند النفخ في الصور فيكون ذكر يوم القيامة مرادا به أوائله فالمعنى اذا نفخ في الصور نفخة البعث كنت أول من يرفع رأسه فاذا موسى آخذ بقائمة من قوائم العرش فلا أدرى أفاق قبلي أم جوزى بصعقة الطور • قال المحقق ابن القيم وحمل الحديث على هذا لا يصح لانه صلى الله عليه وسلم تردد هل أفاق موسى قبله أو لم يصعق• بل جوزي بصعقة الطور ، فالمعنى لا أدرى أصعق أم لم يصعق ، وقد قال في الحديث فأكون أول من يفيق ، وهذا يدل على انه صلى الله عليه وسلم يصعق فيمن يصعق ، ولو كان المراد به الصعقة الاولى وهى صعقة الموت لكان قد جزم بموته وتردد هل مات موسى أو لم يمت ، وهذا باطل لوجوه كثيرة ، فعلم انها صعقة فزع لا صعقة موت ، وحينئذ فلا تدل الآية على أن الارواح تموت عند النفخة الاولى ، نعم تدل على موت الخلائق عند النفخة الاولى وكل من لم يذق الموت قبلها فانه يذوقه حينئذ وأما من ذاق الموت أو لم يكتب عليه الموت فلا تدل الآية على انه يموت موتة ثانية والله أعلم (١)•

(تتمـــــــة)

(مسائل مما نحن بصدده من أمر الروح)

تتمة فى مسائل

الأولى الأرواح خلقت قبل أم الاجساد ؟ دلائل تقدم الأرواح

(الاولى) اختلف في خلق الارواح هل كان قبل الاجساد أو تأخر عنها ؟ فللناس فيها قولان معروفان حكاهما شيخ الاسلام ابن تيمية وتلميذه المحقق ابن القيم وغيرهما وممن ذهب الى تقدم خلق الارواح على الاجساد محمد بن نصر المروزى وأبو محمد ابن حزم بل حكاه ابن حزم اجماعا ، واحتج من قال بذلك بحجج منها قوله تعالى (ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا) وثم للترتيب والمهلة فقد تضمنت الآية الكريمة ان خلقنا مقدم على أمر الله الملائكة بالسجود لآدم ومن المعلوم قطعا ان أبداننا حادثة بعد ذلك فعلم انها الارواح ، قالوا ويدل عليه قوله

آية (واذا أخذ ربك)وتفسيرها

تعالى (واذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذرياتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى) وهذا الاستنطاق والاشهاد انما كان

(١) راجع كتاب الروح فان فيه كلاما فى الاحاديث وان رواية « أم كان ممن استثنى الله » خطأ • والصواب رواية « أم جوزى بصعقة يوم الطور »•

لأرواحنا اذ لم تكن الابدان حينئذ موجودة ، ففى موطأ الامام مالك أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه سئل عن هذه الآية (واذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذرياتهم) فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يسئل عنها فقال « خلق الله آدم ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذريته فقال خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون وخلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون » فقال رجل يا رسول الله ففيم العمل ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ان الله اذا خلق الرجل للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنةفيدخل به الجنة ، واذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال اهل النار فيدخله به النار » قال الحاكم هذا حديث على شرط مسلم • وروى الحاكم من حديث أبى هريرة مرفوعا « لما خلق الله آدم مسح ظهره فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها الى يوم القيامة أمثال الذر ثم جعل بين عينى كل انسان منهم وبيصا من نور ثم عرضهم على آدم فقال من هؤلاء يا رب ؟ فقال : هؤلاء ذريتك ، فرأى رجلا منهم اعجبه وبيص ما بين عينيه فقال يا رب من هذا ؟ فقال : هذا ابنك داود يكون في آخر الامم ، قال كم جعلت له من العمر ؟ قال ستين سنة ، قال يا رب زده من عمرى أربعين سنة ، فقال الله اذا يكتب فيختم فلا يبدل ، فلما انقضى عمر آدم جاءه ملك الموت قال : أو لم يبق من عمرى أربعون سنة ؟ فقال : أو لم تجعلها لابنك داود ؟ قال فجحد فجحدت ذريته ، ونسى فنسيت ذريته ، وخطىء فخطئت ذريته » قال الحاكم : هذا على شرط مسلم • ورواه الترمذي وقال : هذا حديث حسن صحيح • ورواه الامام أحمد من حديث ابن عباس رضى الله عنهما قال : لما نزلت آية الدين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أول من جحد آدم عليه السلام » وزاد ابن سعد : ثم أكمل الله لآدم ألف سنة ولداود مائة سنة • وفي صحيح الحاكم أيضا عن أبى بن كعب رضى الله عنه في قوله تعالى (واذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم) الآية قال جمعهم له يومئذ جميعا ما هو كائن الى يوم القيامة فجعلهم أرواحا ثم صورهم واستنطقهم فتكلموا وأخذ عليهم العهد والميثاق وأشهدهم على

أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا ان تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين • قال : فانى أشهد عليكم السموات السبع والارضين السبع وأشهد عليكم أباكم آدم أن تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين فلا تشركوا بى شيئا فانى أرسل اليكم رسلا يذكرونكم عهدى وميثاقى وانزل عليكم كتبى • فقالوا انا نشهد انك ربنا وآلهنا لا رب لنا غيرك • ورفع لهم أبوهم آدم فرأى فيهم الغنى والفقير وحسن الصورة وغير ذلك فقال رب لو سويت بين عبادك ، فقال انى احب أن أشكر ، ورأى فيهم الانبياء مثل السرج وخصوا بميثاق آخر بالرسالة والنبوة فذلك قوله تعالى) واذ أخذنا من النبيين ميثاق ومنك ومن نوح) وهو قوله (فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله) وهو قوله (هذا نذير من النذر الاولى) وقوله (وما وجدنا لأكثرهم من عهد وان وجدنا اكثرهم لفاسقين) قال وكان روح عيسى من تلك الارواح التى أخذ عليها الميثاق فأرسل ذلك الروح الى مريم حين انتبذت من أهلها مكانا شرقيا فدخل من فيها • وهذا اسناد صحيح • وأخرجه اسحاق بن راهويه ، ورواه محمد بن نصر المروزى من حديث عبد الله بن سلام ، وقد روى ذلك من وجوه متعددة عن جماعة من الصحابة متعددة وفيه انه أخرجهم مثل الذر ومثل اللؤلؤ بياضا • وروى اسحاق ثنا روح بن عبادة ثنا موسى بن عبيدة الربذى قال سمعت محمد بن كعب القرظى يقول فى هذه الآية اقروا له بالايمان والمعرفة الارواح قبل أن تخلق أجسادها • قال وثنا الفضل بن موسى عن عبد الملك عن عطاء في هذه الآية قال أخرجوا من صلب آدم حين اخذ الميثاق ثم ردوا في صلبه • وأخرج عن الضحاك قال ان الله اخرج من ظهر آدم يوم خلقه ما يكون الى يوم القيامة فأخرجهم مثل الذر فقال ألست بربكم قالوا بلى قالت الملائكة شهدنا ان تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين ، ثم قبض قبضة بيمينه فقال : هؤلاء في الجنة ، وقبض أخرى وقال : هؤلاء في النار • واحتجوا أيضا بما أخرجه الامام (ابو) عبد الله ابن منده من حديث عمرو بن عبسة رضى الله عنه مرفوعا ان الله خلق أرواح العباد قبل العباد بألفى عام فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف

دلائـــل تأخر الأرواح

وقال الآخرون بل خلقت الاجساد قبل الارواح واحتجوا بحجـج منها قوله تعالى (يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى) وهذا خطاب للانسان الذى هو روح وبدن فدل ان جملته مخلوقة بعد خلق الابوين واصرح منه قوله (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء) وهذا صريح في ان خلق جملة النوع الانسانى بعد حلق اصله • وأيضا فخلق أبى البشر وأصلهم كـــان هكذا فان الله أرسل جبريل فقبض قبضة من الارض ثم خمرها حتى صـــارت طينا ثم صوره ثم نفخ فيه الروح بعد أن صوره فلما دخلت الروح فيه صار لحما ودما حيا ناطقا ففى تفسير ابى مالك وأبى صالح عن ابن عباس رضى الله عنهما وعن مرة عن ابن مسعود رضى الله عنه وعن ناس من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم : لمـا فرغ الله من خلق ما أحب استوى على العرش فجعل ابليس على ملك السماء الدنيا وكان من قبيلة من الملائكة يقال لهم الجن وانما سموا الجن لانهم خزان الجنة وكان ابليس مع ملكه خازنا فوقع فى صدره وقال ما أعطانى الله هذا الا لمزية لى ، وفي لفظ الا لمزية لى على الملائكة • فلما وقع ذلك الكبر في نفسه اطلع الله على ذلك منه فقال الله تعالى للملائكته انى جاعل فى الارض خليفة ـ وذكر الاثر الى ان قال : فبعث جبريل الى الارض ليأتيه بطين منها فقالت الارض انى أعوذ بالله منك ان تقبض منى ، فرجع ولم يأخذ وقال : رب انها عاذت بك فأعذتها ، فبعث ميكائيل فعاذت منه فأعادها ، فبعث ملك الموت فعاذت منه فقال : وأنا أعوذ بالله أن أرجع ولم انفذ أمره ، فأخذ من وجه الارض وخلط فلم يأخذ من مكان واحد ، فأخذ من تربة حمراء وبيضاء وسوداء ، فلذلك خرج بنو آدم مختلفين ، فصعد به قبل الرب حتى عاد طينا لازبا واللازب هو الذى يلزق بعضه ببعض ثم قال للملائكة (انى خالق بشرا من طين فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين) فخلقه الله بيده لكيلا يتكـــبر ابليس عنه ليقول له تتكبر عما عملت بيدى ولم أتكبر أنا عنه ، فخلقه بشرا فكان جسدا من طين أربعين سنة فمرت به الملائكة ففزعوا منه لما رأوه وكان أشدهم فزعا منه ابليس فكان يمر به فيضربه فيصوت الجسد كما يصــوت

الفخار يكون له صلصلة فذلك حين يقول (من صلصال كالفخار) ويقول لامر ما خلقت ودخل من فيه وخرج من دبره فقال للملائكة لا ترهبوا من هذا فان ربكم صمد وهذا أجوف لئن سلطت عليه لأهلكنه، فلما بلغ الحين الذى يريد الله جل ثناؤه ان ينفخ فيه الروح قال للملائكة اذا نفخت فيه الروح فاسجدوا له ، فلما نفخ فيه الروح فدخل الروح في رأسه عطس فقالت الملائكة قل الحمدلله فقال الحمد لله فقال الله يرحمك ربك، فلما دخل الروح فى عينيه نظر الى ثمار الجنة فلما دخل في جوفه اشتهى الطعام قبـــل أن يبـلغ الروح رجليه فنهض عجلان الى ثمار الجـــنة فذلك حين يقول الله تعالى (خلق الانسان من عجل) — وذكر باقى الحديث • فالقرآن والحـديث والآثار تدل على انه سبحانه نفخ فيه من روحه بعد خلق جسده فمن تلك النفخة حدثت فيه الروح ولو كانت روحه مخلوقة قبل بدنه مع جمـــلة أرواح ذريته لما عجبت الملائكة من خلقه ، ولا تعجبوا من خلق النار فى حديث ابن زيد « ان الله لما خلق النار ذعرت منها الملائكة ذعرا شـــديدا وقالوا ربنا لم خلقت هذه النار ولاى شيء خلقتها ؟ قال لمن عصانى من خلقى ولم يكن لله خلق يومئذ الا الملائكة والارض ليس فيها خلق انما خلق آدم بعد » — الحديث • فلو كانت الارواح مخلوقة يومئذ لما تعجبت الملائكة من خلق النار وقالت لأى شيء خلقتها وهى ترى أرواح بنى آدم فيهم المؤمن والكافر والطيب والخبيث • ولأن النبى صلى الله عليه وسلم اخبر في الحديث الصحيح الذى في الصحيحين وغيرهما من حديث ابن مسعود رضى الله عنه « ان خلق ابن آدم يجمع في بطن أمه أربعين يوما نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يرسل اليه الملك فينفخ فيـــه الروح » فالملك وحده يرسل اليه فينفخ فيه فاذا نفخ فيـه كان ذلك سبب حدوث الروح فيه ولم يقل يرسل الملك اليه بالروح فيدخلها في بدنه ، وانما أرسل اليه الملك فأحدث فيه الروح بنفخته فيه لا انه تعالى أرسل اليه الروح التى كانت موجودة قبل ذلك بالزمن الطويل مع الملك ففرق بين ان يرسل اليه ملك ينفخ فيه الروح وبين ان يرسل اليه روح مخلوقة قائمة بنفسها مع الملك ، وتامل ما دل عليه النص قال ابن القيم في كتـــابه الروح

واختار أن خلق الجسد مقدم على خلق الروح وزيف كلام ابـــن حزم وغيره بما يطول ذكره ، وحاصل ما ذكر أن الذى استدلوا به من أخذالله الميثاق على ذرية آدم والعهد والاشهاد لا يدل على تقدم خلق الارواح قبل الاجساد خلقا مستقرا وانما غايتها ان تدل على اخراج صورهم وأمثالهم في صور الذر واستنطاقهم ثم ردهم الى اصلهم ان صح الخبر بذلك ، والذى صح انما هو القدر السابق وتقسيمهم الى شقى وسعيد ، واما استدلال أبى محمد ابن حزم بقوله تعالى (ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنـا للملائكة اسجدوا لآدم) فلائق هذا الاستدلال بظاهريته لترتب الامر بالسجود لآدم على خلقنا وتصويرنا • والخطاب للجملة المركبة من البدن والروح وذلك متأخر عن خلق آدم عليه السلام ، ولهذا قال ابن عباس رضى الله عنهمـــا (ولقد خلقناكم) يعنى ادم (ثم صورناكم) في ظهر آدم • وانما قال خلقناكم بلفظ الجمع وهو يريد آدم كما يقال ضربناكم وانما ضربت سيدهم • قال وأما حديث خلق الارواح قبل الاجساد بألفى عام فلا يصح اسناده فان فيه عتبة بن السكن قال الدارقطنى متروك ، وفيه ايضا ارطاة بن المنـــذر بعض أحاديثه غلط • والحاصل ان الذى ذهب اليه ابن القيم تبعا لشيخه وجموع ان خلق الاجساد مقدم على خلق الارواح • وذهب محمد بن نصر المروزى وأبو محمد ابن حزم والامام اسحاق بن راهويه الى تقـدم خلـق الارواح وبالله التوفيق •

فائدتـان الأولى ميثاق عالم الذر أخذ بعرفة

(فائـــدتان)

(الاولى) روى الامام أحمد من حديث ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال « أخذ الله عز وجل الميثاق من ظهـــر آدم بنعمان – يعنى عرفة – فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها فنشرهم بين يديه كالذر ثم كلمهم قبلا قال ألست بربكم قالوا بلى شهدنا » قال الحافظ ابن الجوزى في كتابة مثير الغرام الساكن الى اشرف الاماكن : هذا الحديث يدل على أن ذلك المكان أول وطن والنفس أبدا تنازع الى الوطن الاول •

الثانية ايداع الميثاق الحجر الاسود

(الثانية) ذكر الامام ابو الفرج ابن الجوزى في الكتاب المذكور أن الله

عز وجل لما اخذ الميثاق كتب كتابا على الذرية فألقمه هذا الحجر - يعنى الحجر الاسود - فهو يشهد للمؤمن بالوفاء وعلى الكافر بالجحود • قال وهذا مروى عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وقال العلماء ولهذه العلة يقول لامسه : ايمانا بك ووفاء بعهدك • انتهى •

المسألة الثانية أين مستقر الارواح فى البرزخ ؟

(المسألة الثانية)

من مسائل متعلقات الروح أين مستقر الارواح ما بين الموت الى يوم القيامة ؟ هل في السماء، أم في الارض ؟ وهل هى فى الجنة والنار ام لا ؟ وهل تودع في أجساد أم تكون مجردة ؟ فهذه من المسائل العظام قد تكلم فيها الناس واختلفوا في ذلك وهى انما تتلقى من السمع فقط ، ومع ذلك فقد اختلفت فيها أقوال العلماء ، وتباينت فى محالها آراء الفضلا ، فقال قوم : أرواح المؤمنين عند الله فى الجنة شهداء كانوا أو غير شهداء اذا لم يحبسهم عن الجنة كبيرة ولا دين وتلقاهم ربهم بالقبول والرحمة لهم ، وهذا مذهب ابى هريرة وعبد الله بن عمرو رضى الله عنهم ومن نحا نحوهم • وقالت طائفة هم بفناء الجنة على بابها يأتيهم من روحها ونعيمها ورزقها • وقالت طائفة الارواح على أفنية قبورها • وقال الامام مالك بلغنى ان الروح مرسلة تذهب حيث شاءت • وقال الامام احمد في رواية ابنه عبد الله أرواح الكفار في النار وأرواح المؤمنين فى الجنة • وقال ابو عبد الله ابن منده قالت طائفة من الصحابة والتابعين أرواح المؤمنين عند الله عز وجل - ولم يزيدوا على ذلك ، قال وروى عن جماعة من الصحابة والتابعين أن أرواح المؤمنين بالجابية وأرواح الكفار ببئر برهوت بحضرموت • وقال صفوان بن عمرو سألت عامر بن عبد الله أبا اليمان هل لأنفس المؤمنين مجتمع ؟ فقال ان الارض التى يقول الله (ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الارض يرثها عبادى الصالحون) قال هى الارض التى تجتمع اليها أرواح المؤمنين حين يكون البعث ، وقالوا هى الارض التى يورثها الله المؤمنين في الدنيا ، وقال كعب : أرواح المؤمنين في عليين في السماء السابعة ، وأرواح الكفار في سجين في الارض السابعة تحت خد [1] ابليس وقالت طائفة أرواح المؤمنين

(١) مثله فى كتاب الروح ووقع فى مخ « حذاء » •

ببئر زمزم وأرواح الكفار ببئر برهوت • وقال سلمان الفارسي رضي الله عنه أرواح المؤمنين في برزخ من الارض تذهب حيث شاءت • وهذا مثل قول الامام مالك بل هو مستند له • وقالت طائفة ارواح المؤمنين عن يمين آدم وأرواح الكفار عن شماله • وقال ابن حزم ومن وافقه مستقرها حيث كانت قبل خلق أجسادها • بناء على مذهبه الذي اختاره وهو أن الارواح مخلوقة قبل الاجساد ، وتقدم ما فيه • قال الامام المحقق ابن القيم : جمهور الناس على ان الارواح خلقت بعد الاجساد والذين قالوا خلقت قبل الاجساد ليس معهم على ذلك دليل من كتاب ولا سنة ولا اجماع الا ما فهموه من نصوص لا تدل على ذلك ، والحاصل ان مدار حججهم على أخبار غير صحيحة أو نصوص صحيحة ولكن دلالتها على ما زعموه غير صريحة ، وقوله مستقرها بعد مفارقة أبدانها في البرزخ الذي كانت فيه قبل خلق أجسادها مبني على ما ذكر من اعتقاده وان أرواح السعداء عن يمين آدم عليه السلام وأرواح الاشقياء عن يساره ، وزعمه ان ذلك عند منقطع العناصر لا دليل عليه من كتاب ولا سنة ولا يشبه أقوال أهل الاسلام ، والاحاديث الصحيحة تدل على ان الارواح فوق العناصر في الجنة ، وأدلة القرآن تدل على ذلك ، وقد وافق ابن حزم الجمهور على أن أرواح الشهداء في الجنة ، ومعلوم ان الصديقين أفضل منهم فكيف تكون روح أبي بكر الصديق وعبد الله بن مسعود وأبي الدرداء وحذيفة بن اليمان وأشباههم عند منقطع العناصر وذلك تحت هذا العالم الادنى تحت السماء الدنيا وتكون أرواح شهداء زماننا فوق العناصر وفوق السموات • وأما زعم أبي محمد ابن حزم ان الامام اسحاق بن راهويه ذكر ما قاله وذهب اليه بعينه وقال وعلى هذا جميع أهل الاسلام — باطل ، فان اسحاق لم يقل ان مستقر الارواح عند انقطاع العناصر وانما قال محمد بن نصر المروزي في كتابه الرد على ابن قتيبة في تفسير قوله تعالى (واذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم) الآية فذكر الآثار التي ذكرها السلف من استخراج ذرية آدم من صلبه ثم اخذ الميثاق عليهم وردهم في صلبه وأنه أخرجهم مثل الذر وانه قسمهم اذ ذاك الى شقي وسعيد وكتب آجالهم

وأرزاقهم وأعمالهم وما يصيبهم من خير وشر ، ثم قال اسحاق أجمع أهل العلم انها الارواح قبل الاجساد استنطقهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم الآية ان تقولوا انا كنا عن هذا غافلين أو تقولوا انما أشرك آباؤنا من قبل . هذا نص كلامه وهو كما ترى لا يدل على ان مستقر الارواح ماذكر ابن حزم حيث منقطع العناصر بوجه من الوجوه بل ولا يدل على ان الارواح كانت قبل الاجساد بل انما يدل على انه سبحانه أخرجها حينئذ فخاطبها ثم ردها الى صلب آدم . وهذا وان كان قد قاله جماعة من السلف والخلف كما مر فالذى صححه ابن القيم والجمهور خلافه . ولو سلم ان خلق الارواح قبل الاجساد لم يكن فيه دليل على ان مستقر الارواح حيث منقطع العناصر ولا ان ذلك الموضع كان مستقرها أولا .

وقالت طائفة مستقر الارواح بعد مفارقة أبدانها العدم المحض ، وهذا ايضا باطل لا يلتفت اليه فان صاحب هذا القول يزعم ان الروح عرض من أعراض البدن وهو الحياة وبه قال ابن الباقلانى ومن وافقه وكذا قال أبو الهذيل العلاف المعتزلى النفس عرض من الاعراض ولم يعنيه انه الحياة كما عينه ابن الباقلانى بل قال الروح عرض كسائر أعراض الجسم ، وهؤلاء عندهم ان الجسم اذا مات عدمت روحه فلا تعذب ولا تنعم وانما يعذب وينعم الجسد اذا شاء الله تعذيبه وتنعيمه رد اليه الحياة في وقت يريد تنعيمه وتعذيبه والا فلا روح هناك قائمة بنفسها البتة . وقال بعض أرباب هذا القول ترد الحياة الى عجب الذنب ، قال الامام ابن القيم وهذا قول يرده الكتاب والسنة واجماع الصحابة وأدلة العقول والفطر ، قال وهو قول من لم يعرف روحه فضلا عن روح غيره والله أعلم .

أرواح الشهداء في حواصل طير خضر

وقالت طائفة أخرى مستقر الارواح بعد الموت أبدان أخر غير هذه الابدان فهذا فيه حق وباطل فحقه ما أخبر به الصادق المصدوق عن أرواح الشهداء انها في حواصل طير خضر تأوى الى قناديل معلقة بالعرش هى لها كالاوكار للطائر ، وقد صرح بذلك في قوله جعل أرواحهم في أجواف طير خضر ، وأما قوله صلى الله عليه وسلم « نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة » يحتمل أن يكون هذا الطائر مركبا للروح كالبدن لها ويكون ذلك

لبعض المؤمنين والشهداء ، ويحتمل أن تكون الروح صورة طائر وهـذا اختيار ابن حزم وابن عبد البر ، قال ابن حزم معنى ذلك ان نسمة المؤمن طائر يعلق يعنى انها تطير في الجنة لا انها تمسخ في صورة الطير ، قال ابن حزم وأما الزيادة التى فيها انها في حواصل طير خضر فانها صفة تلك القناديل التى تأويها ، قال والحديثان معا حديث واحد ، قال المحقق ابن القيم وهذا الذى قاله في غاية الفساد لفظا ومعنى فان حديث « نسمةالمؤمن طائر يعلق في شجر الجنة » غير حديث أرواح الشهداء في حواصل طير خضر ، والذى ذكره محتمل في الاول وأما الثانى فلا يحتمله بوجه فانه صلى الله عليه وسلم أخبر أن أرواحهم في حواصل طير ، وفيلفظ آخر : في أجواف طير خضر ، وفي لفظ بيض ، وان تلك الطير تسرح في الجنة فتأكل من ثمارها وتشرب من أنهارها ثم تأوى الى قناديل تحت العرش هى لها كالاوكار للطائر ، وقوله ان حواصل تلك الطير هى صفة تلك القناديل التى تأوى اليها خطأ قطعا بل تلك القناديل مأوى لتلك الطير ، فهنا ثلاثة أمور وشرح بها الحديث أرواح وطير هى في أجوافها وقناديل مأوى لتلك الطير والقناديل مستقرة تحت العرش لا تسرح والطير تسرح وتذهب وتجيء والارواح في أجوافها • فان قيل يحتمل ان تجعل نفسها في صورة طير لا انها تركب في بدن طير كما قال تعالى (في أى صورة ما شاء ركبك) ويدل عليه قوله في اللفظ الآخر أرواحهم كطير خضر كما رواه ابن أبى شيبة قال أبو عمر بنعبد البر : الاشبه عندى والله أعلم ان يكون القول قول من قال كطير أو صورة طيرلمطابقته لحديث نسمة المؤمن • وقد أجاب المحقق بان هذا الحديث قد روى بهذين اللفظين والذى في صحيح مسلم من حديث الاعمش عن مسروق « أرواحهم في جوف طير خضر » وقد رواه ابن عباس وكعب بن مالك فلم يختلف حديثهما في انها في أجواف طير خضر • قال المحقق ولا محذور في هذا ولا يبطل قاعدة من قواعد الشرع ولا يخالف نصا من كتاب الله ولا سنة عن رسول الله بل هذا من تمام اكرام الله للشهداء ان أعاضهم من أبدانهم التى مزقوها لله تعالى أبدانا أخر خيرا منها تكون مركبا لارواحهمليحصل بها كمال تنعيمهمفاذا كان يوم

لامحذور فى هذا وليس من التناسخ الباطل

القيامة رد أرواحهم الى تلك الابدان التى كانت فيها في الدنياء فان قيل هذا هو القول بالتناسخ وحلول الارواح في أبدان غير أبدانها التى كانت فيها ، فالجواب هذا معنى دلت عليه السنة الصحيحة الصريحة حق يجب اعتقاده ولا يبطله تسمية المسمى له تناسخا كنظائره مما دل عليه النقل ولم يحله العقل من صفات الله تعالى وحقائق أسمائه الحسنى حق لا يبطله تسمية المعطلين لها تركيبا وتجسيما ، قال سيدنا الامام أحمد رضى الله عنه لا نزيل عن الله عز وجل صفة من صفاته لأجل شناعة المشنعين • فان هذا شأن أهل البدع يلقبون أهل السنة وأقوالهم بالالقاب التى ينفرون عنها الجهال ويسمونها حشوا وتركيبا وتجسيما ، ويسمون عرش الرب تبارك وتعالى حيزا وجهة ليتوصلوا بذلك الى نفى استوائه وعلوه على خلقه ، وكما تسمى الرافضة موالاة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كلهم ومحبتهم والدعاء لهم نصبا ، وأمثال ذلك ، والمقصود أن (تسمية ــ ١) ما دلت عليه السنة الصريحة من جعل أرواح الشهداء في أجواف طير خضر تناسخا لا يبطل هذا المعنى •

بطلان التناسخ

وأما ما اشتمل عليه من الباطل فالتناسخ الباطل الذى يقوله أعداء الرسل من الملاحدة وغيرهم الذين ينكرون المعاد ويزعمون ان الارواح تصير بعد مفارقة الابدان الى أجناس الحيوان والحشرات والطيور التى كانت تناسبها وتشاكلها فاذا فارقت هذه الابدان انتقلت الى أبدان تلك الحيوانات فتنعم فيها وتعذب ثم تفارقها وتحل في أبدان أخر تناسب أعمالها وأخلاقها وهلم جرا ، فهذا معادها عندهم ونعيمها وعذابها لا معاد لها عندهم غير ذلك، فهذا هو التناسخ الباطل المخالف لما اتفق عليه الرسل والانبياء من أولهم الى آخرهم وهو كفر بالله وباليوم الآخر ، فهذه الطائفة تقول ان مستقر الارواح بعد مفارقة أبدانها الاصلية أبدان الحيوانات التى تناسبها وهو أبطل قول وأخبثه •

وقول من يزعم ان الارواح تعدم

ويليه قول من يزعم ان الارواح تعدم جملة بالموت ولا يبقى هناك روح تنعم ولا تعذب بل النعيم يقع على أجزاء الجسد أو على جزء منه أما عجب

---

(١) من كتاب الروح

الذنب أو غيره فيخلق الله فيه الالم واللذة أما بواسطة رد الحياة كما قاله بعض أرباب هذا القول او بدون رد الحياة كما قاله آخرون منهم فهـؤلاء عندهم لا عذاب في البرزخ الا على الاجساد • ويقابله من يقول ان الروح لا تعاد الى الجسد بوجه ولا تتصل به والعذاب والنعيم على الروح فقط • والصحيح خلاف هؤلاء وهؤلاء فالسنة الصحيحة المتواترة تبين ان العذاب على الروح والجسد مجتمعين ومتفرقين •

النظر في الاقوال المختلفة

وأما قول من قال ان أرواح المؤمنين تجمع ببئر زمزم فلا دليل على هذا من كتاب ولا سنة يجب التسليم لها ولا قول صحابى يجب ان يوثق به • وأما قول من قال ان أرواح المؤمنين بالجابية وأرواح الكفار ببئر برهوت بحضرموت فقال ابن حزم هذا من قول الرافضة ، قال الامام المحقق : وليس كما قال بل قاله جماعة من أهل السنة، قال الحافظ ابو عبد الله ابن منـــده روى عن جماعة من الصحابة والتابعين أن أرواح المؤمنين بالجابية - ثم روى بسنده عن سعيد بن المسيب عن عبد الله بن عمرو انه قال أرواح المؤمنين تجتمع بالجـابية وأن أرواح الكفار تجتمع في سبخة بحضرموت يقال لها برهوت • ثم روى بسنده عن شهر بن حوشب أن كعبا رأى عبد الله بن عمرو وقد تكاب الناس عليه يسألونه فقال له رجل (؟) سله أين ارواح المؤمنين وأرواح الكفار ؟ فسأله فقال : أرواح المؤمنين بالجابية وأرواح الكفار ببرهوت قال ابن منده ورواه ابو داود وغيره • ثم ساق بسنده عن ابى الطفيل عن على قال : خير بئر في الارض زمزم وشر بئر في الارض برهـوت بئر في حضرموت وخير واد في الارض وادى مكة والوادى الذى اهبط فيه آدم في الهند منه طيبكم وشر واد في الارض الاحقاف وهو في حضرموت ترده أرواح الكفار • وروى عن ابن عباس عن على رضى الله عنهم قال ابغض بقعة في الارض واد بحضرموت يقال له برهوت فيه أرواح الكفار وفيه بئر ماؤها بالنهار أسود كأنه قيح تأوى اليه الهوام • ثم ساق ابن منده من طريق ابن اسحاق القاضى حدثنا على بن عبد الله ثنا سفيان ثنا ابان بن تغلب قال قال رجل بت فيه - يعنى وادى برهوت - فكأنما حشرت فيه اصوات الناس وهم يقولون يا دومة يا دومة ، قال ابان فحدثنا رجل من أهل الكتاب أن

دومة هو الملك الذى على أرواح الكفار ، قال سفيان وسـألنا الحضرميين فقالوا : لا يستطيع احد يبيت فيه بالليل •

قال الامام المحقق ابن القيم فى كتابه الروح فهذه جملة ما علمته في هذا القول فان أراد عبد الله بن عمرو بالجابية التمثيل والتشبيه وانها تجتمع في مكان فسيح يشبه الجابية لسعته وطيب هواه فهـذا قريب وان أراد نفس الجابية دون سائر الارض فهذا لا يعلم الا بالتوقيف ولعله مما تلقاه عـن بعض أهل الكتاب وبالله التوفيق •

وأما قول من قال انها تجتمع في الارض التى قال فيها (ولقد كتبنـا في الزبور من بعد الذكر أن الارض يرثها عبادى الصالحون) فهذا ان كان قاله تفسيرا للآية فليس هو تفسيرا لها ، وقد اختلف النـاس في الارض المذكورة في الآية الكريمة فقال سعيد بن جبير عن ابن عبـاس رضى الله عنهما هى أرض الجنة ، وهذا قول أكثر المفسرين ، وعن ابن عباس رضى الله عنهما قول آخر انها الدنيا التى فتحها الله على أمة محمد صلى الله عليه وسلم • قال المحقق وهذا القول هو الصحيح ، ونظيره قوله تعالى في سورة النور (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فيالارض كما استخلف الذين من قبلهم) وفي الصحيح عن النبى صلى الله عليهوسلم انه قال « زويت لى الارض مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملـك أمتى ما زوى لى منها » • وقالت طائفة من المفسرين المراد بذلك في الآية أرض بيـت المقدس • وهى من الارض التى أورثها عباده الصالحين وليست الآيـة مختصة بها • وأما قول سلمان الفارسى رضى الله عنه ومن وافقه ان أرواح المؤمنين في برزخ من الارض تذهب حيث شاءت فالبرزخ هو الحاجز بـين شيئين وكأن سلمان أراد انها فيارض بين الدنيا والآخرة مرسلة هناك حيث شاءت • قال المحقق هذا قول قوى فانها قد فارقت الدنيا ولم تـلج الآخرة بل هى في برزخ بينهما فهى في برزخ واسع فيه الروح والريحان والنعيم ، وأما أرواح الكفار ففى برزخ ضيق فيه الغم والعذاب قال الله تعالى (ومن ورائهم برزخ الى يوم يبعثون)

وأما من قال أرواح المؤمنين في عليين في السماء السابعة وأرواح الكفـار

في سجين في الارض السابعة ، فهذا قد قاله جماعة من السلـــف والخلف ويدل عليه قول النبى صلى الله عليه وسلم عند موته «اللهم الرفيق الاعلى» • وحاصل هذا ان أرواح المؤمنين في عليين بحسب منازلهم وأرواح الكفار في سجين بحسب منازلهم وما تؤول اليه •

وأما قول من قال ان أرواح المؤمنين عن يمين آدم عليه السلام وأرواح الكفار عن يساره ـ قال المحقق ابن القيم هذا قول يؤيده الحديث الصحيح وهو حديث الاسراء فان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في الحديــث « فاذا رجل قاعد على يمينه أسودة وعلى يساره أسودة ، اذا نظر قبل يمينه ضحك واذا نظر قبل شماله بكى ، قلت لجبريل من هذا ؟ قــال هذا آدم وهــذه الاسودة عن يمينه وشماله نسم بنيه فأهل اليمين منهم أهل الجنــة والأسودة التى في شماله أهل النار » قال القسطلانى في المواهب : الأسودة بوزن أزمنة هى الاشخاص ، والنسم بالنون والسين المهملة المفتوحتين جمع نسمة وهى الروح • قال القاضى عياض جاء ان أرواح الكفار في ســـجين وان أرواح المؤمنين منعمة في الجنة : يعنى فكيف تكون مجتمعة فى ســماء الدنيا ؟ فأجاب بأنه يحتمل انها تعرض على آدم أحيانا فوافق عرضها مرور النبى صلى الله عليه وسلم ، ويدل على كون أرواح الكفار في النار فيأوقات دون أوقات قوله تعالى (النار يعرضون عليها غدوا وعشيا) • واعترض بأن أرواح الكفار لا تفتح لهم أبواب السماء كما هو نص القرآن ، والجواب ما أبداه احتمالا ان الجنة كانت من جهة يمين آدم والنار في جهة شمالـــه فكان يكشف له عنهما ولا يلزم من رؤية آدم لها وهو في السماء ان تفتــح لها أبواب السماء ولا تلجها ، قال وفي حديث أبى هريرة رضى الله عنهعند البزار » فاذا عن يمينه باب يخرج منه ريح طيبة وعن شمــاله باب يخرج منه ريح خبيثة اذا نظر عن يمينه استبشر واذا نظر عن شماله حزن » قال الحافظ ابن حجر وهذا لو صح لكان المصير اليه أولى من جميـــع ما تقدم ولكن سنده ضعيف • انتهى • وقال المحقق ابن القيم في الروح : لا تدل رؤية النبى صلى الله عليه وسلم لهم كذلك على تعادلهم في اليمين والشمال بل يكون هؤلاء عن يمينه في العــلو والسعة وهؤلاء عن يساره في السفل

والسجن . وقال ابن حزم ان ذلك البرزخ الذى رآها فيه رسول الله صلى عليه وسلم ليلة أسرى به عند سماء الدنيا ذلك عند منقطع العناصر . قال : هذا يدل على انها عنده تحت السماء حيث تقطع العناصر ، وهى الماء والهواء والتراب والنار . قال ابن القيم : وهو - يعنى ابن حزم - دائما يشنع على من قال قولا لا دليل عليه فأى دليل له على هذا القول من كتاب أو سنة ؟

قال المحقق اذا كانت أرواح أهل السعادة عن يمين آدم في سماء الدنيا وقد ثبت ان ارواح الشهداء في ظل العرش فوق السماء السابعة فكيف تكون عن يمينه وكيف يراها النبى صلى الله عليه وسلم ؟ فأجاب عن ذلك من وجوه (أحدها) انه لا يمتنع كونها عن يمينه في جهة العلو كما ان أرواح الاشقياء عن يساره في جهة السفل (الثانى) انه غير ممتنع ان تعرض على النبى صلى الله عليه وسلم في سماء الدنيا وان كان مستقرها فوق ذلك (الثالث) لم يخبر أنه رأى أرواح السعداء جميعا هناك بل قال فاذا عن يمينه أسودة وعن يساره أسودة ومعلوم قطعا ان روح ابراهيم وموسى فوق ذلك في السماء السادسة والسابعة وكذلك الرفيق الاعلى أرواحهم فوق ذلك وأرواح السعداء بعضها أعلى من بعض بحسب منازلهم كما ان أرواح الاشقياء بعضهم أسفل من بعض بحسب منازلهم والله أعلم .

الجمع بين ماستدل به المختلفون من الادلة الصحيحة

قال الامام المحقق ابن القيم فان قيل قد ذكرتم أقوال الناس في مستقر الارواح ومأخذهم فما هو الراجح من هذه الاقوال حتى يعتقد ؟ فأجاب بأن الارواح متفاوتة في مستقرها في البرزخ أعظم تفاوت (فمنها) أرواح في عليين في الملا الاعلى وهى أرواح الانبياء صلوات الله وسلامه عليهم وهم متفاوتون في منازلهم كما رآهم النبى صلى الله عليه وسلم ليلة الاسراء (ومنها) أرواح في حواصل طير خضر تسرح في الجنة حيث شاءت وهى أرواح بعض الشهداء لا جميعهم بل من الشهداء من تحبس روحه عن دخول الجنة لدين عليه أو غيره كما في مسند الامام أحمد عن محمد بن عبدالله ابن جحش ان رجلا جاء الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله مالى ان قتلت في سبيل الله ؟ قال : الجنة ، فلما ولى قال « الا الدين سارنى به جبريل آنفا » (ومنهم) من يكون محبوسا على باب الجنة كما في حديث

آخر رأيت صاحبكم محبوسا على باب الجنة (ومنهم) من يكون محبوسا في قبره كحديث صاحب الشملة التى غلها ثم استشهد فقال الناس هنيئا له الجنة فقال النبى صلى الله عليه وسلم « كلا والذى نفسى بيده ان الشملة التى غلها لتشتعل عليه نارا في قبره » (ومنهم) من يكون مقره باب الجنة كما في حديث ابن عباس رضى الله عنهما « الشهداء على بارق نهر بباب الجنة في قبة خضراء يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشية » رواه الامام أحمد • وهذا بخلاف جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه حيث أبدله الله من يديه بجناحين يطير بهما في الجنة حيث شاء (ومنهم) من يكون محبوسا في الارض لم تعل روحه الى الملأ الاعلى فانها كانت روحا سفلية أرضية فان الانفس الارضية لا تجامع الانفس السماوية كما لا تجامعها في الدنيا والنفس التى لم تكتسب في الدنيا معرفة ربها ومحبته وذكره والانس به والتقرب اليه بل هى أرضية سفلية لا تكون بعد المفارقة لبدنها الا هناك كما ان النفس العلوية التى كانت في الدنيا عاكفة على محبة الله تعالى وذكره والتقرب اليه والانس به تكون بعد المفارقة مع الارواح العلوية المناسبة لها ، فالمرء مع من أحب في البرزخ ويوم القيامة ، والله تعالى يزوج النفوس بعضها ببعض في البرزخ ويوم المعاد كما في حديث « ويجعل روحه - يعنى المؤمن - مع النسيم الطيب » أى الارواح الطيبة المشاكلة لروحه فالروح بعد المفارقة تلحق بأشكالها واخوانها وأصحاب عملها تكون معهم هناك (ومنها) أرواح تكون في تنور الزناة والزوانى ، وأرواح في نهر الدم تسبح فيه وتلقم الحجارة ، فليس للارواح شقيها وسعيدها مستقر واحد بل روح في أعلى عليين وروح أرضية سفلية لا تصعد من الارض •

ومن تأمل السنن والآثار في هذا الباب وكان له فضل اعتناء عرف صحة ذلك فكل الآثار الصحيحة حق وصدق يصدق بعضها بعضا لكن الشأن في فهمها وفهم المقصود منها ومعرفة النفس وأحكامها وأن لها شأنا غير شأن البدن وانها مع كونها في الجنة فهى في السماء وتتصل بفناء القبر وبالبدن فيه وهى أسرع شىء حركة وانتقالا وصعودا وهبوطا ، وتنقسم الى مرسلة ومحبوسة وعلوية وسفلية ، ولها بعد المفارقة صحة ومرض ولذة ونعيم

وألم وعذاب أعظم مما كان لها حال ايصالها بالبدن بكثير ، فهناك الحبس والالم والعذاب والمرض والحسرة ، وهنـــاك اللذة والراحــة والنعـيم والاطلاق • (ثم قال المحقق ابن القيم) وما أشبه حالها بهذا البدن بحال البدن في بطن أمه وحالها بعد المفارقة بحاله بعد خروجه من البطن الى هذه الدار فلهذه الانفس أربع دور كل دار أعظم من التى قبلها (الدار الاولى) بطن أمه وذلك الحصر والضيق والغم والظلمات الثلاث (الدار الثانية) هذه الدار التى نشأت فيها وألفتها واكتسبت الخير أو الشر وأسباب السعادة والشقاوة فيها (الدار الثالثة) دار البرزخ وهى أوسع من هذه الدار وأعظم بل نسبتها اليها كنسبة هذه الدار الى الاولى (الدار الرابعة) دار القرار وهى الجنة أو النار فلا دار بعدها ، والله تعالى ينقل الروح في هذه الدور طبقا بعد طبق حتى يبلغها الدار التى لا يصلح لها غيرها ولا يليق بها سواها وهى التى خلقت لها وهيئت للعمل الموصل اليها ، ولها في كل دار من هذه الدور شأن غير شأن الدار الاخرى فتبارك الله فاطرها ومنشئها ومميتها ومسعدها ومشقيها ، وبالله التوفيق •

الأنفس أربع دور

المسألة الثالثة هل تتلاقى أرواح الموتى ؟

(المسألة الثالثة)

من المسائل المتعلقة بالروح هل تتلاقى أرواح الموتى وتتزاور وتتذاكر وتتلاقى أرواح الاحياء والاموات أيضا ؟ وهـــذا يعلم ممـا مر من حيث الجملة لان الارواح قسمان معذبة ومنعمة فالمعذبة في شغل شاغل لها بما هى فيه من العذاب عن التزاور والتلاقى ، وأما الارواح المنعمة المرسـلة غير المحبوسة فهذه تتلاقى وتتزاور وتتذاكر ما كان منها في الدنيا وما يكون من أهل الدنيا فتكون كل روح مع رفيقها الذى عـلى مثل عملها ، وروح نبينا صلى الله عليه وسلم في الرفيق الاعلى قال تعالى (ومن يطع الله ورسوله أولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا) قال الامام ابن القيم وهذه المعية ثابتة في الدنيا وفي دار البرزخ وفي دار الجزاء ، والمرء مع من أحب في هذه الدور الثلاثة ، وقد تواترت المرائى بتلاقى الارواح ، بعضها مع بعض ، قال الامام عبد الله بن المبارك رأيت سفيان الثورى في النوم فقلت له مافعل الله بك ؟ قال لقيت محمدا

وحزبه . وقد جاءت سنة صحيحة بتلاقى الارواح وتعارفها فروى ابن ابى الدنيا قال لما مـات بشر بن البراء بن معرور وجدت عليه أم بشر وجـدا شديدا فقالت يا رسول الله انه لا يزال الهالك يهلك من بنى سلمة فهل يتعارف الموتى فأرسل الى بشر بالسلام ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « نعم والـذى نفسى بيده يا أم بشر انهم ليتعارفون كما تتعارف الطيور في رءوس الشجر » فكان لا يهلك هالك (١) من بنى سلمة الا جاءتـه أم بشر فقالت يا فلان عليك السلام فيقول وعليك فتقول اقرأ عـلى بشر السلام ، وذكر ابن أبى الدنيا أيضا من حديث سفيان عن عمرو بن دينار عن عبيد بن عمير قال : أهل القبور يتوكفون الاخبار فاذا أتاهم الميت قالوا ما فعل فلان؟ فيقول : صالح ، ما فعل فلان ؟ فيقول : صالح ، ما فعل فلان ؟ فيقول ألم يأتكم ؟ أما قدم عليكم؟ فيقولون : لا ، فيقولون انا لله وانا اليه راجعون سلك به غير سبيلنا . وقال عبيد بن عمير أيضـا : اذا مات الميت تلقتـه الارواح يستخبرونه كما يستخبر الركب : مـا فعل فلان ؟ ما فعل فلان ؟ فاذا قال توفي ولم يأتهم قالوا ذهب به الى أمه الهاوية . وقال سعيد بن المسيب اذا مات الرجل استقبله ولده كما يستقبل الغائب . وقال عبيد بن عمير لو أنى آيس من لقاء من مات من أهلى لالفانى قد مت كمدا . وذكر معاوية بن يحيى عن عبد الله بن سلمة ان أبارهم السمعى حدثه أن أبا أيوب الانصارى رضى الله عنه حدثه ان رسول الله صلى الله عليـه وسلم قال « ان نفس المؤمن اذا قبضت تلقاها أهل الرحمة من عند الله كما يتلقى البشير في الدنيا فيقول انظروا أخاكم حتى يستريح فانه كان في كرب شديد ، فيسألونه ماذا فعل فلان ؟ وماذا فعلت فلانة ؟ وهل تزوجت فلانة ؟ فاذا سألوه عن رجل مات قبله قال انه قد مات قبلى ، قالوا انا لله وانا اليه راجعون ذهب به الى أمه الهاوية فبئست الام وبئست المربية » ورواه ابن ابى الدنيا والطبرانى في الاوسط وقال « ان أعمالكم ترد على أقاربكم وعشائركم من أهل الآخرة فان كان خيرا فرحوا واستبشروا وقالوا اللهم هـذا فضلك ورحمتك فأتم

---

(١) بهامش منخ ما لفظه « قوله فكان لا يهلك هالـك » أى اذا احتضر وكاد أن يهلك فهو مجاز مرسل كقوله صلى الله عليه وسلم من قتل قتيلا فله سلبه .

نعمتك عليه وأمته عليها ، ويعرض عليهم عمل المسيء فيقولون اللهم ألهمه عملا صالحا ترضى به وتقربه اليك » . وأخرج ابن ماجه عن محمد بن المنكدر قال دخلت على جابر بن عبد الله وهو يموت فقلت اقرأ على رسول الله صلى الله عليه وسلم مني السلام . وأخرج الامام أحمد والحكيم الترمذي في نوادر الاصول عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ان روحي المؤمنين لتلتقيان على مسيرة يوم وما رأى أحدهما صاحبه » قط . وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب القبور قال حدثنا محمد بن الحسين ثنى يحيى بن بسطام ثنى مسمع ثنى رجل من آل عاصم الجحدري قال رأيت عاصما الجحدري في منامي بعد موته بسنتين فقلت أليس قدمت ؟ قال : بلى ، قلت فأين أنت ؟ قال أنا والله في روضة من رياض الجنة أنا ونفر من أصحابي نجتمع كل ليلة جمعة وصبيحتها الى بكر (١) بن عبد الله المزني فنتلقى أخباركم . قال قلت أجسامكم أم أرواحكم ؟ قال هيهات بليت الاجسام وانما تتلاقى الارواح .

والمرائي وان لم تصلح بمجردها لاثبات أحكام فضلا عن اثبات اعتقاد لكنها على كثرتها وانها لا يحصيها الا الله تعالى وتواطئها مما يستأنس بها وقد قال صلى الله عليه وسلم « أرى رؤياكم قد تواطأت على انها — يعني ليلة القدر — في العشر الاخير » فلما تواطات رؤيا المؤمنين على تلاقي الارواح وتعارفها كان ذلك مما يستأنس به ويصلح للاستشهاد به ، على أنا لم نثبت بمجرد الرؤيا بل بما ذكرناه من الاخبار عن النبي المختار من تلاقي أرواح الموتى بعضهم لبعض وتلاقي أرواح الاحياء لأرواح الموتى أيضا . ثم ان الحس والواقع من أعدل الشهود وقد قال تعالى (الله يتوفى الانفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الاخرى الى أجل مسمى ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون) روى أبو عبد الله ابن منده عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية قال بلغني أن أرواح الاحياء والاموات تلتقي في المنام فيتساءلون بينهم فيمسك الله أرواح الموتى ويرسل أرواح الاحياء الى أجسادها . وكذا أخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال يتوفاها في منامها فتلتقي روح الحي وروح الميت

تفسير آية (الله يتوفى الانفس)

(١) في الاصلين « الى ابي بكر » خطأ .

فيتذاكران ويتعارفان قال فترجع روح الحى الى جسده في الدنيا الى بقية أجلها وتريد روح الميت أن ترجع الى جسده فتحبس • وهذا أحد القولين في تفسير الآية وهو أن الممسكة من توفيت وفاة الموت أولا والمرسلة من توفيت وفاة النوم ، والمعنى على هذا انه يتوفي نفس الميت فيمسكها ولا يرسلها قبل يوم القيامة ويتوفي نفس النائم ثم يرسلها الى جسده الى بقية أجلها فيتوفاها الوفاة الاخرى • والقول الثانى في الآية ان الممسكة والمرسلة كلاهما متوفي وفاة النوم فمن استكملت أجلها أمسكها عنده فلا يردها الى جسدها ومن لم تستكمل أجلها ردهـا الى جسدها لتستكمله ، وهو الذى اختاره شيخ الاسلام ابن تيمية ، ومال تلميذه المحقق الى ترجيح الاول ، ثم قال : والتحقيق أن الآية تتناول النوعين فانه تعالى ذكر وفاتين وفاة نوم ووفاة موت ، وذكر امساك المتوفاة وارسال الاخرى ، ومعلوم انه تعالى يمسك نفس كل ميت سواء مات في النوم أو في اليقظة ويرسل نفس من لم يمت ، وقد قال سعيد بن المسيب التقى عبد الله بن سلام وسلمان الفارسى رضى الله عنهما فقال أحدهما للآخر ان مت قبلى فالقنى فأخبرنى ما لقيت من ربك ، وان أنـا مت قبلك لقيتك فأخبرتك • فقال الآخر وهل يلتقى الاموات والاحياء ؟ قال : نعم ، أرواحهم في الجنة تذهب حيث شاءت • قـال فمات فلان فلقيه في المنام فقال له توكل وأبشر فلم أر مثـل التوكل قط • وقال العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه كنت اشتهى أن أرى عمر بن الخطاب رضى الله عنه في المنام فما رأيته الا عند قريب الحول فرأيته يمسح العرق عن جبينه وهو يقول : هذا أوان فراغى ان كاد عرشى ليهد لولا انى لقيت رءوفا رحيما • ولما حضرت شريح بن عائذ الثمالى (١) الوفـاة دخل عليه غضيف بن الحارث وهو يجود بنفسه فقال له يا أبا الحجاج ان قدرت على أن تأتينى بعد الموت فتخبرنى بما ترى فافعل • قال وكانت كلمته مقبولة في أهل الفقه فمكث زمانا لا يراه ثم رآه في منامه فقال له أليس قدمت ؟ قال: بلى ، قـال فكيف حالك ؟ قال تجاوز ربنا عنا الذنوب فلم يهلك منـا الا الاخراص (٢) قلت وما الاخراص (٢) قال الذين يشار اليهم بالاصابع •

---

(١) في الاصلين « اليمانى » كذا •

(٢) من معانى الاخراص الجبال فكأنه يعنى المشهورين •

وقال قبيصة بن عقبة رأيت سفيان الثورى في المنام بعد موته فقلت ما فعل الله بك ؟ فقال :

نظرت الى ربى عيانا فقال لى	هنيئا رضاى عنك يا ابن سعيد
لقد كنت قواما اذا الليل قد دجا	بعبرة محزون وقلب عميد
فدونك فاختر أى قصر تريده	وزرنى فانى منك غير بعيد

وهذا باب طويل جدا فان لم تسمح نفسك بتصديقه وقلت هذه منامات وهى غير معصومة فتأمل من رأى صاحبا له أو قريبا أو غيره فأخبره بأمر لا يعلمه الا صاحب الرؤيا ، أو أخبره بمال دفنه هو أو غيره ، أو حذره من أمر يقع ، أو بشره بأمر يوجد فوجد كما قال ، أو أخبر بأنه يموت هو أو بعض أهله الى كذا وكذا فيقع كما أخبره ، أو أخبره بخصب أو جدب أو عدو أو نازلة أو مرض له فوقع كما أخبره والواقع من ذلك لا يحصيه الا الله تعالى والناس مشتركون فيه وقد رأينا نحن وغيرنا من ذلك عجائب ، وبه يعلم بطلان قول من زعم ان هذه كلها علوم وعقائد في النفس تظهر لصاحبها عند انقطاع نفسه عن الشواغل البدنية بالنوم ، فهذا عين الباطل والمحال فان النفس لم يكن فيها قط معرفة هذه الامور التى يخبر بها الميت ولا خطر ببالها ولا عندها علامة عليها ولا أمارة بوجه ما كما قاله الامام المحقق ابن القيم في الروح •
قال ونحن لا ننكر ان الامر قد يقع كذلك وأن من الرؤيا ما يكون من حديث النفس وصور الاعتقاد بل أكثر مرائى الناس انما هى من مجرد صور اعتقادهم المطابق وغير المطابق فان الرؤيا على ثلاثة أنواع رؤيا من الله ورؤيا من الشيطان ورؤيا من حديث النفس • والرؤيا الصحيحة أقسام (منها) الهام يلقيه الله سبحانه في قلب العبد وهو كلام يكلم به الرب عبده في المنام كما قال عبادة بن الصامت رضى الله عنه وغيره (ومنها) مثل يضربه له ملك الرؤيا الموكل بها (ومنها) التقاء روح النائم بأرواح الموتى من أهله وأقاربه وأصحابه وغيرهم كما ذكرنا (ومنها) عروج روحه الى الله سبحانه وخطابها له (ومنها) دخول روحه الى الجنة ومشاهدها وغير ذلك • فالتقاء أرواح الاحياء بأرواح الموتى نوع من أنواع الرؤيا الصحيحة التى هى عند الناس من جنس المحسوسات • وهذا موضع اضطربت فيه الناس فمن قائل

الرؤيا ثلاثة أنواع والصحيح منها أقسام

ان العلوم كلها كامنة في النفس وانما اشتغالها بعالم الحس يحجب عنهـــا مطالعتها فاذا تجردت بالنوم رأت منها بحسب استعدادها ولما كان تجردها بالموت أكمل كانت علومها ومعارفها هناك أكمل • قال المحقق ابن القيم في كتاب الروح : وهذا فيه حق وباطل فلا يرد كله ولا يقبل كله فان تجرد النفس يطلعها على علوم ومعارف لا تحصل بدون التجرد لكن لو تجردت كل التجرد لم تطلع على علم الله الذى بعث به رسوله ولا على تفاصيل مــا أخبر به عن الرسل الماضية والامم الخالية وتفاصيل المعاد واشراط الساعة وتفاصيل الامر والنهى والاسماء والصفات والافعال وغير ذلك مما لا يعلم ا لابالوحى ، لكن تجرد النفس عون لها على معرفة ذلك وتلقيه من معدنه أسهل وأقرب وأكثر مما يحصل للنفس المنعمة فيالشواغل البدنية •ومن قال من الناس ان هذه المرائى علوم يخلقها الله تعالى في النفس ابتداء بلا سبب فعلى نهج قول منكر الاسباب والحكم والقوى ، قال المحقق وهو قــول مخالف للشرع والعقل والفطرة • ومن قال ان الرؤيا فمرة يكون مثلا مضروبا ومرة بحسب استعداده وألفه على يد ملك الرؤيا فمرة يكون مثلا مضروبا ومرة يكون نفس ما رآه الرائى فيطابق الواقع مطابقة العلم لمعلومه ، وهذا أقرب من القولين قبله ، ولكن الرؤيا ليست مقصورة عليه بل لها أسباب أخر كما تقدم من ملاقاة الارواح وأخبار بعضها بعضا ومن القاء الملــك الـــذى في القلب والروع ومن رؤية الروح للاشياء مكافحة بلا واسطة •

سؤال عمر عليا عن ثلاثة اشياء وجوابه

وقد ذكر الحافظ أبو عبد الله ابن منده في كتابه (النفس والروح) بسنده عن ابن عمر رضى الله عنهما قال لقى عمر بن الخطاب علي بن ابى طالب رضى الله عنهما فقـــال له يا أبا الحسن ربما شهدت وغبنا وربمـا شهدنا وغبت ، ثلاث أسألك عنهن فهل عندك منهن علم ؟ فقال علي بن أبي طالب وما هن ؟ قال : الرجل يحب الرجل ولم ير منه خيرا ، والرجل يبغض الرجل ولم ير منه شرا ، فقال على : نعم سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « الارواح جنود مجندة تلتقى في الهواء فتشام فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف » فقال عمر « واحدة » قال عمر : والرجــل يحــدث الحديث اذ نسيه فبينما هو ومانسيه اذ ذكره ؟ فقال : نعم سمعت رسول الله

صلى الله عليه وسلم يقول « ما في القلوب قلب الا وله سحابة كسحابة القمر بينا القمر يضيء اذ تجللته سحابة فنسى اذ انجلت عنه فيذكر » • قال عمر « اثنتان » قال : والرجل يرى الرؤيا فمنها ما يصدق ومنها ما يكذب ؟ فقال : نعم سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «ما من عبد ينام يمتلىء نوما الا عرج بروحه الى العرش فالذى لا يستيقظ دون العرش فتلك الرؤيا التى تصدق والذى يستيقظ دون العرش فهى التى تكذب » فقال عمر رضى الله عنه ' ثلاث كنت في طلبهن فالحمد لله الذى أصبتهن قبل الموت • وروى ان عمر بن الخطاب قال عجبت لرؤيا الرجل يرى الشيء لم يخطر له على بال فيكون كأخذ بيد ، ويرى الشيء فلا يكون شيئا • فقال على رضى الله عنه : يا أمير المؤمنين يقول الله تعالى (الله يتوفي الانفس حين موتها والتى لم تمت في منامها فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الاخرى الى أجل مسمى) قال والارواح يعرج بها في منامها فما رأت وهى في السماء فهو الحق فاذا ردت الى أجسادها تلقتها الشياطين في الهواء فكذبتها فما رأت من ذلك فهو الباطل • قال فجعل عمر رضى الله عنه يتعجب من قول على رضى الله عنه • قال الحافظ ابن منده هذا خبر مشهور عن صفوان بن عمرو وغيره ، وروى عن ابى الدرداء• وروى ابن منده عن ابن مسعود رضى الله عنه انه قال « ان الارواح جنود مجندة تتلاقى فتشام كما تتشام الخيل فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف » قال الامام ابن القيم ولم تزل الناس قديما وحديثا تعرف هذا وتشاهده قال جميل بن معمر العذرى :

أظل نهاري مستهاما وتلتقى — مع الليل روحى في المنام وروحها

فان قيل فالنائم يرى غيره من الاحياء يحدثه ويخاطبه وربما كان بينهما مسافة بعيدة ويكون المرء يقظان روحه لم تفارق جسده فكيف التقت روحهما ؟ فالجواب على هذا اما أن يكون مثلا مضروبا ضربه ملك الرؤيا للنائم أو يكون حديث نفس من الرائى تجرد له في منامه قال حبيب بن أوس :

سقيا لطيفك من زور أتاك به — حديث نفسك عنه وهو مشغول

والمقصود أن ارواح الاحباء تتلاقى في النوم كما تتلاقى أرواح الاحياء والاموات ، قال بعض السلف أن الارواح تتلاقى في الهواء فتتعارف وتتذاكر فيأتيها ملك الرؤيا بما هو لاقيها من خير أو شر ، قال وقد وكل الله تعالى بالرؤيا الصادقة ملكا علمه وألهمه معرفة كل نفس بعينها واسمها ومنقلبها في دينها ودنياها وطبعها ومعارفها لا يشتبه عليه منها شيء ولا يغلط فيها فيأتيه نسخة من علم غيب الله من أم الكتاب بما هو مصيب لهذا الانسان من خير أو شر في دينه ودنياه ويضرب له الامثال والاشكال على قدر عادته فتارة يبشره بخبر قدمه او يقدمه وينذره من معصية ارتكبها أوهم بها ويحذره من مكروه انعقدت أسبابه ليعارض تلك الاسباب بأسباب تدفعها ولغير ذلك من الحكم والمصالح التى جعلها الله تعالى في الرؤيا نعمة منه ورحمة واحسانا وتذكيرا وتعريفا وجعل أحد طرق ذلك تلاقى الارواح وتذاكرها وتعارفها وكم ممن كانت توبته وصلاحه وزهده واقباله على الآخرة عن منام رآه او رئى له وكم ممن استغنى وأصاب كنزا أو دفينا عن منام ، وهذا عبد المطلب جد النبى صلى الله عليه وسلم دل في المنام على زمزم وأصاب الكنز الذى كان هناك ، وفي مثل ذلك حكايات كثيرة وبالله التوفيق .

((فكل ما عن سيد الخلق ورد   من أمر هذا الباب حق لا يرد))

((فكل ما)) أى شيء أو الذى ((عن سيد الخلق)) ورسول الحق نبيا محمد صلى الله عليه وسلم ، قال في المطلع : السيد الذى يفوق في الخير قومه قاله الزجاج ، وقيل التقى وقيل الحليم وقيل الذى لا يغلبه غضبه وجميع ذلك في نبينا صلى الله عليه وسلم . وقال في القاموس سيد القوم أجلهم . وهو صلى الله عليه وسلم أجل خلق الله وأعظم خلق الله وأكرم خلق الله وأكمل خلق الله صلى الله عليه وسلم . قال الامام المحقق ابن القيم في كتابه بدائع الفوائد : اختلف الناس في جواز اطلاق السيد على البشر فمنعه قوم ونقل عن الامام مالك واحتجوا بانه صلى الله عليه وسلم لما قيل له يا سيدنا قال « انما السيد الله » وجوزه قوم واحتجوا بقول النبى صلى الله عليه وسلم للانصار « قوموا الى سيدكم » وهذا أصح من الحديث الاول . قلت وكذا حديث « ان ابنى هذا ـ يعنى الحسن ـ سيد » وحديث

معنى السيد

هل يطلق على البشر ؟

« انا سيد ولد آدم ولا فخر » وغير ذلك مما لا يحصى الا بكلفة • قال في البدائع : السيد احد ما يضاف اليه فلا يقال لتميمى انه سيد كندة ولا يقال لملك انه سيد البشر ، قيل وعلى هذا لا يجوز ان يطلق على الله هذا الإسم ، قال في البدائع : وفي هذا نظر فان السيد اذا أطلق عليه تعـــالى فهو بمعنى المالك والمولى والرب لا بمعنى الذى يطلق على المخلوق ((ورد)) بالاسانيد المقبولة ودونه أهل العلم في الكتب المنقولة المشهورة ((من أمر)) أى من أمور ((هذا الباب)) الذى مناطه السمع من الكتاب والسنة واجماع السلف فكل ذلك ((حق)) يجب اعتقاده والايمان به لانه صحف به النقول ولم ترده العقول وان عجزت العقول عن ادراكه فان الانبياءعليهمالصلاةوالسلام تأتى بمحارات العقول لا بمحالاتها ، والفرق بينهما بين لا يخفى على ذى تبصر ((لا يرد)) من ذلك شيء لثبوته عن المعصوم وصحته عن رســـول الحى القيوم فمن تصدى لرد شيء من هذا الباب فقد اخطأ الصواب وضل وخاب وكان من أهل البدع والارتياب، فان الرسل صلوات الله وسلامه عليهـم جعلهم الله وسائط بينه وبين عباده في تعريفهم ما ينفعهم وما يضرهم وتكميل ما يصلحهم في معاشهم ومعادهم وبعثوا جميعا بالدعوة الى الله وتعريـــــف الطريق الموصل اليه وبيان حالهم بعد الوصول اليه • فالاصل الاول اثبات التوحيد والصفات والقدر وذكر ايام الله في أوليائه واعدائه وهى القصص التى قصها الله تعالى على عباده والامثال التى ضربهـــا لهم • والاصـــــل الثانى يتضمن تفصيل الشرائع والامر والنهى والاباحة وبيان ما يحبــــه ويكرهه • والاصل الثالث يتضمن الايمان باليـــوم الآخر والجنة والنار والثواب والعقاب • قال شيخ الاسلام ابن تيميـــــة في قاعدة له في وجوب الاعتصام بالرسالة : على هذه الاصول الثلاثة مدار الخلق والامر والسعادة والفلاح موقوفة عليها ولا سبيل الى معرفتها الا من جهة الرسل فان العقـل لا يهتدى الى تفاصيلها ومعرفة حقائقها وان كان قد يدرك وجه الضرورة اليها من حيث الجملة كالمريض الذى يدرك وجه الحاجة الى الطب ومـــن يداويه ولا يهتدى الى تفاصيل المرض وتنزيل الدواء عليه ، وحاجة العبد الى الرسالة أعظم بكثير من حاجة المريض الى الطبيب فان آخر ما يعـذب

الأصول الثلاثة التى عليهامدار الخلـق والأمر والسعادة •

بعدم الطبيب موت الابدان ، وأما اذا لم يحصل للعبد نور الرسالة وحياتها مات قلبه موتا لا ترجى الحياة معه أبدا وشقى شقاوة لا سعادة معها أبدا ، فلا فلاح الا باتباع الرسول والايمان بما جاء به صلى الله عليه وسلم ومن جملة ما ورد عن سيد الخلق نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وانه حق لا يرد اشراط الساعة وعلاماتها ولهذا قال •

فصل في اشراط الساعة

((فصـــــل))

في اشراط الساعة وعلاماتها الدالة على اقترابها ومجيئها

النصوص المخبرة باقترابها

قال تعالى (اقتربت الساعة) وقال (فهل ينظرون الا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء اشراطها) أى إماراتها وعلاماتها واحدها شرط ،قال الامام البغوى وكان النبى صلى الله عليه وسلم من اشراط الساعة قال تعالى (وما يدريك لعل الساعة قريب) وقال (فهل ينظرون الا الساعـــة ان تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون) والآيات فى ذلك كثيرة ، وأما الاحاديث فلا تكاد تحصى •فان قيل كيف يوصف بالاقتراب ما قد مضى قبل وقوعـــــه ألف ومائة ونيف وسبعون عاما ؟ فالجواب أن الاجل اذا مضى أكثره وبقى أقله حسن أن يقال فيه اقترب الاجل ، ولا ريب أن أجل الدنيـــا قد مضى أكثره وبقى أقله ، ولقرب قيام الساعة عنده تعالى جعلها كغد الذى بعد يومك فقـــال (ولتنظر نفس ما قدمت لغد) وقال تعالى (انهم يرونه بعيدا ونراه قريبا) وروى الترمذى وصححه من حديث أنس مرفوعا « بعثت أنا والساعـــة كهاتين » وأشار بالسبابة والوسطى فأفضل احداهما على الاخرى • وفى الصحيحين من حديث سهل بن سعد رضى الله عنه قال رأيت النبى صلى الله عليه وسلم قال باصبعيه هكذا بالوسطى والتى تلي الابهـــام « بعثت والساعة كهاتين » وفي الصحيحين عن ابن عمر رضى الله عنهما مرفوعا «انما أجلكم فيمن مضى قبلكم من الامم من صلاة العصر الى مغرب الشمس ـ وفى لفظ ـ انما بقاؤكم فيما سلف قبلكم من الامم ما بين صلاة العصر الى غروب الشمس »

ولما كان أمر الساعة شديدا وهولها مزيدا وأمرها بعيدا كان الاهتمـــام

بشأنها أكثر من غيرها ولهذا أكثر النبى صلى الله عليه وسلم من بيـــان أشراطها وأماراتها وأخبر عما بين يديها من الفتن البعيدة والقريبة ونبهأمته وحذرهم ليتأهبوا لتلك العقبة الشديدة •

ثم اعلم ان وقت مجىء الساعة مما انفرد الله بعلمه وانما أخفاه تعـــالى لانه أصلح للعباد لئلا يتباطؤا عن التأهب والاســـتعداد كما ان اخفاء وقت الموت أصلح لهم وأنفع وقد انتدب جماعة من العلماء على تعيين قربها وزمن كونها ومجيئها واستدلوا بأحاديث غير صحيحة وما صح منها فدلالتها غـير صريحة ، وذكر الحافظ جلال الدين السيوطى ذلك فى جزء له ســـماه الكشف وذكر هو تقريبا انها تقوم على رأس الخمسمائة بعـــد الالف أو أزيد ، قال الشيخ العلامة مرعى فى (بهجة الناظرين) وهذا أيضا مردود لان كل من تكلم بشىء من ذلك فهو ظن وحسبان لا يقوم عليه برهان •

اشراط الساعة واماراتهـا ثلاثة أقسام

ثم أعلم ان أشراط الساعة وأماراتها تنقسم الى ثلاثة أقسام قسم ظهـر وانقضى وهي الامارات البعيدة ، وقسم ظهـــر ولم ينقض بل لا يزال في زيادة حتى اذا بلغ الغاية ظهر القسم الثالث وهى الامارات القريبة الكبيرة التى تعقبها الساعة وانها تتابع كنظام خرزات انقطع سلكها (فالاولى) أعنى

الأولى ما قـــد مضى وانقضى

التى ظهرت ومضت وانقضت (منها) بعثة النبى صلى الله عليه وسلم وموته وفتح بيت المقدس (ومنها) قتل أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه قال حذيفة أول الفتن قتل عثمان (ومنها) وقعة الجمل (ومنها) وقعة صفين فقد صح عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان تكون بينهما مقتلة عظيمة دعواهما واحدة (ومنها) واقعـــة النهر وان فأخرج ابن جرير عن مخنف بن سليم قال أتينا أبا أيوب الانصارى رضى الله عنه فقلت يا أبا أيوب قاتلت المشركين بسيفك مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم جئت تقاتل المسلمين ؟ فقال ان رسول صلى الله عليه وسلم أمرنا بقتال ثلاثة الناكثين والقاسطين والمارقين فقد قاتلت الناكثين والقاسطين وأنا مقاتل ان شاء الله المارقين • وفى رواية عنه : عهد الينا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نقاتل مع على الناكثين فقد قاتلناهم - يعنى فى وقعة الجمل وذلك لان طلحة والزبير رضى الله عنهما نكثا بيعة على رضى الله عنه -

وعهد الينا أن نقاتل معه القاسطين ـ يعنى الظالمين وأراد بهم أصحاب معاوية لانهم ظلموا عليا ونازعوه أمرا هو أحق الناس به عند كل منصف والقاسطون هم العادلون عن الحق الى الباطل ـ وعهد الينا أن نقاتل معه المارقين ـ وأراد بهم الخوارج فانهم مرقوا من الدين • وفي الخوارج أحاديث كثيرة جدا في الصحيحين وغيرهما (ومنها) نزول أمير المؤمنين وخاتمة الخلفاء الراشدين سبط رسول رب العالمين سيدنا الامام أبي محمد الحسن بن علي وأخي الحسين رضوان الله تعالى عليهم أجمعين وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم « ان ابنى هذا سيد وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين » الحديث ، شهد جماعة من الصحابة رضى الله عنهم أنهم سمعوا ذلك من النبى صلى الله عليه وسلم (ومنها) ملك بنى أمية وما جرى على أهل البيت في أيامهم من الاذية كقتل الحسين بعد ما سم الحسن وواقعة الحرة وما جرى فيها من المحن وقتل ابن الزبير ورمى الكعبة بالمنجنيق وما جرى في ذلك مما لا يحسن ولا يليق (ومنها) ملك بنى العباس وما جرى في أيامهم من المحن والباس (ومنها) نار الحجاز التى أضاءت منها أعناق الابل ببصرى (ومنها) ظهور الرفض واستبداد الرافضة بالملك واظهار الطعن واللعن على السلف الصالح من الصحابة الكرام رضوان الله عليهم وقد أخرج الامام احمد وأبو يعلى والطبرانى عن ابن عباس رضى الله عليهم مرفوعا « يكون في آخر الزمان قوم يسمون الرافضة يرفضون الاسلام فاذا رأيتموهم فاقتلوهم فانهم مشركون » ولفظ الطبرانى باسناد حسن عنه كنت عند النبى صلى الله عليه وسلم وعنده علي فقال النبى صلى الله عليه وسلم « سيكون من أمتى قوم ينتحلون حب أهل البيت لهم نبز يسمون الرافضة فاقتلوهم فانهم مشركون » (ومنها) خروج كذابين دجالين كل منهم يدعى أنه نبى (ومنها) زوال ملك العرب رواه الترمدى (ومنها) كثرة المال رواه الشيخان وغيرهما (ومنها) كثرة الزلازل والمسخ والقذف وغير ذلك مما أخبر عنه النبى صلى الله عليه وسلم انه من أمارات الساعة فظهر ومضى وانقضى •

الثانية ما ظهر واستمر

(الثانية)

الامارات المتوسطة وهى التى ظهرت ولم تنقض بل تزايد وتكثر وهى كثيرة جدا (منها) قوله صلى الله عليه وسلم « لا تقوم الساعة حتى يكون أسعد الناس بالدنيا لكع ابن لكع » رواه الامام أحمد والترمذى والضياء المقدسى من حديث حذيفة رضى الله عنه . واللكع العبد والاحمق واللئيم. والمعنى لا تقوم الساعة حتى يكون اللئام والحمقى ونحوهم رؤساء الناس (ومن الامارات) قوله صلى الله عليه وسلم « يأتى على الناس زمان الصابر على دينه كالقابض على الجمر » رواه الترمذى عن أنس . وقوله صلى الله عليه وسلم « لا تقوم الساعة حتى يتباهى الناس في المساجد » رواه الامام أحمد وأبو داود وابن ماجه وابن حبان عن أنس رضى الله عنه وقوله صلى الله عليه وسلم

يكون في آخر الزمان عباد جهال وقراء فسقة ـ وفي لفظ ـ فساق » رواه أبو نعيم والحاكم عن أنس (ومنها) أن يرى الهلال ساعة يطلع فيقال لليلتين لانتفاخه وكبره روى معناه الطبرانى عن ابن مسعود وفي لفظ « من أشراط الساعة انتفاخ الأهلة » بالخاء المعجمة أى عظمها وروى بالجيم (ومنها) اتخاذ المساجد طرقا (ومنها) ما أخرجه أبو نعيم فى الحلية عن أنس رضى الله عنه مرفوعا « من اقتراب الساعة اثنتان وسبعون خصلة اذا رأيتم الناس أماتوا الصلاة وأضاعوا الامانة وأكلوا الربا واستحلوا الكذب واستخفوا بالدماء واستعلوا البناء وباعوا الدين بالدنيا وتقطعت الارحام ويكون الحلم ضعفا والكذب صدقا والحرير لباسا وظهر الجور وكثر الطلاق وموت الفجأة وائتمن الخائن وخون الامين وصدق الكاذب وكذب الصادق وكثر القذف وكان المطر قيظا والولد غيظا وفاض اللئام فيضا وغاض الكرام غيضا وكان الامراء والوزراء والامناء خونة والعرفاء ظلمة والقراء فسقة ، اذا لبسوا مسوك الضأن قلوبهم انتن من الجيفة وأمر من الصبر يغشيهم الله فتنة يتهاوكون فيها تهاوك اليهود والظلمة وتظهر الصفراء وتطلب البيضاء يعنى الذهب والفضة وتكثر الخطباء ويقل الامر بالمعروف وحليت المصاحف وصورت المساجد وطولت المنابر وخربت

القلوب وشربت الخمور وعطلت الحدود وولدت الامة ربتها وترى الحفاة العراة صاروا ملوكا وشاركت المرأة زوجها في التجارة وتشبه الرجال بالنساء والنساء بالرجال وحلف بغير الله وشهد المرء من غير أن يستشهد وسلم للمعرفة وتفقه لغير الله وطلبت الدنيا بعمل الآخرة واتخذ المغنم دولا - وهو بضم الدال المهملة وفتح الواو ما يتداول من المال ومعناه اذا اختص الاغنياء وأرباب المناصب بأموال الفيء ومنعوها مستحقيها كما في النهاية - والامانة مغنما والزكاة مغرما وكان زعيم القوم أرذلهم وعق الرجل أباه وجفا أمه وبر صديقه وأطاع امرأته وعلت أصوات الفسقة في المساجد واتخذت القيان والمعازف وشربت الخمور في الطرق واتخذ الظلم فخرا وبيع الحكم وكثرت الشرط واتخذ القرآن مزامير وجلود السباع صفافا - أي بأن تجعل على السروج كما يفعله أمراء زماننا - ولعن آخر هذه الامة أولها ، فليرتقبوا عند ذلك ريحا حمراء وخسفا ومسخا وقذفا وآيات » (ومنها) ما رواه الامام أحمد وعبد بن حميد وابن أبي حاتم عن سلمان موقوفا والحسن بن سفيان وابن عساكر مرفوعا « اذا ظهر القول وخزن العمل وائتلفت الالسن واختلفت القلوب وقطع كل ذى رحم رحمه فعند ذلك لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم » (ومنها) ما أخرجه الامام أحمد أيضا والحاكم وابن ماجه عن أنس رضى الله عنه مرفوعا « اذا كانت الفاحشة في كباركم والملك في صغاركم والعلم في مرداكم والمداهنة في خياركم » يعنى فتقرب اقامة الساعة • وأخبار من هذه كثيرة جدا ذكرت منها طرفا صالحا فى كتابى البحور الزاخرة في علوم الآخرة (منها) ما في صحيح البخارى وغيره من حديث أنس رضى الله عنه انه قال ألا أحدثكم بحديث سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يحدثكم به أحد غيرى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ان من اشراط الساعة ان يرفع العلم ويكثر الجهل ويكثر الزنا ويكثر شرب الخمر ويقل الرجال ويكثر النساء حتى يكون لخمسين امرأة القيم الواحد » وفي الصحيح من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال بينما النبى صلى الله عليه وسلم في مجلس يحدث القوم جاءه أعرابى قال متى الساعة ؟ فمضى رسول الله صلى الله عليه يحدث وقال بعض القوم

سمع ما قال فكره ماقال ، وقال بعضهم بل لم يسمع حتى اذا قضى حديثه : قال أين السائل عن الساعة ؟ فقـال ها أنا يا رسول الله قال « فاذا ضيعت الامانة فانتظر الساعة » قال كلف أضاعتها ؟ قال « اذا وسد الامر الى غير أهله فانتظر الساعة » والله أعلم •

الثالثة العلامات الكبرى

(الاشراط والامارات الثالثة)

العـلامات العظـام والاشراط الجسام التى تعقبهـا الساعة وهى المقصودة في النظم والتى تكلم عليها أهل العلم واليها الاشاره بقوله :

((وما أتى في النص من اشراط   فكله حـق بلا شـطاط))

((وما)) أى وما ورد عن سيد الخلق وهو حق يجب اعتقاده ولا يسوغ رده الذى ((أتى)) أى ورد وجاء ((فى النص)) القرآنى أو الحديث النبوى ((من اشراط)) الساعة بأقسامها الثلاثة مما ذكرنا ومما لم نذكـر والمراد بالساعة يوم القيامة وسميت الساعة لقربها ، أو لأنها تأتى بغتة (أو) فى ساعة ، أو لأن بعث الموتى من قبورهم يكون فى أسرع من اللمحة ، أو لأن فصل القضاء فى ذلك اليوم فى قدر ساعة • ويروى عن على رضى الله عنه أنه سئل عن محاسبة الخلق فقال كما يرزقهم في غداة واحدة كذلك يحاسبهم في ساعة واحدة • وتقدم ان الاشراط جمع شرط وانها أماراتها وعلاماتها ((فكله)) أي الذى أتى فى النص من اشراط الساعة وفي نسخة كلهـا أي الاشراط ((حق)) واقع ويقين ليس له مدافع ((بلا شطاط)) كسحاب وكتاب أي من غير طول وبعد يقال رجل شـاط بين الشطاط والشطاطة والشطاط بالكسر وهو البعيـد ما بين الطرفين وقرىء (ولا تشطط) ولا تشاطط أي لا تبعد عن الحق والمعنى ان الذى جاء فى النص من اشراط الساعة حق كله لا بعد فيه ولا عقد ينافيه • ثم أخذ فى تعداد تلك الاشراط فقال :

المهدى

((منها الامام الخاتم الفصـيح   محمد المهـدي والمسيح))

((منها)) أي من أشراط الساعة التى وردت بها الاخبار وتواترت في مضمونها الآثار أي من العلامات العظمى وهى أولها ان يظهر ((الامام)) المقتدى بأقواله وأفعاله ((الخاتم)) للائمة فلا امام بعده كما أن النبى صلى

الله عليه وسلم هو الخاتم للنبوة والرسالة فلا نبى ولا رسول بعده ((الفصيح)) اللسان لانه من صميم العرب أهل الفصاحة والبلاغة ، والفصاحة فى اصطلاح أهل المعانى والبيان خلوص الكلام من ضعف التأليف وتنافر الكلمات والتعقيد مع فصاحة مفرداته ، والفصاحة في المفرد خلوصه عن تنافر الحروف والغرابة ومخالفة القياس ، والفصاحة في المتكلم ملكة يقتدر معها على التعبير المقصود بلفظ فصيح ، والبلاغة في الكلام مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته ، وفي المتكلم ملكة يقتدر بها على تأليف كلام بليغ ، وقوله ((محمد المهدي)) هذا اسمه وأشهر أوصافه فأما اسمه فمحمد جاء ذلك في عدة أخبار وفي بعضها أن اسمه أحمد واسم أبيه عبد الله[1] فقد صح عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال « يواطىء اسمه اسمى واسم أبيه اسم أبى » رواه أبو نعيم من حديث أبى هريرة ولفظه أنه صلى الله عليه وسلم قال « لو لم يبق من الدنيا الا يوم لطول الله ذلك اليوم حتى يلى رجل من أهل بيتى يواطىء اسمه اسمى واسم أبيه اسم أبى يملؤها قسطا وعدلا كما ملئت ظلما وجورا » وروى نحوه الترمذى وأبو داود والنسائى والبيهقى وغيرهم من حديث ابن مسعود رضى الله عنه ، وفي رواية من حديث ابن مسعود أيضا « لا تذهب الدنيا حتى يملك رجل من أهل بيتى يواطىء اسمه اسمى يملأ الارض عدلا وقسطا كما ملئت جورا وظلما » أخرجه الطبرانى فى معجمه الصغير ، وأخرجه الترمذى ولفظه: حتى يملك العرب رجل من أهل بيتى • وقال : حديث حسن صحيح • وكذلك أخرجه أبو داود في سننه • وروى ابن مسعود أيضا رضى الله عنه رفعه : اسم المهدى محمد • وفي مرفوع حذيفة : محمد بن عبد الله ويكنى أبا عبد الله • ومن أسمائه أيضا أحمد بن عبد الله كما فى بعض الروايات •

اسمه واسم أبيه

وأما زعم الشيعة ان اسمه محمد بن الحسن وانه محمد بن الحسن العسكرى فهذيان فان محمد بن الحسن هذا قد مات وأخذ عمه جعفر ميراث أبيه الحسن • قلت هو أبو القاسم محمد بن الحسن العسكرى بن على الهادى بن محمد الجواد بن علي الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق

الرد على الامامية

ابن محمد الباقر بن زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبى طالب رضوان الله عليهم ومحمد بن الحسن العسكرى هذا ثانى عشر الائمة الاثنى عشر على اعتقاد الامامية ويعرف بالحجة وهو الذى تزعم الشيعة انه المنتظر والقائم والمهدى وهو صاحب السرادب عندهم ، وأقاويلهم فيه كثيرة وهم ينتظرون ظهوره في آخر الزمان من السرداب بسر من رأى كانت ولادته فى منتصف شعبان سنة خمس وخمسين ومائتين ، والشيعة تزعم انه دخل السرداب في دار أبيه وأمه تنظر اليه فلم يعد يخرج اليها وذلك فى سنة خمس وستين ومائتين وعمره يومئذ تسع سنين وقيل غير ذلك، وكل ذلك ضرب من الجنون والهذيان وأما ذاك فقد مات رضوان الله عليه وعلى آبائه •

لم قيل له المهدى

وأما تسميته ووصفه بالمهدى فقد ثبت له هذه الصفة فى عدة أخبار ،وعن كعب الاحبار قال انما سمي المهدى لانه يهدى الى أمر خفى وسيخرج التوراة والانجيل من أرض يقال لها انطاكية • أخرجه نعيم فى كتاب الفتن • وفى بعض رواياته عن كعب قال انما سمي مهديا لانه يهدى الى أسفار التوراة فيستخرجها من جبال الشام يدعو اليها اليهود فيسلم على تلك الكتب جماعة كثيرة • وذكر الامام أبو عمرو الدانى قال انما سمى المهدى لانه يهدى الى جبل من جبال الشام يستخرج منها أسفار التوراة يحاج بها اليهود فيسلم على يده جماعة منهم • وأما لقبه فالجابر لانه يجبر قلوب أمة محمد صلى الله عليه وسلم ولانه يجبر أي يقهر الجبارين والظالمين ويقصمهم • وأما كنيته فأبو عبد الله • وأما نسبه فانه من أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم • ثم ان الروايات الكثيرة والاخبار الغزيرة ناطقة انه من ولد فاطمة البتول ابنة النبى الرسول صلى الله عليه وسلم ورضى عنها وعن أولادها الطاهرين ، وجاء فى بعض الاحاديث انه من ولد العباس والاول أصح • قال ابن حجر في كتابه القول المختصر واماما روى « ان المهدى من ولد العباس عمى » فقال الدارقطنى حديث غريب تفرد به محمد بن الوليد مولى بنى هاشم • قال ولا ينافيه خبر الرافعى عن ابن عباس رضى الله عنهما مرفوعا « الا أبشرك يا عم ان من ذريتك الاصفياء

نسبه

ومن عترتك الخلفاء ومنك المهدى في آخر الزمان به ينشر الله الهـــدى ويطفىء نيران الضلالة ان الله فتح بنا هذا الامر وبذريتك يختم » وخبر هيثم بن كليب وابن عساكر عن ابن عباس ورجاله ثقات « اللهم انصر العباس وولد العباس ثلاثا يا عم أما علمت ان المهدى من ولدك موفقا راضيا» وخبر أبى نعيم في الحلية عن أبى هريرة رضى الله عنه « ألا أبشرك يا أبا الفضل ان الله عز وجل افتتح بى هذا الامر وبذريتك يختم » وخـــبر الديلمى عن أم المؤمنين أم سلمة رضى الله عنها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال « لن تزال الخلافة في ولد عمى وصنو أبى حتى يسلموها الى الدجال » وخبر الخطيب عن ابن عباس عن أمه أم الفضل رضى الله عنهم « يا عباس أنت عمى وصنو أبى وخير من أخلف بعدى من أهلى اذا كانت خمس وثلاثون ومائة فهى لك ولولدك منهم السفاح ومنهم المنصور ومنهم المهدى » وخبر الخطيب وابن عساكر عن علي رضى الله عنه انه صلى الله عليه وسلم قال للعباس « يا عم ألا أخبرك أن الله افتتح هذا الامر بى ويختمه بولدك » فهذه الاخبار كلها لا تنافى ان المهدى من ذرية رسول الله صلى الله عليه وسلم من ولد فاطمة الزهراء لان الاحاديث التى فيها ان المهدى من ولدها أكثر وأصح بل قال بعض حفاظ الامة وأعيان الائمة أن كون المهدى من ذريته صلى الله عليه وسلم مما تواتر عنه ذلك فلا يسوغ العدول ولا الالتفات الى غيره وقال ابن حجر يمكن الجمع بأن يكون من ذريته صلى الله عليه وسلم وللعباس فيه ولادة من جهـــة ان فى أمهاته عباسية • والحاصل ان للحسن في المهـــدى الولادة العظمى لان أحاديث كونه من ذريته أكثر وللحسين فيه ولادة أيضا وللعباس فيه ولادة أيضا ولا مانع من اجتماع ولادات متعددات في شخص واحد من جهات مختلفة وبالله التوفيق •

فوائد فى شأن المهدى

(فوائد)

الأولى حليتـــه وصفته

(منها) فى حليته وصفته ، قال ابن عباس رضى الله عنهما : المهدى اسمه محمد بن عبد الله وهو رجل ربعة مشرب بحمرة يفرج الله به عن هـــذه الامة كل كرب ويصرف بعدله كل جور • وعن حذيفة بن اليمان رضى الله

عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « المهدى رجل من ولدى وجهه كالكوكب الدري اللون لون عربى والجسم جسم اسرائيلى يملأ الارض عدلا كما ملئت جورا يرضى في خلافته أهل الارض وأهل السماء والطير في الجو يملك عشرين سنة » أخرجه أبو نعيم في مناقب المهدى والطبرانى في معجمه • وأخرج أبو داود والبيهقى عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « المهدى منى أجلى الجبهـــة أقنى الانف يملأ الارض قسطا وعدلا كما ملئت ظلما وجورا يملك سبع سنين » وأخرج أبو نعيم من حديث عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ليبعثن الله في عترتى رجلا أفرق الثنايا أجلى الجبهة يملأ الارض عدلا ويفيض المال فيضا » وفي مرفـــوع عمران بن حصين انه حين ذكره رسول الله صـــلى الله عليه وسلم قال يا رسول الله كيف لنا بهذا حتى نعرفه ؟ قال « هو رجل من ولدى كأنهمن رجال بنى اسرائيل عليه عباءتان قطوانيتان كان في وجهه الكوكب الدرى في اللون في خده الايمن خال أسود ابن أربعين سنة » أخرجه الامام أبو عمرو الدانى في سننه • وأخرج أبو نعيم من حديث أبى امامة رضى الله عنـــه مرفوعا « المهدى من ولدى ابن أربعين سنة كان وجهه كوكب درى فى خده الايمن خال اسود عليه عباءتان قطوانيتان كأنه من رجال بنى اسرائيل يستخرج الكنوز ويفتح مدائن الترك » وفي حديث أبى وائل عن علي رضى الله عنه قال نظر الى الحسن وقال ان ابنى هذا سيد كما ســـماه رسول الله صلى الله عليه وسلم سيخرج من صلبه رجل باسم نبيكم يخرج على حين غفلة من الناس واماتة الحق واظهار الجور يفرح بخروجه أهل السماء وسكانها ، وهو رجل أجلى الجبين أقنى الانف ضخم البطن أزيل الفخذين بفخذه الايمن شامة أفلج الثنايا يملأ الارض عدلا كما ملئت ظلما وجورا • وعن أبى جعفر محمـــد الباقر قدس الله سره قال سئل أمـير المؤمنين علي رضى الله عنه عن صفة المهدى قال : هو شاب مربوع حسن الوجه يسيل شعره على منكبيه يعلو نور وجهه سواد شعره ولحيته ورأسه • وفي رواية أخرى عن علي رضى الله عنه ان المهدى كث اللحية أكحـــل

العينين براق الثنايا فى وجهه خال أقنى أجلى فى كتفه علامة النبى صلى الله عليه وسلم • وفي بعض الروايا تالمهدى أزج أبلج أعين يجيء من الحجاز حتى يستوى على مسجد دمشق • أخرجه أبو نعيم • وفي رواية لابى نعيم بكتفه اليمنى خال • وفي حديث علي مرفوعا انه كث اللحية أكحل العينين براق الثنايا في وجهه خال وفي كتفه علامة • وقال كعب الاحبار انى لأجد المهدى مكتوبا فى أسفار الانبياء ما فى حكمه ظلم ولا عيب • أحرجه أبو عمروالمقرى فى سننه ونعيم بن حماد •وأخرج أبونعيم عن طاووس قال علامة المهدى انه يكون شديدا على العمال جوادا بالمال رحيما بالمساكين • ورأيتنى قد وصفته فى كتابى البحار الزاخرة بأنه آدم أى أسمر ،ضرب من الرجال أى خفيف اللحم ، ممشوق مستدق ، ربعة أى لا بالطويل ولا بالقصير،أجلى الجبهة أي خفيف شعر النزعتين عن الصدغين وهو الذى انحسر الشعر عن جبهته ، أقنى الانف أى طويلة مع دقة أرنبته،أشم أى رفيع العرنين،أزج أى حاجبه فيه تقويس مع طول فى طرفه أو امتداده ، أبلج أعين أكحل العينين واسع العين ـ والكحل بفتحتين سواد فى أجفان العين خلقة من غير اكتحال، براق الثنايا أى لثناياه بريق ولمعان ، أفرقها أى ليست متلاصقة أزيل الفخذين أي منفرج الفخذين متباعدهما • وفي رواية في لسانه ثقل واذا أبطأ عليه ضرب فخذه الايسر بيده اليمنى ، ابن أربعين سنة ـ وفى رواية مابين ثلاثين الى أربعين ـ خاشع لله خشوع النسر بجناحيه عليه عباءتان قطوانيتان• قال في النهاية هى عباءة بيضاء قصيرة الخمل والنون زائدة •

(الفائدة الثانية فى سيرته)

الثانية سيرته

قال أهل العلم يعمل بسنة النبى صلى الله عليه وسلم لا يوقظ نائما ، ويقاتل على السنة لا يترك سنة الا أقامها ولا بدعة الا رفعها ، يقوم بالدين آخر الزمان كما قام به النبى صلى الله عليه وسلم أوله ، يملك الدنيا كلها كما ملك ذو القرنين وسليمان بن داود عليهما السلام ، يكسر الصليب ويقتل الخنزير ويرد الى المسلمين الفتهم ونعمتهم ، يملأ الارض قسطا وعدلا كما ملئت ظلما وجورا ، يحثو المال حثوا ولا يعده عدا ، يقسم المال صحايا بالسوية ، يرضى عنه ساكن السماء وساكن الارض والطير فى الجو

والوحش في القفر والحيتان في البحر ، يملأ قلوب أمة محمد صلى الله عليه وسلم غنى حتى انه يأمر مناديا ينادى : ألا من له حاجة في المال ؟ فلا يأتيه الا رجل واحد فيقول انا فيقول انت السادن -أي الخازن- فقل له المهدى يأمرك ان تعطيني مالا فيقول له احث حتى اذا جعله في حجره وأبرزه ندم فيقول كنت أجشع أي أحرص أمة محمد صلى الله عليه وسلم أعجز عنى ما وسعهم ؟ قال فيرده فلا يقبل منه فقال له انا لا نأخذ شيئا أعطيناه الامة • تنعم أمة محمد برها وفاجرها في زمانه نعمة لم يسمعوا بمثلها قط وترسل السماء عليهم مدرارا لا تدخر شيئا من قطرها ، وتؤتى الارض أكلها لا تدخر عنهم شيئا من بذرها ، تجرى على يديه الملاحم ، يستخرج الكنوز ويفتح المدائن ما بين الخافقين ، يؤتى اليه بملوك الهند مغللين وتجعل خزائنهم لبيت المقدس حليا ، يأوي اليه الناس كما يأوى النحل الى يعسوبه حتى يكون الناس على مثل أمرهم الاول ، يمده الله بثلاثة آلاف من الملائكة يضربون وجوه مخالفه وأدبارهم جبريل على مقدمته وميكائيل على ساقته ، ترعى الشاة والذئب في زمانه في مكان واحد ، وتلعب الصبيان بالحيات والعقارب لا تضرهم شيئا ، ويزرع الانسان مدا فيخرج له سبعمائة مد ، ويرفع الربا والزنا وشرب الخمر ، وتطول الاعمار وتؤدى الامانة وتهلك الاشرار ولا يبقى من يبغض آل محمد صلى الله عليه وسلم ، محبوب - يعنى المهدى - في الخلائق يطفىء الله به الفتنة العمياء وتأمن الارض حتى أن المرأة تحج في خمس نسوة ما معهن رجل ولا يخفن شيئا الا الله ، مكتوب في شعائر الانبياء ما في حكمه ظلم ولا عيب •

(الثالثة في علامات ظهوره)

الثالثة علامات ظهوره

قال العلامة الشيخ مرعى في كتابه (فوائد الفكر في المهدى المنتظر) اعلم ان لظهور المهدى علامات جاءت بها الآثار ودلت عليها الاحاديث والاخبار ، فمن علامات ظهوره على ماورد كسوف الشمس والقمر ونجم الذنب والظلمة وسماع الصوت برمضان وتحارب القبائل بذى القعدة وظهور الخسف والفتن ومعه قميص رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيفه ، ورايته من مرط مخملة معلمة سوداء فيها حجر لم تنشر منذ

توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا تنشر حتى يخرج المهدى مكتوب على رأسها « البيعة لله » كذا في الاشاعة للعلامة السيد محمد البرزنجى المدنى ، ويغرس قضيبا يابسا فى أرض يابسة فيخضر ويورق ،ويطلب منه آية فيومى الى طير في الهواء بيده فيسقط على يده وينادى مناد من السماء : أيها الناس ان الله قطع عنكم الجبارين والمنافقين وأشياعهم وولاكم خير أمة محمد صلى الله عليه وسلم فالحقوه بمكة فانه المهدى واسمه محمد بن عبد الله ، وتخرج الارض أفلاذ كبدها مثل الاسطوانات من الذهب ويخرج كنز الكعبة المدفون فيها فيقسمه فى سبيل الله . رواه أبو نعيم عن علي رضى الله عنه . ويستخرج تابوت السكينة من غار انطاكية أو من بحيرة طبرية فيخرج حتى يحمل فيوضع بين يديه ببيت المقدس فاذا نظر اليه يهود أسلموا الا قليل منهم ، وتأتيه الرايات السود من خراسان فيرسلون اليه البيعة ، وتنشف الفران فتحسر عن جبل من ذهب . وذكروا أنه ينكسف القمر أول ليلة من رمضان والشمس ليلة النصف .ونظر فى هدا الشيخ مرعى بأن العادة انكساف القمر ليالى الابداروالشمس أيام الاسرار ، ولكن من الممكن أن يكون ذلك آية لظهوره وفيها خرق للعادة . وروى أبو نعيم فى الفتن قال شريك بلغنى أن القمر قبل خروجه ينكسف مرتين برمضان . وذكر الكسائى عن كعب الاحبار أن القمر ينكسف ثلاث ليال متواليات . وروى عن كعب الاحبار يطلع نجم بالمشرق وله ذنب يضيء كما يضيء القمر ينعطف حتى يلتقى طرفاه أو يكاد . وفى الديلمى مرفوعا تكون هدة فى رمضان توقظ النائم وتفزع اليقظان . ومن وجه آخر يكون صوت فى رمضان في نصف الشهر يصعق منه سبعون ألفا ويعمى مثلها ويخرس مثلها ويصم مثلها وينفتق من الابكار مثلها . ومن علامات المهدى أيضا خسف قرية ببلاد الشام يقال لها حرستا كما في الاشاعة وغيرها .

(الرابعة)

الرابعة بعض ما يسبقه من الفتن

(فى الاشارة الى بعض الفتن الواقعة قبل خروج المهدى وخروج خوارج قبل ذلك)

(منها) ما ذكره في الاشاعة انه يحسر الفرات عن جبل من ذهب كما

تقدم فاذا سمع به الناس ساروا اليه واجتمع عليه ثلاثة كلهم ابن خليفة يقتتلون عنده ثم لا يصبر الى أحد منهم فيقول كل واحد والله لئن تركت الناس يأخذون منه ليذهبن بكله فيقتتلون عليه حتى يقتل من كل مائة تسعة وتسعون ، وفي رواية فيقتل تسعة أعشارهم ، وفي رواية من كل تسعة سبعة ، فيقول كل رجل لعلي أكون أنا أنجو • وقد قال صلى الله عليه وسلم « من حضر فلا يأخذ منه شيئا » وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من حضر فلا يأخذ منه شيئا » وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تقوم الساعة حتى يخرج المهدى من ولدى ولا يخرج المهدى حتى يخرج ستون كذابا كلهم يقول أنا نبى » وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « لا تقوم الساعة حتى يبعث دجالون كذابون قريبا من ثلاثين كلهم يزعم انه رسول الله » رواه مسلم في صحيحه ورواه البخاري بمعناه وتمام الحديث في مسلم « وحتى يقبض العلم وتكثر الزلازل ويتقارب الزمان وتظهر الفتن ويكثر الهرج» وهو القتل ـ الحديث • وهو في صحيح البخارى الا أن قوله وتكثر الزلازل في البخارى دون مسلم •• وفي مسلم عن جابر بن سمرة رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ان بين يدى الساعة كذا بين » زاد في طريق أخرى قال جابر فاحذروهم • وقال جعفر الصادق بن محمد الباقر لا يظهر المهدى الا على خوف شديد من الناس وزلزال وفتنة وبلاء يصيب الناس والطاعون قبل ذلك وسيف قاطع بين العرب واختلاف شديد فى الناس وتشتت في دينهم وتغيير في حالهم حتى يتمنى المتمنى الموت صباحا ومساء من عظيم ما يرى من كلب الناس وأكل بعضهم بعضا فحينئذ يخرج فيا طوبى لمن أدركه وكان من أنصاره والويل كل الويل لمن خالفه وخالف أمره • وقال محمد بن الصامت قلت للحسين ابن علي رضى الله عنهما أما من علامة بين يدى هذا الامر ـ يعني ظهور المهدى ـ قال : قال : بلى ، قلت وماهى قال : هلاك بنى العباس وخروج السفيانى والخسف بالبيداء • قلت جعلت فداك أخاف أن يطول هذا الامر ، فقال انما هو كنظام يتبع بعضه بعضا •

وعن أمير المؤمنين على رضى الله عنه قال : تكون فى الشام رجفة يهلك فيها أكثر من مائة ألف يجعلها الله رحمة للمؤمنين وعذابا على المنافقين فاذا كان كذلك فانظروا الى أصحاب البراذين الشهب والرايات الصفر تقبل من المغرب حتى تحل بالشام وذلك عند الجوع الاكبر والموت الاحمر فاذا كان ذلك فانظروا خسف قرية من قرى دمشق يقال لها حرستا فاذا كان ذلك خرج ابن آكلة الاكباد من الوادى اليابس حتى يستوى على منبر دمشق فاذا كان ذلك فانظروا خروج المهدى •

خروج السفيانى

ومن أقوى علامات خروج المهدى خروج من يتقدمه من الخوارج السفيانى والابقع والأصهب والاعرج والكندى •

أما السفيانى فاسمه عروة واسم أبيه محمد وكنيته أبو عتبة ، قال العلامة الشيخ مرعى في فوائد الفكر وفي عقد الدرر ان السفيانى من ولد خالد بن يزيد بن أبى سفيان ملعون في السماء والارض وهو أكثر خلق الله ظلما قال على رضى الله عنه : السفيانى من ولد خالد بن يزيد بن أبى سفيان رجل ضخم الهامة بوجهه أثر جدرى بعينه نكتة بياض يخرج من ناحية دمشق وعامة من يتبعه من كلب فيقتل حتى يبقر بطون النساء ويقتل الصبيان ويخرج اليه رجل من أهل بيتى فى الحرم فيبلغ السفيانى فيبعث اليه جندا من جنده فيهزمهم فيسير اليه السفيانى بمن معه حتى اذا جاز بيداء من الارض خسف بهم فلا ينجو الا المخبر عنهم •اخرجه الحاكم فى مستدركه وقال : هذا حديث صحيح الاسناد على شرط البخارى ومسلم ولم يخرجاه •

خروج الابقع والاصهب

والأبقع يخرج من مصر ، والاصهب يخرج من بلاد الجزيرة ، ثم يخرج الجرهمى من الشام قال كعب الاحبار : أول من يخرج ويغلب على البلاد الاصهب يخرج من بلاد الجزيرة ، ثم يخرج من بعده الجرهمى من الشام ، ويخرج القحطانى من بلاد اليمن • قال كعب : فبينما هؤلاء الثلاثة قد تغلبوا على مواضعهم واذا قد خرج السفيانى من دمشق من واد يقال له وادى اليابس يؤتى فى منامه فيقال له قم فاخرج فيقوم فلا يجد أحدا ثم يؤتى الثانية ثم الثالثة ويقال له فيها فانظر الى باب دارك

فينحدر في الثالثة الى باب داره فاذا بسبعة أنفار أو تسعة معهم لواء فيقولون نحن أصحابك ومع رجل منهم لواء معقود لا يرى ذلك اللواء أحد الا انهزم فيخرج اليه صاحب دمشق ليقاتله فاذا نظر الى رايته انهزم فيدخل دمشق الشام في ثلثمائة وستين راكبا وما يمضي عليه شهر حتى يجتمع عليه ثلاثون ألفا من كلب وهم أخواله وعلامة خروجه خسف بقرية حرستا ويسقط جانب مسجدها الغربى ، ثم يخرج الابقع والاصهب فيخرج السفيانى من الشام والابقع من مصر والاصهب من جزيرة العرب ويخرج الاعرج الكندى بالمغرب ويدوم القتال بينهم سنة ثم يغلب السفيانى على الابقع والاصهب ويسير صاحب الغرب فيقتل الرجال ويسبى النساء ثم يرجع حتى ينزل الجزيرة في قيس الى السفيانى فيظهر السفيانى عليه ويحوز ما جمعوا من الاموال ويظهر على الرايات الثلاث ثم يقاتل الترك فيظهر عليهم ثم يفسد في الارض ويدخل الزوراء فيقتل من أهلها •

خروج الأعرج الكندى

ثم يخرج وراء النهر خارج يقال له الحارث على مقدمته رجل يقال له المنصور يمكن لآل محمد واجب على كل مؤمن نصره •وهذاالرجل يحتمل أن يكون هو الهاشمى الآتى ذكره ويلقب بالحارث كما يلقب المهدى بالجابر ويحتمل أن يكون غيره • ويثور أهل خراسان بعساكر السفيانى فتكون بينهم وقعات فاذا طال عليهم قتاله بايعوا رجلا من بنى هاشم بكفه اليمنى خال سهل الله أمره وطريقه هو أخو المهدى من أبيه أو ابن عمه وهو حينئذ بآخر المشرق بأهل خراسان وطالقان ومعه الرايات السود الصغار وهي غير رايات بنى العباس على مقدمته رجل من بنى تميم الموالى ربعة أصفر قليل اللحية كوسج واسمه شعيب بن صالح التميمى يخرج اليه في خمسة آلاف فاذا بلغه خروجه صيره على مقدمته لو استقبلته الجبال الرواسى لهدها يمهد الارض للمهدى فيلتقى الهاشمى بخيل السفيانى فيقتل منهم مقتلة عظيمة ببيضاء اصطخر حتى تطأ الخيل الدماء الى ارساغها ثم تأتيه جنود من قبل سجستان عليهم رجل من بنى عدى فيظهر الله أنصاره وجنوده ثم يجتمع مع المهدى ويبايعه وبالله التوفيق •

خروج الحارث والمنصور

ذكر شعيب بن صالح

الفائدة الخامسة في أحوال المهدى

(الخامسة في مولده وبيعته ومدة ملكه ومتعلقات ذلك)

أخرج نعيم بن حماد عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال : المهدى مولده بالمدينة من أهل بيت النبى صلى الله عليه وسلم واسمه اسـم نبى ومهاجره بيت المقدس • وفي مرفوع عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما عند أبى نعيم وأبى بكر بن المقرى فى معجمه : يخرج المهدى من قرية يقال لها كريمة •

بيعته ومايتصل بها

وأما بيعته فيبايع بمكة المشرفة بين الركن والمقام ليلة عاشـوراء ، واذا هاجر المهدى من المدينة الى بيت المقدس تخرب المدينة بعد هجرته وتصير مأوى للوحوش ، وقد ورد : عمران بيت المقدس خـراب يثرب • وفى حديث قتادة : يخرج المهدى من المدينة الى مكة • وفي حديث ابن عباس : يستخرجوه من بطن مكة من دار عند الصفا • وفى خبر أبى جعفر : يظهر المهدى بمكة عند العشاء • وفى الخبر : يبعث السفيانى جيشا الى مكة فيأمر بقتل من كان فيها من بنى هاشم فيقتلون ويتفرقـون هاربين الى البرارى والجبال حتى يظهر أمر المهدى بمكة فاذا ظهر اجتمع كل من شذ منهم اليه بمكة ويأتى سبعة علماء من آفاق شتى على غير ميعاد قد بايع لكل منهـم ثلاثمائة وبضعة عشر فيجتمعون بمكة ويقول بعضهم لبعض ما جاء بكـم فيقولون جئنا في طلب هـذا الرجل الذى ينبغى أن تهدأ على يديه الفـتن وتفتح له قسطنطينية قد عرفناه باسمه واسم أبيه وأمه ــ ولم نقف على اسم أم المهدى بعد الفحص والتتبع ولعلهم يعرفون اسم أمه بالكشف كما ذكره في الاشاعة فيقف السبعة على ذلك ــ فيطلبونه فيصيبونه بمكة فيقولون أنت فلان ؟ فيقول بل أنا رجل من الانصار ، فينفلت منهم فيصفونه لأهل الخبرة والمعرفة به فيقولون هو صاحبكم الذى تطلبونه وقد لحق بالمدينة ، فيطلبونه بالمدينة فيخالفهم الى مكة ، وهكذا ثلاث مرات ، فيصيبونه بمكة فى الثالثة عند الركن فيقولون : اثمنا عليك ودماؤنا فى عنقك ان لم تمد يدك نبايعك ، وقد أقبل عسكر السفيانى فى طلبنا ، فيجلس بين الركن والمقام فيمد يده فيبايع له فيلقى الله محبته في قلوب الخلق فيصير مع قوم أسد بالنهار رهبـان بالليل • أخرجه نعيم بن حماد عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه •

وأخرج أيضا عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : يبعث المهدى بعد أياس حتى يقول الناس لا مهدى وأنصاره من أهل الشام عددهم ثلاثمائة وخمسة عشر رجلا عدد أصحاب بدر يسيرون اليه من الشام حتى يستخرجوه من بطن مكة من دار عند الصفا فيبايعوه كرها فيصلى بهم ركعتين عند المقام • وأخرج عن أبى هريرة رضى الله عنه قال يبايع المهدى بين الركن والمقام لا يوقظ نائما ولايهريق دما • والله أعلم •

وقد تكاثرت الروايات والآثار بأمر المهدى وقد ذكر العلماء ان أول ظهوره يكون شابا ثم يخاف على نفسه من القتل فيفر الى مكة مختفيا ثم يرجع الى مكة فيرونه بالمطاف عند الركن فيقهرونه على المبايعة بالامامة ثم يتوجه الى المدينة ومعه المؤمنون ثم يسيرون الى جهة الكوفة ثم يعود منهزما من جيش السفيانى فيخرج الله على السفيانى من أهل المشرق وزير المهدى فيهزم السفيانى الى الشام فيقصده المهدى فيذبحه عند عتبة بيت المقدس كما تذبح الشاة ويغنمه ومن معه من أخواله الذين هم جنده من بنى كلب ولا أكثر من تلك الغنيمة • وفي رواية انه يخرج رجل من كلب يقال له كنانة بعينه كوكب في رهط من قومه حتى ياتى الصخرى يعنى السفيانى فيبعث اليه المهدى راية وأعظم راية في زمانه مائة رجل فتصف كلب خيلها ورجلها وابلها وغنمها فاذا تسامتت الخيلان ولت كلب أدبارها فيقتلونهم ويسبونهم حتى تباع العذراء منهم بثمانية دراهم ويؤخذ الصخرى فيؤتى به أسيرا الى المهدى فيذبح على الصخرة المعترضة على وجه الارض عند الكنيسة التى ببطن الوادى على درج طور زيتا المقنطرة التى على الوادى كما تذبح الشاة • وفى رواية ثم يؤخذ عروة السفيانى على أعلى شجرة على بحيرة طبرية ـ قال صلى الله عليه وسلم « والخائب يومئذ من خاب من قتال كلب ولو بكلمة أو بتكبيرة أو بصيحة والخائب من خاب يومئذ من غنيمة كلب ولو بعقال » فقال حذيفة يا رسول الله كيف يحل قتلهم وتغنم أموالهم وهم مسلمون ؟ فقال صلى الله عليه وسلم « يكفرون باستحلالهم الخمر والزنا • » وفي الحديث : لا تحشر أمتى حتى يخرج المهدى يمده الله بثلاثة آلاف من الملائكة ويخرج اليه الابدال من الشام

والنجباء من مصر وعصائب أهل الشرق حتى يأتوا مكة فيبايع له بين الركن والمقام ثم يتوجه الى الشام وجبريل على مقدمته وميكائيل على يساره ومعه أهل الكهف أعوان له فيفرح به أهل السماء والارض والطير والوحش والحيتان في البحر وتزيد المياه في دولته وتمتد الانهار وتضعف الارض أكلها فيقدم الى الشام فيأخذ السفياني فيذبح تحت الشجرة التى أغصانها الى بحيرة طبرية • والذى يظهر في الجمع بين روايات ذبح السفياني انه يذبح تحت الشجرة هو أو وزيره والذى يذبح على العتبة هو نفسه ان كان المذبوح تحت الشجرة وزيره أو وزيره ان كان هو المذبوح • ثم تمهد الارض للمهدى ويدخل في طاعته ملوك الارض كلهم ويبعث بعثا الى الهند فتفتح ويؤتى بملوك الهند اليه مقفلين وتنقل خزائنها الى بيت المقدس فتجعل حلية لبيت المقدس ويمكث في ذلك سنين •

مدة ملك المهدى

وقد اختلفت الروايات في مدة ملك المهدى ففى بعضها يملك خمسا أو سبعا أو ستا ـ بالترديد ، وفى بعضها : تسع عشرة سنة أو شهرا ، وفى بعضها : عشرين ، وفى بعضها : ثلاثين ، وفى بعضها : أربعين منها تسع سنين يهادن الروم فيها • ويمكن الجمع على تقدير صحة الكل بأن ملكه متفاوت الظهور والقوة فيحمل الاكثر باعتبار جميع مدة الملك منذ البيعة والاقل على غاية الظهور والاوسط على الاوسط ، قال في الاشاعة : وهذا الذى تقتضيه بشارة النبى صلى الله عليه وسلم بالمهدى وان الله تعالى يعوضهم عن الظلم والجور قسطا وعدلا ، واللائق بكرم الله تعالى أن تكون مدة ذلك بقدر ما ينسون فيها الظلم والجور والفتن ، والسبع والتسع أقل من ذلك مع أنه في مدته تفتح الدنيا كلها كما فتحها ذو القرنين وسليمان ويدخل جميع الآفاق كما في بعض الروايات ويبنى المساجد والبلدان ويحلى بيت المقدس ، وهذا يقتضى مدة طويلة مع ما ورد أن الاعمار تطول في زمانه فطولها مستلزم لطول مدته والتسع ونحوها ليست من الطول في شيء ولا سيما مهادنته للروم تسع سنين ثم فتح القسطنطينية ورومية المدائن وغيرهما وهذا يقتضى طول مدته وبالله التوفيق •

تنبيـــه في أن المهـــدى غير عيسى

(تنبيه)

قد كثرت الاقوال في المهدي حتى قيل لا مهدي الا عيسى والصـــواب الذى عليه أهل الحق أن المهدى غير عيسى وانه يخرج قبل نزول عيسى عليه السلام ، وقد كثرت بخروجه الروايات حتى بلغت حد التواتر المعنوى وشاع ذلك بين علماء السنة حتى عدمن معتقداتهم وقد روى الامام الحافظ ابن الاسكاف بسند مرضى[1] الى جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من كذب بالدجال فقد كفر ومن كذب بالمهدى فقد كفر » وفي حديث حذيفة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم : « يا حذيفة لو لم يبق من الدنيا الا يوم واحد لطول الله ذلك اليوم حتى يملك رجل من أهل بيتى تجرى الملاحم على يديه ويظهـــر الاسلام ولا يخلف الله وعدهوهو سريع الحساب» أخرجه الحافظ أبو نعيم الاصفهانى، وأخرج نحوه أبو عمرو المقرى من حديثأبى هريرة مرفوعاء ومن حديث قيس بن جابر عن أبيه عن جده مرفوعا وفيه « ثم يخرج المهدى من أهل بيتى يملأ الارض عدلا كما ملئت جورا » رواه أبو نعيم في فوائده وأخرجه الطبرانى في معجمه ، ومن حديث أبى سعيد الخدرى أخـــرجه أبو نعيم ومن حديث ابن عباس أخرجه ابن الجوزى فى تاريخه ، ومن حديث على أخرجه أبو داود والترمذى والنسائى في سننهم ، وقد روى عمن ذكر من الصحابة وغير من ذكر منهم رضى الله عنهم بروايات متعددةوعن التابعين من بعدهم ما يفيد مجموعه العلم القطعى فالايمان بخروج المهدى واجب كما هو مقرر عند أهل العلم ومدون في عقائد أهل السنة والجماعة

قـــول الامامية والكيسانية

وكذا عند أهل الشيعة أيضا لكنهم زعموا انه محمد بن الحسن العسكرى كما تقدم . وزعمت الكيسانية أن المهدى هو محمد ابن الحنفيةوانهحىمقيم بجبل رضوى وانه بين أسدين يحفظانه وعنده عينان نضاختان تجريان بماء وعسل فزعموا انه دخل اليه ومعه أربعون من أصحابه ولم يوقف لهم على خبر ، قالوا وهم أحياء يرزقون ويقولون أنه يعود بعد الغيبة ويملأ الارض

---

(١) كلا ليس بمرضى عند أئمة الحديث .

عدلا كما ملئت جورا ، قالوا وانما عوقب بهذا الحبس لخروجه الى عبدالملك ابن مروان وقيل الى يزيد بن معاوية • والى هذا الاعتقاد أشار كثير عزة بقوله :

وسبـــط لا يذوق الموت حتى　　يقود الخيل يقـــدمها اللواء
تغيب لا يرى فيهـــم زمانا　　برضوى عنـــده عسل وماء

وكان السيد الحميرى على هذا المذهب وهو القائل :

الأقل للامام فـــدتك نفسى　　أطلت بذلك الجبـــل المقاما

وجبل رضوى بفتح الراء وبعدها ضاد معجمة وبعد الواو ألف كسكرى هو جبل جهينة في عمل الينبع بينهما مسيرة يوم واحد وهو من المدينـــة على سبع مراحل وميامنه طريق المدينة ومياسره طريق البر لمن كان مصعدا الى مكة وهو على ليلتين الى البحر ، وكان المختار بن أبى عبيـــد الثقفى الخبيث المشهور يدعو الى امامة محمد ابن الحنيفة رضى الله عنه وعن أبيه علي بن أبي طالب وكان المختار يزعم ان محمدا هذا هو المهدى ، قـال الجوهرى في الصحاح كيسان لقب المختار المذكور•واقتصر عليه فيالقاموس أيضا ، وقالغيرهما كيسان مولى على رضوان الله عليه • وقيل ان كيسان تلميذ على ، وهؤلاء الكيسانية احدى فرق الضلال كما مر فى تعداد الفرق فعلى عقولهم الدمار وعلى أفعالهم البوار ما أضل علومهم وأبلد فهومهم • وبالله التوفيق •

تتمة للمهـــدى فضل دونفضل الصحابة

(تتمة) جاء عن ابن سيرين ان المهدى خير من أبى بكر وعمر قد كاد يفضل الانبياء • وجاء عنه أيضا لا يفضل عليه أبو بكر وعمر ، وهو وان كان أخف من الاول فليس بصحيح فان الامة مجتمعة على أفضليتهما عليـه بل وعلى جميع الصحابة خلافا للرافضة خذلهم الله تعالى كما سيأتى بيان ذلك بل غيرهما من الصحابة أفضل من المهدى • ثم يستمر سيدنا المهدى حتى يسلم الامر لروح الله عيسى بن مريم عليه السلام ويصلى المهـدى بعيسى عليه السلام صلاة واحدة وهى صلاة الفجر ثم يستمر المهدى عـلى الصلاة خلف سيدنا عيسى عليهالسلام بعد تسليمه الامر اليه ثم يموتالمهدى ويصلى عليه روح الله عيسى ويدفنه في بيت المقدس ، وبمقتضى ما مر يعلم

قدر سنه لانه يخرج ويبايع له وهو ابن أربعين أو خمسة وثلاثين سنة وتقدم الخلاف في مدة ملكه والله تعالى أعلم •

خاتمة ما قيل ان المهديين ثلاثة

(خاتمة) أخرج نعيم عن الوليد بن مسلم قال سمعت رجلا يحدث قوما فقال : المهديون ثلاثة مهدى الى الخير عمر بن عبد العزيز ، ومهدى الدم وهو الذى يسكن على يديه الدماء ، ومهدى الدين عيسى بن مريم عليه السلام • وأخرج أيضا عن كعب قال : مهدى الخير بعد السفيانى • وأخرج أيضا عن ارطاة قال بلغنى أن المهدى يعيش أربعين عاما ثم يموت على فراشه ثم يخرج رجل من قحطان مثقوب الاذنين على سيرة المهدى بقاؤه عشرون سنة ثم يموت قتلا بالسلاح ، ثم يخرج رجل من أهل بيت النبى صلى الله عليه وسلم مهدى حسن السيرة يغزو مدينة قيصر وهو آخر أمير من أمة محمد صلى الله عليه وسلم يخرج في زمانه الدجال وينزل عيسى بن مريم • ونقل العلامة الشيخ مرعي في كتابه فوائد الفكر عن أبى الحسن محمد بن الحسين انه قال قد تواترت الاحاديث واستفاضت بكثرة رواتها عن المصطفى صلى الله عليه وسلم بمجيء المهدى وانه من أهل بيته صلى الله عليه وسلم وانه يملك سبع سنين وانه يملأ الارض عدلا وانه يخرج مع عيسى فيساعده على قتل الدجال بباب لد بأرض فلسطين وانه يؤم هذه الامة وعيسى يصلى خلفه • بعني صلاة واحدة وهى الفجر كما مر وبالله التوفيق •

العلامة الثانية الدجال

(العلامة الثانية خروج الدجال وما يتعلق به)

وما أدراك ما الدجال منبع الكفر والضلال وينبوع الفتن والاوجال قد أنذرت به الانبياء قومها وحذرت منه أممها ونعتته بالنعوت الظاهرة ووصفته بالاوصاف الباهرة وحذر منه المصطفى وأنذر ونعته لأمته نعوتا لا تخفى على ذى بصر • وقد قيل انه صافي ابن صياد أو صائد وان مولده المدينة كما في الحديث الوارد ، وقيل بل هو شيطان موثق في بعض الجزائر أو انه من أولاد شق الكاهن أو هو شق نفسه وان أمه كانت جنية عشقت أباه فأولدها اياه وكانت الشياطين تعمل له العجائب فحبسه سليمان بن داود عليهما السلام وهذا القول ليس بصائب ، وقال كعب الاحبار : الدجال تلده أمه بقوص من

ما جاء في صفته

أرض مصر بين مولده وخروجه أربعون سنة • وفي الترمذى انه يخرج من خراسان • وفي صحيح مسلم عن أنس رضى الله عنه مرفوعا « يتبع الدجال من يهود أصبهان سبعون ألفا عليهم الطيالسة » • وفي مستدرك الحاكم عن ابن عمر رضى الله عنهما مرفوعا « يخرج الدجال من يهودية أصبهان ثم يخلق له عين (؟ - ١) والاخرى كأنها كوكب ممزوجة بدم يشوى في الشمس سمكا ويتناول الطير من الجو له ثلاث صيحات يسمعها أهل المشرق والمغرب» • ومن حليته انه شاب وفي رواية شيخ وسندهما صحيح جسيم أحمر وفي رواية أبيض أمهق وفي رواية آدم ، قال الحافظ ابن حجر في شرح البخارى يمكن أن تكون أدمته صافية وقد يوصف ذلك بالحمرة لان كثيرا من الأدم قد تحمر وجنتاه ، جعد الرأس قطط أعور العين اليمنى كأنها عنبة طافية ، وفي رواية : أعور العين اليسرى ، وجاء في رواية انه أعور العين مطموسة وليست جحراء • وهذا معنى طافئة مهموزة ، قال في فتح البارى نقلا عن القاضى عياض : الذى رويناه عن الاكثر وصححه الجمهور وجزم به الاخفش طافية بغير همز ومعناه انها ناتئة نتوء العنبة ، قال وضبطه بعض الشيوخ بالهمزة وأنكره بعضهم ، قال ولا وجه لانكاره ، ثم جمع القاضى بين الروايات بأن عينه اليمنى طافية بغير همزة (؟-٢) وممسوحة أي ذهب ضوءها وهو معنى حديث أبى داود مطموس العين ، ليست بناتئة ولا جحراء أي ليست بعالية ولا عميقة كما في الرواية الاخرى عنه وهى الجاحظة التى كأنها كوكب وكأنها نخاعة في حائط وهى الخضراء كما جاء ذلك في الاحاديث ، قال وعلى هذا فهو أعور العينين معا فكل واحدة من عينيه عوراء وذلك ان العور العيب والأعور من كل شيء المعيب وكلتا عينى الدجال معيبة أحداهما بذهاب نورها والاخرى بنتوها وخضرتها • قال الامام النووى وهذا في غاية الحسن • انتهى • وقد ورد أن على عينيه ظفرة غليظة وهى لحمة تنبت عند الماق وقيل لحمة تخرج في العين في الجانب الذى على الانف وهما متقاربان • قال الحافظ ابن حجر في فتح البارى : وقد ورد في كلتا عينيه أن عليهما ظفرة ، وفي بعض الروايات عن أبى سعيد الخدرى رضى الله

---

(١) انظر المستدرك ج ٤ ص ٥٢٨ (٢) أنظر فتح البارى ج١٣ ص٨٦

عنه عند الامام أحمد : جاحظة لا تخفى كأنها نخاعة في حائط مجصص وعينه اليسرى كأنها كوكب درى ، وفي حـــديث أبى رضى الله عنه عند الامام أحمد أيضا والطبرانى : احدى عينيه كأنها زجاجة خضراء ، قال والذى يتحصل من مجموع الاخبار ان الصواب في طافية بغير همزة وصرح في حديث عبد الله بن معقل وسمرة وأبى بكرة رضى الله عنهم بأن عينـــه اليسرى ممسوحة ، والطافية غير الممسوحة ، وأما الظفرة فجائز أن تكون في كل من عينيه لانه لا ينافى الطمس ولا النتو أو تكون التى ذهب ضوءها هى المطموسة يعنى اليسرى والمعيبة مع بقاء حدقتها هى البارزة • انتهى •

ومن أوصاف الدجال انه قصير أفحج كما في سنن أبى داود وعنه صلى الله عليه وسلم انه قال ان « المسيح الدجال قصير أفحج جعد أعور مطموس العين — أى متباعد مابين الساقين وقيل هو التدانى ما بين صدور القدمين مع تباعدهما وقيل هو الذى في رجليه اعوجاج — جفال الشعر — بضم الجيم وتخفيف الفاء أى كثيرة —هجان— بكسر أوله وتخفيف الجيم — أبيض — أقمر — أي شديد البياض — ضخم فيلمانى — بفتح الفاء وسكون التحتية أى عظيم الجثة قال ابن الاثير في نهايته في صفة الدجال أقمر فيلم وفي رواية فيلمانيا الفيلم العظيم الجثة والفيلم الامر العظيم واليـــاء زائدة والفيلمـــانى منسوب اليه بزيادة الالف والنون للمبالغة انتهى — كأن رأسه أغصان شجرة — أي شعر رأسه كثير متفرق قائم ، وفي رواية ان رأسه من ورائه حبك أى شعر منكس من الجعود كالماء الساكن والرمل اذا هبت عليهما الريح ، قال في النهاية وهذا معنى ما مر انه جعد قطط — مكتوب بين عينيه كفر — حروفا مقطعة — يقرؤها كل مسلم كاتب وغير كاتب — ولا يقرؤها الكافر — لا يولد له ولا يدخل المدينة ولا مكة تتبعه أقوام كأن وجوههم المجان المطرقه وسبعون ألفا من يهود أصبهان عليهم التيجان وكلهم ذو سيف محلى• ومن صفاته أيضا انه تنام عيناه ولا ينام قلبه وأبوه طوال ضرب اللحم كان أنفه منقار وأمه امرأة فرضاخية أي كثيرة اللحم طويلة الشفتين • وقال في النهاية وفي حديث الدجال وان أمه كانت فرضاخية أي ضخمة عظيمة الثديين يقال رجل فرضاخ وامرأة فرضاخة والتاء للمبالغة (؟) له • أي الدجال حمار

وهو المشعر الغليظ يعني كثير الشعر - ما بين أذنيه أربعون ذراعا يضع خطوه عند منتهى طرفه • وقال أبو الطفيل عن بعض الصحابة رضى الله عنهم : يخرج الدجال على حمار رجس • رواه ابن أبى شيبة • وقال علي رضى الله عنه : يخرج الدجال ومعه سبعون ألفا من الحاكة - زعم بعضهم ان الحاكة اسم موضع - على مقدمته أشعر - أي رجل كثير الشعر - يقول بدو بدو • وهذا لفظ فارسي معناه أسرع أسرع • وفي مسند أبى بكر بن أبى شيبة عن النبى صلى الله عليه وسلم ان الدجال عريض المنخر فيه رفا (؟) أى انحناء • وفي صحيح مسلم من حديث هشام بن عامر رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ما بين خلق آدم الى قيام الساعة خلق أكبر من الدجال » وفي رواية أمر أكبر من الدجال •

قيل انه شيطان لا انسان

واعلم ان العلماء قد اختلفوا في الدجال فقيل انه ليس بانسان وانما هو شيطان موثق بسبعين حلقة في بعض جزائر اليمن لا يعلم من أوثقه أهو سليمان بن داود عليه السلام أو غيره فاذا أراد الله ظهوره فك عنه كل عام حلقة واذا أبرز أتته اتان عرض ما بين أذنيها أربعون ذراعا فيضع على ظهرها منبرا من نحاس فيقعد عليه وتتبعه قبائل الجن يخرجون اليه بخزائن الارض وأول خروجه يدعى الايمان والصلاح ويدعو الى الدين فيتبع ويظهر فلا يزال حتى يقدم الكوفة فيظهر الدين ويعمل به فيتبع ويحب على ذلك ، ثم يدعى الالهية فيقول انا الله فتغشى عينه وتقطع أذناه ويكتب بين عينيه كافر فلا يخفى على مسلم فيفارقه كل أحد من الخلق في قلبه مثقال ذرة من الايمان • هكذا رواه الطبرانى • وقال كعب الاحبار : يتوجه الدجال فينزل عند باب دمشق الشرقى ابتداء قبل خروجه ، ثم يلتمس فلا يقدر عليه ثم يرى عند المياه التى عند نهر الكسوة فيطلب فلا يدرى أين توجه ، ثم يظهر بالمشرق فيعطى الخلافة ثم يظهر السحر ثم يدعى النبوة فينصرف الناس عنه يعنى المسلمين فيأتى النهر فيأمره ان يسيل فيسيل ثم يأمره أن يرجع فيرجع ثم يأمره أن ييبس فييبس - الحديث • رواه نعيم بن حماد • ويبعث الله له شياطين فيقولون له استعن بنا على ما تريد فيقول لهم نعم اذهبوا للناس فقولوا أنا ربهم فيبثهم في الآفاق ويدعى الالهية ، ويخرج من أرض

المشرق من نواحي خراسان ومعه اليهود من أصبهان وغيرها ، وقيل انه يخرج من يهودية أصبهان كما تقدم ، وقيل من كوثا بالكوفة وأكثر من يتبعه اليهود والنساء والاعراب • وفي الترمذي انه يخرج من خراسان • وفي صحيح مسلم عن أنس رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم « يتبع الدجال من يهود أصبهان سبعون ألفا عليهم الطيالسة » • وفي الطبراني يخرج الدجال من قبل أصبهان المشرق معه قومه وجوههم كالمجان فيفتتن

عظم فتنته

الناس به فتنة عظيمة ففي الحديث : ما كانت ولا تكون فتنة حتى تقوم الساعة أعظم من فتنة الدجال وما من نبي الا وحذر قومه الدجال ـ الحديث رواه الحاكم عن جابر رضى الله عنه مرفوعا • وفي الحديث ان قبل خروجه ثلاث سنين أول سنة تمسك السماء ثلث قطرها والارض ثلث نباتها ، والسنة الثانية تمسك السماء ثلثي قطرها والارض ثلثي نباتها ، والسنة الثالثة تمسك السماء ما فيها ويهلك كل ذي ضرس وظلف ، ويسير ومعه جبلان أحدهما فيه أشجار وأثمار وماء ، وأحدهما فيه دخان ، فيقول هذه الجنة وهذه النار• رواه الحاكم عن ابن عمر مرفوعا • وعن حذيفة ان معه جنة ونارا ورجالا يقتلهم ثم يحييهم ومعه جبل ثريد ونهر ماء • وفي صحيح مسلم عن حذيفة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الدجال أعور العين اليسرى جفال الشعر معه جنة ونار فناره جنة وجنته نار » وعنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لأنا أعلم بما مع الدجال منه ، معه نهران يجريان أحدهما رأي العين ماء أبيض والآخر رأي العين نار تأجج ، فأما ان أدرك ذلك أحد منكم فليأت النهر الذى يراه نارا وليغمض ثم ليطاطىء رأسه فيشرب فانه ماء بارد ، وان الدجال ممسوح العين عليها ظفرة غليظة مكتوب بين عينيه كافر يقرؤه كل مؤمن كاتب وغير كاتب » وعنه عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال في الدجال : ان معه ماء ونارا فناره ماء بارد وماؤه نار فلا تهلكوا • قال أبو مسعود وأنا سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم • كل هذه الروايات في صحيح مسلم واتفق البخارى ومسلم من حديث حذيفة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم على هذه الرواية وهي قوله ان الدجال يخرج وان معه ماء

ونارا فأما الذى يراه الناس ماء فنار تحرق وأما الذى يراه الناس نارا فماء بارد عذب فمن أدرك ذلك منكم فليقع في الذى يراه نارا فانه ماء عذب طيب» قال أبو مسعود وأنا قد سمعته تصديقا لحذيفة • وفي صحيح مسلم من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ألا أخبركم عن الدجال حديثا ما حدثه نبى قومه ، انه أعور وانه يجيء معه مثل الجنة والنار فالتى يقول انها الجنة هى النار وانى أنذرتكم به كما أنذر به نوح قومه » وأخرج مسلم من حديث النواس بن سمعان الكلابى رضى الله عنه قال ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الدجال ذات غداة فخفض فيه ورفع حتى ظنناه في طائفة النخل فلما رحنا اليه عرف ذلك فينا فقال ما شأنكم ؟ قلنا يا رسول الله ذكرت الدجال غداة فخفضت فيه ورفعت حتى ظنناه في طائفة النخل ، فقال غير الدجال أخوفني عليكم ان يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم وان يخرج ولست فيكم فكل امرىء حجيج نفسه والله خليفتى على كل مسلم ، انه شاب قطط عينه طافية كأنى أشبهه بعبد العزى بن قطن فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتيح سورة الكهف ، انه خارج خلة - أي انه يخرج قصدا وطريقا والتخلل الدخول الشيء - بين الشام والعراق فعاث يمينا وعاث شمالا يا عباد الله فاثبتوا ، قلنا يا رسول الله فما لبثه في الارض ؟ قال : أربعون يوما يوم كسنة ويوم كشهر ويوم كجمعة وسائر أيامه كأيامكم ، قلنا يا رسول الله فذلك اليوم الذى كسنة تكفينا فيه صلاة يوم ؟ قال لا ، أقدروا له قدره ، قلنا يا رسول الله وما اسراعه في الارض ؟ قال كالغيث استدبرته الريح فيأتى على القوم فيدعوهم فيؤمنون به ويستجيبون له فيأمر السماء فتمطر والارض فتنبت فتروح عليهم سارحتهم أطول ما كانت ذرى وأسبغه ضروعا وأمده خواصر، ثم يأتى القوم فيدعوهم فيردون عليه قوله فينصرف عنهم فيصبحون ممحلين ليس بأيديهم شيء من أموالهم ، ويمر بالخربة فيقول أخرجى كنوزك فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل ثم يدعو رجلا شابا ممتلئا[1] فيضربه بالسيف فيقطعه

طول بعض أيامه وكيف الصلاة فيها

---

(١) المحفوظ « رجلا ممتلئا شبابا »

جزلتين رمية الغرض ثم يدعوه فيقبل يتهلل وجهه يضحك ، فبينما هو كذلك اذ بعث الله المسيح بن مريم عليه السلام فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق بين مهرودتين واضعا كفيه على أجنحة ملكين اذا طأطأ رأسه قطر واذا رفع رأسه تحدر منه جمان كاللؤلؤ فلا يحل لكافر يجد ريح نفسه الا مات ونفسه ينتهي حيث ينتهي طرفه - الحديث .

مع الدجال ما يسميه جنة ونار أفهل ذلك تخييل ؟

وقد ذكر غير واحد من العلماء أن لذى معه من صورة الجنة والنار ونحوهما على طريق التخييل لا الحقيقة منهم ابن حبان في صحيحه واستدل بحديث المغيرة بن شعبة في الصحيحين وغيرهما انه قال كنت أكثر من سؤال لنبى صلى الله عليه وسلم عن آية الدجال فقال لى وما يضرك ؟ قلت انهم يقولون ان معه جبل خبز ؟ قال « هو أهون من ذلك » قال فمعناه انه أهون على الله من أن يكون معه ذلك حقيقة بل يرى ذلك وليس بحقيقة ، ويدل له أيضا الرواية السابقة أحدهما في رأي العين أبيض - الحديث . وقال جماعة منهم ابن العربى : بل هي على ظاهرها امتحانا من الله تعالى لعباده . وحملوا قوله هو أهون الخ أي من أن يخاف منه أو ان يضل الله به من يحبه . قال في الاشاعة كالعلامة الشيخ مرعى ، والتحقيق الاول ، ويدل له ما تقدم من قوله صلى الله عليه وسلم « فمن أدرك ذلك منكم فليقع بالذى يراه انها نار فانه عذب بارد » وبما في رواية : فالنار روضة خضراء ، وفي الصحيحين من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال

ذكر المؤمن الذى يكذب الدجال وما يجرى له

حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما حديثا طويلا عن الدجال فكان فيما حدثنا قال « يأتي وهو محرم عليه ان يدخل نقاب المدينة فينتهى الى بعض السباخ التى تلى المدينة فيخرج اليه يومئذ رجل هو خير الناس أو من خير الناس فيقول له أشهد انك الدجال الذى حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثه ، فيقول الدجال أرأيتم ان قتلت هذا ثم أحييته أتشكون في الأمر ؟ فيقولون لا ، قال فيقتله ثم يحييه ، فيقول الرجل حين يحييه : والله ما كنت فيك قط أشد بصيرة منى الآن ، قال فيريد الدجال ان يقتله فلا يسلط عليه » وأخرج مسلم عنه أيضا في هذا الحديث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يخرج الدجال فيتوجه قبله رجل من المؤمنين

فيلقاه المسالح مسالح الدجال - أى وهو جمع مسلحة قوم معهم سلاح والمسلحة كالثغر والمرقب وهو الذى يكون فيه قوم يرقبون العدو لئلا يهجم عليهم - فيقولون له أين تعمد ؟ فيقول أعمد الى هذا الرجل الذى خرج ، قال فيقولون له أو ما تؤمن بربنا ؟ فيقول : ما بربنا خفاء ،فيقولون اقتلوه فيقول بعضهم لبعض أليس قد نهاكم ربكم ان تقتلوا أحدا دونه ، قال فينطلقون به الى الدجال فاذا رآه المؤمن قال : يا أيها الناس هذا الدجال الذى ذكر النبي صلى الله عليه وسلم ، قال فيأمر به الدجال فيشج فيقول خذوه وشجوه فيوسع ظهره وبطنه ضربا ، قال فيقول : أما تؤمن بى ؟ قال فيقول : أنت المسيح الكذاب ، قال فيؤمر به فينشر بالمنشار من مفرقه حتى يفرق بين رجليه قال ثم يمشى الدجال بين القطعتين ، ثم يقول له قم فيستوى قائما - وفي رواية قم حيا باذنى فيعود حيا - قال فيقول له أتؤمن بى؟ فيقول ما ازددت فيك الا بصيرة ، قال ثم يقول يا أيها الناس انه لا يفعل بعدى بأحد من الناس ، قال فيأخذه الدجال ليذبحه فيجعل ما بين رقبته الى ترقوته نحاس ، فلا يستطيع اليه سبيلا ، قال فيأخذ بيديه ورجليه فيقذف به فيحسب الناس انه قذفه الى النار وانما ألقى في الجنة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا أعظم الناس شهادة عند رب العالمين • قال القرطبى في تذكرته يقال ان هذا الخضر عليه السلام • قال العلامة الشيخ مرعى في بهجته ثبت ان الدجال لا يسلط على أحد بالقتل الا على رجل واحد يخرج اليه وهو شاب حسن فيقول له الدجال أتؤمن بى وبألوهيتى فيقول له انك اللعين الكذاب أو الدجال فيقتله ويشقه نصفين ويمشى الدجال بحماره بين الشقين ويقول له قم حيا باذنى فيعود حيا ثم يقول له بعد ذلك أتؤمن بى ؟ فيقول ما ازددت فيك الا يقينا ، انك اللعين ، قال ابراهيم بن محمد بن سفيان يقال ان هذا الرجل هو الخضر عليه السلام • وقد توهم القرطبى فزعم ان القائل ذلك ابراهيم (؟-١) أبو اسحق السبيعى وليس كذلك وقال بعضهم ان الرجل المذكور من أصحاب الكهف وقد مر أنهم يكونون من أصحاب المهدى •

فان قلت كيف يقال انه لا يسلط الا على واحد مع ما ورد عن حذيفة

(١) كذا وراجع فتح البارى ج١٣ص٩٢

رضى الله عنه ان مع الدجال رجالا يقتلهم ثم يحييهم فالجواب ان هؤلاء الرجال انما هم شياطين وقتله اياهم واحياؤه لهم انما هو في رأي العين لا على الحقيقة وأما قتل ذلك الرجل فعلى الحقيقة •

فائدة فى عدد من سلم من فتنة الدجال

(فائدة) وزد انه لم يبق من الناس بلا فتنة من الدجال الا اثنا عشر ألف رجل وسبعة آلاف امرأة والله المستعان • وأخرج مسلم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يخرج الدجال فى أمتى فيمكث أربعين — لا أدرى أربعين يوما أو أربعين شهرا أو أربعين عاما — فيبعث الله عيسى ابن مريم عليه السلام كأنه عروة بن مسعود فيطلبه فيهلكه » الحديث •

* * *

العلامة الثالثة نزول عيسى عليه السلام دل عليه الكتاب والسنة والاجماع

((و)) منها أي من علامات الساعة العظمى العلامة الثالثة ان ينزل من السماء السيد ((المسيح)) عيسى بن مريم عليه السلام ونزوله ثابت بالكتاب والسنة واجماع الامة أما الكتاب فقوله (وان من أهل الكتاب لا ليؤمنن به قبل موته) أى ليؤمنن بعيسى قبل موت عيسى وذلك عند نزوله من السماء آخر الزمان حتى تكون الملة واحدة ملة ابراهيم حنيفا مسلما • ونوزع في الاستدلال بهذه الآية الكريمة وان الضمير فيقوله قبل موته ليهود (؟) ويؤيده قراءة أبى رضى الله عنه قبل موتهم • وأما السنة ففى الصحيحين وغيرهما عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « والذى نفسى بيده ليوشكن ان ينزل فيكم ابن مريم حكما عدلا فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية » الحديث • وفي مسلم عنه « والله لينزلن ابن مريم حكما عدلا فليكسرن الصليب » بنحوه • وأخرج مسلم أيضا عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تزال طائفة من أمتى يقاتلون على الحق ظاهرين الى يوم القيامة فينزل عيسى بن مريم فيقول أميرهم تعال صل بنا فيقول : لا ان بعضكم على بعض أمراء تكرمة الله هذه الامة » وأما الاجماع فقد أجمعت الامة على نزوله ولم يخالف فيه أحد من أهل الشريعة ، وانما أنكر ذلك الفلاسفة والملاحدة ممن لا يعتد بخلافه ، وقد انعقد اجماع الامة على

أنه ينزل ويحكم بهذه الشريعة المحمدية وليس ينزل بشريعة مستقلة عند نزوله من السماء وان كانت النبوة قائمة به وهو متصف بها ، ويتسلم الامر من المهدى ويكون المهدى من أصحابه وأتباعه كسائر أصحاب المهدى حتى أصحاب الكهف الذين هم من أتباع المهدى كما مر • وتقدم ان عيسى عليه السلام يصلى وراء المهدى صلاة الفجر ولا يقدح ذلك في نبوته وكذلك يسلم اليه تابوت بنى اسرائيل وكل ما معه من آلات الامر •

فوائد تتعلق به الأولى حليته وسيرته

(فوائد في متعلقات السيد المسيح عليه السلام)

(الاولى) في حليته وسيرته أما حليته فعند البخارى من حديث عقيل بن خالد انه أحمر جعد عريض الصدر • وفي رواية آدم كأحسن ما أنت راء من آدم الرجال سبط ينطف - بكسر الطاء المهملة أى يقطر - زاد في رواية : له لمة - أي بكسر اللام وتشديد الميم - أحسن ما أنت راء من اللمم قد رجلها - بتشديد الجيم أي سرحها - وفي رواية - لمته بين منكبيه رجل الشعر يقطر رأسه ماء • وفى حديث ابن عباس رضى الله عنهما مرفوعا ورأيت عيسى بن مريم عليه السلام مربوع الخلق الى الحمرة والبياض سبط الرأس - زاد فى حديث أبى هريرة بنحوه : كأنما خرج من ديماس - يعنى الحمام - ولا منافاة بين الحمرة والادمة لجواز أن تكون ادمته صافية كما مر : لا يجد ريح نفسه كافر الا مات •

وأما سيرته فيكسر الصليب ويقتل الخنزير كما تقدم ويقتل القرد ويضع الجزية ولا يقبل الا الاسلام ويتحد الدين فلا يعبد الا الله ، ويترك الصدقة أي الزكاة لعدم من يقبلها ، وتظهر الكنوز في زمنه ولا يرغب في اقتناء المال، ويرفع الشحناء والتباغض وينزع الله سم كل ذى سم حتى تلعب الاولاد بالحيات والعقارب فلا تضرهم ، وترعى الشاه مع الذئب فلا يضرها ، وتملأ الارض سلما - وينعدم القتال ، وتنبت الارض نبتها كعهد آدم حتى يجتمع النفر على القطف من العنب فيشبعهم ، وكذا الرمانة ، وترخص الخيل لعدم القتال ، ويغلو الثور لان الارض تحرث كلها • ويكون مقررا لشريعة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم لا انه رسول لهذه الامة كما مر ، ويكون

قد علم أحكام هذه الشريعة بأمر الله تعالى وهو في السماء قبل أن ينزل •
وزعم بعض العلماء ان بنزول سيدنا عيسى بن مريم عليه السلام يرفع
التكليف • وهذا مردود للاخبار الواردة انه يكون مقررا لأحكام هذه
الشريعة ومجددا لها اذ هى آخر الشرائع ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم
آخر الرسل ، والدنيا لا تبقى بلا تكليف ، فان بقاء الدنيا انما يكون بمقتضى
التكليف الى أن لا يقال في الارض الله الله ، ذكره القرطبى في تذكرته •
وفي الحديث انه قال صلى الله عليه وسلم : وتسلب قريش ملكها ، قال
الحافظ السخاوى في كتابه القناعة وابن حجر في القول المختصر : معنى ذلك
لا يبقى لقريش اختصاص بشيء دون مراجعته فلا يعارض ذلك خبر «لايزال
هذا الامر في قريش ما بقى من الناس اثنان » • قال البرزنجى في الاشاعة :
ويدل لهذا حديث جابر عند مسلم « فيقول أميرهم تعال صل لنا فيقول لا
ان بعضكم على بعض أمراء تكرمة الله هذه الامة » وعلى هذا فلا منافاة أن
يكون المهدى أميرا حتى في زمن عيسى عليه السلام ويكون مراجعته في
الامور لعيسى عليه السلام للتبرك والتيمن به •

خبر لايزال هذا الأمر فى قريش وما يشكل عليه

فان قلت كيف يصح خبر لا يزال هذا الامر في قريش مع مشاهدتنا
انفصال قريش عن الملك منذ أزمان ، فالجواب استحقاقها لهذا الامر وان
ظلمها ظالم • وأما عيسى فيظهر كمال العدل فلا يأخذ حقهم وربما أن
يكون بقاء الامر في قريش•ولو مراجعة ، ولا شك أن قريشا يراجعون ،
على أن ملوك زماننا يزعمون انهم انما يتملكون بالنيابة عن قريش ويعملون
صورة نيابة عن نقيب السادة الاشراف على ان لبنى هاشم استقلالا بالامر في
محلات كالحجاز واليمن والمغرب وغيرها •

ثم انه لا يخفى انه لا يحسن أن يقول ان الامر في أيام عيسى يكون
للمهدى مع كون عيسى رسولا من أولى العزم معصوما والمهدى رجل
مجتهد ، نعم يكون المهدى من خواص السيد عيسى بل وزيره والمقرب لديه
يراجعه في الامور وتصدر عنه الشورى وبالله التوفيق •

الفائدة الثانية وقت نزوله ومحله وما يجرى على يديه

(الفائدة الثانية)

في وقت نزوله من السماء ومحله وما يجرى على يديه من الملاحم

أما محل نزوله فعند المنارة البيضاء شرقى دمشق واضعا كفيه على أجنحة ملكين ، ففى صحيح مسلم من حديث النواس بن سمعان رضى الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال « فبينما هو أي الدجال كذلك اذ بعث الله المسيح بن مريم عليه السلام فينزل عند المنارة البيضاء شرقى دمشق بين مهرودتين واضعا كفيه على أجنحة ملكين اذا طأطأ رأسه قطر واذا رفع رأسه تحدر منه جمان كاللؤلؤ فلا يحل لكافر يجد ريحه الامات ، ونفسه ينتهى حيث ينتهى طرفه » قوله مهرودتين قال في جامع الاصول رويت هذه اللفظة بالمهملة والمعجمة يقال للثوب اذا صبغ بالورس ثم بالزعفران جاء لونه مثل زهرة الحوذانة فذلك الثوب مهرود ، وقيل أراد بالمهرود الثوب المصبوغ بالهرد وهو صبغ أصفر قيل انه الكركم ، وقيل أراد في شقتين من الهرد وهو القطع • انتهى •

وقال في النهاية : في حديث عيسى عليه السلام انه ينزل بين مهرودتين أي في شقتين أو حلتين ، وقيل الثوب المهرود الثوب الذى يصبغ بالورس ثم بالزعفران فيجيء لونه مثل لون زهرة الحوذانة ، قال القتيبى هو خطأ من النقلة وأراه مهروتين أى صفراوين يقال هريت العمامة اذا لبستها صفراء وكان فعلت منه هروت فان كان محفوظا بالدال فهو من الهرد الشق • وخطىء ابن قتيبة فى استدراكه واشتقاقه • قال ابن الانبارى القول عندنا في الحديث بين مهرودتين يروى بالدال والذال أي بين ممصرتين على ما جاء في الحديث ولم نسمعه الا فيه ، وكذلك أشياء لم تسمع الا فى الحديث ، والممصرة من الثياب التى فيها صفرة خفيفة ، وقيل المهرود الثوب الذى يصبغ بالعروق والعروق يقال لها الهرد ، وفي حديث ذاب جبريل عليه السلام حتى صار مثل الهردة جاء تفسيره فى الحديث انها العدسة • انتهى • والجمان حب الفضة •

ويكون نزول سيدنا عيسى بن مريم عليه السلام لست ساعات مضت من

النهار حتى يأتى مسجد دمشق يقعد على المنبر فيدخل المسلمون المسجد وكذا النصارى واليهود كلهم يرجونه حتى لو ألقى شيء لم يصب الا رأس انسان من كثرتهم ويأتى مؤذن المسلمن وصاحب بوق اليهود وناقوس النصارى فيقترعون فلا يخرج الا سهم المسلمين وحينئذ يؤذن مؤذنهم ويخرج اليهود والنصارى من المسجد ويصلى بالمسلمين صلاة العصر ثم يخرج بمن معه من أهل دمشق فى طلب الدجال كما سيأتى بيان ذلك ٠

الفائدة الثالثة مقدار مدته ووفاته

(الفائدة الثالثة في مقدار مدته ووفاته)

أما مدته ووفاته فقد ورد في حديث أبى هريرة رضى الله عنه عند الطبرانى وابن عساكر انه صلى الله عليه وسلم قال « ينزل عيسى بن مريم فيمكث في الناس أربعين سنة » وعند الامام أحمد وابن أبى شيبة ، وأبى داود وابن جرير وابن حبان عنه انه يمكث أربعين سنة ثم يتوفى ويصلى عليه المسلمون ويدفنونه عند نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ٠ وأخرج الامام أحمد وابن أبى شيبة وابن عساكر وأبو يعلى عن عائشة رضى الله عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ينزل عيسى بن مريم فيقتل الدجال ثم يمكث عيسى في الارض أربعين سنة اماما عادلا حكما مقسطا » وأخرج الامام أحمد أيضا في الزهد عن أبى هريرة رضى الله عنه قال « يلبث عيسى بن مريم أربعين سنة لو يقول للبطحاء سيلى عسلا لسالت. » وفي المنتظم الامام الحافظ ابن الجوزى عن ابن عمر رضى الله عنهما ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ينزل عيسى بن مريم فيتزوج ويولد له » ذكر بعضهم ولدين أحدهما يسميه موسى والآخر محمد وان أمهما من اليزد ، قال ويمكث خمسا وأربعين سنة ثم يموت ويدفن معى في قبرى فأقوم أنا وعيسى من قبر واحد بين أبى بكر وعمر » وعلى هذا روايات أربعين وردت بالغاء الكسر ٠ وورد في رواية انه انما يمكث سبع سنين ٠ وجمع بعضهم ان سيدنا عيسى حين رفع كان عمره ثلاثا وثلاثين سنة وينزل سبعا فهذه أربعون سنة ٠ وهذا والله أعلم ليس بشىء لما مر من حديث عائشة عند الامام أحمد وغيره « فيقتل الدجال ثم يمكث عيسى فى

الارض أربعين سنة » وقد قال الحافظ جلال الدين السيوطي كنت أفتيت بأن ابن مريم يمكث في الارض بعد نزوله سبع سنين ، قال واستمريت على ذلك مدة من الزمان حتى رأيت الامام الحافظ البيهقى اعتمد أن مكثه في الارض أربعين سنة معتمدا ما أفاده الامام أحمد في روايته بلفظ ثم يمكث ابن مريم في الارض بعد قتل الدجال أربعين سنة • وهذا هو المرجع لان زيادة الثقة يحتج بها ، ولانهم يأخذون برواية الاكثر ويقدمونها على رواية الاقل لما معها من زيادة العلم ولانه مثبت والمثبت مقدم • انتهى • والى قتل سيدنا عيسى بن مريم للدجال أشار بقوله :

قتله للدجال

((وانــه يقتل للـــدجال   بباب لدخل عن جدال))

((وانه)) أي المسيح عيسى بن مريم عليه السلام ((يقتل)) بأمر الله له ومعونته وتأييده ((للدجال)) أي الكذاب وهو اسم لهذا الشخص المشار اليه في الشرائع وقيل انما سمى دجالا لانه يقطع الارض ويسير فى أكثر نواحيها يقال دجل الرجل اذا فعل ذلك • وقيل سمى به لتمويهه على الناس وتلبيسه يقال دجل اذا لبس وموه • وقيل مأخوذ من الدجل وهو طلي الجرب بالقطران وتغطيته فكأن الرجل يغطى الحق ويستره •

(تنبيـــه)

تنبيـــه فى لفظ المســيح وانه يقال لعيسى عليه السلام ويقـال للدجال

انما سمى الدجال مسيحا لان احدى عينيه ممسوحة لا يبصر بها والاعور يسمى مسيحا كما في جامع الاصول ، وأما تسمية سيدنا عيسى بن مريم مسيحا فقيل لمسح زكريا عليه السلام اياه ، وقيل لانه كان يمسح ذا العاهة فيبرأ ، وقيل لانه كان يمسح الارض أى يقطعها في سياحته ، وقيـــل المسيح الصديق • فسيدنا عيسى مسيح الهدى وأما الدجال فمسيح الضلالة، وضبطه فيهما بفتح الميم وكسر السين مخففة وبالحاء المهملة ، وسمع مسيح بالتشديد على وزن فعيل قاله الازهرى ، فرقا بينه وبين عيسى فيشدد فى الدجال ويخفف في سيدنا عيسى • قال الغنيمى الشافعى في رسالته «الاجوبة المفيدة على الاسئلة العديدة» ما لفظه : قال ابن دحية عن شيخه أبى القاسم عن أبى عمر ان موسى بن عبـد الرحمن قال سمعت الحافظ أبا عمـر بن

عبد البر يقول ومنهم من قال ذلك بالخاء المعجمة وذلك عند أهل العلم خطأ ولذا ثبت عن النبى صلى الله عليه وسلم انه نطق به بالحاء المهملة ونقله الصحابة المبلغون عنه وقال الراجز * اذا المسيح قتل المسيحا * يعنى عيسى عليه السلام يقتل الدجال • انتهى • وقال في المطلع : المسيح اثنان نبى الله عيسى بن مريم عليه السلام والدجال ، ولم يختلف في ضبط المسيح عيسى على ما هو في القرآن وانما اختلف في معناه ، فقيل سمى مسيحا لمسحه الارض فعيل بمعنى فاعل ـ وذكر نحو ما تقدم ، وزاد : قيل انما سمى مسيحا لانه كان ممسوح القدمين لا أخمص له ، وقيل لان الله تعالى مسحه أي خلقه خلقا حسنا ، وهذا تقدم ـ والمسحة الجمال والحسن، وقيل لانه خرج ممسوحا بالدهن • قال : وأما الدجال فهو مثل عيسى في اللفظ عند عامة أهل المعرفة والرواية ، وعن أبى مروان بن سراج وغيره كسر الميم وتشديد السين ، وأنكره الهروى وجعله تصحيفا، وقال بعضهم كسرت الميم للتفرقة بينه وبين عيسى عليه السلام ، وقال الحربى : بعضهم يكسرها في الدجال ويفتحها في عيسى وكل سواء • قال أبو الهيثم والمسيح بالحاء المهملة ضد المسيخ بالخاء المعجمة مسحه الله اذ خلقه خلقا حسنا ومسخ الدجال اذ خلقه ملعونا • وقال أبو عبيد : المسيح الممسوح العين وبه سمى الدجال ، وقيل المسيح الاعور وبه سمى الدجال ، وقيل أصله مشيح فيهما معرب وعلى هذا اللفظ ينطق به العبرانيون • انتهى • وذكر نحوه في النهاية ثم قال في الدجال وقيل انه الذى مسخ خلقه أي شوه وليس بشىء • انتهى •

صلاة عيسى بالمسلمين العصر بمسجد دمشق

تقدم ان سيدنا عيسى عليه السلام يصلى بالمسلمين صلاة العصر بمسجد دمشق ثم يخرج بمن معه من أهلها في طلب الدجال ويمشى وعليه السكينة والارض تقبض له وما أدرك نفسه من كافر الا وقتله ويدرك حيث ما أدرك بصره حتى يدرك بصره حصونهم وقرياتهم الى أن يأتى بيت المقدس فيجده مغلقا قد حصره الدجال فيصادف ذلك صلاة الصبح • وفي رواية عند الامام أحمد من حديث جابر مرفوعا : فيفر المسلمون ـ يعنى من الدجال ـ الى جبل الدخان بالشام فيأتيهم فيشتد حصارهم ويجهدهم جهدا شديدا • ثم ان الناس يشكون في أمر الدجال حين لم يقدر على قتل ذلك الرجل ثانيا

كما تقدم ويبادر الى بيت المقدس فاذا صعد عقبة فيق رفع ظلة على المسلمين فيوترون قسيهم لقتاله فأقواهم من برك حتى اذا طا لالحصار قال رجل : الى متى هذا الحصار ؟ أخرجوا الى هذا العــدو حتى يحكم الله بيننا اما بالشهادة واما الفتح فهل أنتم الا بين احدى الحسنيين ؟ فيتبايعون على القتال بيعة يعلم الله انها الصدق عن أنفسهم وذلك بعد ثلاث سنين شداد يصيب الناس فيها الجوع الشديد وان قوت المؤمن التهليل والتسبيح والتحميد ثم تأخذهم ظلمة لا يبصر أحدهم كفه فينزل ابن مريم عليه السلام فيحسر عن أبصارهم وبين أظهرهم رجل عليه لأمة فيقولون من أنت ؟ فيقول أنا عبد الله وكلمته عيسى اختاروا احدى ثلاث ان يبعث الله على الدجال وجنوده عذابا جسيما أو يخسف بهم الارض أو يرسل عليهم سلاحكم ويكف سلاحهم • فيقولون هذا يا رسول الله أشفى لصدورنا فيومئذ ترى اليهودى العظيم الطويل الاكول الشروب لا تقل يده سيفه من الرعب فينزلون اليهمفيسلطون عليهم•هكذا فيهذه الرواية وفيرواية أخرى : فبينما أمامهم ـ أي المهدى ـ قد تقدم يصلى بهم الصبح اذ نزل عليهم نبى الله عيسى بن مريم عليــه السلام للصبح فيرجع المهدى قهقرى ليتقدم عيسى عليه السلام ليصلى بالناس ويقال له يا روح الله تقدم ـ أي يقول ذلك بعض من لم يحرم بالصلاة اذن ـ فيقول عليه السلام ليتقدم أمامكم فيصلى لكم ويضع عيسى عليــه السلام يده بين كتفى المهدى فيقول له تقدم فانها لك أقيمت فيصلى بهــم أمامهم فاذا انصرف قال عيسى افتح فيفتح ووراءه أي وراء الباب الدجال معه سبعون ألف يهودى كلهم ذو سيف محلى وساج فاذا نظر اليه الدجال ذاب كما يذوب الملح في الماء وانطلق هاربا فيقول عليه السلام ان لى فيــك ضربة لن تسبقنى بها فيدركه عند باب لد • ولذا قال ((بباب)) متعلق بقتل الدجال أى يقتله بباب ((لد)) بضم اللام فدال مهملة بوزن مد بلـــد مشهورة بينها وبينرملة فلسطين مقدار فرسخ الى جهة الشمال متصـــل شجرها بشجرها ـ فيقتله هناك • وفي رواية ثم ينزل عيسى عليه السلام فينادى (مناد) من السحر فيقول يا أيها الناس ما يمنعكم أن تخرجوا الى الكذاب الخبيث ، ويسمعون النداء : جاءكم الغوث • فيقولون هذا كلام

رجل شبعان ، وتشرق الارض بنور ربها وينزل عيسى بن مريم فيقـول يا معشر المسلمين أحمدوا ربكم وسبحوه - أي فان التحميـــد والتسبيح قوتهم كما مر - فيفعلون ويريد أصحاب الدجال الفرار فيضيق الله عليهم الارض فاذا أتوا باب لد في نصف ساعة يوافقون عيسى فاذا نظر الدجال عيسى يقول أقيموا الصلاة خوفا منه - أي من عيسى - ويقول يا نبى الله قد أقيمت الصلاة ، فيقول عيسى يا عدو الله زعمت انك رب العـــالمين فلمن تصلى ؟ فيضربه بمقرعته ، وفي رواية بحربته التى نزل بها من السماء ، وفي رواية يذبحه بالسـكين • ولا منافاة في ذلك اذ كل ذلك سلاح لسـيدنا عيسى عليه السلام - فيقتله • رواه الامام أحمد عن جابر رضى الله عنـــه مرفوعا ولفظه : ثم ينزل عيسى بن مريم فينادى من السحر يا أيها النـاس ما يمنعكم ان تخرجوا الى هذا الكذاب الخبيث ، فيقولون هذا رجل حي فينطلقون فاذا هم بعيسى عليه السلام فتقام الصلاة فيقال له تقدم يا روح الله فيقول ليتقدم امامكم فليصل بكم ، فاذا صلوا صلاة الصبح خرجوا اليه فحين يراه الكذاب ينماث كما ينماث الملح في الماء فيمشى اليه فيقتله حتى ان الشجر والحجر ينادى يا روح الله هذا يهودى فلا يتركن أحد ممن كان تبعه أحدا الا قتله •

الجمـــع بين الروايات

وحاصل وجه الجمع بين الروايات أن سيدنا عيسى عليه السلام ينزل أولا بدمشق الشام على المنارة البيضاء لست ساعات من النهـار ثم يأتى الى بيت المقدس غوثا للمسلمين ويلحقهم في صلاة الصبح وقد أحرم المهـدى والناس كلهم أو بعضهم لم يحرم بعد فيخرج اليه من لم يحرم بالصـــلاة فيأتى والمهدى في الصلاة فيقهقر ويقال لعيسى تقدم أي يقول له ذلك من لم يحرم من المسلمين لما رأى المهدى تقهقر فيضـــع عيسى يده على كتف المهدى ان تقدم ويقول للقائل امامكم فيجيب المهدى بالفعل والقائل بالقول ليكون جواب كل على طبق قوله ثم اذا أصبحوا شرد أصـــحاب الدجال فتضيق عليهم الارض فيدركهم بباب لد فيصادف ذلك صلاة الظهر فيتحيـل الدجال الى الخلاص من سيدنا عيسى بالصلاة فلما عرف عدم التخلص ذاب خوفا منه كما يذوب الملح بالماء فأدركه فقتله ، أو أن الدجال ينشىء صلاة

في غير وقتها وهو أدل على ضلاله وجهالته بالله كما في الاشاعة • ثم قال وهنا وجه آخر وهو أقرب الى التحقيق وهو ان الصلاة في الايام القصار التى هى آخر أيام الدجال تقدر فيحتمل أن يصادف التقدير ذلك الوقت وعلى هذا فلا اشكال بين كونه ينزل بدمشق لست ساعات مضين من النهار وبين كونه يصلى بالناس صلاة العصر •

ولي على هذا الجمع استشكال ذكرته في البحور الزاخرة وحاصله ان الروايات ثابتة ان نزول عيسى عليه السلام مع الفجر على منارة دمشق الشرقية ويكون المهدى قد جمع الناس لقتال الدجال فتعمهم ضبابة من غمام ثم تنكشف عنهم مع الصبح فيرون عيسى عليه السلام قد نزل ويكون نزوله على المنارة البيضاء والناس يريدون صلاة الصبح ثم بعد الصلاة يتبعون الدجال وقد فر ، فهذا كالصريح ان عيسى ينزل على منارة دمشق الصبح فكيف يقال لست ساعات مضت من النهار ؟ وفيه أيضا أن الناس لم يكونوا أحرموا بالفجر بعد بل يريدون ذلك ، وأيضا المعروف عند أهل العلم أن عيسى عليه السلام انما يصلى وراء المهدى صلاة الصبح لا العصر فأول صلاة عيسى بالناس الظهر • وربما يجاب عن هذا بأن يكون قد جمع بين صلاتى الظهر والعصر تأخيرا لاشتغاله في طلب الدجال فالاولى التسليم لما ورد على ما ورد والاذعان للاخبار الثابتة فلا تقابل بالمعارضة والرد[1] ولهذا قال ((خل)) أي اترك وتنح وتفرغ ((عن جدال)) في ذلك فانه أمر سمعى أخبر به المعصوم والعقل لا يحيله فوجب اعتقاده والتسليم والانقياد والاذعان لما أخبر به خير العباد ورسول رب العالمين صلى الله عليه وسلم •

معنى الجدل

والجدل لغة اللدد فى الخصومة والقدرة عليها يقال جادل يجادل فهو جدل ككتف ومجدل كمنبر ومجدال كمحراب ، وجدلت الحبل أجدله جدلا مثل فتلته أفتله فتلا أى فتلته فتلا محكما ، والجدالة الارض يقال طعنه فجدله أي رماه على الارض ومنه حديث « كنت نبينا وآدم منجدل في طينته » والجدال في اصطلاح النظار والفقهاء فتل الخصم عن قصده لطلب صحة قوله وابطال قول غيره ، وهو وان كان مأمورا به على وجه الانصاف واظهار الحق لانه لا يستغنى عنه لان به تتبين صحة الدليل من فساده

تحريرا وتقريرا وتتضح الاسئلة الواردة من المردودة اجمالا وتفصيلا الا ان الغالب فيه انما يكون على وجه الغلبة والخصومة والغضب والمراء ، وهو يعنى المراء استخراج غضب المجادل عن طريق الحق ، واليه ينصرف النهى عن قيل وقال • قال البربهارى من علمائنا واسمه الحسن بن علي في كتابه شرح السنة : ليس في السنة قياس ولا يضرب لها الامثال ولا يتبع فيها الاهواء بل هى التصديق بآثار الرسول صلى الله عليه وسلم بلا كيف فلا يقال لم ؟ ولا كيف ؟ قال والكلام والخصومة والجدال والمراء محدث يقدح الشك في القلب وان أصاب صاحبه السنة والحق • انتهى مختصرا • وروى الامام أحمد والترمذى وصححه عن أبى امامة مرفوعا « ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه الا أوتوا الجدل ـ ثم تلا ـ ما ضربوه لك الا جدلا » وللامام أحمد عن مكحول عن أبى هريرة رضى الله عنه مرفوعا « لا يؤمن العبد الايمان كله حتى يترك المراء وان كان محقا » وللترمذى عن ابن عباس رضى الله عنهما مرفوعا « لا تمار أخاك » ولأبى داود باسناد حسن عن أبى امامة رضى الله عنه مرفوعا « أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وان كان محقا » وعند ابن ماجه والترمذى وحسنه عن أنس مرفوعا « من ترك المراء وهو محق بنى له بيت في وسط الجنة » وروى أبو داود والترمذى واللفظ له وابن ماجه والبيهقى وقال الترمذى حديث حسن عن أبى امامة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من ترك الجدال وهو مبطل بنى له بيت في ربض الجنة ، ومن تركه وهو محق بنى له في وسطها ، ومن حسن خلقه بنى له في أعلاها » والله الموفق •

(تنبيهات)

تنبيهات الأول في قتل المسلمين لأتباع الدجال من اليهود

(الأول) اذا قتل سيدنا عيسى بن مريم عليه السلام الدجال انهزم جنوده الذين هم اليهود ومن معهم فلا يبقى شيء مما خلق الله يتوارى به يهودى الا أنطق الله ذلك الشيء لا شجر ولا حجر ولا حائط ولا دابة الا قال يا عبد الله هذا يهودى وفي لفظ هذا دجالى فتعال اقتله الا الغرقد فانها من شجر اليهود لا ينطق ، ففى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون

اليهود فيقتلهم المسلمون حتى يختبىء اليهودى من وراء الحجر والشجر فيقول الحجر والشجر يا مسلم هذا يهودى خلفى فاقتله الا الغرقد فانه شجر اليهود » وفي صحيح البخارى نحوه •

الثانى فى قدر لبث الدجال وكيف النجاة منه

(الثانى في قدر لبثه في الارض وكيفية النجاة منه)

أما قدر لبثه في الارض فتقدم في خبر النواس بن سمعان عند مسلم والترمذى انه يمكث أربعين يوما يوم كسنة ويوم كشهر ويوم كجمعة وسائر أيامه كأيامكم ، وفي رواية عند الامام أحمد ومسلم من حديث ابن عمر رضى الله عنهما مرفوعا « يخرج الدجال فى أمتى فيمكث أربعين فيبعث الله عيسى بن مريم عليه السلام كأنه عروة بن مسعود الثقفي فيطلبه فيهلكه » وفي حديث أبى امامة رضى الله عنه عند ابن ماجه وابن خزيمة والحاكم والضياء « ان أيامه أربعون سنة السنة كنصف السنة والسنة كالشهر والسنة كالجمعة وآخر أيامه كالشررة ، يصبح أحدكم على باب المدينة فلا يبلغ بابها الآخر حتى يمسى » وقد اختلف العلماء في تأويل هذا الحديث فمنهم من قال هو كناية عن اشتغال الناس بأنفسهم من الفتن حتى لا يدروا كيف يمضى النهار فيكون مضى النهار عندهم كمضى الساعة والشهر كاليوم والسنة كالشهر ، ومنهم من قال بل هو على ظاهره فقد ورد من حديث أنس رضى الله عنه عند الامام أحمد والترمذى في اشراط الساعة حتى يتقارب الزمان فتكون السنة كالشهر ويكون الشهر كالجمعة وتكون الجمعة كاليوم ويكون اليوم كالساعة وتكون الساعة كالضرمة بالنار(١) • وذكر بعض العلماء ان الصلاة تقدر في هذه الايام أيضا على قياس ما مر • واختلف الجواب عن اختلاف الحديثين فمنهم من مال الى الترجيح فعلى هذا حديث النواس بن سمعان رواه الامام أحمد في المسند ومسلم في صحيحه والترمذى في سننه فهو أقوى لانه أصح وان كان الثانى أيضا صحيحا فيقدم عليه ، ومنهم من مال الى الجمع وطريقه ان أيامه أربعون سنة وتسمى السنين أياما مجازا كما يقال أيام ابن الزبير وأيام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وأيام بنى أمية ، ثم ان أول أيام السنة الاولى كسنة وثانيها كشهر وثالثها كجمعة وباقى أيامه

كأيامنا ثم تتناقص أيام السنة الثانية حتى تكون السنة كنصف سنة وهكذا الى أن تكون السنة كشهر والشهر كجمعة والجمعة كيوم حتى يكون آخر أيامه بحيث يصبح أحدهم على باب المدينة فلا يبلغ بابها الآخر حتى يمسى(١) فتكون السنة الاولى مشتملة على مقدار سنين من سنينا وسنوه الاخيرة مقدار سنة من سنينا ، ويقرب هذا الجمع رواية الحاكم ونعيم عن ابن مسعود رضى الله عنه مرفوعا انه يقول يعنى الدجال انا رب العالمين وهذه الشمس تجرى بأذنى أفتريدون ان أحبسها فيحبس الشمس حتى يجعل اليوم كالشهر وكالجمعة ، ويقول أتريدون ان أسيرها فيجعل اليوم كالساعة الحديث(؟).

وأما كيفية النجاة منه فمعلوم أنه مخلوق يأكل الطعام ويشرب الشراب ثم انه لخسته وعجزه أعور وهو جسم مرئى وهذه كلها لا تجوز على البارى ، وقد صح عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال « من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من الدجال » وفي رواية من آخر الكهف رواه مسلم في صحيحه عن أبى الدرداء رضى الله عنه مرفوعا .

وورد عن أبى امامة مرفوعا من لقيه منكم فليتفل في وجهه رواه الطبرانى . وروى الترمذى من حديث أبى الدرداء رضى الله عنه مرفوعا « من حفظ ثلاث آيات من أول سورة الكهف عصم من فتنة الدجال » قال الترمذى حديث حسن صحيح . ومما ينبغى للمؤمن أن يكثر من ذكر الله تعالى من التهليل والتسبيح والتكبير فانه فويه .

الثالث ينبغى بث الأحاديث المنذرة بالدجال

(الثالث)

مما ينبغى لكل عالم ان يبث أحاديث الدجال بين الاولاد والنساء والرجال، وقد قال ابن ماجه سمعت الطنافسى يقول سمعت المحاربى يقول ينبغى أن يرفع هذا الحديث يعنى حديث الدجال الى المؤدب حتى يعلمه الصبيان في الكتاب . وقد ورد ان من علامات خروجه نسيان ذكره على المنابر ، وقد أخرج الامام أحمد وابن خزيمة وأبو يعلى والحاكم عن جابر رضى اللهعنه مرفوعا : يخرج الدجال في خفة من الدين وادبار من العلم . فينبغى لكل عالم ولا سيما في زماننا هذا الذى اشرأبت فيه الفتن وكثرت فيه المحن

واندرست فيه معالم السنن وصارت السنة فيه كالبدع والبدعة شرع يتبع ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم •

الرابع في ابن صياد وهل هو هو الدجال ؟

(الرابع)

اختلف الناس الصحابة فمن بعدهم قديما وحديثا في الدجال هل هو صافي بن صياد أو غيره ؟ قال الحافظ ابن حجر العسقلانى في شرح البخارى : مما يدل على ان ابن صياد هو الدجال ما أخرج مسلم فيصحيحه عن محمد بن المنكدر قال رأيت جابر بن عبد الله يحلف بالله ان ابن صياد الدجال ، فقلت له أتحلف على ذلك ؟ قال انى سمعت عمر يحلف على ذلك عند النبى صلى الله عليه وسلم فلم ينكره النبى صلى الله عليه وسلم • وأخرجه أبو داود في سننه • وفي تذكرة القرطبى عن نافع قال كان ابن عمر رضى الله عنهما يقول والله ما أشك ان المسيح الدجال ابن صياد •أخرجه أبو داود واسناده صحيح • وفي ذلك عدة أحاديث وآثار صحيحة الا أنها ليست صريحة ولا نصا في ان ابن صياد هو الدجال، وقد أخرج الامام أحمد بسند صحيح عن أنس بن مالك رضى الله عنه مرفوعا : يخرج الدجال من يهودية أصبهان ـ قال أبو نعيم كانت اليهودية من جملة قرى أصبهان وانما سميت اليهودية لانها كانت تختص بسكنى اليهود ولم تزل كذلك الى زمن أيوب بن زياد أمير مصر في زمن المهدى بن المنصور العباسى فسكنها المسلمون وبقيت لليهود منها قطعة • وحاصل كلام الحافظ ابن حجر ان الاصح ان الدجال غير ابن صياد ووافقه في الاشاعة ، وان وافقه ابن صياد في كونه أعور ومن اليهود وانه ساكن في يهودية أصبهان ففى خبر ابن عمر رضى الله عنهما قال : لقيت ابن صياد مرتين فذكر المرة الاولى ثم قال لقيته لقية أخرى وقد نفرت عينه قال فقلت متى فعلت عينك ما أرى؟ قال لا أدرى؟ قال قلت لا تدرى وهى في رأسك ؟ قال ان شاء الله خلقها في عصاك هذه • قال فنخر كأشد نخر حمار سمعت ، فزعم بعض أصحابى أنى ضربته بعصا كانت معى حتى تكسرت وأما أنا فوالله ما شعرت • قال وجاء ابن عمر ودخل على أم المؤمنين حفصة رضى الله عنها فحدثها فقالت ما تريد اليه ؟ اما أنه قد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ان أول ما يبعثه على الناس

عضب يغضبه » وقد كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم ذرني يا رسول الله اضرب عنقه فقال صلى الله عليه وسلم ان يكن هو فلن تسلط عليه وان لم يكن هو فلا خير لك في قتله . ذكره في التذكرة وغيره . وأخرج أبو نعيم في تاريخ أصبهان عن حسان بن عبد الرحمن عن أبيه قال لما فتحت أصبهان كان بين عسكرنا وبين عسكر اليهودية فرسخ فكنا نأتيها ونمتار منها فأتيناها يوما فاذا اليهود يضطربون فسألت صديقا لى منهم فقال ملكنا الذى نستفتح به على العرب يدخل فبت عنده على سطح فصليت فلما طلعت الشمس اذا الوهج من قبل العسكر فنظرت فاذا هو ابن صياد فدخل المدينة يعنى اليهودية فلم يعد حتى الساعة . قال الحافظ ابن حجر : وحسان بن عبد الرحمن ما عرفته وباقى سنده ثقات . وقد أخرج أبو داود عن جابر رضى الله عنه قال فقدنا ابن صياد يوم الحرة . وأخرج الترمذى من حديث أبى بكرة رضى الله عنه مرفوعا « يمكث أبو الدجال وأمه ثلاثين عاما لا يولد لهما ولد ثم يولد لهما غلام أعور أضر شيء وأقله منفعة تنام عيناه ولا ينام قلبه» قال أبو بكرة ثم نعت له رسول الله صلى الله عليه وسلم أبويه فقال « أبوه طوال ضرب اللحم كأن أنفه منقار وأمه فرضاخية طويلة اليدين » قال أبو بكرة فسمعنا بمولود في اليهود بالمدينة فذهبت أنا والزبير بن العوام حتى دخلنا على أبويه فاذا نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهما فقلنا هل لكما ولد ؟ فقالا : مكثنا ثلاثين عاما لا يولد لنا ولد ثم ولد لنا غلام أعور[1] أضر شيء وأقله منفعة تنام عيناه ولا ينام قلبه . قال فخرجنا من عندهما فاذا هو منجدل في الشمس في قطيفة وله همهمة[2] فكشف عن رأسه فقال ما قلتما ؟ قلنا : وهل سمعت ما قلنا ؟ قال : نعم تنام عيناي ولا ينام قلبي . قال الترمذى هذا حديث حسن غريب ولا نعرفه الا من حديث حماد بن سلمة . وأخرجه أبو داود الطيالسى .

والحاصل أن كون الدجال هو ابن صياد بعيد بل ضعيف وحديث أبى داود الذى رواه عن جابر أن ابن صياد فقد يوم الحرة صحيح السند ورواه غيره بسند حسن فهو يضعف خبر انه مات بالمدينة وانهم صلوا عليه لانه

(١) كلمة « أعور » ثبتت فى الاصلين وليست فى جامع الترمذى وفى الروايات ما يدفعها . (٢) فى الاصلين « جمجمة » .

أسلم وانهم كشفوا عن وجهه ولا يلتئم أيضا مع خبر حسان بن عبد الرحمن المار لان فتح أصبهان كان فى خلافة عمر كما أخرجه أبو نعيم في تاريخها وبين شهادة سيدنا عمر رضى الله عنه ووقعة الحرة نحو أربعين سنة • وحاصل كلام الحافظ ابن حجر في فتح البارى وكلام غيره ان الاصح ان الدجال غير ابن صياد كما تقدم ويؤيده ما أخرجه نعيم بن حماد من طريق جبير ابن نفير وشريح بن عبيد وعمرو بن الاسود وكثير بن مرة قالوا جميعا الدجال ليس بانسان وانما هو شيطان موثق بسبعين حلقة في بعض جزائر اليمن كما تقدم • قال الحافظ بن حجر وهذا لا يمكن مع كون الدجال هو ابن صياد • وأما ما أخرجه أبو داود في خبر الجساسة من حديث أبى سلمة بن عبد الرحمن قال شهد جابر أن الدجال هو ابن صياد قلت فانه قد مات • قال : وان مات ، قلت فانه قد أسلم ، قال وان أسلم • قلت فانه قد دخل المدينة ، قال وان دخل المدينة • فان صح ذلك فهى شهادة على حسب ظنه وما وقر في صدره من اعتقاده انه ابن صياد • وأما ما ذكره سيف ابن عمر في كتاب الفتوح والردة من انه لما نزل المسلمون على سوس وأحاطوا بها وناشبوها القتال أشرف عليهم يوما الرهبان والقسيسون فقالوا يا معشر العرب ان مما عهد الينا علماؤنا وأولياؤنا انه لا يفتح السوس الا الدجال أو قوم فيهم الدجال فان كان الدجال فيكم فتفتحونها والا فلا تعنوا بالحصار قال وصافي بن صياد يومئذ مع النعمان بن بشير رضى الله عنه في جنده فأتى صافي بن صياد باب السوس غضبان فدقه برجله وقال انفتح فتقطعت السلاسل وتكسرت الاغلاق وتفتحت الابواب ودخل المسلمون • فالصحيح خلافه • قال الحافظ ابن حجر وغاية ما يجمع به بين ما تضمنه حديث تميم وخبر الجساسة وبين أحاديث كون الدجال هو ابن صياد أن الدجال هو الذى رآه تميم موثقا بعينه وان ابن صياد شيطان ظهر فى صورة الدجال تلك المدة التى قدر الله خروجه فيها ثم ذهب وهذا ممكن والله أعلم •

(الخامس)

الخامس قصة تميم الدارى حديث الجساسة

في ذكر قصة تميم الدارى وحديثه الذى رواه عنه النبى صلى الله عليه وسلم وهو حديث صحيح رواه أبو هريرة أخرجه الامام أحمد وأبو داود

وابن ماجه وأبو يعلى وعائشة رضى الله عنها وهو في حديث فاطمة بنت قيس وروى أيضا من حديث جابر أخرجه أبو داود بسند صحيح • وأما حديث فاطمة الذى هو عمدة الباب وأشهر ما اشتهر من هذا الحديث فأخرجـــه مسلم في صحيحه وأبو داود بمعناه والترمذى وابن ماجه ، قال الترمذى حديث حسن صحيح ولفظ رواية مسلم قالت فاطمة رضى الله عنها سمعت منادى رسول الله صلى الله عليه وسلم ينادى : الصلاة جامعة : فخرجت الى المسجد فصليت مع النبى صلى الله عليه عليه وسلم فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاته جلس على المنبر وهو يضحك فقال « ليلزم كل انسان مصلاه .. ثم قال ـأتدرون لم جمعتكم ؟ » قالوا الله ورسوله أعـلم قال « انى والله ما جمعتكم لرغبة ولا لرهبة ولكن جمعتكم لأن تميما الدارى كان رجلا نصرانيا فجاء وبايع وأسلم وانه حدثنى حديثا وافق الذى كنت أحدثكم عن المسيح الدجال حدثنى انه ركب في سفينة بحرية مع ثلاثين رجلا من لخم وجذام فلعب بهم الموج شهرا في البحر ثم أرفؤا (أي بفتح الهمزة وسكون الراء فهمزة مضمونة أى لجؤا) الى جزيرة في البحر حين مغرب الشمس فجلسوا في أقرب السفينة (وهى بضم الراء جمع قارب بفتح الراء وكسرها سفينة صغيرة مع الكبيرة معدة لقضاء الحوائج) قال ـ فدخـــلوا الجزيرة فلقيتهم دابة أهلب (أى كثير الشعر غليظه وعند أبى داود : فاذا أنا بامرأة تجر شعرها ـوفى رواية مسلم ـ دابة أهلب) كثير الشعر لا يدرون ما قبله من دبره من كثرة الشعر فقالوا ويلك ما أنت ؟ قالت أنا الجساسة ، قالوا وما الجساسة (وهى بفتح الجيم وتشديد السين المهملة الاولى سميت بذلك لانها تجس الاخبار وقد روى عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أن هذه هى دابة الارض التى تخرج آخر الزمان فتكلم الناس كما يأتى) قالت أيها القوم انطلقوا الى هذا الرجل في الدير فانه الى خبركم بالاشواق ، قال فلما سمت لنا رجلا فرقنا منها ان تكون شيطانة ، قـــال فانطلقنا سراعا حتى دخلنا الدير فاذا فيه أعظم انسان رأيناه قط خلقا وأشده وثاقا مجموعة يده الى عنقه ما بين ركبته الى كعبه بالحديد ، قلنا : ويلك ما أنت قال قدرتم على خبرى فأخبرونى ما أنتم ؟ قالوا نحن أناس من العرب

ركبنا في سفينة بحرية فصادفنا البحر حين اغتلم (أي هاج واضطربت أمواجه) فلعب بنا الموج شهرا ثم أرفينا الى جزيرتك هذه فجلسنا في أقربها فدخلنا الجزيرة فلقينا دابة أهلب كثيرة الشعر لا ندرى ما قبله من دبره من كثرة الشعر فقلنا ويلك ما أنت فقالت أنا الجساسة قلنا وما الجساسة قالت اعمدوا الى هذا الرجل في الدير فانه الى خبركم بالاشواق فأقبلنا اليك سراعا وفزعنا منها ولم نأمن أن تكون شيطانة • قال أخبرونى عن نخـل بيسان (وهى بفتح الباء الموحدة قرية بالشام جنوبى طبرية وأيضا ناحية باليمامة ولعلها المرادة في الحديث بدليل ذكر النخيل) هل يثمر ؟ قلنـــا نعم ، قال أما انها يوشك ان لا تثمر ، ولفظ مسلم أخبرونى عن نخل بيسان قلنا عن أى شأنها تستخبر قال أسألكم عن نخلها هل يثمر ؟ قلنا نعم قال أما انها يوشك ان لا تثمر • قال أخبرونى عن بحيرة طبرية قلنا عن أى شأنها تستخبر ؟ قال هل فيها ماء ؟ قالوا هى كثيرة المـاء قال ان ماءها يوشــك أن يذهب • قال أخبرونى عن عين زغر (أى بضم الزاء وفتح الغين المعجمـة على وزن صرد بليدة من الجانب القبلى من الشام بينها وبين بيت المقدس ثلاثة فراسخ على طريق البحيرة وزغر اسم ابنة لوط عليه السلام قال في القاموس وزغر قرية بالشام سميت بذلك لان ابنة لوط نزلت بها قال وبها عين غور مائها علامة خروج الدجال) قالوا عن أى شأنها تستخبر ؟ قال هل في العين ماء وهل يزرع أهلها بماء العين ؟ قلنا نعم هى كثيرة الماء وأهلها يزرعون من مائها • قال أخبرونى عن نبى الاميين ما فعل ؟ قال قد خــرج من مكة ونزل يثرب ، قال أقاتله العرب ؟ قلنا له : نعم ، قال كيف صـنع بهم ؟ فأخبرناه انه قد ظهر على من يليه من العرب وأطاعوه ، قال أما ان ذلك خير لهم ان يطيعوه ، وانى مخبركم عنى انى أنا المسيح وانى أوشــك أن يؤذن لى في الخروج فأخرج فأسير في الارض فلا أدع قرية الا هبطتها في أربعين ليلة غير مكة وطيبة هما محرمتان علي كلتاهما كلما أردت أن أدخل واحدة ــ أو واحد ــ منهما استقبلنى ملك بيده السيف صلتا يصدنى عنها وان على كل نقب منها ملائكة يحرسونها • قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وطعن بمخصرته في المنبر هذه هى طيبة هذه طيبة هذه طيبة (يعنى المدينة)

ألا هل كنت حدثتكم ؟ فقال الناس نعم ، قال فانه أعجبني حديث تميم انه وافق الذى كنت أحدثكم عنه وعن المدينة ومكة . الا أنه في بحر الشام أو بحر اليمن ، لا بل من قبل المشرق ما هو ، من قبل المشرق ما هو ، من قبل المشرق ما هو ، من قبل المشرق ما هو » وأومى بيده الى المشرق قالت فاطمة بنت قيس رضى الله عنها فحفظت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم. أخرجه مسلم من عدة أوجه وأخرجه غيره أيضا . قال القاضى عياض في قوله صلى الله عليه وسلم من قبل المشرق ما هو لفظة ما زائدة صلة الكلام ليست نافية والمراد اثبات انه من قبل المشرق . وفي بعض طرق الحديث عند البيهقى انه شيخ وسنده صحيح . قال البيهقى فيه أن الدجال الاكبر الذى يخرج في آخر الزمان غير ابن صياد وان كان ابن صياد واحد الدجالين الكذابين الذين أخبر النبى صلى الله عليه وسلم بخروجهم .

السادس اسم الدجال عند اليهود وزعمهم فيه

(السادس)

اسم الدجال عند اليهود المسيح بن داود قالوا يخرج آخر الزمان فيبلغ سلطانه البر والبحر وتسير معه الانهار قالوا وهو آيه من آيات الله قال ويرد الملك الينا وقد كذبوا في زعمهم بل هو مسيح الضلالة الدجال الكذاب وأما مسيح الهدى فعيسى بن مريم عليه السلام والله أعلم .

السابع انعيسى عليه السلام بعد قتله الدجال يزور المدينة

(التنبيه السابع)

أعلم ان سيدنا المسيح عيسى بن مريم عليه السلام بعد قتله للدجال يذهب الى المدينة فيزور قبر النبى صلى الله عليه وسلم ويحج البيت الحرام ويتوفى بالمدينة المنورة فيدفن هناك فقد أخرج الامام أحمد وابن جرير وابن عساكر من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ينزل عيسى بن مريم فيقتل الخنزير ويمحو الصليب ويجمع الصلاة ويعطى المال حتى لا يقبل ويضع الخراج وينزل الروحاء فيحج منها أو يعتمر أو يجمعهما » وعند مسلم في صحيحه وابن أبى شيبة عن أبى هريرة رضى الله عنه أيضا « ليهلن عيسى بن مريم بفج الروحاء بالحج أو العمرة أو ليثنيهما جميعا » قوله بفج أى طريق والروحاء مكان

بين المدينة ووادى الصفراء في طريق مكة ، قال ابن قرقول في المطـــالع والروحاء من عمل الفرع على نحو من أربعين ميلا من المدينة ، وفى مسلم ستة وثلاثين ، وابن أبى شيبة على ثلاثين • وأخرج الحاكم وصححه وابن عساكر من حديث أبى هريرة أيضا رضى الله عنـــه « ليهبطن ابن مريم حكما عدلا واما ما مقسطا وليسلكن فجا حاجا أو معتمرا وليأتين قبرى حتى يسلم علي ولا ردن عليه » قال أبو هريرة رضى الله عنه أي بني أخى اذا رأيتموه فقولوا أبو هريرة يقرئك السلام • وأخرج الحاكم عن أنس رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من أدرك عيسى منكم فليقرئه منى السلام » وأخرج البخارى في تاريخه والطبرانى : يدفن ابن مريم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهما وصاحبيه رضى الله عنهما فيكون قبره رابعا • وفى المواهب اللدنية للقسطلانى رحمه الله بقى من البيت موضع قبر يدفن فيه عيسى بن مريم عليه السلام ويكون قبره الرابع• ومر حديث ابن عمر عند ابن الجوزى في المنتظم • قال العلامة الشيخ مرعى في بهجته قال بعض مشايخنا وذكر رابع القبور لا ينافى قوله صلى اللهعليه وسلم فى الحديث المار معى في قبرى فانه صلى الله عليه وسلم عبر بذلك لشدة القرب اذ هو لقربه كأنه معه ، أو بتقدير مضاف أي في جانب قبرى لينطبق الكلام وينتسق • فدل مجموع ما ذكرنا ان المسيح عيسى بنمريمعليه السلام يموت بالمدينة المنورة • قال بعضهم ولعل موته عند حجه وزيارته النبى صلى الله عليه وسلم • واعلم ان الكلام على المهدى والدجال وعيسى ابن مريم عليهالسلام طويل شهير أفردت في ذلكالكتب المبسوطة والمختصرة وذكرنا في كتابنا البحور الزاخرة من ذلك طرفا صالحا يغنى من أحصـاه علما عن مراجعة أكثر كتب هذا الباب والله أعلم بالصواب •

العلامة الرابعة خروج ياجوج وماجوج

(العلامة الرابعة)

خروج يأجوج ومأجوج واليها أشار بقوله :

((وأمر يأجوج ومأجوج أثبت فانه حق كهـــدم الكعبـــة

اشـــتقاق الاسمين

((وأمر يأجوج ومأجوج)) يهمزان ولا يهمزان لغتان وقرىء بهما فمن همزهما جعلها من أجيج النار وهو ضوءها وحرارتها وسموا بذلك لكثرتهم

قيل هم من اولاد يافث

وشدتهم وقيل من الاجاج وهو الماء الشديد الملوحة وقيل هما اسمان أعجميان غير مشتقين . قال مقاتل هم من ولد يافث بن نوح عليه السلام . وقال كعب احتلم آدم عليه السلام فاختلط ماؤه بالتراب فأسف فخلقوا من ذلك. وفيه نظر لان الانبياء لا يحتلمون على ان امناء النائم لا يتوقف على الحلم الذى يقتضى أن يتراءى له في منامه ما يكون سببا لانزاله كما لا يخفى . وقد روى الطبرانى من حديث حذيفة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « يأجوج أمة لها أربعمائة أمير وكذلك مأجوج ولا يموت أحدهم حتى ينظر الى ألف فارس من ولده » قال أهل التاريخ أولاد نوح ثلاثة سام وحام ويافث فسام أبو العرب والعجم والروم ، وحام أبو الحبشة والزنج والنوبة ، ويافث أبو الترك والصقالبة ويأجوج ومأجوج . وقال الكسائى في العرائس ان يافث سار الى المشرق فولد له هناك جوهر ونبرش وأشار واسقويل ومياشح وهى آسماء أعجمية ، فمن جوهر جميع الصقالبة والروم ولأجناسهم ، ومن مياشح جميع أصناف العجم ، ومن أشار يأجوج ومأجوج وأجناسهم . قال ابن عباس رضى الله عنهما هم عشرة أجزاء وولد آدم كلهم جزء لانهم لا يموت أحدهم حتى ينظر الى ألف ذكر من صلبه يحملون السلاح ، فمنهم من طوله مائة وعشرون ذراعا أو خمسون ،ومنهم من طوله وعرضه كذلك ، ومنهم من يلتحف باحدى أذنيه ويفترش الاخرى . وقال على رضى الله عنه منهم من طوله شبر ومنهم من هو مفرط في الطول لهم مخالب في موضع الاظفار من أيدينا وأنياب وأضراس كأضراس السباع ولهم شعر في أجسادهم . والمراد بأمرهم خروجهم وهو ثابت بالكتاب والسنة واجماع الامة فلهذا قال ((أثبت)) أى اعتقد ثبوته .

اثبات وجودهم وخروجهم ، بالكتاب والسنة

أما الكتاب فقوله تعالى (حتى اذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون) وأما السنة ففى صحيح مسلم من حديث النواس بن سمعان رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال « ان الله تعالى يوحى الى عيسى بن مريم عليه السلام بعد قتله الدجال انى قد أخرجت عبادا لى لا يدان لاحد بقتالهم فحرز عبادى الى الطور ، ويبعث الله يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون فيمر أولهم على بحيرة طبرية فيشربون ما فيها

ويمر آخرهم فيقولون لقد كان بهذه ماء ، ويحصرون عيسى وأصحابه حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيرا من مائة دينار » الحديث وقال صلى الله عليه وسلم « لا تقوم الساعة حتى يكون عشر آيات طلـــوع الشمس من مغربها والدخان والدابة ويأجوج ومأجوج ونزول عيسى ابن مريم وثلاث خسوفات ونار تخرج من قعر عـــدن ابين » الحديث رواه ابن ماجه من حديث حذيفة بن أسيد قلت وهو في مسلم من حديث أبى الطفيل عن حذيفة بن أسيد الغفارى ولفظه قال اطلع النبى صلى الله عليه وسلم علينـا ونحن نتذاكر فقال ما تذكرون ؟ قالوا نذكر الساعة ، قال « انها لن تقوم حتى ترى قبلها عشر آيات» فذكر الدخان والدجال والدابة وطلوع الشمس من مغربها ونزول عيسى بن مريم عليه السلام ويأجوج ومأجوج وثلاث خسوف خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس الى محشرهم • ورواه من وجه آخر وكنى حذيفة بأبى سريحة وقال فيه : ونار تخرج من قعر عدن ترحل الناس • وفي حديث حذيفة عند الطبرانى ويمنعهم الله من مكة والمدينـــة وبيت المقدس • وفي خبر علي رضى الله عنه لهم مخاليب وأنياب السباع وتداعى الحمام وتسافد البهائم وعواء الذئب وشعور تقيهم الحر والبرد وآذان عظام احداهما وبرة يشتون فيها والآخرة جلدة يصيفون فيها •

ما قيـــل انه ليسوا من اولاد حواء ـوماحكى فى صفتهم

سئل الامام النووى هل يأجوج ومأجوج من ولد حواء وكم تثبت أنه يعيش كل واحد منهم؟فأجابهم من ولد آدم وحواء عليهما السلام عند أكثر العلماء وقيل انهم من آدم دون حواء قال النووى كما حكاه عنه الحافظ ابن حجر عند جماهير العلماء قال النووى فيكونون أخوتنـــا من الاب • قال الحافظ ابن حجر لم يرد هذا عن أحد من السلف الا عن كعب الاحبـار ويرده الحديث المرفوع انهم من ذرية نوح ونوح من ذرية حواء قطعا والا فأين كانوا حين الطوفان ولم يثبت في قدر أعمارهم شيء • انتهى وقد ذكر الامام ابن عبد البر الاجماع على أنهم من ولد يافث بن نوح عليه السلام وان النبى صلى الله عليه وسلم سئل عن يأجوج ومأجوج هل بلغتهم دعـــوتك فقال «جزت ليلة أسرى بى فدعوتهم فلم يجيبوا» فللنص القرآنى والاحاديث

الواردة عن النبى صلى الله عليه وسلم مما ذكرنا ومما لم نذكر قال ((فانه))
خروجهم حق
أي أمر يأجوج ومأجوج يعنى خروجهم من وراء السد على الناس ((حق))
ثابت لوروده في الذكر وثبوته عن سيد البشر ولم يحله عقل فوجب اعتقاده
فقد روى الجماعة الا أبا داود من حديث زينب بنت جحش رضى الله
عنهما قالت خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فزعا محمرا وجهه يقول
« لا اله الا الله ويل للعرب من شر قد اقترب فتح اليوم من ردم يأجوج
ومأجوج مثل هذه » وحلق بأصبعيه الابهام والتى تليها قالت قلت يا رسول
الله انهلك وفينا الصالحون ؟ قال « نعم اذا كثر الخبث » اشارة بذلك الى
أن الذى فتحوا من السد قليلا وهم مع ذلك لم يلهمهم الله تعالى ان يقولوا
عند نقبه وحفره غدا نفتحه ان شاء الله فاذا قالوها خرجوا • وقد روى
عبد الرزاق عن أبى قتادة قال : يأجوج ومأجوج ثنتان وعشرون قبيلة بنى ذو
القرنين السد على احدى وعشرين وكانت قبيلة منهم غائبة في الغزو وهم
الترك فبقوا دون السد • وأخرج ابن جرير وابن مردويه من طريق السدي
قبائلهم ومنها الترك وصفتهم
من أثر قوي : الترك سرية من سرايا يأجوج ومأجوج خرجت فجاء ذو
القرنين فبنى السد فبقوا خارجا عنه • وسئل على رضوان الله عليه عن الترك
فقال هم سيارة ليس لهم أصل ، هم من يأجوج ومأجوج خرجوا يغيرون
على الناس فجاء ذو القرنين فسد بينهم وبين قومهم فذهبوا سيارة في الارض •
رواه ابن المنذر • وأخرج الامام أحمد والطبرانى عن خالد بن عبد الله بن
حرملة عن خالته مرفوعا « انكم لتقولون لا عدو وانكم لا تزالون تقاتلون
عدوا حتى تقاتلوا يأجوج ومأجوج عراض الوجوه صغار العيون صهب
الشعور من كل حدب ينسلون كأن وجوههم المجان المطرقة » قوله صهب
الشعور أى شعرهم بين الحمار والسواد • وقال الزهرى يأجوج ومأجوج
ثلاث أمم منسك وتأويل وتأريس • وأخرج الطبرانى وابن مردويه
والبيهقى وعبد بن حميد عن ابن عمر رضى الله عنهما أن يأجوج ومأجوج
من ذرية آدم وراءهم ثلاث أمم تأويل وتأريس ومنسك • وأخرج عبد بن
حميد بسند صحيح عن عبد الله بن سلام نحوه • وفي حديث حذيفة
لا يمرون بفيل ولا وحش ولا طير ولا جمل ولا خنزير الا أكلوه ومن

مات منهم أكلوه • وذكر بعضهم في صفتهم ان فيهم من له قرن وذنب وأنياب بارزة يأكلون اللحوم نيئة • وأخرج ابن حبان في صحيحه عن ابن مسعود رضى الله عنه رفعه ان يأجوج ومأجوج أقل ما يترك أحدهم من صلبه ألفا من الذرية • وعند النسائى من رواية عمرو بن أوس عن أبيه رضى الله عنه رفعه ان يأجوج ومأجوج يجامعون ما شاءوا ولا يموت رجل منهم الا ترك منذريته ألفا فصاعدا • وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه أن يأجوج ومأجوج لهم نساء يجامعونهن ما شاءوا • وأخرج ابن أبى حاتم عن عبد الله ابن عمرو انه قال : الجن والانس عشرة أجزاء فتسعة أجزاء يأجوج ومأجوج وجزء سائر الناس[1] • وقال مكحول الارض مسيرة مائة عام ثمانون منها بأجوج ومأجوج وهى أمتان كل أمة أربعمائة ألف أمة لا تشبه الامة الاخرى • وعند أبى الشيخ عن أبى أمامة : الدنيا سبعة أقاليم فيأجوج ومأجوج ستة والباقي أقليم واحد • وقال خالد الاشبج ان بنى آدم وبنى ابليس ثلاثة أثلاث فثلثان بنو ابليس وثلث بنو آدم ، وبنو آدم ثلاثة أثلاث ثلثان يأجوج ومأجوج وثلث سائر الناس، والناس بعد ذلك ثلاثة أثلاث ثلث الاندلس وثلث الحبشة وثلث سائر الناس العرب والعجم • وعند الحاكم وعبد الرزاق من قول ابن عمر رضى الله عنهما ان الله تعالى جزأ الملائكة والجن والانس عشرة أجزاء تسعة منهم الكروبيون والذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون ، وجزأ الانس والجن عشرة أجزاء فتسعة من الجن لا يولد من الانس ولد الا ولد من الجن تسعة ، وجزأ الانس عشرة فتسعة منه يأجوج ومأجوج ـ الحديث •

مقدارهم في جملة الجن والانس

(تتمة في سبب خروجهم وافسادهم واهلاكهم)

تتمة فى سبب خروجهم واهلاكهم

اعلم أولا ان الاسكندر بنى الردم الذى سد به على يأجوج ومأجوج كما ذكر الله تعالى ذلك في محكم الذكر في قوله سبحانه (قالوا ياذا القرنين ان يأجوج ومأجوج مفسدون فى الارض) بالقتل والتخويف واهلاك الزرع وفعل الخبيث (فهل نجعل لك خرجا) أى جعلا نخرجه لك من أموالنا وقرأ حمزة والكسائى وخلف (خراجا) بفتح الراء وألف بعدها وهو المال المضروب على الارض يؤدى في كل عام (على أن تجعل بيننا وبينهم سدا)

سد ذي القرنين وصفته ومكانه وحكايات من ادعى رؤيته

أي حاجزا فلا يصلون الينا (قال) ذو القرنين (ما مكنى فيه ربى) من القوة والعلم وطلب ثوابه والمال ونفوذ المقال (خير) أي أفضل مما تعطوننى أنتم (فأعينونى بقوة) أى آلة اتقوى بها وفعل منكم (اجعل بينكم وبينهم ردما) هو أكبر وأعظم من السد فجاءوه بذلك فحفر ما بين الصدفين يعنى الناحيتين من الجبلين لأنهما يتصادفان أى يتقابلان حتى بلغوا الماء ثم قال (آتونى زبر الحديد) أي القطع التى أعدها لذلك فجعل الاساس من الصخر والنحاس المذاب والبنيان من زبر الحديد بعضها فوق بعض وجعل بينهما الحطب والفحم (حتى اذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا) فنفخوا النار (حتى اذا جعله) أي الحديد (نارا) أي كالنار (قال آتونى أفرغ عليه قطرا) أي أصب عليه نحاسا مذابا فجعلت النار تأكل الحطب وتصير النحاس مكان الحطب حتى لزم الحديد النحاس وكان طوله مائة فرسخ وعرضه خمسون ذراعا وارتفاعه مائتى ذراع وطول الجبلين اللذين بنى بينهما مائة فرسخ (فما استطاعوا أن يظهروه) أي يعلوه من فوقه لملاسته ورفعته (وما استطاعوا له نقبا) أي خرقا لصلابته وسمكه ثم قال (هذا رحمة من ربى فاذا جاء وعد ربى جعله دكاء وكان وعد ربى حقا) وقد روى البزار من حديث يوسف بن مريم الحنفى قال بينما أنا قاعد مع أبى بكرة رضى الله عنه اذ جاء رجل فسلم عليه فقال أما تعرفنى ؟ فقال له أبو بكرة أنت هو ؟ قال نعم ، فقال اجلس حدثنا فقال : انطلقت الى أرض ليس لأهلها الا الحديد يعملونه فدخلت بيتا فاستلقيت على ظهرى وجعلت رجلي على جداره فلما كان عند غروب الشمس سمعت صوتا لم أسمع مثله فرعبت فقال لى رب البيت لا تذعرن فان هذا لا يضرك ، هذا صوت قوم ينصرفون هذه الساعة من عند هذا السد أفيسرك أن تراه ؟ قلت نعم ، قال فغدوت فاذا لبنه من حديد كل واحدة مثل الصخرة واذا كأنه البرد المحبر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من سره أن ينظر الى رجل قد أتى الردم فلينظر الى هذا » قال أبو بكرة صدقت • وذكر أهل التاريخ ان الاسكندر وجد هناك معدنين فاستخرج منهما ما كفاه من الحديد والنحاس وكان مكان السد جبلان متقابلان أملسان كالحائط يزلق عنهما

كل شيء لا يرتقى فيهما لعلوهما وملاستهما فأمر الاسكندر الصناع فضربوا لبن الحديد طول كل لبنة ذراع ونصف وسمكها شبر . وقد ذكر سلام الترجمان قال بعثنى الواثق العباسى الى السد وضم الي خمسين رجلا وأعطانا مالا فما زلنا ننتقل في البلاد وتبعث الملوك معنا الادلة الى أن صرنا الى أرض سوداء منتنة الريح فسرنا فيها عشرة أيام ثم صرنا الى مدن خراب فسرنا فيها سبعا وعشرين يوما وهى التى كانت يأجوج ومأجوج يطرقونها ثم صرنا الى حصون بالقرب من السد وفيها قوم يتكلمون بالعربية والفارسية مسلمون يقرءون القرآن فسألونا من أين أقبلتم ؟ قلنا نحن رسل أمير المؤمنين قالوا : ما سمعنا بهذا قط ، ثم صرنا الى جبل أملس وفيه السد وهناك باب حديد مصراعان مغلقان عرض كل مصراع خمسون ذراعا فى ارتفاع خمسين فى ثخن خمسة أذرع وقائمتاهما فى دوارة ، على الباب قفل طوله سبعة أذرع في غلظ ذراع وارتفاع القفل من الارض خمسة وعشرون ذراعا وفوق القفل بقدر خمسة أذرع غلق طوله أكثر من طول القفل وعلى الغلق مفتاح معلق فى سلسلة طولها ثمانية أذرع فى استدارة أربعة أشبار وعتبة الباب عشرة أذرع ورئيس تلك الحصون يركب في كل جمعة في عشرة فوارس مع كل فارس مرزبة من حديد فيضربون القفل بتلك المرزبات ليسمعوا الصوت فيعلموا الصوت أن هناك حفظة (١) .

حديث حفرهم السد

وقد أخرج الامام أحمد والترمذى وحسنة وابن حبان والحاكم وصححاه من حديث أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال « ان يأجوج ومأجوج ليحفرون السد كل يوم حتى اذا كادوا يخرقونه قال الذى عليهم ارجعوا فتخرقونه غدا ، فيعيده الله أشد ما كان حتى اذا بلغ مدتهم وأراد الله أن يبعثهم على الناس قال الذى عليهم ارجعوا فتخرقونه غدا ان شاء الله تعالى ـ واستثنى قال فيرجعون فيجدونه كهيئته حين تركوه فيخرقونه فيخرجون على الناس » قال الحافظ ابن حجر أخرجه الترمذى وابن ماجه والحاكم وعبد بن حميد وابن حبان كلهم عن قتادة ورجال بعضهم رجال الصحيح . قال ابن العربى في هذا الحديث ثلاث آيات الاولى

فى الحديث آيات

ان الله تعالى منعهم ان يوالوا الحفر ليلا ونهارا ، الثانية منعهم أن يحتالوا

---

(١) الحكاية فى معجم البلدان (سد) باختلاف

للرقى على السد بنحو السلم والآلة فلم يلهمهم ذلك ولا علمهم اياه مع انه ورد ان لهم أشجارا وزروعا ، الثالثة ان صدهم ان يقولوا ان شاء الله حتى مجيء الوقت المحدود • قلت وأخل بالآية الرابعة وهى أعظمها وهى عود السد بعد الحفر حتى اذا كادوا ان يروا شعاع الشمس الى أشد ما كان الى أن يبلغ الكتاب أجله • وقد يقال ان فيهم من يعرف الله تعالى ويقر بقدرته ومشيئته ، ويحتمل أن تكون كلمة المشيئة جرت على لسان ذلك الوالى من غير أن يعرف معناها فيحصل المقصود ببركتها ، ويدل لهذا ما روى عبد بن حميد من طريق كعب الاحبار نحو حديث أبى هريرة وفيه فاذا جاء الأمر ألقى الله على بعض ألسنتهم نأتى غدا ان شاء الله فنفرغ منه • وروى ابن مردويه من حديث حذيفة نحو حديث أبى هريرة وفيه يغدون فيجيئون عليه فيفتح ـ الحديث وسنده ضعيف • والحاصل انه يحتمل أن تلقى كلمة المشيئة على لسان أحدهم وهو أقوى ، ويحتمل أن يسلم واحد منهم بالهام من الله فيقول ان شاء الله تعالى • وفى صحيح مسلم من حديث النواس ابن سعمان رضى الله عنه مرفوعا بعد ذكر الدجال وقتل عيسى عليه السلام له قال ثم يأتيه ـ يعنى عيسى ـ قوم وقد عصمهم الله من الدجال فيمسح وجوههم ويحدثهم بدرجاتهم في الجنة فبينما هم كذلك اذ أوحى الله الى عيسى ان قد أخرجت عبادا لى لا يدان لأحد بقتالهم فحرز عبادى الى الطور ، ويبعث الله يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون ـ الحديث • وفي رواية لمسلم ثم يسيرون حتى ينتهوا الى جبل الخمر وهو جبل بيت المقدس فيقولون لقد قتلنا من في الارض هلم فنقتل من في السماء فيرمون بنشابهم الى السماء فيرد الله عليهم نشابهم مخضوبة دما فيرغب نبى الله عيسى عليه السلام وأصحابه الى الله تعالى فيرسل الله تعالى عليهم النغف ـ بفتح النون والغين المعجمة ففاء ، وفى رواية دودا كالنغف فى أعناقهم ، وهو دود يكون فى أنوف الابل والغنم الواحدة نغفة عن الاصمعى وعن أبى عبيدة هو الدود الابيض يكون في النوى وما سوى ذلك من الدود فليس بنغف وقيل هو دود طوال سود وخضر وغبر يقطع الحوت في بطن الارض ـ فيصبحون موتى كموت نفس واحدة ـ معناه قتلى لا يسمع لهم حس ـ فيقول المسلمون الا رجل يشرى لنا نفسه فينظر ما فعل هذا العدو ؟ فيتجرد رجل منهم محتسبا نفسه

هلاكهم

قد وطنها على انه مقتول فينزل فيجدهم موتى بعضهم على بعض فينـــادى يا معشر المسلمين الا أبشروا ان الله عز وجل قد كفاكم عدوكم ،فيخرجون من مدائنهم وحصونهم ويسرحون مواشيهم فما يكون لها مرعى الا لحومهم فتشكر منه - بفتح الكاف أى تسمن - أحسن ماشكرت عن شيء وحتى ان دواب البحر تسمن وتشكر شكرا من لحومهم ودمائهـم ، ويهبط نبى الله عيسى عليه السلام وأصحابه الى الارض فلا يجدون في الارض موضع شبر الا ملأه زهمهم ونتنهم أي ريحهم من الجيف فيؤذون الناس بنتنهم أشد من حياتهم ، فيستغيثون بالله فيبعث الله ريحا يمانية غبراء فتصير على الناس غما ودخانا ويقع عليهم الزكمة ويكشف ما بهم بعد ثلاثة أيام وقد قذفت الارض جيفهم في البحر • ولفظ صحيح مسلم فيرغب نبى الله عيسى وأصحابه الى الله فيرسل الله تعالى طيرا كأعناق البخت فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله ثم يرسل الله مطرا لا يكن معه بيت مدر ولا وبر فيغسل الارض حتى يتركها كالزلفة ثم يقال للارض أنبتى ثمرك وردى بركتك فيومئذ تأكـل العصابة من الرمانة ويستظلون بقحفها ويبارك فى الرسل - يعنى اللبن - حتى ان اللقحة من الابل لتكفى الفئام من الناس - أي الجماعة منهم - واللقحة من البقر لتكفى القبيلة من الناس واللقحة من الغنم لتكفى الفخذ من الناس - الحديث • وفي رواية فيرسل طيرا كأعناق البخت فتحملهم فترميهم الى البحر • وفي رواية في النار ، ويوقد المسلمون من قسى يأجوج ومأجوج ونشابهم وأترستهم سبع سنين • قوله في الحديث كالزلفة يروى بالفـــاء وبالقاف قال القاضى عياض في مشارق الانوار ضبطناه بالوجهين عن متقني شيوخنا وبهما ذكره أهل اللغة وفسرها ابن عباس رضى الله عنهما بالمرآة وقاله ثعلب وأبو زيد وقال بعضهم هو بالفاء الاجانة الخضراء ، وقيل الصحفة وتفسير ابن عباس رضى الله عنهما أظهر وبالله التوفيق ، قال النواس بن سمعان رضى الله عنه كما في صحيح مسلم قال رسول الله صلى الله عليـه وسلم : فبينما هم يعنى عيسى بن مريم وأصحابه كذلك أى فى ذلك العيش الرغد وقد هلك عدوهم اذ بعث الله تعالى ريحا طيبة فتأخذهم تحت آباطهم فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم ويبقى شرار الناس يتهارجون فيهـا تهارج الحمر فعليهم تقوم الساعة • والله أعلم •

العلامة الخامسة
هدم الكعبة

(العلامة الخامسة)

من العلامات العظمى هدم الكعبة المشرفة والقبلة المعظمة واليها أشار بقوله ((ک)) ما ان أمر يأجوج ومأجوج حق ثابت يجب اعتقاده ووقوعه فكذا يجب اعتقاد وقوع ((هدم الكعبة)) المعظمة والقبلة المكرمة وسلب حليها واخراج كنزها لما أخرج البخارى ومسلم والنسائي من حديث أبي هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال « يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة » وفي لفظ « ذو السويقتين من الحبشة يخرب بيت الله » وأخرج الامام أحمد من حديث ابن عمر رضى الله عنهما نحوه وزاد « ويسلبها حليها ويجردها من كسوتها فلكأني أنظر اليه أصيلع أفيدع يضرب عليها بمسحاته أو معوله » وأخرج الازرقى عنه « يجيش البحر عن فئة من السودان ثم يسيلون سيل النمل حتى ينتهى الى الكعبة فيخربونها والذي نفسى بيده انى لكأنى أنظر الى صفته في كتاب الله تعالى أفيحج أصيلع أفيدع قائما بهدمها بمسحاته أو معوله » وفي الصحيحين كأنى به اسود أفحج يهدمها حجرا حجرا » أي ويتداولها أصحابه بينهم حتى يطرحوها في البحر كما ورد في حديث حذيفة مرفوعا « كأنى أنظر الى حبشى أحمر الساقين أزرق العينين أفطس الانف كبير البطن وقد صف قدميه على الكعبة هو وأصحاب له ينقضونها حجرا حجرا ويتداولونها حتى يطرحوها في البحر » الحديث . قوله ذو السويقتين أي صاحبهما وهما تصغير ساقين أي دقيق الساقين وقوله أصيلع تصغير الاصلع وهو من ذهب شعر مقدم رأسه وا لافيدع تصغير أفدع وهو من فى يده اعوجاج في وفي القاموس الفدع محركة إعوجاج الرسغ من اليد أو الرجل حتى ينقلب الكف أو القدم أو هو المشى على ظهر القدم أو ارتفاع أخمص القدم حتى لو وطىء الافدع عصفورا ما آذاه أو هو عوج في المفاصل لانها قد زالت عن موضعها . وأكثر ما يكون في الارساغ خلقة وجاء في بعض روايات الحديث أصعل أى صغير الرأس ؟ وفي بعضها أصمع أي صغير الاذنين وقيل كبير الاذن ، والا فيحج تصغير أفحج المتباعد الفخذين . وأخرج الامام أحمد من حديث أبى هريرة رضى الله عنه مرفوعا يبايع لرجل بين الركن والمقام ولن يستحل هذا البيت الا أهله فاذا استحلوه فلا تسأل عن هلكة العرب ثم تجىء الحبشة

فيخربونه خرابا لا يعمر بعده أبدا وهم الذين يستخرجون كنزه • رواه بهذا اللفظ أيضا الازرقى فى تاريخ مكة والحاكم وصححه

من الذى يستخرج كنز الكعبة

فان قلت قد ورد وتقدم ان المهدى هو الذى يخرج كنز الكعبة وفى هذا الحديث ان ذا السويقتين هو الذى يخرج كنزها ولعمرى انه لسؤال وارد واستشكال مضاد ولم أر من تقدمنى ممن نقب عن هذا السؤال وفى يمه خاض ولا من أجاب هذا السؤال ولا من تعرض لهذا الاعتراض ولعل الجواب أن المهدى يستخرج الكنز المذكور ثم بعد ذلك يجتمع فى خزانة الكعبة فى مدة المهدى ومدة سيدنا عيسى الى أن يخربها ذو السوقتين مال كثير سيما مع كثرة المال وانكباب أهل ذلك الوقت على أنواع القربات مع كثرة الحجاج وهذا ممكن أو يكون المهدى كشفه وظهر عليه وأخذ منه عوزه وترك باقيه والله أعلم

كون الحرم آمنا لا ينفي ماصحت به الاخبار

فان قلت تسلط هذا العدو الخبيث على هدم بيت الله المعظم ينافى قوله تعالى (أو لم يروا أنا جعلنا حرمنا آمنا) الآية (ومن يرد فيه بالحاد بظلم) الآية وقد حماه سبحانه من أصحاب الفيل وجيرانه حينئذ كفار مشركون فكيف يسلط عليه الحبشة وهو قبلة المسلمين وهم جيرانه (فالجواب) ما ذكره الحافظ ابن حجر فى فتح البارى وهو ان يقال قد أشار النبى صلى الله عليه وسلم للجواب فى الحديث بقوله ولن يستحل هذا البيت الا أهله ففى زمن الفيل ماكانوا قد استحلوه فمنعه منهم وأما الحبشة فلا يهدمونه الا بعد استحلال أهله مرارا وقد استحله جيش يزيد بن معاوية بأمره ثم الحجاج زمن عبد الملك بن مروان بأمره فسلط الله عليه القرامطة فقتلوا من المسلمين فى المطاف مالا يحصى وقلعوا الحجر ونقلوه لبلادهم فلما وقع استحلاله من أهله مرارا مكن غيرهم من ذلك عقوبة لهم على أنه ليس فى الآية استمرار الامن المذكور فيه • انتهى • ملخصا (قلت) والذى يظهر لى ان هذا العالم مشعر بالاضمحلال وكما ورد الشرع بالامن ورد باضمحلال هذا العالم ودماره فأشعر أن الامن مغيا الى غاية أشار الشارع اليها فوجب تصديق الامرين كل واحد زمنه حسبما هو مقتضى الشرع وبالله التوفيق •

هدم الكعبة في زمن عيسى أم بعده ؟

فان قلت هل هدم الكعبة من ذى السويقتين المذكور زمن سيدنا المسيح عيسى بن مريم عليه السلام أو بعده عند قيام الساعة حيث لا يبقى فى الارض أحد يقول الله (فالجواب) ان هذا مما اختلف فيه العلماء فعن كعب الاحبار انه زمن عيسى عليه السلام ، وقيل زمنه وبعد هلاك يأجوج ومأجوج فيحج الناس ويعتمرون كما ثبت ذلك وان عيسى عليه السلام يحج أو يعتمر أو بجمع بينهما كما تقدم فالظاهر أن هدم البيت بعد موت سيدنا المسيح وهبوب الريح التى يموت بها من فى قلبه ذرة من ايمان وذكر الحافظ ابن حجر انه وجد فى كتاب التيجان لابن هشام ان عمر بن عامر كان ملكا متوجا وكان كاهنا معمرا وانه قال لأخيه عمرو بن عامر المعروف بمزيقيا لما حضرته الوفاة ان بلادكم ستخرب وان لله فى أهل اليمن سخطين ورحمتين فالسخطة الاولى هدم سد مارب وخراب البلاد بسببه ، والثانية غلبة الحبشة على اليمن ، والرحمة الاولى بعثة نبى من تهامة اسمه محمد يرسل بالرحمة ويغلب أهل الشرك ، والثانية اذا خرب بيت الله يبعث الله رجلا يقال له شعيب بن صالح فيهلك من خربه ويخرجهم حتى لا يكون بالدنيا ايمان الا بأرض اليمن • قال الحافظ ابن حجر ان ثبت هذا علم منه اسم القحطانى وسيرته وزمانه • واعترضه البرزنجى فى الاشاعة بأن ليس فيما ذكر ما يقتضى ان ذلك هو القحطانى ولم لا يجوز أن يكون شعيب بن صالح هو التميمى القادم بالرايات السود الى المهدى وانه يرسل عيسى عليه السلام اليه حين يأتيه الصريخ ويؤيده كونه لقبه المنصور وبتقدير أن يكون هو اياه فجائز أن يكون قبل خلافته ويكون فى من أرسله عيسى عليه السلام أميرا عليهم فانه ورد أن الصريخ يأتى عيسى بذلك فيبعث اليه طائفة مابين الثمانية الى التسعة فيكون هو أميرهم ، وليس فى كونه رحمة لاهل اليمن ما يقتضى انه منهم ، ويكفى من كونه رحمة لهم انه يدفع الحبشة عنهم بحيث لا يبقى ايمان الا فى أرض اليمن • ثم ان الحجاز من اليمن ولذا يقال الكعبة يمانيه ، ولعل زمن اختصاص اليمن ببقاء الايمان بعد قبض المسيح وهبوب الريح ، ولا ينافى ما ذكر حديث « آخر ما يوجد الايمان فى المدينة » لانها من اليمن والله أعلم

وقيل ان هدم الكعبة بعد خروج الدابة وقيل بعد الآيات كلها قرب قيام الساعة حين ينقطع الحاج ولا يبقى فى الارض من يقول الله ويؤيد هذا ان زمن عيسى عليه السلام كله زمن سلم وبركة وأمان وخير وهذا أليق بكرم الله ، والذى تقتضيه الحكمة فان البيت قبلة الاسلام والحج اليه أحد أركان الدين ومبانيه فالحكمة تقتضى بقاءه ببقاء الدين فاذا جاءت الريح الباردة الطيبة وقبضت المؤمنين فبعد ذلك يهدم البيت ويرتفع القرآن • قال العلامة الشيخ مرعى فى بهجته جاء عن الثقات الحفاظ يمكث الناس ماشاء الله تعالى فى الخصب والدعة بعد هلاك يأجوج ومأجوج وطلوع الشمس وخروج الدابة ، قال ثم يخرج الحبشة وعليهم ذو السويقتين فيخربون مكة ويهدمون الكعبة ثم لا تعمر بعدها أبدا ، وهم الذين يستخرجون كنوز مصر • قال ثم يجتمع بقايا المسلمين فيقاتلونهم فيقتلونهم ويسبونهم حتى يباع الحبشى بعباءة • فبين أن هدم الكعبة بعد الآيات كلها وان كان لا يخلو من تأمل والله أعلم

(فوائد)

فوائد احداها فيما جاء فى خراب المدينة

(احداها) تقدم ان عمران بيت المقدس خراب يثرب • رواه أبو داود من حديث معاذ مرفوعا • وروى الطبرانى انه صلى الله عليه وسلم قال « سيبلغ البناء سلعا ثم يأتى على المدينة زمان يمر السفر على بعض أقطارها فيقول قد كانت هذه مرة عامرة من طول الزمان وعفو الاثر » وأخرج الامام احمد نحوه باسناد حسن • وفى الصحيحين «لتتركن المدينة على خير ماكانت مذللة ثمارها لا يغشاها الا العوافى الطير والسباع » الحديث وسبب خرابها والله أعلم أن خيار أهلها يخرجون مع المهدى الى الجهاد ثم ترجف بعد ذلك بمنافقيها وترميهم الى الدجال ولم يبق الا المؤمنون المخلصون فيهاجرون الى بيت المقدس عند امامهم وقد ورد ستكون هجرة وخيار الناس يومئذ ألزمهم مهاجر ابراهيم • ومن بقى منهم تقبض روحه الريح الطيبة • وقد روى المرجانى فى أخبار المدينة عن جابر مرفوعا « ليعودن هذا الامر الى المدينة كما بدأ منها حتى لا يكون ايمان الابها » وأخرج النسائى من حديث أبى هريرة مرفوعا « آخر قرية من قرى الاسلام خرابا المدينة » ورواه

الترمذى بنحوه وقال حسن غريب • ورواه ابن حبان بلفظ «آخر قرية فى الاسلام خرابا المدينة » وصح « ان الدين ليأرز الى المدينة كما تأرز الحية الى جحرها » فظاهر هذه الاخبار التعارض ووجه الجمع ان الفتن تعم الدنيا كلها كما مر فى خروج المهدى ويبقى أهل المدينة مع المهدى فيأرز الدين أى ينحسر ويدخل الى المدينة حينئذ لانهم المؤمنون الكاملون التابعون للخليفة الحق ثم انها تنفى خبثها زمن الدجال ويبقى فيها الايمان الخالص بخلاف غيرها من بيت المقدس وغيرها من البلدان فيبقى فيهم أهل ذمة ومنافقون لانهم انما يؤمنون بعد نزول عيسى عليه السلام ، وكذلك مكة تقذف بمنافقيها الى الدجال أيضا • وقد قيل أن الريح الطيبة تأتى من الشام فيكون أهل الشام يقبضون قبل أن تصل المدينة أو من اليمن فكذلك أو من كليهما كما جمع به والامر ظاهر فيصدق انه آخر من يقبض من المؤمنين أهل المدينة وهذا محط حديث أبى هريرة فبمجرد موتهم تخرب المدينة لأنه ليس فيها سوى المؤمنين بخلاف غيرها فانها تبقى عامرة بشرار الناس كما أشار اليه فى الاشاعة وهو حسن وبالله التوفيق

(الثانية)

الثانية خروج القحطانى والجهجاه والهيثم والمقعد

(فى ذكر خروج القحطانى والجهجاه والهيثم والمقعد وهؤلاء بعد موت المهدى) أخرج أبو الشيخ من حديث أبى هريرة رضى الله عنه مرفوعا « ينزل عيسى بن مريم عليه السلام فيقتل الدجال ويموت ، فيستخلفون – يعنى بعد وفاة سيدنا عيسى عليه السلام بأمره – رجلا من بنى تميم يقال له المقعد ، فاذا مات المقعد لم يأت على الناس ثلاث سنين حتى يرفع القرآن من صدور الرجال » ويبدأ النقص ليوافق ما يأتى من بقاء الدين مدة مديدة بعد سيدنا عيسى عليه السلام • والظاهر والله أعلم أن هذا التميمى الملقب بالمقعد هو شعيب بن صالح أحد الامراء والوزراء للمهدى بل هو أحد المهديين ، والظاهر أنه يبقى أميرا فى نواحى الشرق ثم يستدعيه عيسى عليه السلام بعد وفاة المهدى عند خروج ذى السويقتين على مكة ونواحيها فيقتلهم ويسبيهم حتى يباع الحبشى بالعباءة ، ثم عند وفاة سيدنا المسيح يوصى له بالامر لما يرى فيه من الكفاءة لذلك والقيام بأعباء الدين • ولم أر هذا

التحرير لغيرى فان لم يكن هو شعيب بن صالح والا فهو أحد الامراء الذين كان يلقى عليهم أعباء الامر ، أو الذي يلي امارة الشرق من بعد شعيب ان كان هو قد مات ويكون هذا يلقب بالمقعد . وأخرج مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا « لا تذهب الايام والليالى حتى يملك الناس رجل يقال له الجهجاه » وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عنه مرفوعا « لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه » وأخرج الطبرانى فى معجمه الكبير وابن منده وأبو نعيم وابن عساكر عن قيس بن جابر عن أبيه عن جده ان النبى صلى الله عليه وسلم قال « ستكون من بعدى خلفاء ومن بعد الخلفاء أمراء ومن بعد الامراء ملوك جبابرة ثم يخرج من أهل بيتى المهدى يملأ الارض عدلا كما ملئت جورا ثم يؤمر القحطانى فوالذى بعثنى بالحق ما هو دونه » وأخرج نعيم بن حماد عن سليمان بن عيسى قال بلغنى أن المهدى يملك أربعة عشر سنة ببيت المقدس ثم يموت ثم يكون من بعده رجل من قوم تبع يقال له المنصور يعنى القحطانى يمكث ببيت المقدس احدى وعشرين سنة . قلت هذا لا يلتئم أن يكون هو شعيب بن صالح التميمى لان بنى تميم ليسوا من اليمن ولا من قحطان وان وافقه فى تلقيبه بالمنصور . ثم يقتل هذا القحطانى ثم يملك المولى يعنى الجهجاه ويمكث ثلاث سنين ثم يقتل ثم يملك بعده الهيثم المهدى ثلاث سنين وأربعة أشهر وعشرة أيام . وهذا المهدى غير الاول وكأنه لقب بذلك لحسن سيرته وصفاء سريرته . والحاصل أن الواجب اعتقاده من ذلك ما دلت عليه الاخبار والآثار الصريحة من وجود المهدى المنتظر الذى يخرج الدجال وسيدنا عيسى بن مريم فى زمنه ويصلى عيسى عليه السلام خلفه صلاة الفجر وهو المراد حيث أطلق المهدى . وأما المذكورون قبله فلم يصح فيهم شيء والذين من بعده فأمراء صالحون لكن ليسوا مثله فهو آخرهم فى الوجود وأمامهم وخيرهم وأفضلهم فى الحقيقة والمراد غير سيدنا عيسى بن مريم عليه السلام فانه رسول كريم من أولى العزم وهو آية وعلامة وحده . فيجب الايمان بنزوله ٢ ويجب الايمان أيضا بخروج الدجال اللعين وان سيدنا عيسى عليه السلام يقتله بباب لد عند بئر الزئبق ، ويجب الايمان بخروج

يأجوج ومأجوج وبأن الكعبة يهدمها ذو السويقتين فى آخر الزمان والله تعالى المستعان

الثالثة حديث حجوا قبل ان لا تحجوا

(الثالثة)

جاء فى الحديث الشريف انه صلى الله عليه وسلم قال « حجوا قبل أن لا تحجوا فوالذى فلق الحبة وبرأ النسمة ليرفعن هذا البيت من بين أظهركم حتى لا يدرى أحدكم أين مكانه بالامس » وقد روى الحاكم والبيهقى من حديث على رضى الله عنه مرفوعا « حجوا قبل أن لاتحجوا فكأنى أنظر الى حبشى أصمع أفدع بيده معول يهدمها حجرا حجرا » قوله أفدع هو بفاء ودال مهملة بوزن أفعل يمشى على ظهور قدميه ، وتقدم أن الاصمع بالصاد المهملة صغير الأذن • وأخرج البيهقى من حديث أبى هريرة رضى الله عنه مرفوعا « حجوا قبل أن لا تحجوا ، تقعد اعرابها على أذناب أوديتها فلا يصل الى الحج أحد » وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « استمتعوا بهذا البيت فقد هـــدم مرتين ويرفع فى الثالثة » رواه البزار والطبرانى فى الكبير وابن حبان فى صحيحهما والحاكم وقال صحيح الاسناد • قال ابن خزيمة قوله يرفع فى الثالثة يريد بعد الثالثة وروى أبو القاسم الاصبهانى عن ابن عباس رضى الله عنهما مرفوعا « تعجلوا الى الحج - يعنى الفريضة - فان أحدكم لا يدرى ما يعرض له » والله تعالى أعلم •

العلامة السادسة الدخان

(العلامة السادسة)

من علامات الساعة واشراطها العظمى ما أشار اليه بقوله :

((وان منها آية الدخان))

((وان منها)) أي من اشراط الساعة التي ورد النص بها وانها حق يجب الايمان به ((آية)) أي علامة وأصلها أوية بفتح الواو وموضع العين واو والنسبة اليه أووى ، وقيل أصلها فاعلة فذهبت منها اللام أو العين تخفيفا ولو جاءت تامة لكانت آيية • ومعنى الاي من كتاب الله تعالى جماعة حروف وكلمات من قولهم خرج القوم بآيتهم أي بجماعتهم لم يدعوا وراءهم شيئا واما فى غيره فهى العلامة أي من اشراط الساعة علامة ((الدخان)) كرمان

وغراب لغتان والجمع أدخنة ودواخن ودواخين ، قال العلماء آية الدخان ثابتة بالكتاب والسنة اما الكتاب فقوله سبحانه وتعالى (فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين) قال ابن عباس وابن عمر رضى الله عنهم والحسن وزيد بن على رحمهم الله تعالى هو دخان قبل قيام الساعة يدخل في أسماع الكفار والمنافقين ويعترى المؤمن كهيئة الزكام وتكون الارض كلها كبيت أوقد فيه ولم يأت بعد وهو آت • واما السنة فأخرج مسلم من حديث حذيفة بن اسيد رضى الله عنه قال طلع علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نتذاكر فقال « ما تذاكرون » قالوا الساعة يا رسول الله قال « انها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات » فذكر منها الدخان • ورواه الترمذى وابن ماجه وانه يمكث فى الارض أربعين يوما • وفى حديث حذيفة بن اليمان رضى الله عنه ان من اشراط الساعة دخانا يملأ ما بين المشرق والمغرب يمكث فى الارض أربعين يوما فأما المؤمن فيصيبه منه شبه الزكام وأما الكافر فيكون بمنزلة السكران يخرج الدخان من فيه ومنخريه وعينيه وأذنيه ودبره رواه الطبرانى ، ورواه البغوى ولفظه قال حذيفة بن اليمان رضى الله عنه سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « أول الآيات الدخان ونزول عيسى بن مريم ونار تخرج من قعر عدن أبين تسوق الناس الى المحشر تقيل معهم اذا قالوا » قال حذيفة يا رسول الله وما الدخان فتلا هذه الآية يوم (تأتى السماء بدخان مبين) يملأ ما بين المشرق والمغرب ـ الحديث • وفي صحيح مسلم من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « بادروا بالاعمال ستة طلوع الشمس من مغربها والدخان والدجال والدابة أو خاصة أحدكم(١) أوامر العامة » وفي رواية وأمر العامة وخويصة أحدكم •

وقيل ان الدخان مروانه الجوع الذى كان حال بين أبصار قريش وبين السماء ففى الصحيحين والترمذى عن مسروق قال كنا جلوسا عند عبدالله ابن مسعود وهو مضطجع بيننا فأتاه رجل فقال يا أبا عبد الرحمن ان قاصا عند أبواب كندة يقص ويزعم ان آية الدخان تجيء فتأخذ بأنفاس الكفار

(١) قوله أو خاصة أحدكم أى موته كما فى المطالع • اهـ مؤلف

ويأخذ المؤمن منها كهيئة الزكام فقال عبد الله وجلس وهو غضبان يا أيها الناس اتقوا الله من علم منكم شيئا فليقل بما يعلم ومن لا يعلم فليقل الله أعلم فانه أعلم لأحدكم ان يقول لما لا يعلم الله أعلم فان الله تعالى قال لنبيه صلى الله عليه وسلم (قل لا أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين) ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رأى من الناس ادبارا قال « اللهم سبع كسبع يوسف » وفي رواية لما دعا قريشا كذبوه واستعصوا عليه فقال اللهم أعنى عليهم بسبع كسبع يوسف فأخذتهم سنة حصت كل شيء حتى أكلوا الجلود والميتة من الجوع وينظر أحدهم الى السماء فيرى كهيئة الدخان فأتاه أبو سفيان فقال يا محمد انك جئت تأمر بطاعة الله وبصلة الرحم وان قومك قد هلكوا فادع الله عز وجل لهم قال الله عز وجل (فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين) الى قوله (انكم عائدون) قال عبدالله أفيكشف عذاب الآخرة ؟ (يوم نبطش البطشة الكبرى انا منتقمون) فالبطشة يوم بدر وفي رواية قال قال عبد الله انما كان هذا لأن قريشا لما استعصوا على النبى صلى الله عليه وسلم دعا عليهم بسنين كسنى يوسف فأصابهم قحط وجهد حتى أكلوا العظام فجعل الرجل ينظر الى السماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد فأنزل الله عز وجل (فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين * يغشى الناس هذا عذاب أليم) قال فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقيل يارسول الله استسق لمضر فانها قد هلكت • قال لمضر؟ انك لجرىء واستسقى لهم فسقوا فنزلت (انكم عائدون) فلما أصابهم الرفاهية عادوا الى حالهم حين أصابتهم الرفاهية فأنزل الله تعالى (يوم نبطش البطشة الكبرى انا منتقمون) يعنى يوم بدر • وفي رواية فقيل له انا ان كشفنا عنهم عادوا فدعا ربه فكشف عنهم فعادوا فانتقم الله منهم يوم بدر فذلك قوله (فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين) الى قوله (انا منتقمون) وفي رواية الترمذى كقوله ربنا اكشف عنا العذاب فهل يكشف عذاب الآخرة ؟ قد مضى البطشة واللزام والدخان ، واللزام يوم بدر • وفى البخارى ومسلم قال عبد الله يعنى ابن مسعود رضى الله عنه : خمس قد مضين الدخان واللزام والروم والبطشة والقمر • قال في النهاية في حديث اشراط الساعة ذكر اللزام وفسر بأنه يوم بدر • انتهى • وكذا البطشة يوم بدر ، والروم

اشارة الى قوله (غلبت الروم) ، والقمر اشارة الى قوله(اقتربت الساعة وانشق القمر) . قال العلامة الشيخ مرعى فى بهجته كغيره : كلام ابن مسعود رضى الله عنه موافق لظاهر الآية فلا دليل فيها لما ذهب الجمهور وانما دليلهم السنة وكأن ذلك لم يبلغ ابن مسعود رضى الله عنه حين أنكر ذلك مع أنه ورد عنه أيضا انه كان يقول : هما دخانان مضى واحد والذى بقى يملأ مابين السماء والارض ولا يجد المؤمن منه الا كالزكمة وأما الكافر فيشق مسامعه فيبعث الله عند ذلك الريح الجنوب من اليمن فتقبض روح كل مؤمن ويبقى شرار الناس . والذى أنكره ابن مسعود قد جاء عن علي بن أبى طالب رضى الله عنه فأخرج عبد الرزاق وابن أبى حاتم من طريق الحارث عن أمير المؤمنين علي بن أبى طالب رضى الله عنه قال قال : آية الدخان لم تمض بعد يأخذ المؤمن منها كهيئة الزكام وينفخ الكافر حتى ينقد . وقد أخرج الطبرانى من حديث أبى مالك الاشعرى رضى الله عنه : ان ربكم أنذركم ثلاثا الدخان يأخذ المؤمن كالزكمة - الحديث . وورد ذلك من عدة طرق عن جماعة من الصحابة مرفوعا وموقوفا . قال الحافظ ابن حجر فى فتح البارى : وتضافر هذه الاحاديث يدل على أن لذلك أصلا . وقد قيل ان القاص الذى أنكر عليه ابن مسعود هو حذيفة بن اليمان رضى الله عنه وهذا ليس بشىء فلا ينظر اليه ولا يعول عليه وبالله التوفيق .

العلامة السابعة رفع القرآن

(العلامة السابعة)

من علامات الساعة واشراطها رفع القرآن العظيم والذكر الحكيم من الصدور ومن السطور واليه الاشارة بقوله :

((وانه يذهب بالقرآن))

((وانه)) أي الشأن والامر ((يذهب)) بضم التحتية مبنيا لما لم يسم فاعله أي يذهب الله تعالى ((بالقرآن)) العظيم وكلام الله المنزل على النبى الكريم من المصاحف والصدور وهى من أشد معضلات الامور ، فأخرج الديلمى من حديث أبى هريرة وحذيفة رضى الله عنهما مرفوعا «يسرى على كتاب الله ليلا فيصبح الناس وليس منه آية ولا حرف في جوف الا نسخت » قال في البهجة قرر الائمة انه يرفع أولا من المصاحف وذلك انهم

يبيتون فيصبحون وليس فيها حرف مكتوب ثم يرفع من الصدور عقب ذلك لأعجل زمن حتى لا يكون شيء منه محفوظ حتى يقول الحافظ للآخر وقد سأله الآخر كنت أحفظ شيئا نسيته لا أدرى ما هو ، وفي الحديث «أكثروا من الطواف بالبيت قبل أن يرفع وينسى الناس مكانه وأكثروا تلاوة القرآن من قبل أن يرفع » قيل وكيف يرفع ما فى صدور الرجال ؟ قال « يسرى عليهم ليلا فيصبحون منه فقراء وينسون قول لا آله الا الله » وعند الديلمى من حديث ابن عمر رضى الله عنهما « لا تقوم الساعة حتى يرجع القرآن من حيث جاء له دوى حول العرش كدوى النحل فيقول الله عز وجل مالك؟ فيقول منك خرجت واليك أعود أتلى فلا يعمل بى » وتقدم فى مسئلة الكلام على الكلام ما حكاه شيخ الاسلام ابن تيمية قدس الله روحه عن السلف من أن القرآن العظيم كلام الله منزل غير مخلوق منه بدأ واليه يعود ، وان معنى واليه يعود ما جاء في الآثار أن القرآن يسرى به حتى لا يبقى في المصاحف منه حرف ولا في القلوب منه آية • وأخرج ابن ماجه من حديث حذيفة رضى الله عنه مرفوعا « يدرس الاسلام حتى لا يدرى ما صيام ولا صلاة ولا نسك ولا صدقة ، ويسرى على كتاب الله تعالى في ليلة فلا يبقى في الارض منه آية » الحديث • وأخرج السجزى عن ابن عمر رضى الله عنهما مرفوعا « لا تقوم القيامة حتى يرفع الركن والقرآن » وأخرج ابن ماجه بسند قوى والحاكم والبيهقى والضياء عن حذيفة رضى الله عنه قال : يدرس الاسلام كما يدرس وشى الثوب حتى لا يدرى ما صيام ولا صلاة ولا نسك ولا صدقة ، ويسرى على كتاب الله في ليلة فلا يبقى في الارض منه آية ، ويبقى طوائف من الناس الشيخ والعجوز ويقولون أدركنا أباءنا على هذه الكلمة لا اله الا الله فنحن نقولها • والله أعلم

العلامة الثامنة طلوع الشمس من مغربها

(العلامة الثامنة)

من علامات الساعة واشراطها طلوع الشمس من مغربها وأشار اليها بقوله :

((طلوع شمس الافق من دبور))

ومنها ((طلوع شمس الافق)) قال الله تعالى (وسخر لكم الشمس

والقمر دائبين) وقال (وجعل الشمس سراجا) وأخـــرج الطبرانى فى الاوسط وأبو الشيخ وابن مردويه عن أنس رضى الله عنه قال حـــدثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الشمس والقمر والنجوم خلقن من نور العرش • وأخرج أبو الشيخ عن سلمان الفارسى رضى الله عنه قال خلق الله الشمس من نور عرشه وكتب في وجهها انى أنا الله لا اله الا أنا رضاي كلام وغضبى كلام ورحمتي كلام وعذابى كلام • وخلق القمر من نور حجابه الذى يليه وكتب في وجهه انى أنا الله لا اله الا أنا صنعت القمر وخلقت الظلمات والنور فالظلمة ضلالة والنور هدى • أي أضل من شئت وأهدى من شئت • وكتب في بطنه انى أنا الله لا اله الا أنا خلقت الخير والشر بقدرتى وعزتى أبتلى بهما من شئت من خلقى • وقد أخـــرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن عكرمة قال : الشمس قدر الدنيا وزيادةثلث، والقمر على قدر الدنيا • وأخرج من وجه آخر بلفظ سعة الارض بدل قدر الدنيا في الموضعين • وزعم أهل الهندسة ان الشمس أضعاف الارض مائة وستون مرة أو مائتين • والافق بالضم وبضمتين الناحية والجمع آفاق والافق أيضا ما ظهر من نواحى الفلك وهو المراد هنا وقوله ((من دبور)) بفتح الدال المهملة وضم الموحدة مخففة فراء بعد الواو جهة المغرب لانهـا تدابر باب الكعبة ، وتسمى الريح التى مهبها من جهة المغرب دبور قال النبى صلى الله عليه وسلم « نصرت بالصبا وهلكت عاد بالدبور » رواه الامام أحمد والشيخان من حديث ابن عباس رضى الله عنهما • وفي القاموس : دبرت الريح تحولت دبورا وهى ريح تقابل الصبا • قال الامام النووى الصبا بفتح الصاد المهملة مقصورا هى الريح الشرقية • قال العلماء رحمهم الله تعالى طلوع الشمس من مغربها ثابت بالسنة الصحيحة والاخبار الصريحة بل وبالكتاب المنزل على النبى المرسل قال تعالى (يـوم يأتى بعض آيات ربك لا ينفع نفسا ايمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في ايمانها خيرا) الآية أجمع المفسرون أو جمهورهم على انها طلوع الشمس من مغربها • وقـد خبط بعض العلماء في تفسير الآية الكريمة ولبط ولم يهتد لمقصودها الذى عليه المحط ، وحاصل ذلك المقصود من الآية الكريمة ان من لم يكن ايمانه متحققا اذا طلعت الشمس من مغربها لم ينفعه تجديد الايمان ولم ينفعـــه

نبوته بالسنة والكتاب

تفصيل حال الناس حينذلك في الايمان والعمل

فعل بر من جميع الاعمال لأنه فقد الايمان الذى هو الاساس لما عداه من تلك الاعمال فلا ينفعه ايمانه الحادث حينئذ ولا ما صدر منه قبل ذلك من الاحسان وعمل البر من صلة الارحام واعتاق الرقاب وقرى الاضياف وغير ذلك مما هو من مكارم الاخلاق لانها على غير أساس قال تعالى (والذين كفروا أعمالهم كرماد اشتدت به الريح) الآية والايمان الحادث في ذلك الوقت ليس مقبولا حتى يكون من باب «أسلم على ماسلف من الخير» فهؤلاء لا ينفعهم لا بانضمام الافعال اللاحقة ولا بانضمام أعمالهم السابقة لفقد الاساس الذى هو الايمان ، وأما من تحقق اتصافه بالايمان الشرعى من قبل ذلك الوقت واستمر ايمانه الى طلوع الشمس من مغربها فهو لا يخلو اما ان يكون مؤمنا مقيما على المعاصى لم يكسب في ايمانه خيرا أو مؤمنا مخلطا أو مؤمنا تائبا عن المعاصى كاسبا في ايمانه خيرا ما استطاع (فالأول) ينفعه الايمان السابق المجرد عن الاعمال لاصل النجاة فلا يخلد فى النار وان دخلها بذنوبه ، فالايمان السابق ينفعه وينفعه الايمان يومئذ أيضا لانه نور على نور ولكن لا تنفعه التوبة عن المعاصى ولا يقبل منه حسنة يعملها بعد ذلك (والثانى) ينفعه ايمانه السابق لأصل نجاته وينفعه ما قدمه من الحسنات لدرجاته وينفعه ايمان يومئذ أيضا لما مر ولكن لا تنفعه توبة حينئذ من التخليط ولا حسنة يعملها بعد ذلك مالم يكن عملها من قبل واستمر على عملها من نحو صلاة وقراءة وذكر كان يعمله (والثالث) ينفعه ايمانه السابق لأجل نجاته وتنفعه أعماله السابقة الصالحة لدرجاته وينفعه ايمانه ذلك اليوم أيضا وينفعه ما يعمله بعد ذلك من الحسنات التى سبق منه أمثالها

وهذا التفصيل مما دلت عليه الآية الكريمة وبينته الاحاديث الواردة فى تفسير قوله تعالى (يوم يأتى بعض آيات ربك لا ينفع نفسا ايمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى ايمانها خيرا) من ذلك ما أخرج الشيخان وغيرهما من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها فاذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون فذلك حين لا ينفع نفسا ايمانها » الآية وأخرج

ابن مردويه وابن أبي حاتم من حديث ابن عباس رضى الله عنهما قال :خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم عشية من العشيات فقال « يا عباد الله توبوا الى الله ـ مرات ـ فانكم توشكون ان تروا الشمس من المغرب فاذا فعلت ذلك حبست التوبة وطوى العمل وختم الايمان » الحديث وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى فى قوله (أو كسبت فى ايمانها خيرا) يقول كسبت فى تصديقها عملا هؤلاء أهل القبلة ، وان كانت مصدقة لم تعمل قبل ذلك خيرا فعملت بعد أن رأت الآية لم يقبل منها ، وان عملت قبل الآية خيرا قبل منها • ومن ذلك ما أخرجه الامام احمد وابن مردويه والبيهقى فى الشعب من طريق مالك بن يخامر السكسكى عن عبد الرحمن بن عوف ومعاوية ابن أبى سفيان وعبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « الهجرة خصلتان احداهما ان تهجر السيئات والاخرى ان تهاجر الى الله ورسوله ، ولا تنقطع الهجرة ما تقبل التوبة ولا تزال التوبة مقبولة حتى تطلع الشمس من مغربها فاذا طلعت طبع على كل قلب بما فيه وكفى الناس العمل » وأخرج الامام احمد وعبد بن حميد ومسلم والحاكم وابن مردويه من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « بادروا بالاعمال ستا طلوع الشمس من مغربها والدجال والدخان ودابة الارض وخويصة أحدكم وأمر العامة » قال قتادة خويصة أحدكم الموت ، وأمر العامة الساعة ، وأخرج ابن مردويه من حديث ابن عباس رضى الله عنهما مرفوعا « خلق الله بابا للتوبة ـوفيهـ فذلك الباب مفتوح منذ خلقه الله الى صبيحة تلك الليلة عند طلوع الشمس والقمر من مغربهما ـ الى أن قال ـ فاذا أغلق باب التوبة لم يقبل لعبد بعد ذلك توبة ولم تنفعه حسنة يعملها بعد ذلك الا ماكانت قبل ذلك فانه يجرى لهم وعليهم بعد ذلك ما كان يجرى لهم قبل ذلك فذلك قوله تعالى (يوم يأتى بعض آيات ربك ـ الى قوله خيرا ـ » الحديث بطوله • وهذا الحديث وان كان سنده واهيا كما قاله بعض الحفاظ لكن له شواهد من الأحاديث الصحاح ، ويوضحه ما نقله العلامة المدقق ابن هشام فى مغنى اللبيب عن ابن عطية وابن الحاجب ان الآية من حذف المعطوف أى لاينفع نفسا ايمانها

وكسبها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى ايمانها خيرا ، والآية من اللف والنشر ومفهومه انها اذا كانت كسبت ينفعها كسبها المماثل للسابق وهو المطلوب

فيتلخص من مجموع الاحاديث المذكورة وما فى معناها مما هو مسطر فى الدر المنثور للحافظ جلال الدين السيوطى ان الشمس اذا طلعت من مغربها لا ينفع الايمان المحدث فى ذلك اليوم لمن كان كافرا أو مشركا ، ولا التوبة المحدثة فيه لمن كان مخلطا ، ولا أعمال البر المحدثة فيه لمن لم يكن يعملها قبل ذلك اليوم ، وأما من كان قبل ذلك اليوم مؤمنا فان الايمان المجرد عن الاعمال الصالحة السابقة على ذلك اليوم ينفع صاحبه لأجل نجاته ، وايمانه المتجدد يومئذ ينفعه أيضا لأنه نور على نور وان لم تقبل توبته عن سيآته ، وان الايمان السابق مع التخليط ينفعه مع ماتقدم له من الاعمال الصالحة التى كان يعملها وانما الممنوع قبول توبته عن تخليطه وقبول مالم يكن متصفا به من الايمان وأعمال البر قبل ذلك اليوم . والضابط ان كل بر محدث يكون السبب فى احداثه رؤية الآية ولم يسبق من صاحبه مثله لا ينفع ، سواء كان من الاصول أو الفروع ، وكل بر ليس كذلك لكون صاحبه كان عاملا به قبل رؤية الآية ينفع . وهذا التحقيق نبه على مثله الامام المحقق العلامة ابن مفلح فى الآداب الكبرى قال فى قوله صلى الله عليه وسلم « اذا طلعت الشمس من مغربها طبع الله عز وجل على كل قلب بما فيه وكفى الناس العمل » ليس المراد بهذا الخبر ترك ما كان يعمله من الفرائض أى وكذا من النوافل قبل طلوع الشمس من المغرب فيجب الاتيان بما كان يعمله من الفرائض قبل ذلك وينفعه ما يأتى به من الايمان الذى كان يأتى به قبل ذلك وكفى الناس العمل أى عملا لم يكونوا يفعلونه . قال وقد ذكر ابن حامد أن المذهب لا ينقطع التكليف خلافا للمعتزلة . وحكى ابن الجوزى عن الضحاك ان من أدركه بعض الآيات وهو على عمل صالح مع ايمانه قبل منه كما يقبل منه قبل الآية . قال ابن مفلح فالعمل الصالح الذى سببه ظهور الآية لا ينفع لأن الآية اضطرته اليه ، واما ماكان يعمله فظهور الآية لا تأثير لها فيه فبقى الحكم كما قبل الآية . ونبه على مثله السيد

لا ينقطع التكليف خلافا للمعتزلة

محمد البرزنجي فى كتابه الاشاعة فى اشراط الساعة وشيخ مشايخنا العلامة ابراهيم الكورانى فى شرح منظومة الشيخ محمد المقدسى القشاشى • وأشار اليه سابقا الحافظ ابن حجر فى فتح البارى والحافظ السيوطى فى الدر المنثور وغيرهم من المحققين فهو المعول عليه دون ما زعمه بعض المتحذلقين وبالله التوفيق

اذا فهمت ذلك فاعلم انه قد ورد فى طلوع الشمس من مغربها عدة أحاديث منها ما أخرجه مسلم فى صحيحه عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أول الآيات خروجا طلوع الشمس من مغربها وخروج الدابة على الناس ضحى وأيتهما كانت قبل صاحبتها فالاخرى على أثرها قريبا منها • وفيه أيضا من حديث أبى هريرة رضى الله عنه « لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها فاذا طلعت من مغربها آمن الناس كلهم أجمعون فيومئذ لا ينفع نفسا ايمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى ايمانها خيرا » ورواه البخارى أيضا وفيه « حتى تطلع الشمس من مغربها فاذا رآها الناس آمن من عليها» - الحديث • وأخرج مسلم من حديث أبى ذر الغفارى رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوما « أتدرون أين تذهب هذه الشمس ؟ » قالوا الله ورسوله أعلم « قال ان هذه تجرى حتى تنتهى الى مستقرها تحت العرش فتخر ساجدة فلا تزال كذلك حتى يقال لها ارجعى من حيث جئت فترجع طالعة من مطلعها تجرى لا يستنكر الناس منها شيئا حتى تنتهى الى مستقرها ذلك تحت العرش فيقال لها ارجعى ارتفعى أصبحى طالعة من مغربك • فتصبح طالعة من مغربها - فقال عليه السلام - أتدرون متى ذلكم ؟ حين لا ينفع نفسا ايمانها لم تكن آمنت من قبل» الآية • وأخرج الامام احمد وعبد بن حميد وعبد الرزاق والستة غير الترمذى وابن المنذر وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقى من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها فاذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون وذلك حين لا ينفع نفسا ايمانها » ثم قرأ الآية • وتقدم قريبا • وأخرج ابن مردويه عن حذيفة رضى الله

عنه قال سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم ما آية طلوع الشمس من مغربها ؟ فقال « طول تلك الليلة حتى تكون قدر ليلتين »وهو وابن أبى حاتم عن ابن عباس رضى الله عنهما مرفوعا «قدرثلاثليال» وعندالبيهقى من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنما مرفوعا « قدر ليلتين أو ثلاث فيستيقظ الذين يخشون ربهم فيصلون ويعملون كما كانوا ولا يرون الا قد قامت النجوم مكانها ثم يرقدون ثم يقومون ثم يقضون صلاتهموالليل كأنه لم ينقص فيضطجعون حتى اذا استيقظوا والليل مكانه حتى يتطاول عليهم الليل فاذا رأوا ذلك خافوا أن يكون ذلك بين يدى أمر عظيم فيفزع الناس وهاج بعضهم فى بعض فقالوا ما هذا ؟ فيفزعون الى المساجد فاذا أصبحوا طال عليهم طلوع الشمس فبينما هم ينظرون طلوعها من المشرق اذ هى طالعة عليهم من مغربها فيضج الناس ضجة واحدة حتى اذا صارت فى وسط السماء رجعت وطلعت من مطلعها » وأخرج ابن مردويه وغيره من حديث أنس رضى الله عنه مرفوعا « صبيحة تطلع الشمس من مغربها يصير فى هذه الامة قردة وخنازير تطوى الدواوين وتجف الاقلام لايزاد فى حسنة ولا ينقص من سيئة ولا ينفع نفسا ايمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى ايمانها خيرا » وعند البيهقى « فيذهب الناس فيتصدقون بالذهب الاحمر فلا يقبل منهم ويقال لو كان بالأمس » وأخرج ابن مردويه من حديث ابن عباس رضى الله عنهما مرفوعا « لا تزال الشمس تجرى من مشرقها الى مغربها حتى يأتى الوقت الذى جعل الله لتوبة عباده فتستأذن الشمس من أين تطلع ويستأذن القمر من أن يطلع فلا يؤذن لهما فيحبسان مقدار ثلاث ليال للشمس وليلتين للقمر فلا يعرف مقدار حبسهما الا قليل من الناس وهم بقية أهل الارض وحملة القرآن يقرأ كل رجل منهم ورده فى تلك الليلة حتى اذا فرغ منه نظر فاذا ليلته على حالها فيعود ويقرأ ورده فاذا فرغ نظر فاذا ليلته على حالها فلا يعرف ذلك الا حملة القرآن فينادى بعضهم بعضا فيجتمعون فى مساجدهم بالتضرع والبكاء والصراخ بقية تلك الليلة ومقدار تلك الليلة ثلاث ليال ثم يرسل اللهجبريل الى الشمس والقمر فيقول ان الرب تعالى يأمر كما أن ترجعا الى مغربكما

فتطلعا منه فانه لا ضوء لكما عندنا ولا نور فتبكى الشمس والقمر خوف يوم القيامة وخوف الموت فترجع الشمس والقمر فيطلعان من مغربهما فبينما الناس كذلك يتضرعون الى الله والغافلون في غفلاتهم اذ نادى مناد ألا ان باب التوبة قد أغلق والشمس والقمر طلعا من مغاربهما فنظر الناس فاذا بهما أسودان كالعكمين لا ضوء لهما ولا نور فذلك قوله تعالى : (وجمع الشمس والقمر) » قوله كالعكمين تثنية عكم بالكسر وهو الغرارة أي كالغرارتين العظيمتين ومنه يقال لمن شد الغرائر على الجمل : العكام ، وفي حديث أم زرع « عكومها رداح » يعنى غرائرها التى تكون فيها الامتعة وغيرها - فيرتفعان أي الشمس والقمر مثل البعيرين المقرونين ينازع كل منهما صاحبه استباقا ويتصايح أهل الدنيا وتذهل الامهات عن أولادها وتضع كل ذات حمل حملها فاما الصالحون والابرار فينفعهم بكاؤهم يومئذ ويكتب لهم عبادة ، وأما الفاسقون والفجار فلا ينفعهم بكاؤهم يومئذ ويكتب عليهم حسرة ، فاذا بلغت الشمس والقمر سرة السماء وهو منتصفها جاءهما جبريل فأخذ بقرونهما فردهما الى المغرب فلا يغربهما في مغاربهما أي مغارب طلوعهما ذلك اليوم وهى جهة المشرق ولكن يغربهما فى مغاربهما اللذين فى باب التوبة ، فان الله تعالى خلق باب التوبة فهو من أبواب الجنة لهمصراعان من ذهب مكللان بالدر والجوهر ما بين المصراع الى المصراع مسيرة أربعين عاما للراكب المسرع فذلك الباب مفتوح منذ خلق الله خلقه الى صبيحة تلك الليلة عند طلوع الشمس والقمر من مغاربهما ولم يتب عبد من عباد الله توبة نصوحا من لدن آدم الى ذلك اليوم الا ولجت تلك التوبة في ذلك الباب ثم ترفع الى الله - فيغر بهماجبريل فيذلك ثم يرد المصراعين فيلتئم ما بينهما ويصيران كأنهما لم يكن فيهما صدع قط ولا خلل فاذا أغلق باب التوبة لم يقبل لعبد بعد ذلك توبة ولم ينفعهحسنة يعملها بعد ذلك الا ما كان يجرى لهما قبل ذلك فذلك قوله تعالى (يوم يأتى بعض آيات ربك) الآية فقال : أبى بن كعب يا رسول الله فكيف بالشمس والقمر بعد ذلك وكيف بالناس والدنيا ؟ قال ان الشمس والقمر يكسيان بعد ذلك ضوء النور ثم يطلعان على الناس ويغربان كما كانا قبل ذلك ، وأما الناس فانهم حيث رأوا

ما رأوا من تلك الآية وعظمها يلحون على الدنيا فيعمرونها ويجرون فيها الأنهار ويغرسون فيها الاشجار ويبنون فيها البنيان ، وأما الدنيا فلو أنتج رجل مهرا لم يركبه حتى تقوم الساعة من لدن طلوع الشمس من مغربها الى يوم ينفخ في الصور • وقد ذكر نحو ذلك القرطبى في تذكرته عن الثعلبى وغيره من المفسرين عن أبى هريرة •

(تنبيهات)

تنبيهات الأول فى حال الناس بعد طلوع الشمس من مغربها

(الأول) قد ورد عن ابن عمرو رضى الله عنهما : يمكث الناس بعد طلوع الشمس من مغربها عشرين ومائة سنة • وروى عبد بن حميد عنه : يبقى شرار الناس بعد طلوع الشمس من مغربها عشرين ومائة سنة • وأخرج نعيم عن ابن عمرو : لا تقوم الساعة حتى تعبد العرب ماكان يعبد آباؤها عشرين ومائة سنة بعد نزول عيسى بن مريم وبعد الدجال • وروى عبد بن حميد من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تقوم الساعة حتى يلتقى الشيخان الكبيران فيقول أحدهما للآخر متى ولدت فيقول زمن طلعت الشمس من مغربها • وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر عن أبى هريرة رضى الله عنه : الآيات كلها فى ثمانية أشهر • وعن أبى العالية : فى ستة أشهر • ومر : لو أن رجلا نتج مهرا لم يركبه حتى ينفخ في الصور • وجمع الحافظ ابن حجر في فتح البارى وتبعه السخاوى في القناعة والبرزنجى في الاشاعة بما حاصله انالمدة كما في الروايات الاولى عشرون ومائة سنة لكنها تمر مرا سريعا كمقدار عشرين ومائة شهر كما في صحيح مسلم عن أبى هريرة مرفوعا « لا تقوم الساعة حتى تكون السنة كالشهر » الحديث وفيه اليوم كالساعة • وعلى هذا يكون تقارب الزمان وتقاصر الايام مرتين مرة زمن الدجال ثم ترجع بركة الارض وطول الايام الى حالها ، ثم تتناقص بعد موت سيدنا عيسى عليه السلام الى أن تصير في آخر الزمان الى ما ذكر • قلت وأحسن من هذا ما ذكره الطيبى أن الآيات على قسمين قسم يدل على قرب الساعة وقسم يدل على حصولها ، وان من الأول الدجال ونزول عيسى عليه السلام وخروج يأجوج ومأجوج والخسوف ، ومن الثانى

الدخان وطلوع الشمس من مغربها وخروج الدابة والنار التى تخرج من قعر عدن تحشر الناس ، فيكون المراد بالمدة الطويلة باعتبار الاول والقصيرة باعتبار الثانى لكن يعكر عليه بأن الخبر ناطق بأن العشرين ومائة سنة بعد طلوع الشمس من مغربها ولهذا مال الكورانى الى الاول أو أن خبرعشرين ومائة سنة غير صحيح ، واستدل لعدم صحة ذلك مع ما مر بقول السخاوى ثبت أن الآيات العظام مثل السلك اذا انقطع تناثر الخرز سرعة • وفى مرسل لأبى العانية أن بين أول الآيات وأخرها ستة أشهر يتتابعن كتتابع الخرزات فى النظام • وتقدم قريبا •• ويشهد لتواليها خرزات منظومات فى سلك اذا انقطع السلك تبع بعضها بعضا • وفى رواية بين يدى الساعة عشر آيات كالنظم فى الخيط اذا سقط منها واحدة توالت

الثانى ما جاء ان طلوعها من مغربها أول الساعات وما يخالفه والنظر فى ذلك

(الثانى)

فى حديث مسلم ان أول الآيات طلوع الشمس من مغربها • وقد استشكل بأنه لو كان كذلك لم ينفع الكفار ايمانهم بعد نزول عيسى عليه السلام ولا الفساق توبتهم لانغلاق باب التوبة ، وقد جاء النص بأنه ينفعهم ذلك جزما والا لما صار الدين واحدا ولا كان فى نزوله كبير فائدة ، وقد اضطرب كلام العلماء من المحدثين والمفسرين فى الجواب عن ذلك والجمع بين الأحاديث ، وحاصل ذلك أنه أجيب بجوابين أحدهما للحافظ البيهقى قال ان كان فى علم الله تعالى ان طلوع الشمس سابق احتمل أن يكون المراد نفى قبول توبة الذين شاهدوا طلوع الشمس من مغربها فاذا انقرضوا وتطاول الزمن وعاد بعضهم الى الكفر عاد تكليف الايمان بالغيب ، قال وان كان فى علم الله تعالى ان طلوع الشمس بعد نزول عيسى احتمل أن يكون المراد بالآيات فى حديث ابن عمرو آيات أخر غير الدجال ونزول عيسى — يعنى وخروج المهدى • قال العلامة الشيخ مرعى عن الاخير هو المعتمد لما مر من أن باب التوبة يغلق من حين طلوع الشمس من مغربها الى يوم القيامة

الجواب الثانى ان خروج الدجال أول الآيات العظام المؤذنة بتغير انتظام الاحوال العامة فى معظم الارض وينتهى ذلك بموت سيدنا عيسى بن مريم

عليه السلام ، وطلوع الشمس من مغربها هو أول الآيات العظام المؤذنة بتغير انتظام العالم العلوى وينتهى ذلك بقيام الساعة ، وأما خروج الدابة فانه يقع فى ذلك اليوم الذى تطلع فيه الشمس من المغرب • قال الحاكم أبو عبد الله الذى يظهر أن طلوع الشمس يسبق خروج الدابة فى ذلك اليوم أو الذى يقرب منه والحكمة فى ذلك ان عند طلوع الشمس من المغرب يغلق باب التوبة فتخرج الدابة تميز المؤمن من الكافر تكميلا للمقصود من اغلاق باب التوبة • قال العلامة الشيخ مرعى وهذا كلام فى غاية التحقيق • قال بعضهم والحكمة فى طلوع الشمس من مغربها ان ابراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام لما قال للنمرود (ان الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر) وان السحرة والمنجمين عن آخرهم ينكرون ذلك ويقولون هو غير كائن أطلعها الله تعالى يوما من المغرب ليرى المنكرين عظيم قدرته وباهر حكمته وان الشمس فى ملكه ان شاء أطلعها من المشرق أو المغرب أولا ولا • وقال الحليمى من الشافعية : أول الآيات الدجال ثم نزول عيسى عليه السلام ثم طلوع الشمس من مغربها • (قلت) والذى يظهر والله أعلم أن أول الآيات خروج المهدى ثم الدجال ثم نزول عيسى ثم خروج يأجوج ومأجوج ثم هدم الكعبة ثم الدخان ثم ارتفاع القرآن ثم طلوع الشمس من مغربها ويحتمل ان طلوع الشمس متقدم على رفع القرآن وخروج الدابة عقب طلوع الشمس من مغربها فى يومها أو قريبا منها • وهذا هو النسق الذى مشينا عليه واخترناه والله أعلم • وأما خروج السفيانى فانه وان كان قبل خروج المهدى الا أنه لم يعد خروجه آية وانما هو علامة لخروج المهدى والله أعلم

ترتيب الآيات

(التنبيه الثالث)

الثالث فى طى الدواوين وجفاف الاقلام

قد ورد من حديث أنس رضى الله عنه عند ابن مردويه وغيره أن الدواوين تطوى والاقلام تجف ولا يزاد فى حسنة ولا ينقص من سيئة • وفى كلامهم بعضهم ولا يكتب عمل بعد ذلك وانهم اذا عملوا عملا فأجسامهم تشهد عليهم كما ورد عن عائشة رضى الله عنها : اذا خرجت أول الآيات تعنى طلوع الشمس من المغرب طرحت الاقلام وطويت الصحف وخلصت

الحفظة وشهدت الاجساد على الاعمال • رواه عبد بن حميد والطبرى سند صحيح • وعند نعيم بن حماد عن ابن حماد عن ابن عمرو فيناديهم مناد : يا أيها الذين آمنوا قد قبل منكم ، ويا أيها الذين كفروا قد أغلق عنكم باب التوبة وجفت الاقلام وطويت الصحف • وروى من طريق يزيد ابن شريح وكثير بن مرة : اذا طلعت الشمس من المغرب يطبع على القلوب بما فيها وترفع الحفظة وتؤمر الملائكة أن لا يكتبوا عملا • وعن ابن مسعود رضى الله عنه انه قال الآية التى تختم الاعمال بها طـــلوع الشمس من مغربها • فهذه آثار يشد بعضها بعضا متفقة على انه اذا طلعت الشمس من المغرب أغلق باب التوبة ولم يفتح بعد ذلك ولا يختص ذلك بيوم طلوعها بل يمتد الى يوم القيامة خلافا لمن زعم من العلماء انه انما يمتنع قبول الايمان والتوبة وقت طلوع الشمس من المغرب أى فى تلك الحالة ، قالوا واما من تاب بعد ذلك أو أسلم قبل ذلك منه • قال الحافظ ابن حجر فى فتح البارى ما ملخصه : الذى دلت عليه الاحاديث الثابتة الصحاح والحســان ان قبول التوبة مغيا بطلوع الشمس من مغربها ومفهومها انها بعــد ذلك لا تقبل بل قد جاء فى بعض الروايات التصريح بعدم القبول كما عند الامام احمد والطبرى والطبرانى عن مالك بن يخامر ومعاوية وعبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن عمرو • رفعوه : لا تزال التوبة مقبولة حتى تطلع الشمس من مغربها فاذا طلعت طبع على كل قلب بما فيه وكفى الناس العمل • وقد مر من الاخبار والآثار ما يفيد ذلك افادة صريحة لا تحتمل التأويل ، ويؤيد ذلك ما يأتى من أن ابليس يخر ساجدا وان الدابة تقتله فانه لا يموت الا عند الفراغ من العمل وبالله التوفيق •

العلامة التاسعة
دابة الارض

((العلامة التاسعة))

خروج دابة الارض واليها أشار بقوله

((كذات أجياد على المشهور))

((كذات)) أى صاحبة ((أجياد)) وأجياد كما فى القاموس اسم أرض بمكة أو جبل بها قال سمى بذلك لكونه موضع خيل تبع • انتهى • قلت وفيه نظر فان تسميته بأجياد متقدمة على تبع وخيله ففى تفسير القرطبى

وروه الحكيم لترمذى عن ابن عباس رضى الله عنهما لما أذن الله لابراهيم واسماعيل برفع القواعد من البيت قال الله تبارك اسمه أنى معطيكما كنزا ادخرته لكما ثم أوحى الى اسماعيل ان اخرج الى أجياد فادع يأتك الكنز فخرج الى أجياد ولا يدرى ما الدعاء ولا الكنز فألهمه الله الدعاء فلم يبق على وجه الارض فرس الا جاءته وأمكنته من ناصيتها وذللها له • وفى حياة الحيوان للدميرى أول من ركب الخيل اسماعيل عليه السلام ولذلك سميت العراب وكانت قبل ذلك وحشا كسائر الوحوش فلما أذن الله تعالى الى ابراهيم واسماعيل عليهما السلام برفع القواعد من البيت قال الله عز وجل انى معطيكما كنزا ادخرته لكما ثم أوحى الله عز وجل الى اسماعيل ـ الحديث ـ وفيه ولذلك قال نبينا صلى الله عليه وسلم « اركبوا الخيل فانها ميراث أبيكم اسماعيل » • قلت ولعل تسمية المحل المذكور لمجيء الخيل الجياد اليه مجيبة سيدنا اسماعيل عليه السلام ويقال له جياد أيضا بغير ألف قبل الجيم وقوله ((على)) القول ((المشهور)) من اضافتها الى اجياد لكونها تخرج منه ففى حديث أبى هريرة رضى الله عنه مرفوعا « تخرج دابة الارض من أجياد فيبلغ صدرها الركن اليمانى ولم يخرج ذنبها بعد وهى دابة ذات قوائم » وعن أبى هريرة رضى الله عنه أيضا أنه أراه النبى صلى الله عليه وسلم المكان الذى تخرج منه الدابة • وعن أبى هريرة أيضا رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « بئس الشعب شعب أجياد » قالها مرتين أو ثلاثا قالوا وما ذاك يا رسول الله ؟ قال « تخرج منه الدابة فتصرخ ثلاث صرخات فيسمعها من فى الخافقين » رواه الطبرانى فى الاوسط • وفى حديث بريدة رضى الله عنه قال ذهب بى رسول الله صلى الله عليه وسلم الى موضع بالبادية قريب من مكة فاذا بأرض يابسة حولها رمل فقال صلى الله عليه وسلم « تخرج الدابة من هذا الموضع » والحاصل ان فى المحل الذى تخرج منه الدابة أقوالا من أشهرها أجياد كما أشرنا اليه ، قال الحافظ السخاوى فى القناعة وخروجها فى آخر الزمان من مكة اما من صدع الصفا وبه جزم غير واحد أو من المروة أو من شعب أجياد أو من بعض أودية تهامة أو من وراء مكة أو من مدينة قوم لوط •انتهى•

اختلاف المنقول فى محل خروجها وما قيل من تكرره

وقيل بل أول خروجها من أقصى اليمن ، وهذا أخرجه الحاكم فى المستدرك عن أبى الطفيل عن أبى سريحة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « يكون للدابة ثلاث خرجات فى الدهر تخرج فى أول خرجة فى أقصى اليمن منتشرا ذكرها بالبادية ولا يدخل ذكرها القرية - يعنى مكة ، ثم تمكث زمانا طويلا تخرج خرجة أخرى دون تلك فيعلو ذكرها فى أهل البادية ويدخل ذكرها القرية ، ثم بينما الناس فى أعظم المساجد حرمة وأحبها الى الله وأكرمها على الله - يعنى المسجد الحرام - لم يرعهم الا وهى فى ناحية المسجد من الركن الاسود وباب بنى مخزوم فيرفض الناس عنها وتثبت عصابة من المسلمين عرفوا انهم لن يعجزوا الله فتنفض عن رأسها التراب فتجلو عن وجوههم حتى كأنهم الكواكب الدرية - الحديث

وقد جمع بعضهم بين الروايات بأن للدابة ثلاث خرجات ففى بعض خرجاتها تخرج من مدينة قوم لوط ويصدق عليها انها من أقصى البادية ، وفى بعضها تخرج من بعض أودية تهامة ويصدق عليها انها من وراء مكة وانها من اليمن لان الحجاز يمانية ومن ثم قيل الكعبة يمانية ، والمرة الثالثة تخرج من مكة وهى من كبرها وعظم جثتها وطولها يمكن أن تخرج من بين الصفا والمروة واجياد فانها تمتد مقدار ثلاثة أيام وأكثر وحينئذ يصدق عليها أنها خرجت من المروة ومن الصفا ومن أجياد ومن المسجد ومن البادية التى بقرب مكة كما فى حديث بريدة • وجمع بعضهم أيضا بوجه آخر وهو أنها تخرج من جميع تلك الاماكن فى آن واحد خرقا للعادة فى صور متباينة على أنه وود فى رواية كما فى حياة الحيوان أنه يخرج من كل بلد دابة مما هو مبثوث نوعها فى الارض فليست بواحدة فيكون قوله دابة اسم جنس • وذكر الكورانى انه حيث ورد فى المرفوع لها ثلاث خرجات من ثلاث محلات ، ومن المذكور فى الاصول ان العدد لا مفهوم له ومن ثم قال أهل الاصول : والتخصيص بالعدد لا يدل على الزائد والناقص ، فجاز أن يكون لها أكثر من ثلاث خرجات كل خرجة من محل فيصح خروجها من كل محل ذكروه ، وكذلك الاختلاف فى طولها وغيره فان الاقل لاينافى الاكثر بناء على أن العدد لا مفهوم له • انتهى • وورد أن خروجهاليلةجمع

والناس سائرون الى منى فيتصدع الصفا فتخرج منه ، وقيل تخرج من الحجر ، وقيل من أرض الطائف ، ومعها عصا موسى وخاتم سليمان عليهما السلام لا يدركها طالب ولا يعجزها هارب

خروجها ثابت بالكتاب والسنة وصفتها وعملها

اذا علمت ذلك فخروج الدابة المذكورة ثابت بالكتاب والسنة ،أماالكتاب فقوله تعالى : (واذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الارض تكلمهم ان الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون) وأما السنة فكثيرة منها مافى حديث حذيفة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « دابة الارض طولها ستون ذراعا لا يدركها طالب ولا يفوتها هارب » وفى حديث أبى هريرة رضى الله عنه مرفوعا « تخرج دابة الارض من اجياد فيبلغ صدرها الركن اليمانى ولم يخرج ذنبها بعد وهى دابة ذات قوائم » وفى حديث حذيفة يرفعه « أول ما يبدو منها رأسها معلمة ذات وبر وريش » وقال أمير المؤمنين على رضى الله عنه تخرج ثلاثة أيام والناس ينظرون فلا يخرج الا ثلثها • وروى فلا يخرج الا رأسها فيبلغ عنان السماء وتبلغ السحاب • وقال أبو هريرة رضى الله عنه فيها من كل لون وما بين قرنيها فرسخ للراكب • وقال وهب : وجهها وجه رجل وسائر خلقها كخلق الطير • وقال ابن جرير : رأسها رأس الثور ، وعينها عين خنزير ، وأذنهاأذن فيل، وقرنها قرن ابل ، وعنقها عنق نعامة ، وصدرها صدر أسد ، ولونها لون نمر ، وخاصرتها خاصرة هر ، وذنبها ذنب تيس ، وقوائمها قوائم بعير ، بين كل مفصلين اثنى عشر ذراعا بذراع آدم عليه السلام • وقال كعب صوتها صوت حمار • وأخرج الامام احمد والترمذى وابن ماجه والحاكم من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تخرج الدابة ومعها خاتم سليمان وعصا موسى فتجلو وجه المؤمن بالعصا وتخطم أنف الكافر بالخاتم حتى أن أهل الخوان ليجتمعون فيقول هذا يا مؤمن ويقول هذا يا كافر » وأخرج الامام احمد أيضا من حديث أبى أمامة رضى الله عنه مرفوعا « تخرج الدابة فتسم الناس على خراطيمهم ثم يعمرون فيكم ثم يشترى الرجل الدابة فيقول ممن اشتريت فيقول من الرجل المخطم » وقال ابن عباس رضى الله عنهما ان لها عنقا مشرفاأى طويلا

يراها من بالمشرق كما يراها من بالمغرب ، ولها وجه كوجه الانسان ،ومنقار كمنقار الطير ، ذات وبر وزغب • وعن ابن عباس رضى الله انها ذات زغب وريش فيها من ألوان الدواب كلها وفلها من كل أمة سيمة وسيماها منهذه الامة أنها تكلم الناس بلسان عربى مبين وتكلمهم بكلامهم ، (قوله) ذات زغب أى عليها زغب وهو صغار الريش أول ما يطلع كما فى النهاية ، والايل بفتح الهمزة وكسر التحية مشددة وبضم وفتح (الواو وكسر) العين وهو تيس الجبل والسيمة العلامة •

وعن أمير المؤمنين علي بن أبى طالب رضى الله عنه انه قيل له ان ناسا يزعمون انك دابة الارض فقال : والله ان لدابة الارض ريشا وزغبا ومالى ريش ولا زغب ، وان لها حافرا وانها لتخرج حضر الفرس الجواد ثلاثا وما خرج ثلثاها • وفي الميزان للحافظ الذهبى عن جابر الجعفى انه كان يقول : دابة الارض علي بن أبى طالب • قال الذهبى : وكان جابر الجعفى شيعيا يرى الرجعة - أى ان عليا يرجع الى الدنيا • قال الامام أبو حنيفة ما لقيت أحدا أكذب من جابر الجعفى ولا أفضل من عطاء بن أبى رباح • وقال الشافعى أخبرنى سفيان بن عيينة قال كنا في منزل جابر الجعفى فتكلم بشيء فنزلنا خوفا ان يقع علينا السقف • ومع ذلك روى له أبو داود والترمذى وابن ماجه ومات سنة ست وستين ومائة (١) عفا الله عنه • وقال ابن الاثير في جامع الاصول : جابر بن يزيد الجعفى ويقال أبو محمد من أهل الكوفة مشهور ، وكان من أصحاب عبد الله بن سبأ ، وكان يقول ان علي بن أبى طالب يرجع الى الدنيا - وذكر ما قاله أبو حنيفة رضى الله عنه فيه ، قال : ومات سنة ثمان وعشرين ومائة • وقال الحافظ المنذرى في آخر كتابه الترغيب والترهيب : جابر بن يزيد الجعفى الكوفي عالم الشيعة ترك يحيى القطان حديثه ، وقال النسائي وغيره : متروك ، ووثقه شعبة وسفيان الثورى ، وقال وكيع : ما شككتم في شيء فلا تشكوا أن جابرا الجعفى ثقة • والله أعلم •

قال العلماء رحمهم الله تعالى كما في الاحاديث ان مع الدابة عصا موسى

---

(١) كذا والمعروف سنة ثماني وعشرين ومائة •

وخاتم سليمان عليهما السلام وتنادى بأعلى صوتها (أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون) وتسم الناس المؤمن والكافر فأما للمؤمن فيرى وجهه كأنه كوكب درى ويكتب بين عينيه مؤمن ، وأما الكافر فتنكت بين عينيه نكتة سوداء ويكتب بين عينيه كافر ، فلا يبقى مؤمن الا نكتت في مسجده بعصا موسى نكتة بيضاء فتفشو تلك النكتة حتى يبيض لها وجهه ، ولا يبقى كافر الا نكتت في وجهه نكتة سوداء بخاتم سليمان فتفشو تلك النكتة حتى يسود لها وجهه • وفي رواية فتلقى المؤمن فتسمه في وجهه نكتة فيبيض لها وجهه ، وتسم الكافر نكتة يسود لها وجهه • وفي أخرى فتجلو وجه المؤمن بالعصا وتخطم أنف الكافر بالخاتم حتى ان أهل الخوان ليجتمعون فيقولون لهذا يا مؤمن ولهذا يا كافر ويتعوذ بعض الناس منها بالصلاة فتأتيه من خلفه فتقول يا فلان الآن تصلى فيقبل عليها فتسمه في وجهه ثم تنطلق ، ويشترك الناس في الاموال ويصطحبون في الامصار يعرف المؤمن الكافر وبالعكس حتى ان المؤمن ليقول للكافر يا كافر اقض حقى ، وتستقبل المشرق فتصرخ صرخة تنفذها ، ثم تستقبل الشام فتصرخ صرخة تنفذها ، ثم المغرب واليمن كذلك • وأخرج نعيم بن حماد في الفتن والحاكم في المستدرك عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : لا يلبثون – يعنى الناس بعد يأجوج ومأجوج حتى تطلع الشمس من مغربها ، وجفت الاقلام وطويت الصحف ولا يقبل لأحد توبة ، ويخر ابليس ساجدا ينادى الهى مرنى اسجد لمن شئت ، وتجتمع اليه الشياطين تقول يا سيدنا الى من نفزع فيقول انما سألت ربى ان ينظرنى الى يوم البعث فانظرنى الى يوم الوقت المعلوم وقد طلعت الشمس من مغربها فهذا يوم الوقت المعلوم ، وتصير الشياطين ظاهرة فى الارض حتى يقول الرجل هذا قرينى الذى كان يغوينى فالحمد لله الذى أخزاه ، ولا يزال ابليس ساجدا باكيا حتى تخرج الدابة فتقتله وهو ساجد • قال العلماء في سؤال ابليس ان ينظر ليوم البعث مكر منه وخداع وجهل برب العالمين فانه انما حاول ان لا يذوق الموت لان يوم البعث ليس بيوم موت وانما هو يوم بعث ونشور واحياء وبعثرة لمن في القبور فاذا كان الامر كذلك فكيف يقبض اد ذاك ابليس أو غيره وانما ذلك يوم الجزاء فأجابه العليم الحكيم بأنه منظر الى يوم الوقت المعلوم • وهذا أصح من قول كعب الاجبار بأن

ابليس انما يذوق الموت يوم الحشر كما ذكره الكعائى في العرائس وبالله التوفيق •

(فائدة)

فائدة قيل انها الجساسة وقيل أنها الثعبان الذى كان ببئر الكعبه

روى عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما ان الدابة هى الجساسة المذكورة في قصة تميم الدارى رضى الله عنه • وعن ابن عباس رضى الله عنهما انها الثعبان الذى كان في بئر الكعبة فاختطفته العقاب حين أرادت قريش بناء البيت الحرام وان الطائر حين اختطفها ألقاها بالحجون • وفي التمهيد لابن عبد البر عن عمرو بن دينار انه رمى بها في اجياد فالتقمتها الارض فهى الدابة التى تخرج تكلم الناس وتخرج عند الصفا • وفي حياة الحيوان جاء عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما انها أى الجساسة دابة الارض المذكورة في القرآن قال وهى بجزيرة بحر القلزم والله أعلم •

العلامة العاشرة خروج نار من قعر عدن أو غيره

(العلامة العاشرة)

خروج النار التى تخرج من قعر عدن تحشر الناس الى محشرهم واليها أشار بقوله :

((وآخر الآيات حشر النار كما أتى في محكم الاخبار))

((وآخر الآيات)) العظام والعلامات الجسام ((حشر النار)) للناس من المشرق الى المغرب ومن اليمن الى مهاجر ابراهيم عليه السلام وهو أرض الشام ((كما أتى)) ذلك مصرحا به ((في محكم الاخبار)) وصحيح الآثار كما ستقف على جملة من ذلك • فان قلت في قولك وآخر الآيات مصادمة للحديث الصحيح والخبر الثابت الصريح عن سيد البشر وخلاصة العالم وأصدق من أخبر وصفوة بنى آدم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فقد أخرج الامام أحمد في مسنده والبخارى في صحيحه والنسائى في سننه عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اما أول اشراط الساعة فنار تخرج من المشرق فتحشر الناس الى المغرب » الحديث • قلت تقدم في حديث حذيفة بن أسيد الغفارى انه صلى الله عليه وسلم قال لن تقوم الساعة حتى ترى قبلها عشر آيات فذكر الدخان والدجال

والدابة وطلوع الشمس من مغربها ونزول عيسى بن مريم عليه السلام وخروج يأجوج ومأجوج وثلاث خسوف خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب ، قال وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس الى محشرهم • وفى لفظ أن الساعة لا تكون حتى تكون عشر آيات فعدها وفي آخرها نار تخرج من قعر عدن ترحل الناس • قال شعبة وأحسبه قال تنزل معهم اذا نزلوا وتقيل معهم حيث قالوا • رواه مسلم فى صحيحه بعدة طرق ، ورواه الامام أحمد وأصحاب السنن الاربعة • وقد جمع بعض العلماء بينهما بأن آخرية خروج النار باعتبار ما ذكر معها من الآيات وأوليتها بأنها من أول الآيات التى لا شيء بعدها من أمور الدنيا أصلا بل يقع بانتهائها النفخ في الصور بخلاف ما ذكر معها فانه يبقى بعد كل آية منها أشياء من أمور الدنيا • ذكره الحافظ السخاوى • وذكر غيره من العلماء بأن النار ناران احداهما تحشر الناس من المشرق الى المغرب ، والثانية تخرج من اليمن فتطرد الناس الى المحشر الذى هو أرض الشام ، فلعل احدى النارين في أول الآيات والاخرى في آخرها ، وحينئذ فلا حاجة الى الجمع الذى ذكره الحافظ السخاوى ، وان لم يكن في علم الله الا نار واحدة فجمع السخاوى موجه وعليه فالجمع بين حديث نار تخرج قبل يوم القيامة من حضرموت فتسوق الناس ، وفي لفظ تخرج نار من قعر عدن ترحل الناس الى المحشر ، وحديث نار تحشر الناس من المشرق الى المغرب ، فبأن يقال ان الشام الذى هو المحشر مغرب بالنسبة الى المشرق فيكون ابتداء خروجها قعر عدن من اليمن فاذا خرجت انتشرت الى المشرق فتحشر أهله الى المغرب الذى هو الشام وهو المحشر ، ولفظة أبين بوزن أحمر اسم الملك الذى بناها ، وفي نهاية ابن الاثير عدن أبين مدينة معروفة باليمن أضيفت الى أبين بوزن أبيض وهو رجل من حمير عدن بها أي أقام • انتهى • وفي القاموس عدن أبين محركة جزيرة باليمن أقام بها ، وعدن لاعة قرية بقربه • وأخرج الامام أحمد عن ابن عمرو رضى الله عنهما : ستكون هجرة بعد هجرة فخيار أهل الارض ألزمهم مهاجر ابراهيم عليه السلام ويبقى في الارض شرار أهلها تلفظهم أرضوهم وتقذرهم نفس الله وتحشرهم النار مع القردة والخنازير تبيت معهم اذا باتوا وتقيل معهم اذا قالوا وتأكل من تخلف •

ورواه أبو داود والحاكم وأبو نعيم (قوله) تقـــذرهم نفس الله هو من المتشابه والايمان به واجب كما أخبر لا كما يتوهمه البشر . وأخـــرج الامام أحمد أيضا والترمذى وقال حسن صحيح عن ابن عمرو أيضا رضى الله عنهما مرفوعا : ستخرج نار من حضرموت أو بحضرموت قبـــل يوم القيامة تحشر الناس . قالوا يا رسول الله فما تأمرنا ؟ قال : عليكم بالشام . يعنى وهو المراد بمهاجر ابراهيم . وأخرج الطبرانى وابن عســـاكر عن حذيفة بن اليمان رضى الله عنه مرفوعا : لتقصدنكم نار هى اليوم خامدة في واد يقال له برهوت يغشى الناس فيها عذاب أليم تأكل الانفس والاموال تدور الدنيا كلها في ثمانية أيام ، تطير طير الريح والسحاب ، حرها بالليل أشد من حرها بالنار ، ولها بين السماء والارض دوى كدوى الرعـــد القاصف . هى من رءوس الخلائق أدنى من العرش . قيل يا رسول الله أسليمة يومئذ على المؤمنين والمؤمنات ؟ قال وأين المؤمنون والمؤمنات يومئذ ؟ شر من الحمر يتساندون كما تتسافد البهائم وليس فيهم رجل يقول مهمه . وأخرج البغوى والبارودى وابن قانع وابن حبان : يوشك ان تخرج نار من حبس سيل تسير سير بطيئة الابل ، تسير بالنهار وتقيم بالليل ، تغـــدو وتروح ، يقال غدت النار أيها الناس فاغدوا ، قالت أيها النـــاس فقيلوا ، راحت النار أيها الناس فروحوا ، من أدركته أكلته .

اختلاف المنقول في موضع خروجها والجمع بين الاوجه

فاذا قيل ما وجه الجمع بين كونها تخرج من قعر عدن ومن برهوت ومن حبس سيل ؟ فالجواب انها تخرج أولا من برهوت ويقال له وادى النار وهو في قعر عدن وعدن على ساحل البحر فالعبارات مآلها واحد وتمر بحبس سيل أيضا والخطاب لأهل المدينة وحبس سيل قريب من المدينة فوصول النار اليه يكون قبل وصولها الى المدينة فصح ان يقال لهم تخرج نار من حبس سيل . فان قيل ما وجه الجمع بين كونها تطير طير الريح والسحاب وتدور الدنيا كلها في ثمانية أيام ، وبين كونها تسير سير بطية الابل ؟ فالجواب ان لها حالات فتارة هكذا وتارة هكذا ، وان ثبت تعـــدد النار زال أصـــل الاستشكال . والله أعلم .

تتمة في عموم الكفر آخر الزمان

(تتمة) ثبت بالسنة الصحيحة ان أهل الارض يكفرون ويعبدون الاوثان

وانه لا تقوم الساعة الا على شرار الناس ، فقد أخرج الامام أحمد ومسلم من حديث ابن عمرو رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تجيء بعد موت عيسى عليه السلام ريح باردة من قبل الشام فلا تبقى على وجه الارض أحدا فى قلبه مثقال ذرة من ايمان الا قبضته حتى لو أن أحدكم دخل في كبد جبل لدخلت عليه حتى تقبضه فيبقى شرار الناس في خفة الطير وأحلام السباع لا يعرفون معروفا ولا ينكرون منكرا فيتمثل لهم الشيطان ؟ فيقولون ما تأمرنا ؟ فيأمرهم بعبادة الاوثان ، فيعبدونها وهم فى ذلك دار رزقهم حسن عيشهم ثم ينفخ فى الصور » • فان قلت أليس قد ذكرت ان الدابة تقتل ابليس ؟ فالجواب انه ليس في الحديث ان الذى يظهر لهم ابليس بل يجوز أن يكون شيطانا آخر غير ابليس من ذريته • وأخرج الامام أحمد ومسلم أيضا والترمذى من حديث النواس بن سمعان « فبينما هم كذلك اذ بعث الله ريحا طيبة فتأخذهم تحت آباطهم فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم ويبقى شرار الناس يتهارجون تهارج الحمر - أي يتسافدون تسافد الحمر جمع حمار - فعليهم تقوم الساعة » •وفى حديث أبى هريرة مرفوعا عند الحاكم « ان الله يبعث ريحا من اليمن ألين من الحرير فلا تدع أحدا فى قلبه مثقال حبة من ايمان الا قبضته »•وقد جاءت رواية بأن الريح تأتى من قبل الشام وهنا انها من قبل اليمن ؟ والجواب انهما ريحان شامية ويمانية • وأخرج الامام أحمد بسند قوى عن أنس رضى الله عنه مرفوعا « لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الارض لا اله الا الله » ورواه مسلم بلفظ « حتى لا يقال في الارض الله الله » فان قيل كيف هذا مع ما صح عنه صلى الله عليه وسلم من قوله « لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق الى يوم القيامة حتى يأتى أمر الله » (فالجواب) هذا غير مصادم للحديث لأن معناه انهم لا يزالون على الحق حتى تأتيهم هذه الريح اللينة قرب القيامة وعند تظاهر اشراطها ، فاطلق فيه بقاءهم الى قيام الساعة مريدا اشراطها ودنوها المتناهى في القرب ، ومثله قول بعضهم أمر الله هو هبوب تلك الريح الآتى بعد وقوع الآيات العظام التى بعضها(١) قيام الساعة ولا يتخلف عنها الا شيئا يسيرا

الريح التي تقبض بقية المؤمنين وهل هما ريحان ؟

حديث لا تزال طائفة من أمتى والجمع بينه وبين الاحاديث الأخرى

---

(١) بهامش مط « لعل الصواب يعقبها » وبها مش مخ « لعله بعدها»

والناس فيهم يعني من يبقى بعد هبوب الريح مؤمن وعليهم تقوم الساعة • وعلى هذا فآخر الآيات المؤذنة بقيام الساعة هبوب تلك الريح كما في القناعة للحافظ السخاوى • وفي المستدرك بسند صحيح عن عائشة رضى الله عنها مرفوعا « لا يذهب الليل والنهار حتى تعبد اللات والعزى ويبعث الله ريحا طيبة فتتوفي من كان في قلبه مثقال حبة خردل من خير فيبقى من لا خير فيه فيرجعون على دين آبائهم » وفي مرفوع ابن عمرو رضى الله عنهما « لا تقوم الساعة حتى يبعث الله ريحا لا تدع أحدا في قلبه مثقال ذرة من خير الا قبضته ويلحق كل قوم بما كان يعبد آباؤهم في الجاهلية ويبقى عجاج من الناس لا يأمرون بمعروف ولا ينهون عن منكر يتناكحون في الطرق فاذا كان ذلك اشتد غضب الله على أهل الارض فأقام الساعة » وفي مستدرك الحاكم من مرفوع أبى هريرة « وحتى تؤخذ المرأة جهارا نهارا تنكح وسط الطريق لا ينكر ذلك أحد » وفى لفظ « حتى ينكح أحدكم أمه فيكون أمثلهم يومئذ الذى يقول لو نحيتها عن الطريق قليلا، فذلك فيهم مثل أبى بكر وعمر فيكم » قال القرطبى فى تذكرته عن بعض العلماء : اذا أراد الله انقراض الدنيا وتمام لياليها وقربت النفخة خرجت نار من قعر عدن تسوق الناس الى المحشر تبيت معهم وتقيل حتى يجتمع الخلق بالمحشر الانس والجن والدواب والوحش والسباع والطير والهوام وخشاش الارض وكل ذى روح • ثم ذكر النفخة

((فكلها صحت بها الاخبار   وسطرت آثارها الاخيار))

((فكلها)) أى اشراط الساعة المذكورة وعلاماتها المسطورة ((صحت بها الاخبار)) عن النبى المختار وأصحابه الابرار صلوات الله وسلامه عليه وعليهم ما تعاقب الليل والنهار ((و)) كلها قد ((سطرت)) أى كتبت وأصل السطر الصف من الشىء والكتاب والشجر وغيره والجمع أسطر وسطور وأسطار وجمع الجمع أساطير ويطلق السطر أيضا على الخط والكتابة ويحرك فى الكل كما فى القاموس ((آثارها)) مفعول سطرت أى الآثار الدالة عليها والمتضمنة لاثباتها ومجيئها فى أوقاتها وعلاماتها المشيرة الى اقترابها ((الاخيار)) فاعل سطرت وانما أنث الفعل لان الجمع مؤنث فى

المعنى اذ معناه الجماعة وهو جمع خير وخير ككيس والمؤنثة خيرة ، ويجمع خير أيضا على خيار من غير ألف قبل الخاء المعجمة ، وقيل ان المخففة مختصة بما فى الجمال والميسم والمشددة فى الدين والصلاح • والخير ضد الشر والاخيار ضد الاشرار • والمراود بهم هنا علماء الامة من التابعين وتابعهم وأئمة السلف ومقلديهم • وقد روى أبو نعيم فى الحلية والخطيب فى التاريخ من حديث أبى هريرة رضى الله عنه والقضاعى من حديث ابن عمر رضى الله عنهما أنه صلى الله عليه وسلم قال « خيار أمتى علماؤها وخيار علمائها رحماؤها ألا وان الله تعالى ليغفر للعالم أربعين ذنبا قبل أن يغفر للجاهل ذنبا واحدا ، ألا وأن العالم الرحيم يجىء يوم القيامة وان نوره قد أضاء يمشى فيه ما بين المشرق والمغرب كما يضىء الكوكب الدرى)واسناده ضعيف • وقد عزونا كل قول لقائله وكل حديث لناقله غالبا لنخرج من تبعته • وليعلم من أنعم النظر وأمعن الفكر فى ماحررته انه زبدة ما مخضه المتقدمون وثمرة ما غرسه المحررون وبالله التوفيق •

(تنبيهان)

تنبيهان الاول ماقيل أن الحشر أربعة

(الاول) ذكر القرطبى فى تذكرته ان الحشر أربع حشران فى الندنيا وحشران فى الآخرة فاللذان فى الدنيا المذكور فى سورة الحشر وهو حشر اليهود الى الشام قال لهم النبى صلى الله عليه وسلم اخرجوا قالوا الى أين قال الى أرض المحشر ثم أجلى آخرهم عمر بن الخطاب رضى الله عنه من جزيرة العرب • والحشر الثانى المذكور فى اشراط الساعة أنار تحشر الناس من المشرق الى المغرب كما فى حديث أنس وعبد الله بن سلام وفى حديث إبن عمرو رضى الله عنهم اي‌اكم مرفوعا « تبعث على أهل المشرق نار فتحشرهم الى المغرب تبيت معهم حيث باتوا وتقيل معهم حيث قالوا ويكون لها ما سقط منهم وتخلف وتسوقهم سوق الجمل » قال الحافظ ابن حجر وكونها تخرج من قعر عدن لا ينافى حشرها الناس من المشرق الى المغرب لان ابتداء خروجها من عدن فاذا خرجت انتشرت فى الارض كلها والمراد تعميم الحشر لا خصوص المشرق والمغرب ، أو أنها بعد الانتشار أول ما تحشر أهل المشرق • قال القرطبى : واما اللذان فى الآخرة فحشر الاموات

من قبورهم بعد البعث جميعا قال تعالى (وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا) وحشرهم الى الجنة والنار • وقال الحافظ ابن حجر عن الاول المذكور فى أول سورة الحشر ليس حشرا مستقلا لأنه انما وقع لفرقة مستقلة مخصوصة وهذا وقع كثيرا كما وقع لبنى أمية حين أخرجهم عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما من المدينة الى جهة الشام • والجواب عن ذلك بأن المراد ماسمى حشرا على لسان الشارع وقد سمى الله ذلك حشرا

(الثـــانى)

الثـــانى حشر النـــاس من المشـــرق الى المغـــرب ايوم القيامة أم قبله

اختلف العلماء فى حشر الناس من المشرق المغرب هل هو يوم القيامة أو قبله ؟ فقال القرطبى والخطابى وصوبه القاضى عياض ان هذا الحشر يكون قبل يوم القيامة ، وأما الحشر من القبور فهو على ما فى حديث ابن عباس رضى الله عنهما مرفوعا كما فى الصحيحين وغيرهما «انكم تحشرون حفاة عراة غرلا » وقال الحكيم الترمذى وأبو حامد الغزالى هو يوم القيامة ويدل له حديث أبى هريرة رضى الله عنه فى الصحيحين وغيرهما مرفوعا « يحشر الناس على ثلاث طرائق راغبين راهبين اثنان على بعير وثلاثة وعشرة على بعير وتحشر بقيتهم النار تقيل معهم حيث قالوا وتبيت معهم حيث باتوا وتصبح معهم حيث أصبحوا وتمسى معهم حيث أمسوا » قال أهل هذا القول ان هذا الحديث كالتفسير لقوله تعالى (وكنتم أزواجا ثلاثة) قال الحافظ ابن حجر ويؤيده حديث أبى ذر عند الامام احمد والنسائى والبيهقـــى حدثنى الصادق المصدوق ان الناس يحشرون يوم القيامة على ثلاثة أفواج فوج يحشرون طاعمين كاسين راكبين ، وفوج تسحبهم الملائكة ـ الحديث • وفى حديث ابن عباس رضى الله عنهما ما يباين حديث أبى ذر (والجمع) ان الحشر يعبر به عن النشر أيضا لاتصاله به ، وهو أى النشر اخراج الناس من قبورهم كما يأتى فيخرجون حفاة عراة يساقون ويجمعون الى الموقف للحساب ، ثم يحشر المتقون ركبانا على الابل والمجرمون على وجوههم • وقال بعضهم يخرجون من القبور على مافى حديث أبى هريرة وان الحشر اذا أطلق يراد به شرعا الحشر من القبور مالم يخصه دليل (وأيضا) التقسيم المذكور فى الخبر لا يستقيم فى الحشر الى أرض الشام لأن المهاجر

لا بد أن يكون راغبا أو راهبا أو جامعا بين الصفتين (وأيضا) حشر بقية الناس والجاء النار لهم الى تلك الجهة وملازمتها حتى لا تفارقهم قول لم يرد به التوقيف وليس لنا أن نحكم بتسليط النار على أهل الشقوة من غير توقيف (وأيضا) الحديث يفسر بعضه بعضا وقد وقع فى طريق لحديث أبى هريرة بلفظ ثلثا على الدواب وثلثا ينسلون على أقدامهم وثلثا علـــى وجوههم قال ونرى هذا التقسيم نظير التقسيم الذى فى سورة الواقعة (وكنتم أزواجا ثلاثة) فقوله فى الحديث راغبين راهبين يريد عموم المؤمنين المخلطين عملا صالحا وآخر سيئا وهم أصحاب الميمنة وقوله اثنان على بعير الخ يريد السابقين وهم أفاضل المؤمنين ركبانا وقوله وتحشر بقيتهم النار • يريد أصحاب المشأمة • ويحتمل أن البعير يحمل العشرة دفعة واحدة لان ذلك يكون من بديع قدرة الله فيقوى على ما يقوى عليه عشرة أبعرة من بعران الدنيا • ويحتمل أن يتعاقبوه • انتهى ملخصا • وانتصر القاضى عياض لقول الخطابى والقرطبى بأن حديث أبى هريرة تقيل معهم وتبيت وتصبح وتمسى يؤيدان الحشر فى الدنيا الى الشام لأن هذه الاوصاف مختصة بالدنيا ، وقوله اثنان على بعير الى عشرة - يريد أنهم يعتقبون البعير الواحد يركب بعض ويمشى بعض وذلك لقلة الظهر كما فى بعض الاحاديث انتهى ملخصا • ورجح هذا الطيبى وتعقب ذلك البعض وأجاب عما استدل به بما يطول (ثم قال الطيبى) بعد ما انتصر للخطابى والقرطبى وزيف كلام ذلك البعض بما حاصله : ثم رأيت فى صحيح البخارى فى باب الحشر: يحشر الناس يوم القيامة على ثلاث طرائق • فعلمت من ذلك أن الذى ذهب اليه التور بشتى من أن ذلك فى الآخرة هو الحق الذى لا محيد عنه • انتهى • قال الحافظ ابن حجر فى فتح البارى بعد نقله ما تقدم عن الطيبى قلت لم أقف فى شىء من طرق الحديث الذى خرجه البخارى على لفظ يوم القيامة فى صحيحه ولا فى غيره وكذا هو عند مسلم والاسماعيلى وغيرهما ليس فيه يوم القيامة • ثم اختار هو انه يتعين كون ذلك فى الدنيا لما وقع فيه ان الظهر يقل لما يلقى عليه من الآفة وان الرجل يشترى الشارف الواحـــد بالحديقة المعجبة فان ذلك ظاهر جدا فى أنه من أحوال الدنيا • قال فى

الاشاعة فثبت أن الحق أن النار قبل يوم القيامة • قلت وهو كما قال • وبالله التوفيق •

فصل فى أمر المعاد

((فصل فى أمر المعاد))

اعلم أن المعاد الجسمانى حق واقع وصدق صادق دل عليه النقل الصحيح ولم يمنعه العقل فوجب الايمان به والتصديق بموجبه لأنه جاء فى السماع الصحيح المنقول ودل عليه عند الجمهور صريح المعقول ، وهو أن يبعث الله تعالى الموتى من القبور بأن يجمع أجزاءهم الاصلية ويعيد الارواح اليها لقوله تعالى (قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم) الى غير ذلك من النصوص القرآنية القطعية والاحاديث الساطعة النبوية ، وقد أنكره الطبائعيون والدهرية والملحدة وفيه تكذيب للنقل الصريح والعقل الصحيح على ما قرره المحققون من أهل الملة • وأنكرت الفلاسفة المعـاد الجسمانى بناء على امتناع اعادة المعدوم بعينه ، ووافق المعتزلة أهل الحق على المعاد الجسمانى بناء منهم على أن المعدوم عندهم شىء فلو لم يقولوا به لأحالوه لأن المعدوم قبل الوجود عندهم قابل للوجود فكذلك اذا انعدم بعد الوجود ، وعند أهل السنة المعدوم نفى محض وهم مع ذلك قائلون بجواز اعادته • وللمتكلمين فى جواز اعادة الاعراض قولان جواز اعادتها وهو الحق لانه تعالى على كل شىء قدير والثانى قول الفلاسفة ومن وافقهم من المعتزلة كأبى الحسين البصرى والخوارزمى والكرامية قال :

((واجزم بأمر البعث والنشور والحشر جزما بعد نفخ الصور))

((واجزم)) جزم ايقان واذعان واعتقاد وعرفان ((بأمر البعث)) بعـد الموت ((والنشور)) من القبور ((والحشر)) لأجل الجزاء وفصل القضاء ((جزما)) مصدر مؤكد لقوله واجزم وذلك كله واقع ((بعد نفخ الصور)) المراد نفخة البعث وحاصل ما ذكر في هذا البيت أربعة أشياء ، البعث والنشور والحشر والنفخ في الصور ، أما البعث فالمراد به المعاد الجسمانى فانه المتبادر عند الاطلاق اذ هو الذى يجب اعتقاده ويكفر منكره ، قال الامام المحقق ابن القيم في كتابه الروح كشيخه وغيرهما : معاد الابدان متفق عليـه بين

المسلمين واليهود والنصارى • وقال الجلال الدوانى هو باجماع أهـــل الملل وبشهادة نصوص القرآن بحيث لا يقبل التأويل كقوله تعالى (أو لم ير الانسان انا خلقناه من نطفة فاذا هو خصيم مبين * وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيي العظام وهى رميم* قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم) وقد أخـــرج ابن جرير وابن المنـــذر وأبو حاتم والاسماعيلى في معجمه والحافظ الضياء في المختارة وابن مردويه والبيهقى في البعث عن ابن عباس رضى الله عنهما قال جاء العاص بن وائل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعظم حائل ففته بيده فقال يا محمد يحيى الله هذا بعد ما أرم ؟ قال « نعم يبعث الله هذا ثم يميتك ثم يحييك ثم يدخلك نار جهنم» فنزلت الآيات من آخر يس (أو لم ير الانسان) الى آخر السورة • وهذا نص صريح في الحشر الجسمانى يقلع عرق التأويل بالكلية • ولهذا قال الامام الرازى : الانصاف انه لا يمكن الجمع بين الايمان بما جاء به النبى صلى الله عليه وسلم وبين نفى الحشر الجسمانى ، فانه قد ورد في عـدة مواضع من القرآن المجيد التصريح به بحيث لا يقبل التأويل أصـــلا • انتهى • وكذلك لا يمكن الجمع بين القول بقدم العالم على ما يقول الفلاسفة وبين الحشر الجسمانى لأن النفوس الناطقة على هذا التقدير غير متناهيـــة فتستدعى جميعا أبدانا غير متناهية وأمكنة غير متناهية ، وقد ثبت تنـــاهى الابعاد بالبرهان وباعترافهم والله تعالى أعلم • و « ثم » في الحديث في قوله صلى الله عليه وسلم « نعم يبعث الله هذا ثم يميتك » للترتيب الاخبـارى لا للترتيب الحكمى كقولهم بلغنى ما صنعت اليوم ثم ما صنعت أمس أعجب أي أخبرك ان ما صنعته أمس أعجب •

وأما النشور فهو يرادف البعث في المعنى يقال نشر الميت ينشر نشور اذا عاش بعد الموت ، وأنشره الله أي أحياه ، ومنه قولهم يوم البعث والنشور • وأما الحشر فهو في اللغة الجمع تقول حشرت الناس اذا جمعتهم ، والمراد به جمع أجزاء الانسان بعد التفرقة ثم احياء الأبدان بعد موتها •

واعلم انه يجب الجزم شرعا ان الله تعالى يبعث جميع العباد ويعيدهم بعد ايجادهم بجميع أجزائهم الاصلية وهى التى من شأنها البقاء من أول العمر الى آخره ويسوقهم الى محشرهم لفصل القضاء ، فان هذا حق ثابت بالكتاب

والسنة واجماع سلف الامة مع كونه من الممكنات التى أخبر بها الشارع • وكل ما هو كذلك فهو ثابت والاخبار عنه مطابق • والاصل فيما لا دليل على وجوبه ولا على امتناعه الا مكان كما يقوله الحكماء والمتكلمون من أن كل ما قرع سمعك من الغرائب قدره في حيز الامكان مالم يردك عنه قائم البرهان • فمن زعم عدم اعادة المعدوم ألزم بالمبدأ فان المعاد مثل المبدأ بل هو عينه أو أيسر كما لا يخفى • وتقدم ان الانبياء تأتى بما تدركه العقول أو تتحير فيه ولا تأتى بما تحيله العقول أبدا فتأتى بمحارات العقول لا بمحالات العقول ، وامكان المعاد لأنه اما ايجاد ما انعدم أو جمع ما تفرق أو حيى بعد ما أميت ، وهذه كلها ممكنة لا احالة في شيء من ذلك أصلا مع ما واتر من أخبار الانبياء والكتب السماوية ولا سيما في القرآن العظيم والذكر الحكيم ما لا مزيد عليه مثل (واقسموا بالله جهد ايمانهم لا يبعث الله من يموت ـ قل بلى وربى لتبعثن ـ ثم انكم يوم القيامة تبعثون ـ فاذا هم من الاجداث الى ربهم ينسلون*فسيقولون من يعيدنا قل الذى فطركم أول مرة ـ أيحسب الانسان ان لن نجمع عظامه بلى قادرين على أن نسوى بنانه* يوم تشقق الارض عنهم سراعا ذلك حشر علينا يسير* ـ كما بدأكم تعودون ـ كما بدانا أول حلق نعيده وعدا علينا ـ أوليس الذى خلق السموات والارض بقادر على أن يخلق مثلهم ـ ويحيى الارض بعد موتها وكذلك تخرجون) والآيات في ذلك كثيرة جدا • وأما الاحاديث فكثيرة جدا ففى البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن عباس رضى الله عنهما قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب على المنبر يقول « انكم ملاقو الله حفاة عراة غرلا » زاد في رواية ـ مشاة ـ وفي رواية فيهما قال قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بموعظة فقال « يا أيها الناس انكم تحشرون الى الله حفاة عراة غرلا (كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا انا كنا فاعلين)) الحديث • الغرل بضم الغين المعجمة واسكان الراء جمـــع اغرل وهو الاقلف • ومثله في الصحيحين من حديث عائشة رضى الله عنها ، قالت فقلت : الرجال والنساء جميعا ينظر بعضهم الى بعض ؟ قال : الامر «أشد من أن يهمهم ذلك» وروى نحوه من حديث أم سلمة أخرجه الطبرانى في الاوسط بسند صحيح وفيه فقالت أم سلمة رضى الله عنها : فقلت يا رسول الله واسوأتاه ، ينظر بعضنا

الى بعض ؟ فقال : شغل الناس ، قلت ما شغلهم ؟ قال « نشر الصحائف فيها مثاقيل الذر ومثاقيل الخردل » وروى من حديث أم المؤمنين سودة بنت زمعة رضى الله عنها أيضا ولفظه « يبعث الناس حفاة عراة غرلا قد ألجمهم العرق وبلغ شحوم الآذان » قالت فقلت : يبصر بعضنا بعضا ؟ فقال : شغل الناس (لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه) رواه الطبرانى ورواته ثقات •

تنبيهان الاول البعث اعادة بعد تفرق أم بعد عدم ؟

(تنبيهـــان)

(الاول) اختلف الناس هل البعث اعادة بعد تفريق أو ايجاد معدوم ، قال عكرمة رحمه الله ان الذين يغرقون في البحر وتقسم لحومهم الحيتان ولا يبقى منهم شىء الا العظام فتلقيها الامواج الى الساحل فتمكث حينا ثم تصير نخرة ثم تمر بها الابل فتأكلها ثم تسير الابل فتبعر ثم يجىء قوم فينزلون فيأخذون ذلك البعر فيوقدونه ثم تخمد تلك النار فتجىء الريح فتلقى ذلك الرماد على الارض فاذا جاءت النفخة فاذا هم قيام ينظرون يخرج أولئـــك وأهل القبور سواء • قال العلامة الشيخ مرعى رحمه الله تعالى قال العلماء ان الله تعالى يجمع ما تفرق من أجساد الناس من بطون السباع وحيوانات الماء وبطن الارض وما أصاب النيران منها بالحرق والمياه بالغرق وما أبلته الشمس وذرته الرياح فاذا جمعها وأكمل كل بدن منها ولم يبق الاالارواح نفخ اسرافيل عليه السلام في الصور فأرسلها بنفخة من ثقب الصور فترجع كل روح الى جسدها فاذا هم قيام ينظرون • والحاصل ان اعادة الاجسام حق يجب الايمان به ، ثم هذه الاعادة هل هى للعدم المحض أوالتفريق المحض والمشهور انه جمع متفرق والاصح انه ايجاد بعد عدم ونص عليه علمـــاء السنة وكذا المعتزلة وهو مذهب المحققين وبالله التوفيق •

الثاني هل تعاد الاعراض ؟

(الثـــانى)

اختلف في اعادة الاعراض التى كانت قائمة بالاجسام في الدنيا فمذهب الاكثرين انها تعاد بأشخاصها التى كانت قائمة بالجسم حال الحياة واليـــه ميل أبى الحسن الاشعرى من غير فرق فيها بين الاعراض التى يطول بقاء نوعها كالبياض وبين غيرها كالاصوات وسواء كان مقدورا للعبد كالضرب أولا كالعلم والجهل لأن نسبتها الى قدرته تعالى كنسبة الاعيـــان وقد قام

الدليل على اعادتها فكذااعراضها•وماقيل يلزم عليه قيام العرض يعنى الاعادة بالعرض المعاد وهو محال فباطل لامكان تعلق الاعادة بالاعيان أولا وبالذات وبالاعراض ثانيا وبالعرض ، هذا كله ان لو قلنا باستحالة قيام العرض بالعرض فكيف ونحن بمعزل عن ذلك وقد شاهدنا قيام العرض بالعرض بالمحسوس وغيره كليل حالك وحركة بطيئة واحمر قان وغير ذلك • وقيل بمنع اعادة الاعراض مطلقا كما ذهب اليه بعض الاشاعرة • وذهب أكثر المعتزلة الى امتناع اعادة الاعراض التى لا تبقى كالاصوات والارادات لاختصاصها عندهم بالاوقات وقسموا الباقية الى ما يكون مقدورا للعبد فمنعوا اعادتها والى ما لا يكون مقدورا للعبد فجوزوا اعادتها • وقد قال ابن العربى في سراج المريدين والقرطبى في تذكرته : الذى عند أهل السنة ان تلك الاجساد الدنياوية تعاد بأعيانها وبأعراضها بلا خلاف بينهم — مع ان الخلاف منقول عند متكلمى الاشعرية كالسعد والبيضاوى وغيرهما • قلت وقد نقل الاجماع غير واحد من العلماء من آخرهم الشيخ مرعى وغيره عن أهل السنة ان الاجساد الدنيوية تعاد بأعيانها وأعراضها والله أعلم •

النفخ فى الصور ثلاث الاولى نفخة الفزع

وأما النفخ في الصور فالمراد به نفخة البعث والنشور ، واعلم ان النفخ في الصور ثلاث نفخات نفخة الفزع وهى التى يتغير بها هذا العالم ويفسد نظامه وهى المشار اليها فى قوله تعالى (وما ينظر هؤلاء الا صيحة واحدة مالها من فواق) أي من رجوع ومرد وقوله تعالى (ونفخ في الصور ففزع من في السموات ومن في الارض الا من شاء الله) فسر الزمخشرى في كشافه المستثنى في هذه الآية بمن ثبت الله قلبه من الملائكة وهم جبريل وميكائيل واسرافيل وملك الموت وقيل غير ذلك • وانما يحصل الفزع لشدة ما يقع من هول تلك النفخة فقد أخرج ابن جرير في تفسيره والطبرانى في المطولات وأبو يعلى في مسنده والبيهقى في البعث وأبو موسى المدينى في المطولات وعلي بن معبد في كتاب الطاعة والعصيان وعبد بن حميد وأبو الشيخ في كتاب العظمة عن أبى هريرة رضى الله عنه قال حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله لما فرغ من خلق السموات والارض خلق الصور فأعطاه اسرافيل فهو واضعه على فيه شاخصا ببصره الى العرش ينتظر متى يؤمر » • قلت يا رسول الله وما الصور ؟ قال : القرن ، قلت أي شيء

هو ؟ قال : عظيم ان عظم دارة فيه كعرض السماء والارض فينفخ فيه ثلاث نفخات الاولى نفخة الفزع ، والثانية نفخة الصعق ، والثالثة نفخة القيام لرب العالمين ، فيأمر الله اسرافيل بالنفخة الاولى فيقول انفخ نفخة الفزع ، فينفخ فيفزع أهل السماء والارض الا من شاء الله ، فيأمره فيمدها ويطيلها ولا يفتر وهى التى يقول الله تعالى (وما ينظر هؤلاء الا صيحة واحدة مالها من فواق) فيسير الله الجبال فتمر مر السحاب فتكون سرابا وترتج الارض بأهلها رجا فتكون كالسفينة الموقرة فى البحر تضربها الامواج وكالقنديل المعلق بالعرش ترجحه الارواح وهى التى يقول الله (يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة) فتميل الارض بالناس على ظهرها فتذهل المراضع وتضع الحوامل وتشيب الولدان وتطير الشياطين هاربة من الفزع حتى تأتى الاقطار فتتلقاها الملائكة فتضرب وجوهها فترجع ويولى الناس مدبرين ينادى بعضهم بعضا وهو الذي يقول الله تعالى (يوم التناد يوم تولون مدبرين مالكم من الله من عاصم) فبينما هم على ذلك اذ تصدعت الارض فانصدعت من قطر الى قطر فراوا امرا عظيما ثم نظروا الى السماء فاذا هى كالمهل ثم انشقت فانتثرت نجومها وانخسفت شمسها وقمرها ــ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ والأموات يومئذ لا يعلمون بشىء من ذلك • قلت يا رسول الله من استثنى الله تعالى في قوله (الا من شاء الله) ؟ قال : أولئك الشهداء ، وانما يتصل الفزع الى الاحياء وهم أحياء عند ربهم يرزقون وقاهم الله فزع ذلك اليوم وآمنهم منه وهو عذاب يبعثه الله على شرار خلقه يقول الله (يا أيها الناس اتّقوا ربكم ان زلزلة الساعة شىء عظيم* يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما ارضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد) فيمكثون فى ذلك ماشاء الله »الحديث •وفى البغوى عن أبى بن كعب رضى الله عنه قال : ست آيات قبل يوم القيامه بينما الناس في أسواقهم اذ دهب ضوء الشمس ، فبينما هم كذلك اذ تناثرت النجوم ، فبينما هم كذلك اذ وقعت الجبال على وجه الارض فتحركت واضطربت وفزعت الجن الى الانس والانس الى الجن واختلطت الدواب والطير والوحش وماج بعضهم في بعض فذلك قوله (واذا الوحوش حشرت) اختلطت (واذا العشار

عطلت) أهملت (واذا البحار سجرت) قال ابن عباس رضى الله عنهما أوقدت فصارت نارا تضرم • قال أبى قالت الجن للانس نحن نأتيكم بالخبر فانطلقوا الى البحر فاذا هو نار تأجج ، فبينما هم كذلك اذ تصدعت الارض صدعة واحدة الى الارض السابقة السفلى وانشقت السماء انشقاقة واحدة الى السماء السابعة العليا ، فبينما هم كذلك اذ جاءتهم الريح فأماتتهم • انتهى •

الثانية نفخة الصعق وهلاك الخلق

(النفخة الثانية) نفخة الصعق وفيها هلاك كل شيء قال تعالى (ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الارض الا من شاء الله) وقد فسر الصعق بالموت وفي الحديث المتقدم الذى رواه ابن جرير وما عطف عليه من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ثم يأمر الله اسرافيل فينفخ نفخة الصعق فيصعق أهل السموات والارض الا الا من شاء الله فيقول الله وهو أعلم فمن بقى ، فيقول أي رب بقيت أنت الحي القيوم الذى لا يموت وبقيت حملة العرش وبقى جبريل وميكائيل وبقيت أنا ، فيقول الله تعالى فليمت جبريل وميكائيل ، فيموتان ثم يأتى ملك الموت الى الجبار فيقول قد مات جبريل وميكائيل ، فيقول الله تعالى فليمت حملة العرش ، فيموتون ، ويأمر الله العرش ان يقبض الصور من اسرافيل ، فيموت ثم يأتى ملك الموت الى الجبار فيقول رب قد مات حملة العرش ، فيقول وهو أعلم فمن بقى ؟ فيقول بقيت أنت الحي القيوم الذى لا يموت وبقيت أنا ، فيقول : أنت خلق من خلقى خلقتك لما رأيت فمت ، فيموت فاذا لم يبق الا الله الواحد القهار طوى السماء والارض كطى السجل للكتب وقال « أنا الجبار لمن الملك اليوم » ثلاث مرات فلم يجبه أحد ثم يقول لنفسه « لله الواحد القهار » وتبدل الارض غير الارض والسموات فيبسطها ويسطحها ويمدها مد الاديم لا ترى فيها عوجا ولا أمتا» الحديث • وأخرج أبو الشيخ عن وهب قال : هؤلاء الاربعة أملاك جبرائيل وميكائيل واسرافيل وملك الموت أول من خلقهم الله من الخلق وآخر من يميتهم وأول من يحييهم هم المدبرات أمرا والمقسمات أمرا •

قال أبو عبد الله القرطبى : والصور قرن من نور يجعل فيه أرواح الخلائق • وقال مجاهد كالبوق • ذكره البخارى • وأخرج الترمذى عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما : جاء اعرابى الى النبى صلى

الله عليه وسلم فقال ما الصور ؟ قال « قرن ينفـــخ فيه » ، قال الترمذى حديث حسن • وأخرج الترمذى أيضا وحسنه عن أبى سعيد الخـــدرى رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليـــه وسلم قال « كيف أنعم وصاحب الصور قد التقم القرن واستمع الاذن متى يؤمر بالنفخ » فكأن ذلك ثقـل على رسول أصحاب الله صلى الله عليه وسلم فقال لهم « قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل » • وأخرج الامام عبد الله بن المبارك ومؤمل بن اسمعيل وعلي بن معبد عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه حديثا مرفوعا فيه «ثم يقوم ملك الصور بين السماء والارض فينفخ فيه والصور قرن فـــلا يبقى خلق في السموات والارض الا مات الا من شاء ربك» • الحديث• وأخرج الشيخان وغيرهما عن أبى هريرة رضى الله عنه مرفوعا « يقبض الله الارض يوم القيامة ويطوى السماء بيمينه ثم يقول أنا الملك ابن الملوك • وأخرج مسلم من حديث ابن عمر رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يطوى الله السموات يوم القيامه ثم يأخذهن بيده اليمنى ثم يقول أنا الملك ابن الجبارون ابن المتكبرون ؟ ثم يطوى الله الارض بشماله ثم يقول انا الملك اين الجبارون اين المتكبرون ؟ » وسياتى ان من لم يخلق للفناء لم يفن كالجنة وما فيها من الحور العين والولدان وكذا النار وما فيها من الحيات والعقارب والخزان والله أعلم •

الثالثة نفخة البعث

(النفخة الثالثة) نفخة البعث والنشور وقد جاء في الكتاب العزيز آيات تدل عليها وأخبار تشير اليها كقوله تعالى (ونفخ في الصور فاذا هم مـن الاجداث الى ربهم ينسلون) وقوله (ثم نفخ فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون ـ فاذا نقر في الناقور فذلك يومئذ يوم عسير على الكافرين غير يسير) قال الكلبى وغيره هى نفخة البعث والناقور فاعول من النقر وقوله تعالى (واستمع يوم يناد المناد من مكان قريب*يوم يسمعون الصيحـــــة بالحق) الآية قال المفسرون المنادى هو اسرافيل عليه السلام ينفخ في الصور وينادى أيتهـــا العظام البالية والاوصال المتقطعة واللحوم المتمزقة والشعور المتفرقة انالله يأمركن ان تجتمعن لفصل القضاء • وقيل ينفخ اسرافيل وينادى جبريل ، والمكان القريب صخرة بيت المقدس • قاله جماعـــة من المفسرين • وبين النفختين أربعون عاما ـ قال بعض العلماء اتفقت الروايات على ذلك • وفي

مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه مرفوعا : ما بين النفختين أربعون • قالوا يا أبا هريرة أربعون يوما ؟ قال : أبيت ، قالوا : أربعون شهرا ؟ قال: أبيت ، قالوا : أربعون عاما ؟ قال : أبيت - الحديث ، وقول أبى هريرة رضى الله عنه « أبيت » فيه ثلاث تأويلات أولها امتنعت من بيان ذلك لكم ، وقيل أبيت أسأل النبى صلى الله عليه وسلم عن ذلك ، وقيل نسيت ، وقيل ان سر ذلك لا يعلمه الا الله لانه من أسرار الربوبية • وفى حديث ان بين النفختين أربعين عاما • وفى تفسير الثعلبى عن أبى هريرة رضى الله عنه في تفسير سورة الزمر مرفوعا « ان الله يرسل مطرا على الارض فينزل عليها أربعين يوما حتى يكون فوقهم اثنى عشر ذراعا فيأمر الله تعالى الاجساد ان تنبت كنبات البقل حتى اذا تكاملت أجسادهم كما كانت قال الله تعالى ليحي حملة العرش ليحي جبريل وميكائيل واسرافيل وعزرائيل ثم يأمر الله تعالى اسرافيل فيأخذ الصور فيضعه علي فيه ثم يدعو الارواح فيؤتى بها تتوهج أرواح المؤمنين نورا والاخرى ظلمة فيقبضها جميعا ثم يلقيها في في الصور ثم يأمره ان ينفخ نفخة البعث فتخرج الارواح كلها كأنها النحل قد ملأت ما بين السماء والارض ثم يقول الله تعالى : وعزتى وجلالى لترجعن كل روح الى جسدها ، فتدخل الارواح من الخياشيم ثم تمشى مشى السم فى اللديغ ، ثم تشقق الارض عنهم سراعا فانا أول من تنشق عنه الارض فتخرجون منها الى ربكم تنسلون » وأخرج الشيخان من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما بين النفختين أربعون » قيل أربعون يوما ؟ قال أبو هريرة أبيت ، قال أربعون شهرا ؟ قال أبيت ، قال أربعون سنة ؟ قال أبيت ، «ينزل من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل وليس من الانسان شيء الا يبلى الاعظم واحد وهو عجب الذنب منه يركب الخلق يوم القيامة »• وفى رواية لمسلم « ان فى الانسان عظما لا تأكله الارض أبدا فيه يركب الخلق يوم القيامة • قالوا أي عظم هو يا رسول الله ؟ قال عجب الذنب » •ورواه الامام مالك وأبو داود والنسائى باختصار قال « كل ابن آدم تأكله الارض الا عجب الذنب ، منه خلق وفيه يركب » • قال الحافظ المنذرى كغيره : عجب الذنب بفتح العين المهملة

واسكان الجيم بعدهما باء موحدة أو ميم وهو العظم الحديد الذى يكون في أسفل الصلب وأصل الذنب من ذوات الاربع • وقد روى الامام أحمد وابن حبان في صحيحه من حديث أبى سعيد رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يأكل التراب كل شيء من الانسان الا عجب ذنبه » قيل وما هو يا رسول الله ؟ قال « مثل حبة خردل منه تنبتون » وفي الثعلبى في تفسير سورة الاعراف وتفسير ابن عطية عن أبى هريرة رضى الله عنهم : اذا مات الناس كلهم في النفخة الاولى يعنى نفخة الصعق أمطر عليهم أربعين عاما كمنى الرجال من ماء تحت العرش يدعى ماء الحيوان فينبتون من قبورهم بذلك المطر كما ينبت الزرع من الماء حتى اذا استكملت أجسادهم نفخ فيهم الروح ثم يلقى عليهم نومة فينامون في قبورهم فاذا نفخ في الصور النفخة الثانية قاموا وهم يجدون طعم النوم في أعينهم كما يجده النائم اذا استيقظ من نومه فعند ذلك يقولون يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا • وأخرج مسلم في صحيحه من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « انا سيد ولد آدم وأول من ينشق عنه القبر وأول شافع وأول مشفع » • وفي صحيح البخاري « أنا أول من يرفع رأسه بعد النفخة الآخرة فاذا بموسى عليه السلام متعلق بالعرش فلا أدرى أكذلك كان أم بعد النفخة » ــ وفي بعض ألفاظ البخارى ــ فاذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش فلا أدرى أفاق قبلى أم جوزى بصعقة الطور » وأخرج الحكيم والترمذى عن ابن عمر رضى الله عنهما قال خرج النبى صلى الله عليه وسلم ويمينه على أبى بكر وشماله على عمر فقال : هكذا نبعث يوم القيامة • وفي الصحيحين من حديث أنس رضى الله عنه ان رجلا قال يا رسول الله قال الله تعالى (الذين يحشرون على وجوههم الى جهنم) أيحشر الكافر على وجهه ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أليس الذى أمشاه على الرجلين في الدنيا قادرا على أن يمشيه على وجهه • وقال قتادة حين بلغه : بلى وعزة ربنا • وروى النسائى والترمذى وحسنه عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الرجال يغشاهم الذل من كل مكان يساقون الى سجن في جهنم يقال له بولس تعلوهم نار الانيار يسقون

من عصارة أهل النار طينة الخبال » • وروى البزار من حديث جابر رضى الله عنه مرفوعا « يبعث الله يوم القيامة ناسا في صور الذر يطؤهم النـاس بأقدامهم فيقال ما هؤلاء في صور الذر ؟ فيقال : هؤلاء المتكبرون في الدنيا ـ وروى الامام أحمد في الزهد عن أبى هريرة رضى الله عنه مرفوعا « يجاء بالجبارين والمتكبرين يوم القيامة رجال في صورة الذر تطؤهم الناس من هوانهم على الله حتى يقضى بين الناس قال ثم يذهب بهم الى نار الانيار » قيل يا رسول الله وما نار الانيار ؟ « قال عصارة أهل النار » وروى عن أبى سعيد رضى الله عنه انه لما حضره الموت دعا بثياب جـــدد فلبسها ثم قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « الميت يبعث في ثيـــابه التى يموت فيها » رواه أبو داود وابن حبان فى صحيحه وفى اسناده يحيى بن أيوب وهو الغافقى المصرى احتج به البخارى ومسلم وغيرهما وله مناكير ، قال أبو حاتم لا يحتج به وقال الامام أحمد سيىء الحفظ ، وقال النسائى : ليس بالقوى ، وقد قال كل من وقفت على كلامه من أهل اللغة ان المراد في ثيابه التى قبض فيها أى في أعماله قال الهروى ، وهذا كحديثه الآخـــر : يبعث العبد على ما مات عليه • قال وليس قول من ذهب الى الاكفـان بشىء لأن الميت انما يكفن بعد الموت • انتهى • قال الحافظ المنـــذرى وفعل أبى سعيد راوى الحديث يدل على اجرائه على ظاهره وان الميت يبعث في ثيابه التى قبض فيها ، وفي الصحاح وغيرها ان الناس يبعثون عراة فالله أعــلم وحمل كثير من العلماء الحديث على الشهداء الذين أمر ان يدفنوا في ثيابهم التى قتلوا فيها وان أبا سعيد سمع الحديث في الشهداء فحمله على العموم • قال البيهقى : يجمع بأن بعضهم يحشر عاريا وبعضهم بثيابه أو يخرجون من قبورهم بثيابهم التى ماتوا فيها ثم تتناثر عنهم عند ابتداء الحشر • وقد روى محمد بن نصر المروزى باسناده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : يحشر الناس يوم القيامة على قدر صنيعهم في الصلاة • وفسره بعضهم بقبض شماله بيمينه والانحناء هكذا • وباسناده عن أبى صالح السمان قال : يبعث الناس يوم القيامة هكذا ـ ووضع احدى يديه على الاخرى • نقله الحافظ ابن رجب في كتابه الذكر والانكسار والله أعلم :

يحشر النـــاس عرايا ودفـع ما يخالف ذلك

الوقـــــوف للحساب

((كذا وقوف الخلق للحساب والصحف والميزان للثواب))

((كذا)) أي كما يجب الجزم بالبعث والنشور والحشر بعد النفخ فى الصور يجب أن نجزم جزما باتا بأمر ((وقوف الخلق)) من الانس والجن والدواب والطير وغيرهم ، قال تعالى (وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا) وقال (ليجمعنكم الى يوم القيامة لا ريب فيه) وقال (يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا) أي زمرا زمرا • قال أبو هريرة رضى الله عنه ان الله تعالى يحشر الخلق كلهم من دابة وطائر وانسان • وقال ابن عباس رضى الله عنهما في قوله تعالى (واذا الوحوش حشرت) يحشر كل شيء حتى الذباب ليحشر • والحاصل ان الله تعالى يجمع في ذلك اليوم الأولين والآخرين حتى لا يدرى الشخص أين يضع قدمه لشدة الزحام • وفي تفسير مكى يحشر الخلق كلهم من دابة وطائر وانسان • وقال ابن عباس رضى الله فهم في ضيق مقامهم فيها كضيق سهام اجتمعت في كنانتها فالسعيد يومئذ من يجد لقدمه مقاما • قال وأكثر الاقدام يومئذ بعضها على بعض • وقد ذكر أبو نعيم الحافظ باسناده عن وهب بن منبه قال : اذا قامت الساعة صرخت الحجارة صراخ النساء وقطرت العضاه(١) دما •

اهوال الموقف

واعلم ان ليوم الوقوف اهوالا عظيمة وشدائد جسيمة تذيب الاكباد وتذهل المراضع وتشيب الاولاد وهو حق ثابت ورد بهالكتابوالسنة وانعقد عليه الاجماع وهو يوم القيامة • وقد اختلف في تسمية ذلك اليوم بيوم القيامة ، قيل لكون الناس يقومون من قبورهم قال تعالى (يوم يخرجون من الاجداث سراعا) • وقيل لوجود أمور المحشر والوقوف ونحوهما فيه • وقيل لقيام الناس لرب العالمين كما روى مسلم في صحيحه عن ابن عمر رضى الله عنهما مرفوعا (يوم يقوم الناس لرب العالمين) قال يقوم الناس أحدهم في رشحه الى نصف أذنيه • قال ابن عمر رضى الله عنهما يقومون مائة سنة • ويروى عن كعب يقومون ثلاثمائة سنة • وروى أبو يعلى باسناد صحيح وابن حبان في صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « (يوم يقوم الناس لرب العالمين) مقدار نصف يوم من خمسين ألف فيهون ذلك على المؤمن كتدلى الشمس للغروب

---

(١) هى الشجر •

الى أن نغرب » • وروى الامام أحمد وأبو يعلى وابن حبان في صحيحه عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال (يوما كان مقداره خمسين ألف سنة) فقيل ما أطول هذا اليوم ؟ فقال النبى صلى الله عليه وسلم « والذى نفسى بيده انه ليخفف على المؤمن حتى يكون عليه أخف من صلاة مكتوبة » • وروى ابن أبى الدنيا والطبرانى من طرق أحدها صحيح والحاكم وقال صحيح الاسناد عن عبدالله ابن مسعود رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « يجمع الله الاولين والآخرين لميقات يوم معلوم قياما أربعين سنة شاخصة أبصارهم ينتظرون فصل القضاء » الحديث • وعن أبى هريرة يقومون سبعين سنة • وقيل مقداره ألف سنة رواه الطبرانى من حديث ابن عمر رضى الله عنهما مرفوعا ، ولفظه « اما مقام الناس بين يدى رب العالمين فألف سنة لا يؤذن لهم » • وأخرج البيهقى عنه : يمكثون ألف عام في الظلمة يوم القيامة لا يتكلمون •

وقيل انما سمى يوم القيامة لقيام الملائكة والروح فيه صفا قال تعالى (يوم يقوم الروح والملائكة صفا) قال القرطبى : القيامة قيامتان ، صغرى وكبرى، فالصغرى ما تقوم على كل انسان في خاصته من خروج روحه وانقطاع سعيه وحصوله على عمله ، والكبرى هى التى تعم الناس وتأخذهم أخذة واحدة، والدليل على ان كل من مات قامت قيامته قول النبى صلى الله عليه وسلم لقوم من الاعراب سألوه عن الساعة فنظر الى أحدث انسان منهم فقال « ان يعش هذا حتى يدركه الهرم قامت عليكم ساعتكم » رواه مسلم وغيره وقال الشاعر :

خرجت من الدنيا وقامت قيامتى ... غداة أقل الحاملون جنازتى
وعجل أهلى حفر قبرى وصيروا ... خروجى وتعجيلى اليه كرامتى

(لطيفة) سئل ابن عباس رضى الله عنهما عن يوم القيامة أهو من الدنيا أم من الآخرة ؟ قال صدر ذلك اليوم من الدنيا وآخره من الآخرة •

وقد أخرج الامام أحمد عن محمد بن أبى عميرة وكان من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم والطبرانى عن عتبة بن عبد الله رضى الله عنه مرفوعا « لو أن رجلا يخر على وجهه من يوم ولد الى يوم يموت هرما في

مرضاة الله تعالى لحقره يوم القيامة » وأخرج ابن المبارك عن كعب قال
لو أن رجلا كان له مثل عمل سبعين نبيا لخشى أن لا ينجو من ذلك اليوم.
وأخرج الشيخان عن أبى هريرة رضى الله عنه مرفوعا « يعرق الناس يوم
القيامة حتى يذهب عرقهم في الارض سبعين ذراعا ويلجمهم حتى يبلغ
آذانهم » وفي بعض ألفاظ الصحيح « سبعين باعا » وأخرج مسلم عن المقداد
رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « اذا كان
يوم القيامة ادنيت الشمس من العباد حتى تكون قدر ميل أو ميلين - قال -
فتصهرهم الشمس فيكونون في العرق كقدر أعمالهم منهم من يأخذه الى
عقبيه ومنهم من يأخذه الى حقويه ومنهم من يلجمه الجاما » وفي رواية له
« تدنى الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون كمقدار ميل » قال سليم بن
عامر ما أدرى ما يعنى بالميل مسافة الارض أو الميل الذى تكحل به العين
قال « فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق فمنهم من يكون الى كعبه
ومنهم من يكون الى ركبتيه ومنهم من يكون الى حقويه ومنهم من يلجمه
العرق الجاما » وأشار رسول الله صلى الله عليه وسلم الى فيه . وأخرج
الامام أحمد والطبرانى وابن حبان في صحيه والحاكم وصححه من حديث
عقبة بن عامر رضى الله عنه مرفوعا نحوه وزاد بعد قوله « ومنهم من يبلغ
وسط فيه » وأشار بيده ألجمها فاه ، وقال أرأيت رسول الله صلى الله
عليه وسلم يشير هكذا « ومنهم من يغطيه عرقه » وضرب بيده وأشار
ومر بيده فوق رأسه من غير أن يصيب الرأس دور راحته يمينا وشمالا .
وقال ابن مسعود رضى الله عنه الارض كلها نار يوم القيامة والجنة من
ورائها كواعبها وأكوابها والذى نفس عبد الله بيده ان الرجل ليفيض عرقا
حتى يسيخ في الارض قامته ثم يرتفع حتى يبلغ أنفه وما مسه الحساب .
قالوا مم ذاك يا أبا عبد الرحمن ؟ قال مما يرى الناس . رواه الطبرانى
باسناد جيد قوى . وروى الطبرانى أيضا باسناد جيد عن ابن مسعود أيضا
رضى الله عنه مرفوعا « ان الرجل ليلجمه العرق يوم القيامة فيقول يا رب
أرحنى ولو الى النار » ورواه أبو يعلى وابن حبان بلفظ « ان الكافر
ليلجمه العرق » الحديث . وأخرج الحاكم وصححه عن جابر رضى الله

عنه مرفوعا « ان العرق ليلزم المرء في الموقف حتى يقول يا رب أرسالك بى الى النار أهون على مما أجد » وهو يعلم ما فيها من شدة العذاب •

فائدة يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء

(فائدة) قال الحفاظ قد صح أن الفقراء يدخلون الجنة قبل الاغنياء بخمسمائة عام فيكونون قد سلموا من تلك الاهوال ونجوا من ذلك النكال والوبال ففى مسند الامام أحمد عن اسامة بن زايد رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « قمت على باب الجنة فاذا عامة من يدخلها الفقراء الا أن أصحاب الجد - أي الحظ والثروة والمال محبوسون - الا أن أهل النار فقد أمر بهم الى النار » الحديث متفق عليه وفي صحيح مسلم عن عبدالله ابن عمرو بن العاص رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال « ان فقراء المهاجرين يسبقون الاغنياء الى الجنة بأربعين خريفا » وروى أبو هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « يدخل فقراء المؤمنين الجنة قبل أغنيائهم بخمسمائة عام »

وحاصل ذلك ان الخلق يقفون المقدار الذى مر وتدنو الشمس من رؤوس الخلائق مقدار ميل ويصيبهم من العرق من شدة الهول وعظم حر الشمس يومئذ أمر عظيم ، قال بعض السلف لو طلعت الشمس على الارض كهيئتها يوم القيامة لأحرقت الارض وأذابت الجوامد ونشفت الانهار •

وهذا الوقوف مع ما مر ((المحساب)) الثابت بالسنة والكتاب واجماع أهل الحق بلا ارتياب قال تعالى (فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون) وقال في حق أعدائه (أولئك لهم سوء الحساب - قالوا يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا - فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره) قال الثعلبى الحساب تعريف الله عز وجل الخلائق مقادير الجزاء على أعمالهم وتذكيره اياهم ما قد نسوه من ذلك يدل على هذا قوله تعالى (يوم يبعثهم الله جميعا فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه) وقال بعضهم معنى كونه محاسبا لخلقه انه تعالى يعلمهم مالهم وما عليهم • والحساب مصدر حاسب • وحسب الشيء يحسبه بالضم اذا عده سماعاوهو معنى قول من قال الحساب لغة العد ،واصطلاحا توقيف الله عباده

معنى محاسبة الله تعالى لعباده

قبل الانصراف من المحشر على أعمالهم خيرا كانت أو شرا تفصيلا لا بالوزن الا من استثنى منهم • وقد اختلف في معنى محاسبته تعالى عباده على ثلاثة أقوال (أحدها) انه يعلمهم مالهم وعليهم كما تقدم ، قال بعض العلماء بأن يخلق الله في قلوبهم علوما ضرورية بمقادير أعمالهم من الثواب والعقاب (الثانى) ونقل عن ابن عباس رضى الله عنهما أن يوقف الله تعالى عباده بين يديه ويؤتيهم كتب أعمالهم فيها سيآتهم وحسناتهم فيقول هذه سيآتكم وقد تجاوزت عنها وهذه حسناتكم وقد ضاعفتها لكم (الثالث) ان يكلم الله عباده في شأن أعمالهم وكيفية مالها من الثواب وما عليها من العقاب وفي هذا من صحيح الاخبار وصريح الآثار ما يقلع شروش(؟) من فى قلبه نوع اختلاج أصل كل شبهة وبدعة ، فقد أخرج الترمذى من حديث أبى برزة رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسئل عن أربع ، عن عمره فيم أفناه ، وعن علمه ما عمل به ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه ، وعن جسمه فيما أبلاه » قال الترمذى : حديث حسن صحيح • ورواه البزار والطبرانى باسناد صحيح من حديث معاذ بن جبل رضى الله عنه ولفظه « لن تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسئل عن أربع خصال ، عن عمره فيم أفناه ، وعن شبابه فيم أبلاه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيه أنفقه ، وعن علمه ماذا عمل فيه » وفي الصحيحين من حديث عائشة رضى الله عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من نوقش الحساب عذب » فقلت أليس يقول الله (واما من أوتى كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا وينقلب الى أهله مسرورا) فقال « انما ذلك العرض وليس أحد يحاسب يوم القيامة الا هلك(١) • ورواه أبو داود والترمذى وغيرهما • ورواه البزار والطبرانى في الكبير باسناد صحيح من حديث ابن الزبير رضى الله عنهما ولفظه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من نوقش الحساب هلك • وفي صحيح مسلم وسنن الترمذى من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لتؤدن الحقوق الى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء »• ورواه الامام أحمد ولفظه « يقتص للخلق بعضهم من بعض حتى للجماء من القرناء ، وحتى للذرة من الذرة » ورواته رواة

الصحيح ، الجلحاء والجماء التى لا قرن لها • وأخرج الامام أحمد أيضا عن أبى هريرة أيضا رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ليختصمن كل شيء يوم القيامة حتى الشاتان فيم انتطحا » واسناده حسن• ورواه الامام أحمد أيضا وأبو يعلى من حديث أبى سعيد • وفي حديث عبد الله بن أنيس رضى الله عنه انه سمع النبى صلى الله عليه وسلم يقول « يحشر الله العباد يوم القيامة - أو قال الناس - عراة غرلا بهما - قال قلنا وما بهما ؟ قال ليس معهم شيء ثم يناديهم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب : انا الديان ، أنا الملك ، لا ينبغى لأحد من أهل النار أن يدخل النار وله عند أحد من أهل الجنة حق حتى أقضيه منه ، ولا ينبغى لأحد من أهل الجنة ان يدخل الجنة ولأحد من أهل النار عنده حق حتى أقضيه منه ، حتى اللطمة » قال قلنا كيف وانما نأتى عراة غرلا بهما ؟ قال « الحسنات والسيئات » رواه الامام أحمد باسناد حسن وفي صحيح مسلم وغيره من حديث أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتى وقد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا ، فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته ، فان فنيت حسناته قبل ان يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار » وفي هذا أحاديث كثيرة وبالله التوفيق •

(تنبيهات)

تنبيهات الاول وجه تقديم ذكر الحساب

(الاول) انما قدم الحساب بعد الحشر والوقوف على أخذ الصحف مع انه مؤخر عن أخذ الصحف في الوقوع لأن الحساب من المقاصد وأخذ الصحف من الوسائل فقدمت المقاصد على الوسائل مع مراعاة قافية النظم والله أعلم •

(الثانى)

الثاني كيفيات الحساب

كيفيات الحساب مختلفة وأحواله متباينة فمنه العسير ومنه اليسير ومنه العدل والجهد ومنه التكريم ومنه التوبيخ والتبكيت ومنه الفضل والصفح ومتولى ذلك أكرم الاكرمين وأرحم الراحمين •

الثالث أول من يحاسب وأول مايحاسب عليه

(الثـــالث)

أول من يحاسب العلماء والمغازون وأرباب الاموال والســـعة ، وأول ما يحاسب عليه العبد الصلاة كما أخرج الامام عبد الله بن المبارك وأبو داود والترمذى وحسنه والحاكم وصححه والنسائى وابن ماجه من حديث أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال « أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة يقول الله تعالى لملائكته انظروا لصلاة عبدى أتمها أم نقصها ؟ فان كانت تامة كتبت له تامة ، وان كان نقص منهـا شيئا قال الله انظروا هل لعبدى من تطوع ؟ فان كان له تطوع قال أتمـوا لعبدى فريضته من تطوعه ، ثم تؤخذ الاعمال على ذلك » وأخرج النسائى عن ابن مسعود رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال « أول ما يحاسب عليه العبد صلاته ، وأول ما يقضى بين الناس في الدماء » فانقيل قد ورد في التنزيل ان الناس لا يسئلون قال تعالى (فيومئذ لا يسئل عن ذنبه انس ولا جان) فالجواب انه معارض بقوله تعالى (فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون) ويجاب عن الآية الكريمة بأنهم لا يسئلون سؤال استفهام لانه تعالى عالم بكل أعمالهم وانما يسئلون سؤال تقرير فيقال لهم فعلتم كذا . قال في البهجة كغيره قال الحسن وقتادة لا يسئلون عـن ذنوبهم لأن الله تعالى حفظها عليهم وكتبتها المـــلائكة . وقيل يسئلون في موطن دون موطن رواه عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما . ونظـــير هذا قوله تعالى (هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون) وفي الآيـة الاخرى (ثم انكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون) فللناس يوم القيامة حالات والآيات مخرجة باعتبار تلك الحالات ومن ثم قال الامام أحمد في أجوبته القرآنية : أول ما تبعث الخلائق على مقدار ستين سنة لا ينطقون ولا يؤذن لهم في الاعتذار فيعتذرون ثم يؤذن لهم في الكلام فيتكلمون فذلك قوله تعالى (ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا) الآية فاذا أذن لهم في الكلام تكلموا واختصموا فذلك قوله تعالى (ثم انكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون) عند الحساب واعطاء المظالم ، ثم يقـــال لهم بعد ذلك (لا تختصموا لدى وقد قدمت اليكم بالوعيد) يعنى في الدنيا فان العذاب مع هذا القول كائن . انتهى .

الرابع اختلف في المسؤول عنه والمسؤول

(الرابع)

اختلف عن المسئول عنه والمسئول ، فقال ابن عباس رضى الله عنهما : عن لا آله الا الله • وقال الضحاك : عن خطاياهم • وقال القرطبى : عن جميع أقوالهم وأفعالهم (ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا ـ فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون) قال الفخر الرازى: ولا معنى لقول من يقول ان السؤال انما يكون عن الكفر والايمان ، بل السؤال واقع عنهما وعن جميع الاعمال لان اللفظ عام فيتنـــاول الكل ، والضمير في قوله تعالى لنسألنهم عائد على جميع المكلفين الانبياء وغيرهم ، ويدل على سؤالهم صريحا قوله تعالى (فلنسئلن الذين أرسل اليهم ولنسألن المرسلين) فهذه الآية تدل على انه يحاسب كل عباده لانهم لا يخرجون عن ان يكونوا مرسلين أو مرسلا اليهم ، ويبطل قول من زعم انه لا حساب على الانبياء عليهم الصلاة والسلام ولا الكفار • انتهى • والجواب انه لا حساب على الانبياء عليهم السلام على سبيل المناقشة والتقريع ، قال النسفى في بحر الكلام : الانبياء لا حساب عليهم ، وكذلك أطفال المؤمنين ، وكذلك العشرة المبشرون بالجنة • هذا حساب المناقشة ، وعموم الآيات الكريمة مخصوص بأحاديث من يدخل الجنة بغير حساب ، ولهذا قال علماؤنا في عقائدهم : ويحاسب المسلمون المكلفون الا من شاء الله ان يدخل الجنة بغير حساب ، وكل مكلف مسئول يسأل من شاء من الرسل عن تبليغ الرسالة ومن شاء من الكفار عن تكذيب الرسل • قال شيخ مشايخنا البدر البلبانى في عقيدته : فالكفار لا يحاسبون بمعنى ان صحائف أعمالهم لا توزن وان فعل كافر قربة من نحو عتق أو صدقة أو ظلمه مسلم رجونا له ان يخفف عنه العذاب• انتهى • ولعل مراده غير عذاب الكفر • وقال شيخ الاسلام ابن تيميـــة في عقيدته الواسطية : يحاسب الله تعالى الخلق ويخلو بعبده المؤمن ويقرره بذنوبه كما وصف ذلك في الكتاب والسنة • قال : وأما الكفار فلا يحاسبون محاسبة من توزن حسناته وسيئاته فانهم لا حسنات لهم ولكن تعد أعمـالهم وتحصى فيوقفون عليها ويقررون بها • انتهى • وعن عبدالله بن مسعود رضى الله عنه ما من عبد يخطو خطوة الا ويسأل عنها ما أراد بهـــا وعن أبى

هريرة رضى الله عنه مرفوعا « ان أول ما يسئل عنه يوم القيامة أن يقال له ألم أصحح جسمك وأرويك الماء البارد ؟ والذى نفسى بيده من النعيم الذى تسئلون عنه يوم القيامة ظل بارد ورطب وماء بارد » أخرجه الترمذى وابن حبان والحاكم والبغوى . وأخرج الامام أحمد والبيهقى وأبو نعيم عن الحسن مرفوعا « ثلاث لا يحاسب بهن العبد ظل خص يستظل به وكسرة يشد بها صلبه وثوب يوارى به عورته » وأخرج البزار والطبرانى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « ثلاثة ليس عليهم حساب فيما طعموا ان شاء الله اذا كان حلالا الصائم والمتسحر والمرابط فى سبيل الله » وأخرج البزار أيضا وأبو نعيم بسند حسن عن ابن عباس أيضا رضى الله عنهما قال قال النبى صلى الله عليه وسلم « ما فوق الازار وجلف الخبز وظل الحائط وجر الماء فضل يحاسب به العبد يوم القيامة او يسأل عنه » وأخرج الامام أحمد بسند جيد عن أبى عسيب رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم دخل حائطا لبعض الانصار ومعه أبو بكر وعمر فجاء صاحب الحائط بعذق فوضعه فأكل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، ثم دعا بماء بارد فشرب فقال « لتسئلن عن هذا يوم القيامة » فقيل يا رسول الله انا لمسئولون عن هذا يوم القيامة ؟ قال « نعم الا من ثلاث خرقة يكف بها عورته وكسرة يسد بها جوعته وجحر يدخل فيه من الحر والقر » واخرج الطبرانى والبزار والحاكم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ثلاث من كن فيه حاسبه الله حسابا يسيرا وأدخله الجنة برحمته — قالوا وما هى ؟ قال — تعطي من حرمك وتصل من قطعك وتعفو عمن ظلمك » وفى ترغيب الأصبهانى عن أنس مرفوعا « ان استطعت أن تمسى وتصبح وليس فى قلبك غش لأحد فافعل فانه أهون عليك فى الحساب » وأخرج البيهقى عن أبى هريرة رضى الله عنه انه قال اعزابى يا رسول الله من يحاسب الخلق يوم القيامة ؟ قال: الله ، قال : نجونا ورب الكعبة ، قال : وكيف يا اعرابى ؟ قال : لان الكريم اذا قدر عفا . وما أحسن ما قيل من الحكم المدونة : الكريم اذا قدر غفر ، واذا زللت معه ستر . ومنها ليس من عادة الكرام سرعة الغضب والانتقام .

(فـــائدة)

فائدة : يكلم الله المسلمين بغير ترجمان

ذكر القرطبى كغيره أن الله تعالى يكلم المسلمين عند الحساب من غير ترجمان اكراما لهم ، ولا يكلم الكافرين بل تحاسبهم الملائكة اهانة لهم وتمييزا لأهل الكرامة . وأخرج الشيخان عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « ثلاثة لا يكلمهم الله تعالى يـــوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم ، رجل على فضل ماء بالطريق يمنع منه ابن السبيل ، ورجل بايع اماما ما يبايعه الا لدنيا فان أعطاه ما يريد وفى له والا لم يف له ،ورجل يبايع رجلا بعد العصر فحلف بالله لقد أعطى كذا وكذا ـ فصدقه ولم يعط بها »

(الخامس)

الخامس فيمن يدخل الجنة بغير حساب

ثبت فى عدة أخبار عن النبى المختار صلى الله عليه وسلم ما كر الليل على النهار أن طائفة من هذه الأمة بلا ارتياب يدخلون الجنة بغير حساب فيدخلون جنات النعيم قبل وضع الموازين وأخذ الصحف بالشمال واليمين ، فقد أخرج الشيخان وغيرهما عن ابن عباس رضى الله عنهما قال خـرج الينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فقال « عرضت علي الامم يمر النبى معه الرجل والنبى معه الرجلان والنبى ليس معه أحد والنبى معه الرهط ، فرأيت سوادا كثيرا فرجوت أن تكون أمتى فقيل لى هذا موسى وقومه ، ثم قيل لى انظر فر أيت سوادا كثيرا قد سد الافق فقيل هكذا وهكذا فرأيت سوادا كثيرا فقيل لى هؤلاء أمتك ومع هؤلاء سبعون ألفـــا يدخلون الجنة بغير حساب » فتفرق الناس ولم يبين لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فتذاكر ذلك أصحابه فقالوا مقالوا اما نحن فى الشرك ولكن قد آمنا بالله ورسوله ، هؤلاء أبناؤنا . فقال رسول الله صلى الله عـــليه وسلم « هم الذين لا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون وعلى ربـــهم يتوكلون » فقام عكاشة بن محصن فقال أنا منهم ؟ وفي لفظ ادع الله ان أكون منهم يا رسول الله ، قال : نعم ، ثم قام آخر فقال أنا منهم ؟ فـقال « سبقك بها عكاشة » قال الامام المحقق ابن القيم فى كتابه (الداء والدواء) قوله صلى الله عليه وسلم : سبقك بها عكاشة ، لم يرد أن عكاشه وحده

أحق بذلك ممن عداه من الصحابة ولكن لو دعا له لقام آخر وآخر وانفتح الباب وربما قام من لم يستحق أن يكون منهم فكان الامساك اولى • وأخرج الترمذي وحسنه عن أبي امامة رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « وعدني ربي أن يدخل الجنة من أمتي سبعين ألفا لا حساب عليهم ولا عذاب مع كل ألف سبعون ألفا وثلاث حثيات من حثيات ربي » ويروى « حفنات » بالفتح وهو الغرف ملء اليدين وقيل الحثية باليد والحفنة باليدين • وأخرج الامام أحمد والطبراني عن أبي أيوب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج ذات يوم اليهم فقال « ان ربي خيرني بين سبعين ألفا يدخلون الجنة عفوا بغير حساب وبين الخبيئة عنده لامتي » فقال له بعض اصحابه أيخبأ ذلك ربك ؟ فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم خرج وهو يكبر فقال : « ان ربي زادني مع كل ألف سبعين ألفا والخبيئة عنده » فقيل يا ابا ايوب وما نظن خبيئة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فأكله الناس بأفواههم فقالوا : ما انت وخبيئة رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال أبو أيوب دعوه أخبركم عن خبيئة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ان خبيئة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقول رب من شهد ان لا آله الا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسول مصدقا لسانه قلبه فأدخله الجنة ، الخبيئة بخاء معجمة فموحدة وهمزة بوزن خطيئة • وأخرج البيهقي من حديث ابي هريرة مرفوعا « سألت ربي فوعدني أن يدخل من أمتي الجنة سبعين ألفا على صورة القمر ليلة البدر، فاستزدته فزادني مع كل ألف سبعين ألفا فقلت اى رب أرأيت ان لم يكن هؤلاء مهاجرى أمتي قال اذن أكملهم لك من الاعراب » وأخرج الطبراني والبيهقي عن عمرو بن حزم الانصاري رضي الله عنه قال تغيب عنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثا لا يخرج الا لصلاة مكتوبة ثم يرجع فلما كان يوم الرابع (؟) خرج الينا فقلنا يا رسول الله احتبست عنا حتى ظننا أنه قد حدث حدث، قال «لم يحدث الا خير ان ربي وعدني وعدني أن يدخل من أمتي الجنة سبعين ألفا لا حساب عليهم واني سألت ربي في هذه الثلاثة أيام (؟) المزيد فوجدت ربي ماجدا كريما فأعطاني

مع كل واحد من السبعين ألفا سبعين ألفا قلت يا رب وتبلغ أمتى هـــذا ؟ قال أكمل لك العدد من الاعراب • وأخرج الامام أحمد وأبو يعلى عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اعطيت سبعين ألفا يدخلون الجنة بغير حساب وجوههم كالقمر ليلة البــــدر وقلوبهم على قلب رجل واحد واستزدت ربى فزادنى مع كل واحد سبعين ألفا » قال أبو بكر فرأيت أن ذلك يأتى على أهل القرى ويصيب من حافات البوادى • وأخرج الامام أحمد والطبرانى عن عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ان ربى أعطانى سبعين ألفا من أمتى يدخلون الجنة بغير حساب » فقال عـــــمر يا رسول الله فهلا استزدته؟ قال «قد استزدته فأعطانى مع كل رجل سبعين ألفا »قال عمر فهلا استزدته ؟ قال « قد استزدته فأعطانى هكذا ــ وفرج بين يديه وبسط باعيه وحثا » قال هشام هذا من الله ما يدرى ما عدده •واخرج البزار عن أنس رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « يدخل الجنة من أمتى سبعون ألفا بغير حساب » فقال أبو بكر يا رسول الله زدنا ، قال « وهكذا » فقال عمر يا أبا بكر ان شاء الله ادخلهم الجنة بحفنة واحدة • وأخرج الامام احمد بسند حسن عن حذيفة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ان ربى استشارنى فى أمتى ماذا أفعل بهم ؟ فقلت ما شئت يا رب هم خلقك وعبادك ، فقال لا نخزيك فى أمتك ، واخبرنى أن أول من يدخل الجنة من أمتى سبعون ألفا مع كل ألف سبعون ألفا ليس عليهم حساب » واخرج هناد عن أسماء بنت يزيد رضى الله عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يجمع الله يوم القيامة الناس فى صعيد واحد يسمعهم الداعى وينفذهم البصر فيقوم مناد ينادى : أين الذين كانوا يحمدون الله على السراء والضراء؟ فيقومون وهم قليل فيدخلون الجنة بغير حساب ، ثم يعود فينادى اين الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع ؟ فيقومون وهم قليل فيدخلون الجنة بغير حساب ، ثم يعود فينادى ليقم الذين كانوا لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ، فيقومون وهم قليل فيدخلون الجنة بغير حساب ، ثم يقوم سائر الناس

فيحاسبون » ورواه ابن ابى الدنيا وغيره • وذكر الحافظ ابن رجب فى كتابه لطائف المعارف فقال قد روى ان المتهجدين يدخلون الجنة بغير حساب • وذكر عن شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد عن النبى صلى الله عليه وسلم « اذا جمع الله الاولين والآخرين يوم القيامة جاء مناد ينادى بصوت يسمع الخلائق : سيعلم الخلائق اليوم من أولى بالكرم » فذكر الحديث ، قال الحافظ ابن رجب : ويروى أيضا عن شهر بن حوشب عن ابن عباس رضى الله عنهما من قوله ، ويروى نحوه من حديث ابن اسحاق عن عبد الله بن عطاء عن عقبة بن عامر مرفوعا وموقوفا ، ويروى نحوه أيضا عن عبادة بن الصامت وربيعة الجرشي والحسن وكعب من قولهم • قال الحافظ قال بعض السلف قيام الليل يهون طول قيام يوم القيامة • قال واذا كان أهله يسبقون الى الجنة بغير حساب فقد استراح أهله من طول الوقوف للحساب والله أعلم •

الصحف

ولما أنهينا الكلام على الحساب بحسب ما يليق بهذا الكتاب ثنينا العطف على شرح الصحف والميزان المشار الى ذلك فى قوله ((و)) كذا وقوف الخلق لاخذ ((الصحف)) جمع صحيفة وهى الكتب كتبتها الملائكة وأحصوا ما فعله كل انسان من سائر أعماله فى الدنيا القولية والفعلية ، وقيل هى صحف تكتبها العباد فى قبورها قال تعالى (واذا الصحف نشرت) قال الثعلبى أى التى فيها أعمال بنى آدم نشرت للحساب وانما يؤتى بالصحف الزاما للعباد ورفعا للجدل والعناد • وقال تعالى (وكل انسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا) قال العلماء معنى طائره عمله ، وقال مقاتل والكلبى خيره وشره معه لا يفارقه ، وهو معنى الاول • وقال تعالى (وأما من أوتى كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا) وفى الآية الاخرى (فأولئك يقرءون كتابهم ولا يظلمون فتيلا) والفتيل هو القشر الذى فى شق النواة وهذا يضرب مثلا للشىء الحقير • وذكر مجاهد عن ابن عباس رضى الله عنهما أن المراد بالفتيل الوسخ الذى يظهر بفتل الانسان ابهامه بسبابته • قال العلامة الشيخ مرعى وانما خص القراءة بمن أوتى كتابه بيمينه دون من أوتيه بشماله لان اهل الشمال اذا طالعوا

كتابهم وجدوه مشتملا على المهلكات العظيمة والقبائح الكاملة فيتولى الخوف والدهش على قلوبهم ويثقل لسانهم فيعجزون عن القراءة الكاملة بخلاف أصحاب اليمين فانهم اذا طالعوا صحف حسناتهم وجدوها على الكمال فيقرءون كتابهم على أحسن الاحوال وأتمها ثم لم يقنع احد بقراءته حتى يقول لأهل المحشر : هاؤم اقرءوا كتابيه - كما قال الفخر وغيره • وقال تعالى (وأما من أوتى كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا وينقلب الى أهله مسرورا* وأما من أوتىَ كتابه وراء ظهره فسوف يدعو ثبوراً ويصلى سعيرا)

والحاصل أن نشر الصحف وأخذها باليمين والشمال مما يجب الايمان به وعقد القلب بأنه حق لثبوته بالكتاب والسنة والاجماع فقد اخرج العقيلى عن أنس رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « الكتب كلها تحت العرش فاذا كان يوم القيامة يبعث الله ريحا فتطيرها بالايمان والشمائل » أول خط فيها (اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا) • قال قتادة سيقرأ يومئذ من لم يكن قارئا فى الدنيا • وأخرج الديلمى عن أبى هريرة رضى الله عنه مرفوعا « عنوان كتاب المؤمن يوم القيامة حسن ثناء الناس عليه » • وقاله ابن مسعود رضى الله عنه • وأخرج الترمذى من حديث ابى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات فاما عرضتان فجدال ومعاذير فعند ذلك تطير الصحف فى الايدى فآخذ بيمينه وآخذ بشماله » ورواه ابن ماجه من حديث أبى موسى الاشعرى رضى الله عنه ولفظه «وأما الثالثة فتطاير الصحف فى الايدى فآخذ بيمينه وآخذ بشماله » وأخرجه البيهقى من حديث ابن مسعود رضى الله عنه ولفظه : « وأما العرضة الثالثة فتطاير الكتب فى الايمان والشمائل » • قال الحكيم الترمذى الجدال للاعداء يجادلون لانهم لا يعرفون ربهم فيظنون انهم اذا جادلوه نجوا أو قامت حجتهم ، والمعاذير لله يعتذر الى آدم والى أنبيائه ويقيم حجته عندهم على الاعداء ثم يبعث بهم الى النار ، والعرضة الثالثة للمؤمنين وهو العرض الأكبر يخلو بهم فيعاتب من يريد عتابه فى تلك الخلوات حتى يذوق وبال

الحياء والخجل ثم يغفر لهم ويرضى عنهم • وأخرج ابن المبارك عن أبى عثمان النهدى قال ان المؤمن ليعطى كتابه فى ستر من الله فيقرأ سيئاته فيتغير لونه ، ثم يقرأ حسناته فيرجع اليه لونه ، ثم ينظر فاذا سيآته قد بدلت حسنات فعند ذلك يقول هاؤم اقرؤا كتابيه • وأخرج مكى فى تفسيره عن أم المؤمنين عائشة الصديقة رضى الله عنا قالت يا رسول الله كيف يحاسب حسابا يسيرا ؟ قال « يؤتى العبد كتابه بيمينه فيقرأ سيآته ويقرى الناس حسناته ثم يحل الصحيفة فيحول الله حسناته فيقرؤها الناس فيقولون ما كان لهذا العبد من سيئة » فهذا تفسير قوله تعالى (وأما من أوتى كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا وينقلب الى اهله مسرورا) أهله هم أهل الجنة كما فى البهجة • وأخرج الترمذى وحسنه وابن حبان والبيهقى والبزار وابن أبى حاتم عن أبى هريرة رضى الله عنه مرفوعا فى قوله تعالى (يوم ندعو كل أناس بامامهم) قال يدعى الرجل فيعطى كتابه بيمينه ويمد له فى جسمه ستون ذراعا ويبيض وجهه ويجعل على رأسه تاج من لؤلؤ يتلألأ فينطلق الى أصحابه فيرونه من بعيد فيقولون اللهم ائتنا بهذا وبارك لنا فى هذا حتى يأتيهم فيقول أبشروا فان لكل واحد منكم مثل هذا ، وأما الكافر فيسود وجهه ويمد فى جسمه ستون ذراعا ويجعل على رأسه تاج من نار فيراه أصحابه فيقولون اللهم انا نعوذ بك من هذا ، اللهم لا تأتنا بهذا ، فيأتيهم فيقولون اللهم اخزه فيقول أبعدكم الله فان لكل رجل منكم مثل هذا • وأخرج الامام احمد عن عائشة رضى الله عنها قالت قلت رسول الله هل يذكر الحبيب حبيبه يوم القيامة ؟ قال « أما عند ثلاث فلا ، عند الميزان حتى يعلم أيثقل أم يخف ، وعند تطاير الكتب فاما ان يعطى بيمينه أو بشماله ، وحين يخرج عنق من النار » الحديث

((فوائد))

فوائد الاولى كيفية اخذ الصحف

(الاولى) قال سعيد بن المسيب الذى يأخذ كتابه بشماله تلوى يده خلف ظهره ثم يعطى كتابه • وقيل تنزع من صدره الى خلف ظهره • وقال مجاهد فى قوله تعالى (وأما من أوتى كتابه وراء ظهره) قال تجعل شماله وراء ظهره فيأخذ بها كتابه •

الثالثة الفرق بين أخذ المسلم العاصي وأخذ الكافر

(الثانية) يعطى الكافر كتابه بشماله من وراء ظهره بأن تخلع أو يدخلها من صدره أو تلوى ، ويعطى المؤمن العاصي كتابه بشماله من أمامه ويعطى المؤمن الطائع كتابه بيمينه من أمامه • وقد جزم الماوردى بأن المشهور أن الفاسق الذى مات على فسقه دون توبة يأخذ كتابه بيمينه ثم حكى قـولا بالوقوف قال ولا قائل بأنه يأخذه بشماله • وقال يوسف بن عمر من المالكية اختلف فى عصاة الموحدين فقيل يأخذون كتبهم بأيمانهم وقيل بشمائلهم وعلى القول بأنهم يأخذونها بأيمانهم قيل يأخذونها قبل الدخول فى النـار فيكون ذلك علامة على عدم خلودهم فيها وقيل يأخذونها بعد الخروج منها والله أعلم

الثالثة أول من يعطى كتابه بيمينه وأول من يعطى بشماله

(الثالثة) ورد أن أول من يأخذ كتابه بيمينه أو سلمة بن عبد الاسد واسمه عبد الله وهو أول من يدخل الجنة من هذه الامة بعد نبيها صلى الله عليه وسلم وهو أول من هاجر من مكة الى المدينة • وقال بعض علماء المالكية اول من يعطى كتابه بيمينه وله شعاع كشعاع الشمس عمر بن الخطاب رضى الله عنه وبعده أبو سلمة • انتهى

وروى ان أول من يأخذ كتابه بشماله اخو ابى سلمة بن عبد الاسد الاسود روى انه يمد يده ليأخذه بيمينه فيجذبه ملك فيخلع يده فيأخذه بشماله من وراء ظهره وذلك لأنه كان خلع يد سلمة لما أراد أن يهاجر فمنع بنو المغيرة أم سلمة أن تسير مع ابى سلمة ونزعوا خطام البعير من يده فأخذوها منه فغضب رهط أبى سلمة وهم بنو عبد الاسد فاجتذبوا ابنـه سلمة المذكور من أمه حيث اخذها رهطها ولم يدعوها تسير مع ابى سلمة فخلعوا يد الغلام ـ القصة ، فجوزى الاسود بخلع يده فالجزاء من جنس العمل • قال القرطبى فى تذكرته اذا وقف الناس على أعمالهم من الصحف التى يؤمر بعد البعث حوسبوا بها • وأخرج ابن المبارك عن رجل من بنى أسد قال قال عمر رضى الله عنه لكعب حدثنا من حديث الآخرة ، قال نعم يا أمير المؤمنين اذا كان يوم القيامة رفع اللوح المحفوظ فلم يبق أحد من الخلائق الا وهو ينظر الى عمله ثم يؤتى بالصحف التى فيها اعمال العباد فتنشر حول العرش ثم يدعى المؤمن فيعطى كتابه بيمينه فينظر فيه

الميـــزان

((و)) كذا وقوف الخلق لأجل ((الميزان)) اعلم أن مراتب المعـــاد البعث والنشور ثم المحشر ثم القيام لرب العالمين ثم العرض ثم تطـــاير الصحف وأخذها باليمين وأخذها بالشمـــال ثم السؤال والحساب ثم الميزان ((للثواب)) اى ثواب الاعمال الصالحة وعن السيئات الفاضـــحة قال علماؤنا كغيرهم نؤمن بأن الميزان الذى توزن به الحسنات والســـيئات حق ، قالوا وله لسان وكفتان توزن به صحائف الاعمال ، قال ابن عباس رضى الله عنهما توزن الحسنات فى أحسن صورة والسيئات فى أقبـــح صورة • قال العلامة الشيخ مرعى فى بهجته : الصحيح ان المراد بالميـزان الميزان الحقيقى لامجرد العدل خلافا لبعضهم • وقال القرطبى فى تذكرته قال العلماء اذا انقضى الحساب كان بعده وزن الاعمال لأن الوزن للجـزاء فينبغى ان يكون بعد المحاسبة لتقرير الاعمال والوزن لاظهار مقاديرها ليكون الجزاء بحسبها قال الله تعالى (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وان كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين) وقال تعالى (فأما من ثقلت موازينه فهو فى عيشة راضية • وأما من خفت موازينه فأمه هاوية • وماأدريك ماهيه • نار حامية)

والحاصل ان الايمان بالميزان كأخذ الصحف ثابت بالكتاب والســـــنة والاجماع فالكتاب ماذكرناه وقوله تعالى (ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم) الى غير ذلك من الآيات وروى ان داود عليه الســـلام سأل ربه أن يريه الميزان فلما رآه غشى عليه فلمـــا أفاق قال الهى من ذا الذى يقدر بملأ كفة حسناته ؟ فقال اذا رضيت عن عبدى ملأتهـــا بتمرة ذكره الرازى والثعلبى • وقال عبد الله بن سلام رضى الله عنه أن ميـزان رب العالمين ينصب للجن والانس يستقبل به العرش احدى كفتيه على الجنة والاخرى على جهنم لو وضعت السموات والارض فى احداهما لوسعتهن وجبريل آخذ بعموده ينظر الى لسانه • قال فى البهجة فى هذا ان اعمـال الجن توزن كما توزن أعمال الانس وهو كذلك ارتضاه الائمـــة • قال القرطبى فى تذكرته المتقون توضع حسناتهم فى الكفة النيرة وصغائرهم فى الكفة الاخرى فلا يجعل الله لتلك الصغائر وزنا وتثقل الكفـة النيرة حتى

لا ترتفع وترفع المظلمة ارتفاع الفارغة الخالية ، قال وأما الكفار فيوضع كفرهم واوزارهم فى الكفة المظلمة وان لهم أعمال بر وضعت فى الكفة الاخرى فلا تقاومها اظهارا لفضل المتقين وذل الكافرين ، والحق ان الكفار لايقيم الله لهم وزنا لقوله تعالى (فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا) ومن قال توزن أعمالهم لو روده فى ظواهر عموم الا يات والاحاديث يجيب عن الآية الكريمة بأنه تعالى لايقيم لهم وزنا نافعا كما فى قوله (وقدمنا الى ماعملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا) اى كالهباء فى عدم نفعه وحصول فائدته • والحق ان مؤمنى الجن كالانس فى الوزن وكافرهم ككافرهم • وأخرج الحاكم وصححه من حديث سلمان الفارسى رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال « يوضع الميزان يوم القيامة فلو وزن فيه السموات والارض لوسعهن فتقول الملائكة يارب لمن يزن هذا فيقول لمن شئت من خلقى فتقول الملائكة سبحانك ماعبدناك حق عبادتك » وأخرجه الامام عبد الله بن المبارك فى الزهد والآجرى فى الشريعة عن سلمان موقوفا • وأخرج البزار والبيهقى فى البعث عن أنس بن مالك رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « يؤتى بابن آدم بوم القيامة فيوقف بين كفتى الميزان ويوكل به ملك فان ثقل ميزانه نادى الملك بصوت يسمع الخلائق : سعد فلان بن فلان سعادة لايشقى بعدها أبدا ، وان خف ميزانه نادى الملك بصوت يسمع الخلائق : ألاشقى فلان شقاوة لايسعد بعدها أبدا » وذكر الثعلبى وغيره وابن جرير فى تفسيره وابن أبى الدنيا عن حذيفة رضى الله عنه انه قال : صاحب الميزان يوم القيامة جبريل عليه السلام • وقال الحسن هو ميزان له كفتان ولسان وهو بيد جبريل عليه السلام • واخرج أبو الشيخ بن حيان فى تفسيره من طريق الكلبى عن ابى صالح عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : الميزان له لسان وكفتان • فقد دلت الآثار على انه ميزان حقيقى ذو كفتين ولسان كما قال ابن عباس والحسن البصرى وصرح بذلك علماؤنا والاشعرية وغيرهم وقد بلغت أحاديثه مبلغ التواتر وانعقد اجماع أهل الحق من المسلمين عليه • وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس رضى الله عنها قال : يحاسب الناس يوم القيامة

فمن كانت حسناته أكثر من سيئاته بواحدة دخل الجنة ومن كانت سيئاته أكثر من حسناته بواحدة دخل النار • قال وان الميزان يخف بمثقال حبة ويرجح ، ومن استوت حسناته وسيئاته كان من اصحاب الاعراف فوقفوا على الصراط • وأخرج الامام أحمد فى الزهد من طريق رباح بن زيد عن أبى الجراح عن رجل يقال له حازم ان النبى صلى الله عليه وسلم نزل عليه جبريل وعنده رجل يبكى فقال « من هذا ؟ قال : فلان ، قال جبريل انا ازن أعمال بنى آدم كلها الا البكاء فان الله يطفىء بالدمعة بحورا من نيران جهنم » واخرج البيهقى عن مسلم بن يسار قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما اغرورقت عين بمائها الا حرم الله ذلك الجسد على النار ، ولا سالت قطرة على خدها فيرهق ذلك الوجه قترولاذلة ، ولو ان باكيا بكى فى أمة من الامم لرحموا وما من شىء الا له مقدار وميزان الا الدمعة فانها يطفأ بها بحار من النار » واخرج الترمذى وحسنه من حديث أنس رضى الله عنه قال سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يشفع لى يوم القيامة فقال « انا فاعل ان شاء الله » قلت أين أطلبك ؟ قال « أول ماتطلبنى على الصراط »قلت فان لم القك على الصراط قال«فاطلبنى عند الميزان» قلت فان لم القك عند الميزان قال « فاطلبنى عند الحوض فانى لااخطىء هذه الثلاث مواطن » ورواه البيهقى فى البعث وغيره

(تنبيهات)

تنبيهات الاول الميزان واحد أم متعدد ؟

(الاول) اختلف فى الميزان هل هو واحد أو أكثر فالاشهر أنه ميزان واحد لجميع الامم ولجميع الاعمال كفتاه كاطباق السموات والارض كما مر ، وقيل انه لكل امة ميزان • وقال الحسن البصرى : لكل واحد منن المكلفين ميزان•قال بعضهم الاظهر اثبات موازين يوم القيامة لاميزان واحد لقوله تعالى (ونضع الموازين) وقوله (فمن ثقلت موازينه)قال وعلى هذا فلا يبعد أن يكون لأفعال القلوب ميزان ولأفعال الجوارح ميزان ولما يتعلق بالقول ميزان • أورد هذا ابن‌عطية وقال : الناس على خلافه‌وانما لكل‌واحد وزن مختص به والميزان واحد • وقال بعضهم انما جمع الموازين فى الآية الكريمة لكثرة من توزن أعمالهم • وهو حسن

الثاني : العبد يوزن أم صحفه أم العمل ؟

(الثانى)

اختلف فى الموزون قيل يوزن العبد مع عمله ، وقيل توزن نفس الاعمال فتصور الاعمال الصالحة بصورة حسنة نورانية ثم تطرح فى كفة النور وهى اليمنى المعدة للحسنات فتثقل بفضل الله سبحانه ، وتصور الاعمال السيئة بصورة قبيحة ظلمانية ثم تطرح فى الكفة المظلمة وهى الشمال المعدة للسيئات فتخفف بعدل الله سبحانه كما جاء به الحديث ، فامتناع قلب الحقائق فى مقام خرق العادات غير ملتفت اليه كما لايخفى ، وقيل أن الله تعالى يخلق اجساما على عدد تلك الاعمال من غير قلب لها . والحق ماقدمناه ان الموزون صحف الاعمال وصححه ابن عبد البر والقرطبى وغيرهما وصوبه الشيخ مرعى فى بهجته وذهب اليه جمهور من المفسرين، وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عما يوزن يوم القيامة فقال : « الصحف » ذكره الفخر الرازى وغيره وحكاه ابن عطية عن أبى المعالى ، ويؤيد ذلك حديث البطاقة والسجلات رواه الترمذى وحسنه وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه والحاكم والبيهقى وقال الحاكم : على شرط مسلم . عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ان الله يستخلص رجلا من أمتى على رؤوس الخلائق يوم القيامة فينشر له تسعة وتسعون سجلا كل سجل مثل مد البصر ثم يقول اتنكر من هذا شيئا ؟ أظلمك كتبتى الحافظون ؟ فيقول لايارب، فيقول افلك عذر أو حسنة ؟ فيقول لا يارب ، فيقول الله : بلى ان لك عندنا حسنة فانه لاظلم عليك اليوم فتخرج بطاقة فيها أشهد أن لا اله الا الله واشهد أن محمدا عبده ورسوله فيقول : احضر وزنك ، فيقول يارب ماهذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فيقال : فانك لاتظلم ، وتوضع السجلات فى كفة والبطاقة فى كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة فلا يثقل مع اسم الله شىء » قال العلامة الشيخ مرعى فى بهجته ثبت بهذا الحديث الصحيح ان الموزون صحائف الاعمال ، وهو الحق ، فان قيل قد اخرج الشيخان عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى اللهه عليه وسلم انه قال « انه ليأتى الرجل العظيم السمين يوم القيامة لايزن عند الله جناح

بعوضة » فقد صرح بأن الموزون نفس بدن الانسان فالجواب ان هذا ضربه النبى صلى الله عليه وسلم مثلا للذى يغتر ببعض الاجسام وهو كناية عن اكتراث الله بالاجسام فان الله لاينظر للصور وانما ينظر للاعمال والقلوب فكم من جسم وسيم وهو عند الله من اصحاب الجحيم فهذا محمل الحديث الصحيح والله اعلم

الثالث : هل يوزن الايمان ؟

(الثالث)

قال النسفى فى بحر الكلام ان الايمان لايوزن لانه ليس له ضد يوضع فى كفة الميزان الاخرى لان ضده الكفر ، والايمان والكفر لايكونان فى الانسان الواحد • قلت هذا وزن كلمة الاخلاص وهى أس الايمان ، وانتصر القرطبى للنسفى كالحكيم الترمذى واجاب عن كلمة الاخلاص بأنها انما تكون ايمانا أول مرة وبعد ذلك تكون من حسناته • قال ويدل عليه قوله صلى الله عليه وسلم : بلى ان لك عندنا حسنة : ولم يقل ان لك عندنا ايمانا وقد سئل صلى الله عليه وسلم عن لا اله الا الله من الحسنات هى ؟ « من أعظم الحسنات » رواه البيهقى وغيره • قلتوفيهنظرلايخفى• (فان قيل) ماالحكمة فى الوزن مع ان الله عالم بكل شىء فيعلم خائنةالاعين وماتخفىالصدور ؟ (اجاب) الثعلبى بأن الحكمة فى ذلكتعريف الله عدده مالهم عنده من الجزاء من خير أو شر • وقال العلامة الشيخ مرعى بل الحكمة فيه اظهار العدل وبيان الفضل حيث انه يزن مثاقيل الذر من خير أو شر (وان تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما)

الرابع : الكفة الثقيلة تهبط أم ترتفع ؟

(الرابع)

ظواهر الآثار واقوال العلماء ان كيفية الوزن فى الآخرة خفة وثقلا مثل كيفيته فى الدنيا ماثقل نزل الى اسفل ثم يرفع الى عليين وماخف طاش الى اعلى ثم نزل الى سجين وبه صرح جموع منهم القرطبى • وقال بعض المتأخرين بل الصفة مختلفة وان عمل المؤمن اذا رجح صعد وسفلت سيئته ، والكافر تسفل كفته لخلو الاخرى عن الحسنات ، ثمتلا قولهتعالى (والعمل الصالح يرفعه) • وذكر بعضهم فى صفة الوزن ان تجعل جميع

اعمال العباد فى الميزان فى مرة واحدة الحسنات فى كفة النور وهى يمين العرش جهة الجنة والسيئات فى كفة الظلمة وهى عن يساره جهة النار ويخلق الله لكل انسان علما ضروريا يدرك به خفة اعماله وثقلها . وقيل بل علامة الرجحان عمود نور يقوم فى كفة الحسنات حتى يكسو كفة السيئات ، وعلامة الخفة عمود ظلمة يقوم من كفة السيئات حتى يكسو كفة الحسنات لكل احد وبالله التوفيق

ولما انتهى الكلام على الوقوف والحساب وتطاير الصحف والميزان للثواب اعقب ذلك بذكر الصراط فقال :

الصراط

((كذا الصراط ثم حوض المصطفى
فيا هنا لمن به نال الشفا))

((كذا)) اجزم بثبوت ((الصراط)) فانه حق ثابت بلا شطاط وهو فى اللغة الطريق الواضح ومنه قول جرير

أمير المؤمنين على صراط اذا اعوج الموارد مستقيم

وقول الآخر

* فصد عن نهج الطريق الواضح * والصراط بالصاد والسين المهملتين وبالزاى على نزاع فى اخلاصها ومضارعتها بين الصاد والزاى من سرطت الشىء بكسر الراء اذا ابتلعته لانه يبتلع المارة كما أن الطريق كذلك أى يغيبهم ، وفى الشرع جسر ممدود على متن جهنم يرده الأولون والآخرون فهو قنطرة جهنم بين الجنة والنار وخلق من حين خلقت جهنم . قال القرطبى فى تذكرته : اعلم رحمك الله تعالى ان فى الآخرة صراطين أحدهما مجاز لاهل المحشر كلهم ثقيلهم وخفيفهم الامن دخل الجنة بغير حساب والامن يلتقطه عنق من النار،فاذا خلص من خلص من هذا الصراط الاكبر الذى ذكرناه ولايخلص عنه الا المؤمنون الذين علم الله منهم ان القصاص لايستنفد حسناتهم حبسوا على صراط خاص لهم ولايرجع الى النار من هؤلاء احد ان شاء الله تعالى لانهم قد عبروا الصراط الاول المضروب على متن جهنم التى يسقط فيها من اوبقته ذنوبه وزاد على الحساب

هل وراء الصراط صراط آخر ؟

جرمه وعيوبه فقد أخرج البخارى والاسماعيلى فى مشيخته واللفظ له عن أبى سعيد الخدرى رضى لله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم فى هـــذه الآية (ونزعنا مافى صدورهم من غل اخوانا على سرر متقـــابلين) قال « يخلص المؤمنون من النار فيحبسون على قنطره بين الجنة والنـار فيقتص بعضهم من بعض مظالم كانت بينهم فى الدنيا حتى اذا هذبوا ونقوا اذن لهم فى دخول الجنة فو الذى نفس محمد بيده لأحدهم أهدى بمنزله فى الجنة منه بمنزله فى الدنيا » قال قتادة كان يقال مايشبه بهم الا أهل الجمعة انصرفوا من جمعتهم ، قال القرطبى هذا فى حق من لم يدخل النار من عصـــاة الموحدين اما من دخلها ثم أخرج فانهم لايحبسون بل اذا خرجوا بثـــوا على انهار الجنة . وقال الحافظ ابن حجر قوله : يخلص المؤمنون من النار اى ينجون من السقوط فيها بمجاوزة الصراط فيها ، قال واختـــلف فى القنطرة المذكورة فقيل انها من تتمة الصراط وهى طرفه الذى يلى الجنة وقيل انها صراط آخر وبه جزم القرطبى . قال الحافظ جلال الدين السيوطى فى كتابه البدور السافرة فى علوم الآخـــرة . والاول يعنى انه طرف الصراط الذى يلى الجنة هو المختار الذى دلت عليه احاديث القنـــاطر والحساب على الصراط . انتهى

صفة الصراط والمرور عليه

قال العلماء : الصراط أدق من الشعرة وأحد من السيف واحمى من الجمرة فقد أخرج الطبرانى باسناد حسن عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : يوضع الصراط على سواء جهنم مثل حد السيف المرهف مدحضة - اى مزلقة أى لا تثبت عليه قدم بل تزل عنه الا من يثبته الله تعالى -عليه كلاليب من نار تخطف اهلها فتمسك بهواديها ويستبقون عليه بأعمالهم فمنهم من شده كالبرق فذاك الذى لا ينشب أن ينجو ، ومنهم من شده كالريح ، ومنهم من شده كالفرس الجواد ، ومنهم من شده كهرولة الرجل ، ثم كرمل الرجل ، ثم كمشى الرجل ، وآخر من يدخل الجنة رجل قد لوحته النار فيقول الله له : سل وتمن ، فاذا فرغ قال : لك ما سألت ومثله معه . وأخرج ابن منيع فى مسنده عن ابى هريرة رضى الله عنه مرفوعا « الصراط كحد السيف دحض مزلة ذا حسك وكـــلاليب »

وأخرج الامام احمد عن عائشة رضى الله عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لجهنم جسر ادق من الشعر وأحد من السيف عليه كلاليب وحسك تأخذ من شاء الله والناس عليه كالطرف وكالبرق وكالريح وكأجاويد الخيل والركاب ، والملائكة يقولون ر بسلم سلم ، فناج مسلم ومخدوش مسلم ومكور فى النار على وجهه» وأخرج مسلم عن أبى سعيد الخدرى قال بلغنى ان الجسر أدق من الشعر وأحد من السيف • وأخرج ابن ماجه عن ابى سعيد ايضا سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « وضع الصراط بين ظهرانى جهنم عليه حسك كحسك السعدان ثم يستجيز الناس فناج مسلم ومخدوش به ثم ناج ومحتبس به ومنكوس فيها » واخرج ابن جرير والبيهقى فن ابن مسعود رضى الله عنه قال : الصراط على جهنم مثل حد السيف فتمر الطبقة الاولى كالبرق ، والثانية كالريح ، والثالثة كأجود الخيل ، والرابعة كأجود البهائم ، يمرون والملائكة يقولون اللهم سلم اللهم سلم • وأخرج البيهقى عن أنس رضى الله عنه سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « الصراط كحد السيف وان الملائكة ينجون المؤمنين والمؤمنات وان جبريل لآخذ بحجزتى وانى لأقول يا رب سلم سلم فالزالون والزالات يومئذ كثير » وأخرج ابن عساكر عن الفضيل ابن عياض رحمه الله تعالى قال بلغنا أن الصراط مسيرة خمسة عشر ألف سنة ، خمسة آلاف صعود ، وخمسة آلاف هبوط ، وخمسة آلاف مستوى ، أدق من الشعرة وأحد من السيف على متن جهنم لا يجوز عليه الا ضامر مهزول من خشية الله تعالى • وفى بعض الآثار أن طول الصراط مسيرة ثلاثة آلاف سنة ألف منها صعود وألف منها هبوط وألف منها استواء • وفى بعض الروايات أن جبريل فى أوله وميكائيل فى وسطه يسألون الناس عن عمرهم فيما أفنوه وعن شبابهم فى ما ابلوه وعن علمهم ماذا عملوا به • وفى بعض الآثار أن فيه سبع قناطر يسئل كل عبد عند كل قنطرة منها عن أنواع من التكليف • (قلت) وقد ذكر القرطبى فى تذكرته عن بعض أهل العلم انه قال لن يجوز احد الصراط حتى يسأل على سبع قناطر فأما القنطرة الاولى فيسأل عن الايمان بالله وهى شهادة ألا اله الا الله فان جاء

بها مخلصا ـ والاخلاص قول وعمل ـ جاز ، ثم يسأل في القنطرة الثانية عن الصلاة فان جاء بها تامة جاز ، ثم يسأل في القنطرة الثالثة عن صوم رمضان فان جاء به تاما جاز ، ثم يسأل في الرابعة عن الزكاة فان جاء بها تامة جاز ، ثم يسأل في الخامسة عن الحج والعمرة فان جاء بهما تامين جاز ، الى القنطرة السادسة ، فيسأل عن الغسل والوضوء فان جاء بهما تامين جاز الى السابعة ، وليس في القناطر أصعب منها فيسأل فيها عن ظلامات الناس وتبعات الخلق • وجاء في الحديث الشريف انه اذا صار الناس على طرف الصراط نادى ملك من تحت الحرش : يا فطرة الملك الجبار جوزوا على الصراط وليقف كل عاص منكم وظالم • واخرج الحاكم وصححه والطبراني عن أم الدرداء قالت قلت لابى الدرداء ألا تبتغى لاضيافك ما تبتغى الرجال لاضيافهم ؟ فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ان أمامكم عقبة كؤدا لا يجوزها المثقلون فأحب أن أتخفف لتلك العقبة » قوله كؤد هى بفتح الكاف وهمزة مضمومة الصعبة• وأخرج البزاز بلفظ « ان بين أيديكم عقبة كؤدا لا ينجو منها الا كل مخف » وأخرج الطبرانى عن أنس رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « ان بين ايدينا عقبة كؤدا لا يصعدها الا المخفون » فقال رجل يا رسول الله أمن المخفين أنا أم من المثقلين ؟ قال « عندك طعام يوم ؟ قال : نعم ، وطعام غد ؟ قال : لا ، قال لو كان عندك طعام ثلاث كنت من المثقلين » وأخرج الامام احمد بسند صحيح عن ابى ذر رضى الله عنه قال ان خليلى صلى الله عليه وسلم عهد الى أن دون جسر جهنم طريقا ذا دخض ومزلة ، وأنا ان نأتى عليه وفى أحمالنا اقتدار واصطبار أحرى أن ننجو من أن نأتى عليه ونحن مواقير

تنبيهات الاول بعضهم يتأول الصراط

(تنبيهات)

(الاول) اتفقت الكلمة على اثبات الصراط فى الجملة لكن اهل الحق يثبتونه على ظاهره من كونه جسرا ممدودا على متن جهنم أحد من السيف وأدق من الشعر ، وأنكر هذا الظاهر القاضى عبد الجبار المعتزلى وكثير من أتباعه زعما منهم انه لا يمكن عبوره ، وان أمكن ففيه تعذيب ولا عذاب على

المؤمنين والصلحاء يوم القيامة وانما المراد طريق الجنة المشار اليه بقوله تعالى (سيهديهم ويصلح بالهم) وطريق النار المشار اليه بقوله تعـــالى (فاهدوهم الى صراط الجحيم) • ومنهم من حمله على الادلة الواضحة والمباحات والاعمال الرديئة ليسأل عنها ويؤاخذ بها • وكل هذا باطـــل وخرافات لوجود رد (١) النصوص على حقائقها ، وليس العبور على الصراط بأعجب من المشى على الماء أو الطيران فى الهواء او الوقوف فيه • وقد أجاب صلى الله عليه وسلم عن سؤال حشر الكافر على وجهه بأن القدرة صالحـــة لذلك • وأنكر العلامة القرافى كون الصراط أدق من الشعر وأحد من السيف وسبقه الى ذلك شيخه العز بن عبد السلام ، والحق أن الصراط وردت به الاخبار الصحيحة وهو محمول على ظاهره بغير تأويل كما ثبت فى الصحيحين والمسانيد والسنن والصحاح مما لا يحصى الا بكلفة من أنه جسر مضروب على متن جهنم يمر عليه جميع الخلائق وهم فى جوازه متفاوتون • وقال المنكر لكون الصراط أدق من الشعر وأحد من السيف: هذا ان ثبت حمل على غير ظاهره لمنافاته للاحاديث الاخر من قيام الملائكة على جنبتيه وكون الكلاليب والحسك فيه واعطاء كل من المارين عليه من النور قدر موضع قدميه • قال القرافى : والصحيح أنه عريض ، وقيـل طريقان يمنى ويسرى فأهل السعادة يسلك بهم ذات اليمين وأهل الشقاوة يسلك بهم ذات الشمال وفيه طاقات كل طاقة تنفذ الى طبقة من طبقات جهنم وجهنم بين الخلق وبين الجنة والجسر على ظهرها منصوب فلا يدخل احد الجنة حتى يمر على جهنم وهو معنى قوله تعالى (وان منكم الا واردها) على أحد الاقوال • ثم قال القرافى تبعا للحافظ البيهقى : كون الصراط أدق من الشعر وأحد من السيف لم أجده فى الروايات الصحيحة وانما يروى عن بعض الصحابة فيؤول بأن أمره أدق من الشعر ، فان يسر الجواز عليه وعسره على قدر الطاعات والمعاصى ولا يعلم حدود ذلك الا الله تعالى ، وقد جرت العادة بضرب دقة الشعر مثلا للغامض الخفى وضرب حد السيف لاسراع الملائكة فى المضى لامتثال أمر الله واجازة الناس عليه • ورد هذا

---

(١) مخ «لوجوب رد» والظاهر « لوجوب حمل »

الامام القرطبى وغيره من أئمة الآثار • وقد أخرج مسلم تلك الزيادة في صحيحه عن ابن سعيد بلاغا وليست مما للرأى والاجتهاد فيه مجال فهي مرفوعة وقد مر من الاخبار ما يوجب الايمان بذلك ، ثم ان القادر على امساك الطير فى الهواء قادر على أن يمسك عليه المؤمن ويجريه ويمشيه ، على أنه أخرج الامام عبد الله بن المبارك وابن ابى الدنيا عن سعيد بن ابى هلال قال بلغنا أن الصراط يوم القيامة يكون على بعض الناس أدق من الشعر وعلى بعض مثل الوادى الواسع • وأخرج أبو نعيم عن سهل بن عبد الله التسترى قال من دق الصراط عليه فى الدنيا عرض عليه فى الآخرة ، ومن عرض عليه الصراط فى الدنيا دق له فى الآخرة •

الثاني :الصراط مخلوق الآن

(الثانى) تقدم ان الصراط مخلوق الآن ونقل فى كنز الاسرار عن بعض أهل العلم انه يجوز أن يخلقه الله تعالى حين يضرب على متن جهنم ويجوز أن يكون خلقه حين خلق جهنم • ونحوه فى كلام القاضى عياض قال الحليمى من الشافعية : لم يثبت انه يبقى الى خروج عصاة الموحدين من النار فيجوزونها عليه الى الجنة• ويحتمل انه يزال ثم يعاد لهم أو لا يعاد أو تصعد به الملائكة الى السور الذى فى الاعراف • قال البدر الزركشى : ومن الحكمة فى الصراط ورفعه ان يظهر للمؤمنين من عظيم فضل الله تعالى النجاة من النار ولتصير الجنة اسر لقلوبهم بعد وليتحسر الكافر بفوز المؤمنين بعد اشتراكهم فى العبور •

الثالث برد ما قيل انه شعرة

(الثالث) من الخرافات الباردة زعم من زعم أن ماهية الصراط شعرة من شعر جفون مالك خازن النار فهو كلام تنبو عنه المسامع ويكذبه كل سامع وان نقله الحافظ برهان الدين الحلبى فلا ينبغى أن يلتفت اليه ولا يعول عليه • والله تعالى أعلم •

الحوض

((ثم)) اجزم بعد البعث والنشور وأخذ الصطف والمرور بثبوت ((حوض)) النبى ((المصطفى)) نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فانه حق ثابت باجماع اهل الحق وقال تعالى (انا أعطيناك الكوثر) قال الحافظ جلال الدين السيوطى فى كتابه البدور السافرة ورد ذكر الحوض من رواية بضعة وخمسين صحابيا منهم الخلفاء الاربعة الراشدون وحفاظ

الصحابة المكثرون وغيرهم رضوان الله عليهم أجمعين ثم ذكر الاحاديث عنهم واحدا واحدا والله أعلم .

الحوض قبل الصراط أم بعده؟

قال القرطبي ذهب صاحب القوت الى أن الحوض بعد الصراط . قال والصحيح أنه قبله . وكذا قال الغزالي : ذهب بعض السلف الى أن الحوض يورد بعد الصراط وهو غلط من قائله . قال القرطبي والمعنى يقتضي تقديم الحوض على الصراط فان الناس يخرجون من قبورهم عطاشا فناسب تقديمه لحاجة الناس اليه . قال ابن عباس رضى الله عنهما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الوقوف بين يدى الله تعالى هل فيه ماء ؟ قال « أي والذى نفسى بيده ان فيه لماء وان أولياء الله ليردون الى حياض الانبياء عليهم السلام » ورجح القاضي عياض أن الحوض بعد الصراط وان الشرب منه يقع بعد الحساب والنجاة من النار . وقال ابن حمدان فى عقيدته يشرب منه المؤمنون قبل دخول الجنة وبعد جواز الصراط . انتهى . وقال الحافظ ابن حجر : ظاهر الاحاديث ان الحوض بجانب الجنة لينصب فيه الماء من النهر الذى داخلها فلو كان قبل الصراط لحالت النار بينه وبين الماء الذى يصب من الكوثر فيه ، قال واما ما أورد عليه من أن جماعة يدفعون عن الحوض بعد أن يروه ويذهب بهم الى النار فجوابه انهم يقربون من الحوض بحيث يرونه ويرون الجنة فيدفعون فى النار قبل أن يخلصوا من بقية الصراط . وقال القرطبي فى التذكرة ان للنبي صلى الله عليه وسلم حوضين احدهما فى الموقف قبل الصراط والثانى فى الجنة وكلاهما يسمى كوثرا والكوثر فى كلام العرب الخير الكثير . قال الجلال السيوطى وقد ورد التصريح فى حديث صحيح عند الحاكم وغيره بأن الحوض بعد الصراط فان قيل اذا خلصوا من الموقف دخلوا الجنة فلم يحتاجوا الى الشرب منه فالجواب بل يحتاجون الى ذلك لانهم محبوسون هناك لأجل المظالم فكان الشرب فى موقف القصاص ، ويحتمل الجمع بأن يقع الشرب من الحوض قبل الصراط لقوم وتأخيره بعده لآخرين بحسب ما عليهم من الذنوب والاوزار حتى يهذبوا منها على الصراط ولعل هذا أقوى . انتهى . قال العلامة الشيخ مرعى فى بهجته وهذا فى غاية التحقيق جامع للقولين

وهو دقيق . انتهى . قال القرطبى فى التذكرة ولا يخطر ببالك او يذهب وهمك الى أن هذا الحوض يكون على وجه هذه الارض وانما يكون وجوده على الارض المبدلة على مسافات هذه الاقطار وفى المواضع التى تكون بدلا من هذه المواضع فى هذه الارض وهى ارض بيضاء كالفضة لم يسفك عليها دم ولم يظلم على ظهرها احد قط . اخرج الشيخان وغيرهما من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « حوضى مسيرة شهر ماؤه أبيض من اللبن وريحه أطيب من المسك وكيزانه كنجوم السماء من شرب منه لا يظمأ ابدا » وفى رواية « حوضى مسيرة شهر وزواياه سواء وماؤه أبيض من الورق » وهى عندهما أيضا . وأخرج الامام أحمد بسند صحيح وابن حبان فى صحيحه واللفظ للامام أحمد عن ابى أمامة رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ان الله وعدنى ان يدخل من أمتى الجنة سبعين ألفا بغير حساب » فقال يزيد بن الاخنس : والله ما اولئك فى أمتك الا كالذباب الاصهب فى الذباب ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قد وعدنى سبعين ألفا مع كل ألف سبعين ألفا وزادنى ثلاث حثيات » قال فما سعة حوضك يا رسول الله ؟ قال « كما بين عدن الى عمان وأوسع وأوسع » يشير بيده قال فيه مثعبان بضم الميم والعين المهملة بينهما مثلثة وآخره موحدة هو مسيل الماء من ذهب وفضة . قال فماء حوضك يا نبى الله ؟ قال « اشد بياضا من اللبن وأحلى من العسل وأطيب رائحة من المسك من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبدا ولم يسود وجهه أبدا » ومن ثم قال ((فياهنا)) قال فى القاموس :الهنىء والمهنأ ما أتاك بلا مشقة وقد هنئ وهنؤ هناءة وهنأنى ولى الطعام يهنأ ويهنىء ويهنوء هنأ وهنأ وهناءة وهنأتنيه العافيه وهو هنىء سائغ ، كأنه يقول أيها الشراب السائغ الهنىء الآتى بلامشقة اقبل ((لمن)) أى على شخص من ذكر او أنثى ((به)) اى بسبب الشرب منه ((نال)) أى أعطى يقال ناله ينوله اذا أعطاه قال فى القاموس النوال والنال والنائل العطاء ونلته ونلت له وبه أنوله به وأنلته اياه ونولته ونولت عليه وله أعطيته . فيه متعلق بنال و ((الشفا)) من ظمأ ذلك اليوم، والشفاء هو

الدواء والجمع أشفيه وجمع الجمع أشاف يقال شـــفاه برأه وطلب له الشفاء كأشفاه كما فى القاموس ، ففى حديث ابى بن كعب رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قيل له : ما الحوض ؟ قال «والذى نفسى بيده أن شرابه ابيض من اللبن وأحلى من العسل وأبرد من الثلج وأطيب ريحا من المسك وآنيته أكثر عددا من النجوم لا يشرب منه انسان فيظمأ أبدا ولا يصرف عنه انسان فيروى ابدا » رواه ابن ابى عاصم وغيره ، ففى هذا الحديث ان من لم يشرب من حوضه صلى الله عليه وسلم من أمتـــه لا يزال متصفا بداء الظمأ ابدا • وروى نحوه البزار والطبرانى من حديث أنس مرفوعا وفيه من شرب منه شربة لم يظمأ أبدا ومن لم يشرب منه لم يرو ابدا • وأخرج الطبرانى أيضا نحوه فى الاوسط من حديث ابى ســعيد الخدرى مرفوعا وفى ذلك عدة أحاديث •

((عنه يذاد المفترى كما ورد ومن نحاسبل السلامة لم يرد))

قوم يذادون عن الحوض

((عنه)) اى عن حوض النبى صلى الله عليه وسلم وعن الشرب منه ((يذاد)) بضم التحتية وفتح الذال المعجمة فدال مهملة قبلها ألف مبنى لمالم يسم فاعله أى يطرد ويساق ويدفع دفعا عنيفا قال فى القاموس الـــذود السوق والطرد والدفع كالذياد ((المفترى)) نائب الفاعل من الفريـــة بكسر الفاء الكذب يقال فرى يفرى فريا وافترى يفترى افتراء اذا كذب وهو افتعال منه ومنه (ولا يأتين ببهتان يفترينه) وفى الحديث « من افرى الفرى أن يرى الرجل عينيه ما لم تريا » فالفرى جمع فرية وهى الكذبة وأفرى أفعل منه للتفضيل اى أكذب الكذبات أن يقول رأيت فى النـــوم كذا ولم يكن رأى شيئا لانه كذب على الله لانه هو الذى يرسل ملـــك الرؤيا ليريه المنام • والحاصل أن من الذين يذادون عن الحوض جنس المفترين على الله تعالى وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم من المحدثين فى الدين من الروافض والخوارج وسائر اصحاب الاهواء والبدع المضلة ، وكذلك المسرفون من الظلمة المفرطون فى الظلم والجور وطمس الحق كذلك المتهتكون فى ارتكاب المناهى والمعلنون فى اقتراف المعاصى فقد أخرج مسلم فى صحيحه عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال اغفى رسول الله

صلى الله عليه وسلم اغفاءة ثم رفع رأسه مبتسما فقال « انه انزلت على آنفا سورة فقرأ (بسم الله الرحمن الرحيم انا اعطيناك الكوثر) حتى ختمها قال « هل تدرون ما الكوثر ؟ قالوا اللهورسولهاعلم، قال - هو نهرأعطانيه ربى فى الجنة عليه خير كثير ترد عليه امتى يوم القيامة آنيته عدد الكواكب يختلج العبد منهم فأقول يا رب انه من أمتى فيقال انك لا تدرى ما أحدث[1] بعدك » وأخرج الطبرانى عنه مرفوعا « أعطيت الكوثر - قلت يا رسول الله وما الكوثر ؟قال - نهر فى الجنة عرضهوطوله مابين المشرق والمغرب لا يشرب منه احد فيظمأ ولا يتوضأ منه احد فيشعث لا يشربه من اخفر ذمتيولا من قتل أهل بيتى » وأخرج مسلم فى صحيحه من حديث حذيفة بن اليمان رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليهوسلم قال « ليردن على الحوض أقوام فيختلجون دونى فأقول رب أصحابى رب أصحابى فيقال انك لا تدرى ما احدثوا بعدك » واخرج ابن أبى عاصم فى السنة عن ريحانة رسول الله صلى الله عليه وسلم أمير المؤمنين الحسن بن على رضى الله عنه انه قال لمعاوية أنت السباب لعلى اما والله لتردن عليه الحوض وما أراك ترده فتجده مشمر الازار على ساق يذود عنه لا يأتى المنافقون ذود غزيبة الابل قول الصادق المصدوق وقد خاب من افترى . وأخرج الطبرانى وابن حبان والحاكم وصححه عن خباب رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « سيكون امراء من بعدى فلا تصدقوهم بكذبهم ولا تعينوهم على ظلمهم فمن فعل لم يرد على الحوض » وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما من طريق ابى حازم عن سهل بن سعد الساعدى رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « انا فرطكم على الحوض من ورد شرب ومن شرب لم يظمأ أبدا وليردن على أقوام أعرفهم ويعرفونى ثم يحال بينى وبينهم » قال ابو حازم فسمع النعمانبن ابىعياش وأنا أحدثهذا الحديث فقال هكذا سمعتسهلا يقول؟ قلت : نعم . فقال وأنا أشهد على أبى سعيد الخدرى سمعته يزيد « انهم منى فيقال انك لا تدرى ما عملوا بعدك فأقول سحقا لمن بدل بعدى »

---

(١) مخ : ما أحدثوا

وأخرج الامام احمد والطبرانى والبزار عن ابن عباس رضى الله عنهما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « أنا فرطكم على الحوض فمن ورد أفلح ويجاء بأقوام فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول يا رب فيقال ما زالوا بعدك مرتدين على أعقابهم » وأخرج الحكيم فى نوادر الاصول عن عثمان بن مظعون رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال « يا عثمان لا ترغب عن سنتى فمن رغب عن سنتى ثم مات قبل ان يتوب ضربت الملائكة وجهه عن حوضى يوم القيامة » وأخرج الترمذى والحاكم عن كعب بن عجرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم خرج عليهم وقال « انه سيكون بعدى أمراء فمن دخل عليهم فصدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم فليس منى ولست منه وليس بوارد على الحوض ومن لم يدخل عليهم ولم يعنهم على ظلمهم ولم يصدقهم بكذبهم فهو منى وأنا منه وهو وارد على الحوض » واخرج الطبرانى من حديث ابن مسعود رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « ليرفعن لى رجال من أصحابى اذا رأيتهم اختلجوا دونى فأقول أصحابى فيقال انك لا تدرى ما أحدثوا بعدك » فهذا معنى قوله ((كما ورد)) ذلك فى الاحاديث النبوية مما ذكرنا ومما لم نذكر وقد اخرج البخارى ومسلم حديث ابن مسعود رضى الله عنه بلفظ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «انا فرطكم على الحوض وليرفعن الى رجال منكم اذا هويت اليهم لاناولهم اختلجوا دونى فأقول اى رب أصحابى فيقال انك لا تدرى ما احدثوا بعدك » وفيهما من حديث انس رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ليردن على الحوض رجال ممن صاحبنى حتى اذا رفعوا الى اختلجوا دونى فلاقولن أى رب أصحابى فليقالن لى انك لا تدرى ما احدثوا فأقول سحقا لمن بدل بعدى » وفى الصحيحين من حديث ابى هريرة رضى الله عنه انه صلى الله عليه وسلم قال « يرد على يوم القيامة رهط من أصحابى -أوقال من أمتى فيحلؤن عن الحوض فأقول يا رب أصحابى فيقول انه لا علم لك بما أحدثوا بعدك انهم ارتدوا على أدبارهم القهقرى » وفى رواية فيجعلون، قال فى جامع الاصول اختلجوا اذا استلبوا وأخذوا بسرعة وقوله فيحلؤن

يعنى مبنيا للمجهول أى يدفعون عن الماء ويطردون عن وروده اذا كان بالحاء المهملة ، ومن رواه بالجيم فهو من الجلاء وهو النفى عن الوطن وهو راجع الى الطرد • وفى رواية عند البخارى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « بينا أنا قائم على الحوض اذا زمرة حتى اذا عرفتهم خرج رجل من بينى وبينهم فقال هلم فقلت الى أين ؟ فقال الى النار والله ، فقلت ما شأنهم؟ فقال انهم قد ارتدوا على أدبارهم القهقرى ، ثم اذا زمرة أخرى حتى اذا عرفتهم خرج رجل من بينى وبينهم فقال هلم ، قلت الى أين ؟ قال الى النار والله ، قلت ما شأنهم ؟ قال انهم ارتدوا على أدبارهم ، فلا أراه يخلص منهم الا مثل همل النعم » وفى رواية لمسلم « وليصدن عنى طائفة منكم فـــلا يصلون فأقول يا رب هؤلاء اصحابى فيجيبنى ملك فيقول وهل تدرى مـــا أحدثوا بعدك » وعند مسلم أيضا من حديث عائشة رضى الله عنها انه صلى الله عليه وسلم قال « فوالله ليقتطعن دونى رجال فلاقولن اى رب منى ومن أمتى فيقول انك لا تدرى ما أحدثوا بعدك ، ما زالوا يرجعون على اعقابهم » وفى الصحيحين من حديث اسماء بنت الصديق رضى الله عنهما قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « انى على الحوص انظر من يرد على منكم وسيؤخذ ناس دونى فأقول يارب منى ومن أمتى — وفى رواية فأقول أصحابى — فيقال هل شعرت ماعملوا بعدك ؟ فوالله مابرحوا يرجعون على أعقابهم » وفى ذلك أحاديث كثيرة جدا • قال القرطبى قال علماؤنا كل من ارتد عن دين الله أو احدث فيه ما لا يرضاه الله ولم يأذن به فهو من المطرودين عن الحوض وأشدهم طردا من خالف جماعة المسلمين كالخوارج والروافض والمعتزلة على اختلاف فرقهم فهؤلاء كلهم مبدلون وكذا الظلمة المسرفون فى الجور والظلم وطمس الحق واذلال أهله والمعلنون بكبائر الذنوب المستخفون بالمعاصى وجماعة اهل الزيغ والبدع • ثم الطرد قد يكون فى حال ويقربون بعد المغفرة ان كان التبديل فى الاعمال ولم يكن فى العقائد • قال وقد يقال ان أهل الكبائر يردون ويشربون واذا دخلوا النار بعد ذلك لم يعذبوا بالعطش • انتهى • فأهل البدع مطرودون عـــن حوض النبى صلى الله عليه وسلم ومردودون عن الشرب ، منه ((ومن)) أى

وأى شخص من هذه الامة من ذكر وأنثى ((نحا)) أى قصد يقال نحاه ينحوه وينحاه قصده كانتحاه ((سبل)) بضم السين المهملة ككتب جمع سبيل وهو الطريق وما وضح منه وجمعه ان الطريق الحق واحد باعتبار خصاله وشعبه المتوصل منه اليها ((السلامة)) من الكلمات الجامعة لخيرى الدنيا والآخرة قال فى القاموس السلامة البراءة من العيوب يعنى أن من نهج منهج الحق وسلك طريق السنة وسلم من البدع وكبائر الذنوب فانه يرد على حوض النبى صلى الله عليه وسلم ويشرب منه و ((لم يرد)) عن الشرب منه ولم يطرد عن الورود عليه كما يفهم من الاحاديث المارة وبالله التوفيق

تنبيهات الاول مقدار الحوض

(تنبيهـــات)

(الاول) اختلفت الروايات فى تحديد الحوض وتقديره اختلافا كثيرا ففى حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما انه مسيرة شهر وزواياه سواء ، وفى رواية عند الامام احمد أن الحوض كما بين عـــدن وعمان ، وفى رواية فى الصحيحين ما بين صنعاء والمدينة ، وفى روايـــة لهما ايضا ما بين المدينة وعمان ، وفى رواية ما بين ايلة ومكة ، وعند ابن ماجه ما بين المدينة الى بيت المقدس ، وفى رواية ما بين جرباء واذرح ، وفى رواية ما بين أيلة وصنعاء اليمن ، وهو فى الصحيحين . قال فى جامع الاصول عن كون حوضه صلى الله عليه وسلم ما بين جنبيه كما بين جرباء واذرح رواه البخارى ومسلم وابو داود ، وقال بعض الرواة هما قريتان بالشام بينهما مسيرة ثلاث ليال ، وفى لفظ ثلاثة أيام . قال فى القـاموس وجرباء قرية بجنب أذرح وغلط من قال بينهما ثلاثة أيام ، وانما الوهم من رواة الحديث من اسقاط زيادة ذكرها الدارقطنى وهى : ما بـــين ناحيتى حوضى كما بين المدينة وجرباء وأذرح انتهى . وفى مسلم والترمذى مثل ما بين عدن الى عمان البلقاء . قال بعض العلماء وهذا الاختلاف والاضطراب لا يوجب الضعف لانه من اختلاف التقدير والتحديد لا من الاختلاف فى الرواية لان ذلك لم يقع فى حديث واحد فيعد اضطرابا وانما جـــاء فى أحاديث مختلفة عن غير واحد من الصحابة وقد سمعوه فى مواطن متعددة وكان النبى صلى الله عليه وسلم يمثل لكل قوم الحوض بحسب ما يعلم

المتكلم ويفهم السائل وبحسب ما يسنح له صلى الله عليه وسلم من العبارة ويحدد الحوض بحسب ما يفهم الحاضرون من الاشارة • قال الحافظ ابن حجر هذا الاختلاف المتباعد الذى يزيدتارة على ثلاثين يوما وينقص الى ثلاثة أيام لا يصلح أن يكون من ضرب المثل فى التقدير لانه انما يكون بما يتقارب • ورد عليه بأن رواية ثلاثة أيام اعترف هو نفسه بأنها غلط فلا يتوجه الاعتراض بها • وقال النووى ليس فى ذكر المسافة القليلة ما يدفع المسافة الكثيرة فالاكثر ثابت بالحديث الصحيح فلا معارضة • وقال بعضهم يحمل القصير على العرض والطويل على الطول • قلت ويرد هذا: زواياه سواء ، وأوضح من هذا ما فى رواية: طوله وعرضه سواء • وقال بعضهم بل سبب الاختلاف ملاحظة سرعة السير وعدمها فقد عهد فى الناس من يقطع مسافة عشرة ايام فى ثلاثة ايام وعكسه وأكثر من ذلك وأقل والله أعلم •

الثانى انكر بعضهم الحوض

(الثانى) خالفت المعتزلة فلم تقل باثبات الحوض مع ثبوته بالسنة الصحيحة الصريحة فكل من خالف فى اثباته فهو مبتدع ، وأما ثبوته بالقرآن فاحتمال وليس بصريح ، وأما قوله تعالى (انا أعطيناك الكوثر) ففيه اختلاف هل الحوض أو الخير الكثير أو النهر الذى فى الجنة لكن الحوض ثابت بالسنة المتواترة وظاهر الكتاب فمنكره زائغ عن الصواب مستحق للطرد والعذاب ويكفيه من الخزى والنكال أنه يذاد عنه ويطرد ، ويمنع من الشرب منه ويرد ، وقد اخرج أبو داود عن ابى طلوت قال شهدت ابا برزة رضى الله عنه دخل على عبيد الله بن زياد فحدثنى فلان سماه مسلم وكان فى السماط فلما رآه قال أن محمديكم هذا لدحداح ففهمها الشيخ فقال ما كنت أحسب انى ابقى فى قوم يعيرونى بصحبة محمد صلى الله عليه وسلم • فقال عبيد الله أن صحبة محمد لكم زين غير شين • ثم قال : انما بعثت اليك لأسألك عن الحوض هل سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر فيه شيئا ؟ قال أبو برزة رضى الله عنه لا مرة ولا مرتين و لاثلاثا ولا أربعا ولا خمسا فمن كذب به فلا سقاه الله منه ثم خرج مغضبا •

الثالث لكل نبى حوض

(الثالث) جاء فى الاخبار أن لكل نبى حوضا فأخرج الترمذى من حديث

سمرة بن جندب رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم • ان لكل نبى حوضا ترده أمته وانهم يتباهون أيهم أكثر واردة وانى أرجو أن أكون أكثرهم واردة » وورد فى بعض الاخبار أن لكل نبى حوضا الا سالحا عليه السلام فان حوضه ضرع ناقته والله أعلم •

((فكن مطيعا واقف أهل الطاعة فى الحوض والكوثر والشفاعة))

((فكن)) ايها الناظر لنظامى السامى لكلامى ((مطيعا)) لما جأت به الاخبار وصحت بمقتضاه الآثار من صريح المنقول وصحيح المعقول ((واقف)) أمر من قفوته قفوا وقفوا تبعته كتقفيته واقتفيته اى اتبع فى اعتقادك واقصد فى نهجك وارتيادك ((أهل الطاعة)) من فرقة أهل السنة والجماعة فانها الفرقة الناجية والعصابة التى لكل فوز راجية ،والطاعة اسم من أطاعه يطيعه فهو مطيع وطاع له يطوع ويطيع فهو طائع أى أذعن وانقاد والاسم الطاعة وقيل طاع اذا انقاد وأطاع اذا اتبع الامر ولم يخالفه ((فى))اعتقاد اثبات ((الحوض)) الذى تقدم ذكره بالاحاديث الصحيحة والنصوص الصريحة وتقدم دعاء الصحابى على من كذب به ان الله لا يسقيه منه • ومر فى الاحاديث أن من احدث فى هذا الدين لا يسقى منه ، وكفى بانكار السنة الصحيحة الصريحة حدثا وبدعة ((و)) أقف أهل السنة والجماعة فى اثبات ((الكوثر)) وهو فوعل من الكثرة والواو زائدة ومعناه الخير الكثير قال النبى صلى الله عليه وسلم وقد سئل ما الكوثر « ذاك نهر أعطانيه الله عزوجل — يعنى فى الجنة — أشد بياضا من اللبن وأحلى من العسل فيه طير أعناقها كأعناق الجزر » قال عمر رضى الله عنه ان هذه لناعمة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أكلتها أنعم منها » رواه الترمذى وقال حديث حسن • وفى صحيح البخارى عن أنس رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « بينا أنا أسير فى الجنة اذا أنا بنهر حافتاه قباب اللؤلؤ المجوف فقلت ما هذا ياجبريل ؟ قال هذا الكوثر الذى أعطاك ربك ، قال فضرب الملك بيده فاذا طينه مسك اذفر » وفى صحيح مسلم من حديث المختار بن فلفل عن أنس أيضا رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه

وسلم قال « الكوثر نهر فى الجنة وعدنيه ربى عز وجل » وفى الترمذى عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الكوثر نهر فى الجنة حافتاه من ذهب ومجراه على الدر والياقوت تربته اطيب من المسك وماؤه احلى من العسل وأبيض من الثلج » قال الترمذى هذا حديث حسن صحيح • قال الامام المحقق ابن القيم فى كتابه (حادى الارواح الى منازل الافراح) عن مجاهد فى قوله تعالى (انا أعطيناك الكوثر) قال الخير الكثير قال وقال أنس بن مالك رضى الله عنه نهر فى الجنة وقالت عائشة رضى الله عنها نهر فى الجنة ليس أحد يدخل أصبعيه فى أذنيه الا سمع خرير ذلك النهر • قال الامام ابن القيم : وهذا معناه والله أعلم ان خرير ذلك النهر شبه الخرير الذى يسمعه حين يدخل اصبعيه فى أذنيه • انتهى • وجاء فى التفسير أن الكوثر القرآن والنبوة والكوثر فى غير هذا الرجل الكثير العطاء كما فى النهاية •

الشفاعة

((و)) اقف أهل الطاعة واتبع أهل السنة والجماعة فى ((الشفاعة)) وهى لغة الوسيلة والطلب وعرفا سؤال الخير للغير كذا عرفها بعضهم والحق انها مشتقة من الشفع الذى هو ضد الوتر فكان الشافع ضم سؤاله الى سؤال المشفوع له من شفع يشفع بفتح العين المهمة شفاعة فهو شافع وشفيع والمشفع بكسر الفاء الذى يقبل الشفاعة والمشفع الذى تقبل شفاعته •

للنبى ص شفاعات

وأعلم أن للنبى صلى الله عليه وسلم شفاعات (الاولى) الشفاعة التى يشفع فيها لاهل الموقف حتى يقضى بينهم بعد أن يتدافعها الانبياء اصحاب الشرائع آدم الى نوح وابراهيم وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام وهى المقام المحمود وقد وردت من حديث الصديق الاعظم وأنس وأبى هريرة وابن عباس وابن عمر وحذيفة وعقبة بن عامر وأبى سعيد الخدرى وسلمان الفارسى ، هؤلاء ورد أمر الشفاعة فى أحاديثهم مطولا ، وورد مختصرا من حديث ابى بن كعب وعبادة بن الصامت وجابر بن عبد الله وعبد الله بن سلام وغيرهم رضى الله عنهم ، فأخرج الامام احمد والبخارى ومسلم وغيرهم من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « يجتمع المؤمنون يوم القيامة فيلهمون لذلك اليوم فيقولون لو استشفعنا الى ربنا

حتى يريحنا من مقامنا هذا فيأتون آدم فيقولون يا آدم أنت أبو البشر خلقك الله بيده وأسجد لك ملائكته وعلمك اسماء كل شيء فاشفع لنا الى ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا ، فيقول لهم آدم لست هناكم - ويذكر ذنبه الذى أصاب فيستحيى ربه من ذلك ويقول - ولكن ائتوا نوحا فانه اول رسول بعثه الله الى اهل الارض فيأتون نوحا فيقول لست هناكم - ويذكر خطيئته سؤال ربه ما ليس له به علم فيستحيى ربه من ذلك - ولكن ائتوا ابراهيم خليل الرحمن ، فيأتونه فيقول لست هنا كم ولكن ائتوا موسى عبدا كلمه الله وأعطاه التوراة ، فيأتون موسى فيقول لست هناكم ويذكر لهم النفس التى قتل بغير حق فيستحيى ربه من ذلك ولكن ائتوا عيسى عبدالله ورسوله وكلمته وروحه ، فيأتون عيسى فيقول لست هناكم ولكن ائتوا محمدا عبدا غفر الله له ماتقدم من ذنبه وما تأخر ، فيأتونى فأقوم فأمشى بين سماطين من المؤمنين حتى استأذن على ربى فاذا رأيت ربى وقعت ساجدا فدعنى ماشاء الله أن يدعنى ثم يقال ارفع محمد قل يسمع واشفع تشفع وسل تعطه، فأرفع راسى فأحمده بتحميد يعلمنيه ثم أشفع » الحديث. وأخرج الامام احمد بسند صحيح عن انس رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « انى لقائم أنتظر متى يعبر الصراط اذ جاءنى عيسى فقال هذه الانبياء قد جاءتك يامحمد يسألونك ويدعون الله ان يفرق بين جميع الامم الى حيث يشاء الله الى غير ماهم فيه فالخلق ملجمون بالعرق ، فأما المؤمن فهو عليه كالزكمة وأما الكافر فيغشاه الموت ، فقال انتظر حتى أرجع اليك فذهب نبى الله صلى الله عليه وسلم فقام تحت العرش فلقى مالم يلق ملك مصطفى ولا نبى مرسل فاوحى الله الى جبريل أن اذهب الى محمد وقل له ارفع رأسك سل تعطه واشفع تشفع » الحديث . وأخرج الترمذى والبيهقى عن أنس رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنا اول الناس خروجا اذا بعثوا وخطيبهم اذا أنصتوا وقائدهم اذا وفدوا وشافعهم اذا حبسوا ومبشرهم اذا أيسوا لواء الكرم بيدى ومفاتيح الجنة يومئذ بيدى وأنا أكرم ولد آدم يومئذ على ربى ولافخر يطوف على الف خادم كأنهم اللؤلؤ المكنون » وروى الامام أحمد والبزار وأبو يعلى وابن حبان فى صحيحه من

حديث الصديق الاعظم رضى الله عنه نحو حديث انس فى مراجعتهم الانبياء عليهم الصلاة والسلام قال اسحاق بن ابراهيم يعنى الامام ابن راهويه هذا أشرف الحديث • وقد روى هذا الحديث عدة عن النبى صلى الله عليه وسلم • وعند البخارى ومسلم وغيرهما من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال « انا سيد الناس يوم القيامة وهل تدرون مم ذاك ؟ يجمع الله الاولين والآخرين فى صعيد واحد يسمعهم الداعى وينفذهم البصر وتدنو منهم الشمس فيبلغ الناس من الغم والكرب مالا يطيقون ولا يحتملون فيقول الناس الا ترون الى ماأنتم فيه الى ما قد بلغكم ؟ الا تنظرون الى من يشفع لكم الى ربكم ؟ فيقول بعض الناس لبعض : أبوكم آدم ، فيأتونه فيقولون يا آدم أنت أبو البشر خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأمر الملائكة فسجدوا لك وأسكنك الجنة الا تشفع لنا الى ربك الا ترى ما نحن فيه ومابلغنا ؟ فيقول ان ربى غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله وانه نهانى عن الشجرة فعصيت ، نفسى نفسى ، اذهبوا الى غيرى ، اذهبوا الى نوح ، فيحيلهم على ابراهيم ، وابراهيم على موسى ، وموسى على عيسى ، وعيسى يقول اذهبوا الى غيرى ، اذهبوا الى محمد ، فيأتون فيقولون يامحمد أنت رسول الله وخاتم الانبياء وقد غفر الله لك ماتقدم من ذنبك وماتأخر اشفع لنا الى ربك الا ترى ما نحن فيه ؟ فأنطلق فا تى تحت العرش فأقع ساجدا لربى ثم يفتح الله على من محامده وحسن الثناء عليه شيئا لم يفتحه على أحد قبلى ، ثم يقال يامحمد ارفع رأسك سل تعطه واشفع تشفع ، فأرفع رأسى فأقول أمتى يارب ، فيقال يامحمد أدخل من أمتك من لاحساب عليهم من الباب الايمن من أبواب الجنة وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الابواب ، ثم قال والذى نفسى بيده ان مابين المصراعين من مصاريع الجنة كمابين مكة وهجر ، أو كمابين مكة وبصرى • وأخرج الامام احمد وأبو يعلى من حديث ابن عباس رضى الله عنهما مرفوعا نحوه وفيه انهم يأتون عيسى بعد آدم ونوح وابراهيم وموسى عليهم السلام فيقولون لعيسى عليه السلام اشفع انا الى ربك فليقض بيننا فيقول انى لست هناكم انى اتخذت الها من دون الله وانى لايهمنى اليوم الا

نفسى ولكن ان كل متاع فى وعاء مختوم عليه أكان يقدر على مافى جوفه حتى يفض الخاتم ؟ فيقولون لا ، فيقول ان محمدا صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين قد حضر اليوم وقد غفر له ماتقدم من ذنبه وما تأخر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيأتوننى فيقولون يامحمد اشفع لنا الى ربك فليقض بيننا ، فيقول انالها حتى يأذن الله لمن يشاء ويرضى فاذا أراد الله أن يصدع بين خلقه نادى مناد أين أحمد وأمته ؟ فنحن الآخرون الاولون نحن آخر الامم وأول من يحاسب فتفرج لنا الامم عن طريقنا فنمضى محجلين من اثر الطهور فتقول الامم كادت هذه الامة ان تكون انبياء كلها فنأتى باب الجنة فآخذ بحلقة الباب فأقرع الباب فيقال من أنت فيقول انا محمد » الحديث وفيه يا محمد ارفع رأسك وسل تعطه وقل يسمع واشفع تشفع • وفى صحيح البخارى من حديث ابن عمر رضى الله عنهما ان الناس يصيرون يوم القيامة جثى كل امة تتبع نبيها يقولون يافلان اشفع لنا حتى تنتهى الشفاعة الى النبى صلى الله عليه وسلم فذلك يوم يبعثه الله مقاما محمودا

(فوائد)

فوائد الاولى هذه الشفاعة العامة

(الاولى) هذه الشفاعة العامة التى خص بها نبينا صلى الله عليه وسلم من بين سائر الانبياء هى المرادة بقوله صلى الله عليه وسلم ، لكل نبى دعوة مستجابة فتعجل كل نبى دعوته وانى اختبأت دعونى شفاعة لامتى وهذه الشفاعة لاهل الموقف انما هى لاجل حسابهم ويراحوا من الموقف كما قاله القرطبى فى تذكرته ، قال وقوله فى حديث أبى هريرة يا محمد أدخل من أمتك من لاحساب عليهم من الباب الايمن يدل على انه شفع فيما طلب من تعجيل حساب أهل الموقف فانه لماأمر بادخال من لاحساب عليه من أمته فقد شرع فى حساب من عليه حساب من أمته وغيرهم وكان طلب هذه الشفاعة من الناس غلط (؟) ثم يلهمون • وذكر ابن برجان فى الارشادان الذى يدلهم على ذلك رؤس المحشر وهم رؤساء اتباع الرسل • قال الحافظ السيوطى وحديث لكل نبى دعوة الخ متواتر ورد من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أخرجه الشيخان ، ومن حديث انس وجابر رضى الله عنهما أخرجهما مسلم وعبد الله بن عمرو وعبادة بن الصامت وأبى سعيد الخدرى رضى

الله عنهم أخرجها الامام احمد، وعبدالرحمن بن أبى عقيل رضى الله عنه أخرجه البزار والبيهقى ، وحكمة الهام الناس التردد الى غير النبى صلى الله عليه وسلم قبله ولم يلهموا المجيء اليه من اول وهلة لاظهار فضله وشرفه صلى الله عليه وسلم . واما ماذكره أبوحامد الغزالى فى كتابه كشف علوم الآخرة ان بين اتيان أهل الموقف آدم واتيانهم نوحا ألف سنة وكذا بين كل نبى ونبى فقال الحافظ ابن حجر فى شرح البخارى لم اقف لذلك على أصل . قال وقد اكثر فى هذا الكتاب من ايراد احاديث لا اصل لها فلا يغتر بشيء منها . انتهى .

الثانية هذه الشفاعة مجمع عليها

(الثانية) شفاعة النبى صلى الله عليه وسلم نوع من السمعيات وردت بها الآثار حتى بلغت مبلغ التواتر المعنوى وانعقد عليها اجماع اهل الحق من السلف الصالح قبل ظهور المبتدعة لكن هذه الشفاعة العظمى مجمع عليها لم ينكرها احد ممن يقول بالحشر اذ هى للاراحة من طول الوقوف حين يتمنون الانصراف من موقفهم ذلك ولو الى النار

الثالثة حكم السجود فى المحشر

(الثالثة) سئل القاضي جلال الدين البلقينى عن حكم سجود النبى صلى الله عليه وسلم من حيث الوضوء فأجاب بأنه باق على طهارة غسل الموت ويحتمل وهو الاصح بأن أمور الآخرة ليست كأحكام الدنيا اذ الآخرة ليست بدار تكليف فلا يتوقف السجود فيها على وضوء والله أعلم

((فانها ثابتة للمصطفى   كغيره من كل أسباب الوفا))
((من عالم كالرسل والابرار   سوى التي خصت بذى الانوار))

((فانها)) أى الشفاعة العظمى وغيرها من سائر الشفاعات الآتى ذكرها (ثابتة) بالنقل الصحيح بل المتواتر ((لـ)) لنبى ا ((لمصطفى)) محمد صلى الله عليه وسلم ((كـ)) ما انها ثابتة لـ ((غيره)) أى غير نبينا محمد المصطفى صلى الله عليه وسلم ((من كل ارباب)) اى اصحاب ((الوفا)) بامتثال الاوامر والانتهاء عن الزواجر . ثم أخذ فى بيان ما أجمل من أرباب الوفا بقوله ((من عالم)) عامل بعلمه معلم لغيره وهم الربانيون وهؤلاء ورثة الانبياء فهؤلاء كما نفعوا الناس فى الدنيا بالدلالة والتعليم كذلك ينفعونهم بالشفاعة لهم عند المولى الجواد الكريم فيقبل شفاعاتهم ويعلى درجاتهم ((كالرسل))

جمع رسول وهو من أوحى اليه بشرع من بنى آدم وأمر بتبليغه وكـــذا الانبياء وهم يعنى الرسل والانبياء خواص الخلق من بنى آدم ((والابرار)) جمع بار وهم الاتقياء الاخيار .

شفاعة الانبياء وغيرهم

والحاصل أنه يجب أن يعتقد أن غير النبى صلى الله عليه وسلم من سائر الرسل والانبياء والملائكة والصحابة والشهداء والصديقين والاوليـــا على اخـتلاف مراتبهم ومقاماتهم عند ربهم يشفعون وبقدر جاههم ووجاهتهم يشفعون لثبوت الاخبار بذلك وترادف الآثار على ذلك وهو أمر جائز غير مستحيل فيجب تصديقه والقول بموجبه لثبوت الدليل فقد قال صـــلى الله عليه وسليم « أنا أول شافع وأول مشفع » روى هذا اللفظ ابو هريرة رضى الله عنه أخرجه مسلم، وجابر بن عبدالله رضى الله عنهما اخرجه البيهقى ، وعبد الله بن سلام رضى الله عنه أخرجه البيهقى أيضا . وأما حديث ابن مسعود رضى الله عنه عند البيهقى قال يشفع نبيكم رابع أربعة جبـريل ثم ابراهيم ثم موسى أو عيسى ثم نبيكم لا يشفع أحد فى أكثر مما يشفع فيــه نبيكم ثم الملائكة ثم النبيون ثم الصديقون ثم الشهداء. قال البخارى كذا قال أبو الزعراء عن ابن مسعود ولا يتابع عليه والمشهور أنه صلى الله عليه وسلم أول شافع ، وكذا قال غير البخارى من أئمة الحفاظ والله أعلم

واخرج ابن ماجه والبيهقى عن عثمان بن عفان رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « يشفع يوم القيامة الانبياء ثم العلماء ثم الشهداء » وأخرجه البزار وفى آخره « ثم المؤذنون » وأخرج الطبرانى فى الكبير والبيهقى عن ابن مسعود رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وســــلم « ليدخلن الجنة قوم من المسلمين قد عذبوا فى النار - برحمة الله وشفاعة الشافعين » وأخرج الامام أحمد والبيهقى من حديث حذيفة نحوه. وأخرج الطبرانى فى الاوسط عن أنس رضى الله عنه قال قال رسول الله صــــلى الله عليه وسلم « يشفع الله آدم يوم القيامة من جميــع ذريته فى مائة الف ألف وعشرة آلاف ألف » وأخرج ابن أبى عاصم والاصـــبهانى عن أبى امامة رضى الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يجاء بالعــــالم والعابد فيقال للعابد ادخل الجنة ، ويقال للعالم قف حتى تشفع للنـــاس »

واخرج البيهقى من حديث جابر مثله وزاد فى آخره « بما أحسنت أدبهم » واخرج الديلمى من حديث ابن عمر رضى الله عنهما مرفوعا « يقال للعالم اشفع فى تلامذتك ولو بلغ عددهم نجوم السماء » واخرج أبو داود وابن حبان عن ابى الدرداء سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «الشهيد يشفع فى سبعين من أهل بيته » وأخرج الامام احمد والطبرانى مثله من حديث مقدام بن معدى كرب • وأخرج البزار والبيهقى بسند صحيح عن أنس رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الرجل « ليشفع فى الرجل والرجلين والثلاثة يوم القيامة » وأخرج الترمذى والحاكم وصححاه والبيهقى عن عبد الله بنأبى الجدعاء ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ليدخلن الجنة بشفاعة رجل من أمتى أكثر من بنى تميم » قالوا سواك يا رسول الله ؟ قال «سواى» قال الفريابى يقال انه عثمان بن عفان رضى الله عنه • وأخرج البيهقى عن الحسن مرفوعا « ليدخلن الجنة بشفاعة رجل من أمتى أكثر من ربيعة ومضر » والحاكم وصححه والبيهقى عن الحارث بن قيس مرفوعا « أن من أمتى من يدخل الجنة بشفاعته اكثر من مضر وان من أمتى من سيعظم للنار حتى يكون زوارها » وأخرج الامام احمد مثله من حديث ابى برزة • وهناد مثله من حديث ابى هريرة • واخرج الامام أحمد والطبرانى والبيهقى بسند صحيح عن أبى أمامة رضى الله عنه انه سمع النبى صلى الله علىه وسلم يقول « ليدخلن الجنة بشفاعة رجل ليس بنبى مثل الحيين ربيعة ومضر » واخرج الترمذى وحسنه والبيهقى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ان من امتى لرجالا يشفع الرجل منهم فى الفئام من الناس فيدخلون الجنة بشفاعته ،ويشفع الرجل منهم للقبيلة فيدخلون الجنة بشفاعته ، ويشفع الرجل منهم للرجل وأهل بيته فيدخلون الجنة بشفاعته » واخرج الطبرانى عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : لاتزال الشفاعة بالناس وهم يخرجون من النار حتى أن ابليس الاباليس ليتطاول لها رجاء ان تصيبه • واخرج البزار عن أبى موسى الاشعرى رضى لله عنه ان النبى صلى الله عليه وسلم قال

« الحاج يشفع فى اربعمائة من أهل بيته »

والحاصل ان للناس شفاعات بقدر اعمالهم وعلو مراتبهم وقربهم من الله تعالى والقرآن يشفع لأهله والاسلام يشفع لأهله والحجر الاسود يشفع لمستلمه ، ولكن لايشفعون الا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون • من ذا الذى يشفع عنده الا باذنه • وبالله التوفيق ((سوى)) الشفاعات ((التى خصت بدى)) اى بصاحب ((الانوار)) نبينا المختار صلى الله عليه وسلم مادارت الادوار وتعاقب الليل والنهار فلا يشاركه فيها نبى مرسل ولا ملك مقرب ولا صديق ولاشهيد لانها مختصة بجنابه الرفيع وقدره المجيد ، والشفاعات المختصة به صلى الله عليه وسلم عدة (أولها) وهى اعظمها واعمها شفاعته صلى الله عليه وسلم لفصل القضاء بين الورى بعد التردد الى الانبياء وتدافعها بين أخيار الملأ الى أن تصل لصاحب الحوض المورود وهى المقام المحمود وقد عم العالم زيادة القلق وتصاعد العرق وقاسوا من ذلك مايذيب الاكباد وينسى الاولاد وهذه مجمع عليها لم ينكرها أحد (ثانيها) يشفع عند ربه فى ادخال قوم من أمته الجنة بغير حساب فان هذه خاصة به ايضا صلى الله عليه وسلم كما قال القاضى عياض والامام النووى وتردد ابن دقيق العيد فى الاختصاص وتبعه الحافظ ابن حجر قال فان الاختصاص انما يثبت بالدليل ولا دليل عليه وقد روى حديث هذه الشفاعة مسلم فى صحيحه وجزم بالاختصاص الحافظ السيوطى فى انموذج اللبيب (ثالثها) شفاعته صلى الله عليه وسلم فى قوم استوجبوا النار بأعمالهم فيشفع فيهم فلا يدخلونها وهذه جزم القاضى وابن السبكى بعدم اختصاصها به صلى الله عليه وسلم وتردد النووى فى ذلك • قال السبكى لانه لم يرد نص صريح بثبوت الاختصاص ولا بنفيه • وجزم فى الانموذج بانها من خصائصه صلى الله عليه وسلم (رابعا) فى رفع درجات ناس فى الجنة وهذه لاتنكرها المعتزلة كالاولى الا أن النووى جوز اختصاصها به عليه الصلاة والسلام وجزم فى كتاب الانتقاد له باختصاصها به • قال فى الانموذج جوز النووى اختصاص هذه والتى قبلها به ووردت الاحاديث فى التى قبل وصرح به القاضى عياض وابن دحية (خامسها)

الشفاعات الخاصة بالنبى ص

الشفاعة فى اخراج عموم أمته من النار حتى لايبقى منهم أحـــد ذكره السبكى وبالشفاعة فى جماعة من صلحاء المسلمين ليتجاوز عنهم فى تقصيرهم فى الطاعات ذكره القزوينى فى العروة الوثقى

تنبيهات الاول الشفاعة التي تنكرها المعتزلة

(تنبيهات)

(الاول) الشفاعة التى تنكرها المعتزلة وتجحدها هى فيمن استحق النار من المؤ منين ان لايدخلها وفيمن دخلها منهم ان يخرج منهـــا ، فكذبت بها المبتدعة ونفتها مع ثبوت ادلتها وتضافر حججهـــا مما يتعسر احصاؤه ويتعذر استقصاؤه فأخرج البخارى عن أمير المؤمنين عمـــر بن الخطاب رضى الله عنه انه خطب فقال « انه سيكون فى هـــذه الأمة قوم يكذبون بالرجم وبالدجال ويكذبون بطلوع الشمس من مغربها ويكذبون بعذاب القبر ويكذبون بالشفاعة ويكذبون بقوم يخرجون من النـــار بعد ماامتحشوا » وأخرج سعيد بن منصور والبيهقى وهناد عن أنس رضى الله عنه قال : من كذب بالشفاعة فلا نصيب له فيها ، ومن كذب بالحوض فليس له فيها نصيب • وأخرج البيهقى عنه أنه قيل له أن قوما يكذبون بالشفاعة قال لا تجالسوا أولئك • وأخرج أيضا عنه قال : يخرج قوم من النار ولا نكذب بها كما يكذب بها أهل حروراء • وأخرج ايضا عن شبيب بن أبى فضالة المكى قال ذكروا عند عمران بن حصين الشفاعة فقال رجـــل ياأبا نجيد انكم لتحدثوننا احاديث لم نجد لها أصلا فى القرآن • فغضب عمران وقال للرجل : أقرأت القرآن ؟ قال : نعم،قال فهل وجدت صلاة العشاء أربعا وصلاة المغرب ثلاثا والغداة ركعتين والظهر أربعـــا والعصر أربعا ؟ قال : لا ، قال فعمن أخذتم هذا ؟ ألستم عنا أخذتموه وأخذنا عن نبى الله صلى الله عليه وسلم ، وفى كل اربعين درهما درهم، وفى كل كذا شاة ، وفى كل كذا بعير ، أوجدتم فى القرآن هذا ؟ قال : لا، قال ووجدتم فى القرآن (وليطوفوا بالبيت العتيق) أوجدتم طوفوا سبعا واركعوا ركعتين خلف المقام ؟ أوجدتم هذا فى القرآن ؟ عمن أخذتموه ؟ ألستم اخذتموه عنا واخذناه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قالوا : بلى، قال اوجدتم فى القرآن : لاجلب ولاجنب ولاشغار فى الاسلام ؟ قالو : لا ، قال فان الله

تعالى قال في كتابه (وماآتاكم الرسول فخذوه ومانهاكم عنه فانتهوا) وانا قد أخذنا عن نبى الله صلى الله عليه وسلم أشياء لم يكن لكم بها علم • وفى صحيح مسلم عن ابن عمر رضى الله عنهما ان رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا قول ابراهيم (رب انهن اضللن كثيرا من الناس فمن تبعنى فانه منى ومن عصانى فانك غفور رحيم) وقول عيسى (ان تعذبهم فانهم عبادك وان تغفر لهم فانك انت العزيز الحكيم) فرفع يديه وقال أمتى أمتى ثم بكى ، فقال الله ياجبريل اذهب الى محمد فقل له انا سنرضيك فى أمتك ولانسوءك • وأخرج الشراز والطبرانى فى الاوسط وابو نعيم بسند حسن عن أمير المؤمنين على بن ابى طالب رضى الله عنه أن رسول اللهصلىاللهعليهوسلم قال « أشفع لأمتى حتى ينادى ربى تبارك وتعالى أرضيت يامحمد؟فاقول أى رب رضيت»واخرج الترمذى وابنماجه والحاكموصححه وابن حبان والبيهقى والطبرانى عن عوف بن مالك الاشجعى عن النبىصلى الله عليه وسلم قال « ان ربى خيرنى بين أن يدخل نصف أمتى الجنة ـ وفى لفظ بين ان يدخل ثلثى أمتى بغير حساب ولا عذاب ـ وبين الشفاعة لأمتى فاخترت الشفاعة ، قال وهى لكل مسلم » وروى نحوه الامام احمد والطبرانى أيضا والبيهقى بسند جيد من حديث معاذ بن جبل رضى اللهعنه وفيه «وعلمت أنها أوسع لهم وهى لمن مات لا يشرك بالله شيئا » وأخرج الطبرانى مثله عن أنس • وأخرج الامام أحمد والطبرانى ايضا والبيهقى بسند صحيح عن ابن عمر رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « خيرت بين الشفاعة وبين أن يدخل نصف امتى الجنة فاخترت الشفاعة لأنها أعم وأكفى ، أترونها للمتقين ؟ ولكنها للمذنبين الخطائين المتلوثين » وأخرج الامام احمد والبيهقى والطبرانى فى الاوسط عن بريدة رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « انى لا شفع يوم القيامة لأكثر مما على وجه الارض من شجر ومدر » وأخرجه الطبرانى فى الاوسط عن أنيس الانصارى ولفظه « أكثر مما على وجه الارض من حجر ومدر » وأخرج البخارى عن عمران بن حصين رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : يخرج قوم من النار بشفاعة

محمد صلى الله عليه وسلم ويدخلون الجنة ويسمون الجهنميين » واخرج الشيخان عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ان الله يخرج قوما من النار بالشفاعة فيدخلهم الجنة » وأخرج ابو داود والترمذى والحاكم والبيهقى وصححوه عن أنس رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « شفاعتى لاهل الكبائر من أمتى » وأخرج الطبرانى عن عبد الله بن بسر رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « شفاعتى فى أمتى المذنبين المثقلين » وأخرج الطبرانى أيضا وأبو نعيم عن أبى أمامة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « نعم الرجل انا لشرار أمتى » قيل كيف يا رسول الله قال « أما شرار أمتى فيدخلهم الله الجنة بشفاعتى ، وأما خيارهم فيدخلهم الله الجنة بأعمالهم » وأخرج أيضا عن ابن عباس رضى الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى » قال ابن عباس : السابق بالخيرات يدخل الجنة بغير حساب ، والمقتصد يدخل الجنة برحمة الله ، والظالم لنفسه وأهل الاعراف يدخلون الجنة بشفاعة محمد صلى الله عليه وسلم • وفى أوسط الطبرانى عن ابن عمر رضى الله عنهما مرفوعا « انى ادخرت شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى » وفى الكبير عن أم سلمة رضى الله عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اعملى ولا تتكلى فان شفاعتى للهالكين من أمتى » وأخرج الترمذى والحاكم والبيهقى عن جابر رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « شفاعتى لاهل الكبائر من أمتى » قال جابر رضى الله عنه من زادت حسناته على سيئاته فذلك الذى يدخل الجنة بغير حساب ، ومن استوت حسناته وسيئاته فذلك الذى يحاسب حسابا يسيرا ثم يدخل الجنة ، وانما شفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن أوبق نفسه وأغلق ظهره • واخرج عن أنس رضى الله عنه قال قلنا يا رسول الله لمن تشفع ؟ قال لاهل الكبائر من أمتى وأهل العظائم وأهل الدماء » وأخرج عن كعب بن عجرة رضى الله عنه مرفوعا « شفاعتى لاهل الكبائر من أمتى » وأخرج طاووس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « شفاعتى لاهل الكبائر

من أمتى » قال البيهقى : هذا مرسل حسن يشهد ليكون هذه اللفظة شائعة • وأخرج ابن أبى عاصم عن أنس رضى الله عنه مرفوعا « ما زلت اشفع الى ربى ويشفعنى واشفع ويشفعنى حتى أقول اى رب شفعنى فيمن قال لا اله الا الله ، فيقول : هذا ليس لك يا محمد ولا لأحد ، هذا لى ، وعزتى وجلالى ورحمتى لا أدع فى النار أحدا يقول لا اله الا الله »

الثانى فى الاعمال الموعود عليها الشفاعة

(الثانى) فى ذكر الاعمال الموجبة لشفاعته صلى الله عليه وسلم أخرج البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قلت يا رسول الله من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة ؟ قال « ظننت أن لا يسألنى عن هذا الحديث أحد أول منك لما رأيت من حرصك على الحديث ، أسعد الناس بشفاعتى يوم القيامة من قال لا اله الا الله خالصا من قبل نفسه » وأخرج أيضا عن جابر رضى الله عنه « من قال حين يسمع النداء اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدا الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاما محمودا الذى وعدته حلت له شفاعتى يوم القيامة » وأخرج مسلم نحوه من حديث ابن عمرو • وفى سنن سعيد بن منصور من طريق أيوب السختيانى عن فقيه من فقهاء الكوفة قال ما من مسلم يسمع النداء فيقول اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة المفترضة أعط محمدا سؤله يوم القيامة الا أدخله الله فى شفاعته • وأخرج مسلم عن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يثبت أحد على لأواء المدينة وجدبها الا كنت له شفيعا أو شهيدا يوم القيامة » وأخرجه مسلم من حديث أبى سعيد الخدرى وابن عمر وأبى هريرة رضى الله عنهم ، والطبرانى من حديث زيد بن ثابت وأبى أيوب ، والبزار من حديث عمر • وأخرج الترمذى وابن ماجه وابن حبان والبيهقى عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من استطاع أن يموت بالمدينة فليمت بها فانى أشفع لمن يموت بها » وأخرج الطبرانى عن سلمان رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « من مات فى أحد الحرمين استوجب شفاعتى وكان يوم القيامة من الآمنين » وأخرج الطبرانى بسند جيد عن ابى الدرداء رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من صلى على حين يصبح عشرا

وحين يمسى عشرا أدركته شفاعتى يوم القيامة » والترمذى وابن حبان عن ابن مسعود رضى الله عنه مرفوعا « اولى الناس بى يوم القيامة اكثرهم على صلاة » وابن ابى عاصم فى السنة والبزار والطبرانى بسند حسن عن رويفع ابن ثابت رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم« من صلى على محمد وقال اللهم أنزله المقعد المقرب عندك يوم القيامة وجبت له شفاعتى » وأخرج الامام أحمد بسند صحيح عن زياد بن ابى زياد مولى نبى مخزوم عن خادم النبى صلى الله عليه وسلم قال كان النبى صلى الله عليه وسلم مما يقول للخادم ألك حاجة ؟ حتى كان ذات يوم قال : يا رسول الله حاجتى أن تشفع لى يوم القيامة ، قال فأعنى بكثرة السجود • وأخرج البزار عن ابن عمر رضى الله عنهما مرفوعا « من زار قبرى وجبت عليه شفاعتى (١) وأخرجه الطبرانى لفظ « من جاءنى زائرا لا تعمله حاجة الا زيارتى كان حقا على أن أكون له شفيعا يوم القيامة » والبيهقى عن عمر رضى الله عنه مرفوعا « من زارنى كنت له شفيعا أو شهيدا ومن مات فى أحد الحرمين بعثه الله من الآمنين يوم القيامة »

الثالث فيمن لا تدركهم الشفاعة

(الثالث) فى من لا تدركهم الشفاعة ويحرمون شفاعة النبى صلى الله عليه وسلم لاتصافهم بالبدع وسوء البضاعة فأخرج ابو نعيم عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « صنفان من أمتى لا تنالهما شفاعتى يوم القيامة المرجئة والقدرية » واخرج البيهقى عن عثمان بن عفان رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من غش العرب لم يدخل فى شفاعتى • قال فى النهاية العرب اسم لهذا الجيل المعروف من الناس ولا واحد له من لفظه وسواء أقام بالبادية أوالمدن•انتهى• والمراد بهم هنا بنو اسماعيل • وأخرج البيهقى والطبرانى بسند جيد عن معقل ابن يسار رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم » رجلان لا تنالهما شفاعتى يوم القيامة أمام ظلوم غشوم عسوف وآخر غال فى دين الله مارق منه » واخرج الطبرانى عن أبى الدرداء وغيره من الصحابة رضى الله عنهم قالوا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم » ذروا المراء فان الممارى لا أشفع له يوم القيامة »

(١) هذا الخبر وناليا بين الائمة ضعفها وصرح بعضهم بوضعها

الرابع شبهة نفاة الشفاعة وردها

(الرابع) مما احتجت المعتزلة لمذهبهم فى نفى الشفاعة بقوله تعالى (واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها شفاعة) وقوله (ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع وزعموا أن من دخل جهنم يخلد فيها لانه اما كافر أو صاحب كبيرة مات بلا توبة ، هذا رأيهم ومن وافقهم وهو رأى فاسد ومذهب باطل ترده الاخبار الصحيحة والآثار الصريحة واجماع أهل الحق أيدهم الله تعالى وأجابوا عن الآية الكريمة أن المراد بقوله تعالى (لا تجزى نفس عن نفس شيئا) الكفار للآيات الواردة والاخبار الثابتة فى الشفاعة قال القاضى البيضاوى تمسكت المعتزلة بهذه الآية على نفى الشفاعة لاهل الكبائر ، وأجيب بأنها مخصوصة بالكفار ، ويؤيد هذا أن مساق الخطاب معهم • والآية نزلت ردا لما كانت اليهود تزعم أن أباءهم تشفع لهم • انتهى • وعن قوله تعالى (ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع) المراد بالظالمين الكفار فان الظالم على الاطلاق هوالكافر ، وقالت المعتزلة فى قوله تعالى (انك من تدخل النار فقد أخزيته - ولا يشفعون الا لمن ارتضى - وكم من ملك فى السموات لاتغنى شفاعتهم شيئا الا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى) ومن أخزاه الله لا يرتضيه ومن ارتضاه لا يخزيه قال تعالى « يوم لا يخزى الله النبى والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبايمانهم) الآية والجواب عن الآية الاولى ما قال سيدنا أنس بن مالك رضى الله عنه خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم معنى (من تدخل النار) من تخلد • وقال قتادة تدخل مقلوب تخلد • ولا نقول كما قالت اهل حروراء « يعنى الخوارج » فعلى هذا قوله (قد اخزيته) على بابه من الهلاك أى اهلكته وأبعدته ومقته ولهذا قال سعيد بن المسيب الآية جاءت خاصة فى قوم لا يخرجون من النار دليله قوله فى آخر الآية (و ماللظالمين من أنصار) أى الكفار وان سلم أن الآية فى عصاة الموحدين فالمراد بالخزى الحياء يقال خزى يخزى خزاية اذا استحى فهو خزيان وامرأةخزيافخزى المؤمنين يومئذ استحياؤهم من دخول النار ودار البوار مع اهل الشرك والكفار ثم يخرجون بشفاعة النبى الكريم ورحمة الرؤوف الرحيم ،ونفى النصرة لا يستلزم نفى الشفاعة لانها طلب مع خضوع والنصرة ربما تبنى على المدافعة والممانعة والاستعلاء ، على أنا نقول لا يسلم لهم زعمهم انالفاسق

غير مرضى مطلقا بل هو مرضى من جهة الايمان والعمل الصالح وان كان مبغوضا من جهة الذنوب والعصيان وارتكاب القبائح بخلاف الكافر فانــه ليس بمرضى مطلقا لعدم الاساس الذى تبنى عليه الحسنات والاعتــداد بالكمالات وهو الايمان • والحاصل أن الايمان بالشفاعة واجب وقدقدمنا من النصوص ما لعله يقلع شروش الاختلاج من خواطر من اذعن لها وخلع من عنقه ربقة تقليد اهل الزيغ والاعوجاج كيف والنصوص متــواترة والآثار متوافرة والعقل الصحيح لا يحيل ذلك والنقل الصريح ناطق بمــا هنالك فدع عنك نحلة فلانة وفلان واعقد قلبك على ما صح عن سيد ولد عدنان وأصحابه والتابعين لهم باحسان فانه الحق الذى لا عقل يحيله ولا نقل يزيله والله تعالى الموفق •

فصل فى الجنة والنار

((فصل فى الكلام على الجنة والنار))

ولما انتهى الكلام على الشفاعة وأقسامها وتفصيلها وأحكامها بحسب ما يليق بالمقام أعقب ذلك بذكر العظيمتين دار القرار للاخيار ودار البــوار للكفار وهما الجنة والنار فقال

((وكل انســان وكل جنــة
فى دار نــار او نعيم جنــة))
((هما مصير الخلق من كل الورى
فالنــار دار من تعــدى وافترى))
((ومن عصى بذنبه لم يخــلد
وان دخلهـــا يا بوار المعتــدى))

((وكل انسان)) من بنى آدم فالانس والانسان من البشر والواحد انسى وأنسى والجمع أناسى والمرأة انسان وبالهاء عامية كما فى القاموس قــال وسمع فى شعر كأنه مولد

لقد كستنى فى الهــوى ملابس الصب الغــزل انســانة فتــانة
بدر الدجى منها خجل اذا زنت عينى بهـــا فبالدموع تغتســل

((وكل جنة)) بكسر الجيم وتشديد النون مفتوحة طائفة الجن والجان اسم للجن أى كل واحد من الثقلين اللذين هما الانس والجن لا بد أن

يكون ((فى)) احدى الدارين اما فى ((دار نار)) وهى دار البوار ومقر الكفار وهى جسم لطيف محرق يطلب العلو تذكر وتؤنث وألفها منقلبة عن واو بدليل تصغيره على نويرة وتجمع جمع قلة على نيرة وأنور وجمع كثرة على نيران ونور والنور ضوءها وضوء كل نير وهو ضد الظلمة ، والنـــار سبع طباق أعلاها جهنم فلظى ثم الحطمة ثم السعير ثم سقر ثم الجحيم ثم الهاوية وباب كل واحدة منها من داخل الاخرى على الاستواء كما قاله ابن عطية وغيره ((أو)) فى دار ((نعيم)) مقيم فى ((جنة)) المولىالكريمالرؤوف الرحيم فكل واحدة من الجنة والنار حقثابت بالكتاب والسنةواجماعالامة وكل ما هو كذلك فالايمان به واجب واعتقاد وجوده حق لازب ، والمراد من الجنة دار الثواب ومن النار دار العقاب ((هما)) أىالجنةوالنار ((مصير الخلق)) من الانس والجن أى لا بد لكل واحد ((من كل الورى)) كفتى الخلق من الانس والجـــن بل ومن الملائكة فانهم يكونون فى الجنة كما يأتى أن يصير اما الى الجنة واما الى النار واما اهلالاعراف فان مصيرهم الى الجنة كما يأتى ((فالنار التى هى دار الهوانوالبوار فهى ((دار من)) أى كل شخص من أنس وجن ((تعدى)) طوره وخالف مولاه فكفر به أو بأحد من رسله أو بكتاب من كتبه أو شرع شرعه على لسان نبى بعثه ولم ينسخه ((وافترى)) فيما عبد واجترأ بما قصد فلم يقف عند الحدود ولم يف بالعهد المعهود ، فكل من حكم الشرع بكفره من كافر اصلى من أهل الشرك وعبدة الاوثان والكواكب والنيران وأهـلالشرائع المنسوخـة بعد النسخ والتبديل من أهل التوراة والانجيل فهم خالدون مخلدون فى النار ودار الخزى والبوار ((ومن)) اى وكل عبد مؤمن بالله ورسولهولو مبتدعا لم يحكم الشرع بكفره ((عصى)) بمخالفة ربه وتعـــدى حدوده ((بذنبه)) ولو كان ذنبه منأكبر الكبائر كالقتلوالزنا وأكل الرباوماتعلى الايمان ولو لم يتب ((لميخلد)) فى النار ((واندخلها)) ليتطهرمنالاوزار فانه يخرج منها اما بشفاعة الشافعين او رحمة أرحم الراحمين كما تقــدم ((يا بوار)) اى يا هلاك ((المعتدى)) اشارة الى تقبيح ما ذهبت اليهالمعتزلة من زعمهم ان من دخل النار فهو خالد فيها لانه اما كافر او صاحبكبيرة

مات بلا توبة اذ المعصوم والتائب وصاحب الصغيرة اذا اجتنب الكبـــائر ليسوا من أهل النار على ما سبق من أصولهم والكافر مخلد بالاجمـــاع بخلاف العاصي وتقدم الكلام على ذلك بما فيه كفاية ، وان مرتكب الكبيرة اذا مات ولم يتب فى مشيئة الله ان شاء عفا عنه ولم يعذبه وان شاء عذبــه ثم يخرجه ، وأما خلود المؤمن المصر فهو مذهب الخوارج والمعتزلة ،واهل الحق على خلافه وهو الحق الذى لا مرية فيه والله اعلم •

تنبيهــات الاول فى الجن

(تنبيهات)

(الاول) قال الجوهرى الجان ابو الجن • قال الامام ابو الوفا ابن عقيل انما سمى الجن جنا لاجتنانهم واستتارهم عن العيون ، قال والشياطين عصاة الجن وهم من ولد ابليس ، والمردة أعتاهم وأغواهم • وقال ابن عبد البر الجن عند أهل الكلام والعلم باللسان على مراتب فاذا ذكروا الجن خالصا قالوا جنى ، فان أرادوا انه ممن يسكن مع الناس قالوا عامر والجمع عمار ، فان كان ممن يعرض للصبيان قالوا أرواح ، فان خبث وتعرض قـــالوا شيطان ، فان زاد على ذلك وقوى أمره قالوا عفريت • وقال شيخ الاسلام ابن تيمية روح الله روحه : لم يخالف احد من طوائف المسلمين فى وجود الجن ، وكذا جمهور الكفار ، لان وجودهم تواترت به اخبار الانبياء تواترا معلوما بالاضطرار يعرفه الخاصة والعامة ، قال ولم ينكر الجن الا شرذمة قليلة من جهال الفلاسفة ونحوهم • وقال القاضى أبو بكر الباقلانى: كثير من القدرية يثبتون وجود الجن قديما وينفون وجودهم الآن ، ومنهم مـــن يقر بوجودهم ويزعم أنهم لا يرون لرقة أجسامهم ونفوذ الشعاع فيها ، ومنهم من زعم أنهم لا يرون لانهم لا ألوان لهم • وقد ذكر اسحاق بن بشر فى المبتدأ عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما خلق الجن قبل آدم بألفى سنة • وقال اسحاق عن عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما لما خلق الله تعالى سوما أبو الجن ؟ وهو الذى خلق من مارج من نار قال له تعالى تمن، قال أتمنى أن نرى ولا نرى وان نغيب فى الثرى ويصير كهلنا شابا • فاعطى ذلك فهم يرون ولا يرون واذا ماتوا غيبوا فى الثرى ولا يموت كهلهم حتى يعود شابا يعنى مثل الصبى يرد الى ارذل العمر • وأخرج

مسلم عن أم المؤمنين عائشة الصديقة رضى الله عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « خلقت الملائكة من نور وخلق الجان من مارج من نار وخلق آدم مما وصف لكم » وأخرج الفريابى وعبد بن حميد عن مجاهد فى قوله (وخلق الجان من مارج من نار)قال اللهب الاصفر والاخضر الذى يعلو النار اذا أوقدت . وقال ابن عباس رضى الله عنهما خلقت الجن الذين ذكروا فى القرآن من مارج من نار . وأخرج ابن ابى حاتم عن عمرو بن دينار قال خلق الجان والشياطين من نارالشمس.انتهى

وقال أبو الوفا بن عقيل فى الفنون : سأل سائل عن الجن فقال اخبر الله عنهم انهم من نار وأخبر ان الشهب تضرهم وتحرقهم فكيف تحرق النار النار ؟ قال والجواب أن الله تعالى أضاف الشياطين والجان الى النار حسبما أضاف الانسان الى التراب والطين والفخار والمراد به فى حق الانسان أن أصله الطين وليس الآدمى طينا حقيقة ولكنه كان طينا كذلك الجان كان نارا فى الاصل . قال القاضى عبد الجبار المعتزلى الدليل على أن أصل الجن النار السمع دون العقل . وقال الامام القاضى أبو يعلى بن الفراء : الجن أجسام مؤلفة وأشخاص ممثلة ، ويجوز أن تكون رقيقة وأن تكون كثيفة خلافا للمعتزلة فى قولهم انهم أجسام رقيقة ولرقتها لا تراها . قال القاضى أبو يعلى : ولا قدرة للشياطين على تغيير خلقهم والانتقال فى الصور وانما يجوز أن يعلمهم الله كلمات ضربا من ضروب الافعال اذا فعله وتكلم به نقله الله من صورة الى صورة فيقال انه قادر على التصوير والتخييل على معنى أنه قادر على قول اذا قاله وفعله نقله الله عن صورة الى صورة أخرى لجرى العادة ، واما أن يصور نفسه فذلك محال لان انتقالها عن صورة الى صورة انما يكون بنقض البنية وتفريق الاجزاء واذا انتقلت بطلت الحياة واستحال وقوع الفعل من الجملة وكيف تنقل نفسها ؟ قال والقول فى تشكيل الملائكة مثل ذلك ، والذى روى أن ابليس تصور فى صورة سراقة وان جبريل تمثل فى صورة دحية محمول على ما ذكرنا وهو أنه أقدره الله على قول قاله فنقله الله عن صورة الى صورة أخرى

قال القاضى : الجن يأكلون ويشربون ويتناكحون كما يفعل الانس .

وظاهر العمومات أن جميع الجن كذلك وهو رأى قوم ، ثم اختلفوا فزعم بعضهم أن **أكلهم** وشربهم تشمم استرواح لا مضغ وبلع ، وهذا لا دليل عليه وقال **الاكثرون** أنهم يأكلون بمضغ وبلع ، وزعم **قوم** أن جميع الجن لا يأكلون ولا يشربون ، وهذا ساقط ، وقيل أن صنفا يأكلون ويشربون وصنف لا يأكلون ولا يشربون • وسئل وهب بن منبه عن الجن هـل يأكلون ويشربون ؟ وهل يموتون ويتناكحون ؟ فقال : هم أجنـاس فاما خالص الجن فهم ريح لا يأكلون ولا يشربون ولا يموتون ولا يتوالدون ، ومنهم أجناس يأكلون ويشربون ويتوالدون ويتناكحون ويموتون ، قال وهى هذه التى منها السعالى والغول وأشباه ذلك • أخرجه ابن جرير • وحديث علقمة عن ابن مسعود عند الامام احمد ومسلم والترمذى : لمـا أتى النبى صلى الله عليه وسلم داع من الجن فذهب معه فقرأ عليهم القرآن وانه صلى الله عليه وسلم انطلق بأصحابه فأراهم آثارهم وآثار نيرانهم يدل على أنهم كانوا كالانس فى الجملة ، وفيه انهم سألوه الزاد وكانوا من جن الجزيرة فقال لهم صلى الله عليه وسلم : لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه - ولفظ الترمذى : لم يذكر اسم الله عليه - يقع فى أيديكم أوفر ما كان لحما ، وكل بعرة علف لدوابكم • قال النبى صلى الله عليه وسلم « لا تستنجوا بهما فانهما طعام اخوانكم من الجن » وقد جمع بعض العلماء بين رواية الترمذى لم يذكر اسم الله عليه وبين رواية الامام احمد ومسلم بان ما فى المسند وصحيح مسلم فى حق المسـلم من الجن ، وما فى رواية الترمذى فى حق غير المؤمنين منهم ، وصححه السهيلى وقال هذا يعضد الاحاديث • وقد استدلوا على مناكحهم بقوله تعالى (أفتتخـذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو) وبقوله تعالى (لم يطمثهن انس قبلهم ولا جان) وهذا يدل على انه يتأتى منهم الجمـاع وفى الحديث ان الجن يتوالدون كما يتوالد بنو آدم وهم أكثر عددا • رواه ابن ابى حاتم وأبو الشيخ فى العظمة عن قتادة •

الثـانى فى تكليف الجن

(الثانى) فى ذكر تكليف الجن **ولواحق ذلك** - قال العلامة شمس الدين محمد بن مفلح فى كتابه الفروع : **الجن مكلفون** فى الجملة اجماعا يدخل

كافرهم النار اجماعا ويدخل مؤمنهم الجنة وفاقا لمالك والشافعى رضى الله عنهما لا انهم يصيرون ترابا كالبهائم وان ثواب مؤمنهم النجاة من النار خلافا لابى حنيفة والليث بن سعد ومن وافقهما ، قال وظاهر الاول يعنى قول الامام أحمدومالك والشافعى رضى الله عنهم انهم فى الجنة كغيرهم بقدر ثوابهم خلافا لمن قال لا يأكلون ولا يشربون فيها كمجاهد ، أو أنهم فى ربض أى حول الجنة كعمر بن عبد العزيز ، قال ابن حامد فى كتابه : الجن كالانس فى التكليف والعبادات • انتهى كلام الفروع • وقال ابن عبد البر ، الجن عند الجماعة مكلفون مخاطبون لقوله تعالى (يا معشر الجن والانس) وكقوله (فبأى آلاء ربكما تكذبان) • قال الفخر الرازى أطبق الكل على أن الجن كلهم مكلفون • قال القاضى عبد الجبار المعتزلى :لا نعلم خلافا بين اهل النظر ان الجن مكلفون •

الثالث فى البعثة الى الجن

(الثالث) قال ابن مفلح فى فروعه : ولم يبعث اليهم يعنى الجن نبى قبل نبينا صلى الله عليه وسلم ، قال : وليس منهم رسول ، ذكره القاضى ابو يعلى وابن عقيل وغيرهما ، وأجابوا عن قوله تعالى (يا معشر الجن والانس ألم يأتكم رسل منكم) انها كقوله تعالى (يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان) وانما يخرج من أحدهما [1] وكقوله (وجعل القمر فيهن نورا) وانما هو فى سماء واحدة • قال وللمفسرين قولان والقول بأن منهم رسلا قول الضحاك وغيره • قال الامام الحافظ ابن الجوزى : وهو ظاهر الكلام • وقال الحافظ السيوطى فى (لقط المرجان) جمهور العلماء سلفا وخلفا على انه لم يكن من الجن قط رسول ولا نبى ، كذا روى عن ابن عباس رضى الله عنهما ومجاهد والكلبى وابى عبيد، وقد أخرج عبد بن حميد وابن المنذروابن ابى حاتم عن مجاهد فى قوله تعالى (يا معشر الجن والانس ألم يأتكم رسل منكم) قال ليس فى الجن رسل انما الرسل فى الانس والنذارة فى الجن وقرأ (فلما قضى ولوا الى قومهم منذرين) وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج قوله رسل منكم قال : رسل الرسل وقرأ الآية• قال ابن جرير واما

---

(١) هذا زعم المفسرين الذين أخرجوا القرآن عن ظاهره لجهلهم بأن اللؤلؤ والمرجان يخرجان من الانهار وهو ثابت لاريب فيه اهـ محمد رشيد

الذين قالوا بقول الضحاك فاحتجوا بأن الله أخبر أن من الجن رسلا أرسلوا اليهم قالوا لو جاز أن يكون خبره عن رسل الجن بمعنى رسل الانس لجاز أن يكون خبره عن رسل الانس بمعنى انهم رسل الجن ، وفى فساد هذا المعنى ما يدل على أن الخبرين جميعا بمعنى الخبر عنهم انهم رسل الله لانه المعروف فى الخطاب دون غيره • وقال ابو محمد بن حزم : لم يبعث الى الجن نبى من الانس البتة قبل محمد صى الله عليه وسلم لانه ليس الجن من قوم الانس وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم « وكان النبى يبعث الى قومه خاصة » قال وباليقين ندرى انهم قد أنذروا وأفصح انهم كان لهم أنبياء منهم فى قوله (الم يأتكم رسل منكم) انتهى • وتأول الجمهور كل ما ورد من ذلك ولا يخفى أن ظاهر القرآن مع ما قاله الضحاك ، والاكثرون على خلافه ، وتحقيق ذلك والبحث فيه مما لا فائدة فيه لعدم ترتب شيء عليه غير أنا نقطع بأنهم سمعوا ببعثة رسل الانس لقوله تعالى (انا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى) وظاهر هذا أنهم كانوا مؤمنين بشريعة موسى عليه السلام ، والظاهر أن الشياطين الذين سخرهم الله لسليمان كانوا يأتمرون فى الشرائع بقوله وهو كان من أنبياء بنى اسرائيل ، وهل كان على شرع مستقل أو على شرع موسى ؟ قلت الظاهر كما يفهم من كلام شيخ الاسلام ابن تيمية فى الجواب الصحيح وغيره أنه كان على شرع موسى لان شريعة التوراة استمرت من عهد موسى الى أن بعث عيسى فنسخ بعضها وأمر باتباع بعض وهذا ظاهر فى أنه كان على شريعة موسى بل صريح والله أعلم •

(الرابع) (١) قال فى الفروع قال شيخنا - يعنى شيخ الاسلام ابن تيمية قدس الله روحه - : ليس الجن كالانس فى الحد والحقيقة فلا يكون ما أمروا به وما نهوا عنه مساويا لما على الانس فى الحد والحقيقة لكنهم مشاركوهم فى جنس التكليف بالامر والنهى والتحليل والتحريم بلا نزاع أعلمه بين العلماء فقد يدل ذلك على مناكحتهم وغيرها • قال فى الفروع وقد يقتضيه اطلاق أصحابنا • وفى المغنى وغيره أن الوصية لا تصح لجنى لانه لا يملك بالتمليك كالهبة • قال فى الفروع فيتوجه من انتفاء التمليك

---

(١) فى مخ «تتمة» بدل لفظ : الرابع

منا منع الوطء لانه فى مقابلة مال قال الله تعالى (والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا) وقال (ومن آياته أن جعل لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها) قال وقد جعل أصحابنا هذا المعنى فى شروط الكفاءة فههنا أولى قال ومنع منه غير واحد من متأخرى الحنفية وبعض الشافعية وجوزه منهم ابن يونس فى شرح الوجيز . قال فى مسائل حرب : باب مناكحة الجن ثم روى عن الحسن وقتادة والحكم واسحاق كراهتها ، وروى من رواية ابن لهيعة عن يونس عن الزهرى : نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن نكاح الجن . وعن زيد العمى : اللهم ارزقنى جنية اتزوجها تصاحبنى حيث ما كنت . قال فى الفروع : ولم يذكر حرب عن الامام احمد شيئا ، وعن مالك لا بأس به فى الدين ولكننى اكره اذا وجدت امرأة حامل فقيل من زوجك ؟ قالت من الجن ، فيكثر الفساد . انتهى . وذكر الحافظ السيوطى آثارا وأخبارا عن السلف والعلماء تدل على وقوع التناكح بين الجن والانس . وقد حدثنى بوقوعه جماعة معهم أنفسهم فالله أعلم بصحة ذلك وان ظهر مخايل ثبوته فأنا على شك منه والله الموفق .

وجنة النعيم للابرار

((وجنة النعيم للابرار مصونة عن سائر الكفار))

((وجنة النعيم)) اعلم أن للجنة عدة أسماء باعتبار صفاتها ، ومسماها واحد باعتبار الذات فهى مترادفة من هذا الوجه ، وتختلف باعتبار الصفات فهى متباينة من هذا الوجه ، وهكذا أسماء الرب تعالى وأسماء كتابه وأسماء رسوله وأسماء اليوم الآخر وأسماء النار ، فالاسم العام الجنة المتناول لتلك الدار وما اشتملت عليه من أنواع النعيم واللذة والبهجة والسرور وقرة العين ، وأصل اشتقاقها من الستر والتغطية ومنه الجنين لاستتاره فى البطن والجان لاستتارهم عن العيون والمجن لستره ووقايته الوجه والمجنون لاستتار عقله وتواريه والجان وهى الحية الصغيرة الدقيقة ، ومنه تسمية البستان جنة لانه يستر داخله بالاشجار ويغطيه فلا يستحق هذا الاسم الا موضع الا موضع كثير الشجر مختلف الأنواع ، والجنة بالضم ما يستجن به من ترس أو غيره ومنه قوله تعالى (اتخذوا ايمانهم جنة) يتترسون بها من انكار المؤمنين عليهم ، ومنه الجنة بالكسر وهم الجن كما تقدم ومنه قوله

تعالى (من الجنة والناس)

وذهبت طائفة من المفسرين الى أن الملائكة يسمون جنة واحتجوا بقوله تعالى (وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا) وقالوا هذا النسب قولهم : الملائكة بنات الله ، ورجحوه بوجهين أحدهما أن النسب الذى جعلوه انما زعموا انه بين الملائكة وبينه لا بين الجن وبينه ، الثانى قوله تعالى (ولقد علمت الجنة انهم لمحضرون) أى علمت الملائكة أن الذين قالوا هذا القـــول محضرون العذاب • قال الامام المحقق شمس الدين ابن القيم فى كتابه (حادى الارواح الى منازل الافراح) والصحيح أن الجنة هم الجن أنفسهم كما قال تعالى (من الجنة والناس) وعلى هذا ففى الآية الكريمة قولان ، أحدهما قول مجاهد قال قالت كفار قريش الملائكة بنات الله فقال لهم أبوبكر الصديق رضى الله عنه فمن أمهاتهم قالوا سروات الجن ، وقال الكلبى تزوج من الجن فخرج من بينهما الملائكة ، وقال قتادة قالوا صاهر الجن ، والقول الثانى قول الحسن قال اشركوا الشياطين فى عبادة الله فهو النسب الذى جعلوه • قال ابن القيم والصحيح قول مجاهد ، وأما قوله تعالى (ولقد علمت الجنة انهم لمحضرون) فالضمير يرجع الى الجنة أى قد علمت الجنة انهم محضرون الحساب قاله مجاهد أى لو كان بينه وبينهم نسب لم يحضرهم الحساب كما قال تعالى (وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم) فجعل سبحانه عقوبتهم بذنوبهم واحضارهم للعذاب مبطلا لدعواهم الكاذبة ، وهذا التقدير فى الآية أبلغ فى ابطال قولهم من التقدير الاول • انتهى • ومن أسماء الجنة جنات النعيم قال تعالى (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات النعيم) قال فى حادى الارواح وهذا أيضا اسم جامع لجميع الجنان لما تضمنته من الانواع التى يتنعم بها من الماكول والمشروب والملبوس والصور والرائحة والمنظر البهيج والمساكن الواسعة وغير ذلك من النعيم الظاهر والباطن • وقوله فى النظم ((للابرار)) اشارة الى أن هذه اللام لام الاختصاص والاستحقاق فلا يدخلها ويسكنهـا غيرهم ، والابرار جمع بار وهو كثير البر ، والبراسم جامع للخـــير وقيل فى قوله تعالى (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) أن البر الجنة،

وفى القاموس البر الصلة والحسنة والخير والصدق والطاعة كالتبرر وضد العقوق كالمبرة • والبر بالفتح من أسماء الله الحسنى والصادق والكثير البر ، ويجمع البار أيضا على بررة وقد ذكر الله فى كتابه عدة آيات يخص الجنة بأهل الايمان والتقوى كقوله تعالى فى الجنة (أعدت للمتقين) وقال تعالى (وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هى المأوى) وقال تعالى (وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار) وقال (والذين آمنوا وعملوا الصالحات فى روضات الجنات لهم مايشاءون عند ربهم ذلك هو الفضل الكبير) (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات النعيم) وهذا فى القرآن كثير ومداره على ثلاث قواعد ايمان وتقوى وعمل خالص لله عز وجل على موافقة السنة ، فأهل هذه الثلاثة هم الأبرار وهم أهل البشرى دون من عداهم من سائر الخلق وعلى هذه الثلاثة أشياء دارت بشارات القرآن والسنة جميعها ، وهى تجتمع فى أصلين ، اخلاص فى طاعة الله واحسان الى خلقه ، وترجع الى خصلة واحدة وهى موافقة الرب تعالى فى محابه ، ولا طريق الى ذلك الا بتحقيق القدوة ظاهرا وباطنا برسول الله صلى الله عليه وسلم • وأما الاعمال التى هى تفاصيل هذا الأصل فهى بضعة وسبعون شعبة أعلاها قول لا اله الا الله وأدناها اماطة الأذى عن الطريق ، وبين هاتين الشعبتين سائر الشعب التى مرجعها الى تصديق الرسول فى كل ما أخبر به وطاعته فى جميع ما أمر به إيجابا واستحبابا واجتناب ما نهى عنه تحريما وكراهة • وفى حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قال الله عز وجل أعددت لعبادى الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر • فاقرءوا ان شئتم (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قوة أعين) رواه البخارى ومسلم وغيرهما • وفى حديث أبى هريرة أيضا رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « حجبت النار بالشهوات وحجبت الجنة بالمكاره » أخرجه البخارى ومسلم • وفى رواية لمسلم : حفت ، بدل حجبت • وفى حديث أنس بن مالك رضى الله عنــــه قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم «حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات »

رواه مسلم والترمذی . وقد ثبت أن مفتاح الجنة كلمة الاخـــلاص وهی شهادة ان لا اله الا الله وأن محمدا عبدهورسوله ، فقد أخرج الامام احمد عن معاذ بن جبل رضی اللهعنهمرفوعا «مفتاحالجنةشهادةان لااله الا الله » قال الحافظ ابن رجب فی كتابه (التوحيد) فی سنده انقطاع ، وفی صحيح البخاری عن وهب بن منبه انه قيل له أليس مفتاح الجنة لا اله الا الله ؟ قال : بلى ، ولكن ليس مفتاح الا وله أسنان فان أتيت بمفتاح له أسنان فتح لك والا لم يفتح . وفی صحيح البخاری عن جابر رضی الله عنه قال جاءت ملائكة الى النبی صلى الله عليه وسلم فقال بعضهم أنه نائم وقال بعضهم العين نائمة والقلب يقظان فقالوا ان لصاحبكم هذا مثلا فاضربوا له مثلا فقالوا : مثله مثل رجل بنى دارا وجعل فيها مأدبة وبعث داعيا فمن أجاب الداعی دخل الدار وأكل من المأدبة ومن لم يجب الداعی لم يدخل الدار ولم يأكل من المأدبة ، فقالوا : أولوها يفقهها فقال بعضهم العين نائمة والقلب يقظان ، الدار الجنة والداعی محمد فمن أطاع محمدا فقد أطاع الله ومن عصى محمدا فقد عصى الله، ومحمد فرق بين الناس . ورواه الترمذی عنه بلفظ : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « انی رأيت فی المنام كأن جبريل على رأسی وميكائيل عند رجلی » فذكر نحو ما تقدم وفيه فالله هو الملك والدار الاسلام والبيت الجنة وأنت يا محمد رسولفمنأجابك دخل الاسلام ومن دخل الاسلام دخل الجنة وأكل مما فيها ((مصونة)) أی جنة النعيم محفوظة ومحمية ((عن سائر)) أی جميع ((الكفار)) سواء كان كفرهم بالشرك أو الجحود أو انكار النبوات أو انكار أحد من الأنبياء أو استحلال ما علم تحريمه أو تحريم ما علم حلهمنالدينبالضرورة أو جحود ما علم مجیء النبی صلى الله عليه وسلم به بالضرورة أو انكار المعاد الجسمانی أو جحود الكتاب المنزل أو شيئا منه أو ملكا من الملائكة أو انتقاص ملك أو نبی ونحو ذلك ، فالجنة لا تدخلها الا نفس مؤمنـــة باجماع أهل الحق ، وأما أهل الكفر والجحود فهم فی نار جهنم كلما مر عليهم زمن أولد لهم الخلود فلا يفتر عنهم العذاب ولا ينقطع ولا ان بكا أحدهم واستغاث ينتفع فعذابهم متواصل فی دار الهوان بما كانوا يكفرون

كما قال تعالى (ان المجرمين فى عذاب جهنم خالدون * لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون) وقال تعالى (والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها) وقال (لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون) والآيات فى مثل هذا كثيرة وسأل الحسن البصرى أبا برزة عن أشد آية فى كتاب الله تعالى على أهل النار قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ (فذوقوا فلن نزيدكم الا عذابا) فقال « هلك القوم بمعاصيهم لله عز وجل » أخرجه ابن أبى حاتم وفيه ضعف وكذا البيهقى وقال لم أعرفه • وفي القرآن العظيم (ان الله اشترى من المؤمنين وأموالهم بأن لهم الجنة - الى قوله تعالى (فذلك هو الفوز العظيم) فأشعرت الآية الكريمة بخطر النفس الانسانية وعظم مقدارها عندر ربها فان السلعة اذا خفى عليك قدرها فانظر المشترى لها من هو وانظر الى الثمن المبذول فيها ماهو وانظر الى من جرى على يده عقد التبايع ، فالسلعة النفس والله تعالى المشترى لها والثمن جنات النعيم والسفير فى هذا العقد خير خلقه من الملائكة وأكرمهم عليه وخيرهم من البشر وأكرمهم عليه • وفى جامع الترمذى من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل الا ان سلعة الله غالية الا ان سلعة الله الجنة » قال الترمذى حديث حسن غريب • وفى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بلالا ينادى فى الناس أنه لا يدخل الجنة الا نفس مسلمة ، وفى لفظ مؤمنة • وفى مسلم عن ابن (عباس عن-١) عمر بن الخطاب رضى الله عنهما وذكر الحديث وفيه « يا ابن الخطاب اذهب فناد فى الناس أنه لا يدخل الجنة الا المؤمنون » وفى البخارى معناه• وفى كتاب صفة الجنة لأبى نعيم من حديث أبان عن أنس رضى الله عنه قال جاء اعرابى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ما ثمن الجنة ؟ قال لا اله الا الله • قال الامام المحقق ابن القيم فى كتابه (حادى الارواح) وشواهد هذا الحديث كثيرة جدا • وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن اعرابيا جاء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله دلنى على عمل اذا عملته دخلت الجنة ، قال « تعبد الله

خطر النفس الانسانية

(١) من صحيح مسلم

لا تشرك به شيئا وتقيم الصلاة المكتوبة وتؤتى الزكاة المفروضة وتصوم رمضان ، قال والذى نفسى بيده لا أزيد على هذا شيئا أبدا ولا أنقص منه ، فلما ولى قال صلى الله عليه وسلم « من سره أن ينظر الى رجل من أهل الجنة فلينظر الى هذا » وفى مسلم عن جابر رضى الله عنه قال أتى النعمان ابن قوقل الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله أرأيت اذا صليت المكتوبة وحرمت الحرام وأحللت الحلال أدخل الجنة ؟ . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : نعم . وفى صحيح مسلم أيضا عن عثمان بن عفان رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من مات وهو يعلم أنه لا اله الا الله دخل الجنة » وفى مسند الامام احمد وسنن أبى داود عن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « من كان آخر كلامه لا اله الا الله دخل الجنة » وفى الصحيحين عن أبى ذر رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أتانى آت من ربى فأخبرنى - أو قال فبشرنى - انه من مات من أمتك لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة ؟ قلت وان زنى وان سرق ؟ قال : وان زنى وان سرق» وفى الصحيحين أيضا عن عتبان بن مالك الانصارى رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « ان الله حرم على النار من قال لا اله الا الله يبتغى وجه الله » وفى هذا عدة أحاديث تزيد على حد التواتر

خلود الجنة والنار

((واجزم بأن النار كالجنة فى وجودها وانها لم تلف))

((واجزم)) جزم ايقان وعرفان وتصديق واذعان ((بأن النار)) وما فيها من أنواع العذاب والهوان والبوار والزبانية والاغلال والعقارب كالبغال ونحوها موجود الآن ومن قبل الآن ((كـ)) ما أن ((الجنة)) وما فيها من الولدان والحور والنعيم والحبور والحلل والتيجان والفواكه والدور والفرش والقصور وجميع ما اشتملت عليه من أنواع الملاذ والسرور موجود الآن وقبل الآن فالنار ((فى وجودها)) الآن كالجنة فهما موجودتان، قال الامام المحقق فى كتابه (حادى الارواح) لم يزل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضى عنهم والتابعون وتابعوهم وأهل السنة والحديث قاطبة وفقهاء الاسلام وأهل التصوف والزهد على اعتقاد ذلك، واثباته

مستندين فى ذلك الى نصوص الكتاب والسنة وما علم بالضرورة من أخبار الرسل كلهم من أولهم الى آخرهم فانهم دعوا الامم اليها وأخبروا بها ، الى أن نبغت نابغة من القدرية والمعتزلة فأنكرت أن تكون الجنة كالنار الآن مخلوقة وقالوا بل الله ينشئها يوم المعاد ، وحملهم على ذلك أصلهم الفاسد الذى وضعوا به شريعة فيما يفعله الله وانه ينبغى له أن يفعل كذا ولا ينبغى له أن يفعل كذا وقاسوه سبحانه على خلقه فى أفعاله فهم مشبهة فى الافعال ، ودخل التجهم فيهم فصاروا مع ذلك معطلة فى الصفات وقالوا خلق الجنة والنار قبل الجزاء عبث فانهما يصيران معطلتين مددا متطاولة ليس فيهما سكانهما ، قالوا ومن المعلوم أن ملكا لو اتخذ دارا وأعد فيها الالوان والاطعمة والآلات والمصالح وعطلها من الناس ولم يمكنهم من دخولها قرونا متطاولة لم يكن ما فعله واقعا على وجه الحكمة ووجد العقلاء سبيلا الى الاعتراض عليه . فحجروا على الرب تعالى بعقولهم الفاسدة وآرائهم الباطلة وشبهوا أفعاله بأفعالهم وردوا من النصوص ما خالف هذه الشريعة الباطلة التى وضعوها وحرفوها عن مواضعها وضيعوها وضللوا كل من خالف بدعتهم هذه القبيحة وبدعوا من انصرف عن شرعتهم هذه الفضيحة والتزموا لها لوازم أضحكوا عليهم فيها العقلاء وقبح عليهم رأيهم بسببها النبلاء ، ولهذا صار السلف الصالح ومن نحا نحوهم يذكرون فى عقائدهم أن الجنة والنار مخلوقتان ، ويذكر من صنف فى المقالات أن هذه مقالة أهل السنة والحديث قاطبة لا يختلفون فيها منهم الامام أبو الحسن الاشعرى امام كل أشعرى فى كتابه (مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين) وفيه وان الجنة والنار مخلوقتان ، وقد رأى النبى صلى الله عليه وسلم سدرة المنتهى ورأى عندها الجنة كما فى الصحيحين من حديث أنس رضى الله عنه فى صفة الاسراء وفى آخره « ثم انطلق بى جبريل حتى أتى سدرة المنتهى فغشيها ألوان ما أدرى ما هى قال ثم دخلت الجنة فاذا فيها حنابذ اللؤلؤ واذا ترابها المسك » وفى الصحيحين أيضا من حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ان أحدكم اذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشى ان كان من أهل

الجنة فمن أهل الجنة وان كان من أهل النار فمن أهل النار يقال هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة » وقد رأى صلى الله عليه وسلم الجنة فى صلاة الكسوف حتى هم أن يتناول عنقودا من عنبها ورأى النار فلم ير منظرا أفظع من ذلك ، وهذا فى الصحيحين أيضا • وفى مسند الامام احمد وسنن أبى داود والنسائى من حديث ابن عمر رضى الله عنهما فى قصة ذلك وفيه « لقد أدنيت الجنة حتى لو بسطت يدى لتعاطيت من قطوفها ولقد أدنيت النار منى حتى لقد جعلت أتقيها خشية أن تغشاكم » الحديث• وفى صحيح مسلم من حديث أنس رضى الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال « لو رأيتم ما رأيت لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا » قالوا وما رأيت يا رسول الله ؟ قال « رأيت الجنة والنار » وفى مسند الامام احمدوصحيح مسلم والسنن من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لما خلق الله الجنة والنار أرسل جبريل الى الجنة فقال اذهب فانظر اليها والى ما أعددت لأهلها فيها فذهب فنظر اليها والى ما أعد الله لأهلها فيها فرجع وقال بعزتك لا يسمع بها أحد الا دخلها • فأمر بالجنة فحفت بالمكارة فقال فارجع فانظر اليها والى ما أعددت لأهلها فيها قال فنظر اليها ثم رجع فقال : وعزتك لقد خشيت أن لا يدخلها أحد• ثم أرسله الى النار فنظر اليها يركب بعضها بعضا فقال لا يدخلها أحد ، فلما حفت بالشهوات قال : وعزتك لقد خشيت أن لا ينجو منها أحـــد الا دخلها » قال الترمدى حديث حسن صحيح • ودخوله صلى الله عليه وسلم ورؤيته نهر الكوثر وقصور الجنة وحورها وثمارها ودورهاوقصورها وقصة آدم وخروجه منها وأضعاف أضعاف ما ذكرناه من الأدلة القطعية التى يفوت عدها ويتعسر حدها ويعلم المنصف أن العدول عن مضمونها مكابرة ورد للأخبار المتواترة والله تعالى أعلم ((و)) اجزم أيضا بـ((أنها)) أى النار ((لم تتلف)) أى لم تهلك وتبيد قال فى القاموس تلف كفرح هلك وأتلفه أفناه والمتلف كالمقعد المهلك • يعنى أن النار لا تفنى ولا يفنى مافيها كالجنة وما فيها • قال الامام المحقق فى حادى الأرواح أما أبدية الجنة وأنها لا تفنى ولا تبد فمما يعلم بالاضطرار أن رسول الله صلى الله

عليه وسلم أخبر به قال الله تعالى (وأما الذين سعدوا ففى الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والارض الا ماشاء ربك عطاء غير مجذوذ) أى غير مقطوع ولا تنافى بين هذا وبين قوله (الا ماشاء ربك) نعم اختلف السلف فى هذا الاستثناء فقال الضحاك هو فى الذين يخرجون من النار فيدخلون الجنة يقول سبحانه أنهم خالدون فى الجنة • مادامت السموات والارض الا مدة مكثهم فى النار (وقالت فرقة) العزيمة وقعت لهم من الله بالخلود الدائم الا أن يشاء الله خلاف ذلك اعلاما لهم بأنهم مع خلودهم فى مشيئة الله ، وهذا كما قال لنبيه (ولئن شئنا لنذهبن بالذىأوحينا اليك) وقوله (فان يشأ الله يختم على قلبك) وقوله (قل لو شاء الله ما تلوته عليكم) ونظائر ذلك مما يخبر به سبحانه عباده أن الامور كلها بمشيئته ما شاء كان ومالم يشأ لم يكن (وقالت فرقة أخرى) المراد مدة دوام السموات والارض فى هذا العالم فأخبر سبحانه أنهم خالدون فى الجنة مدة دوام السموات والارض الا ماشاء الله أن يزيدهم عليه ، وكأن هذا قول من قال أن الا بمعنى سوى وهذا قول ابن قتيبة فانه قال المعنى خالدين فيها مدة العالم سوى ما شاء الله تعالى أن يزيدهم من الخلود على مدة العالم (وقالت فرقة أخرى) المراد بالسموات والارض سماء الجنة وأرضها وهما باقيتان أبدا وقيل غير ذلك • وفى الصحيحين من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال «يجاء بالموت فى صورة كبش أملح فيوقف بين الجنة والنار ثم يقال يا أهل الجنة ، فيطلعون مشفقين ويقال يا أهل النار ، فيطلعون فرحين فيقال هل تعرفون هذا ؟ فيقولون نعم هذا الموت ، فيذبح بين الجنة والنار ، ويقال يا أهل الجنة خلود ولا موت فيها ويا أهل النار خلود ولا موت فيها » • ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم (وانذرهم يوم الحسرة اذ قضى الامر وهم فى غفلة وهم لا يؤمنون) وأشار بيده الى الدنيا • وفى لفظ للبخارى « وهم فى غفلة : وهؤلاء فى غفلة أهل الدنياو هم لا يؤمنون » أخرجه فى التفسير • وفى الصحيحين فى هذا الحديث « فاذا قيل لهم هل تعرفون هذا ؟ فيشرئبون وينظرون ويقولون : نعم هذا الموت ، فيؤمر بذبحه فيذبح » قوله فيشرئبون

هو بفتح أوله وسكون الشين المعجمة وفتح الراء بعدها تحتية مهموزة ثم موحدةمشددة أي يمدون أعناقهمويرفعون رؤوسهم للنظر ، وفيالصحيحين أيضا عن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ثم يقوم مؤذن بينهم يا أهل الجنة لا موت ويا أهل أهل النار لا موت ، كل خالد فيما هو فيه » وفى رواية عنه عندهما « فيزداد أهل الجنة فرحا الى فرحهم ويزداد أهل النار حزنا الى حزنهم » وفى هذا عدة أحاديث عن أبى هريرة عند الحاكم وابن ماجه وعن أنس عند أبى يعلى والبزار والطبرانى وفيه « فيذبح كما تذبح الشاة فيأمن هؤلاء وينقطع رجاء هؤلاء » فثبت بما ذكـــرنا من الا يات الصريحة والأخبار الصحيحة خلود أهل الدارين خلودا مؤبدا كل بما هو فيه من نعيم وعذاب أليم وعلى هذا اجماع أهل السنة والجماعةفأجمعوا أن عذاب الكفار لا ينقطع كما أن نعيم أهل الجنة لا ينقطع ودليل ذلك الكتاب والسنة وزعمت الجهمية أن الجنة والنار يفنيان وقال هذا امامهم جهم بن صفوان امام المعطلة ، وليس له فى ذلك سلف قط لا من الصحابة ولا من التابعين ولا أحد من أئمة الدين ولا قال به أحد من أهل السنة ، نعم حكى بعض العلماء فى أبدية النار قولين

الاقوال فى الخلود فى النار

وحاصل ذلك كله سبعة أقوال (أحدها) قول الخوارج والمعتزلة ان من دخل النار لا يخرج منها أبدا بل كل من دخلها يخلد فيها أبد الآباد (والثانى) قول من يقول ان أهلها يعذبون مدة فيها ثم تنقلب عليهم وتبقى طبائعهم نارية يتلذذون بالنار لموافقتها لطبائعهم ، وهذا قول ابن عربى الطائى فى كتاب فصوص الحكم وغيره من كتبه (الثالث) قول من يقول أن أهل النار يعذبون فيها الى وقت محدود ثم يخرجون منها ويخلفهمفيها قوم آخرون وهذا القول حكاه اليهود للنبى صلى الله عليه وسلم فأكذبهم فيه وقد أكذبهم الله تعالى أيضا فى قوله (وقالوا لن تمسنا النار الا أياما معدودة قل أتخذتم عند الله عهدا فلن يخلف الله عهده أم تقولون على الله مالا تعلمون * بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحـاب النار هم فيها خالدون) فهذا القول انما هو قول أعداء الله اليهود فهم

شيوخ أربابه والقائلين به وقد دل القرآن والسنة واجماع الصحـابة والتابعين وأئمة الدين على فساده (الرابع) قول من يقول يخرجون منها وتبقى نارا بحالها ليس فيها أحد يعذب ذكره شيخ الاسلام ابن تيميـة عن بعض أهل الفرق قال والقرآن والسنة يردان هذا القول (الخامس) قول من يقول تفنى النار بنفسها لأنها حادثة كانت بعد أن لم تكن وما ثبت حدوثه استحال بقاؤه وأبديته وهذا قول جهم بن صفوان وشيعته ولا فرق عنده بين الجنة والنار (السادس) قول من يقول تفنى حياتهم وحركاتهم ويصيرون جمادا لا يتحركون ولا يحسون بألم ، وهذا قول أبى الهذيل العلاف أحد أئمة المعتزلة طردا لامتناع حوادث لا نهاية لها ، والجنـة والنار عنده سواء فى هذا الحكم (السابع) قول من يقول أن الله تعالى يفنيها لأنه ربها وخالقها لأنه تعالى على زعم أرباب هذا القول جعل لها أمدا تنتهى اليه ثم تفنى ويزول عذابها ، قال شيخ الاسلام وقد نقل هذا عن طائفة من الصحابة والتابعين . ولشيخ الاسلام وتلميذه الامام المحقق ميل الى هذا القول ، وذكر على تأييده بضعا وعشرين وجها ثم قال وما ذكرناه فى هذه المسألة من صواب فمن الله وهو المان به وما كان من خطأ فمنى ومن الشيطان والله ورسوله بريئان منه والله عند لسان كل قائل وقصده والله أعلم . انتهى . وقد ألف العلامة الشيخ مرعى الكرمى الحنبلى رسالة سماها توفيف الفريقين على خلود أهل الدارين .

تنبيه فى حقيقة الموت وانه سيذبح

((تنبيـــه)) (١)

ذهب جمع الى أن الموت عرض ومعني والاعراض لا تنقلب أجساما ، بل زعم بعضهم أن الموت عدم محض وبه قال الزمخشرى ، وأجابوا عن قوله تعالى (خلق الموت والحياة) بأن الخلق فى هذه الآية التقدير ، فان قيل فعلى هذا كيف يأتى الموت فى صورة كبش فيذبح ؟ فالجواب نقل الحكيم الترمذى أن مذهب السلف فى هذا الحديث الوقوف عن الخوض فى معناه فنؤمن به ونكل علمه الى الله . وأجاب بعض أهـــل العـلم ان لعل هذا الكبش صورة ملك من الملائكة الذين يقبضون أرواح الخلائق

---

(١) منخ «تنبيهات ، الاول»

والا فالموت نى نفسه عدم محض راجع الى سلب الحياة ، أو هو استعارة وكناية عن الخلود الدائم ، فضرب المثل بالموت ولا موت هنـاك حقيقة ، انتهى • وذهب جماعة الى أن الموت جسم لا عرض وانه مخلوق فى صورة كبش والحياة فى صورة فرس ، قال الامام أبو حسن الاشعرى : الموت أمر وجودى لقوله تعالى (خلق الموت والحياة) والعدم لا يخلق • كل هذا ملخص من كلام الشيخ مرعى رحمه الله تعالى • وقال النووى فى شرح مسلم يتأول الحديث على أن الله تعالى يخلق هذا الجسم ثم يذبح مثالا لأن الموت لا يطرأ على أهل الآخرة • قلت وهذا غير مرضى ولا معول عليه والدليل على أن الموت جسم فى صورة كبش ما أخرج أبن أبى حاتم فى تفسيره عن قتادة فى قوله تعالى (خلق الموت والحياة) قال: الحياة فرس جبريل والموت كبش أملح • وقال مقاتل والكلبى : خلق الموت فى صورة كبش لا يمر على أحد الا مات وخلق الحياة فى صـورة فرس لا يمر على شىء الا حيى • وأخرج أبو الشيخ ابن حيان فى كتاب العظمة.عن وهب بن منبه قال : خلق الله الموت كبشا أملح مستترا بسواد وبياض له أربعة أجنحة جناح تحت العرش وجناح فى الثرى وجناح فى المغرب وجناح فى المشرق قال له كن فكان ثم قال له ابرز فبـــرز لعزرائيل • قلت الذى نذهب اليه أن الموت أمر وجودى وانه جسم لا عرض وانه مخلوق فى صورة كبش أملح وأن الحياة فى صورة فرس كما صحت بذلك الاخبار عن النبى المختار ونقلها الأئمة ودونها الجهابذة الاخيار ، على أن كثيرا من العلماء أشار الى أن جميع المعانى المعقولة عندنا مصورة عند الله تعالى بصور الاجسام ومشخصة بهيئة الاشخاص وان كنا لا نحس ذلك لكوننا محجوبين عنه والاحاديث النبوية ناطقة بذلك شاهدة له فانه قدو ورد عدة أخبار أن الاعمال تعرض فى صورةأشخاص،الاسلام والصلاة والصيام والمعروف والذكر ، فهذا كله يدل على ماذكرنا وبالله التوفيق

(فائدة) (١) ذكر فى البدور السافرة أن عند اسماعيل بن زياد الشامى

---

(١) مخ « الثانى »

فى تفسيره أن الذى يتولى ذبح الموت جبريل عليه السلام ، وقيل يحيى ابن زكريا عليهما السلام والله أعلم

تتمة فى مكان الجنة والنار

(تتمة (١) فى ذكر مكان الجنة والنار وأين هما على مقتضى الآثار)

أعلم أن الجنة فوق السماء السابعة وسقفها عرش الرحمن كما قال جل شأنه فى محكم القرآن (ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى * عندها جنة المأوى) وقد ثبت أن سدرة المنتهى فوق السماء السابعة وسميت بذلك لانها ينتهى اليها ما ينزل من عند الله فيقبض منها وما يصعد اليه فيقبض منها وقال تعالى (وفى السماء رزقكم وما توعدون) قال ابن أبى نجيح عن مجاهد هو الجنة - وتلقاه الناس عنه • وذكر ابن المنذر فى تفسيره عن مجاهد قال : هو الجنة والنار • وقد أخرج أبو نعيم عن عبدالله ابن سلام رضى الله عنه قال : قال أكرم خليقة الله أبو القاسم صلى الله عليه وسلم أن الجنة فى السماء • وروى أبو نعيم أيضا عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : الجنة فى السماء السابعة ويجعلها الله تعالى حيث شاء يوم القيامة ، وجهنم فى الارض السابعة • وروى ابن منده عن عبدالله ابن مسعود رضى الله عنه الجنة فى السماء الرابعة فاذا كان يوم القيامة جعلها الله حيث شاء ، والنار فى الارض السابعة فاذا كان يوم القيامة جعلها الله حيث شاء • وقال مجاهد قلت لابن عباس رضى الله عنهما أين الجنة ؟ قال : فوق سبع سموات • قلت فأين النار ؟ قال تحت سبعة أبحر مطبقة• رواه ابن منده • وثبت فى الصحيحين أنه صلى الله عليه وسلم قال : « الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والارض » وهذا يدل على أنها فى غاية العلو والارتفاع • وفى لفظ لهذا الحديث « (ان فى) الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والارض أعدها الله للمجاهدين فى سبيله » وشيخ الاسلام ابن تيمية يرجح هذا اللفظ وهو لا ينفى أن تكون درج الجنة أكثر من ذلك كما فى قوله صلى الله عليه وسلم « ان لله تسعة وتسعين اسما من أحصاها دخل الجنة » أى من جملة أسمائه هذا العدد فيكون الكلام جملة واحدة فى الموضعين •

---

(١) مخ « الثالث »

ويدل على هذا أن منزلة نبينا صلى الله عليه وسلم فوق هذا كله فى درجة فى الجنة ليس فوقها درجة وتلك المائة ينالها آحاد أمته بالجهاد • وقال فى (حادى الارواح) والجنة مقبية أعلاهاأوسعها ووسطها وهو الفردوس وسقفه العرش كما قاله صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح « اذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فانه وسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن ومنه تفجر أنهار الجنة » قال فى حادى الارواح قال شيخنا أبو الحجاج المزى الحافظ والصواب رواية من رواه فوقه بضم القاف على أنه اسم الظرف أى وسقفه عرش الرحمن • فان قيل فالجنة جميعها تحت العرش والعرش سقفها فان الكرسى وسع السموات والارض والعرش أكبر منه ، فالجواب لما كان العرش أقرب الى الفردوس مما دونه من الجنان بحيث لا جنة فوقه دون العرش كان سقفا له دون ما تحته من الجنان لعظم سعة الجنة وغاية ارتفاعها يكون الصعود من أدنى الى أعلى بالتدريج شيئا فشيئا درجة فوق درجة كما يقال لقارىء القرآن اقرأ وارق فان منزلتك عند آخر آية تقرأها وهذا يحتمل شيئين أن تكون منزلته عند آخر حفظه وأن تكون عند آخر تلاوته لمحفوظه والله أعلم •

وأخرج أبو نعيم فى تاريخ أصبهان عن ابن عمر رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ان جهنم محيطة بالدنيا وان الجنة وراءها فلهذا كان الصراط على جهنم طريقا الى الجنة » وأخرج جويبر فى تفسيره عن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم من أين يجاء بجهنم يوم القيامة قال « يجاء بها من الارض السابعة لها سبعون ألف زمام معلق كل زمام سبعون ألف ملك تصيح : الى أهلى ، الى أهلى ، فاذا كانت من العباد على مسيرة مائة سنة زفرت زفرة فلا يبقى ملك مقرب ولا نبى مرسل الا جثا على ركبتيه يقول : رب نفسى نفسى » وأخرج الامام احمد والبيهقى بسند رجاله ثقات (١) عن يعلى بن أمية رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « البحر هو جهنم » (٢) وأخرج الامام احمد أيضا فى الزهد عن سعيد بن أبى الحسين قال البحر طبق

---

(١) بل فيهم من لم يوثق توثيقا معتمدا • (٢) فى تاريخ البخارى ج١ رقم ١٧٠ بسند احمد نفسه وفيه « البحر من جهنم »

جهنم • وأخرج أبو الشيخ فى العظمة والبيهقى من طريق سعيد بن المسيب عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال : ما رأيت يهوديا أصدق من فلان زعم أن نار الله الكبرى هى البحر فاذا كان يوم القيامة جمع الله فيه الشمس والقمر والنجوم ثم بعث عليه الدبور فسعرته • وأخرج أبو الشيخ عن كعب فى قوله تعالى (والبحر المسجور) قال البحر يسجر فيصير جهنم • وأخرج البيهقى فى شعب الايمان عن وهب أنه قال اذا قامت القيامة أمر بالفلق فيكشف عن سقر وهو غطاؤها فتخرج منه فاذا وصلت الى البحر المطبق على شفير جهنم وهو بحر البحور نشفته أسرع من طرفة العين وهو حاجز بين جهنم والارضين السبع فاذا نشف اشتعلت فى الارضين السبع فتدعها جمرة واحدة •

وقيل أن النار فى السماء كالجنة لما روى الامام احمد من حديث حذيفة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « أتيت بالبراق فلم نزايل طرفة عين أنا وجبريل حتى أتيت بيت المقدس وفتحت لنا أبواب السماء ورأيت الجنة والنار » وأخرج أيضا عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « رأيت ليلة أسرى بى الجنة والنار فى السماء » فقرأت هذه الآية : (وفى السماء رزقكم وما توعدون) فكأنى لم أقرأها • وليس فى هذا ونحوه حجة على أن النار فى السماء لجواز أن يراها فى الارض وهو فى السماء وهذا الميت يرى وهو فى قبره الجنة والنار وليست الجنة فى الارض ، وثبت أنه صلى الله عليه وسلم رآهما وهو فى صلاة الكسوف وهو فى الارض • قال الحافظ ابن رجب وحديث حذيفة أن ثبت وفيه أنه رأى الجنة والنار فى السماء فالسماء ظرف للرؤية لا للمرئى • وفى حديث ضعيف جدا أنه صلى الله عليه وسلم رأى الجنة والنار فوق السموات ، فلو صح حمل ما ذكرنا • والحاصل ان الجنة فوق السماء السابعة وسقفها العرش وان النار فى الارض السابعة على الصحيح المعتمد وبالله التوفيق

ولما أنهى الكلام على الجنة والنار وصحح وجودهما الآن وبقاءهما أبدا بلا نهاية ولا حساب وبرهن على ذلك وعلى مكانهما أعقب ذلك بقوله :

((فنسأل الله النعيم والنظــــر لربنا من غير ما شين غـــبر))

((فنسأل الله)) العظيم رب العرش العظيم ((النعيم)) المقيم فى جنات النعيم بأنواع ملاذها ونعيمها مع كواعبها وحورها فى خيامها وقصورهـــا وعرصاتها ودورها وبما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ((و)) نسأل الله العظيم الحليم الجواد الكريم ((النظر لـ)) وجه ((ربنا)) وخالقنا وهادينا الكريم مع أهل الطاعة والاستقامة والفوز والنجاة يوم القيامة ((من غير ما)) زائدة لمزيد النفى أى من غير ((شين)) أى عذاب ومناقشة حساب وتوبيخ وعتاب والشين ضد الزين فان من حصل له شيء مما ذكر يذهب زينه ويخلفه شينه والمشاين المعايب ((غبر)) بفتح الغين المعجمة والباء الموحدة أى ذهب والمراد سبق يعنى من غير سابق عذاب ومناقشة حساب يقال غبر غبورا مكث وذهب ، ضد ، وفى الحديث أنه صلى الله عليه وسلم كان يحدر فيما غبر من السورة أى يسرع فى قراءتها . قال فى النهاية قال الازهرى يحتمل الغابر ههنا الوجهين يعنى الماضى والباقى فانه من الاضداد ، قال وقال غير واحد من الأئمة أنه يكون بمعنى الماضى . والحاصل أنه سأل الله تعالى أن يمن عليه بالنعيم والتنعيم بالنظر الى وجهه الكريم من غير سابقة عذاب ولا مناقشة حساب وقد تقدم بعض ما تضمنه من ذكر النعيم المقيم ، وأما النظر الى مولانا الكريم فهو من أصول أهل الحق خلافا لأهل الضلال والحمق ومن ثم قال :

رؤية المؤمنين ربهم فى الآخرة

((فانه ينظر بالابصـــــــار **كما أتى فى النص والاخبار**))

((فانه)) سبحانه وتعالى ((ينظر بالابصار)) فى دار المقامة والقرار باتفاق أئمة الدين الابرار وسلف الأئمة الاخيار ((كما أتى)) أى جاء ((فى النص)) القرآنى والتنزيل الرحمانى ، أصل النص أقصى الشيء وغايته ، وفى حديث كعب : يقول الجبار احذرونى فانى لا أناص عبدا الا عذبته أى لا أستقصى عليه فى السؤال والحساب . وروى الخطابى عن عون بن عبد الله مثله ومنه قول الفقهاء نص القرآن ونص السنة ، أى مادل ظاهر لفظهما عليه من الاحكام ، وفى كلام عمرو بن دينار ما رأيت رجلا أنص للحديث من الزهرى أى أرفع له وأسنـــد ((و)) كما أتى فى

((الاخبار)) النبوية والآثار السلفية وأجمع عليه أهل الحق وسلف الامة وأهل الصدق وأعلام الائمة ورؤية الله رب العالمين أعظم وأجـــل وأشرف وأنعم نعيم الجنة قدرا وأعلاه وأغلاه خطرا وأمرا وهى الغاية القصوى والنهاية العظمى التى شمر اليها السابقون وتنافس فيها المتنافسون واتفق الانبياء والمرسلون والصحابة والتابعون وأئمة السلف والذين على ثبوتها فى دار القرار من غير شك ولا انكار وانما أنكرها أهل البدع والضلال والتجهم والاعتزال قال الله تعالى فى محكم الذكر (وجوه يومئذ ناضرة * الى ربها ناظرة) وقال (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) وقال فى حق أهل الكفر والفجور (كلا انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون) وقال تعالى (ولدينا مزيد) وأخرج مسلم والترمذى وابن ماجه عن صهيب رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « اذا دخل أهل الجنة الجنـة يقول الله تعالى تريدون شيئا أزيدكم ؟ فيقولون ألم تبيض وجوهنا ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار ، قال فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئا أحب اليهم من النظر الى ربهم » ثم تلا هذه الآية (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) يعنى أنه يرفع الموانع عن الادراك عن أبصارهم حتى يروه على ماهو عليه من نعوت العظمة والجلال ، فذكر الحجاب انما هو فى حق الخلق لا الخالق ، كذا قال القرطبى فى تذكرته . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن أبى موسى الاشعرى رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ان الله يبعث يوم القيامة مناديا ينادى بصوت يسمعه أولهم وآخرهم يا أهل الجنة ان الله وعدكم الحسنى وزيادة ، الحسنى الجنة ، والزيادة النظر الى وجه الرحمن » وأخرج ابن جرير وابن مردويه أيضا واللالكائى فى السنة عن كعب بن عجرة مرفوعا مثله . وأخرجوا أيضا وابن أبى حاتم مثله عنه مرفوعا ، وابن مردويه عن ابن عمر رضى الله عنهما مرفوعا « الحسنى الجنة والزيادة النظر الى وجه الله » وابن مردويه أيضا وأبو الشيخ واللالكائى عن أنس رضى الله عنه مرفوعا « الحسنى والزيادة كالذى قبله سواء » ومن حديث أبى هريرة كذلك رواه أبو الشيخ ، وعن الصديق رضى الله عنه موقوفا مثله رواه ابن

جرير وابن مردوية وابن المنذر وأبو الشيخ واللالكائى والآجرى وابن مردويه ، وعن علي رضى الله عنه رواه ابن مردوية ، وعن حذيفة رضى الله عنه رواه بن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ واللالكائى والآجرى ، وكذا عن أبى موسى الاشعرى رضى الله عنه ، ومثله عن ابن عباس رضى الله عنهما وغيره من الصحابة رضى الله عنهم ، ومثله عن سعيد بن المسيب والحسن البصرى وعبد الرحمن بن أبى ليلى وعامر بن سـعيد البجلي وأبى اسحق السبيعى وعبد الرحمن بن سابط وعكرمة ومجـاهد وقتادة وغيرهم من التابعين • قال الامام الحافظ البيهقى فى كتاب الرؤية هذا تفسير قد استفاض واشتهر فيما بين الصحابة والتابعين ومثله لا يقال الا بتوقيف وفسروا قوله تعالى (وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة) قال ابن عباس رضى الله عنهما حسنة الى ربها ناظرة - قال نظرت الى الخالق • وقال عكرمة ناضرة من النعم ، الى ربها ناظرة - قال تنظر الى الله نظرا وقال الحسن النضرة الحسن ، الى ربها ناظرة - نظرت الى ربها فنضرت بنوره ، وقال محمد بن كعب القرظى : نضر الله تلك الوجوه وحسنها للنظر اليه ، ومثله عن مجاهد ، وأخرج ابن أبى حاتم واللالكائى عن الحسن فى قوله (كلا أنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون) قال اذا كان يوم القيامة برز ربنا تبارك وتعالى فيراه الخلق ويحجب الكفار فلا يرونه وروى اللالكائى عن أشهب قال سأل رجل مالكا هل يرى المؤمنون ربهم يوم القيامة ؟ فقال مالك لو لم ير المؤمنون ربهم يوم القيامة لم يعاقب الكفار بالحجاب فقال (كلا انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون) قيل فان قوما يزعمون أن الله لا يرى ، فقال مالك : السيف السيف • وأخرج اللالكائى عن المزنى قال سمعت الشافعى يقول فى قوله تعالى (كلا انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون) فيها دلالة على أن أولياء الله يرون ربهم يوم القيامة ونقل ذلك عن الامام الشافعى رضى الله عنه من عدة وجوه • وقال الطبرانى قال على بن أبى طالب وأنس بن مالك رضى الله عنهما فى قوله تعالى (لهم ما يشاؤون فيها ولدينا مزيد) هو النظر الى رحمة الله عز وجل • وقاله من التابعين زيد بن وهب وغيره كما فى حادى الارواح فهذه تفاسير هذه الآيات مسندة عن النبى صلى الله

عليه وسلم وأصحابه والتابعين بلغت مبلغ التواتر عند أئمة الحديث •

وأما الاحاديث عن النبى صلى الله عليه وسلم الواردة فى الرؤية فأخرج اللالكائى فى السنة من طريق مفضل بن غسان قال سمعت يحيى ابن معين يقول : عندى سبعة عشر حديثا فى الرؤية كلها صحاح • وقد ورد ذلك من حديث الصديق وأنس وجابر وجرير البجلى وحذيفة بن اليمان وزيد بن ثابت وصهيب وعبادة بن الصامت وابن عباس وابن عمر وابن مسعود ولقيط بن عامر وأبى رزين وعلى بن ابى طالب وعدى بن حاتم وعمار بن ياسر وفضالة بن عبيد وأبى سعيد الخدرى وأبى موسى الاشعرى وبريدة بن الحصيب الاسلمى رضى الله عنهم أجمعين ، ففى البخارى ومسلم وغيرهما من حديث ابى هريرة رضى الله عنه أن ناسا قالوا يا رسول الله نرى ربنا يوم القيامة ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « هل تضارون فى رؤية القمر ليلة البدر » قالوا لا يا رسول الله قال « تضارون فى رؤية الشمس ليس دونها حجاب » قالوا لا قال « فانكم ترونه كذلك » الحديث • وفى الصحيحين وغيرهما عن جرير البجلى قال كنا جلوسا مع النبى صلى الله عليه وسلم فنظر الى القمر ليلة أربعة عشر فقال « انكم سترون ربكم عيانا كما ترون هذا لا تضارون فى رؤيته فان استطعتم ان لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل الغروب فافعلوا » ثم قرأ (فسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب) وقد عدد فى حادى الأرواح رواة من روى رؤية البارى عزوجل فزادوا عن الحد• قال العلماء كان التشبيه للرؤية وهو فعل الرائى لا المرئى والمعنى ترون ربكم رؤية ينزاح معها الشك وتنتفى معها الريبة كرؤيتكم القمر لا ترتابون ولا تمترون ، وفى لفظ لا تضامون وروى بتخفيف الميم وضم أوله من الضيم أى لا يلحقكم فى رؤيته ضيم ولا مشقة ، وبتشديدها والفتح على حذف احدى التائين والاصل لا تتضامون اى لا يضام بعضكم بعضا كما يفعل الناس فى طلب الشىء الخفى الذى لا يسهل ادراكه فيتزاحمون عند ذلك ينظرون الى جهة يضام بعضهم بعضا ، يريد أنكم ترونه وكل واحد فى مكانه • وفى الصحيحين وغيرهما ايضا عن ابى سعيد الخدرى رضى الله عنه ان ناسا

فى زمن النبى صلى الله عليه وسلمقالوا يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « نعم فهل تضارون فى رؤية الشمس بالظهيرة صحوا ليس معها سحاب ؟ وهل تضاون فى رؤية القمر ليلة البدر صحوا ليس فيها سحاب ؟ قالوا لا يا رسول الله، قال ما تضارون فى رؤية الله تبارك وتعالى يوم القيامة الا كما تضارون فى رؤية أحدهما » الحديث
تبارك وتعالى يوم القيامة الا كما تضارون فى رؤية احدهما » الحــديث
واخرج الترمذى عن سعيد بن المسيب انه لقى ابا هريرة فقال ابو هريرة اسأل الله أن يجمع بينى وبينك فى سوق الجنة ، قال سعيد أفيها سوق ؟قال نعم اخبرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أهل الجنة اذا دخلوهـــا نزلوا فيها بفضل اعمالهم ثم يؤذن لهم فى مقدار يوم الجمعة من ايام الدنيا فيزورون ربهم ويبرز لهم عرشه ويتبدى لهم فى روضة من رياض الجنة فتوضع لهم منابر من نور ومنابر من لؤلؤ ومنابر من ياقوت ومنابر مــن زبرجد ومنابرمن ذهب ومنابر من فضة ويجلس ادناهم ـ وما فيهم من دنى ـ على كثبان المسك والكافور وما يرون أن أصحاب الكراسى بأفضــل منهم مجلسا » قلت يا رسول الله وهل نرى ربنا ؟ قال « نعم ، هل تمارون فى رؤية الشمس والقمر ليلة البدر ؟ قلنا لا ، قال كذلك لا تمارون فى رؤية ربكم ولا يبقى فى ذلك المجلس رجل الا حاضره الله محاضرة حتى يقول للرجال منهم يا فلان بن فلان أتذكر يوم فعلت كذا وكذا؟ فيذكره ببعض غدراته فى الدنيا ، فيقول يا رب أفلم تغفر لى ؟فيقول: بلى، بسعة مغفرتى بلغت منزلتك هذه » الحديث . والاحاديث فى ذلك كثيرة جدا فى الصحاح والسنن والمسانيد وغيرها ، وقد قيل لابن عباس رضى الله عنهما من دخل الجنة يرى الله عز وجل؟ قال نعم . وقال معاذ بن جبل رضى الله عنه يحشر الناس يوم القيامة فى صعيد واحد فينادى اين المتقون ؟ فيقومون فى كنف الرحمن لا يحتجب الله منهم ولا يستتر ، فقيل له من المتقون ؟ قال قوم اتقوا الشرك وعبادة الاوثان واخلصوا لله العبادة فيمرون الى الجنة . ولهذه الجنة اشار بقوله :

((لانه سبحــانه لم يحتجب   الا عن الكافر والمكــذب))

((لانه)) أى الرب ((سبحانه)) وتعالى ((لم يحجب))بضمالتحتية وسكون الحاء المهملة وفتح الجيم مبنيا لما لم يسم فاعله اى لم يمتنع سبحانه من أن يمكن عباده من رؤيته فى دار القرار ((الا عن الكافر)) بالله تعالى وبكل مكفر اتصف به فكل من حكم الشرع بكفره فهو محجوب عن رؤية ربه قال على بن المدينى سألت عبد الله بن المبارك عن رؤية الله تعالى ، فقال ما حجب الله عزوجل احدا عنه الا عذبه ، ثم قرأ (كلا انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون* ثم انهم لصالو الجحيم* ثم يقال هذا الذى كنتم به تكذبون) قال بالرؤية • فقلت له يا أبا عبدالله ان عندنا قوما من المعتزلة ينكرون هذه الاحاديث ان الله ينزل الى سماء الدنيا ، وأهل الجنة يرون ربهم ، فحدثنى بنحو عشرة أحاديث فى هذا ، وقال : اما نحن فقد اخذنا ديننا هذا عنالتابعين ، والتابعون اخذوهعنأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهم عمن أخذوه ؟• وقال قبيصة بن عقبة : أتينا أبا نعيم يوما فنزل الينا من الدرجة التى فى داره فجلس وسطها كأنه مغضب وقال حدثنا سفيان بن سعيد ومنذر الثورى وزهير بن معاوية وحدثنا حسن بن صالح وحدثنا شريك بن عبد الله النخعى وهؤلاء ابناء المهاجرين يحدثوننا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله تبارك وتعالى يرى فى الآخرة حتى ان يهوديا صباغا يزعم ان الله لا يرى - يعنى بشر المريسى • وقال عبدالعزيز بنابى سلمةالماجشون لم يزليملى لهم - يعنىالمبتدعةمنالجهمية او اضرابهم - الشيطانحتىجحدوا قوله تعالى (وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة) فقالوا لا يراه احد يوم القيامة فجحدوا والله افضل كرامة الله التى أكرم بها أولياءه يوم القيامة من النظر الى وجهه الكريم ونضرته اياهم فى مقعد صدق عند مليك مقتدر فورب السماء والارض ليجعلن رؤيته يوم القيامة للمخلصين له ثوابا لينضر بها وجوههم دون المجرمين ويفلج بها حجتهم على الجاحدين ، وهم عن ربهم يومئذ محجوبون لا يرونه كما زعموا انه لا يرى ولا يكلمهم ولا ينظر اليهم ولهم عذاب أليم• ولذا قلنا ((و)) يحجب ايضا عن ((المكذب)) برؤيته وتكليمه لعبادهالمتقين وكما اشار اليه الامام عبد الله بن المبارك فى قوله تعالى (كلا انهم عنربهم

يومئذ لمحجوبون* ثم انهم لصالوا الجحيم * ثم يقال هذا الذى كنتم بـه تكذبون) قال بالرؤية كما ذكره ابن ابى الدنيا • وقال سيدنا الامام احمد رضي الله عنه من لم يقل بالرؤية فهو جهمي • وقال وقد بلغه عن رجل ان الله لا يرى فى الآخرة فغضب غضبا شديدا وقال : من قال ان الله لا يرى فى الآخرة فهو كافر ــ او فقد كفر ــ عليه لعنة الله وغضبه كائنا من كان من الناس ، أليس يقول الله عز وجل (وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة) وقال (كلا انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون) وقال ابـــو داود سمعت الامام احمد يقول من قال ان الله لا يرى فى الآخرة فهو كافر• وقال ابو بكر المروذى قيل لابى عبد الله رضى الله عنه عن يزيد بن هرون عن ابى العطوف عن ابى الزبير عن جابر رضى الله عنه ان استقر الجبل فسوف ترانى وان لم يستقر فلا ترانى فى الدنيا ولا فى الآخرة ؟ فغضب ابو عبد الله غضبا شديدا حتى تبين فى وجهه وكان قاعدا والناس حوله فأخذ نعله وانتعل وقال اخزى الله هذا ، لا ينبغي أن يكتب عن هذا ، ودفع عن يزيد ابن هارون (أن يكون) رواه او حدث به ، وقال : هذا جهمى كافر مخالف لما قال الله عزوجل (وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة) وقال (كلا انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون) يخزى الله هذا المحدث • وقال الامام أحمد أيضا من كذب بالرؤية فهو زنديق ، قال رضى الله عنه نؤمن بهـــا اى الرؤية وأحاديثها ونعلم انها حق فنؤمن بأن الله يرى نرى ربنا يوم القيامة لا نشك فيه ولا نرتاب • وقال من زعم ان الله لا يرى فى الآخرة فقد كفر بالله وكذب بالقرآن ورد على الله أمره ، يستتاب فان تاب والا قتل • وقال فى رواية حنبل وسأله عن أحاديث الرؤية فقال : هذه احاديث صحاح نؤمن بها ونقر بها وكل ما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم باسناد جيد أقررنا به • وقال ابو عبد الله اذا لم نقر بما جاء عن النبى صلى الله عليه وسلم ودفعناه رددنا على الله أمره قال الله تعالى (وما آتاكم الرســـول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا)

فوائد الاولى تراه سبحانه الابصار فى الآخرة ولا تدركه

(فوائد)

(الاولى) (١) قال العلامة ابن حمدان فى كتابه نهاية المبتدئين كسائر علماء السنة : ونجزم بأن المؤمنين يرون ربهم تعالى يوم القيامة بالابصار ويكلمهم على ما يليق به فيهما ولا يراه الكفار ولا يكلمهم ، قال ومن انكر الرؤية كفر نص عليه الامام أحمد انتهى . وفى حادى الارواح : الرب سبحانه وتعالى يرى ولا يدرك ، كما يعلم ولا يحاط به ، وهذا هو الذى فهمه الصحابة والأئمة رضى الله عنهم من قوله تعالى (لا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار) قال ابن عباس رضى الله عنهما لا تدركه الابصار لا تحيط به الابصار . وقال قتادة هو اعظم من أن تدركه الابصار . وقال ابن عطية ينظرون الى الله ولا تحيط ابصارهم به من عظمته ، وبصره تعالى يحيط بهم فذلك قوله تعالى (لا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار) فالمؤمنون يرون ربهم تبارك وتعالى بأبصارهم عيانا ولا تدركه ابصارهم بمعنى انها لا تحيط به اذ كان غير جائز أن يوصف الله عز وجل بأن شيئا يحيط به وهو بكل شيء محيط ، وهكذا يسمع كلامه من شاء من خلقه ولا يحيطون بكلامه فقوله تعالى (لا تدركه الابصار) من ادل شيء على انه يرى ولا يدرك فهو لعظمته يتعالى عن أن تدركه الابصار ولا تحيط به ، وللطفه وخبرته يدرك الابصار فلا يخفى عليه شيء فهو العظيم فى لطفه اللطيف فى عظمته العالى فى قربه القريب فى علوه الذى (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير - لا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار وهو اللطيف الخبير) . انتهى ملخصا

الثانية - يراه الملائكة والنساء

(الثانية) (٢) ذهب جماعة من العلماء منهم الحافظ عماد الدين بن كثير (٣) الى ان النساء لا يرين الله تبارك وتعالى فى الآخرة ، وذهب جماعة ايضا منهم العز بن عبد السلام وتبعه صاحب آكام المرجان وابن جماعة الى ان الملائكة لا يرون الله أيضا تبارك وتعالى فى الجنة ، وهذا خلاف التحقيق فان النص الصريح والخبر الصحيح يرد هذا ويبعده ويبطله ويدحضه ويطرده فعند الدار قطنى مرفوعا « اذا كان يوم القيامة

(١) مخ « تنبيهات ، الاول » (٢) مخ « الثانى »
(٣) يأتى عنه خلاف هذا

رأى المؤمنون ربهم عز وجل فأحدثهم عهدا بالنظر اليه فى كل جمعـــة قال ويراه المؤمنات يوم الفطر ويوم الاضحى » أى فى مثل يوم الفطـــر ويوم الاضحى وعموم الاحاديث شاملة للنساء من غير توقف • واخـــرج الآجرى عن عكرمة قال قيل لابن عباس رضى الله عنهما كل من يدخل الجنة يرى الله تعالى ؟ قال نعم • وأخرج أبو نعيم فى الحلية عن ابن عباس رضى الله عنهما قال تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هـــذه الآية (رب أرنى أنظر اليك) قال ياموسى انه لن يرانى أحد الا مات ولايابس الا تدهده ولا رطب الا تفرق وانما يرانى أهل الجنة الذين لاتمـــوت أعينهم ولاتبلى أجسادهم » وبظاهر حديث الدار قطنى أخـــذ ابن كثير (١) فاختار أن النساء يرين ربهن فى الاعياد دون الجمع وبه جـــرم الحافظ السيوطى لكنه يحتاج الى دليل خاص أقوى من حديث الدار قطنى واستثنى الحافظ السيوطى زوجات الانبياء عليهم السلام وبناتهم فيرينـــه تعالى فى غير الاعياد كما أن ابا بكر وعمر يريانه تعالى أزيد من غيرهمـــا من غير الانبياء عليهم الصلاة والسلام • قلت ومريم ابنة عمـــران وامرأة فرعون ينبغى أن تكون من المستثنيات ، وكذا نحوهما كأم موسى وأختـــه والله أعلم • وفى آخر البدور السافرة للحافظ السيوطى : وقع فى كلام بعض الائمة ان رؤية الله تعالى خاصة بمؤمنى البشر وان الملائكة لايرونه واحتج له بقوله تعالى (لاتدركه الابصـــار) فانه عام خص منه بالآية والاحاديث فى المؤمنين فيبقى على عمومه فى الملائكة • قل السيوطى وقد نص البيهقى على خلافه فقال فى كتاب الرؤية ذكر ماجاء فى رؤية الملائكة ربهم - فأخرج عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال خلق الله الملائكة لعبادته أصنافا وان منهم لملائكة قياما صافين من يوم خلقهم الى ياوم القيامة وملائكة ركوعا خشوعا من يوم خلقهم الى يوم القيامة فاذا كان يوم القيامة وملائكة ركوعا خشوعا من يوم خلقهم الى يوم القيامة فاذا كان سبحانك ماعبدناك حق عبادتك • ثم أخرج من وجه آخر عن عدى بن ارطاة عن رجل من الصحابة رضى الله عنهم ان رسول الله صـــلى الله

(١) راجع ما مر عنه

عليه وسلم قال « ان لله ملائكة ترعد فرائصهم من مخافة ما عندهم ، ملك ماتقطر دمعة من عينه الا وقعت ملكا يسبح وملائكة سجودا منذ خلق الله السموات والارض لم يرفعوا رؤوسهم ولا يرفعونها الى يوم القيـــــامة فاذا كان يوم القيامة تجلى لهم ربهم فينظرون اليه قالوا سبحانك ماعبدناك كما ينبغي لك » انتهى • والحق الذى لا مرية فيه انهم يرونه تعـــالى بل ومؤمنو الجن يرونه اما فى الموقف فجزمامع سائر المؤمنين وأما فى الجنة ففى بعض الاوقات على مايظهر بل الظاهر انهم يرونه الا انهم دون مؤمنى الانس فى الرؤية فى كل جمعة

والحاصل أن رؤية الرب جل جلاله فى الموقف حاصلة حتى لمنـــافقى هذه الامة على الاصح واما الرؤية فى الجنة فاجمع أهل السنة انهـــــا حاصلة للانبياء والرسل والصديقين من كل أمة ورجال المؤمنين من البشر من هذه الامة واختلف فى غيرهم ، وقد جزم الحــــافظ ابن رجب فى اللطائف بأن كل يوم عيد للمسلمين فى الدنيا فأنه عيد لهم فى الجنـــــة يجتمعون فيه على زيارة ربهم ويتجلى لهم فيه فينظرون اليه فما أعطـاهم شيئا هو أحب اليهم من ذلك وهو الزيادة التى قال الله تعالى فيها (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) ويوم الجمعة فى الجنة يدعى يوم المزيد (١)

---

(٤) قال الفاسى فى شرح دلائل الخيرات ويوم المزيد هو اسم يوم الجمعة فى الجنة وفيه تقع الرؤيا حسبما فى الاحاديث عنه صلى الله عليه وسلم الا انه يؤذن بثبوت الايام فى الجنة وهى لا ليل فيها اذ لا ظلام فيها فلعلهم تخلق لهم تفرقة أخرى بين الايام بغير الظلام والله أعلم ولعلها بنور يزداد عند تمام اليوم ثم أما ان يقع للتفرقة وينقطع ثم يأتى اليـــوم بعده على النور المعتاد واما ان يبقى الى تمام اليوم فيكون هو مبـــدأ اليوم ثم يأتى اليوم الذى بعده أنور منه وهكذا كل يوم أنور من الذى قبله فيكون نور الجنة فى الترقى على الدوام وذلك الترقى هو الايام ومبـدء كل ترق هو مبدأ كل يوم وهذا هو المناسب لحال الجنة كما انهم فى جمال صورهم وحسن ثيابهم فى الترقى على الدوام حســبما فى الحديث والله أعلم ثم وجدت فى البدور السافرة مما أخرجه سعيد بن منصور وابن أبى حاتم عن ابن عباس رضى الله عنهما وابن المبارك عن الضحاك فى قوله تعـــالى

=

ويوم الفطر والاضحى يجتمع أهل الجنة فيها • قال الحافظ ابن رجب فى اللطائف روى انه يشارك النساء الرجال فيهما كما كن يشهدن العيدين مع الرجال دون الجمعة ، قال فهذا لعموم أهل الجنة ، فاما خواصهم فكل يوم لهم عيد يزورون فيه ربهم كل يوم مرتين بكرة وعشيا لان الخواص كانت ايام الدنيا كلها لهم اعيادا فصارت أيامهم فى الآخرة كلها اعيادا ، قال الحسن رحمه الله تعالى : كل يوم لايعصى الله فيه فهو عيد فاليوم الذى يقطعه المؤمن فى طاعة مولاه وذكره وشكره فهو له عيد • انتهى ملخصا • وفى التذكرة للقرطبى ان الناس يرون ربهم فى الموقف ثم يحجبون الى أن لايبقى فى النار ممن يدخل الجنة أحد فيؤذن لهم فيرونه فى الجنة ثم لا يحجبون بعد ذلك أصلا ولا فى حال تمتعاتهم ، وقد قيل ان الكفار كالمنافقين يرونه تعالى ثم يحجبون عنه فتكون الحجبة حسرة عليهم ، وخص النووى الخلاف بالمنافق واما الكافر غير المنافق فلا يراه تعالى اتفاقا كما لايراه غير العقلاء من سائر الحيوانات والله تعالى أعلم

الثالثة هل رأى محمد ربه ليلة الاسراء ؟

(الثالثة) (١) اختلف العلماء فى رؤية خاتم الانبياء لربه اله الارض والسماء فى ليلة المعراج التى هى فى حقه صلى الله عليه وسلم أفضل من ليلة القدر واسمى فأثبتها حبر الامة عبد الله بن عباس رضى الله عنهما ورجحه النووى وقال : والحاصل ان الراجح عند أكثر العلماء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى ربه بعينى رأسه ليلة الاسراء الحديث ابن عباس رضى الله عنهما وهذا قول أنس وعكرمة والحسن والربيع بن

(ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا (انهم يؤتون رزقهم فى الآخرة على مقدار ما يؤتون به فى الدنيا من الليل والنهار وأخرج ابن المنذر عن بعض السلف سماه أنه سئل عن الآية فقال ليس فى الجنة ليل هم فى نور أبدا لهم مقدار النهار برفع الحجب ومقدار الليل بارخاء الحجب وأخرج الحكيم الترمذى فى النوادر عن الحسن وأبى قلابة قالا قال رجل يا رسول الله هل فى الجنة من ليل فان الله يقول فى كتابه (ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا) قال ليس هناك هو ضوء ونور برد الغدو على الرواح والرواح على الغدو ويأتيهم طرف الهدايا لمواقيت الصلاة التى كانوا يصلون فيها وتسلم عليهم الملائكة انتهى بحروفه — من هامش الاصل

(١) مخ « الثالث »

سليمان وجماعة من المفسرين قال القرطبى قد ثبت ذلك يعنى رؤية البارى جل شأنه سمعا بقوله تعالى (وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظـــرة) واذا جازت فى الآخرة جازت فى الدنيا لتساوى الوقتين بالنسبة الى الموتى • كذا قال وقال القاضى عياض رؤية الله تعالى جائزة عقلا وتثبت الاخبار الصحيحة المشهورة وقوعها للمؤمنين فى الآخرة ، واما فى الدنيا فقال مالك انما لم ير سبحانه فى الدنيا لانه باق والباقى لايرى بالفــــانى فاذا كان فى الا خرة رزقوا أبصارا باقية فرأوا الباقى بالباقى • قال القاضى عيـــاض وليس فى الكلام استحالة الرؤية الا من حيث القدرة فاذا اقدر الله من شاء من عباده عليها لم يمتنع ، وقد وقع فى صحيح مسلم مايؤيد هذه التفرقة فى حديث مرفوع فيه (واعلموا انكم لن تروا ربكم حتى تمـــوتوا) واخرجه ابن خزيمة من حديث ابى امامة ومن حديث عبادة بن الصـــامت رضى الله عنهما فان جازت الرؤية فى الدنيا عقلا فقد امتنعت سمعا لكن من أثبتها للنبى صلى الله عليه وسلم له أن يقول أن المتكلم لايدخل فى عموم كلامه • كذا فى الفتح ، قال وقد اختلف السلف فى رؤية النبى صـــلى عليه وسلم ربه فذهب جماعة الى اثباتها ، وحكى عبد الرزاق عن معمر عن الحسن انه حلف ان محمدا رأى ربه ، وجزم ابن خزيمة عن عروة بن الزبير باثباتها ، وكان يشتد عليه اذا ذكر له انكار عائشة ، وبه قال ســائر أصحاب ابن عباس رضى الله عنهما ، وجزم به كعب الاحبار والزهـــرى وصاحبه معمر وآخرون ، وهو قول الأشعرى وغالب أتباعه ثم اختلفوا هل رآه بعينه أو بقلبه وعن الامام أحمد رضى الله عنه كالقولين ، قال الحافظ ابن حجر فى شرح البخارى جاءت عن ابن عباس رضى الله عنهما أخبار مطلقة وأخرى مقيدة قال فيجب حمل مطلقها على مقيدها فمن ذلك ما أخرجه النسائى بسند صحيح وصححه الحاكم ايضا من طريق عكرمة عن ابـــن عباس رضى الله عنهما أتعجبون أن تكون الخلة لابراهيم والكلام لموسى والرؤية لمحمد • وأخرجه ابن خزيمة بلفظ : ان الله اصطفى ابراهيم بالخلة ـ الحديث • وأخرج ابن اسحاق من طريق عبدالله بن أبى سلمة ان ابن

عمر أرسل الى ابن عباس رضى الله عنهم : هل رأى محمد ربه ؟ فأرسل اليه ان نعم • ومنها ما اخرجه مسلم من طرق ابى العالية عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى (ما كذب الفواد ما رأى - ولقد رآه نزلة أخرى)قال رأى ربه بفؤادهمرتين • وله من طريق عطاء عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : رآه بقلبه • وأصرح من ذلك ما اخرجه ابن مردويه من طريق عطاء عن ابن عباس ايضا قال : لم يره رسول صلى الله عليه وسلمبعينه انما رآه بقلبه • وروى ابن خزيمة باسناد قوى عن أنس رضى الله عنه قال : رأى محمد ربه • وعند مسلم من حديث ابى ذر انه سأل النبى صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقال « نور أنى أراه » وللامام أحمد عنه رضى الله عنه قال صلى الله عليه وسلم « رأيت نورا » ولابن خزيمة عنه قال : رآه بقلبه ولم يره بعينه ، وبهذا يتبين مراد ابى ذر رضى الله عنه بذكر النور اى النور حال (بينه و) بين رؤيته له ببصره •

والحاصل ان فى هذه المسألة ثلاثة أقوال احدها ثبوت رؤية النبى صلى الله عليه وسلم لربه ، وهو قول ابن عباس واتباعه وهو ظاهر ما ذهب اليه الامام أحمد رضى الله عنه فقد روى الخلال فى كتاب السنة عن ابى بكر المروذى قال قلت لاحمد انهم يقولون أن عائشة قالت من زعم ان محمدا رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية فبأى شىء يدفع قولها ؟ قال بقول النبى صلى الله عليه وسلم « رأيت ربى » قول النبى صلى الله عليه وسلم اكبر من قولها • وجنح ابن خزيمة فى كتاب التوحيد الى ترجيح الاثبات واطنب فى الاستدلال له بما يطول ذكره وحمل ماورد عن ابن عباس رضى الله عنهما من قوله انه انما رآه بقلبه على ان الرؤيا وقعت مرتين مرة بعينه ومرة بقلبه •

(الثانى) منع ذلك فى الدنيا وهو قول عائشة الصديقة بنت الصديق رضى الله عنهما قالت رضى الله عنها من زعم أن محمدا رأى ربه بعين رأسه فقد أعظم الفرية على الله• وروى الترمذى عن الشعبى قال لقى ابن عباس رضى الله عنهما كعبا يعرفة فسأله عن شىء فكبر حتى جاوبته الجبال فقال ابن عباس انا بنو هاشم - وزاد عبدالرزاق نقول ان محمدا رأى ربه

مرتين. فقال كعب ان الله قسم رؤيته وكذمه زاد عبد الرزاق بين موسى ومحمد فكلم موسى مرتين ورآه محمد مرتين . قال مسروق فدخلت على عائشة فقلت هل رأى محمد ربه ؟ قالت لقد قف شعرى - اى قام من الفزع لما حصل - عندها من هيبة الله واعتقدته من تنزيهه تعالى واستحالة وقوع ذلك ثم قالت له - اين أنت من ثلاث آيات ؟ من حدثك أن محمدا رأى ربه فقد كذب - وفى لفظ - من زعم ان محمدا رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية ، ثم قرأت (لا تدركه الابصار - وما كان لبشر ان يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب) ولكن رأى جبريل فى صورته مرتين . وفى صحيح البخارى ومسلم وسنن الترمذى ان مسروقا قال قلت لعائشة يا أمتاه - أصله يا أم والهاء للسكت فأضيف اليها ألف الاستغاثة فأبدلت تاء وزيدت هاء السكت بعد الالف - هل رأى محمد ربه ؟ فقالت لقد قف شعرى مما قلت ، أين انت من ثلاث ؟ من حدثكهن فقد كذب ، من حدثك أن محمدا رأى ربه فقد كذب ، ثم قرأت الآيتين ، ومن حدثك انه يعلم ما فى غد فقد كذب ، ثم قرأت (وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا) ومن حدثك انه كتم شيئا من كتاب الله فقد كذب ثم قرأت (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك) الآية ، ولكنه رأى جبريل عليه السلام فى صورته مرتين . ووافق عائشة رضى الله عنها على ما ذهبت اليه من أن النبى صلى الله عليه وسلم لم ير ربه بعينى رأسه جماعة من الصحابة منهم ابن مسعود وابو هريرة وغيرهم رضى الله عنهم، وبه قال جمع العلماء بل نقل الدرامى الحافظ اجماع الصحابة على ذلك ، واعترض الامام النووى وغيره على من ذهب الى مذهب عائشة بأنها رضى الله عنها لم تنف وقوع الرؤية بحديث مرفوع ولو كان معها لذكرته وانما اعتمدت الاستنباط على ما ذكرت من ظاهر الآية وقد خالفها غيرها من الصحابة والصحابى اذا قال قولا وخالفه غيره منهم لم يكن ذلك القول حجة اتفاقا ، والمراد بنفى الادراك فى الآية الكريمة نفى الاحاطة وذلك لا ينافى الرؤية . انتهى . كما قدمنا ذلك موضحا ، وجزمه بأن عائشة رضى الله عنها لم تنف الرؤية بحديث مرفوع تبع فيه ابن خزيمة فانه قال فى كتاب التوحيد من صحيحه

النفي لا يوجب علما قال ولم تحك عائشة ان النبي صلى الله عليه وسلم أخبرها أنه لم ير ربه وانما تأولت الآية . انتهى . وهذا عجيب منهما ففي الصحيحين والترمذي وغيرهما أن مسروقا قال كنت متكئا عند عائشة رضي الله عنها فقالت يا أبا عائشة ثلاث من تكلم بهن فقد اعظم على الله الفرية . قال وكنت متكئا فجلست فقلت يا أم المؤمنين انظريني ولا تعجليني الم يقل الله (ولقد رآه بالافق المبين - ولقد رآه نزلة أخرى) فقالت انا اول هذه الامة سأل عن ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « انما هو جبريل لم أره على صورته التي خلق عليها غير هاتين المرتين رأيته منهبطا من السماء سادا عظم خلقه ما بين السماء الى الارض . ثم قالت او لم تسمع ان الله تعالى يقول (لاتدركه الابصار) وقرأت الآيتين . واخرجه ابن مردويه من طريق أخرى باسناد مسلم فقالت أنا أول من سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذا فقلت يا رسول الله هل رأيت ربك ؟ فقال : لا انما رأيت جبريل منهبطا . نعم خالف ابن عباس عائشة رضي الله عنهم باحتجاجها بالآية الكريمة فأخرج الترمذي من طريق الحكم بن ابان عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال رأى محمد ربه قلت أليس الله يقول (لا تدركه الابصار) قال ويحك ذاك اذا تجلى بنوره الذي هو نوره وقد رأى ربه مرتين . وقال شيخ الاسلام ابن تيمية قدس الله روحه ما نقل عن الامام احمد رضي الله عنه من اثبات رؤية النبي صلى الله عليه وسلم لربه انما يعني رؤية المنام فانه سئل عن ذلك قال نعم رآه فان رؤيا الانبياء حق ولم يقل انه رآه بعين رأسه . وقال شيخ الاسلام ايضا ابن عباس رضي الله عنهما لم يقل أنه صلى الله عليه وسلم رأى ربه بعيني رأسه يقظة ومن حكى عنه ذلك فقد وهم وهذه نصوصه موجودة ليس فيها شيء من ذلك . قال ولفظ الامام أحمد كلفظ ابن عباس . قال وأهل السنة متفقون على ان الله تعالى لا يراه احد بعينه في الدنيا لا نبي ولا غير نبي ولم يقع النزاع الا في نبينا صلى الله عليه وسلم خاصة مع أن الاحاديث المعروفة ليس في شيء منها انه رآه وانما روى ذلك باسناد موضوع باتفاق اهل الحديث . انتهى .

واذا علم ما حررناه فيمكن الجمع بين اثبات ابن عباس ونفي عائشة

رضى الله عنهم بأن يحمل نفيها على رؤية البصر واثباته على رؤية القلب كماقاله الحافظ ابن حجر فى شرح البخارى . ثم المراد برؤية الفؤاد رؤية القلب لا مجرد حصول العلم لانه صلى الله عليه وسلم كان عالما بالله على الدوام بل مراد من أثبت له أنه رآه بقلبه ان الرؤية التى حصلت له خلقت فى قلبه كما تخلق الرؤية بالعين لغيره والرؤية لا يشترط لها شىء مخصوص عقلا ولو جرت العادة بخلقها فى العين وقد مر عن ابى ذر رضى الله عنه انه سأله صلى الله عليه وسلم هل رأيت ربك قال « نور أنى أراه » ورواه الترمذى أيضا بهذا اللفظ ورواه الامام أحمد عنه قال « رأيت نورا » ولابن خزيمة عنه قال رآه بقلبه ولم يره بعينه . قال الحافظ ابن حجر وبهذا تبين مراد أبى ذر بذكر النور أى أن النور حال (بينه و) بين رؤيته له ببصره . وقال الامام المحقق ابن القيم فى عدة مواضع من كتبه كاعلام الموقعين والجيوش وغيرهما سمعت شيخ الاسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول معناه كان ثم نور وحال دون رؤيته نور فأنى اراه ، ويدل عليه ان فى بعض ألفاظ الصحيح هل رأيت ربك فقال رأيت نورا . قال المحقق ابن القيم وقد اعضل أمر هذا الحديث على كثير من الناس حتى صحفه بعضهم فقال نورانى أراه على انها ياء النسبة والكلمة واحدة وهذا خطأ لفظا ومعنى وانما أوجب لهم هذا الفهم انهم لما اعتقدوا ان رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى ربه وكان قوله «انى أراه» كالانكار للرؤية حاروا فى الحديث وبعضهم رده باضطراب لفظه وكل هذا عدول عن موجب الدليل . قال المحقق ابن القيم ويدل على ما قال شيخنا قوله صلى الله عليه وسلم حجابه النور ، فهذا النور والله أعلم هو النور المذكور فى حديث ابى ذر . انتهى . وذكر ابن الاثير فى حل ألفاظ جامع الاصول ان الامام احمد رضى الله عنه سئل عن حديث ابى ذر هذا فقال ما زلت منكرا لهذا الحديث وما أدرى ما وجهه . وقال ابن خزيمة : فى القلب من صحة هذا الخبر شىء . وقال بعض العلماء فى هذا الحديث قد أجمعنا على انه تعالى ليس بنور وخطأنا المجوس فى قولهم هو نور والانوار أجسام والبارى سبحانه وتعالى ليس بجسم والمراد بهذا الحديث أن حجابه سبحانه النور وكذلك روى فى حديث

أبى موسى رضى الله عنه فالمعنى كيف أراه وحجابه النور والله أعلم •

(الثالث) الوقف عن القطع بالنفى أو الاثبات فى هذه المسئلة وقد رجح هذا جماعة منهم القرطبى فى المفهم فى شرح صحيح مسلم فانه قال الوقف فى هذه المسئلة ارجح وعزاه لجماعة من المحققين وقواه بأنه ليس فى الباب دليل قاطع وغاية ما استدل به للطائفتين ظواهر متعارضة قابلة للتأويل قال وليست المسئلة من العمليات فيكتفى فيها بالادلة الظنية وانما هى من المعتقدات فلا يكتفى فيها بالدليل القطعى• ومن استنار قلبه لاقتفاء الآثار وخلع ربقة التقليد التى هى مثار التغبير فى وجوه الاخبار علم ان السلامة فى التسليم وفوق كل ذى علم عليم وبالله التوفيق •

((الباب الخامس))

الباب الخامس فى النبوة

(فى ذكر النبوة وذكر محمد صلى الله عليه وسلم وذكر بعض الانبياء وفضله وفضل أصحابه وأمته صلى الله عليه وسائر الانبياء والمرسلين وسلم وعظم وكرم)

اعلم أن حاجة الخلق الى ارسال الرسل وبعثة الانبياء عليهم الصلاة والسلام ضرورية ، لا ينتظم لهم حال ولا يصلح لهم دين ولا بال ، الا بذلك، فهم أشد احتياجا الى ذلك من ارسال المطر والهواء بل ومن النفس الذى لا بد لهم منه كما فى مفتاح دار السعادة للمحقق ابن القيم رحمه الله تعالى ، واحالت السمنية ارسال الرسل لتوقفه على علم المرسل بمن أرسله ولا طريق اليه الا الخبر وأعلى أنواعه المتواتر وهو لا يفيد عندهم علما فلعل القائل له أرسلناك الى قوم كذا شيطان مثلا• وزعمت البراهمة وهم طائفة من المجوس أن ارسال الرسل عبث لا يليق بالحكيم لاغناء العقل عن الرسل لان ما جاء به الرسل ان كان موافقا للعقل حسنا عنده فهو يفعله وان لم يأت به ، وان كان مخالفا له قبيحا فان احتاج اليه فعله والا تركه • وقالت المعتزلة بوجوب ذلك على الله تعالى بالنظر الى ذاته • والحق انه جائز عقلا فى حقه تعالى واجب سمعا وشرعا والى ذلك اشار بقوله :

((ومن عظيم منــة السـلام   ولطفــه بسائـر الانـام))
(ان أرشد الخلق الى الوصول   مبينـاً للحـق بالرسول)

((ومن عظيم منة)) الرب ((السلام)) المنة مأخوذة من المن وهو الاحسان الى من لا يستثيبه ولا يطلب الجزاء عليه ومن اسماء الله المنان وهو المنعم المعطى من المن وهو العطاء وقد يقع المنان على الذى لا يعطى شيئا الا منه واعتد به على من أعطاه وهو مذموم لان المنة تفسد الصنيعة اذا كانت من غير البارى جل وعلا ، والسلام من أسمائه تعالى ومعناه ذو السلامة من كل عيب ونقيصة فيكون من أسماء التنزيه ، وقيل معناه مالك تسليم العباد من المهالك فيرجع الى معنى القادر ، وقيل ذو السلام على المؤمنين فى الجنان فيرجع الى الكلام القديم الازلى(١) قال تعالى (سلام قولا من رب رحيم) والفرق بين القدوس والسلام ان القدوس فيه اشارة الى انه برىء من جميع العيوب والنقائص فى الماضى والحاضر ، والسلام فيه اشارة الى انه لا يطرأ عليه شئ من ذلك فى المستقبل ((و)) من عظيم ((لطفه)) تعالى اى رفقه ((بسائر)) اى جميع ((الانام)) كسحاب والآنام بالمد والانيم كأمير الخلق او الانس والجن وجميع ما على وجه الارض أى من رفقه تعـــالى بهم فى الفعل والعلم بدقائق المصالح وايصالها الى من قدرها له من خلقه ،يقال لطف به وله بالفتح يلطف لطفا اذا رفق به ، وأما لطف بالضم يلطف فمعناه صغر ودق ، ومن أسماء الله تعالى اللطيف وهو الذى اجتمع له الرفـــق فى الفعل والعلم • وانما عدل عن قوله منة المنان ولطفه بسائر الانسان لعدم شمول نحو الجن فبسبب عموم الانام على الانسان عدل اليه لان الانسان كالانس البشر والمنة بارسال الرسل شاملة للثقلين بل لكل الخلق والله أعلم •

((ان)) بفتح الهمزة وسكون النون حرف مصدرى تسبك مع ما بعدها بمصدر ((أرشد)) أى هدى ودل ودعا سبحانه وتعالى يقال رشـد كنصر وفرح رشدا ورشادا هدى واسترشد طلب الرشد ، والرشد الاستقـــامة على طريق الحق مع تصلب فيه ، والرشيد من أسماء الله تعالى الهادى الى

---

(١) راجع بحث القـــرآن والتعليق عليه

سواء الصراط والذى حسن تقديره فيما قدر ، وان ومابعــدها فى تأويل مصدر مبتدأ والخبر قوله فى البيت قبله ومن عظيم الخ والتقدير رشـــد الخلق الى الوصول كائن من عظيم منة الســلام ((الخلق)) من الثقلين الانس والجن ((الى الوصول)) الى معرفة الله تعالى وعبادته والقيام بمـا شرعه من التكليف الذى ثمرته الفوز بالسلامة الابدية والســعادة السرمدية والنعيم المقيم فى جنات النعيم ورضى الرب الرحمن والنظر اليه فى دار القرار مع الاتقياء الاخيار والاولياء الابرار حال كونه تعــالى (مبينا) أى مظهرا وموضحا ((لـ)) نهجا ((لحق)) وهو الحكم المطابق للواقع ويطلق على الاقوال والعقائد والاديان والمذاهب باعتبار اشتمالها على ذلك ، ويقابله الباطل ، ومن اسمائه تعالى الحق أو من صــفاته ، واما الصدق فقد شاع فى الاقوال ويقابله الكذب، ويفرق بين الحق والصدق بأن المطابقة تعتبر فى الحق من جانب الواقع ، والصدق من جانب الحكم فعلى هذا معنى صدق الحكم مطابقة الواقع ، ومعنى حقيته مطابقة الواقع اياه ، والمشهور فيهما مطابقة كل واحد منهما للواقع ((بالرسول)) متعلق بمبين والرسول انسان اوحى اليه بشرع وأمر بتبليغه فان لم يؤمر بتبليغه فنبى فقط ، وتقدم فى صدر الكتاب ، وسئل نبينا محمد صلى الله عليه وســلم كما فى صحيح ابن حبان عن عدد الانبياء فقال : مائة ألف وأربعة وعشرون الفا ، الرسل منهم ثلاثمائة وثلاثة عشر ٠ وفى رواية واربعة عشر ٠ والاولى عدم حصرهم فى عدد معين لان الحديث ضعيف وربما خالف قوله تعالى (منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليــك) فلا يؤمن من دخول من ليس منهم فيهم وخروج بعضهم عنهم، واولو العزم منهم خمسة محمد وابراهيم وموسى وعيسى ونوح عليهم الصلاة والسلام

(تنبيهات)

تنبيهات الاول ارسال الرسل فضل منه تعالى

(الاول) فى قوله ومن عظيم منة السلام الى آخر البيتين اشارة الى أن ارسال الرسل وانزال الكتب وشرع الشرائع منة من الله تعالى وفضــل لاواجب عليه ذلك وانما هو على سبيل اللطف بالخلق والفضل عليهــم فبعثه تعالى جميع الرسل من آدم الى محمد صلى الله عليهم وسلم أجمعين

الى المكلفين لطف من الله بهم ليبلغوهم عنه سبحانه أمره ونهيه ووعده ووعيده ويبينوا لهم عنه سبحانه مايحتاجون اليه من أمور المعاش والمعاد مما جاءوا به من شرائعهم واحكامهم التى انزلها الله تعالى فى كتبه عليهم اختصاصا كالقرآن العظيم واشتراكا كالتوراة لموسى وهارون ويوشع ومن بعدهم الى عيسى عليه وعليهم السلام حتى تقوم الحجة عليهم بالبينات وينقطع عنهم سائر التعالات كما قال تعالى (ولو انا اهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا ارسلت الينا رسولا فنتبع آياتك من قبل ان نذل ونخزى) وقوله تعالى (وماكنا معذبين حتى نبعث رسولا) وقوله (رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) فلولا اعذاره تعالى اليهم على ألسنة الرسل واقامة الحجة عليهم ببعثه أهل خيرته من ذوى النبوة والفضل لتوهموا ان لهم حجة سائغة ومعذرة بالغة لوجوه (أحدها) أن يقولوا انما خلقنا ربنا لعبادته ومابين لنا العبادة التى يريدها منا ماهى ولا كم هى ولا كيف هى (ثانيها) ان يقولوا قد ركبنا ربنا فى هياكل واجسام تقبل السهو والغفلة وسلط علينا الشيطان والشهوة والهوى فكان ينبغى ان يؤيدنا بما اذا سهونا نبهنا واذا مال بنا الهوى ردنا واذا وسوس الينا الشيطان منعنا بما يرشدنا اليه من الاذكار وغيرها (ثالثها) ان يقولوا هب انا نعلم بعقولنا حسن الايمان وقبح الكفر والعصيان لكنا لم يصل ادراك عقولنا الى ان من فعل القبيح عذب مع انا نحس ان لنا فى معاطاة القبيح لذة وليس على البارى فيه مضرة ولم نعلم ان من آمن وعمل صالحا استحق الثواب مع ادراكنا بعقولنا عدم العود بمنفعة له تعالى فلا جرم تقاضتنا الشهوات واقدمنا على ما فيه لنا اللذات • فارسال الرسل لمعاضدة العقل أمر جائز فى حقه وواجب وقوعا وسمعا • يزيد هذا وضوحا

الثانى الرسالة ضرورية للعباد

(التنبيه الثانى) ان الرسالة ضروية للعباد لاغنى لهم عنها وحاجتهم اليها فوق حاجتهم الى كل شىء فان الرسالة روح العالم ونوره وحياته فأى صلاح للعالم اذا عدم الروح والحياة والنور ؟ والدنيا مظلمة ملعونة كلها الا ماطلعت عليه شمس الرسالة ، وكذلك العبد مالم تشرق فى قلبه شمس الرسالة

وتناله حياتها وروحها فهو فى ظلمة وهو من الاموات قال الله تعالى (أومن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس كمن مثـــــله فى الظلمات ليس بخارج منها) فهذا وصف المؤمن كان ميتا فى ظلمة الجهل فأحياه الله بروح الرسالةوبنور الايمان وجعل له نورا يمشى به فى الناس. واما فى الكافر فميت القلب فى الظلمات ، وسمى الله تعالى رسالته روحا والروح اذا عدم فارقت الحياة قال تعالى (وكذلك اوحينا اليك روحـا من أمرنا) الآية فالروح الحياة ، والنور الاضاءة المزيلة للظلمة ، فالكافر فى ظلمات الكفر والشرك وهو ميت غير حى وان كان فيه حياة بهيمية لكنه عادم الحياة الروحانية العلوية الناشئة عن الايمان ، وبها يحصل للعبد الفوز والسعادة والفلاح فى الدنيا والآخرة ، فان الله تعالى جعل الرسل عليهم الصلاة والسلام وسائط بينه وبين عباده فى تعريفهم ماينفعهم ومايضرهم وتكميل مايصلحهم فى معاشهم ومعادهم ، فبعثوا جميعا بالدعـــوة الى الله تعالى وتعريف الطريق الموصل اليه وبيان حالهم بعو الوصول اليـــــه ، فأرشدوهم الى توحيده تعالى واثبات صفاته واثبات القدر ، وذكر أيام الله تعالى فى اوليائه واعدائه وهى القصص التى قصها على العباد ، والامثـــال التى ضربها لهم ، وارشدوهم الى العلم بتفصـــيل الشرائع والامر والنهى والاباحة وبيان مايحبه الله ويكرهه ، وكذلك بينوا لهم وجوب الايمـــان باليوم الآخر والجنة والنار والثواب والعقاب ، وعلى هذه الثلاثة أصول مدار الخلق والامر، والسعادة والفلاح موقوفة عليها، ولاسبيل الى معرفتها الا من جهة الرسل ، فان العقل لايهتدى الى تفاصيلها ومعرفة حقائقها وان كان قد يدرك وجه الضرورة اليها من حيث الجملة كالمريض الذى يدرك الحاجة الى الطب ومن يداويه ولايهتدى الى تفاصيل المرض وتنـــــزيل الدواء عليه ، وحاجة العبد الى الرسالة اعظم بكثير من حـاجة المريض الى الطبيب فان آخر مايعذب بعدم الطبيب موت الابدان، واما اذا لم يحصل للعبد نور الرسالة وحياتها مات قلبه موتا لاترجى الحياة معه أبدا وشقى شقاوة لاسعادة معها أبدا فلا فلاح الا باتباع الرسول فان الله تعالى خص بالفلاح اتباعه المؤمنين به وانصاره كما قال تعـــالى (فالذين آمنـوا به وعزروه

ونصروه واتبعوا النور الذى انزل معه أولئك هم المفلحون) اى لامفلح الا هم فالهدى والفلاح دائر حول ربع الرسالة وجودا وعدما . قال شيخ الاسلام ابن تيمية قدس الله روحه فى قاعدة وجوب الاعتصام بالرسالة : وهذا مما اتفقت عليه الكتب المنزلة من السماء وبعثت به جميع الرسل المرسلة . وقال : الرسالة ضرورية فى صلاح العبد فى معاشه ومعاده فكما انه لاصلاح فى آخرته الا باتباع الرسالة فكذلك لاصلاح له فى معاشه ودنياه الا باتباع الرسالة فالانسان مضطر الى الشرع فانه بين حركتين حركة يجلب بها ما ينفعه وحركة يدفع بها ما يضره والشرع هو النور الذى الذى يبين ماينفعه ومايضره فهو نور الله فى ارضه وعدله بين عباده وحصنه الذى من دخله كان آمنا ، وليس المراد بالشرع التمييز بين النافع والضار بالحسن فان ذلك يحصل للحيوانات العجم فان الحمار والجمل يفرق ويميز بين الشعير والتراب بل التمييز بين الافعال التى تضر فاعلها فى معاشه ومعاده ، والافعال التى تنفعهفىمعاشهومعاده كنفع الايمان والتوحيد والعدل والبر والصدق والاحسان والامانة والعفة والشجاعة والعلم والصبر والامر بالمعروف والنهى عن المنكر وصلة الارحام وبر الوالدين والاحسان الى الجيران والمماليك وأداء الحقوق واخلاص العمل والتوكل علىالله والاستعانة به والرضا بمواقع اقداره والتسليم لحكمه والتوكل عليه وتصديقرسله فى كل مااخبروا به وغير ذلك مما هو نفع وصلاح للعبد فى دنياه وآخرته ، وفى ضد ذلك شقاوته ومضرته فى دنياه وآخرته ، ولولا الرسالة لم يهتد العقل الى تفاصيل المنافع والمضار فى المعاش فمن اعظم نعم الله على عياده وأشرف منته عليهم أن ارسل اليهم رسله وانزل عليهم كتبه وبين لهم الصراط المستقيم ، ولولا ذلك لكانوا بمنزلة الانعام واشر حالا منها ، فمن قبل رسالة الله واستقام عليها فهو من خير البرية ، ومن ردها وخرج عنها فهو من شر البرية وأسوأ حالا من الكلب والخنزير وأحقر من كلحقير ، فالحمد لله الذى أرسل الينا رسولا من أنفسنا يتلو علينا آياته ويزكينا ويعلمنا الكتاب والحكمة وان كنا من قبل لفى ضلال مبين ولا بقاء لأهل الارض مادامت آثار الرسالة موجودة فيهم

فاذا درست آثار الرسل من الارض وانمحت معالم هداهم اخرب الله العالم العلوى والسفلى وأقام القيامة ، وليست حاجة أهل الارض الى الرسـول كحاجتهم الى الشمس والقمر والرياح والمطر ، ولا كحاجة الانسان الى حياته ، ولاكحاجة العين الى ضوئها والجسم الى الطعام والشراب ، بل أعظم من ذلك وأشد حاجة من كل مايقدر ويخطر بالبال ، فالرسل عليهم الصلاة والسلام وسائط بين الله تعالى وبين خلقه فى امره ونهيـه ، وهم السـفراء بينه وبين عبـاده ، وكان خاتمهم وسيدهم واكرمهم على ربه محمد صلى الله عليه وسـلم وعليهم اجمعين يقول : يا أيها الناس انما أنا رحمة مهداة • وقال تعالى فى حقه (وما ارسـلناك الا رحمة للعالمين) وقال النبى صلى الله عليه وسلم « ان الله نظر الى اهل الارض فمقتهم عربهم وعجمهم الا بقايا من أهل الكتاب • وقال شـيخ الاسلام فى قاعدة وجوب الاعتصام بالنبى عليه أفضل الصلاة والسـلام : وهذا المقت كان لعدم هدايتهم بالرسل فرفع الله عنهم هذا المقت برسـول الله صلى الله عليه وسلم فبعثه الله رحمة للعالمين ومحجة للسالكين وحجة على الخلائق أجمعين ، وافترض على العباد طاعته ومحبته وتوقيره وتعزيره والقيام باداء حقوقه ، وسد اليه جميع الطرق فلم يفتح لأحد الا من طريقه واخذ العهود والمواثيق بالايمان به واتباعه على جميع الانبياء والمرسـلين ، وامرهم أن يأخذوها على من اتبعهم من المؤمنين ، أرسله بين يدى الساعة بشيرا ونذيرا وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا ، فختم به الرسـالة وهدى به من الضلالة وعلم به من الجهالة ، وفتح برسالته اعنا عميـا وآذانا صما وقلوبا غلفا ، فاشرقت برسالته الارض بعد ظلماتها وتألفت بها القلوب بعد شتاتها فأقام به الملة العوجاء واوضح به المحجة البيضـاء ، وشرح له صدره ووضع عنه وزره ، ورفع له ذكره وجعل الذلة والصغار على من خالف أمره ، أرسله صلى الله عليه وسلم على حين فتـرة من الرسل ودروس من الكتب حين حرف الكلم وبدلت الشرائع واستند كل قوم الى ظلم آرائهم وحكموا على الله وبين عباده بمقالاتهم الفاسدة وأهوائهم النادة ، فهدى الله به الخلائق واوضح به الطرائق ، واخرج الناس به من

الظلمات الى النور وميز به بين نهج أهل الفلاح وأهل الفجور ، فمن اهتدى بهديه اهتدى ومن مال عن سبيله فقد ضل واعتدى ، فصلى الله وسلم عليه وسائر الرسل والانبياء مالاح نجم وبدا وعلى آله وصحبه والتابعين ومن اقتدى

الثالث وجوب الايمان بجميع الانبياء - وما جاء فى عددهم

(التنبيـــه الثالث)

أعلم أن الايمان بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله مما اتفقت على وجوبه جميع الانبياء والمرسلين من لدن صفى الله ابى البشر آدم عليه الســـلام الى خاتمهم محمد عليه وعليهم الصلاة والسلام فيجب الايمان بجميع الانبياء والمرسلين وتصديقهم فى كل ما أخبروا به من الغيب وطاعتهم فى كل ما أمروا به ونهوا عنه ، ولهذا أوجب سبحانه الايمان بكل ما أتوا به ولـــم يوجبه بما أتى به غيرهم قال تعالى (قولوا آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل الى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والاسباط وما أوتى موسى وعيسى وما اوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مســـلمون) فاتفق علماء الملة على كفر من كذب نبيا معلوم النبوة وكذا من سب نبيا او انتقصه ، ويجب قتله لان الايمان واجب بجميع الانبياء وان لا نفرق بين أحد منهم وتصديقهم فيما أخبروا به واتباعهم على جميع ما جاءوا به فهو حق وصدق ، قال الله تعالى (ان الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا* أولئك هم الكافرون حقا واعتدنا للكافرين عذابا مهينا) وتقدم أن جميع الانبياء عليهم السلام من لدن آدم الى خاتمهم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا وان الرســـل منهم ثلاثمائة وثلاثة عشر، ففى صحيح ابن حبان من حديث ابى ذر الغفارى رضى الله عنه قال دخلت المسجد فاذا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس وحده - فذكر حديثا طويلا وفيه - قلت يارسول الله كم الانبياء ؟ قال : مائة ألف وعشرون ألفا ، قلت يا رسول الله كم الرسل من ذلك ؟ قال ثلاثمائة وثلاثة عشر جما غفيرا ، قلت يا رسول الله من كان أولهم ؟ قال آدم عليه السلام ، قلت يا رسول الله أنبى مرسل ؟ قال نعم خلقه الله بيده ونفـخ فيه من روحه وكلمه قبلا . ثم قال يا أبا ذر أربعة سريانيون آدم وشيـث

وأخنوخ - وهو ادريس وهو أول من خط بالقلم - ونوح، وأربعة من العرب هود وصالح وشعيب ونبيك محمد صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين • قلت يا رسول الله كم كتابا أنزله الله ؟ قال مائة كتاب وأربعة كتب أنزل على شيث خمسون صحيفة وأنزل على أخنوخ ثلاثون صحيفة وأنزل على ابراهيم عشر صحائف وأنزل على موسى قبل التوراة عشر صحائف وأنزل التوراة والانجيل والزبور والفرقان - الحديث - وقد تكلم عليه الـولى العراقى ورد على ابن حبان جماعة من الحفاظ لادخاله هذا الحديث فى الصحيح • وفى كتاب شرح الايمان والاسلام لشيخ الاسلام ابن تيميـة روح الله روحه فى قول الامام أحمد رضى الله عنه فى الرسل وعددهـم وانه يجب الايمان بهم ويصح الاقرار بهم فى الجملة مع الكف عن عددهم وكذلك ذكر محمد بن نصر المروزى وغيرهما من أئمة السلف ، قال وهذا يبين انهم لم يعلموا عدد الكتب والرسل وان حديث ابى ذر فى ذلك لم يثبت عندهم • انتهى - والامام احمد رضى الله عنه ذكر ذلك الزاما لمن لم يقل بزيادة الايمان من اجل انهم لا يدرون ما زيادته وانها غير محدودة فقال : ما تقولون فى انبياء الله وكتبه ورسله ؟ هل تقرون بهم فى الجملة وتزعمون انه من الايمان ؟ فاذا قالوا نعم قيل لهم هل تحدونهم وتعرفـون عددهم أليس انما تصيرون فى ذلك الى الاقرار بهم فى الجملة ثم تكفون عن عددهم • وهذا ظاهر فى عدم معرفة عدد الانبياء والرسل والكتب • وقد ذكر اهل العقائد فى عقائدهم هذا العدد معتمدين على حديث ابى ذر على ما فيه وقد روى ان الانبياء ألف ألف ومائة ألف ، والمشهور فى الكتب انهم مائة ألف واربعة عشر ألفا ، وتقدم ان الواجب الايمان بهم جملة لقوله تعالى (منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك) فالواجب الايمـان بجميعهم اجمالا وتفصيلا فيمن ذكره الله تعالى فى كتابه العزيز • وقد ذكر شيخ الاسلام ابن تيمية قدس الله روحه فى كتابه الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ان بنى اسرائيل كانوا أكثر الامم أنبياء بعث اليهم موسى ابن عمران عليه السلام بشريعة التوراة وبعث اليهم بعده أنبياء كثيرون حتى قيل أنهم ألف نبى كلهم يأمرون بشريعة التوراة ولا يغيرون منها شيئا

الى أن جاء المسيح بعد ذلك بشريعة أخرى غير فيها بعض شريعة التوراة بأمر الله عزوجل •

الاوصاف اللازمة للنبوة

((وشرط من أكرم بالنبوة   حرية ذكوره كقوة))

((وشرط)) مبتدأ ((من)) اى كل انسان ((اكرم)) بضم الهمزة مبنيا لما لم يسم فاعله اى أكرمه الله تعالى ((بالنبوة)) بضم النون والباء الموحدة وتشديد الواو ويجوز فيه تحقيق الهمزة وتخفيفه يقال نبأ وأنبأ ، فان قيل روى النسائي ان رجلا قال للنبى صلى الله عليه وسلم يا نبىء الله فقال النبى صلى الله عليه وسلم لا تنبر باسمى فانما أنا نبى ، فالجواب ماحكاه الجوهرى أنه يقال نبأت على القوم اذا طلعت عليهم ونبأت من أرض الى أرض كذا اذا خرجت الى هذه وهذا المعنى أراد الاعرابى بقوله يانبىء الله لانه خرج من مكة الى المدينة فأنكر عليه الهمز لانه ليس من لغة قريش • والحاصل ان النبى اما مشتق من النبأ أى الخبر لانه ينبىء عن الله تعالى أى يخبر قال سيبويه ليس أحد من العرب الا ويقول تنبأ مسيلمة بالهمز غير انهم تركوا الهمز فى النبى كما تركوه فى الذرية والبرية والخبية الا اهل مكة فانهم يهمزون هذه الاحرف الثلاثة ولا يهمزون غيرها ويخالفون العرب فى ذلك• واما مشتق من النبوة وهى الشىء المرتفع لان النبى مرتفع الرتبة على سائر الخلق ، قال فى القاموس : والنبى المخبر عن الله وترك الهمز المختار والجمع أنبياء (ونبآء) وأنباء والنبيؤن والاسم النبؤة • ذكره فى باب الهمزة وقال فى باب المعتل : والنباوة ما ارتفع من الارض كالنبوه والنبى • انتهى •

(حرية) خبر المبتدأ الذى هو شرط من أكرم الخ وذلك لان الرق وصف نقص لا يليق بمقام النبوة والنبى يكون داعيا للناس آناء الليل وأطراف النهار والرقيق لا يتيسر له ذلك ، وأيضا الرقية وصف نقص يأنف الناس ويستنكفون من اتباع من اتصف بها وان يكون اماما لهم وقدوة ، وهى اثر الكفر والانبياء منزهون عن ذلك ، وشرط من أكرمه الله بالنبوة ايضا ((ذكورة)) اى ان يتصف بالذكورية لقوله تعالى (وما ارسلنا من قبلك الا رجالا نوحى اليهم) فأثبت الرسالة للرجال الموحى

اليهم وأشعر بنفى ذلك عن غيرهم فلا تكون انثى نبية خلافا لاهل التوراة الزاعمين بنبوة مريم بنت عمران أخت موسى وهارون عليهما السلام ، وقد خالف فى اشتراط الذكورة ابو الحسن الاشعرى ثم القرطبى وتبعهما على ذلك اناس من العلماء ، والحق اعتبار الذكورية لان الرسالة تقتضى الاشتهار بالدعوة ، والانوثة تقتضى التستر وتنافى الاشتهار لما بين الاشتهار والاستتار من التمانع ، وقد حكى العلامة ابن الملقن فى شرحه على عمدة الاحكام خلافا فى نبوة مريم وآسيةوسارة وهاجر وأم موسى عليه السلام واسمها يخابذ بنت لاوى بن يعقوب كما قال شيخ السنة البغوى والحافظ ابن الجوزى فى تبصرته • قال الحافظ برهان الدين الناجى قيد هذا الاسم (يوخابذ) على شيخنا الحافظ ابن ناصر الدين حال قراءة التبصرة عليه بمثناة تحتية مضمومة فواو ساكنة فخاء معجمة مفتوحة فألف مقصورة فباء موحدة مفتوحة فذال معجمه ، وهو غير مصروف للعجمة والتأنيب اى مع العلمية• قلت فى كتب اهل الكتاب ورأيته فى التوراة يوكابد بكاف بدل الخاء وبدال مهملة بدل المعجمة والنطق بالكاف مفخما ومعناه بالعربيةجليلة ورأيت الحافظ جلال الدين السيوطى ضبطه بحاء مهملة بدل الخاءالمعجمة وبنون بدل الباء الموحدة كما هو فى تاريخ الانبياء له• وقوله ((كقوة))اى كما يعتبر فيمن اكرمه الله تعالى بالنبوة ان يكونقويا بأعباء ما حمل من ثقل النبوة ، والقوة الطاقة والجمع قوى بالضم وبالكسر ، قال فيالقاموس: القوة بالضم ضد الضعف يقال قوى كرضى فهو قوى والقوى بالضم العقل وطاقات الحبل • ذا عقل صحيح وفهم رجيح وعلم بالامور الدينية حسن الخلق والخلق ليسهل عليه تحمل الخلق فى مخالطاتهم وتعليمهم لامور الديانة فان الانبياء منزهون عن جميع الرذائل من البخل والجبن واللهو واللغو وسائر الاخلاق الذميمة كما انهم مبرءون من لؤم النسب وشره القلب وحرص النفس على الدنيا ، ولهذا لم يبعث الله نبيا الا فى أشرف منسب أمته فلم يبعث نبيا من ذى نسب مبذول كما لم يبعث نبيا عبدا ولا لئيما ولا امرأة لعلو مرتبة الذكورة على الانوثة مع طلب عدم الاشتهار مع النساء المطلوب للدعوة ولكون النفوس مائلة فى ذواتهن بحسب الطبع

فيغفلون عن مقالهن • والحاصل اختصاص النبوة بأشرف افراد النوع الانسانى من كمال العقل والذكاء والفطنة وقوة الرأى ولو فى الصبى كعيسى ويحيى عليهما السلام والسلامة من كل ما نفر عن الاتباع كدنائة الآباء وعهر الامهات والغلظة ، والعيوب المنفرة للطباع كالبرص والجذام ، والامور المخلة بالمروءة كاكل على الطريق والحرف الدنية كالحجامة وكل ما يخل بحكمة البعثة ونحو ذلك وبالله التوفيق

ولما ذكر ما اشعر بانفراد كمل النوع الانسانى بالنبوة واختصاص الذكور الاحرار المنزهين عن النقائص بها خشى ان يتوهم متوهم بأن ذلك يدرك بالرياضة والتهذيب والجد والاجتهاد والتأديب فنفى ذلك بقوله :

النبوة غير مكتسبة

((ولا تنال رتبة النبوه   بالكسب والتهذيب والفتوة))

((لكنها فضل من المولى الاجل   لمن يشا من خلقه الى الاجل))

((ولا تنال)) بضم التاء المثناة فوق مبنيا لما لم يسم فاعله اى لم تعط ((رتبة)) بالرفع نائب الفاعل يقال ناله ينوله اذا اعطاه ، قال فى القاموس النوال والنائل العطاء ونلته ونلت له وبه أنوله وأنلته اياه ونولته اعطيته • والرتبة بالضم والمرتبة المنزلة ((النبوة)) بالجر لاضافتها الى الرتبة وهى عبارة عن صفة عالية ينكشف بها من الغيوب التى هى مطلوبات الله من عباده وأحكامه التى يكلفهم بها انكشافا يناسب انكشاف النار للدهن برؤية الدخان وانكشاف رائحة المسك بجذب النفس الى الانف(١) والمراد بها هنا ما يعم الرسالة كما لا يخفى ((بالكسب)) متعلق بلا تنال ((و)) لا تنال رتبة النبوة ودرجة الرسالة ايضا بـ ((التهذيب)) أى تنقية البدن وتصفية الاخلاق وخلوص البنية من الاخلاق الرذيلة وتبقية الاوصاف الجميلة والنعوت الجليلة ((و)) لا تنال رتبة النبوة ايضا بـ ((الفتوة)) اى كرم النفس وتخليصها من الاوصاف المذمومة الى الاوصاف الممدوحة ، قال فى القاموس: الفتوة الكرم وقد تفتى وتفاتى يعنى تعاطى اوصاف الفتوة وتخلق بها وراض نفسه حتى صار من ذويها وفتوتهم اذا غلبتهم فيها • فمذهب اهل الحق أن النبوة لا تنال بمجرد الكسب بالجد والاجتهاد وتكلف أنواع العبادات واقتحام أشق الطاعات وتدأب فى تهذيب نفسه وتنقية خواطره

(١) فى هذا رائحة فلسفية

وتطهير أخلاقه ورياضة نفسه وبدنه وتهذيب ذلك ((لكنها)) اى النبوة والرسالة ((فضل من المولى الاجل)) سبحانه وتعالى يؤتيه من يشاء ممن سبق علمه وارادته الازليان باصطفائه لها فالله أعلم حيث يجعل رسالاته ، وهذا خلاف قول الفلاسفة المشائين المجوزين اكتساب النبوة بزعمهم ان من لازم الخلوة والعبادة ودوام المراقبة وتناول الحلال واخلاء نفسه من الشواغل العائقة عن المشاهدة بعد كمال ظاهره وباطنه بالتهذيب والرياضة انصقلت مرآة باطنه وفتحت بصيرة لبه وتهيأ لما لا يتهيأله غيره من التحلي بالنبوة ، لان النبوة عندهم عبارة عن اجتماع ثلاث خواص فى الانسان (احداها) الاطلاع على المغيبات لصفاء جوهر نفسه وشدة اتصاله بالروحانيات العالية من غير سابقة كسب ولا تعلم ولا تعليم

(الثانية) ظهور خوارق العادات بحيث تطيعه الهيولى العنصرية القابلة للصور المفارقة الى بدن .

(الثالثة) مشاهدة الملائكة على صور متخيلة ويسمع كلام الله تعالى . هذا محصل مذهبهم الفاسد وملخص مسلكهم الباطل فيجعلون كلام الله ما يفيض على نفس النبى من غير أن يثبتوا لله كلاما خارجا عما فى نفس النبى ، وعند التحقيق فلا فرق عندهم بين الفيض على نفس النبى وسائر النفوس الا من جهة كونها أصفى ، وأكمل وعندهم ان القرآن كلام النبى . وهذا من أعظم الكفر . قال شيخ الاسلام ابن تيمية : وهؤلاء عندهم النبوة مكتسبة ، وكان جماعة من زنادقة الاسلام يطلبون ان يصيروا أنبياء . والحاصل ان النبوة فضل من الله وموهبة ونعمة من الله تعالى يمن بها سبحانه ويعطيها ((لمن يشاء)) ان يكرمه بالنبوة فلا يبلغها أحد بعلمه ولا يستحقها بكسبه ولا ينالها عن استعداد ولايته بل يخص بها من يشاء ((من خلقه)) ومن زعم انها مكتسبة فهو زنديق يجب قتله لانه يقتضى كلامه واعتقاده ان لا تنقطع وهو مخالف للنص القرآنى والاحاديث المتواترة بأن نبينا صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين عليهم السلام ولهذا قال : ((الى الاجل)) يعنى ان النبوة فضل من الله ونعمة يمن بها الرب الحكيم والعليم الكريم على من يشاء ويريد اكرامه بها وكان ذلك ممتدا من عهد الاب

الاول الصفى آدم عليه الصلاة والسـلام الى ان بعث الخاتم النبى الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم ولهذا قال :

((ولم تزل فيما مضا الانباء   من فضله تأتى لمن يشاء))

((حتى أتى بالخاتم الذى ختم   به وأعلانا على كل الامم))

خاتم النبيين

((ولم تزل فيما)) أى فى الزمن الذى ((مضى)) أى فى سائر الازمان الماضية ((الانباء)) جمع نبى كالانبياء والنبيين ((من فضله)) أى من فضل الله سبحانه وتعالى ورأفته ولطفه لا من حيث انه واجب عليه تعالى ـ كما تقدم بيانه ((تأتى)) بابلاغ الشرائع وبيان الحق وايضاح السبيل ((لمن)) أى لكل أهل زمن من الامم الماضية والقرون الخالية ((يشا)) الله سبحانه وتعالى بتبليغ ما يشاء على ألسنة من شاء من أنبيائه لمن شاء من مكلفى عباده فلم تخل الارض من داع يدعو الى الله تعالى من لدن آدم عليه السلام الى أن بعث محمد صلى الله عليه وسلم فيجب الايمان بجميع الانبياء والرسل وانهم صادقون فى ما أخبروا به عن الله تعالى اجمالا فى من لم يعينوا كما دل على ذلك قوله تعالى (آمن الرسول بما أنزل الله من ربه والمؤمنون ، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله) فدلت الآية الكريمة على الاكتفـاء بذلك فى الايمان بهم من غير تفصيل الا من تثبت تسميته فيجب الايمان به على التعيين وكان مجىء الرسل والانبياء فى القرون الماضية والازمان الخالية معروفا مستمرا من لدن الاب الاول الصفى عليه السلام ((حتى)) أى الى ان ((أتى بـ))النبى ((الخاتم)) والرسول القائم نبينا محمد صلى الله عليـه وسلم أى الى ان ارسله بخير كتاب وأتم شريعة وأفضل ملة وأكمل دين ((الذى ختم)) الله ((به)) النبيين والمرسلين وأكمل بدينه كل دين قال الله تعالى فى محكم الذكر المبين : (ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين) أى الذى ختمهم وختموا به فلا نبى بعـــده وأخرج الامام احمد من حديث العرباض بن ســارية السلمى رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال : « انى عند الله فى أم الكتاب لخاتم النبيين وان ادم لمنجدل فى طينته » الحديث وأخرجه الحاكم وقـال صحيح الاسناد ، وروى معناه من حديث أبى امامة الباهلى رضى الله عنه ومن

وجوه أخر مرسلة ، وفي الصحيحين وغيرهما من حديث جابر بن عبد الله رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال : « مثلي ومثل الأنبياء كمثل رجل بنى دارا فأكملها وأحسنها الا موضع لبنة فجعل الناس يدخلون ويعجبون منها ويقولون لولا موضع اللبنة - زاد مسلم - فجئت فختمت الانبياء » وفى الصحيحين أيضا من حديث أبى هريرة رضى الله عنه معناه وفيه : فجعل الناس يطوفون به ويقولون هلا وضعت اللبنة فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين » وفى صحيح الحاكم عن عائشة رضى الله عنها قالت كان بمكة يهودى يتجر فيها فلما كانت الليلة التى ولد فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يا معشر قريش هل ولد فيكم الليلة مولود فقالوا لا نعلمه فقال ولد الليلة نبى هذه الامة الاخيرة بين كتفيه علامة لها شعرات متواترات كأنهن عرف فرس فخرجوا باليهودى حتى أدخلوه على أمه فقالوا اخرجى لنا ابنك فأخرجوه وكشفوا عن ظهره فرأى تلك الشامة فوقع اليهودى مغشيا عليه فلما أفاق قالوا ويلك مالك ؟ قال ذهبت والله النبوة من بنى اسرائيل • وهذا الحديث يدل على انه صلى الله عليه وسلم ولد بخاتم النبوة بين كتفيه ، وخاتم النبوة من علامات نبوته صلى الله عليه وسلم التى كان يعرفه بها أهل الكتاب ويسألون عنها ويطلبون الوقوف عليها • وقد روى ان هرقل ملك الروم من النصارى ارسل الى النبى صلى الله عليه وسلم من ينظر له خاتم النبوة • وفى نبوة شعيا ان سلطانه - يعنى النبى صلى الله عليه وسلم - على كتفه يريد علامة نبوته • وفى الجواب الصحيح لشيخ الاسلام ابن تيمية قدس الله روحه ما نصه : قال أشعيا النبى عليه السلام ونص على خاتم النبوة : ولدلنا غلام يكون عجبا وبشرا والشامة على كتفه أركون السلام وسلطانه سلطان السلام يجلس على كرسى داود • فالاركون هو المعظم بلغة الانجيل والاراكنة المعظمون فشهد اشعياء بنبوة نبينا صلى الله عليه وسلم ووصفه بأخص علاماته وأوضحها وهى شامته فلعمرى لم تكن الشامة لسليمان ولا للمسيح ، ووصفه بأنه يجلس على كرسى داود يعنى انه سيرث من بنى اسرائيل نبوتهم وملكهم ويبتزهم رياستهم • قال العلماء رحمهم الله فى حكمة وجود الخاتم بين كتفيه أو على نغض كتفه

الايسر : هو على جهة الاعتبار انه صلى الله عليه وسلم لما ملىء قلبه من الايمان والانوار وجمع له اجزاء النبوة وحواشيها ختم عليه كما يختم على الوعاء المملوء مسكا أو درا فلم تجد نفسه ولا عدوه سبيلا اليه من أجل ذلك الختم لان الشيء المختوم محروس كما بين لنا انا اذا وجدنا الشيء بختمه زال الشك وانقطع الخصام فيما بين الآدميين فلذلك ختم رب العالمين فى قلبه ختما يطمئن له القلب القى النور فيه ونفذت قوة القلب فظهر بين كتفيه كبيضة الحجلة كما أشار اليه أبو القاسم السهيلى رحمه الله تعالى •

فضل الامة

وقوله : ((واعلانا)) ـ معشر أمة هذا النبى الكريم والرسول الرؤوف الرحيم ـ الرب الرحيم والاله الحكيم به صلى الله عليه وسلم ((على كل الامم)) الماضية والملل الخالية بشاهد قوله تعالى (كنتم خير أمة اخرجت للناس ـ وكذلك جعلناكم أمة وسطا) وروى البخارى من حديث أبى هريرة رضى الله عنه فى قوله : (كنتم خير أمة أخرجت للناس) قال : خير الناس للناس تأتون بهم فى السلاسل فى أعناقهم حتى يدخلوا فى الاسلام • وفى الصحيحين وغيرهما من حديث المغيرة بن شعبة رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ولا يزال أناس من أمتى ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون » وروى مسلم وأبو داود والترمذى من حديث ثوبان قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتى أمر الله وهم كذلك » وروى هذا من حديث سعد رواه مسلم ، ومن حديث معاوية رواه البخارى ومسلم ، ومن حديث عمران بن حصين رواه أبو داود ، ومن حديث غيرهم من الصحابة رضى الله عنهم أجمعين • وروى الترمذى من حديث أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مثل أمتى مثل المطر لا يدرى آخره خير أم أوله » وقال حديث حسن غريب • وروى النسائى من حديث ثوبان رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « عصابتان من أمتى احرزهما الله من النار عصابة تغزو الهند وعصابة تكون مع عيسى بن مريم عليه السلام ، وأخرج أبو داود من حديث أبى موسى الاشعرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله

صلى الله عليه وسلم : « أمتى أمة مرحومة ليس عليها عذاب فى الآخرة عذابها فى الفتن والزلازل والقتل » ورواه الطبرانى فى الكبير والحاكم فى المستدرك والبيهقى فى الشعب • وفى الصحيحين وغيرهما من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نحن الآخرون السابقون يوم القيامة أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم ـ وفى رواية لمسلم ـ نحن الآخرون الاولون يوم القيامة ونحن أول من يدخل الجنة ـ وفى رواية فى الصحيحين : نحن الآخرون السابقون بيد ـ أى غير ـ انهم أوتوا الكتاب من قبلنا » وفى الصحيحين وغيرهما من حديث أنس رضى الله عنه : « أنتم شهداء الله فى الارض أنتم شهداء الله فى الارض » وفى الصحيحين وغيرهما من حديث عبد الله ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول‌الله صلى الله عليه وسلم : « أما ترضون ان تكونوا ربع أهل الجنة ، فكبرنا ، ثم قال أما ترضون ان تكونوا ثلث أهل الجنة ، قال فكبرنا ، ثم قال‌انى‌لارجو أن تكونوا شطر أهل الجنة وسأخبركم عن ذلك ما المسلمون فى الكفار الا كشعرة بيضاء فى ثور اسود أو كشعرة سوداء فى ثور أبيض » هذا لفظ مسلم وعند البخارى وكشعرة سوداء بغير ألف يعنى قبل الواو • وروى الامام احمد والترمذى باسناد على شرط الصحيح من حديث بريدة بن الحصيب رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أهل الجنة عشرون ومائة صف هذه الامة منها ثمانون صفا » ورواه الطبرانى فى معجمه من حديث ابن عباس رضى الله عنهما • وروى نحوه من حديث ابن مسعود رواه الطبرانى • وروى عبد الله بن الامام احمد من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال لما نزلت (ثلة من الاولين وثلة من الآخرين) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنتم ربع أهل الجنة ، أنتم ثلث أهل الجنة ، أنتم نصف أهل الجنة ، أنتم ثلثا أهل الجنة » قال الطبرانى تفرد برفعه عبد الله بن المبارك عن الثورى • وروى ايضا من حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده قال : أهل الجنة عشرون ومائة صف أنتم منها ثمانون صفا • رواه خيثمة بن سليمان القرشي • قال المحقق ابن القيم : وهذه الاحاديث

قد تعددت طرقها واختلفت مخارجها وصح سند بعضها فلا تنافى بينها وبين حديث الشطر لانه عليه السلام رجا أولا ان يكونوا شطر أهل الجنة فأعطاه الله سبحانه رجاءه وزاده عليه شيئا آخر ، وقد أخرج الامام أحمد فى مسنده من حديث أبىالزبير انه سمع جابرا رضى الله عنه يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « أرجو أن يكون من يتبعنى من أمتى يوم القيامة ربع أهل الجنة » قال فكبرنا قال : « فأرجو ان يكونوا الشطر » واسناده على شرط مسلم • وروى الدار قطنى من حديث أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ان الجنة حرمت على الانبياء كلهم حتى أدخلها ، وحرمت على الامم حتى تدخلها أمتى » قال المحقق ابن القيم فى كتابه حادي الارواح : فهذه الامة أسبق الامم خروجا من الارض وأسبقهم الىمكان فى الموقف وأسبقهم الى ظل العرش وأسبقهم الى الفصل والقضاء بينهم وأسبقهم الى الجواز على الصراط وأسبقهم الى دخول الجنة ، فالجنة محرمة على الانبياء حتى يدخلها محمد صلى الله عليه وسلم ومحرمة على الامم حتى تدخلها أمته •

أول من يدخل الجنة من هذه الامة

وأول من يدخل الجنة من هذه الامة من بعد نبيها صلى الله عليه وسلم أبو بكر الصديق كما رواه أبو داود فى سننه من حديث أبى هريرة رضى الله عنه • وروى الامام احمد فى المسند والترمذى وابن ماجه والحاكم من حديث معاوية بن حيدة رضى الله عنه عن النبى صلىالله عليه وسلم انه قال : « انكم تتمون – وفى لفظ – أنكم توفون – سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله تعالى » وأخرج الترمذى من حديث أبى امامة رضى الله عنه ان النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ان الله فضلنى على الانبياء – أو قال أمتى على الامم – وأحل لنا الغنائم » وقال حديث حسن صحيح • وفى صحيح مسلم عن أبى موسى الاشعرى رضى الله عنه رفعه « يجىء يوم القيامة ناس من المسلمين بذنوب أمثال الجبال يغفرها الله ويضعها على اليهود والنصاري » وقد روى معنى هذا الحديث عن أبى موسى أيضا الطبرانى والحاكم وصححه وكذا ابن ماجه والطبرانى • وروى أيضا

من حديث أنس رضى الله عنه أخرجه ابن ماجه والنسائى • وأخرجه مسلم عن أبى موسى من وجه آخر بلفظ : « اذا كان يوم القيامة دفع الله الى كل مسلم يهوديا أو نصرانيا فيقول هذا فداؤك من النار » قال العلامة القرطبى قال علماؤنا : هذه الاحاديث ليست على عمومها انما هى فى أناس مذنبين تفضل الله عليهم برحمته فاعطى كل واحد منهم فكاكا من النار • وقال معنى قوله يضعها على اليهود والنصارى انه يضاعف عليهم عذاب كفرهم وذنوبهم حتى يكون عذابهم بقدر جرمهم وجرم مذنبى المسلمين لو أخذوا بذلك لانه تعالى لا يأخذ أحدا بذنب أحد كما قال تعالى : (ولا تزر وازرة وزر أخرى) وله تعالى ان يضاعف على من يشاء العذاب ويخفف عن من يشاء بحكم ارادته ومشيئته • ويقال فى الرواية الاخرى وهى قوله لا يموت رجل مسلم الا ادخل الله مكانه يهوديا او نصرانيا النار معناه ان المسلم المذنب لما كان يستحق مكانا فى النار بسبب ذنوبه وعفا الله عنه بمنه ورحمته بقى مكانه خاليا منه أضاف ذلك المكان الى يهودى أو نصرانى ليعذب فيه زيادة على تعذيب مكانه الذى يستحقه بحسب كفره • وقد جاءت أحاديث دالة على ان لكل مسلم من هذه الامة مذنبا كان أولا منزلين منزلا فى الجنة ومنزلا فى النار وكذا الكافر وذلك معنى قوله تعالى : (اولئك هم الوارثون) أى يرث المؤمنون منازل الكفار من الجنة والكفار منازل المؤمنين فى النار الا ان هذه الوراثة تختلف فمنهم من يرث بلا حساب ومنهم من يرث بحساب ومناقشة • وقال الامام البيهقى يحتمل ان يكون الفداء فى قوم كانت ذنوبهم كفرت عنهم فى حياتهم ، أو فى من أخرج من النار يقال لهم ذلك بعد الخروج • وقال بعضهم بل يحتمل ان يكون الفداء مجازا عن رؤية المنزلة التى تقدمت الاشارة اليها • ورجحه النووى وغيره • وقيل المراد بالذنوب التى توضع على الكفار ذنوب كان الكفار سببا فيها بأن سنوها فلما غفرت سيئات المؤمنين بقيت سيئات الذى سن تلك البدعة السيئة باقية على أربابها الكفرة لان الكفار لا يغفر لهم فيكون الوضع كناية عن ابقاء الذنب الذى لحق الكافر بما سنه من عمله السيىء الذى عمل به المؤمن • وقواه الحافظ ابن حجر • وبالله التوفيق •

وقد روى ان لكل واحد من مؤمنى هذه الامة نورين كالانبياء السالفة
روى أبو نعيم وابن الجوزى فى (الوفاء) عن كعب الاحبار رحمه اللـه
تعالى انه سمع رجلا يقول رأيت فى المنام كأن الناس جمعوا للحسـاب
فدعى الانبياء فجاء مع كل نبى أمته ورأى لكل نبى نورين ولكل ممن اتبعه
نور يمشى به فدعى محمد صلى الله عليه وسلم فاذا لكل شعرة فى رأسه
ووجهه نور ولكل من اتبعه نوران يمشى بهما - فقال كعب - وهو لا يشعر انها
رؤيا - من حدثك هذا ، قال انا والله الذى لا اله الا هو لقد رأيت هـذا
فى المنام فقال بالله الذى لا اله الا هو لقد رأيت هذا فى منامك ؟ قال نعم
قال والذى نفس كعب بيده انها لصفة محمد صلى الله عليه وسلم وأمتـه
وصفة الانبياء عليهم الصلاة والسلام وأممها فى كتاب الله كانما قرأه من
التوراة • وروى الحافظ أبو نعيم والحافظ ابن الجـوزى فى الوفاء عن
كعب الاحبار أيضا انه رأى حبرا من أحبار اليهود يبكى فقال له ما يبكيك
قال ذكرت بعض الامر فقال كعب أنشدك الله لئن أخبرتك ما أبـكاك
لتصدقنى ؟ قال نعم ، قال أنشدك الله هل تجد فى كتاب الله المنـزل ان
موسى نظر فى التوراة فقال يارب انى أجد خير أمة أخرجت للناس يأمرون
بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالكتاب الاول والكتاب الآخـر
ويقاتلون أهل الضلالة حتى يقاتلوا الاعور الدجال قال فقـال موسى رب
اجعلهم أمتى ، قال هم أمة أحمد يا موسى ، قال الحبر : نعـم - الحديث
وفيه فقال موسى عليه السلام ليتنى من أمته او من أصحاب محمد عليـه
الصلاة والسلام فأوحى الله تعالى اليه (يا موسى انى اصطفيتك على الناس
برسالاتى وبكلامى فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين) الحديث • ورويا
من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم ان موسى عليه السلام لما نزلت عليه التوراة وقرأها فوجد فيها ذكـر
هذه الامة قال يارب انى أجد فى الالواح أمة هم الآخرون السـابقون
المشفوع لهم فاجعلها أمتى قال تلك أمة أحمد الحديث ، وفيه قال يارب
فاجعلنى من أمة أحمد فاعطى عند ذلك خصلتين فقـال : (يا موسى انى
اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى فخذ ما أتيتك وكن من الشاكرين)
قال رضيت يارب • وذكره الامام المحقق ابن القيم فى كتابه جلاء الافهام •

وذكر الحافظ ابن الجوزى فى تبصرته فى قوله تعالى : (كنتم خير أمة اخرجت للناس) فى كنتم قولان أحدهما كان وصفكم فى البشارة قبل وجودكم قاله الحسن ، الثانى كنتم فى سابق علم الله تعالى وحكمه أو فى اللوح المحفوظ . وقال ابن الانبارى أى ما زلتم ، وقيل ان معنى كنتم أى أنتم مثل قوله تعالى (وكان الله غفورا رحيما) قال ابن قتيبة قد يأتى الفعل على بنية الماضى وهو ذاهب أو مستقبل كقوله كنتم ومعناه أنتم ومثله (واذ قال الله) أى واذ يقول الله ومثله (أتى أمر الله) ونظائره والله أعلم . قال ابن الجوزى رحمه الله تعالى :

سبب فضل هذه الامة

واعلم أن فضيلة هذه الامة على الامم المتقدمة وان كان ذلك باختيار الحق لها وتقديمه اياها الا انه سبحانه جعل لذلك سببا كما جعل سبب سجود الملائكة لآدم عليه السلام علمه بما جهلوه فكذلك جعل لتقديم هذه الامة سببا هو الفطنة والفهم واليقين وتسليم النفوس فاعتبر حالهم بمن قبلهم فان قوم موسى رأوا قدرة الخالق فى شق البحر ثم قالوا اجعل لنا الها ثم مال كثير منهم الى عبادة العجل ، وعرضت لهم غزاة فقالوا اذهب انت وربك فقاتلا ، ولم يقبلوا التوراة حتى نتق عليهم الجبل ، ولما اختار موسى سبعين منهم وقع فى نفوسهم ما أوجب تزلزل الجبل بهم ، ولهذا لما صعد نبينا صلى الله عليه وسلم على جبل حرا فى جماعة من اصحابه تزلزل فقال اسكن فما عليك الا نبى أو صديق او شهيد . فكانه أشار الى انه ليس عليك من يشك كقوم موسى . ومن تأمل حال بنى اسرائيل رآهم قد أمروا بقول حطة فقالوا : حنطة ، وقيل لهم ادخلوا الباب سجدا فدخلوا زحفا ، وآذوا نبيهم فقالوا : آدر . ومن مذهبهم التشبيه والتجسيم وهذا من اعظم التغفيل لان الجسم مؤلف ولابد للمؤلف من مؤلف . ومن غفلة النصارى اعتقادهم ان الله تعالى جوهر والجواهر تتماثل ولا مثل للخالق ، ثم مقالاتهم فى عيسى وتثليثهم ودعواهم فيه الالهية وانه ابن الله تعالى تقشعر منه الابدان وتنفر منه النفوس وتحيله العقول وليس للقوم فهوم ، ولهذا قال بعض فضلاء أمتنا انهم عار على بنى آدم من بين سائر الامم . هذا وقد علم يقين هذه الامة وبذلهم انفسهم فى الحروب وطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم

وحفظهم لكتاب الله فلهذا ونظائره كانوا يوفون سبعين أمة هم خيرها وأكرمها على الله تعالى وكل هذا انما هو بسبب كرامة نبينا على الله وجزيل فضله عند الله وقربه من الله والحمد لله على ما أنعم وفضل وكرم والله أعلم .

فصل

فصل فى بعض الخصائص النبوية

فى بعض خصائص النبى الكريم والرسول السيد السند العظيم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه التى اختصه الحق بها جل شأنه على سائر الانبياء عليهم الصلاة والسلام وأشار الى اولها بقوله)) :

((وخصه بذاك كالمقام وبعثه لسائر الأنام))

((ومعجز القرآن والمعراج حقا بلامين ولا اعوجاج))

الاولى خاتم النبيين

((وخصه)) أى خص الله سبحانه وتعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم دون سائر الانبياء ((بذاك)) أى بكونه ختم به النبوة والرسالة فلا نبى بعده لقوله تعالى (وخاتم النبيين) وذلك يستلزم ختم المرسلين لان ختم الاعم يستلزم ختم الاخص بلا عكس ، ومعنى ختم النبوة بنبوته عليه الصلاة والسلام انه لا تبتدأ نبوة ولا تشرع شريعة بعد نبوته وشرعته واما نزول عيسى عليه السلام وكونه متصفا بنبوته السابقة فلا ينافى ذلك على ان عيسى عليه السلام اذا نزل انما يتعبد بشريعة نبينا صلى الله عليه وسلم دون شريعته المتقدمة لانها منسوخة فلا يتعبد الا بهذه الشريعة أصولا وفروعا فيكون خليفة لنبينا صلى الله عليه وسلم وحاكما من حكام ملته بين أمته بما علمه الله تعالى فى السماء قبل نزوله وبنظره فى كتاب الله الذى هو القرآن وسنة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم وهو لا يقصر عن رتبة الاجتهاد المؤدى الى استنباط ما يحتاج اليه ايام مكثه فى الارض من الاحكام ، وكسر الصلبان وقتل الخنزير ووضع الجزية وعدم قبولها مما علم من شريعتنا لا يقال هذا نسخ لشرعة محمد صلى الله عليه وسلم لانا نقول بل هذا من شرعة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم مغيى الى نزول عيسى عليه السلام فاذا نزل انتهى ذلك كما قال صلى الله عليه وسلم « ينزل عيسى بن مريم حكما عدلا » فنزوله غاية لاقرار الكفار ببذل تلك الاموال ثم لا يقبل

الا الاسلام فلا نسخ لها وقد قدمنا ذلك قريبا •

الثانية المقام المحمود

(والثانية) ما أشار اليها بقوله ((ك)) ما خصه الله سبحانه وتعالى بـ ((المقام)) المحمود وهو الشفاعة العظمى كما تقدم الكلام على ذلك ، وروي النسائي باسناد صحيح من حديث حذيفة رضى الله عنه قال : يجمع الناس فى صعيد واحد فأول مدعو محمد فيقول لبيك وسعديك والخير فى يديك والشر ليس اليك المهدى من هديت عبدك وابن عبديك وبك واليك ولا ملجأ ولا منجا منك الا اليك تباركت وتعاليت - فهذا قوله : (عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا) وصححه الحاكم : قال الحافظ ابن حجر فى شرح البخارى ولا منافاة بينه وبين حديث ابن عمر رضى الله عنهما الذى فى صحيح البخارى ولفظه قال ان الناس يصيرون يوم القيامة جثا كل أمة تتبع نبيها يقولون يا فلان اشفع لنا يا فلان اشفع لنا حتى تنتهى الشفاعة الى النبى صى الله عليه وسلم فذلك يوم يبعثه الله مقاما محمودا • وأخرج البخارى أيضا عنه رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ان الشمس لتدنو حتى يبلغ العرق نصف الاذن فبينما هم كذلك استغاثوا بآدم فيقول لست بصاحب ذلك ثم بموسى فيقول كذلك ثم بمحمد فيشفع فيقضى الله بين الخلق فيمشى حتى يأخذ بحلقة باب الجنة فيومئذ يبعثه الله مقاما محمودا يحمده أهل الجمع كلهم » وذلك لان ما رواه النسائى من حديث حذيفة رضى الله عنه كان مقدمة الشفاعة • قال الحافظ ابن حجر فى شرح البخارى وروى ابن أبى حاتم من طريق سعيد بن أبى هلال انه بلغه ان المقام المحمود الذى ذكره الله تعالى ان النبى صلى الله عليه وسلم يكون يوم القيامة بين الجبار وبين جبريل فيغبطه لمقامه ذلك أهل الجمع ورجاله ثقات لكنه مرسل ، قال الحافظ ابن حجر فى شرح تفسير سورة الاسرا من صحيح البخارى : وقيل المراد بالمقام المحمود أخذه بحلقة باب الجنة وقيل اعطاؤه لواء الحمد ، وقيل جلوسه على العرش أخرجه عبد بن حميد وغيره عن مجاهد ، وقيل شفاعته رابع أربعة • انتهى • وتقدم فى الشفاعة مافيه كفاية والله تعالى أعلم

الثالثة عموم بعثته

((و)) الثالثة انه سبحانه وتعالى خص نبيه صلى الله عليه وسلم : بـ ((بعثه)) نبيا ورسولا ((لسائر)) أى جميع ((الانام)) كسحاب الخلق من الانس والجن بالاجماع ، واختلف فى ارساله الى الملائكة على قولين أحدهما انه لم يكن مرسلا اليهم وبهذا جزم جمع محققون وهو ظاهر كلام علمائنا ، قال ابن حمدان فى نهاية المبتدين ونجزم بأن محمدا صلى الله عليه وسلم رسول الله حقا الى الانس والجن كافة ، قال القاضى أبو يعلى وانه صلى الله عليه وسلم خاتم الانبياء وأفضلهم نص عليه الامام احمد . انتهى . ونقل الاجماع على ذلك غير واحد والقول الثانى بأنه صلى الله عليه وسلم مبعوث الى الملائكة أيضا ورجحه الجلال السيوطى فى الخصائص والسبكى قبله وزاد انه صلى الله عليه وسلم مرسل الى جميع الانبياء والامم السابقة وزعم ان قوله صلى الله عليه وسلم بعثت للناس كافة شامل لهم من لدن آدم الى قيام الساعة ورجح هذا القول البارزى وزاد انه مرسل الى جميع الحيوانات واستدل على ذلك بشهادة الضب له بالرسالة وبشهادة الحجر والشجر له أيضا بذلك ، قال الحافظ السيوطى وأزيد الى ذلك أنه مرسل الى نفسه وتقدم كلام صاحب الفروع وغيره فى التنبيهات الملحقة تحت قوله

وكل انسان وكل جنة فى دار نار أو نعيم جنة

فعاوده . فان قلت قد علم يقينا ان قوم نوح بعد الطوفان كانوا جميع أهل الارض ورسالة نوح عليه السلام عامة لهم فالجواب ان عمومها أمر اتفاقى اذ لم يسلم من الهلاك الا من كان معه فى السفينة فالعموم صار ثانيا وبالعرض على أنه لم يبعث للجن ، والحاصل ان نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم مبعوث الى الثقلين بالاجماع ورسالته مطبقة جميع الاكوان ولا التفات لزعم بعض ملحدى اهل الكتاب من خصوص رسالته للعرب لان هذا مكابرة باطلة ومغالطة عاطلة لوجوه بديهية البرهان منها ان النبى صلى الله عليه وسلم لا يكذب وقد أنزل عليه فى محكم القرآن (قل يا أيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا ـ وما أرسلناك الا كافة للناس) ثم مقاتلته لاهل الكتاب وسبى ذراريهم واستباحة دمائهم وضرب الجزية

عليهم أمر معلوم بالتواتر والضرورة فالمتعلق بهذا هذاء والله تعـــالى الموفق

الرابعة القرآن

((و)) الرابعة المشار اليها بقوله وخصه بـ ((معجز القـــرآن)) الذى اذعن لاعجازه الثقلان وأحجم عن معارضته مصاقيع الانس والجن واعترف بالعجز عن الاتيان بأقصر سورة من مثله أهل الفصاحة والبلاغة من سائر الاديان كما تقدم الكلام على ذلك مستوفيا فى مبحث القرآن من الباب الاول فراجعه تظفر بمقصودك والله أعلم

الخامسة المعراج

(الخامسة) من خصائصه صلى الله عليه وسلم ماأشار اليها بقـــوله ((ك)) مما اختصه الله سبحانه وتعالى ؛ ((المعراج)) الى السموات العلى الى سدرة المنتهى الى مستوى سمع فيه صريف الاقلام فكان كقاب قوسين أو أدنى قال الواقدى عن رجاله : كان المسرى والمعراج فى ليلة السبت لسبع عشرة ليلة خلت من رمضان فى السنة الثانية عشرة من المبعث قبـــل الهجرة بثمانية عشر شهرا • وروى ايضا عن اشـــياخ له قالوا اسرى برسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة سبع عشرة من ربيع الاول قبـــل الهجرة بسنة • وادعى ابو محمد بن حزم فيه الاجماع وهـذا قول ابن عباس وعائشة رضى الله عنهم • قال الحافظ ابن الجوزى فى الوفـــاء سمعت شيخنا ابا الفضل يقول قال قوم كان الاسراء قبل الهجرة بســـنة ، وقال آخرون كان الاسراء قبل الهجرة بثمانية أشهر ، وقال آخـــرون بستة أشهر ، فمن قال بســـــنة فيكون ذلك فى ربيع الاول ، ومن قال بثمانية أشهر فيكون ذلك فى رجب ، ومن قال بستة أشهر فيـــكون ذلك فى رمضان • قال ابن الجوزى وقد قيل انه ليلة سبعة وعشرين من شهر رجب • قلت واختار هذا القول الحافظ عبد الغنى المقدسى الحنبلى وعليـــه عمل الناس ، وكان المعراج الى السماء بجســـــده الشريف وروحه المقدسة كالاسراء من مكة المشرفة الى المسجد الاقصى ثم عرج به من بيت المقدس الى السماء ، أحق هذا ((حقا)) ثابتا وأجزم جزما باتا ((بلامين)) أى بلا امتراء ولا كذب ولاريب يقال مان يمين كذب فهو مائن وميـــون وميان ((ولا اعوجاج)) يقال اعوج اعوجاجا اذا كان غير مستقيم قال فى

النهاية قد تكرر ذكر العوج فى الحديث اسما وفعلا ومصـــــدرا وفاعلا ومفعولا وهو بفتح العين المهملة مختص بكل شخص مرئى كالاجســــام وبالكسر فيما يلس بمرئى كالرأى والقول ، وقيل الكسر فيهما معا والاول أكثر ومنه الحديث « حتى يقيم به الملة العوجاء » يعنى ملة ابراهيم التى غيرتها العرب عن استقامتها

واعلم ان الاسراء لاخلاف فيه اذ هو نص القرآن العظيم على ســـبيل الاجمال وجاءت السنة الثابتة بتفصيله وشرح اعاجيبه فورد عن عدة من الصحابة الكرام من الرجال والنساء نحو الثلاثين رضى الله عنهم اجمعين، وأما ليلة المعراج فاختلف فيها فقيل ليلة الجمعة وقيل ليلة السبت كمـــا تقدم عن الواقدى وقال ابن دحية تسفر تلك الليـــلة عن يوم الاثنين ان شاء الله تعالى لتوافق المولد والمبعث والهجرة والوفاة فانه صلى الله عليـه وسلم ولد يوم الاثنين وبعث يوم الاثنين وهاجـــر من مكة يوم الاثنين ودخل المدينة يوم الاثنين ومات يوم الاثنين • وقد أخرج الامام أحمـــد والبخارى ومسلم وغيرهم من حديث أنس رضى الله عنـــه أن مالك بن صعصعة رضى الله عنه حدثه أن نبى الله صلى الله عليه وسلم حدثهم عن ليلة الاسراء قال « بينما انا نائم فى الحطيم ـ وربما قال قتادة فى الحجر ـ مضطجع اذ أتانى آت فجعل يقول لصاحبه : الاوسط بين الثـلاثة قال فأتانى فقد ـ وقال مرة فشق ـ مابين هذه الى هذه ، قال قتادة فقلت للجارود وهو الى جنبى مايعنى ؟ فقال : من ثغرة نحره الى شعرته وقد ســـمعته يقول من قصه الى شعرته ، قال فاستخرج قلبى فأتيت بطســـت من ذهب مملوء ايمانا وحكمة فغسل قلبي ثم حشى ـ وفي لفظ فافرغه في صدره وملأه علما وحلما ويقينا واسلاما ثم أطبقه ثم أعيد ثم أتيت بدابة دون البغـــل وفوق الحمار أبيض ـ قال فقال الجارود هو البراق ياأباحمزة قال نعم ـ يقع خطوه عند أقصى طرفه قال فحملت عليه • ولما أراد صلى الله عليه وسلمالعروج الى السماء بعد وصوله الىالبيت المقدسوصلاته بالانبياء عليهم السلام أتى بالمعراج الذى تعرج عليه أرواح الاتقياء من بنى آدم فلم تـــر الخلائق أحسن منه له مرقاة فضة ومرقاة من ذهب وهو من جنه الفردوس منضد باللؤلؤ عن يمينه ملائكة وعن يساره ملائكة فارتقى عليه هووجبريل

عليهما الصلاة والسلام من عند القبة التى يقال لها قبة المعراج عن يمين الصخرة ، قال بعض اهل العلم انه لم يختلف انه عرج من ثم وظاهرصنيع الحافظ ابن الجوزى فى الوفاء ان البراق ترقى به أى النبىصلىالله عليه وسلم كما قال ثم أتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار يقع خطوه عندأقصى طرفه قال فحملت عليه فانطلق بى جبريل حتى أتى بى السماء الدنيـــا فاستفتح ـ الحديث بطوله وهو فى الصحيحين وغيرهما • وقال بعضهم قد صحت الاحاديث بأنه استمر على البراق الى بيت المقدس ثم نصب له المعراج فارتقى فيه وظاهره انه لم يركب البراق الا من مكة الى بيت المقدس •وجمع بعضهم بأن الراوى اختصر فلم يذكر بيت المقدس ، وبعضهم انه لما وصل فى العروج الى السماء الدنيا ركب البراق واخترق به السموات وما فوقها الى ان وصل الى سدرة المنتهى ، ثم بعد سؤاله صلى الله عليه وسلم ربـه ومراجعته له فى التخفيف عن أمته حتى انتهى ذلك من الخمسين الىالخمس صلوات وسماع النداء من العلى الاعلى قد أمضيت فريضتيوشفعت نبيى وخففت عن عبادى هن خمس صلوات كل يوم وليلة وهنخمســون فى الاجر لان الحسنة بعشر أمثالها ، وسمع قوله (ما يبدل القول لدى) ولا ينسخ كتابي ، وكانت المراجعة ما بين الحق جل جلاله وبين موسى عليه افضل الصلاة واتم التسليم فانه الذى حث النبى الكريم على مراجعة الرب الرحيم سؤاله التخفيف عن هذا الخلق الضعيف ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم فى موسى عليه الصلاة والسلام : ونعم الصاحب كان لكم• اى معشر الامة ثم قال له موسى عليه السلام اهبط باسم الله • ولما دنا المصطفى من العلى الاعلى وحل فى مستوى سمع فيه صريف الاقلام وكلمه الجليل جل جلاله فقال يا محمد ، قال لبيك يا رب قال سل قال انك اتخذتابراهيم خليلا وأعطيته ملكا عظيما وكلمت موسى تكليما وأعطيت داود ملكا عظيما وألنت له الحديد وسخرت له الجبال وأعطيت سليمان ملكا عظيما وسخرت له الجن والانس والشياطين وسخرت له الرياح وأعطيته ملكا لا ينبغى لاحد من بعده وعلمت عيسى التوراة والانجيل وجعلته يبرىء الاكمـه والابرص ويحيي الموتى باذنك وأعذته وأمه من الشيطان الرجيم فلم يكن

للشيطان عليهما سبيل • فقال الله سبحانه وتعالى : وقد اتخذتك حبيبا ـ قال الراوى : وهو مكتوب فى التوراة حبيب الله ـ وأرسلتك للناس كافة بشيرا ونذيرا وشرحت له صدرك ووضعت عنك وزرك ورفعت لك ذكرك لا أذكر الا تذكر معى وجعلت أمتك خير أمة أخرجت للناس وجعلت أمتك أمة وسطا وجعلت أمتك هم الأولون والآخرون وجعلت أمتك لا تجوز لهم خطبة حتى يشهدوا انك عبدى ورسولى وجعلت من أمتك اقواما قلوبهم أناجيلهم وجعلتك اول النبيين خلقا وآخرهم بعثا وأول من يقضى له وأعطيتك سبعا من المثانى لم أعطها نبيا قبلك وأعطيتك خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش لم أعطها نبيا من قبلك وأعطيتك الكوثر وأعطيتك ثمانية أسهم الاسلام والهجرة والجهاد والصدقة والصلاة وصوم رمضان والامر بالمعروف والنهى عن المنكر وانى يوم خلقت السموات والارض فرضت عليك وعلى أمتك خمسين صلاة ـ كل هذا الخطاب فى حال قربه من رب العالمين ثم ان الله تعالى خفف عن عباده الفعل من خمسين الى خمس وابقى لهم ثواب الخمسين تفضلا منه تعالى وتكرما على نبيه المصطفى وعلى أمته ببركته وكان صلى الله عليه وسلم لما وصل الى سدرة المنتهى غشيته سحابة فيها من كل لون فتأخر جبريل ثم عرج بالنبى صلى الله عليه وسلم حتى وصل لمستوى سمع فيه صرير الاقلام فدنا من الحضرة الالهية حتى كان كقاب قوسين أو أدنى أى أو أقرب أى بل أقرب من ذلك ثم انجلت عنه السحابة فأخذ جبريل بيده فانصرف سريعا فمر على ابراهيم فلم يقل شيئا ثم أتى على موسى قال النبى صلى الله عليه وسلم ونعم الصاحب كان لكم فقال ماصنعت يا محمد ؟ ما فرض عليك ربك وعلى أمتك ؟ قال النبى صلى الله عليه وسلم فرض على وعلى أمتى خمسين صلاة كل يوم وليلة قال ارجع الى ربك فاسأله التخفيف عنك وعن أمتك فان أمتك لا تطيق ذلك فانى خبرت الناس قبلك وبلوت بنى اسرائيل وعالجتهم اشد المعالجة على أدنى من هذا فضعفوا وتركوه فأمتك أضعف أجسادا وأبدانا وقلوبا وأبصارا وأسماعا فالتفت النبى صلى الله عليه وسلم الى جبريل يستشيره فأشار اليه جبريل ان نعم ان شئت ، فرجع سريعا حتى انتهى الى الشجرة فغشيته السحابة وخر

ساجدا وقال رب خفف عن أمتى فانها أضعف الامم، قال وضعت عنكم خمسا وهكذا الى أن بقيت الخمس . وهذا فى صحيح مسلم من حديث أنس رضى الله عنه والذى فى المسند والصحيحين وغيرهما عن أنس عن مالك بن صعصعة رضى الله عنه تعالى حط عنه عشرا ثم عاد فحط عنه عشرا ثم عاد فحط عنه عشرا ، وكذلك هو فى الصحيحين من حديث أنس رضى الله عنه . وقال الامام الحافظ ابن الجوزى فى الوفاء وهذا أصح لاتفاق البخارى ومسلم عليه من حديث أنس عن مالك ومن حديث أنس نفسه أيضا وذكر المراجعة خمس مرات وقال عن رواية انه حط خمسا غلط من الراوى . انتهى . وقال الحافظ ابن حجر فى شرح البخارى كون الحط كان خمسا خمسا اصح ، ولفظه : قد حققت رواية ثابتة أن التخفيف كان خمسا خمسا وهى زيادة معتمدة يتعين حمل باقى الروايات عليها . انتهى . قلت ولمناقشته وجه وجيه من أمور احدها ان كون التخفيف عشرا عشرا أليق بكرم الكريم ، الثانى اتفاق الصحيحين عليه من حديث أنس ومن حديث مالك بن صعصعة وأما كونه خمسا خمسا فمن افراد مسلم وما اتفق عليه الصحيحان اصح . الثالث كونه عشرا عشرا أقل مراجعة . الرابع ان حديث أنس من كونه كان خمسا صادق بأن الحط فى الخامسة خمس فيصدق عليه بأن الحط كان خمسا فى الجملة والحاصل ان كون الحط كان عشرا عشرا اصح وبالله التوفيق .

تنبيهات الاول رؤية الله فى الدنيا ممكنة

(تنبيهات)

(الاول) تقدم الكلام على رؤية النبى صلى الله عليه وسلم لذى العزة والجبروت والانعام واختلاف الصحابة والتابعين فمن بعدهم فى ذلك ومما ينبغى أن يعلم ان الخلاف المذكور انما هو في وقوعها لا في امكانها وجوازها اذ هى جائزة عقلا ونقلا أما العقل فواضح وأما النقل فما كان كليم الرحمن ليسأل المستحيل، هذا مما لا يظنه من عرف منصب النبوة فضلا عن الرسول فضلا عن احد أولى العزم من الرسل ، ليت شعرى من جهل الواجب والجائز والمستحيل على الله تعالى ما علم ؟ هذا مما لا يتصوره مؤمن بالله ورسله يرى الحق ويتبعه أبدا ، ثم ان رؤية البارى جل شأنه

واقعة للمؤمنين فى الآخرة قطعا كما مر واما من ادعاها فى الدنيا يقظة لغير نبينا صلى الله عليه وسلم على ما فى ذلك من الخلاف فهو ضال بل قال الكواشى فى تفسيره فى سورة النجم : ومعتقد رؤية الله تعالى هنا يعنى فى الدنيا بالعين لغير محمد صلى الله عليه وسلم فزنديق فلو قال انى أرى الله عيانا فى الدنيا ويكلمنى شفاها كفر • انتهى • ونقل عن المهدوى المفسر انه كفر مدعى الرؤية • هذا وقد نقل جماعة الاجماع على أنها لا تحصل للأولياء فى الدنيا • قال الشيخ أبو عمرو بن الصلاح وأبو شامة أنه لا يصدق مدعى الرؤية فى الدنيا يقظة فان شيئا منع منه موسى كليم الله عليه الصلاة والسلام واختلف فى حصوله لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم كيف يسمح به لمن لم يصل لمقامهما مما لا يتوقف فيه أنه لا يحصل لآحاد الناس • وقد اختلف فى رؤية الله تعالى مناما والحق جوازها وبالله التوفيق •

الثانى معنى فكان قاب قوسين أو ادنى

(الثانى) اختلف فى المراد من قوله تعالى (فكان قاب قوسين أو أدنى) أى حيث الوتر من القوس قاله مجاهد وقال أبو عبيدة قاب قوسين أى مقدار قوسين أو أدنى أو أقرب والقاب مابين القبضة والسية من القوس قال الواحدى هذا قول الجمهور من المفسرين أن المراد بالقوس التى يرمى بها • قال وقيل المراد بها الذراع لأنه يقاس بها الشىء • قال الحافظ ابن حجر فى فتح البارى : وينبغى أن يكون هذا القول هو الراجح فقد أخرج ابن مردويه باسناد صحيح عن ابن عباس رضى الله عنهما قال القاب القدر والقوسين الذراعان • ويؤيده أنه لو كان المراد به القوس التى يرمى بها لم يمثل بذلك ليحتاج الى التثنية فكان يقال مثلا قاب رمح أو نحو ذلك وقد قيل أنه على القلب والمراد فكان قابى قوس لأن القاب ما بين المقبض الى السية فلكل قوس قابان بالنسبة الى خالفته • وقوله أو أدنى أى أقرب قال الزجاج خاطب الله العرب بما ألفوا والمعنى فيما تقدرون أنتم والله تعالى عالم بالاشياء على ما هى عليه لا تردد عنده ، وقيل أو بمعنى بل والتقدير بل هو أقرب من القدر المذكور وسية القوس هى الفرضة التى يوضع فيها الوتر والمراد به جبريل عليه السلام • قال الحافظ ابن كثير : هذا هو الصحيح فى التفسير كما دل عليه كلام الصحابة رضى الله عنهم

وقد روى الشعبى عن مسروق قال قلت لعائشة رضى الله عنها (ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى) قالت ذاك جبريل • قال المحقق ابن القيم لأن جبريل هو الموصوف بما ذكر من أول السورة الى قوله (ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى) هكذا فسره النبى صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح لعائشة قالت عائشة رضى الله عنها سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية فقال ذلك جبريل لم أره فى صورته التى خلق عليها الامرتين • رواه مسلم • قال ولفظ القرآن لا يدل على غير ذلك ثم ساق سبعة وجوه دالة على ذلك ، قال واماما وقع فى البخارى من رواية شريك عن أنس ودنا الجبار رب العزة فتدلى حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى فقد تكلم الناس فيه وقالوا ان شريكا غلط فيه وذكر فيه أمورا منكرة ، لكن قال المحقق أن الدنو والتدلى الذى فى حديث شريك غير هذا ، وجزم ابن كثير بأن الدنو والتدلى فى حديث شريك غير الذى فى الآية ، ولذا قال الرازى فى تفسيره فكان قاب قوسين أى فكان بين جبريل ومحمد صلى الله عليه وسلم مقدار قوسين أو أقل وهذا على استعمال العرب وعادتهم فان الاميرين منهم أو الكبيرين اذا اصطلحا وتعاقدا أخرجا بقوسيهما فجعل كل واحد منهما قوسه بطرف قوس صاحبه ومن دونهما من الرعية يكون كفه بكف صاحبه فيمدان باعيهما كذلك فسمى مبايعة • انتهى • وقوله أو أدنى قال المحقق ابن القيم أو هنا ليست للشك بل لتحقيق قدر المسافة فانها لاتزيد على قوسين البتة كما قال تعالى (وأرسلناه الى مائة ألف أو يزيدون) تحقيقا لهذا العدد وانهم لا ينقصون عن مائة ألف رجلا واحدا ونظيره قوله تعالى (ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة) أى لا تنقص قسوتها عن قسوة الحجارة بل ان لم تزد على قسوة الحجارة لم تكن دونها قال وهذا المعنى أحسن وألطف وأدق من قول من جعل أوفى هذا الموضع بمعنى بل ومن قول من جعلها للشك بالنسبة الى الرائى ومن قول من جعلها بمعنى الواو فتأمله • انتهى •

الثالث سدرة المنتهى

(الثالث سدرة المنتهى) السدر شجر النبق واحده سدرة وانما قيل لها سدرة المنتهى لانه ينتهى اليها ما يهبط من فوقها فيقبض منها واليها ينتهى

ما يعرج من الارض كما رواه مسلم عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ، وقيل غير ذلك • قال ابن دحية واختيرت السدرة دون غيرها لأن فيها ثلاثة أوصاف ظل مديد وطعم لذيذ ورائحة ذكية فكانت بمنزلة الايمـــان الذى يجمع القول والعمل والنية ، وقد وقع عند مسلم فى صحيحه من حديث ابن مسعود رضى الله عنه أن السدرة فى السماء السادسة وظاهر حديث أنس رضى الله عنه أنها فى السابعة ، قال القرطبى وهو تعارض لا شك فيه وحديث أنس قول الاكثر وهو الذى يقتضيه وصفها بكونها التى ينتهى اليها علم كل نبى مرسل وكل ملك مقرب ، ويترجح حديث أنس أيضا بأنه مرفوع وحديث ابن مسعود موقوف • قال الحافظ بن حجر كذا قال يعنى القرطبى ولم يعرج على الجمع بل جزم بالتعارض ولا يعارض أنها فى السماء السادسة ما دلت عليه الاخبار أنه وصل اليها بعد أن دخل فى السماء السابعة لانه يحمل على أن أصلها فى السادسة وأغصانها وفروعهـــا فى السابعة وليس فى السادسة الا أصل ساقها ، قال ابن حجر والاظهر أن سدرة المنتهى مغروسة بالارض بدليل قوله ونهران باطنان ، ولا يطلق هذا اللفظ وما أشبهه الا على ما يفهم والباطن لا بد أن يكون سريانه تحت شىء وحينئذ يطلق عليه اسم الباطن • وقال القاضى عياض دل الحديث على أن أصل شجرة المنتهى فى الارض لكونه قال ان النيل والفرات يجـــريان من أصلها وهما بالمشاهدة يجريان من الأرض فيلزم منه أن يكون أصـــل السدرة فى الارض ، وتعقبه النووى بأن المراد بكونهما يخرجان من أصلها غير خروجهما بالنبع من الارض ، والحاصل أن أصلهما من الجنة وهما يخرجان أولا من أصل السدرة ثم يسيران الى أن يستقرا فى الارض ثم ينبعان • وفى أصل القصة فاذا فى أصلها أربعة أنهار نهران باطنان ونهران ظاهران وقال جبريل لما سئل عنها اما الباطنان فنهران فى الجنة وأما الظاهران فالنيل والفرات • قال ابن أبى جمرة هذا يدل على أن النيل والفرات ليسا من الجنة وسدرة المنتهى ليست فى الجنة حتى يقال أنهما يخرجان منها بعد نبعهما من السدرة وجيحان والفرات والنيل كل من أنهار الجنة والجمـــع بينهما والله أعلم أن الفرات والنيل منبعهما من السدرة واذا أنزلا الى الارض

يسلكان أولا على الجنة فيدخلانها ثم بعد ذلك بنزلان الى الارض •انتهى•
قلت اذا قلنا سدرة المنتهى فى السابعة تعين أنها فى الجنة لأن الجنة ليس
سقفها سوى عرش الرحمن والله أعلم •

الرابع المستوى المسموع منه صريف الاقلام

(الرابع) المستوى الذى سمع فيه صلى الله عليه وسلم صريف الاقلام
هو المصعد ، وقيل المكان المستوى ، وصريف الاقلام بفتح الصاد المهملة
وكسر الراء وبالفاء هو صوت حركة الاقلام وهو جريانها على المكتوب فيه
من الاقضية الالهية والوحى وما ينسخونه من اللوح المحفوظ أو ماشاء الله
من ذلك أن يكتب ويرفع لما أراده تعالى من أوامره وتدبيره وفيه حجة لأهل
السنة فى الايمان بصحة كتابة الوحى والمقادير فى كتب الله من اللوح
المحفوظ بالاقلام الذى هو تعالى يعلم جنسها وكيفيتها على ماجاءت به
الآيات والاحاديث الصحيحة فكل ماجاء من ذلك فهو حق يبقى على ظاهره،
نعم كيفية ذلك وصورته وجنسه مما لا يعلمه الا الله تعالى ومن أطلعه الله
تعالى على شىء من ذلك من الملائكة والمرسلين ، وما يتأول هذا أو يحيله
الا ضعيف الايمان اذ جاءت به الشريعة والله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد
وهو الغنى الحميد والله تعالى أعلم

الخامس الاسراء والمعراج فى ليلة واحدة

(الخامس) الصحيح المعتمد أن الاسراء والمعراج كانا فى ليلة واحدة
هذا الذى اعتمده أكثر أهل العلم ، وقيل كان الاسراء وحده فى
ليلة ثم كان هو والمعراج فى ليلة أخرى ، والاول هو الذى ذهب اليه
أكثر أهل العلم من المحدثين والمفسرين والفقهاء والمتكلمين • وانهما كانا
يقظة بالروح والجسد جميعا – لا فى المنام – من مكة الى المسجد الاقصى
الذى هو فى بيت المقدس ، الى السموات العلى الى سدرة المنتهى الى حيث
شاء الله العلى الأعلى • قال أهل الحق وهذا هو الحق من غير امتراء وعليه
يدل القرآن نصا وصحيح الاخبار الى السموات استفاض استفاضة تكاد
تبلغ التواتر أو بلغته ولا يعدل عن الظاهر فى الاخبار الواردة فى ذلك
ولا عن الحقيقة المتبادرة الى الاذهان من ألفاظها الى التأويل الا عند
الاستحالة وتعذر حمل اللفظ على حقيقته وليس ثم استحالة تؤذن بالتأويل

فلا جرم وجب اعتقاده على ظاهره مع تفويض علم ما دق الى الحق وبالله التوفيق •

السادس هل تكرر المعراج

(السادس) زعم بعض الصوفية أن المعراج وقع له صلى الله عليه وسلم ثلاثين مرة ، وقال بعضهم أربعة وثلاثين مرة ، واحدة منها بجسمه الشريف، والباقي بروحه • ورد المحقق تعدد ذلك مع تعدد فرض الصلاة والمراجعة في الحط والتخفيف ، قال الحافظ ابن حجر في شرح البخاري وما أظن أحدا ممن قال بالتعدد يلتزم اعادة مثل ذلك والله تعالى أعلم

((فكم حباه ربه وفضله وخصه سبحانه وخوله))

((فكم حباه ربه)) سبحانه وتعالى بمكرمة ((و)) كم ((فضله)) على غيره بمزية من المزايا التي لا تحصى والمكرمات التي لا تستقصى فان كم هذه خبرية بمعنى كثير فهي تفيد كثرة ما حباه ربه به من المكرمات والمزايا والحباء بمعنى الاعطاء يقال حبا فلانا أعطاه بلا جزاء ولامن ، أوعام،والاسم الحباء ككتاب كما في القاموس ((و)) كم ((خصه)) الله ((سبحانه)) وتعالى بخصوصية يقال خصه خصا وخصوصا وخصوصية ويفتح وخصيصى ويمد وخصية وتخصة فضله ، والخاص والخاصة ضد العامة ((وخوله)) بمعنى أعطاه قال في القاموس خوله الله المال أعطاه اياه تفضلا • والمعنى انه جل وعلا خص نبيه المصطفى بخصائص كثيرة ومزايا غير ما ذكرنا حتى ان أبا سعيد (1) في كتابه شرف المصطفى أوصل الخصائص التي اختص الله تعالى النبي صلى الله عليه وسلم بها عن سائر الانبياء والمرسلين الى ستين ، وبعض متأخري الحفاظ أوصلها الى ثلاث مائة ، وقال بعض الحفاظ الحق عدم حصرها غير أنه لم يتعرض في النظم الا لبعض المهم منها على أنها أفردت بالتأليف فلا حاجة الى تعدادها هنا

فصل في بعض المعجزات

((فصل))

((في التنبيه على بعض معجزاته صلى الله عليه وسلم وهي كثيرة جدا))

وتعريف المعجزة هي اسم فاعل مأخوذة من العجز المقابل للقدرة وفي القاموس معجزة النبي ما أعجز به الخصم عند التحدي والهاء للمبالغة •

(1) هو الخركوشي ، راجع كشف الظنون ، ووقع في الاصلين :ابن سعد

انتهى • وقال ابن حمدان فى نهاية المبتدئين : المعجزة هى ماحرق العادة من قول أو فعل اذا وافق دعوى الرسالة وقارنها وطابقها على جهة التحدى ابتداء بحيث لا يقدر أحد عليها ولا على مثلها ولا على مايقاربها • وقال الفخر الرازى : المعجزة عرفا أمر خارق للعادة مقرون بالتحدى مع عدم المعارضة • قال العلامة التفتازانى : انما قال أمر ليتناول الفعل كانفجار الماء من بين أصابع النبى صلى الله عليه وسلم ويتناول عدمه أى عدم الفعل كعدم احراق النار ابراهيم عليه السلام • واحترزوا بقيد المقارنة للتحدى عن كرامات الأولياء والعلامات الارهاصية التى تتقدم البعثة النبوية وعن أن يتخذ الكاذب معجزة من مضى من الانبياء أو ما تقدم له فى السنين الماضية حجة لنفسه ، وبقيد عدم المعارضة عن السحر والشعبذة ، وقول ابن حمدان وطابقها ليخرج ما اذا قال معجزتى نطق هذا الحجر فنطق بأنه كذاب مفتر ، وكما تفل مسيلمة فى بئر فغار ماؤها ومسح على رأس غلام فصار أقرع ونحو ذلك • اذا عرفت هذا فقد أشار الى التنبيه على أن معجزات نبينا محمد صلى الله عليه وسلم كثيرة شهيرة فلا يمكن استقصاء عدها بقوله :

((ومعجزات خاتم الانبـــاء　　　كثيرة تجل عن احصائى))

((ومعجزات)) جمع معجزة وتقدم تعريفها آنفا ((خاتم الانباء)) يعنى نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم والانباء جمع نبى وتقدم الكلام على كونه خاتم النبيين والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ((كثيرة))جدا ((تجل)) أى تعظم وتكبر ((عن احصائى)) أى عن عدى وحفظى لكثرة افرادها وتنوعها من الاقوال والافعال التى ما سبقت لمثله من الانبياء ولـــم يبلغ أحد من الانبياء من كثرة المعجزات ما بلغه نبينا صلى الله عليه وسلم وهو دليل على مزيد التشريف والتكريم وشدة الاعتناء والاهتمام بشأنه والاحتفال بأمر نبوته ، وأيضا لما كان نبينا خاتم النبيين والمرسلين وشريعته خاتمة الشرائع أجمعين ناسب كثرة المعجزات وترادف الآيات البينـــات والمعجزات • قال شيخ الاسلام ابن تيمية روح الله روحه فى كتابه الجواب الصحيح : الآيات والبراهين الدالة على نبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم كثيرة متنوعة وهى أكثر وأعظم من آيات غيره من الانبياء قال ويسميها

النظار معجزات وتسمى دلائل النبوة وأعلام النبوة ونحو ذلك ، قال وهذه الالفاظ اذا سميت بها آيات الانبياء كانت أدل على المقصود من لفظ المعجزات ولهذا لم يكن لفظ المعجزات موجودا فى الكتاب ولا فى السنة وانما فيه لفظ الآية والبينة والبرهان ، وأهل الكلام لايسمون معجزا الاماكان للأنبياء فقط واما ما يثبت للأولياء من خرق عادة يسمونها كرامة ، قال والسلف كالامام احمد وغيره كانوا يسمون هذا وهذا معجزا ويقولون لخوارق الاولياء انها معجزات اذ لم يكن فى اللفظ ما يقتضى اختصاص الانبياء بخلاف ما كان آية وبرهانا على نبوة النبى فان هذا يجب اختصاصه ، وربما سموا الكرامات آيات لكونها تدل على نبوة من اتبعه الولى فان الدليل يستلزم المدلول فيمتنع ثبوته بدون ثبوت المدلول فكذلك ماكان آية وبرهانا وهو الدليل والعلم على نبوة النبى يمتنع أن يكون لغير النبى ، وقد يقال أنهم سموها معجزات لأن كرامات الاولياء دليل على نبوة النبى الذى اتبعوه أو لأنها تعجز غيرهم وهى آية على صحة طريقتهم • انتهى • قال بعض العلماء معجزات نبينا كثيرة لا تنحصر ،وفى كلام بعضهم أنه صلى الله عليه وسلم أعطى ثلاثة آلاف معجزة يعنى غير القرآن فان فيه ستين أو سبعين ألف معجزة تقريبا ولهذا قال :

القرآن وانشقاق القمر

((منها كلام الله معجز الورى   كذا انشقاق البدر فى غير امترا))

((منها)) أى من معجزات نبينا خاتم النبيين والمرسلين بل أعظمها وأجلها ((كلام الله)) المنزل على النبى المرسل ((معجز الورى)) كفتى الخلق جميعهم انسهم وجنهم وأولهم وآخرهم فهو معجز بنفسه ليس فى وسع البشر الاتيان بسورة من مثله كما تقدم ذلك موضحا و ((كذا)) من غرر معجزاته صلى الله عليه وسلم ((انشقاق البدر)) أى القمر قال فى القاموس : والبدر القمر الممتلىء • انتهى • وهو أحد الكواكب السيارة التى هى الشمس والقمر والزهرة وعطارد والمريخ والمشترى وزحل فانشقاق القمر نصفين ثابت ((من غير امترا)) أى من غير شك ولا جدل مأخوذ من المرية بالضم والكسر الشك والجدل يقال ماراه مماراة ومراء وامترى فيه وتمارى شك كما فى القاموس • وفى النهاية المراء الجدال

والتمارى والمماراة المجادلة على مذهب الشك والريبة • انتهى • وانما قال من غير امترا لثبوت ذلك وظهوره لكل أحد ظهورا تاما وثبوتا جازما وقصة ذلك كما فى الصحيحين من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه أن أهل مكة سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يريهم آية فأراهم القمر شقتين حتى رأوا حراء بينهما •وقال شيبان عن قتادة فأراهم انشقاق القمر مرتين • وفى حديث ابن مسعود عند البخارى ومسلم وغيرهما قال انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فرقتين فرقة فوق الجبل وفرقة دونه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اشهدوا • وقال ابن عباس رضى الله عنهما اجتمع المشركون الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا ان كنت صادقا فشق لنا القمر فرقتين فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ان فعلت تؤمنون ؟ قالوا نعم ، فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ربه عز وجل ان يعطيه ما سألوا فانشق القمر فرقتين ورسول الله صلى الله عليه وسلم ينادى يا فلان يا فلان اشهدوا وذلك بمكة قبل الهجرة • وقال مجاهد انشق القمر فبقيت فرقة من وراء الجبل • وقال ابن زيد لما انشق القمر كان يرى بجبل قعيقعان النصف وبأبي قبيس النصف الآخر. قال في النهاية قعيقعان جبل بمكة قيل سمى بذلك لأن جرهما لما تحاربوا كثرت قعقعة السلاح هناك وجبل أبى قبيس مشهور معلوم بمكة • وروى الامام احمد من حديث جبير بن مطعم رضى الله عنه قال انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فصار فرقتين فرقة على هذا الجبل وفرقة على هذا الجبل فقالوا سحرنا محمد وقالوا ان كان سحرنا فانه لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم فاسألوا فان شهدوا بما أبصرتموه فهو حق وليس هو سحرا فسألوا من كان مسافرا عن مكة من أهلها ومن غيرهم فأخبروهم أنهم رأوا ذلك فتمادوا فى كفرهم وعتوهم ولم يؤمنوا • وروى الطبرانى عن ابن مسعود رضى الله عنه قال انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال قوم هذا سحر سحركم ابن أبى كبشة فاسألوا السفار يقدمون عليكم فان كان مثل ما رأيتم فقد صدق والا فهو سحر فقدم السفار فسألوهم فقالوا نعم قد رأينا قد انشق القمر • وأخرج أبو داود عن ابن عمر رضى الله عنهما فى قوله تعالى (اقتربت الساعة وانشق القمر) قال

انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم • (قلت) قد ثبت انشقاق القمر بنص القرآن العظيم وبالسنة الصحيحة الصريحة عن الرسول الكريم وقد بلغت الاحاديث بذلك مبلغ التواتر وأجمع على ذلك أهل الحق• وهذا الانشقاق الواقع للقمر من خصائص نبينا محمد صلى الله عليه وسلم التى اختص بها عن سائر النبيين والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين فلم يشركه فى ذلك غيره ولم يقع لأحد سواه وهو من أمهات معجزاته التى لا يكاد يعدلها بعد القرآن شيء ولا يعدلها آية من آيات الانبياء عليهم السلام لظهور ذلك فى ملكوت السموات خارجا عن جملة طباع مافى هذا العالم المركب من الطبائع فهو آية ومعجزة جسيمة ولهذا قرنها بمعجزة القرآن واقتصر عليهما من المعجزات لأن فيهما كفاية عما سواهما والا فمعجزاته صلى الله عليه وسلم لا تحصى ودلائل نبوته لا تستقصى •

(تنبيهات)

تنبيهات الاول رواة انشقاق القمر

(الاول) قد روى انشقاق القمر عن جماعة من الصحابة رضى الله عنهم منهم ابن مسعود وأنس وابن عباس وابن عمر وحذيفة وعلى وجبير بن مطعم وغيرهم رضى الله عنهم

الثانى او ما قيل انه دخل فى جيبه الخ

(الثانى) الثابت من قصة انشقاق القمر ما ذكرناه من الاحاديث الصحيحة والنصوص الصريحة وأما ما قيل أن القمر دخل فى جيبه صلى الله عليه وسلم وخرج من كمه فلا أصل له

الثالث آياته (ص) أنواع

(الثالث) قال شيخ الاسلام ابن تيمية فى الجواب الصحيح : آياته صلى الله عليه وسلم المتعلقة بالقدرة والفعل والتأثير أنواع (منها) ما هو فى العالم العلوى كانشقاق القمر وحراسة السماء بالشهب الحراسة التامة ومعراجه الى السماء ، قال وانما جعل الآية فى انشقاق القمر دون الشمس وسائر الكواكب لانه أقرب الى الارض من الشمس والنجوم ، وكان الانشقاق فيه دون أجزاء الفلك لأنه جسم مستنير فيظهر فيه الانشقاق لكل من يراه ظهورا لا يتمارى فيه ، واذا قبل الانشقاق فقبول محله أولى بذلك، قال وفيه حكمتان عظيمتان احداهما كونه من آيات النبوة ، والثانية أن فيه دلالة على جواز انشقاق الفلك وان ذلك دليل واضح على ما أخبرت به

الرسل عليهم الصلاة والسلام من انشقاق السموات خلافا للفلاسفة فى زعمهم أن الفلك لا يقبل الخرق والالتئام والله أعلم (ومنها) ما هو فى الجو كاستسقائه واستصحائه صلى الله عليه وسلم وطاعة السحاب فى حصوله وذهابه (ومنها) تصرفه فى الحيوانات الانس والجن والبهائم (ومنها) تصرفه فى الاشجار والخشب والاحجار (ومنها) تأييده بملائكة السماء (ومنها) كفاية الله تعالى له أعداءه وعصمته من الناس (ومنها) اجابة دعائه صلى الله عليه وسلم (ومنها) اعلامه بالمغيبات الماضية والمستقبلة (ومنها) تأثيره فى تكثير الماء والشراب والطعام والثمار وغير ذلك من دلائل نبوته واعلام رسالته ومعجزاته الظاهرة وآياته الباهرة

الرابع من آيات صدقه (ص) صورته وهيأته

(الرابع) أن نفس صورة النبى صلى الله عليه وسلم الشريفة الباهرة وهيئته وطلعته الظاهرة وسمته ودله يدل العقلاء على صدقه ولهذا قال عبدالله ابن سلام رضى الله عنه : فلما رأيت وجهه عرفت أنه ليس بوجه كذاب. ومن سمع كلامه ورأى آدابه لم يدخله شك فى نبوته . قال الحافظ ابن الجوزى وغيره من الحفاظ : وثبت فى عدة أخبار أنه صلى الله عليه وسلم كان فى صغره يعرف بالامانة والصدق وجميل الاخلاق ، وقد قال هرقل فى حديث أبى سفيان : ماكان ليترك الكذب على الناس ويكذب على الله تعالى . وقال شيخ الاسلام ابن تيمية قدس الله روحه فى الجواب الصحيح قال نفطويه فى فوله تعالى (يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار) هو مثل ضربه الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم يقول يكاد منظره يدل على نبوته وان لم يتل قرآنا كما قال عبد الله بن رواحة رضى الله عنه

لو لم تكن فيه آيات مبينة ... كانت بديهته تأتيك بالخبر

وذكره القاضى عياض فى كتابه الشفاء وذكر من هذا القبيل طرفا صالحا وبالله التوفيق

★ (فصل) ★

فى ذكر فضيلة نبينا وأولى العزم وغيرهم من النبيين والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين

((وأفضل العالم من غير امترا ... نبينا المبعوث فى أم القرى))

((وأفضل العالم)) العلوى والسفلى من ملك وبشر وجن فى الدنيـــا والآخرة فى سائر خلال الخير وخصال الكمال ونعوت المكارم والجمال ((من غير امترا)) أى من غير شك ولاريب قال فى القاموس : العالم الخلق كله أو ما حواه بطن الفلك ((نبينا)) خبرا المبتدا الذى هو أفضل العالم محمد ((المبعوث)) رسولا لكافة الناس بل للثقلين الانس والجن قيل والملائكة وتقدم ذلك ((فى أم القرى)) مكة المشرفة وبكة المعظمة قال تعالى (لتنذر أم القرى) يعنى مكة قال الحافظ ابن الجوزى فى كتابه مثير الغرام الساكن الى أشرف الاماكن : فى تسميتها بذلك أربعة أقوال (أحدها) لأن الارض دحيت من تحتها قاله ابن عباس رضى الله عنهما وقال ابن قتيبة لأنها أقدمها (الثانى) لأنها قبلة يؤمها جميع الناس (الثالث) لانها أعظم القرى شأنا (الرابع) لأن فيها بيت الله عز وجل ولما اطردت العادة بأن بلد الملك وبيته هو المتقدم على الاماكن سمى أما لأن الأم متقدمة • وانما كان أفضل خلق الله تعالى لأن الله تعالى أيده بأبهر المعجزات وأظهـــر الدلالات وأشهر المكرمات فمعجزاته أشهر المعجزات وأبهرها وأمته أزكى الامم وأطهرها وشريعته أتم الشرائع وأشهرها وصفاته أكمل الصفـــات وأشرفها وأخلاقه أحسن الاخلاق وأعرفها وأوسعها وشيمه أعلى الشيــم وأنفعها

ومن أعظم ما يدل على تعظيم نبينا وفضله على سائر الانبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين أن الله سبحانه وتعالى أقسم بحياته وفى شرعه انما تنعقد الايمان بأسماء الله تعالى وصفاته وكلامه لا بدون ذلك ، قال الامام الحافظ ابن الجوزى فى الوفاء أقسم الحق عز وجل بحياته وانما يقع القسم بالمعظم وبالمحبوب قال تعالى (لعمرك انهم لفي سكرتهم يعمهون) وأخرج الترمذى وغيره من حديث ابن عباس رضى الله عنهما قال :ماخلق الله وما ذرأ نفسا هى أكرم عليه من محمد صلى الله عليه وسلم وماسمعته أقسم بحياة أحد غيره فقال (لعمرك انهم لفى سكرتهم يعهمون) •قال الامام ابن عقيل رحمه الله تعالى وأعظم من قوله تعالى لموسى (واصطنعتك لنفسى) قوله تعالى (ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله) وبيان ذلك أنه جعل

اللام فى قوله واصطنعتك لنفسى التى هى للملك أو الاختصاص بينه وبينه ولم يجعل بينه تعالى وبين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم واسطة بل قال (ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله) وقوله تعالى (لا أقسم بهذا البلد وأنت حل بهذا البلد) المعنى أقسم بك لا بالبلد فان أقسمت بالبلد فلأنك فيه ، ثم قال ابن عقيل : يا موسى اخلع نعليك ولا تجىء الا ماشيا ، يا محمد اركب البراق ولا تجىء الا راكبا (١) ،وأخرج الطبرانى وصححه وابن حبان من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه مرفوعا « أتانى جبريل فقال يقول لك ربك أتدرى كيف رفعت لك ذكرك ؟قال الله اعلم ،قال اذا ذكرت ذكرت معى » وأخرجه الشافعى وسعيد بن منصور وعبد الرزاق من طريق مجاهد قال ابن عباس رضى الله عنهما يريد الاذان والاقامة والتشهد والخطبة على المنابر ، قال ولو أن عبدا عبد الله وصدقه فى كل شىء ولم يشهد أن محمدا رسول الله لم ينتفع بشىء وكان كافرا • وقال قتادة رفع الله ذكره فى الدنيا والآخرة فليس خطيب ولا متشهد ولا صاحب صلاة ولا أذان الا ينادى أشهد أن لا اله الا الله وأشهد أن محمدا رسول الله وفيه يقول حسان بن ثابت رضى الله عنه

أغر عليه للنبوة خاتم ... من الله مشهور يلوح ويشهد
وضم الآله اسم النبى الى اسمه ... اذا قال فى الخمس المؤذن أشهد
وشق له من اسمه ليجله ... فذو العرش محمود وهذا محمد

ومن مزاياه على سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام انه تعالى دعاهم بأسمائهم (يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة ـ واذكر فى الكتاب ادريس ـ يا نوح اهبط بسلام منا ـ يا ابراهيم اعرض عن هذا ـ يا موسى انى اصطفيتك ـ ياداود انا جعلناك خليفة ـ يا عيسى بن مريم اذكر نعمتى ـ يا زكريا انا نبشرك ـ يا يحيى خذ الكتاب) ودعا نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم بالتعظيم والتفخيم فقال (يا أيها النبى ـ يا أيها الرسول) ولما ذكر اسمه قرنه بذكر الرسالة فقال تعالى (وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل ـ محمد رسول الله والذين معه ـ وآمنوا بما نزل على

---

(١) ثبتت أحاديث فى النهى عن التفضيل بين الانبياء سيأتى ذكرها ومهما قيل فى توجيهها فان مثل هذا الكلام يخالفها

محمد ـ ماكان محمدا أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله) ولما ذكر الخليل وسيدنا رسول الله ذكر الخليل باسمه وذكره باللقب فقال تعالى (ان أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبى) • وقال ابن الجوزى رحمه الله تعالى وكان الانبياء عليهم السلام يجادلون أممهم عن أنفسهم كقول قوم نوح (انا لنراك فى ضلالة) فقال دافعا عن نفسه : ليس بى ضلالة ـ وقال قوم هود انا لنراك فى سفاهة فقال ليس بى سفاهة ـ وقال فرعون انى لأظنك يا موسى مسحورا ـ فقال موسى ـ انى لأظنك يا فرعون مثبورا أى مصروفا عن الحق مطبوعا على قلبك وأما نبينا صلى الله عليه وسلم فتولى الحق سبحانه المجادلة عنه فلما قالوا هذا شاعر قال تعالى (وما علمناه الشعر) ولما قالوا كاهن قال تعالى (وما هو بقول كاهن) وقالوا ضل فقال (ما ضل صاحبكم وما غوى) وقالوا مجنون فقال (ماأنت بنعمة ربك بمجنون) حتى قال تعالى (لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا) قال الواحدى أعلمهم الله فضل النبى صلى الله عليه وسلم على سائر البرية في المخاطبة وأمرهم أن يفخموه ويشرفوه ولا يقولوا له عند دعائه يا محمد يا ابن عبد الله كما يدعون بعضهم بعضا بل يقولون يا رسول الله يا نبى الله فى لين وتواضع وخفض • وذكر ابن الجوزى فى الوفاء عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى لا تجعلوا دعاء الرسول الآية قال كانوا يقولون يا محمد يا أبا القاسم فنهاهم الله تعالى عن ذلك اعظاما لنبيه فقالوا يا نبى الله يا رسول الله • وحكى عن الحسن نحوه رواه أبو نعيم، وهذا بخلاف الامم السالفة فانهم كانوا يخاطبون أنبياءهم باسمائهم

وفضائله ومزاياه صلى الله عليه وسلم كثيرة شهيرة فهو أفضل خلق الله تعالى صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه •وفى صحيح مسلم وغيره من حديث أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة وأول من ينشق عنه القبر وأول شافع وأول مشفع » وفى الترمذى من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنا أول الناس خروجا اذا بعثوا وأنا خطيبهم اذا وفدوا وأنا مبشرهم اذا أيسوا ، لواء الحمد بيدى وأنا أكرم

ولد آدم على ربى ولا فخر » قال ابن الانبارى أراد لا أتبجح بهـــذه الاوصاف لكن أقولها شكرا ومنبها على انعام ربى على • وفى حديث جابر رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « والذى نفسى بيده لو أن موسى كان حيا ما وسعه الا أن يتبعنى »

التفضيـــل بين الانبياء

فان قيل قد قال صلى الله عليه وسلم لمن قال له ياخير البرية: ذاك ابراهيم وقال : لا تخيروني على موسى • وقال : لا تفاضلوا بين الانبياء • وقال صلى الله عليه وسلم : ماينبغي لعبد أن يقول انى خير من يونس بن متى • فالجواب انه صلى الله عليه وسلم اما أن يكون قال ذلك قبل أن يعلمه الله تعالى انه سيد الاولين والآخرين فلما أعلمه الله سبحانه وتعالى بذلك أخبر به وأما أنه قال ذلك تواضعا وتأدبا (١) واحتراما لخلة ابراهيم عليه السلام ، واما أنه أراد برية عصر ابراهيم أو ان النهى انما هو عن تفضيل يؤدى الى تنقيص المفضول (٢) أو يؤدى الى الخصومة والفتنة كما هو المشهور فى سبب ورود تلك الاحاديث ، أو لأن النهى عن التفضيل فى النبوة نفسها وذلك قد لا يتصور فيها بل فى خصائصها وتوابعها ، والحق أنه ورد النص بتفضيل (٣) بعض الرسل على بعض فقد قال تعالى (تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض) والحاصل انه صلى الله عليه وسلم قال ذلك قبل العلم بتفضيل الله له على سائر الانبياء والرسل مع مراعاته لعلو مراتبهم الباذخة وجلالة مناصبهم الشامخة ثم أعلمه الله تعالى بأنه سيد الاولين والآخرين وأفضل جميع الانبياء والمرسلين وأمر بتبليغ ذلك فبلغه كما أمر لأن اعتقاد ذلك حق لازم وفرض جازم مع مجانبة التفضيل المؤدى الى تنقيص المفضول ومراعاة علو تلك المراتب التى لا تدرك كنه حقائقها أكثر العقول فالنبى المصطفى أفضل الخلق جميعا بلا خفاء صلى الله عليه وسلم وعلى سائر الانبياء والمرسلين والحمد لله رب العالمين

---

(١) كان صلى الله عليه وسلم يتواضع ويتأدب ولا يقول الا حقا
(٢) هذا أشف الاجوبة عن أحاديث النهى عن التفضيل
(٣) أما تفضيل الله تعالى بعض الانبياء فثابت ، وأما التفضيل الذى جاء النهى عنه فهو تفضيل الناس بين الانبياء يعنى خوضهم فى ذلك وكلامهم فيه تفصيلا ، والنهى عن هذا لا ينفى ذاك

((وبعده الافضل أهل العزم فالرسل ثم الانبيا بالجزم))

((وبعده)) أى بعد النبى صلى الله عليه وسلم ((الافضل)) من سائر الخلق هم ((أهل العزم)) أى أهل الثبات والجد من الرسل وهم على المشهور ابراهيم الخليل وموسى الكليم وعيسى الروح ونوح النجى فيكونون خمسة بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم وهم المذكورون فى قوله تعالى (واذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وابراهيم وموسى وعيسى بن مريم) فانهم أصحاب الشرائع وقدم نبينا صلى الله عليه وسلم تعظيما له وتكريما لشأنه ، وهؤلاء الذين اجتهدوا فى تأسيس الشرائع وتقريرها وصبروا على تحمل المشاق من قومهم ومعاداة الطاغين فيها ، وقيل انما كانوا هم أولى العزم لصبرهم على البلاء من الله تعالى فنوح صبر على أذى قومه فانهم كانوا يضربونه حتى يغشى عليه ، وابراهيم صبر على النار وذبح ولده • وقد قيل كل الرسل من أولى العزم فمن للتبيين لا للتبعيض ، وقد قال ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى (فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل) ذوو الحزم وقال الضحاك ذوو الجد والصبر قال ابن زيد كل الرسل كانوا أولى عزم لم يبعث الله نبيا الا كان ذا عزم وحزم ورأى وكمال عقل وانما ادخلت من للتجنيس لا للتبعيض كما يقال اشتريت أكسية من الخز وأردية من البز • وقال بعضهم الانبياء كلهم أولو العزم الا يونس عليه السلام لعجلة كانت منه الا ترى انه قيل للنبى صلى الله عليه وسلم (ولا تكن كصاحب الحوت) وقال قوم أولو العزم نجباء الرسل المذكورون فى سورة الانعام وهم ثمانية عشر لقوله تعالى بعد ذكرهم (أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده) وقال ابن عباس رضى الله عنهما وقتادة نوح وابراهيم الخ • وهو المشهور كما قدمنا آنفا • وأخرج البغوى فى تفسيره وأبو الشيخ بن حيان عن مسروق قال قالت لى عائشة رضى الله عنها قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم « ياعائشة ان الدنيا لا تنبغى لمحمد ولا لآل محمد ، يا عائشة ان الله لم يرض من أولى العزم الا بالصبر على مكروهها والصبر عن [1] محبوبها فلم يرض الا أن كلفنى ما كلفهم فقال

---

(١) هكذا فى تفسير البغوى ووقع فى مط «على» وفى مخ « ع »

(فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل) وانى والله لا بد لى من طاعته والله لأصبرن كما صبروا وأجهدن (كماجهدوا -١)ولا قوة الا بالله »

وقد اختلف العلماء فى من يلى النبى صلى الله عليه وسلم فى الفضيلة منهم والمشهور واختاره الحافظ ابن حجر فى شرح البخارى انه ابراهيم خليل الرحمن لما ورد أن ابراهيم عليه السلام خير البرية خص منهمحمد صلى الله عليه وسلم باجماع فيكون أفضل من موسى وعيسى ونوح عليهم السلام والثلاثة بعد ابراهيم أفضل من سائر الانبياء والمرسلين ، قالالحافظ ابن حجر ولم أقف على نقل أيهم أفضل ، والذى ينقدح فى النفس تفضيل موسى فعيسى فنوح عليهم الصلاة والسلام ، قال بعض العلماء لعل تقديم موسى عليه السلام لانه كلمه الله ثم عيسى عليه السلام لانه كلمة الله وقال بعض المحققين: الواجب اعتقاده أفضلية الافضل على طبقماوردالحكم به تفصيلا فى التفصيلى واجمالا فى الاجمالى ثم ان تعين لنا نص من الشارع على الوجه الذى جعله سببا لأفضليته قلنا به والا أمسكنا عنه لأن التفضيل راجع لاختيار البارى سبحانه وتعالى لالعلة موجبة وجدتفى الفاضل وفقدت من المفضول ولله تعالى أن يفضل من عبيده من يشاء بما يشاء على من يشاء منهم وان كان كل واحد منهم كاملا فىنفسه بالغا من ذلك الغاية التى تليق به من غير أن يحمله على ذلك وصف يكون فيهم وذلك مما يجب له سبحانه بحق ربوبيته وسيادته ، ولا شك أن الفاضل لا يجب أن يفضل بما لم يجعله الله سببا لتفضيله وأن المفضول لا يجب أن يجعل مفضولا لسبب لم يجعله الله تعالى سببا لمفضوليته وأن الله تعالى لا يحب أن يفاضل أحد بين احبابه بما لم يجعله سببا للمفاضلة فتعين أن الصواب ما أشير اليه من الوقوف على المنقول بالنص القرآنى والثابت عن الرسول صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه تفصيلا واجمالا وبالله التوفيق . ثم بعد أولى العزم ((ف)) الواجب اعتقاده أن يليهم فى الافضلية سائر ((الرسل))المكرمين بالرسالة فهم أفضل من الانبياء عليهم السلام غير الرسل وبه يعلم ان الرسالة أفضل من النبوة ولو فى شخص واحد خلافا للعز ابن عبدالسلام

(١) من تفسير البغوى

فى قوله أن نبوة النبى أفضل من رسالته لقصرها على الحق تعالى اذ هى الايحاء بما يتعلق بالبارى جل شأنه من غير ارتباط له بالخلق اما مع تعدد المحل فلا خلاف فى أفضلية الرسالة على النبوة ضرورة جمع الرسالة لها مع زيادة على أن الصحيح المعتمد أفضلية الرسالة مطلقا والله تعالى أعلم ((ثم)) الافضل بعد الرسل الكرام ((الانبيا)) عليهم أفضل الصلاة والسلام وهم متفاوتون فى الفضيلة فبعضهم أفضل من بعض كما قال تعالى ((تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض)) فهذا واجب الاعتقاد تفصيلا فيمن علم منهم وعلم حكمه تفصيلا ولو بدليل ظنى صحيح واجمالا فيما علم منهم وعلم حكمه اجمالا ولهذا قال ((بالجزم)) السديد والقطع المفيد للحكم المذكور من غير شك ولا ترديد حسبما تقدم على النهج السديد الا قوم ، وعلم مما ذكر ولا سيما من قوله بالجزم رد زعم من زعم ان الولى قد يبلغ درجة النبى كما يحكى عن الكرامية ، بل زعم بعض الصوفية أن الولاية أفضل من النبوة ، قالوا لأنها تنبىء عن القرب والكرامة كما هو شأن خواص الملك والمقربين منه والنبوة عن الانباء والتبليغ كما هو حال من أرسله الملك الى الرعايا لتبليغ الاحكام ، قالوا الا أن الولى لا يبلغ درجة النبى بخلاف العكس لأن نبوة النبى لا تكون بدون الولاية . وقد شنع شيخ الاسلام ابن تيمية على من يزعم ذلك فى محلات من كتبه وقال ان ذلك مخالف لدين الاسلام واليهود والنصارى، وقال فى جواب المسائل الاسكندرية بعد ماذكر شنيع مقالاتهم وزيف ترهاتهم : ولهذا يقولون ان الولاية أعظم من النبوة والنبوة أعظم من الرسالة وينشدون

رد بعض المزاعم فى فضل الولاية وختمها وحقيقة النبوة

مقام النبوة فى برزخ فويق الرسول ودون الولى

ويقولون أن ولاية النبى أعظم من نبوته ونبوته أعظم من رسالته ، ثم قد يدعي أحدهم أن ولايته وولاية سائر الاولياء تابعة لولاية خاتم الاولياء وأن جميع الانبياء والرسل من حيث ولايتهم (التى) هى أعظم عندهم من نبوتهم ورسالتهم انما يستفيدون العلم بالله الذى هو عندهم القول بوحدة الوجود من مشكاة خاتم الاولياء ، وشبهتهم فى أصل ذلك ان قالوا

الولى يأخذ عن الله بغير واسطة والنبى والرسول يأخذ بواسطة ، ولهذا جعلوا ما يلقى فى نفوسهم ويجعلونه من باب المخاطبات الالهيةوالمكاشفات الربانية أعظم من تكليم موسى بن عمران عليه السلام ، قال وهى فى الحقيقة ايحاءات شيطانية ووساوس نفسانية (وان الشياطين ليوحون الى أوليائهم) ولو هدوا لعلموا أن أفضل ما عند الولى ما يأخذه عن الرسول لا ما يأخذه عن قلبه ، وأن أفضل الاولياء الصديقون وأفضلهم أبو بكر رضى الله عنه وكان هو أفضل من عمر مع أن عمر كان محدثا كما ثبت فى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال « قد كان قبلكم فى الامم محدثون فان يكن فى أمتى أحد فعمر » وفى الترمذى « لو لم أبعث فيكم لبعث فيكم عمر » وقال « ان الله تعالى ضرب الحق على لسان عمر وقلبه » ومع هـذا فالصديق الذى تلقى من مشكاة النبوة مطلقا أفضل لأن مأخذه معصوم من الخطأ والمحدث ليس معصوما بل يقع له الصواب والخطأ ، ولهـذا يحتاج أن يزنه بميزان النبوة المعصومة ، وقال أبو مجلز فى قوله تعالى (ادعوا ربكم تضرعا وخفية انه لا يحب المعتدين) قال ان يسأل منازل الانبياء • ثم تكلم على زعمهم ما زعموا فى خاتم الاولياء وان هذه كلمة لا حقيقة لفضلها ومزيتها وانما تكلم أبو عبد الله الحكيم الترمذى بشىء من ذلك غلطا لم يسبق اليه ولم يتابع عليه ومسمى هذا اللفظ هو آخر مؤمن تقى يكون وليس ذلك أفضل الاولياء باتفاق المسلمين بل أفضل الاولياء سابقهم وأقربهم الى الرسول صلى الله عليه وسلم وهو أبوبكر ثم عمر رضى الله عنهما كما يأتى اذ الاولياء يستفيدون من الانبياء كما يأتى فأقربهم الى الرسول أفضلهم بخلاف خاتم الرسل فان الله تعالى أرسله بالرسالة لم يحله على غيره فقياس مسمى أحد اللفظين على الآخر فى وجوب كونه أفضل من أفسد القياس • وقال شيخ الاسلام روح الله روحه فى مكان آخر فى التنكيت على من جعل خاتم الاولياء أفضل من الرسل والانبياء : وزعم هؤلاء أن الرسل جميعهم والانبياء يستمدون علم المعرفة بالله تعالى من مشكاة الذى جعلوه خاتم الاولياء وجعلوه أفضل من خاتم الرسل من جهة الحقيقة والعلم به وأنه يأخذ عن الاصل من حيث

يأخذ الملك الذى يوحى الى خاتم الرسل فان خاتم الرسل انما هـــو سيد فى الشفاعة فسيادته فى هذا المقام الخاص لا على العموم ، قال هؤلاء وليس هذا العلم الا لخاتم الرسل وخاتم الاولياء وما يراه أحد من الاولياء الا من مشكاة الولى الخاتم حتى أن الرسل لا يرونه متى رأوه الا من مشكاة خاتم الاولياء فان الرسالة والنبوة أعنى نبوة التشريع ورسالتـــه ينقطعان والولاية لا تنقطع أبدا فالمرسلون من (حيث) كونهم أوليـــاء لا يرون ما ذكرناه يعنى من الحقيقة والعلم بالله ومعرفته الا من مشكاة خاتم الاولياء فكيف من دونهم من الاولياء وان كان خاتم الاولياء تابعـا فى الحكم لما جاء به خاتم الرسل من التشريع فذلك لا يقدح فى مقامه ولا يناقض ما ذهب اليه هؤلاء فى مايزعمون، قالوا فانه من وجه يكون أنزل كما أنه من وجه يكون أعلى • وذكر شيخ الاسلام عنهم من مثل هذه الترهات أشياء كثيرة ينبو عنها السمع وناقشهم عليها مناقشة تامة ، ولا يخفى على أحد من أهل الملة أن أفضل الخلق الرسل فالانبياء فالصحـــابة فالاولياء وان دخل بعضهم فى بعض فى الجملة والله تعالى الموفق

فصل فيمــا يجب ويجــوز ويستحيل فى حق الانبياء (ص)

((فصـــل

فيما يجب للأنبياء عليهم السلام وما يجوز عليهم وما يستحيل فى حقهم))

قد تقدم فى أول الباب شروط من يكرمه الله بالنبوة من الذكـــورة والحرية والقوة على أعباء ما حملوه ونحو ذلك وذكر هنا ما يجب اعتقاده فى حقهم

((وان كل واحد منهم سـلم   من كل مانقص ومن كفر عصم))
((كذاك من افك ومن خيانه   لوصفهم بالصدق والامانه))

((و)) هو ان يعرف كل مسلم ((أن كل واحد منهم)) أى من الانبياء الكرام والرسل العظام ((سلم)) وتنزه ((من كل ما)) زائدة لاقامة الوزن ومزيد التأكيد عما سلموا منه ونزهوا عنه ((نقص)) يؤدى الى ازالة الحشمة واسقاط المروءة وألحقت بفاعلها الازراء والخسة كسرقـة لقمة وتطفيف بحبة لقيام الاجماع على عصمتهم من كل ما يؤدى الى الازراء والدناءة لأن الله تعالى يقول (لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة)وقال

(قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله) ومن المعلوم عموم ذلك وليس فى شيء من فعل ما يزرى مايوجب حب الله ولا حسن التأسى والاقتداء فى ذلك فوجب تنزيههم عنه وعن كل عيب وسلامتهم من كل ما يوجب الريب ((و)) ان كل واحد منهم ((من كفر)) بجميع أنواعه ((عصم)) قبل النبوة وبعدها والعصمة المنعة والعاصم المانع الحامى والاعتصام الامتساك بالشيء افتعال منه ومنه شعر أبى طالب * ثمال اليتامى عصمة للأرامل * أى يمنعهم من الضياع والحاجة قال شيخ الاسلام ابن تيمية روح الله روحه : الناس متفقون على أن الانبياء معصومون فيما يبلغونه عن الله فلا يستقر فى ذلك خطأ باتفاق المسلمين ولكن هل يصدر منهم ما يستدركه الله تعالى فينسخ ما يلقى الشيطان ويحكم الله آياته ؟ هذا فيه قولان ، قال والمأثور عن السلف يوافق القول بذلك ، قال واما العصمة فى غير ما يتعلق بتبليغ الرسالة فللناس فيه نزاع هل هو ثابت بالعقل أو بالسمع ومتنازعون فى العصمة من الكبائر والصغائر أو من بعضها أو هل العصمة انما هو فى الاقرار عليها لا فى فعلها ، وقيل لا يجب القول فى العصمة الا بالتبليغ فقط قال وهل تجب العصمة من الكفر والذنوب قبل البعثة أم لا ؟ قال والذى عليه الجمهور الموافق للآثاراثبات العصمة من الاقرار على الذنوب مطلقا ، قال ووقوع الذنب اذا لم يقر عليه لم يحصل منه تنفير ولا نقص فان التوبة النصوح يرفع بها صاحبها أكثر مما كان أولا ، وكذلك التأسى بهم انما هو فيما أقروا عليه بدليل النسخ ونحوه . انتهى . وقال ابن حمدان فى نهاية المبتدئين : وانهم معصومون فيما يؤدون عن الله تعالى وليسوا معصومين فى غير ذلك من الخطأ والنسيان والسهو والصغائر فى الاشهر ، لكن لا يقرون على ذلك ، وقال ابن عقيل فى الارشاد انهم عليهم الصلاة والسلام لم يعتصموا فى الافعال بل فى نفس الأداء ، قال ولا يجوز عليهم الكذب فى الاقوال فيما يؤدونه عن الله تعالى . انتهى . وقال الحافظ زين الدين العراقى : النبى صلى الله عليه وسلم معصوم من تعمد الذنب بعد النبوة بالاجماع ولا يعتد بخلاف بعض الخوارج والحشوية الذين نقل عنهم تجويز ذلك ، ولا بقول من

قال من الروافض بجوازها تقية ، وانما اختلفوا فى جواز وقوع الصغيرة سهوا فمنعه الاستاذ أبو اسحق الاسفرايني والقاضى عياض واختاره تقى الدين السبكى قال وهو الذى ندين الله به وأجازه كثير من المتكلمين ، قال القاضى عياض : أجمع المسلمون على عصمة الانبياء من الفواحش والكبائر الموبقات ، قال وقد ذهب بعضهم الى عصمتهم من مواقعة المكروه قصدا . انتهى . وقال العلامة السعد التفتازانى وفى عصمتهم من سائر الذنوب تفصيل وهو أنهم معصومون عن الكفر ، قبل الوحى وبعده بالاجماع وكذا عن تعمد الكبائر عند الجمهور خلافا للحشوية ، وانما الخلاف فى أن امتناعه بدليل السمع أو العقل وأما سهوا فجوز الاكثرون ، قال واما الصغائر فتجوز عمدا عند الجمهور خلافا للجبائى وأتباعه وتجوز سهوا بالاتفاق الا ما يدل على الخسة كسرقة لقمة والتطفيف بحبة لكن المحققين شرطوا أن ينهوا عنه فينتهوا منه ، هذا كله بعد الوحى . قال واما قبله فلا دليل على امتناع صدور الكبيرة ، وذهب المعتزلة الى امتناعها ، لانها توجب النفرة المانعة من اتباعهم فتفوت مصلحة البعثة ، قال السعد والحق منع ما يوجب النفرة كعهر الامهات والفجور والصغائر الدالة على الخسة ، ومنع الشيعة صدور الصغيرة والكبيرة منهم قبل الوحى وبعده ولكنهم جوزوا اظهار الكفر تقية . انتهى .

تنبيه لم يكن صلى الله عليه وسلم على دين قومه قط

(تنبيـــه)

لم يكن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم قبل البعثة على دين قومه بل ولد مسلما مؤمنا كما قال ابن عقيل وغيره ، قال فى نهاية المبتدئين قال ابن عقيل لم يكن صلى الله عليه وسلم على دين سوى الاسلام ولا كان على دين قومه قط بل ولد نبينا مؤمنا صالحا على ماكتبه الله وعلمه من حاله . انتهى . وقال الحافظ ابن رجب فى كتـــابه لطـــائف المعارف : وقـــد اســـتدل الامام احمـــد رضى الله عنه بحديث العرباض بن سارية الســـلمى رضى الله عنـــه عن النبى صلى الله عليـــه وسلم انه قال : « انى عند الله في أم الكتاب لخاتم النبيين وان آدم عليه السلام لمنجدل في طينته » - رواه الامام احمد وروى معناه من حديث أبي امامة الباهلي رضى الله عنه

ومن وجوه أخر مرسلة وخرج الحاكم أيضا حديث العرباض وقال صحيح الاسناد - على أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يزل على التوحيد مذ نشأ ورد بذلك على من زعم غير ذلك . قال الحافظ بل يستدل بذلك على انه صلى الله عليه وسلم ولد نبيا فان نبوته وجبت له من حين أخذ الميثاق حيث استخرج من صلب آدم فكان نبيا من حينئذ لكن كانت مدة خروجه الى الدنيا متأخرة عن ذلك وذلك لا يمنع كونه نبيا قبل خروجه كمن يولى ولاية ويؤمر بالتصرف فيها في زمن مستقبل فحكم الولاية ثابت له من حين ولا يته وان كان تصرفه متأخرا الى حين مجيء الوقت • قال الحافظ قال حنبل قلت لأبي عبد الله يعني الامام أحمد رضى الله عنه من زعم ان النبي صلى الله عليه وسلم كان على دين قومه قبل أن يبعث ؟ قال : هذا قول سوء ينبغى لصاحب هذه المقالة أن يحذر كلامه ولا يجالس • قلت ان جارنا اناقد أبا العباس يقول هذه المقالة • قال قاتله الله وأي شيء أبقى اذا زعم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان على دين قومه وهم يعبدون الأصنام ؟ قال الله تعالى مخبرا عن عيسى عليه السلام (ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد) ثم قال الامام أحمد رضى الله عنه ماذا يحدث الناس من الكلام هؤلاء أصحاب الكلام من أحب الكلام لم يفلح سبحان الله لهذا القول، واحتج الامام أحمد برؤيا أمه النور عند ولادته حتى أضاءت له قصور الشام قال وليس ذلك عندما ولدت رأت ذلك • وقيل وقبل أن يبعث كان طاهرا مطهرا من الاوثان ، ثم قال الامام أحمد احذروا الكلام فان أصحاب الكلام لا يؤل أمرهم الى خير . أخرجه أبو بكر عبدالعزيز في كتاب السنة . قال الحافظ ابن رجب ومراد الامام أحمد الاستدلال بتقديم البشارة بنبوته من الانبياء من قبل خروجه الى الدنيا وولادته وهذا هو الذى يدل عليه حديث العرباض • انتهى كلام الحافظ ابن رجب ملخصا وقد صرح فيه بنص الامام ان النبى صلى الله عليه وسلم ولد على الاسلام والله أعلم•

((كذاك)) كل واحد من الانبياء والمرسلين قد عصم ((من أفك)) أي من كذب قال في النهاية الافك في الاصل الكذب قال في القاموس افك كضرب وعلم افكا بالكسر والفتح (والتحريك و) أفوكا كذب كأفك فهو

أفاك وأفيك وأفوك . وفي حديث عرض نفسه صلى الله عليه وسلم على قبائل العرب لقد افكَ قوم كذبوك وظاهروا عليك . أي صرفوا عن الحق ومنعوا منه يقال افكه يأفكه أفكا اذا صرفه عن الشيء . والحاصل أن أنبياء الله ورسله عليهم الصلاة والسلام معصومون من الكذب ((و)) معصومون ((من خيانة)) ولو قلت ((ل)) وجوب ((وصفهم) عليهم الصلاة والسلام ((بالصدق)) الذي هو ضد الكذب ((و)) وجوب وصفهم بـ ((الأمانة)) التي هي ضد الخيانة ، والضدان لا يجتمعان ، فالصدق واجب في حقهم عقلا وشرعا ، وهو مطابقة أخبارهم للواقع ايجابا وسلبا اذ لو جاز عليهم الكذب الذي هو عدم مطابقة الواقع لجاز الكذب في خبره تعالى لتصديقه اياهم بالمعجزة المنزلة منزلة قوله تعالى صدق عبدي في كل ما يبلغ عني ، وتصديق الكاذب من العالم بكذبه محض الكذب والكذب على الله تعالى محال فلزومه كذلك . وقد أجمعت الامة على أن ما كان طريقه الابلاغ فالانبياء والرسل معصومون فيه من الاخبار عن شيء منه بخلاف الواقع لا قصدا ولا عمدا ولا سهوا ولا غلطا على تفصيل في بعض ذلك يعلم مما مر . وقال شيخ الاسلام ابن تيمية قدس الله سره : يجب على الخلق الاقرار بما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم فما جاء به القرآن العزيز أو السنة المعلومة وجب على الخلق الاقرار به جملة وتفصيلا عند العلم بالتفصيل فلا يكون الرجل مؤمنا حتى يقر بما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم وهو تحقيق شهادة ان لا اله الا الله وان محمدا رسول الله فمن شهد انه رسول الله شهد أنه صادق فيما يخبر به عن الله تعالى فان هذه حقيقة الشهادة بالرسالة اذ الكاذب ليس برسول فيما يكذبه وقد قال تعالى (ولو تقول علينا بعض الاقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين) وهو عرق في القلب اذا انقطع مات صاحبه ، وبالجملة فهذا معلوم بالاضطرار من دين الاسلام لا يحتاج الى تقريره ، وفي قصة هرقل مع أبي سفيان كما في الصحيح عند سؤال هرقل عظيم الروم أبا سفيان عن أوصاف النبي صلى الله عليه وسلم قال هل كنتم تتهمونه بالكذب ؟ أي على الناس قال لا وان كان ليدعى فينا بالامين ، فقال لقد علمت انه لم يكن ليدع الكذب

على الناس ثم يكذب على الله تعالى • فيشعر هذا ان عقلاء الامم مطبقون على استحالة كذب الانبياء عليهم الصلاة والسلام •

وقوله والامانة أى يجب لهم الامانة وهى ضد الخيانة وقوله تعالى (انا عرضنا الامانة) أى الفرائض المفروضة او النية التى يعقدها فيما يظهره باللسان من الايمان ويؤديه من جميع الفرائض فى الظاهر لان الله تعالى ائتمنه عليها ولم يظهرها لأحد من خلقه فمن اضمر من التوحيد مثلما اظهر فقد أدى الامانة كما فى القاموس ، وقال فى النهاية : الامانة تقع على الطاعة والعبادة والوديعة والثقة والامان • والمراد بها فى حق رسل الله تعالى وانبيائه عليهم الصلاة والسلام اتصافهم بحفظ ظواهرهم وبواطنهم من التلبس بمنهى عنه ولو نهى كراهة عند بعض العلماء أى كونهم لا يتصور أن يكونوا الا كذلك اذ لو جاز عليهم ان يخونوا الله تعالى بفعل محرم او مكروه على قول لجاز أن يكون ذلك المنهى عنه من حيث انه منهى منه مأمورا به لان الله تعالى أمرنا باتباعهم فى اقوالهم وافعالهم من غير تفصيل وهو تعالى لا يأمر بمحرم ولا مكروه فقد قال تعالى (ما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) والمراد ما لم تقم قرينة على الخصوصية كنكاح ازيد من اربع فتختص بهم دون أممهم وفى الآية الكريمة (يا أيها الرسول بلغ ما انزل اليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس) قال شيخ الاسلام ابن تيمية روح الله روحه : ومعلوم انه صلى الله عليه وسلم قد بلغ الرسالة كما امر ولم يكتم منها شيئا فان كتمان ما انزله الله تعالى اليه يناقض موجب الرسالة كما ان الكذب يناقض موجب الرسالة ، قال : ومن المعلوم فى دين المسلمين انه معصوم من الكتمان لشىء من الرسالة كما انه معصوم من الكذب فيها والامة تشهد له بأنه بلغ الرسالة كما امر الله تعالى وبين ما انزل اليه من ربه وقد وجب على كل مسلم تصديقه فى كل ما اخبر به •

تتمة فى وجوب التادب فى حقه (ص)

(تتمة) (١) ذكر ابو الفضل القاضى عياض رحمه الله تعالى فى كتابه الشفا انه يجب على المتكلم فيما يجوز على النبى صلى الله عليه وسلم وما لا

---

(١) مخ فائدة

يجوز على طريق المذاكرة والتعليم ان يلتزم في كلامه عند ذكره عليـــه الصلاة والسلام وذكر تلك الاحوال الواجب توقيره وتعظيمه ويراقب حال بيانه ولا يهمله وتظهر عليه علامات الادب عند ذكره فاذا ذكر ما قاســاه عليه السلام من الشدائد ظهر عليه الاشفاق والارتماض والغيظ على عدوه ومودة الفداء للنبى صلى الله عليه وسلم لو قدر عليه والنصرة له لو أمكنته، واذا اخذ فى ابواب العصمة وتكلم على مجارى اعماله واقواله عليه السلام تحرى احسن اللفظ وآدب العبارة ما امكنه واجتنب بشع ذلك وهجر من تلك العبارة ما يقبح كلفظة الجهل والكذب والمعصية ، فاذا تكلم فى الاقوال قال هل يجوز الخلف فى القول والاخبار بخلاف ما وقع سهوا او غلطا ونحوه من العبارة وتجنب لفظة الكذب جملة واحدة ، واذا تكلم على العلم قال هل يجوز أن لا يعلم الا ما علم وهل يمكن ان لا يكون عنده علم من بعض الاشياء حتى يوحى اليه ؟ ولا يقول يجهل لقبح لفظه وشناعته ، واذا تكلم فى الافعال قال هل يجوز منه المخالفة فى بعض الاوامـــر والنواهى ومواقعة بعض الصغائر ، فهو آدب واولى من قوله هل يجوز ان يعصى او ان يذنب او ان يفعل كذا وكذا من انواع المعاصى ، فهذا من حق توقيره عليه الصلاة والسلام وما يجب له من توقير واعظام قدر ، واما ما يورده على جهة النفى والتنزيه عنه فلا حرج فى شرح العبارة وتصريحها كقوله لا يجوز عليه السلام الكذب جملة ولا اتيان الكبائر بوجه ولا الجور فى الحكم على حال . ولكن مع هذا يجب ظهور توقيره وتعظيمه عنـــد ذكره مجردا فكيف عند ذكر مثل هذا ؟ وقد كان السلف يظهر عليهم حالات شديدة عند مجرد ذكره صلى الله عليه وسلم . انتهى ملخصا . ومثله فى ذلك جميع الانبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين . وقد فهم مما تقدم الواجب فى حقهم والمستحيل عليهم مما عصموا منه صلوات الله وسلامه عليهم واشار الى الجائز فى حقهم بقوله :

وجائز فى حق كل الرسل ‏ ‏ ‏ النوم والنكاح مثل الاكل

((وجائز)) عقلا وشرعا ((فى حق كل)) الانبياء و ((الرســـل)) عليهم الصلاة والسلام ، وهذا القسم وان فهم من ذكر ما يجب لهـم وما

يستحيل عليهم فان ما لم يكن واجب الثبوت لهم ولا واجب النفى عنهم فوجوده وعدمه جائز في حقهم لكن نبه بما ذكره لايضاح قسم الجائز عليهم صلوات الله وسلامه عليهم ((النوم))

وهو رحمة من الله تعالى على عباده لتستريح أبدانهم عندتعبهم ،وهو غشية ثقيلة تقع على القلب تمنع المعرفة بالاشياء لكن نبينا صلى الله عليه وسلم كان تنام عينه ولا ينام قلبه بل قلبه صلى الله عليه وسلم كان أبدا مستيقظا متهيئا لادراك ما يلقى اليه من ربه ، ومثل النوم مما هو جائز فى حق الانبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين الجلوس والمشى والبكاء والضحك وكل ما هو من الخواص البشرية المباحة على ما هو الحق من جواز وقوع المباح منهم ((والنكاح)) والتسرى وجماع النساء فيجوز عليهم وطء النساء بالملك بشرط كونهن مسلمات أو مطلقا على المعتمد ونحو ذلك ((مثل الاكل)) والشرب للحلال وكذا يجوز عليهم كل عرض بشرى ليس بمحرم ولا مكروه ولا مباح مزر ولا مما تعافه الانفس ولا مما يؤدى الى النفرة حتى انه لا يجوز عليهم الاحتلام ، والحاصل انهم عليهم الصلاة والسلام من البشر وارسلوا الى البشر فظواهرهم خالصة للبشر يجوز عليها من الآفات والتغييرات والآلام والاسقام وتجرع كأس الحمام ما يجوز على البشر مما لا نقيصة فيه فان نبينا صلى الله عليه وسلم كان يمرض ويتألم ويتشكى وكان يصيبه الحر والقر والجوع والعطش والغضب والضجر والنصب والتعب ونحو ذلك مما لا نقص عليه فيه ولا يوجب الاتصاف به نوع نفرة عند كل نبيه . والله تعالى أعلم .

فصل فى الصحابة

((فصل))

فى ذكر الصحابة الكرام رضى الله عنهم

اعلم انه لما كان أفضل خلق الله تعالى نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم ثم بقية اولى العزم ثم الرسل ثم الانبياء عليهم الصلاة والسلام ثم بعد الانبياء أفضل البشر الصحابة رضى الله عنهم - ويأتى ذكر الخلاف فى التفاضل بينهم وبين الملائكة - اعقب ذكر الانبياء بالصحابة حسب اصطلاح اصحابنا ومن وافقهم وبدأ بأفضلهم الامام على التحقيق وخليفة رسول

الله صلى الله عليه وسلم بالتصديق الصديق الاعظم أبو بكر الصديق رضى الله عنه فقال :

تفضيل الصديق

((وليس فى الامة بالتحقيق فى الفضل والمعروف كالصديق))

((وليس فى الامة)) أى أمة الاسلام وهم أمة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فأل فيها للعهد الذهنى وتقدم انها أفضل الامم فيكون الصديق أفضل البشر بعد سائر الانبياء ((بالتحقيق)) الثابت المنصوص والتدقيق الباث المخصوص ((فى الفضل)) بجميع أنواع الفضائل ((و)) بذل ((المعروف)) من مكارم الاخلاق ومحاسن الشيم ((ك)) أبى بكر وكان اسمه فى الجاهلية عبد الكعبة كما قاله ابن عبد البر فسماه النبى صلى الله عليه وسلم عبد الله ولقبه بـ ((الصديق)) قال ابن قتيبة ولقبه النبى صلى الله عليه وسلم عتيقا لجمال وجهه وكان على بن أبى طالب رضى الله عنه يحلف بالله ان الله تعالى أنزل اسم أبى بكر رضى الله عنه من السماء الصديق فهو أبو بكر الصديق عبد الله بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب ، يجتمع نسبه مع نسب النبى صلى الله عليه وسلم فى مرة بن كعب ، وأم الصديق أم الخير سلمى بنت صخر بن عمرو بن كعب بنت عم أبيه ماتت هى وأبوه أبو قحافة عثمان بن عامر بن عمرو مسلمين رضوان الله عليهم ، فان الصديق رضى الله عنه جاء بأبيه يوم الفتح الى النبى صلى الله عليه وسلم فاسلم وتوفى بعد موت أبى بكر رضى الله عنهما فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه • وهو أول الناس ايمانا بالنبى صلى الله عليه وسلم على قول جمع من أهل العلم وفى سنن الترمذى من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال أبو بكر رضى الله عنه ألست أول من أسلم ؟ ألست صاحب كذا ؟ ألست صاحب كذا ؟ الحديث • وقيل بل أول من آمن على بن أبى طالب رضى الله عنه ونقل الحاكم اتفاق المؤرخين عليه ، واستنكر هذا منه ، وقيل زيد بن حارثة ، وقيل خديجة ، وادعى الثعلبى الاجماع فيه وان الخلاف انما هو فى من بعدها وصوبه كثير واستظهره البرماوى وغيره وقيل أولهم بلال بن حمامة وقيل خباب بن الارت حكاهما المسعودى ،

وقيل خالد بن سعيد بن العاصي ونقل الماوردى فى اعلام النبوة عن ابن قتيبة أن أول من آمن به أبو بكر بن أسعد(١) الحميرى ونقل ابن سبع في الخصائص عن عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه انه قال كنت أولهم اسلاما . ويروى عن أبى حنيفة الامام رضى الله عنه انه قال : الاورع ان يقال أول من أسلم من الرجال الاحرار أبو بكر ومن الصبيان على ومن النساء خديجة ومن الموالى زيد ومن العبيد بلال . وهذا من أحسن ما قيل لجمعه الاقوال . وأسلم على يد الصديق عثمان بن عفان والزبير وطلحة وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبى وقاص . قال الحافظ ابن الجوزى فى منتخب المنتخب : وهو اول من جمع القرآن ، و (أول من) قاء تحرجا من الشبهات ، وأول من سمى القرآن مصحفا ، وأول من سمى خليفة ، وأخرج الامام أحمد عن ابن أبى مليكة قال قيل لابى بكر يا خليفة الله فقال أنا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا راض به . وأول من ولى الخلافة وأبوه حى ، وأول خليفة مات وأبوه حى ، وأول من اتخذ بيت المال ، ومناقبه رضى الله عنه لا تحصى ، ومزاياه ومآثره لا تستقصى ، وهو أفضل الصحابة وخيرهم باجماع أهل السنة فقد أجمع أهل السنة والجماعة على ان أفضل الصحابة والناس بعد الانبياء عليهم الصلاة والسلام أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم على ثم سائر العشرة ثم باقى أهل بدر ثم باقى أهل احد ثم باقي أهل بيعة الرضوان ثم باقي الصحابة ، هكذا اجماع أهل الحق فأبو بكر الصديق أفضل هذه الامة بعد نبيها صلى الله عليه وسلم لا ينازع في ذلك الا زائغ ، وقد اخرج الامام أحمد وغيره من أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه أنه قال : خير هذه الامة بعد نبيها أبو بكر وعمر . قال الحافظ الذهبى : هذا متواتر عن على رضى الله عنه فلعن الله الرافضة ما أجهلهم . وقال شيخ الاسلام ابن تيمية في الفتاوى المصرية : قد نقل عن على رضى الله عنه من نحو ثمانين وجها : خير هذه الامة بعد نبيها أبو بكر وعمر رضى الله عنهما ، وذكر نحو ذلك لابن الحنفية كما فى البخارى والرافضة تكذبه فهم مع على كالنصارى مع المسيح واليهود مع موسى عليهما

(١) كذا فى الاصلين والصواب « ابو كرب اسعد » ولا معنى لايراد هذا هنا فان أبا كرب هلك قبل الاسلام بأمد طويل .

السلام • وأخرج الحاكم عن النزال بن سبرة (١) قال قلنا لعلى بن ابى طالب رضى الله عنه يا أمير المؤمنين أخبرنا عن أبى بكر ، فقال : ذاك امرؤ سماه الله الصديق على لسان جبريل وعلى لسان محمد كان خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم رضيه لديننا فرضيناه لدنيانا • اسناده جيد • وأخرج الدار قطني والحاكم عن أبى تحيا (٢) قال لا أحصى كم سمعت عليا يقول على المنبر : ان الله سمى ابا بكر على لسان نبيه صديقا • وأخرجه الطبرانى بسند صحيح عن حكيم بن سعد قال سمعت عليا يحلف بالله لأنزل الله اسم ابى بكر من السماء الصديق • وقال على رضى الله عنه فى قوله تعالى : (والذى جاء بالصدق وصدق به اولئك هم المتقون) هو أبو بكر فأخرج البزار وان عساكر ان عليا رضى الله عنه قال فى تفسيرها ان الذى جاء بالحق هو محمد والذى صدق به هو أبو بكر • قال ابن عساكر هكذا الرواية بالحق ولعلها قراءة لعلى • انتهى • وقيل انه انما سمى صديقا لانه أول من صدق بناء على أنه أول من آمن ولهذا قال أبو محجن الثقفى فيه :

وسميت صديقا وكل مهاجر سواك يسمى باسمه غير منكر
سبقت الى الاسلام والله شاهد وكنت جليسا فى العريش المشهر

وأول ما اشتهر أبو بكر بهذا الاسم صبيحة ليلة الاسراء فقد أخرج الحاكم فى المستدرك عن أم المؤمنين عائشة الصديقة رضى الله عنهما قالت : جاء المشركون الى أبى بكر فقالوا هل لك الى صاحبك يزعم انه اسرى به الليلة الى بيت المقدس ، قال أو قال ذلك ؟ قالوا نعم ، قال لقد صدق انى لاصدقه بابعد من ذلك بخبر السماء غدوة وروحة • ولذلك سمى أبو بكر الصديق • اسناده جيد ، وقد ورد ذلك من حديث أنس بن مالك وأبى هريرة عند ابن عساكر ومن حديث أم هانىء أخرجه الطبرانى • واخرج سعيد بن منصور فى سننه ثنا أبو معشر عن أبى وهب (٣) مولى أبى هريرة قال لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أسرى به فكان بذى طوى

---

(١) فى الاصلين « ميسرة » خطأ
(١) اسمه حكيم بن سعد ، ووقع فى الاصلين « أبى دحى » خطأ
(٣) فى الاصلين « بن وهب » خطأ

قال يا جبريل ان قومى لا يصدقونى قال يصدقك أبو بكـر وهو الصديق وأخرجه الطـبراني في الاوسط موصولا عن أبي وهب عن أبي هـريرة رضى الله عنه ، وقد اخرج عبد الله بن الامام احمد فى زوائد الزهـد والطبرانى فى الكبير عن الشعبى قال سألت ابن عباس رضى الله عنهما أى الناس كان أول اسلاما ؟ قال : أبو بكر الصديق ألم تسمع قول حسان :

اذا تذكرت شجوا من أخى ثقة ... فاذكر أخاك أبا بكر بما فعـلا
خـير البرية أتقاها وأعـدلها ... بعـد النبى وأوفاها بما حملا
والثانى التالى المحمود مشـهده ... وأول الناس منهم صدق الرسلا

وأخرج أبو نعيم عن فرات بن السائب قال سألت ميمون بن مهـران قلت على أفضل أم أبو بكر وعمر ؟ قال فارتعد حتى سقطت عصاه من يده ثم قال ما كنت أظن انى أبقى الى زمان يعدل بهما للـه درهما كانا رأس الاسلام . قلت فأبو بكر كان أول اسلاما أم على ؟ قال والله لقد آمن أبو بكر بالنبي صلى الله عليه وسلم زمن بحيرا الراهب حين مر به واختلف فيما بينه وبين خديجة حتى أنكحها اياه وذلك كله قبل ان يولـد على . واخرج ابن اسحق عن ميسرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اذا برز سمع من يناديه يامحمد فاذا سمع الصوت انطلق هاربا فأسر ذلك الى أبى بكر وكان صديقا له فى الجاهلية . وفى صحيح البخـارى عن أبى الدرداء رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « هل أنتم تاركون لى صاحبى انى قلت ياأيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا فقلتم كذبت وقال أبو بكر صدقت »

قال الحافظ الذهبى وغيره من حفاظ الاسلام وائمتهم صحب أبو بكر رضى الله عنه النبى صلى الله عليه وسلم الى ان توفى لم يفارقه سفرا ولا حضرا الا فيما اذن له صلى الله عليه وسلم فى الخروج فيه من حج أو غزو وشهد معه المشاهد كلها وهاجر معه وترك عياله وأولاده رغبـة فى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو رفيقه فى الغار قال تعالى (ثانى اثنين اذ هما فى الغار اذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا) وانفق ماله عـلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو اجود الصحابة قال تعالى (وسيجنبها

الاتقى الذى يؤتى ماله) الى آخر السورة قال الحافظ ابن الجوزى اجمعوا انها نزلت فى حق أبى بكر الصديق رضى الله عنه • وأخرج الامام احمد عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما نفعنى مال قط ما نفعنى مال أبى بكر الصديق » فبكى أبو بكر وقال هل أنا ومالى الا لك يا رسول الله • واخرج أبو يعلى من حديث عائشة رضى الله عنها مرفوعا مثله • قال الحافظ ابن كثير رويناه ايضا من حديث على وابن عباس وأنس وجابر بن عبد الله وأبى سعيد الخدرى رضى الله عنهم • وأخرجه الخطيب عن سعيد بن المسيب مرسلا وزاد وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقضى فى مال أبى بكر كما يقضى فى مال نفسه • وقد أخرج ابن عساكر من طرق عن عائشة وعروة بن الزبير ان أبا بكر رضى الله عنه أسلم يوم أسلم وله أربعون ألف دينار فانفقها على رسول الله صلى الله عليه وسلم • وفى صحيح البخارى عن محمد بن على بن ابى طالب رضى الله عنهما قال قلت لابى : أى الناس خير بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : أبو بكر قلت : ثم من • قال : عمر ، وخشيت ان يقول عثمان قلت : ثم أنت ؟ قال : ما أنا الا رجل من المسلمين • وفى الصحيحين عن عمرو بن العاص رضى الله عنه قال قلت يارسول الله أى الناس احب اليك؟ قال : عائشة،قلت من الرجال : قال أبوها ،قلت: ثم ؟ قال : عمر بن الخطاب • وقد ورد هذا الحديث بدون عمر من رواية أنس وابن عباس رضى الله عنهم ، وأخرج ابن سعد عن الزهرى قال • قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لحسان بن ثابت هل قلت فى أبى بكر شيئا ؟ قال : نعم قال قل وأنا اسمع فقال :

وثانى اثنين فى الغار المنيف وقد طاف العدو به اذ صعد الجبلا
وكان حب رسول الله قد علموا من البرية لم يعدل به رجلا

فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه ثم قال صدقت يا حسان هو كما قلت • وقد اجمع المسلمون ان المراد بقوله تعالى (ثانى اثنين اذ هما فى الغار اذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا) ان الصاحب المذكور هو أبو بكر • وفى سنن أبى داود من حديث ابى هريرة رضى الله

عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أما انك يا أبا بكر أول من يدخل الجنة من أمتى » وفى الصحيحين من حديث ابى سعيد رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لو كنت متخذا خليلا غير ربى لاتخذت أبا بكر ولكن أخوة الاسلام » وقد ورد هـــذا الحديث من رواية ابن عباس وابن الزبير وابن مسعود وجندب بن عبد الله والبراء بن عازب وكعب بن مالك وجابر بن عبد الله وأنس وأبى واقد الليثى وأبى المعلى وعائشة وابن عمر رضى الله عنهم فهو من الاحاديث المتـــواترة • واخرج الترمذى وحسنه عن ابن عمر رضى الله عنهما ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لابى بكر « أنت صاحبى عـلى الحوض وصاحبى فى الغار » واخرج عبد الله بن الامام احمد عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أبو بكر صاحبى ومؤنسى فى الغار » وأخرج ابن عساكر من طريق مجمع بن يعقوب الانصارى عن أبيه قال كانت حلقة رسول الله صلى الله عليه وسلم تشتبك حتى تصـــير كالسوار وان مجلس أبى بكر منها لفارغ ما يطمع فيه احد من الناس فاذا جاء أبو بكر جلس ذلك المجلس واقبل عليه النبى صلى الله عليه وسلم بوجهه والقى اليه حديثه وسمع الناس • واخرج ابن عساكر عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « حب ابى بكر وشكره واجب على أمتى » وخرج مثله من حديث سهل بن سعد • واخرج عن عائشة رضى الله عنها مرفوعا « الناس كلهم يحاسبون الا ابا بكـــر » والاحاديث فى فضائله كثيرة شهيرة يعسر استقصاؤها وقد اشرنا بقطرة من بحر لجى وبذرة من رمل عالج وقد افردت مناقبه بالتصنيف فدع المخادع والمعالج وبالله التوفيق •

قال الامام الحافظ ابو الفرج عبد الرحمن بن الجوزى وهو من ذريته كان أبو بكر رضى الله عنه أبيض نحيفا خفيف العارضين اجنأ لا يستمسك ازاره يسترخي عن حقويه معروق الوجه غائر العينين ناتيء الجبهة عاري الاشاجع ، وله من الولد عبد الله وأسماء ـ وأمهما قتيلة ، وعبد الرحمن وعائشة ـ وأمهما أم رومان ، ومحمد ـ وأمه اسماء بنت عميس ، وأم كلثوم

وأمها حبيبة بنت خارجة وهي التى قال فى حقها لعائشة انما هو اخـــواك واختاك ، وتوفى الصديق رضى الله عنه وهو ابن ثلاث وستين سنة وكانت خلافته سنتين واربعة اشهر الا عشر ليال وقيل وثلاثة اشهر وتسع ليال ، وغسلته زوجته اسماء بنت عميس بوصية منه رضى الله عنها وصلى عليـه عمر بن الخطاب ، وروى له عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مائةحديث واثنين وأربعين حديثا منها فى الصحيحين ثمانية عشر حديثا ، المتفق عليه منها ستة ، وانفرد البخارى بأحد عشر ومسلم بحديث ، وسبب قلة روايته رضى الله عنه أنهتقدمت وفاته قبلانتشار الاحاديث واعتناء التابعينبسماعها وقد ذكر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فى قصة بيعة الصديق انه لم يترك شيئا انزل فى الانصار الا ذكره ولا شيئا ذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شأنهم الا ذكره وهذا يدل على كثرة محفوظه من السنة وسعة علمهبالقرآن ، وقد روى عنه منالصحابة عمر وعثمان وعلى وعبد الرحمن ابن عوف وعبد الله بن مسعود وحذيفة بناليمان وزيد بن ثابت والبراء بن عازب وابو هريرة وابن عمر وابن الزبير وعبد الله بن عمرو بن العاص وابن عباس وأنس وابو سعيد الخدرى وعقبة بن عامر الجهنى وعمران بن حصين وابو برزة الاسلمى وجابر بن عبد الله وبلال وعائشة واسماء رضى الله عنهم ، ومن التابعين خلائق ، ودفن رضى الله عنه فى الحجرة الشريفة الى جانب النبى صلى الله عليه وسلم ، وكان رضى الله عنه قد اغتسل فى يوم بارد فحم خمسة عشر يوما ومات ، وقيل سبب موته غير ذلك .

عمر الفاروق

((وبعده الفاروق من غير افترا   وبعده عثمان فاترك المرا))

((وبعده)) أى بعد أبى بكر الصديق الاعظم أى يليه فى الفضيلة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ((الفاروق)) سماه بهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم لما اسلم لان الله فرق به بين الحـــق والباطل فهو عمر بن الخطاب بننفيل بن عبد العزى بن رياح - بكسر الراء وبالياء التحتية فحاء مهملة - بن عبدالله بن قرط - بضم القاف وسكون الراء فطاء مهملة - بن رزاح بفتح الراء والزاى فحاء مهملة بعد الالف - بن عدى بن كعب بن لؤى بن غالب القرشى العدوي ، وأمه حنتمة بفتح الحاء المهملة فنون ساكنة فتاء مثناة

فوقية مفتوحة فميم فتاء تأنيث - بنت هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، وقال ابن الاثير بنت هشـــام قال : ويعرف هاشـــم بذى الرمحين ، قال وقال الاصير ابن ماكولا : ومن قال بنت هشام فقد اخطأ ، كذا قال ، وقد قال ابن الجوزى فى منتخب المنتخب انها بنت هشام وهى اخت أبى جهل عمرو بن هشام فابو جهل خال عمر رضى الله عنه • كنيته أبو حفص كناه بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر لما نهى عن قتل رجال بنى هاشم فانهم انما خرجوا مكرهين فقال ابو حذيفة والله لئن لقيت العباس لا لجمنه السيف فبلغ النبى صلى الله عليه وسلم ذلك فقال « يا أبا حفص يضرب وجه عم النبى صلى الله عليه وسلم بالسيف » فقال والله انه لاول يوم كنانى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم بأبى حفص ، رواه ابن الجوزى وغيره والحفص فى اللغة ولد الاسد • وسبب تلقيبه بالفاروق ما رواه الحافظ ابن الجوزى فى سيرة العمـــرين عن ابن عباس رضى الله عنهم قال سألت عمر رضى الله عنه لاى شىء سميت بالفاروق ؟ فذكر حديث اسلامه ، واخرج أبو نعيم فى الدلائل وابن عساكر عن ابى هريرة رضى الله عنه قال سألت عمر لاى شىء سميت الفاروق؟ قال اسلم حمزة قبلى بثلاثة أيام وسبب اسلام حمزة ان أبا جهل اسرع الى النبى صلى الله عليه وسلم يسبه ويؤذيه فاخبر حمزة بذلك فأخذ قوسه وعمد المسجد الى حلقة قريش التى فيها أبو جهل فاتكأ على قوسه مقابل أبى جهل فنظر اليه فعرف أبو جهل الشر فى وجهه فقال مالك يا أبا عمارة فرفع القوس وضربه به فشـــجه فسالت الدماء فأصلحت ذلك قريش مخافة الشر ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم مختفيا فى دار الارقم المخزومى فانطلق حمزة فأسلم قال عمر رضى الله عنه وخرجت بعده بثلاثة أيام فاذا فلان المخـزومى فقلت أرغبت أنت عن دين آبائك واتبعت دين محمد ؟ قال ان فعلت فقد فعله من هو أعظم عليك حقا ، قلت : ومن ؟ قال أختك وختنك فانطلقت فوجدت هينمة فدخلت فقلت ماذا ؟ فمازال الكلام بيننا حتى اخـذت برأس اختى فضربته وأدميته فقامت الى اختى فأخذت برأسى وقالت قد كان ذلك على رغم أنفك ، وقد أدميت رأسها فاستحييت حين رأيت الدماء فجلست وقلت أرونى

هذا الكتاب فقالت (لا يمسه الا المطهرون) فقمت واغتسلت فاخرجوا لى صحيفة فاذا فيها (بسم الله الرحمن الرحيم) قلت اسماء طيبة طاهرة وفيها (طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى) الى قوله تعالى (له الاسماء الحسنى) فعظمت فى صدرى وقلت : من هذا نفرت قريش ، فأسلمت . وفى حديث أنس بن مالك رضى الله عنه عند أبى يعلى والحاكم والبيهقى قال خرج عمر متقلدا سيفه فلقيه رجل من بنى زهرة فقال الى أين تعمد يا عمر ؟ فقال أريد ان أقتل محمدا ، قال وكيف تأمن فى بنى هاشم وبنى زهرة وقد قتلت محمدا ؟ قال ما أراك الا وقد صبوت ، قال أفلا أدلك على العجب ان ختنك واختك قد صبوا وتركا دينك ، فمشى عمر فاتاهما وعندهما خباب فلما سمع بحس عمر توارى فى البيت فدخل عمر فقال ما هذه الهينمة وكانوا يقرءون طه قالا ما عدا حديثا تحدثناه بيننا قال فلعلكما قد صبوتما فقال له ختنه يا عمر ان كان الحق فى غير دينك فوثب عليه عمر فوطئه وطأ شديدا فجاءت أخته لتدفعه عن زوجها فنفحها نفحة بيده فدمى وجهها فقالت وهى غضبى وكان الحق فى غير دينك انى أشهد ان لا الآله الا الله وان محمدا عبده ورسوله فقال عمر اعطونى الكتاب الذى هو عندكم فأقرأه - وكان يقرأ الكتاب - فقالت أخته انك رجس وانه لا يمسه الا المطهرون فقم واغتسل او توضأ فقام وتوضأ ثم أخذ الكتاب فقرأ (طه) حتى انتهى الى (اننى أنا الله لا اله الا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى) فقال عمر دلونى على محمد فلما سمع خباب قول عمر خرج وقال أبشر يا عمر فانى أرجو أن تكون دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الخميس « اللهم أعز الاسلام بعمر بن الخطاب أو بعمرو بن هشام » وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الدار التى فى أصل الصفا فانطلق عمر حتى أتى الدار وعلى بابها حمزة وطلحة وناس فقال حمزة هذا عمر ان يرد الله به خيرا يسلم وان يكن غير ذلك يكن قتله علينا هينا قال والنبى صلى الله عليه وسلم يوحى اليه فخرج حتى أتى عمر فأخذ بمجامع ثوبه وحمائل السيف فقال اما انت بمنته يا عمر حتى ينزل الله بك من الخزى والنكال ما انزل بالوليد

ابن المغيرة ؟ فقال عمر أشهد ان لا اله الا الله وانك عبد الله ورسوله • وفي حديث البزار والطبراني وابى نعيم والبيهقي في الدلائل عن أسلم نحوه وفيه فكبر المسلمون تكبيرة سمعت بفجاج مكة فجئت خالي أبا جهل بن هشام وكان شريفا فقرعت عليه الباب فقال من هذا ؟ قلت ابن الخطاب وقد صبوت ، قال : لا تفعل ، ثم دخل واجاف الباب دوني • وفي حديث ابن عباس عند ابى نعيم في الدلائل وابن عساكر فقلت يا رسول الله ألسنا على الحق ؟ قال : بلى ، قلت ففيم الاختفاء ؟ فخرجنا صفين أنا في احدهما وحمزة في الآخر حتى دخلنا المسجد فنظرت قريش الى والى حمزة فأصابتهم كآبة شديدة فسماني رسول الله صلى الله عليه وسلم الفاروق يومئذ وفرق بين الحق والباطل • واخرج ابن سعد عن ذكوان قال : قلت لعائشة رضى الله عنها من سمى عمر الفاروق ؟ قالت : النبي صلى الله عليه وسلم •

واخرج ابن ماجه عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : لما اسلم عمر نزل جبريل فقال يا محمد لقد استبشر اهل السماء باسلام عمر • واخرج البزار والحاكم وصححه عن ابن عباس رضى الله عنهما قال لما اسلم عمر قال المشركون قد انتصف القوم اليوم منا وانزل الله تعالى (يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين) • واخرج البخارى وغيره عن ابن مسعود رضى الله عنه قال ما زلنا اعزة منذ اسلم عمر • واخرج ابن سعد عنه ايضا قال : كان اسلام عمر فتحا وكانت هجرته نصرا وكانت امامته رحمة ولقد رأيتنا وما نستطيع ان نصل الى البيت حتى أسلم عمر قاتلهم حتى تركوا سبيلنا • وقال حذيفة لما اسلم عمر كان الاسلام كالرجل المقبل لا يزداد الا قوة ولما قتل كان الاسلام كالرجل المدبر لا يزداد الا بعدا • وكان اسلام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه في السنة السادسة من البعثة وعمره يومئذ سبع وعشرون سنة وكان اسلامه بعد تسعة وثلاثين رجلا او اربعين أو خمسة واربعين واحدى عشرة امرأة ففرح المسلمون باسلامه وظهر الاسلام بمكة عقب اسلامه •

وقد وردت الاحاديث الكثيرة والاخبار الشهيرة بفضائله ففي الصحيحين عن سعد بن ابى وقاص رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه

وسلم « يا ابن الخطاب والذي نفسي بيده مالقيك الشيطان سالكا فجا الا سلك فجا غير فجك » وفى صحيح البخارى عن ابى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صى الله عليه وسلم « لقد كان فى من كان قبلكم من الامم محدثون فان يكن فى أمتى احد فانه عمر » اى ملهمون • واخرجه مسلم ايضا من حديث عائشة رضى الله عنها ولفظه قالت قال رسول الله صلى الله عليهوسلم « قد كان يكون في الامم محدثون فان يكن في أمتى أحد فعمر بن الخطاب » ورواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح • قال ابن عيينةمحدثون أىمفهمون • وقال ابن وهب تفسير محدثون ملهمون • واخرج الترمذى عن ابن عمر رضى الله عنهما ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ان الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه » قال ابن عمر وما نزل بالناس أمر قط فقالوا وقال الا نزل القرآن على نحو ما قال عمر • واخرج الترمذى ايضا عن عقبةبن عامر رضىالله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لو كان بعدى نبى لكان عمر » واخرج من حديث عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « انى لأنظر الى شياطين الجن والانس فروا من عمر » وفى الصحيحين والترمذى والنسائى عن ابى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « بينا انا نائم رأيت الناس يعرضون عليهم قمص فمنها ما يبلغ الثدى ومنها ما يبلغ دون ذلك وعرض على عمر بن الخطاب وعليه قميص يجره - قالوا فما اولته يا رسول الله ؟ قال : الدين »وفى الصحيحين وغيرهما من حديث ابى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « بينا انا نائم رأيتنى فى الجنة فاذا امرأة تتوضأ الى جانب قصر فقلت لمن هذا ؟ قالوا : لعمر ، فذكرت غيرته فوليت مدبرا » فبكى عمر رضى الله عنهوقال عليك أغار يارسول الله؟• وفى الترمذى عن أنس رضى الله عنه ان النبى صلى الله عليه وسلم قال « دخلت الجنة فاذا أنا بقصر من ذهب فقلت لمن هذا قالوا لشاب من قريش ، فظننت انى انا هو قالوا : عمر بن الخطاب » وقد قال ابو بكر الصديق رضى الله عنه ما على وجه الارض احد احب الى من عمر • اخرجه ابن عساكر وقيل لابى بكر

ماذا تقول لربك وقد وليت عمر ؟ قال أقول له وليت عليهم خـــيرهم • اخرجه ابن سعد • وقال على رضى الله عنه اذا ذكر الصالحون فحى هلا بعمر ، ما كنا نعد ان السكينة لا تنزل الا على لسان عمر •اخرجه الطبرانى فى الاوسط (١) وقال ابن مسعود رضى الله عنه لو ان علم عمر وضع فى كفة ووضع علم احياء الارض فى كفة لرجح علم عمر ، ولقد كانوا يرون انه ذهب بتسعة اعشار العلم • اخرجه الطبرانى فى الكبير والحاكم • وقال حذيفة رضى الله عنه : والله ما اعرف رجلا لا تأخذه فى الله لومة لائم الا عمر • وعلى كل حال فأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه بعد الصديق الاعظم افضل هذه الامة ((من غير افترا)) أى من غير كذب يقال فرى يفرى فريا وافترى يفترى افتراء أى كذب فهو افتعال منه وفى الآية الكريمة (ولا يأتين ببهتان يفترينه) وفى الحديث « من أفرى الفرى ان يرى الرجل عينيه ما لم تريا » فالفرى جمع فرية وهى الكذبة وافرى افعل منه للتفضيل وتقدم الكلام على ذلك فى الكلام على الحوض عند قـــوله : (عنه يذاد المفترى كما ورد) ولما كان الحكم بأفضلية ابى بكر ثم عمـــر الفاروق رضى الله عنهما بالنص والاجماع صرح بقوله من غير افترا اشارة لرد قول الخطابية الزاعمين بأن عمر رضى الله عنه افضل الخلفاء وهـــذا الزعم بالنسبة للصديق زور وافتراء وكذب وضلال من زاعميه ، نعـــم بالنسبة الى من بعد الصديق حق لا مرية فيه ، وكذلك فيه اشـارة الى رد قول الراوندية فى زعمهم ان افضل الصحابة العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه ، والرد على الشيعة فى زعمهم ان افضلهم على رضى الله عنه كما يأتى الكلام عليه قريبا •

وقد اخرج الحاكم فى الكنى وابن عدى فى الـــكامل والخطيب فى تاريخه عن ابى هريرة رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « أبو بكر وعمر خير الاولين والآخرين وخير أهل السموات وخير أهل الارض الا النبيين والمرسلين » • واخرج الترمذى عن ابى ســعيد

(١) كذا والذى فى الاوسط كما فى مجمع البحرين وغيره « ما كنا نبعد أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم - ان السكينة تنطق على لسان عمر فى غضبه ورضاه »

الخدري رضى الله عنه ان النبى صلى الله عليه وسلم قال « ما من نبى الا وله وزيران من أهل السماء ووزيران من اهل الارض فأما وزيراى من اهل السماء فجبريل وميكائيل واما وزيراى من اهل الارض فأبو بكـــر وعمر » واخرج الامام احمد والترمذى عن على رضى الله عنه وابن ماجه عنه ايضا وعن ابى جحيفة رضى الله عنه وابو يعلى فى مســـنده والضياء فى المختارة عن أنس والطبرانى فى الاوسط عن جابر وعن ابى ســعيد الخدرى رضى الله عنهم اجمعين ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « هذان سيدا كهول اهل الجنة من الاولين والا خرين الا النبيين والمرسلين» يعنى أبا بكر وعمر رضى الله عنهما • وفى الباب عن ابن عباس وابن عمر رضى الله عنهم • وهاجر عمر رضى الله عنه الى المدينة جهرا وذلك انه تقلد سيفه واخذ بيده اسهما واتى الكعبة واشراف قريش بفنائها فطاف سبعا ثم صلى ركعتين عند المقام ثم أتى حلقهم واحدة واحدة فقال شاهت الوجوه من أراد تثكله أمه وييتم ولده وترمل زوجته فليقنى وراء هذا الوادى • فما تبعه منهم أحد • وشدة عمر وشجاعته لا تخفى حتى أنه وصف فى التوراة بأنه قرن من حديد ، شهد المشاهد كلها وكان شديدا على الكفار والمنافقين ، ومناقبه كثيرة وفضائله شهيرة وقد وافق ربه فى عدة احكام مأثورة وموافقات فى الآيات القرآنية مخبورة •

ولى الخلافة بعهد من خليفة رسول الله الصديق الاكبر ابى بكر رضى الله عنه يوم توفى وذلك يوم الثلاثاء لثمان بقين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة فقام بالامر أتم قيام ، وكثرت الفتوحات فى أيامه ففى سنة اربع عشرة فتحت دمشق بين الصلح والعنوة ، وحمص وبعلبك صلحا ، وأيلة عنوة ، وفيها جمع الناس على صلاة التراويح ، وفى الخامسة عشرة فتحت الاردن عنوة الاطبرية فانها فتحت صلحا ، وفيها كانت وقعـــة اليرموك والقادسية ، وفيها حاصر عمرو مصر ومصر سعد الكوفة ، وفيها فرض عمر الفروض ودون الدواوين واعطى العطايا ، وفى السادســة عشرة فتحت الاهواز والمدائن ، وأقام بها سعد الجمعة فى ابوان كسرى وهى اول جمعة جمعت بالعراق ، وفيها كانت وقعة جلولا وهرمز ويزدجرد بن كسرى

وتقهقر الى الرى وفيها فتحت تكريت ، وفيها سار بنفسه رضى الله عنـــه ففتح بيت المقدس صلحا وخطب بالجابية خطبته المشهورة ، وفيها فتحت قنسرين عنوة ، وحلب وانطاكية ومنبج صلحا ، وفيها كتب التاريخ فى ربيع الاول من الهجرة بمشورة على رضىالله عنه ، وفى السابعة عشرة زاد عمر رضى الله عنه فى المسجد النبوى ، وفيها كان القحط بالحجاز فسمى عام الرمادة واستسقى عمر بالعباس فأخذ عمر رضى الله عنه بيد العباس رضى الله عنه ثم رفعها فقال اللهم انا نستشفع اليك بعم نبيك صلى الله عليه وسلم ان تذهب عنا المحل وان تسقينا الغيث ، فلميبرحوا حتىسقوا فاطبقتالسماء عليهم اياما ، وفى الثامنة عشرة فتحت جند يسابور صلحا وحلوان عنوة ، وفيها وقع طاعون عمواس ، وفيها فتحتالرهاوشميساط وحران ونصيبين وطائفة من الجزيرة عنوة ، وكذا الموصل ونواحيها ، وفى سنة تسع عشرة فتحت قيسارية ، وفى سنة عشرين فتحت مصر عـــــوة وقيل صلحا ، واسكندرية عنوة ، والمغرب كله عنوة ، وفيها فتحت تستر ، وفيهـا هلك قيصر ملك الروم ، وفيها اجلى عمر اليهود عن خيبر وعن نجران وقسم خيبر ووادى القرى ، وفى سنة احدى وعشرين فتحت نهاوند عنوة ولم يكن للاعاجم بعدها جماعة ، وفى سنة اثنتين وعشرين فتحت كـــــرمان وسجستان ومكران من بلاد الجبل واصبهان ونواحيها ، وفى آخرها كانت وفاة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه وذلك بعد رجـــوعه من الحج ، قال ابن المسيب لما نفر عمر من منى اناخ بالابطح ثم استلقى ورفع يديه الى السماء وقال اللهم كبرت سنى وضعفت قـــوتى وانتشرت رعيتى فاقبضنى اليك غير مضيع ولا مفرط ، فما انسلخ ذو الحجة حتى قتل شهيدا وكان قال له كعب الاحبار : انى اجدك فى الكتاب الاول تقتل شـــــهيدا فقال وأنى لى بالشهادة فى جزيرة العرب ثم قال عمر رضى الله عنه اللهم ارزقنى شهادة فى سبيلك واجعلموتى فى بلد نبيكوكان قد قال فى خطبته رأيت كأن ديكا نقرنى نقرة او نقرتين وانى لأراه حضور اجلى وان قوما يأمرونى ان استخلف وان الله لم يكن ليضيع دينه ولا خلافته فان عجل بى أمر فالخلافة شورى بين هؤلاء الستة الذين توفى رسول الله صلى الله

عليه وسلم وهو عنهم راض • قال الزهرى كان عمر رضى الله عنه لا يأذن لكافر قد احتلم فى دخول المدينة حتى كتب المغيرة بن شعبة وهو على الكوفة يذكر له غلاما عنده صنائع يستأذنه ان يدخل المدينة ويقول ان عنده اعمالا كثيرة فيها منافع للناس وانه حداد ونقاش ونجار فاذن له ان يرسله الى المدينة وضرب عليه المغيرة مائة درهم فى كل شهر فجاء الى عمر يشتكى شدة الخراج فقال له ما خراجك بكثير فانصرف ساخطا ثم قال له عمر رضى الله عنه ألم اخبر انك تقول لو اشاء لصنعت رحى تطحن بالريح فالتفت الى عمر عابسا وقال لاضعن لك رحى يتحدث الناس بها فلما ولى قال لاصحابه اوعدنى العبد وهو ابو لؤلؤة ثم انه الخبيث اشتمل على خنجر ذى رأسين نصابه فى وسطه فكمن فى زاوية من زوايا المسجد فى الغلس فلم يزل هناك حتى خرج عمر يوقظ الناس للصلاة فلما دنا منه طعنه ثلاث طعنات كما اخرجه الحاكم وطعن معه اثنى عشر رجلا مات منهم ستة فألقى عليه رجل من أهل العراق ثوبا فلما اغتم فيه قتل نفسه - قال ابو رافع كان ابو لؤلؤة عبدا للمغيرة يصنع الارحاء - وحمل عمر رضى الله عنه الى أهله وكادت تطلع الشمس فصلى عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه بالناس بأقصر سورتين وأتى عمر بنبيذ فشربه فخرج من جرحه فلم يتبين فسقوه لبنا فخرج ثانيا فقالوا لا بأس عليك فقال ان يكن فى القتل بأس فقد قتلت فجعل الناس يثنون عليه ويقولون كنت وكنت فقال اما والله وددت انى خرجت منها كفافا لا على ولا لى وان صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم سلمت لى فاثنى عليه ابن عباس فقال لو ان لى طلاع الارض ذهبا لافتديت به من هول المطلع وقد جعلتها شورى فى عثمان وعلى وطلحة والزبير وعبد الرحمن وسعد وأجلهم ثلاثة أيام ، وقال يشهد عبد الله بن عمر معهم وليس له من الامر شىء فان اصابت الامرة سعدا فهو ذاك والا فليستعن به أيكم ما أمر فانى لم اعزله من عجز ولا خيانة وأمر صهيبا أن يصلى بالناس • قال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما كان ابو لؤلؤة مجوسيا وكان اسمه فيروز • وقال عمر رضى الله عنه الحمد لله الذى جعل منيتى بيد رجل لا يدعى الاسلام • وكانت اصابته يوم الاربعاء لاربع بقين من ذى الحجة سنة

ثلاث وعشرين ودفن يوم الاحد وصح (١) ان الشمس كسفت يوم موته وناحت الجن عليه • ثم قال عمر رضى الله عنه لابنه عبد الله رضى الله عنه انظر ما على من الدين ، فحسبوه فوجدوه ثلاثين الفا أو نحوها فقال ان وفى مال آل عمر أده من أموالهم والا فاسأل فى بنى عدى فان لم تف أموالهم فاسأل فى قريش ، واذهب الى أم المؤمنين عائشة وقل يستأذن عمر ان يدفن عند صاحبيه ، فذهب اليها فقالت كنت أريده - تعنى المكان - لنفسى والله لأوثرنه اليوم على نفسى فأتى عبد الله فقال قد أذنت فحمد الله تعالى ثم قال رضى الله عنه اوصى الخليفة من بعدى بتقوى الله تعالى وأوصيه بالمهاجرين والانصار واوصيه بالامصار خيرا فلما توفى رضى الله عنه صلى عليه صهيب فى المسجد وخرج الناس يمشون وعبد الله امامهم فسلم عبد الله وقال عمر يستأذن فقالت عائشة رضى الله عنها ادخلوه فأدخل فوضع هناك مع صاحبيه • رضى الله عن ابى بكر وعمر وصلوات الله وسلامه على رسوله وحبيبه محمد صلى الله عليه وسلم • روى لامير المؤمنين من الاحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسمائة وسبعة وثلاثون حديثا أخرج له فى الصحيحين منها احد وثمانون اتفقا على ستة وعشرين وانفرد البخارى بأربعة وثلاثين ومسلم بأحد وعشرين •

(تنبيه)

تنبيه خلافة الفاروق تبع لخلافة الصديق

اعلم ان خلافة سيدنا عمر بن الخطاب أمير المؤمنين رضى الله عنه مرتبة ولازمة لحقية خلافة الصديق الاعظم أبى بكر رضى الله عنه وقد قام الاجماع واشارات الكتاب والسنة على حقية خلافته فما ثبت للاصل الذى هو الصديق من حقية الخلافة يثبت لفرعه الذى هو عمر بن الخطاب فيها فلا مطمع لاحد من فرق الضلال فى الطعن والنزاع فى حقية الخلافة وقد علم أهل العلم علما باتا ضروريا ان الصحابة الكرام اجمعوا على تولية الصديق الخلافة ومن شذ لا يقدح فى ذلك من غير مرية فقد اخرج الحاكم وصححه عن ابن مسعود رضى الله عنه قال « ما رآه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن وما رآه المسلمون سيئا فهو عند الله سىء وقد رأى

(١) كذا ولم يكن الوقت وقت كسوف وفى الصحيحين وغيرهما قول النبى صلى الله عليه وسلم فى الشمس والقمر انهما « لا يكسفان لموت أحد ولا لحياته »

الصحابة رضى الله عنهم ان يستخلف ابو بكر » فهذا صح عن ابن مسعود رضى الله عنه وهو من أكابر الصحابة وفقهائهم ومتقدميهم فحكى الاجماع عن الصحابة على خلافة أبى بكر ولذلك كان هو أحق بها عند جميع أهل السنة والجماعة في كل عصر ومصر وكذلك عند المعتزلة وأكثر فرق الامة على انه أحق بها من جميع الصحابة روي البيهقي عن الزعفراني قال سمعت الشافعي رضى الله عنه يقول : أجمع الناس على خلافة أبي بكر رضى الله عنه وذلك انه اضطرب الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يجدوا تحت أديم السماء خيرا من أبي بكر فولوه رقابهم . وأخرج أسد السنة عن معاوية بن قرة قال : ما كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يشكون ان أبا بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم وما كانوا يسمونه الا خليفة رسول الله . وما كانوا يجتمعون على خطأ ولا على ضلالة . وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما مما بلغ التواتر وعلم من الدين بالضرورة ان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضى الله عنه بايعه واعتذر اليه عن تأخره لعدم مشورته وان له حقا في الشورى حتى ان سيدنا عليا رضى الله عنه بايع أبا بكر على المنبر لازالة شبهة التخلف وفرح الناس بذلك . والنصوص المشيرة الى خلافة الصديق كثيرة .

ومن أعظم فضائل الصديق وأتم فراسته على التحقيق وأكمل نصحه لهذا الدين القويم استخلافه أمير المؤمنين عمر الفاروق لما حصل به من عموم النفع وفتح البلاد وظهور الاسلام الظهور التام وقمع أهل الكفر وعبدة الأصنام فان أبا بكر الصديق رضى الله عنه لما ثقل به المرض دعا عبد الرحمن بن عوف فقال أخبرني عن عمر بن الخطاب فقال ما تسألني عن أمر أنت أعلم به مني ، فقال أبو بكر وان كان ، فقال عبد الرحمن هو والله أفضل من رأيك فيه أتم رأي ، فدعا عثمان بن عفان فقال أخبرني عن عمر فقال أنت أخبرنا به ، وقال لعلي كذلك فقال علمك في ذلك ؟ فقال للصديق : علمي به ان سريرته خير من علانيته وانه ليس فينا مثله ، وشاور معهما زيدا وأسيد بن حضير وغيرهما من المهاجرين والأنصار فقال اللهم علمه الخير (؟) ثم دعا عثمان فكتب عهده لعمر ثم أمر بالكتاب فختمه ثم أمر عثمان فخرج بالكتاب مختوما فبايع الناس ورضوا به ثم دعا أبو بكر

رضى الله عنه عمر خاليا فأوصاه بما أوصاه ثم خرج من عنده فرفع أبو بكر يديه فقال اللهم اني لم أرد بذلك الا اصلاحهم وخفت عليهم الفتنة فعملت فيهم ما أنت أعلم به واجتهدت لهم رأيي فوليت عليهم خيرهم وأقواهم عليهم وأحرصهم على ما يرشدهم وقد حضرني من أمرك ما حضرني فاخلفني فيهم فهم عبادك ونواصيهم بيدك أصلح ولايته واجعله من خلائفك الراشدين وأصلح له رعيته • وقد قال ابن مسعود أفرس الناس ثلاثة أبو بكر استخلف عمر وصاحبة موسى حين قالت استأجره ، والعزيز حين تفرس في يوسف فقال لامرأته أكرمي مثواه • وأخرج ابن عساكر عن يسار بن حمزة[1] قال لما ثقل أبو بكر أشرف على الناس من كوة فقال أيها الناس اني قد عهدت عهدا أفترضون به ؟ فقال الناس رضينا يا خليفة رسول الله فقام علي رضى الله عنه فقال : لا نرضى الا أن يكون عمر ، قال انه عمر ، رضى الله عنهم أجمعين .

عثمان ذو النورين

((وبعده)) أي بعد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه أي يليه في الأفضلية أمير الميرمنين أبو عمرو وأبو عبد الله ذو النورين ((عثمان)) ابن عفان بن أبي العاص واسمه الحارث بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصى بن كلاب القرشى الاموي ، قال ابن الاثير يقال كان يكنى في الجاهلية أبا عمرو فلما ولدت له رقية رضى الله عنها بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله اكتنى به وأمه أروى وأمها أم حكيم البيضاء بنت عبد المطلب عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو أروى أم عثمان كريز بضم الكاف وفتح الراء فزاي مصغر كرز وهو كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس • وولد عثمان رضى الله عنه في السنة السادسة من الفيل وأسلم قديما على يد الصديق الاعظم قبل دخول النبى صلى الله عليه وسلم دار الارقم وهاجر الهجرتين الى الحبشة وتزوج رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل البعثة ماتت عنده في الثانية من الهجرة عند رجوع النبى صلى الله عليه وسلم من غزوة بدر العظمى ولم يشهد عثمان رضى الله عنه بدرا لتخلفه باذن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليمرض رقية رضى الله عنها فجاء البشير بنصر المؤمنين عند دفنها فضرب له رسول الله

(١) لعله « عن سيار ابى حمزة » وهو من اتباع التابعين

صلى الله عليه وسلم بسهمه وأجره ، ولما ماتت رقية زوجه رسول اللهصلى الله عليه وسلم أختها أم كلثوم وتوفيت عنده أيضا سنة تسع من الهجرة ، قال العلماء ولا يعرف أحد تزوج بنتي نبي غيره ولذلك سمي بذي النورين فهو من السابقين الأولين وأول المهاجرين وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة وأحد الستة الذين توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض وأحد الصحابة الذين جمعوا القرآن ، ومر أن الصديق جمعه أيضا وانما تميز عثمان بجمعه في المصحف على هذا الترتيب اليوم ، واستخلفه النبي صلى الله عليه وسلم على المدينة في غزوة ذات الرقاع ، وكان رضى الله عنه ذا جمال مفرط ، روي له عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة حديث وستة وأربعون حديثا ، وروى عنه من الصحابة زيد بن خالد الجهني وابن الزبير والسائب بن يزيد وأنس بن مالك وزيد بن ثابت وسلمة بن الاكوع وأبو امامة وأبو قتادة وأبو هريرة وغيرهم رضى الله عنهموخلائق من التابعين • وأخرج ابن سعد عن عبد الرحمن بن حاطب قال ما رأيت أحدا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اذا حدث أتم حديثا ولا أحسن من عثمان بن عفان رضى الله عنه الا انه كان رجلا يهاب الحديث • وأخرج عن محمد بن سيرين قال كان أعلمهم بالمناسك عثمان وبعده ابن عمر رضى الله عنهم • وأخرج ابن عساكر أن عثمان رضى الله عنه كان رجلا ربعة ليس بالقصير ولا بالطويل أبيض مشربا بحمرة بوجهه نكتات جدري كبير اللحية عظيم الكراديس بعيد ما بين المنكبين جزل الساقين طويل الذراعين شعره قد كسا ذراعيه جعد الرأس أصلع أحسن الناس ثغرا جمته أسفل من أذنيه يخضب بالصفرة وكان قد شد أسنانه بالذهب•وقال بعضهم رأيت عثمان فما رأيتقط ذكرا ولا أنثىأحسن وجها منه • وأخرج ابن عدي عن عائشة رضى الله عنها قالت لما زوج النبى صلى الله عليه وسلم بنته أم كلثوم لعثمان قال لها « ان بعلك أشبه الناس بجدك ابراهيم وأبيك محمد » صلى الله عليه وسلم • وأخرج ابن عدي أيضا وابن عساكر عن ابن عمر رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « انا لتشبه عثمان بأبينا ابراهيم » •- وأخرج الشيخان عن عائشة رضى الله عنها ان النبى صلى الله عليه وسلم جمع ثيابه حين دخل عثمان

وقال : « ألا استحيي من رجل تستحيي منه الملائكة »وأخرج البخاري أن عثمان رضي الله عنه حين حوصر أشرف عليهم وقال أنشـــدكم الله ولا أنشد الا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ألستم تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من جهز جيش العسرة فله الجنة فجهزتهم ؟ ألستم تعلمون ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من حفر بئر رومة فله الجنة فحفرتها ؟ فصدقوه بما قال • وبايع رسول الله صلى الله عليه وسلم عنـه بيساره فكانت يسار رسول الله صلى الله عليه وسلم لعثمان خيرا من يمين نفسه • وأخرج الترمذي عن ابن عمـــر رضي الله عنهما قال ذكر النبي صلى الله عليه وسلم فتنة فقال يقتل فيها هذا مظلوما ـ لعثمان قال الترمذي حديث حسن غريب من هذا الوجه • وأخرج أبو نعيم عن ابن عمر رضي الله عنهما ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: عثمان أحيا أمتي وأكرمها. وأخرج عن أبي امامة رضي الله عنه مرفوعا : ان أشد هذه الامة بعد نبيها حياء عثمان بن عفان • وأخرج الطبراني عن أنس رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ان عثمان لأول من هاجر بأهله الى الله بعد لوط » وأخرج الامام أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم عن عائشة رضي الله عنها ان النبي صلى الله عليه وسلم قال لعثمان يا عثمان ان الله ـ وفي لفظ لعل الله ـ مقمصك ـ وفي لفظ يقمصك ـ قميصا فان أرادوك (على) خلعه فلا تخلعه حتى يخلعوه ـ وفي لفظ ـ فلا تخلعه حتى تلقـــاني • وأخرج الترمذي عن أبي سهلة قال سمعت عثمان رضي الله عنه يقول يوم الدار : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد الى عهدا فأنا ممتثل له وصابر عليه ان شاء الله فصبر حتى قتل رضي الله عنه شهيدا • قال الترمذي هذا حديث حسن صحيح . وأخـرج الترمذي عن طلحة بن عبيد الله وقال غريب وابن ماجه عن أبي هريرة مرفوعا « لكل نبي رفيق في الجنة ورفيقي فيها عثمان » وأخرج الترمذي وقال حسن صحيح وابن ماجه والحـــاكم وصححه عن أبي الاشعث الصنعاني ان خطباء قامت بالشام وفيهم رجال من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقام آخرهم رجل يقال له مرة بن كعب فقال لولا حديث سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قمت وذكر الفتن فقربها ومر رجل مقنع في ثوب فقال « هذا يومئذ على الهدى »

فقمت اليه فاذا هو عثمان بن عفان فأقبلت عليه بوجهه فقلت هذا ؟ قال نعم فاخبر النبي صلى الله عليه وسلم انه مظلوم وانه يومئذ على الهدى .

وأما ذكر خلافته رضى الله عنه فتقدم ان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه جعلها شورى بين الستة الذين توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض فلما فرغ الناس من دفن عمر رضى الله عنه اجتمع هؤلاء الرهط فقال عبد الرحمن بن عوف اجعلوا أمركم الى ثلاثة منكم فقال الزبير قد جعلت أمري الى علي ، وقال سعد قد جعلت أمري الى عبد الرحمن ، وقال طلحة قد جعلت أمري الى عثمان . فقال عبد الرحمن ابن عوف أنا لا أريدها فأيكما يبرأ من هذا الامر ونجعله اليه والله عليه والاسلام لينظر أفضلهم في نفسه وليحرص على صلاح الامة فسكت الشيخان علي وعثمان ، فقال عبد الرحمن اجعلوه الي والله علي ان لا آلوكم عن أفضلكم، قالا نعم ، فخلا بعلي وقال له لك من القدم في الاسلام والقرابة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قد علمت الله عليك لئن أمرتك لتعدلن ولئن أمرت عليك لتسمعن ولتطيعن ؟ قال نعم ، ثم خلا بالآخر فقال له كذلك فلما أخذ ميثاقهما بايع عثمان وبايعه علي وكانت مبايعته بعد موت عمر بثلاث ليال وكان عبد الرحمن بن عوف قبل أن يتخلى عنها أحد قد خلا بعثمان فقال له فان لم نبايعك فمن تشير علي ؟ قال : علي ، وقال لعلي ان لم نبايعك فمن تشير علي ؟ قال : عثمان ، ثم دعا الزبير فقال ان لم نبايعك فمن تشير علي ؟ قال : علي أو عثمان ، ثم دعا سعدا فقال له من تشير علي ؟ فأما أنا وأنت فلا نريدها فقال : عثمان ، ثم استشار عبد الرحمن أعيان المهاجرين والانصار فرأى هوى أكثرهم عثمان فبايعوه جميعا فثبتت بيعة عثمان باجماع الصحابة عليها ولهذا قال ((فاترك المرا)) أي الجدال والشك قال في القاموس : المرية بالضم والكسر الشك والجدل يقال ماراه مماراة ومراء وامترى فيه وتمارى شك وفي الحديث « لا تماروا في القرآن فان مراء فيه كفر » المراء والجدال والتماري والمماراة المجادلة على مذهب الشك والريبة كما في نهاية ابن الاثير وتقدم ، فان أمير المؤمنين علي بن أبى طالب رضى الله عنه من جملة من بايعه وقد غزا معه وكان يقيم الحد بين يديه كما أخبر بذلك عن نفسه رضوان الله عليه ، وخلافة عثمان فرع عن

خلافة عمر التى هى فرع عن خلافة الصديق رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ، واستشهد عثمان بن عفان رضى الله عنه في داره سنة خمس وثلاثين في أوسط أيام التشريق ، وصلى عليه الزبير وكان أوصى اليه ودفن في حش كوكب بالبقيع وهو أول من دفن به والحش بالحاء المهملة والشين المعجمة البستان وضم الحاء أجود من كسرها وكوكب رجل من الانصار . وولى الخلافة احدى عشرة سنة واحد عشر شهرا وثلاثة عشر يوما ومدة حصاره في داره الى أن قتل سبعة وأربعون يوما وقيل شهران وعشرون يوما واستشهد وهو يومئذ صائم ، وهذا يؤيد كون قتله بعد أيام التشريق أو قبلها فقد قيل كان قتله لثمان عشرة خلت من ذى الحجة أو لسبع عشرة وقيل لثمان خلون منه يوم التروية وقيل لليلتين بقيتا منه وقدم في جامع الاصول وفي الزهر البسام انه قتل في ثمانية عشر من ذي الحجة . واختلف في من باشر قتله فقال كثير انه لا يعرف قاتله وقيل الاسود التجيبي من أهل مصر وقيل جبلة بن الايهم من مصر أيضا وقيل سودان بن حمران وقيل رومان اليمانى ، وقيل سوادن بن رومان ، وقيل رومان بن سرحان رجل أزرق قصير وقيل قتله رجل من أهل مصر يقال له حمار أزرق أشقر وقيل قتله اثنان وقيل غير ذلك وله يومئذ من العمر اثنتان وثمانون سنة وقيل ثمان وثمانون وقيل تسعون ، ويروى انه كان المصحف بين يديه يقرأ فيه فوقعت قطرة من دمه أو قطرات على قوله تعالى (فسيكفيكم الله وهو السميع العليم) وأخرج الحاكم عن الشعبي رحمه الله قال ما سمعت من مراثي عثمان أحسن من قول كعب بن مالك رضى الله عنه :

فكف يديه ثم أغلق بابه وأيقن ان الله ليس بغافل
وقال لأهل الدار لا تقتلوهم عفا الله عن كل امرىء لم يقاتل
فكيف رأيت الله صب عليهم ال عداوة والبغضاء بعد التواصل
وكيف رأيت الخير أدبر بعده عن الناس ادبار الرياح الجوافل

وأخرج الامام أحمد عن المغيرة بن شعبة رضى الله عنه انه دخل على عثمان رضى الله عنه وهو محصور فقال انك امام العامة وقد نزل بك ما ترى واني أعرض عليك خصالا ثلاثا اختر احداهن اما أن تخرج فتقاتلهم فان معك عددا وقوة وأنت على الحق وهم على الباطل ، واما أن

تخرق لك بابا سوى الباب الذي هم عليه فتقعد على رواحلك فتلحق بمكة فانهم لن يستحلوك وأنت بها ، واما ان تلحق بالشام فان أهل الشام فيهم معاوية . فقال عثمان رضى الله عنه فاما أن أخرج فأقاتل فلن أكون أول من خالف رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمته بسفك الدماء ، واما أن أخرج الى مكة فانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « يلحد رجل من قريش بمكة يكون عليه نصف عذاب العالم » فلن أكون أنا ، واما أن ألحق بالشام فلن أفارق دار هجرتي ومجاورة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأخرج ابن عساكر عن أبي ثور الفهمي[1] قال دخلت على عثمان وهو محصور فقال لقد اختبأت عند ربي عشرا اني لرابع أربعة في الاسلام وأنكحني رسول الله صلى الله عليه وسلم ابنتـــه ثم توفيت فأنكحني الاخرى وما تغنيت وما تمنيت ولا وضعت يميني على فرجي منــذ بايعت بها حبيبي رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا مرت بي جمعة منــذ أسلمت الا وأنا أعتق فيها رقبة الا أن لا تكون عندي فاعتقها بعد ذلك ولا سرقت في جاهلية ولا اسلام ولا زنيت في جاهلية ولا اسلام ولقد جمعت القرآن في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم . ويضم الى هذه العشرة تجهيزه جيش العسرة فقد قال صلى الله عليه وسلم لما جاءه بالمال وكان ألف دينار فنثرها في حجره صلى الله عليه وسلم « ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم » مرتين رواه الترمذي وقال حديث حسن . ويضم اليها أيضا ما أخرجه الترمذي وحسنه والنسائي عن ثمامة بن حزن القشـــيري قال شهدت يوم الدار حين أشرف عليهم عثمان رضى الله عنه فقال ائتـوني بصاحبيكم اللذين ألبا علي فجيء بهما فقال أنشدكم بالله والاسلام - زاد رزين ولا أنشد الا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم - هل تعلمون ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم المدينة وليس بها ماء يستعذب الا بئر رومة فقال صلى الله عليه وسلم من يشتريها ويجعل دلوه فيها مع دلاء المسلمين بخير له منها في الجنة فاشتريتها من مالى وأنا اليوم أمنع أن أشرب منها حتى أشرب من ماء الملح ؟ قالوا اللهم نعم . قال أنشدكم الله والاسلام أتعلمون ان المسجد ضاق بأهله فقال صلى الله عليه وسلم من يشترى بقعة

---

(١) فى الاصلين « التميمى خطأ »

آل فلان فيزيدها في المسجد بخير له منها في الجنة فاشتريتها من صلب مالى وأنا اليوم أمنع ان أصلى فيه ركعتين ؟ قالوا اللهم نعم . قال وأنشدكم بالله هل تعلمون رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من جهز جيش العسرة وجبت له الجنة وجهزته ؟ قالوا اللهم نعم . قال وأنشدكم بالله هل تعلمون إني كنت على ثبير مكة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر فتحرك الجبل حتى تساقطت حجارته بالحضيض فركضه رسول الله صلى الله عليه وسلم برجله وقال اسكن ثبير فانما عليك نبي وصديق وشهيد . قالوا اللهم نعم . فقال الله أكبر شهدوا لى بالجنة ورب الكعبة ثلاثا ـ وفي رواية شهدوا لى ورب الكعبة انى شهيد ثلاثا . وفيه يقول حسان بن ثابت رضى الله عنه :

من سره الموت صرفا لا مزاج له ... فليأت مأدبة في دار عثمانا
ضحوا باشمط عنوان السجود به ... يقطع الليل تسبيحا وقرآنا
ليسمعن وشيكا في ديارهم ... الله أكبر يا ثارات عثمانا

وعلى كل حال قتل عثمان رضى الله عنه ظلما بلا محال وهو واحد العشرة المشهود لهم بالجنة وأحد السابقين الأولين الى الاسلام وأحد الخلفاء الراشدين وأحد المهاجرين المقربين وأحد أختان سيد الاولين والآخرين ومناقبه كثيرة ومآثره غزيرة وأياديه شهيرة فرضوان الله تعالى عليه وعلى جميع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم . روي لأمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة وثلاثة وأربعون حديثا منها في الصحيحين ستة عشر اتفقا على ثلاثة وانفرد البخاري بثمانية ومسلم بخمسة .

علي أبو السبطين

((وبعد فالفضل حقيقا فاسمع نظامي هذا للبطين الانزع))
((مجدل الابطال ماضى العزم مفرج الاوجال وافي الحزم))
((وافي الندى مبدي الهدى مردى العدا
مجلى الصدى يا ويل من فيه اعتدى))

. ((وبعد)) بنائها على الضم لحذف المضاف اليه ونية ثبوت معناه أي وبعد عثمان بن عفان رضى الله عنه على القول الرجيح والمذهب الصحيح ((فالفضل)) الشامخ والقرب الراسخ والمجد الباذخ من سائر الأمة واتفاق

الأئمة ((حقيقا)) أي في حقيقة الأمر من غير شك ولا نكر ((فاسمع)) فعل أمر مبني على السكون وحـــرك بالكسر للقافية مني ((نظامي)) أي منظومي ((هذا)) الذي أدرجت فيه عقيدة السلف الصـــــالح وضمنته ما يقتفيه كل محقق فالح ثابت ذلك الفضل ومستقر ((ل)) للامام الهمـام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ((البطين الانزع)) قال ابن الاثير في نهايته وفي صفة علي رضى الله عنه البطين الانزع أي العظيم البطن وفي حديث علي أيضا رضى الله عنه : أبيت مبطانا وحولى بطون غرثى ؟ المبطان الكثير الاكل والعظيم البطن ذكر ذلك على سبيل الاستفهام الانكاري والمراد بكونه بطينا ان باطنه عظيم لتضلعه من العلوم والمعارف ، والمراد بالانزع المنحسر شعر رأسه مما فوق الجبين ، والنزعتان عن جانبي الرأس مما لا شعر عليه، قال في النهاية كان الامام علي رضى الله عنه أنزع الشعر له بطن ، وقيل معناه الانزع من الشرك المملوء البطن من العلم والايمان ((مجدل الابطال)) قال في القاموس جدله فانجدل وتجدل صرعه على الجدالة كسحابة الارض مطلقا أو ذات رمل دقيق وتقدم حديث « أنا خاتم النبيين في أم الكتاب وان آدم لمنجدل في طينته » أي ملقى على الجدالة وهي الارض، وفي حديث أمير المؤمنين على بن أبي طالب رضى الله عنه حين وقف على طلحة رضى الله عنه يوم الجمل وهو قتيل فقال اعزز علي أبا محمد أن أراك مجدلا تحت نجوم السماء • أي مرميا ملقى على الارض قتيلا ، والابطال جمع بطـــل بفتح الموحدة والطاء المهملة وكشداد بين البطالة أو البطولة الرجـــــل الشجاع سمي بذلك لأنه يبطل جراحته فلا يكترث بها أو يبطل عنده دماء الاقران كما في القاموس ولا شك ان عليا رضى الله عنه قتل من الابطـال عدة مثل الوليد بن عتبة يوم بدر وعمرو بن عبدود يوم الخندق ومرحب من أبطال خيبر وغيرهم وقوله ((ماضى العزم)) اشارة الى شدة قـــوته ووفور شدته والماضى من مضى في الأمر مضاء ومضوا نفذ ومضى السيف أي قطع والمضو كالعلو التقدم والعزم الجد والصبر ومنه قوله تعالى (فاصبر كمـــا صبر أولو العــــزم من الرسل) وقوله ((مفرج)) أي كاشــف ((الأوجال)) يقال فرج الله الغم يفرجه كشفه كفرجه والاوجال جمع وجل بفتح الواو والجيم الخوف ورجل وجل كفرح ياجل ويجل ويوجل

وييجل بكسر أوله وجلا وموجلا كمقعد ويجمع أيضا على وجلين والمرأة وجلة اشارة الى ما كان عليه من كشف الغموم وتفريج الهموم والاقدام في المواقف الصعبة والبروز الى الاقران المستصعبة وفي الصحيحين وغيرهما من حديث سهل بن سعد رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوم خيبر « لأعطين الراية غدا رجلا يفتح الله على يديه يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله » فبات الناس يدوكون أي يخوضون ويتحدثون ليلتهم أيهم يعطاها فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم كلهم يرجو أن يعطاها فقال أين علي بن أبى طالب ؟ فقيل يشتكي عينيه قال فارسلوا اليه فأتى به فبصق رسول الله صلى الله عليه وسلم في عينيه ودعا له فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع فأعطاه الراية ـ الحديث وقوله ((وافي الحزم)) اشارة الى وفور عقله وغزارة فطنته وفضله والحزم ضبط الرجل أمره والحذر من فواته مأخوذ من قولهم حزمت الشيء اذا شددته وفي الحديث « ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من احداكن » يعنى النساء أي اذهب لعقل الرجل المحترز فى الامور المستظهر فيها • وفى حديث آخر أنه صلى الله عليه وسلم سئل ما الحزم فقال « تستشير أهل الرأي ثم تطيعهم » وفي القاموس الحزم ضبط الامر والاخذ فيه بالثقة كالحزامة والحزومة يقال حزم ككرم فهو حازم وحزيم والجمع حزمة وحزماء وفي قوله ((وافي)) أي كثير ((الندى)) أي السخاء والكرم يقال فلان يندى على أصحابه أي يسخى كما فى النهاية وفى القاموس تندى تسخى وأفضل كأندى فهو ندي الكف والندى الثرى والشحم والمطر والبلل (والكلأ) وشيء يتطيب به كالبخور • وفي محل آخر أندى كثر عطاياه . انتهى . اشارة الى غزارة كرمه وجزالة عطاياه وحزمه ((مبدي)) أي مظهر ((الهدى)) أعنى العلوم الغامضة والفهوم الرائضة والهدى بضم الهاء وفتح الدال المهملة الرشاد والدلالة ((مردي العدى)) اسم فاعل من أرداه اذا أهلكه وكسره وأوقع أعداه في الردى والتلف والهلاك ((مجلى)) أي مزيل ومفرق وكاشف ((الصدى)) أي العطش والظمأ والمراد به كاشف الكرب ومجلى النوب ((ياويل)) هذه يراد بها الدعاء بالحزن والهلاك والمشقة ومعنى

النداء فيها أي يا حزن ويا هلاك ويا عذاب احضر فهذا وقتـــك وأوانك لـ ((من)) أي انسان مكلف من ذكر وأنثى ((فيه)) أي في أمير المؤمنين علي بن أبى طالب ((اعتدى)) بانتقاصه وانحطاطه عن منزلته الشامخـة ودرجته الباذخة وهضم من حقوقه الظاهرة وفضائله الطاهرة أو غلا فيه غلوا حارجا عن طوره ونسب اليه ما ليس له من نحو الوهية كغلاة أهـل الرفض أو نبوة أو أفضليته على من هو نفسه اعترف بأنه أفضل منه • وقد أخرج البزار عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضى الله عنه قال دعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « ان فيك مثلا من عيسى بن مريم عليه السلام أبغضته اليهود حتى بهتوا أمه وأحبته النصارى حتى أنزلوه المنزل الذي ليس به » ألا وانه يهلك في اثنان محب يقرظني بما ليس في ومبغض يحمله شنآني على ان يبهتني • ورواه أبو يعلى والحاكم أيضا • وأخرج الامام أحمد والحاكم بسند صحيح عن عمار بن ياسر رضى الله عنه ان النبى صلى الله عليه وسلم قال لعلى « أشقى الناس رجلان أحيمر ثمود الذى عقر الناقة والذى يضربك يا علي على هذه ـ يعنى قرنه ـ حتى يبل منه هذه » يعنى لحيته • وقد ورد ذلك أيضا من حديث علي وصهيب وجابر بن سمرة وغيرهم رضى الله عنهم • وروى الطبراني وأبو يعـــلى بسند رجاله ثقات الا واحدا منهم وقد وثق ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له يوما من أشقى الأولين ؟ قال : الذي عقر الناقة يا رسول الله. قال : صدقت ، قال : فمن أشقى الآخرين ؟ قال : لا علم لى يا رسول الله • قال : الذى يضربك على هذه ـ وأشار صلى الله عليه وسلم الى يافوخه، فكان علي رضى الله عنه يقول لأهل العراق يعني عند ضجره منهم وددت انه قد انبعث أشقاكم فخضب هذه ـ يعنى لحيته ـ من هذه ـ ووضع يده على مقدم رأسه • وصح أيضا ان عبد الله بن سلام رضى الله عنه قال لعلى لا تقدم العراق فانى أخشى أن يصيبك بها ذباب السيف • فقال على وأيم الله لقد أخبرنى به رسول الله صلى الله عليه وسلم • قال أبو الاسود الدؤلى فمـــا رأيت كاليوم ، محارب بخبر بذا عن نفسه •

اذا علمت هذا فاعلم ان أمير المؤمنين على (؟) الا نزع البطـــين ابن أبى طالب ، واسمه عبد مناف وقيل اسمه كنيته ، ابن عبد المطلب ، واســـمه

شيبة الحمد قاله ابن اسحق وقيل عامر قاله ابن قتيبة قال ابن عبد البر ولا يصح ، وكنيته أبو الحارث والحارث أكبر أولاده ، ويكنى أيضاً أبا البطحاء وانما قيل له عبد المطلب لأن عمه المطلب أردفه حين أتى به من المدينة صغيرا فكان يقال له من هذا ؟فيقول: عبدي، وهو ابن هاشم بن عبد مناف بن قصي الخ النسب الشريف فعلي رضى الله تعالى عنه ابن عم النبى صلى الله عليه وسلم ، وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم وهي أول هاشمية ولدت هاشميا في الاسلام وقد أسلمت وهاجرت ، وأمير المؤمنين علي رضى الله عنه أحد العشرة المشهود لهم بالجنة وأخو رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمؤاخاة وصهره على سيدة النساء فاطمة الزهراء عليها السلام وأحد السابقين الى الاسلام وأحد العلماء الربانيين والشجعان المشهورين والزهاد المذكورين والخطباء المعروفين وأحد الخلفاء الراشدين وأحد من جمع القرآن المبين وأول خليفة من بنى هاشم وأبو السبطين السعيدين، أسلم على رضى الله عنه قديما قال ابن عباس وأنس بن مالك وزيد بن أرقم وسلمان الفارسى وجماعة من الصحابة رضى الله عنهم انه أول من أسلم حتى نقل بعضهم الاجماع عليه وقد ورد في ذلك عدة أخبار وتقدم في ذكر الصديق ما يجمع الاقوال على التحقيق ، ويدل لهذا ماقاله أمير المؤمنين على رضى الله عنه لما بلغه افتخار معاوية فقال لغلامه اكتب اليه ثم أملى عليه رضى الله عنه قوله :

محمد النبي أخي وصهري ... وحمزة سيد الشهداء عمي
وجعفر الذي يمسى ويضحي ... يطير مع الملائكة ابن أمي
وبنت محمد سكني وعرسى ... منوط لحمها بدمي ولحمى(١)
وسبطا أحمد ابناي منها ... فأيكم له سهم كسهمي
سبقتكم الى الاسلام طرا ... غلاما ما بلغت أوان حلمي

قال الامام الحافظ البيهقي ان هذا الشعر مما يجب على كل متوان في على رضى الله عنه حفظه ليعلم مفاخره فى الاسلام • انتهى •

واعلم ان مناقب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضى الله عنه كثيرة

---

(١) المحفوظ « مسوط » أى مخلوط

ومآثره غزيرة وفضائله شهيرة حتى قال سيدنا الامام احمد رضى الله عنه : ما جاء لأحد من الفضائل ما جاء لعلي رضوان الله عليه . وكذا قال اسماعيل القاضى والنسائي وأبو علي النيسابوري : لم يرد في حق أحد من الصحابة بالاسانيد الحسان أكثر مما جاء في علي رضى الله عنه . قال بعض العلماء وسبب ذلك والله أعلم أن الله تعالى أطلع نبيه صلى الله عليه وسلم على ما يكون بعده مما ابتلى به علي وما وقع من الاختلاف لما آل اليه أمر الخلافة فاقتضى ذلك نصح الامة باشهاره لتلك الفضائل لتحصل النجاة لمن تمسك به ممن بلغته ، ثم لما وقع ذلك الاختلاف والخروج عليه نشر من سمع من الصحابة تلك الفضائل وبثها نصحا للأمة أيضا ، ثم لما اشتد الخطب واشتغلت طائفة من بني أمية بتنقيصه وسبه حتى على المنابر ووافقهم على ذلك الخوارج اشتغلت جهابذة العلماء والحفاظ من أهل السنة ببث فضائله حتى كثرت (١) نصحا للأمة ونصرة للحق .

وقد أخرج السلفى فى الطيوريات عن عبدالله ابن الامام احمد رضى الله عنهما قال سألت أبى عن على ومعاوية فقال : اعلم أن عليا كان كثير الاعداء ففتش له أعداؤه شيئا فلم يجدوا فجاؤا الى رجل قد حاربه وقاتله فأطروه كيادا منهم له رضى الله عنه . وقال شيخ الاسلام ابن تيمية روح الله روحه : الكل مقر بأن معاوية ليس كفؤا لعلي رضى الله عنهما في الخلافة ولا يجوز أن يكون معاوية خليفة مع امكان استخلاف علي لسابقته وعلمه ودينه وشجاعته وسائر فضائله فانها كانت عندهم ظاهرة معروفة كفضل اخوانه أبي بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم ولم يكن بقى من أهل الشورى غيره وغير سعد لكن سعدا كان قد ترك هذا الامر وكان الامر قد انحصر في علي وفي عثمان رضى الله عنهما فلما توفي عثمان لم يبق لها معين الا علي رضى الله عنه وانما وقع ما وقع من الشر بسبب قتل عثمان رضى الله عنه . وقال شيخ الاسلام : ومعاوية لم يدع الخلافة ولم يبايع له بها حين قاتل عليا ولم يقاتله علي رضى الله عنه على انه خليفة ولا انه

---

(١) يعنى حتى حفظ الكثير منها . ومع هذا عنى الجهلة والغلاة بوضع أخباره كثيرة جدا فى اطرائه والغض من غيره .

يستحق الخلافة ولا كانوا يرون ان يبدؤوا عليا بقتال بل لما رأى على ان لهؤلاء شوكة وهم خارجون عن طاعته رأى ان يقاتلهم حتى يردوا الى الواجب ، وهم رأوا أن عثمان رضى الله عنه قتل مظلوما باتفاق وقتلته في عسكر علي رضى الله عنه وهم غالبون لهم شوكة وعلي رضى الله عنه لم يمكنه دفعهم كما لم يمكنه الدفع عن عثمان فرأوا : من الآراء الفاسدة أن نبايع خليفة (لا) يقدر على أن ينصفنا ويبذل الانصاف، وكان في جهال الفريقين من يظن بالامامين علي وعثمان رضى الله عنهما ظنونا كاذبة منهم من يزعم ان عليا رضى الله عنه أمر بقتل عثمان رضى الله عنه ، وكان على رضى الله عنه يحلف وهو البار الصادق بلا يمين انه لم يقتله ولا رضى بقتله ولم يمالىء على قتله . قال شيخ الاسلام : وهذا معلوم بلا ريب من علي رضوان الله عليه فكان أناس من محبي علي ومن مبغضيه يشيعون ذلك عنه فمحبوه يقصـــدون الطعن على عثمان وانه كان يستحق القتل وان عليا أمر بقتله ، ومبغضوه يقصدون الطعن على علي رضى الله عنه وانه أعان على قتـــل الخليفة المظلوم الشهيد الذى صبر نفسه ولم يدفع عنها ولم يسفك دم مسلم في الدفع عنه فكيف في طلب طاعته . وأمثال هذه الامور التى تنسب الى المشنعين العثمانية والعلوية وكل من الطائفتين مقر بأن معاوية ليس بكفء لعلى رضى الله عنه . ولى (على) الخلافة ووقعت له المبايعة بها الغد من قتل عثمـــان فقال لها من قتل عثمان ؟ قالت : لا أدرى دخل عليه رجـــلان اليه فقالوا له نبايعك فمد يدك فلا بد للناس من أمير فقال علي رضى الله عنه ليس ذلك اليكم انما ذلك الى أهل بدر فمن رضى به أهل بدر فهـــو خليفة فلم يبق أحد من أهل بدر الا أتى عليا فقالوا ما نرى أحدا أحق بها منك مد يدك نبايعك فبايعوه وهرب مروان وولده وجاء علي الى امرأة امرأة عثمان فقال لها من قتل عثمان ؟ قالت : لا أدري دخل عليه رجلان لا أعرفهما ومعهما محمد بن أبى بكر ، وأخبرت عليا والناس بما صنع فدعا محمدا فسأله عماذ كرت امرأة عثمان فقال محمد لم تكذب قد والله دخلت عليه وأنا أريد قتله فذكر لى أبي فقمت عنه وأنا تائب الى الله سبحانه وتعالى والله ما قتلته ولا أمسكته . فقالت امرأة عثمان صدق ولكنه أدخلهما، وذلك ان محمد بن أبي بكر رضى الله عنهما دخل كما ذكر فأخذ بلحية عثمان

فقال له عثمان رضى الله عنه والله لو رآك أبوك لساءه مكانك مني فتراخت يده ودخل عليه الرجلان فتوجياه حتى قتلاه وخرجوا هاربين من حيث دخلوا وخرجت امرأته فلم يسمع صراخها لما كان فى الدار من الجلبة وصعدت الى الناس فقالت ان أمير المؤمنين قد قتل ، فدخل الناس فوجدوه مذبوحا وبلغ الخبر عليا وطلحة والزبير وسعدا ومن كان بالمدينة فخرجوا وقد ذهلت عقولهم للخبر الذي أتاهم حتى دخلوا عليه فوجدوه مقتولا فاسترجعوا وضرب على الحسن وصدر الحسين وشتم محمد بن طلحة وكان أرسلهم يذبون عن عثمان وقال لابنيه كيف قتل وأنتما على الباب ؟ وخرج وهو غضبان حتى أتى منزله فهرع الناس أليه فبايعوه جميعا • وزعم بعض الناس ان طلحة والزبير انما بايعا كارهين غير طائعين ثم خرجا الى مكة وأم المؤمنين عائشة بها فأخذاها وخرجا الى البصرة يطلبون بدم عثمان فبلغ ذلك عليا فخرج الى العراق فلقي طلحة والزبير ومن معهما وهي وقعة الجمل وكانت في جمادى الآخرة سنة ست وثلاثين وقتل بها طلحة والزبير وبلغت القتلى ثلاثة عشر ألفا وأقام علي رضى الله عنه بالبصرة خمسة عشر ليلة ثم انصرف الى الكوفة ، ثم خرج عليه معاوية ومن معه بالشام فبلغ عليا فسار فالتقوا بصفين في صفر سنة سبع وثلاثين ودام القتال بها أياما فرفع أهل الشام المصاحف يدعون الى ما فيها مكيدة من عمرو بن العاص وكتبوا بينهم كتابا ان يوافوا رأس الحول بأذرح فينظروا في أمر الأمة فافترق الناس ورجع علي الى الكوفة ومعاوية الى الشام وبلغت القتلى ثلاثين ألفا . قال القرطبي في التذكرة وكان مقام علي ومعاوية بصفين سبعة أشهر وقيل تسعة أشهر وقيل ثلاثة أشهر وقيل بل قتل في ثلاثة أيام وهي الايام البيض ثلاثة عشر وأربعة عشر وخمسة عشر ثلاثة وسبعون ألفا من الفريقين ذكره الثقة العدل أبو اسحق • ومن تلك الليالى ليلة الهرير جعل يهر بعضهم الى بعض والهرير الصوت بشبه النباح لأنهم تراموا بالنبل حتى فنيت وتطاعنوا بالرماح حتى اندقت وتضاربوا بالسيوف حتى انقضبت حتى نزل القوم يمشى بعضهم الى بعض وقد كسروا أجفان سيوفهم وتضاربوا بما بقي من من السيوف وعمد الحديد فلا يسمع الا غمغمة القوم والحديد في الهام ثم تراموا بالاحجار ثم جثوا على الركب فتحاثوا بالتراب ثم تكادموا بالافواه

وكسفت الشمس وثار القتام وارتفع الغبار وضلت الألوية والرايات ومرت مواقيت أربع صلوات لأن القتال كان من بعد صلاة الصبح الى ما بعد نصف الليل وكان ذلك في ربيع الأول من سنة سبع وثلاثين كما في تاريخ الامام أحمد رضى الله عنه وغيره وكان عدة أهل الشام الذين مع معاوية مائة ألف وخمسة وثلاثين ألفا وكان أهل العراق الذين مع علي رضوان الله عليه عشرين أو ثلاثين ومائةألف ذكر ذلك الزبير بن بكار • واستشهد في صفين أبو اليقظان عمار بن ياسر رضى الله عنه وكان مع علي رضوان الله عليه وكان عمار يومئذ ابن ثلاث وتسعين سنة وكان قد سماه رسول الله الطيب المطيب فقد روى الترمذى عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضى الله عنه قال جاء عمار بن ياسر يستأذن على النبى صلى الله عليه وسلم فقال « ائذنوا له مرحبا بالطيب المطيب » قال الترمذى حديث حسن صحيح • وفي صحيح مسلم من حديث أبي سعيد الخدري رضى الله عنه قال أخبرني من هو خير مني أبو قتادة ان النبى صلى الله عليه وسلم قال لعمار « تقتلك فئة باغية » وأخرجه مسلم أيضا من حديث أم المؤمنين أم سلمة رضى الله عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمار « تقتلك الفئة الباغية » وفي الترمذي من حديث أبي هريرة رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعمار « أبشر تقتلك الفئة الباغية » واستسقى يوم صفين فأتي بقعب فيه لبن فلما نظر اليه كبر ثم قال أخبرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم ان آخر رزقي من الدنيا ضياح لبن في مثل هذا القعب ثم حمل فلم يثن حتى قتل أخرج الترمذى المسند منه وقال حسن صحيح والباقى ذكره رزين • وفي صحيح البخاري من حديث أبي سعيد الخدري رضى الله عنه ان النبى صلى الله عليه وسلم جعل ينفض التراب عن عمار وهم يبنون المسجد النبوى ويقول « ويح عمار يدعوهم الى الجنة ويدعونه الى النار » قال وجعل عمار يقول أعوذ بالله من الفتن وفي رواية « ويح عمار تقتله الفئة الباغية يدعوهم الى الجنة ويدعونه الى النار » ولم يذكر البخارى هذه الزيادة يعنى تقتله الفئة الباغية وهذه الزيادة صحيحة ثابتة وهي في صحيح مسلم وغيره وكذلك في بعض نسخ البخاري كما قاله شيخ الاسلام ابن تيمية وغيره من أهل العلم • قال شيخ الاسلام ابن تيمية قدس الله

روحه : ومن رضى بقتل عمار رضى الله عنه كان حكمه حكمها أى حكم الفئة الباغية التى قتلته ، ويروى أنمعاوية تأول أن الذى قتله هو الذى جاء به الى منون مقاتله فما قتله الا الذي أخرجه فألزمه علي رضى الله عنه بقوله فرسول الله صلى الله عليه وسلم اذن قتل حمزة حين أخرجه لقتال المشركين ، ولا يخفى أن حجة معاوية هذه أوهى من بيت العنكبوت ومن ثم قال شيخ الاسلام ابن تيمية قدس الله روحه : ولا ريب أن قول علي رضى الله عنه هذا هو الصواب • انتهى • ولا يرتاب ذوو الالباب ان الحق والصواب مع أمير المؤمنين أبى السبطين وزوج سيدة نساء العالمين على بن أبي طالب رضوان الله عليهم أجمعين •

وأما معاوية رضى الله عنه فهو مجتهد مخطىء وليس له يومئذ في الخلافة حق ومن ثم قال له أبو مسلم الخولانى أنت تنازع عليا فى الخلافة وأنت مثله ؟ قال : لا وانى لأعلم أنه أفضل ولكن ألستم تعلمون ان عثمان قتل مظلوما ؟ وأنا ابن عمه ووليه أطلب بدمه ، فأتوا عليا فقولوا له يدفع لنا قتلة عثمان فأجاب معاوية أهل الشام فأرسل الى على أبا مسلم يطلب بدم عثمان وانه وليه وابن عمه فقال أمير المؤميين على يدخل فى البيعة كما فعل الناس ثم يحاكم المدعى عليهم عندى فاحكم بما أنزل الله ،فأبى معاوية حتى جرى ماجرى ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم وكان أهل الشام يسمون قتل عمار فتح الفتوح وفى قتله يقول الحجاج بن غزية الانصارى

قال النبى له تقتلك شرذمة سيطت لحومهم بالبغى فجار
فاليوم يعلم أهل الشام انهم أصحاب ذاك ومنهم شبت النار

وقال ابن عبدون فى عمار رضى الله عنه

وما رعت لأبى اليقظان صحبته ولم تزوده الا الضيح فى العمر

قال فى النهاية الضياح والضيح بالفتح اللبن الخاثر يصب فيه الماء ثم يخلط وهو بفتح الضاد المعجمة وسكون التحتية فحاء مهملة • وفى القاموس اللبن الرقيق المزوج وكذا الضياح بفتح الضاد المعجمة • ولمارفع أهل الشام المصاحف يدعون الى ما فيها قال على رضى الله عنه نعم نحن

أحق بالاجابة الى كتاب الله تعالى فقال القراء الذين صاروا بعد ذلك خوارج خوانا يا أمير المؤمنين ما تنظر الى هؤلاء ألا نمشى عليهم بسيوفنا حتى يحكم الله بيننا فقال سهل بن حنيف يا أيها الناس اتهموا رأيكم فآل الامر الى أن كتبوا بينهم كتابا أن يوافوا رأس الحول بأذرح كما تقدم فخرجت عن طاعة أمير المؤمنين الخوارج وهم القراء فقالوا كفر على وكفر معاوية ، فاعتزلوا عليا رضى الله عنه ونزلوا حروراء وهم بضعة عشر ألفا فأرسل على اليهم ابن عباس رضى الله عنهم فناشدهم الله ارجعوا الى خليفتكم فيم نقمتم عليه أفى قسمة أو قضاء قالوا نخاف أن ندخل فى الفتنة قال فلا تعجلوا ضلالة العام مخافة فتنة العام القابل فرجع بعضهم الى الطاعة وقال آخرون نكون ناحية فان قبل القضية يعنى التحكيم قاتلناه على ماقاتلنا عليه أهل الشام بصفين وان نقضها قاتلنا معه فساروا حتى قطعوا النهر وافترقت منهم فرقة يقتلون الناس فقال أصحابهم ما على هذا فارقنا عليا فلما بلغ أمير المؤمنين عليا رضى الله عنه صنعهم وكان متجهزا لقتال أهل الشام بعد التحكيم فان الناس اجتمعوا باذرح فى شعبان من سنة ثمان وثلاثين وحضر فى هذه القضية سعد بن أبى وقاص وابن عمر وغيرهما من الصحابة الذين اعتزلوا الفتنة رضى الله عنهم فقدم عمرو بن العاص أبا موسى الاشعرى مكيدة منه فتكلم فاتفقا على خلع الاثنين على ومعاوية ويصير الامر شورى فمن رضيه أهل بدر من المهاجرين والانصار فهو الخليفة فتقدم أبو موسى فقال قد خلعت عليا فقام عمرو فقال ان أبا موسى قد خلع عليا وانى نصبت معاوية فاختلف الناس وأخذ أبو موسى يسب عمرا ويقول انك غدرت فرجع على الى الكوفة ومعاوية الى الشام وصار خلاف من أصحابه حتى صار رضى الله عنه يعض على أصبعه ويقول أعصى ويطاع معاوية ؟ وربما قال ويطاع ابن آكلة الاكباد • اشارة الى أكل هند بنت عتبة أم معاوية من كبد حمزة رضى الله عنه يوم أحد فلما تجهز على رضى الله عنه لقتال أهل الشام شغله أمر الخوارج وما ارتكبوه من المفاسد فقال لأصحابه أتسيرون الى عدوكم أو ترجعون الى هؤلاء الذين خلفوكم فى دياركم ؟ فقالوا بل نرجع اليهم فقال رضى الله عنه اسطوا عليهم

فوالله لا يقتل منكم عشرة ولا يفر منهم عشرة فكان كذلك فقال اطلبوا في القتلى رجلا صفته كذا وكذا وذكر من نعته ان له ثديا كثدى المرأة فطلبوه فوجدوه على النعت الذى ذكره أمير المؤمنين لهم فقال رجل الحمد لله الذى أبادهم وأراحنا منهم فقال على رضى الله عنه كلا والذى نفسى بيده ان منهم لمن فى اصلاب الرجال لم تحمله النساء بعد • وهؤلاء الذين قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم « تمرق مارقة على حين فرقة من المسلمين فيقتلها أولى الطائفتين الى الحق » رواه مسلم فى صحيحه فقتلهم على رضى الله عنه وفرح على بقتال الخوارج بخلاف وقعة الجمل وغيرها فانه كان يظهر منه الحزن والكآبة والاسف • ومن بقايا الخوارج القرامطة وهم الباطنية والاسماعيلية والملاحدة واضرابهم

(غريبة عجيبة) ذكر الجلال السيوطى فى لقط المرجان قال ذكر فى كتاب نزهة المذاكرة من طريق الزهرى عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة ابن مسعود عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال حضرت مع على بن أبى طالب رضى الله عنه قتل الحرورية بالنهراون فالتمس على ذا الثدية فلم يجدوه فقال اطلبوه فوجدوه بعد ذلك فقال على رضى الله عنه من يعرف هذا فقال رجل من القوم نحن نعرفه هذا قوص وأمه ههنا فأرسل على الى أمه فقال لها من أبو هذا قالت ما أدرى الا انى كنت أرعى غنما لأهلى فى الجاهلية بالمدينة فغشينى شيء كهيئة الظلة فحبلت منه فولدت هذا • انتهى• تعنى أن أباه من الجن وهذا غريب جدا والله أعلم

(تنبيـــــه)

تنبيه على أحق الناس بالخلافة بعد الثلاثة

علم مما تقدم ان أحق الناس بالخلافة بعد الثلاثة المتقدمة أعنى أبا بكر وعمر وعثمان على بن أبى طالب رضى الله عنهم باتفاق أهل الحل والعقد كطلحة والزبير وأبى موسى الاشعرى وابن عباس وخزيمة بن ثابت وأبى الهيثم بن التيهان ومحمد بن مسلمة وعمار بن ياسر وغيرهم من الصحابة رضى الله عنهم أجمعين • قال بعض محققى علمائنا قد اتفق على بيعة على رضى الله عنه عامة من حضر المدينة من البدريين والانصار كاجتماع أهل السقيفة على بيعة أبى بكر رضى الله عنه • قال الحسن البصرى رضى الله عنه

والله ماكانت بيعة على رضى الله عنه الا كبيعة أبى بكر وعمر رضى الله عنهم • وقال أبو عبد الله بن بطة من علمائنا كانت بيعة على رضى الله عنه (بيعة) اجتماع ورحمة لم يدع الى نفسه ولم يجبرهم على بيعته بسيفه ولم يغلبهم بعشيرته ولقد شرف الخلافة بنفسه وزانها بشرفه وكساها حلة البهاء بعدله ورفعها بعلو قدره ولقد أباها فأجبروه وتقاعس عنها فأكرهوه وقال سيدنا الامام احمد رضى الله عنه ان عليا رضوان الله عليه لم تزنه الخلافة ولكن على زانها • وروى الشعبى قال دخل اعرابى على على رضى الله عنه حين أفضت اليه الخلافة فقال والله يا أمير المؤمنين لقد زينت الخلافة وما زانتك ورفعتها وما رفعتك ولهى كانت أحوج اليك منك اليها • قال أبو عبد الله بن بطة رحمه الله تعالى قد أحسن الاعرابى وصدق فى ماقال فان عليا ومن تقدمه من الخلفاء رضى الله عنهم زينوا الخلافة وجملوا أمة محمد صلى الله عليه وسلم وأتموا الدين وأظهروه وأسسوا الاسلام وأشهروه ، وأنشد الامام الحافظ أبو الفرج ابن الجوزى فى بصرته فى حق على رضى الله عنه

مازانه الملك اذ حواه ، بل كل شيء به يزان • جرى ففات الملوك سبقاء فليس قدامه عيان • نالت يداه ذرى معالى ، يعجز عن مثلها العيان

وفى شرح المقاصد عن بعض المتكلمين انعقد على بيعة على رضى الله عنه الاجماع ووجه انعقاده ما انحصر الامر فيه وفى عثمان زمن الشورى على انها له أو لعثمان وهذا اجماع على على رضى الله عنه لولا عثمان فلما توفى عثمان رضى الله عنه بقيت لعلى اجماعا ، ومن ثم قال بعض محققى علماء الكلام لا اكتراث بقول من قال لا اجماع على امامة على رضى الله عنه وقد تقدم فى كلام شيخ الاسلام ما يفهممنه هذا المقام والله ولى الانعام

ولما قتل على رضى الله عنه الخوارج بالنهروان واستأصل جمهورهم ولم ينج منهم الا القليل انتدب من بقاياهم عبد الرحمن بن ملجم المرادى والحجاج بن عبد الله الصريمى ويعرف بالبرك وداذويه مولى بنى العنبر ابن عمرو بن تميم فأجمعوا رأيهم على قتل على ومعاوية وعمرو بن العاص وأن يكون قتلهم فى ليلة واحدة وهى ليلة سبعة عشر من رمضان أو احدى

عشر وقيل ليلة احدى وعشرين من شهر رمضان وكان تعاقدهم وتعاهدهم على ذلك بمكة المشرفة فضمن ابن ملجم قتل على فقيل له وكيف ، لك بذلك قال : أغتاله ، وضمن البرك قتل معاويةوضمن داذويه قتل عمرو بن العاص وزعموا أن هؤلاء الثلاثة قد أفسدوا أمر هذه الامة ولو قتلوا لعاد الامر الى مستحقيه كذا زعموا لعنهم الله تعالى فتوجه كل واحد منهم الى صاحبه فاما البرك الصريمى فقدم على معاوية بدمشق فضربه فجرح أليته وهو فى الصلاة ويقال انه قطع عرق النسل منه فما أحبل النساء بعد تلك الضربة ، وأما داذويه بن حذافة العنبرى فقدم مصر لقتل عمرو بن العاص فاتفق انه تلك الليلة استخلف على صلاة الفجر خارجة بن حذافة بن غانم ابن عبد الله بن عوف بن عتبة بن عويج بن عدى بن كعب بن لؤى بن غالب القرشى العدوى شهد فتح مصر وكان أمير ربع المدد الذين أمد بهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه عمرو بن العاص فى فتح مصر وكان على شرط مصر فى امرة عمرو بن العاص لمعاوية بن أبى سفيان رضى الله عنهم ، قال فى جامع الاصول كان خارجة بن حذافة هذا أحد فرسان قريش فيقال أنه كان يعدل بألف فارس قاله ابن عبد البر وكان كتب عمرو بن العاص الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يستمده بثلاثة آلاف فارس فأمده بخارجة بن حذافة والزبير بن العوام والمقداد بن الاسود رضى الله عنهم • فأراد الخارجى داذويه قتل عمرو بن العاص فقتل خارجة ابن حذافة فلما قتله الخارجى أخذ وأدخل على عمرو فقال الخارجى من هذا الذى أدخلتمونى عليه قالوا عمرو بن العاص قال ومن قتلت قالوا خارجة فقال : أردت عمرا وأراد الله خارجة • فذهبت مثلا والى هذا أشار أبو محمد عبد المجيد بن عبدون الاندلسى فى قصيدته الرائية التى رثى بها بنى الافطس ملوك بطليوس بقوله :

وليتها اذ فدت عمرا بخارجة   فدت عليا بمن شاءت من البشر

وأما أشقى الآخر بن عبد الرحمن بن ملجم اللعين فقدم الكوفة ولقى بها من اخوانه الخوارج فسارهم بما أراد فاشترى سيفا فيما زعموا بألف وسقاه السم حتى لفظه وكان فى خلال ذلك يأتى عليا رضى الله عنه فيسأله

ووقعت عينه على قطام بنت علقمة من تيم الرباب وكانت خارجية ترى رأى الخوارج وكانت جميلة رائعة فى الجمال فأعجبته فخطبها فقالت آليت ان لا أتزوج الا على مهر لا أريد سواه فقال ما هو؟فقالت ثلاثة آلاف وعبدوجارية وقتل على بن أبى طالب فقال والله ما أتيت الا للفتك به ولا أقدمنى هذا المصر غير ذلك ولكن لما رأيتك أردت تزويجك فقالت ليس الا الذى قلت لك ، فقال وما يغنيني منك اذا أنا قتلت عليا اعلم انى لم أفلت ،فقالت ان قتلته ونجوت فهو الذى أردت تبلغ شفاء نفسك ويهنيك العيش معى وان قتلت فما عند الله خير من الدنيا ، فقال لها لك ما اشترطت ثم قال لعنه الله تعالى

ثلاثة آلاف وعبد وقينـــــة	وضرب على بالحسام المسمـــم
فلا مهر أغلى من على وان غلا	ولا فتك الا دون فتك ابن ملجم

فقالت له ورائى من يشد ظهرك فبعثت الى ابن عم لها يدعى وردان بن مجالد فأجابها ولقى ابن ملجم شبيب بن شجرة الاشجعى فقال يا شبيب هل لك فى شرف الدنيا والآخرة ؟ فقال ماهو؟فقال تساعدنى على قتل على بن أبى طالب فقال ثكلتك أمك لقد جئت شيئا ادا كيف تقدر على ذلك ؟ قال ان رجل لا حرس له ويخرج الى المسجد منفردا فنتمكن منه وقد كمنا له فى المسجد فنقلته فان نجونا نجونا وان قتلنا فقد سعدنا بالذكر فى الدنيا وبالجنة فى الآخرة ، فقال ويلك ان عليا ذو سابقة فى الاسلام مع النبى صلى الله عليه وسلم وما تنشرح نفسى لقتله قال ويلك انه حكم الرجال فى دين الله وقتل اخواننا الصالحين فنقتله ببعض من قتل فلا تشكن فى دينك، فأجابه وأقبلا حتى دخلا على قطام وهى معتكفة فى المسجد الاعظم فى قبة ضربتها لنفسها فدعت لهما وأخذا سيفيهما وجلسا قبـــالة السدة التى يخرج منها أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه فخرج الى صلاة الصبح فبدره شبيب فضربه فأخطأه وضربه عبد الرحمن على رأسه وقال : الحكم لله يا على لا لك ولا لأصحابك ، فقال على رضى الله عنه فزت ورب الكعبة لا يفر منكم الكلب وشد الناس عليه من كل جانب فحمل عليهم ابن ملجم فأفرجوا له فتلقاه المغيرة بن الحارث بن نوفل بن عبد المطلب

فرمى عليه قطيفة كانت عنده واحتمله وضرب به الارض وقعد على صدره وأما شبيب فانتزع السيف من يده رجل من حضرموت وصرعه وقعد على صدره فجعل الناس يصيحون عليكم بصاحب السيف فخاف الحضرمى على نفسه فرمى بالسيف وانسل شبيب من بين الناس • فأخذ ابن ملجم فدخل به على أمير المؤمنين على رضى الله عنه فقال ان أعش فالامر لى وان أمت فالامر لكم فالعفو أو القصاص واجتمع الاطباء عنده وكان أبصرهم بالطب أثير بن عمرو السكونى وكان من أطباء كسرى فأخذ رئة شاة حارة فتتبع عرقا منها فأخرجه فأدخله فى جراحة على رضى الله عنه ثم نفخ العرق فاستخرجه فاذا عليه بياض دماغ واذا الضربة قد وصلت الى أم رأسه فقال يا أمير المؤمنين اعهد عهدك فأنت ميت وسمع ابن ملجم لعنه الله الرنة من الدار فقال له من حضره أى عدو الله انه لا بأس على أمير المؤمنين رضى الله عنه فقال ابن ملجم فعلى من تبكى أم كلثوم؟ أعلى ؟ اما والله لقد اشتريت سيفى بألف وما زلت أعرضه فما يعيبه أحد الا أصلحت ذلك العيب ولقد سقيته السم حتى لفظه ولقد ضربته ضربة لو قسمت على من بالمشرق لأتت عليهم ثم مات أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه ليلة الاحد لتسع عشرة مضت من رمضان سنة أربعين وغسله الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر رضى الله عنهم وصلى عليه الحسن ودفن بدار الامارة بالكوفة ثم احضر ابن ملجم وجاء الناس بالنفط والبوارى وقطعت يداه ورجلاه وكحلت عيناه بمسامير الحديد محماة ثم قطع لسانه ثم أحرق فى قوصرة وقيل انه قطعت أطرافه لعنه الله ولم يتأوه بل (كان) يتلو القرآن فلما أرادوا قطع لسانه امتنع من اخراجه فتعبوا فى ذلك فقيل له قطعت يداك ورجلاك فما تمانعت فما هذا التمانع عند قطع لسانك ؟ قال لئلا يفوتنى من تلاوة القرآن شىء وانا حى فشقوا شدقه واخرجوا لسانه بكلاب فقطعوه ، وكان عمر أمير المؤمنين لما مات ثلاثا وستين سنة كأبى بكر وعمر كعمر رسول الله صلى الله عليه وسلم والله تعالى اعلم •

ولما بلغ عائشة رضى الله عنها موت أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى

الله عنه قالت لتصنع العرب ما شاءت بعده فليس لها من ينهاها • وكان عبد الرحمن بن ملجم قد قرأ القرآن على معاذ بن جبل رضى الله عنه وكان من العباد المعدودين قبل خروجه حتى يقال ان عمر بن الخطاب كتب الى بعض عماله ان يوسع دار عبد الرحمن بن ملجم ليعلم الناس الفقه والقرآن ثم كان من شيعة أمير المؤمنين على رضى الله عنه وشهد معه صفين ثم فعل بعد هذا ما فعل فنسأل الله حسن الخاتمة فى عافية • وعند الخوارج ان ابن ملجم افضل الامة وكذلك النصيرية يعظمونه • قال أبو محمد بن حزم يقولون انه أفضل اهل الارض لانه خلص روح اللاهوت من ظلمة الجسد وكدره • وعند الروافض انه اشقى الخلق فى الآخرة قلت ولا يخفى انه استحل قتل أمير المؤمنين على بن ابى طالب بل عد قتله من اعظم القرب وهذا كفر بلا ريب حتى ان عمران بن حطان الخارجى قبحه الله تعالى قال يمدح ابن ملجم لعنه الله :

ياضربة من تقى ما أراد بهـــا
الا ليبلغ من ذى العرش رضوانا

انى لاذكره يوما فاحســـــبه
أو فى البرية عند الله ميزانا

وعارضه بعض أهـل الحق بقوله

قل لابن ملجم والاقدار غالبـة
هدمت ويلك للاسـلام اركانا

قتلت أفضل من يمشى على قدم
وأول الناس اسـلاما وايمـانا

واعلم الناس بالايمـان ثم بما
سن الرسول لنا شرعا وتبيـانا

صهر النبى ومـــولاه وناصره
أضحت مناقبـه نورا وبرهـانا

وكان منه على رغم الحســود له
مكان هارون من موسى بن عمرانا

وكان فى الحرب سيفا مصيا ذكرا
ليثا اذا لقى الاقران اقــرانا

ذكرت قاتله والدمع منحــدر
فقلت سبحان رب العرش سبحانا

انى لاحسبه ما كان من بشر
يخشى المعاد ولكن كان شيطانا

أشقى مراد اذا عدت قبائلها
وأبخس الناس عند الله ميزانا

كعاقر النـاقة الاولى التى جلبت
على ثمود بأرض الحجر خسرانا

قد كان يخبرهم ان سوف يخضبها
قبل المنيـــة ازمانا وازمانا

فلا عفا الله عنـــه ما تحمله
ولا سقى قبر عمران بن حطانا

لقوله فى شقى ظـــل مجترما
ونال ما ناله ظلما وعـــدوانا

ياضربة من تقى مـا أراد بها
الا ليبلغ من ذى العرش رضوانا

بل ضربة من غوى أورثته لظى
فسوف يلقى بها الرحمن غضبانا

كأنه لم يرد قصــدا بضربته
الا ليصلى عذاب الخلـد نيرانا

وما أحسن ما قال عمارة اليمنى فى الخلفاء الاربعة رضى الله عنهم :

أردت عليـا وعثمانا بمخلبها
ولم يفتها أبو بكر ولا عمــر

ومن أراد التأسى فى مصــيبته
فللورى فى رسـول الله معتبر

واعلم ان مناقب على رضوان الله تعالى عليه كثيرة ومآثره شهيرة ولقد قال فيه ابن عباس رضى الله عنهم ، كان لعلى ضرس قاطع فى العلم وكان له القدم فى الاسلام والصهر برسول الله صلى الله عليه وسلم والفقه فى السنة والنجدة فى الحرب والجود فى المال • وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يتعوذ بالله من معضلة ليس لها ابو حسن - يعنى عليا رضى الله عنه• واخرج الامام الحافظ ابو الفرج عبد الرحمن ابن الجوزى فى تبصرته بسنده عن أبى صالح قال : قال معاوية بن أبى سفيان لضرار بن ضمرة صف لى عليا قال أو تعفينى ياأمير المؤمنين قال بل تصفه لى ، قال أو تعفينى ، قال لا اعفيك ، قال اما اذ لابد فانه والله كان بعيد المدى ، شديد القوى ، يقول فصلا ، ويحكم عدلا ، يتفجر العلم من جوانبه ، وتنطق الحكمة من نواحيه ، يستوحش من الدنيا وزهرتها ، ويستأنس بالليل وظلمته ، كان والله غزير الدمعة ، طويل الفكرة ، يقلب كفه ، ويخاطب نفسه ، يعجبه من اللباس ما خشن ، ومن الطعام ما جشب ، كان والله كأحدنا يجيبنا اذا سألناه ، ويبتدئنا اذا أتيناه ، ويأتينا اذا دعوناه ، ونحن والله مع تقريبه لنا وقربه منا لا نكلمه هيبة ولا نبتدئه لعظمته ، كان اذا تبسم فعن مثل اللؤلؤة المنظوم ، يعظم اهل الدين ، ويحب المساكين ، لا يطمع القوى فى باطله ، ولا ييأس الضعيف من عدله ، فاشهد بالله لرأيته فى بعض مواقفه وقد ارخى الليل سجوفه ، وغارت نجومه ، وقد مثل فى محرابه قابضا على لحيته ، يتململ تململ السليم ، ويبكى بكاء الحزين ، فلكأنى اسمعه وهو يقول يا دنيا يا دنيا ألى تعرضت ؟ أم لى تشوفت ؟ هيهات ، غرى غيرى ، قد بتتك ثلاثا لا رجعة لى فيك ولا مثنوية فعمرك قصير ، وعيشك حقير ، وخطرك كبير ، ويروى انه قال حلالك حساب وحرامك عذاب ، ثم انشد رضى الله عنه :

دنيا تخادعنى كأنى ... لست اعرف حالها
مدت الى يمينها ... فرددتها وشمالها
حظر الاله حرامها ... وأنا اجتنبت حلالها
وعلمتها خداعه ، فتركت جملتها لها

آه من قلة الزاد وبعد السفر ووحشة الطريق• قال فذرفت دموع معاوية

فما يملكها وهو ينشفها بكمه وقد اختنق القوم بالبكاء ، ثم قال معاوية : رحم الله أبا الحسن كان والله كذلك فكيف حزنك عليه يا ضرار ؟ قال حزن من ذبح ولدها فى حجرها فلا ترقأ عبرتها، ولا تسكن حسرتها • وأنشد الحافظ ابن الجوزى فى التبصرة من نظم الامام امير المؤمنين على رضى الله عنه ووصف نفسه

اذا المشكلات تصدين لى	كشفت حقائقها بالنظر
وان برقت فى محل الصوا	ب عمياء لا يجتليها البصر
مقنعة بغيوب الامور	وضعت عليها صحيح الفكر
لسانى كشقشقة الارحبى	أو كالحسام اليمانى الذكر

وفى الطيوريات قال قال رجل لعلى رضى الله عنه نسمعك تقول فى الخطبة اللهم أصلحنا بما اصلحت به الخلفاء الراشدين المهديين فمن هم ؟ فاغرورقت عيناه قال هم أحبائى ابو بكر وعمر اما ما الهدى وشيخا الاسلام رجلا قريش والمقتدى بهما بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم من اقتدى بهما عصم ، ومن اتبع آثارهما هدى الى الصراط المستقيم ، ومن تمسك بهما فهو فى حزب الله

وضعه النحو

والامام على أمير المؤمنين رضى الله عنه اول من وضع علم النحو ، قال أبو القاسم الزجاجى فى أماليه عن أبى الاسود الدؤلى قال : دخلت على أمير المؤمنين فرأيته مفكرا قلت فيم تفكر ؟ قال انى سمعت ببلدكم هذا لحنا فأردت أن أضع كتابا فى أصول العربية فقلت ان فعلت هذا أحييتنا وبقيت فينا هذه اللغة • ثم أتيته بعد ثلاث فألقى الى صحيفة فيها ، بسم الله الرحمن الرحيم الكلام كله اسم وفعل وحرف ، فالاسم ما انبأ عن المسمى والفعل ما أنبأ عن حركة المسمى ، والحرف ما انبأ عن معنى ليس باسم ولا فعل ، ثم قال واعلم يا أبا الاسود ان الاشياء ثلاثة ظاهر ومضمر وشىء ليس بظاهر ولا مضمر ، ثم قال تتبعه وانح نحوه وزد فيه • وهذا مشهور وما تحيط الدفاتر بالبحر الخضم ، والشىء الاعم والسواد الاعظم ، فكل ما ذكرناه بالنسبة لما تركناه كقطرة ماء من بحر لجى، أو كرملة واحدة من رمال فيحة ، وروى له عن رسول الله صلى الله عليه

وسلم خمسمائة وسبعة وثلاثون حديثا فى الصحيحين أربعة وأربعون حديثا اتفقا منها على عشرين وانفرد البخارى بتسعة ومسلم بخمسة عشر والله ولى التوفيق ثم قال فى نظمه

((فحبه كحبهم حتما وجب   ومن تعدى او قلى فقد كذب))

((فحبه)) اى حب أمير المؤمنين على بن ابى طالب رضى الله عنه ((كحبهم)) اى الخلفاء الراشدين خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم أبى بكر الصديق الامام المبجل على التحقيق المسمى بعبد الله والملقب بعتيق فمن أحبه فهو مؤمن ومن أبغضه فهو زنديق ، وكذلك عمر بن الخطاب الملقب بالفاروق ، وكذلك عثمان بن عفان الذى بكل مكرمة مرموق ، فان كنت مؤمنا فاحبهم جميعا وحتم ذلك على نفسك وعلى كل أبناء جنسك ((حتما)) اى خالصا محكم الامر ((وجب)) على جميع الامة باتفاق الائمة لا يزوغ عن حبهم الا هالك ، ولا يروغ عن وجوب ذلك الا آفك ، ومن ثم قال ((ومن)) اى مكلف من هذه الامة المحمدية ((تعدى)) فى حبه او لم يقل بفضل الخلفاء الراشدين على ترتيب الخلافة ((او قلى)) هم أو أحدا منهم اى أبغضهم أو أحدا منهم، يقال قلاه كرماه رفضه قلى وقلاء اذا أبغضه وكرهه غاية الكراهة وتركه وهجره ، وقال الامام أبو المظفر عون الدين بن هبيرة القلى بغض بعد حب ((فقد)) الفاء فى جواب من وقد حرف تحقيق ((كذب)) فى كل واحدة من الخصلتين من تعديه فى الحب او بغضه لهم او لأحد منهم رضى الله عنهم أجمعين

(تنبيهات)

تنبيهات الاول افضلية الاربعة

(الاول) أعلم أن الواجب اعتقاده أن أفضل هذه الامة بعد نبيها صلى الله عليه وسلم الخلفاء الراشدون الاربعة : أبو بكر وعمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم ، فهم الذين ولوا الخلافة التى هى النيابة عن النبى صلى الله عليه وسلم فى عموم مصالح المؤمنين من اقامة الدين وصيانة المسلمين بحيث يجب على كافة الخلق الاتباع ويحرم عليهم المخالفة ، وقد بين صلى الله عليه وسلم مدة الخلافة بعده بأنها ثلاثون سنة ثم تصير ملكا عضوضا ، فكانت مدة خلافتهم فأخرج الامام احمد من حديث سفينة رضى الله عنه

مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « الخلافة ثلاثون عاما ثم يكون من بعد ذلك الملك » ورواه أصحاب السنن وصححه ابن حبان وغيره ، ولم يكن فى الثلاثين بعده صلى الله عليه وسلم الا الخلفاء الاربعة وأيام الحسن رضى الله عنهم •

وأخرج البزار بسنن حسن من حديث ابى عبيدة بن الجراح رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ان أول دينكم نبوة ورحمة ثم يكون خلافة ورحمة ثم يكون ملكا وجبرية • فثبت بالنص ان مدة الخلفاء الاربعة خلافة ورحمة وكذا مدة سيدنا الحسن رضى الله عنه وكانت ستة أشهر وأياما والله أعلم

الثانى فى ترتيبهم

(الثانى) ترتيبهم فى الافضلية على ترتيبهم فى الخلافة وهذا قول عامة أهل السنة من أهل الحديث والفقه والكلام من الاثرية والاشعرية والماتريدية وغيرهم ، قال الامام أحمد رضى الله عنه : علي رضوان الله عليه رابعهم في الخلافة والتفضيل . وقال : من فضل عليا على أبي بكر وعمر أو قدمه عليهما في الفضيلة والامامة دون النسب فهو رافضى مبتدع فاسق. ذكره القاضى أبو يعلى . قال ابن حمدان في نهاية المبتدئين : فان فضله - يعنى عليا رضى الله عنه على عثمان رضى الله عنه فكذلك ، يعنى انه يكون رافضيا مبتدعا فاسقا ، وفي رواية أخرى لا يكون رافضيا مبتدعا بتفضيل علي على عثمان رضى الله عنهما ، وتبرأ الامام أحمد رضى الله عنه ممن ضللهم أو أحدا منهم ا هـ .

الثالث ذكر بعض الخلاف

(الثالث) اعلم ان الذى أطبق عليه عظماء الملة وعلماء الامة ورؤساء الأئمة ان أفضل هذه الأمة بعد نبيها صلى الله عليه وسلم الصديق الأعظم أبو بكر بن أبي قحافة، ثم عمر الفاروق بن الخطاب رضى الله عنهما ، ثم اختلفوا فالأكثرون ومنهم الامام أحمد والامام الشافعي وهو المشهور عن الامام مالك رضى الله عنهم ان الافضل بعد أبي بكر وعمر رضى الله عنهما عثمان بن عفان ، ثم علي بن أبي طالب رضى الله عنهما ، وجزم الكوفيون ومنهم سفيان الثوري بتفضيل علي على عثمان ، وقيل بالوقف عن التفضيل بينهما وهو رواية عن مالك فقد حكى أبو عبد الله المازري عن المدونة أن مالكا

سئل أي الناس أفضل بعد نبيهم ؟ فقال : أبو بكر ثم عمر ، ثم قال : أو في ذلك شك ؟ فقيل له وعلي وعثمان ؟ فقال ما أدركت أحدا ممن أقتدى به يفضل أحدهما على الآخر ، انتهى .

وقوله : أو في ذلك شك ؟ يريد ما سنحرره أن تفضيل أبي بكر وعمر على بقية الامة قطعى ، نعم حكى القاضى عياض عن الامام مالك انه رجع عن التوقف الى تفضيل عثمان ، قال القرطبى وهو الاصح ان شاء الله تعالى ، وقد نقل التوقف ابن عبد البر عن جماعة من السلف منهم الامام مالك ويحيى القطان وابن معين ، قال الامام يحيى بن معين : ومن قال أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وعرف لعلي سابقته وفضله فهو صاحب سنة ، ولاشك ان من اقتصر على عثمان ولم يعرف لعلي فضله فهو مذموم ، ومن ثم يعلم ان حكاية الاجماع على أن عثمان أفضل من على رضى الله عنهما مدخول بل الخلاف معلوم ، نعم معتمد محققي أهل السنة أن الخلفاء الراشدين فى ترتيب الافضلية على نسق ترتيب الخلافة وهذا منصوص الامام أحمد وغيره من أئمة الاسلام لكن التفضيل في طرف أبي بكر وعمر رضى الله عنهما قطعي على المعتمد وقيل ظني كما عند الباقلانى وغيره .

الرابع تلازم المحبة الدينية واعتقاد الافضلية

(الرابع) سئل الامام أبو زرعة الولى العراقى عمن اعتقد فى الخلفاء الاربعة الافضلية على الترتيب المعلوم ولكن يحب أحدهم أكثر هل يأثم أو لا ؟ فأجاب بأن المحبة قد تكون لأمر دينى وقد تكون لأمر دنيوي ، فالمحبة الدينية لازمة للافضلية فمن كان أفضل كانت محبتنا الدينية له أكثر فمتى اعتقدنا في واحد منهم انه أفضل ثم أحببنا غيره من جهة الدين أكثر كان تناقضا ، نعم ان أحببنا غير الافضل أكثر من محبة الافضل لأمر دنيوي كقرابة واحسان ونحوه فلا تناقض في ذلك ولا امتناع ، فمن اعترف بأن أفضل هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي لكنه أحب عليا أكثر من أبي بكر مثلا فان كانت المحبة المذكورة محبة دينية فلا معنى لذلك اذ المحبة الدينية لازمة للافضلية كما قررناه وهذا لم يعترف بأفضلية أبي بكر الا بلسانه واما بقلبه فهو مفضل لعلي لكونه أحبه محبة دينية زائدة على محبة أبي بكر وهذا لا يجوز ، وان كانت المحبة المذكورة محبة

دنيوية لكونه من ذرية علي أو لغير ذلك من المعاني فلا امتناع فيه . انتهى .
وعلى كل حال المحبة الدينية لازمة للافضلية على حسب زيادتها ونقصها
وبالله التوفيق

((وبعد فالأفضل باقي العشرة   فأهل بدر ثم أهل الشجرة))

((وبعد)) أي بعد الخلفاء الراشدين ((فالأفضل)) من سائر الصحابة المكرمين ((باقى العشرة)) المشهود لهم بالجنة على لسان سيد العالمين وخاتم المرسلين ، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين ، وهم الستة الذين توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض ، رضوان الله تعالى عليهم أجمعين .

باقى العشرة

طلحة

(أحدهم) أبو محمد طلحة بن عبيد الله بن عثمان بن كعب بن سعد ابن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب القرشى التيمي ، وأمه الصعبة بنت عبد الله بن عماد الحضرمي أخت العلاء بن الحضرمي أسلمت وأسلم طلحة قديما على يد أبي بكر الصديق ، وشهد المشاهد كلها غير بدر لان النبى صلى الله عليه وسلم كان أنفذه مع سعيد بن زيد يتعرفان خبر العير التى كانت لقريش مع أبي سفيان بن حرب فعادا يوم اللقاء ببدر ، وثبت مع النبى صلى الله عليه وسلم يوم أحد ووقاه بيده فشلت أصبعه ، وجرح يومئذ أربعة وعشرين جراحة ، وقيل كانت فيه خمس وسبعون بين طعنة وضربة ورمية كما في جامع الاصول وسماه النبى صلى الله عليه وسلم يوم أحد طلحة الخير ، وسماه يوم غزوة ذات العشيرة طلحة الفياض ، ويوم حنين طلحة الجود . وكان آدم كثير الشعر ليس بالجعد القطط ولا بالسبط ، حسن الوجه دقيق العرنين لا يغير شعره . قتل رضى الله عنه يوم وقعة الجمل يوم الخميس لعشرين بقين من جمادى الآخرة سنة ست وثلاثين ، ويقال ان مروان بن الحكم قتله وقيل أصابه سهم في حلقه ودفن بالبصرة وله أربع وستون سنة ، وقيل اثنتان وستون ، يلتقى مع النبي صلى الله عليه وسلم في مرة بن كعب ، وروى له عن النبي صلى الله عليه وسلم ثمانية وثلاثون حديثا منها في الصحيحين سبعة المتفق عليه منها حديثان وانفرد البخاري بحديثين ومسلم بثلاثة ، وروى عنه السائب بن يزيد

وعبد الرحمن بن عثمان بن عبيد الله التيمي وأبو عثمان النهدي وقيس بن أبي حازم وموسى بن طلحة وغيرهم •

الزبير

(الثانى) أبو عبـــد الله الزبير بن العوام بن خويلد بن أســـد بن عبد العـــزى بن قصى بن كلاب بن مرة بن كعب لؤى بن غالب القرشى الاسدي وأمه صفية بنت عبد المطلب رضى الله عنها عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم أسلمت وأسلم هو قديما على يد أبي بكر الصديق رضى الله عنهم وهو ابن ست عشرة سنة فعذبه عمه بالدخان ليترك الاسلام فلم يفعل وهاجر الى أرض الحبشة الهجرتين ، وشهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم المشاهد كلها ، وهو أول من سل السيف في سبيل الله وثبت مـــع النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد ، وكان أبيض طويلا ، ويقال لم يكن بالطويل ولا بالقصير يميل الى الخفة في اللحم ، ويقال كان أسمر خفيف العارضين ، قتله عمير بن جرموز بسفوان من أرض البصرة فى وقعـــة الجمل سنة ست وثلاثين وله أربع وستون سنة ، ودفن بوادى السباع ثم حول الى البصرة وقبره بها مشهور ، يجتمع نسبه مع النبى صلى الله عليه وسلم في قصى ، روي له عن النبي صلى الله عليه وسلم ثمانيـــة وثلاثون حديثا ، منها في الصحيحين تسعة المتفق عليه منها حديثان وباقيها للبخارى ، روي عنه ابناه عبد الله وعروة وغيرهما ، وهو أحد الشجعان المشـــهورة وحواري رسولا لله صلى الله عليه وسلم •

سعد

(الثالث) أبو اسحاق سعد بن أبي وقاص واسم أبي وقاص مالك بن وهيب ويقال أهيب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب القرشى الزهري وأمه حمنة بنت سفيان وقيل بنت أبيسفيان ابن عبد شمس بن عبد مناف أسلم قديما على يد أبى بكر الصديق رضىالله عنهما وهو ابن سبع عشرة سنة وقال كنت ثالثا في الاسلام وأنا أول من رمي بسهم في سبيل الله ، شهد المشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان قصيرا غليظا ذا هامة شثن الاصابع آدم أفطس أشعر الجسد وفداه النبى صلى الله عليه وسلم يوم أحد بأبويه أى قال له « ارم فداك أبي وأمي » مات رضى الله عنه في قصره بالعقيق قريبا من المدينة فحمل على رقاب الرجال الى المدينة وصلى عليه مروان بن الحكم وهو يومئذ والي

المدينة من قبل معاوية ودفن بالبقيع وذلك سنة خمس وخمسين وقيل سبع وخمسين وله بضع وسبعون سنة وقيل اثنان وثمانون ، وهو آخر العشرة موتا وكان قد اعتزل الفتنة ، وكف بصره فى آخر عمره رضى الله عنه ، روى له عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مائتان وسبعون حديثا منها فى الصحيحين ثمانية وثلاثون حديثا اتفقا منها على خمسة عشر وانفرد البخارى بخمسة ومسلم بثمانية عشر ، روى عنه عبد الله بن عمر وجابر بن سمرة وعامر ومحمد ومصعب بنوه وابراهيم بن عبد الرحمن بن عوف وابن المسيب وأبو عثمان النهدي وقيس بن أبى حازم وغيرهم •

سعيد

(الرابع) أبو الاعور سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل بن عبد العزى وباقى نسبه معروف من نسب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب القرشى العدوى وأمه فاطمة بنت بعجة بفتح الموحدة وسكون العين المهملة وبالجيم ابن أمية من خزاعة أسلم قديما قبل أن يدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم دار الارقم ، شهد المشاهد كلها مع النبى صلى الله عليه وسلم غير بدر فانه كان مع طلحة بن عبيد الله يطلبان خبر عير قريش كما تقدم آنفا وضرب لهما النبي صلى الله عليه وسلم بسهميهما في الغنيمة والاجر ، كان آدم طويلا أشعر مات بالعقيق قريبا من المدينة فحمل اليها ودفن بها سنة احدى وخمسين وقيل اثنتين وخمسين وله بضع وسبعون سنة وقيل مات بالكوفة ودفن بها يجتمع مع نسب النبي صلى الله عليه وسلم في لؤي ، روي له عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ثمانية وأربعون حديثا منها فى الصحيحين ثلاثة المتفق عليه منها اثنان والثالث للبخارى •

عبد الرحمن بن عوف

(الخامس) أبو محمد عبد الرحمن بن عوف بن عبد عوف بن عبد الحارث بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب القرشى الزهري كان اسمه في الجاهلية عبد عمرو فسماه النبي صلى الله عليه وسلم عبد الرحمن ، وأمه الشفاء بنت عوف بن عبد الحارث بن زهرة أسلمت وهاجرت ، وفي الزهر السام أمه صفية بنت عبد مناف بن زهرة ويقال الشفاء بكسر الشين المعجمة وبالفاء بنت عوف وأسلم هو قديما على يد أبي بكر الصديق رضى الله عنهما ، وهاجر الى الحبشة الهجرتين ، وشهد المشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وثبت معه يوم أحد وصلى

النبى صلى الله عليه وسلم خلفه في غزوة تبوك وأتم ما فاته • كان طويلا رقيق البشرة أبيض مشربا بحمرة ضخم الكفين أقنى ، وقيل كان ساقط الثنيتين أعرج أصيب يوم أحد وجرح عشرين جراحة أو أكثر فأصابه بعضها في رجله فعرج • ولد بعد الفيل بعشر سنين ومات سنة اثنتين وثلاثين ودفن في البقيع وله ثنتان وسبعون سنة وقيل خمس وسبعون سنة ، ويلقى نسب النبى صلى الله عليه وسلم في كلاب بن مرة ، روي له عن رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسة وستون حديثا منها في الصحيحين سبعة أحاديث المتفق عليه منها حديثان وباقيها للبخاري روي عنه ابن عباس وابنه ابراهيم وبجالة بن عبد وغيرهم رضى الله عنهم •

(السادس) أمين الامة أبو عبيدة عامر بن عبد الله بن الجـــراح بن هلال بن أهيب بن ضبة بن الحارث بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة القرشى الفهرى أسلم مع عثمان بن مظعون وهاجر الى الحبشة الهجرةالثانية وشهد المشاهد كلها مع النبى صلى الله عليه وسلم وثبت معه يوم أحد ونزع الحلقتين اللتين دخلتا في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحـــد من حلق المغفر بفيه فوقعت ثنيتاه فكان أحسن الناس هتما ، كان رضى الله عنه طوالا معروق الوجه خفيف اللحية مات فى طاعون عمواس بالاردن سنة ثمانى عشرة ودفن هناك وقبره مشهور يزار ويتبرك به ، وروي له عن رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسة عشر حديثا ولم يخرج له البخارى في صحيحه شيئا ولا أخرج له مسلم الا في حديث العنبر من رواية أبى الزبير عن جابر بن عبد الله رضى اللهعنهم وهو قوله يعنى قول أبى عبيدة ابن الجراح رضي الله عنه نحن رسل رسول الله صلى الله عليه وسلموهو معنى تام فسموه حديثا • فهؤلاءالعشرة المذكورون فى حديث عبد الرحمن ابن عوف رضى الله عنه عن النبىصلىالله عليه وسلم أنه قال « ابو بكر فى الجنة وعمر فى الجنة وعثمان فى الجنة وعلى فى الجنة وطلحة فى الجنة والزبير فى الجنة وعبد الرحمن بن عوف فى الجنة وسعد بن أبى وقاص فى الجنة وسعيد بن زيد فى الجنة وأبو عبيـــدة بن الجراح فى الجنة » رواه الترمذى وأخرج أبو داود والترمذى عن رباح بن الحارث

قال كنت قاعدا عند فلان فى الكوفة فى المسجد وعنده اهل الكوفة فجـاء سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل فرحب به وحياه وأقعده على السرير فجاء رجل من اهل الكوفة يقال له قيس بن علقمة فاستقبله فسب وسب فقال سعيد من يسب هذا الرجل ؟ فقال يسب عليا ، فقال لا أرى أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم يسبون عندك ثم لا تنكر ولا تغير، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول - وانى لغنى ان أقول عليه ما لم يقل فيسألنى عنه غدا اذا لقيته - « أبو بكر فى الجنة وعمر فى الجنة وعثمان فى الجنة وعلى فى الجنة وطلحة فى الجنة والزبير فى الجنة وسعد فى الجنة وعبد الرحمن بن عوف فى الجنة وأبو عبيدة بن الجراح فى الجنة » وسكت عن العاشر، قالوا ومن هو العاشر ؟ قال: سعيد بن زيد - يعنى نفسه - ثم قال يعنى سعيد بن زيد رضى الله عنه : والله لمشهد رجل منهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يغبر فيه وجهه خير من عمل احدكم ولو عمر نـوح • زادرزين ثم قال لا جرم لما انقطعت اعمالهم أراد الله تعالى ان لا ينقطـع الاجر عنهم الى يوم القيامة والشقى من أبغضهم والسعيد من أحبهم •ولفظ الترمذى : أشهد على التسعة انهم فى الجنة ولو شهدت على العاشر لم آثم قال : عبد الله بن ظالم المازنى قلت لسعيد بن زيد رضى الله عنه مـن التسعة ؟فذكرهم ،قلت ومن العاشر ؟ فتلكأهنيهة ثم قال: أنا•وللترمذى فى رواية أخرى عن سعيد بن زيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « عشرة فى الجنة » فعد التسعة وسكت عن العاشر فقال القوم ننشدك الله يا أبا الاعور من العاشر ؟ قال : نشدتمونى بالله ، أبو الاعور فى الجنة •أبو الاعور هو سعيد بن زيد والاحاديث فى هذا المعنى كثيرة ويكفى ما أخرجه الترمذى عن عقبة بن علقمة اليشكرى قال سمعت على بن أبى طالب رضى الله عنه يقول يعنى بعد وقعة الجمل سمعت اذنى من رسول الله صـلى الله عليه وسلم وهو يقول : طلحة والزبير جاراى فى الجنة • وبعد العشرة أى الذين يلونهم فى الافضلية •

أهل بدر

((فأهل)) غزوة ((بدر)) العظمى وهى البطشة الكبرى ويقال لها بدر القتال ويوم الفرقان كما رواه ابن جرير وابن المنذر وصححه الحاكم

ءن ابن عباس رضى الله عنهما قال لان الله تعالى فرق فيه بين الحق والباطل وهى التى أعز الله بها الاسلام وقمع بها عبدة الاصنام ، وبدر قرية مشهورة ولم تزل من يومئذ بأهل الاسلام معمورة على نحو أربعة مراحل من المدينة النبوية قيل نسبت الى بدر بن مخلد بن النضر بن كنانة وقيل الى بدر بن الحارث ، وقيل الى بدر بن كلدة ، وقيل بل بدر اسم للبئر التى بها سميت بذلك لاستدارتها أو لصفائها فكأن البدر يرى فيها ، وقيل بل هو علم على البلد المذكور كغيرها من أسماء البلاد ، قال البغوى وهو قول الاكثر • وكانت وقعة بدر نهار الجمعة لسبع عشر خلت من شهر رمضان من السنة الثانية من الهجرة وكان عدد المسلمين ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا، روى البخارى عن البراء بن عازب رضى الله عنهما قال كنا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم نتحدث ان عدة أصحاب بدر على عدة أصحاب طالوت الذين عبروا معه النهر ولم يجاوزه معه الا مؤمن ، بضعة عشر وثلاثمائة • وفي حديث أبى أيوب الانصاري رضى الله عنه عند ابن جرير وابن ابى حاتم والطبرانى والبيهقى قال أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نعتد ففعلنا فاذا نحن ثلثمائة وثلاثة عشر فأخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بعدتنا فسر بذلك وحمد الله تعالى وقال :عدة أصحاب طالوت • وروى الامام احمد وابن أبى شيبة ومسلم وأبو داود والترمذى وأبو عوانة وابن حبان من حدبث أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال لما كان يوم بدر نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم الى اصحابه وهم ثلاثمائة وبضعة عشر - ولفظ مسلم تسعة عشر رجلا ، ونظر الى المشركين فاذا هم ألف وزيادة ، الحديث • وروى البزار بسند حسن عن أبى موسى الاشعرى رضى الله عنه قال : كانت عدة أهل بدر عدة أصحاب طالوت يوم جالوت، ثلثمائة وسبعة عشر • وفى الفتح ثلاثة عشر بدل سبعة عشر• وفى الصحيح عن موسى بن عقبة عن الزهرى قال : جميع من شهد بدرا من قريش من ضرب لهسهمه احد وثمانون مع ان البخارى واسحاق بن راهويه اخرجا عن البراء بن عازب رضى الله عنهما قال كان المهاجرون يوم بدر نيفا على الستين والانصار نيفا وأربعين ومائتين،

قال الحافظ ابن حجر والجمع بين هذين الحديثين ان حديث البراء في من شهد بدرا حسا وقول الزهرى فى من شهدها بالعدد حكما ممن ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم له بسهمه وأجره ، او المراد بالعدد الاول الاحرار وبالثانى بانضمام مواليهم واتباعهم • واذا تحرر هذا فجميع من شهد القتال ثلاثمائة وخمسة او ستة فقد عد ثمانية أنفس من اهل بدر ولم يشهدوها وانما ضرب لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم معهم بسهامهم لكونهم تخلفوا لضرورات لهم وهم عثمان بن عفان وطلحة وسعيدوالحارث ابن حاطب والحارث بن الصمة وخوات بن جبير وعاصم بن عدى وأبو لبابة رضى الله عنهم • واستشهد من المسلمين فى وقعة بدر أربعة عشر نفسا ستة من المهاجرين وثمانية من الانصار رضى الله عنهم أجمعين • وقتل من الكفار سبعون وأسر سبعون • وقد روى الطبرانى بسند رجاله ثقات عن ابن مسعود رضى الله عنه قال ان الثمانية عشر الذين قتلوا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر جعل الله تعالى ارواحهم فى الجنة فى طير خضر تسرح فى الجنة فبينما هم كذلك اذ اطلع عليهم ربهم اطلاعة فقال يا عبادى ماذا تشتهون ؟ فقالوا يا ربنا هل فوق هذا من شيء قال فيقول عبادى ماذا تشتهون فيقولون فى الرابعة ترد أرواحنا فى أجسادنا فنقتل كما كما قتلنا • وروي البخاري عن رفاعة بن رافع الزرقي رضى الله عنه وكان من أهل بدر قال جاء جبريل الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال ما تعدون أهل بدر فيكم؟ قال من أفضل المسلمين - أو كلمة نحوها، قال كذلك من شهد بدرا من الملائكة • وروى نحوه الامام أحمد من حديث رافع بن خديج ، قال الحافظ ابن الجوزى فى جامع المسانيد كذا وقع فى مسند الامام أحمد والظاهر انه غلط من بعض الرواة وانما هو حديث رافع بن رفاعة(؟) الزرقى لا ابن خديج ويحتمل أن يكون سمعه ابن خديج من رسول الله صلى الله عليه وسلم • وأخرج الامام أحمد بسند صحيح على شرط مسلم عن جابر رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لن يدخل النار رجل شهد بدرا والحديبية • وروى أبو داود وابن ماجه والطبرانى بسند جيد عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اطلع

الله على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » وروى الامام احمد عن ام المؤمنين حفصة رضى الله عنها قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « انى لأرجو أن لا يدخل النار ان شاء الله أحد شهد بدرا والحديبية » قالت قلت أليس الله تعالى يقول ﴿ وان منكم الا واردها ﴾ قال فسمعته يقول (ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا) وأخرج مسلم والترمذى من حديث جابر رضى الله عنه ان عبدا لحاطب جاء يشكو الى رسول الله صلى الله عليه وسلم حاطبا فقال يا رسول الله ليدخلن حاطب النار فقال « كذبت لا يدخلها فانه قد شهد بدرا والحديبية » وفى الصحيح عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه فى قصة كتاب حاطب وان عمر بن الخطاب قال يا رسول الله دعنى اضرب عنقه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أليس من أهل بدر ولعل الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم — أو قال — قد وجبت لكم الجنة » وفى المعنى أحاديث غير ما ذكرنا •

تنبيه فى معنى اعملوا ما شئتم

(تنبيه)

قد استشكل جمع قوله « اعملوا ما شئتم » فان ظاهره انه للاباحة وهو خلاف عقد الشرع وأجيب بأنه اخبار عن الماضى اى كل عمل كان لكم فهو مغفور ويؤيده انه لو كان لما يستقبلونه من العمل لم يقع بلفظ الماضى ولقال فسأغفره لكم وتعقب بأنه لو كان للماضى لما حسن الاستدلال به فى قصة حاطب لانه صلى الله عليه وسلم خاطب بذلك عمر رضى الله عنه منكرا عليه ما قال فى أمر حاطب وهذه القصة كانت بعد بدر بست سنين فدل على أن المراد ما سيأتى وأورده بلفظ الماضى مبالغة فى تحقيقه فان أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه قال لحاطب قاتلك الله ترى رسول الله صلى الله عليه وسلم يأخذ بالانقاب وتكتب الى قريش تحذرهم ؟ دعنى يارسول الله أضرب عنقه فان الرجل قد نافق • فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « وما يدريك يا عمر أن الله عزوجل اطلع على أصحاب بدر يوم بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » فاغرورقت عينا عمر وقال الله ورسوله اعلم • حين سمعه يقول فى أهل بدر ما قال وأنزل الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا

لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء ـ الى قوله ـ والله بما تعملون بصير)وقيل ان صيغة الامر فى قوله اعملوا للتشريف والتكريم فالمراد عدم المؤاخذة بما يصدر عنهم وانهم خصوا بذلك لما حصل لهم من الحال العظيــــمة التى اقتضت محو ذنوبهم السالفة وتأهلوا لان يغفر لهم الذنوب اللاحقة اى كلما عملتموه بعد هذه الوقعة من أى عمل كان فهو مغفور ، وقيل المـــراد أن ذنوبهم تقع اذا وقعت مغفورة ، وقيل هى شهادة بعدم وقوع الذنوب منهم ، وفيه نظر ظاهر لما ثبت فى قصة قدامة بن مظعون حين شرب الخمر فى خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه متأولا فحده عمر ثم هاجره بسبب ذلك فرأى عمر فى المنام من يأمره بمصالحته وكان قدامة بدريا . والذى يفهم من سياق القصة الاحتمال الثانى واتفق العلماء على أن البشارة المذكورة فيما يتعلق بأحكام الآخرة لا فيما يتعلق بأحكام الدنيـــا من اقامة الحدود ونحوها والله أعلم على أنه زعم أناس أن قوله تعـــالى (ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله) الآية وفيها (فأعقبهم نفاقا) الآية نزلت فى ثعلبة بن حاطب او ابن ابى حاطب بن عمرو بن عبيد بن أمية بن زيد بن عوف الانصارى الاوسى وقد ذكروه من البدريين وقدعده الحافظ ابن الجوزى فى منتخب المنتخب من أهل بدر ثم عده فى الـــكتاب المذكور من جملة المنافقين ثم قال قال ابن عباس رضى الله عنهما كان المنافقون من الرجال ثلثمائة ومن النساء مائة وسبعين . قال ابن الجوزى وقد كان فيهم من شهد بدرا فتغيرت حاله كثعلبة ومعتب بن قشير نعوذ بالله من الخذلان . انتهى . وقال ابن الكلبى ان ثعلبة البدرى قتل بأحد وقال الحافظ ابن حجر فى الاصابة فى ترجمة ثعلبة بن حاطب او ابن ابى حاطب الانصارى ذكره ابن اسحق فى من بنى مسجد الضرار ، قال الحافظ ابن حجر وفى كون صاحب القصة ان صح الخبر ولا أظنه يصح هو البدرى المذكور قبله نظر وقد تأكدت المغايرة بينهما بقول ابن الكلبى ان البدرى استشهد بأحد ، ويقوى ذلك أيضا ان ابن مردويه روى فى تفسيره من طريق عطية عن ابن عباس رضى الله عنهما فى الآية المذكورة يعنى (ومنهم من عاهد الله) قال نزل ذلك فى رجل يقال له ثعلبة بن أبى حاطب من الانصار أتى مجلســـا

فأشهدهم فقال لئن آتانا الله من فضله ـ الآية فذكر القصة مطولة فقال انه ثعلبة بن أبى حاطب والبدرى اتفقوا على أنه ثعلبة بن حاطب وقد ثبت أنه صلى الله عليه وسلم قال لا يدخل النار أحد شهد بدرا والحديبية وحكى عن ربه تبارك وتعالى أنه قال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم فمن يكون بهذه المثابة كيف يعقبه الله تعالى نفاقا فى قلبه وينزل فيه ما نزل ، فالظاهر أنه غيره والله تعالى أعلم •

أهل الشجرة

((ثم)) بعد أهل بدر فالافضلية لـ ((أهل)) بيعة الرضوان تحت ((الشجرة)) المعهودة وتسمى شجرة البيعة وشجرة الرضوان وهى شجرة خضراء سمرة بفتح المهملة وضم الميم من شجر الطلح وهو نوع من العضاه أو من سدر كما رواه مسلم عن جابر ، ولما كانت خلافة أمير المـؤمنين عمر ابن الخطاب رضى الله عنه بلغه ان ناسا يذهبون الى الشجرة فيصلون تحتها ويتبركون بها فأمر رضى الله عنه بها فقطعت وأخفى مكانها خشية الافتتان بها ولما وقع تحتها من الخير فلو بقيت لما أمن من تعظيم أهل الجهل لها حتى ربما أفضى بهم جهلهم الى أن بها قوة نفع وضر كما هو مشاهد من شأن الناس فى هذه الازمان ومذ أزمان من تعظيم ما هو دونها من الشجر والبقاع ، ومن ثم قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه كانت رحمة من الله يعنى اخفاءها بعد ذلك او كانت موضع رحمة من الله ومحل رضوانه لانزاله الرضى على المؤمنين عندها •

((وقيل اهل أحد المقدمة والأول أولى للنصوص المحكمة))

أهل أحد

وقوله ((وقيل اهل)) غزوة جبل ((أحد المقدمة)) أى فى الزمن والافضلية اشارة الى أن الاصح الافضل اهل بدر فأهل أحد فأهل البيعة وقوله ((والأول)) وهو تقديم أهل البيعة فى الافضلية على أهل غزوة أحد ((أولى)) وأحق وأحرى بذلك وذلك ((لـ)) ورود ((النصوص المحكمة)) من الكتاب والسنة من أحاديث نبى الرحمة صلى الله عليه وسلم وكانت غزوة أحد فى نصف شوال سنة ثلاث أول نهار السبت وفى الفتح لاحدى عشر خلت منه وقيل لتسع وقيل لثمان وقيل لسبع • وأحد بضم الهمزة والحاء والدال المهملتين هو جبل أحمر ليس بذى شناخب بينه وبين المدينة

أقل من فرسخ وهو فى شمالها الى الشرق ، روى الشيخان عن أنس رضى الله عنه وابن ابى شيبة والطبرانى بسند جيد عن سويد بن عامر الانصارى، والبخارى عن ابى حميد الساعدى، والبخارى عن سهل بن سعد ،والطبرانى عن ابى هريرة وغيرهم رضى الله عنهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأحد لما بدا له « هذا جبل يحبنا ونحبه » وتكرر منه صلى الله عليه وسلم هذا القول مرات ، وفى الطبرانى عن سهل بن سعد مرفوعا « أحد ركن من أركان الجنة » قال ياقوت أحد اسم مرتجل لهذا الجبل • وقال السهيلى سمى أحدا لتوحده وانقطاعه عن جبال أخر هناك أو لما وقع من أهله من نصرة التوحيد ولا أحسن من اسم مشتق من الأحدية وأهله هم الانصار نصروا التوحيد والمبعوث بدين التوحيد عنده استقر حيا وميتاء اذا علمت هذا فظاهر كلام متكلمى الاشاعرة ان أهل غزوة أحد يلون أهل بدر فى الافضلية وكان عدة أهل غزوة أحد بعد انخزال ابن ابى سبعمائة ، وكان المشركون ثلاثة آلاف وعدة من استشهد يومئذ من المسلمين سبعون رجلا منهم أربعة من المهاجرين وهم سيد الشهداء حمزة ومصعب وعبدالله ابن جحش وشماس بن عثمان ، وسائرهم من الانصار وزاد بعضهم من المهاجرين سعد مولى حاطب بن أبى بلتعة وثقف بن عمرو الاسلمى حليف بنى عبد شمس ، وهذا يوافق ما رواه ابن حبان والحاكم عن أبى بن كعب رضى الله عنه قال أصيب يوم أحد من الانصار أربعة وستون ومن المهاجرين ستة • والذى يظهر لى والله أعلم أنه ان أريد شهداء أحد فنعم والافيحتاج الى توقيف فتفطن له • فقد وردت الاحاديث فى فضل شهداء أحد كقوله صلى الله عليه وسلم فى حق عبد الله والد جابر رضى الله عنهما « ما زالت الملائكة تظله بأجنحتها حتى رفعتموه » رواه البخارى وأخرج ابن المنذر عن أنس رضى الله عنه قال لما قتل حمزة واصحابه يوم أحد قالوا يا ليت لنا مخبرا يخبر اخواننا بالذى صرنا اليه من كرامة الله تعالى لنا فأوحى اليهم سبحانه وتعالى أنا رسولكم الى اخوانكم فأنزل الله عزوجل (ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا) الى قوله (لا يضيع أجر المؤمنين) وأخرج الامام أحمد ومسلم وأبو داود عن ابن عباس رضى الله عنهما قال

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لما أصيب اخوانكم بأحد جعل الله تعالى أرواحهم فى أجواف طير خضر ترد انهار الجنة وتأكل من ثمارها وتأوى الى قناديل من ذهب معلقة فى ظل العرش فلما وجدوا طيب مشربهم وحسن مقيلهم قالوا يا ليت اخواننا يعلمون ما صنع الله تعالى لنا - وفى لفظ - قالوا من يبلغ اخواننا انا أحياء فى الجنة نرزق لئلا يزهدوا فى الجهاد ولا ينكلوا عن الحرب، فقال الله عز وجل انا أبلغهم عنكم فأنزل الله تعالى هؤلاء الآيات (ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا) الى آخر الآيات ، وروى نحوه عبد الرزاق فى المصنف وابن أبى شيبة والامام أحمد في المسند ومسلم في الصحيح من حديث ابن مسعود • وكان صلى الله عليه وسلم يزور شهداء أحد فاذا بلغ فرضة الشعب يقول «السلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار » ثم كان أبو بكر رضى الله عنه بعد النبى صلى الله عليه وسلم يفعله وكذا عمر وعثمان رضى الله عنهما ، ولما أجرى معاوية رضى الله عنه العين فمرت على الشهداء فأخرجهم طرايا تنثنى أطرافهم وجدوا والد جابر ويده على جرحه فأميطت يده عن جرحه فانبعث الدم فردت الى مكانها فسكن الدم قال جابر فرأيت ابى فى حفرته كأنه نائم والنمرة التى كفن فيها كما هى وكان ذلك بعد أحد بست وأربعين سنة وأصابت المسحاة رجل رجل منهم وهو حمزة فانبعث الدم فقال ابو سعيد الخدرى رضى الله عنه لا ينكر بعد هذا منكر ، وكانوا وهم يحفرون يفيح عليهم من القبور ريح المسك •وروى الحارث فى مسنده عن سعد بن ابى وقاص والحاكم عن جابر بن عبدالله رضى الله عنهم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اذا ذكر اصحاب أحد يقول « أما والله لوددت انى غودرت مع أصحابى بنحض الجبل » يعنى شهداء أحد والاحاديث فى ذلك كثيرة جدا •

وأما أهل الشجرة يعنى أهل البيعة وهم أصحاب الحديبية فقد وردت النصوص المحكمة في فضلهم كما سنذكر طرفا من ذلك والحديبية بحاء مضمومة فدال مهملتين والدال مفتوحة فموحدة مكسورة فتحتية مفتوحة بالتخفيف والتشديد قال النحاس سألت كل من لقيت ممن أثق به من أهل

العلم عن الحديبية فلم يختلفوا على قراءتها مخففة ونص فى البارع على التخفيف وحكى التشديد عن ابن سيده فى المحكم قال فى تهذيب المطالع ولم أره لغيره وزعم بعضهم ان التشديد لم يسمع فى فصيح ، وقال الامام النووى هما وجهان مشهوران ، قال البكرى قريبة من مكة اكثرها من الحرم وفى صحيح البخارى عن البراء رضى الله عنه والحديبية بئر ، قال الحافظ ابن حجر يشير الى المكان المسمى بالحديبية سمى ببئر كانت هناك هذا اسمها ثم عرف المكان كله بذلك ، وبينها وبين مكة نحو مرحلة واحدة ومن المدينة تسع مراحل ، وكانت فى ذى القعدة من السنة السادسة وكان عدة المسلمين الذين مع رسول الله عليه وسلم ورضى عنهم أربعة عشر مائة واكثر من ذلك ، ولعل الزائد على الالف واربع مائة من الخدام والاتباع واما نفس المقاتلة فأربعة عشر مائة ، واما قول ابن اسحق كانوا سبعمائة فغلط لم يوافق عليه وكان سبب البيعة ان قريشا لما صدت النبى صلى الله عليه وسلم والمسلمين عن المسجد الحرام فبعث عثمان بن عثمان رضى الله عنه وقال له اذهب الى قريش وأخبرهم أنا لم نأت لقتال وانما جئنا عمارا وادعهم الى الاسلام ثم بلغه أن عثمان رضي الله عنه قد قتلته قريش فدعا الناس الى البيعة وقال : « لانبرح حتى نناجز القوم » روى ابن جرير وابن أبى حاتم من حديث سلمة بن الاكوع رضى الله عنه والبيهقى عن عروة وابن اسحاق عن الزهرى ومحمد بن عمر عن شيوخه قال سلمة رضى الله عنه : بينا نحن قائلون اذ نادى منادى رسول الله صلى الله عليه وسلم ايها الناس البيعة البيعة نزل روح القدس فاخرجوا على اسم الله قال سلمة فسرنا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو تحت شجرة سمر فبايعناه • وفى صحيح مسلم قال فبايعته أول الناس ثم بايعته وسط الناس ثم بايعته آخر الناس • والصحيح أن الذى بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم اول الناس فى تلك البيعة أبو سنان الاسدى فقال ابسط يدك ابايعك فقال صلى الله عليه وسلم علام تبايعنى ؟ قال على مافى نفسك ، قال ومافى نفسى ؟ قال : اضرب بسيفى بين يديك حتى يظهرك الله أو اقتل • فبايعه وبايعه الناس على بيعة أبى سنان، وضرب

رسول الله صلى الله عليه وسلم باحدى يديه على الاخرى عن عثمان بن عفان رضى الله عنه وقال اللهم ان عثمان فى حاجتك وحاجة رسولك فكانت يد رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمثان خيرا من أيديهم لأنفسهم ، ثم تبين كذب الخبر بقتل عثمان رضى الله عنه فقدم على النبى صلى الله عليه وسلم هو ومن معه وكانوا عشرة وذلك بعد البيعة ، ثم كانت الهدنة بين النبى صلى الله عليه وسلم وبين قريش • وقد روى البخارى ومسلم وغيرهما فى حديث جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال كنا فى الحديبية ألفا واربعمائة فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم انتم خير اهل الارض • وروى الامام أحمد ومسلم وأبو داود والترمذى عن جابر بن عبد الله ايضا رضى الله عنهما ومسلم عن ام بشر رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لايدخل النار أحد بايع تحت الشجرة » وأخرج الامام أحمد أيضا بسند رجاله ثقات عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال لاهل الحديبية « لايدرك قوم بعدكم صاعكم ولا مدكم » وسأل ابو الزبير جابرا كم كانوا يوم الحديبية قال : كنا أربع عشرة مائة فبايعناه وعمر آخذ بيده تحت الشجرة وهى سمرة فبايعناه غير جد بن قيس الانصارى اختفى تحت بطن بعير ، وقال بايعناه على أن لانفر ، وعند ابن اسحاق قال جابر رضى الله عنه فكأنى انظر اليه يعنى الى الجد بن قيس لاصقا بابط ناقته قد ضبأ اليها ـ وهو بفتح الضاد والموحدة مهموزا أى اختبأ بها يستتر بها من الناس ـ فبايعناه على أن لانفر ولم نبايعه على الموت • وهذا الجد بن قيس الذى لم يبايع كان يرمى بالنفاق وعده الحافظ ابن الجوزى فى منتخب المنتخب من المنافقين وقد نزل فى حقه فى غزوة تبوك ما يشعر بذلك وهو ابن عمة البراء بن معرور وكان سيد بنى سلمة بكسر اللام فى الجاهلية فسود النبى صلى الله عليه وسلم عمرو بن الجموح وقيل سود عليهم بشر بن البراء بن معرور ومال اليه ابن عبد البر ، واخرج الترمذى عن جابر رضى الله عنه قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم « ليدخلن الجنة من بايع تحت الشجرة الا صاحب الجمل الاحمر » ومن ثم قال ابن

عبد البر ليس فى غزواته صلى الله عليه وسلم مايعدل بدرا أو يقرب منها الا غزوة الحديبية ، وقيل صاحب الجمل الاحمر غير الجد بن قيس يدل له ماقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « والذى نفسى بيده لقد غفر للركب اجمعين الا رويكبا واحدا على جمل أحمر التفت عليه رحال القوم ليس منهم » وقال صلى الله عليه وسلم « كلكم مغفور له الا صاحب الجمل الاحمر » قال أبو سعيد رضى الله عنه فطلب فى العسكر فاذا هو عند سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل والرجل من بنى صمرة من أهل سيف البحر يظن انه من اصحاب النبى صلى الله عليه وسلم فقيل لسعيد رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال كذا وكذا فقال له سعيد ويحك اذهب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يستغفر لك وقال جابر فقلنا له تعال يستغفر لك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال والله لان أجد ضالتى أحب الى من أن يستغفر لى ، واذا هو قد أضل بعيرا له فانطلق يطلب بعيره بعد ان استبرأ العسكر وطلبه فيهم فبينما هو فى جبال سراوع اذ زلقت به نعله فتردى فمات فما علم به حتى اكلته السباع • وقصة هذا قبل البيعة اذ هذا ليس من عسكر المسلمين بخلاف الجد بن قيس والله اعلم

تنبيهات الاول فى تلخيص التفضيل

(تنبيهات)

(الاول) ظاهر كلام علمائنا ان أفضل الصحابة بعد العشرة أهل بدر من المهاجرين ثم الانصار على قدر الهجرة اولا فأولا ثم سائر اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولهم رتب ، وهذا الذى قدمه ابن حمدان فى نهاية المبتدئين ثم ذكر ان امة محمد خير الامم وأفضلهم القرن الذى صحبوه وشاهدوه وآمنوا به وصدقوه ونصروه وأفضل القرن الذى صحبوه اربع عشرة مائة الذين بايعوا بيعة الرضوان وافضلهم أهل بدر الذين نصروه وأفضلهم أربعون فى الدار كنفوه يعنى السابقين الاولين وأفضلهم عشرة عزروه ووقروه وشهد لهم بالجنة ومات وهو عنهم راض وافضل هؤلاء العشرة الخلفاء الاربعة وأفضلهم أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم على رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ، وهذا

موافق لما حررنا من تقديم أهل البيعة على أهل غزوة أحد ، فالتحقيق ان أهل بيعة الرضوان يلون أهل بدر فى الافضلية لما قدمنا من النصوص ولان الله تعالى قال فى أهل بيعة الرضوان (لقد رضى الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة) وقال فى أهل غزوة أحد (ان الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان انما استزلهم الشيطان ببعض ماكسبوا ولقد عفا الله عنهم ان الله غفور حليم) وفى الآية الاخرى (ثم صرفهم عنكم ليبتليكم ولقد عفا عنكم) فوصفهم فى الموضعين بالعفو ووصف أهل البيعة بالرضى وهو أعلى وأسنى وأفضل من العفو وهذا ظاهر والله تعالى أعلم

الثانى السابقون قبل فتح الحديبية

(الثانى) المراد بالسابقين الاولين الذين أنفقوا قبل الفتح وقاتلوا والمراد بالفتح أمر الحديبية ، قال تعالى (لا يستوى منكم من انفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا) قال شيخ الاسلام ابن تيمية فى الفتاوى المصرية : المراد بالفتح فتح الحديبية لما بايع النبى صلى الله عليه وسلم أصحابه تحت الشجرة وكان الذين بايعوه أكثر من ألف وأربع مائة وهم الذين فتحوا خيبر وقال صلى الله عليه وسلم « لايدخل النار احد بايع تحت الشجرة » وسورة الفتح أنزلها الله تعالى قبل فتح مكة وكانت البيعة تحت الشجرة سنة ست من الهجرة كما تقدم وبذلك الصلح الذى كان بينه صلى الله عليه وسلم وبين المشركين فى الحديبية حصل الفتح والخير الكثير الذى لايعلمه الا الله تعالى مع كونه كان قد كرهه خلق من المسلمين ولم يعلموا مافيه من حسن العاقبة ثم فتح الله تعالى على نبيه وعباده المسلمين مكة فى شهر رمضان فى العام الثامن وكان قد أنزل فى سورة الفتح (لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين) الى قوله (فجعل من دون ذلك فتحا قريبا)

الثالث تفضيل نوع على نوع لايقتضى تفضيل كل فرد

(الثالث) المراد بالافضلية من حيث الجملة ولايلزم تفضيل كل فرد مثلا من المهاجرين على كل فرد من الانصار وانما نقول الصحبة أفضل من غيرها ولا أحد من غير الصحابة يساوى أحدا من الصحابة ، وكذلك

الهجرة وكذلك كل ماامتازت به جملة على غيرها من غير هضـــــم للمفضول من الفضائل والكمالات التى امتاز بها على غــيره من غير تلك الحيثية التى فضله فيها غيره كما يأتى بيان ذلك وتحريره والله أعلم

خديجةوعائشة

((وعائشة فى العلم مع خديجة
فى السبق فافهم نكتة النتيجة))

((وعائشة)) الصديقــة بنت الصــــديق رضى الله عنهمــــا أم عبد الله أم المؤمنين وحبيبة رسول رب العالمين عقد عليها وهى بنت ســت سنين قبل الهجرة بسنتين وقيل بثلاث وبنى بها بالمدينة أول مقــدمه فى السنة الاولى وهى بنت تسع ومات عنها وهى بنت ثمان عشرة وتوفيـت بالمدينةودفنت بالبقيع وأوصتأن يصلى عليها أبو هريرةرضى الله عنهسنهثمان وخمسين فهى رضى الله عنها وعن ابيهــــا افضل نسائه صــــلى الله عليه وسلم ((فى العلم)) النافع والفقه الناصع فلها (من) الفضل فى ذلك ماليس لغيرها من سائر أزواجه صلى الله عليه وسلم حتى كان الاكابر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضى عنهم اذا أشكل عليهــم أمر من الدين استفتوها فيجدون علمه عندها ، وقد وقع الخلاف بين علماء السلف فى التفضيل بينها وبين أم المؤمنين خديجة فقدمالبلبانى من متأخرى علمائنا تبعا لابن حمدان فى نهاية المبتدئين ان عائشة أفضل النســـاء ، وقال الامام موفق الدين أفضل النساء خديجة • قال المحقق ابن القيم فى كتابه جلاء الافهام : وقد اختلف فى تفضيل خديجة على عائشة على ثلاثة اقوال ثالثها الوقف قال وسألت شيخنا شيخ الاسلام ابن تيمية قدسروحه عنهما فقال اختص كل واحدة منهما بخاصة والى هذا أشرت بقولى ((مع خديجة)) بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى بن كـــلاب أم المؤمنين وأول أزواج رسول رب العالمين تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ابن خمس وعشرين سنة وبقيت معه الى أن أكرمه اللــــه تعالى برسالته فآمنت به وصدقته ونصرته وكانت له وزير صدق وماتت قبل الهجرة بثلاث سنين فى الاصح وقيل بأربع وقيل بخمس ولم يتزوج صلى الله عليه وسلم عليها غيرها وكل أولاده منهـــا الذكور والاناث

الا ابراهيم عليه السلام فانه من سريته مارية القبطية ، فخديجة المذكورة أفضل نساء النبى صلى الله عليه وسلم ((فى السبق)) الى الاســـلام ومؤازرة خير الانام قال شيخ الاسلام فى جوابه للمحقق ابن القيـــم : خديجة كان تأثيرها فى أول الاسلام وكانت تسلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وتثبته وتبذل دونه مالها فادركت غرة الاسلام واحتملت الاذى فى الله وفى رسوله وكانت نصرتها للرسول صلى الله عليه وسلم فى أعظــم الحاجة فلها من النصرة والبذل ماليس لغيرها ، قال وعائشة رضى اللـــه عنها تأثيرها فى آخر أوقات الاسلام فلها من التفقه فى الدين وتبليغـــه الى الامة وانتفاع بنيها بما أدت اليهم من العلم ماليس لغيرها فلعائشـــة رضى الله عنها فى آخر الاسلام من حمل الدين وتبليغه الى الامة وادراكها من العلم مالم تشركها فيه خديجة ولاغيرها ماتميزت به عن غيرها . وقال المحقق فى كتابه بدائع الفوائد : الخلاف فى كون عائشة رضى الله عنهـا أفضل من فاطمة عليها السلام أو فاطمة أفضل اذا حرر محل التفضـــيل لايستقيم اى الخلاف فان اريد بالفضل كثرة الثواب عند الله فذلك أمر لا يطلع عليه الا بالنص لانه بحسب تفاضل اعمال القلوب لا بمجرد اعمال الجوارح وكم من عاملين أحدهما أكثر عملا بجوارحه والآخـــــــر أرفع درجة منه فى الجنة ، وان أريد بالتفضيل التفضيل بالعلم فلاريب ان عائشة اعلم وأنفع للامة وأدت من العلم مالم يؤد غيرها واحتاج الى علمها خواص الامة وعامتها ، وان أريد بالتفضيل شرف الاصل وجلالة النسب فلا ريب ان فاطمة أفضل فانها بضعة من النبى صلى الله عليه وسلم وذلك اختصاص لم يشركها فيه غير اخواتها وان أريد السيادة ففاطمة سيـــدة نساء الامة واذا تبينت وجوه التفضيل وموارد الفضل وأسبابه صار الكلام بعلم وعدل واكثر الناس اذا تكلم فى التفضيل لم يفصل جهات الفضـــل ولم يوازن بينها فيبخس الحق وان انضاف الى ذلك نوع تعصب وهوى لمن يفضله تكلم بالجهل والظلم ، قال وقد سئل شيخ الاسلام ابن تيميـــة عن مسائل عديدة من مسائل التفضيل فأجاب فيها بالتفصيل الشافى والى هـــذا التفصيل اشرنا بقولنا ((فافهم)) فهم تحقيق واذعان وتدقيق واتقـــان

((نكتة النتيجة)) أى اثر فائدة الخلاف فان النكتة أثر قليل كالنقطة شبه الاثر الذى يكون فى المرآة والسيف ومنه حديث الجمعة فاذا فيهـــا نكتة سوداء أى أثر قليل كالنقطة شبه الوسخ وأصله من النـكت بالحصى ونكت التراب والارض بالقضيب ، والنتيجة المراد بها هنا الحكم المتولد من القضيتين بالتفصيل فى التفضيل وأصله من نتجت الناقة اذا ولـــدت فهى منتوجة وانتجت اذا حملت فهى نتوج ولايقال منتج ونتجت الناقة انتجهـا اذا ولدتها ، والحكم الناتج مما نحن فيه ان خديجة أفضل بحسب السبق والمؤازرة وانفاقها على رسول الله صلى الله عليه وسلم وتسليته وحمـــل المشاق بسببه ونحو ذلك وعائشة أفضل بحسب تحملها للعلوم وأحاديث النبى صلى الله عليه وسلم فانها أحد المكثرين ونشرها لسنته صلى اللـــه عليه وسلم ونفعها للامة فانها كانت عالمة فقيهة فصيحة فاضلة كثيرة الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم عارفة بأمر العرب وأشعارها وفضـــائلها ومناقبها كثيره لا تحصى ومحبة النبى صلى الله عليه وسلم اياها وتفضيلهاعلى سائر زوجاته صلى الله عليه وسلم مما لا يخفى • قال الامام المحقق ابن القيم فى جلاء الافهام : ومن خصائص خديجة رضى الله عنها ان اللـــه سبحانه وتعالى بعث اليهاالسلام مع جبريل فبلغها رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك ففى صحيح البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال أتى جبريل النبى صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله هذه خديجة قد أتت معها اناء فيه ادام أو طعام أو شراب فاذا هى أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومنى وبشرها ببيت فى الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب•ورواه مسلم أيضا وهذه لعمر الله خاصة لم تكن لسواها وأما عائشة رضى الله عنها فان جبريل سلم عليها على لسان النبى صلى الله عليه وسلم فأخرج البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى عن أم المؤمنين عائشة رضى اللـه عنها قالت قال لى رسول الله صلى الله عليهوسلم « يوما يا عائش هذاجبريل يقرئك السلام » فقلت وعليه السلام ورحمة الله وبركاته قالت وهو يرى مالا أرى • قال ابن القيمن خواص خديجة رضى الله عنها انها لم تسؤه قط ولم تغاضبه ولم ينلها منه ايلاء ولا عتب قط ولا هجر وكفى بهـــذه

منقبة ، ومن خواصها أنها أول امرأة آمنت بالله من هذه الامة ، ومن خصائص عائشة رضى الله عنها أنه صلى الله عليه وسلم لم يتزوج بكرا غيرها وانها كانت ينزل الوحى على النبى صلى الله عليه وسلم وهو فى لحافها ولما نزلت آية التخيير بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بها فخيرها وقال لها « فلا عليك ان لا تعجلى حتى تستأمرى أبويك » فقالت أفى هذا أستأمر أبوى فانى أريد الله ورسوله والدار الآخرة فاستن بها بقية أزواجه صلى الله عليه وسلم وقلن كما قالت ، ومن أعظم خصائصها انها كانت أحب أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم اليه كما ثبت عنه ذلك فى الصحاح والمسانيد والسنن وقد قال صلى الله عليه وسلم « فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام » رواه البخارى ومسلم وغيرهما، ومن أعظم خصائصها أن الله تعالى برأها مما رماها به أهل الافك وأنزل فى برائتها وحيا يتلى فى محاريب المسلمين وصلواتهم الى يوم القيامة وشهد لها بأنها من الطيبات فلله من حصان عظمت فضائلها وجلت مناقبها ورسخت قدمها فى الدين وعظم شأنها عند سائر المسلمين واحتاج لعلمها أئمة الصحابة وشهد لها أهل التحقيق بالتقدم والاصابة فقد أخرج الترمذى عن أبي موسى الاشعرى رضى الله عنه قال ما أشكل علينا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حديث قط فسألنا عائشة ألا وجدنا عندها منه علما • قال الترمذي حديث حسن صحيح • وأخرج الترمذي عن أنس رضى الله عنه وصححه ان رجلا نال من عائشة رضى الله عنها عند عمار بن ياسر رضى الله عنه فقال اغرب مقبوحا منبوحا أتؤذي حبيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ وأخرج الترمذي عن عبد الله بن زياد الاسدى قال سمعت عمار بن ياسر رضى الله عنه يقول : هي زوجته في الدنيا والآخرة • يعني عائشة رضى الله عنها • وقال حديث حسن صحيح • ومناقبها كثيرة وفضائلها غزيرة رضى الله عنها وعن سائر أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم •

((فصـــل))

فصل في فضل الصحابة جملة وحقهم

في ذكر الصحابة الكرام بطريق الاجمال وبيان مزاياهم على غيرهم والتعريف بما يجب لهم من المحبة والتبجيل والترضى والتفضيل على سائر

الامة وتقبيح من آذاهم وشناهم والكف عما جرى بينهم مما لعله لم يصح عنهم وما صح فله تأويلات سائغة واذا كان لأحد منهم هنات تقع مكفرة مستهلكة فى عظيم حسناتهم وجسيم مجاهداتهم ثم التابعين لهم باحسان ولهذا قال :

((وليس فى الامة كالصحابة   فى الفضل والمعروف والاصابة))

((وليس فى الامة)) المحمدية المفضلة على سائر الامم بأفضلية نبيهاصلى الله عليه وسلم وافضلية ما جاء به الذكر الحكيم والدين القويم والصراط المستقيم فيكون الصحابة أفضل خلق الله تعالى بعد أنبياء الله تعالى ورسله ((كالصحابة)) الكرام الذين فازوا بصحبة خير الانام عليه أفضل الصلاة وأتم السلام ، وتقدم في صدر الكتاب تعريف الصحابة وطريق ثبوتالصحبة وبيان عدالة الصحابة وبيان عدتهم ودرجاتهم ومعتمد القول عند أئمة السنة أن الصحابة رضوان الله عليهم كلهم عدول بالكتاب والسنة واجماع أهل الحق المعتبرين قال الله تعالى (كنتم خير أمة أخرجت للناس) قيل اتفق المفسرون أن ذلك في الصحابة لكن الخلاف في التفاسير مشهور ورجح كثير عمومها فى أمة محمد صلى الله عليه وسلم ،وكذلكقولهتعالى (وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس) وهذا خطاب للموجودين حينئذ وقال تعالى (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم) الآيات فليس فى سائر الامة المحمدية مثل الصحابة الكرام ((فى الفضل)) بشاهد ما فى الصحيحين من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه لا تسبوا اصحابى فوالذى نفسى بيده لو أنأحدكم أنفق مثل أحد ذهبا ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه » وهذا وان ورد على سبب وهو ماجرى بين عبد الرحمن بن عوف وبين خالد بن الوليد رضى الله عنهما فالعبرة بعموم اللفظ ولا ينافى ذلك كون الخطاب لاصحابه فان المراد لا يسبب غير اصحابى أصحابى ولا يسب بعضهم بعضا فالمراد النهى عن حصولالسب لهم مطلقا ، وقولهأنأحدكم بالخطاب يمكن حمله على أن المراد من جاء من غيرهم ينزل نفسه منزلتهم وقد يأتي الخطاب لقوم تعريضا بغيرهم كثيرا اعتمادا على القرائن وهذا الموضع منه ، والنصيف أحداللغات الاربع

فى النصف فانه يقال نصف بكسر النون وفتحها وضمها ونصيف بفتح النون وزيادة الياء ، والمعنى لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبا ما بلغ ثوابه فى ذلك نفقة اصحابى مدا ولا نصف مد لان انفاقهم كان فى نصرته صلى الله عليه وسلم وحمايته وذلك معدوم بعده فتضمن ذلك أفضليتهم على غيرهم مطلقا وان فضيلة نفقتهم على نفقة غيرهم باعتبار ذواتهم • وفى الصحيحين وغيرهما عن عمران بن حصين رضى الله عنهما ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « خير الناس قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم - قال عمران فلا أدرى اذكر بعد قرنه قرنين او ثلاثة - ثم ان بعدهم قوما يشهدون ولا يستشهدون ويخونون ولا يؤتمنون وينذرون ولا يوفون ويظهر فيهم السمن - زاد فى رواية - ويحلفون ولا يستحلفون » ورواه ابو داود ولفظه « خير أمتى القرن الذى بعثت فيهم ثم الذين يلونهم » والله اعلم أذكر الثالث أم لا الحديث ، ورواه النسائى بنحوه ، ورواه الشيخان من حديث ابن مسعود رضى الله عنه ، ورواه مسلم من حديث ابى هريرة رضى الله عنه بنحوه وفيه : والله أعلم أذكر الثالث أم لا • وأخرجه مسلم أيضا من حديث عائشة رضى الله عنها ، وأخرج الترمذى من حديث عبد الله بن مغفل رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « يبلغ الحاضر الغائب الله الله فى أصحابى لا تتخذوهم غرضا بعدى فمن أحبهم فبحبى أحبهم ومن أبغضهم فببغضى أبغضهم ومن آذاهم فقد آذانى ومن آذانى فقد آذى الله ومن آذى الله فيوشك أن يأخذه ومن يأخذه الله فيوشك أن لا يفلته » وأخرج الترمذى أيضا من حديث ابن عمر رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اذا رأيتم الذين يسبون اصحابى فقولوا لعنة الله على شركم » وأخرج مسلم عن عائشه رضى الله عنها انها قالت لعروة بن الزبير يا ابن اختى أمروا أن يستغفروا لاصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فسبوهم • وأخرج الترمذى من حديث بريدة رضى الله عنه قال قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما من أحد من أصحابى يموت بأرض الا بعث لهم نورا وقائدا يوم القيامة » وذكر سعيد بن المسيب رحمه الله تعالى أن عمر بن

الخطاب رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « سألت ربى عن اختلاف أصحابى من بعدى فأوحى الى يا محمــــد ان اصحابك عندى بمنزلة النجوم فى السماء بعضها أقوى من بعض ولكل نور فمن أخذ بشىء مما هم عليه من اختلافهم فهو عندى على هدى » قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم » ذكره فى جامع الاصول

((و)) ليس فى الامة كالصحابة الكرام فى ((المعروف)) وهو اسـم جامع لكل ما عرف من طاعة الله والتقرب اليه والاحسان الى الناس وكل ما ندب اليه الشرع ونهى عنه من المحسنات والمقبحات وهو من الصفات الغالبة أى أمر معروف بين الناس اذا رأوه لا ينكرونه والمعروف النصفة وحسن الصحبة مع الاهل وغيرهم من الناس ضد المنكر فى ذلك جميعه وفى حديث « اهل المعروف فى الدنيا هم أهل المعروف فى الآخرة » أى من بذل معروفه للناس فى الدنيا آتاه الله جزاء معروفه فى الآخرة ، وقيل أراد من بذل جاهـــه لاصحاب الجرائم التى لا تبلغ الحدود فيشفع فيهم شفعه الله فى أهل التوحيد فى الآخرة ، وقد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما فى معنى ذلك قال يأتى اصحاب المعروف فى الدنيا يوم القيـــــامة فيغفر لهم بمعروفهم وتبقى حسناتهم جامة فيعطونها لمن زادت سيئاته على حســـناته فيغفر له ويدخل الجنة فيجتمع لهم الاحسان الى الناس فى الدنيا والآخرة. ولا يرتاب أحد من ذوى الالباب ان الصحابة الكرام هم الذين حـــازوا قصبات السبق واستولوا على معالى الامور من الفضل والمعروف والصدق فالسعيد من اتبع صراطهم المستقيم واقتفى منهجهم القويم ، والتعيس من عدل عن طريقهم ولم يتحقق بتحقيقهم ، فأى خطة رشد لم يستولوا عليها واى خصلة خير لم يسبقوا اليها ، تالله لقد وردوا ينبوع الحياة عذبا صافيا زلالا ووطدوا قواعد الدين والمعروف فلم يدعوا لاحد بعدهم مقالا ، فتحوا القلوب بالقرآن والذكر والايمان والقرى بالسيف والسنان وبذل النفوس النفيسة فى مرضاة الرحيم الرحمن ، فلا معروف الا ما عنهم عرف ولا برهان الا ما بعلومهم كشف ، ولا سبيل نجاة الا ما سلكوه ولا خير سعادة

الا ما حققوه وحكوه ، فرضوان الله تعالى عليهم ما تحلت المجالس بنشر ذكرهم وما تنمقت الطروس بعرف مدحهم وشكرهم •

((و)) ليس فى الامة أيضا كالصحابة رضى الله عنهم فى ((الاصابة)) للحكم المشروع والهدى المتبوع فهم أحق الامة باصابة الحق والصواب وأجدر الخلق بموافقة السنة والكتاب ، ويشهد لهذا ما رواه الامام أحمد وغيره عن ابن مسعود رضى الله عنه قال من كان متأسيا فليتأس بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فانهم أبر هذه الامة قلوبا وأعمقها علما وأقلها تكلفا وأقومها هديا وأحسنها حالا قوم اختارهم الله لصحبة نبيه واقامة دينه فاعرفوا لهم فضلهم واتبعوا آثارهم فانهم كانوا على الهدى المستقيم • فأحق الامة باصابة الصواب أبرها قلوبا وأعمقها علوما وأقومها هديا من غير شك ولا ارتياب • وروى أبو داود الطيالسى عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : ان الله نظر فى قلوب العباد فنظر قلب محمد خير قلوب العباد فبعثه برسالته ثم نظر فى قلوب العباد بعد قلب محمد صلى الله عليه وسلم فوجد قلوب اصحابه خير قلوب العباد فاختارهم لصحبة نبيه ونصرة دينه فما رآه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن وما رآه المسلمون قبيحا فهو عند الله قبيح • فخير قلوب العباد أحق الخلق باصابة الصواب فكل خير واصابة وحكمة وعلم ومعارف ومكارم انما عرفت لدينا ووصلت الينا من الرعيل الاول والسرب الذى عليه المعول فهم الذين نقلوا العلوم والمعارف عن ينبوع الهدى ومنبع الاهتدا ، وفى حديث العرباض بن سارية رضى الله عنه ان النبى صلى الله عليه وسلم قال له « وانه من يعش منكم فسيرى اختلافا كثيرا فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين عضوا عليها بالنواجذ واياكم ومحدثات الامور فان كل بدعة ضلالة » رواه الامام أحمد وأبو داود والترمذى وابن ماجه • قال الترمذى : حديث حسن صحيح • وقال الحافظ ابو نعيم حديث جيد صحيح ، فدل الحديث على أن سنة الخلفاء الراشدين متبعة كاتباع سنته صلى الله عليه وسلم بخلاف غيرهم من ولاة الامور • وأخرج الامام أحمد والترمذى عن حذيفة رضى الله عنه قال كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم جلوسا فقال « انى

لا أدرى ما قدر بقائى فيكم فاقتدوا باللذين من بعدى - وأشار الى ابى بكر وعمر - وتمسكوا بعهد عمار وما حدثكم ابن مسعود فصدقوه » وفى رواية وتمسكوا بعهد ابن ام عبد واهتدوا بهدى عمار فنص صلى الله عليه وسلم فى آخر عمره على من يقتدى به من بعده والخلفاء الراشدون الذين أمر بالاقتداء بهم هم أبو بكر وعمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم فان فى حديث سفينة رضى الله عنه « الخلافة بعدى ثلاثون سنة ثم تكون ملكا » وصححه الامام احمد وغيره وتقدم ، فكل ما اجتمع عليه الصحابة مما أجمعوا عليه أو جمعهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب عليه فاجتمعوا فهو الحق لا شك فيه ولو خالف فيه بعد ذلك من خالف ومن ثم نحتج بقول الصحابى حيث لا نص نبوى ان لم يخالف فيه مثله على معتمد المذهب وأخرج أبو يعلى الموصلى عن أنس رضى الله عنه « مثل اصحابى مثل الملح فى الطعام لا يصلح الطعام الا بالملح »

وعلى كل حال لا يرتاب ذوو الالباب من ذوى الافضال ان الصحابة الكرام حازوا قصبات السبق بصحبة خير الانام واستولوا على الامد فلا مطمع لاحد من الامة بعدهم فى اللحاق ولكن المبرز من اتبع صراطهم المستقيم واقتفى منهاجهم القويم والمتخلف من عدل عن طريقهم ذات اليمين وذات الشمال فذاك المنقطع التائه فى بيداء المهالك والضلال • وقوله صلى الله عليه وسلم « مثل أصحابى كمثل الملح فى الطعام » يعنى كما ان الملح صلاح الطعام فأصحابى صلاح الانام ، قال فى (اعلام الموقعين) كما ان الملح به صلاح الطعام فالصواب به صلاح الانام فلو أخطأ الصحابة فيما افتوا به لاحتاج ذلك الى ملح يصلحه فاذا أفتى من بعدهم بالحق كان قد أصلح خطأهم فكان ملحا لهم • انتهى • أى والحال انهم هم الملح المصلح فكيف يكون غيرهم مصلحا لهم فهذا خلف • وروى الطبرانى وأبو نعيم وغيرهما عن حذيفة بن اليمان رضى الله عنهما انه قال يا معشر القراء خذوا طريق من كان قبلكم فوالله لئن استقمتم لقد سبقتم سبقا بعيدا ولئن تركتموه يمينا وشمالا لقد ضللتم ضلالا بعيدا • قال فى اعلام الموقعين : ومن المحال أن يكون الصواب فى غير طريق من سبق الى كل خير على الاطلاق • وقال

رجحان قول الصحابى عند الاختلاف

فيه أيضا : من تأمل المسائل الفقهية والحوادث الفرعية وتدرب بمسالكها وتصرف في مداركها وسلك سبلها ذللا وارتوى من موردها عللا ونهلا علم قطعا أن كثيرا منها قد يشتبه فيها وجوه الرأى بحيث لا يوقف فيها بظاهر مراد او قياس صحيح تنشرح له الصدور وينثلج له الفؤاد بل تتعارض فيها الظواهر والاقيسة على وجه يقف المجتهد فى أكثر المواضع حتى لا يبقى للظن رجحان بين لا سيما اذا اختلف الفقهاء فان عقولهم من أكمل العقول وأوفرها فاذا تلددوا وتوقفوا ولم يتقدموا ولم يتأخروا لم يكن ذلك وفى المسألة طريقة واضحة ولا حجة لائحة فاذا وجد فيها قولا لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين هم سادات الامة وقدوة الائمة وأعلم الناس بكتاب ربهم وسنة نبيهم وقد شاهدوا التنزيل وعرفوا التأويل ونسبة من بعدهم فى العلم اليهم نسبتهم اليهم فى الفضل والدين كان الظن والحالة هذه بأن الصواب فى وجهتهم والحق فى جانبهم من اقوى الظنون وهو اقوى من الظن المستفاد من كثير من الاقيسة ، هذا مما لا يمترى فيه عاقل منصف ، وكان الرأى الذى يوافق رأيهم هو الرأي السديد الذي لا رأي سواه ، واذا كان المطلوب في الحادثة انما هو ظن راجح ولو استند الى استصحاب أو قياس علة أو دلالة أو شبه أو عموم أو خصوص أو محفوظ مطلق او وارد على سبب فلا شك ان الظن الذى يحصل لنا بقول الصحابى الذى لم يخالف ارجح من كثير من الظنون المستندة الى هذه الامور أو اكثرها • فظهر بهذا أن الصحابة رضى الله عنهم اولى الامة بالاصابة فيما ثبت عنهم فانهم رضى الله عنهم كانوا أبر قلوبا وأعمق علما وأقل تكلفا وأقرب الى أن يوفقوا للصواب من غيرهم لما خصهم الله به من توقد الاذهان وفصاحة اللسان وسعة العلم وسهولة الاخذ وحسن الادراك وسرعته وقلة المعارض أو عدمه وحسن القصد وتقوى الرب ، فالعربية طريقتهم وسليقتهم والمعانى الصحيحة مركوزة فى فطرهم وعقولهم ولا حاجة بهم الى النظر فى الاسناد وأحوال الرواة وعلل الحديث والجرح والتعديل ولا الى النظر فى قواعد الاصول وأوضاع الاصوليين فقد أغنوا عن ذلك كله فليس فى حقهم الا أمران احدهما قال الله تعالى كذا وقال

رسوله كذا والثانى معناه كذا وكذا وهم اسعد الناس بهاتين المقدمتين وأحظى الامة بهما فقواهم متوافرة مجتمعة عليهما وبالله التوفيق .

ولهذا نقول فى النظم

((فانهم قد شاهدوا المختارا وعاينوا الاسرار والانوارا))

((وجاهدوا فى الله حتى بانا دين الهدى وقد سما الاديانا))

((وقد أتى فى محكم التنزيل من فضلهم ما يشفى للغليل))

((وفى الاحاديث وفى الآثار وفى كلام القوم والاشعار))

((ما قد ربا من أن يحيط نظمى عن بعضه فاقنع وخذ عن علم))

((فانهم)) أى الصحابة الكرام عليهم الرضوان من الملك السلام ((قد شاهدوا)) وصحبوا ((المختارا)) بألف الاطلاق فى المختار من سائر الانام عليه أفضل الصلاة وأتم السلام ((وعاينوا)) فى صحبتهم للنبى المختار ((الاسرار)) القرآنية وعلموها من الحضرة النبوية وعلموا التنزيل والتأويل وآدابه ((و)) عاينوا ((الانوارا)) القرآنية والاشعة المصطفوية فهم أسعد الامة باصابة الصواب وأجدر الائمة بعلم فقه السنة والكتاب لفوزهم بصحبة النبى صلى الله عليه وسلم ومشاهدة نزول الوحى ومعرفة الاسباب فلا يجاروا فى علمهم ولا يباروا فى فهمهم فكل علم وفهم وخير عنهم وصل ، وكل سعادة وسيادة وفقه من علمهم وبسببهم حصل ، فرضوان الله عليهم مازين ذكرهم الدفاتر وشرف نشرهم المنابر ((وجاهدوا فى)) سبيل ((الله)) لاعلاء كلمة الله وبذلوا نفوسهم النفيسة فى مرضاة الله ((حتى بانا)) بألف الاطلاق أى ظهر ووضح واستعلن ((دين الهدى)) أى دين الاسلام الذى به الهدى والدلالة الموصلة والفوز والفلاح ، وأشرق نور الاهتدا وشعاع الوصول فلاح ((وقد سما)) أى علا دين الاسلام ولله الحمد ((الاديانا)) أى سائر الاديان التى كانت قبله ، وتقدم تعريف الدين لغة واصطلاحا فسائر الاديان غير دين الاسلام الذى جاء به سيد ولد عدنان منسوخة وكل عبادة لم يأت بها فهى باطلة ممسوخة ، كما قال تعالى (ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه) وقال (ان الدين عند الله الاسلام)

((وقد أتى في محكم التنزيل)) من الكتاب العظيم والذكر الحكيم ((من فضلهم)) أى الصحابة الكرام عليهم الرضوان والسلام ((ما)) أى الذى يعنى من الآيات المحكمات والكلمات الباهرات ((يشفى)) من شفى يشفى اى يبرىء ((للغليل)) بالغين المعجمة كامير العطش أو شدته أو حرارة الجوف كما فى القاموس والمراد مايطفىء حرارة الجهل بمقاماتهم الباذخة وينفي الوهم والغل عن اطواد علومهم الراسخة كقوله تعالى (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار ورحماء بينهم) الآيات وقوله تعالى (أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين) وكقوله (والسابقون الاولون) الآيات وكقوله تعالى (قل هذه سبيلى أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى) وقوله (قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى) وهم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم والدليل عليه قوله تعالى (ثم اورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا) وقوله (كنتم خير أمة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) وقوله تعالى (يا ايها الذين آمنو اتقوا الله وكونوا مع الصادقين) قال غير واحد من السلف هم اصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ولاريب أنهم أئمة الصادقين وكل صادق بعدهم فبهم يأتم فى صدقه بل حقيقة صدقه اتباعه لهم وكونه معهم وقوله (وكذلك جعلناكم امة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا) أى أمة خيارا عدولا فان هذا حقيقة الوسط ، فهم خير الامم وأعد لها فى أقوالهم وأعمالهم واراداتهم ونياتهم ، وبهذا استحقوا ان يكونوا شهداء للرسل على أممهم يوم القيامة والله تعالى يقبل شهادتهم عليهم فهم شهداؤه ، ولهذا نوه بهم ورفع ذكرهم وأثنى عليهم وقال تعالى (وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم وماجعل عليكم فى الدين من حرج ملة أبيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس) الآية الى غير ذلك من الآيات القرآنية والكلمات الرحمانية

((و)) قد اتى أيضا ((فى الاحاديث)) النبوية ((وفى الآثار))

السلفية ((و)) قد أتى ((فى كلام القوم)) من المحدثين والفقهاء والصوفية وأهل المعارف والحقائق والهمم الوفية والعلوم الشرعية والافهام الذكية ((و)) فى ((الاشعار)) المرصية من العرب والمولدين من مدحهم والثناء عليهم ((ما)) أى شىء ((قد ربا)) أى زاد وعلا ونما ((من ان يحيط نظمى)) فى هذه الارجوزة ويضيق ((عن بعضه)) فضلا عن غالبه وكله ((فاقنع)) بما ذكرته لك من الآيات الباتة والاحاديث الثابتة عن سيد بنى آدم وصفوة جميع العالم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ((وخذ)) ذلك واعتمد عليه وصره اليك واعتصم به واستند اليه فانه ((عن علم)) ويقين وايضاح وتبيين ومعرفة وتمكين ، وقوله واقنع من القنوع وهو الرضا باليسير من العطاء وقد قنع بالكسر يقنع قنوعا وقناعة اذا رضى ، وقنع بالفتح قنوعا اذا سأل ، ومنه حديث « القناعة كنز لايفنى » لان الانفاق منها لاينقطع فكلما تعذر عليه شىء من أمور الدنيا قنع بما دونه ورضى ، وحديث « عز من قنع وذل من طمع » لان القانع لايذله الطلب فلا يزال عزيزا وعلى كل حال فلا مقام بعد مقام النبوة أعظم من مقام قوم ارتضاهم الله عز وجل لصحبة نبيه صلى الله عليه وسلم ونصرة دينه القويم وصراطه المستقيم قال تعالى (محمد رسول الله والذين معه اشداء على الكفار رحماء بينهم) الآيات وقال (والسابقون الاولون من المهاجرين والانصار والذين اتبعوهم باحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه) فمن تأمل فيما ذكرناه حق التأمل وأعطى المقام حقه نجا من قبيح ماانتحلت الرافضة وفضيح ماذهب اليه من الالحاد فى آيات الله وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم من الافك والمناقضة فالحذر الحذر من ادنى شائبة تزرى بتلك المناصب الشامخة والعلوم الراسخة ولهذا نقول

التحذير من الازراء بفضل الصحابة

((واحذر من الخوض الذى قد يزرى
بفضلهم مما جرى لو تدرى))
((فانه عن اجتهاد قد صدر
فاسلم أذل الله من لهم هجر))

((واحذر)) حذر اذعان وتسليم مع سلامة صدر وامتثـــــال أمر النبى الكريم ((من الخوض)) المفضى الى التوسع والتنقيب والتبجـــح والتأنيب ((الذى قد يزرى)) وينقص ويحط ((بفضلهم)) المعلوم من الكتاب والسنة عند ذوى العلوم مما ذكرنا فى ماتقدم شذرة صالحة منه ((مما)) أى من الاختلاف والتخاصم والتشاجر الذى ((جرى)) بينهم ((لو)) كنت ((تدرى)) غب ذلك الخوض المفضى الى توليـــد الاحن وحزازات القلوب والحقد على اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك من اعظم الذنوب فانهم خير القرون وهم السابقون الاولون وذلك

أنه جرى بين على ومعاوية وقبلهما وبعدهما من المنازعات والمقاتلات مالو صدرت من سواهم أو كانت من غيرهم لم تقصر عن التفسق (؟) فضلا عن غيره والجواب عن ذلك ماأشير اليه بقوله ((فانه)) أى التخاصـــــم والنزاع والتقاتل والدفاع الذى جرى بينهم كان ((عن اجتهاد قد صدر)) من كل واحد من رؤس الفريقين ومقصد سائغ لكل فرقة من الطائفتين وان كان المصيب فى ذلك للصواب واحدا وهو على رضوان الله عليـــه ومن والاه والمخطىء هو من نازعه وعاداه غير أن للمخطىء فى الاجتهـــاد أجرا وثوابا خلافا لاهل الجفاء والعناد فكل ماصح مما جرى بين الصحابة الكرام وجب حمله على وجه ينفى عنهم الذنوب والآثام فمقـــاولة على مع العباس رضى الله عنهما لاتفضى الى شين ، وتقاعد على رضوان الله عليه عن

مبايعة الصديق الاعظم فى بدء الامر كان لاحد أمرين اما لعدم مشورته كما عتب عليه بذلك واما وقوفا مع خاطر سيدة نساء العالم فاطمة البتـــول عليها السلام مما ظنت انه لها وليس الامر كما هنالك ثم ان عليـــا بايع الصديق رضى الله عنهما على رؤوس الاشهاد فاتحدت الكلمة ولله الحمد وحصل المراد ، وتوقف على رضى الله عنه عن الاقتصاص من قتلة عثمان اما لعدم العلم بالقاتل واما خشية تزايد الفساد والطغيان ، وكانت عائشـــة وطلحة والزبير ومعاوية رضى الله عنهم ومن اتبعهم مابين مجتهد ومقـــلد فى جواز محاربة أمير المؤمنين سيدنا أبى الحسنين الأنزع البطين رضوان الله عليه ، وقد اتفق أهل الحق ان المصيب فى تلك الحروب والتنازع

أمير المؤمنين على رضوان الله عليه من غير شك ولا تدافع ، والحق الذى ليس عنه نزول أنهم كلهم رضوان الله عليهم عدول ، لانهم متأولون فى تلك المخاصمات مجتهدون فى هاتيك المقاتلات ، فانه وان كان الحق على المعتمد عند أهل الحق واحدا فالمخطىء مع بذل الوسع وعدم التقصير مأجور لا مأزور ، وسبب تلك الحروب اشتباه القضايا فلشدة اشتباهها اختلف اجتهادهم وصاروا ثلاثة أقسام قسم ظهر لهم اجتهادا ان الحق فى هذا الطرف وان مخالفه باغ فوجب عليهم نصرة المحق وقتال الباغى عليه فيما اعتقدوه ففعلوا ذلك ولم يكن لمن هذه صفته التأخر عن مساعدة الامام العادل فى قتال البغاة فى اعتقاده ، وقسم عكسه سواء بسواء وقسم ثالث اشتبهت عليهم القضية فلم يظهر لهم ترجيح أحد الطرفين فاعتزلوا الفريقين وكان هذا الاعتزال هو الواجب فى حقهم لانه لايحل الاقدام على قتال مسلم حتى يظهر مايوجب ذلك ، وبالجملة فكلهم معذورون ومأجورون لا مأزورون ، ولهذا اتفق أهل الحق ممن يعتد به فى الاجماع على قبول شهاداتهم ورواياتهم وثبوت عدالتهم ، ولهذا قال علماؤنا كغيرهم من أهل السنة ومنهم ابن حمدان فى نهاية المبتدئين : يجب حب كل الصحابة والكف عما جرى بينهم كتابة وقراءة واقراء وسماعا وتسميعا ، ويجب ذكر محاسنهم والترضى عنهم والمحبة لهم وترك التحامل عليهم واعتقاد العذر لهم وانهم انما فعلوا مافعلوا باجتهاد سائغ لايوجب كفرا ولا فسقا بل ربما يثابون عليه لانه اجتهاد سائغ ، ثم قال : وقيل المصيب على ، ومن قاتله فخطاؤه معفو عنه . وانما نهى عن الخوض فى النظم لان الامام أحمد كان ينكر على من خاض ويسلم أحاديث الفضائل وقد تبرأ رضى الله عنه ممن ضللهم أو كفرهم وقال : السكوت عما جرى بينهم . وقال بعض المحققين : البحث عن احوال الصحابة رضوان الله عليهم اجمعين وعما جرى بينهم من الموافقة والمخالفة ليس من العقائد الدينية ولا من القواعد الكلامية وليس هو مما ينتفع به فى الدين بل ربما أضر باليقين وانما ذكر العلماء منها نتفا فى كتبهم صونا للقاصرين عن التأويل عن اعتقاد ظواهر حكايات الرافضة ورواياتها ليتجنبها من لايصل الى

حقيقة علمها ولان الخوض فى ذلك انما يصلح للتعـــــليم وللرد على المتعصبين أو لتدريس كتب تشتمل على تلك الآثار فيؤول ذلك ويبينـــه للعوام لفرط جهلهم بالتأويل مع ان غالب او كل مايحكيه الرافضة موضوع واكثره باطل مصنوع فلا جرم السلامة فى التسليم وكف اللسان عن هذا المدخل الضيق العظيم ، ولهذا قال ((فاسلم)) من الخوض فى تلك البحور واحذر من العثار فى ذلك الغطش الديجور • فان من قارف الفتنة افتتن ومن تعرض بدينه للشبهات والشهوات اختبن ، ثم ان الناظم دعا على طائفة الجفاء والفجور واهل الرفض والضلال ممن حاد عن الامر المأمور فقـــال ((اذل الله)) سبحانه وتعالى وقد فعل ((من)) كل مبتدع من الرافضة ومن وافقهم ((لهم)) أى للصحابة الكرام أو لبعضهم ((هجر)) وعادى ولم يوال ويحب ، وقد روى الديلمى عن أنس رضى الله تعالى عنه « اذا أراد الله تعالى برجل من أمتى خيرا ألقى حب أصحابى فى قلبه » وأخرج الترمذى من حديث عبد الله بن مغفل رضى الله عنه مرفوعا « الله الله فى اصحابى لا تتخذوهم غرضا بعدى فمن احبهم فبحبى احبهم ومن ابغضهم فببغضى أبغضهم ومن آذاهم فقد آذانى ومن آذانى فقد آذى الله تعالى ومن آذى الله يوشك أن يأخذه » والذى أجمع عليه اهل السنة والجماعة أنه يجب على كل أحد تزكية جميع الصحابة باثبات العدالة لهم والكف عن الطعن فيهم والثناء عليهم فقد اثنى الله سبحانه عليهم فى عدة آيات من كتابـه العزيز ، على أنه لو لم يرد عن الله ولا عن رسوله فيهم شىء لأوجبت الحال التى كانوا عليها من الهجرة والجهاد ونصرة الدين وبذل المهج والاموال وقتل الآباء والاولاد والمناصحة فى الدين وقوة الايمان واليقين القطـــع بتعديلهم والاعتقاد لنزاهتهم وانهم أفضل جميع الامة بعد نبيهم ، هذا مذهب كافة الامة ومن عليه المعول من الائمة ، وأما من شذ من اهل الزيـــــغ والابتداع ممن ضل وأضل فلا التفات اليهم ولا معول عليهم ، ولهذا قال الامام أبو زرعة(١) العراقى ، من أجل شيوخ مسلم(٢) اذا رأيت الرجل ينتقص

---

(١) زاد فى مخ « الرازى » ثم ضرب عليها (٢) كـذا وأبوزرعـة العراقى متأخر جدا عن مسلم

احدا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعلم انه زنديق وذلك أن القرآن حق والرسول حق وما جاء به حق وما أدى الينا ذلك كله الا الصحابة فمن جرحهم انما أراد ابطال الكتاب والسنة فيكون الجرح بـه أليق والحكم عليه بالزندقة والضلال أقوم وأحق. وقال ابن حزم :الصحابة كلهم من أهل الجنة قطعا قال تعالى (لا يستوى منكم من أنفق من قبـل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين انفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى) وقال تعالى (ان الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون) فثبت أن جميعهم من أهل الجنة . والحاصل انه لا يهجـر الصحابة ويعاديهم الا عدو لله مبعود(؟)من رحمة الله خبيث زنديق والله ولى التوفيق . قال العلامة ابن حمدان فى نهاية المبتدئين : من سب أحدا من الصحابة مستحلا كفر وان لم يستحل فسق ، وعنه : يكفر مطلقا ، وان فسقهم او طعن فى دينهم او كفرهم كفر ، والله تعالى أعلم . ولما أنهى الكلام على الصحابة الكرام حسبما يقتضيه المقام وان كان ما ذكر فى جنب مـا سكت عنه كقطرة من بحر طام وذبالة من نور عام ذكر التابعين لهم باحسان ثم تابعيهم كما قاله خير الانام فقال

التابعون وافضلهم

((وبعدهم فالتابعون أحرى   بالفضل ثم تابعوهم طرا))

((وبعدهم)) أى بعد الصحابة المخصوصين بالفضل والعدالة العامـة والاصابة ((فالتابعون)) لهم باحسان ((أحرى)) أى أحق وأجـدر ((بالفضل)) والاتقان والتقديم على غيرهم من سائر أهل الايمان، وتعريف التابعى هو كل من صحب الصحابى ومطلقه مخصوص بالتابعى باحسان ويقال للواحد تابع وتابعى ولا بد فى التابعى من زيادة على ما تعتبر بـه الصحبة فى الصحابى كما تقدم لان الصحبة خصوصية كما بيناه ولهم طبقات بالنسبة الى من اجتمع بعشرة او ثلاثة من الصحابة وبالعلم والزهد وغير ذلك . وقد اختلف فى أفضل التابعين ، قال سيدنا الامام أحمد وغيره من أهل العلم : أفضل التابعين سعيد بن المسيب ، وقال قوم افضل التابعين أويس ابن عامر ويقال عمرو وكنيته أبو عمرو وهو القرنى ، واستدلوا له بحديث « خير التابعين او يس » رواه الحاكم عن على بن ابى طالب عن النبى صلى

الله عليه وسلم وفى صحيح مسلم « ان خير التابعين رجل يقال له أويس وله والدة وكان به بياض فمروه ، فليستغفر لكم « قال النووى هو أويس ابن عامر كذا رواه مسلم وهو المشهور ، وقال ابن ماكولا ويقال أويس بن عمرو وهو القرنى بفتح القاف والراء وهو بطن من مراد وهو قرن بن ردمان وغلطوا من نسبه الى قرن المنازل الجبل المعروف ميقات أهل نجد فى الاحرام ، وفيه طلب الدعاء والاستغفار من أهل الصلاح وان كان الطالب أفضل منهم ، فان قيل كيف استجاز الامام أحمد ومن نحا نحوه تفضيل سعيد بن المسيب على سائر التابعين مع وجود النص الصريح بالنقل الصحيح فى تفضيل اويس القرنى ، فالجواب أن مراد سيدنا الامام أحمد واضرابه أفضلية سعيد فى العلوم الشرعية كالتفسير والحديث والفقه ونفع الامة بذلك وبما بلغه عن الصحابة الكرام عن النبى عليه أفضل الصلاة والسلام فانه الامام الحافظ الثقة المأمون حتى قيل فيه أعلم أمة محمد بدين محمد بعد محمد سعيد بن المسيب رحمه الله ورضى الله عنه ، والدليل على أفضلية التابعين قول النبى صلى الله عليه وسلم « خير الناس قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم — قال عمران فلا أدرى أذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثة — ثم ان بعدهم قوما يشهدون ولا يستشهدون ويخونون ولا يؤتمنون وينذرون ولا يوفون ويظهر فيهم السمن » زاد فى رواية ويحلفون ولا يستحلفون. رواه البخارى ومسلم والترمذى من حديث عمران بن حصين رضى الله عنه ، ورواه أبو داود ولفظه « خير أمتى القرن الذى بعثت فيهم ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ، والله أعلم أذكر الثالث أم لا » ورواه مسلم من حديث ابى هريرة وفيه : والله اعلم اذكر الثالث ام لا . وقد قال صلى الله عليه وسلم : لا تمس النـــار مسلما رآنى او رأى من رآنى . رواه الترمذى من حديث جابر قال طلحة فقد رأيت جابر بن عبد الله رضى الله عنهما وقال موسى قد رأيت طلحة وقال يحى وقال لى موسى وقد رأيتنى ونحن نرجو الله تعالى . قال الامام المحقق ابن القيم فى أول كتابه اعلام الموقعين ألقى الصحابة الكرام الى التابعين ما تلقوه من مشكاة النبوة خالصا صافيا وكان سندهم عن نبيهم صلى الله عليه وسلم عن جبريل عن رب

العالمين سندا صحيحا عاليا وقالوا هذا عهد نبينا الينا وقد عهدناه اليكم وهذه وصية ربنا وفرضه علينا وهى وصيته وفرضه عليكم فجرى التابعون لهم باحسان على منهاجهم واقتفوا آثار صراطهم المستقيم ولهذا قال ((ثم)) الافضل بعد التابعين ((تابعوهم)) اى اتباع التابعين لما تقدم من صحيح الاخبار وصريح الآثار ((طرا)) أى جميعا وهو منصوب على المصدر أو الحال لانهم سلكوا مسلكهم الرشيد (وهدوا الى الطيب من القول وهدوا الى صراط الحميد) وكانوا بالنسبة الى من قبلهم كما قال أصدق القائلين (ثلة من الاولين وقليل من الآخرين) ثم جاء الائمة من القرن الرابع المفضل فى احدى الروايتين كما ثبت فى الصحيح من حديث أبى سعيد وابن مسعود وأبى هريرة وعائشة وعمران بن حصين رضى الله عنهم اجمعين من قوله صلى الله عليه وسلم خير الناس قرنى الحديث والقرن أهل زمان واحد متقارب اشتركوا فى أمر من الامور المقصودة والاصحانه لا ينضبط بمدة فقرنه صلى الله عليه وسلم هم اصحابه وكانت مدتهم من المبعث الى آخر من مات من أصحابه وهو ابو الطفيل مائة وعشرين سنة وقرن التابعين من نحو مائة الى سبعين سنة وقرن اتباع التابعين من ثم الى حدود العشرين ومائتين وفى هذا الوقت ظهرت البدع ظهورا فاشيا وأطلقت المعتزلة ألسنتها وأظهرت الجهمية نحلتها ورفعت الفلاسفة رؤوسها وامتحنت أئمة الدين وعلماء المسلمين ليقولوا بخلق القرآن وكان المقصود الاعظم منهم امامنا الامام أحمد فقام بأمر السنة أتم قيام وعاضده عليها أئمة أعلام وحفاظ للدين فخام شكر الله سعيهم وثبتنا على نهجهم آمين ، وظهر مصداق قوله صلى الله عليه وسلم كما فى رواية : ثم يفشو الكذب ، قال فى النهاية خير الناس قرنى يعنى الصحابة ثم التابعين والقرن أهل كل زمان وهو مقدار التوسط فى أعمار كل زمان مأخوذ من الاقتران فكأنه المقدار الذى يقترن فيه اهل ذلك الزمان فى أعمارهم وأحوالهم وقيل القرن أربعون سنة وقيل مائة وقيل هو مطلق من الزمان وهو مصدر قرن يقرن قرنا . قال الحافظ جلال الدين السيوطى فى الدر المنثور القرن أهل كل زمان وهو المقدار الذى يقترن فيه أهل ذلك الزمان فى أعمارهم وأحوالهم

اتباع التابعين

فصل في كرامات الاولياء

((فصل))

في ذكر كرامات الاولياء واثباتها

وهذا من العقائد السنية التي يجب اعتقادها ولا يجوز نفيها واهمالها ولهذا قال :

((وكل خارق أتى عن صالح   من تابع لشرعنا وناصح))
((فانها من الكرامات التي   بها نقول فاقف للادلة))
((ومن نفاها من ذوى الضلال   فقد أتى فى ذاك بالمحال))
((فانها شهيرة ولم تزل   فى كل عصر ياشقا أهل الزلل))

انواع الخوارق

((وكل خارق)) للعادة من الخوارق وهى ستة أنواع (الاول) المعجزة وتقدم الكلام عليها (الثانى) الارهاص وهو كل خارق تقدم النبوة فهو مقدمة لها فالمعجزة أمر خارق للعادة مقرون بدعوى النبوة والارهاص المقدمة لها قبلها كقصة اصحاب الفيل (الثالث) الكرامة وهى أمر خارق للعادة غير مقرون بدعوى النبوة ولا هو مقدمة ، يظهر على يد عبد ظاهر الصلاح ملتزم لمتابعة نبى كلف بشريعته مصحوب بصحيح الاعتقاد **والعمل الصالح علم** بها ذلك العبد الصالح أم لم يعلم (الرابع) الاستدراج والمكر (الخامس) المعونة كما يظهر بسبب بعض عوام المسلمين وضعفاء أهل الدين تخليصا لهم من المحن والمكاره (السادس) الاهانة والاحتقار كما فعل مسيلمة الكذاب من مسحه بيده على رأس غلام فانقرع ومن تفله فى بئر عذبة ليزداد ماؤها حلاوة فصار ملحا أجاجا ، ومن الخوارق الفاسدة السحر والشعبذة ونحوهما

والحاصل أن الكرامة لا بد أن تكون أمرا خارقا للعادة ((اتى)) ذلك الخارق ((عن)) امرئ ((صالح)) وهو الولى العارف بالله وصفاته حسب ما يمكن ، المواظب على الطاعات المجتنب عن المعاصى المعرض عن الانهماك فى اللذات والشهوات من ذكر وانثى ولا بد أن يكون صدور ذلك الخارق فى زماننا وبعده وقبله منذ بعث نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ((من)) انسان ((تابع لشرعنا)) **معشر المسلمين لان سائر الشرائع سواه قد نسخت** وان يكون الخارق من قبل من ظهر على يديه غير مقارن لدعوى النبوة **فما لا** يكون مقرونا بالايمان والعمل الصالح يكون استدراجا وما

يكون مقرونا بدعوى النبوة يكون معجزة كما تقدم آنفا ولاعتبار كون من صدرت عنه الخوارق عارفا مطيعا ظاهر الصلاح متابعا لشريعة محمد صلى الله عليه وسلم أشار بقوله ((وناصح)) لله ولرسوله ولكتابه ولشريعة النبى صلى الله عليه وسلم التى أتى بها عن الله وناصح لأئمة المسلمين وخاصتهم وعامتهم فان الدين النصيحة فما يصدر من الخوارق المؤكدة لكذب الكذابين وترهات المفترين من قبيل المكر والاستدراج والمحن والاعوجاج واما اذا صدرت عمن ذكر من الصالح الناصح المتابع لشرعنا القويم وديننا المستقيم ((فانها)) تكون ((من الكرامات التى بها)) أى بجوازها ووقوعها ((نقول)) معشر أهل السنة من السلف والخلف قال ابن حمدان فى نهاية المبتدئين: وكرامة الاولياء حق،وأنكر الامامأحمدرضى الله عنه علىمن أنكرها وضلله ، قال وتوجد فى زمن النبوة واشراطالساعة وغيرهما ولا تدل على صدق من ظهرت على يده فيما يخبر به عن الله تعالى ولا على ولايته لجواز سلبها وان تكون استدراجا له يعنى أن مجردالخارق لا يدل على ذلك ولذلك قال ولا يساكنها ولا يقطع هو بكرامته بها ولا يدعيها وتظهر بلا طلبه تشريفا له ظاهرا ولا يعلم من ظهرت منه هو أو غيره انه ولى لله تعالى غالبا بذلك وقيل بلى ولا يلزم من صحة الكرامات ووجودها صدق من يدعيها بدون بينة او قرائن حالية تفيد الجزم بذلك وان مشى على الماء وفى الهواء او سخرت له الجن والسباع حتى تنظر خاتمته وموافقته للشرع فى الامر والنهى ، وان وجد الخارق مننحوجاهل فهو مخرقة ومكر من ابليس واغواء واضلال[1] ولا شىء على من ظن الخير بمن يراه منه وان كان فى الباطن شيطانا وحسنالظن بأهل الدين والصلاح حسن (٢) ((فاقف)) فى اعتقادك الصالح ونهجك أى اتبع ((للادلة))

حد الكرامة والولى

تفليس أولياء ابليس

---

(١) قد أحسن المؤلف بما قرره فى هذا الفصل ، ولشيخ الاسلام ابن تيمية كتاب (الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان) فليراجع وقد اولع الناس بعد صفوة القرون المفضلة بالدعاوى والحكايات وراجت بينهم جدا حتى صارت الكرامات تدعى لمن يدع الفرائض ويرتكب الكبائر وربما عدت المجاهرة بالكبائر الفظيعة كرامة ، انظر طبقات الشعرانى ج٢ ص ١٣٥ فى ترجمة على وحيش والتى تليها

(٢) هذا اذا لم يؤد حسن الظن بالشخص الى مخالفة الشرع والكذب عليه وانكار المعروف وقبول المنكر .

ثبوت الكرامات في الجملة

الشرعية والمشاهدات الحسية والقواطع العقلية فان كرامات الاولياء ثابتة بالعيان والبرهان أما أولا فان وجودها جائز عقلا واقع عيانا وشرعا فان حمل مريم بلا ذكر ووجود الرزق عندها بلا سبب من فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف من الخوارق وليستا معجزتين لعدم شرط المعجزة وهو دعوى النبوة والتحدي فتعين كون ذلك كرامة لها ، وأيضا قصة آصف بن برخيا فان احضاره عرش بلقيس في لحظة من مسيرة شهر خارق للعادة حتما ، وأيضا قصة اصحاب الكهف فان بقاءهم ثلاثمائة سنة بلا آفة من أعظم الخوارق ، وثانيا ما تواتر معناه وان كانت تفاصيله آحادا من كرامات الصحابة والتابعين ومن بعدهم والى وقتنا هذا مما ذاع وشاع وملأ الآفاق والاسماع وضاقت عن احصائه الدفاتر وشهدت بوجوده الاكابر والاصاغر ولا ينكره الا معاند ومكابر فلا جرم فهو الحق الصراح الرادع لاهل الانكار والكفاح. وهو مع كونه كرامة لمن ظهرت على يديه غالبا فهو دليل على صحة نبوة متبوع من ظهرت على يديه وحقية دينه واستقامة نهجه ومن ثم قلنا ((ومن)) أي أي انسان كائنا من كان ((نفاها)) أي كرامات الاولياء فلم يقل بجوازها فضلا عن وقوعها ((من ذوي)) أي أصحاب ((الضلال)) والزيغ عن نهج اهل السنة والاعتزال وكذا من نحا نحوهم من أهل السنة كالاستاذ أبي اسحاق الاسفرايني وابي عبد الله الحليمي من الاشاعرة ((فقد أتى في ذاك)) النفي وعدم التجويز لها ((بالمحال)) المنابذ للبرهان والعيان وثبوتها في السنن المتواترة ومحكم القرآن فمع هذه الادلة المتواترة والوقائع المتكاثرة فالانكار لها مكابرة غير منظور اليه ولا معول عليه ، وزعمهم ان الخوارق لو جاز ظهورها من الاولياء لالتبس النبي بغيره اذ الفرق ما بينهما انما هو بالمعجزة وبأنها لو ظهرت لكثرت لكثرة الاولياء وخرجت عن كونها خارقة للعادة والغرض كونها خارقا فاذا خرجت عن كونها خارقا لكثرتها نافت المقصود وخالفته ، ولانها لو ظهرت لا لغرض التصديق لانسد باب اثبات النبوة بالمعجزة لجواز أن يكون ما يظهر من النبي لغرض آخر غير التصديق ، وبأن مشاركة الاولياء للانبياء في ظهور

الخوارق يخل بعظيم قدر الانبياء ووقعهم فى النفوس ، باطل المأخذ غير صالح للتمسك به والتعويل عليه والالتفات له والمصير اليه حتى ولو لم **تكن** الادلة بكرامات الاولياء طافحة والعيان والبيان والبراهين بها واضحة ، فكيف والادلة القرآنية والسنن النبوية والآثار السلفية والمشاهدات العيانية أكثر من أن تحصى وأجل وأعظم من أن تستقصى • ولهذا قال معللا لما ارتكبوه فى نفيها من المحال ((لانها)) أى كرامات الاولياء كثيرة ((شهيرة)) للعيان ثابتة بالبرهان ((ولم تزل)) تظهرعلى يد الاولياءالصالحين وأهل التحقيق العارفين ((فى كل عصر)) من الاعصار الماضية والى الآن والعصر مثلثة وبضمتين الدهر ويجمع على اعصار وعصور وأعصر وعصر ويطلق العصر على اليوم والليلة والعشى الى احمرار الشمس ، وذلك كما تقدم من حكاية قصة مريم وعرش بلقيس وقصة اصحاب الكهف والمشى على الماء كما نقل عن كثير من الاولياء من الصحابة وغيرهم كما فى قصة العلاء بن الحضرمى من الصحابة رضى الله عنهم أجمعين فانه لما ذهب الى البحرين سلكوا مفازة وعطشوا عطشا شديدا حتى خافوا الهلاك فنزل فصلى ركعتين ثم قال يا حليم يا عليم يا على يا عظيم اسقنا ، فجاءت سحابة فأمطرت حتى ملأوا الآنية وسقوا الركاب ثم انطلقوا الى خليج من البحر ما خيض قبل ذلك اليوم فلم يجدوا سفنا فصلى ركعتين ثم قال ياحليم ياعليم يا على ياعظيم أجزنا ، ثم اخذ بعنان فرسه ثم قال جوزوا باسم الله ، قال ابو هريرة فمشينا على الماء فوالله ما ابتل لنا قدم ولا خف ولا حافر وكان الجيش اربعة آلاف • والطيران فى الهواء كما فى قصة جعفر بن ابى طالب ذى الجناحين رضى الله عنه ، وكقصة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ورؤيته لجيش سارية وهو على المنبر بالمدينة بنهاوند فنادى وهو على المنبر لامير الجيش سارية فقال : يا سارية الجبل : تحذيرا له من العدو ومكرهم له من وراء الجبل وسماع سارية مع بعد المسافة ، وكشرب خالد بن الوليد رضى الله عنه السم من غير أن يحصل له تضرر به وكجريان النيل بكتاب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وأمثال ذلك من كرامات الصحابة رضى الله عنهم مما لا يحصى الا بكلفة ، وكذلك

كرامات التابعين ومن بعدهم ما هو طافح مشهور لا يمكن رد وانكاره فى غلية البيان والظهور ولذا قال لمن انتحل المحال ((يا شقا اهل الزلل)) بما ارتكبوه ويا خسارتهم لما انتحلوا من رد المحسوس وتكذيبهم للبرهان بوساوس النفوس ومكابر تهم لانكار العيان بمجرد الرهم والهوس وقد قال، علماؤناأن كرامة الولى وظهور الخارق على يده من (حيث) كونه من آحاد الامة معجزة للرسول الذى ظهرت هذه الكرامة لواحد من أمته لانه يظهر بتلك الكرامة انه ولى ولن يكون وليا الا بأن يكون محقا فى ديانته ، وديانته هى الاقرار بالقلب واللسان والانقياد بالجوارح والاركان لما جاء به نبيه المتبوع ورسوله الذى عليه المعول والى ما جاء به الرجوع والطاعة لأوامره والانتهاء عن زواجره فى السر والاعلان حتى لو ادعى هذا الذى ظهرت على يده الكرامة الاستقلال بنفسه وعدم المتابعة لم يكن وليا ولم يظهر الخارق على يده ، ولو فرض ظهوره فهو حينئذ من قبيل الاستدراج • والحاصل ان الامر الخارق للعادة فهو بالنسبة الى النبى معجزة سواء ظهر من قبله او من قبل آحاد أمته وهو بالنسبة للولى كرامة لخلوه عن دعوى نبوة من ظهر ذلك من قبله ، فالنبى لا بد من علمه بكونه نبيا ومن قصد اظهار خوارق العادات وظهور المعجزات ، وأما الولى فلا يلزم ان يعلم بولايته ويستر كرامته ويسرها ويجتهد على اخفاء أمره كما تقدمت الاشارة الى ذلك كله •

(تنبيهات)

تنبيهات الاول

(الاول) وافق ابو الحسين البصرى المعتزلى ومن نحا منحاه أهل السنة فى جواز كرامات الاولياء ووقوعها (الثانى) يجوز فى الكرامات أن تقع بسائر وجوه خوارق العادات على اختلاف أنواعها ولو كقلب العصا حية وكوجود ولد من غير أب لا بمثل ما اختص به النبى صلى الله عليه وسلم مثل القرآن العظيم الذى هو اعظم المعجزات وأخص الآيات • وقال قوم الكرامات تختص بمثل اجابة دعاء ونحوه • قال الامام النووى وهذا غلط من قائله وانكار للحس بل الصواب جريانها حتى فى قلب الاعيان •

الثانى

(الثالث) الولاية موهبة من الله تعالى غير مكتسبة ولا يصل الولى ما دام

الثالث

عاقلا بالغا الى مرتبة سقوط التكليف عنه بالاوامر والنواهى ، ومن زعم ذلك فهو الحاد وزندقة ، ومن الزندقة ما زعمه من زعمه من بعض الكرامية ومن نحا نحوهم من أن الولى قد يبلغ درجة النبى بل أعلى ، وقدمنا الكلام فى تزييف هذا المقام بما يحصل به المرام والله ولى الانعام. (الرابع) قال بعض المحققين للولى أربعة شروط (أحدها) أن يكون عارفا بأصول الدين حتى يفرق بين الخلق والخالق وبين النبى والمتنبى (الثانى) أن يكون عالما بأحكام الشريعة نقلا وفهما ليكتفى بنظره عن التقليد فى الاحكام الشرعية كما اكتفى عن ذلك فى أصول التوحيد فلو أذهب الله تعالى علماء أهل الارض لوجد عنده ما كان عندهم ولاقام قواعد الاسلام من أولها الى آخرها (قلت) وهذا غير معتبر ولا مشترط فى مطلق الولى من غير تردد ، نعم يعتبر هذا فى المجتهد دون مطلق الولى والله أعلم . (الثالث) ان يتخلق بالاخلاق المحمودة التى دل عليها الشرق والعقل من الورع عن المحرمات بل والمكروهات وامتثال المأمورات واخلاص العمل وحسن المتابعة والاقتداء . (الرابع) أن يلازمه الخوف أبدا واحتقار النفس سرمدا وأن ينظر الى الخلق بعين الرحمة والنصيحة وأن يبذل جهده فى مراقبة محاسن الشريعة ومطالعة عيوب النفس وآفاتها والخوف بملاحظة السابقة والخاتمة ويجمع ذلك كله ويزيد عليه قوله تعالى (ألا أن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون* الذين آمنوا وكانوا يتقون * لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم) والله تعالى أعلم (١)

الرابع

---

(١) قال فضيلة الشيخ العلامة محمد بن عبد العزيز بن مانع فى شرحه لهذه الارجوزة المسمى بالكواكب الدرية ص ٩٩ بعد ذكر نحو ما ذكره السفارينى من شروط الكرامة وصاحبها ما لفظه

« وبهذا يتبين أن من ظهر على يديه شىء من الخوارق التى يسمونها كرامات الاولياء ، وهو مصر على دعوة غير الله تعالى من الاحياء والاموات ، معتقدا أنهم ينفعونه أو يضرون ، فهو من الحيل والشعوذة لا من الكرامات ، اذ من شروط حصولها صحة الاعتقاد ، وأى اعتقاد افسد من الاشراك بالله تعالى ؟ وكذا يتبين كذب من ادعى الولاية وهو تارك للصلوات مع المسلمين فى مساجدهم ، ويزعم أنه يصلى بمكة جميع الصلوات ولو كان بينه وبينها مسافة أيام . وينشد على ذلك :

نماذج ممن يدعى أو تدعى له الولاية والكرامة كذبا

(فصل)

فصل فى المفاضلة بين البشر والملائكة

فى المفاضلة بين البشر والملائكةوهى مسألة عظيمة قد كثر فيهاالاختلاف وتشعبت فيها الاقوال وعظمت فيها المحن والجدال ولكثرة الخلاف شيها وتباين اقوال الائمة من المتكلمين وغيرهم فى تفاصيلها قلنا فى النظم

((وعندنا تفضيل أعيان البشر   على ملاك ربنا كما اشتهر))
((قال ومن قال سوى هذا افترى   وقد تعدى فى المقال واجترى))

((وعندنا)) معشر أهل السنة خصوصا أهل الاثر وسلف الامة وكبار الائمة فانهم يقولون ويعتقدون ((تفضيل أعيان البشر)) محركة الانسان ذكر أو انثى ويطلق البشر على الواحد والجمع وقد يثنى ويجمع ابشارا والمراد بأعيانهم الانبياء عليهم الصلاة والسلام والاولياء فالانبياء أفضل من الاولياء وهما أفضل من الملائكة وقيل كل صالح أفضل من الملائكة ، قال الامام أبو الوفا ابن عقيل : الصحيح تفضيل الانبياء والصالحين على الملائكة والملائكة أفضل من الفسقة • وقال تارة : الانبياء أفضل من الملائكة وجبريل واسرافيل وميكائيل أفضل من الاولياء • وقال سيدنا الامام أحمد رضى الله عنه بنو آدم أفضل من الملائكة • ولذا قلنا ((على ملاك ربنا)) تبارك وتعالى

وفى طندتا قالواصلاتى تركتها
ولم يعلموا أنى أصلى بمكة
اصلى صلاة الخمس فى البيت دائما
مع السادة الاقطاب اهل الطريقة

وكذلك من سالم الحيات وسالمنه فأمسكهن، فان ذلك ليس من الكرامات فى شيء ، لانه معصية لامر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتلهن ، كما فى سنن أبى داود عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اقتلوا الحيات كلهن فمن خاف ثأرهن فليس منا • وفيها ايضا عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما سالمناهن منذ حاربناهن ، ومن ترك شيئا منهن خليفة فليس منا • فانظر الى قوله عليه الصلاة والسلام ما سالمناهن ، وهؤلاء الجهال سالموهن ، وادعوا أن ذلك كرامة وولاية • قال اهل الحق : والولى يكتمها — اى الولاية — ويسترها غالبا ، ويسرها ولا يساكنها • وهذا دليل على كذب المشعوذين الدجالين الذين جعلوا الكرامات سلاحا يحاربون به ضعاف العقول من العوام بالترغيب والترهيب ، وهم بذلك أكذب من مسيلمة وسجاح • وقد نقل عن بعض الدجالين انه قال — قاتله الله ان صح عنه — ان الله اعطانى أن أقول لنشيء كن فيكون • فهذا المخدوع ادعى الالهية من حيث لا يشعر (كبرت كلمة تخرج من أفواههم ان يقولون الا كذبا) •

((كما اشتهر)) ذلك من نصوص امامنا الامام أحمد رضى الله عنه ،والملاك هو الملك وجمعه ملائكة وحذفت همزة ملاك لكثرة الاستعمال وأصل وزنه مفعل فقيل ملك وقد تحذف الهاء من الجميع فيقال ملائك، وأصله مألك بتقديم الهمزة من الالوكة وهى الرسالة ثم قدمت اللام على الهمزة فى الجمع كما فى النهاية وغيرها ((قال)) امامنا الامام أحمد رضى الله عنه ((ومن)) أى انسان ((قال)) بلسانه أو اعتقد بجنانه ((سوى هذا)) أى غير القول بتفضيل بنى آدم على الملائكة ((افترى)) أى أتى بكلام خطأ يشعر بالافتراء ((وقد تعدى)) أى تجاوز الحد المنقول والثابت عن الرسول والسلف الفحول ((فى المقال)) الذى اعتمده ((واجترى)) أى افتات على الشارع بالاعتقاد الذى اعتقده،ولفظ النص : يخطىء من فضل الملائكة . وقيل كل مؤمن أفضل من الملائكة . قال ابن حمدان فى نهاية المبتدئين وقال الامام العلامة ابو بكر عبد العزيز بن جعفر المشهور بغلام الخلال رحمه الله تعالى من كان خيره أكثر من شره فهو خير من الملائكة ومن كان شره أكثر من خيره فالبهائم خير منه ، وقيل من غلب عقله على شهوته فهو خير من الملائكة ومن غلبت شهوته على عقله فالبهائم خير منه. هذا محصل قول جل أصحابنا . وقال الامام المحقق ابن القيم فى كتابه بدائع الفوائد : سئل شيخ الاسلام ابن تيمية روح الله روحه عن صالحى بنى آدم والملائكة أيهما أفضل ؟ فأجاب بأن صالحى البشر أفضل باعتبار كمال النهاية ، والملائكة أفضل باعتبار البداية فان الملائكة الآن فى الرفيق الاعلى منزهون عما يلابسه بنو آدم مستغرقون فى عبادة الرب ، ولا ريب أن هذه الاحوال الآن أكمل من أحوال البشر ، وأما يوم القيامة بعد دخول الجنة فتصير حال صالحى البشر أكمل من حال الملائكة ، قال وبهذا التفصيل يتبين سر التفضيل وتتفق أدلة الفريقين ويصالح كل منهم على حقه. قال ابن القيم فعلى المتكلم فى هذا الباب – يعنى باب التفاضل بين الاشياء – أن يعرف أسباب الفضل أولا ، ثم درجاتها ونسبة بعضها الى بعض والموازنة بينها ثانيا ، ثم نسبتها الى من قامت به كثرة وقوة ثالثا ، ثم اعتبار تفاوتها بتفاوت محلها رابعا ، فرب صفة هى كمال لشخص وليست كمالا لغيره بل كمال غيره بسواها فكمال خالد بن الوليد لشجاعته وحروبه ، وكمال ابن

عباس بفقهه وعلمه ، وكمال ابى ذر بزهده وتجرده عن الدنيا ، قال فهذه أربع مقامات يضطر اليها المتكلم فى درجات التفضيل وتفضيل الانواع على الانواع أسهل من تفضيل الاشخاص على الاشخاص وأبعد من الهـوى والغرض • انتهى ملخصا •

تنبيهات
الاولى تفصيل التفضيل والخلاف

تنبيهات

(الاول) قد علمت أن هنا ثلاث صور (الاولى) التفضيل بين الانبياء والملائكة وفى هذه ثلاثة أقوال (أحدها) الانبياء أفضل وعليه جمهور أهل الحق من أهل السنة وهو الصواب (الثانى) الملائكة افضل وهو قول المعتزلة واختاره من الاشاعرة ابو اسحاق الاسفراينى وأبو بكر الباقلانى والحاكم والحليمى وفخرالدين فى المعالم وأبو شامة واختار فخر الدين الاول فى الاربعين وفى المحصل (الثالث) الوقف عن القول بالتفضيل لأحد النوعين على الآخر ، ومحل الخلاف على هذا القول فى غير نبينا محمد صلى الله عليه وسلم أما هو فأفضل الخلق بلا خلاف لا يفضل عليه ملك مقرب ولا غيره كما ذكره غير واحد ممن حكى الخلاف كالسيوطى فى الحبائك والتاج السبكى فى منع الموانع والسراج البلقينى فى منهج الاصلين وبدر الدين الزركشى ونقل فخر الدين الرازى الاجماع على ذلك وكأنه أراد اجماع أهل السنة •

(الصورة الثانية) التفاضل بين خواص الملائكة وأولياء البشر وهم من عدا الانبياء وهذه الصورة زعم بعضهم نفى الخلاف بان خواص الملائكة أفضل ونقل السعد التفتازانى فى شرح عقائد النسفى الاجماع على أن خواص الملائكة أفضل من أولياء البشر بعد الرسل والانبياء ، وهذا مردود ومدخول فقد قدمنا أن معتمد القول عند علمائنا ومن وافقهم أن الاولياء أفضل من خواص الملائكة ، نعم ابن عقيل خالفهم فى ذلك فقال : خواص الملائكة من جبريل وميكائيل واسرافيل وعزرائيل ملك الموت أفضل من الاولياء ، وقال : فى القول بخلاف هذا شناعة عظيمة على قائله • كذا قال مع انه هو نفسه صرح بأن الانبياء والاولياء أفضل من الملائكة وصحح ذلك (االصورة الثالثة) التفضيل بين أولياء البشر وغير الخواص من الملائكة

وفى هذه قولان (أحدهما) تفضيل جميع الملائكة على أولياء البسر وجزم به ابن السبكى فى جمع الجوامع وذكر البلقينى فى منهجه انه قول أكثر العلماء ، والثانى تفضيل اولياء البشر على الملائكة وجزم به الصفار من الحنفية وهو المختار عندهم ومال البلقينى الى بعضه وهو أنه قد يوجد من اولياء البشر من هو أفضل من غير الخواص من الملائكة ، وقال قوم من أهل السنة أن الرسل من البشر أفضل من الرسل من الملائكة والاولياء من البشر أفضل من الاولياء من الملاكة ، وذهب آخرون الى أن الملأ الاعلى مفضلون على سكان الارض ، وفصل جماعة من محققى الماتريدية ومن وافقهم فقالوا رسل البشر كموسى عليه الصلاة والسلام أفضل من رسل الملائكة كجبريل عليه السلام ، ورسل الملائكة كاسرافيل عليه السلام أفضل من عامة البشر وهم أولياؤهم غير الانبياء كأبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، وعامة البشر كأوليائهم غير الانبياء أفضل من عامة الملائكة وهم غير الرسل منهم كحملة العرش والكروبيين ، وهذا نحو ما حكينا عن ابن عقيل ، واحتج اهل التفضيل بالاجماع وقد علمت انه مدخول بل ادعوا فيه الضرورة واحتجوا على تفضيل رسل البشر على رسل الملائكة وعامة البشر على عامة الملائكة بوجوه سنذكرها ونقل البلقينى فى منهج الاصلين ان المختار عند الحنفية أن خواص البشر وهم الرسل أفضل من جملة الملائكة ، والملائكة الخواص افضل من الانبياء غير المرسلين، والانبياء أفضل من غير الخواص من الملائكة، قال ومنهم من وقف فى التفضيل بين صالحى البشر والملائكة . كذا قال والحق المعتمد عندهم أن خواص البشر كالانبياء افضل من خواص الملائكة كرسلهم ، وخواص الملائكة كرسلهم افضل من عوام البشر كالاولياء ، وعوام البشر أفضل من عوام الملائكة وهم غير الرسل منهم والله أعلم

الثانى بعض أدله تفضيل صالحى البشر على الملائكة

(التنبيه الثانى) فى بعض أدلة مذهب أهل الحق من تفضيل صالحى البشر على الملائكة خلافا للمعتزلة والفلاسفة ومن نحا نحوهم منها قوله تعالى (واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم) فالمسجود له افضل من الساجد فان قيل لم لا يجوز أن يكون السجود لله تعالى وآدم كالقبلة ؟

فالجواب انه لو لم يكن السجود دالا على (علو) منصب المسجود له على الساجد لما قال ابليس (أرأيتك هذا الذى كرمت على) اذ لم يوجد ما يصرف هذا الكلام اليه سوى هذا السجود فدل ذلك السجود على ترجيح منصب المسجود له على الساجد (ومنها) ان آدم عليه السلام كان أعلم من الملائكة والاعلم أفضل لقوله تعالى (هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) وقد قال تعالى (وعلم آدم الاسماء كلها - الى قوله - قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم) (ومنها) ان طاعة البشر أشق والاشق أفضل فان البشر مجبولون على الشهوة والحرص والغضب والهوى ونحوها وهذه من أكبر الموانع وهى مفقودة فى الملك (ومنها) قوله تعالى (ان الله اصطفى آدم ونوحا وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين) والعالم عبارة عما سوى الله تعالى والآل يراد به الرجل نفسه ويراد به اقاربه الادنون ويراد به اتباعه فان قيل يشكل هذا فى قوله تعالى فى بنى اسرائيل (وانى فضلتكم على العالمين) اذ يلزم على ظاهر هذا تفضيل انبياء بنى اسرائيل على محمد صلى الله عليه وسلم ، فالجواب أولا الآية تحتمل التخصيص وثانيا من شرط المفضل عليه أن يكون موجودا حال وجود أنبياء بنى اسرايل (١) أما الملائكة فهم موجودون حال وجود محمد صلى الله عليه وسلم (ومنها) ان الملائكة لهم عقول بلا شهوة والبهائم لها شهوة بلا عقل والآدمى له عقل وشهوة ثم ان الآدمى ان رجحت شهوته على عقله كان أخس من البهائم كما قال تعالى (أولئك كالانعام) وقال : (ان هم الا كالانعام بل هم أضل سبيلا) واذا رجح عقله على شهوته كان أفضل من الملائكة فمن يطيع الله وأوامره وطينته معجونة بالشهوة والهوى ويقمع شهوته ويخالف هواه تكون عبادته أفضل ، ألا ترى من ابتلى من الملائكة بالشهوة كيف وقع فى المعصية على ما قيل . وذكر نحو هذا البيهقى وقال كما وقع لهاروت وماروت وساقها من ثلاثة طرق ، ثم اخرج البيهقى عن عبد الله بن سلام رضى الله عنه انه قال ان أكرم خليقة الله على الله أبو القاسم صلى الله .

---

(١) يعنى ولم يكن محمد صلى الله عليه وسلم موجودا حينئذ

عليه وسلم ، قيل رحمك الله وأين الملائكة ؟ قال الملائكة خلق كخلق الارض وخلق السحاب وخلق الجبال وخلق الرياح وسائر الخلائق وان أكرم الخلق على الله أبو القاسم صلى الله عليه وسلم . وأخرج البيهقى ايضا عن ابن عباس رض الله عنهما قال ان الله تعالى فضل محمدا على اهل السماء وعلى الانبياء . قيل وما فضله على اهل السما ؟ قال ان الله قال لأهل السماء (ومن يقل منهم انى اله من دونه فذلك نجزيه جهنم) وقال لمحمد صلى الله عليه وسلم (انا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر) وأخرج أيضا عن ابن عمرو قال قال رسول الله صلى لله عليه وسلم « ما شيء أكرم على الله من بنى آدم . قيل يا رسول الله ولا الملائكة ؟ قال « الملائكة مجبورون بمنزلة الشمس والقمر » قال البيهقى تفرد به عبيد الله بن غانم السلمى عن خالد الحذاء ، وعبيدالله قال البخارى عنده عجائب . قال ورواه غيره عن خالد الحذاء موقوفا على ابن عمرو وهو الصحيح . قال البيهقى ومن قال بالقول الآخر وهو تفصيل الملأ الاعلى على سكان الارض أشبه ان يقول اذا كان التوفيق للطاعة من الله تعالى وجب ان يكون الافضل من يكون توفيقه له وعصمته اياه اكثر ووجدنا الطاعة التى وجودها بتوفيقه وعصمته من الملائكة اكثر فوجب أن يكونوا بذلك افضل . وأخرج البيهقى أيضا حديث « لما خلق الله تعالى آدم وذريته قالت الملائكة رب خلقتهم يأكلون ويشربون وينكحون ويركبون فاجعل لهم الدنيا ولنا الآخرة ، فقال الله تبارك وتعالى لا أجعل من خلقته بيدى ونفخت فيه من روحى كمن قلت له كن فكان » قال وفى ثبوته نظر . انتهى . وقال العز بن عبد السلام فى أثناء كلام له فى أنواع التفاضل بين الحوادث من الجواهر والاجسام : لا يفضل الملائكة على الانبياء الاهجام بنى التفضيل على خيالات توهمها وأوهام فاسدة تعمدها ولم ينفوا الخيالات والتوهمات فى أمور يعلم أنه خلافها . انتهى . وقال الامام ابن عقيل من علمائنا فى كتابه الارشاد : مؤمنو أولاد آدم من الاولياء والزهاد والانبياء من طريق الاولى اشرف من الملائكة على قول أصحابنا ، قال : وعندى أن فيه تفصيلا وذلك أن فى الملائكة من لا يجوز أن يفضل عليه الاولياء مثل جبريل

وميكائيل وملك الموت والمقربين ولكنى افضل عليهم الانبياء ومنهم من يفضل عليه أولياء بنى آدم وهم من عدا المقربين من الملائكة السياحة وغير ذلك. قال والدلالة على أن خواص الملائكة المرسلين والمقربين خير من الاولياء خلافا لاصحابنا ان هـؤلاء ساووهم فى العبادة وفضلوا بالقرب والرسالة وسماع الكلام من الله تعالى الذى شرف بسماعه موسى عليه السلام على غيره ، وهذه الرتبة عظيمة لمن عقلها ، وفارق الانبياء لانهم فضلوهم بالرسالة والنبوة ومعاناة الامم والتعليم وجعل الملائكة خدما لهم ، ولان فى قولنا بأن صالحا من بنى آدم خير من جبريل شناعة عظيمة علينا من حيث سوينا بينه وبين رتبة الانبياء مع جلالة جبريل وعظمته وشرفه عند الله فان جبريل سفير الرحمن وحامل وحيه الى الانبياء . ثم قال : واستدل من قال بالعموم بما روى ابو هريرة رضى الله عنه قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الى ان قال « اوسعوا لمن خلفكم » فقلنا ولمن نوسع يا رسول الله قال « للملائكة انهم اذا كانوا معكم لم يكونوا من بين ايديكم ولا من خلفكم وانما يكونون عن ايمانكم وشمائلكم » قالوا من فضلنا عليهم او من فضلهم علينا قال « انتم افضل منهم » وأيضا عن النبى صلى الله عليه وسلم « المؤمن أكرم على الله من الملائكة الذين عنده » وأيضا اللفظ المشهور « ان الله تعالى يباهى ملائكته بأهل عرفات » ولا يباهى الا بالافضل ، وأيضا فان جبريل افتخر بأن يسمى من أهل البيت وسأل النبى صلى الله عليه وسلم ان يدخله تحت الكساء وكان تحته فاطمة والحسن والحسين . انتهى. والجواب عن هذا اما حديث ابى هريرة الاول فموضوع لا تحل روايته فضلا عن الاحتجاج به وممن حكم بوضعه الحافظ ابن حجر فى المطالب العالية وأورده الحافظ ابن الجوزى فى الموضوعات باختصار فلم يذكر قوله قالوا من فضلنا عليهم الخ وحكم بوضعه ، وأما حديث « المؤمن أكرم على الله من الملائكة الذين عنده » فالمعروف من لفظ الحديث « المؤمن أكرم على الله من بعض ملائكته » كذا رواه ابن ماجه (١) وهذا اللفظ لا يدل على تفضيل الاولياء على جميع الملائكة بل على بعضهم ، وحديث المباهاة لا يدل

---

(١) من طريق ابى المهزم وهو واه

على الافضلية ، وأما حديث أن جبريل عليه السلام افتخر بأن يسمى من أهل البيت وسؤاله النبى صلى الله عليه وسلم ان يدخله تحت الكساء فلا أصل له قال الحافظ السيوطى لم أقف له على أصل فى شىء من كتب الحديث ، وكيف يجسر أحد على تفضيل غير الانبياء من البشر على جبريل وميكائيل واسرائيل وعزرائيل مع ما فى صحيح البخارى عن ابن ابى مليكة قال أدركت ثلاثين من اصحاب النبى صلى الله عليه وسلم كلهم يخاف النفاق على نفسه ما منهم أحد يقول انه على ايمان جبريل وميكائيل . وقال سراج الدين البلقينى : الاكثر من الاشاعرة على تفضيل الانبياء على الملائكة وذهب القاضى ابو بكر الباقلانى والحليمى . الى ان الملائكة العلوية افضل، وينبغى أن يكون محل الخلاف فى غير النبى صلى الله عليه وسلم فهو أفضل خلق الله أجمعين ، قال وأما الصالحون من البشر غير الانبياء فأكثر العلماء على تفضيل الملائكة عليهم ، وعندنا أن من كان منهم تقيا نقيا موافيا الموت على ذلك فقد يفضل على الملك باعتبار المشقات فى عباداته مع ما فيه من الدواعى الى الشهوة وغيرها لا سيما من كان خليفة سيد الاولين والآخرين عليه أفضل الصلاة والسلام . وقال الشيخ بدر الدين الزركشى فى شرح جمع الجوامع أما تفضيل الانبياء على الملائكة فهو عقيدة الاشعرى وجمهور اصحابه وهو آخر اقوال ابى حنيفة فيما ذكره شمس الائمة لاجتماع العصمة مع التركيب المعرض للنوائب التى يجب الصبر عليها والشهوات التى يجب الصبر عنها ومن أحسن الادلة قوله تعالى بعد ذكره جماعة من الانبياء (وكلا فضلنا على العالمين) والملائكة من العالمين فدل على انهم أفضل منهم وقوله تعالى (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية * جزاؤهم عند ربهم جنات عدن) وأراد بنى آدم لان الملائكة لا يجازون بل هم خدم اهل الجنة ولأن بالانبياء قامت حجة الله على خلقه بخلاف الملائكة حتى قال تعالى (ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا) ولان آدم سجد له الملائكة والمسجود له أفضل من الساجد كما تقدم ثم فى الانبياء من هو أفضل من آدم ، ولأن الناس فى الموقف انما يتشفعون بالانبياء لا بالملائكة . وقال الشيخ عز الدين بن عبد السلام : لا شك أن

للبشر طاعات لم يثبت مثلها (للملائكة) كالجهاد والغزو ومخالفة الهوى والامر بالمعروف والنهى عن المنكر والصبر على البلايا والمحن والرزايا وقد ثبت انهم يرون ربهم ويبشرهم باحلال رضوانه عليهم ولم يثبت مثل هذا للملائكة • وقال بعض المحققين اتفقوا على ان العصاة من المؤمنين دون الأنبياء والملائكة ، فاما المطيعون فاختلفوا فى المفاضلة بينهم وبين الملائكة على قولين • وقال ابن يونس من الشافعية في مختصره فيالاصول بعد ذكر القولين وقال الاكثرون منا المؤمن الطائع أفضل من الملائكة • وقال ابن المنير : مذهب اهل السنة ان الرسول أفضل من الملك باعتبار الرسالة لا باعتبار عموم الاوصاف البشرية ولو كانت البشرية بمجردها أفضل من الملائكة (لكان كل البشر افضل من الملائكة ـ ١) ومعاذ الله • والله أعلم

الثالث الجواب عن ادلة المخالفين

(التنبيه الثالث) قد أشرنا فيما تقدم ان المعتزلة ذهبت الى تفضيل الملائكة على البشر حتى على الرسل والانبياء واختاره من الاشاعرةالقاضى ابو بكر الباقلانى وأبو اسحاق الاسفرائنى والحافظ ابو عبد الله الحاكم والحليمى والفخر الرازى فى المعالم دون الاربعين وأبو شامة ومن نحا نحوهم واحتجوا بحجج منها قوله تعالى (لن يستنكف المسيح ان يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون) قالوا فهذا يقتضى كون الملائكة افضل منالمسيح ألا ترى أنه يقال ان فلانا لا يستنكف الوزير من خدمته ولا السلطان ولا يقال انه لا يستنكف السلطان منخدمته ولا الوزير فلما ذكر المسيح أولا والملائكة ثانيا علمنا أن الملائكة أفضل منالمسيح• والجوابعنهمن وجوه (الاول) ان محمدا صلى الله عليه وسلم وكذا ابراهيم الخليل افضل من المسيح عليه السلام فلا يلزم من كون الملائكة افضل من المسيح كونهم أفضل من محمد ولا من ابراهيم عليهما الصلاة والسلام (الثانى) انقوله ولا الملائكة المقربون صيغة جمع فتناول الكل فهذا يقتضى كون مجموع الملائكة أفضل من المسيح فلم قلتم انه يقتضى كون كل واحد من الملائكة أفضل من المسيح (الثالث) ان الواو فى قوله ولا الملائكة المقربون حرف عطف وهو انما يفيد الجمع المطلق لا الترتيب والمثال الذى ذكرتموه ليس

---

(١) من مخ

بحجة لان الحكم الكلى لا يثبت بالمثال الجزئى ثم انه معارض بنحوقولك ما أعاننى على هذا الامر لا عمرو ولا زيد فهذا لا يفيد كون المتـأخر فى الذكر افضل من المقدم ومنهقوله تعالى (ولا الهدى ولاالقلائد ولا آمين البيت) ولما اختلفت الامة امتنع التعويل عليها ثم التحقيق فى المسألة انه اذا قيل هـذا العالم لا يستنكف من خدمته الوزير ولا السلطان فنحن نعلم بعقولنا أن السلطان أعظم درجة من الوزير فعرفنا ان الغرض من ذكر الثانى هو المبالغة فهذه المبالغة انما عرفناها بهذا الطريق لا بمجرد الترتيب فى الذكر فلا يمكن ان نعرف ان المراد من قوله ولا الملائكة المقربون بيان المبالغة الاا اذا عرفنا قبل ذلك ان الملائكة المقربين افضل من المسيح وحينئذ يتوقف صحة الدليل على صحة المطلوب وذلك دور (الرابع) هب أن الآية الكريمة دالة على أن منصب الملك أعلى وأزيد من منصب المسيح ولكن لا تدل على الزيادة من جميع الوجوه فالملك أزيد من جهة القوة والقدرة والبطش فان جبريل عليه السلام قلع مدائن قوم لوط والبشر لا يقدرون على مثل ذلك فلم قلتم ان الملك أفضل من البشر فى كثرة الثواب الحاصل بسبب مزيد الخشوع والعبودية، وتمام التحقيق ان الفضل المختلف فيه فى هذه المسألة هو كثرة الثواب ثم ان كثرة الثواب لا تحصل الا بنهاية التواضع والخضوع وكون العبد موصوفا بنهاية التواضع لله تعالى لا يلائم صيرورته مستنكفا من عبودية الله تعالى بل يناقضها وينافيها فامتنع ان يكون المراد من الآية هذا المعنى ، وأما اتصاف الشخص بالقدرة الشديدة والقوة الكاملة فانه مناسب للتمرد وترك العبودية فالنصارى لما شاهدوا من المسيح احياء الموتى وابراء الاكمه والابرص أخرجوه بسبب هذا القدر من القدرة عن عبودية الله تعال فقال تعالى ان عيسى لا يستنكف بسبب هذا القدر عن عبوديتى ولاالملائكة المقربون الذين هم فوقه فى القدرة والبطش والاستيلاء على عالم السموات والارضين ، وعلى هذا الوجه تنتظم دلالة الآية على أن الملك أفضل من البشر فى الشدة والقوة والبطش لكنها لا تدل البتة على أن الملك افضل من البشر فى كثرة الثواب ، ويقال أيضا انما ادعت النصارى الهية عيسى لانه

وجد لا من أب فقيل لهم الملك حصل ووجد لا من أب ولا من أم فكيف يستنكف المسيح عن العبودية لكونه وجد من أم لا من اب والملك الذى وجد لامن أب ولا من أم لا يستنكف عنها فالملائكة أعجب فى هذا من المسيح فى هذا الباب مع أنهم لا يستنكفون عن عبودية الله تعالى •

ومنها قوله تعالى (ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته) والاستدلال بهذه الآية الكريمة من وجهين (الاول) أنه تعالى احتج بعدم استكبار الملائكة عن عبادته على أن البشر يجب أن لا يستكبر عنها ولو كان البشر أفضل من الملائكة لما تم هذا الاستدلال فان السلطان اذا أراد أن يقرر على رعيته وجوب طاعتهم له فانه يقول الملوك لا يستكبرون عن طاعتى فمن هؤلاء المساكين؟ وبالجملة فظاهر أن هذا الاستدلال لا يتم الا بالاقوى على الاضعف (الثانى) انه قال ومن عنده وهذه عندية الفضيلة والقربة • والجواب عن هذا فهم مما قبله وهو أن الملائكة مع تمام قوتهم وشدة بطشهم لا يتمردون عن طاعة الله تعالى ولا يستكبرون فما بال البشر يتمردون عن طاعة الله مع غاية ضعفهم وهذا يوجب كون الملك أقوى من البشر لا كونه افضل منه بمعنى كثرة الثواب ، ويجاب عن الثانى أنه معارض بقوله تعالى فى صفة البشر (فى مقعد صدق عند مليك مقتدر) وقال عليه السلام حكاية عن الله تعالى « أنا عند المنكسرة قلوبهم » وهذا افضل لانه قال فى الملائكة انهم عند ربهم وقال فى وصف المنكسرة قلوبهم ان ربهم عندهم •

ومنها ان عبادات الملائكة أدوم وأشق فوجب ان تكون افضل بشاهد قوله تعالى (يسبحون الليل والنهار لا يفترون) وعلى هذا التقدير لو كانت أعمارهم مساوية لاعمال البشر لكان طاعتهم أدوم وأكثر فكيف ولا نسبة لعمر كل البشر الى عمر الملائكة وانما فضل الادوم لانه اشق فكان أفضل وفى الحديث « خيركم من طال عمره وحسن عمله » والجواب عن هذه بأن لا حجة لهم فى شىء من ذلك ، أما كون عبادتهم أشق (فنقول) بل عبادة البشر أشق لما فيهم من دواعى التخلف والتقاعد والفتور وانما يدل جميع ذلك على قوة الملائكة وهذا مسلم ، ولا حجة لهم ايضا فى الحديث لانه خطاب لبشر خاصة ولا يلزم من تافضل أحد الانواع بشىء التفاضل به فى غيره كما

لا يخفى ، وأنت اذا تأملتما تعلقوا به حق التأمل وجدته غير دال على مطلوبهم ، وقد قامت الادلة من الطرف الآخر على تفضيل الانبياء وكذلك من ألحقناهم بهم فى التفضيل فى الجملة ولا يذهب عليك أنه لا خلاف فى فضيلة الملائكة وانما الخلاف فى أفضليتهم على خواص بنى آدم. هذا وقد قال بعض العلماء مسألة تفضيل البشر على الملك أو الملك على البشر ليست مما يضر (١) اعتقاده ويضر الجهل به ولو لقى العبد ربه ساذجا من المسألة بالكلية لم يكن عليه اثم فما هى مما كلف الناس بمعرفته .

وقال القاضى تاج الدين السبكى : الناس ثلاثة رجل عرف ان الانبياء أفضل من الملائكة واعتقده بالدليل ، وآخر جهل هذه المسألة ولم يشتغل بها بالكلية وهذان لا ضرر عليهما ، قال وثالث قضى بأن الملك افضل وهذا على خطر ، وهل يقال ان من قضى بتفضيل الانبياء على خطر فيكون الساذج اسلم منه أو أنه ناج لاصابة الحق من الخطر ؟ هذا موضع نظر ، قال والذى أفهمه عن الوالد السلامة فى السكوت عن هذه المسألة وان الدخول فى التفضيل بين هذين الصنفين الكريمين على الله تعالى من غير ورود دليل قاطع دخول فى خطر عظيم وحكم فى مكان لسنا أهلا للحكم فيه وقد جاءت أحاديث تحسم باشارتها مادة الدخول فى ذلك فان قوله صلى الله عليه وسلم « لا تفضلونى على يونس بن متى » ونحوه ونحن على قطع بأنه صلى الله عليه وسلم أفضل من يونس عليه السلام ولم يختلف فى ذلك أحد لعله اشارة الى أنكم لا تدخلوا فى أمر لا يعنيكم وما للسوقة والدخول بين الملوك ؟ واعنى بالسوقة فى هذا أمثالنا وبالملوك الانبياء والملائكة عليهم السلام. وقد علمت مذاهب الناس مما أسلفنا والله أعلم .

السلامة فى السكوت عن التفضيل

الرابع فى تكليف الملائكة

(التنبيه الرابع) اختلف فى تكليف الملائكة عليهم السلام وعدمه قال العلامة شمس الدين ابن مفلح فى كتابه الفروع مانصه قال ابن حامد فى كتابه : الجن كالانس فى التكليف والعبادات ، قال ومذاهب العلماء اخراج الملائكة من التكليف والوعد والوعيد . انتهى. وتقدم بعض الكلام على الجن . وكذا قال فى الفروع قبيل باب الامامة فى كلام أبى المعالى ان كشف العورة

---

(١) الظاهر « يجب » او نحوه

خاليا هى مسألة سترها عن الملائكة والجن ، قال وكلام صاحب المحرر وظاهر كلامهم يجب عن الجن لانهم مكلفون أجانب وكذا عن الملائكة مع عدم تكليفهم لان الآدمى مكلف وقد أمر الشارع فى خبر بهز بن حكيم بحفظها عن كل أحد الا من زوجته وأمته وهذا مع العلم بحضورهم . انتهى ملخصا . ولعل مراده اخراجهم عن التكليف بما كلفنا به لا مطلقا والا فهم مكلفون قطعا قال ابن جماعة فى شرح بدء الامالى : المكلفون على ثلاثة أقسام قسم كلف من أول الفطرة قطعا وهم الملائكة وآدم وحواء عليهم السلام ، وقسم لم يكلف من أول الفطرة وهم أولاد آدم ، وقسم فيهم نزاع والظاهر انهم مكلفون من أول الفطرة وهم الجان . انتهى . قلت الكتاب والسنة ظاهرهما تكليف الملائكة اذ فيه (لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون - ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير - يسبحون الليل والنهار لا يفترون - يخافون ربهم من فوقهم) وقال (وهم من خشيته مشفقون - اذ اوحيت الى الملائكة انى معكم فثبتوا الذين آمنوا) وهذا كله تكليف وناشىء عن التكليف والاحاديث طافحة ، بمعنى ذلك والله أعلم .

الخامس فى سرد وجوه التفضيل

(الخامس) فى ذكر بعض التفضيل بين المعلومات قال العز ابن عبد السلام : الجواهر والاجسام كلها متساوية من جهة ذواتها وانما يفضل بعضها على بعض بصفاتها واعراضها وانتسابها الى الاوصاف الشريفة فى التفاضل النفيسة ، وأوصلها تلميذه القرافى فى كتابه انوار الفروق الى عشرين قاعدة ، أولها تفضيل المعلوم على غيره بذاته دون سبب يعرض له يوجب التفضيل له على غيره وله مثل ، أحدها الواجب لذاته المستغنى فى وجوده عن غيره كذات الله تعالى وصفاته ، الثانى العلم حسن لذاته وهو أفضل من الظن للقطع بعدم الجهل معه وتجويز الجهل مع الظن وذلك لذات العلم لا لصفة قامت به كما ان الجهل نقيصة لذاته لا لصفة قامت به أوجبت نقصه ، بخلاف الجاهل والعالم نقص الجاهل لصفة قامت به وهى الجهل وفضل العالم بصفة قامت به وهى العلم ، الثالث الحياة افضل من

الموت لذاتها لا لمعنى أوجب لها ذلك وسبب تفضيلها كونها تتأتى معها العلوم والقدر والارادات وغير ذلك من التصرفات وصفات الكمال كالنبوة والرسالة والولاية وغيرها وتعذر جميع ذلك مع الموت - يعنى ابتداء ذلك وان لم تنقطع هذه الاشياء بالموت ولا تفنى ولا تضمحل بل تدوم وتستمر - وتلك للحياة لذاتها لا لمعنى أوجب لها ذلك • (القاعدة)الثانية التفضيل بالصفات الحقيقية القائمة بالمفضل كتفضيل العالم على الجاهل والفاعل المختار على الموجب بالذات بسبب الارادة والاختيار القائم به وتفضيل القادر على العاجز بسبب القدرة الوجودية القائمة به فهذا كله تفضيل بالصفات القائمة بالمفضل لذاته وبه خالف القاعدة الاولى (القاعدة) الثالثة التفضيل بطاعة الله تعالى كتفضيل المؤمن على الكافر ، وتفضيل اهل الكتاب على عبدة الاوثان فأحل تعالى ذبائحهم وأباح تزويجنا من نسائهم دون عبدة الاوثان فانه جعل ما ذبحوه كالميتة وتصرفهم فيه بالذكاة كتصرف الحيوان البهيم من السباع والكواسر فى الانعام لا أثر لذلك وجعل نساءهم كاناث الخيل والحمير محرمات الوطء كل ذلك اهتضام لهم لجحدهم الرسالة والرسل ، وكتفضيل الولى على آحاد المؤمنين المقصرين فى الطاعة ، وقيل لاقتصارهم على أصل الدين الواجب وكثرة طاعة الولى وبذلك سمى وليا أى تولى الله بطاعته ، وقيل لان الله تعالى تولاه بلطفه ، ولذلك ايضا تفاضل الاولياء بينهم بكثرة الطاعة فمن كان أكثر تقربا الى الله تعالى كانت رتبته فى الولاية أعظم ويتفضيل الشهيد على غيره من حيث الجملة لأنه أطاع الله تعالى ببذل نفسه وماله فى نصرة دينه وأعظم بذلك طاعة وكتفضيل العلماء على الشهداء كما جاء فى الحديث « ما جميع الاعمال فى الجهاد الا كنقطة فى بحر وما الجهاد وجميع الاعمال فى طلب العلم الا كنقطة فى بحر » وفى حديث آخر « لو وزن مداد العلماء ودم الشهداء لرجح » (١) بسبب طاعة العلماء لله تعالى بضبط شرائعه وتعظيم شعائره التى

(١) بهامش مط : لفظ المروى «يوزن يوم القيامة مداد العلماء ودم الشهدا» ذكره فى الاحياء وقال العراقى أخرجه ابن عبدالبر بسند ضعيف وذكر له شارح الاحياء تخاريج أخرى ضعيفة وفيها زيادة « فيرجح مددا العلماء على دم الشهداء » اهـ مصححه

من جملتها الجهاد وهداية العباد الى الملك الجواد وتوصيل معالم الاديان الى يوم الدين ولولا سعيهم فى ذلك من فضل الله تعالى لانقطع الجهاد وغيره ولم يبق على وجه الارض من يقول « الله » وكل ذلك من نعم الله عليهم .
قلت هذا انتصار للقول بأفضلية العلم على الجهاد وهو مذهب أبى حنيفة ومالك رضى الله عنهما فعندهما العلم تعلمه وتعليمه أفضل من الجهاد وهى رواية عن الامام أحمد أيضا لان العلم هو الدليل المرشد ، وقد قال الامام أبو الوفاء بن عقيل ومما أنعم الله على أن حبب الى العلم فهو أسنى الاعمال وأشرفها . قال ابن مفلح في فروعه واختاره أي القول بأن العلم أفضل الأعمال غيره من علمائنا ولفظ الرواية: العلم أفضل الاعمال لمن صحت نيته ، قيل فأى شيء تصحيح النية ؟ قال ينوى أن يتواضع فيه وينفى عنه الجهل . نقله مهنا

الرابعة التفضيل بكثرة الثواب الواقع في العمل وله مثالات منها : الايمان أفضل من جميع الاعمال بكثرة ثوابه فان ثوابه الخلود فى الجنان والخلوص من النيران ومن غضب الديان ، ومنها صلاة الجماعة فانها أفضل من صلاة الفذ بسبع وعشرين صلاة ، ومنها الصلاة فى أحد المساجد الثلاثة ، ومنها صلاة القصر أفضل للمسافر من الاتمام وان كان الاتمام أكثر عملا .

الخامسة التفضيل لشرف الموصوف، منها صفات الله تعالى من علمه وكلامه وقدرته وارادته وسائر الصفات المنسوبة الى الله تعالى أفضل من غيرها لوجوه منها شرف الموصوف ، ومنها صفات رسول الله صلى الله عليه وسلم كعلمه وكرمه وشجاعته وحلمه وجميع ما هو صفة لنفسه الكريمة له الشرف والفضل على صفاتنا من وجوه أحدها شرف الموصوف

السادسة التفضيل بشرف (١) المدلول وله أمثلة منها تفضيل الاذكار الدالة على ذات البارى وصفاته العلى وأسمائه الحسنى ومنها تفضيل الآيات المتعلقة بالله كقل هو الله أحد على الآيات المتعلقة بأبى لهب كتبت يدا ابى

---

(١) هنا سقط والذى فى الفروق ج ٢ ص ٢٣٤ « القاعدة السادسة : التفضيل بشرف الصدور كشرف ألفاظ القرآن على غيرها من الالفاظ لكون الرب سبحانه وتعالى هو المتولى لرصفه ونظامه .. » ثم قال «القاعدة السابعة التفضيل بشرف المدلول ..» بمعنى ما هنا

لهب ومنها الآيات الدالة على الوجوب والتحريم أفضل من الآيات الدالة على الاباحة والكراهة والندب لاشتمالها على الحث على أعلى رتب المصالح والزجر عن أعظم المفاسد

السابعة (١) التفضيل بشرف الدلالة لا بشرف المدلول كشرف الحروف الدالة على الأوصاف الدالة على كلام الله تعالى فان ذلك أوجب شرفها على جميع الحروف لهذه الدلالة وأمر الشرع بتعظيمها فلا تمسك الا على طهارة ويكفر من أهانها بالقاذورات وله وقع عظيم فى الدين فلا يجوز اخراجها عن بلاد المسلمين الى بلاد الكافرين خشية أن تنالها أيديهم . قلت وهذا على حسب اعتقاده من أنها مخلوقة وليست هى من كلام رب العالمين والحق أن مابين دفتى المصحف كلام رب العالمين وحبله المتين والله أعلم

الثامنة(٢) التفضيل بشرف التعلق كتفضيل العلم على الحياة فان الحياة لا تتعلق بشىء بل لها موصوف فقط والعلم له موصوف ومتعلق فله مزية شرف بذلك وكذلك القدرة والارادة والسمع بالاصوات والبصر بجميع الموجودات المبصرات

التاسعة (٣) التفضيل بشرف المتعلق كتفضيل (العلم) المتعلق بذات الله وصفاته على غيره من العلوم ، وكتفضيل الفقه على الطب لتعلقه بأحكام الله تعالى وهذا القسم عين المدلول فكل مدلول متعلق وليس كل متعلق مدلولا لأن الدلالة والمدلول من باب الالفاظ والحقائق الدالة كالصنعة على الصانع فانها تدل عليه وأما العلم ونحوه فلا يقال له دال بل هو مدلول فى نفسه وليس بدليل على غيره بل له متعلق خاصة وهو معلومه ، وكذلك الارادة المتعلقة بالخير أفضل من الارادة المتعلقة بالشرور ، والنية فى الصلاة أفضل من النية فى الطهارة لأنها متعلقة بالمقاصد والثانية بالوسائل ، والمقاصد أفضل من الوسائل والمتعلق بالافضل أفضل

العاشرة(٤) التفضيل بكثرة التعلق كتفضيل علم الله تعالى على قدرته وارادته وسمعه وبصره لتعلقه بجميع الواجبات والممكنات والمستحيلات

---

(١) فى الفروق « الثامنة » وقد عرفت السبب (٢) فى الفروق «التاسعة»
(٣) فى الفروق « العاشرة »
(٤) فيه « الحادية عشر »

واختصاص الارادة بالممكنات وجودا وعدما والقدرة بوجود الممكنات خاصة واختصاص السمع بالمسموعات على ما تقدم

الحادية عشرة (١) التفضيل بالمجاورة كتفضيل جلد المصحف على سائر الجلود

الثانية عشر (٢) التفضيل بالحلول كتفضيل قبره صلى الله عليه وسلم على جميع بقاع الارض وحكاه القاضي عياض اجماعا والمراد والاعضاء الشريفة فيه ، وفى بدائع الفوائد للمحقق ابن القيم قال ابن عقيل سألنى سائل أيما أفضل حجرة النبى صلى الله عليه وسلم أو الكعبة فقلت : ان أردت مجرد الحجرة فالكعبة أفضل وان أردت وهو صلى الله عليه وسلم فيها فلا والله ولا العرش (٣) وحملته ولا جنة عدن ولا الافلاك الدائرة لان بالحجرة جسدا لو وزن بالكونين لرجح • انتهى •

الثالثة عشر (٤) التفضيل بسبب الاضافة كقوله تعالى (اولئك حزب الله) أضافهم اليه تعالى ليشرفهم بالاضافة اليه واضافة البيت اليه تعالى وكذا الناقة ونحوها

الرابعة عشر (٥) التفضيل بالانساب والاسباب كتفضيل ذريته على جميع الذرارى بسبب نسبهم المتصل برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكتفضيل نسائه على جميع النساء وان تفاوتن فى ذلك •

الخامسة عشر (٦) التفضيل بالثمرة والجدوى كتفضيل العالم على العابد لأن العلم يثمر صلاح الخلق وهدايتهم الى الحق بالتعليم والارشاد وأما العبادة فقاصرة على محلها ، ومن هذا الوجه تفضيل الرسالة على النبوة

السادسة عشر (٧) التفضيل بأكثرية الثمرة بأن تكون الحقيقتان لكل

---

(١) فيه « الثانية عشر »
(٢) فيه « الثالثة عشر »
(٣) يعنى بدون نظر الى استواء الله عليه
(٤) فيه « الرابعة عشر »
(٥) فيه « الخامسة عشر »
(٦) فيه « السادسة عشر »
(٧) فيه « السابعة عشر »

واحد منهما ثمرة لكن ثمرة احداهما اعظم وجدواها أكثر كثمرة علم الفقه وعلم الهندسة فان كلاهما مثمر أحكاما شرعية لان الهندسة يستعان بها فى الحساب والمساحات ، والحساب يدخل في المواريث وغيرها والمساحات تدخل فى الاجارات ونحوها من نوادر المسائل الفقهية الا أنها بالنسبة الى مسائل الفقه قليلة فثمرة الفقه أعظم وعلم النحو أنفع من علم المنطق وعلم الاصول أنفع من علم النحو وكل علم بحسب ثمرته والله أعلم

السابعة عشر (١) التفضيل بالتأثير كقدرة الله تعالى على العلم والكلام بالنسبة للتأثير فانها مؤثرة فى تحصيل وجود الممكنات والعلم تابع فمن حيث سعة المتعلق والعموم فالعلم أفضل ومن حيث التأثير فالقدرة والله أعلم، وكذلك الارادة بالنسبة الى الحياة فان الارادة مؤثرة للتخصيص فى الممكنات بزمانها وصفاتها الجائزة عليها والحياة لا تؤثر ايجادا ولا تخصيصا وليس فى صفات الله السبعة التى تثبتها الصفاتية الا القدرة والارادة فقط

الثامنة عشر (٢) التفضيل بجودة البنية والتركيب كتفضيل الملائكة الكرام عليهم السلام على الجان بسبب جودة أبنيتهم وحسن تركيبهم فانهم خلقوا من نور فجبريل يسير من العرش الى الفرش مسيرة سبعة آلاف سنة لحظة واحدة ويحمل مدائن قوم لوط الخمسة من تحت الارض على جناحه ولا يضطرب منها شيء بل يقتلعها من تحتها ويصعد بها الى الجو ثم يقلبها وهذا عظيم والملك الواحد من الملائكة يقهر الجمع العظيم من الجان ولهذا سأل سليمان عليه السلام ربه أن يولى على الجان الملائكة ففعل له ذلك فهم الزاجرون لهم عند العزائم وغيرها التى يتعاطاها أهل هذا العلم فيقسمون على الملائكة بتلك الاقسام التى تعظمها الملائكة فتفعل فى الجان ما يريده المقسم عليهم بتلك الاقسام التى تعظمها الملائكة فتفعل فى الجان ما يريده المقسم عليهم بتلك الاسماء العظيمة • كذا زعم القرافى (٣) قال وكانوا قبل زمن سليمان عليه السلام يخالطون الناس فى الاسواق ويعبثون بهم عبثا شديدا فلما رتب سليمان عليه السلام هذا الترتيب وساله من ربه انحازوا

---

(١) فى الفروق « الثامنة عشر »

(٢) فى الفروق « التاسعة عشر » (٣) للمؤلف الحق فى التبرؤ من هذا فانه قول بغير علم واسترسال مع دعاوى الخرافيين

الى الفلوات والخراب من الارض فقلت أذيتهم ، والملائكة عليهم السلام تراقبهم في ذلك فمن عبث منهم وعثا ردوه أو قتلوه كما يفعل ولاة بني آدم مع سفهائهم ، قال وما سبب اقتدار الملائكة على الجان الا فضل أبنيتهم ووفور قوتهم فهم مفضلون على الجان من هذا الوجه مضافا لبقية الوجوه ، ومن هذه الحيثية فضلت الملائكة على البشر • قال القرافي فان الصحيح أن البشر أفضل على تفصيل فيه فاذا ورد نص في تفضيل الملك حمل ذلك التفضيل والثناء على الابنية وجودة التركيب اذا كان النص يحتمل ذلك فتندفع أكثر الاسئلة والنقوض عن المستدل على أفضلية الانبياء صلوات الله عليهم وسلامه ، ولا نزاع أن الملائكة (أفضل) في أبنيتهم وأبنية بني آدم ضعيفة بالنسبة الى أبنية الملائكة فتحمل نصوص التفضيل على ذلك ، وكذلك تفضيل الجان في الابنية وجودة التركيب على بني آدم ومن ثم الجان يعيشون الآلاف من السنين ولا تعرض لهم الامراض والاسقام التي تعرض لبني آدم بسبب أن أجسادهم ليست مشتملة على الرطوبات وأجرام الاغذية فلا يحصل لهم التعفن والآفات الناشئة عن الرطوبات ، ومن حيث جودة العنصر وحسن التركيب فضل الذهب على الفضة

التاسعة عشر (١) التفضيل باختيار الله تعالى لمن يشاء على من يشاء ولما يشاء على مايشاء فيفضل أحد المتساويين على الآخر من كل وجه كتفضيل شاة الزكاة على شاة التطوع ، وكتفضيل فاتحة الكتاب داخل صلاة الفرض على الفاتحة خارج الصلاة • وقال ابن عبد السلام : الفضائل ضربان أحدهما فضل الجمادات كفضل الجوهر على الذهب وفضل الذهب على الفضة وفضل الفضة على الحديد وفضل الانوار على الظلمات وفضل الشفاف على غير الشفاف وفضل اللطيف على الكثيف والنير على المظلم والحسن على القبيح ، والضرب الثاني فضائل الحيوان وهي أقسام أحدها حسن الصور (الثاني) قوة الاجسام كالقوى الجاذبة والممسكة والدافعة والغاذية والقوى على الجهاد والقتال وحمل الاعباء والاثقال (والثالث) الصفات الداعية الى الخير والوازعة عن الشر كالغيرة والنخوة والحياء والشجاعة والسخاء والحلم (الرابع) العقول (الخامس) الحواس (السادس) العلوم المكتسبة وهي أقسام كمعرفة

---

(١) في الفروق « العشرون »

وجود الاله وصفاته الذاتية والسلبية والفعلية ومعرفة ارسال الرسل وانزال الكتب وتنبئة الانبياء ومعرفة ما شرع الله من الاحكام الخمسة وأسبابها وشروطها وموانعها ومعرفة الاحوال الناشئة مما ذكر من المعارف كالخوف والرجاء والمحبة والتوكل والتعظيم والاجلال والقيام بطاعة الله تعالى فى كل ما أمر به ونهى عنه وما رتبه الله تعالى على هذه المعارف والاحوال والطاعات من لذات الآخرة وافراحها بالنعيم الجثمانى والروحانى كلذة الامن من عذاب الله والانس بقربه وجواره وسماع كلامه وسلامه مصحوبة بالرضا الدائم والنعيم المقيم والنظر الى وجهه الكريم مع الخلاص من العذاب الاليم،

فهذه فضائل بعضها من بعض فمن اتصف بأفضلها كان أفضل البرية ولا شك أن معرفة الله تعالى ومعرفة صفاته ولذات رضاه والنظر الى وجهه الكريم أفضل مما عداهن وأفضل الملائكة من قام به أفضل هذه الصفات فان تساوى اثنان من الملائكة فى ذلك لم يفضل أحدهما على الآخر وكذا أن تساوى الملك والبشر فى ذلك لم يفضل أحدهما على الآخر فان فضل الملك على البشر بشىء من ذلك كان أفضل منه وان فضل البشر على الملك بشىء من ذلك كان أفضل منه ، والفضل منحصر فى أوصاف الكمال والكمال اما بالمعارف والطاعات والاحوال واما بالافراح والملذات فاذا أحسن الله تعالى الى أجساد الانبياء بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وأحسن الى أرواحهم بالمعارف الكاملة والاحوال المتوالية وأذاقهم لذة النظر اليه وسرور رضاه عنهم وكرامة تسليمه عليهم فأين للملك مثل هذا ؟ واعلم أن

الاجساد مساكن الارواح وللساكن والمسكن أحوال ، أحدها أن يكون الساكن أشرف من المسكن ، الثانية أن يكون المسكن أشرف من الساكن ، الثالثة أن يستويا فى الشرف فلا يفضل أحدهما على الآخر ، فاذا كان الشرف للساكن فلا مبالاة بخساسة المسكن واذا كان الشرف للمسكن فلا يشرف به الساكن — والاجساد مساكن الارواح ، ثم ذكر اختلاف الناس في التفضيل الواقع بين البشر والملك فقال : ان فاضل بينهما من جهة تفاوت الاجساد التى هى مساكن الارواح فأجساد الملائكة أشرف وأفضل من أجساد البشر المركبة من الاخلاط ، وان فاضل بين أرواح البشر وأرواح الملائكة

مع قطع النظر عن الاجساد التى هى مساكن الارواح فأرواح الانبياء أفضل من أرواح الملائكة لأنهم فضلوا عليهم بالارسال ورسل الملائكة قليل لأن رسول الملائكة يأتى الى نبى واحد ورسول البشر يأتى الى الامم والى أمة واحدة فيهديهم الله تعالى على يديه فيكون له أجر تبليغه ومثل أجر من اهتدى على يديه وليس مثل هذا للملائكة ، وبالجهاد فى سبيل الله وبالصبر على مصائب الدنيا ومحنها والله تعالى يحب الصابرين، ولا عبرة بفضل أجساد الملائكة على أجساد الانبياء لأن الاجساد مساكن ولا شرف بالمساكن وانما الشرف بالاوصاف القائمة بالساكن فالاعتبار بالساكنين دون المساكن فان الانبياء قد سكنوا فى بطون أمهاتهم مع القطع بأنهم أفضل من أمهاتهم فروح المسيح أفضل من جسد مريم وكذلك روح ابراهيم أفضل من جسد أمه وروح نبينا محمد صلى الله عليه وسلم أفضل من جسد أمه

فاذا تقرر هذا فى أسباب التفضيل فاعلم أن هذه الاسباب الموجبة للتفضيل قد تتعارض فيكون الافضل من حاز أكثرها وأفضلها وقد يختص المفضول ببعض الصفات الفاضلة ولا يقدح ذلك فى التفضيل عليه كقوله صلى الله عليه وسلم أقضاكم على وأفرضكم زيد وأقرؤكم أبى وأعلمكم بالحلال والحرام معاذ بن جبل وأزهدكم أبو ذر • رضى الله عنهم • مع أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه أفضل من الجميع ، وكذلك الانبياء فخص سليمان بالملك العظيم ونوح بالانذار المثين من السنين ، وآدم أبا البشر مع تفضيل محمد صلى الله عليه وعليهم أجمعين ، فلولا جواز تخصيص المفضول بما ليس للفاضل للزم التناقض ، فلا جرم علمنا أن التفاضل ما بين الملائكة والأنبياء عليهم السلام انما هو بالطاعات وكثرة المثوبات والاحوال السنيات وشرف النبوات والرسالات والدرجات العليات فكل من كان فيها أتم فهو أفضل ، وفيما ذكر من تعداد أسباب التفضيل الرد على المأمون بن هرون الرشيد الخليفة فى زعمه أن أسباب التفضيل أربعة وكلها فى على رضى الله عنه أكمل منها فى غيره فزعم أنه أفضل الصحابة وهى العلم والشجاعة والكرم وشرف النسب • وأخذ يرد على الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ويرد على أهل السنة فبطل بما ذكر دعوى هذا الحصر وكان المامون هذا

رافضيا معتزليا قدريا ، ومسائل التفضيل كثيرة بين الانبياء والصحابه والملائكة والله تعالى أعلم • وقد بسطنا العبارة وذكرنا ما لعله يفيد المطلوب غير أن الاعراض عن كثير مما ذكر كان أليق بشرح هذه الارجوزة وبالله التوفيق

الباب السادس الامامةومتعلقاتها

((البـــــاب السادس
فى ذكر الامامة ومتعلقاتها))

((ولا غنى لأمة الاســـــلام   فى كل عصر كان عن امام))
((يذب عنها كل ذى جحـــود   ويعتنى بالغـــزو والحدود))
((وفعل معـــروف وترك نكر   ونصر مظلوم وقمع كفــــر))
((وأخذ مال الفىء والخراج   ونحوه والصرف فى منهاج))

قال علماؤنا كغيرهم : نصب الامام الاعظم فرض كفاية لأن الصحـــابة رضى الله عنهم أجمعوا على أن نصبه واجب بعد انقراض زمن النبوة بل جعلوه أهم الواجبات حيث اشتغلوا به عن دفن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واختلافهم فى تعيينه لا يقدح فى الاجماع المذكور ، ولتلك الاهمية لما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم قام أبو بكر رضى الله عنه خطيبا فقال أيها الناس من كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات ومن كان يعبد الله فان الله حى لا يموت فلا بد لهذا الامر ممـــــن يقوم به فانظروا وهاتوا آراءكم • قالوا صدقت ننظر فيه فلهذا قلنا ((ولا غنى)) ولا مندوحة ولا بد ((لأمة)) دين ((الاسلام)) وهى بالضم الجماعة أرسل اليهم رسول والجيل من كل حى ومن هو على الحق مخالف لسائر الاديان والرجل الجامع للخير • وفى نسخة لملة بدل أمة وهى بكسر الميم الشريعة أو الدين ((فى كل عصر)) من الاعصار وزمن من الازمان ((كان)) اى وجد وحصل واستمر ((عن امام)) متعلق بقوله لا غنى بل هو فرض لازم وواجب جازم ووجوبه عند أهل السنة وأكثر المعتزلة بالسمع يعنى التواتر والاجماع • وزعم جمهور المعتزلة أن وجـــوبه بالعقل ووجه وجوبه شرعا لمسيس الحاجة اليه فانه صلى الله عليه وسلم أمر باقامة الحدود وسد الثغور وتجهيز الجيوش للجهاد وحماية البيضة

والذب عن الحوزة ولذا قال ((يذب)) بفتح المثناة التحتية وضـم الذال المعجمة وتشديد الموحدة أي يدفع ويمنع ((عنها)) أى عن ملة الاسلام وبيضة الدين ((كل)) ملك جبـار وملحد مغـوار ومعتد مهـذار وظلوم كفار ((ذى)) أى صاحب ((جحود)) اى انكار يقال جحده حقه وبحقه كمنعه جحدا وجحودا انكره مع علمه ، والمراد به هنا الجاحد للدين القويم والضال عن الصراط المستقيم واضرابه ((ويعتنى)) ذلك الامـام المنصوب - يقال عناه الامر يعنيه ويعنوه عناية وعنايةوعنيا أهمه واعتنى به اهتم ((بالغزو)) أى غزو الكفار وقهر أهل البغي والفجار، يقالغزاهغزوا أراده وطلبه وقصده كاغتزاه وغزا العدو سار الى قتالهم وانتهابهم غزوا وغزوناه فهو غاز ، فيقاتل من عاند الاسلام بعدالدعوةحتى يسلم أو يدخل فى الذمة ((و)) يعتنى الامام المنصوب ايضا باقامة ((الحدود)) جمع حد وهو لغة المنع والفصل بين شيئين، وحدود اللهتعالى محارمه كقوله تعالى (تلك حدود الله فلا تقربوها) وحدود الله أيضا ما حده وقدره،والحدود العقوبات المقدرة سميت بذلك لانها تمنع من الوقوع فى مثل الذنب الذى رتبت تلك العقوبة عليه أو لكونها زواجر عنها أى المحارم التى حرمها الله تعالى ، فيقيم الحدود لتصان محارم اللهتعالى عن الانتهاك وتحفظ حقوق العباد من الاتلاف والاستهلاك ((و)) يعتنى أيضا بالامر بـ ((فعـل معروف)) وقد تكرر ذكره فى الاحاديث النبوية والنصوص السـماوية وهو اسم جامع لكل ما عرف من طاعة الله والتقرب اليه والاحسان الى الناس وكل ما ندباليه الشرع ونهى عنه من المحسناتوالمقبحات ، وهو من الصفات الغالبة أى أمر معروف بين الناس اذا رأوه لا ينكرونه ((وترك نكر)) معطوف على ما قبله أي ويعتنى أيضا بالنهى عن كل منكر وهو ضد معروف فكل ما قبحه الشرع وحرمه وكرهه فهو منـكر ((و)) يعتنى المنصوب بـ ((نصر مظلوم)) من ظالمه بتخليصه من نحو سجنه وردظلامته عليه من ظالمه وأخذ حقه ممن هو عليه ونحو ذلك ((وقمع)) أهـل ((كفر)) أى قهرهم وذلهم يقال قمعه كمنعهوأقمعه والمقموع المقهـور لان ذلك من أجل المقاصد الشرعية والمصالح الاسلامية ((و)) يعتنى أيضا

، ((أخذ مال الفيء)) أصل الفيء مصدر فاء يفيء فيئا اذا رجع ثم أطلق على المال الحاصل من جهاته المذكورة في كتب الفقه سمي فيئا لانه راجع منها الى اهل الاسلام كأنه في الاصل لهم ثم رجع اليهم ، قال شيخ الاسلام ابن تيمية روح الله روحه في السياسة الشرعية : سمى فيئا لأن الله تعالى افاءه على المسلمين أي رده عليهم من الكفار فان الاصل ان الله تعالى انما خلق الاموال اعانة على عبادته لانه تعالى انما خلق لعبادته فالكافرون به أباح أنفسهم التى لم يعبدوه بها وأموالهم التى لم يستعينوا بها على عبادته لعباده المؤمنين الذين يعبدونه فأفاء اليهم ما يستحقونه كما يعاد على الرجل ما غصب من ميراثه وان لم يكن قبضه قبل ذلك .وهو ما اخذ من مال كافر بحق الكفر بلا قتال كالجزية ((والخراج)) وزكاة تغلبي وعشر مال تجارة حربي ونصفه من ذمي ((ونحوه)) أي نحو ما ذكر كالمال الذى تركه الكفار فزعا وهربوا وبذلوه فزعا منا في الهدنة وغيرها وخمس الخمس من الغنيمة ومال من مات من الكفار ولا وارث له ومال المرتد اذا مات على ردته بقتل أو غيره أو لحق بدار حرب ((و)) يعتنى أيضا بـ ((الصرف)) لذلك المال المذكور ((فى منهاج)) أى طريق وجهة مصرفه المعينة له شرعا فيصرف في مصالح أهل الاسلام ويبدأ من ذلك بالاهم فالاهم من المصالح العامة لاهل الدار التى بها حفظ المسلمين من وظائف جند الاسلام وعمارة الثغور وكفاية أهلها وما يحتاج اليه من يدفع عن المسلمين من السلاح والكراع وسد البثوق وكرى الانهار وعمل القناطر على الطرق والمساجد وأرزاق القضاة والأئمة والمؤذنين والفقهاء ومن يحتاج اليه المسلمون وكل ما يعود نفعه على المسلمين فان فضل منه شيء قسم بين المسلمين غنيهم وفقيرهم نعم لا يفرد العبد بالعطاء بل يزاد سيده ، واختار شيخ الاسلام ابن تيمية قدس الله روحه أنه لاحظ للرافضة فيه ذكره المحقق ابن القيم فى كتابه زاد المعاد فى هدى خير العباد عن الامامين مالك وأحمد رضى الله عنهما .

وكل ما ذكر من اقامة الحدود وسد الثغور وحفظ بيضة الاسلام واجب وما لا يتم الواجب المطلق الا به فهو واجب فلهذا قلنا ولا غنى لملة الاسلام

عن اقامة امام فنصبه فرض كفاية اذ في نصبه جلب منافع لا تحصى ودفع مضار لا تستقصى وكل ما كان كذلك فهو واجب فان جلب المنافع ودفع المضار المترتبة على نصب الامام تكاد تلحق بالضرورات بل بالمشاهدات بشهادة ما تراه من الفتن والفساد وانفصام أمور العباد بمجرد موت الامام وان لم يكن على ما ينبغي من الصلاح والسداد فاقامة الامام فرض كفاية عند أهل السنة ومن وافقهم بالاجماع ، وعند من قال بالوجوب عقلا من المعتزلة كأبي الحسين والجاحظ والخياط والكعبي فالبضرورة ،وأما مخالفة الخوارج ونحوهم في الوجوب فلا اعتداد بها لان مخالفتهم كسائر المبتدعة غير قادح في الاجماع ولا يخل بما يفيده من القطع بالحكم المجمع عليه ، ودعوى ان في نصبه ضررا من حيث ان الزام من هو مثله بامتثال أو امره فيه اضرار به فيؤدي الى الفتنة ومن حيث انه غير معصوم من نحو الكفر والفسوق فان لم يعزل أضر بالناس وان عزل أدى الى محاربة وفيها ضرر باطلة لا ينظر اليها لان الاضرار اللازم من ترك نصبه أعظم وأقبح بل لا نسبة بينهما واذا اجتمع ضرران دفع اعظمهما بأخفهما وجوبا وفرض انتظام الناس بدون امام محال عادة كما هو مشاهد

أوجه تولي الامامة وشروطه

((ونصبه بالنص والاجماع وقهره فحل عن الخداع))
((وشرطه الاسلام والحريه عدالة سمع مع الدريه))
((وان يكون من قريش عالما مكلفا ذا خبرة وحاكما))

((و)) يثبت ((نصبه)) أي الامام الاعظم ((بالنص)) من الامام على استخلاف واحد من أهلها بأن يعهد الامام الى انسان ينص عليه بعد ولا يحتاج في ذلك الى موافقة اهل الحل والعقد كما عهد ابو بكر الصديق بالخلافة الى عمر الفاروق رضى الله عنهما ((و)) يثبت نصبه أيضا بـ ((الاجماع)) من أهل الحل والعقد من المسلمين كامامة الصديق الاعظم أبي بكر رضى الله عنه خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فاذا بايعه أهل الحل والعقد من العلماء ووجوه الناس الذين هم بصفة الشهود من العدالة وغيرها ثبتت امامته ، وكذا في جعل الامر شورى في عدد محصور ليتفق أهل البيعة على أحدهم فاذا اتفقوا على واحد منهم صار اماما

كما فعل عمر بن الخطاب رضى الله عنه حيث جعل أمر الامامة بين ستة أنفار حتى وقع اتفاقهم على عثمان بن عفان رضى الله عنه وعنهم أجمعين ((و)) يثبت نصبه أيضا بـ ((قهره)) الناس بسيفه حتى يذعنوا لـه ويدعوه اماما فتثبت له الامامة • قال الامام أحمد رضى الله عنه فى رواية عبدوس بن مالك العطار : ومن غلب عليهم بالسيف حتى صار خليفة وسمى أمير المؤمنين فلا يحل لاحد يؤمن بالله يبيت ولا يراه اماما برا كان او فاجرا انتهى • لان عبد الملك بن مروان خرج على ابن الزبير رضى الله عنهما فقتله واستولى على البلاد وأهلها حتى بايعوه طوعا وكرها ودعوه اماما ، ولما فى الخروج عليه من شق عصا المسلمين واراقة دمائهم وذهاب أموالهم ولهذا قال ((فحل)) أمر ارشاد أى ابعد وزل ومنه (لا يبغون عنها حولا) ((عن الخداع)) متعلق بحل من خدعه كمنعه خدعا ويكسر ختله وأراد به المكروه من حيث لا يعلم كاختدعه فانخدع والاسم الخديعة ، يعنى اترك مخادعة اهل البدع وتزويق ما يظهرون من جواز الخروج على الامام وعن طاعته وزعمهم عدم وجوب نصبه فانهم ضالون ومن وافقهم صار منهم* ثم أخذ فى ذكر شروط الامام المنصوب وما يعتبر أن يكون فيه ومتصفا به على سبيل الوجوب ((وشرطه)) أى يشترط فيه ((الاسلام)) لان غير المسلم لا يكون له على المسلمين سبيل ((والحرية)) لان الرقيق بجميع أنواعه عليه الولاية فلا يكون واليا على غيره فضلا عن عامة المسلمين وخاصتهم وأما حديث « اسمعوا له وأطيعوا ولو ولى عليكم عبد أسود كان رأسه زبيبة » محمول على نحو أمير سرية • وشرطه أى يشترط فيه أيضا ((عدالة)) لاشتراط ذلك فى ولاية القضاء وهى دون الامامة العظمى نعم ان قهر الناس غير عدل فهو امام كما تقدم نص الامام أحمد رضى الله عنه فى مثل ذلك • ويعتبر فيه ايضا ((سمع)) أى ان يكون سميعا بصيرا ناطقا لان غير المتصف بهذه الصفات لا يصلح لسياسة الخلق ((مع الدرية)) بفتح الدال المهملة وكسر الراء وتشديد التحتية فهاء تانيث من الدراية وهى العلم والخبرة يقال دريت الشيء ودريت به دريا ودريانا بالكسر ودريا كحبلى علمته او بضرب من الحيلة كما فى القاموس

وأريد به اعتبار كونه عالما بالاحكام المتعلقة بالسياسة والحروب ذا بصيرة قد علم بأحوال الناس ومكرهم وختلهم وخبر احوالهم لاحتياج الامام الى جميع ذلك بخلاف المغفل فلا يصلح للامامة العظمى ((و)) يعتبر ايضا ((أن يكون)) الامام ((من قريش)) وهو من كان من نسل فهر - بكسر الفاء وسكون الهاء - ابن مالك بن النضر - واسمه قيس بن كنانة بن خزيمة ابن مدركة - واسمه عمرو بن الياس - واسمه حبيب بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان ، ففهر جماع قريش فى قول الكلبى وغيره من العلماء فى أنساب العرب وسموا قريشا لانهم كانوا يقرشون عن خلة الناس بفتح الخاء المعجمة أى حاجتهم وفقرهم ومعناه ينقبون عنها ويستعلمونها ليغنوهم ويسدوا خلتهم ، وكأن ذلك من قولهم تقارشت الرماح اذا تداخلت فى الحرب لان المستعلم المستخبر يداخل احوال الذى يطلب علم حاله ليحصل له مقصوده ، وقيل أنه مأخوذ من التقريش وهو التعييش لانهم كانوا يعيشون الحاج فيطعمون الجائع ويكسون العارى ويحملون المنقطع قال الجوهرى القرش الكسب والجمع وقد قرش يقرش بالكسر قال الفراء وبه سميت قريش وقيل سموا بدابة عظيمة تأكل الدواب فى البحر وقيل غير ذلك ، وانما اشترط كونه من قريش لقوله صلى الله عليه وسلم « الائمة من قريش » رواه الامام أحمد وأبو يعلى فى مسنديهما والطبرانى من حديث ابى برزة رضى الله عنه ، وروى الترمذى نحوه من حديث أبى هريرة رضى الله عنه مرفوعا ولفظه « الملك فى قريش » وسنده صحيح . وروى الامام أحمد أنه صلى الله عليه وسلم قال « الخلافة فى قريش » ورواه الطبرانى أيضا ، وروى البزار من حديث على بن أبى طالب رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الامراء من قريش أبرارها أمراء أبرارها وفجارها أمراء فجارها » وفى الحديث « قدموا قريشا ولا تقدموها » وقول الصديق والمهاجرين للانصار ان العرب لا تدين الا لهذا الحى من قريش ورووا لهم فى ذلك الاخبار . ويعتبر أن يكون ((عالما)) بالاحكام الشرعية لاحتياجه الى مراعاتها فى أمره ونهيه وأن يكون ((مكلفا)) أى بالغا عاقلا لان غير البالغ العاقل يحتاج لمن يلى أمره فلا يكون واليا على أمر المسلمين

وان يكون ((ذا خبرة)) بتدبير الامور المذكورة فى البلاد والعباد ((و)) أن يكون ((حاكما)) أى قادرا على ايصال الحق الى مستحقه وكف ظلم المعتدى وقمع أهل الافتراء والاعتداء وقادرا على اقامة الحدود وقمع أهل الضلال والجحود لا تأخذه رأفة فى اقامة الحدود والذب عن الامة . فان عقدت لأكثر من واحد فهى للاول فان فسق الامام بعد العدالة المقارنة للعدل لم ينعزل على الاصح الاشهر ، ولا تشترط عصمته فى حال من الاحوال ولا كونه أفضل الامة ولا كونه هاشميا أو اظهار معجزة على يده يعلم بها صدقه خلافا للرافضة وهذا من خرافاتهم وجهالاتهم . ومن جهالاتهم أيضا زعمهم ان غير المعصوم يسمى ظالما فيتناوله قوله تعالى (لا ينال عهدى الظالمين) اذ الظالم لغة من يضع الشىء فى غير محله وشرعا العاصى ، ولا يلزم من كونه غير معصوم ان يكون عاصيا ولا ظالما لجواز كونه محفوظا فلا يصدر عنه ذنب او اذا صدر عنه ذنب تاب منه توبة نصوحا

وجوب طاعته بشرطه

((وكن مطيعا أمره فيما أمر ما لم يكن بمنكر فيحتذر))

((و)) اذا عقدت له الامامة فصار اماما للمسلمين ف ((كن مطيعا)) أنت وسائر رعيته ((امره فيما)) أى فى الشىء الذى ((أمر)) به ان كان طاعة والحاصل ان طاعته تجب فى الطاعة وتسن فى المسنون وتكره فى المكروه فاذا أمر بمعروف وجب امتثال أمره ((ما لم يكن)) أمره ((ب)) شىء ((منكر)) ضد المعروف ((ف)) لا يطاع فى ذلك بل ((يحتذر)) ويجتنب فلا تجب طاعته فى المعصية بل تحرم اذ لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق . قال شيخ الاسلام ابن تيمية فى صدر كتابه السياسة الشرعية ثبت عن النبى صلى الله عليه وسلم من غير وجه انه قال « ان الله يرضى ثلاثا ان تعبدوه ولا تشركوا به شيئا وان تعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا وان تناصحوا من ولاه أمركم » قال وآية الامراء فى كتاب الله تعالى هى قوله (ان الله يأمركم أن تؤدوا الامانات الى أهلها واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ان الله نعما يعظكم به ان الله كان سميعا بصيرا ★ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الامر منكم فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم

الآخرذلك خير وأحسن تأويلا) قال نزلت الآية الاولى فى ولاة الامور وعليهم أن يؤدوا الامانات الى أهلها واذا حكموا بين الناس أن يحكموا بالعدل ، ونزلت الآية الثانية فى الرعية من الجيوش وغيرهم أن يطيعوا أولى الامر الفاعلين لذلك فى قسمهم وحكمهم ومغازيهم وغير ذلك الا أن يأمروا بمعصية الله تعالى فاذا أمروا بمعصية الله تعالى فلا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق فان تنازعوا فى شىء ردوه الى كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وان لم يفعل ولاة الامور ذلك أطيعوا فى ما يأمرون به من طاعة الله لان ذلك من طاعة الله ورسوله واديت حقوقهم اليهم كما أمر الله ورسوله وأعينوا على البر والتقوى ولا يعاونون على الاثم والعدوان ، فعلى ولى الامر ان يولى على كل عمل من اعمال المسلمين اصلح من يجده لذلك العمل فقد قال النبى صلى الله عليه وسلم « من ولى من أمر المسلمين شيئا فولى رجلا وهو يجد أصلح للمسلمين منه فقد خان الله ورسوله والمؤمنين » رواه الحاكم فى صحيحه وفى رواية « من قلد رجلا عملا على عصابة وهو يجد فى تلك العصابة من هو أرضى لله منه فقد خان الله ورسوله والمؤمنين » وقال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه من ولى من أمر المسلمين شيئا فولى رجلا لمودة او قرابة بينهما فقد خان الله ورسوله والمسلمين . والله تعالى الموفق .

فصل فى الامر بالمعروف والنهى عن المنكر

((فصل فى الامر بالمعروف والنهى عن المنكر))

ولما كان صلاح العباد فى المعاش والمعاد لا يتم ولا يصلح ولا يستقيم لهم حال الا بذلك قال :

((واعلم بأن الامر والنهى معا	فرضا كفاية على من قد وعا))
((وان يكن ذا واحدا تعينا	عليه لكن شرطه أن يأمنا))
((فاصبر وزل باليد واللسان	لمنكر واحذر من النقصان))

((واعلم)) أيها المتبحر فى علم أصول الدين المحرر لدعائم الدين وقواعد الحق المبين ((بأن الامر)) أى بالمعروف وتقدم انه اسم جامع لكل ما عرف من طاعة الله والتقرب اليه والاحسان الى الناس كما تقدم قريبا ((والنهى)) عن المنكر وهو ضد المعروف ((معا)) أى كل واحد منهما

منفردا وكلاهما ((فرضا كفاية)) على جماعة المسلمين يخاطب بهالجميع ويسقط بمن يقوم به بخلاف فرض العين فانه يجب على كل واحد ولا يسقط عنه بفعل غيره ((على من)) أى انسان أو الذى ((قد وعا)) ه اى حفظ حكمه وعلمه وذلك لان اصلاح المعاش والمعاد انما هو بطاعة اللـــه ورسوله وامتثال أوامره والانتهاء عن زواجره ولا يتم ذلك الا بالامـــر بالمعروف والنهى عن المنكر وبه صارت هذه الامة خير أمة أخرجت للناس قال تعالى (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر) وقال تعالى (ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون) وقال تعالى (والمؤمنـــون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) وقال عن بنى اسرائيل (كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون) وفى الحديث الثابت عن أمير المؤمنين أبى بكر الصديق رضى الله عنه انه خطب الناس على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أيها الناس انكم تقرأون هذه الآية وتضعونها على غير موضعها (يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل اذا اهتديتم) وانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ان الناس اذا رأوا المنكر فلم يغيروه أو شك أن يعمهم الله بعقاب منه » وفي لفظ من عنده رواه أبو داود والترمذي وقال حديث حسن صحيح وابن ماجه والنسائى ولفظه : انى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ان القوم اذا رأوا المنكر فلم يغيروهعمهم الله بعقاب » وفى رواية لأبى داود سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصى ثم يقدرون على أن يغيروائملايغيرواالا يوشك أن يعمهمالله منه بعقاب » وفى رواية « ان الناس اذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه اوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده » .

((وان يكن ذا)) أى الذى علم بالمنكر وتحققه وشاهده وهو عارف بما ينكر ((واحدا)) أو كانوا عددا لكن لا يحصل المقصود الا بهم جميعـا ((تعينا)) أى الامر بالمعروف والنهى عن المنكر وصارا فرضعين ((عليه)) أو عليهم للزومه عليهم ((ولكن شرطه)) أى شرط افتراضه على الجماعة

أو الواحد سواء كانا فرض كفاية أو عين ((ان يأمنا)) بألف الاطلاق على نفسه وماله ولم يخف سوطا ولا عصا ولا أذى ولا فتنة تزيدعلى المنكر ، وقيل ان زادت وجب الكف وان تساويا سقط الانكار . قال الامام أحمد رضى الله عنه : يأمر بالرفق والخضوع فان اسمعوه ما يكره لا يغضب فيكون يريد أن ينتصر .ولهذا قال « فاصبر » على الأذى ممن تأمره وتنهاه ولا تغضب لنفسك بل لله ((وزل)) المنكر وغيره من زاله عن مكانه يزيله زيلا وازالة وازالا ((باليد)) وهو أعلى درجات الانكاروازالة المنكر كاراقة الخمر وكسر أوانى الذهب والفضة والحيلولة بين الضارب والمضروب ونحوه ورد المغصوب الى مالكه ((و)) غير المنكر ، ((اللسان)) حيث لم تستطع تغييره باليد بان تعظه وتذكره بالله وأليم عقابه وتوبخه وتعنفه مع لين واغلاظ بحسب ما يقتضيه الحال وقد يحصل المقصود فى بعض المحال بالرفق والسياسة بأزيد وأتم مما يحصل بالعنف والرياسة كأن يقول لمن رآه متكشفا فى نحو حمام استر سترك الله ونحو ذلك

((لمنكر)) متعلق بزل وفي نسخة بدل زل « ذد » أي اطرد وامنع للمنكر باليد واللسان ((واحذر)) من النزول عن أعلى المراتب حيث قدرت على أن تغير المنكر بيدك الى أوسطها وهو الانكار باللسان الا مع العجز عن ذلك ثم انه لا يسوغ لك العدول عن التغيير للمنكر باللسان وأنت تقدر عليه الى الانكار بالقلب فان لم تستطع تغيير المنكر لا بيدك ولا بلسانك فاعدل الى الانكار بقلبك وهو أضعف الايمان فلذا حذر ((من النقصان)) واشار بذلك الى حديث ابى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه وذلك اضعف الايمان » رواه مسلم والترمذى وابن ماجه والنسائى ولفظه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من رأى منكم منكرا فغيره بيده فقد برىء ومن لم يستطع أن يغيره بيده فغيره بلسانه فقد برىء ومن لم يستطع أن يغيره بلسانه فغيره بقلبه فقد برىء وذلك أضعف الايمان » وفى صحيح مسلم أيضا من حديث ابن مسعود رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه

وسلم قال « ما من نبى بعثه الله فى أمة قبلى الا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره ثم انها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يؤمرون فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن ليس وراء ذلك من الايمان حبة خردل » وفى هذا الباب عدة أحاديث وقد دلت كلها على انكار المنكر بحسب القدرة عليه وان انكاره بالقلب لا بد منه فمن لم ينكر قلبه المنكر دل على ذهاب الايمان من قلبه • وقد روى عن ابى حجيفة رضى الله عنه قال قال على رضى الله عنه أن أول ما تغلبون عليه من الجهاد الجهاد بأيديكم ثم الجهاد بألسنتكم ثم الجهاد بقلوبكم فمن لم يعرف قلبه المعروف وينكر قلبه المنكر نكس فجعل أعلاه أسفله • وقال ابن مسعود رضى الله عنه هلك من لم يعرف المعروف وينكر المنكر بقلبه • يشير الى أن معرفة المعروف والمنكر بالقلب فرض لا يسقط عن أحد فمن لم يعرفه هلك وأما الانكار باليد واللسان فانما يجب بحسب الطاقة • وفى سنن أبى داود عن العرس بن عمرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « اذا عملت الخطيئة فى الارض كان من شهدها فكرهها كمن غاب عنها ومن غاب عنها ورضيها كان كمن شهدها » وخرج ابن أبى الدنيا نحوه عن أبى هريرة مرفوعا • واعلم ان الامر بالمعروف والنهى عن المنكر مع كون ذلك واجبا تارة يحمل عليه رجاء الثواب ، وتارة خوف العقاب فى تركه ، وتارة الغضب لله على انتهاك محارمه ، وتارة النصيحة للمؤمنين والرحمة لهم ورجاء انقاذهم مما أوقعوا أنفسهم فيه من التعرض لغضب الله وعقوبته فى الدنيا والآخرة ، وتارة يحمل عليه اجلال الله واعظامه ومحبته وأنه أهل أن يطاع فلا يعصى ويذكر فلا ينسى ويشكر فلا يكفر وان يفتدى من انتهاك محارمه بالنفوس والاموال كما قال بعض السلف وددت أن الخلق كلهم أطاعوا الله وان لحمى قرض بالمقاريض ، فمن لحظ ما ذكرناه هان عليه ما يلقاه من الاذى فى الله عز وجل ، قال سفيان الثورى قدس الله روحه لا يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر الا من كانت فيه خصال ثلاث رفيق بما يأمر رفيق بما ينهى عدل بما يأمر عدل

بما ينهى عالم بما يأمر عالم بما ينهى • وقال الامام أحمد رضى الله عنه : الناس يحتاجون الى مداراة ورفق ، الامر بالمعروف بلا غلظة الا رجل معلن بالفسق فلا حرمة له• ولاعتبار كون الآمر بالمعروف والناهى عن المنكر عدلا بما ينهى أشار بقوله

((ومن نهى عما له قد ارتكب   فقد أتى مما بـه يقضى العجب))

((فلو بدا بنفسه فذادهـــا   عن غيها لكان قد أفادها))

ابدأ بنفسك

((ومن)) أن أى انسان أو الذى ((نهى)) الخلق ((عما)) أى الشىء الذى ((له)) أى لذلك الشىء الذى نهى الناس عنه ((قد ارتكـب)) وفعله وخالف قوله عمله من فعل المحظور وترك المأمور ((فقد)) واللـه ((اتى)) من قاله وحاله ((مما)) أى من العمل الذى ((به)) أى منـه ((يقضى)) بانبنائه لما لم يسم فاعله ((العجب)) نائب الفاعل أى يقـضى العقلاء وأهل العلم والحزم من مخالفة قوله لعمله العجب ، أى يحكمون ويقطعون بالعجب وهو انكار ما يرد عليك ويخفى سببه ، والمراد انه يعظم عليهم ذلك ويكبر لديهم ان ينهى عن القبيح ويأتيه ويـأمر بالحسن ولا يأتيه ، وقد ورد التحذير عن مثل ذلك كما فى حديث أسامة بن زيد رضى الله عنهما قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى فى النار فتندلق اقتاب بطنه - أى أمعاؤه ومعنى تندلـق أى تخرج - فيدور فيها كما يدور الحمار فى الرحى فيجتمع اليه أهل النار فيقولون يا فلان مالك ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ؟ فيقول : بلى كنت آمر بالمعروف ولا آتيه وأنهى عن المنكر وآتيه » رواه البخارى ومسلم • وفى صحيح مسلم عنه رضى الله عنه سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول « مررت ليلة أسرى بى بأقوام تقرض شفاههم بمقاريض من نار قلت من هؤلاء يا جبرائيل ؟ قال : خطباء أمتك الذين يقولـــون ما لا يفعلون » وروى نحوه ابن ابى الدنيا من حديث أنس رضى الله عنـــه مرفوعا وفيه فقال : الخطباء من أمتك الذين يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون • ورواه ابن حبان فى صـحيحه والبيهقى • وروى الطبرانى باسناد حسن عن جندب بن عبد الله الازدى

رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « مثل الذى يعلم الناس الخير وينسى نفسه كمثل السراج يضىء للناس ويحرق نفسه » وروى الاصبهانى عن أنس رضى الله عنه مرفوعا « ان الرجل لا يكون مؤمنا حتى يكون قلبه مع لسانه سواء ويكون لسانه مع قلبه سواءولا يخالف قوله عمله ويأمن جاره بوائقه » كان الحسن البصرى رحمه الله اذا خرج الى الناس فكأنه رجل عاين الآخرة ثم جاء يخبر عنها فكانوا اذا خرجوا من عنده خرجوا وهم لا يعدون الدنيا شيئا ، وكان الامام احمد لا تذكر الدنيا فى مجلسه ولا تذكر عنده ، انما يصلح التأديب بالسوط من صحيح البدن ثابت القلب قوى الذراعين فيؤلم ضربه فيردع فاما من هو سقيم البدن لا قوة له فماذا ينفع تأديبه بالضرب ؟ والنفوس مجبولةعلىعدم الانتفاع بكلام من لا يعمل بعلمه ولا ينتفع به وهذا بمنزلة من يصف له الطبيب دواء لمرض به مثله والطبيب معرض عنه غير ملتفت اليه بل الطبيب احسن حالا من هذا الآمر المخالف لما أمر به لانه قد يقوم عند الطبيب دواء آخر مقام هذا الدواء وقد يرى ان به قوة على ترك التداوى بخلاف الواعظ فان ما يعظ به طريق النجاة لا يقوم غيرها مقامها فلا بد منها ولهذه النفرة قال شعيب عليه السلام لقومه (وما أريد أن أخالفكم الى ما أنهاكم عنه) وقال بعض السلف اذا أردت أن يقبل منك الامر والنهى فاذا أمرت بشىء فكن أول الفاعلين له المؤتمرين به واذا نهيت عن شىء فكن أزل المنتهين عنه ولهذا قال ((فلو بدا)) الآمر بالمعروف والناهى عن المنكر قبل أمرهونهيه لغيره ((بنفسه)) متعلق ببدا ((فذادها)) اى منعها وردها ((عن غيها)) متعلق بذادها أى عن ضلالها والغى الضلال والانهماك فى الباطل ومنـــه حديث الاسراء « لو اخذت الخمر غوت أمتك » أى ضلت ((لكان)) بدايته بارشاد نفسه وردها عما هى فيه من ارتكاب مهاوى الهوى والضلال والغى والوبال ((قد افادها)) النجاة والسلامة والرشد والاستقامة فـــان الناصح الشفيق والمرشد الرفيق يبدأ فى ارشاده من الامم بالاهم فالاهم والاقرب فالاقرب من ذوى الرحم ولا أهم ولا اقرب اليه من نفسه التى بين جنبيه وقد قال من أفصح فى المقال ونصح لمن كان له قلـب أو ألقى

البال وترك الوبال .

يا أيها الرجل المعلم غيـــره   هلا لنفسك كان ذا التعليم
تصف الدواء لذى السقام من الضنا   كى يشتفى منه وانت سقيم
لا تنه عن خلق وتأتى مثله   عار عليك اذا فعلت عظيــــم
فابدأ بنفسك فانهها عن غيها   فاذا انتهت عنه فانـت حكـيم
فهناك يقبل ما تقول ويقتدى   بالقول منك وينفع التعليـــم

ولما جلس عبد الواحد بن زيد الواعظ اتته امرأة من الصالحـــات فأنشدته : .

يا واعظا قام لاحتساب   بزجر قوما عن الذنـوب
تنهى وأنت المريب حقـــا   هذا من المنكر العجيـب
لو كنت أصلحت قبل هـــذا   عيبك أو تبت من قـريب
كان لما قلت يــا حبيبى   موقـع صدق من القلوب
تنهى عن الغى والتمادى   وأنت فى النهى كالمـريب

وقـــال آخر :

وغير تقى يأمر الناس بالتقى   طبيب يداوى الناس وهو سقيم

وجاء رجل الى ابن عباس رضى الله عنهما فقال أريد ان آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر ، فقال ان لم تخش ان تفضحك هذه الآيات الثلاث فافعل والا فابدأ بنفسك ثم تلا (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم) وقوله تعالى (لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون) وقوله تعالى حكاية عن شعيب عليه السلام (وما أريد أن أخالفكم الى مـــا أنهاكم عنـــه) .

(تنبيهـــات)

تنبيهـــات الاول التقصير لايمنع الوجوب

(الاول) ما قدمنا من اعتبار كون الآمر بالمعروف والناهى عن المنـــكر مستقيم الحال هو عين الكمال والمؤثر أمره ونهيه فى القلوب والذى قاله وحاله ترياق الذنوب فى ظهور الانجاح وادراك الفلاح وأما الوجوب فلا يسقط عن المكلف وان كان بغير تلك الاوصاف بل من غير اهل العدالة والعفاف فعلى مرتكب الذنب النهى عن مثل ما ارتكب لان تركه للمنكر

ونهيه فرضان متميزان ليس لمن يترك احدهما أن يترك الآخر فيجب على متعاطى الكاس ان ينكر على الجلاس لان النهى عن المنكر واجب والانكفاف عن المحرم واجب والاخلال بأحد الواجبين لا يمنع وجوب فعل الآخر ، وقد روى ابن ابى الدنيا باسناد فيه ضعف عن ابى هريرة رضى الله عنه مرفوعا « مروا الناس بالمعروف وان لم تعملوا به وانهوا عن المنكر وان لم تتناهوا عنه كله » وقيل للحسن ان فلانا لا يعظ ويقول اخاف ان أقول ما لا أفعل فقال الحسن وأينا يفعل ما يقول ود الشيطان انه قد ظفر بهذا فلم يأمر أحد بمعروف ولم ينه عن منكر • وقال الامام مالك عن ربيعة قال سعيد بن جبير لو كان المرء لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر حتى لا يكون فيه شيء ما أمر احد بمعروف ولا نهى عن منكر • قال الامام مالك (وصدق) ومن ذا الذى ليس فيه شيء !

الثاني النهى عن التجسس

(الثانى) متعلق وجوب الانكار الرؤية للمنكر وتحققه فلو كان مستورا فلم يره ولكن علم به فالمذهب يجب عليه الانكار لتحققه والمنصوص عن الامام أحمد فى أكثر الروايات انه لا يتعرض له ولا يفتش على ما استراب وقد روى عنه انه يكسر المغطى اذا تحققه وهذا المعتمد ، وأما اذا سمع صوت ملهاة ولم يعلم مكانه فلا شيء عليه وأما تسور الجدران على من علم اجتماعهم على منكر فقد أنكره الائمة مثل سفيان الثورى وغيره وهو داخل فى التجسس المنهى عنه ، نعم قال القاضى ابو يعلى فى كتابه الاحكام السلطانية ان كان فى المنكر الذى غلب على ظنه الاستسرار به باخبار ثقة عنه انتهاك حرمة يفوت استدراكها كالزنا والقتل جاز التجسس والاقدام على الكشف والبحث حذرا من فوات استدراك انتهاك المحارم وان كان دون ذلك فى الرتبة لم يجز التجسس عليه ولا الكشف عنه •انتهى• وحكمة عدم وجوب التفتيش مع وجود النصوص على التجسس ان المعاصى اذا أخفيت انما تضر من يعملها واذا أعلنت ضرت العامة فأخرج الامام احمد من حديث عدى بن عميرة رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ان الله لا يعذب العامة بعمل الخاصة حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم وهم قادرون على أن ينكروه فلا ينكرونه فاذا فعلوا

ذلك عذب الله الخاصة والعامة » وخرج الامام أحمد ايضا وابن ماجه من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ان الله تعالى ليسأل العبد يوم القيامة حتى يقـــول : ما منعك اذ رأيت المنكر أن تنكره ؟ فاذا لقن الله عبدا حجته قال يارب رجوتك وفرقت الناس » وأخرجا من حديثه أيضا مرفوعا « لا يحقر احدكم نفسه، قالوا يا رسول الله كيف يحقر أحدنا نفسه؟ قال : يرى أمرا لله عليه فيه مقال ثم لا يقول فيه فيقول الله له يوم القيامة ما منعك ان تقول فى كذا وكذا ؟فيقول : خشية الناس، فيقول : اياى كنت أحق أن تخشى» فهذا محمول على أن المانع له من الانكار مجرد الهيبة دون الخوف المسقط للانكار فان خاف على نفسه السيف او السوط أو الحبس أو القيد أو النفى أو أخذ المال أو نحو ذلك من الاذى أو خاف مثل ذلك على أهله وجيرانه سقط وجوب الانكار وقد نص على ذلك الائمة منهم مالك بن أنس وأحمد بن حنبل واسحق بن راهويه وغيرهم • قال الامام أحمد لا يتعرض للسلطان فان سيفه مسلول ، وقال ابن شبرمة : الامر بالمعروف والنهى عن المنـــكر كالجهاد يجب على الواحد ان يصابر فيه الاثنين ويحرم عليه الفرار منهما ولا يجب عليه مصابرة أكثر من ذلك • وأما مجرد خوف السب أو سماع الكلام السيء فلا يسقط الانكار ـ نص عليه الامام أحمد ،وان احتمل الاذى وقوى عليه فهو افضل • نص عليه وقال « أفضل الجهاد كلمة عدل عنـــد سلطان جائر » وهذا رواه أبو داود وابن ماجه والترمذى من حديث ابى سعيد رضى الله عنه مرفوعا ، وخرج ابن ماجه معناه من حـــديث ابى امامة • وفى مسند البزار عن أمين الامة ابى عبيدة بن الجراح رضى الله عنه قال قلت يا رسول الله أى الشهداء أكرم على الله ؟ قال « رجل قام الى امام جائر فأمره بمعروف ونهاه عن منكر فقتله ، وحديث « لا ينبـــغى للمؤمن ان يذل نفسه » يدل على أنه علم انه لا يطيق الاذى ولا يصـــبر عليه فلا يتعرض حينئذ للامر والنهى ، وهذا حق وانما الكلام فى من علم من نفسه الصبر كذلك قاله الامام احمد وسفيان والفضيل بن عياض وغيرهم

الثالث حكم من علم انه لا يقبل منه

(الثالث)اذا علم انه لايقبل منه فهل يسقط وجوب الامر والنهى ؟حكى

القاضي أبو يعلى عن الامام أحمد رضي الله عنه في ذلك روايتين وصحح القول بوجوبه ، قال الحافظ ابن رجب وهو قول اكثر العلماء • وقد قيل لبعض السلف في هذا فقال تكون معذرة ، وهذا كما اخبر الله عن الذين انكروا على المعتدين في السبت انهم قالوا لمن قال لهم (اتعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا قالوا معذرة الى ربكم ولعلهم يتقون) وقد ورد مايستدل به على سقوط الامر والنهي عند عدم القبول والانتفاع ففي سنن أبي داود وابن ماجه والترمذي عن أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه قيل له كيف تقول، في هده الآية (عليكم أنفسكم) فقال أما والله لقد سألت عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « بل ائتمروا بالمعروف وانتهوا عن المنكر حتى اذا رأيت شحا مطاعا وهوى متبعا ودنيا مؤثرة واعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بنفسك ودع عنك أمر العوام » وقد روي معنى هذا من عدة وجوه وقال العلامة ابن حمدان في نهاية المبتدئين : ويجوز الانكار فيما لايرجى زواله وان خاف أذى ، وقيل لا ، وقيل يجب ، ولايجب الانكار فيما فات ومضى الا في العقائد والآراء •

الرابع بيان المنكر الواجب انكاره

(الرابع) الذي يجب انكاره من المنكر هو ماكان مجمعا عليه فأما المختلف فيه فمن علمائنا من قال لايجب انكاره على من فعله مجتهدا فيه أو مقلدا لمجتهد تقليدا سائغا واستثنى القاضي في الاحكام السلطانية ماضعف فيه الخلاف وكان ذريعة الى محظور متفق عليه كنكاح المتعة فانه ذريعة الى الزنا المجمع على تحريمه • وذكر عن ابي اسحاق بن شاقلا أنه ذكر ان المتعة هي الزنا صراحا • وقال ابن بطة لايفسخ نكاح حكم به قاض اذا كان قد تأول فيه الا ان يكون قضى لرجل بعقد متعة ، والمنصوص عن الامام احمد رضي الله عنه الانكار على اللاعب بالشطرنج وتأوله القاضي على من لعب بها بغير اجتهاد أو تقليد سائغ ونظر فيه الحافظ ابن رجب بأن المنصوص عنه أيضا أن يحد شارب النبذ المختلف فيه واقامة الحد ابلغ مراتب الانكار فدل على انه ينكر كل مختلف فيه ضعف الخلاف فيه لدلالة السنة على تحريمه وان لم يخرج فاعله المتأول من العدالة بذلك والله اعلم • وكذا نص الامام أحمد رضي الله عنه على

الانكار على من لايتم صلاته ولايقيم صلبه من الركوع والسجود مع وجود الاختلاف فى وجوب ذلك لضعف مثل هذا الاختلاف لمصادمته للنصوص عن صاحب الشريعة والله أعلم •

الخامس مستند الوجوب الشرع

(الخامس) وجوب الامر بالمعروف والنهى عن المنكر بالشرع لا بالعقل خلافا للمعتزلة ودليله بالكتاب والسنة والاجماع أما الكتاب فكقوله تعالى (ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) وتقدم فى أول الفصل ، وأما السنة فقد ذكرنا منها مايحصل به المقصود ، وأما الاجماع فلان المسلمين كانوا فى الصدر الاول ومن بعدهم يتواصون بذلك ويوبخون تاركه مع القدرة فعلى الناس اعانة الآمر بالمعروف والناهى عن المنكر ونصره على ذلك ، وما يختص علمه بالعلماء يختص انكاره بهم وبمن يأمرونه به من الولاة والعوام ، ومن التزم مذهبا أنكر عليه مخالفته بلا دليل ظاهر ولاتقليد سائغ أو عذر ظاهر والله تعالى الموفق •

الخاتمة فى فوائد

((الخاتمة))

(نسأل الله تعالى حسن الخاتمه)

فى فوائد جليلة وفوائد جزيلة لايسع من خاض فى مثل هذه العلوم الجهل بها وهى قسمان مفردات ومركبات كما قال الامام الموفق ولذا قال :

مدارك العلوم

((مدارك العلوم فى العيان
محصورة فى الحد والبرهان))
((وقال قوم عند اصحاب النظر
حس واخبار صحيح والنظر))

((مدارك العلوم)) المدارك جمع مدرك من أدرك الشىء بالشىء واستدركه حاول ادراكه به وادرك الشىء احاط به وبلغ وقته وانتهى الى العلم به والاحاطة بحكمه ، والمراد المدرك بالعقول لأنا نشاهد قطعا آثار العقول فى الآراء والحكم والحيل وغيرها متفاوتة وذلك يدل على

تفاوت العقول فى نفسها ، والعقول جمع عقل وهو لغة المنع سمى به لمنعه صاحبه من الرذائل والقبائح ولذا لايطلق عليه تعالى العاقل واصطلاحا مايحصل به الميز بين المعلومات ، وعن الامام الشافعى انه قال العقل آلة التمييز والادراك . وهو غريزة قاله الامام احمد رضى الله عنه وقال الحارث المحاسبى ليس مكتسبا بل خلقه الله تعالى يفارق به الانسان البهيمة ويستعد به لقبول العلم وتدبير الصنائع الفكرية فكأنه نور يقذف فى القلب كالعلم الضرورى ، والصبا ونحوه حجاب له ، قال القاضى وغيره انه غير مكتسب كالضرورى ، وقال البربهارى من أصحابنا : ليس العقل بجوهر ولا عرض ولا اكتساب وانما هو فضل من الله تعالى . قال شيخ الاسلام ابن تيمية قدس الله روحه هذا يقتضى أنه القوة المدركة كما دل عليه كلام الامام أحمد لا الادراك ، وهو بعض العلوم الضرورية عند أصحابنا والاكثر ستعد بها لفهم دقائق العلوم وتدبير الصنائع الفكرية وقاله ابو بكر الباقلانى وابن الصباغ وغيرهما ، فخرجت العلوم الكسبية لأن العاقل يتصف بكونه عاقلا مع انتفاء العلوم النظرية ، وانما قالوا بعض العلوم الضرورية لانه لو كان جميعها لوجب أن يكون الفاقد للعلم بالمدركات غير عاقل لعدم الادراك المعلق عليها ، والمشاهد خلافه ، ومحل العقل القلب عندنا وعند الشافعية والاطباء وله اتصال بالدماغ ، وروى عن الامام أحمد أن محله الدماغ وهو قول أبى حنيفة والطوفى من أصحابنا ، وقيل فى الدماغ ان قلنا انه جوهر والا ففى القلب . والصحيح أن العقل يختلف كالمدرك به وقال الامام ابن عقيل من علمائنا والاشاعرة والمعتزلة : العقل لايختلف لانه حجة عامة يرجع اليه الناس عند اختلافهم ولو تفاوتت العقول لما كان كذلك . وقال غير واحد العقل عقلان غريزى وتجريبى مكتسب فالعقل الغريزى لايختلف وأما الكسبى فيختلف . وحمل العلامة الطوفى الخلاف على ذلك . قوله ((فى العيان)) أى المشاهدة وبادىء النظر لذوى العرفان ((محصورة)) فى شيئين لاثالث لهما أى محبوسة وممنوعة فيهما ومقصورة عليهما لا تتجاوزهما ((فى الحد)) ويأتى الكلام عليه قريبا ((و)) فى ((البرهان)) هو الحجة

والدليل وفى الحديث « الصدقة برهان » اى انها حجة لطالب الاجر من أنها قرض يجازى الله به عليه ، وقيل بل هى دليل على صحة ايمان صاحبها لطيب نفسه باخراجها وذلك لعلاقة مابين النفس والمال • والبرهان عند أهل الميزان قياس مؤلف من مقدمات يقينية لانتاج يقينيات • واليقين اعتقاد أن الشىء كذا مع اعتقاد أنه لايكون الا كذا مع مطابقته للواقع وامتناع تغيره

((وقال قوم)) بل مدارك العلم ((عند اصحاب النظر)) الفكر والتدقيق والبحث والتحقيق أعنى علماء النظر وهم النظار من المتكلمة والمنطقيين وعلماء الاصول ثلاثة احداها ((حس)) أى مايدراك بأحد الحواس الخمس وهى جمع حاسة بمعنى القوة الحاسة السمع والبصر والشم والذوق واللمس فخلق الله تعالى كلا من تلك الحواس لادراك أشياء مخصوصة فالسمع للاصوات والذوق للطعوم والشم للروائح والبصر للمرئيات واللمس للملموسات وهى القوة المنبثة فى جميع البدن يدرك بها الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة ونحو ذلك عند التماس والاتصال فلا يدرك بواحدة ما يدرك بالحاسة الاخرى والمدرك بشىء منها يقال له محسوس

((و)) الثانى ((اخبار صحيح)) ثابت رجيح مطابق للواقع فان الخبر كلام يحتمل الصدق والكذب احتمالا متساويا بقطع النظر عن قائله وله نسبة خارجة فان طابقته فصادق والا فكاذب ، وهذا الخبر الذى يفيد العلم على نوعين (أحدهما) المتواتر الثابت على ألسنة قوم لايتصور تواطؤهم على الكذب ، ومصداقه وقوع العلم من غير شبهة ، وهو موجب للعلم الضرورى كالعلم بالملوك الماضية فى الازمنة الخالية والبلدان النائية كوجود مكة وبغداد فان من لم يحسن الاكتساب ولاترتيب المقدمات من النساء والصبيان يدرك ذلك فلو لم يكن العلم بذلك ضروريا لما أحسنوا ذلك ، وأما خبر النصارى بقتل عيسى عليه السلام واليهود بتأبيد دين موسى عليه السلام فتواتره ممنوع لأن مستنده مجرد الوهم والهوى • فان قيل خبر كل واحد لايفيد الا الظن وضم الظن الى الظن لايوجب

اليقين ، وأيضا جواز كذب كل واحد يوجب جواز كذب المجموع لأنه نفس الآحاد ؟ فالجواب : الهيئة الاجتماعية أوجبت له من القوة ما لم تكن لافراده كقوة الحبل المؤلف من الشعر مع الشعرات. فان قيل الضروريات لايقع فيها تفاوت ولا اختلاف ونحن نجد العلم بكون الواحد نصف الاثنين أقوى من العلم بوجود اسكندر والمتواتر قد أنكر افادته العلم جماعة من العقلاء كالسمنية والبراهمة . فالجواب : هذا ممنوع بل قد يتفاوت أنواع الضرورى بواسطة التفاوت بالالف والعادة والممارسة والاخطار بالبال وتصور اطراف الاحكام ، وقد يختلف فيه مكابرة وعنادا كالسوفسطائية فى جميع الضروريات كما سننبه عليه قريبا (النوع الثانى) من نوعى الخبر المفيد للعلم خبر الرسول المؤيد بالمعجزة الخارقة المقرونة بالتحدى كما مر فيوجب العلم الاستدلالى للقطع بأن من اظهر الله تعالى المعجزة على يده تصديقا له فى دعوى الرسالة لايكون الا صادقا فيما أتى به من الاحكام ، واذا كان صادقا يقع العلم بمضمونها قطعا ، وانما كان استدلاليا لتوقفه على الاستدلال واستحضار أنه خبر من ثبتت رسالته بالمعجزات ، وكل خبر هذا شأنه فهو صادق ومضمونه واقع ، والعلم الثابت بخبر الرسول يشابه العلم الثابت بالضرورة كالمحسوسات والمتواترات فى التيقن والثبات

((و)) الثالث من مدارك العلم ((النظر)) أى الفكر الذى يطلب به علم أو ظن قال العلامة شهاب الذين أحمد ابن قاضى الجبل من محققى علمائنا : النظر لغة الانتظار والرؤية والرأفة والتفكر ،وعرفا الفكر المطلوب به علم او ظن فينتقل من امور حاصلة ذهنا الى أمور مستحصلة ، وقد يطلق على حركة النفس التى يليها البطن الاوسط من الدماغ المسمى بالدودة أى حركة كانت فى المعقولات وفى المحسوسات تسمى تخيلالا فكرا ، وقال الامام ابن عقيل فى الواضح ، النظر هو الاصل فى تحصيل هذا الامر والطريق اليه وهو اسم مشترك يقع على الرؤية بالبصر كما قال تعالى (وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة) وعلى الانتظار للمنتظر والتوقع له (فناظرة بم يرجع المرسلون) وهو ههنا أى فى عرف الاصليين التأمل

والتفكر والاعتبار بمعرفة الحق من الباطل والفصل بين الحجة والشبهة وهو فكرة القلب وتأمله ونظره المطلوب به علم هذه الامور وغلبة الظـن لبعضها ، وقد يصيب الناظر فيها وقد يخطىء وكلاهما نظر منه وقد ينظر فى شبهة وفى دليل وقد يصل بنظره الى العلم تارة اذا سلك فيه المسلك الصحيح ورتبه على واجبه ومقتضاه وقد لايصل اليه اذا قصر وغلطوخلط فيه أو نظر فيما هو شبهة وليس بدليل ، وللنظر آلة وغرض فالآلة هـو المطلوب من أجل غيره والغرض هو المطلوب من أجله فى نفسه فالغرض كمعرفة الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم • انتهى

والحاصل أن اسباب العلم ثلاثة الحواس السليمة والخبر الصـادق والعقل ، ووجهه الحصر أن السبب ان كان من خارج فالخبر الصادق والا فان كان آلة غير المدرك فالحواس والا فالعقل ـ وان كان المؤثر فى العلوم كلها فى الحقيقة هو الله تعالى لانها بخلقه وايجاده والله أعلم

((فالحد وهو اصـل كل علم
وصف محيـط كاشف فافتهم))
((وشرطه طرد وعكس وهـوان
أنبا عن الذوات فالتام استبن))
((وان يكن بالجنس ثم الخاصـة
فذاك رسم فافهم المحاصـه))

(فـ) اذا عرفت ماذكرناه لك من التمهيد وطلبت تعريف الحـد المذكور فـ (الحد) فى اللغة المنع ومنه سمى البواب حدادا لانه يمنع من يدخل الدار والحدود حدودا لانها تمنع من العود الى المعصية وسـمى التعريف حدا لمنعه الداخل فيه من الخروج عنه والخارج عنه من الدخول فيه ، وقوله ((وهو)) اى الحد ((أصل كل علم)) جملة معترضة بين المبتدأ الذى هو الحد وخبره الذى هو وصف الخ وانما كان اصلا للعلوم لأن من لايحيط به علما لاينتفع بما عنده قال الفخر ابو محمد اسماعيل البغدادى من علمائنا · الحد على الحقيقة أصل كل علم فمن لايحيط به علما لانفع

له بما عنده وقاله غيره وهو صحيح كما فى شرح مختصر التحرير (١) والحـــد فى الاصطـــلاح ((وصـــف محيط)) بموصوفه ، قال الامام القاضى ابو يعلى من أئمة علمائنا : معنى الحد هو الجـــامع لجنس مافرقه التفصيل المانع من دخول ماليس من جملته فيه وفى التحـــرير : المحيط بمعناه أى بمعنى المحدود فكأنه قال حد الشيء الوصف المحيـــط بمعناه ((كاشف)) بالرفع عطف على محيط الذى هو نعت لوصـــف أى مميز للمحدود عن غيره ولذا قال الغزالى قيل حد الشيء نفسه وذاته وقيل هو اللفظ المفسر لمعناه على وجه يجمع ويمنع • وقال العلامة ابن حمدان فى نهاية المبتدئين انه قول يكشف حقيقة المحدود • وذكر فيه ثمانية اقوال ((فافتهم)) أمر بالانفعال (؟) لقبول الفهم بالتفهم ، والفهـم ادراك معنى الكلام بسرعة كما فى واضح ابن عقيل ، واستظهروا عدم تقييده بسرعة كما قاله الطوفى فى شرح مختصره وتبعه العلامة ابو بكر الجـراعى فى حواشى أصول ابن اللحام ، قال الطوفى لان من سمع كلاما ولم يـــدرك معناه الا بعد شهر أو أكثر قيل فهم وبذلك يقـــال الفـــهم اما بطيء أو سريع فينقسم اليهما ومورد القسمة مشترك بين الاقسام نعم السرعة قيد فى الفهم الجيد • انتهى — وقيل الفهم جودة الذهن من جهة تهيئه لاقتباس مايرد عليه من المطالب والذهن قوة النفس المستعدة لاكتساب الحـــدود والآراء •

(وشرطه) أى شرط كون الحد صحيحا ، والشرط فى اللغة العلامة وفى العرف مايعتبر للحكم وهو مايلزم من انتفائه انتفاء الحكم فلا يوجد المشروط مع عدم شرطه ولايلزم من وجود الشرط وجود المشروط ، وهو عقلى ولغوى وشرعى فالعقلى كالحياة للعلم ، واللغوى كقوله ان دخلت الدار فأنت طالق ، والشرعى كالطهارة للصلاة ((طرد)) خبر المبتدأ الذى هو شرطه وهو المانع الذى كلما وجد الحد وجد المحدود ((وعكس)) وهو الجامع الذى كلما وجد المحدود وجد الحـــــد فهذا عكس الاطراد ويلزم من

---

(١) يراجع ما حققه شيخ الاسلام ابن تيمية فى كتبه كالرد على المنطقيين ونقض المنطق •

ذلك انه كلما انتفى الحد انتفى المحدود • وقال الجراعى فى الحواشى : المطرد هو الذى اذا وجد الحد وجد المحدود وهو المانع ، قال والمنعكس هو الدى اذا عدم الحد عدم المحدود وهو الجامع ، قال وهـــذا قول الجمهور منهم الغزالى وابن الحاجب وابن مفلح ، قال وعكس القرافى والطوفى فقالا المطرد هو الجامع والمنعكس هو المـــانع ، وذكر ابو على التميمى فى كتاب التذكرة فى أصول الدين أن هذا التعريف للحـــد قول المتكلمين وأما المناطقة فقالوا انه القول الدال على ماهية الشيء وهـــو مايتحصل من جنس التعريف وفصله ، قال ولايحتاج فيه الى ذكر الطـرد والعكس لأن ذلك يتبع الماهية • واعلم ان الحد من حيث هو - تام ، ورسمى ، ولفظى ، ولذا قال ((وهو)) أى الحد ((ان أنبا)) أى دل وكشف ((عن الذوات)) اى ذاتيات المحدود الكلية المركبة كما اذا قيل ماالانسان فيقال حيوان ناطق ((فـ)) هو أى الحد الذى أنبأ عن ذاتيات المحدود الحقيقى ((التام)) وهو الاصل وله حد واحد لأن ذات الشيء لايكون له حدان مثاله حيوان ناطق فانه حد للانسان ، فان قيل جميـــع ذات الشيء عين الشيء والشيء لايفسر نفسه ، فالجواب أن دلالة المحدود من حيث الاجمال ودلالة الحد من حيث التفصيل فليس عينه من كل وجه فصح تعريفه به ولذلك لم يجعل اللفظان مترادفين الا اذا كان الحـــد لفظيا فلذا قال فـ ((استبن)) أى اطلب البيان والكشف عن حقيقة الحد فان هذا هو الحد الحقيقى التام المنبيء عن ذاتيات المحدود • وان كان بفصل قريب فقط من غير ذكر جنس فحد حقيقى ناقص كما اذا قيـــــل ما الانسان ؟ فقلت ناطق • وكذا ان كان بفصل وجنس بعيد كجسم ناطق بالنسبة الى الانسان ((وان يكن)) الحد مركبـــا ((بالجنس)) أى من الجنس القريب ((ثم الخاصة)) مثل ذلك حيوان ضاحك بالنســـبة الى الانسان ((فذاك)) المركب من جنس قريب خاصة نحو الضـــاحك ((رسم)) تام فان الضاحك عرض فى الفعل مفارق لا بالقـــوة ، وسمى خاصة لاختصاصه بحقيقة واحدة بالقوة أو الفعل بالنسبة الى الانسان لأن الضحك بالقوة لازم لماهية الانسان مختص بها وبالفعل مفارق لهـا مختص

بها ، وتعريف الخاصة هى كلية تقال على ماتحت حقيقة واحدة فقــــط قولا عرضيا •

وان كان الحد بها أى الخاصةفقط كقولك الانسان ضاحك سمى رسماناقصا، وكذا ان كانت الخاصة مع جنس بعيد كقولك الانسان جسم ضاحك ((فانهم المحاصة)) بضم الميم فحاء مهملة مفتوحة فألف فصاد مهملة مدغمة فى مثلها فهاء تأنيث أى المقاسمة يقال حصص الشىء تحصيصا وحصحص : بان وظهر، وتحاصوا وحاصوا اقتسموا حصصا كما فى القاموس، قال والحصة بالكسر النصيب • والمراد افهم ما بين الحد الحقيقى التام كالحيوان الناطق بالنسبة الى الانسان والحقيقى الناقص وله صورتان الاولى أن يكون بفصل قريب فقط كالناطق بالنسبة الى الانسان أو بالفصل مع جنس بعيد كالجسم الناطق بالنسبة الى الانسان أيضا ، وكذا افهم الرسم الحقيقى التام والرسم الناقص على مـا ذكرنا • والجنس كلى مقول على كثيرين مختلفين بالحقائق فى جـــواب ماهو ؟ كالحيوان بالنسبة الى انواعه نحو الانسان والفرس، والنوع كلى مقول على كثيرين مختلفين بالعدد دون الحقيقة فى جواب ما هو ؟ كالانســان بالنسبة الى زيد وعمرو ونحوهما من أفراده • والفصل غير مقول فى جواب ما هو بل فى جواب اى شىء هو فى ذاته ؟ وهو الذى يميز الشىء عـما يشاركه فى الجنس كالناطق بالنسبة الى الانسان •والحد اللفظى ما كان بلفظ مرادف أظهر عند السائل من المسؤول عنه كما لو قال قائل مــا الخندريس ؟ فيقال هو الخمر • والله أعلم •

الادراك بالحس وحـــال السوفسطائية

((وكل معلـوم بحس وحــجى   فنكره جهل قبيح فى الهجـا))
((فان يقم بنفسه فجـــــوهر   أولا فذاك عـــــرض مفتقر))
((والجسم ما ألف من جزئـــين   فصاعدا فاترك حـــديث المين))

((وكل معلوم بحس)) من الحواس الخمس الظاهرة التى لا شك فيها ولا آفة تعتريها فانكاره قبيح جدا اذ هو مجرد مكابرة ، قال فى شرح الجواهر وينسب انكار الحواس الى بطليموس وأفلاطون وارســـطو وجالينوس قال ويجب أن يكون مرادهم بذلك أن جزم العقل ليس بمجرد الحس بل بتوسط ضميمة لا أن حكم الحس غير معتد به أصلا والايلزم

انتفاء علومهم المبنية على الاحكام الحسية • واستدل من قال بالانكار بأن الحس كثير الغلط فلا يعتبر ، وبيانه أنه يرى العنبة فى الماء بالاجاصة ، والقطرة النازلة كالخط المستقيم ، ومنها أن الحس حاكم ببياض الثلج وهو مركب من أجزاء شفافة ليس فى الواقع له بياض ، وأن النائم يجزم بما رأى فى النوم جزمه فى اليقظة ، وكذا صاحب البرسام ونحوه ، فيمكن مثل ذلك فى غيرهم ، وذلك كاف فى رفع الثقة ، وأيضا الامثال متواردة أعم من أن تكون جواهر كالاجسام عند النظام او عرضا كالالوان عند متكلمى الاشاعرة ومن وافقهم ، والحس حاكم باستمرارها ،فيقوم الاحتمال فى الكل ولا جزم مع قيام الاحتمال •وجواب شبههم عما أوردوه بأنه غير دال على عدم الوثوق بجزم العقل فى المحسوسات بل فى هذه الصور العقل العقل بمجرد الحس وهو غير منكور فالحاكم فى هذه الصور العقل بتوسط الحس لا الحس فقط ، كذا قيل ، والحق أن انكار الوثوق بالمدرك

بالحواس مكابرة ((و)) كذا ما يدرك بـ ((حجى)) كالى هو العقل ((فنكره)) أى انكاره ورده بعدم الوثوق به ((جهل قبيح)) متناه فى القبح ((فى الهجا)) أى فى الشكل والمثل يقال هذا على هجا هذا أى على شكله اى قبيح فى العادة المستمرة ومردود عند ذوى الهجا المجيدين فى التبحر والكشف عن حقائق الاشياء يقال هجى النبت كرضى هجى انكشف، قال العلامة نجم الدين بن حمدان فى نهاية المبتدئين كل مؤد الى حقيقة ثابتة تعلم عقلا او حسا فانكاره سفسطة • انتهى • والسوفسطائية انكروا كلا من الحسيات والبديهيات فقالوا بعدم الجزم فى كل منهما فأوردوا عليهم جزمهم بالشك فالتزموا عدم الجزم فيه ايضا فقالوا نحن شاكون وشاكون فى أنا شاكون وهؤلاء ثلاث فرق عندية وعنادية ولا أدرية ، فالعندية قالت مذهب قوم حق بالقياس اليهم باطل بالنسبة الى خصومهم ولا حق فى نفس الامر ، والعنادية : ما من قضية بديهية كانت او نظرية الا ولها معارض يساويها فى القوة والقبول ، وأما اللاأدرية وهم أمثلهم فقالوا نحن شاكون وشاكون فى أنا شاكون ، وتمسكوا بأن دليل كل من منكرى الحسيات والبديهيات دال على انتفائهما والنظر متفرع عليهما منتف بانتفائهما

ولا طريق الى الجزم غير الحس والبديهية والنظر فلم يكن للجزم تحقق أصلا • واذا كان الامر كذلك لم يكن للمناظرة معهم فائدة لانها لافادة المجهول وليس عندهم معلوم فتنجر المناظرة الى التزام مذهبهم ، ولذا منع المحققون منها معهم ، ولكن يقال لهم هل ميزتم بين الالم واللذة أو بين مذهبكم وما يناقضه ؟ فان أبوا الا الاصرار أوجعوا ضربا وعذبوا بالنار ليعترفوا أو يهلكوا •وسوفسطا اسم للحكمة المموهة والعلم المزخرف لان سوفا معناه العلم والحكمة واسطا معناه المزخرف والغلط ومنه اشتقت السفسطة كما اشتقت الفلسفة من فيلاسوف اى محب الحكمة •

تنبيهان الاول العلم ضرورى او كسبى

(تنبيهان)

(الاول) اعلم أن العلم منه ما هو ضرورى ومنه ما هو كسبى ، فالضرورى ما يلزم نفس المخلوق لزوما لا يجد الى الانفكاك عنه سبيلا كالتصديق بأن الكل أعظم من الجزء وأن الواحد نصف الاثنين وان العلم البديهى أخص من الضرورى لان البديهى هو ما يثبته مجرد العقل من غير احتياج الى شىء آخر ويمكن الاحتياج فى الضروريات الى شىء آخر غير العقل كوجدان أو تجربة أو غيرهما • وأما الكسبى فهو مقابل للضرورى وهو النظرى والاستدلالى وهو ما يتضمنه النظر الصحيح وعرفه غير واحد بما يحصل بالذات عقيب النظر ، وفى مختصر التحرير وشرحه: الدال الناصب للدليل وهو لغة المرشد وشرعا ما يمكن التوصل بصحيح النظر فيه الى مطلوب خبرى ، ويدخل فى المطلوب الخبرى ما يفيد القطع والظن ، وهو مذهب أصحابنا وأكثر الفقهاء الاصوليين ، وقيل ان ما أفاد القطع يسمى دليلا وما أفاد الظن يسمى امارة • وقال : ويحصل المطلوب المكتسب بالنظر الصحيح فى الدليل عقبه عادة ، وعلى هذا أكثر العلماء ، لانه قد جرت العادة بأن يفيض على نفس المستدل بعد النظر الصحيح مادة مطلوبه وصورة مطلوبه الذى توجه بالنظر الى تحصيله ، وقيل يحصل عقب النظر ضرورة لانه لا يمكنه تركه • ثم ان الادراك لماهية الشىء بلا حكم عليها بنفى أو اثبات تصور لانه لم يحصل بهسوى صورة ذلك الشىء فى الذهن، وتصور ماهية الشىء مع الحكم عليها بايجاب أو سلب تصديق ، فالتصور

ادراك الحقائق مجردة عن الاحكام ، والتصديق نسبة حكمية بين الحقائق بالايجاب أو السلب ، والعلم الحاصل بالضرورة والكسب هو صفة يميز المتصف بها بين الجواهر والاعراض والواجب والممكن والممتنع تمييزا جازما مطابقا للواقع بحيث لا يحتمل النقيض ، والحق انه يتفاوت كالمعلوم ، وكما يتفاوت الايمان ، قال شيخ الاسلام ابن تيمية قدس الله روحه : الصواب ان جميع الصفات المشروطة بالحياة تقبل التزايد ، وروى عن الامام احمد رضى الله عنه فى المعرفة الحاصلة فى القلب فى الايمان هل تقبل التزايد والنقص ؟ روايتان ، قال : والصحيح من مذهبنا ومذهب جمهور أهل السنة امكان الزيادة فى جميع ذلك • انتهى •وتقدم وجوب اعتقاد قبول الايمان للزيادة والنقصان ودليل ذلك بالعقل والقرآن والله أعلم •

الثانى يطلق العلم على أربعة أمور

(الثانى) اعلم أن العلم يطلق لغة وعرفا على أربعة أمور (أحدها) ما لا يحتمل النقيض كما تقدم (الثانى) يطلق ويراد به مجرد الادراك سواء كان جازما أو مع احتمال راجح أو مرجوح أو مساو (الثالث) انه يطلق ويراد به التصديق قطعيا كان أو ظنيا (الرابع) يطلق ويراد به معنى المعرفة ويراد بها العلم ومنه قوله تعالى (مما عرفوا من الحق) أى علموا ، وقد يطلق الظن ويراد به العلم كقوله تعالى (الذين يظنون انهم ملاقو ربهم) أى يعلمون ، والمعرفة من حيث انها علم مستحدث او انكشاف من بعد لبس اخص من العلم لشموله غير المستحدث وهو علم الله تعالى والمستحدث وهو علم العباد ، ومن حيث انها يقين وظن اعم من العلم لاختصاصه حقيقة باليقين وتقدم الكلام عليها فى صدر الكتاب والله أعلم •

الجوهر والعرض وعدة من اصطلاحات العلماء

ثم ان كل شىء لا يخلو اما ان يقوم بنفسه اولا ((فان يقم)) ذلك الشىء ((بنفسه)) اى بذاته ومعنى قيامه بذاته عند المتكلمين ان يتحيز بنفسه غير تابع تحيزه لتحيز شىء آخر وعند الفلاسفة معنى قيام الشىء بذاته استغناؤه عن محل يقومه ، فلا يخلو القائم بنفسه من أحد أمرين اما أن يكون مركبا من جزئين فصاعدا وهو الجسم كما يأتى الكلام عليه أو غير مركب فان قام بنفسه وكان غير مركب من جزئين فصاعدا ((فـ)) هو

((جوهر)) والجوهر هو العين الذى لا يقبل الانقسام لا فعلا ولا وهما ولا فرضا وهو الجزء الذى لا يتجزأ ، وعند الفلاسفة لا وجود للجوهر الفرد اعنى الجزء الذى لا يتجزأ وزعموا ان تركب الجسم انما هو من الهيولى والصورة ، وأقوى الادلة على اثبات الجزء الذى لا يتجزأ عند القائلين به انه لووضع كرة حقيقة على سطح حقيقى لم تماسه الا بجزءغير منقسم اذ لو ماسته بجزئين لكان فيها خط • بالفعل فلم تكن كرة حقيقية • وأشهرها عند محققى المتكلمة وجهان (الاول) ان لو كان كل عين منقسما لا الى نهاية لم تكن الخردلة أصغر من الجبل لان كلا منهما غير متناهى الاجزاء والعظم والصغر انما هو بكثرة الاجزاء وقلتها وذلك انما يتصور فى المتناهى (الثانى) قالوا ان اجتماع الجسم ليس لذاته والا لما قبل الافتراق فالله تعالى قادر على أن يخلق فيه الافتراق الى الجزء الذى لا يتجزأ لان الجزء الذى تنازعوا فيه ان أمكن افتراقه لزم قدرة الله تعالى عليه دفعا للعجز وان لم يمكن ثبت المدعى الذى هو وجود الجزء الذى لا يتجزأ ، ولضعف هذه المدارك لم يثبته شيخ الاسلام ابن تيمية روح الله روحه وان كان في اثباته نجاة من كثير من ظلمات الفلاسفة مثل اثبات الهيولى والصورة المؤدى الى قدم العالم ونفى حشر الاجساد وامتناع الخرق والالتئام مما هو معلوم الفساد من دين الاسلام بالضرورة (١) والله اعلم •

((أولا)) يقوم بنفسه ((فذاك)) الذى لا يقوم بنفسه بل لا بد أن يكون قائما بغيره تابعا له فى التحيز او مختصا به اختصاص الناعت بالمنعوت فهو ((عرض مفتقر)) الى محل يقومه فوجود العرض فى الموضوع هو أن وجوده فى نفسه هو وجوده فى الموضوع فيمتنع الانتقال عنه فالعرض مفتقر الى محل يقوم به ويحمله ، وقيل هو الموجود فى شيء غير متقوم به لا كجزء منه ولا يصح قوامه دون ما هو منه ، وقيل ما يطرأ على جوهر من كون ولون لا بمعنى انه لا يمكن تعلقه بدون المحل كما قد توهم ذلك بعضهم ، نعم يوجد ذلك فى بعض الاعراض كالابوة مثلا •

((والجسم ما)) أى شيء أو الذى ((ألف)) أى ركب ((من جزئين

---

(١) قد رد شيخ الاسلام أباطيل الفلاسفة بالحجج الواضحة

فصاعدا)) أى أكثر يعنى ذاهبا الى جهة الصعود والارتفاع عن اثنين فيكون أقل ما يتركب من جزئين ولا حد للكثرة ((فاترك حديث)) أى كلام ((المين)) أى الكذب يعنى الكلام الكذب وأراد بهذا الرد على من زعم انه لا يتركب من أقل من ثلاثة أجزاء لتحقق الابعاد الثلاثة اعنى الطول والعرض والعمق وعلى من زعم انه لا يتركب من أقل من ثمانية اجزاء لتحقق تقاطع الابعاد على زوايا قائمة ، وقيل الجسم ما يقبل الزيادة بالوصف بجوهر الجسيم منه وقد قدمنا الكلام على الجوهر والجسم والعرض عند قولنا فى الباب الاول

وليس ربنا بجوهر ولا عرض ولا جسم تعالى ذو العلا

فراجعه ان شئت (١) وانما أعاده هنا تبعا للاصحاب فى الحاقهم أواخر العقائد كلمات يكثر دورانها فى هذا العلم ومن هذا القبيل قوله

((ومستحيل الذات غير ممكن وضده ما جاز فاسمع زكنى))
((والضد والخلاف والنقيض والمثل والغيران مستفيض))
((وكل هذا علمه محقق فلم نطل به ولم ننمق))

((ومستحيل الذات غير ممكن)) أى المستحيل لذاته غير ممكن ولا مقدور اذ لو تعلقت به القدرة لصار ممكنا لانها لا تتعلق الا بالممكنات كما مر ، وضده أى ضد المستحيل ((ما)) أى الذى ((جاز)) وجوده وعدمه ، والحاصل ان الواجب ما لا يتصور فى العقل عدمه ، والمستحيل ما لا يتصور فى العقل وجوده ، والممكن ما جاز وجوده وعدمه ، يعنى قبل ايجاده • وتقدم الكلام عليه فى الباب الاول ((فاسمع زكنى)) اى علمى وفهمى وتفرسى فى اختصار الكلام مع تمام الاحكام يقال زكن كفرح وازكنه علمه وفهمه وتفرسه وظنه ، او الزكن ظن بمنزلة اليقين عندك او طرف من الظن وازكنه اعلمه وافهمه والازكان ان تزكن شيئا بالظن فيصيب • ثم اشار الى بعض ما ذكره النجم ابن حمدان فى آخر نهاية المبتدئين فقال ((والضد)) يعنى مع ضده فالضدان هما ما امتنع اجتماعهما فى محل واحد فى زمن واحد كالسواد والبياض • والحركة والسكون ، والاجتماع

---

(١) مع ما تعقب به

والافتراق ، اذ الشيء الواحد لا يكون اسود أبيض فى زمن واحد ، ولا يكون ساكنا متحركا فى زمن واحد • ويمكن ارتفاع الضدين مع بقاء المحل لا اسود ولا ابيض • قال فى نهاية المبتدئين : وقيل الضدان الوصفان الوجوديان اللذان يمتنع اجتماعهما لذاتهما كالسواد والبياض • وقيل كل ذاتين (؟) يتعاقبان على موضع واحد يستحيل اجتماعهما فيه بينهما غاية الخلاف والبعد • انتهى • وهى عبارات متقاربة المعنى فى الجملة ((والخلاف)) أى الخلافان يجتمعان ويرتفعان كالحركة والبياض فى الجسم الواحد . ((والنقيض)) ان لا يجتمعان ولا يرتفعان كالوجود والعدم المضافين الى معين واحد ((والمثل)) ان ما قام احدهما مقام الآخر وسد مسده وعمل عمله، والجواهر متماثلة ، وقيل هما اللذان يشتركان فى الصفة اللازمة فهما لا يجتمعان ويرتفعان لتساوى الحقيقة كبياض وبياض ، وأما المتشابهان فهما اللذان يتقاربان اما فى الصورة واما فى استحقاق المعنى المجوز عليهما او فى السبب الذى تعلق به وجودهما ونحو ذلك مما تقع به المشابهة ، والمتشابهان من وجه قد يختلفان من آخر والمثلان لا يختلفان من وجه والمختلفان قد يختلفان من وجه ويشتبهان من وجه آخر ((والغيران)) هما المختلفان وقيل هما الموجودان اللذان يمكن ان يفارق أحدهما الآخر بوجه فالمتفقان يقربان من المثلين وهما فى التقارب على العكس من المختلفين وفيهما زيادة على أصح حد المتشابهين لانه قد يكون التفاوت بالوصف كما فى المتشابهين وقد يكون التفاوت بالزمان والمكان وليس ذلك فى المتشابهين وقد يكون فى المتماثلين تفاضل من وجه مثل الحركتين تكون احداهما أشد من الاخرى ، وكذلك يتفاوت السوادان شدة وضعفا ، وكل علم ذلك معلوم عند اهل هذا الفن وعند المناطقة ((مستفيض)) استفاضة ظاهرة لا تخفى على أحد له اعتناء بتحصيل هذه العلوم العقلية •

(تنبيه) قد يتعذر ارتفاع الخلافين لخصوص حقيقة كونهما خلافين كذات واجب الوجود تعالى وتقدس مع صفاته ، وقد يتعذر افتراقهما (كالعشرة مع الزوجية خلافان ويستحيل افتراقهما - ١) والخمسة مع الفردية والجوهر مع الالوان ونحو هذا وهو كثير لكن لا تنافى بين امكان

(١) من مخ

الافتراق والارتفاع بالنسبة الى الذات وتعذر الارتفاع بالنسبة الى أمـــر خارجي عنها ، وهذا الذي ذكرناه كله بالنسبة الى ممكن الوجود ، أماالله تعالى وصفاته فلا يقال بامكان رفع شيء منها لتعذر رفعه بسبب وجوب وجوده، وقد قدمنا فى بحث الصفات ما يرشد لهذا .

((وكل هذا)) المذكور واضعافه مما لم يذكر ((علمه)) **مشهور عند** أرباب الفن ((محقق)) وحيث كان كذلك فلنقتصر على هذا المقدار الذى ذكرناه ((فلم نطل به)) أى بذكره ((ولم ننمق)) من التنميق وهـــو التحسين والتزيين قال فى القاموس نمق الكتاب كتبه ونمقه تنميقا حسنه وزينه بالكتابة ويقال للشيء المروح : فيه نمقة ـ محركة . اذا المقصود انما هو ذكر أمهات مسائل العقائد السلفية ونظم فرائد الاصول الاثرية وقـــد ذكرنا منها ما لعله يكفى المبتدى ويشفى المنتهى ويكمد المعتدى وباللـــه التوفيق ثم حمدنا الله تعالى عودا على بدء **فقلنا**

((والحمد لله عـــلى التوفيـــق لمنهج الحق على التحقيق))
((مسلما لمقتضى الحـــديث والنص في القديم والحديث))
((لا أعتنى بغير قول الســلف موافقـا أئمتى وســـلفى))

((والحمد لله على التوفيق)) وهذا حمد فى مقابلة نعمة التأهيل لهذا الفضل الجزيل والمشرب الصافى من ينبوع التنزيل من غير الحاد ولاتأويل ولا تشبيه ولا تعطيل ، والتوفيق تسهيل سبيل الخير والطاعة . قال الامام المحقق ابن القيم فى كتابه شرح منازل السائرين : قد اجمع العارفون بالله أن التوفيق ان لا يكلك الله تعالى الى نفسك ، والخذلان ضده وهو آن يخلى بينك وبينها ، فالعبيد متقلبون بين توفيقه وخذلانه ، بل العبد فى الساعة الواحدة ينال نصيبه من هذا وهذا فيطيع مولاه ويرضيه ويذكره ويشكره بتوفيقه ثم يعصيه ويخالفه ويسخطه ويغفل عنه بخذلانه له ، فهو دائر بين توفيقه وخذلانه فان وفقه فبفضله ورحمته وان خذله فبعدله وحـكمته ، وهو سبحانه المحمود فى هذا وهذا له أتم حمد وأكمله ، لم يمنع العبد شيئا هو له وانما منعه ما هو مجرد فضله وعطائه وهو أعلم حيث يضعه وأين يجعله . قال : فمتى شهد العبد هذا المشهد وأعطاه حقه علم ضرورته وفاقته

الى التوفيق فى كل نفس ولحظة وطرفة عين وان توحيده وايمانه ممسك بيد غيره لو تخلى عنه طرفة عين لثل عرشه ولخرت سماء ايمانه على الارض وان الممسك له من يمسك السماء أن تقع على الارض الا باذنه فدأبه بقلبه ولسانه : يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك ، يا مصرف القلوب صرف قلبى على طاعتك ، ودعواه : يا حى يا قيوم يا بديع السموات والارض يا ذا الجلال والاكرام لا اله الا أنت برحمتك أستغيث اصلح لى شأنى كله ولا تكلنى الى نفسى طرفة عين ولا الى أحد من خلقك • ثم قال: والتوفيق هو ارادة الله من نفسه أن يفعل بعبده ما يصلح به العبد بأن يجعله قادرا على فعل ما يرضيه مريدا له محبا مؤثرا له على غيره ، ويبغض اليه ما يسخطه ويكرهه وهذا مجرد فعله تعالى والعبد محل له قال تعالى (ولكن الله حبب اليكم الايمان وزينه فى قلوبكم وكره اليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون • فضلا من الله ونعمة والله عليم حكيم) فهو سبحانه عليم بمن يصلح لهذا الفضل ومن لا يصلح له حكيم يضعه فى مواضعه وعند اهله ولا يمنعه اهله ولا يضعه عند غير اهله • وذكر هذا عند عقيب قوله (واعلموا ان فيكم رسول الله لو يطيعكم فى كثير من الامر لعنتم) ثم جاء بحرف الاستدراك فقال (ولكن الله حبب اليكم الايمان وزينه) قال وقد فسرت الجبرية وغيرهم التوفيق بأنه خلق الطاعة والخذلان خلق المعصية وبنوا ذلك على أصولهم الفاسدة من انكار الاسباب والحكم وردوا الامر الى محض المشيئة من غير سبب ولا حكمة ، قال وقابلهم القدرية ففسروا التوفيق بالبيان العام والهدى العام والتمكن من الطاعة والاقتدار عليها وتهيئة أسبابها ، قال وهذا حاصل لكل كافر ومشرك بلغته الحجة وتمكن من الايمان • وقد قدمنا فى الكلام على القدر ما لعله يكفى ويشفى وبالله التوفيق وقوله ((لمنهج الحق على التحقيق)) متعلق بالتوفيق والمنهج الطريق الواضح كالنهج والمنهاج • والحق هو الحكم المطابق للواقع ويطلق على الاقوال والعقائد والاديان والمذاهب باعتبار اشتمالها على ذلك ، ويقابله الباطل ، وأما الصدق فشاع فى الاقوال خاصة، ويقابله الكذب ، وقد يفرق بين الحق والصدق بأن المطابقة تعتبر فى الحق

من جانب الواقع وفى الصدق من جانب الحكم فمعنى صدق الحكم مطابقته الواقع ومعنى حقيته مطابقة الواقع اياه ، والتحقيق ايقاع الاشياء فى محالها وردها الى حقائقها يقال حقق الطريق ركب حاقته وحقق الامر تيقنــــه ، وقوله ((مسلما)) حال من معمول التوفيق أى والحمد لله على توفيــقى لمنهج الحق حال كونى مسلما ((لمقتضى الحديث)) أى لما يقتضيه الحديث الصحيح النبوى ((والنص)) الصريح القرآنى ، وقدم الحديث لمراعــاة القافية ولشدة الاعتناء بالتمسك بالسنة النبوية والاحاديث المرضية كالنص كما هو فى نسخة وهى اولى وأحرى وحينئذ فالنص هو المقدم وســــواء أدركنا معناه بعقولنا أم لم ندركه ، وهذا هو الحق الواجب على كل مسلم ، يوضحه ان وجوب تصديق كل مسلم بما اخبر به الله ورسوله من صفاته وغيرها ليس موقوفا على أن يقوم دليل عقلى على ذلك فانه مما يعلم بالاضطرار من دين الاسلام ان الرسول اذا أخبرنا بشىء من صفات الله تعالى وجب علينا التصديق به وان لم نعلم ثبوته بعقولنا، ومن لم يقر بما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم حتى يعلمه بعقله فقد أشبه الذين قال الله تعالى عنهم (وقالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله) ومن سلك هذا السبيل فهو فى الحقيقة ليس مؤمنا بالرسول ولا متلقيا عنه الاخبار بشأن الربوبية، ولا فرق عنده بين أن يخبر الرسول بشىء من ذلك او لم يخبر به اذا كان الذى لم يعلمه بعقله لا يصدق به بل يتأوله وما لم يخبره به ان علمه بعقله آمن به ، ومن سلك هذا السبيل فوجود الرسول واخباره وعدمهما عنده سواء ، وما يذكر من القرآن والحديث والاجماع لا أثر له عند هـؤلاء وقد صرح بذلك جماعة من أئمة المتكلمة وتقدم هذا فى الباب الاول بعد قولنــــا

فكل ما قد جاء فى الدليل   فثابت من غير ما تمثيل

وقوله ((فى القديم والحديث)) يحتمل معنيين كلاهما مراد (أحدهما) راجع الى الناظم وهو أن هذا عقيدتى واعتمادى ومبنى عصمتى واعتقادى التسليم والانقياد والمثول والاعتماد على مقتضى النصـوص القـــــرآنية والاحاديث النبوية سواء أدركنا معانيها بعقولنا أو قصرت عن ادراك حقائقها

ألبابنا وآراؤنا وهذا فى أول زمان وجود ادراك فهمى ولم ينفك عن هذا عقد لبى ودليل علمى فقديم زمنى وحديثه على ذلك وهو نهجه القويم وان تباينت المسالك (الثانى) أن مبنى علمى وحقيقة حجتى وفهمى وعصمتى وسندى انما هو النص القرآنى والخبر الصحيح النبوى وما أجمع عليه السلف سواء فى ذلك الاحكام المتعلقة بالعبادات ونحوها من المعاملات والانكحة والجنايات والحدود والكفارات أو الاخبار عن البرزخ والمعادوما للعالم من شقوة أو اسعاد هذا وهذا ونحوه مما يتعلق بالحادث والحوادث أو كان مما يتعلق بالقديم الديان من الذات والصفات والقرآن حسبما برهنا على ذلك فى شرحنا هذا على قدر الامكان مما يعلمه الناظر فيه بالبراهين الساطعة والحجج القاطعة والادلة النافعة والالزامات القامعة ((لا أعتنى)) فى أصل نظم عقيدتى هذه بقول قائل وان جل أمره وشاع ذكره ((بغير قول السلف)) أى لا أعول ولا يهمنى ولا يعنينى فى نظم عقد توحيدى الا قول السلف الصالح والرعيل الاول الفالح وفى نسخه * لا أعتنى الا بقول السلف * ولست فى ذلك منفردا ولا ناهجا نهجا منتقدا بل فى نهجى المذكور وسيرى المشكور حال كونى ((موافقا أئمتى)) من أئمة أهل الاثر ((وسلفى)) فى ذلك من كل همام معتبر قد سبروا الاخبار ودونوا الآثار وعرفوا ما كان عليه النبى المختار وما اقتفاه عليه اصحابه الابرار وأصهاره الاخيار وأنصاره الاطهار صلوات الله وسلامه عليه وعليهم ما تعاقب الليل والنهار وقد قال « ستفترق أمتى الى ثلاث وسبعين فرقة كلها فى النار الا فرقة واحدة وهى ما أنا عليه وأصحابى » وتقدم ذلك فى المقدمة

((ولست فى قولى بذا مقلدا   الا النبى المصطفى مبدى الهدى))

((صلى عليه الله ما قطر نزل   وما تعانى ذكره من الازل))

((وما انجلى بهديه الديجور   وراقت الاوقات والدهور))

((ولست فى قولى بذا)) أى بما أشرت اليه من اقتفاء الائمة والسلف الصالح ((مقلدا)) لهم فى اعتقادى ، وان الذى نحوه بمجرده عمدتى واعتمادى ، من غير نظر فى الدليل وبحث عن الكثير والقليل ، بل نظرت كما نظروا ، وسبرت كما سبروا ، وخضت فى علوم النظر والكلام ،

والحكمة والاحكام ، فرأيتها لا تشفيمن سقام ، ولا تروى من أوام ، ولا تهدى من ضلال ، ولا تجدى من نوال ، هذا واللب عاكف على الآثار ، عارف بثمرات الاخبار ، كارف من نشرها ما يزيل نتن الآراء غارف من بحرها ما يطفىء حرارات الاهواء ، مقتبسا من أنوارها ما يقشع ظلمات الافكار الفلسفية ، ملتمسا من اسرارها ما يقمع شبهات الانظار الكلامية ، مقيدا منها بما يزيل الخيالات المعتزلية ، معتمدا منها على ما يغسل الزبالات الرافضية ، فليس لى فى كل سيرى مقلدا ، ولا فى اعتقادى قدوة ومعتمدا ((الا النبى المصطفى)) من سائر العالم المختار من سائر بنى آدم ((مبدى)) اى مظهر ومبين وكاشف ((الهدى)) بالدلائل الواضحة ، ومرشد العالم الى سلوك المسالك الناجحة ، وتقدم الكلام على الهداية ، بما فيه كفاية ، فقد بذلت وسعىفى اقتفاء آثاره ، وانتقاء اخباره ، وسبر أحواله ، ونشر أقواله ، وتهذيب سيرته الشريفة ، وثبوت شريعته المحكمة المنيفة ، فكرعت منها عللا بعد نهل ، وشربت عذبا زلالا صافيا بريا من زبالاتالآراء والزلل، فذاك معتمدى مدى العمر ، لا زيد ولا بكر ، ولا خالد ولا عمرو ((صلى عليه الله)) تقدم الكلام على معنى الصلاة والسلام ((ما قطر نزل)) أى مدة دوام نزول الامطار وتداول الاعصار ، والقطر هو الماء والنزول وكفه من العلو اذا هطل ((و)) صلى الله وسلم عليه ((ما تعانى)) المعتنون ((ذكره من الازل)) فى الاعصار الخالية والاطوار البالية والقرون الفانية والامم الماضية فانه لم يخل زمان من ذكره ولا أوان من التنويه بشرعه ومبعثه ونهيه وأمره الى أن جاء ابان رسالته زمانبعثته وظهور مقالته فظهرت شمس نبوته على سائر كواكب النبوات فانخنست وبهرت رسالته المقالات فانطمست ((و)) صلى الله وسلم عليه ((ما انجلى)) أى تفرق وزال وانكشف ((بهديه)) الناصع ونور شرعه المشرق اللامع ((الديجور)) اى الظلام قال فى القاموس الديجور التراب والظلام والاغبر الضارب الى السواد • أى مدةدوام انجلاء ظلام الشرك وسواد الافك وغبار البدع والابتكار بمنار هديه ونور شرعه الذى ازال كل ظلال وأطفأ كل نار ((و)) ما بهديهصلىالله عليهوسلم ((راقت)) أى صفت قال فى القاموس

الترويق التصفية والراووق المصفاة والريق تردد الماء على وجه الارض من الضحضاح والرائق الخالص و ((الاوقات)) جمع وقت وهو المقدار من الدهر وأكثر ما يستعمل فى الماضى والميقات يطلق على الزمان والمكان المضروب للفعل ، وفى نسخة ما راقت الايام بدل الاوقات جمع يوم والمراد ما خلصت وصفت الاحوال جمع حال الواقعة فى الاوقات والحاصلة فى الايام والساعات والحال كنه الانسان وما هو عليه كالحالة ويراد بالحال الهيئة ومنه تغير من حال الى حال ((و)) ما راقت ((الدهور)) جمع دهر وهو الزمان الطويل والامد الممدود وقد يعد فى الاسماء الحسنى والمراد على حذف مضاف والذى عده فى الاسماء الحسنى نظر الى ظاهر قوله صلى الله عليه وسلم « لا تسبوا الدهر فان الله هو الدهر » والى ظاهر الحديث القدسى ـ قال الله تعالى يؤذينى ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر • قال الحافظ ابن حجر فى شرح البخارى وقال الخطابى معناه أنا صاحب الدهر ومدبر الامور التى ينسبونها الى الدهر فمن سب الدهر من أجل هذه الامور عاد بسبه الى ربه الذى هو فاعلها وانما الدهر زمان جعل ظرفا لمواقع الامور ، وكانت عادة الجاهلية انهم اذا أصابهم مكروه أضافوه الدهر فقالوا بؤسا للدهر وتبا للدهر • قال المحققون من نسب سيئا من الافعال الى الدهر حقيقة كفر ومن جرى هذا اللفظ على لسانه غير معتقد لذلك فليس بكافر لكن يكره له ذلك • وقد شن الغارة الحافظ ابن الجوزى على من نسب شيئا من ذلك الى الدهر ولو لم يعتقد ظاهره فى عدة مواضع من كتبه منها صيد الخاطر • وغلط القاضى عياض من زعم أن الدهر من أسماء الله تعالى فان الدهر مدة زمان الدنيا وعرفه بعضهم بأنه أمد مفعولات الله فى الدنيا أو فعله لما قبل الموت • وقد تمسك الجهلة من الدهرية والمعطلة بظاهر هذا الحديث واحتجوا به على من لا رسوخ له فى العلم لان الدهر عندهم حركات الفلك وأمد العالم ولا شىء عندهم ولا صانع سواه • وكفى فى الرد عليهم قوله فى بقية الحديث « أنا الدهر أقلب ليله ونهاره » فكيف يقلب الشىء نفسه تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا • وقال محمد بن أبى جمرة : لا يخفى أن من سب الصنعة فقد سب

صانعها فمن سب نفس الليل والنهار أقدم على أمر عظيم بغير معنى ، وذكر نحو ما قدمنا من أن ليس للدهر ولا لليل والنهار فعل ولا تأثير فمن سب شيئا من ذلك يؤول من حيث المعنى أنه سب خالق ذلك . انتهى . ملخصا

((وآله وصحبه أهـــل الوفا معادن التقوى وينبـوع الصفا))

((وتابع وتابـــع للتـــابع خير الورى حقا بنص الشارع))

((و)) صلى الله على ((آله)) أى أتباعه على دينه وقيل أقاربه الادنون من بنى هاشم وبنى المطلب والاول اختيار الامام احمد فى مقام الدعاء ، والثانى اختيار الامام الشافعى وقيل آله أهله ، والصواب جواز اضافته الى الضمير خلافا لمن انكر ذلك نعم هو قليل ((وصحبه)) وهم كل من اجتمع بالنبى صلى الله عليه وسلم مؤمنا ومات على الايمان وتقدم الكلام عليهم فى أول الكتاب وفى قوله ((أهل الوفا)) اشارة الى أنهم فعلوا ما أمروا ووفوا بما عاهدوا الله ورسوله عليه من بذل نفوسهم النفيسة وكـــل نفيس فى نصرة الدين القويم والتمسك بهديه المستقيم وقوله ((معادن التقوى)) يصح جره على التبعية لما قبله ونصبه بفعل محذوف تقديره أمدح ونحوه ورفعه خبر لمبتدا محذوف تقديره هم ، والمعادن جمع معدن بكسر الدال ، قال الازهرى سمى المعدن معدنا لعدون ما أنبته الله فيه أى لاقامته فيه يقال عدن بالمكان يعدن عدونا والمعدن المكان الذى عدن فيه الجوهر من جواهر الارض أى ذلك كان . وأحرى خلق الله تعالى وأجدر باقامة التقوى فيهم وعدونها لديهم بعد أنبياء الله تعالى ورسله أصحاب نبيه المصطفى رضوان الله تعالى عليهم ، والتقوى التحرز بطاعة الله تعالى عن مخالفته وامتثال أمره واجتناب نهيه ، وحقيقتها ان يجعل المرء بينه وبين معاصى الله وقاية تمنعه من انتهاكها والوقوع فيها فلا بد أن يجعل بينها وبينه حاجزا ، وفى سنن الترمذى وابن ماجه من حديث عبد الله بن يزيد رضى الله عنه (١) عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذرا مما به بأس » وقال أبو الدرداء رضى الله عنه : التقوى تمام التقوى أن يتقى الله العبد حتى يتقيه من مثقال ذرة وحتى يترك بعض ما يرى أنه حلال خشية أن يكون حراما حجابا بينه وبين الحرام . وتقدم الكلام عليهـــا

(١) انما رواه عبد الله بن يزيد عن ربيعة بن يزيد وعطية بن قيس وهما رفعاه

في صدر الكتاب ((وينبوع الصفا)) معطوف على معادن والينبوع بفتح التحتية وسكون النون وضم الموحدة وبعدها واو ساكنة فعين مهملة عين الماء أو الجدول الكثير الماء كما في القاموس ، والصفاء ضدالكدر كالصفو والصفوة وصفوة الشيء مثلثة ما صفى منه ومنه صفا الجو اذا لم يكن فيه لطخة غيم ، فالصحابة الكرام ينبوع كل خالص من الكدر نقى من غبار البدع وقذى الفكر فمن ورد موردهم كرع صافيا زلالا ومن زل عن نهجهم شرب أجاجا قذرا وبالا ((و)) على ((تابع)) لهم باحسان ((وتابع للتابع)) على نهج الاستقامة والاتقان وهؤلاء القرون الثلاثة ((خير الورى)) كفتى الخلق أى من هذه الامة وأفضلهم أحق ذلك ((حقا بنص الشارع)) للشرائع يعنى النبى صلى الله عليه وسلم وتقدم انه صلى الله عليه وسلم قال « خير الناس قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم » قال عمران بن حصين رضى الله عنهما فلا أدرى أذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثة . رواه البخارى ومسلم وغيرهما ، وكذا فى حديث أبى هريرة عند مسلم ولفظ حديث أبى هريرة « خير أمتى القرن الذى بعثت فيه » ولهذا المعنى قال :

ذكر أئمة المذاهب الاربعة

((ورحمة الله مع الرضوان — والبر والتكريم والاحسان))
((تهدى مع التبجيل والانعام — منى لمثوى عصمة الاسلام))
((أئمة الدين هداة الامه — أهل التقى من سائر الائمه))
((لاسيما احمد والنعمان — ومالك محمد الصنوان))

((ورحمة الله)) تعالى ((مع الرضوان)) من الله تعالى ((والبر)) بالكسر الاحسان والشفقة ((والتكريم)) لهم من فضله العميم وكرمه الكريم ((والاحسان)) اليهم من الله لانهم أحسنوا عملا واخلصوا قولا وفعلا فيجازيهم بالاحسان لقوله تعالى (هل جزاء الاحسان الا الاحسان)

((تهدى)) بضم المثناة الفوقية على صيغة مالم يسم فاعله أى هذه الامور التى هى الرحمة والرضوان والبر والتكريم والاحسان ((مع التبجيل)) أى التعظيم وفى حديث أنه عليه السلام أتى القبور فقال « السلام عليكم أصبتم خيرا بجيلا » أى واسعا كثيرا من التبجيل يعنى التعظيم كما فى النهاية وقال فى القاموس بجله تبجيلا عظمه ((والانعام)) من الملك المنعم

المهيمن السلام ((منى)) أى بأن أسأل الله تبارك وتعالى أن يفعل جميع ذلك بمنه وكرمه وطوله وحلمه ((لمثوى)) أى منزل ومقام قال فى النهاية : المثوى المنزل من ثوى بالمكان اذا أقام فيه • وفى القاموس • المثوى المنزل وجمعه مثاوى • وهو مجاز لان المراد الثاوين فأطلق المحل وأراد الحال ((عصمة)) أهل ((الاسلام)) من البدع المضلة والآراء المخلة بأهل الزيغ والالحاد والافك والعناد • والعصمة المنعة والعاصم المانع الحامى والاعتصام الامتساك بالشىء افتعال منه وفى شعر أبى طالب فى حق النبى صلى الله عليه وسلم * ثمال اليتامى عصمة للأرامل * أى يمنعهم من الضياع والحاجة وعلى كل حال انما عصمة هذا الدين بعد الصحابة والتابعين كان بهؤلاء الائمة المجتهدين

ومن ثم قال ((أئمة)) أهل هذا ((الدين)) المتين ونور الله المبين الذى جاء به النبى الامين من عند رب العالمين ((هداة الامة)) أى الدالين الامة على نهج الرسول والكاشفين لهم عن معانى الكتاب المنزل والاحاديث التى عليها المعول والذابين زيغ الزائغين وبدع المبتدعين وضلال المضلين والحاد الملحدين فقد شيدوا مبانيها وسددوا معانيها وأصلوا أصولها وفصلوا فصولها فأصبحت الشريعة بهذا الترتيب مضبوطة وأحكامها بهذا الوصف والتبويب مربوطة فمن رام اختلاس حكم من أحكامها نكص على عقبيه وهو خائب ومن دنا من سماء أحكامها رمته كواكب حرسها بشهاب ثاقب ولست أخص بهذا الوصف والدعاء أحدا دون أحد بل أسأل الله تعالى لهم جميعا لانهم هم ((أهل التقى من سائر)) أى جميع ((الائمة)) من المقتدى بأقوالهم وأفعالهم من كل عالم همام وحبر قمقام ومقدم مقدام كالائمة المتبوعة الآتى ذكرهم

والسفيانين والحمادين واسحاق بن راهويه وأبى ثور ويحيى بن معين وابن أبى ذئب والبخارى ومسلم وعبد الله بن المبارك والليث بن سعد وربيعة ابن أبى عبدالرحمن وعبدالملك بن جريج وداود وغيرهم فانهم وان تباينت أقوالهم واختلفت آراؤهم من جهة الفروع الفقهية فالجميع سلفية أثرية ولهم فى السنة التصانيف النافعة والتآليف الناصعة كابن سعيد الدارمى وأبى بكر بن خزيمة وأشباههم • ثم بعد أن عم جميع الائمة بالدعاء والثناء خص الائمة الاربعة الذين مدار الشريعة الآن على ما أصلوه واحكامها

ضمن ما فصلوه فقال ((لاسيما)) هذه الكلمة مبنية على دخول ما بعدها في ما قبلها بالاولى فكل ما نسب لمن قبلها من الثناء والدعاء فمن بعدها كذلك وأولى بذلك ويجوز في الاسم الذى بعدها الجر والرفع مطلقا وكذلك النصب أيضا اذا كان نكرة وقد روى بالاوجه الثلاثة قول امرىء القيس * ولا سيما يوم بدارة جلجل * وأرجحها الجر وهو على الاضافة وما زائدة بين المضاف والمضاف اليه مثلها في :أيمارجلين،والرفع على أنه خبر لمضمر محذوف وما موصولة أو نكرة موصوفة بالجملة والتقدير ولامثل الذى هوأو ولا مثل شىء هو يوم ، وعلى الوجهين فتحة سى اعراب لأنه مضاف•والنصب على التمييز كما يقع التمييز بعد مثل فى مثل (ولو جئنا بمثله مددا) وما كافة عن الاضافة وفتحة سى فتحة بناء مثلها فى ، لا رجل ،وأماانتصاب المعرفة نحو ولا سيما زيدا فمنعه الجمهور ،وتشديد سيما ودخول لا عليها ودخول الواو على لا واجب عند قوم حتى قال ثعلب من استعمل لا سيما على خلاف ماجاء فى قوله : ولا سيما يوم ـ فهو مخطىء ـ وذكر غيره انها قدتخفف وقد تحذف الواو كقوله :

فه بالعقود وبالايمان لا سيما عقد وفاء به من أعظم القرب

وهى عند الفارسى منصوبة على الحال وعندغيره اسم للا التبرئة واختاره بعضهم

الامام ((احمد)) ابن محمد بن حنبل الشيبانى سيدنا وامامنا وقدوتنا ومتبوعنا والواسطة بيننا وبين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم الامامالشهير والامة العلم المنير صاحب المسند والتفسير والزهد وغيرها رضى الله عنه وتقدمت ترجمته فى صدر الكتاب والله أعلم ((و)) الامام الاعظم والحبر المعظم أبى حنيفة ((النعمان)) بالجر عطف على ماقبله على المختار الاكثر ويصح الرفع فيهما كما أشرنا أولا على الاشهر وأبو حنيفة النعمان بن ثابت الكوفى امام أهل العراق وفقيههم بالاتفاق وامام أصحاب الرأى قال الحافظ جلال الدين السيوطى فى طبقات الحفاظ قيل انه من أبناء فارس وهو من التابعين فانه رأى أنس بن مالك وأبا الطفيل رضى الله عنهما وروى عن حماد بن أبى سليمان وعطاء وعاصم بن أبى النجود والزهرى وقتادة وخلق،

وعنه ابنه حماد ووكيع وعبد الرزاق وأبو يوسف القاضي ومحمد بن الحسن وهما الصاحبان اذا أطلقا عند الحنفية ، قال الامام يحيى بن معين : كان أبو حنيفة ثقة لا يحدث بما لا يحفظ ، وقال الامام عبد الله بن المبارك ما رأيت فى الفقه مثله ، وقال مكى بن ابراهيم كان أعلم أهل زمانه وما رأيت فى الكوفيين أورع منه ، وقال الامام الشافعى الناس فى الفقه عيال على أبى حنيفة ، وسئل يزيد بن هارون أيهما أفقه أبو حنيفة او سفيان ؟ فقال : سفيان أحفظ للحديث وأبو حنيفة أفقه . أكره أبو حنيفة رضى الله عنه على القضاء فأبى أن يكون قاضيا وكان يحيى الليل صلاة ودعاء وتضرعا ولد رضى الله عنه سنة ثمانين ومات سنة مائة وخمسين وقيل سنة احدى وقيل ثلاث وخمسين والاول أصح

((و)) الامام أبى عبد الله ((مالك)) بالجر والتنوين هو الامام الكبير والنجم المنير والعلم الشهير أبو عبد الله مالك بن انس بن مالك بن أبى عامر بن عمرو بن الحارث الاصبحى الحميرى المدنى شيخ الائمة وامام دار الهجرة روى عن جماعة من التابعين نافع ومحمد بن المنكدر وجعفر الصادق وحميد الطويل وغيرهم وعنه الامام الشافعى وخلق جمعهم الخطيب فى مجلد ، قال الامام على بن المدينى : لمالك نحو ألف حديث ، وقال الامام ابن الامام عبد الله بن الامام احمد رضى الله عنه قلت لأبى من أثبت أصحاب الزهرى ؟ قال : مالك أثبت فى كل شىء ، وقال الامام البخارى رضى الله عنه أصح الاسانيد مالك عن نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما ، وقال الامام الشافعى رضى الله عنه : اذا جاء الاثر فمالك النجم ، وعند الامام احمد سالم بن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أصح الاسانيد (١) قال ابن خلكان أخذ عن الامام مالك الاوزاعى ويحيى بن سعيد وغيرهما ونودى فى المدينة الا لا يفتى الناس الا مالك بن انس وابن أبى ذئب . مات فى المدينة سنة تسع وسبعين ومائة وهو ابن تسعين سنة رضى الله عنه ودفن فى البقيع وكان شديد البياض الى الشقرة طويلا عظيم الهامة اصلع يلبس

(١) كذا فى الاصل والمأثور عن احمد : أصح الطرق الزهرى عن سالم عن أبيه

الثياب العدنية الجياد ويكره حلق الشارب ويعيبه ويراه من المثلة رحمه الله ورضى عنه

والامام ابي عبد الله ((محمد)) معطوف على من قبله سقط حرف العطف لاقامة الوزن فهو محمد بن ادريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف المطلبى الشافعى رضى الله عنه يجتمع نسبه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عبد مناف المذكور وقوله ((الصنوان)) أى القرابة للنبى صلى الله عليه وسلم يقال للنخلتين فما زادفى الاصل الواحد كل واحد منهما صنو ويضم وركيتان صنوان متجاورتان أو ينبعان من عين واحدة وفىحديث العباس رضى الله عنه « فان عم الرجل صنوابيه » وفى رواية « العباس صنو ابى » وفى رواية « صنوى »يريد صلى الله عليه وسلم أن أصل العباس وأصلى واحد وفى نسخة بدل الصنوان : المتقان ، من الاتقان لاتقانه للعلوم واحكامه للمنطوق منها والمفهوم فهو امام الامة وقدوة الائمة ولد بغزة هاشم سنة خمسين ومائة وحمل الى مكة المشرفة وهو ابن سنتين وقيل ولد بعسقلان وقيل باليمن سنة أربع وخمسين وقيل سنة اثنتين كذا فى طبقات الحفاظ للجلال السيوطى وشرح ألفية الحديث للمصنف ، وفى طبقات الحفاظ أيضا ولد ببلاد غزة سنة خمسين ومائة وحمل الى مكة وهو ابن سنتين فنشأ بها وكان رضى الله عنه جم المفاخر منقطع النظير اجتمعت فيه من العلوم بكتاب الله تعالى وسنة رسوله وكلام الصحابة رضى الله عنهم وآثارهم واختلاف أقاويل العلماء وغير ذلك من معرفة كلام العرب واللغة العربية والشعر حتى قرأ عليه الاصمعى مع اشتهاره بهذا الشأن اشعار الهذليين ـ مالم يجتمع فى غيره حتى قال الامام احمد رضى الله عنه : عرفنا ناسخ الحديث ومنسوخه لما جالسنا الشافعى ، وقال عبد الله بن الامام احمد قلت لأبى أى رجل كان الشافعى؟ فانى سمعتك تكثر من الدعاء له ، فقال : يا بنى كان الشافعى كالشمس للدنيا وكالعافية للبدن ، هل لذين من خلف أو عنهما من عوض ؟ كذا فى وفيات الاعيان لابن خلكان • قال السيوطى فى طبقات الحفاظ روى

الشافعي عن عمه محمد بن على وأبى أسامة وسعيد بن سالم القداح وسفيان ابن عيينة والامام مالك واسماعيل بن علية وابن أبى فديك وخلق ، وعنه ابنه أبو عثمان محمد والامام احمد وأبو ثور وأبو عبيد القاسم بن سلام وأبو طاهر بن السرح وحرملة بن يحيى والحسن بن محمد الزعفرانى والربيع بن سليمان الجيزى وأبو الوليد المكى وأبو يعقوب البويطى ويونس ابن عبد الاعلى وخلق كثير • قال ابن عبد الحكم لما حملت أم الشافعي به رأت كأن المشترى خرج من فرجها حتى انقض بمصر ثم وقع فى كل بلد منه شظية فتأوله أصحاب الرؤيا أنه يخرج عالم يخص علمه أهل مصر ثم ينتشر فى سائر البلدان • وقال الامام احمد ان الله تعالى يقيض للناس فى رأس كل مائة سنة من يعلمهم السنة وينفى عن رسول الله الكذب فنظرنا فاذا فى رأس المائة عمر بن عبد العزيز وفى رأس المائتين الشافعي رضى الله عنه • قال الشافعي رضى الله عنه حفظت القرآن وأنا ابن سبع سنين وحفظت الموطأ وأنا ابن عشر • وقال الربيع بن سليمان كان الشافعي يفتى وله خمس عشرة سنة وكان يحيى الليل الى أن مات • وقال أبو ثور كتب عبد الرحمن بن مهدى الى الشافعي وهو شاب أن يضع له كتابا فيه معانى القرآن ويجمع قبول الاخبار فيه وحجة الاجماع وبيان الناسخ والمنسوخ من القرآن والسنة فوضع له كتاب الرسالة • قال ابن مهدى : ما أصلى صلاة الا وأنا أدعو للشافعي فيها • وقال هرون بن سعيد الايلى لو أن الشافعي ناظر على هذا العمود الذى من حجارة أنه من خشب لغلب لاقتداره على المناظرة • وكان الحميدى يقول حدثنا سيد الفقهاء • توفى رحمه الله ورضى عنه فى شهر رجب سنة أربع ومائتين • وقال ابن خلكان أنه توفى آخر يوم من رجب ودفن بعد العصر من يومه بالقرافة الصغرى وقبره مشهور يزار ويتبرك به وأجمع العلماء قاطبة على ثقته وامامته وعدالته وزهده وورعه ونزاهة عرضه وعفة نفسه وحسن سيرته وعلو قدره وسخائه رضى الله عنه ، وكان الشافعي قد قدم بغداد سنة خمس وتسعين ومائة فأقام بها شهرا ثم خرج الى مصر وكان وصوله اليها سنة تسع وتسعين ومائة قاله ابن خلكان والله أعلم • ثم أشار الى أنه يجب على كل واحد

من هذه الملة ممن له عمل وتقوى أن يقلد واحدا من هؤلاء الاربعة على الاصح الاقوى فقال

التقليد

((من لازم لكل أرباب العمل تقليد حبر منهم فاسمع تخل))

((من)) أى الذين هم فهو مبتدا خبره فرض ((لازم)) لا انفكاك عنه ولا مندوحة منه ((لكل)) واحد مكلف من ((أرباب)) أصحاب((العمل)) الصالح والكد الناجح ممن ليس فيه أهلية الاجتهاد المطلق ((تقليد حبر منهم)) أى من الائمة الاربعة المعلومة مذاهبهم المضبوطة أقوالهم المحفوظة رواياتهم المدونة مذاهبهم فى كل مصر وعصر الواصلة بالتواتر بشروطها وأركانها وموانعها واتقانها بحيث لا يتأتى لاحد أن ينسب لمذهب منها ما ليس منه بل آحاد طلبة العلم يرد عليه ويعيبه ويقول هذا ليس فى هذا المذهب حتى انهم يعرفون المشهور من أقوال المذهب والمهجور وان كان الدليل المأثور مع القول المهجور ، والحبر بفتح الحاء المهملة وكسرها وسكون الموحدة لعالم المتقن وكان يقال لابن عباس رضى الله عنهما الحبر والبحر لعلمه وسعته وتسمى سورة المائدة سورة الاحبار لقوله تعالى (يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والاحبار) والتقليد لغة وضع الشىء فى العنق محيطا به وذلك الشىء يسمى قلادة وجمعها قلائد ، وعرفا أخذ مذهب الغير مع اعتقاد صحته واتباعه عليه بلا معرفة دليله فالرجوع الى قول النبى صلى الله عليه وسلم والى المفتى والى الاجماع ورجوع القاضى الى العدول ليس بتقليد ولو سمى ذلك تقليدا لساغ ، وفى المقنع المشهور ان أخذه بقول المفتى تقليد وهو أظهر ، وقدمه النجم ابن حمدان فى آداب المفتى ، وقال شيخ الاسلام فى المسودة : والتقليد قبول القول بغير دليل فليس المصير الى الاجماع تقليدا لان الاجماع دليل،ولذلك يقبل قول النبى صلى الله عليه وسلم ولا يقال تقليد بخلاف فتيا الفقيه ، وذكر فى ضمن مسألة التقليد أن الرجوع الى قول الصحابى ليس بتقليد لانه حجة ، وقد قال الامام احمد فى رواية أبى الحارث من قلدالخبر رجوت أن يسلم ان شاء الله تعالى .فأطلق اسم التقليد على من صار الى الخبر وان كان حجة فى نفسه (تنبيه) انما قال لكل أرباب العمل ليحترز به عن التقليد

فى عقائد التوحيد من معرفة الله تعالى ونعوت ذاته وصفاته والرسالة وكذا فى أركان الاسلام الخمس ونحوها مما تواتر واشتهر ذكره علماؤنا ونقل الاجماع فى ذلك غير واحد منهم أبو الخطاب الكلوذانى وأبو الوفاء بن عقيل لتساوى الناس فيما لا يسوغ فيه اجتهاد ، وتقدم الكلام عليه فى آخر الباب الاول مطولا والله أعلم • قال الامام موفق الدين فى الروضة :وأما التقليد فى الفروع فهو جائز اجماعا ، قال وذهب بعض القدرية الى أن العامة يلزمهم النظر فى الدليل ، واستدل لجواز التقليد بقوله تعالى (فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون) وهو عام لتكرره بتكرر الشرط وعلة الامر بالسؤال الجهل ، وأيضا الاجماع فان العوام يقلدون العلماء من غير ابداء مستند من غير نكير ، وأيضا عدم القول بذلك يؤدى الى خراب الدنيا بترك المعاش والصنائع ولا يلزم مثله فى التوحيد والرسالة لتيسره وقلته ودليل العقل والنقل ، ولذا قال الامام مالك يجب على العوام تقليد المجتهدين فى الاحكام كما يجب على المجتهدين الاجتهاد فى أعيان الادلة خلافاللمعتزلة البغدادية فانهم وافقوا القدرية فى ايجابهم على العوام الاجتهاد واحتجوا بقوله تعالى (فاتقوا الله ما استطعتم) ومن الاستطاعة ترك التقليد ولان العامى متمكن من كثير من وجوه النظر فوجب أن لا يجوز له تركها قياسا على المجتهد ، ولنا أن الخطأ متعين وبلوغ الصواب متعسر بل متعذر فى حق العوام اذا انفردوا بمعرفة الاحكام لانهم لا يعرفون الناسخ والمنسوخ ولا المخصص ولا المقيد ولا كثيرا مما يتوقف عليه دلالة الالفاظ ولا يضبطونه ولا يسوغ لهم مخالفته لفرط الغرر فيه فهم لا يستطيعون الوصول اليه وقد توسط أبو على الجبائى أحد أئمة المعتزلة فقال شعائر الاسلام الظاهرة لا تحتاج لنصب الاجتهاد فلا حاجة الى التقليد فيها كالصلوات الخمس وصوم رمضان ونحو ذلك وأما الامور الخفية من المجتهد فيه فيتعين التقليد فيها بالضرورة ولا نزاع فى ذلك لان تحصيل الحاصل محال ولا سيما والتقليد انما يفيد الظن وهو دون الضرورة بكثير ومالم ننته الى حد الضرورة يتعين التقليد فيه لحاجة النظر الى آلات مفقودة فى العامى

تنبيهات
الاول التزام مذهب معين

(تنبيهات)

(أحدها) منع قوم وجوب لزوم مذهب معين قال شيخ الاسلام ابن تيمية في الفتاوى المصرية : تنازع المتأخرون من أصحاب الامام احمد والامام الشافعي وغيرهما هل على العامى أن يلتزم مذهبا واحدا بعينه من مذاهب الائمة المشهورين بحيث يأخذ بعزائمه ورخصه على قرلين ، قال والمشهور أنه لا يجب كما أنه ليس له أن يقلد في كل مسألة من يوافق غرضه وليس له أن يقلد في المسألة الواحدة اذا كان الحق له من لا يقلده اذا كان الحق عليه بل عليه باتفاق الائمة أن يعدل بين نفسه وغيره في الاقوال فاذا اعتقد وجوب شيء أو تحريمه اعتقد ذلك عليه وعلى من بمائله كشفعة الجوار فليس له ثبوت الشفعة اذا كان هو الطالب وانتفاؤها اذا كان هو المطلوب كما يفعله أهل الهوى متابعة للهوى لا مراعاة للتقوى • وقال في مواضع أخرى : التمذهب بمذهب بحيث يأخذ برخصه وعزائمه طاعة غيرالنبي صلى الله عليه وسلم في كل أمره ونهيه وهو خلاف الاجماع • وتوقف أيضا في جواز ذلك فضلا عن وجوبه وقال ان خالفه لقوة الدليل أو زيادة علم أو تقوى فقد أحسن ولم يقدح ذلك في عدالته بلا نزاع •وقال: بل يجب في هذه الحال له وأنه نص الامام • وكذا قال القدوري الحنفي : ماظنه أقوى فعليه تقليده فيه وله الافتاء به حاكيا مذهب من قلده •وقال صدر الوزراء عون الدين أبو المظفر ابن هبيرة انه من مكايد الشيطان أن يقيم أوثانا في المعنى تعبد من دون الله مثل أن يتبين له الحق فيقول هذا ليس بمذهبنا تقليدا لمعظم عنده قد قدمه على الحق • وقال أبو محمد بن حزم أجمعوا على أنه لا يحل للحاكم ولا المفتي تقليد رجل فلا يحكم ولا يفتي الا بقوله • انتهى • والاشهر الآن عليه أن يتمذهب بمذهب ، قال ابن حمدان في الرعاية : هذا الاشهر فلا يقلد غير أهله • وقال في آداب المفتي : يجتهد في أصح المذاهب فيتبعه ، وقطع الكبار بلزوم التمذهب بمذهب قال الامام النووي : هذا كلام الاصحاب ، والذي يقتضيه الدليل أنه لا يلزمه • انتهى •

الثاني : اذا لزم فماحكم الانتقال

(الثاني) اذا قلنا يلزمه أن يتمذهب بمذهب يجوز له الانتقال عن المذهب الذي تمذهب به وعمل به عند الاكثر فيتخير في الصورتين واختار

الآمدى منع الانتقال فيما عمل به ، وتقدم كلام شيخ الاسلام أنه اذا خالفه لقوة دليل أو زيادة علم أو تقوى فقد أحسن ولم يقدح فى عدالته بلا نزاع، والحاصل أن للعلماء فى ذلك ثلاثة أقوال الاول امتناع الانتقال عنه مطلقا لالتزامه اياه ، الثانى له الانتقال عنه مطلقا والتزام ما لا يلزم غير لازم ، والثالث التفصيل وهو ان كان عمل بمقتضى ذلك المذهب الذى تمذهب به وصلى وصام وزكى ونحو ذلك على حسبه غير ملتفت لغيره لزمه الوقوف عليه وامتنع عليه الانتقال عنه وصوب ذلك بعض العلماء وجزم به غير واحد[1] .

الثالث : تتبع الرخص

(الثالث) يحرم على العامى الذى ليس بمجتهد تتبع الرخص فى التقليد ولو قلنا بجواز الانتقال وهو أنه كلما وجد رخصة فى مذهب عمل بها ولا يعمل بغيرها فى ذلك المذهب ، قال علماؤنا ويفسق بذلك لانه لا يقول باباحة جميع الرخص أحد من علماء المسلمين فان من قال بالرخص فى مذهب لا يقول بالرخصة الاخرى فى غيره . قال الامام ابن عبد البر : لا يجوز للعامى تتبع الرخص اجماعا . وقال الامام احمد رضى الله عنه لو أن رجلا عمل بكل رخصة يعمل بمذهب أهل الكوفة فى النبيذ وأهل المدينة فى السماع وأهل مكة فى المتعة لكان فاسقا . وقال معمر لو أن رجلا أخذ بقول أهل المدينة فى السماع يعنى الغناء واتيان النساء فى أدبارهن وبقول أهل مكة فى المتعة والصرف وبقول أهل الكوفة فى المسكر كان أشر عباد الله تعالى . وقال سليمان التيمى لو أخذت برخصة كل عالم أو قال زلة كل عالم اجتمع فيك الشر كله . لكن قال القاضى أبو يعلى بن الفراء امام المذهب بعد ذكر كلام الامام أحمد رضى الله عنه المتقدم آنفا : هذا محمول على أحد الوجهين اما أن يكون من أهل الاجتهاد ولم يؤده اجتهاده الى الرخص فهذا فاسق لأنه ترك ما هو الحكم عنده واتبع الباطل ، او يكون عاميا فأقدم على الرخص من غير تقليد فهذا أيضا فاسق لانه أخل بفرضه وهو التقليد ، قال واما ان كان عاميا وقلد فى ذلك لم يفسق لانه قلد من يسوغ اجتهاده . ونظر فيه الجراعى فى حواشيه على أصول ابن

(١) قد ألف فى هذه المسألة عدة رسائل ولابن القيم فى اعلام الموقعين فيها كلام معروف

اللحام . قلت وهو الحق ، وقد نقل جمع محققون انما يجـــوز تقليد المذاهب فى النوازل والانتقال من مذهب الى مذهب فى بعض المسائل بثلاثة شروط (الاول) ان لا يجمع بين المذهبين مثلا على صفة تخالف الاجماع كمن تزوج بغير صداق ولا ولى ولا شهود فان هذه الصورة لم يقل بها أحد ، قلت أي تزوج بلا ولى مقلدا لأبى حنيفة وبلا شهود مقلدا لمالك فهذا لم يقل به أحدهما ولا غيرهما وهو ذريعة للزنا فهذا لا نزاع فى رده (الثانى) ان يعتقد فيمن يقلده الفضل ولو بوصول خبره اليه (الثالث) أن لا يتتبع رخص المذاهب

الرابع تقليد المفضول

(الرابع) للعامى أن يقلد المفضول مع وجود الفاضل من المجتهدين عند أكثر علمائنا منهم القاضى وأبو الخطاب والامام الموفق فى روضته وقاله الحنفية والمالكية وأكثر الشافعية ، وقيل يصح ان اعتقده فاضلا أو مساويا لا ان اعتقده مفضولا لانه ليس من القواعد أن يعدل عن الراجـــح الى المرجوح ، وقال الامام ابن عقيل وابن سريج والقفال والسمعانى يلزمــه الاجتهاد فيقدم الارجح ، (وفى) معناه قول ابى القاسم الخرقى والامام الموفق في المقنع ، وللامام أحمد رضى الله عنه روايتان ، واستدل للاول بأن المفضول من أصحابه صلى الله عليه وسلم ومن السلف كان يفتى معوجود الفاضل مع الاشتهار والتكرار ولم ينكر ذلك أحد فكان اجماعا على جواز استفتائه مع القدرة على استفتاء الافاضل وبظاهر قوله تعالى (فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون) وأيضا العامى لا يمكنه الترجيح لقصوره ولو كلف بذلك لكان تكليفه بضرب من الاجتهاد وان زيف ابن الحاجب ذلك زاعما أن الترجيح يظهر بالتسامع ورجوع العلماء اليه وغيره لكثرة المستفتين وتقديم العلماء له . انتهى . لكثرة جهات التفضيل كما سبق وايجاد أشياء فى المفضول ببعضها ما يفضل الفاضل والله أعلم قوله ((فاسمع تخل)) أى فاسمع نظامى وما أشرت اليه من لزوم كل مكلف لم يبلغ رتبةاستخراج الاحكام من معادنها ولا استنباط الادلة من مكانها التقليد والاقتداء بأحد أئمة الهدى ومصابيح الدجا وقوله تخل أى تظن وتعلم ذلك لان الانسان قبل سماعه يكون خالى الذهن فاذا سمع الكلام وتأمل ما فيه من الاحكام علم أو ظن لزوم ذلك على ذوى الافهام وأصله مثل يقوله الرجل اذا بلغه شيء

من رجل فاتهمه وقيل معناه أنه من يسمع أخبار الناس ومناقبهم ومثالبهم يقع فى نفسه أثر ذلك من خير أو شر ولفظ المثل « من يسمع يخل » أى من يسمع له خير يحدث له ظن فحذف المفعولين اقتصارا لافادة تجدد الفعل أو حدوثه

((ومن نحا لسبلهم من الورى ما دارت الافلاك أو نجم سرى))

((و)) رحمة الله تعالى مع البر والاحسان والعفو والغفران تهدى لـ((من)) أى انسان أو الذى ((نحا)) أى قصد متبعا ((لسبلهم)) ككتب جمع سبيل وهو الطريق الواضح كما أنه خص الائمة الاربعة بعد عموم الائمة دعا لمن اتبعهم أو اتبع واحدا منهم ((من)) سائر ((الورى)) كفتى الخلق ((مادارت)) أى مدة دوران ((الافلاك)) جمع فلك بفتح الفاء واللام مدار النجوم ويجمع أيضا على فلك بضمتين ومن كل شىء مستداره ومعظمه والمراد الاول ((أو نجم سرى)) أى وتهدى لهم ولمتبوعهم الرحمة والرضوان والبر والاحسان والانعام مدة دوام سرى النجوم على الدوام وسرى كهدى سير عامة الليل والنجم الكوكب وجمعه أنجم وأنجام ونجوم ونجم ، والنجم من النبات ما نجم على غير ساق والثريا والوقت المضروب والمراد الاول

((هدية منى لأرباب السلف مجانبا للخوض من أهل الخلف))

((خذها هديت واقتفى نظامى تفز بما أملت والسلام))

ولما كان نظم هذه العقيدة بسؤال بعض أصحابنا النجديين وأنها على مانحاه السلف من الاثريين قال عند تمام انجاح السؤال هذه العقيدة الاثرية المفيدة ((هدية)) مهداة وعطية مؤداة ((منى)) بعون الله وتوفيق من لاينبغى الرشد من سواه ((لارباب)) جمع رب بمعنى صاحب طريقة ((السلف)) وعقيدة أهل الاثر ممن درج على الحق وسلف حال كونى ((مجانبا)) فى أصل نظمى لها وتضمينى اياها أقوال السلف وعقائد أهل الآثار ((للخوض)) فى التأويل والتعمق فى صرف آيات التنزيل عن مقتضاها الثابت ومعناها الظاهر المؤيد بالسنة السنية والاحاديث النبوية والاخبار السلفة والآثار الاثرية الى غير محاملها من غير دليل نبوى ولا اذن شرعى مما هو دأب المتنطعين ((من أهل)) مذهب ((الخلف * خذها)) أى هذه العقيدة ((هديت)) بضم

الهاء وكسر الدال المهملة على صيغة مالم يسم فاعله أى هداك الله أيهاالأثرى والمتبع فى اعتقادى أثرى ((واقتفى)) أى اتبع ((نظامى)) فى هذهالعقيدة السلفية التى هى بأمهات مسائل عقائد السلف وفية فانك ان فعلت ((تفز)) أى تظفر ((بما)) أى بالذى ((أملت)) من نيل الفلاح ودرك النجاح قال فى القاموس الفوز النجاح والظفر . بالخير والامل الرجاء يقال أمله أملا وأمله تأميلا رجاه ((و)) تظفر أيضا بـ ((السلام)) اى الامان من التخليط الجدلى والتخبيط الكلامى وما ينشأ عن ذلك من حزازات الصدوروووساويس الافكار وتصعب الامور ، ومعنى السلام لغة الامان ، قال العلماء السلام من أسماء الله تعالى فمعنى السلام عليك اسم الله عليك وسلم الله عليك . وقال العلامة أبو بكر بن أبى داود فى التحفة فى معنى اسمه تعالى السلامقيل معناه ذو السلامة من كل عيب ونقيصة فيكون من أسماء التنزيه وقيل مالك تسليم العباد من المهالك فيرجع الى القدرة ذو السلام على المؤمنين فيالجنان فيرجع الى الكلام القديم الازلى(١)قالتعالى(سلام قوم من رب حيم) قال وحظ العبد من هذا الاسم أن يسلم من الغش والحقد والحسد ومن كل رذيلة

وهذا آخر ما قصدت ايراده على منظومتى المسماة بالدرة المضية فى عقد أهل الفرقة المرضية ، وأنا أتوسل اليه تعالى بلسان الافتقار وأتذلل اليه بجنان الذل والاحتقار وأتضرع بجوارح العجز والانكسار وأتشفع بحرمة النبى المختار (٢) وآله الاطهار وأصحابه الاخيار وأصهاره الابرار وسائر المهاجرين والانصار وبجميع الانبياء والمرسلين وبالملائكة المقربينوبالعلماء العاملين وأهل المعرفة والمتقين أن يجعل هذا الشرح خالصا لوجهه الكريم وسببا للفوز لديه فى جنات النعيم وأن ينظر الى والى من كتبه وقرأه وأقرأه بعين العناية ، وأن يحفظنى وأهل بيتى واخوانى من كل ضلالة وغواية ، وأن ينفع به من كتبه وقرأه وفهمه ووعاه انه جواد كريم رؤوف رحيم وصلى الله على سيدنا محمد سيد المرسلين وآله وصحبه وأمته الغـــر المحجلين وكافة من دعا لنا بخير يا رب العالمين

(١) راجع مبحث القرآن(٢)الذى حققه شيخ الا سلام ابن تيمية وغيره من أئمة السنة المنع من هذا الضرب من التوسل .

خاتمة الطبع

قد تم بحمد الله تعالى طبع الجزء الثانى من كتاب لوامع الانوار البهية وسواطع الاسرار الاثرية لشرح الدرر المضية فى عقد الفرقة المرضيـــة كلاهماللشيخ العلامة محمد بن احمد السفارينى وبتمامه تم الكتاب والحمد لله رب العالمين •

فهرس الجزء الثانى

فهرس الجزء الثانى من كتاب لوامع الانوار البهية وســـواطع الاسرار الاثرية لشرح الدرة المضية فى عقد الفرقة المرضية

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صواب اخطاء الطبع فى الجزء الثانى من شرح الدرة المضية للسفارينى

صفحة	سطر	فى المطبوع	الصواب
٩	١٥	يقتنون	يفتنون
٣٤	٢١	خلقه من	خلقه فى
٣٥	٢١	اسن	ابن
٤٨	١٩	الفيم	القيم
٥١	١٤	بحضرموت موت	بحضرموت
٥٢	٢٢	ارض الدنيا	ارض بين الدنيا
٥٣	الاخير	السه ل	السفل
٧٥	١٨	قطوانيتان	قطوانيتان
٧٦	٢٦	والفن	والفتن
٩١	٢٢	واصبغه	واسبغه
١٠٢	٢٦	علف	علم
١٠٦	٣	(٢)	•
١٠٦	٨	(١)	(٢)
١١٠	١٧	اهاب	اهلب
١١٧	١٢	الاشج	الاثبج
١٢٩	١	وداخن	ودواخن
١٦٠	١٨	ينقرون	ينظرون
١٦٠	١٩	المعدم	للعدم
١٦٣	٢٣	البعوى	البغوى
١٩٣	٢٤	وآحر	وآخر
١٧٢	حاشية	•	(١) تراجع الروايات
١٧٧	١٨	فريايت	فرايت
١٨١	٥	اقؤا	اقرءوا
١٨٦	١١	ي يطفا	يطفا
١٩٥	٢٣	الشراب	الشرب
١٩٨	١٠	البمان	اليمان
٢٠٠	الاخير	الشر	الشرب
٢٠٢	١٧	فمنكرة	فمنكره
٢٠٢	٢٤	يزن	زين
٢٠٤	١٣	النشفاعة	الشفاعة
٢٠٥	٥	الى الارض	الى اهل الارض
٢٠٥	٩	فتل	قتل
٢٠٥	٢١	الذهب	اذهب
٢٠٧	٩	نحو	نحن
	١٧	فتجعل	فتعجل
٢٠٩	١٣	بشع	يشفع
٢١٠	١	• ملثه	مثله
٢١١	٧	والنها	والنهار

صفحة	سطر	فى المطبوع	الصواب
٢١١	٢٢	ينفيه	بنفيه
٢١٧	عنوان	شيهة	شبهة
٢١٩	١٧	يخف	يقف
٢١٩	٢٢	الشرع	الشرع
٢٢٠	٤	يثب	يتب
٢٢٠	١٦	تراترت	تواترت
٢٢٠	١٨	لاهال	جهال
٢٢٢	٢	وبلغ	وبلع
٢٢٢	٣	الاثرون	الاكثرون
٢٢٢	٣	قول	قوم
٢٢٢	٢٦	ولو احق	ولواحق
٢٢٣	١٨	وهم	وهو
٢٢٣	٢١	وابن عبيد	وابى عبيد
٢٢٤	١٥	انبياه	انبياء
٢٢٤	١٩	عى	عل
٢٣٣	٤	الضحات	الضحاك
٢٣٦	٩	اخرج ان	اخرج ابن
٢٣٦	١٩	الاحبار	الاخبار
٢٣٨	٢ حاشية	ح رقم	ج١ رقم
٢٤٢	٢٢	انهم	انهم
٢٤٤	٦	تبارك .. بحديث	•
٢٤٥	١٨	الىهمية	الجهمية
٢٤٥	٢٤	حاجتهم	حجتهم
٢٤٨	٥	اىلية	الحلية
٢٥١	١٥	معمرة	معمر
٢٥١	٢٢	مطلقا	مطلقها
٢٥٢	٤	بمفؤاده	بفؤاده
٢٥٤	٣	منها	منهما
٢٥٥	٢	حافظ	الحافظ
٢٥٥	١١	القيه	ابن القيم
٢٥٧	٤	وهم	وهو
٢٥٩	١٩	اللى	للة
٣٦٠	الاخير	فاللاين	فالذين
٣٦٥	٨	فالى ... هرى	فالجوابيه حكاه الجوهرى
٢٩٩	الاخير	مكروها	مكروهها
٣٠٥	١١	مقمة	لقمة
٣٣١	٥	هو	وهو
٣٣٢	١٤	سواد	سودان
٣٤٤	٦	هم	وهم
٣٩٨	٥ حاشية	سالنه	وسالنه